شرح الرسالة القشيرية

المسمى

الدلالة على فوائد الرسالة

أقدم شروح الرسالة القشيرية وأوسعها، ومعتمد شراحها

للإمام الفقيه الصوفي

أبي محمد عبد المعطي بن محمود اللخمي الإسكندري المالكي

(ت ٦٣٨هـ)

دراسة وتحقيق

د. أحمد رجب أبو سالم

مركز تحقيق النصوص بجامعة الأزهر الشريف

مراجعة وتقديم

أ. د. عبد الرحمن محمد المراكبي

أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر الشريف

تقديم

أ. د. إبراهيم صلاح الهدهد

مدير مركز تحقيق النصوص بجامعة الأزهر

أ. د. محمد حسين المحرصاوي

رئيس جامعة الأزهر ورئيس مجلس إدارة مركز تحقيق النصوص

الجزء الأول

علم لإحياء التراث
والخدمات الرقمية
لندن - مصر

دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت

شرح الرسالة القشيرية

المُسمَّى

الدلالة على فوائد الرسالة

١

دار الضياء للنشر والتوزيع
الكويت - حولي - شارع الحسن البصري
ص.ب ١٣٤٦ حولي
الرمز البريدي ٣٢٠١٤
تلفاكس ٠٠٩٦٥٢٢٦٥٨١٨٠
نقال ٠٠٩٦٥٥٠٤٠٩٩٢١

دار الضياء للنشر والتوزيع

علم لإحياء التراث والخدمات الرقمية

علم لإحياء التراث والخدمات الرقمية
جمهورية مصر العربية - القاهرة
التجمع الخامس- الحي الثالث- فيلا 152
الهاتف: 00201127999511
internetional library of manuscripts(ILM)
1155726

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

بلد الطباعة: بيروت - لبنان
التجليد الفني: شركة فؤاد البيبو للتجليد ش.م.م.
بيروت - لبنان

Dar_aldheyaa2@yahoo.com
Abdou20201@hotmail.com
www.daraldeyaa.net

رقم الإيداع المحلي: 2017/23123
رقم الإيداع الدولي: 3-5- 85365 -977-978
info@ilmarabia.com

الموزعون المعتمدون

دولة الكويت
دار الضياء للنشر والتوزيع - حولي تليفاكس: ٢٢٦٥٨١٨٠ نقال: ٥٠٤٠٩٩٢١

جمهورية مصر العربيَّة
محمول: ٠٠٢٠١٠٠٠٣٧٣٩٤٨
دار الأصالة للنشر والتوزيع - المنصورة محمول: ٠٠٢٠١٠٩٨٣٢٥٨٣٢

المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٣٢٩٣٣٢ - ٢٠٥١٥٠٠
مكتبة الرشد - الرياض
دار التدمرية للنشر والتوزيع - الرياض هاتف: ٤٩٢٥١٩٢ فاكس: ٤٩٣٧١٣٠
دار المنهاج للنشر والتوزيع - جدة هاتف: ٦٣١١٧١٠
مكتبة المتنبي - الدمام هاتف: ٨٣٤٤٩٤٦ فاكس: ٨٤٣٢٧٩٤

برمنكهام - بريطانيا
مكتبة سفينة النجاة هاتف: ٠٠٤٤٧٤٧٢٠٤٢٨٢٤ هاتف: ٠٠٤٤٧٤٩٥٠٧٤٠٢٥

المملكة المغربية
دار الرشاد الحديثة - الدار البيضاء هاتف: ٠٠٢١٢٥٢٢٢٧٤٨١٧

الجمهورية التركية
مكتبة الإرشاد - إسطنبول هاتف: ٠٢١٢٦٣٨١٦٣٣/٣٤ فاكس: ٠٢١٢٦٣٨١٧٠٠

جمهورية داغستان
مكتبة ضياء الإسلام هاتف: ٠٠٧٩٨٨٣٠٣١١١١ - ٠٠٧٩٨٨٧٧٣٠٣٠٦
مكتبة الشام - خاسافيورت هاتف: ٠٠٧٩٢٨٨٧٢٩٥٠٥ - ٠٠٧٩٢٨٨٦٦١٤٧٤

الجمهورية العربية السوريَّة
دار الفجر - دمشق - حلبوني هاتف: ٢٢٢٨٣١٦ فاكس: ٢٤٥٣١٩٣

الجمهورية السودانية
مكتبة الروضة الندية - الخرطوم - شارع المطار هاتف: ٠٠٢٤٩٩٩٠٠٤٣٥٧٩

المملكة الأردنية الهاشميَّة
دار محمد دنديس للنشر والتوزيع - عمان هاتف: ٠٦٤٦٥٣٣٩٠ - ٠٧٨٨٢٩١٣٣٢

دولة ليبيا
مكتبة الوحدة - طرابلس هاتف: ٠٩١٣٧٠٦٩٩٩ - ٠٢١٣٣٣٨٢٣٨
شارع عمرو ابن العاص

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تَقْدِيم

أ. د. مُحَمَّد حُسَيْن المحْرَصَاوِيّ

الحَمْدُ للهِ الذي رَفَعَ مقدارَ العُلَمَاءِ العَامِلِين، وألزمَنَا بطاعتهِم في سَائِرِ أُمُورِ الدِّين، وشَرَعَ لِمَن انتَمَىٰ لهم أَدَبًا يحسنُ للسَّالِكِين، ثُمَّ الصَّلاة والسَّلامُ علىٰ أَشْرَفِ المُرسلِين، وعلىٰ آله وأصحابهِ وأتبَاعِهِ وخاصَّةً الأولياءِ العارفين.

وبعدُ:

فإنَّ عِلْمَ التَّصوف من أَجِلِّ العلُومِ قَدرًا، وأعظمِهَا علىٰ النفوسِ أثرًا؛ بما يعكسُهُ عليها: من تبديلِ الأخلاقِ الذَّميمَةِ بالحميدَة، وتَزْكِيَة النَّفوس، وتَصْفِيَة القُلُوب، وتَجْلِيةِ الأَروَاح، وتعميرِ الظاهر والباطِن.

ولا عجبَ في ذلك؛ فهو لُبابُ الشَّريعَة، ومنهاجُ الطَّرِيقَة، ومنه تُشْرِقُ أنوارُ الحقيقة[١].

وقد أخرجَ مركز تحقيق النصوص بجامعة الأزهر بالأمس القريبِ لقرَّائهِ أثرًا نفيسًا في هذا البابِ؛ وهو: «كشف الغطاء عن حكم ابن عطاء، ومعه: الفتوحات الربانية في شرح الرسالة الرسلانية»، كلاهُما من تأليف العلامة: الخطيب الوزيري المصري (ت٨٩١هـ)، واليوم يُسعد قُرَّاءَهُ ويقدِّمُ لهم شَرحًا نفيسًا للرسالةِ القشيَّرية للإمام القشيري التي «هي أعظمُ كُتبِ السَّادة الصُّوفيَّة»[٢]، وهو شرحُ العلامة

(١) كما نص ابن عجيبة في: إيقاظ الهمم في شرح الحكم ص١٥.

(٢) نص علىٰ ذلك العلامة ابن حجر الهيتمي في: الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة=

الفقيه العارف بالله: عبد المعطي بن محمود اللخمي المالكي (ت ٦٣٨هـ)، الموسوم بـ(الدَّلالة على فوائدِ الرِّسالة)؛ وهو أقدَمُ شُرُوحِهَا، وأجلُّها على الأطلاق.

وبهذا تتفقُ رسالةُ هذا المركز المبارك ـ مركزِ تحقيق النصوص بالجامعة ـ مع رسالة الأزهر الشَّريف في إخراجِ نفائس التُّراث المُفيدَة لِطُلابِه وللعَامَّةِ؛ حيثُ إنَّ «الرسالة القشيرية» من الكتب المعتمدة في الأزهر الشَّريف[١].

ولا يَسعُنِي في الخِتَام إلا أنْ أُزْجِي خَالِصَ شُكْرِي وتقديري للفاضل **الدكتور/ أحمد رجب أبو سالم ـ عضو إدارة مركز تحقيق النصوص بالجامعة** على هذا الجهد المشكور في إخراج هذا السِّفر النفيس من كنوزِ التُّراث؛ فجزاهُ الله على ذلك خيرَ الجزاء، ووفقه وسدَّد خُطَاه لخدمة الإسلام والمسلمين.

أ.د. مُحَمَّد حُسَيْن المحْرَصَاوِيّ

رئيس جامعة الأزهر

ورئيس إدارة مركز تحقيق النصوص بجامعة الأزهر

١٠ رمضان ١٤٤٣هـ / ١١ إبريل ٢٠٢٢م

= النعمان ص١٠٦.

(١) ينظر: المناهج الأزهرية ص٣١٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

تَقْدِيم

أ. د. إبْرَاهِيم صَلَاح الهُدْهُد

الحمدُ للهِ مادحِ النُّفوس بالتَّزْكِيَة، وقادحِ النُّفوسِ بالتَّدسِيَة، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ سيدِنَا رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتيمةِ العقدِ الأنْفَس.

وبعدُ:

فإنَّ عنايةَ الإسلامِ متجهةٌ إلىٰ بناءِ القُلُوبِ والأرواح؛ إذِ النفوسُ حينما تكونُ كِبارًا تتعبُ في مُرادهَا الأجسامُ، ولقد صارَ بِنَا الحالُ منذ أزمان إلىٰ العنايةِ بالأشباحِ، غذاءً وقوامًا، وصحةً وعافيةً، وأغلفنَا الأرواحَ، والأممُ إذا اتجهَتْ عنايتها إلىٰ الأشباحِ، وأهملتِ العنايةَ بالأرواحِ كان هَلاكُهَا قَريبًا، وضَعْفُهَا شَديدًا، ومَنْ أَوَّلِ أَمرِ هذا الدِّين كانت العنايةُ الكبرىٰ بِبِنَاءِ قُلُوبِ الرِّجَال، وأرواحِهِم، وتزكيةِ نُفُوسِهِم، فلم يُؤثِّر فِي بلال حَرُّ مكةَ الشَّدِيد، ولا وضعُ الحَجَرِ العظيمِ عليه عَارِيًا فِي شِدَّة حَرِّ مكةَ ولظَاهَا، وإنما كانَ أكبرَ من مُعذِّبِيه، وأَقْوَىٰ مِن مُبْغِضِيه، فما قطعَهُ حَرُّ مكةَ والظمأُ الشَّديدُ عن ترديدِ قولِ: «أَحَدٌ أَحَدٌ»[(١)]، فكان تعذيبُهُ رِيَّهُ، وقوَّاه في الجهرِ بتوحيدِ اللهِ وسطَ مُعذِّبِيه، ذاكَ أنَّ نفسَهُ أكبرُ من مُعذِّبِيه، ومَا ضَرْبُ ابنِ مسعود من صناديد الكُفْر إلا مُقَوِّيًا له في الجَهْرِ بكلامٍ، كانوا رجَالا ببناءِ أرواحِهِم، وعمَارةِ قُلُوبِهِم، وإنْ ضَعُفَتْ أَشْبَاحُهُم.

إنَّ بِنَاءَ القلوبِ أشقُّ وأَكْدَىٰ من بِناءِ القَوالِبِ، ويومَ عَنِيَ المسلمون ببناءِ القَوالِب، صِرْنَا أضعفَ أُمَّةٍ، وأوهىٰ شَعْبٍ، فالفَلاحُ في بناءِ الأرواح؛ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٦٠.

رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٥]، لِهَذَا ولِغَيرِهِ عُنِي الصَّالِحُونَ من علماءِ الأمةِ بِنَهْجِ النَّبِيِّ وصَحْبِهِ الكِرَام فِي بِنَاءِ القُلُوبِ والأرواح، وكان نهجُ البِنَاء طريقةً عمليةً ماضيةً في الزَّمنِ الأَوَّلِ، إلىٰ أنْ تَبَدَّلَتِ الأَحْوَالُ، وتَغَيَّرَ الزَّمَانُ، فاحتاجَ النَّاسُ إلىٰ تصنيفِ مُؤلفاتٍ تكونُ منارَاتٍ هاديةً في الطريقِ المُوَصِّلِ إلىٰ الله، وعُرِفَ رجالٌ مربون إلىٰ طريق اللهِ مرشدون، وتعدَّدَتِ المَسَالِكُ والقصدُ واحدٌ، وكان تعددُ المسالكِ ضربةَ لازبٍ، تناسبًا مع اختلافِ النُّفوس.

وجَاءَتْ رسالةُ سيدي الإمامِ بُرهَان الدِّين القُشَيرِي، وحِكَم سيدِي ابنِ عطاءِ الله السَّكندَرِي، معالمَ كُبْرَىٰ في الطريقِ المُوصِّلِ إلىٰ الله، وتَولَّىٰ الرِّجَالُ علىٰ مَرِّ الزَّمَانِ شَرْحَهَا وبَيَانَهَا بِمَا يُلائِم الأَجْيَال، ويُوائِمُ الأزمَان، حتىٰ صارتِ الرِّسَالةُ مَتْنًا كَثُرَتْ حَوَاشِيه لِمَا اكتنَزَتْهُ من المَكَانِز، وبَقِي كتابُ: **(الدَّلالَة علىٰ فَوائدِ الرِّسَالَة)**، للإمَام سَديدِ الدِّين اللخْميّ لِستَّة قرونٍ ويزيد غيرَ منشورٍ في الناس نشرةً لائقة به حتىٰ وقعَ عليه المحقِّقُ الدَّائِبُ فِي التَّنْقِيبِ عن كُلِّ نفيسٍ **د/أحمد رجب سالم ـ عضو إدارة مركز تحقيق النصوص بالجامعة**، فأخرجهُ في أَبْهَىٰ حُلَّةٍ للعَالِمين؛ إذْ أحسنَ خِدْمتَهُ، وفَتَحَ مَغَاليقَهُ، وعَلَّقَ حَواشِيه، ليكونَ للعالمينَ نِبْرَاسًا، وللسَّالكينَ هَادِيًا، نفعَ اللهُ به وأحسنَ إليه؛ لِقَاءَ خِدْمَةِ هذا الكتاب وغيرِه.

واللهَ أسألُ أنْ يَنْفَعَ به قَارِئَه، والمرشد به في الطريق المُوصِّل إلىٰ معرفةِ ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله علىٰ سيدِنَا محمدٍ وعلىٰ آلهِ وصحبِهِ وأُمَّتِهِ.

وكتبه

أ. د. إبْرَاهِيم صَلَاح الهُدْهُد

الأستاذ في كلية اللغة العربية بالقاهرة
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
ومدير مركز جامعة الأزهر لتحقيق النصوص
ورئيس الجامعة سابقًا

١ رمضان ١٤٤٣هـ / ٢ إبريل ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أ. د. عبد الرَّحمٰن مُحمَّد المراكبي

الحمدُ لله الذي هدَىٰ أهلَ طاعته إلىٰ طريقِ مَحبَّتِه، وأنارَ قُلُوبَ أهلِ محبتِهِ بِنُورِ مَعْرفتِهِ، وخَصَّ أهلَ معرفتِهِ بالقُرْبِ مِن حَضْرَتِه.

وصلواتُ اللهِ وسَلامُهُ علىٰ صَفْوَتِهِ مِن خَلْقِه، وأَمِينِهِ علىٰ وَحْيِه، وحُجَّتِهِ علىٰ جميعِ خَلْقِه، وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ.

وبعدُ:

فإنَّ التَّصوفَ الإسلامِيَّ ـ علىٰ الحقيقةِ ـ هو ما نعرفُهُ عند سَلَفِ هذهِ الأمَّةِ وأئمتِهَا: عبارةٌ عن فَهْمٍ عميقٍ لحقائقِ الإسلامِ، واتباعٍ صادقٍ وأمينٍ لكتابِ اللهِ وسنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وتَذَوُّقٍ لحَلاوةِ الإيمانِ، وتَخلُّقٍ بأخلاقِ الإسلامِ، وإخلاصِ العبادةِ لله، وتوكُّلٍ علىٰ اللهِ دونَ تَواكُلٍ عليه، وزهدٍ في زخَارِفِ الحياةِ وزِينَتِهَا دونَ تحريمِ الطَّيِّبَاتِ، مَا أحلَّ اللهُ منها، وتصفيةٍ للنفسِ من كُدُوراتِ الحياةِ ومفاسدِ الدُّنيَا، وهو بذلكَ يُمَثِّلُ جَانبًا مُهمًّا من أخصبِ جَوانِب الحياة الرُّوحيَّة فِي الإسلام.

والصُّوفِيَّةُ ـ علىٰ الحَقِيقَةِ ـ هم صفوةٌ مُمتازَةٌ من النَّاس، تُقَدِّمُ للنَّاسِ بِصَادِقِ إيمَانِهَا، وإِخْلاصِهَا، وأَخْلاقِهَا، وسُلُوكِهَا، ووَرَعِهَا، وتَقْوَاهَا، وعِفَّتِهَا، وزُهْدِهَا، وَصَبْرِهَا، وجِهَادِهَا، مُثُلًا حَيَّةً ورائقَةً للتَّأَسِّي والاقتداءِ بِهَا.

إِلَّا أنَّ الدَّارِسَ للتَّصوفِ الإسلاميِّ، أو القارِئَ للكتبِ الصُّوفيَّة، أو المُرَاقِبَ

لِطُرُقِهِم ومذاهبِهِم وأَحْوَالِهِم يَرَىٰ نفسَهُ أمامَ أمشاجٍ مختلطةٍ من الإسلام ومن غَيْرِ الإسلامِ، كَذَلِكَ من المَذَاهِب والعقائد والفَلْسَفَات، وأمامَ مزيجٍ عجيبٍ من الآراءِ المختلفَةِ والأنظَارِ المُتَباعِدَة التي يُمَثِّلُ بعضها الإسلام، ولا يكادُ يخرجُ عمَّا جاءَ به القُرآن، ومَا أُثِرَ عن النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وبعضُهَا لا يكادُ يلتَقِي مَع هذينِ المصدرينِ الكَرِيمَينِ، مِمَّا يُوقعُ الدَّارِسَ أو القَارِئَ فِي حَيْرَةٍ ودَهْشَةٍ.

وما أُشكلَ أمرُهُ علىٰ النَّاسِ هو محاولةُ البعضِ التوفيقَ ـ أو بمعنًىٰ أَدَقَّ ـ محاولةُ التلفيقِ بين هذه الآراءِ والأنظارِ المُتَنَاقِضَة، ومحاولةُ إلحَاقِ ما ليسَ من الإسلام بالإسلامِ، وتأويلُ نصوصِ الإسلامِ وتَحْمِيلهَا مَا لا تَحْتَمِلُ من المَعَانِي؛ لتَّتفِقَ معَ ما هو دخيلٌ في الإسلامِ، أو ليتَّفِقَ مَعهَا ما هو دخيلٌ فِي الإسلامِ، ومِنْ ثَمَّ الخروجُ بالتَّصوفِ الصَّحِيحِ بعيداً عن نَصِّ الإسلامِ ورُوحِهِ، بَلْ بَعِيْداً كذلك عَنْ غَايتِهِ وحِكْمَتِه.

وهذا هو الذي دَعَا العلمَاءَ ـ فضلًا عن أنصافِ المتعلمِينَ والمُتَعالِمِينَ من الناس ـ إلىٰ الاختلافِ حَوْلَ التَّصوفِ الإسلامِيّ: هَلْ هو إسلامٌ؟ أو شَيءٌ دَخِيلٌ علىٰ الإسلامِ؟

والحقيقةُ: أنَّ الذَّينَ شَوَّهُوا صُورَةَ التَّصَوفِ الإسلاميِّ وأَعْتَمُوا إِشْرَاقَهُ هم هؤلاءِ الأدعياءُ فيه والمُغَالونَ به، الَّذِينَ لم يُحكِّمُوا شَرْعًا، ولم يُوثِّقُوا عقداً، ولم يَفقَهوا دِيناً، ولم يَتَّبِعُوا شَيْخًا يَهدِيهِم الطَّرِيقَ، بَلْ سَلَكُوا الطَّرِيقَ علىٰ جَهَالَةٍ به فَوَقَعُوا فِي حَبَائِلِ الشَّيطَان، وزَيَّنَ لهم الشَّيطانُ سُوءَ أعمَالِهم، فكان منهم ـ كما يقولُ أبو حامدٍ الغزاليّ (ت٥٠٥هـ)[1] ـ: «فرقةٌ ادَّعَتْ عِلْمَ المعرفَةِ، ومُشَاهَدَةَ الحقِّ، ومُجَاوزَةَ المَقَامَاتِ والأَحْوَال، والمُلازمَةَ في عينِ الشُّهُود، والوصُولَ إلىٰ

(١) إحياء علوم الدين ٣/٤٠٥ ـ بتصرف يسير.

القُرْبِ، وهم لا يعرفونَ هذه الأمورَ إلا بالألفاظِ فقط؛ لأنَّهُم تَلَقَّفُوا من ألفاظ الطَّامَات كَلِمَات، فَهُم يُرددونَها كأنَّهُم يتكلَمُون عن الوَحْي، ويدَّعُونَ أنَّهُم الوَاصِلُون إلىٰ الحَقِّ، وأنَّهُم من المُقَرَّبِينَ، وهم عندَ اللهِ من الفُجَّارِ المُنَافِقِين، وعندَ أربابِ القُلُوبِ مِن الحَمْقَىٰ الجَاهِلِين، لم يُحَكِّمُوا قَطُّ عِلْمًا، وَلَمْ يُهَذِّبُوا قَلْبًا، وَلَم يُرَتِّبُوا عَمَلًا، ولَمْ يُرَاقِبُوا قَلْبًا...

وفرقةٌ أخرَىٰ: وقعتْ في الإباحَةِ، وطَوروا بِسَاط الشَّرِيعَة، ورَفَضُوا الأحكامَ، وسَوّوا بينَ الحَلالِ والحَرَامِ، ويزعمونَ: أنَّ اللهَ مُسْتَغْنٍ عَنْ أعمالِهِم...

ومِنْهُم: مَنْ يَدَّعِي الوجدَ والحُبَّ للهِ، ويزعمُ أنَّهُ وَالِهٌ باللهِ، ولعلَّهُ قد تَخَيَّلَ فِي اللهِ خَيَالاتٍ هِي بِدْعَةٌ وكُفْرٌ، فيدَّعِي حُبَّ اللهِ قبلَ مَعْرِفَتِه، وهو لا يَخْلُو عَن مُفَارقَةِ مَا يَكْرَهُ، وعَنْ إيثارِ هَوىٰ نَفْسِه علىٰ أَمْرِ رَبِّه...

وَمِنْهُم: كَمَنْ يَرَىٰ كَوْكَبًا فِي مِرْآةٍ، أو فِي ماءٍ، فيظنُ أنَّ الكوكبَ فِي المِرآةِ أو فِي المَاءِ، وهو مَغْرورٌ، وأنواعُ الغُرُورِ فِي طريقِ السُّلوكِ إلىٰ اللهِ لا تُحْصَىٰ».

وقدَ أَسَاءَ بعضُ هؤلاءِ إلىٰ التَّصوفِ إساءَاتٍ بالغةً حين حَشَدُوا مُؤلفاتِهِم بالمُغَالطَاتِ والأساطيرِ العَجِيبة، والقَصَصِ المُلَفَّقَة، والشَّطَحَاتِ المُجَافِيَةِ للعَقْلِ والدِّينِ...

وهؤلاءِ ـ كما يقولُ العَلامَةُ ابنُ خلدُون (ت٨٠٨هـ)[١]: «من المتصوفةِ المتكلمين في الكشفِ وفيما وراءَ الحِسِّ تَوَغَّلُوا في ذلكَ؛ فذهبَ بعضُهُم إلىٰ الحُلُولِ والاتحَادِ والوحدَةِ، وملأوا الصُّحَفَ منه، كما نجدُ عند الهَرَوي الأنصارِي في كتَابِ (المقامات)، وابنِ عَرَبيّ، وابنِ سَبْعِينَ، وتلميذهما ابنُ العَفِيف، وابنُ الفَارِض، والنّجمُ الإسرائيلي فِي قَصَائدِهِم، وقد كانَ سَلَفُهم مُخَالطِينَ للإسماعيلية

(١) مقدمته ص٤٧٣.

المُتَأخرِين من الرَّافِضَة الدَّائِنِينَ بالحُلُول وإلَهية الأئمة.. فأُشربَ كُلُّ واحدٍ من الفريقينِ مذهبَ الآخرِ، واختلطَ كَلامُهُم، وَتَشَابَهَت عَقَائِدُهُم... وشَحَنُوا كُتُبَهُم بِمَا ليسَ لسلفِ المُتَصَوِّفَة كلامٌ فيه، وإنما هو مأخوذٌ من كلام الشِّيعَةِ الرَّافِضَة».

ولقد شهدَ الإمامُ أبو القاسم القُشَيرِي (ت٤٦٥هـ) ـ إمامُ الصّوفية وصاحِبُ (الرسالة القُشَيريَّة) ـ طَرَفًا من هؤلاء الأدعياء فِي التَّصوف، حتَّىٰ بثَّ لأهلِ الطَّرِيقِ شَكْوَاهُ بقولِه[1]: «لقدِ اندرسَتِ الطريقةُ بالحقيقةِ، ومضَىٰ الشيوخُ الذين كانَ بهم اهتداءٌ، وقلَّ الشَّبَابُ الذينَ كانَ لهم بسيرتِهِم وسُنَنِهِم اقتدَاءٌ، وزالَ الورعُ وطُوِيَ بِسَاطُهُ، واشتدَّ الطَّمَعُ وقَوِيَ ربَاطُهُ، فارتحلَ عن القلوبِ حُرْمَةُ الشَّرِيعَة، فعدُّوا قِلَّةَ المُبَالاةِ بالدين أوثقَ ذَرِيعَة، ورفَضُوا التَّمييزَ بينَ الحَلالِ والحَرَامِ، ودانُوا بتركِ الاحتِرَامِ، وطرحِ الاحتِشَام، واستَخَفُّوا بأدَاءِ العباداتِ، واستَهَانُوا بالصَّومِ والصَّلاةِ، وركضُوا في ميدَانِ الغَفَلات، ورَكَنُوا إلىٰ اتباعِ الشَّهَواتِ، وقلةِ المُبَالاةِ بتعَاطِي المحظورَاتِ... ثم رضوا بما تَعَاطَوهُ مِن سُوء الأفعالِ، حتَّىٰ أشَارُوا إلىٰ أعلىٰ الحقَائق والأَحْوَال، وادَّعَوا أنَّهُم تحَرَّرُوا مِن رقِّ الأغلال، وتحقَّقُوا بحقائقِ الوِصَالِ، وأنَّهُم قائمُونَ بالحقِّ تَجْرِي عليهم أحكَامُه، وهُمْ مَحْوٌ، وليسَ عليهِم فيما يأتونَهُ أو يَذَرونَه عتبٌ ولا لَوْمٌ، وأنَّهُم كُوشِفُوا بأسرَارِ الأحديَّة، واختُطِفُوا عنهم بالكُلِّيَة، وزالتْ عنهم أحكامُ البَشَرِيَّة، وبَقُوا بعدَ فَنَائِهِم عنهم بأَنْوَارِ الصَّمَدَانِيَّة، والقائلُ عنهُم غيرُهُم...» إلخ.

ومِنْ ثَمَّ قامَ الإمامُ القُشَيرِيُّ بتأليفِ رسالتِهِ، مُتَوجِّهًا بها إلىٰ جماعةِ الصُّوفيَّةِ ببلدَانِ الإسلامِ، محذِّرًا لهم من هؤلاءِ الأدعِيَاء، ومُبَيِّنًا لهم أنَّ هذه الطائفةَ (الصوفية) هم صفوةُ أولياءِ اللهِ من خلقِهِ، وأفضلُهُم بعدَ أنبيائِهِ ورسُلِهِ، وأنَّ اللهَ قد جعلَ قلوبَهُم معادِنَ أسرَارِه، واختَصَّهُم مِن بينِ الأمةِ بطوالعِ أنوارِه.

(١) الرسالة القشيرية ١/ ١٦ ـ ١٧.

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «اعلَمُوا ـ رحمكم اللهُ ـ أنَّ شُيوخَ هذه الطائفةِ قد بَنَوا قواعدَ أمرِهِم على أُصُولٍ صحيحةٍ في التَّوحيدِ؛ صَانُوا بِهَا عَقَائدَهُم عَنِ البِدَعِ، ودَانُوا بِمَا وَجَدُوا عليه السَّلف ـ (أهل السنة) ـ؛ مِنْ تَوحيدٍ ليسَ فيه تمثيلٌ ولا تعطيلٌ، وعرفُوا ما هو حقُّ القِدمِ، وتحقَّقُوا بما هو نعتُ الموجودِ عن العَدَمِ، وأحكمُوا أُصُولَ العقَائِدِ بواضحِ الدَلائل، ولائحِ الشَّواهِد».

ويقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن اللهِ ـ سبحانه ـ وتَنْزِيهِه:

- «لم يزلِ اللهُ وحدَهُ، ولا مكانَ، ولا زمانَ، ولا حَيِّزَ، ولا أوانَ، ولا قَدْرَ، ولا نَحْوَ، ولا غَيْرَ، ولا كُفْؤ، ثُمَّ خَلَقَ الخلقَ وأحدثَ العَالَم»[٢].

- «تعالىٰ عن أن يقال: كيف هو؟ أو أين هو؟»[٣].

والفَنَاءُ عند القشيريِّ مختلفٌ عنهُ عند غُلاة الصُّوفية، فهو[٤]: «سُقُوطُ الأوصافِ المذمومَةِ». والبقاءُ هو[٥]: «قيامُ الأوصافِ المَحمُودَة، فإذا اتصفَ الصُّوفِي بالخَيْرِ فَنِيَتْ عنهُ صِفَاتُ الشَّرِّ، وبقيتْ به صِفَاتُ الخَيْرِ».

ولم نَجِدْ عندَهُ: الاتحادَ، أو الحلولَ، أو الوحدةَ عبر الفَنَاءِ، كما نجدهُ عند الغُلَاةِ من الصّوفيَّة.

لقد كانَ القشيريُّ: من كبارِ العلماءِ فِي: الفقهِ، والتَّفسيرِ، والحَديثِ، والأصولِ، كما كان إمامًا في الأدبِ والشِّعرِ... إلخ، تتلمذَ علىٰ يد عبد القاهرِ

(١) الرسالة القشيرية ١/١٩.
(٢) لمع في الاعتقاد ص١٧٠ ـ ضمن ثلاث رسائل في العقيدة.
(٣) الرسالة القشيرية ١/١٤.
(٤) الرسالة القشيرية ١/١٧٠.
(٥) السابق ذاته.

البغدَادي ، وأبي إسحاقَ الإسفراييني ، وابن فُورَك ، وابن بَاكويه ، كما تتلمَذَ أيضًا علىٰ كتبِ البَاقلاني ، وعاصرَ إمامَ الحرمينِ الجُوينيّ وصَحِبَهُ ، كما تتلمذَ فِي التَّصَوف علىٰ «أَبِي عَلِيّ الدَّقَاق» .

وكانَ بينَ الفقهاءِ والمتكلمينَ من جانبٍ والصوفيةِ من جانبٍ آخرَ فجوةٌ من أيام الإمامِ أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكانَ من العَسِيرِ الجمعُ بينَ هذه العُلُومِ فِي شخصِ القُشَيرِيّ ، الذي راقَهُ مَا سَمعَهُ من أستاذِهِ «الدَّقَاق» مِن حديثٍ مُمتعٍ عن المجاهَدَات والرِّياضَات ، والحقَائِق والأَحْوال والمَقَامَات ، والأَذْوَاقِ والمَوَاجِيد ، وكيفيةِ تصفيةِ النَّفسِ مِن أَدْرانِ الرَّذَائِلِ والعَلائِق الدُّنيَوِيَّة . . . إلخ ، فتعلَّقَ بهذا العِلْم وأَحَبَّهُ مِن كُلِّ قَلْبِه ، ولم يَعُد يطيقُ بُعْدَهُ عنه ، ومِن ثَمَّ اشتكَىٰ إلىٰ أستاذِهِ «الدَّقَاق» مَا يُعَانِيهِ من عدمِ الجمعِ بينَ الأمرينِ ، فأشارَ عليه الأستاذُ بَعَدَمِ تَرْكِ العُلُومِ الدِّينِيَّة والعَرَبِيَّة ، وأَوصَاهُ أَنْ يَتفرَّغَ لَهَا حَتَّىٰ يُتْقِنَهَا ، فامتثلَ القشيريُّ لنصيحَةِ أستاذِهِ ، ومِن ثَمَّ جمعَ القُشَيرِيُّ فِي علومِهِ بينَ المعقُولِ والمَنقُولِ ، والظَّاهِرِ والبَاطِن ، والشَّرِيعَةِ والحَقِيقَةِ ، وعملَ علىٰ التَّوازنِ بينَهَا فِيمَا يُسَمَّىٰ بِـ(فلسفَةِ الاستِوَاء) .

ومِن ثَمَّ جاءَ كتَابُهُ العَظِيم (الرسَالة القشيرية) ليجمعَ بينَ هذِه الاتجاهَاتِ ، وكانَ الهدفُ مِن تَأليفِ هذِه الرِّسَالَة هُو :

ـ الدِّفَاعُ عن التَّوحيدِ الصُّوفِيّ السُّنِّي ، وبيانُ مَدَىٰ مُطَابقَتِه لعقيدةِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجمَاعَة .

ـ التحذيرُ من بِدَعِ أدعياءِ التَّصوفِ والمُغَالِينَ فيهِ .

ـ الجمعُ بين الظَّاهِرِ والبَاطِن ، والشَّرِيعَةِ والحَقِيقَةِ ، والمَعْقُولِ والمَنْقُولِ .

وتعتَبَرُ رسالةُ القشيريّ بذلكَ أصلًا مُهِمًّا ومصدرًا عظيمًا من مصادرِ التَّصوفِ الإسلاميِّ الصَّحِيح ، وقد كُتِبَ لهَا الذُّيوعُ والانتشارُ في رُبُوعِ العَالمِ الإسلامِيّ ،

ويقولُ عنها السُّبكِيُّ[(١)]: «لقَدْ سَارَتِ الرسالةُ غَرْبًا وَشَرْقًا، وهي مشهورةٌ مباركةٌ، فَمَا تكونُ فِي بيتٍ ويُنكَبُ».

ولمَّا كانتِ الرسالةُ بهذِهِ المكانَةِ العَالِيةِ، وكانَ صاحِبُها بهذِهِ المنزلةِ السَّامِقَةِ بينَ أئمَّةِ التَّصوف الإسلامِيّ، وقد تضمنتْ رسالتُهُ كثيرًا من المصطلحاتِ الصُّوفِيَّة، وكثيرًا من العبارَاتِ التي لا يفهمُهَا إلا أربابُ الطَّرِيقِ وأئمتُه، فقد رغبَ بعضُ السَّالكينَ والمُريدِينَ لهذا الطريقِ فِي تقريبِ مصطلحَاتِهَا في فَهْمِ قواعدِ التَّوحيدِ فيها، وشَرْحِ غَوامِضِهَا بأسلوبٍ سَهْلٍ قريبِ المَأخَذِ، يُبيِّنُ مَا تَواضَعَ عليه أئمَّةُ الصُّوفِيَّة من الكَلامِ عَن الأَحْوَالِ والمَقَامَات، والفَناءِ والبقاءِ، والمعرفةِ والشُّهُود... إلخ.

وكانَ مِن أوائل مَن قامَ بهذا العملِ الجليلِ الإمامُ العالمُ العارفُ الورعُ الزاهدُ الجامعُ بين عِلْمَيِ الظاهرِ والبَاطِن، والشَّريعَةِ والحقيقةِ والطَّريقَةِ: سديدُ الدِّين أبو محمد عبد المعطي اللخمي الإسكندري (ت ٦٣٨هـ) بمكة المكرمة، في شَرحِهِ المُسَمَّىٰ (الدَّلالةُ علىٰ فوائدِ الرِّسَالة).

وهو عملٌ جليلٌ، لم يكتفِ فيه الشيخُ بمجردِ الشَّرْحِ؛ بلَ أضافَ إلىٰ الرِّسَالة أقوالَ كثيرٍ من أئمةِ التَّصوفِ في كثيرٍ من المسَائلَ؛ ليضَاعِفَ بذلكَ الفائدةَ منها، ويحقِّق لِقُرَّائِهَا جليلَ النَّفعِ والفَائدَة.

وقد رأىٰ العَلَم المحققُ **والمدقِّقُ د/أحمد رجب أبو سالم ـ عضو إدارة مركز تحقيق النصوص بجامعة الأزهر الشريف**، أن يقوم بإخراج هذا الشَّرْحِ النفيس علىٰ الوجهِ اللائقِ به طباعةً وتحقيقًا، فقام بهذَا الجهدِ مشكورًا في دراستِهِ وتحقيقِهِ.

---

(١) طبقات الشافعية ٥/١٥٩.

واللهَ أسألُ أنْ يجعلَ مَسْعَاهُ دائمًا إلى الخَيْرِ، ومَرْجِعَهُ إلى الحَقِّ، إنَّهُ سميعٌ قريبٌ مجيبٌ.

أ. د. عَبد الرَّحمن مُحَمَّد المرَاكِبيّ
أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر
ورئيس القسم السابق، ووكيل كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية الأسبق

١ شعبان ١٤٤٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أ. د/ محمد محمد مُهنا

بِسْمِ اللهِ، وصلاةً وسلامًا علىٰ مُصطَفاه، وأَهلِ بيته ومَنْ وَالاه، فِي مَبْدإِ كُلِّ أَمْرٍ وَمُنْتَهاه.

وبعدُ:

فَلقدْ أُصِيبتْ الأُمّةُ في مقتلٍ يومَ أَنْ غَفَلت التصوفَ في حَيَاتِها، فتوقَفَتْ علومُ الدينِ عند ظاهرِ الرُسومِ وأَعمالِ الجوارحِ والظواهرِ، دُونَ حَقِيقَتِها من أعمالِ القلوبِ والسَّرائرِ، وتَوقَفت علومُ الدُّنيا عندَ ظَواهرِ الطبيعةِ وَعوارِضِها، والاستغراقِ في تَفصيلاتِها وهَوامِشِها، دُونَ النفاذِ إلىٰ حَقائقِها والتعرُفِ علىٰ أُصُولِها ومَبادِئِها، الأمرُ الذي خَلَّفَ آثارًا خطيرةً في كافةِ مجالاتِ الحياةِ، مِمَا نَراهُ: مِن انحِطَاطٍ فِي الأخلاقِ، وَتَدَهْوُرٍ فِي القِيَمِ، وَتَعَصُبٍ فِي الرَّأْيِ، وَتَطَرُّفٍ في الفِكْرِ، وَذَهَابٍ لِلعِلمِ، وَتَراجُعٍ للإِبدَاعِ، وَقُبْحٍ لِلذَوقِ، واختلالٍ في المَوازِينِ، وَخَلَلٍ فِي المُعَامَلاتِ، وانفِلاتٍ للعُنفِ، وغَيرِ ذلك مِن انتكاسَاتٍ أَحْدَثَتْ شُرُوخًا جَسِيمَةً فِي الشَّخْصِيَّةِ الحَضارِيَّةِ لِلأُمَّةِ، مِمَا جَعَلَها تَعِيشُ حَالةَ تَخبُطٍ وتَبعيَّةٍ علىٰ مدىٰ عقودٍ طويلةٍ.

وَلِهذا كانَتِ الدَّعواتِ الهَدَّامةِ، والنَعَراتِ الثَّورِيَّةِ، والنزعَاتِ الإِلْحَاديةِ، والأَفكارِ الإِرهَابيةِ لا تَقُومُ في زَمَانٍ أو مَكَانٍ إلا في غَفْلةٍ مِنْ وَازعِ الرُوحِ، واختلالِ القِيَمِ، واضِطِرَابِ العَقائدِ، وَذُيوعِ الكِفَاياتِ الرُوحِيَّةِ.

فالتَصوفُ هُوَ صِمَامُ أَمنٍ وأَمَانٍ للأُمّةِ ؛ لأنَّهُ دَعْوةُ الحُبِّ الذي فَقَدَهُ النَّاسُ، فَفَقَدُوا الحَقِيقَةَ الإِنْسَانِيَّةَ في الأَجْسَادِ البَشَرِيَّةِ.

والحُبُّ هُوَ أَعلىٰ مَقَامَاتِ المَعْرِفةِ، وَلَكِنَّ أَكثرَ النَّاسِ لا يَعْلمونَ.

والتَصوفُ هُوَ عِلْمُ فقهِ المَعْرِفَةِ بالله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ؛ قَالَ ابنُ عَباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (إلا لِيَعرِفُون)، فَمَاذا جَهِلَ مَنْ عَرَفَ اللهَ ؟! وَمَاذا عَرَفَ مَنْ جَهِلَ اللهَ ؟!

والتَصوُّفُ هُوَ الرُوحُ التي قَامَتْ عَلَيْها دَوْلَةُ الإِيمانِ، وأَرستْ الأُمّةُ بِفَضْلِها أَركانَ حَضارةِ الإِسلامِ، ولذلكَ فالتَصوفُ هُوَ أَصدقُ تَعبيرٍ عَنْ هُويَّةِ الأُمّةِ الحَضاريةِ، وَخَصَائِصِهَا الفِكريةِ، وَرؤيَتِها الثَقَافِيةِ، باعْتِبَارِهِ مَنهجًا تَرتَبِطُ فِيهِ الأَرضُ بِالسَّمَاءِ، وَالشهادةُ بالغَيبِ، وَيَتجمعُ فِيهِ المُلْكُ بالمَلَكُوتِ والظَاهِرُ بِالبَاطِنِ.

وَلكنْ كَمَا قَالَ الإِمامُ زروقُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «مَا ظَهرتْ حَقِيقةٌ قَطُّ فِي الوُجودِ إِلا قُوْبِلتْ بِدعْوىٰ مِثْلَهَا، وإِدخالُ مَا لَيسَ مِنهَا عَليهَا، وَوجُودِ تَكْذِيبِها...» ولذلك «كَثُرَ المُدَّعُونَ فِي هذا الطريقِ لِغُربَتِهِ، وبُعْدَ الإِفْهَامُ عنْهُ لِدقَتِهِ، وَكَثُرَ الإِنكَارُ علىٰ أَهْلِهِ لنَظَافَتِهِ، وحَذَرَ النَاصِحُونَ مِنْ سُلُوكِهِ لِكَثْرَةِ الغَلَطِ فِيهِ».

وَهَذا هُوَ بَيتُ القَصِيدِ فِي هَذا التحقيقِ الذي بَينَ أَيْدِينَا، والمُسَمَّىٰ: (الدَّلالة علىٰ فَوائدِ الرِسَالةِ) للمُحَقِقِ المُدَقِّقِ الدُكتور/ **أحمد أبو سالم ـ عضو هيئة التدريس بجامعة الأزهرِ الشريفِ، وعضو مركز تحقيق النصوص بها**، والذي تُنبِئُ تَحقِيقَاتُهُ عن سِيْرةِ الأَوائلِ مِنْ المُحَقِقِينَ الجَادِينَ، الذين أَبدَعُوا في هذا العلم.

---

(١) قواعد التصوف وشواهد التعرف، القاعدة ٢٥ ص ٥٠، والقاعدة ٢٠٨ ص ٣١١، ط/ المركز العربي للكتاب ـ الشارقة.

أَمّا عن (الرِسَالةِ) فَهِيَ لمُصَنِفِهَا الأستاذُ أبو القاسمِ القُشَيْرِي، فَقدْ تَربعتْ علىٰ عرشِ مُؤَلفَاتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعُرِفَتْ بِهِ، وُعُرِفَ بِهَا، بلْ صَارَ مِنْ شَأنِهَا أن يُعْرَفَ بِهَا الرِجَالُ، فيُقَالُ: «فُلانٌ مِنْ رِجالِ الرِسَالةِ»، أي مِمَنْ تَرجَمَ لهُ الإمامُ فِي رِسَالَتِهِ، أَوْ مَنْ ذَكَرَ لَهُ قَولًا أو خبرًا، وقد تَناقلَتْهَا المكتباتُ جيلًا بَعدَ جِيلٍ، وازْدَانتْ بِهَا خِزَانَاتُ العُلمَاءِ الأَعلامِ، وَانعقَدتْ لأَجلِهَا حَلقَاتُ العِلْمِ وَالذِكْرِ، وسَمَا ذِكْرُهَا حتىٰ صَارتْ كِتابُ القَومِ.

وَقَدْ كَتَبَ الإِمامُ القُشَيريُ هَذِهِ الرِسَالةُ إشفَاقًا علىٰ القُلوبِ مِنْ أَنْ تَنخَدِعَ مِمّا شَابَ التَصوفَ مِنْ دَخِيلٍ وَمَدسُوسٍ، ومِمَّنْ انتسبَ إليهِ مِنْ دُخلاءِ وأَدعياء، وغَيْرَةً علىٰ طَرِيقةِ القَومِ، وأَهْلِهَا المُحَقِقينَ الذين كَانَ بِهِمْ اهتِداءٌ، وَبسِيرَتِهِمْ وسُنتِهِمْ اقتداءٌ، أَنْ تُذْكَرَ أَو يُذْكَرُوا بِسُوءٍ، أَو يَجِدَ مُخَالِفٌ لثلبِهِمْ مُسَاغًا[١].

أَمّا عن (الدَلالةِ) فهي للعَلّامَةِ سديدُ الدينِ اللَخْمي المَالكي، المُتَوفىٰ سنة (٦٣٨ هـ)، وَقَدْ وَضَعهَا شَرحًا علىٰ (الرِسَالةِ)؛ وَهُوَ أَولُ مَنْ شَرحَهَا، كما كَانَ أَولُ مَنْ شَرحَ (مَنَازِلَ السائرين) للهَرَويِّ، وَلا غَرو فقدَ كانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كمَا قَالَ القُطبُ القَسطَلانِيُّ؛ مِمَّنْ لَهُ شَأنٌ فِي هذا الشَأنِ[٢].

ومِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ شَأنِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هذا الشَأنِ، الفَوائِدَ والفَرَائِدَ، والعُلومَ والدقائقَ التي دَلَّ رَحِمَهُ اللَّهُ القَارِئَ عليها في (الرِسَالةِ)، واستَنبَطَها مِنْ ثَنَايا الحِكَايَةِ، ودُرُوبِ الرِّوَايةِ، إِذِ اعتَمدَ الإمامُ القُشَيريُّ مَنهجَ الأَخبارُ مع طَرِيقِ الحِكَاياتِ لإفادةِ الطَّالِبِ.

وهُوَ مَنهجٌ علىٰ فَوائدِهِ وَلَطَائِفِهِ، بَعيدُ الأَغْوارِ، صَعبُ المَنالِ؛ أَمَّا عَنْ

(١) مقدمة تحقيق الرسالة القشيرية ص ٧٥، ٧٦.

(٢) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ٥/٤٩٨.

فَوائِدِهِ، فالتَأثُرُ بالأخبارِ عن الوقائعِ، كما قَرَرَ زروقُ في (قواعدِهِ)(١)، أَتمَّ لسامِعِهَا من التَأثُرِ بغَيْرِها، لِذَا قِيلَ: الحِكَايَاتُ جُندٌ مِنْ جُنودِ اللهِ، يُثَبِّتُ بِهَا قُلوبَ العَارِفِينَ، قالَ تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

وأمَّا عَنْ بُعدِ أغوارِهِ، فَلِتَعذُرِ استنباطِ قواعدِ السُلوكِ، ورياضاتِ النفسِ التي هي اختِصَاصُ عِلْمِ التَصوفِ، مِنْ مُجَرَدِ حِكاياتِ الصالِحينَ وأخبارِ السَّابقينَ(٢)، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

وَهُوَ مَا استَنبَطَهُ الإمامُ اللُخْمِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ من فَوائدَ، وَدلَّ عليهِ مِنْ فَرائِدَ فِي هذا الشَرحِ المَاتعِ، قَلمَا تَجِدُ لها نَظيرًا، لذَا كانَ رِفْدًا لِكُلِّ مَنْ شَرَحَ (الرِّسالَةَ) بَعْدَهُ.

رَضِيَ اللهُ عَنْ صَاحبِ (الرِسالَةِ)، وصاحب (الدلالة)، وَجزىٰ مُحَقِقَهَا الجليلَ عَنِ الإِسلامِ والمُسلمينَ خَيْرَ الجَزاءِ، وأدامَ عليهِ نِعْمَةَ التَّوفيقِ والسَّداد، وحفظه من عيون الحُسَّاد.

وكتبه

عَبْدُ اللهِ الفقير

محمَّد محمَّد مُهنا

أستاذ الشريعة والقانون بجامعة الأزهر

خادم البيت المحمدي، والمشرف العام علىٰ أكاديمية أهل الصُّفَّة لدراسات التصوف وعلوم التراث

القاهرة ـ صبيحة عيد الفطر المبارك ١٤٤٣هـ

---

(١) قواعد التصوف ص ٢٩٣.

(٢) قواعد التصوف ـ قاعدة ٦٩، ص ١٢٦، ١٢٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

بينَ يَدَي الكِتاب

الحمدُ للهِ الَّذِي أَعْلَىٰ هِمَمَ السَّالِكِينَ إليه، وأَغْلَىٰ قِيَمَ الدَّالِّيْنَ عليه، ونَوَّرَ بِاليَقِينِ بَصَائِرَ أَولِيَائِه، وأَقَرَّ بالإيمَانِ أَبْصارَ أَحِبَّائِه، ثُمَّ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَىٰ نَبِيِّه الزَّاهِرِ الأَخْلاقِ، الطَّاهِرِ الأَعْرَاقِ، وعلىٰ آلهِ الأصفِيَاء، وأَصْحَابِه الأتقِيَاء، وأوليائِه الأنقِيَاء، والعُلَمَاءِ المُتَمَسِّكِينَ بِسُنتِهِ النُّبَلاءِ؛ حُمَاةِ الحَقِّ، وهُدَاةِ الخَلْق.

وبعـدُ:

فإنَّ عِلْمَ التَّصوُّفِ الإسلامِيِّ السُّنِّيِّ عِلْمٌ خَالِصٌ للمُسلِمِين[١]، عَظِيمُ الشَّانِ، رَفِيعُ الأركَان، غَنِيٌّ عن البَيَان، غَزِيرُ الأَثَر، علىٰ نُفُوس البَشَر؛ لأنه يشتمِلُ علىٰ رقَائق وحقَائق، تفِيدُ في الحَثِّ علىٰ إقبَال الخَلْقِ عَلَىٰ الخَالِق، فَيُسهُم فِي تهذِيب النُّفُوس، وتصفيةِ القُلُوب، وُصْلَةً بِهَا لِطَرِيقِ عَلَّام الغُيُوب.

يَقُولُ الإِمَامُ الفَخْر الرَّازِي[٢]: «حَاصِلُ قَولِ الصُّوفيَّة: أَنَّ الطريقَ إلىٰ معرفةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ هُوَ التَّصْفِيَةُ والتَّجرُّدُ من العَلائِق البَدَنِيَّة، وهذَا طريقٌ حَسَنٌ».

ويقولُ الإمامُ السُّيوطِيُّ أيضًا[٣]: «إنَّ التَّصوف في نفسِهِ عِلْمٌ شَريفٌ، وإِنَّ مَدارَهُ علىٰ اتِّبَاعِ السُّنَّة وتَرْكِ البِدَع، والتَّبَرِّي من النَّفْسِ وعَوَائِدِهَا وحُظُوظِهَا وأَغْرَاضِهَا، ومرادتاها واختِيَارَاتِهَا، والتَّسليمِ للهِ، والرِّضَىٰ به وبقضَائِه، وطَلَبِ

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون ص٤٦٧، ومدخل إلىٰ التصوف الإسلامي ـ د/أبو الوفا التفتازاني ص٢٤، وما بعدها.

(٢) اعتقادات فرق المسلمين ص٧٢.

(٣) تأييد الحقيقة وتشييد الطريقة ص٥٦.

مَحبتِهِ، واحتقَارِ مَا سِوَاه».

وَمِنْ أجَلِّ كُتُبِ التَّصوفِ قَدْرًا، وَأَعْظَمِهَا مَحَلًّا وفَخْرًا، وَأَسْنَاهَا شَمْسًا وَبَدْرًا؛ كِتَابُ «الرِّسَالَةِ القُشَيريَّة»، لِقُطْبِ العَارِفِين، ومُرَبِّي المُرِيدِين، ومُرْشِدِ السَّالِكِيْن، وَقُدْوَة العُلَمَاء العَامِلِين، الإمامِ زينِ الإسلامِ أبي القَاسِمِ القُشَيرِيِّ، كما أشار العلامة الزَّبيدي بقوله[١]: «وأما التصوفُ والرقائقُ فقد طَالعتُ عليه كُتُبًا كثيرةً، وأجلُّهَا مِقْداراً: الرِّسَالَةُ، للإمام أبي القَاسِمِ القُشَيرِيّ».

وَيُعَدُّ شَرْحُ العَلامةِ الفقيهِ سديدِ الدِّين اللخميّ (الدَّلالَة على فَوائد الرِّسَالَة) هو الشَّرحُ الأَصِيلُ لَهَا، فَهُو أَقْدَمُ شُرُوحِهَا وأَوسَعِهَا، ومُعْتَمَدُ مَن بَعْدَهُ مِنْ شُرَّاحِهَا؛ لأَنَّهُ جَمَعَ فيه بين عِلْمَي الشَّريعَةِ والحَقِيقَة، وشَرحَ بأحسنِ الشَّرحِ أُصُولَ الطَّرِيقَة، فهو شرحٌ فَرِيد، كَشَفَ فيه العَلامَةُ اللخميُّ عَن مقصُودِ مؤلِّفِه وَزَاد، وَمَزَجَ فيه الفقهَ بالتَّصوفِ فَأبدعَ وأفَاد، وذلكَ بأسلوبٍ رَائِق، وَسَجْعٍ فَائِق، يُطْرِبُ الأَسْمَاع، ويُضْفِي على الأَلْبَابِ بَوَارِقَ الإمتَاع، وَلَا عجَبَ فِي ذلكَ! فالعَارِفُ يَعْرِفُ أسرَارَ العَارِف، فبيَّنَ مَرامِيه، ودفعَ أقوالَ مُعْترضِيه.

وإنِّي لآمَلُ أنْ يكونَ خُرُوجُ هذا الشَّرحِ النَّفيسِ بهذِهِ الحُلَّة القَشِيبَة ـ تحقيقًا وتعليقًا وطبَاعَةً ـ أَبْرَقَ إضَاءةً لطريقِ العَارِفِين، وألمعَ إشرَاقةً لأهلِ الطَّريقِ من المُرِيدِين، وأبهتَ صُورةً للجماعَةِ المُنكِرِينَ للتَّصَوُّف المُشَكِّكِين، فَيُبَدِّلُ عِندهُم الظَّلامَ نُورًا، والليلَ نَهارًا، وإنْ كُنْتُ ألتمسُ لهؤلاء بعضَ العذرِ فيمَا ذَهَبُوا إليهِ؛ لولوجِ هذا البابِ ـ باب التصوف ـ بعضُ الدُّخَلاء عليه مِمَّن ليسُوا مِن أهلِهِ، لكِنْ مِثْلُ هَؤلاء الدُّخَلاء موجودونَ فِي كُلِّ عَصْرٍ، كما أشارَ السُّيوطِيُّ بقولِهِ[٢]: «إنَّه قد كثُرَ فيه الدَّخِيل مِن قَوْمٍ تَشَبَّهوا بأهلِهِ وليسُوا منهم، فأدخلُوا فيه مَا ليسَ منه، فأدَّى

(١) إتحاف السادة المتقين ١/٥ ـ ٦.

(٢) تأييد الحقيقة وتشييد الطريقة ص٥٦ ـ ٥٧.

ذلكَ إلىٰ إساءةِ الظَّنِ بالجميعِ، فوجهُ أهلِ العِلْمِ للتمييزِ بينَ الصِّنفَينِ؛ ليُعْلَمَ أَهْلُ الحقِّ من أهلِ الباطِلِ، وقد تأملتُ الأمورَ التي أنكرَهَا أئمَّةُ الشَّرعِ علىٰ الصُّوفيةِ فلم أرَ صُوفيًّا مُحقِّقًا يقولُ بشيءٍ منها، وإنَّما يقولُ بِهَا أهلُ البِدَعِ والغُلَاة، الذينَ ادَّعَوا أنَّهُم صُوفيَّةٌ وليسُوا منهم».

فليسَ لأهلِ البِدْعَةِ فِي عِلْم التَّصوفِ أَدْنَىٰ نَصِيب، كَمَا قَرَّرَ أبو المظفَّر الإسفراييني ذلك بقوله[١]: «عِلْم التَّصوفِ والإشَاراتِ ومَا لَهُم فيها من الدَّقَائِق والحَقَائِق لَمْ يَكُنْ قَطُّ لأحدٍ مِنْ أَهْلِ البِدْعَة فيه حَظٌّ، بَلْ كَانُوا مَحْرُومِين مِمَّا فيهِ مِن الرَّاحَةِ والحَلاوَةِ والسَّكِينَةِ والطّمَأنِينَة...».

ولو عَرَفَ هؤلاء حقيقةَ التصوفِ الحَقّ، وطُرُقَ المُتَصَوِّفَةِ السَّائِرَة علىٰ الدَّرْب، كما وصفَها الإمامُ الغزَالِيُّ بقولِه[٢]: «عَلِمْتُ يَقِينًا أنَّ الصُّوفيَّةَ هُمُ السَّالِكُونَ لطريقِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وأنَّ سِيرَتَهُم أحسنُ السِّيَر، وطَرِيقَهُم أَصْوَبُ الطُّرُق، وأَخْلاقَهُم أزْكَىٰ الأَخْلاق، بَلْ لَو جُمِعَ عقلُ العُقَلاء، وحِكْمَةُ الحُكَمَاء، وعِلْمُ الوَاقِفِينَ علىٰ أَسْرَارِ الشَّرْعِ مِن العُلَمَاء؛ لِيُغَيِّرُوا شَيئًا مِن سِيَرِهِم وأَخْلاقِهِم، وَيُبَدِّلُوهُ بِمَا هُو خَيْرٌ مِنه لَمْ يَجِدُوا إلىٰ ذلكَ سَبِيلا، وإنَّ جميعَ حَرَكَاتِهِم وسَكَنَاتِهِم فِي ظَاهِرِهِم وبَاطِنِهِم مُقْتَبَسَةٌ مِن نُورِ مِشْكَاةِ النُّبُوَّة، وليسَ وراءَ نُورِ النُّبُوَّة علىٰ وجهِ الأرضِ نُورٌ يُستَضَاءُ به» ـ لَتغَيَّرَتْ نَظْرَتُهُم إليه، ولَتَكَاتَفُوا مَعَ أهلِهِ ضِدَّ الدُّخَلاء عليه، ولَذَاقُوا حَلاوَتَهُ، فَمَنْ ذَاقَ عَرَفْ.

وعليهِ فَلا يَنْبَغِي لِمَنْ لَمْ يَتَمَرَّس طُرُقَ الصُّوفِيَّة الصَّافِيَة التَّسَرُّع فِي حَمْلِ بعضِ أقوالِ مَشَايخ التَّصوف وأَفْعَالِهِم التي يُوهِمُ ظَاهِرُهَا الإشْكَال، وكذا بَعْض حِكَايَاتِهِم التي تَحمِلُ فِي ظَاهِرِهَا الاستِغْرَاب علىٰ النَّيْلِ مِنْهُم والطَّعْنِ فيهم والتَّنَقُّصِ

(١) التبصير في الدين ص١٩٢.
(٢) المنقذ من الظلال ص١٧٧ ـ ١٧٨.

مِن قَدْرِهِم ، وإنَّما يَنْبَغِي أنْ نَتَلَمَّس لذلكَ وجهًا مقبولا مُوافِقًا للكتابِ والسُّنَّة ، فَمَنْ ذَاقَ طَعْمَ شَرَابِ القَوم يَدْرِيهِ ، كَمَا أشَارَ إلىٰ ذلكَ العَلَّامَةُ اللخمِيُّ بِقَولِه[(١)]: «الوَاجِبُ حَمْلُ فِعْلِ الصَّالحينَ علىٰ ما يَحسنُ منَ التَّأويل ، ويناسبُ أمرَ الدِّين» .

هَذَا ، وقد قَدَّمْتُ بين يَدَي هذا العَمَل فَصْلَين ؛ الفصل الأوَّل: «الإمام القشيري ، وكتابه: الرِّسالة القشريَّة» ، وينقسمُ إلىٰ مَبحثَين ؛ المبحث الأولُ: العلامةُ القشيريُّ ـ حياتُه وآثارُهُ ، والمبحث الثَّانِي: التَّعريفُ بـ«الرِّسالةِ القُشيرِيَّة» .

والفصل الثَّاني: العلامةُ اللخمِيُّ وشَرحُهُ: «الدَّلالَة علىٰ فوائد الرِّسَالة» ، وينقسم إلى مبحثين ؛ المبحث الأولُ: العلامةُ اللخمِيُّ ـ حياتُه وآثارُهُ ، والمبحث الثَّانِي: التعريفُ بكتابِ: «الدَّلالَة على فوائد الرِّسَالة» ، ثُمَّ ذَيَّلتُهُ بالفهَارِس الفَنِّية المتنوعة .

وخِتَامًا . . فإني آملُ أنْ يَرَىٰ القَارِئ هذَا الشَّرحَ للقُشَيريةِ كالمِصْبَاح ، يُجَلِّيهَا كَنُورِ الصَّبَاح ، وَيَتحَقَّقُ بِأنَّه أَصْلُ ثَمَرَة مَا غَرَسَهُ الشُّرَّاح ، واللهَ أَسْأَلُ أَنْ يَمُنَّ عَلَينَا بِجَمِيلِ الهِبَات ، وَيُصْلِحَ فَسَادَ قُلُوبِنَا بجُنُودِ الوَارِدَات ، وَأَنْ يقعَ بهذَا الشَّرحِ الإمتَاع ، ويَعُمَّ بِهِ الانتفَاع ، فـ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣] .

وكتبهُ

الفقير إلىٰ عَفْوِ رَبِّه الشَّامِل

د . أحمد رجب أبو سالم

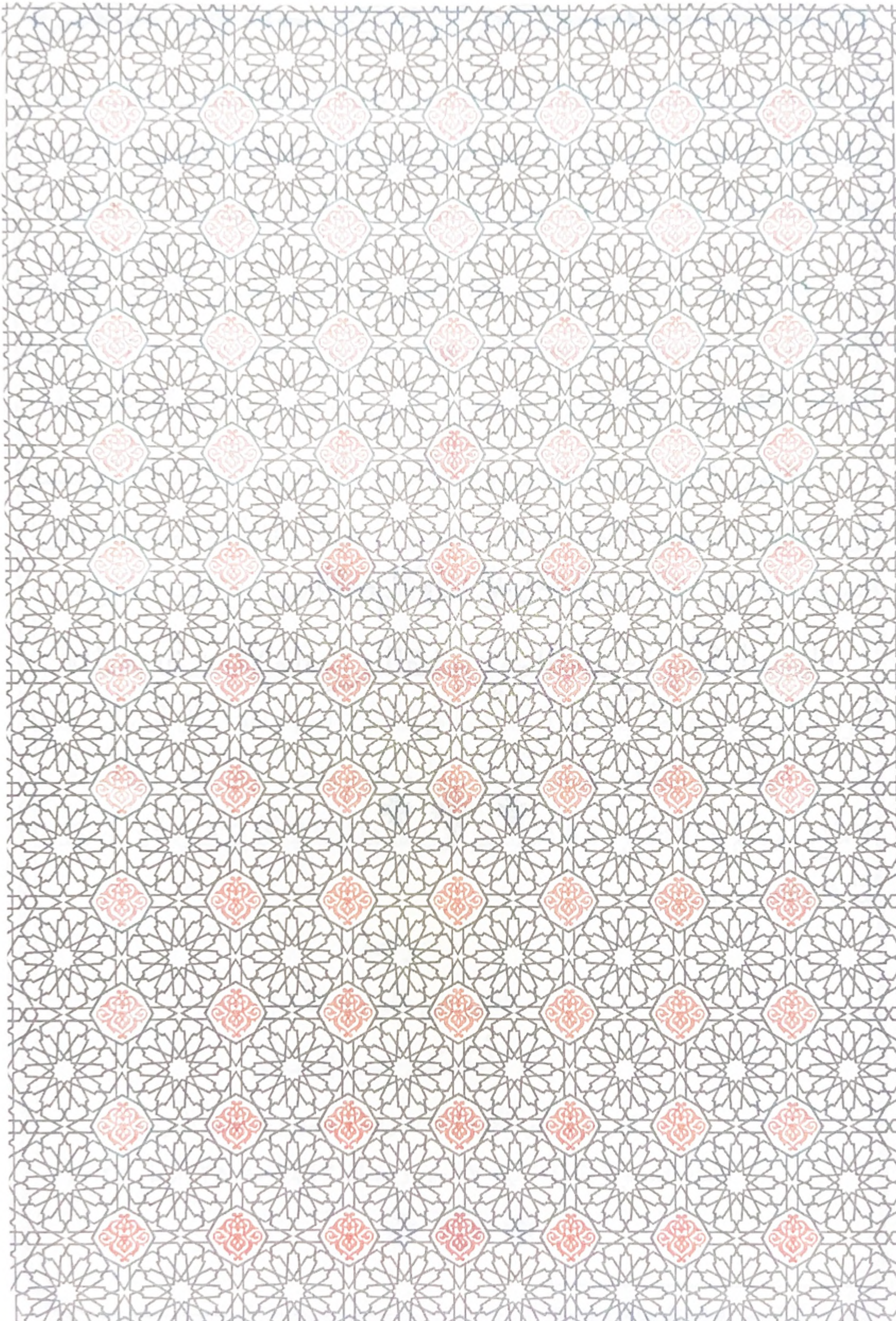
كفر ميت أبو الكوم/تلا/منوفية/ جمهورية مصر العربية

الليلة الميمونة الغرَّاء: ليلة ٢٧ من رمضان ١٤٤٣هـ= ٢٨ أبريل ٢٠٢٢م .

(١) الدلالة علىٰ فوائد الرسالة ٢/٦٠١ .

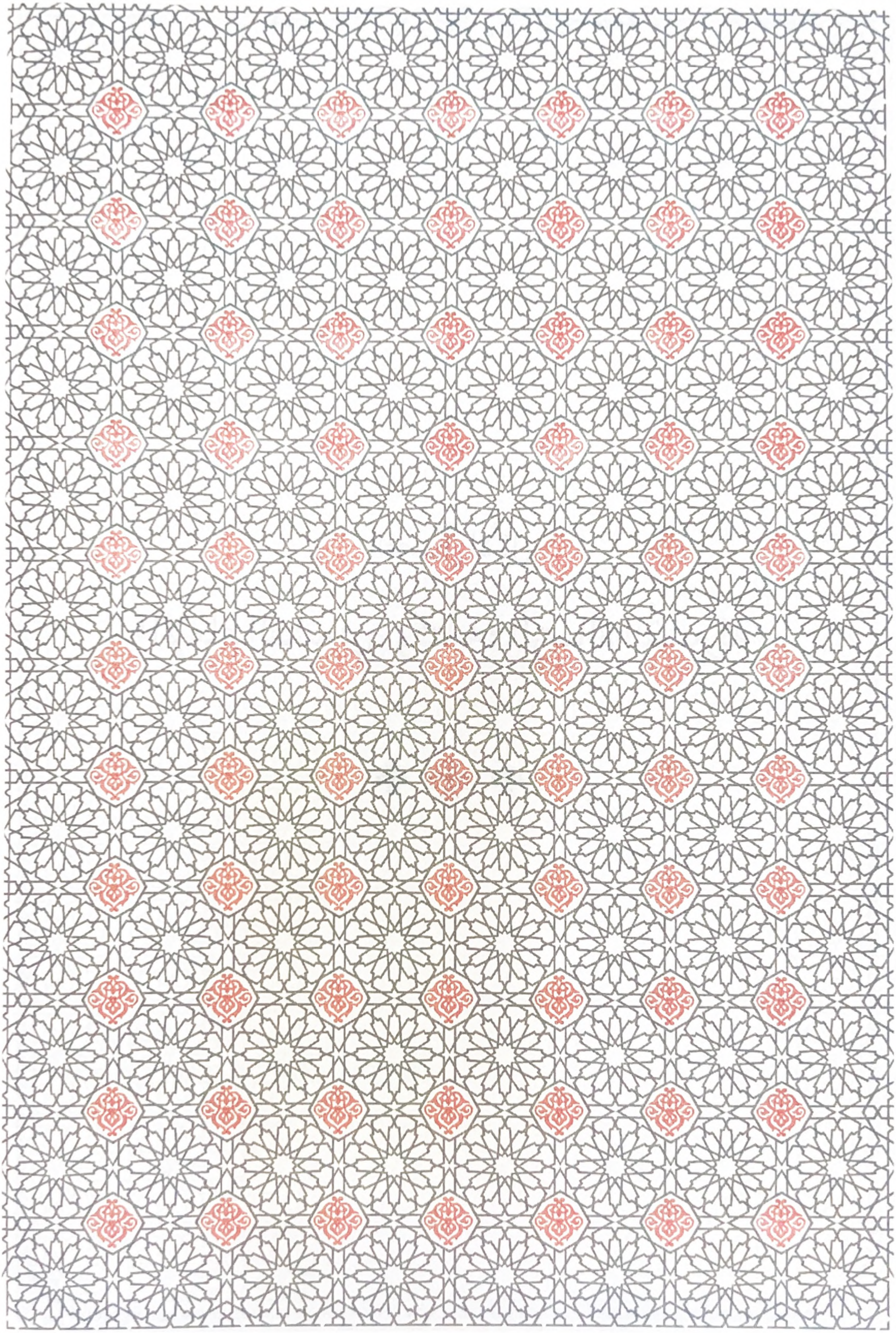
القسم الأول: الدراسَة

«التعريفُ بالإمامين: القشيريّ واللخميّ، وبكتابيهما»



الفصلُ الأوَّل

«الإمام القشيري، وكتابه: الرِّسالة القُشَيريَّة»



مصادر ترجمة (الإمام القشيري) رَحِمَهُ ٱللَّهُ

* تاريخ بغداد ١١/٨٣.
* دمية القصر ٢/٩٩٣.
* كشف المحجوب، للهجويري ص٣٨٢.
* الأنساب ٤/٥٠٣.
* تبيين كذب المفتري ص٢٧٢.
* البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ص ٢٩٣.
* المنتخب من كتاب السياق ص٣٦٥.
* التقييد لابن نقطة ص٣٦٦.
* مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ١٩/٢٦٥.
* التدوين في أخبار قزوين ٣/٢١٠.
* نجم المهتدي، ورجم المعتدي ١/٤٣٥.
* إنباه الرواة ٢/ ١٩٣.
* الكامل في التاريخ ٨/٤٠٢.
* وفيات الأعيان ٣/٣٠٦.
* المنتظم ٨/٢٨٠.
* طبقات الفقهاء الشافعية ٢/٥٦٢.

* تاريخ الإسلام ٣١/١٧٠.
* العبر في خبر من غبر ٣/٣٦١.
* سير أعلام النبلاء ١٨/٢٢٧.
* دول الإسلام ١/٤٠٠.
* مسالك الأبصار ٨/١٧٢.
* مرآة الجنان ٣/٩١.
* الوافي بالوفيات ١٩/٦٣.
* البداية والنهاية ١٢/١٠٧.
* طبقات الشافعية الكبرىٰ ٥/١٥٣.
* المختصر في أخبار البشر ٢/١٩٠.
* فوات الوفيات ٢/٣١٠.
* النجوم الزاهرة ٥/٩١.
* توضيح المشتبه ١/٥١٥.
* اللباب في تهذيب الأنساب ٣/٣٨.
* طبقات الأولياء ص ٢٥٧.
* طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبه ١/٢٥٤.
* شذرات الذهب ٣/٣١٩.
* التاريخ المعتبر في أنباء من غبر ٣/٤٣.
* الاكتساب في معرفة الأنساب ٧/٤٣١٢.

* طبقات المفسرين للسيوطي ص ٧٣.
* قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ٣/ ٤٥٠.
* تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ٢/ ٣٥٨.
* طبقات المفسرين للأدنه وي ص١٢٥.
* ديوان الإسلام ٤/ ٣٤.
* سلم الوصول إلى طبقات الفحول ٢/ ٢٩٧.
* هدية العارفين ١/ ٦٠٧.
* الأعلام ٤/ ٥٧.
* معجم المؤلفين ٦/ ٦.
* الإمام القشيري ـ حياته وتصوفه وثقافته.
* مقدمات التحقيق لكتب الإمام القشيري المطبوعة.... وغيرها.

المبحَث الأول

العلامة القشيري ـ حياته وآثاره

الإمام القشيري غنيٌّ عن التعريف والتكشيف، وقد تناولتِ الحديثَ عنه أقلامُ كثيرٍ من العلماء من جوانبَ مختلفةٍ، ودونكَ إضاءةً سريعةً لحياته وآثاره.

اسمه ونسبه:

هو: الإمام الفقيه، المتكلم الأصولي، المفسر الأديب النحوي، الكاتب الشاعر، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القُشيري، الأُستُوائيّ، النيسابوري، الشافعي.

والقُشَيريُّ: منسوبٌ إلىٰ بني قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة؛ قبيلة كبيرة من العَرَب[(١)]، وأصلهُ من ناحية (أُستُوا)[(٢)]، من العرب الذين وردوا خراسان وسكنوا نواحيها، فهو قشيريُّ الأب، سُلَمِيّ الأم، وخاله أبو عَقِيل السُّلَمِيّ من وجوه دهاقين ناحية (أُستُوا)[(٣)].

وكنيتُهُ: أبو القاسم، ولقبُهُ: زين الإسلام[(٤)]، ثم لُقِّبَ بالأستاذ ـ أستاذِ خراسَان ـ بعد وفاة شيخه أبي عليّ الدَّقَّاق[(٥)].

---

(١) انظر: الأنساب ٤/٥٠١، والاكتساب في معرفة الأنساب ٧/٤٣٠٩، وشذرات الذهب ٣/٣٢٢.

(٢) في الأنساب ١/١٣٤: «الأُستوائي ـ بضم الألف، وسكون السين المهملة، وفتح التاء المنقوطة من فوقها بنقطتين، أو ضمها... هذه النسبة إلىٰ: أُستوا؛ وهي ناحية بنيسابور كثيرة القرىٰ والخير.. وهي من عيون ناحية نيسابور». وهي من بلاد إيران اليوم. وانظر: معجم البلدان ١/١٧٥.

(٣) انظر: المنتخب من كتاب السياق ص٣٦٥، وتبيين كذب المفتري ص٢٧٢.

(٤) انظر: طبقات الشافعية الكبرىٰ ٥/١٥٣.

(٥) انظر: تبيين كذب المفتري ص٢٧٣.

مولده ونشأته:

وُلِدَ العلَّامة القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ربيع الأول سنة ست وسبعين وثلاثمائة، وقيد ذلك الخطيب البغدادي بقوله[١]: «سألت القشيري عن مولده فقال: في ربيع الأول، من سنة ست وسبعين وثلاثمائة».

وذهب الذهبي[٢] إلىٰ أنه ولد سنة خمس وسبعين وثلاثمائة، والأول أرجح.

وقد نشأ يتيمًا، فمات أبوه وهو طفلٌ، فَدُفِع إلىٰ الأديب أبي القاسم الأليمانيّ لصلته بأهله، فقرأ عليه الآداب، وكانت له قرية مُثقلة الخراج بنواحي (أُسْتُوا)، فرأىٰ من الرأي أن يحضر إلىٰ نيسابور يتعلم طرفًا من الحساب؛ ليتولىٰ الاستيفاء، ويحمي قريته من الخراج، فحضر نيسابور علىٰ هذا العزم، فاتفق حضورُه مجلسَ الشيخ أبي علي الدقاق[٣].

وقد لخَّص هذه النشأةَ ابنُ عساكر بقوله[٤]: «توفي أبوه وهو طفلٌ، فوقع إلىٰ أبي القاسم الأليمانيّ[٥]، فقرأ الأدب والعربية عليه بسبب اتصاله بهم، وقرأ علىٰ غيره، وحضر البلد واتفق حضوره مجلس الأستاذ الشهيد أبي علي الحسن بن علي الدَّقاق، وكان لسانَ وقته، فاستحسن كلامَه، وسلك طريق الإرادة، فقبله الأستاذ، وأشار عليه بتعلم العلم، فخرج إلىٰ درس الشيخ الإمام أبي بكر محمد بن بكر

---

(١) تاريخ بغداد ١١/٨٣.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ١٨/٢٢٧.

(٣) انظر: وفيات الأعيان ٣/٢٠٦، ونجم المهتدي ١/٤٣٧، وسير أعلام النبلاء ١٨/٢٢٩.

(٤) تبيين كذب المفتري ص٢٧٢ ـ ٢٧٣. وانظر: طبقات الفقهاء الشافعية ٢/٥٦٣، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٥/١٥٥.

(٥) هو: أبو القاسم علي بن الحسين الأليماني، أصله من الرِّي، وكان مقامه بنيسابور، وكان يقول شعرًا مليحًا ظريفًا، من شيوخ أبي منصور الثعالبي. انظر: يتيمة الدهر ٥/٣٠٥، ٤/١٢٥، ١٤٣، ١٤٧، ١٦٤.

الطوسي، وشرع في الفقه حتىٰ فرغ من التعليق، ثم اختلف بإشارته إلىٰ الأستاذ الإمام أبي بكر ابن فورك، وكان المقدَّمَ في الأصول حتىٰ حصَّلها وبرع فيها، وصار من أوجهِ تلامذته وأشدِّهم تحقيقًا وضبطًا... وبعد وفاة الأستاذ أبي بكر اختلف إلىٰ الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني وقعد يسمع جميع دروسه، وأتىٰ عليه أيام، فقال له الأستاذ: هذا العلم لا يحصل بالسماع! وما توهم فيه ضبط ما يسمع، فأعاد عنده ما سمعه منه، وقرره أحسن تقرير من غير إخلال بشيء، فتعجب منه وعرف محلّه وأكرمه وقال: ما كنت أدري أنك بلغت هذا المحل!، فلستَ تحتاج إلىٰ درسي، بل يكفيك أن تطالع مصنفاتي، وتنظر في طريقي، وإن أشكل عليك شيء طالعتني به، ففعل ذلك، وجمع بين طريقته وطريقة ابن فورك، ثم نظر بعد ذلك في كتب القاضي أبي بكر بن الطيب [الباقلاني]، وهو مع ذلك يحضر مجلس الأستاذ أبي علي إلىٰ أن اختاره لكريمته(١)، فزوجها منه، وبعد وفاة الأستاذ عاشَر أبا عبد الرحمن السلمي إلىٰ أن صار أستاذَ خراسان، وأخذ في التصنيف... وخرج إلىٰ الحج في رفقة فيها: الإمامُ أبو محمد الجويني، والشيخُ أحمدُ البيهقي، وجماعةٌ من المشاهير، فسمع معهم الحديث ببغداد والحجازِ من مشايخ عصره، وكان في علم الفروسية واستعمال السلاح وما يتعلق به من أفراد العصر، وله في ذلك الفنِّ دقائقُ وعلومٌ انفرد بها».

شيوخه:

تلقَّىٰ الإمام القشيري العلم علىٰ يد كوكبة من علماء عصره في مختلف العلوم والفنون، كانت لها الأثر العظيم في تكوينه العلمي، وقد عيَّن بعضَهم ابنُ

---

(١) أي: ابنته الشيخة المسندة فاطمة أم البنين، أم العبادلة. قال السبكي: «وخلَّف من البنين ستة.. عبادلة، كلهم من السيدة الجليلة: فاطمة بنت الأستاذ أبي علي الدقاق» طبقات الشافعية الكبرىٰ ٥/١٥٩. وانظر في ترجمتها: المنتخب من كتاب السياق ص٤٥٨.

الصيرفيني بقوله[١]: «وخرج إلى الحج في رفقة فيها: أبو محمد الجويني وأحمد البيهقي وجماعة من المشاهير، فسمع معهم ببغداد والحجاز؛ مثل: أبي الحسين بن بِشران، وأبي الحسين بن الفضل ببغداد، وأبي محمد جناح بن نذير بالكوفة، وابن نظيف بمكة، وعاد إلى نيسابور، وقد سمع قبل خروجه من الخفاف، وسمع مسند أبي عوانة عن أبي نُعَيم، وسمع مسند أبي داود عن ابن فُورَك، وسمع من السيد أبي الحسن العلوي، ثم عن أصحاب الأصم بعد الزيادي، وابن يوسف، وأبي القاسم بن حبيب، والقاضي أبي زيد، ثم عن الطبقة الثانية مثل ابن باكويه..».

وكذا الخطيب البغدادي[٢]: «سمع أحمد بن محمد بن عمر الخفاف، ومحمد بن أحمد بن عبدوس المكي، وأبا نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفراييني، وعبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد المُزّكي، ومحمد بن الحسن بن فورك، والحاكم أبا عبد الله بن البيع، ومحمد بن الحسين العلوي، وأبا عبد الرحمن السلمي، وقدم علينا في سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، وحدَّث ببغداد، وكتبنا عنه، وكان ثقة».

وكذا السبكي بقوله[٣]: «وأخذ الفقه عن أبي بكر محمد بن بكر الطوسي، وعلم الكلام عن الأستاذ أبي بكر بن فورك، واختلف أيضًا يسيرًا إلى الأستاذ أبي إسحاق، وأخذ التصوف عن أستاذه أبي علي الدقَّاق».

وأخذ أيضا عن حمزة بن يوسف بن إبراهيم أبو القاسم السهمي الجرجاني[٤]، وغيره.

فمثلُ هذه الكوكبة جديرة بأن تُربِّي إمامًا ذائع الصِّيت، يعدُّ من مشاهير الدنيا

---

(١) المنتخب من كتاب السياق ص٣٦٥. وانظر: تاريخ الإسلام ٣١/١٧٣.

(٢) تاريخ بغداد ١١/٨٣.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٥٤.

(٤) انظر: التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد ص٢٥٦.

في زمانه كالإمام القشيري، استحق نعت سبطه عبد الغافر الفارسي فيما نقله عنه الصيرفيني بقوله[١]: «الإمام مطلقا، الفقيه المتكلم، الأصولي المفسر، الأديب النحوي، الكاتب الشاعر، لسان عصره، وسيد وقته، وسر الله بين خلقه، شيخ المشايخ، وأستاذ الجماعة، ومقدم الطائفة، ومقصود سَالكي الطريقة، وبندار الحقيقة، وعين السعادة، وقطب السيادة، وحقيقة الملاحة، لم يَرَ مثلَ نفسِه، ولا رأىٰ الرَّاؤون مثلَهُ في كماله وبراعتِه، جمع بين علمي الشَّريعَة والحقيقة، وشرح أحسن الشرح أصول الطريقة».

تلاميذه:

لكون الإمام القشيري عَلَمًا من أعلام الدنيا في علوم مختلفة فقد كثر عدد مَن تلمذوا علىٰ يديه، ونَهَلُوا من بَحْرِ عِلْمِه، وَفِي طليعَة مَن أخذوا عنه أولادُهُ، ثم أحفاده الذين أصبحوا منارات للدنيا خَلَفًا له، وهم كما عدَّدهم الإمام السمعاني[٢]: «وأولاده: أبو سعد عبد الله[٣]، وأبو سعيد عبد الواحد[٤]، وأبو منصور عبد الرحمن[٥]، وأبو نصر عبد الرحيم[٦]، وأبو الفتح عبيد الله[٧]،

(١) المنتخب من كتاب السياق ص٣٦٥.

(٢) الأنساب ٤/٥٠٣.

(٣) ورد في ترجمته في المنتخب من كتاب السياق ص٣٠٩: «أبو سعد القشيري عبد الله بن عبدالكريم بن هوازن القشيري، أبو سعد الإمام، ناصر السنة، رضيع أبيه في الطريقة، وفخر ذويه وأهله علىٰ الحقيقة، أكبر أولاد زين الإسلام الذكور، من لا ترىٰ العيون مثله في الدُّهور». وانظر: تاريخ الإسلام ٣٢/١٩٥، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٥/٦٨.

(٤) انظر في ترجمته: المنتخب من كتاب السياق ص٣٧٠، والوافي بالوفيات ١٩/١٧٢.

(٥) انظر في ترجمته: المنتخب من كتاب السياق ص٣٤٦، وتاريخ الإسلام ٣٣/٨٧.

(٦) انظر في ترجمته: الوافي بالوفيات ١٨/٢٠٠، والعبر ٤/٣٣، وشذرات الذهب ٤/٤٥.

(٧) انظر في ترجمته: المنتخب من كتاب السياق ص٣٢٦.

وأبو المظفر عبد المنعم[(١)]، حدَّثُوا جميعًا بالكثير... وأبو الأسعد هبة الرحمن بن أبي سعيد بن أبي القاسم القشيري[(٢)]، روىٰ عن جده».

وقال السُّبكي[(٣)]: «روىٰ عنه: ابنه عبد المنعم، وابن ابنه: أبو الأسعد هبة الرحمن، وأبو عبد الله الفُرَاوِي، وزاهر الشّحَّامي، وعبد الوهاب بن شاه الشاذِياخِي[(٤)]، ووجيه الشّحَّامِي، وعبد الجبار الخُوارِي[(٥)]، وخلقٌ، وروىٰ عنه من القدماء: أبو بكر الخطيب، وغيره».

ومِمَّن تلمذوا له أيضًا: أبو بكر أحمد بن إسماعيل الجوهري[(٦)]، وأبو نصر أحمد بن منصور بن محمد بن القاسم بن حبيب بن عبدوس الزنجي الصَّفار[(٧)]، وأبو سعد إسماعيل بن أبي صالح أحمد بن عبد الملك بن علي بن عبد الصمد بن أحمد المؤذن النيسابوري[(٨)]، وأبو إبراهيم إسماعيل بن الحسن بن محمد بن أحمد الجرجاني الطبيب العلوي الحسيني[(٩)]، وأبو محمد إسماعيل بن أبي القاسم بن عبد الرحمن بن أبي بكر صالح القارئ الرمجاري النيسابوري[(١٠)]، وأبو المحاسن

---

(١) انظر في ترجمته: المنتخب من كتاب السياق ص٤٠٠، وتاريخ الإسلام ٢٨٤/٣٦، ومرآة الجنان ٢٦٠/٣.

(٢) انظر في ترجمته: التحبير في المعجم الكبير ٣٦٨/٢، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ٢٥١/١٩، وسير أعلام النبلاء ١٨٠/٢٠.

(٣) طبقات الشافعية الكبرىٰ ١٥٤/٥.

(٤) انظر في ترجمته: المنتخب من معجم شيوخ السمعاني ١١٤٤/١.

(٥) انظر في ترجمته: التحبير في المعجم الكبير ٤٢٣/١.

(٦) انظر: المنتخب من معجم شيوخ السمعاني ص١٣٥.

(٧) انظر: المنتخب من معجم شيوخ السمعاني ص٣٠٣، ٣٠٥، والتحبير في المعجم الكبير ٤٥٢/٢.

(٨) انظر: المنتخب من معجم شيوخ السمعاني ص٣٧٠.

(٩) انظر السابق ص٣٨٦.

(١٠) انظر السابق ص٣٩٦.

إسماعيل بن نصر بن بكر بن أحمد بن الحسين بن مهران المقرئ[١]، وأبو سعيد أسعد بن سعيد بن أبي سعيد فضل الله بن أبي الخير أحمد بن محمد الميهني الصوفي[٢]، وأبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسين بن علي بن الفرخان الصوفي السّمناني[٣]، وأبو منصور سهل بن جامع بن أحمد بن الحسين الخازن المعروف بالصيرفي[٤]، وأبو بكر عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن بحير بن نوح بن حيان بن مختار البحيري العدل المزكي الملقاباذي[٥]، وأبو محمد عبد الجبار بن محمد بن أحمد الخواري البيهقي[٦]، والحاكم أبو علي عبد الحميد بن محمد بن أحمد الخواري البيهقي[٧]، وأبو نصر علي بن مسعود بن محمد بن إسماعيل بن علي بن الحسن البيع[٨]، وأبو القاسم الفضل بن محمد بن أحمد بن أبي منصور محمد العطار الأبيوردي[٩]، وأبو علي محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن إبراهيم بن أبي أيوب العوفي، المعروف بالفوركي[١٠]، وأبو المظفر محمد بن أحمد بن محمد بن المظفر، الهروي، ثم المروزي[١١]، وأبو سعيد محمد بن علي بن محمد العربي الصوفي السّمناني[١٢]، وأبو سهل محمد بن الفضل بن محمد

(١) انظر: المنتخب من معجم شيوخ السمعاني ص٤٢٥.
(٢) انظر السابق ص٤٣٩.
(٣) انظر السابق ص٧٣٦.
(٤) انظر: المنتخب من معجم شيوخ السمعاني ص٨٦٧، والتحبير في المعجم الكبير ١/٣١٧.
(٥) انظر: المنتخب من معجم شيوخ السمعاني ص٩٨٦.
(٦) انظر السابق ص١٠٣٤.
(٧) انظر السابق ص١٠٤٨.
(٨) انظر السابق ص١٢٦٥.
(٩) انظر السابق ص١٣١٩.
(١٠) انظر: المنتخب من معجم شيوخ السمعاني ص١٣٧٥، والتحبير في المعجم الكبير ٢/٧٣.
(١١) انظر: المنتخب من معجم شيوخ السمعاني ص١٣٨٢.
(١٢) انظر السابق ص١٥٥٣.

بن أحمد الأبيوردي العطار[(١)]، وأبو نصر محمد بن منصور بن عبد الرحيم الأشناني[(٢)]، وأبو المجد محمود بن عبد الرحمن بن إبراهيم الفارسي الشيرازي الصوفي[(٣)]، وأبو محمد هبة الله بن سهل بن عمر بن أبي عمر محمد بن الحسين بن محمد بن القاسم بن مالك بن أبي الهيثم البسطامي، المعروف بالسيدي[(٤)]، وأم الغافر دردانة بنت أبي عبد الله إسماعيل بن عبد الغافر بن محمد بن عبد الغافر بن محمد بن أحمد بن سعيد الفارسي، أخت أبي الحسن عبد الغافر[(٥)]، وعبد الغني بن بازل بن يحيىٰ بن الحسن بن شاهي الألواحي[(٦)]، وأبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد المعروف بالفراء البغوي[(٧)]... وغيرهم الكثير.

مذهبُهُ الفقهي والعَقَدي:

أما مذهبه الفقهي: فقد تمذهب الإمام القشيري بالمذهب الشافعي، فقد أخذ الفقه عن أبي بكر محمد بن بكر الطوسي ـ كما سبق ـ، ومن ثَمَّ أدرجته كتب طبقات الشافعية ضمن من ترجمت له من أعلام هذا المذهب، وقد مدح الإمام القشيري هذا المذهب بقوله[(٨)]: [المديد]

أَيُّهَا البَاحِثُ عَنْ دِينِ الهُدَىٰ ✤ طَالِبًا حُجَّةَ مَا يَعْتَقِدُهْ

إِنَّ مَا تَطْلُبُهُ مُجْتَهِدًا ✤ غَيْرَ دِينِ الشَّافِعِيِّ لَا تَجِدُهْ

---

(١) انظر: المنتخب من معجم شيوخ السمعاني ص١٥٧٤.

(٢) انظر السابق ص١٦٣٠.

(٣) انظر السابق ص١٦٩٦.

(٤) انظر السابق ص١٨١٠.

(٥) انظر: المنتخب من معجم شيوخ السمعاني ص١٨٧٩، والتحبير في المعجم الكبير ٢/٤٠٦.

(٦) انظر: تكملة الإكمال ١/٢٢٢.

(٧) انظر: معالم التنزيل ١/١٥٢، ٣٦٦، ٤٢٥، ٢/٨، ٣/١٤١، وغيرها.

(٨) طبقات الشافعية الكبرىٰ ٥/١٦١.

وأما مذهبه العقدي: فالإمام القشيري من مشاهير أتباع مذهب أبي الحسن الأشعري، ولا عجب في ذلك فقد تلمذ لكبار علماء الأشاعرة في عصره من أمثال ابن فورك، وأبي إسحاق الإسفراييني ـ كما مرَّ ـ، كما صنف رسالته المشهورة (شكاية أهل السُّنة بحكاية ما نالهم من المحنة)[١] في الدفاع عن أبي الحسن الأشعري، وقد أسندها ابن عساكر، وذكر معظمها[٢].

يقول الباخرزي مقررًا ذلك[٣]: «ماهر في التكلم على مذهب الأشعري».

ويقول ابن ماكولا أيضًا[٤]: «أحد المتكلمين على مذهب الأشعري».

ويقرِّر الخطيب البغدادي وابن عساكر مذهبيه ـ الفقهي والعقدي ـ بقوله[٥]: «وكان يعرف الأصول على مذهب الأشعري، والفروع على مذهب الشافعي».

شِعْرُهُ:

لكون العلامة القشيري قد أتقن فنَّ اللغة والأدب منذ نُعُومة أظافره على شيخه أبي القاسم الألِيمانيّ ـ كما سبق ـ فقد تربَّتْ عنده ملكةُ إنشَادِ الشِّعر، فحفظتْ لنا كتب التّراجم بعض أشعارِه، يقول الباخرزي[٦]: «وله شِعْرٌ تُتَوَّج به رؤوس مَعَالِيه، إذا خُتِمَت به أذنابُ أماليه».

(١) للاستزادة حول محنة القشيري التي أدت به إلى سجنه، ومفارقة وطنه وخلانه، وارتحاله إلى بغداد هو وجماعة من الأشعرية. انظر: تبيين كذب المفتري ص١٠٨، ٢٧٤ ـ ٢٧٥، والمنتظم ٤٠٦/٤، وسير أعلام النبلاء ١٤٢/١٨ ـ ١٤٣، وطبقات الشافعية الكبرى ١٥٧/٥، ٣٩٩/٣، والإمام القشيري ـ حياته وتصوفه وثقافته ص١٧، وغيرها.

(٢) تبيين كذب المفتري ص١١٣.

(٣) دمية القصر ٩٩٣/٢.

(٤) الإكمال ٤٣٩/١.

(٥) تاريخ بغداد ٨٣/١١، وتبيين كذب المفتري ص٢٧٢.

(٦) دمية القصر ٩٩٣/٢.

ويقول ابن الصلاح أيضا[١]: «وكان ينظم الأشعار اللطيفة على لسان أهل الطريقة». ومما أُثِر عنه من شِعْرٍ في كتب التَّراجم:

* قَولُهُ في رمدِ الحبيب[٢]: [من السَّريع]

يَا مَنْ تَشَكَّى رمدًا مَسَّهُ ❀ لا تَرفَعِ الشَّكْوَى إلى خَالِقِكْ
مُوجِبُ مَا مَسَّكَ مِنْ عَارضٍ ❀ أَنَّكَ لَمْ تَنْظُرْ إلى وَامِقِكْ

* وَقَولُهُ[٣]: [مجزوء الكامل]

الأرضُ أوسعُ رقعَةً ❀ مِنْ أَنْ يَضِيقَ بِكَ المَكَانْ
وإذَا نَبَا بِكَ مَنْزِلٌ ❀ ويَظَلُّ يلحقُكَ الهَوَانْ
فاجعَلْ سِواهُ مُعَرَّسًا ❀ وَمِنَ الزَّمَانِ لَكَ الأَمَانْ

* ومِن غزلياته الرَّقيقَة، التي هي الماءُ الزُّلال على الحقيقة قولُهُ[٤]: [من الكامل]

قالوا: بثينةُ لا تَفِي بعِداتِها ❀ رُوحِي فداءُ عِداتِهَا ومِطَالِهَا
إنْ كانَ نَجْزُ عِدَاتِهَا مُسْتَأخرًا ❀ فلقَدْ تَشَرّفنا بِنَقْدِ مَقَالِهَا

ـ وَقولُهُ[٥]: [من البسيط]

الدَّهْرُ سَاومَنِي عُمْرِي فَقُلْتُ لَهُ: ❀ لا بعتُ عُمْرِيَ بالدُّنيَا وَمَا فِيهَا
ثُمَّ اشتَرَاهُ تَفَارِيقًا بِلا ثَمَنٍ ❀ تَبَّتْ يَدَا صَفْقَةٍ قَدْ خَابَ شَارِيهَا

---

(١) طبقات الفقهاء الشافعية ٢/٥٦٥.
(٢) دمية القصر ٢/٩٩٣.
(٣) السابق ٢/٩٩٣.
(٤) السابق ٢/٩٩٣.
(٥) بغية الطلب في تاريخ حلب ٥/٢٢٧٥، والتدوين في أخبار قزوين ٣/٢١١.

ذَلَّتْ صِعَابُ المَعَانِي لِي فأدركهَا ❊ فَهْمِـي، ونفـسٌ أَعْيَتْنِـي مَعَانِيهَـا

ـ وَقَولُهُ[(١)]: [من الطويل]

سَقَى اللهُ وَقْتًا كُنْتُ أَخْلُو بِوجهِكُمْ ❊ وَثَغْرُ الهَوَى فِي رَوضَةِ الأُنْسِ ضَاحِكُ

أَقَمْنَـا زَمَانًـا والعُيُـونُ قَرِيـرَةٌ ❊ وأَصْبَحْتُ يومًا والجُفُونُ سَوافِكُ

ـ وَقَولُهُ[(٢)]: [من الطويل]

ثُـمَّ قَطَعْـتُ الليـلَ فِـي مَهْمَـهٍ ❊ لا أَسَـدًا أَخْشَـى وَلَا ذِيبَـا

يَغْلِبُنِـي شَـوقِي فَـأَطْوِي السُّرَى ❊ وَلَـمْ يَـزَلْ ذُو الشَّـوقِ مَغْلُوبَـا

وغيرُ ذلك الكثير مِمّا حكاه الإمام السبكي عنه[(٣)]، وغيره[(٤)].

❁ ثناءُ العلماءِ عليه:

لمكانة الإمام القشيري العظيمة بين علماء عصره فقد أثنى عليه كلُّ مَن ترجم له ثناءً عطرًا، ومن بين هذه الثناءات التي تبرز مكانته:

ـ قول عصريّة الهجويري[(٥)]: «البديع في زمانه، والرفيع في قدره، ومنزلته كبيرة ومعلومة لأهل زمانه، وله من أحواله وأنواع فضله لطائف كثيرة في كل فنٍّ».

ـ وقول السبكي[(٦)]: «أحد أئمة المسلمين علمًا وعملًا، وأركان المِلَّة فِعْلا

(١) وفيات الأعيان ٣/٢٠٧، وسير أعلام النبلاء ١٨/٢٣٢، ومرآة الجنان ٣/٩٢.

(٢) وفيات الأعيان ٣/٢٠٧، وسير أعلام النبلاء ١٨/٢٣٢، ومرآة الجنان ٣/٩٢.

(٣) تأملها في: طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٦٠ ـ ١٦٢.

(٤) انظر: نجم المهتدي ١/٤٤١، وطبقات الفقهاء الشافعية ٢/٥٦٧، وشذرات الذهب ٣/٣٢١.

(٥) كشف المحجوب ص٣٨٢.

(٦) طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٥٣ ـ ١٥٤.

ومقولا، إمام الأئمة، ومُجَلِّي ظلمات الضلال المُدلهِمَّة، أحدُ مَن يُقْتَدَىٰ به في السُّنَّة، ويتوضَّح بكلامه طُرُق النار وطرق الجنة، شيخ المشايخ، وأستاذ الجماعة، ومُقدَّم الطائفة، الجامع بين أشتات العلوم... وكان فقيهًا بارعًا أصوليًّا، محققًا متكلمًا سُنِّيًا، مُحَدِّثًا حافظًا، مفسرًا متفننًا، نحويًّا لغويًّا، أديبًا كاتبًا شاعرًا، مليحَ الخط جدًّا، شُجاعًا بَطَلًا، له في الفُرُوسَية واستعمال السلاح الآثار الجميلة، أجمع أهل عصره علىٰ أنه سيد زمانه، وقدوة وقته، وبركة المسلمين في ذلك العصر».

ـ وقول الباخرزي أيضًا[(١)]: «جامعٌ لأنواع المحاسن، تنقادُ له صعابها ذلل المَراسِن، فلو قُرِعَ الصَّخرُ بسوطِ تحذيره لذاب، ولو ارتبط إبليس في مجلس تذكيره لتاب، وله فصل الخطاب في فضل النطق المستطاب، ماهر في التكلم علىٰ مذهب الأشعري، خارج في إحاطته بالعلوم عن الحد البشري، كلماته كلها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للمستفيدين فوائد وفرائد، وعتبات مِنْبَره للعارفين وسَائِد، ثمّ إذا عقد بين مشايخ الصوفيّة حبوتَه، ورأوا قربَتَه من الحقِّ وخطوتَه، تضاءلوا بين يديه، وتلاشَوا بالإضافة إليه، وطَواهُم بساطُهُ في حَوَاشِيه، وانقسمُوا بين النَّظَر إليه والتفكُّر فيه».

ـ وقول سبط ابن الجوزي[(٢)]: «وكان ثقةً، حسنَ الوعظ، مليحَ الإشارة، يعرف الأصولَ علىٰ مذهب الأشعري، والفروعَ علىٰ مذهب الشافعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ».

ـ وقول الذهبي[(٣)]: «وانتهت إليه رئاسة التصوف في زمانه؛ لما أتاه الله من الأهوال والمجاهدات وتربية المريدين وتذكيرهم وعباراتهم العَذْبَة، فكان عديم النظير في ذلك، طيب النفس، لطيف الإشارة، غواصا علىٰ المعاني... وكان إمامًا قدوة مفسرًا محدثًا فقيهًا، متكلمًا نحويًّا كاتبًا شاعرًا».

---

(١) دمية القصر ٢/٩٩٣.

(٢) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ١٩/٢٦٥.

(٣) تاريخ الإسلام ٣١/١٧٢ ـ ١٧٣.

ـ وقول ابن المعلم[١]: «البحرُ الذي لا يُسَاجَل، والحبر الذي لا يُماثل، قد انعقد الإجماع على إمامته، وسلم عن النزاع مشهور كرمه ومأثور كرامته، إنْ ذُكر التفسير فهو ابنُ عباسٍ فنونِهِ، أو الحديث فهو الحافظ لأسانيده ومتونه، أو الفروع فأصله منها نابت، أو الأصول فقد بسقَ فرعُه منها في السماء على أصل ثابت، أو الزهد والورع فمنه يُتعلم، أو المعارف فالعارفون منصتون حين يتكلم، قد اعترف بفضله النَّديد، واغترف من فضله المفيد والمستفيد».

ـ وقول ابن خلكان[٢]: «الفقيه الشافعي، كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف».

ـ وقول ابن علان الصديقي[٣]: «أحد مشاهير الدنيا بالفضل والعلم والزهد، وأولادُهُ وأهله كلهم فضلاء»... وغير ذلك الكثير.

وفاته:

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ صبيحة يوم الأحد قبل طلوع الشمس سادس عشر شهر ربيع الآخر، سنة خمس وستين وأربعمائة بمدينة نيسابور، ودفن بالمدرسة بباب الطاق، بجنب شيخه الأستاذ أبي علي الدقاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤].

قال ابن الصلاح[٥]: «وصلى عليه ابنه الأكبر: أبو سعد عبد الله مع الخلق الكثير، وما عهد قبلهم اجتماع مثله، ولزم الأئمةُ الأحوال رأس تربته ليلاً ونهارًا،

---

(١) نجم المهتدي ١/٤٣٥.

(٢) وفيات الأعيان ٣/٢٠٥.

(٣) الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية ١/٧٤.

(٤) انظر: وفيات الأعيان ٣/٢٠٧، والوافي بالوفيات ١٩/٦٤، ومسالك الأبصار ٨/١٧٢، وطبقات الشافعية الكبرى ٥/١٥٩، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبه ١/٢٥٥.

(٥) طبقات الفقهاء الشافعية ٢/٥٦٨. وانظر: نجم المهتدي ١/٤٤٢.

وكانوا يبيتون عندها، ولم يدخل أحد منهم بيته، ولا مسَّ ثيابه ولا كتبه ولا أجزاءه إلا بعد سنين؛ احتراماً وتعظيماً له». وقد عاش تسْعًا وثمانين سنة، وذهب الذهبي إلىٰ أنه عاش تسعين سنة بناءً علىٰ ما ذكره في تاريخ ولادته، فقال: «وله تسعون سنة إلا شهرًا»[١].

وقال السُّبكي[٢]: «قال أبو تراب المراغي: رأيته في النوم، فقال: أنا في أطيب عيش، وأكمل راحة».

آثاره:

خلَّف الإمام القشيري للمكتبة العربية كتبًا كثيرة قيِّمة في فنونٍ مختلفة، وهي نفيسة في بابها، تخلو من الحشو والتطويل، كما أشار الهجويري بقوله: «وتصانيفه نفيسة، كلها محققة، وقد حفظ الله تعالىٰ حاله ولسانه من الحَشْو».

وقال ابن الصلاح أيضًا[٣]: «له تصانيف كثيرةٌ في فنونٍ». ودونك حصرًا لها وفق الترتيب الهجائي:

١ ـ آداب الصوفية، طبع بتحقيق: نزار حماد، في دار التقوىٰ ـ دمشق، ودار الإمام بن عرفة.

٢ ـ الأربعون في الحديث[٤]، قال عنها الذهبي[٥]: «ولأبي القاسم أربعون حديثًا من تخريجه سمعناها عالية»، ولها أكثر من نسخة خطية.

---

(١) دول الإسلام ١/٤٠٠. وانظر: سير أعلام النبلاء ١٨/٢٣٢.

(٢) طبقات الشافعية الكبرىٰ ٥/١٥٩.

(٣) طبقات الفقهاء الشافعية ٢/٥٦٨.

(٤) انظر: طبقات الشافعية الكبرىٰ ٥/١٥٩، وهدية العارفين ١/٦٠٨.

(٥) سير أعلام النبلاء ١٨/٢٣٢.

٣ ـ استفادات المرادات في أسماء الله تعالىٰ علىٰ وجه الخاص[١]، وله أكثر من نسخة خطية، وقد اطلعت علىٰ نسخة مكتبة (آيا صوفيا) بتركيا برقم (١٧٩٣) فوجدتها باللغة الفارسية.

٤ ـ أمالي أبي القاسم القشيري ـ في الحديث ـ، صدر بتحقيق د/بلال الأرفة، وزميله، عن دار المشرق ـ ٢٠٢٠م.

٥ ـ بُلغة المقاصد، طبع بتحقيق د/عاصم الكيالي، في دار الكتب العلمية ـ ضمن ثلاث رسائل في العقيدة للقشيري، وطبع أيضا ضمن ثلاث رسائل للقشيري في المكتبة الأزهرية للتراث، وفي دار ابن حزم.

٦ ـ التحبير في التذكير (شرح أسماء الله الحسنىٰ)، وله أكثر من طبعة، فطبع بتحقيق د/إبراهيم البسيوني في دار الكتاب العربي بالقاهرة، وطبع بتحقيق: عبد الوارث محمد علي، في دار الكتب العلمية، وطبع في دار البيروني أيضا.

٧ ـ ترتيب السلوك في الطريق إلىٰ الله تعالىٰ، طبع بتحقيق د/إبراهيم بسيوني، وعاونه: محمد أحمد غانم، وله طبعات أخرىٰ.

٨ ـ التفسير الكبير[٢]، أو التيسير في التفسير[٣]، قال السبكي[٤]: «وهو من أجود التفاسير وأوضحها»، ومنه أجزاء خطية متفرقة في مكتبات العالم.

٩ ـ الجواهر المنثورة، ومنه نسخة خطية بمتحف مولانا تحت رقم

(١) انظر: هدية العارفين ١/٦٠٨.
(٢) انظر: نجم المهتدي ١/٤٣٩.
(٣) انظر: كشف الظنون ١/٥١٩، وفهرس المخطوطات العربية في جامعة برنستون ـ مجموعة جاريت ١/٣٩٦.
(٤) طبقات الشافعية الكبرىٰ ٥/١٥٩.

(١٦٣٤)[١]، ولعله هو: الجواهر الذي نص عليه: الذهبي[٢]، والسبكي[٣].

١٠ ـ حياة الأرواح والدليل إلى طريق الصلاح[٤]، ومنه نسخة بمكتبة الأسكوريال برقم (٧١٠)، وغيرها.

١١ ـ الرسالة القشيرية، طبع أكثر من طبعة، فطبع بتحقيق الأمام الأكبر د/عبد الحليم محمود في دار المعارف، وفي دار المنهاج بجده، وفي سقيفة الصفا العالمية بالاشتراك مع الأزهر الشريف، ومطبعة بولاق، ومطبعة الحلبي، ودار السلام، ودار الكتب العلمية ـ بيروت، والمكتبة العصرية، ودار الخير، والمكتبة التوفيقية، وغيرها.

١٢ ـ رسالة في السُّلوك للمريدين، ومنه نسخة بمكتبة (لا له لي) برقم (٣٧٠٦) من اللوحة ١٨٥ ـ ١٩٠[٥]، وبالاطلاع عليها وجدتها منسوبة للقشيري ولا تحمل هذا العنوان.

١٣ ـ شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة، طبع بتحقيق د/فير محمد حسن، ضمن ثلاث رسائل للقشيري، نشرها المعهد المركزي للأبحاث الإسلامية، وذكرها كاملة السبكي في طبقاته[٦].

١٤ ـ عبارات الصوفية ومعانيها، طبع بتحقيق د/قاسم السامرائي ـ ضمن أربع رسائل في التصوف للقشيري في مطبعة العلمي العراقي ـ ١٩٦٩م.

---

(١) انظر: تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم ١٨٥٤/٣.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام ١٧٢/٣١.

(٣) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ١٥٩/٥.

(٤) انظر: إيضاح المكنون ٤٢٤/٣، وهدية العارفين ٦٠٨/١.

(٥) انظر: تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم ١٨٥٥/٣.

(٦) ٣٩٩/٣، وما بعدها.

١٥ ـ عقد الجواهر ونور البصائر في فضيلة ذكر الذاكر، ومنه نسخة خطية في ميونيخ برقم (١٦١)[1].

١٦ ـ عقيدة أهل التصوف وقولهم في مسائل التوحيد، طبع بتحقيق د/عاصم الكيالي، في دار الكتب العلمية ـ ضمن ثلاث رسائل في العقيدة للقشيري، وفي دار ابن حزم بتحقيق: بسام عبد الوهاب، ضمن ثلاث رسائل للإمام القشيري.

١٧ ـ عيون الأجوبة في فنون الأسئلة[2]، وله أكثر من نسخة خطية.

١٨ ـ فصل الخطاب في فضل النطق المستطاب[3].

١٩ ـ الفصول في الأصول، طبع بمطبعة الأمانة بالقاهرة، وطبع أيضا في المكتبة الأزهرية للتراث ـ ضمن ثلاث رسائل للقشيري.

٢٠ ـ القصيدة القشيرية [في التصوف]، طبع بتحقيق د/قاسم السامرائي ـ ضمن أربع رسائل في التصوف للقشيري في مطبعة العلمي العراقي ـ ١٩٦٩م، وطبعت مشروحة في دار الفتح بالأردن ـ ٢٠٢١م.

٢١ ـ كتاب السَّمَاع، طبعت بتحقيق د/فير محمد حسن، ضمن ثلاث رسائل للقشيري، نشرها المعهد المركزي للأبحاث الإسلامية.

٢٢ ـ كنز اليواقيت في الوعظ والتذكير والزهد[4]، وله أكثر من نسخة خطية، وعنه أكثر من نقلٍ في كتب المتأخرين.

---

(١) انظر: فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الدولة بميونيخ ص٤٨.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام ٣١/١٧٢، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٥/١٥٩، وكشف الظنون ٢/١١٨٣، وهدية العارفين ١/٦٠٨.

(٣) انظر: دمية القصر ٢/٩٩٣، وكشف الظنون ٢/١٢٦٠.

(٤) انظر: كشف الظنون ٢/١٥٢٠.

٢٣ ـ لطائف الإشارات في التفسير، وطبع أكثر من طبعة، فطبع في المكتبة السلفية والهيئة العامة المصرية للكتاب بتحقيق د/إبراهيم البسيوني، وفي المكتبة التوفيقية بتحقيق: سعيد قطيفة، وفي دار الكتب العلمية بتحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن.

٢٤ ـ لمع في الاعتقاد، طبع بتحقيق د/عاصم الكيالي، في دار الكتب العلمية ـ ضمن ثلاث رسائل في العقيدة للقشيري، وطبع أيضا ضمن ثلاث رسائل للقشيري في المكتبة الأزهرية للتراث.

٢٥ ـ مختصر جامع النكت(١).

٢٦ ـ مختصر في التوبة، طبع بتحقيق د/قاسم السامرائي ـ ضمن أربع رسائل في التصوف للقشيري في مطبعة العلمي العراقي ـ ١٩٦٩م.

٢٧ ـ مدارج الإخلاص(٢).

٢٨ ـ المعراج، طبع بتحقيق: علي حسن عبد القادر، في دار الكتب الحديثة بالقاهر، وطبع أيضا بتحقيق د/عاصم الكيالي، في دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٩ ـ مفاتيح الحجج في إبطال مذهب المنجمين(٣).

٣٠ ـ المقامات الثلاثة ـ في التصوّف، ومنه نسخة خطية بمكتبة (بايزيد عمومي، برقم (٣٥٥١)(٤).

---

(١) طبقات الفقهاء الشافعية ٢/٥٦٩.

(٢) انظر: كشف الظنون ٢/١٦٤٠.

(٣) طبقات الفقهاء الشافعية ٢/٥٦٨، والكاشف عن حقائق السنن للطيبي ٦/١٧٦٦، ٩/٢٩٦٦، ٣٥٨١/١١، ومرقاة المفاتيح ٧/٢٩١١.

(٤) انظر: تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم ٣/١٨٥٦.

٣١ ـ المُنَاجَاة[١].

٣٢ ـ المُنتهىٰ في نكت أولىٰ النهىٰ، طبع بتحقيق: نزار حماد، في المركز العربي للكتاب ـ الشارقة، ٢٠١٨م.

٣٣ ـ منثور الخطاب في مشهور الأبواب، طبع بتحقيق د/قاسم السامرائي ـ ضمن أربع رسائل في التصوف للقشيري في مطبعة العلمي العراقي ـ ١٩٦٩م، وطبع بتحقيق: نزار حماد، في المركز العربي للكتاب ـ الشارقة، ٢٠١٨م.

٣٤ ـ المولد النبوي، ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية[٢] برقم (١٩٢ ـ مجاميع)، ميكروفليم رقم (٥٠٥١)، ضمن مجموع يبدأ بكتابه (التحبير)، من اللوحة (١ـ١٢٠)، وكتاب المولد يبدأ من اللوحة (١٢١)، إلىٰ آخر المجموع، وفي النفس شيء من نسبته إليه.

٣٥ ـ ناسخ الحديث ومنسوخه[٣].

٣٦ ـ نحو القلوب الكبير والصغير، طبع بتحقيق د/أحمد علم الدين الجندي، وشاركه د/إبراهيم البسيوني، ط/الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣٧ ـ الواسطة في أصول الفقه[٤].

٣٨ ـ وصية للمريدين في التصوّف، ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية برقم (٢٠٥٣٤/ب)[٥].

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام ٣١/١٧٢، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٥/١٥٩.

(٢) فهرس الكتب العربية الموجودة بالدار لغاية سنة ١٩٢١: ١/١٥٥.

(٣) انظر: كشف الظنون ٢/١٩٢٠، وهدية العارفين ١/٦٠٨.

(٤) انظر: طبقات الفقهاء الشافعية ٢/٥٦٩.

(٥) انظر: تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم ٣/١٨٥٤.

❊ ومما نُسب له والأصح عدم صحة نسبته إليه:

١ ـ رسالة في وصف أهل الصفوة، ولها أكثر من نسخة خطية منها نسخة الخزانة الحسنية برقم (١٣٥٤٧)، ونسخة مكتبة (إزمير ملّي) برقم ١٤٥/ ٩، ونسخة مكتبة (ولي الدين أفندي) برقم (١٧٩٦)، ونسخة مكتبة (الفاتح) برقم (٢٧٨٥)، وتبدأ نسخة الفاتح من اللوحة ٢١٤ ـ ٢١٦، وباطلاعي عليها وجدتها نسخة من (منثور الخطاب) السَّالف الذكر.

٢ ـ الحقائق والرقائق في الحثّ على إقبال الخلق على الخالق، ومنه نسخة خطية بمكتبة تشستربتي برقم (٣٠٥٢)[١]... وغير ذلك.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: فهرس المخطوطات العربية في مكتبة (تشستربتي) ١/٣٩، وقد شك صانع هذا الفهرس في نسبته إليه أيضًا، فنبَّه على ذلك: «المنسوب إليه زُورًا».

المبحث الثاني
التعريف بـ(الرسالة القشيرية)

تعدُّ الرسالة القشيرية أشهر كتب الإمام القشيري على الإطلاق، حتى عُرِفَ بها، وعُرِف بها الأعلام أيضًا حتى قيل[١]: «فلان من رجال الرسالة القشيرية».

وقد أثنى عليها جمع من العلماء؛ فقال ابن الصلاح[٢]: «صاحب الرسالة إلى الصوفية السائرة في أقطار الأرض».

وقال السبكي أيضًا[٣]: «صاحب الرسالة التي سارت مغربًا ومشرقًا... والرسالة المشهورة المباركة التي قيل: ما تكون في بيت ويُنكب».

وقال ابن حجر الهيتمي[٤]: «هي أعظمُ كُتبِ السَّادة الصُّوفيَّة».

وقال الغزي[٥]: «الرسالة المباركة».

وقال الزبيدي[٦]: «وأما التصوف والرقائق فقد طالعت عليه كتبًا كثيرة، وأجلها مقدارًا: الرسالة للإمام أبي القاسم القشيري».

---

(١) انظر: الرسالة المستطرفة ص٩٠، وديوان الإسلام ٢/٢١١، ٢٨٧، وتاج العروس: «ت رب، م م ش ذ، دق ق، غ ل م».
(٢) طبقات الفقهاء الشافعية ٢/٥٦٢.
(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٥٣، ١٥٩.
(٤) الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ص١٠٦.
(٥) ديوان الإسلام ٤/٣٤.
(٦) إتحاف السادة المتقين ١/٥ ـ ٦.

وقال حاجي خليفة[١]: «وهي عمدة في هذا الفن».

ومدار الحديث حولها يدور حول النقاط التالية:

الباعث على تأليفها:

هو الحالة المتردية التي وصل إليها حال التصوف والمتصوفة في زمانه، حتى انحرفوا به عن مساره الصحيح، فتشبَّهُوا بأهل الورع اسمًا لا حقيقة، فحاول نفي هذه الانحرافات وتعديل المسار، ومِنْ ثَمَّ قامَ الإمامُ القُشَيرِيُّ بتأليفِ رسالتِهِ، مُتَوجِّهًا بها إلى جماعةِ الصُّوفيَّةِ ببلدَانِ الإسلامِ، مُبينًا أنَّ هذه الطائفةَ (الصوفية) هم صفوةُ أولياءِ اللهِ من خلقِهِ، وبثَّ لأهلِ الطَّريقِ شَكْوَاهُ بقولِهِ[٢]: «لقدِ اندرسَتِ الطريقةُ بالحقيقةِ، ومضى الشيوخُ الذين كانَ بهم اهتداءٌ، وقلَّ الشَّبَابُ الذينَ كانَ لهم بسيرتِهِم وسُنتِهِم اقتدَاءٌ، وزالَ الورعُ وطُوِيَ بِسَاطُهُ، واشتدَّ الطَّمَعُ وقَوِيَ رِبَاطُهُ، فارتحلَ عن القلوبِ حُرْمَةُ الشَّرِيعَة، فعدُّوا قِلَّةَ المُبَالاةِ بالدين أوثقَ ذَرِيعَة، ورفَضُوا التَّمييزَ بينَ الحَلالِ والحَرَامِ، ودانُوا بتركِ الاحتِرَامِ، وطرحِ الاحتِشَام، واستَخَفُّوا بأدَاءِ العباداتِ، واستَهَانُوا بالصَّومِ والصَّلاةِ، وركضُوا في ميدَانِ الغَفَلات، ورَكَنُوا إلى اتباعِ الشَّهَواتِ، وقلةِ المُبَالاةِ بتعَاطِي المحظورَاتِ...» إلخ.

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا[٣]: «ولمَّا طالَ الابتلاءُ فيمَا نحنُ فيه من الزمانِ بما لوَّحتُ ببعضه من هذه القصة، وكنتُ لا أبسطُ إلى هذه الغاية لسانَ الإنكار؛ غيرةً على هذه الطريقة أن يُذكر أهلُهَا بسوءٍ، أو يجدَ مخالفٌ لثلبِهِم مَسَاغاً؛ إذِ البلوى

---

(١) كشف الظنون ١/٨٨٢.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٦ ـ ١٧.

(٣) الرسالة القشيرية ١/١٧.

في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرينَ عليها شديدة... ولما أبىٰ الوقت إلا استصعابًا، وأكثرُ أهل العصر بهذه الديار إلا تماديًا فيما اعتادوه، واغترارًا بما ارتادوه، أشفقت على القلوب أن تحسبَ أن هذا الأمر علىٰ هذه الجملة بُنِي قواعدُهُ، وعلىٰ هذا النحو سار سلَفُه، فعلَّقتُ هذه الرسالة إليكم، أكرمكم الله....».

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا[1]: «اعلَمُوا ـ رحمكم اللهُ ـ أنَّ شُيوخَ هذه الطائفةِ قد بَنَوا قواعدَ أمرِهِم علىٰ أُصُولٍ صحيحةٍ في التَّوحيدِ؛ صَانُوا بِهَا عَقَائدَهُم عَنِ البِدَعِ، ودَانُوا بِمَا وَجَدُوا عليه السَّلف ـ (أهل السنة) ـ؛ مِنْ تَوحيدٍ ليسَ فيه تمثيلٌ ولا تعطيلٌ، وعرفُوا ما هو حقُّ القِدمِ، وتحقَّقُوا بما هو نعتُ الموجودِ عن العَدَمِ، وأحكمُوا أُصُولَ العقَائِدِ بواضحِ الدَلائل، ولائحِ الشَّواهِدِ».

والحمد لله قد آتت ثمرتها المَرجُوَّة؛ لصدق قصد مؤلفها وإخلاصه، فأصبحت من أهم كتب التصوف علىٰ مرَّ الدهور حتىٰ الآن.

مضمونها:

تميَّزت الرسالة القشيرية بمادة نفيسة عن التصوف والصوفية، وترتيب بديع وتناسق بين أبوابها وفصولها، فقسمها مؤلفها إلىٰ عدة أبواب مسبوقة بمقدمة في أصول التوحيد عند الصوفية، تناول في الباب الأول التعريف بمشايخ هذه الطريقة، وذِكْر جانبٍ من أقوالهم بصدد الترجمة لهم، فتجاوز عددهم الثمانين، ثم تناول في الباب الثاني: التعريف بمصطلحات القوم الخاصة بهم، فتجاوزت الأربعين مصطلحًا، ثم تناول في الباب الذي يليه: مقاماتِ أو مدارجَ أبواب السلوك، فتجاوزت الخمسين مقامًا؛ كالتوبة والمجاهدة والخلوة وغيرها، مع ذكر

(١) الرسالة القشيرية ١/١٩.

ما أُثر عن أعلام المتصوفة من الأقوال فيها، وهذا الفصل أطول فصولها وأنفعها، ثم تناول في الباب الذي يليه باب السماع، ثم باب كرامات الأولياء، ثم باب رؤيا القوم، ثم ختمها بباب الوصية للمريدين.

وقد أفاد العلامة القشيري في رسالته من الكتب المؤلفة قبله في هذا الفن؛ كاللمع للسراج الطوسي، وطبقات الصوفية لشيخه السلمي، وتهذيب الأسرار للخركوشي، وحلية الأولياء لأبي نعيم، والإبانة لابن فورك، وغيرها.

ومع أهمية هذا الكتاب في بابه لم يسلم من بعض المآخذ من بعض العلماء، فمع مدح ابن تيمية له من جوانب شتى إلا أنه أخذ على مؤلفه بعض المآخذ، حيث قال(١): «وما ذكره أبو القاسم في رسالته من اعتقادهم وأخلاقهم وطريقتهم فيه من الخير والحق والدين أشياء كثيرة، ولكن فيه نقص عن طريقة أكثر أولياء الله الكاملين، وهم نقاوة القرون الثلاثة ومن سلك سبيلهم، ولم يذكر في كتابه أئمة المشايخ من القرون الثلاثة، ومع ما في كتابه من الفوائد في المقولات والمنقولات ففيه أحاديث وأحاديث ضعيفة...» وله حق في بعضها، وليس له حق في البعض الآخر.

۞ شروح الرسالة القشيرية:

لأهمية «الرسالة القشيرية» في بابها فقد تعلَّق بها العلماء شرحًا واختصارًا، وترجمة ونظمًا لرجالها، وعلى الرغم من كثرةِ الشروح لها إلا أننا لم يصلنا حتى الآن من هذه الشروح إلَّا شرحُ العلامة اللخمي، ومختصرُه شرح الشيخ زكريا الأنصاري.

- فمن الشروح التي ذكرتْها كتبُ التراجم:

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٩.

١ ـ الدلالة على فوائد الرسالة، للعلامة اللخمي ـ وسأخصه بحديث مستقل فيما يأتي ـ.

٢ ـ شرح الرسالة القشيرية، لعلي بن محمد بن محمد بن علي الفرشي، نور الدِّين أَبُو الحسن البسطي الشهير بالقلصادي الأندلسي المالكي، المتوفى سنة (٨٩١هـ)[١].

٣ ـ إحكام الدلالة على تحرير الرسالة، للشيخ زكريا الأنصاري، المتوفى سنة (٩٢٦هـ)، طبع بتحقيق: عبد الجليل الغطا، في دار النعمان للعلوم ـ ٢٠٠٠م. نتائج الأفكار القدسية فِي بيان معاني شرح الرسالة القشيرية، وللعلامة مصطفى بن محمد العروسي (ت١٢٩٣هـ) حاشية عليها، وقد طبعت في مطبعة بولاق، وفي دار الكتب العلمية ـ بيروت، وفي غيرها.

٤ ـ شرح الرسالة القشيرية، لعلي بن سلطان محمَّد القاري الهرويّ، المتوفى سنة (١٠١٤هـ)[٢].

٥ ـ شرح الرسالة القشيرية، لعمر بن عبد الوهَّاب بن إبراهيم بن محمود العرضي الحلبي، المتوفى سنة (١٠٢٤هـ)[٣].

٦ ـ المحاسن السنيَّة فِي شرح الرسالة القشيرية، لعلي بن برهان الدين ابراهيم بن أحمد بن علي بن عمر الحلبِي، المتوفى سنة (١٠٤٤هـ)[٤].

٧ ـ النكت المفيدة على الرسالة القشيرية، ليحيى بن الحسين بن القاسم،

---

(١) انظر: هدية العارفين ١/٧٣٨.

(٢) انظر: هدية العارفين ١/٧٥١، ومعجم المؤلفين ٧/١٠٠.

(٣) انظر: خلاصة الأثر ٣/٢١٧، وهدية العارفين ١/٧٩٦.

(٤) انظر: خلاصة الأثر ٣/١٢٣، وهدية العارفين ١/٧٥٦.

المتوفى سنة (١٠٩٩هـ)، ومنه نسخة خطية بمكتبة (الجامع الكبير) بصنعاء، برقم (٤٢ مجاميع)[(١)].

٨ ـ فتح خالق البرية بذكر الرسالة القشيرية، لأحمد بن محمد البرنسي[(٢)]... وغيرها.

ـ ومن المختصرات لها:

١ ـ منحة الواهب النعم والقاسم في تلخيص رسالة الأستاذ القشيري أبي القاسم، لإبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن علي بن مسعود بن رضوان، برهان الدين المريّ المقدسي، ثم القاهري الشافعي، المتوفى سنة (٩٢٣هـ)[(٣)].

٢ ـ الورد العذب في مختصر الرسالة القشيرية، لعلي بن خليل المرصفي الشافعي (٩٣٠هـ)[(٤)]. ولخص أيضًا مقاصد السلوك منها في كتابه: (منهج السالك إلى أشرف الممالك)[(٥)]، ومنه نسخة خطية في مكتبة (جامعة الملك سعود) برقم (٣٣٦٠)، وغيرها.

٣ ـ تذكير الصالحين من الكمّل الفالحين، لدرويش عبد الكريم بن علي الصوفي، القاضي بتيمور حصار المتوفي بعد سنة (٩٧٧هـ)، ومنه نسخة خطية بمكتبة (أحمد باشا) بتركيا برقم (٣٢٩)[(٦)].

٤ ـ الجواهر الوهبية من الرسالة القشيرية، لأبي بكر بن أبي القاسم الأهدل،

(١) انظر: فهرس مخطوطات مكتبة الجامع الكبير ٣/١٤٠٠.

(٢) انظر: جامع الشروح والحواشي ٢/٩٧٦.

(٣) انظر: الضوء اللامع ١/١٣٥، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ١/٢٦.

(٤) انظر: هدية العارفين ١/٧٤٢.

(٥) انظر: كشف الظنون ٢/١٨٨٢، والأعلام ٤/٢٨٦.

(٦) انظر: معجم التاريخ: التراث الإسلامي ٢/١٨٤٩.

المتوفى سنة (١٠٣٥هـ)[١].

٥ ـ مختصر الرسالة القشيرية، لمحمد بن أحمد السرميني، كان حيًّا سنة (١٢٢٨هـ)، ومنه نسخة خطية بالمكتبة الظاهرية برقم (٩٩٣٨).

٦ ـ منتخبات الرسالة القشيرية، عبد النافع بن المُفتي محمّد سعيد الرُّومِي الحنفي، المتوفى سنة (١٣٠٨هـ)[٢]... وغيرها.

ـ وممن ترجم لرجالها ونظمهم:

١ ـ نظم شيوخ الرسالة القشيرية، لأبي العباس أحمد بن أبي بكر الردَّاد البكري الصديقي، المتوفى سنة (٨٢١هـ)[٣]. ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية، برقم (٢٨٣ ـ تصوف تيمور)، تحت عنوان: (الوسيلة الشريفة في شيوخ الرسالة القشيرية).

٢ ـ نظم رجال الرسالة القشيرية وشرحه، لأحمد بن عبد القادر بن عبد الوهاب بن موسى بن محمد بن مبارك التستوي، المتوفى سنة (١١٢٧هـ)[٤].

٣ ـ الفتوحات المكية في تراجم السادة الأئمة القشيرية، لمحمد بن سعيد باقشير، المتوفى سنة (١٠٧٧هـ)[٥]، منه نسخة خطية بمكتبة جامعة (برنستون) برقم (h٢٠٨)... وغيرها.

(١) انظر: جامع الشروح والحواشي ٢/٩٧٧.

(٢) انظر: هدية العارفين ١/٦٣٢، ومعجم المؤلفين ٦/١٩٩، ومعجم التاريخ: التراث الإسلامي ٣/١٩٠٢.

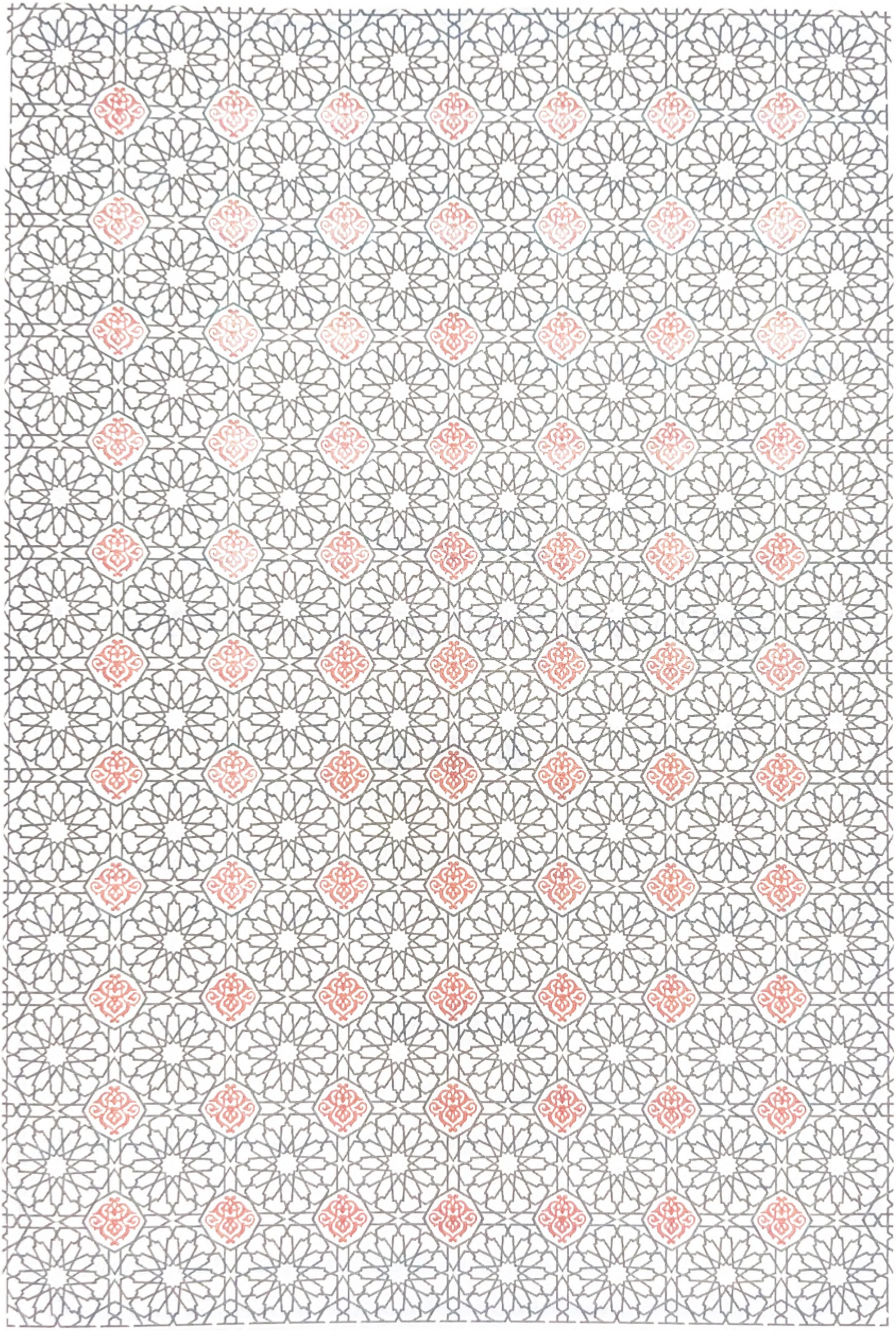
(٣) انظر: تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ٢/٣٣٦.

(٤) انظر: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ١/٣٨٦، ومعجم المؤلفين ١/٢٧٩.

(٥) انظر: الأعلام ٦/١٣٩، ومعجم المؤلفين ١٠/٢٧.

الفَصـل الثَّاني

العلامة اللخمي وشرحه: (الدلالة على فوائد الرسالة)



مصادر ترجمة العلامة (اللخمي)

* التكملة لوفيات النقلة ٣/٥٦٦.

* تاريخ الإسلام ٤٦/٣٧٠.

* نجم المهتدي ورجم المعتدي ١/٦٢٠.

* العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ٥/٤٩٧.

* هدية العارفين ١/٦٢٢.

* كشف الظنون ١/٨٨٢.

* إيضاح المكنون ٣/١٠٢.

* الأعلام للزركلي ٤/١٥٥.

* شارح مجهول من شراح الرسالة القشيرية، لأبي العلا عفيفي، بحث منشور ضمن مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، م١٤ ـ ١٩٦٠م[(١)].

---

(١) ولم يتوصل فيه كاتب المقال إلى ترجمة وافية للعلامة اللخمي، حيث قال: «أخذت بعد ذلك أبحث عن ترجمة لسديد الدين اللخمي الشارح الأكبر على الحقيقة لرسالة القشيري فلم أقف لهذا العالم الجليل المغمور على أثر، بل لم أظفر بتاريخ ميلاده أو وفاته...». ووصف شخصيته أيضًا بقوله: «الشخصية المجهولة»، كما في ص٥ من هذا المقال.

المبحَث الأول
العلامة اللخمي ـ حياته وآثاره

تمتع العلامة اللخمي بمكانة عظيمةٍ في علوم التصوف والرقائق، وتتجلَّىٰ هذه المكانة العظيمة من خلال استعراض ما وصل إلينا من كتبه القيمة، ومع ذلك لم توفه كتب التراجم هذا المكانة المرقومة، فاختصرت في ترجمته وأوجزت، ودونك ذكرَ ما أفصحت عنه بصدد الترجمة له:

اسمه ونسبه:

هو: عبد المعطي بن أبي الثناء محمود بن عبد المعطي بن عبد الخالق، سديد الدين، أبو محمدٍ اللخمي، الإسكندراني، الفقيه المالكي، الصوفي الضرير[(١)].

مولده ونشأته:

ولد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالإسكندرية سنة ثلاثٍ وستين وخمسمائة، وحدَّث بالإسكندرية ومكة، وله بالإسكندرية رباطٌ مشهور بها، وطريقته في الخير مشهورة[(٢)]، وقد حكىٰ في شرحه عن معاصريه حكايات متعددة حدثت في (ثغر الإسكندرية).

وقال تقي الدين الفاسي[(٣)]: «وبنىٰ له ابن حُبَاشة في الثغر رِباطًا بباب العزيز، ولم يزل يجلس فيه للتذكير والمواعيد، ثم انتقل في آخر عمره إلىٰ مكة ـ شرفها الله تعالىٰ ـ، وتوفي بها».

---

(١) انظر: التكملة لوفيات النقلة ٥٦٦/٣، ونجم المهتدي ٦٢٠/١، وتاريخ الإسلام ٣٧٠/٤٦.

(٢) انظر: التكملة لوفيات النقلة ٥٦٦/٣، وتاريخ الإسلام ٣٧٠/٤٦.

(٣) العقد الثمين ٤٩٨/٥.

شيوخه:

نصَّت كتب التراجم على بعض شيوخ العلامة اللخمي، لكنها لم تُكثر، ومنهم:

١ ـ أبو المفضل عبد المجيد بن الحسين بن دُلَيْل الكندي الإسكندراني، المتوفى سنة (٥٨٥هـ)[(١)].

٢ ـ أبو الحسن علي بن المفضل بن علي المقدسي، المتوفى سنة (٦١١هـ)[(٢)].

٣ ـ أبو القاسم عبد الرحمن بن مفرق الأنصاري[(٣)].

٤ ـ أبو عبد الله محمد الغزال الفقيه الإسكندراني، نص عليه في شرحه بقوله[(٤)]: «ولَقَدْ جرَىٰ لِي قريبًا مِنْ ذلكَ؛ وذلكَ أنِّي كنتُ فِي أوَّلِ أمرِي فِي أوَّلِ صُحبَتِي للشَّيخِ الفقيهِ أبِي عبدِ اللهِ محمَّدٍ الغزالِ بـ(ثَغْرِ الإسكندريَّةِ)».

تلاميذه:

ممن تلقى العلم على العلامة اللخمي:

ـ محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الله القرطبي المفسر، المتوفى سنة (٦٧١هـ)[(٥)]، وفي تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) ما يقرر هذه التلمذة:

ـ ففيه[(٦)]: «وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطي بن محمود بن

---

(١) انظر: التكملة لوفيات النقلة ٥٦٦/٣، وتاريخ الإسلام ٣٧٠/٤٦، والعقد الثمين ٤٩٧/٥.
وانظر في ترجمة ابن دُليل: التكملة لوفيات النقلة ١٢١/١، وتكملة إكمال الإكمال ص٥٢.

(٢) نص على ذلك المؤلف في (إرشاد السالكين) ـ فصل في أقوال المتوكلين. وانظر في ترجمة المقدسي: سير أعلام النبلاء ٦٦/٢٢، والوافي بالوفيات ١٣٦/٢٢، وشذرات الذهب ٤٧/٥.

(٣) انظر: العقد الثمين ٤٩٧/٥.

(٤) الدلالة على فوائد الرسالة ٥٤٧/٣.

(٥) انظر: السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ٥٨٥/٢.

(٦) تفسير القرطبي ٤٣/١١.

عبد المعطي اللخمي في (شرح الرسالة) له للقشيري حكايات كثيرة عن جماعة من الصالحين والصالحات بأنهم رأوا الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ ولقوه يفيد مجموعها غاية الظن بحياته».

ـ **وفيه أيضًا**[١]: «وقد تأول كثير من الناس فيما ذكر شيخنا أبو محمد عبد المعطي الأسكندراني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الإمام المحاسبي رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أن التوبة من أجناس المعاصي لا تصح، وأن الندم على جملتها لا يكفي، بل لا بدَّ أن يتوب من كل فعل بجارحته، وكل عقد بقلبه على التعيين، ظنوا ذلك من قوله، وليس هذا مراده ولا يقتضيه كلامه، بل حكم المكلف إذا عرف حكم أفعاله وعرف المعصية من غيرها صحت منه التوبة».

ـ **وفيه**[٢]: «وسمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعطي بثغر الإسكندرية يقول: إن شيطانا يقال له البيضاوي يتمثل للفقراء المواصلين في الصيام، فإذا استحكم منهم الجوع وأضر بأدمغتهم يكشف لهم عن ضياء ونور حتى يملأ عليهم البيوت فيظنون أنهم قد وصلوا، وأن ذلك من الله، وليس كما ظنوا».

مذهبه العقدي والفقهي:

أما مذهبه الفقهي: فهو مالكي المذهب، كما نص من ترجم له[٣]، وتأثره بمذهب الإمام مالك ظاهر وبيِّنٌ في كتابه، فتجده عندما يتعرض لمسألة ذات صلة بالفقه يفيض القولَ فيها، ويبين أقوال الفقهاء بصددها، مُقدِّمًا مذهب مالكٍ في الغالب، ومن أمثلة ذلك:

---

(١) تفسير القرطبي ٤/٢١٤.

(٢) السابق ١٠/٤٢٢.

ـ **قوله**(١): «وهذا صحيحٌ، ولكنَّهُ لا يجري على مذهبِ مالكِ بنِ أنسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنَّ العبدَ إذا دخلَ عندَهُ في نافلةِ صومٍ أو صلاةٍ أو غيرِ ذلكَ منَ الأعمالِ المتَّحدةِ حَرُمَ عليهِ قطعُهُ وإبطالُهُ. وأمَّا الشَّافعيُّ والمُحَاسِبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ وهو ظاهرُ قولِ معروفٍ ـ فإنَّهُم يُجَوِّزونَ قَطْعَ النَوَافلِ بعدَ الدُّخولِ فيها ما عدا الحجَّ والعُمْرَةَ، فإنَّهُ لابُدَّ منَ التَّمادِي وإنْ فسدَتْ، إلَّا أنَّ أهلَ الحَزْمِ والوَرَعِ من أهلِ تلكَ المذاهبِ لا يقطعُونَ هذهِ الأعمالَ إلَّا لمَا هوَ أَوْلَىٰ منهَا».

ـ **وقوله**(٢): «وهذا تنبيهٌ على أنَّ العبدَ ينبغي له إذا دَعَا أنْ يَسْتَفْرِغَ كُلِّيَّتَهُ بقلبِهِ وجَوارحِهِ وإقبالِهِ على ما أُمِرَ بالإقبالِ إليهِ، وَبَسْطُ اليدَينِ في الدُّعاءِ في الأخبارِ الصَّحيحةِ موجودٌ ثابتٌ، ويمسحُ بهمَا وجهَهُ. وكان مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ فيما نُقِلَ عنهُ أنَّهُ رفعَ يديهِ وبطونُهمَا إلى الأرضِ وظهورُهمَا إلى السَّماءِ حينَ عزمَ الإمامُ على النَّاسِ في الدُّعاءِ للاستسقاءِ، وقالَ: إنْ كان الرَّفعُ فهكذا».

ـ **وقوله**(٣): «وإنْ ضاقَ وقتُهَا على خلافٍ فيهِ بينَ العلماءِ؛ ومذهبُ مالكٍ تقديمُ هذهِ المنسيَّاتِ على الحاضرةِ وإنْ خرجَ وقتُهَا».

ـ **وقوله**(٤): «(هكَذَا أُمِرنَا أنْ نفعلَ)، معناهُ: نُجلُّهُمْ ونُعظِّمُهُمْ، وإنْ كانَ مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ كرِهَ تقبيلَ اليدِ، وشدَّدَ الكَرَاهَةَ فيهِ»... وغير ذلك.

أما مذهبه العقدي:

فقد كان العلامة اللخمي ضليعًا في (علم الكلام)، ويشهد لذلك مناقشاته

---

(١) الدلالة على فوائد الرسالة ١/٢١٣.
(٢) الدلالة على فوائد الرسالة ١/٢٨٣.
(٣) الدلالة على فوائد الرسالة ١/٧٣٤.
(٤) الدلالة على فوائد الرسالة ٢/٣٥١.

الكلامية التي ينحو بها إلىٰ المذهب الأشعري، ويردُّ المذاهب الأخرىٰ المخالفة له، ومن ذلك:

ـ **قوله**(١): «وقولُه ـ رحمةُ الله عليهِ ـ: (تعَالَىٰ عَنْ أنْ يُقَالَ: كَيْفَ هُو؟ أَو أَيْنَ؟ أَو اكْتَسَبَ بِصنعِه الزَّين، أو دفعَ بفِعْلِه النَّقصَ والشَّيْن)؛ ففي الأوَّلِ تنزُّهُهُ عنِ الجسميَّةِ والمكانِ، والثَّاني استغناؤُهُ عن مخلوقاتِهِ في جلْبِ نفْعٍ أو دفْعِ نقْصٍ في حالٍ من الأحوال؛ إذ ليسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ، وهوَ الكبيرُ المُتَعَال».

فذهب مذهب الأشاعرة في أنه سبحانه منزَّهٌ عن الجسمية ولواحقها من الحد والجهة، كما أنه ذهب مذهبهم في أنه عَزَّوَجَلَّ مستغنٍ عن خلقه في جلب منفعةٍ أو دفع مضرةٍ، بينما سائر الخلق محتاجون إليه؛ إما لجلب منفعة، وإما لدفع مضرة، أما هو فمنزهٌ عن الاحتياج والعوز.

ـ **وقوله**(٢): «هذا فيه الرَّدُّ علىٰ القائلينَ بالجسميَّةِ، وحُدُوثِ كَلامِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأنَّهُ يتكلَّمُ بحرفٍ وصوتٍ، تعالىٰ عن قولِهِم علوًّا كبيرًا. وفيه إشارةٌ إلىٰ أنَّهُ ـ سبحانه ـ كانَ وليسَ معَه غيرُهُ من سَائرِ مَخْلُوقاتِهِ منَ العَرشِ وغيرِهِ، وسائرِ مَنْ يتكلَّمُ بالأصواتِ والحُرُوفِ، وأنَّهُ قديمٌ لم يَزَلْ، وَأَنَّهَا بِجُمْلَتِهَا حَادِثَةٌ بعدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ».

فذهب مذهب الأشاعرة في إثبات صفة الكلام لله علىٰ نحو يليق به ـ سبحانه ـ، فقد ذهبوا إلىٰ أن كلام الله تعالىٰ صفة قديمة له لم يزل قائما بذاته، رافعًا للسكوت والخرس والآفة، ليس بصوت ولا حرف، ولا متعلق بمخارج وأدوات.

---

(١) الدلالة علىٰ فوائد الرسالة ١/١٢٢ ـ ١٢٣.

(٢) الدلالة علىٰ فوائد الرسالة ١/١٢٩.

ـ **وقوله**(١): «... ولهذا قالَ: (قُلْ أنا مؤمنٌ إنْ شاءَ الله)؛ لأنَّ الخيرَ والشَّرَّ منهُ رَدًّا على المعتزلةِ».

ـ **وقوله**(٢): «وفِي كَلامِهِ الثَّاني ما يدلُّ على أنَّ الأفعالَ كلَّهَا لله ـ تعالى ـ، وأنَّ أفعالَ العِبَادِ جَارِيةٌ بقُدْرةِ الله، وهو مَذْهَبُ أَهْلِ الحَقِّ، وَرَدٌّ على القَدَرِيَّةِ».

فذهب مذهب الأشاعرة في كونهم يرون جواز الاستثناء في الإيمان، وأن هذا لا يقدح في الإيمان، بينما نفى غيرهم الاستثناء في الإيمان توهمًا منهم أن هذا يفضي إلى القول بالشك في الإيمان، كما رد مذهب المعتزلة في أن الخير والشر فعل العبد ليس لله ـ تعالى ـ صُنْعٌ فيه.

ـ **وقوله**(٣): «وقولُهُ: (يُرى لَا عَلَى مُقَابلةٍ) ردًّا على المعتزلةِ فِي اشْتِرَاطِهِم فِي الرُّؤيةِ بِنْيَةً مخصوصةً وخروجَ أشعَّةٍ تتعلَّقُ بما يُقَابلُهَا، فالحقُّ ـ سبحانه ـ مُنَزَّهٌ عنِ الجهاتِ والأقطارِ، ويُرَى ـ سبحانه ـ في الآخرةِ بإدراكٍ يخلُقُهُ اللهُ ـ تعالى ـ في الأبصارِ، ويدركُ بهِ ما ليسَ فِي جهةٍ، كما خلقَ في قلوبِ العارفينَ بهِ فِي الدُّنيَا علمًا بما ليسَ في جهةٍ. وقولُهُ: «ويرَى لا عَنْ مُمَاقلةٍ»: تنزيهُ الحقِّ ـ سبحانه ـ عنِ الحدقِ والأجفانِ والمُقَلِ، فإنَّ ذلكَ منْ صفاتِ الأجسامِ، وإنَّمَا رؤيتُهُ ـ سبحانه ـ لسائرِ الموجوداتِ صفةٌ قديمةٌ قائمةٌ بذاتِهِ كعلْمِهِ المتعلِّقِ بالموجوداتِ والجائزاتِ والمستحيلاتِ».

فذهب مذهب الأشاعرة في جواز رؤية الله انطلاقا من الأدلة الكثيرة التي أشارت إلى ذلك، أما فيما يتعلق بشرائط الرؤية فقد جوزوا وقوع الرؤية دون وقوع شرائطها من الحد والجهة وغير ذلك، خلافا للمعتزلة الذين منعوا رؤيته عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) الدلالة على فوائد الرسالة ١/١٤١.

(٢) الدلالة على فوائد الرسالة ١/١٤٨.

(٣) الدلالة على فوائد الرسالة ١/١٨٠.

ـ وقوله(١): «الرِّزقُ عندَ أهلِ الحقِّ: هوَ مَا يَنتفعُ بهِ المرزوقُ لَا ما يملكُهُ، بلْ لَا مَا يأكلُهُ ويبتلعُهُ، فإنَّ العبدَ قدْ يبتلعُ الطَّعامَ، ويُحْدِثُ اللهُ في نفسِهِ منهُ شيئًا فيقذفُهُ مِنْ جَوفِهِ، وتكونُ من رزقِ بعضِ الحيوانَاتِ لا رزقِهِ».

فذهب مذهب الأشاعرة في أن الأرزاق عندهم تدور على الانتفاع لا على التملك.

وغير ذلك الكثير مما هو وارد في (الدلالة).

العلامة اللخميُّ صُوفيًّا:

يُعدُّ العلامة اللخمي من أهل التصوف الزاهدين الورعين في عصره، جمع بين علم الظاهر والباطن ـ كما سبق ـ، بالإضافة إلى إلمامه الواسع بتعاليم الصوفية، وتاريخ رجالهم وأحوالهم، وبتفسير مصطلحاتهم، واختياراته الرائعة للكتب التي تناولها بالشرح في هذا الفن؛ كالرسالة القشيرية، ومنارات السائرين، والرعاية للمحاسبي، حتى أصبح من علماء هذا الفن، الذين لهم قدم صدقٍ فيه، ويقرِّر ذلك قولُ تقي الدين الفاسي(٢): «وذكره القطب القسطلاني في «ارتقاء الرتبة» فقال: ورأيت الشيخ الإمام العارف عبد المعطي الإسكندري، وكان ممن له شأن في هذا الشأن، وصنف فيه كتبًا...».

وقد كان له رَحِمَهُ ٱللَّهُ مريدون وأتباع يقصدونه ويقتدون به، ويتعلمون منه قواعد علم التصوف وتعاليمه ـ ولا سيما إذا كان تصوُّفُهُ سنيًّا ـ، وقد أشار تقي الدين الفاسي إلى ذلك بقوله(٣): «وبنى له ابن حُبَاشة في الثغر رِباطًا بباب العزيز، ولم

(١) الدلالة على فوائد الرسالة ٢/٤٨٨.
(٢) العقد الثمين ٥/٤٩٨.
(٣) السابق ٥/٤٩٨.

يزل يجلس فيه للتذكير والمواعيد...». ولهذا وصفه الناسخ في مقدمة شرحه: «شيخ المحبين، وقدوة السالكين».

ولم يكن العلامة اللخمي متصوفًا فحسب، ولا فقيها فحسب، بل جمع بينهما، وكان ذا عناية بإبراز الأحكام الفقهية المتعلقة بأقوال مشايخ الصوفية، محاولا إخضاع أقوال مشايخ الصوفية وأفعالهم لموازين الفقه الإسلامي، إذ التصوف والفقه شقيقان.

يقول الشيخ زروق[١]: «والفقه والتصوف شقيقان في الدلالة على أحكام الله ـ تعالى ـ وحقوقه، فلهما حكم الأصل الواحد في الكمال والنقص، إذ ليس أحدهما بأولى من الآخر في مدلوله».

ويظهر هذا جليًّا من خلال شرحه على الرسالة القشيرية (الدلالة)، ومن أمثلة ذلك قوله[٢]: «قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَقِيلَ: كَانَ رَجُلٌ شِرِّيبٌ جَمَعَ قَوْمًا مِنْ نُدَمَائِهِ، وَدَفَعَ إِلَى غُلَامٍ لَهُ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَشْتَرِيَ بِهَا شَيْئًا مِنَ الفَوَاكِهِ لِلْمَجْلِسِ، فَمَرَّ الغُلَامُ بِبَابِ مَجْلِسِ مَنْصُورِ بْنِ عَمَّارٍ وَهُوَ يَسْأَلُ لِفَقِيرٍ شَيْئًا وَيَقُولُ: مَنْ دَفَعَ لَهُ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ دَعَوْتُ لَهُ أَرْبَعَ دَعَوَاتٍ..... **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ قَدْ يعترضُهَا بعضُ النَّاسِ ويقولُ: العبدُ مملوكٌ ومَا بِيدِهِ لِسَيِّدِهِ، فلَا يجوزُ لهُ التَّصرُّفُ فيهِ، فكيفَ قَبِلَ ذلِكَ منهُ منصورُ بنُ عمَّارٍ بعدَ معرفتِهِ أنَّهُ عبدٌ مملوكٌ؟ **والجوابُ**: أنَّ العبدَ عندَنَا يملكُ ويتصرَّفُ فيمَا أَذِنَ لهُ فيهِ سيِّدُهُ، وهذَا العبدُ رجلٌ صالحٌ، وقدْ سيَّرَهُ سيِّدُهُ على أنْ يشتريَ مَا يُستعانُ بهِ على المنكرِ، فخرجَ وهوَ مكرَهٌ مغلوبٌ خائفٌ مِن أذى سيِّدِهِ لهُ، فلمَّا وجدَ منصورَ بنَ عمَّارٍ يسألُ لهذَا الفقيرِ شيئًا خطرَ ببالِهِ أنْ يدفعَ هذِهِ الدَّراهمَ للهِ ـ تعالى ـ، فهوَ أَوْلَى ممَّا خرجَ فيهِ وهانَ على نفسِهِ مُقاسَاةُ الضَّربِ

---

(١) قواعد التصوف ص٣٥. وانظره أيضًا ص٣٩.

(٢) الدلالة على فوائد الرسالة ١/٢٥٨.

والألمِ مِن سيِّدِهِ، ولَا يفعلُ هذَا المنكرَ، فإنَّهُ لا طاعةَ لسيِّدِهِ عليهِ فيهِ......».

ويظهر ذلك جليًّا أيضًا من خلال كتاب: (إرشاد السالكين)، الذي ألمح إلىٰ ذلك في مقدمته بقوله[١]: «فإنه قد طال ألمي واشتدَّ حُزْنِي لِمَا يطرقُ سَمْعي من أقوال بعض المُنتمِين إلىٰ الدِّيانة، المُنتسبين إلىٰ العلم والدِّراية؛ من التفرقة بين طريق الفقهاء المحققين، وطريق المريدين الصادقين، واعتقادهم تعدد الطريق وتباين المسلك، وكذلك إطلاقهم علم الدنيا وعلم الآخرة، وحدث سبب هذا الإطلاق لكثير من الضعفاء في العلم اعتقاد تباين الطائفتين، واختلاف مسلك الفريقين.... واعتقد بعض المنتسبين إلىٰ الفقه المتظرفين فيه أن الاشتغال بعلم الترغيب والترهيب، ومعرفة خواطر القلوب وما تدعو إليه من الأهواء والفرق بينه غيره من الخواطر أو العقود تضييع للأوقات، وقاطع عن طلب المهمات، من علم الأحكام المتعلقة بالمعاملات والمناكحات، وأن علم الرقائق لا يستند إلىٰ أصول قويمة، وأدلة صحيحة مستقيمة...».

وقد أشار أبو العلا عفيفي إلىٰ ذلك بقوله[٢]: «أنه لم يكن فقيها فحسب، ولا متصوفا فحسب، بل جمع بين الفقه والتصوف علىٰ النمط الذي سار عليه معظم كبار الصوفية منذ عهد الغزالي، أمثال: أبي الحسن الشاذلي، وأبي العباس المرسي، وابن عطاء الله السكندري، وغيرهم».

ويضاف إلىٰ ذلك: أن الإمام اللخمي قد ربط بين التصوف في عصره والتصوف في العصور المتقدمة، فاستشهد بأقوال وأحوال بعض متصوفي عصره المعروفين بالزهد والورع والكرامات الذين يثق فيهم وفي صدقهم ـ كقوله[٣]:

---

(١) إرشاد السالكين ـ لوحة ١.

(٢) شارح مجهول من شراح الرسالة القشيرية ص٧.

(٣) الدلالة علىٰ فوائد الرسالة ٢/٥٥.

«ولقَدْ أخبرَنِي مَنْ أعلمُ صِدْقَهُ منَ الأولياءِ قالَ لِي. . .» ـ في تقرير بعض القضايا، ومن أمثلة ذلك:

ـ قوله[١]: «تَوَاتَرَتِ الأخبارُ سَلَفًا وخَلَفًا بحياةِ الخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لمَا نُقِلَ عن عمرِ بنِ عبدِ العزيزِ، وإبراهيمَ بنِ أدهمَ، وبلالِ الخوَّاصِ، وأبي زكريَّا المَغَيْلِيِّ، ومَنْ عَاصَرْنَاهُ في زمانِنَا ممَّا لا أشكُّ في صِدْقِهِ من: إسماعيلِ الإشبيليِّ، وأبي موسى، والفقيهِ خيرٍ، وأبي عبدِ اللهِ المالَقِي، وسَيِّدِهِمِ الإسكندَرَانِي، والشيخِ أبي العبَّاسِ المُولي، والمغاورِي، والشَّيخِ الردانِ الرَّجُلِ الصَّالح، وأختِ الفقيهِ أبي الحسَنِ المقدسِيِّ ـ رحمَةُ اللهِ عليهِمَا ـ، وغيرِ هؤلاءِ ممَّنْ لَوْ قصدنَا تَتَبُّعَهُمْ منَ الكتبِ وغيرِهَا لأكثرْنَا».

ـ وقوله[٢]: «ولقَدْ أخبرَنِي مَنْ أعلمُ صِدْقَهُ منَ الأولياءِ قالَ لِي: رأيتُ كأنِّي أمشِي في وادٍ حُفَّ بالأشجارِ من كلِّ جهةٍ حتَّى وصلْتُ إلى ماءٍ وخضتُهُ، فلمَّا وصلْتُ إلى الجهةِ الأُخْرَى فإذا أنَا بمسجدٍ ففتحتُهُ، فإذا فيهِ الخضرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانَ يعرفُهُ قبلَ ذلكَ وإذا معَهُ رجلٌ آخرُ، قالَ الرَّائِي: فركعْتُ بقُرْبِ الخضرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وسلَّمْتُ عليهِ وقلْتُ: يا سيِّدِي، مَنْ هذا معَكَ؟ فقالَ لِي: هذا القرآنُ».

ـ وقوله[٣]: «مِنْ هذا القبيلِ في التَّغييرِ ما أخبرَنِي بهِ الشَّيخُ أبو الحسَنِ عليُّ ابنُ الدَّقَّاقِ، المقيمُ بالصَّعيدِ ببعضِ ديارِ (مصْرَ)، عنْ شيخٍ لهُ معروفٍ بالكرامَاتِ وجريانِ خوارقِ العاداتِ. . . .».

ـ وقوله[٤]: «ولقَدْ أخبَرَنِي الشَّيخُ أبو بكرٍ البهاوِيُّ عنْ قضيَّةٍ جرَتْ لهُ معَ

---

(١) الدلالة على فوائد الرسالة ١/٢٢٩.
(٢) الدلالة على فوائد الرسالة ٢/٥٥.
(٣) الدلالة على فوائد الرسالة ٢/٢٦٤.
(٤) الدلالة على فوائد الرسالة ٣/٦٥٢.

أولادِ إبليسَ ؛ وذلِكَ أنِّي سألتُهُ يومًا قلتُ: يا أبَا بكرٍ ، إذَا طابَ عيشُ الإنسانِ يومًا مَا ، وانشرَحَ صدرُهُ ، فَلَمَعَ لهُ نورٌ فِي نواحِي البيتِ يُبْصِرُهُ بعينِهِ مَا هذَا؟ فقالَ: لَا تغترَّ بهِ ، هذَا ولدُ الشَّيطانِ يُسمَّىٰ: البيضاوِيَّ ، يغرُّ النَّاسَ بهذَا». وغير ذلك.

العلامة اللخمي مُحَدِّثًا:

العلامة اللخمي له معرفة كبيرة ودراية واسعة بعلم الحديث ، ويظهر ذلك جليًّا من خلال توظيفه للأحاديث برواياتها المختلفة كشواهد علىٰ القضية التي يتناولها بالشرح ، سواء أكان الغرض من سوق الحديث دعمًا لرأي ، أو دفعًا عن رأي آخر ، ذاكرًا مصادر هذه الأحاديث ؛ كصحيح البخاري ، ومسلم ، وموطأ مالك ، وسنن النسائي ، والترمذي ، وغيرها[1].

وقد نصَّت كتب التراجم علىٰ ذلك ، فقال المنذري[2]: «وحدَّث بالإسكندرية ومكة ـ شرفها الله تعالىٰ ـ».

ثناء العلماء عليه:

أثنىٰ العلماء علىٰ العلامة اللخمي ثناءً عطرًا ، ومن ذلك:

ـ قول الشيخ رشيد الدين العطار[3]: «عبد المعطي من أعيان مشايخ الإسكندرية ، مشهور بالزهد والصلاح ، له معرفة بأصول الدين ، ومذهب مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

ـ قول الذهبي[4]: «الرجل الصالح... وانتفع بصحبته جماعةٌ ، وله فوائد ومجاميع».

---

(١) انظر: فهرس الكتب الواردة في المتن ـ ضمن فهارس الكتاب.

(٢) التكملة لوفيات النقلة ٥٦٦/٣.

(٣) نجم المهتدي ٦٢٠/١ ، والعقد الثمين ٤٩٨/٥.

(٤) تاريخ الإسلام ٣٧٠/٤٦.

ـ وقال تقي الدين الفاسي[١]: «كان من كبار العلماء، الأئمة الصلحاء، وسمع الحديث، وصنف في الرقائق والتصوف».

ـ وقوله أيضًا[٢]: «وذكره القطب القسطلاني في «ارتقاء الرتبة» فقال: ورأيت الشيخ الإمام العارف عبد المعطي الإسكندري، وكان ممن له شأن في هذا الشأن، وصنف فيه كتبًا...»... وغير ذلك.

وفاته:

توفي العلامة اللخمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمكة ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ذي الحجة، سنة ثمان وثلاثين وستمائة، ودفن من الغد بـ(المَعْلَىٰ)[٣].

وقال تقي الدين الفاسي[٤]: «ووجدت بخط جدي أبي عبد الله الفاسي: سمعت الشيخ زين الدين بن محمد بن منصور، شُهِر بابن القَفَّاص، يقول: حججت مع الشيخ عبد المعطي سنة سبع وثلاثين علىٰ طريق (عَيْذَاب)، فلما وصلنا إلىٰ مكة ـ شرفها الله تعالىٰ ـ، كان بها رجل منقطع في أبي قُبَيس، فنزل إلينا وسلم علىٰ الشيخ عبد المعطي، وقال لنا: كل من يدخل هذه البلدة من أهل هذا النور، أراه، وأنتم أول من دخلها من أهل النور.

وقال جديّ ـ فيما وجدت بخطه ـ: وأقام الشيخ عبد المعطي بمكة بعد

(١) العقد الثمين ٥/٤٩٨.

(٢) السابق ٥/٤٩٨.

(٣) انظر: التكملة لوفيات النقلة ٣/٥٦٦، ونجم المهتدي ١/٦٢٠، والعقد الثمين ٥/٤٩٨، والأعلام ٤/١٥٥.

ومقبرة المَعْلاة: تقع في شمال المسجد الحرام، وهي مقبرة أهل مكة منذ العصر الجاهلي إلىٰ الوقت الحاضر، تقع في بداية طريق الحجون علىٰ يمين المتوجه إلىٰ الحرم المكي من جهة حي المعابدة في مكة المكرمة.

(٤) العقد الثمين ٥/٤٩٩.

حجِّه. وتوفي في السنة الثانية بعد حجه. انتهىٰ.

ووجدت في حَجَر قبره بالمعلاة: أنه توفي في ليلة الجمعة السادس والعشرين من ذي الحجة، سنة ثمان وثلاثين وستمائة».

وقال الذهبي(١): «عاش خمسًا وسبعين سنة».

آثاره:

خلف العلامة اللخمي للمكتبة العربية كتبا قيمة في التصوف والرقائق، فقال رشيد الدين العطار(٢): «صنف كتبا في الرقائق وعلم الباطن».

وقال تقي الدين الفاسي(٣): «وصنف في الرقائق والتصوف»، وأهمُّها:

١ ـ إرشاد السَّالكين إلىٰ الجمع بين طرق المحققين من الفقهاء والمريدين لاتحاد المستند في الدين»، وله أكثر من نسخة خطيَّة بين يدي.

٢ ـ الإعلام بشرح فوائد كلام شيخ الإسلام(٤). (شرح منازل السائرين)، وقد طبع بتحقيق الأب: دي لوجيبه الدومنكي في مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للثار الشرقية ـ ١٩٥٤م، وأعاد تحقيقه د/عاصم إبراهيم الكيالي في دار الكتب العلمية ـ بيروت.

---

(١) تاريخ الإسلام ٤٦/٣٧٠.

ومقبرة المَعْلاة: تقع في شمال المسجد الحرام، وهي مقبرة أهل مكة منذ العصر الجاهلي إلىٰ الوقت الحاضر، تقع في بداية طريق الحجون علىٰ يمين المتوجه إلىٰ الحرم المكي من جهة حي المعابدة في مكة المكرمة.

(٢) انظر: نجم المهتدي ١/٦٢٠.

(٣) العقد الثمين ٥/٤٩٨.

(٤) انظر: هدية العارفين ١/٦٢٢، وإيضاح المكنون ٣/١٠٢.

٣ ـ الحدود، ذكره له محقق (شرح منازل السائرين)، ولم أقف عليه عند غيره.

٤ ـ الدلالة على فوائد الرسالة ـ وسأفرده بحديث مستقل فيما يأتي ـ.

٥ ـ شرح الرعاية، للمحاسبي[١]، وهو مفقود على حسب اطلاعي.

---

(١) انظر: نجم المهتدي ١/٦٢٠، والعقد الثمين ٥/٤٩٨، والأعلام ٤/١٥٥.

المبحَث الثَّاني
التعريف بكتاب: (الدلالة على فوائد الرسالة)

مدار الحديث في هذا المبحث حول النقاط التالية:

توثيق نسبته إلى مؤلفه:

مما لا شك فيه أنَّ شرح (الرسالة القشيرية) الموسوم بـ(بالدلالة على فوائد الرسالة) للعلامة سديد الدين اللخمي ثابت النسبة له، وقرائن لك تتجلى فيما يأتي:

١ ـ ثبوت عنوان الكتاب واسم مؤلفه على طُرَر معظم النسخ المعتمدة في تحقيقه، وفي ختامها أيضًا.

٢ ـ نَقلُ بعض تلامذته عنه، كنقول تلميذه القرطبي المتعددة في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن)، ومنها قوله[١]: «وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطي بن محمود بن عبد المعطي اللخمي في (شرح الرسالة) له للقشيري حكايات كثيرة عن جماعة من الصالحين والصالحات بأنهم رأوا الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ ولقوه يفيد مجموعها غاية الظن بحياته».

٣ ـ نسبته إليه في كتب التراجم المختلفة[٢].

٤ ـ إشارة بعض كتب هذا الفن إليه بصدد تعداد الكتب التي اعتمدت عليها في مقدمة التأليف، كالزبيدي بقوله[٣]: «.. وأجلها مقدارًا (الرسالة)، للإمام أبي

(١) تفسير القرطبي ١١/٤٣.

(٢) ومنها: نجم المهتدي ١/٦٢٠، وكشف الظنون ١/٨٨٢، وهدية العارفين ١/٦٢٢، والأعلام ٤/١٥٥.

(٣) إتحاف السادة المتقين ١/٤.

القاسم القشيري ، وشرحاها: لأبي محمد عبد المعطي بن محمود اللخمي ، ولشيخ الإسلام زكريا».

٥ ـ يضاف إلىٰ ذلك التوافق بين شرحه لنصوص القشيري التي أوردها في (إرشاد السالكين) وشرحها هنا ، وكذا مقدماته لبعض الأبواب هنا وهنا.

وعليه فكلُّ هذه القرائن تُؤكِّد صحةَ نسبة الكتاب إلىٰ مؤلفه.

موضوع الكتاب ، ومنهج مؤلفه فيه:

عنوان الكتاب ـ وهو (الدلالة علىٰ فوائد الرسالة) ـ كاشفٌ موضِّحٌ عن مضمونه وموضوعه ، فهو أقدم الشروح وأهمها لهذه الرسالة المباركة.

وقد بين العلامة اللخمي منهجه فيه بقوله: «وقد رأيتُ ـ واللهُ المستعانُ ـ أنْ أذكرَ هذا الكتابَ مِنْ أوَّلِ خطبتِه ، وأتتبَّعَهُ شيئًا شيئًا علىٰ حَسْبِ ما يَفْتَح الله ـ سبحانه ـ بِه بفضلِهِ وكرامَتِه ، وأُبيِّنَ ما احتاجَ إلىٰ بيَان ، وأشرحَ ما احتاجَ إلىٰ زيادَةِ بسْطٍ بغيرِهِ منَ العِرْفَان ، واللهُ المستعان . . . وإذَا انتهىٰ الكلامُ ـ إن شاءَ الله ـ إلىٰ ذكْرِ المقاماتِ: منَ التَّوبةِ والزُّهدِ وغيرِ ذلكَ فِي الأبواب ، ذَكَرْتُ حَدَّ كلِّ مقامٍ علىٰ وجْهِ التَّحقيقِ والصَّواب ، وأجريتُ عليهِ جميعَ أقوالِ السَّادةِ منَ المَشَايخِ لتُعْرَفَ مقاصدُهُم منَ التَّحديدِ ، أوْ بيانِ الثَّمَراتِ والأسباب».

فطريقته في شرحه أن يذكر قطعة من نص (الرسالة القشيرية) ، طويلة تارة ، وقصيرة أخرىٰ ، ثم يتبعها بشرحه مستفيضًا ، مُصدِّرًا نصَّ الإمام القشيري بقوله: قال الإمام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فيثبتُ بذلك نص القشيرية كاملا وفق أصح النسخ لها التي كانت بين يديه في عصره ـ ، ونص شرحه بقوله: قال الشارح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فيشرح معنىٰ كل جزءٍ من نص القشيرية الذي يثبته ، شرحًا وافيًا ، موضِّحًا ما فيه من مصطلحات القوم ، مستشهداً لما يشرحه بالأدلة المختلفة ؛ من آيات قرآنية ،

وأحاديثَ نبوية، وآثار الصحابة والتابعين، وأقوال الصوفية، وأقوال المتكلمين من السادة الأشاعرة، بالإضافة إلىٰ أقوال وحكايات معاصريه من أهل الزهد والورع والكرامات ممن يُعلم صدقهم.

هذه قسمات منهجه علىٰ وجه الإجمال، أما علىٰ وجه التفصيل فيتجلىٰ فيما يأتي:

١ ـ أنه أحيانًا لا يلتزم بلفظ القشيرية الذي أورده بقوله (قال الإمام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، فيتصرف في ألفاظها حينما يأخذ جزءًا منها في شرحه إما بتغيير اللفظ، أو وضع مرادفه.

٢ ـ أنه يعترض علىٰ الإمام القشيري في بعض الأحيان، ومن أمثلة ذلك قوله:

ـ قوله[(١)]: «وهذِهِ الحكايةُ مِمَّا وَقَعَ العَزْمُ علىٰ تطهيرِ هذا الكتَابِ مِنْهَا لَوْ أمكنَ».

ـ وقوله[(٢)]: «وهذِهِ الحكايةُ منْ أقبحِ ما يُمَثَّلُ بهِ ويُستعمَلُ في كُتُبِ الصَّالحين... وَلَوْ أمكنَ إسقاطُهَا لكانَ أحسنَ، وقدْ نبَّهْنَا علىٰ فَسَادِهَا بمَا فيهِ كِفَايةٌ».

ـ وقوله[(٣)]: «وعلَىٰ الجُملةِ فَتَرْكُ هذهِ الحكايةِ أولَىٰ».

ـ وقوله[(٤)]: «وفِي هذهِ المسألةِ نظرٌ»... وغير ذلك.

---

(١) انظر: الدلالة علىٰ فوائد الرسالة ٢/٤٢٤.

(٢) انظر: الدلالة علىٰ فوائد الرسالة ٢/٦٠١.

(٣) انظر: الدلالة علىٰ فوائد الرسالة ٣/١١٨ ـ ١١٩.

(٤) انظر: الدلالة علىٰ فوائد الرسالة ٣/٥٦٢.

٣ ـ أنه يذكر الروايات المختلفة للحديث المستشهد به، ويذكر مصدره في الغالب، ولا سيما إذا كان في الصحيحين، وتأمل ذلك مثلا بصدد حديث: «سبقت رحمتي غضبي»[(١)]، وكما في أول (باب المراقبة)[(٢)].

٤ ـ أنه يعترض أيضًا على أقوال بعض مشايخ التصوف؛ كاعتراضه على أبي علي الدقاق في قوله[(٣)]: «كَانَ الشَّيْخُ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَّاقُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: كَانَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَاحِبَ تَلْوِينٍ، فَرَجَعَ مِنْ سَمَاعِ الكَلَامِ وَاحْتَاجَ إِلَىٰ سَتْرِ وَجْهِهِ؛ لِأَنَّهُ أَثَّرَ فِيهِ الحَالُ، وَنَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ صَاحِبَ تَمْكِينٍ، فَرَجَعَ كَمَا ذَهَبَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِ مَا شَاهَدَهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ..... وهذا التَّمثيلُ ينبغِي التَّثبُّتُ فيهِ؛ لئلَّا يسبقَ لقلبِ العبدِ شيءٌ منَ الاستنقاصِ والهضمِ في جهةِ أحدٍ منَ الأنبياءِ ـ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ـ فيهلَكَ».

٥ ـ أنه التزم بالأسلوب الأدبي الراقي الموسوم بالسجع غير المتكلف الذي تألفه النفوس في معظم الأحيان، وقليلا ما يحيدُ عن ذلك إلى اللغة العامية بسبب لغة الخطابة والوعظ التي يستدعيها في بعض المواضع.

٦ ـ أنه يفصِّل القول في بعض القضايا الفقهية بصدد شرحه مُقدِّمًا مذهبه المالكي[(٤)].

٧ ـ أنه تارة يقدم بين يدي الباب مقدمة متعلقة بهذا الباب، قبل أن يشرع في شرح نص القشيرية، كما في بداية أبواب: «الزهد، والخوف، والرجاء، والحزن» وغيرها.

---

(١) انظر: الدلالة على فوائد الرسالة ٢/٢٢٤.

(٢) انظر: الدلالة على فوائد الرسالة ٢/٦١٢.

(٣) انظر: الدلالة على فوائد الرسالة ١/٦٧١.

(٤) تأمل ذلك بصدد مذهبه الفقهي سالف الذكر.

٨ ـ أنه تارة يستشهد بالقصة الواحدة وبالحديث الواحد، والبيت الشعري الواحد في أكثر من موضع.

وغير ذلك مما يتبدَّىٰ لك إبَّانَ مطالعتك لهذا الشرح النفيس.

مصادر المؤلِّف فيه:

تنوعت مصادر العلامة اللخمي وتعددت مشاربه في كتابه، فنص علىٰ بعض المصادر التي أفاد منها تارة، وأغفل بعضها تارة أخرىٰ، وتكفل البحث بالكشف عنها.

ـ فمن المصادر التي أفاد منها في الحديث: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وموطأ مالك، وسنن الترمذي، وسنن النسائي، وغيرها.

ـ ومن المصادر التي أفاد منها في التفسير: تفسير الطبري، والسلمي، والبغوي.

ـ ومن المصادر التي أفاد منها في اللغة: الصحاح للجوهري، وغيره.

ـ ومن المصادر التي أفاد منها في التصوف: الرعاية للمحاسبي، ومنازل السائرين للهروي، ودليل القاصدين، وغيرها.

ـ ومن المصادر التي أفاد منها لكتب شرح الحديث: إكمال المعلم بفوائد مسلم، وغيره.

أثره فيمن بعده:

أفاد تلميذ المؤلف: أبو عبد الله القرطبي المفسر، من شرح شيخه اللخمي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن)، ومن مواضع ذلك:

ـ **قوله**[(١)]: «وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطي بن محمود بن

---

(١) تفسير القرطبي ٤٣/١١. وانظر: الدلالة علىٰ فوائد الرسالة ٥٣٦/٣ ـ ٥٣٧.

عبد المعطي اللخمي في (شرح الرسالة) له للقشيري حكايات كثيرة عن جماعة من الصالحين والصالحات بأنهم رأوا الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ ولقوه، يفيد مجموعها غاية الظن بحياته».

ـ **وقوله**[١]: «وقد تأول كثير من الناس فيما ذكر شيخنا أبو محمد عبد المعطي الأسكندراني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الإمام المحاسبي رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أن التوبة من أجناس المعاصي لا تصح، وأن الندم على جملتها لا يكفي، بل لا بدَّ أن يتوب من كل فعل بجارحته، وكل عقد بقلبه على التعيين، ظنوا ذلك من قوله، وليس هذا مراده ولا يقتضيه كلامه، بل حكم المكلف إذا عرف حكم أفعاله وعرف المعصية من غيرها صحت منه التوبة».

ـ **وقوله**[٢]: «وسمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعطي بثغر الإسكندرية يقول: إن شيطانا يقال له: البيضاوي يتمثل للفقراء المواصلين في الصيام، فإذا استحكم منهم الجوع وأضر بأدمغتهم يكشف لهم عن ضياء ونور حتى يملأ عليهم البيوت فيظنون أنهم قد وصلوا، وأن ذلك من الله، وليس كما ظنوا».

بين (الدلالة) للخمي، و(إحكام الدلالة) للشيخ زكريا الأنصاري:

من خلال المقارنة بين (الدلالة) وبين (إحكام الدلالة) تبين أن شرح الشيخ زكريا الأنصاري مستمد بجملته من شرح العلامة اللخمي، فلو قلتَ: إنَّهُ بمثابة الاختصار والتهذيب له لمْ تُبْعدْ؛ إذْ لم يستطع الشيخ زكريا رَحِمَهُ اللَّهُ الانفكاك حتى من عنوان الشرح الذي وضعه اللخمي، اللهم إلا إذا قصد بلفظة (إحكام) المنع من الاستطراد والزيادة التي لا طائل تحتها، لكن يُؤخذ على الشيخ زكريا أنه لمْ

---

(١) تفسير القرطبي ٤/٢١٤. وانظر: الدلالة على فوائد الرسالة ٣/٧١٧ ـ ٧١٨.

(٢) تفسير القرطبي ١٠/٤٢٢. وانظر: الدلالة على فوائد الرسالة ٣/٦٥٢.

يُشر من قريب ولا من بعيد إلىٰ ذلك في مقدمة كتابه، ولا في سائر أجزائه، وكأنه لم يطلع علىٰ شرح اللخمي، ولم يستقِ مادته منه، فحاول إخفاء معالم شرح اللخمي وطمس معالمه بكل وسيلة؛ من نحو: عدم إيراده الحكايات التي حكاها اللخمي عن معاصريه من رجال التصوف، من أمثال: أبي النور الإسكندراني، وأبي عبد الله محمد المالقي، وأبي الفتوح الصقلي، وأبي بكر البهاري، وأبي عبد الله الغزال، وغيرِهم[١]، وكذا نقله للآراء التي يرتضيها اللخمي في المسألة بعينها بقوله: وقيل، ويتعمد إخفاء اسم القائل[٢]، وكذا نقله مناقشات اللخمي لبعض الآراء والاعتراض عليها بعد أن يسوقها بقوله: «ومعناه عندي»، أو «وفي رأيي كذا»، فيحذف الشيخ زكريا كل هذه الإشارات للخمي[٣].

ومِنْ ثَمَّ عمدتُ في التحقيق إلىٰ تعيين كل هذه الإفادات التي أفادها الشيخ زكريا من اللخمي وأشرتُ إليها في حاشية التحقيق؛ بهدف إظهار التطابق التام بين الشرحين عن طريق نقله الفقرة بلفظها، أو إفادة المعنىٰ والتصرف في العبارة.

وقد ألمح إلىٰ ذلك أبو العلا عفيفي بقوله[٤]: «وأما مادة الشرحين فتتفق في الجوهر، وتختلف في التفاصيل كما قلنا، فالأنصاري يأخذ زبدة شرح اللخمي ويغفل التكرار والاستطراد والترادف في العبارات، نحو ذلك مما يفيض به ذلك الشرح... فبهذا المعنىٰ نستطيع أن نقول: إن شرح الأنصاري تلخيص ـ وتلخيص جيد ـ لشرح اللخمي، وإنه ليس شرحا آخر علىٰ الرسالة».

ويقول أيضا[٥]: «.. علىٰ هذا النحو يمضي الأنصاري في شرحه: يقتبس ما

---

(١) انظر: فهرس الأعلام ضمن فهارس هذا الكتاب بصدد ذكر هؤلاء الأعلام.

(٢) انظر: الدلالة علىٰ فوائد الرسالة ١/٦١٠، وإحكام الدلالة ١/٢٧٤، وغيرها.

(٣) انظر: الدلالة علىٰ فوائد الرسالة ١/٢٢١ ـ ٢٢٢، وإحكام الدلالة ١/٩٣ ـ ٩٤، وغيرها.

(٤) مقال: شارح مجهول من شراح الرسالة القشيرية ص١٥.

(٥) السابق ص١٨.

شاء أن يقتبسه من شرح اللخمي، ويترك ما شاء أن يتركه، لا يعترف له بفضل السَّبق، بل يتعمد إخفاء كل شيء يمكن أن يسترشد به في معرفة هذا الشارح المغمور، أو يستدل به على شرحه. والآن وقد ظهر الحق، وتبينتْ قيمة شرح الأنصاري على حقيقتها، يجب أن نعترف بالفضل لصاحبه لا لمدعيه، وأن نعتبر الشيخ سديد اللخمي الشارح الأكبر والأصيل لرسالة القشيري لا الشيخ زكريا الأنصاري».

منهج التحقيق:

اتبعت في تحقيق هذا الأثر المنهج الأمثل المتعارف عليه لدى المحققين الأثبات، والذي يُسلِمُ في نهاية المطاف إلى إخراج النص على الصورة المثلى التي يرتضيها مؤلفه، وهذا المنهج تتجلى ملامحه فيما يأتي:

١ ـ قُمْتُ بنسخ نسخة الأصل نسخًا صحيحًا متقنًا.

٢ ـ قابلتُ بين نسخة الأصل، والنسخ الأخرى.

٣ ـ قابلت نص الرسالة القشيرية الوارد في شرح اللخمي بنسخة خطية نفيسة لم تُعتمد من قبلُ في أيِّ طبعة من طبعات الرسالة القشيرية.

٤ ـ حَرَّرْتُ النصَّ وفق القواعد الإملائية الحديثة، دون التَّقيد بما كُتب به المخطوط.

٥ ـ أصلحتُ التصحيف والتحريف الوارد في النص، وبينت ذلك في موضعه.

٦ ـ قُمْتُ بتخريج الشواهد الواردة في الكتاب: من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، والأشعار، كلٌّ بحسب مظانه.

٧ ـ وَثَّقْتُ أقوالَ العُلماءِ الواردةَ في الكتاب من مظانها.

٨ ـ ترجمتُ للأعلام الواردة في الكتاب ترجمة موجزة.

٩ ـ ربطتُ بين هذا الكتاب وتلخيصه، وهو شرح الشيخ زكريا الأنصاري؛ لمعرفة مدىٰ التأثير والتأثر، والاستعانة به في تصحيح بعض الألفاظ المحرفة من الناسخ، أو المطموسة من أثر الرطوبة، وكذا كتب اللخمي الأخرىٰ كـ(إرشاد السالكين) و(شرح منازل السائرين).

١٠ ـ فَسَّرْتُ الألفاظ الغريبة الواردة في المتن من الكتب المختصَّة بذلك، لا سيما المختصة بتفسير ألفاظ الصوفية.

١١ ـ ضَبَطْتُ النَّصَّ في أغلبه، لا سيما مواضع الإلباس؛ ليسهل على القارئ مُطالعتُهُ.

١٢ ـ علَّقتُ علىٰ ما يحتاج لتعليقٍ في النَّصِّ المحقق، دون إسرافٍ أو تقتيرٍ.

١٣ ـ تممت خروم النسخ الخطية في ثلاثة ملاحق في نهاية شرح اللخمي.

١٤ ـ وضعتُ الحاصرتين ـ ([ ]) ـ المجردتين من رقم الحاشية؛ للدلالة علىٰ أن ما بينهما زيادة من المحقِّق.

١٥ ـ أردفتُ النَّصَّ المحقَّقَ بفهارس فنيةٍ، تعين القارئ علىٰ طلب بغيته في يُسْرٍ وسُهولَةٍ.

نسخ الكتاب المعتمدة في التحقيق:

مع أهمية هذا الشرح للرسالة القشيرية باعتباره أقدم شروحها فلم ينته إليَّ من نسخه ـ فيما أعلم ـ من خلال استعراضي لفهارس مخطوطات مكتبات العالم، وبحثي الدؤوب عن نسخه، وكذا سؤالي المتكرر لأهل هذا الشأن إلا ثلاث نسخ

خطية، وبياناتها كالتالي:

* النسخة الأولىٰ:

نسخة مكتبة (مراد ملا) بتركيا، المكونة من جزأين (الأول والثالث)، تحت الرقمين: (١٢٦١، ١٢٦٢)، وهي نسخة نفيسة جدا، مقابلة ومصححه، ومضبوطة بالشكل في بعض الألفاظ المشكلة، ومعارضة في نص الرسالة القشيرية علىٰ أكثر من نسخة خطية، وكتبت بخط نسخ جميل سنة (٧٤٣هـ)، وقابلها الناسخ علىٰ نسخة المصنف المكتوبة سنة (٦٣٨هـ).

والجزء الأول منها يقع في (٢٦٩) ورقة، في كل صفحة (٢٥) سطرا، في كل سطر (١٣) كلمة تقريبا، وبأوله فهرس لموضوعات هذا الجزء، وكتب نص الرسالة القشيرية فيه بالمداد الأحمر، وكذا عبارة (قال الشارح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ)، وعناوين الأبواب، وعلىٰ حواشيها نكات مستفادة من شرح الشيخ زكريا بخط مخالف لخط الأصل، ويشتمل علىٰ شرح القشيرية من أوله حتىٰ نهاية (باب الجوع وترك الشهوة)، وقد سقط منه قدر نصف ورقة من هذا الباب في آخره.

والجزء الثالث منها يقع في (١٢٣) ورقة، في كل صفحة (٢٥) سطرا، وفي كل سطر (١٢) كلمة تقريبا، وقد كتبت عناوين الأبواب ولفظي: (قال الإمام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال الشارح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ) بالمداد الأحمر، ووقع فيه خرم في موضعين.

* النسخة الثانية:

نسخة (دار الكتب المصرية) رقم (٧٠٣ ـ تصوف)، وتقع في (٢٤٩) ورقة، في كل صفحة (٢٥) سطرا، وفي كل سطر (١٥) كلمة تقريبا، وهي الجزء الثاني من هذا الشرح، ويبدأ من (باب الخشوع)، وهو الباب الذي يلي الباب

الذي ينتهي به الجزء الأول من نسخة (مراد ملا)، وتنتهي نسخة دار الكتب بـ(باب التصوف)، ويبدأ الجزء الثالث من (مراد ملا) بالباب الذي يليه وهو (باب الأدب)، وقد وقع فيها خرم بآخرها بين البابين بمقدار ورقة، ولهذا أرجح كون جزء دار الكتب كان ضمن نسخة (مراد ملا) هو المتمم لهذه النسخة قبل الانفصال(١)؛ لقرب الوصف بينهما والخط، ولهذا كملتُ به نسخة (مراد ملا) واعتبرت الأجزاء الثلاثة نسخة واحدة.

وهي نسخة نفيسة مصححة ومقابلة، كتبت بخط نسخي جميل، ووجد على صفحة غلافها فهرسٌ لموضوعات هذا الجزء، كُتبت عناوينُ الأبواب فيها ولفظا: (قال الإمام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الشارح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) بالمداد الأحمر، وقد اعتراها بعض الطمس الشديد في بعض أوراقها بسبب سوء الحفظ، فتغلبت علي معظمه بفضل الله.

وقد رمزت للأجزاء الثلاثة المكونة من جزئي مكتبة (مراد ملا) وجزء مكتبة (دار الكتب المصرية) بالرمز (أ).

*** النسخة الثالثة:**

نسخة مكتبة (جامعة الملك سعود) رقم (٣٢٣٨ز)، وهي نسخة حسنة مصححة ومقابلة، كتبت بخط نسخ حسن، كتبها محمد بن محمد بن علي الزيدي الحنفي سنة (٨٦٣هـ)، وهي ناقصة الأول بقدر ورقتين، كُتب فيها لفظ (قال) قبل لفظ: (الإمام، والشارح) بالمداد الأحمر، وتشتمل على الجزء الأول من الكتاب، وتبدأ من بداية الكتاب، وتنتهي بنهاية باب (الإرادة)، وتقع في (٢٤١)

(١) وقد رجح ذلك أيضا أبو العلا عفيفي بقوله: «أيقنت أن مخطوطة القاهرة كانت في وقت من الأوقات ضمن الشرح الكامل، إما في اسطنبول، وإما في القاهرة، ولأمر ما انفصل عن الأصل» مقال: شارح مجهول من شراح الرسالة القشيرية ص١٨.

ورقة، وفي كل صفحة (٢٩) سطرا، وفي كل سطر (١٥) كلمة تقريبًا، وهي من مخطوطات مكتبة العلامة (خير الدين الزركلي)، كما هو مثبت بالختم أعلاها. وقد رمزت لها بالرمز (ب).

* **النسخة الرابعة:**

نسخة مكتبة (جار الله أفندي) بتركيا رقم (٩٩٩)، وهي نسخة جيدة مصححة ومقابلة، كتبت بخط نسخ جميل، كتبها عيسىٰ بن علي بن إبراهيم بن عمير الهلالي، تقع في (٢١٤) ورقة، في كل صفحة (٢٤) سطرا، وفي كل سطر (١٢) كلمة تقريبا، كُتبت عناوينُ الأبواب فيها ولفظًا: (قال الإمام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الشارح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) بالمداد الأحمر، وتشتمل علىٰ الجزء الأول من الكتاب، وتبدأ من بداية الكتاب، وتنتهي بنهاية باب (التقوىٰ)، ورمزت لها بالرمز (ج).

نسخة الرسالة القشيرية:

اعتمدت في مقابلة نص القشيرية الوارد في شرح اللخمي علىٰ نسخة نفسية لم تُعتمد في أي طبعة من طبعات الرسالة القشيرية، نسخة (فاضل أحمد باشا) ضمن مكتبة (كوبريلي) رقم (٧٢٤)[1]، وهي نسخة نفسية مقابلة ومصحَّحَة، كتبت فيها العناوين بالخط العريض، تقع في (٢٨٧) ورقة، منقولة من نسخة عليها خط ولد المصنف شرف الأئمة أبي المظفر عبد المنعم بن الإمام جمال الإسلام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، كتبها محمد بن عبد الرحمن بن علي بن يحيىٰ بن نعمة الحليس الوراق بمصر، وبلغت مقابلتها للمرة الثالثة في مجالس متعددة كما هو مثبت بحواشيها في مواضع كثيرة ـ لا سيما اللوحة (٣٣) ـ سنة (٨١٣هـ) كما هو مثبت بآخرها، وفي اللوحة (٨٩) منها.

---

(١) انظر: فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ١/٣٥٠.

وقد صححتْ هذه النسخةُ نصَّ القشيرية في بعض المواضع وأضافت إليه إضافاتٍ قيمةً أضاءت متن القشيرية، ورمزت لها بالرمز (م).

* نسخة (إحكام الدلالة):

اعتمدت في (إحكام الدلالة) لتتميم الجزء المفقود من الأصل مع النسخة المطبوعة نسخة مكتبة (راغب باشا) بتركيا رقم (٦٤٤)، وهي نسخة جيدة تقع في (٢٠٩) ورقة من القطع الكبير، ورمزت لها بالرمز (ر).

* خروم النسخ، ومصادر التتميم:

بضم الثلاثة أجزاء من شرح اللخمي من نسختي (مراد ملا) و(دار الكتب المصرية) الذين رجَّحتُ من قبلُ أنهم كانوا نسخة واحدة تامة من الكتاب، ثم تفرقت أجزاؤها بين مصر وتركيا، فقد اعتورها ثلاثة خروم في بعض أجزائها:

ـ **الخَرْم الأول**: خرم صغير بمقدار ورقة، وقع في نهاية باب (التصوف) من نسخة (دار الكتب المصرية).

ـ **الخرم الثاني**: خرم متوسط وقع في بداية الجزء الثالث من نسخة (مراد ملا) من اللوحة (٣/ب)، شمل بقية (باب الأدب، وباب أحكام الصوفية في السفر، وبعض باب الصحبة في الله تعالى).

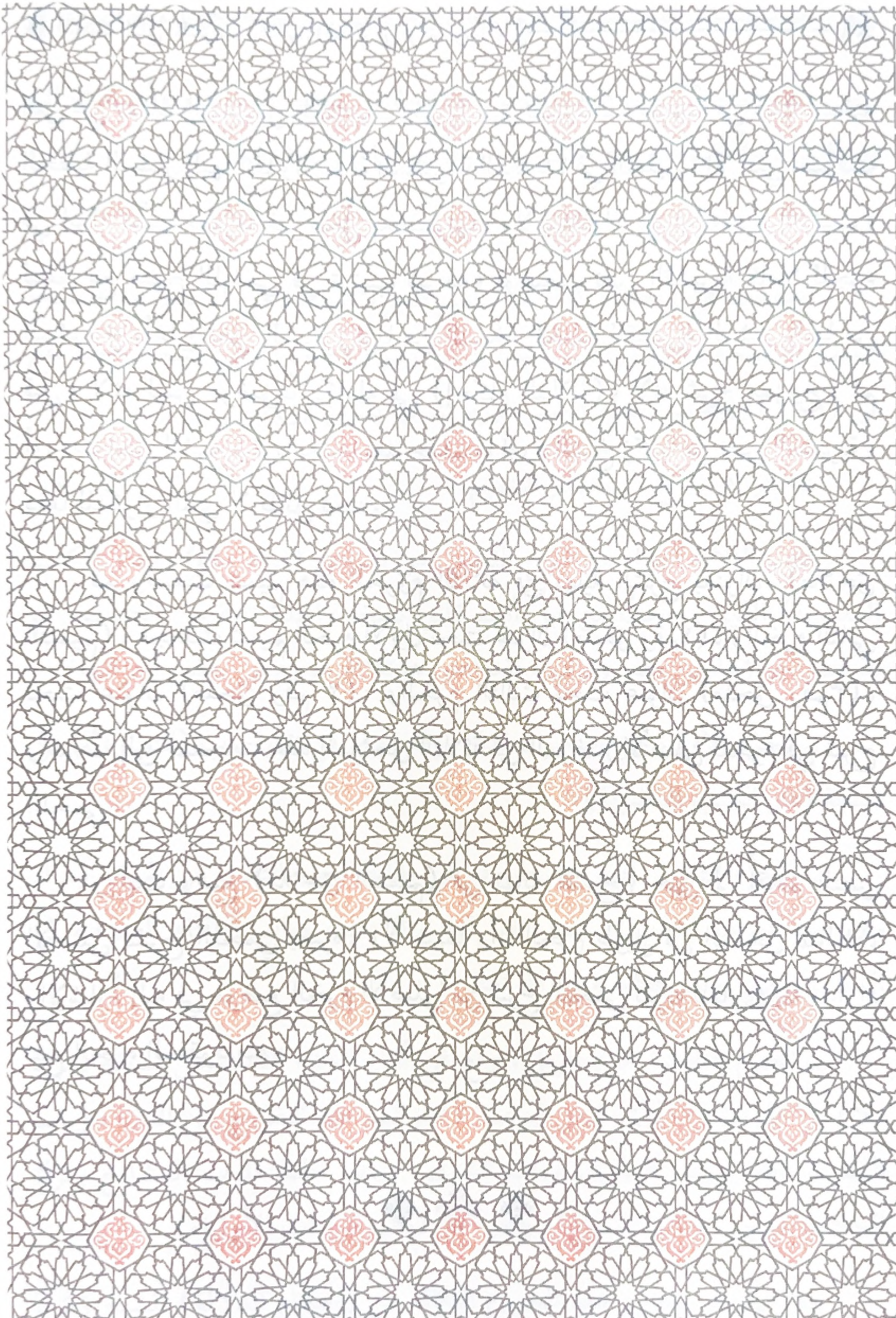
ـ **الخرم الثالث**: خرم طويل، وقع في أثناء الجزء الثالث من نسخة (مراد ملا) من اللوحة (١٢/أ)، شمل أبواب: (أحوالهم عند الخروج من الدنيا، وباب المعرفة بالله، وباب المحبة، وباب الشوق، وباب حفظ قلوب المشايخ وترك الخلاف عليهم، وباب السماع)، وجزء من (باب كرامات الأولياء).

وقد تمَّمتُ مجموع هذه الخروم الثلاثة من (إحكام الدلالة) للشيخ زكريا

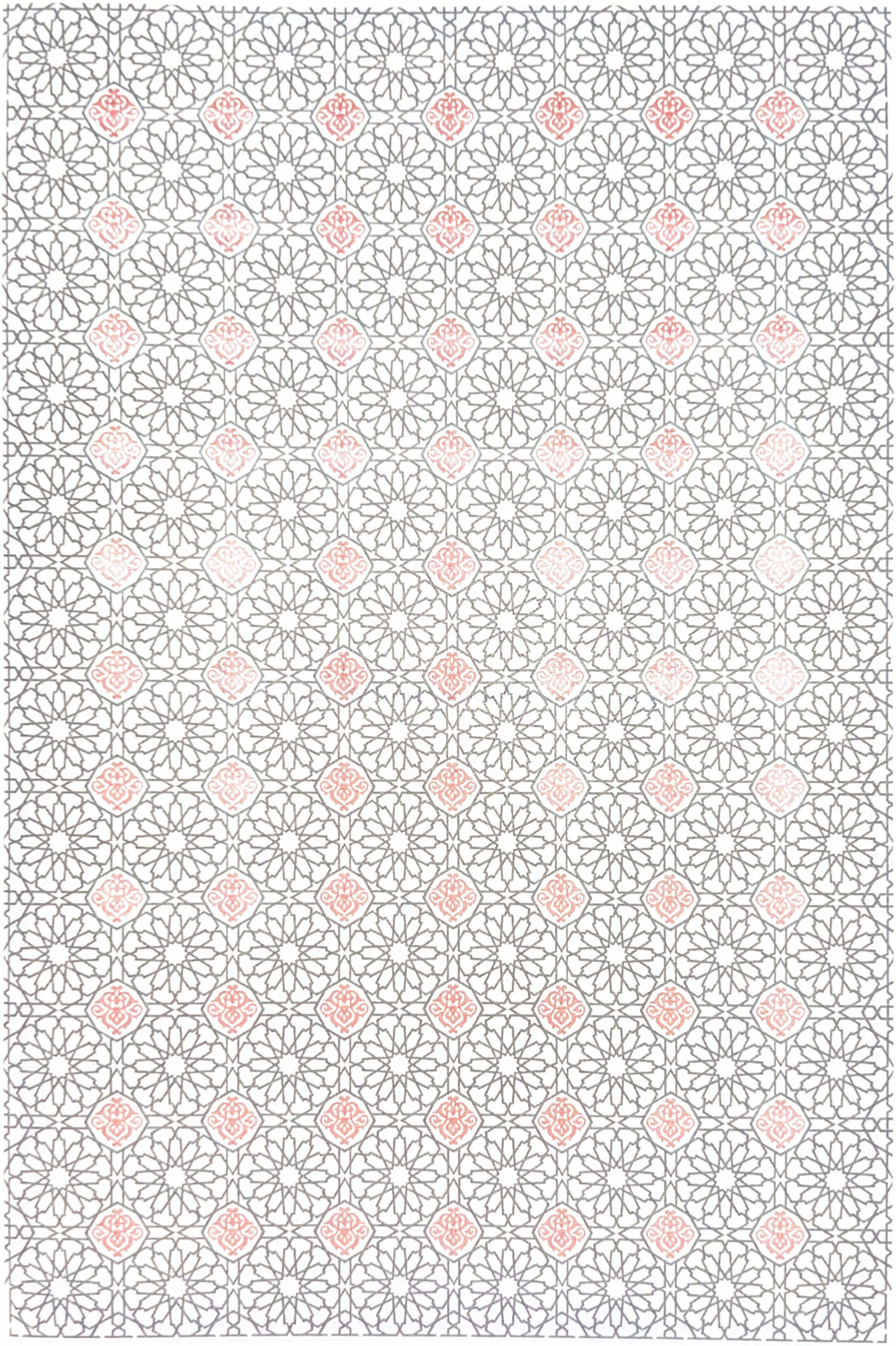
التي هي بمثابة التلخيص للكتاب ـ وفق ما سبق تفصيله ـ ، معتمدًا في ذلك نسخته الخطية المشار إليها آنفا والنسخةَ المطبوعة المعتمدة في التعليق ، إلا أنني تصرفت في إيراد نصِّها تصرُّفًا غير مخلٍّ بمضمونها ، ولا بلفظها ؛ بل في مجرد الترتيب ؛ لتتفق مع منهج اللخمي في ترتيب شرحه ؛ فوضعت نص القشيرية كاملا للجزء المشروح بأعلىٰ نص الشيخ زكريا من النسخة الخطية للقشيرية المشار إليها من قبل ؛ لأنه ليس موضوعًا بكامله في (إحكام الدلالة) ؛ لأنه شرح ممزوج ، ثم أوردت نص الشيخ زكريا بعدها بعد حذف ما أورد الشيخ زكريا من نص القشيرية ؛ دفعًا للتكرار الذي لا طائل تحته .

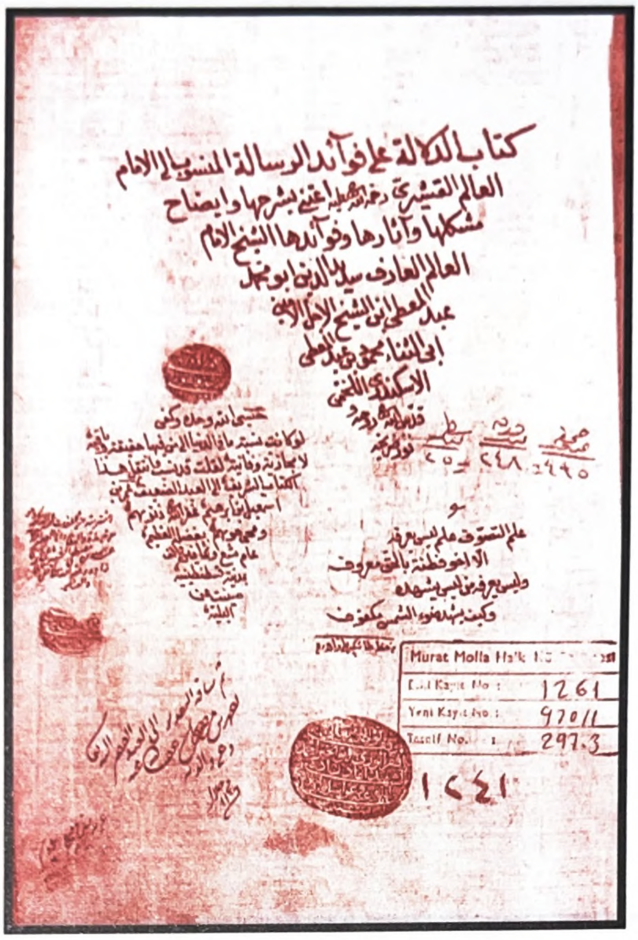
ثم وضعتُ تتميم هذه الخروم الثلاثة في نهاية الشرح بعنوان: (ملاحق التتميم) ، فجعلت تتميم الخرم الأول تحت عنوان (ملحق رقم١) ، والخرم الثاني تحت عنوان (ملحق رقم ٢) ، والخرم الثالث تحت عنوان (ملحق رقم٣) ، وأشرتُ إلىٰ صفحات هذه الملاحق الثلاثة في الموضع الأصلي للخرم في شرح اللخمي .

ورأيتُ وضع (ملاحق التتميم) في نهاية الشرح ؛ حتىٰ لا أُقحم النص الأصلي لشرح اللخمي بغيره ، ولا سيما وأن الخرم طويل في الملحق الثالث ، والإشارةُ إليه في موضع الخرم الأصلي من شرح اللخمي تُقرِّبه للقارئ إذا ما أراد تتبع الجزء المفقود منه .



صُوَرٌ مِنَ المَخْطُوطَاتِ المُسْتَعَانِ بِهَا





صفحة العنوان من الجزء الأول من النسخة (أ)



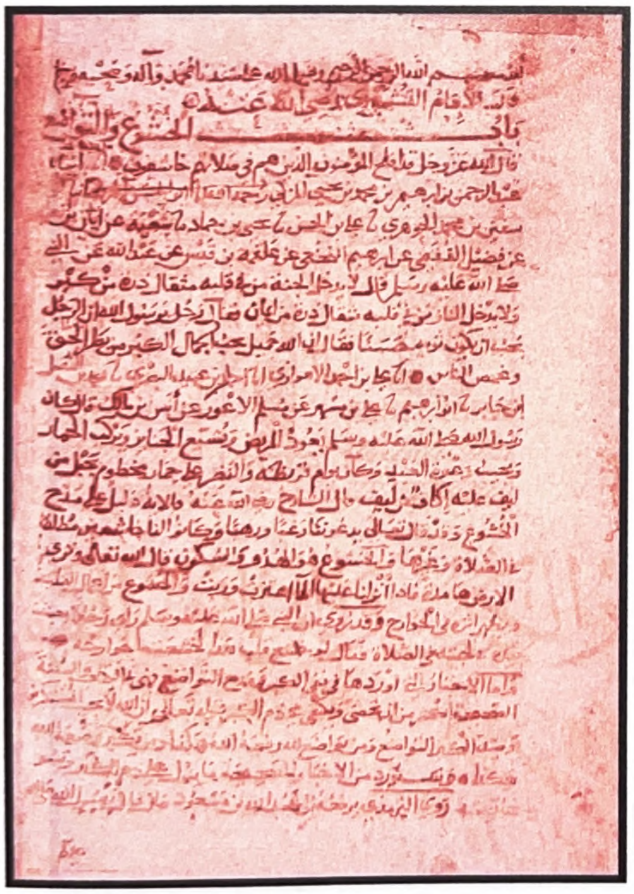
الورقة الأولى من الجزء الأول من النسخة (أ)



الورقة الأخيرة من الجزء الأول من النسخة (أ)



صفحة العنوان من الجزء الثاني من النسخة (أ)



الورقة الأولى من الجزء الثاني من النسخة (أ)



الورقة الأخيرة من الجزء الثاني من النسخة (أ)



صفحة العنوان من الجزء الثالث من النسخة (أ)



الورقة الأولى من الجزء الثالث من النسخة (أ)



الورقة الأخيرة من الجزء الثالث من النسخة (أ)



الورقة الأولى من النسخة (ب)



الورقة الأخيرة من النسخة (ب)



صفحة العنوان من النسخة (ج)



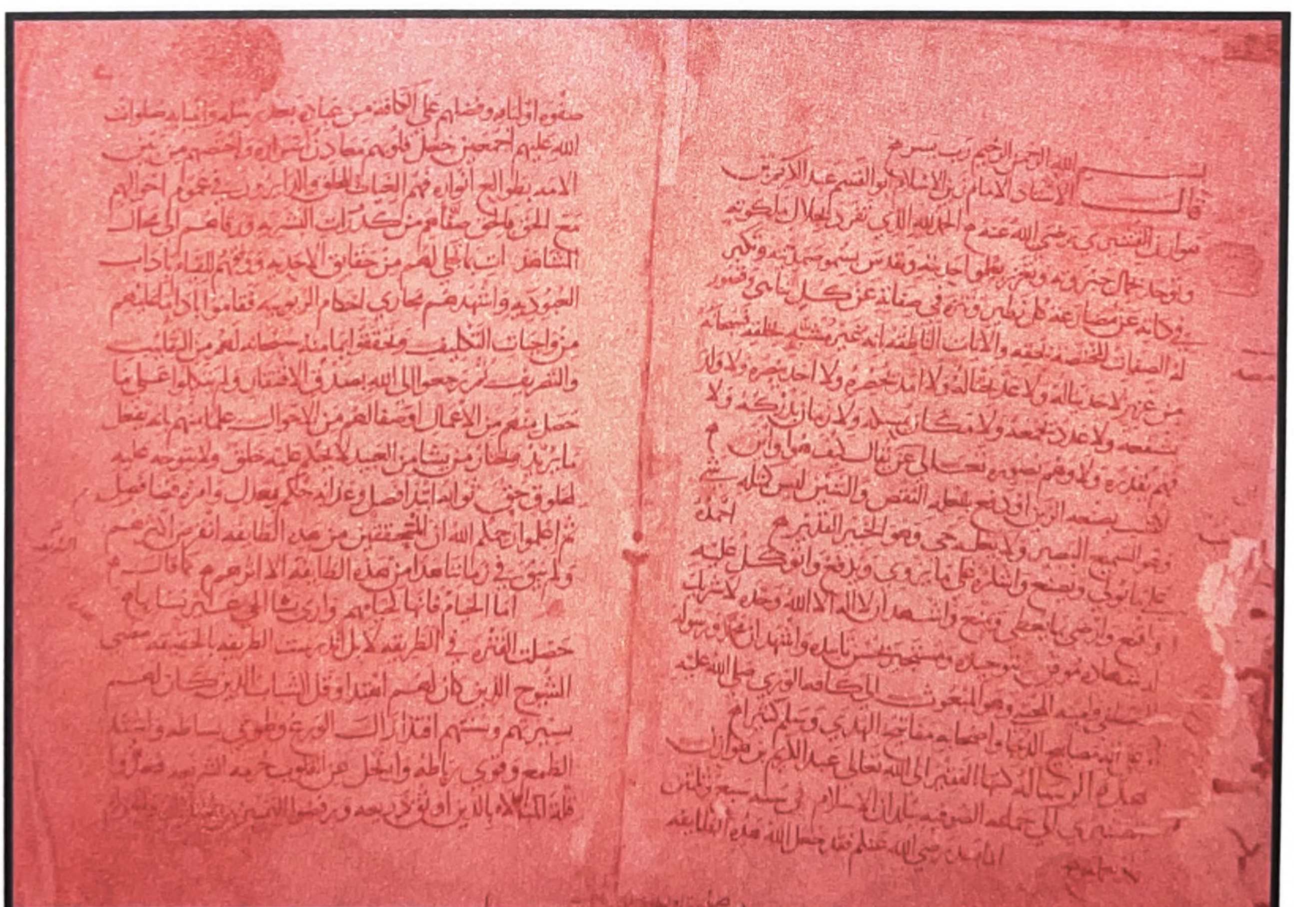
الورقة الأولى من النسخة (ج)



الورقة الأخيرة من النسخة (ج)



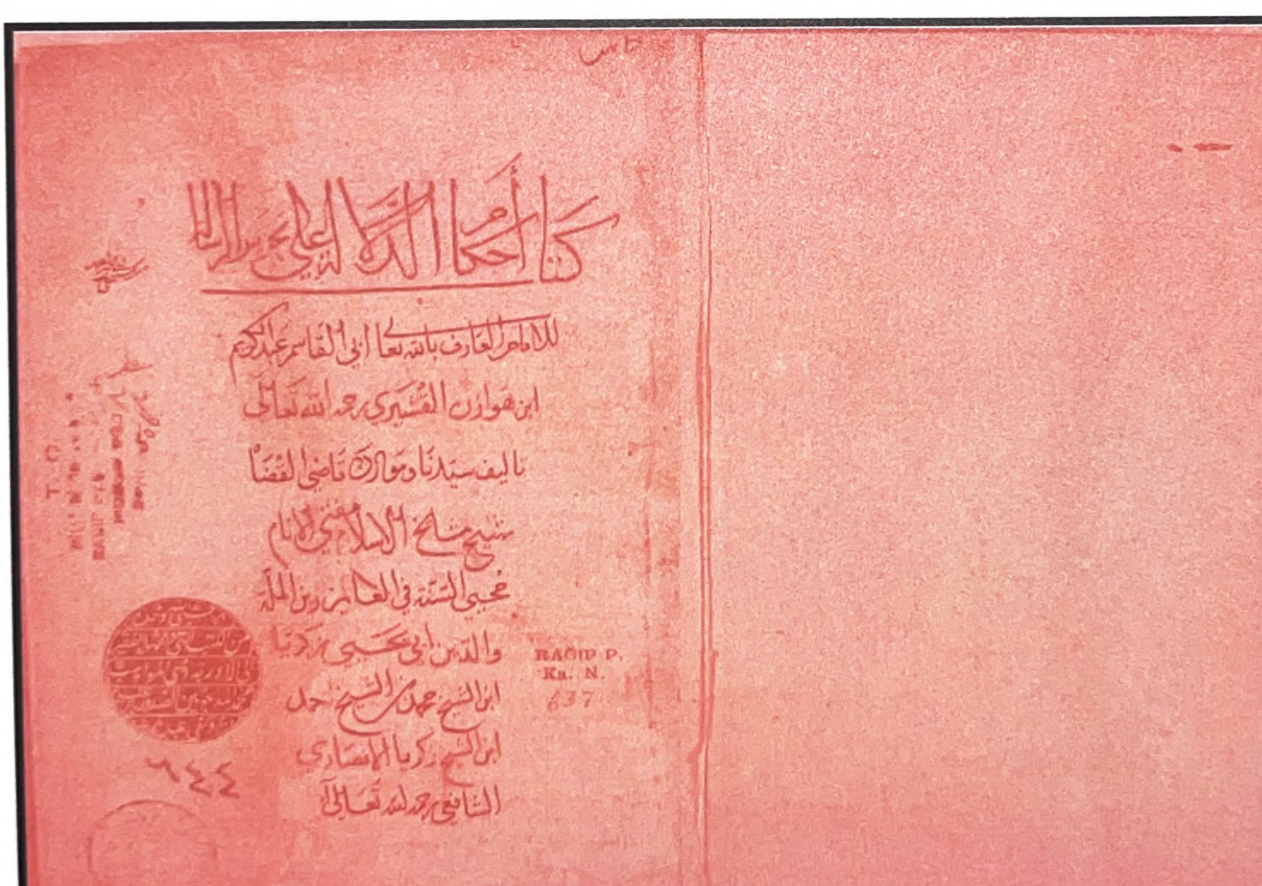
صفحة العنوان من النسخة (ف)



الورقة الأولى من النسخة (ف)



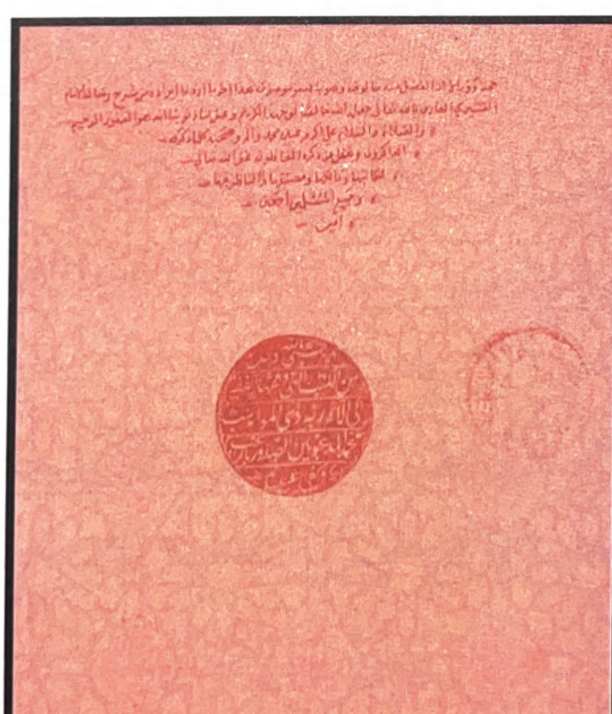
الورقة الأخيرة من النسخة (ف)



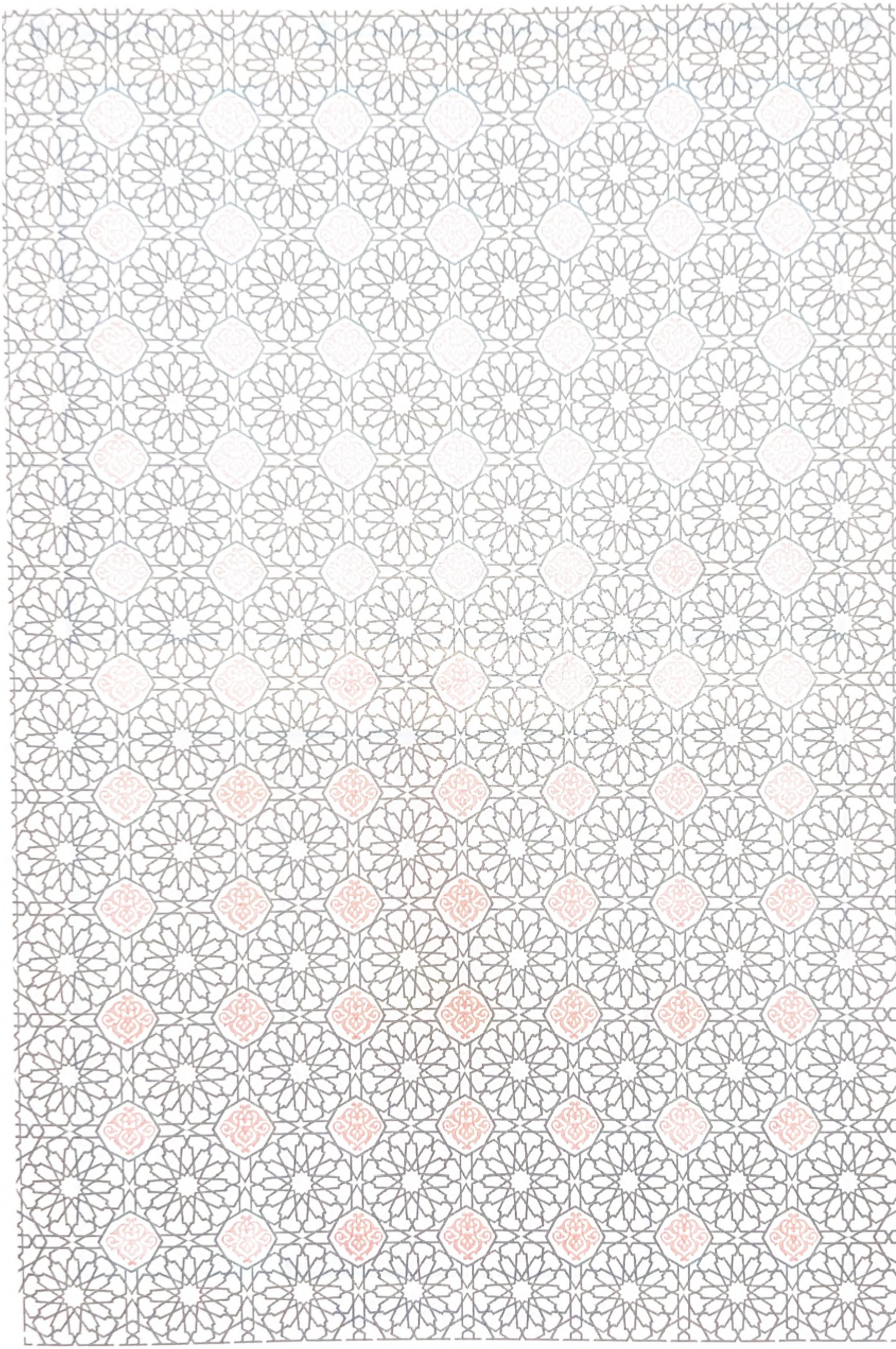
صفحة العنوان من النسخة (ر)



الورقة الأولى من النسخة (ر)



الورقة الأخيرة من النسخة (ر)



شرح الرسالة القشيرية

المسمّى

الدلالة على فوائد الرسالة

أقدم شروح الرسالة القشيرية وأوسعها، ومعتمد شرّاحها

للإمام الفقيه الصوفي

أبي محمد عبد المعطي بن محمود اللخمي الإسكندري المالكي

(ت ٦٣٨هـ)

دراسة وتحقيق

د. أحمد رجب أبو سالم

مركز تحقيق النصوص بجامعة الأزهر الشريف

مراجعة وتقديم

أ.د. عبد الرحمن محمد المراكبي

أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر الشريف

تقديم

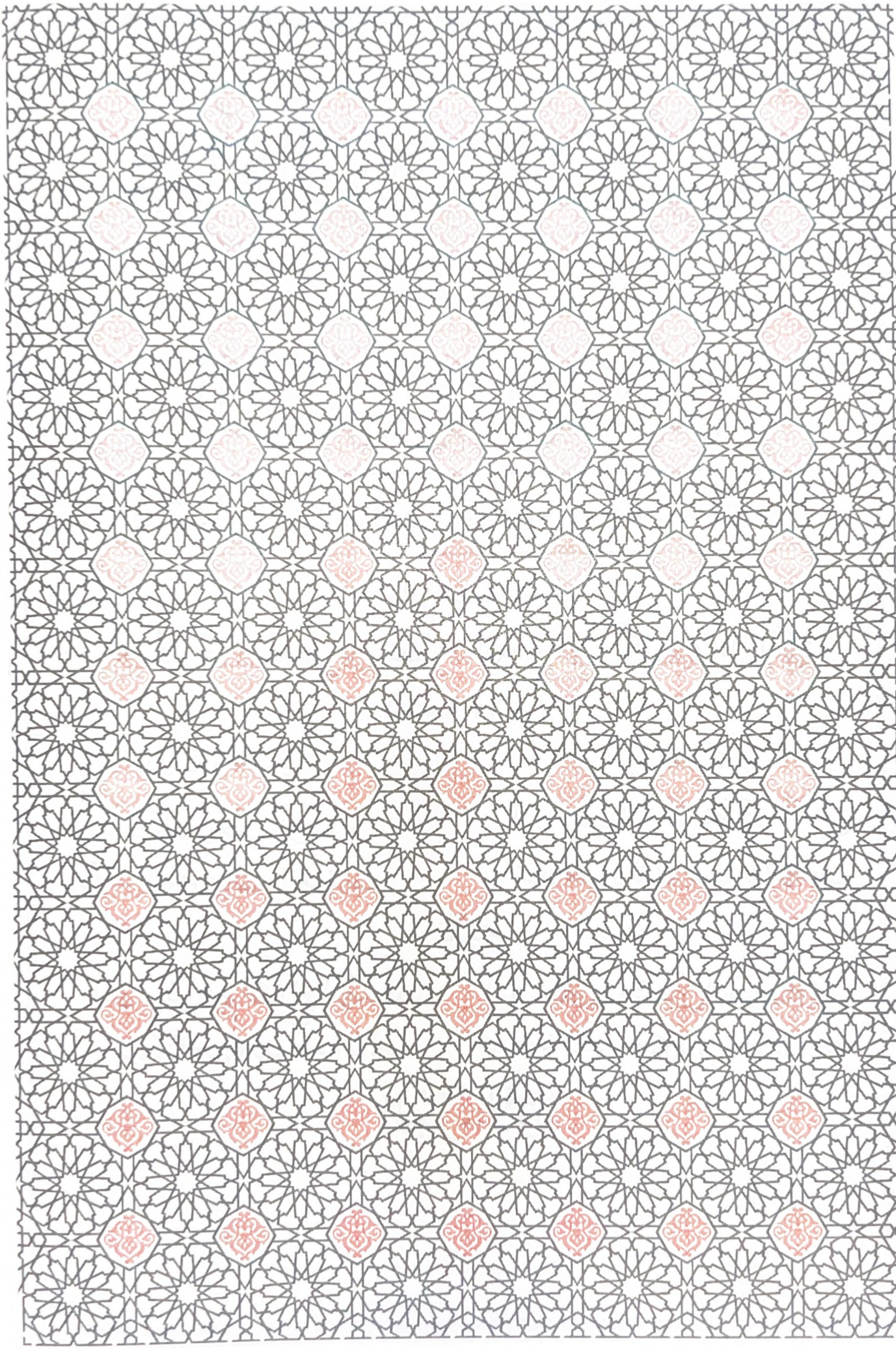
أ.د. إبراهيم صلاح الهدهد

مدير مركز تحقيق النصوص بجامعة الأزهر

أ.د. محمد حسين المحرصاوي

رئيس جامعة الأزهر ورئيس مجلس إدارة مركز تحقيق النصوص

الجزء الأول



كِتَابُ

«الدِّلَالَةِ عَلَى فَوَائِدِ الرِّسَالَةِ»

المنسوبُ إلى الإمامِ العالِمِ القُشَيرِيِّ ـ رحمةُ الله تعالى عليه ـ

اعتنى بشرحِهَا، وإيضاحِ مُشكِلِهَا وآثارِها وفَوائِدِها

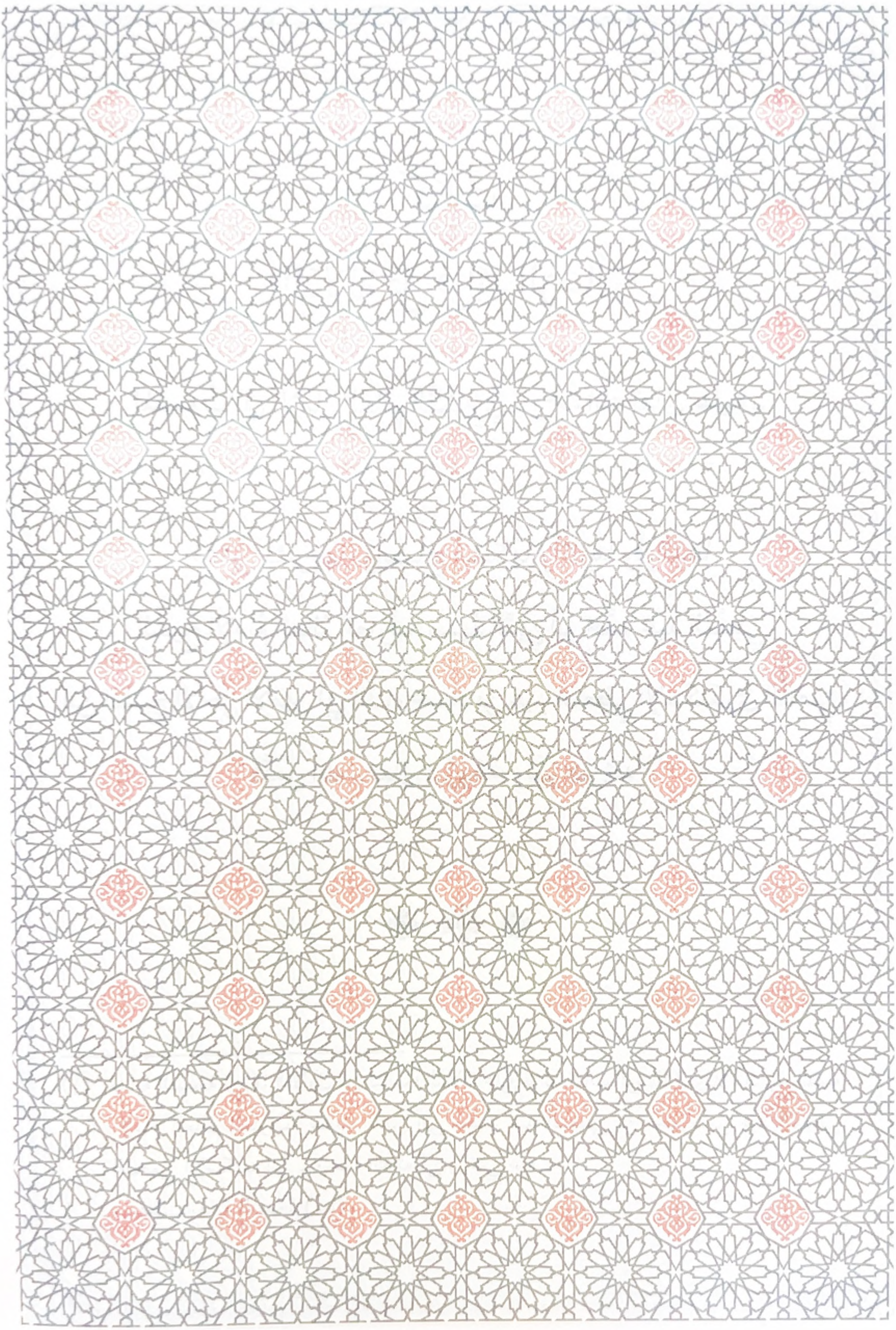
الشَّيخُ الإمامُ العالمُ العارفُ: سديدُ الدِّينِ أبو محمَّد عبد المُعْطِي

ابنُ الشَّيخِ الأجلِّ الأمينِ أبي الثَّناءِ محمود بنِ عبدِ المُعطِي الإسكندَريِّ اللَّخميِّ

قدَّسَ الله ـ تعالى ـ رُوحَهُ، ونوَّرَ ضريحَه(١)

---

(١) بداية النسخة (ج): «الأول من كتاب (الدلالة على فوائد كتاب الرسالة)، إملاء الشيخ الفقيه الإمام العالم العارف: سديد الدين أبي محمد عبد المعطي بن محمود بن عبد المعطي اللخمي الإسكندراني ـ رحمه الله تعالى ورضي عنه ـ».
وسقطت بداية النسخة (ب).



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [١/٢أ]

صلَّى الله على سيِّدِنا محمَّدٍ وآلِه وصَحْبِه وسلَّمَ[(١)]

[رَبِّ أَعِنْ بِجَاهِ مُحَمَّدٍ يا كَرِيم][(٢)]

قال الشَّيخُ الفقيهُ الإمامُ، العارفُ الوَرِعُ الزَّاهدُ، لسانُ المتكلِّمينَ، وشيخُ المُحبِّينَ، الجامعُ بينَ عِلْمَي: الظَّاهرِ والبَاطنِ[(٣)]، والعارفُ بمقامِ السَّائرِ والقَاطِنِ، السَّيِّدُ الأجلُّ العلَّامةُ: سَدِيْدُ الدِّينِ، أبو محمَّد عبدِ المُعطِي بن أَبِي الثَّناءِ محمود بن عَبْد المُعْطِي اللَّخْميُّ الإسكَنْدَرِيُّ ـ أدامَ اللهُ تَوفِيْقَهُ، ونفعَ به صحبَهُ، وسلكَ به طريقَهُ ـ[(٤)]:

الحمدُ لله العَلِيِّ الكبير، الوَليِّ النَّصير، العَليمِ القدير، السَّميعِ البصير، أحمَدُهُ على ما هو عليهِ من صِفاتِ جَلالِهِ وكَمالِهِ مُعْتَرِفًا بالعَجْزِ والتَّقصير، وأشكرُهُ على نِعَمِهِ الَّتي لا يُحْصِيهَا عقلٌ ولا يَشْمَلُهَا تَقدِير، والصَّلاةُ على سيِّدِ العَرَبِ والعجَمِ البَشِيرِ النَّذير، الباذِلِ[(٥)] نفسَهُ في محبَّةِ ربِّه وإرشادِ أُمَّتِهِ بالجدِّ والتَّشْمِير، وعلى آلِهِ وصَحبِه[(٦)] صَلاةً دائمةً مُسْتَمِرةً ما سنحَ خاطرٌ في ضَمِير، وما انتبَهَ قلبٌ بِتَذْكِير، وسلَّمَ كثيرًا.

أمَّا بَعْـدُ:

فقد سألَنِي جماعةٌ منَ الإخوان، السَّالكينَ طريقَ الرَّحمن، الرَّاغبينَ في

---

(١) سقط لفظ التصلية من (ج).

(٢) زياده من (ج).

(٣) لعل المراد بالظاهر: الفقه، الذي نص عليه في صدر نعوته، وبالباطن: التصوف، أو الظاهر والباطن بصفة عامة، والأول أقرب.

(٤) وردت عبارة الدعاء هذه في (ج) بلفظ: «رضي الله عنه وأثابه الجنة بمنه آمين».

(٥) في (ج): المُبْذِل.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ج).

كمالِ المعرفةِ والبيان، لأحوال السَّالكين، والفرقِ بينَ درجاتِ الأبرارِ والمقرَّبين، أنْ أُبَيِّنَ لهُم ما احتوَىٰ عليهِ الكتابُ المسمَّىٰ بـ«**الرِّسالةِ**» لجميعِ أهلِ الإسلامِ، المنسوبينَ إلىٰ التَّصوُّفِ، الَّذي اعتنَىٰ به الإمامُ الأجلُّ الكبيرُ العارفُ: أبو القاسمِ عبدُ الكريمِ بنُ هوازنَ القُشَيْرِيُّ.

وأنْ أَشْرَحَ ما تَضَمَّنَتْهُ كلماتُهُم في التَّوحيد، الدَّالَّةُ علىٰ قَواعدِ أهلِ الحقِّ والتَّسديد، والألفاظَ الَّتِي تواضَعُوا[(١)] عليهَا فيمَا بينَهُم، الدَّالَّةَ علَىٰ شريفِ أحوالِهِم، وكريمِ مقاماتِهِم.

وأنْ أُبَيِّنَ ذلك بألفاظٍ قَرِيبَةٍ يُفْهَمُ منهَا المَقْصُود، ويُرْجِعُ إلىٰ طريقِهِم ومعرفةِ فضْلِهِم مَنْ شأنهُ الإنكارُ لذلكَ والجحود، فأجبْتُهُم إلىٰ مَرْغُوبِهِم، وسَألتُ الله ـ تعالىٰ ـ أنْ يُعينَ علىٰ حُصُولِ مَطْلُوبِهِم، وأنْ يحفظَنا منَ الخطأِ والزَّلَل، وأنْ يبلِّغَنا وإيَّاهُم فيه غايةَ الأمل، فهوَ ذو الجُودِ والإحسان، المرجُوُّ بالحفظِ في القلبِ واللِّسان، بمَنِّهِ وكرَمِهِ.

---

(١) أي: اتفقوا عليها في عُرفهم، فلكل أهل فن اصطلاحاتهم.

فصــلٌ

وقد رأيتُ ـ واللهُ المستعانُ ـ أنْ أذكرَ هذا الكتابَ مِنْ أوَّلِ خطبتِه، وأتتبَّعَهُ شيئًا شيئًا على حَسْبِ ما يَفْتَح الله ـ سبحانه ـ بِه بفضلِهِ وكرامَتِه، وأُبَيِّنَ ما احتاجَ إلى بَيَان، وأشرحَ ما احتاجَ إلى [١/١ب] زيادَةِ بسْطٍ بغيرِهِ منَ العِرْفَان، واللهُ المستعان.

فصــلٌ

وإذَا انتهى الكلامُ ـ إن شاءَ الله ـ إلى ذكْرِ المقاماتِ: منَ التَّوبةِ والزُّهدِ وغيرِ ذلكَ فِي الأبواب، ذَكَرْتُ حَدَّ كلِّ مقامٍ على وجْهِ التَّحقيقِ والصَّواب، وأجريتُ عليهِ جميعَ أقوالِ السَّادةِ منَ المَشَايخِ لتُعْرَفَ مقاصدُهُم منَ التَّحديدِ أوْ بيانِ الثَّمراتِ والأسباب، ونسألُ العَوْنَ منْ رَبِّ الأربَاب، بِمَنِّهِ وكَرَمِه.

بسم الله الرحمن الرحيم

صلَّى الله على سيِّدِنا محمَّدٍ وآلِه وصحبِه وسلَّمَ[١]

قالَ الشَّيخُ الإمَـامُ أبو القاسمِ عبدُ الكريمِ بنُ هوازنَ القُشَيْرِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]:

«الحَمْدُ للهِ الَّذي تفرَّدَ بجلالِ ملكوتِه، وتوحَّدَ بجمالِ جَبُروتِه، وتَعَزَّزَ بعلوِّ أحديَّتِه، وتقدَّسَ بسموِّ صمديَّتِه، وتكبَّرَ في ذاتِه عن مضارعةِ كلِّ نظيرٍ، وتنزَّهَ في صِفاتِه عن كلِّ تَناهٍ وقُصُورٍ، لهُ الصِّفاتُ المختصَّةُ بحقِّه، والآياتُ النَّاطقةُ بأنَّهُ غيرُ مشبَّهٍ بخلقِه.

فسبحانَه مِنْ عزيزٍ، لا حدَّ ينالُه، ولا عِدَّ[٣] يحتَالُه، ولا أمدَ يحصُرُه، ولا أحدَ ينصُرُه، ولا ولدَ يشفعُه، ولا عددَ يجمَعُه، ولا مكانَ يُمْسِكُه، ولا زمانَ يُدْرِكُه، ولا فَهْمَ يَقْدُرُه، ولا وَهْمَ يُصَوِّرُهُ، تعالَى عن أنْ يقالَ: كيفَ هو؟ أو أينَ؟ أو اكتسبَ بصنعِه الزَّينَ، أو دفعَ بفعلِه النَّقصَ والشَّينَ؛ إذْ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، [ولا يغلِبُه حيٌّ، وهو الخبيرُ القَدِيرُ][٤].

أحمدُهُ على ما يُولِي ويَصْنَع، وأشكرُهُ على ما يَزْوِي[٥] ويَدْفَع، وأتوكَّلُ عليه وأَقْنَع، وَأَرْضَى بِمَا يُعْطِي وَيَمْنَع.

وأشهدُ أنَّ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، شهادةَ مُوقنٍ بتوحِيدِه، مستجيرٍ

---

(١) سقطت هذه العبارة من (ج).
(٢) الرسالة القشيرية ١/١٤ ـ ١٥.
(٣) أي: كثرة.
(٤) ما بين المعقوفين زيادة من (ج، ف).
(٥) أي: يقبض من النعم، ويدفع: يبسط منها.

بحُسْنِ تأييدِه، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ المصطفىٰ[١]، وأَمِيْنُه المُجتبىٰ، ورسولُهُ المبعوثُ إلىٰ كافَّةِ الوَرَىٰ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ مَصَابِيحِ الدُّجَىٰ، وأصحابِهِ مَفَاتيحِ الهُدَىٰ، وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقد تضمَّنَتْ هذه الخطبةُ مِن تَنْزِيهِ اللهِ - تعالىٰ - عن مَا لا يليقُ بِجَلالِه، ووصفِه بصفاتِ كَمَالِه، وما تفضَّلَ به من جميلِ إِحْسَانِه، ما نُنَبِّهُ عليهِ، ونُشيرُ إليهِ.

فقولُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**تَكَبَّرَ فِي ذَاتِهِ عَن مُضَارَعَةِ كُلِّ نَظِيرٍ**»؛ أي: تَعَالَىٰ وتَقَدَّسَ عن النَّظيرِ والشَّبيهِ.

وقولُه: «**وَتَنَزَّهَ فِي صِفَاتِهِ عَنْ كُلِّ تَنَاهٍ وَقُصُورٍ**»: إشارةٌ إلىٰ عُمُوم تعلُّقِ صِفَاتِه؛ مِن عِلْمِه وقُدْرَتِه [١/٢أ] وإرادتِه بسائرِ متعلقاتِهَا الوَاجِبَةِ والجَائِزَةِ والمُسْتَحِيلَةِ، فَإِنَّ عِلْمَه القديمَ جَلَّ جَلَالُهُ تعلَّقَ بكلِّ معلومٍ، فهو يعلمُ نفسَه، وما يستحيلُ وجودُه، وما يُمكنُ وجودُه، فقد تعلَّقَ علمُه بالوَاجبِ والجائزِ والمُسْتَحيل، وتعلَّقَتْ إرادتُهُ بكلِّ ممكنٍ مَا تخصصَّ منه بالوقوعِ أو باستمرارِ العَدَمِ.

وكذلكَ تعلَّقَتْ قُدْرَتُهُ بكلِّ ما علمَ وخصَّصتْهُ إرادتُه بالوقوعِ من الجائزاتِ، فلا مُخَصِّصَ بدونِ إرادتِه، ولا واقعَ بدونِ قُدْرَتِه، ومِن ذلكَ أفعالُ خَلِيقَتِه[٢].

وقولُه: «**لَهُ - تعالىٰ - الصِّفَاتُ المُخْتَصَّةُ بِحَقِّهِ**»، يعنِي: صفاتِ الرُّبوبيَّةِ الَّتي بها تميَّزَ عن خَلْقِه.

وقولُه: «**والآياتُ النَّاطقةُ بأنَّه غيرُ[٣] مشبَّهٍ بخلقِه**» يحتملُ أمرَينِ:

أحدُهما: الأدلَّةُ العقليَّةُ الدَّالَّةُ علىٰ الفَرْقِ بينَ الصَّانعِ والمَصْنُوعِ.

---

(١) في (ف): «ورسوله المصطفىٰ».

(٢) أفاده الشيخ زكريا الأنصاري في: إحكام الدلالة ١/٣١.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ج).

و[الثَّانِي]: يحتملُ الآياتِ النَّاطقةَ في كتابِه بتنزيهِه عن مُمَاثلَةِ خَلْقِه؛ كَقَولِه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، وما يَجري مَجرَاه، ويدلُّ ذلك على إثباتِ الكلامِ لله(١).

وقولُه: «وَلَا أَمَدَ يَحْصُرُهُ»: إشارةٌ إلى نَفْيِ الأوليَّةِ والأُخْرَويَّةِ(٢)؛ وهو القِدَمُ والبقاءُ.

«وَلَا أَحَدَ يَنْصُرُهُ» إشارةٌ إلى نفْيِ الاثنينيَّةِ(٣)؛ منَ الشَّريكِ والمُعِينِ.

وقولُهُ: «وَلَا عَدَدَ يَجْمَعُهُ»: إشارةٌ إلى إثباتِ الوحدانيَّةِ ونَفْيِ الكَثْرَة.

وقولُه: «وَلَا مَكَانَ يُمْسِكُهُ، وَلَا زَمَانَ يُدْرِكُهُ»: إشارةٌ إلى استغنائِه عن عَرْشِه، وتَنَزُّهِه عنِ المَكَانِ والزَّمَانِ(٤).

وقولُه: «وَلَا فَهْمَ يَقْدُرُهُ، وَلَا وَهم يُصَوِّرُهُ»: إشارةٌ إلى تنزُّهِه عن الجواهرِ والأعراضِ؛ فإنَّ التَّقديرَ يلحقُ الجواهرَ، والتَّصويرَ يرجعُ إلى الأجسامِ، وهي جواهرٌ وأعراضٌ.

وقولُه ـ رحمةُ الله عليهِ ـ: **«تَعَالَى عَنْ أَنْ يُقَالَ: كَيْفَ هُو؟ أَو أَيْنَ؟ أَو اكْتَسَبَ بِصنعِه الزَّين(٥)، أو دفعَ بِفِعْلِه النَّقصَ والشَّيْن»**؛ ففي الأَوَّلِ(٦) تنزُّهُهُ عنِ الجسميَّةِ

---

(١) في لمعة الاعتقاد للمقدسي ص١٥: «ومن صفات الله ـ تعالى ـ أنه متكلم بكلام قديم يسمعه منه من شاء من خلقه..». وخالفت في ذلك الجهمية والمعتزلة، ففي الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار ٢/٥٤٠: «قالت الجهمية والمعتزلة والقدرية: لا يوصف الله بأنه متكلم»، وانظر: الإرشاد للجويني ص٩٩، والأمد الأقصى لابن العربي ٢/١٥٩.

(٢) أي: فلا أول له ولا آخر.

(٣) فالاثنينية منافاة للإلهية. وأما قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، أي: دينه ورسوله؛ بكسبكم وقيامكم بالحق.

(٤) لأنهما مخلوقان، قال أبو منصور الماتريدي: «إذ إليهما ترجع حدود الأشياء ونهايتها» التوحيد ص١٠٦.

(٥) أي: الكمال والحُسْن.

(٦) أي قوله: كَيْفَ هُو؟ أَو أَيْنَ؟

والمكانِ[١]، والثَّاني: استغناؤُهُ عن مخلوقاتِهِ في جلْبِ نفْعٍ أو دفْعِ نقْصٍ في حالٍ من الأحوال[٢]؛ إذ ليسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وهوَ الكبيرُ المُتَعَال.

❁ قَالَ الإمَـامُ القُشَـيْرِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «هذهِ رسالةٌ كتبَها[٤] الفقيرُ إلى اللهِ ـ تعالى ـ: عبدُ الكريمِ بنُ هَوازِنَ القُشَيْرِيُّ، إلى جَماعةِ الصُّوفيَّةِ[٥] ببلدانِ الإسلامِ، في سنةِ سَبْعٍ وثَلاثينَ وأَرْبعِ مِئَةٍ.

أمَّا بَعْدُ ـ رضِيَ الله عَنْكُم ـ[٦]:

فقدْ جَعلَ اللهُ هذهِ الطَّائفةَ صَفْوَةَ أوليائِه، وَفَضَّلَهُم عَلَى الكافَّةِ من عِبادِه، بَعْدَ رُسُلِهِ وَأَنْبيائِه، [١/٢ب] ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم ـ، وَجَعلَ قلوبَهُم مَعادنَ أَسْرارِه، واختصَّهُم من بينِ الأمَّةِ بطَوَالعِ أنوارِه، فهُم الغِيَاثُ لِلخَلْق، والدَّائرونَ في عُمُومِ أَحْوَالِهِم مَعَ الحَقِّ بِالحَق، صَفَّاهُم من كُدُوراتِ البشريَّةِ، ورقَّاهُم إلى محَالِّ المُشَاهَدَاتِ بِمَا تَجَلَّى لهم من حَقَائقِ الأَحَدِيَّة، ووفَّقَهُم لِلقِيَامِ بِآدَابِ العُبُودِيَّة، وأَشْهَدَهُم مَجَارِي أَحْكَامِ الرُّبوبيَّة؛ فقَامُوا بِأَدَاءِ مَا عَلَيهِم من واجباتِ التَّكليف، وتحقَّقُوا بِمَا مِنْهُ ـ سبحانه ـ لَهُم منَ التَّقليبِ والتَّصرِيف.

ثُمَّ رجعُوا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِصِدْقِ الافتقارِ، ولم يتَّكِلُوا على مَا حصلَ منهُم من

---

(١) انظر: التبصير في الدين ص٣٩، ٤٠، ١٢١، ١٢٠، والفرق بين الفرق ص٢٢٩، فالسادة الأشاعرة قد أثبتوا ـ باستفاضة ـ في كتبهم مقالات المجسمين حتى يحذروا منها. انظر: مقالات الإسلاميين ص٣١، وما بعدها.

(٢) انظر: أصول الدين للبغدادي ص٨٢، وما بعدها.

(٣) الرسالة القشيرية ١/١٥.

(٤) في (أ): كتب بها، والمثبت الأصح، كما في نص الرسالة القشرية المطبوع، وفي (ف): «هذه الرسالة كتبها».

(٥) الآتي بيانهم في (باب التصوف).

(٦) أي: أيها الصوفية.

الأعمالِ، أو صَفَا لَهُم منَ الأحوالِ؛ عِلْمًا منهُم بأنَّه يفعلُ ما يُرِيدُ، ويختارُ مَنْ يشاءُ من العَبِيد، لا يحكمُ عليه خَلْقٌ، ولا يَتَوجَّهُ عليه لمخلوقٍ حَقٌّ، ثَوَابُه ابتداءُ فَضْل، وعَذَابُه حُكْمٌ بِعَدْل، وَأَمرُهُ قَضَاءٌ فَصْل».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا خفاءَ بتفاوتِ درجاتِ الأمَّةِ، وانقسامِهم إلىٰ المقرَّبينَ وأصحابِ اليمينِ، علىٰ ما دلَّ عليه الكتابُ العزيزُ فِي سُورةِ (الواقعةِ)[١] وغيرِهَا من السُّورِ، وكذلكَ مَا دلَّ عليهِ الخَبَرُ الصَّحيحُ في (مسلمٍ)[٢] لمَّا سألَ جبريلُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنِ الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ، فوصَفَ له الإسلامَ بأعمالِ الظَّاهرِ؛ منَ النُّطقِ بالشَّهادتَينِ، والصَّلاةِ، والصِّيامِ.

والإيمانَ بأعمالِ القُلُوبِ بمَا غابَ عنِ الأبصارِ، ومَا أخبرتْ به الرُّسلُ عنِ الله ـ تعالىٰ ـ منَ الجنَّةِ والنَّارِ، وبالقدَرِ خيرِهُ وشرِّه.

ثُمَّ أجابَهُ عنِ الإحسانِ بـ«أنْ تعبدَ الله كأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تكنْ تَراه فإنَّهُ يراكَ»[٣].

فمتىٰ صحَّ الإيمانُ بالقلوبِ، وعملتِ الجوارحُ بما أمرَ بهِ الأنبياءُ، كانَ العبدُ مؤمنًا حقًّا من أصحابِ اليمينِ، ومتَىٰ ارتقَتْ درجتُه وتأدَّبَ في عباداتِه، وتوالَتْ منهُ نوافِلُه وطاعاتُه، في عمومِ أوقاتِه؛ كان منَ المحسنينَ، وهمُ المقرَّبونَ، فإنَّ القُربَ من اللهِ ـ تعالىٰ ـ ليسَ بالأبدانِ، وإنَّمَا هو بالقلوبِ، فمَنْ قلَّتْ غفَلاتُه، وتَوالَىٰ علىٰ قلبِهِ ذِكْرُهُ ودعواتُه، وحسُنَتْ مناجاتُه، فهو المُعَبَّرُ عنه بالمقرَّبِ والمُحْسِن.

---

(١) في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾.

(٢) في صحيحه ١/٣٦ ـ في الحديث الطويل رقم (٨).

(٣) انظر: اللمع للطوسي ص٢٢.

وهذا الصِّنفُ هو المعبَّرُ عنه بـ«الصُّوفِيِّ»[١]؛ الَّذي صَفَا عن الأخلاقِ المَذْمُومةِ، وتخلَّقَ بالأخلاقِ المَحْمُودةِ، وقامَ بواجباتِ للهِ[٢] ـ تعالىٰ ـ، وانكفَّ عن محرَّماتِه، وتَرَاقَىٰ في درجاتِ مَنْدُوباتِه، حتَّىٰ أحبَّهُ الله وحفِظَهُ في سَائرِ حركاتِهِ وسكناتِه، كما جاءَ في الخبرِ الصَّحيحِ[٣]: [١/١٣] «مَا تَقرَّبَ المُتَقرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتُرَضْتُ عَلَيْهِم، وَلَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ»، وعَدَّ بقيَّةَ الجوارحِ.. الحديث.

ومعنَىٰ: «كُنْتُ سَمْعَهُ»، أي: بي يسمعُ وبي يُبْصِرُ[٤]، أي: أحفظُهُ في سائرِ تصرُّفاتِه، ويكونُ معَ كمالِ تقواهُ مُتَبَرِّئًا مِن حَوْلِهِ وقُربِهِ، ومضيفًا ذلكَ إلىٰ فاعِلِهِ بهِ والمتفضِّلِ عليه، وفي آخرِ الخَبَرِ[٥]: «فَإِنْ دَعَانِي أَجَبْتُه، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُه».

ولمَّا فسدَ الزَّمانُ، واستُعِيرَ هذا الاسمُ من التَّصوُّفِ لجماعةٍ ليسُوا بهذِهِ الصِّفاتِ المذكوراتِ، نفرَ عنهُ بعضُ النَّاسِ لعدَمِ معرفتِهِ[٦] بحقيقةِ المُرادِ بهِ، فقولُ الإمامِ: «فقدْ جعلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ هذهِ الطَّائفةَ صفوةَ أوليائِهِ»، يعني: المقرَّبينَ

---

(١) انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف ص٢٥، واللمع للطوسي ص٤٥، ومعجم مصطلحات الصوفية لعبد المنعم الحنفي ص١٥٧، وتأمل فيها بقية معاني هذا اللفظ.

(٢) في (ج): بواجبات الله.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٣٨٤ ـ حديث رقم (٦١٣٧) بلفظ: «... وما تَقَرَّبَ إلي عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إلي مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلي بِالنَّوَافِلِ حتىٰ أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ...».

(٤) أي: يجعل الله سلطان حبه غالبًا عليه، حتىٰ لا يرىٰ ولا يسمع ولا يفعل إلا ما يحبه الله، عونًا له علىٰ حماية هذه الجوارح عما لا يرضاه. وانظر: مرقاة المفاتيح ٥/١٤٣.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/٢٢١، وأحمد في مسنده ٦/٢٥٦، وعبد الرزاق في مصنفه ١١/١٩٢، والبيهقي في الزهد الكبير ١/٢٧٣.

(٦) من هنا بدأت النسخة (ب).

الموصوفينَ بالإحسانِ، وهم المفضَّلونَ على بقيَّةِ الأمَّةِ سِوى الأنبياءِ، وهم الَّذين يدخلونَ الجنَّةَ ـ والله أعلمُ ـ بغيرِ حسابٍ، كما جاءَ في الخبرِ[١]، وقامَ عُكَاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ[٢] فقالَ: «أنَا منهُمْ يا رسولَ اللهِ؟» فأجابَهُ عَلَيهِ السَّلَامُ: «أنتَ مِنْهُم»، وقامَ آخرُ، فقالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ[٣]»[٤]، ويحتملُ أن يكونَ سَبَقَكَ بالمَنْزلَةِ بالقَدْرِ السَّابقِ.

وفي الخَبَرِ أيضًا[٥]: «أُدْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي[٦] مِنْهُم».

وقولُهُ: «وَجَعَلَ قُلُوبَهُم مَعَادنَ أَسْرَارِهِ»، أي: خصَّهُم بالإلهامِ الصَّحيحِ، والفِراسةِ الصَّادقةِ، كمَا جرىٰ لعمرِ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قولِه: «يَا سَاريةَ، الجبلَ»[٧]، وغير ذلك ممَّا نُقِلَ من أحوالِهِ، وشَهِدَ له بهِ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الخبرِ

---

(١) ففي صحيح البخاري ٥/٢٣٧٥ ـ حديث رقم (٦١٠٧): «عن ابن عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يَدْخُلُ الجَنَّةَ من أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ».

(٢) هو: عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي، كنيته أبو محصن، أخو أم قيس بنت محصن، كان من فضلاء الصحابة شهد بدرًا وأَبْلىٰ فيها بلاء حسنًا، وانكسر سيفه، فأعطاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرجونًا فصار بيده سيفًا، قُتل يوم اليمامة، قتله طليحة بن خويلد الأسدي.
انظر في ترجمته: الطبقات الكبرىٰ ٣/٩٢، والاستيعاب ٣/١٠٨٠، وحلية الأولياء ٢/١٢.

(٣) في شرح صحيح مسلم للنووي ٣/٨٩: «هو بضم العين وتشديد الكاف وتخفيفها، لغتان مشهورتان، ذكرهما جماعات؛ منهم: ثعلب والجوهري».

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢١٧٠ ـ حديث رقم (٥٤٢٠)، ومسلم في صحيحه ١/١٩٧ ـ حديث رقم (٢١٦). والقصد: بالدعوة التي دعا له.

(٥) جزء من الحديث السابق الذي تمَّ تخريجه.

(٦) في (ب): جعلني، والأصح المثبت.

(٧) أي: الزم الجبل واجعله وراء ظهرك، وورد قوله في: تاريخ دمشق ٢٠/٢٣، والاستيعاب ٤/١٦٠٥، والإصابة ٣/٦، وقال ابن قتيبة: «.. وسارية في وجه العدو، فوقع في نفس سارية ما قال، فاستند إلىٰ الجبل فقاتل العدو من جانب واحد» تأويل مختلف الحديث ص١٦٢. وانظر: إحكام الدلالة ١/٣٤.

الصَّحيحِ[(١)]: «أنَّهُ قَدْ كانَ في الأمَمِ قبلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، وإنْ يكُنْ فِي أمَّتِي فَعُمرُ بنُ الخَطَّابِ».

فأسرارُهُمْ صافيةٌ من الكُدُورات، عامرةٌ بحُسْنِ المُنَاجَاة، مُقْبِلَةٌ على اللهِ ـ تعالىٰ ـ في جَمِيعِ الأَوقَات، مُتَصَفِّحةٌ في الحَادِثَات، ما سبقَ لها من المغيَّبات، واختصَّهُمْ من بينِ الأمَّةِ بهذِهِ الخَيْرَات؛ منَ المُكَاشفاتِ وكَمَالِ الاستبصَارِ في سَائرِ المَخْلُوقات، وفي أَعْمَالِهم بالخَلاصِ من سَائرِ الآفاتِ والمُنقِصَاتِ. ومَنْ هَذهِ صِفتُه؛ فهوَ ممَّنْ تُسْتَجَابُ دَعْوَتُه[(٢)].

و«هُم الغِيَاثُ لِلخَلْقِ»، أي: يَرْجِعُونَ إليهِم في مهمَّاتِهم، ويَنْتَفِعُونَ بقبُولِ دَعواتِهِم، ويدفعُ الله ـ تعالىٰ ـ عنِ الخلْقِ بهِم البليَّات، ويُسبغُ عليهِم بهِمُ البَرَكَات[(٣)]، فإنَّهُم خاصَّتُه، ومحلُّ نظَرِ رحمتِه، و«هُمُ القَوْمُ لَا يَشْقَىٰ جَلِيسُهُم»[(٤)]، فكيفَ مَنْ أحبُّوهُ ودَعَوْا لهُ؟!.

وقولُهُ: «وهُم الدَّائرونَ في عمومِ أحوالِهِم معَ الحقِّ بالحقِّ»، أي: يَدُورونَ معَ العِلْمِ والحقِّ حيثُ دارَ بهِم، مُتَبَرِّئُونَ من أغراضِهِمْ [١/٣ب] وشهواتِهِم، ومِن إضافةِ أعمالِهِم إليهِم، بلْ يقومُونَ بحقِّهِ بفضلِهِ عليهِم وعونِهِ لهُم، وبهذا الاعتبارِ صَفَوا من كُدُوراتِ البشريَّة، أي: حُظُوظِ أنفسِهِم والعَمَلِ بمقتضَىٰ شَهَواتِهِم وأَغْرَاضِهِم.

«ورقَّاهُم إلىٰ محلِّ المُشَاهَدةِ، بمَا تجلَّىٰ لهُم من حقائقِ الأَحَديَّة»، أي: ما

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/١٨٦٤ ـ حديث رقم (٢٣٩٨). قال البيهقي في الاعتقاد ص٣١٥: «وهذا الحديث أصلٌ في جواز كرامات الأولياء». والمحدَّثُ: هو المُلْهَم المُخَاطب في سرِّه.

(٢) في (أ، ج): دعوتهم، والأصح المثبت.

(٣) في (ب): الخيرات.

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٠٦٩ ـ حديث رقم (٢٦٨٩). ولفظ صحيح البخاري ٥/٢٣٥٣ ـ حديث رقم (٦٠٤٥): «هُمْ الجُلَسَاءُ لَا يشقَىٰ بِهِم جَلِيسُهُم».

ملأَ قلوبَهُم من انفرادِهِ بالأفعالِ، وخروجِ غيرِه من القُدْرةِ ولو على ذرَّةٍ من مِثْقَالٍ؛ فانقطعُوا بقلوبِهِم إليهِ، وأقبلُوا بكُلِّيَّتِهِم عليهِ، واشتغلُوا به عمَّن سِوَاهُ، وَدَامَتْ[١] مُشَاهدتُهُم لهُ ولِمَا يَرِدُ عليهم مِن أَحْكَامِهِ؛ إِذْ لا مَالكَ لَهُم سِوَاهُ.

وبهذا شَاهدُوا مَجَارِي أحكامِ الرُّبوبيَّةِ، أي: تصرُّفَ الحقِّ ـ سبحانه ـ فيهِمْ وفي غَيْرِهِم؛ منَ العَطَاءِ والمَنْعِ، والإسعادِ والإضلالِ، والتَّوفيقِ والخُذْلانِ[٢]، وكلُّ ذلكَ عدْلٌ منهُ؛ إِذْ لا ملكَ لغيرِه، ولا آمِرَ لهُ ولا نَاهٍ ـ تعالىٰ عن ذلكَ علوًّا كبيرًا ـ، فَهُم قائمُونَ له ـ تعالىٰ ـ بمَا أمرَهُمْ بهِ ونهاهُمْ عنه منَ التَّكليفِ، ناظرونَ إلىٰ ما أجرَاهُ عليهم منْ سابقِ قدرِهِ من التَّصريفِ، مُتبَرِّئُونَ من أعمالِهِم لِرُؤيةِ الفَضلِ عليهِم والإحسان، شاكرُونَ[٣] له علىٰ ما أَوْلَاهُم منَ النِّعَمِ وحفظهُمُ عنه منَ التَّبديلِ والتَّحريف، فمَا أثابَهُمْ عليهِ من الأفعالِ فبفضْلِه، وما سلَّمَهُم منه من البِدَعِ والضَّلالِ فبحفْظِهِ وطَوْلِه؛ لِمَا استقرَّ عندَهم بحقِّ عبوديَّتِهِم لهُ، وأنَّهُ لا يجبُ عليهِ حقٌّ لمخلوقٍ[٤]، وأنَّ إحسانَهُ فضلٌ، وعذابَهُ عدْلٌ؛ إِذْ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قَالَ الإِمَامُ القشَيريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: **«ثُمَّ اعلمُوا ـ رَحِمَكُمُ الله ـ أَنَّ المحقِّقينَ منْ هذهِ الطَّائفةِ[٦] انقرَضَ أكثرُهُم، ولَمْ يبقَ فِي زمانِنا هَذَا من هذهِ**

---

(١) في (ب): وأدامت.

(٢) انظر: إحكام الدلالة ١/٣٥.

(٣) في (ب): شاكرين، والصواب المثبت.

(٤) في (ب): كمخلوق، والأصح المثبت. وفي فيض القدير ٥/٤٤٧: «لا يجب علىٰ الله شيء عند أهل الحق خلافًا للمعتزلة». وانظر: لمع الأدلة للجويني ص١٢٢، ومعالم أصول الدين ص١٣٧، والمواقف ١/١٤٥.

(٥) الرسالة القشيرية ١/١٦.

(٦) أي: طائفة الصوفية.

الطَّائفةِ إلَّا أثرُهم ، كمَا قيلَ(١):

أَمَّـــا الخِيَـــامُ فَإِنَّهَـــا كَخِيَـــامِهِمْ ❊ وَأَرَىٰ نِسَـــاءَ الحَـــيِّ غَيْـــرَ نِسَـــائِهَا(٢)

حصلَتِ الفترةُ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَة ، لَا بَل اندرسَتِ الطَّريقةُ بالحَقِيقَة .

مضَىٰ الشُّيوخُ الَّذينَ كان لهم اهتداء ، وقلَّ الشَّبابُ الَّذينَ لهم بسيرتِهم وسُنَّتِهم اقتداء ، زالَ الوَرَعُ وطُوِيَ بِساطُه ، واشتدَّ الطَّمعُ وقَوِيَ رِباطُه ، وارتَحَلَ عن القُلُوبِ حُرْمَةُ الشَّرِيعَة ، فَعَدُّوا قِلَّةَ المُبَالاةِ بالدِّينِ أَوثقَ ذَرِيعَة ، ورفضُوا التَّمييزَ بينَ الحَلالِ والحَرَام ، ودانُوا(٣) بتَرْكِ الاحترامِ وطرْحِ الاحتشام ، واستخفُّوا بأداءِ العِبَادات ، واستهانُوا بالصَّومِ والصَّلوات ، وركضُوا فِي مَيْدَانِ الغَفَلَات ، وركنُوا إلىٰ اتِّباعِ الشَّهَوات(٤) [١/٤أ] ، وقلَّةِ المُبالاةِ بتعاطِي المَحْظورَات(٥) ، والارتفَاقِ بما يأخذونَهُ منَ السُّوقَةِ(٦) والنِّسوان ، وأصحابِ السُّلطان .

ثُمَّ لم يَرْضَوا بمَا تعَاطَوهُ من سُوءِ هذه الأفعَال ، حتىٰ أشارُوا إلىٰ أَعْلَىٰ الحَقَائقِ والأحوال ، وادَّعوا أنَّهم تَحرَّرُوا(٧) عن رِقِّ الأغلالِ ، وتَحقَّقُوا بِحَقَائقِ

---

(١) سقط من (ب ، ج) قوله: كما قيل ، وفي (ف): «كما قال» .

(٢) من الكامل ، واختلف في نسبته ؛ فنُسب لمجنون ليلىٰ في: قوت القلوب ١/٢٩١ ، وللشبلي في: تاريخ دمشق ٦٦/٦٧ ، والدر الفريد وبيت القصيد ٤/٢٤٦ ، ولأبي الحسن الفالي في: معجم الأدباء ٣/٥٤٢ ، والبداية والنهاية ١٢/٧٠ ، والوافي بالوفيات ٢٠/٨٧ .

(٣) في (أ): ووافوا .

(٤) أي: وطنوا نفوسهم علىٰ ذلك .

(٥) من الحظر وهو المنع ، وهي في النسخ الخطية: «المحذورات» ، والمثبت موافق لما في الرسالة القشيرية ، وشرح الشيخ زكريا عليها ، وحاشية العروسي ـ نتائج الأفكار ـ ١/٥٤ .

(٦) في درة الغواص ص٢٤٤ : «السّوقة: الرعية ، سُمُّوا بذلك ؛ لأن الملك يسوقهم إلىٰ إرادته ، ويستوي لفظ الواحد والجماعة فيه ؛ فيقال: رجل سوقة ، وقوم سوقة» .

(٧) في (أ): تحرزوا ، والمثبت موافق لما في متن الرسالة .

الوصَال، وأنَّهم قائمونَ بالحقِّ، يُجْرِي[١] عَلَيهِم أحكَامَهُ، وهم محوٌ[٢]! وليس لله ـ تعالىٰ ـ عليهم فيما يُؤثرونَهُ أو يَذَرُونَهُ عتبٌ وَلَا لَوْمٌ، وأنَّهم كُوشفُوا بِأسرارِ الأحَدِيَّة، واختُطِفُوا عنهم بالكُلِّيَّة، وزالتْ عنهم أحكامُهُ للبشريَّة[٣]، وبقُوا بعدَ فنائِهم عنهم بأنوارِ الصَّمدِيَّة، القائلُ عنهم غيرُهُم إذا نطقُوا، والنَّائبُ عنهم سِواهُمَ فيما تَصرَّفُوا، بَلْ صُرِّفُوا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما ذكرَهُ الشَّيخُ من هذه النُّعُوتِ والأخلاقِ الرَّديئةِ إنَّما هو في المتشبِّهينَ بهذه الطَّائفةِ غيرِ المتحقِّقينَ فِي السُّلوكِ؛ إمَّا لاختلالِ العلمِ وغلبَةِ الجهلِ، أو لحُبِّ الدُّنيَا ونيلِ المقاصدِ العاجلةِ منهَا، وإذَا كانَ ما وصفَهُ بالمتشبِّهينَ بهذه الطَّائفةِ قد غلبَ علىٰ زمانِهِ وبَيْنَنَا وبَيْنَهُ مائتَا عامٍ من السِّنينَ، فكيف بزمانِنَا وقد تَوالَىٰ علىٰ القُلُوبِ الإهمالُ لأمْرِ الدِّينِ، وقلَّ اتِّباعُ العلمِ، واعتقدَ مَنْ يُنْسَبُ لهذه الطَّريقةِ بغيرِ تَحْقِيقٍ أنَّ تقليدَ العُلَمَاءِ والرُّجُوعَ إلىٰ الشَّريعةِ من جُمْلةِ القَواطعِ عنِ الطَّريقِ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعونَ.

ولكنْ لا تخلُو[٤] الأرضُ منَ المحقِّقينَ في السُّلوك، العالِمينَ بالجيِّدِ عن التَّحقيقِ والدُّلوك، وهذا الأمرُ لا يزدادُ إلَّا قلَّةً كَمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ في كتابِهِ المُبين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣، ١٤]، وقال عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ[٥]: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الحقِّ ظَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ».. الحديث، ونحنُ نتَّبعُ كلامَهُ وفاءً بالوعْدِ، وإلَّا فالذَّمُّ على الجملةِ يكفِي لهذه الأحوالِ الرَّديئة.

(١) في (ف): «تَجري».
(٢) أي: رُفع التكليف عنهم.
(٣) في (ف): «أحكام البشرية».
(٤) في (ب): تخلي، والصواب المثبت.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ٣/١٥٢٣ ـ حديث رقم (١٩٢٠).

فقولُهُ:

أَمَّـــا الخِيَـــامُ فَإِنَّهَـــا كَخِيَـــامِهِم ❁ وَأَرَىٰ نِسَـــاءَ الحَـــيِّ غَيْـــرَ نِسَـــائِهَا

يعنِي: التَّشَبُّهَ بالمرقَّعاتِ والهَيئاتِ[١] في الظَّواهر، معَ خُلُوِّ القلبِ من الصِّدقِ والسَّرائر.

وقولُهُ: «**حَصلتِ الفترةُ في الطَّريقة**[٢]، **لا بلِ اندرَسَتِ الطَّريقةُ بالحقيقة**»، وبيَّنَ سلبَ ذلكَ بقلَّةِ الشُّيوخِ الَّذينَ يصحُّ بهِمُ الاهتداء، وقلَّةِ الشَّبابِ الَّذينَ حَسُنَ منهُمُ الاقتداء، فلمَّا قلَّ الصِّنفانِ حصلَ الخللُ في ذلكَ الزَّمانِ.

وهذا إنَّما أَجْرَاهُ علىٰ غَالبِ الحَال، ممَّنِ انتسبَ إلىٰ شريفِ الأحوال، وصارَ الحقُّ مَخْفِيًا لظهورِ الفَساد [١/٤ب]، وعدمِ السُّلوكِ علىٰ وجهِ الحقِّ والسَّدادِ، وإذا زالَ الورعُ وطُوِيَ بِساطُهُ؛ وهو التَّفتيشُ عن الحَلَال، والتَّثبُّتُ عند القِيلَ في القَالِ، قَوِيَ الطَّمعُ واشتدَّ رباطُهُ وذاكَ لحُبِّ الرِّفعةِ[٣] والمَال.

وأمَّا إِن ارتفعَ عن القُلُوبِ حُرْمَةُ الشَّريعةِ، فهذا[٤] ـ والعياذُ باللهِ ـ عَلامةُ الكُفْرِ والهَلَاك[٥]، في الحالِ والمآل، وكيفَ يمكنُ أنْ يكونَ أَقْوَىٰ الذَّرائعِ في حُصُولِ أَرْفَعِ القُرُبَاتِ الإعراضَ عن أصولِ الدِّياناتِ!.

وإنَّما أطلقَ الإمامُ ذلك؛ لأنَّ مِلاكَ الدِّينِ الورعُ، وفسادَهُ الطَّمعُ، فلمَّا غلبَ علىٰ تلكَ الطَّائفةِ حُبُّ الدُّنيا حتىٰ أخذُوا الأموالَ والفتوحاتِ من جِهَةٍ لا تُرْضَىٰ من السُّوقةِ والنّسوان، والظَّلَمَةِ من أصحابِ السُّلطان، ولم يَتَثَبَّتُوا في التَّمييزِ بين

(١) أي: والتلبُّس بالهيئات.

(٢) أي: طريقة الصوفية.

(٣) في (ب): الحب الرقعة، والأصح المثبت. وانظر: إحكام الدلالة ١/٣٧.

(٤) في (ب): فبهذا.

(٥) في (ب): والحلاك.

حَلالٍ وحَرَام، وأقبلُوا على ما لاحَ منهَا من غيرِ احتشَام، أطلقَ عليهم قلَّةَ المبالاةِ بالدِّينِ، وعدُّوا ذلك ذريعةً لمقاصدِهِم الخَسِيسَةِ، لا بسلُوكِ الصِّراطِ المَسْتَقِيمِ ونَيْلِ الدَّرجاتِ العليَّةِ.

وقولُه: «**ودانُوا بترْكِ الاحتِرَام، و[طَرْحِ][1] الاحتشَام[2]**»، وذلكَ أنَّهم لا يحترِمُونَ لكبيرٍ ولا لشيخٍ ولا لعالمٍ، ولا لمَنْ ردَّهم عن مقاصدِهِمْ ومذاهبِهِمْ، وعدُّوا قِلَّةَ احترامِهِمْ له واحتشامِهِمْ من جُملةِ الصِّدقِ وعدمِ الالتفاتِ إلى غيرِ الله، وهو جهلٌ، وكيفَ يكونُ صادقًا مَنْ لم يعظِّمْ مَنْ عظَّمَـ[ـهُ][3] الله، ولم يَحْتَرِمْ مَنْ أَمَرَهُ باحتِرَامِه.

وقولُهُ: «**واستَخفُّوا بأداءِ العبادات، واستهانُوا بالصَّومِ والصَّلوات**»، هذه طائفةٌ زعمتْ بجهلِهَا أنَّ العباداتِ والطَّاعاتِ إنَّمَا هي وسائلُ لحضورِ القلبِ مَعَ الله ـ تعالى ـ، فإذا حَصَلَ المُتوسِّلُ استغنى[4] عن الوَسِيلَةِ.

وقد سُئِلَ الجُنَيْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن هذهِ الطَّائفةِ فقالَ[5]: «الَّذي يسرقُ ويَزْنِي أَحْسَنُ حَالًا مِمَّنْ يقولُ هذا»، وصَدقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنَّ مَنْ يسرقُ ويَزْنِي يعتقدُ نقصَ نفسِهِ، وعصيانَهُ لربِّهِ، وتُرجى له التَّوبةُ والانتقالُ، بخلافِ مَنِ اعتقدَ أنَّ من جملةِ ما يقرِّبُهُ إلى ربِّهِ تركَ هذه العباداتِ والأفعالِ، فلا يرجعُ عن ذلكَ أبدًا![6].

---

(١) زيادة من (ب).

(٢) أي: الاستحياء منهم.

(٣) زياده من (ج)، وانظر: إحكام الدلالة ١/٣٧.

(٤) في (ب): أغنى. وانظر: إحكام الدلالة ١/٣٧

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية للسلمي ص١٣١، وحلية الأولياء ١٠/٢٧٨، ومدارج السالكين ٣/٣٤٠، وتلبيس إبليس ص٤٤٤، وسراج الطالبين ١/٣٥٤، والإمام الجنيد سيد الطائفتين ص١٨٥.

(٦) انظر: إحكام الدلالة ١/٣٧.

وحُكِيَ عن بَعْضِهِم[١] أنَّهُ قيلَ لهُ عمَّنْ يقولُ ذلك، ويزعمُ أنَّهُ وصلَ، فقالَ[٢]: «صَدقَ، وصلَ، ولكنْ وَصَلَ إلىٰ سَقَر».

وقولُهُ: **«ثمَّ لم يَرْضَوا بمَا تَعاطَوهُ من سُوءِ هذه الأفعال؛ حتىٰ أشَارُوا إلىٰ أَعْلَىٰ الحقائقِ والأحوالِ، وادَّعَوا أنَّهم تحَرَّرُوا عن رِقِّ الأغلال، وتَحَقَّقُوا بحقَائقِ الوِصَالِ»** إلىٰ آخرِ الكلامِ [١/١٥أ].

معناهُ: أنَّ هذه المقاماتِ الصَّحيحةَ والأحوالَ الشَّريفةَ والبلوغَ إلىٰ مقاماتِ التَّوحيدِ والتَّفريد، والاشتغالَ بالحقِّ عمَّنْ سِواهُ ونيلَ الخلعِ والكراماتِ الَّتي يُسبغُهَا علىٰ مَنْ تولَّاهُ من العبيد، يستحيلُ أنْ يجريَ علىٰ مَنْ أخلَّ بالعباداتِ الواجبات؛ من الصَّومِ والصَّلواتِ، وحُقُوقِ الوالدَينِ والقُرابَاتِ[٣]؛ بل إنَّما تَجْرِي حَقًّا علىٰ مَنْ سلمَ من الإخلالِ بشيءٍ من الواجِبَات، أو ارتكابِ شيءٍ من المحرَّمَات، وتعالىٰ في دَرَجَاتِ المَنْدُوبَات، إلىٰ أن أحبَّهُ خالقُ الأرضِ والسَّمَاوات، كما دَلَّتْ عليه الأخبارُ الَّتي قدَّمناهَا الصَّحيحةُ من الكتبِ المشهورات، فدلَّ ذلك علىٰ خطئِهِمْ[٤] في السُّلُوك، وكذِبِهِم فيمَا ادَّعَوهُ من المَقَامَاتِ ونَيْلِ الدَّرجاتِ العَاليَاتِ مِنْ مَلِكِ المُلُوك.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ القشَـيريُّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: **«ولمَّا طالَ الابتلاءُ فيما نحنُ فيهِ من الزَّمانِ؛ بما لوَّحْتُ ببعضِهِ من هذه القصَّةِ، وكنتُ لا أبسطُ إلىٰ هذه الغايةِ لسانَ الإنكارِ، غيرةً علىٰ هذهِ الطَّريقةِ أنْ يُذْكَرَ أَهْلُهَا بسُوءٍ، أو أنْ يجدَ مخالفٌ لثَلْبِهِم**

---

(١) في (ب): قال بعضهم.

(٢) هو قول أبي علي الروذباري في: طبقات الصوفية للسلمي ص٢٧١، وحلية الأولياء ١٠/٣٥٦، والرسالة القشيرية ١/١١٩، وسير أعلام النبلاء ١٤/٥٣٦.

(٣) في (ب): والقربات.

(٤) في (ب): خطابهم، وهو تحريف.

(٥) الرسالة القشيرية ١/١٧.

مَسَاغًا[(١)] ؛ إذِ البَلْوَىٰ فِي هذِه الدِّيارِ بالمخالفينَ لهذِهِ الطَّائفةِ[(٢)] ، والمنكرينَ عليها شديدٌ ، ولمَّا كنتُ أُؤَمِّلُ من مادَّةِ هذه الفترةِ أن تنحسِمَ[(٣)] ، ولعلَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يجودُ بلطفِهِ فِي التَّنبيهِ لِمَنْ حادَ عن السُّنَّةِ المُثلَىٰ فِي تضييعِ آدابِ هذه الطَّريقةِ .

ولمَّا أبَىٰ الوقتُ إلَّا استصعابًا ، وأكثرُ أهلِ العصرِ بهذه الدِّيارِ إلَّا تماديًا فيمَا اعتادُوهُ ، واغترارًا بما ارتادُوهُ[(٤)] ، أشفقتُ على القلوبِ أنْ تَحسَبَ أنَّ هذا الأمرَ علىٰ هذه الجملةِ بُنِيتْ[(٥)] قواعدُهُ ، وعلىٰ هذا النَّحوِ سارَ سلفُهُ ، فعلَّقتُ هذه الرسالةَ إليكُمْ ـ أكرمكُمُ اللهُ ـ ، وذكرتُ فيها بعضَ سِيَرِ شيوخِ هذِهِ الطَّائفةِ[(٦)] : فِي آدابِهِم ، وأخلاقِهِم ، ومعاملاتِهِم ، وعقائِدِهِم بقلوبِهِم ، وما أشارُوا إليه من مواجيدِهِم[(٧)] ، وكيفيَّةَ ترقِّيهِم من بدايتِهِم إلىٰ نِهايَتِهِم ؛ لتكونَ لمُريدي هذه الطَّريقةِ[(٨)] قوةٌ ، ومنكُم لي بتصحيحِهِ شهادةٌ ، ولي فِي نَشْرِ هذه الشَّكْوَىٰ سَلْوةٌ ، ومن اللهِ الكريمِ فَضْلٌ ومَثُوبَةٌ .

وأستعينُ باللهِ ـ سبحانه ـ فيما أذكرُهُ وأستكفِيه ، وأستعصمُهُ من الخَطَأِ فيهِ وأَسْتَعفِيه[(٩)] ، وهو بالفَضْلِ جَدِيرٌ ، وعلىٰ مَا [١/٥ب] يَشَاءُ قَدِيرٌ» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : هذا الفصلُ اعتذرَ الإمامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيه عمَّا تقدَّمَ من

---

(١) أي: مدخلا .

(٢) في الرسالة القشيرية المطبوع ، و(ف): «الطريقة» .

(٣) أي: تنقطع .

(٤) أي: اختاروه وتلبَّسُوا به .

(٥) في (ف): بني .

(٦) في الرسالة القشيرية المطبوع ، و(ف): «سير الشيوخ في هذه الطريقة» .

(٧) أي: مما يجدونه في حال سيرهم . انظر: نتائج الأفكار القدسية ٥٧/١ .

(٨) في الرسالة القشيرية المطبوع ، و(ف): الطائفة .

(٩) في (ف): «وأستغفره وأستعفيه» .

ثَلْبِ[(١)] المتشبِّهينَ بظواهرِهِم بالمحقِّقين، وخُلُوِّ قلوبِهِم وأبدانِهِم عن أخلاقِ أهلِ الدِّينِ وصفاتِ المقرَّبين، وأنَّ الَّذِي حملَهُ على ذلكَ الخوفُ من أنْ يسبقَ إلى أهلِ زمانِهِ أنَّ الحقَّ ما هم عليهِ، وأنَّ اسمَ التَّصوُّفِ موضوعٌ على ما تخلَّقُوا بهِ من الصُّورِ والأشكال، معَ خلوِّ الباطنِ من الصِّدقِ ووجودِ الاختلال، وكان يرجو أنْ يتغيَّرَ الحال، ويُنبِّهَ الله ـ سبحانه ـ بفضْلِهِ وطَوْلِهِ مَنْ حَادَ عنِ الحقِّ إلى الرُّجوعِ إليه والامتثال، فلمَّا لم يحصلْ ذلكَ رَأى[(٢)] أنَّ النُّصحَ للمسلمينَ واجبٌ عليهِ، كما قالَ ـ تعالى ـ فِي كتابه وأخذَهُ على العلماءِ في الحقِّ ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، فذكر صفات القوم واعتقاداتِهِم على مذهبِ أهلِ الحقِّ والسُّنَّةِ، وكذلك أعمالُ جَوارِحِهِم ومَواجِيدُ قُلُوبِهِم، وفضائلُ ربِّهم عليهِم في درجاتِ تقريبِهِم، ونقلِهِم في درجاتِ ذلكَ إلى الشغلِ بهِ عنهُم فَضْلًا عن غَيْرِهِم، وهُوَ ما يأتي ذكرُهُ إن شاءَ الله ـ تعالى ـ، فهذَا روحُ هذا الفصلِ.

---

(١) الثَّلْب: العيب والنقص. وفي الجمهرة ١/٢٦٢: «وثلب الرجل يثلبه ويثلبه؛ إذا ذكر قبائحه».

(٢) أي: الإمام القشيري.

فَصْلٌ
فِي بيانِ اعتقادِ هذهِ الطَّائفةِ فِي مَسَائِلِ الأُصُولِ[١]

قَالَ الإِمَامُ القشَيريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «اعلمُوا ـ أرشدكُم الله ـ: أَنَّ شيوخَ هذه الطَّائفةِ بَنوا قواعدَ أمرِهم عَلَىٰ أصولٍ صحيحةٍ فِي التَّوحيدِ؛ وصانوا بِهَا عقائدَهُم عَنِ البدعِ، ودانوا[٣] بِمَا وجَدُوا عَلَيْهِ السَّلفَ وأهلَ السُّنَّةِ، من توحيدٍ لَيْسَ فِيهِ تمثيلٌ ولا تعطيلٌ، عَرفُوا مَا هُوَ حقٌّ[٤] القِدم، وتحققوا بِمَا هُوَ نعتُ المَوجودِ عَنِ العدمِ، ولذلك قَالَ سيِّدُ هذه الطَّريقةِ الجنيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (التَّوحيدُ إفرادُ القدمِ مِنَ الحَدَثِ، وأحكمُوا أصولَ العقائدِ بواضحِ الدَّلائلِ، ولائحِ الشَّواهدِ).

كَمَا قَالَ أَبُو مُحَمَّد الجُرَيْرِيُّ: مَنْ لَمْ يقف عَلَىٰ علمِ التَّوحيدِ بشَاهدٍ من شَواهدِهِ، زلَّتْ بِهِ قدمُ الغرورِ فِي مَهْواةٍ مِنَ التَّلفِ.

يريدُ بِذَلِكَ: أَنَّ مَنْ ركنَ إِلَىٰ التَّقليدِ، وَلَمْ يتأمَّلْ دلائلَ التَّوحيدِ، سقطَ عَنْ سَنَنِ النَّجاةِ، ووقع فِي أَسْرِ الهلاكِ. ومَنْ تأمَّلَ ألفاظَهُم، وتصفَّحَ كَلامَهم، وجدَ فِي مجموعِ أقاويلِهِم، ومتفرقاتِهَا مَا يَثِقُ[٥] بتأمُّلِهِ، فإنَّ[٦] القَوْمَ لَمْ يقصِّرُوا فِي التَّحقيقِ عَنْ شأوٍ[٧]، وَلَمْ يعرِّجُوا فِي الطَّلبِ عَلَىٰ تقصيرٍ.

---

(١) أي: أصول التوحيد.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٧ ـ ١٨.

(٣) أي: تديَّنوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة.

(٤) في (ب): الحق، والأصح المثبت.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٦) في (ف): «متأمله بأن».

(٧) في مختار الصحاح ص١٣٨: «الشأو: الغاية والأمد».

ونحنُ نذكرُ فِي هَذَا الفصلِ ـ إن شاءَ الله ـ جُمَلًا من متفرِّقَاتِ كلامِهِم فيما يتعلَّقُ بِمَسَائِلِ الأصولِ، ثُمَّ نحرِّرُ عَلَى التَّرتيبِ بعدَهَا مَا يشتملُ عَلَى مَا [١/١٦] يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الاعتقادِ عَلَى وجهِ الإيجازِ والاختصارِ ـ إنْ شاءَ الله تَعَالَى ـ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **مقصودُ هذا الفَصْلِ**: أنَّ الإمامَ ـ وفَّقَهُ الله ـ حقَّقَ أنَّ أهلَ التَّصوُّفِ سَلَكُوا السُّنَّةَ في الاعتقادِ، وما درجَ عليه الصَّدرُ الأوَّلُ من أفضلِ العبَادِ منَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، وأنَّهُم سَلَكُوا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ(١)، فلم يَمِيلُوا إلى التَّشبيهِ والتَّمثيلِ(٢)، كما مالَ إليه أهلُ الضَّلالِ منَ القائلينَ(٣) بالجهةِ والجسميَّةِ والحُلولِ والانتقالِ(٤)، ولم يَصيرُوا إلى نفيهِ ـ سبحانه ـ كمَا صارَ إليه أهلُ الضَّلالِ منَ القائلينَ بِقِدَمِ العالمِ(٥) والتَّعطيلِ(٦) والضَّلالِ، وأثبتوا الحقَّ ـ سبحانه ـ بدلائلِ أفعالِه الدَّالَّةِ على وجودِهِ وكَمَالِ صِفاتِهِ، المنزَّهَ عن مُماثلةِ مَخْلُوقاتِهِ، والمخالِفَ لها مُخَالَفَةً مطلقةً بواضحِ الاستدلالِ، وعرفُوا حقيقةَ القِدَمِ؛ وهو مَا لا أَوَّلَ لوجودِهِ، وحقيقةَ الحدَثِ؛ وهوَ مَا لوجودِهِ أوَّلٌ، وهو قولُهُ: **«مَا هوَ حقُّ القِدَمِ»**(٧).

---

(١) قال السهروردي: «الصوفية من بين طوائف الإسلام ظفروا بحسن المتابعة؛ لأنهم اتبعوا أقواله فقاموا بما أمرهم، ووقفوا عما نهاهم... ثم اتبعوه في أعمالهم من الجد والاجتهاد في العبادة والتهجد والنوافل... ورزقوا ببركة المتابعة في الأفعال التخلق بأخلاقه..» عوارف المعارف ص٣٤ ـ ط/العلمية. وانظر: نشر المحاسن الغالية ص٣٥٣.

(٢) الذي قالت به المجسمة والمشبهة. انظر: جلاء الشبهة في الرد على المشبهة ـ بتحقيقي ـ، ومقالات الإسلاميين ص٢٠٧، وموسوعة الفرق ص٣٤٠، ٣٥٩.

وفي نهاية الإقدام ص٩٧: «مذهب أهل الحق أن الله سبحانه لا يُشبه شيئا من المخلوقات، ولا يشبهه شيء منها بوجهٍ من وجوه المشابهة والمماثلة..».

(٣) سقط من (ب) إلى قوله: بقدم العالم.

(٤) انظر: موسوعة الفرق ص١٩٢ ـ ١٩٣.

(٥) وهم الفلاسفة، أو الدهرية. انظر: الفرق بين الفرق ص٣٤٦، والتبصير في الدين ص١٤٩.

(٦) هم المعطلة؛ الذين ينفون صفات الله عَزَّوَجَلَّ. انظر: الحجة في بيان المحجة ١/٢١٢، والملل والنحل للشهرستاني ١/٢٠، ونهاية الإقدام ص١١٨.

(٧) فالمراد بالقدم: القديم؛ وهو الله سبحانه وتعالى. انظر: نتائج الأفكار القدسية ١/٥٩.

وقولُهُ: «**وتحقَّقُوا ما هو نعتُ الموجودِ عنِ العدَمِ**»، وهوَ الحادثُ الَّذِي كانَ بعدَ أنْ لم يكنْ، وهوَ معنىٰ قولِ الجنيدِ[١]: (التَّوحيدُ إفرادُ القِدَمِ منَ الحَدَثِ)، يعني: بيانَ الفرقِ بينَهُمَا بالأدلَّةِ العقليَّةِ؛ وهوَ أنَّ الوحدانيَّةَ له تعالىٰ ذاتًا وصفةً وفعلًا، ولم يَرْكَنُوا إلىٰ محضِ التَّقليدِ المطلقِ، الَّذي لا يستندُ إلىٰ الأدلَّةِ الصَّحيحةِ، بل فيهم العلماءُ المحقِّقونَ، والعَوامُّ المُقلِّدونَ.

فاستنادُهُم إلىٰ العلماءِ بالأدلَّةِ العقليَّةِ القاطعةِ تُسلمُهُم من اتِّباعِ أهلِ الضَّلالِ، وتُوصلُهُم إلىٰ درجاتِ العلماءِ المحقِّقينَ بفضلِ الله في المآلِ، فإنَّ العالِمَ والمُتعلِّمَ فِي الأجرِ سَواءٌ، ولذلكَ قالَ الجُرَيريُّ[٢]: «مَنْ لم يقفْ علىٰ علمِ التَّوحيدِ بشاهدٍ من شواهدِهِ، زلَّتْ بهِ قدمُ الغرورِ في مَهْواةٍ[٣] منَ التَّلفِ»، يعنِي: تمسَّكَ بأيِّ اعتقادٍ كانَ ولمْ يتحسَّسْ لنفسِه[٤]، وافتقارِهِ في كلِّ حينٍ إلىٰ فعْلِ ربِّهِ بهِ في صحَّتِهِ وسقَمِه، وجوعِهِ وشبَعِه، وإيمانِهِ وكفرِه، وطاعتِهِ وعصيانِه، ويَعْرِفُ أنَّه لا قُدْرَةَ له علىٰ شيءٍ من ذلكَ بنفسِهِ، وبقي فِي الدُّنيا كالبهائِمِ يأكلُ ليعمَلَ[٥]، ويعملُ ليأكلَ، فهوَ منَ الهَالكِينَ الغافلينَ عمَّا خُلقَ لهُ[٦].

فهذا القدرُ من الاستدلالِ يدلُّ العبدَ علىٰ وجودِ خالقِهِ، وافتقارِهِ إليه في كلِّ حَرَكةٍ وسَكنةٍ، والعلماءُ بما زادَ علىٰ هذا يَعرفونَ مِنْ حقيقةِ القِدَمِ وكمالِ [٦/١ب]

---

(١) ورد قوله في: الإنصاف للباقلاني ص٣١، وشعب الإيمان للقصري ص٦٩، ومدارج السالكين ٤٤٤/٣، وسير أعلام النبلاء ٦٩/١٤، وروض الرياحين في حكايات الصالحين لليافعي ص٤٢٠، ونتائج الأفكار القدسية ٥٩/١.

(٢) ورد قوله في: الإنصاف للباقلاني ص٣١، وروض الرياحين في حكايات الصالحين لليافعي ص٤٢٠، والأنس في شرح عيوب النفس للخروبي ص٦٣.

(٣) هي ما بين الجبلين ونحوهما.

(٤) «فالتقليد في الاعتقادات ممتنع» إحكام الدلالة ٤٢/١.

(٥) في (ب): ليعلم، والصواب المثبت.

(٦) انظر: إحكام الدلالة ٤٢/١.

الصِّفاتِ وتعلُّقِهَا بمتعلقاتِهَا، وغير ذلك ممَّا احتوَىٰ عليهِ علمُ الأصولِ مَا يدفعُ اللهُ - تعالىٰ - بهِ أهلَ الضَّلالِ فيدحضُهُم علىٰ عَقِبِهِم بغيرِ خَبَرٍ ولا مِثَالٍ.

وقد وعدَ الشَّيخُ الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنْ يذكرَ أقوالَهُم؛ ليدلَّ بذلكَ علىٰ أنَّهم عَالِمُونَ بمسائلِ الأُصُولِ، ونحن نتَّبعُ ما يأتي بهِ إنْ شاءَ الله - تعالىٰ -، ونبيِّنُ وجْهَ تعلُّقِهِ بِعِلْمِ الكَلامِ، والرَّد علىٰ أهلِ البدعِ والضَّلالِ بفضلِ الله تعالَىٰ ذي الجلالِ والإكرام.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ القشَيريُّ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[١]: «**سَمِعْتُ الشَّيخَ أبا عَبْد الرَّحْمَنِ مُحَمَّد بن الحُسَيْن السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يَقُولُ: سمعتُ عَبْدَ اللهِ بْن مُوسَىٰ السَّلامِيَّ، يَقُولُ: سمعتُ الشِّبْلِيَّ يَقُولُ[٢]: جلَّ[٣] الوَاحِدُ المَعْرُوفُ قبلَ الحدودِ وقبلَ الحُرُوفِ[٤]، هَذَا صريحٌ[٥] منَ الشِّبْلِيِّ أَنَّ القَدِيمَ - سبحانه - لا حَدَّ لِذَاتِه، ولا حُرُوفَ لِكَلامِه**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: هذا فيه الرَّدُّ علىٰ القائلينَ بالجسميَّةِ[٦]، وحُدُوثِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٠.

(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٦٦/٦٠، وشعب الإيمان للقصري ص٧٠، ونشر المحاسن الغالية لليافعي ص٣٢٥، وروض الرياحين ص٤١٨، ونتائج الأفكار القدسية ١/٦١. وانظر: الاستقامة ١/١١٢.

(٣) سقط هذا اللفظ من الرسالة، وهو وارد في مظان تخريج قول الشِّبلي.

(٤) أي: قبل الجهات والأصوات.

(٥) في (ب): صحيح، والصواب المثبت.

(٦) يذهب أهل المعرفة إلىٰ تنزيه الله - تعالىٰ - عن كل وصف يُلحقه بالمخلوقات من الجسمية والجهة والحدِّ، وهذا من الأمور الواجبة له - تعالىٰ - وهم ـ أي أهل المعرفة ـ في إثبات التنزيه لله يتفقون مع السادة الأشاعرة من المتكلمين الذين ينفون عنه الجهة والحد والجسمية، وقد عقدوا ـ أي السادة الأشاعرة ـ لإثبات تنزيه المولىٰ عن الجسمية دراسات مستفيضة تشهد لذلك، ولعل من أبرزها في ذلك ذلكم الكتاب الماتع للإمام الرازي الموسوم بـ(أساس التقديس) وغالب موضوعه في ذلك. انظر: أساس التقديس في علم الكلام ص١٥ وما بعدها، وأبكار الأفكار في أصول الدين ٢/١٢، وما بعدها.

كَلامِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[(١)]، وأنَّهُ يتكلَّمُ بحرفٍ[(٢)] وصوتٍ[(٣)]، تعالىٰ عن قولِهِم علوًّا كبيرًا.

وفيه إشارةٌ إلىٰ أنَّهُ ـ سبحانه ـ كانَ وليسَ معَه غيرُهُ من سَائرِ مَخْلُوقاتِهِ منَ العَرشِ وغيرِهِ، وسائرِ مَنْ يتكلَّمُ بالأصواتِ والحُرُوفِ، وأنَّهُ قديمٌ لم يَزَلْ، وَأَنَّها بِجُمْلَتِهَا حَادِثَةٌ بعدَ أَنْ لمْ تَكُنْ.

❁ قَالَ الإمَامُ القشيريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[(٤)]: «سَمِعْتُ أبا حَاتمٍ الصُّوفِيَّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ الطُّوسيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[(٥)]: سُئِلَ رُوَيمٌ عَن أوَّلِ فرْضٍ افْتَرَضَ[(٦)] الله ـ تعالىٰ ـ عَلَىٰ خلقِهِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: المَعْرِفَةُ؛ لقَولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٧)]: [إِلَّا][(٨)] ليعرِفُونِ.

وَقَالَ الجُنَيْدُ[(٩)]: إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحتاجُ إِلَيْهِ من عَقْدِ الحكمةِ[(١٠)]: معرفةُ المَصْنُوعِ صَانعَهُ، والمحدَثِ كَيْفَ كَانَ إِحْداثُهُ، فيعرفُ صفةَ الخالقِ مِنَ المخلوقِ، وصفةَ

---

(١) انظر: خلق القرآن بين المعتزلة وأهل السنة، للرازي، ص٥٨ وما بعدها، وأبكار الأفكار ١/٣٥٤.

(٢) في (أ، ج): بحروف.

(٣) انظر: مجرد مقالات الأشعري ص٥٩، والتمهيد للباقلاني ص٤٦، والإنصاف له ص٢٥، ٣٦، والإرشاد للجويني ص٩٩، وأصول الدين للبغدادي ١٠٦، والتبصير في الدين ص١١٤، وأبكار الأفكار ١/٣٥٣، ونهاية الإقدام ص٩٨، ١١٥، والمواقف ٣/١٣٣، والتعريفات ص١٠٠.
وقال الرازي: «لا يشبه كلامه كلام الخلق، كما لا يشبه ذاتَه ذواتُ الخلق، فليس بصوت يحدث من انسلال هواء.. ولا حرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان» الأربعين في أصول الدين ص٣٢.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ج). وانظر: الرسالة القشيرية ١/٢٠.

(٥) في اللمع ص٢٦، وساقه عن أبي الحسين النوري.

(٦) في (أ، ب): افترضه، والمثبت موافق لنص الرسالة.

(٧) انظر قول ابن عباس في: المجالسة وجواهر العلم ص٤٣، والغرة المنيفة للغزنوي ص١٢٩، ومرقاة المفاتيح ١/٣٠٦، ونسب لمجاهد في: تفسير الثعلبي ٩/١٢٠، وجامع بيان العلم وفضله ٢/٤٤.

(٨) زيادة من (ف).

(٩) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٥٦، والاستقامة/١٤٤، ونشر المحاسن الغالية ص٣٢٣.

(١٠) أي: اعتقادها.

القَدِيم مِنَ المُحدَثِ[(١)]، وَيَذِلَّ لِدَعْوَتِه، ويَعْتَرِفُ بوجُوبِ طاعتِه، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ[(٢)] مالكه، لَمْ يَعْتَرِفْ بالمُلْكِ لمَنِ استوجبه».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اجتمعَ كلامُ رُويمٍ والجُنيدِ، وهمَا ممَّنْ يُقْتَدَىٰ بهمَا في هذا الشَّأنِ، فإنَّهمَا جمعَا بينَ علومِ الأعمالِ والحقائقِ، واتَّفقَ كلامُهُمَا علىٰ أنَّ أوَّلَ واجبٍ معرفةُ الله، وهذا الواجبُ يجبُ بالشَّرعِ، ويُعْرَفُ بالعقلِ، فإنَّهُ لا واجبَ عندَ أهلِ السُّنَّةِ إلَّا بالشَّرعِ، ولذلكَ استدلَّ بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [١/١٧أ]، وفسَّرهُ ابنُ عبَّاسٍ: ليعرفُونِ.

وهذا صحيحٌ، فإنَّهُ ـ سبحانه ـ إنَّمَا خلقَ العالمَ ليُسْتَدَلَّ بهِ عليهِ، وإنَّمَا يَستدِلُّ بذلكَ أَرْبَابُ العُقُولِ؛ وهمُ الجنُّ والإنسُ والملائكةُ، ولهذا قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، ولهذَا قيلَ[(٣)]: «أَعْرَفُكُمْ بِنَفْسِهِ، أَعْرَفُكُمْ بِرَبِّهِ»، فمَنْ عرفَ نفسَهُ بالحدَثِ علمَ أنَّ فاعلَهُ لا بُدَّ أنْ يكونَ قديمًا؛ لوجوبِ افتقارِ الحادثِ إلىٰ مُحْدِثٍ قديم، ولو قدرَ المحدثُ حادثًا لتسلسلَ، وما تسلسلَ لم يتحصَّلْ، وإذا عرفَ ربَّهُ وأنَّ من جَائزاتِهِ أنْ يفعلَ ما يشاءُ، وأنَّهُ أرسلَ الرُّسلَ وتعبَّدَ خلقَهُ، فحينئذٍ يتعبَّدُ بأمرِ مَنْ تقدَّمتْ معرفتُهُ له، فأوَّلُ واجبٍ معرفتُهُ بربِّهِ، ويليه عبادتُهُ لهُ بأمْرِهِ وَنَهْيِهِ[(٤)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ القشَيرِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٥)]: «أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بنُ الحُسَيْنِ، قَالَ: سمعتُ مُحَمَّدَ بنِ عَبدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الطَّيِّبِ المَرَاغِيَّ يَقُولُ[(٦)]: لِلعَقْلِ دلالةٌ،**

---

(١) لئلا يقع في الاتحاد والحلول.

(٢) سقط من (ب) قوله: «المحدث، ويذل لدعوته، ويعترف بوجوب طاعته، فَإِن لَمْ يعرف».

(٣) ورد في: معارج القدس للغزالي ص٨، ونتائج الأفكار القدسية ٦٢/١.

(٤) انظر: البحر المحيط للزركشي ٣٨/١، وإحكام الدلالة ٤٤/١.

(٥) الرسالة القشيرية ٢١/١.

(٦) ورد قوله في: الاستقامة ١٤٥/١، ونتائج الأفكار ٨٠/١. ونسب لأبي الحسين علي بن هند=

وللحِكْمَةِ إِشَارَةٌ، وللمَعْرِفَةِ شَهَادةٌ؛ فالعَقلُ يَدُلُّ، والحِكْمَةُ تُشِيرُ، والمَعْرِفَةُ تَشْهَدُ أَنَّ صَفاءَ العِبَادَاتِ لا يُنالُ إلَّا بِصَفَاءِ التَّوحِيْدِ.

وسُئِلَ الجُنَيْدُ[1] عَنِ التَّوحيدِ فقَالَ: إفرادُ المُوحَّدِ بتحقيقِ وحدانيَّتِهِ بكمالِ أحديَّتِهِ أَنَّهُ الوَاحِدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، بِنَفْيِ الأَضْدَادِ والأَنْدَادِ والأَشْبَاهِ، بلا تَشْبيهٍ ولا تَكْييفٍ، ولا تَصْويرٍ ولا تَمْثِيلٍ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**للعقلِ دلالةٌ**»، أي: بهِ يُستدلُّ، «**وللحكمةِ إشارةٌ**»، والحكمةُ: إصابةُ الصَّوابِ في القَوْلِ والفِعْلِ، «**ولِلمَعْرِفَةِ شَهَادَةٌ**»، أي: تحقيقٌ؛ يَعْنِي أنَّ العلماءَ والحُكَمَاءَ والعارفينَ اتَّفقُوا على أنَّ صَفَاءَ الأعمالِ إنَّمَا يكونُ بصَفَاءِ التَّوحيدِ، معناهُ: أنَّ سلامةَ الأعمالِ[2] منَ الرِّيَاءِ والعُجْبِ والسُّكونَ إليهِ والاعتمادَ عليهِ إنَّمَا تكونُ إذا امتلأَ القلبُ برؤيةِ الواحدِ وعظمَتِهِ، فإذا كانَ كذلِكَ وقعَتِ الأعمالُ خالصةً مُبرَّأةً مِن كُلِّ شَوْبٍ[3].

وجَوَابُ الجُنَيدِ لمَّا سُئِلَ عنِ التَّوحيدِ فقالَ: «**إفرادُ المُوحَّدِ بتحقيقِ وحدانيَّتِهِ**» إلى آخرِ كَلامِهِ يدلُّ على أنَّ التَّوحيدَ هوَ إفرادُ اللهِ ـ تعالى ـ بالذَّاتِ والصِّفاتِ والأفعالِ، فهوَ واحدٌ في ذاتِهِ، وواحدٌ في صفاتِهِ، لَا يشبهُهُ غيرُهُ، وواحدٌ في أفعالِهِ؛ ولذلِكَ قالَ[4]: «**الأَحَدُ الَّذي لم يلِدْ ولم يُولَدْ**»؛ فالأَحَدُ: هوَ الوَاحِدُ الَّذِي لَا كَثْرَةَ فيهِ، فليسَ منهُ شَيءٌ، وليسَ منْ شيءٍ، وليسَ لهُ شَبيهٌ.

= القرشي في: اللمع للطوسي ص٣٠١.

(١) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٤٩، وإحكام الدلالة ١/٤٥.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) انظر: إحكام الدلالة ١/٤٥.

(٤) أي: الجنيد.

قَالَ الإِمَـامُ القشَيريُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [١/٧ب][١]: «أخبرَنا مُحَمَّدُ بنُ أَحْمَدَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ يَحْيَي الصُّوفِيّ - رحمه الله تعالى -، قالَ: سَمِعْتُ عبدَ الله بن عليٍّ التَّميميَّ الصُّوفِيّ - رحمه الله تعالى - يحكِي عَنِ الحسنِ بن عَلِيٍّ الدَّامغَانيِّ - رحمه الله تعالى - قَالَ: سُئِلَ أَبُو بَكْرٍ الزَّاهِرآباديّ[٢] - رحمه الله تعالى - عَنِ المَعْرفةِ[٣]، فَقَالَ: المَعرفةُ: اسمٌ، ومعناهُ: وجودُ تعظيمٍ فِي القَلْبِ يمنعُكَ عَنِ التَّعطِيلِ والتَّشبيهِ.

وَقَالَ أَبُو الحَسَنِ البُوشَنجيُّ[٤] - رحمه الله تعالى -: التَّوحيدُ أَنْ تعلمَ أَنَّهُ غَيْرُ مُشْبِهٍ للذَّواتِ، ولَا مَنْفِيّ الصِّفاتِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قولُهُ: «المعرفةُ اسمٌ» يعنِي لمُسمًّى، وهوَ معقولٌ لا يشبهُهُ شيءٌ، فهوَ معلومٌ بالثُّبوتِ، وهو معنَى نَفْيِ التَّعطيلِ، ولا يشبهُ شيئًا منَ المَخْلُوقاتِ.

فقولُهُ: «اسمٌ» أراد بهِ مُسَمًّى معلومًا[٥]، وإلَّا فلا يصحُّ أن تكونَ حقيقةُ المَعْرِفَةِ اسمًا، وإنَّمَا أرادَ عِلْمًا بمعلومٍ[٦] معظَّمٍ ثابتٍ لا يشبهُهُ شيءٌ.

وقولُ البُوشَنْجِيِّ - رحمه الله تعالى -: «التَّوحيدُ أنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ غيرُ مشبهٍ للذَّواتِ ولا

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢١.

(٢) ورد قوله في: الإنصاف للباقلاني ص٣٢، وفيه: «الزاهد»، واللمع للطوسي ص٦٤، والاستقامة ١/١٤٦، وبستان العارفين للنووي ص١٥٨، وإحكام الدلالة ١/٤٥.

(٣) أي: عن لفظها.

(٤) ورد قوله في: الإنصاف للباقلاني ص٣٢، ونتائج الأفكار ١/٦٥.

والبوشنجي هو: علي بن أحمد بن سهل، أبو الحسن البوشنجي، أحد الأوتاد، دخل إلى الشام والعراق، وصحب ابن عطاء والجيري وغيرهما، واستوطن بنيسابور، وبنى بها خانقاه، ولزم المسجد، واعتزل الناس إلى أن مات، ومات سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة.

انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٤٢، وطبقات الأولياء ص٢٥٢.

(٥) انظر: تفسير الأسماء والصفات لعبد القاهر بن طاهر البغدادي ١/١٢٨ ـ بتحقيقي، ومظان حاشيته.

(٦) في (ب): بعلوم.

منفيّ الصِّفاتِ» إشارةٌ إلىٰ التَّنزيه، وإثباتِ الصِّفاتِ القَديمَةِ، رَدًّا علىٰ مَنْ نَفاهَا مِنَ المعتزلةِ[١]، أو مَنْ أثبتَهَا حادثةً[٢]؛ لاستحالةِ اتِّصافِ القَديمِ بالمُحدَثِ[٣].

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «أخبرَنَا الشَّيخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ مُحَمَّدِ بنِ غالبٍ ـ رحمه الله تعالى ـ، قَالَ: سَمِعْتُ أبا نَصْرٍ أَحْمَد بْنِ سَعِيدِ الأسفَنجَانيَّ ـ رحمه الله تعالى ـ يَقُولُ: قَالَ الحُسَيْنُ بن مَنْصُورٍ ـ رحمه الله تعالى ـ[٥]: أَلْزَمَ[٦] الكُلَّ الحَدَثَ؛ لأنَّ القِدَمَ لَهُ، فالَّذي بالجِسْمِ ظهورُهُ[٧] فالعَرَضُ يلزمُهُ[٨]، والَّذِي بالأدواتِ اجتماعُهُ، فقواها تمسكُهُ، والَّذي يُؤلِّفُهُ وقتٌ يفرِّقُهُ وقتٌ، والَّذي يقيمُهُ غيرُهُ فالضَّرورةُ تَمَسُّهُ، والَّذِي الوهمُ يظفرُ بِهِ[٩] فالتَّصويرُ يرتقِي إِلَيْهِ، ومَنْ آواهُ محلٌّ أدركَهُ أَيْنٌ، ومَنْ كَانَ لَهُ جنسٌ طالبُهُ كَيْفُ[١٠]، إنَّهُ ـ سبحانه ـ لا يظلُّهُ فَوْقٌ، ولا يقطعُهُ[١١] تَحْتٌ، ولا يُقابلُهُ حَدٌّ[١٢]،

---

(١) انظر: الملل والنحل للشهرستاني ١/٢٠، والتعريفات ص٣٢٢، والمواقف ٣/٦٥٢.

(٢) في كشف الأسرار للبخاري ٢/٤٩٩: «زعمت المجسمة أنه جسم وأن صفاته حادثة». قال الرازي: «القول بأن صفاته حادثة متغيرة تشبيه محض». مفاتيح الغيب ٢/٨٢ وانظر: المنية والأمل ص٥٦.

(٣) انظر: إحكام الدلالة ١/٤٦.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢١ ـ ٢٣.

(٥) ورد قوله في: الاستقامة ١/١١٧، ١٢١، وإحكام الدلالة ١/٤٦.

(٦) علىٰ الخطاب، والفاعل (هو) يعود علىٰ لفظ الجلالة، والقصد: أحكمَ بلزوم حدوث جميع الخلق؛ لأن القدم ثابت له تعالىٰ خاصة، كما سينص المؤلف.

(٧) أي: إدراكه.

(٨) لاستحالة خلوّ الجسم والجوهر عن العَرَض.

(٩) أي: الوهم.

(١٠) في (ب): مكيف، وكذا في الرسالة القشيرية، وسيذكره المؤلف كما هو مثبت في شرحه فيما يأتي.
والقصد: فطالبه مكيف له، وهذه كلها من صفات المخلوق، والخالق منزَّهٌ عنها.

(١١) في الرسالة: يُقِلُّه. وانظر: إحكام الدلالة ١/٤٦، فأُثبت فيه اللفظين.

(١٢) أي: ينتهي إليه.

ولا يُزَاحِمُهُ عِنْدٌ[١]، ولا يأخذُهُ خَلْفٌ، ولا يَحُدُّهُ أَمَامٌ[٢]، وَلَمْ يظهَرْهُ قبلٌ[٣]، وَلَمْ يُفْنِه[٤] بَعْدٌ، وَلَمْ يجمعْهُ كُلٌّ[٥]، وَلَمْ يوجدْهُ كَانَ، وَلَمْ يفقدْهُ لَيْسَ[٦].

وصفُهُ لا صِفَةَ لَهُ[٧]، وفعلُهُ لا عِلَّةَ لَهُ، وكَوْنُهُ لا أَمَدَ لَهُ[٨].

تَنَزَّهَ عَن أَحْوالِ خَلْقِهِ، لَيْسَ لَهُ منْ خلقِهِ مزاجٌ[٩]، ولا فِي فعلِهِ عِلاجٌ، بَايَنَهُم بِقِدَمِهِ[١٠] كَمَا بَاينُوهُ بحدوثِهِمْ.

إِنْ قُلْتَ: مَتىٰ؟ فَقَدْ سبقَ الوقتَ كونُهُ[١١]، وإن قُلْتَ: هُوَ؛ فالهاءُ والواوُ خلقُهُ. وإنْ[١٢] قُلْتَ: أينَ؟ فَقَدْ تقدَّمَ المكانَ وجودُهُ.

فَالحُرُوفُ [١/١٨أ] آيَاتُهُ، ووجودُهُ إثباتُهُ، ومَعْرِفتُهُ تَوحِيدُهُ، وتَوحِيْدُهُ تمييزُهُ من خلقِهِ، مَا تُصُوِّرَ فِي الأوهامِ فَهُوَ ـ تعالىٰ ـ بخِلافِهِ، كَيْفَ يحلُّ بِهِ مَا منهُ بدأَ؟، أَوْ يَعُودُ إِلَيْهِ مَا هُوَ أَنْشَأَهُ؟، لا تُمَاقِلُهُ[١٣] العيونُ، ولا تقابلُهُ الظُّنونُ[١٤].

---

(١) أي: محل.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) بل هو ظاهر قبل وجود الخلق وبعده.

(٤) في (ف): «يفته».

(٥) لأنه واحد لا يتجزأ.

(٦) جميع ذلك تنزيهٌ له عمَّا ذُكر.

(٧) أي: كيفية له.

(٨) أي: لا غاية له، فلا أوّل ولا آخر له.

(٩) ومزاج البدن ما رُكّب عليه من الطبائع. انظر: إحكام الدلالة ١/٤٧.

(١٠) في (ج): بتقدمه.

(١١) أي: وجوده.

(١٢) في (ج): وأين.

(١٣) في (ب): تماثله، والصواب المثبت.

(١٤) أي: لا يمكن أن تتعلق به تعلّق إدراك؛ لقصور الحادث عن إدراك القديم ـ جل شأنه ـ. انظر: نتائج الأفكار ١/٧٠.

قُرْبُهُ كَرامتُهُ، وبُعْدُهُ إِهَانتُهُ[١]**، عُلُوُّهُ من غَيْرِ توقُّلٍ**[٢]**، ومجيئُهُ من غَيْرِ تنقُّلٍ، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾** [الحديد: ٣]**، القَرِيبُ البعِيدُ، [الَّذِي]**[٣] **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «**أَلْزَمَ الكُلَّ الحَدَثَ**»، أي: أحكمَ وأقطعَ بحدوثِ[٤] الجميعِ، فإنَّ القِدَمَ مخصوصٌ بهِ ـ تعالىٰ ـ؛ لأنَّهُ يستحيلُ[٥] أنْ يكونَ مُحْدَثًا؛ لافتقارِ المُحْدَثِ إلىٰ مُحدِثٍ وتَسَلْسَلَ، فلزمَ أن يكونَ قديمًا.

وكلامُهُ بعدَ ذلكَ في تفصيلِ المُحدَثاتِ، فكلُّ ما يدركُ جِسْمًا فلا بُدَّ أنْ يقومَ بهِ الغَرَضُ؛ لملازمتِهِ للجواهرِ والأجسامِ، لاستحالةِ خُلُوِّهَا عنهُ.

وقولُهُ: «**والَّذِي بالأداةِ اجتماعُهُ**»، يَعْنِي بالأسبابِ، فإذا فُقِدَتِ الأسبابُ تَفَرَّقَ.

وقولُهُ: «**وَالَّذِي يُؤَلِّفُهُ وَقْتٌ يُفَرِّقُهُ وَقْتٌ**» مَعْنَاهُ: الَّذي يَتَأَلَّفُ وَقْتًا يجوزُ أنْ يَفْتَرِقَ وَقْتًا[٦].

وقولُهُ: «**والَّذي يقيمُهُ غيرُهُ فالضَّرورةُ تَمَسُّهُ**» إشارةٌ إلىٰ سَائرِ المخلوقاتِ؛ فإنَّهَا مُفْتَقِرَةٌ إلىٰ مَنْ يقيمُهَا ويحفظُهَا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١].

وقولُهُ: «**والَّذِي الوَهْمُ**[٧] **يَظْفَرُ بِهِ**» مَعْنَاهُ: أَنَّهُ لا يتوهَّمُ إلَّا ما يُتَخَيَّلُ ويُتصوَّرُ،

---

(١) أي: من عبده، لأنه تعالىٰ منزه عن القرب في المكان.

(٢) في الصحاح ٥/١٨٤٤: «تَوَقَّلْتُ الجبلَ: علوْتُه.... وقد وقَل ـ بالفتح ـ: إذا تَوَقَّلَ في الجبل، أي: تصعَّد».

(٣) زيادة من (ب، ج).

(٤) في (ب، ج): بحدث.

(٥) في (ج): مستحيل.

(٦) سقطت هذه الجملة من (ب).

(٧) سقط هذا اللفظ من (ب).

والحقُّ ـ سبحانه ـ مُنَزَّهٌ عن ذلكَ.

وقولُهُ: «**ومَنْ آواهُ محلٌّ أدركَهُ أينٌ**» معناهُ: إنَّ (أينَ) سؤالٌ عنِ المحلِّ والمكانِ.

وقولُهُ: «**ومَنْ كانَ له جنسٌ طالبَهُ كيفٌ**»، أي: تحتَ الجنسِ أنواعٌ تتميَّزُ؛ كالحيوانِ: اسمٌ لكلِّ حيٍّ، وهو جنسٌ وتحتهُ الإنسانُ وغيرُهُ، وهيَ أنواعٌ مُتصَوَّرةٌ[(١)].

وقولُهُ: «**إنَّهُ ـ سبحانه ـ لا يظلُّهُ فَوْقٌ**» وبقيَّةُ كلامِهِ إلىٰ قولِهِ: «**ولم يفقِدْهُ ليسَ**» تَنْزِيْهًا لهُ ـ تعالىٰ ـ عَنْ صفةِ الأجسامِ منَ الفَوقِ والتَّحْتِ والمُحَاذاةِ وغَيْرِ ذلكَ.

وقولُهُ: «**وصفُهُ لا صفةَ لهُ**» [مَعْنَاهُ][(٢)]: إثباتُ الصِّفةِ للهِ ـ تعالىٰ ـ مُنَزَّهةً عَنْ أَنْ تُوصَفَ، أي: لا تكيُّفَ[(٣)].

وقولُهُ: «**وفعلُهُ لا علَّةَ لهُ**» معناهُ: لا يفعلُ لغَرَضٍ، ولا حَامِلٍ[(٤)].

وقولُهُ: «**وَكَونُهُ لا أمَدَ لهُ**» إشارةٌ إلىٰ دوامِ بَقَائِهِ، ويلزمُ عنه نَفْيُ الأَوَّليَّةِ لوجُودِهِ.

وقولُهُ: «**ليسَ**[(٥)] **له منْ خَلْقِهِ مِزاجٌ**» ردٌّ علىٰ الحُلُوليَّةِ القَائِلِيْنَ بالحُلُولِ[(٦)].

وقولُهُ: «**ولا فِي فِعْلِهِ عِلَاجٌ**» إشارةٌ إلىٰ قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا[(٧)] لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]؛ أي: نفعلُ من غيرِ مُباشرةٍ، ولا

---

(١) انظر: إحكام الدلالة ١/٤٦.

(٢) زيادة من (ب، ج).

(٣) أي: وصفُهُ ـ تعالىٰ ـ لا كيفيةَ له.

(٤) لأن أفعاله لا تعلَّل بذلك.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٦) انظر: إحكام الدلالة ١/٤٧.

(٧) في (أ، ج): أمرنا، وهو تحريف.

مُلامَسَةٍ، ولا بِآلَةٍ.

وقولُهُ: «إنْ قلتَ: متىٰ؟، فقدْ [١/٨ب] سبقَ الوقتَ كونُهُ»، فـ(متَىٰ) سؤالٌ عنِ الوقتِ، وهوَ منَ الحوادثِ، واللهُ سابقٌ لجميعِهَا[١].

وقولُهُ: «وإنْ قلتَ: هُو، فالهاءُ والواو خَلْقُهُ»، فهوَ ردٌّ علىٰ القائلينَ بِقِدَمِ الحُرُوفِ[٢].

وقولُهُ: «وإنْ قلتَ: أينَ؟ فقدْ تقدَّمَ المكانَ وجودُهُ» معنَاهُ: أنَّ (أينَ) سُؤالٌ عنْ مكانٍ، وهوَ ـ سبحانه ـ مُنَزَّهٌ عنِ الزَّمانِ والمَكَانِ.

وقولُهُ: «فَالحُرُوفُ آياتُهُ» يعنِي ـ والله أعلم ـ كلامُهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ لسانِ رسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُعْجِزِ، الَّذي هو دليلٌ علىٰ صدقِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالآياتُ هي الدَّلائلُ والمُعْجزَاتُ، وقد عجزَ الخلقُ كلُّهُمْ عنِ الإتيانِ بسورةٍ من مثلِهِ[٣].

وحدُّ المُعْجِزةِ: أنَّهَا فعلُ للهِ ـ تعالىٰ ـ خارقٌ للعادةِ، جارٍ علىٰ حسبِ دَعْوَىٰ[٤] مُدَّعِي النُّبوَّةِ[٥].

وفي كلامِهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الحُرُوفَ مَخْلُوقةٌ للهِ ـ تعالىٰ ـ[٦].

وقولُهُ: «ووجُودُهُ إثباتُهُ» يعنِي: وجود الحقِّ إقامةُ الأدلَّةِ علىٰ ثُبُوتِهِ، والعِلْم بوجودِهِ.

---

(١) انظر: إحكام الدلالة ١/٤٧.

(٢) سقط هذه الجملة من (ب). وانظر: درء التعارض ٢/١٧٣، وإحكام الدلالة ١/٤٧.

(٣) مصداقا لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

(٤) في (ب): دعىٰ، والأصح المثبت.

(٥) انظر: التعريفات ص٢٨٢، والتوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص٦٦٥.

(٦) في فتاوىٰ السبكي ٢/٥٦٣: «الذي أقوله: إن هذه الحروف مخلوقة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وهي من كل شيء».

وقولُهُ: «ومعرفتُهُ توحيدُهُ» إذ مَنْ لمْ يوحِّدْهُ لم يَعْرِفْهُ[(١)].

وقولُهُ «لا تُمَاقلُهُ[(٢)] العُيُونُ» ليسَ معناهُ: أَنَّهَا لا تَراهُ، وإنَّمَا المُقْلَةُ: هيَ جِرمُ العَينِ الَّتي ترىٰ ما في جهةٍ، والحقُّ منزَّهٌ عنِ الجِهَاتِ[(٣)]، وأمَّا في الآخرةِ فالسُّعداءُ يرونَهُ بإدراكٍ يخلقُهُ اللهُ لهُمْ يدركُونَ بهِ مَا ليسَ في جهةٍ، كمَا خَلَقَ في قُلُوبِ العَارِفِينَ في الدُّنيَا العِلْمَ بمَا ليسَ في جِهَةٍ، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢][(٤)].

وقولُه: «علوُّهُ مِن غَيْرِ تَوقُّلٍ» يعنِي: ارتفاعَ جلالِهِ وعظمتِه مِنْ غيرِ مكانٍ.

وقولُهُ: «وَمَجِيئُهُ من غَيْرِ تنقُّلٍ» إشارةٌ إلىٰ قولِهِ: «يَتَنَزَّلُ[(٥)] ربُّنَا كَلَّ ليلةٍ إلىٰ سَمَاءِ الدُّنيَا»[(٦)]؛ أي: يتنزَّلُ أمرُهُ وفَضْلُهُ علىٰ خَلْقِهِ.

وهذا أوردَهُ الإمامُ؛ ليدلَّ بذلكَ ـ واللهُ أعلمُ ـ علىٰ صِحَّةِ عقيدةِ هذا الرَّجلِ، وإنَّمَا الَّذي جَرَىٰ علىٰ لِسَانِهِ ممَّا أوجبَ قَتْلَهُ إنَّمَا كانَ في وقتِ غَلَبَةِ الأحوالِ، وعُسْرِ التَّثَبُّتِ في المَقَالِ، وأَمْرُهُ رَاجِعٌ إلىٰ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٧)]: **«سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمٍ السِّجستَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ الطُّوسِيَّ السَّرَاجَ[(٨)] يَحْكِي عَن يُوسُفَ بنِ الحُسَيْن قَالَ: قَامَ رجلٌ بَيْنَ يَدَي**

---

(١) انظر: إحكام الدلالة ٤٨/١.

(٢) في (ب): تماثله.

(٣) في إحكام الدلالة ٤٨/١: «أما رؤيته لا في جهة فجائزة». وانظر: مقالات الإسلاميين ص١٥٧، ٢١٥، والإبانة ص٣٥، ولمع الأدلة للجويني ص١١٥.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٤٨/١.

(٥) في (ج): ينزل، وهي رواية صحيح مسلم ٥٢١/١ ـ حديث رقم (٧٥٨).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٣٣٠/٥ ـ حديث رقم (٥٩٦٢). وانظر: عمدة القاري ١٩٩/٧.

(٧) الرسالة القشيرية ٢٣/١.

(٨) في اللمع ص٤٩. وورد أيضا في: تاريخ دمشق ٤٠٤/١٧.

ذِي النُّونِ الْمِصْرِيِّ فَقَالَ: أخبرْنِي عَنِ التَّوحيدِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: هُوَ أن تَعْلَمَ أَنَّ قدرة الله فِي الأشياءِ بلا مِزاجٍ، وصُنْعَهُ للأشياءِ بلا عِلاجٍ، وعلَّةُ كُلِّ شَيْءٍ صُنْعُهُ، ولا علَّةَ لصُنْعِهِ، وليسَ فِي السَّمواتِ العُلا ولا فِي الأرضينَ السُّفلَىٰ مُدَبِّرٌ غَيْرُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ[1]، وكلُّ مَا تُصوِّرَ فِي وهْمِكَ فاللهُ بخلافِ ذَلِكَ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [١٩/١أ] وجميعُ هذا الكلامِ دليلٌ علىٰ انفرادِ الله ـ تعالىٰ ـ بالأفعالِ، ومنْ جُمْلَتِهَا أفعالُ العِبَادِ؛ لضرورةِ الحكم بِحَدثِ جميعِ ما في العالمِ، وانفرادِهِ بالإِحْدَاثِ والخلقِ والتَّدبيرِ، وكلُّ مصنوعٍ فإنَّمَا كان بصُنْعِهِ وإرادتِهِ السَّابقةِ.

وقولُهُ: «**ولا عِلَّةَ لِصُنْعِهِ**» تَنْزِيهٌ عنِ الأَغْرَاضِ والحَوامِلِ علىٰ الأفعالِ، وأنَّهُ يفعلُ بلا مُحَاولَةٍ ومُبَاشرةٍ، وقد تَقَدَّمَ[2].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «**وَقَالَ الجُنَيدُ[4]: التَّوْحِيدُ عِلْمُكَ[5] وَإِقْرَارُكَ بِأَنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ وَاحِدٌ فَرْدٌ فِي أَزَلِيَّتِهِ، لَا ثَانِيَ مَعَهُ، وَلَا شَيءَ يَفْعَلُ فِعْلَهُ[6]**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا منهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدلُّ علىٰ أنَّ النُّطقَ بالتَّوحيدِ معَ صحَّةِ الاعتقادِ يسمَّىٰ توحيدًا، والعِلْمُ بالوحدانيَّةِ يسمَّىٰ توحيدًا، وأرفعُ التَّوحيدِ غلبةُ حكمِ التَّوحيدِ علىٰ القلبِ، حتَّىٰ لا يرىٰ إلَّا واحدًا يُسَمَّىٰ توحيدًا.

---

(١) لانفراده عَزَّوَجَلَّ بذلك.

(٢) ص١٣٤.

(٣) الرسالة القشيرية ٢٣/١.

(٤) ورد قوله في: حلية الأولياء ٢٥٦/١٠، والاستقامة ١٤٨/١، وإحكام الدلالة ٤٩/١.

(٥) أي: تصديقك.

(٦) في نتائج الأفكار ٧٢/١: «كان الأولىٰ في التعبير أن يقول: ولا شيء يفعل غيره؛ لإيهام ما ذكره جواز وقوع فعل من الغير لا يضارع فعله، وهو محالٌ».

ولهذا قالَ[١] في موضعٍ آخرَ: «عِلْمُ التَّوحيدِ مباينٌ لوجودِهِ، ووجودُهُ مباينٌ لِعِلْمِهِ»؛ أرادَ: أنَّ عِلْمَ التَّوحيدِ غيرُ نفسِ التَّوحيدِ، ونفسَ التَّوحيدِ وجودُ غَلَبةِ حَالِ التَّوحيدِ على القَلْبِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**قَالَ أَبُو عَبْد اللهِ بْن خفيفٍ[٣]: الإِيمَانُ: تَصْدِيقُ القُلُوب، بِمَا أعلمَهُ[٤] الحقُّ مِنَ الغُيُوب**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا إيمانٌ بمَا جاء بِهِ الرَّسولُ عنِ الله ـ تعالىٰ ـ، وأخبرَ بِهِ عن ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، وأمْرِهِ ونَهْيِهِ، ووعْدِهِ ووعيدِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ السَّيَّارِيُّ[٦]: عطاؤُهُ عَلَىٰ نوعينِ: كرامةٍ واستدراجٍ، فَمَا أبقاهُ عليكَ فَهُوَ كرامةٌ، وَمَا أزالَهُ عَنْكَ فَهُوَ استدراجٌ، فقُلْ: أنا مؤمنٌ إنْ شاءَ الله، وأَبُو الْعَبَّاسِ السَّياريُّ كَانَ شيخَ وقتِهِ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا منهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قولٌ بأنَّ الأفعالَ كلَّهَا منَ الله؛ خيرَهَا وشرَّهَا، نافعَهَا وضارَّهَا، ولهذا قالَ: «**قُلْ أنا مؤمنٌ إنْ شاءَ الله**»[٧]؛ لأنَّ

---

(١) أي: الجنيد، وورد قوله في: التعريفات ص٣٢٤، ومدارج السالكين ٣/٦٨، ٢٣٧.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٣.

(٣) ورد قوله في: تفسير السلمي ١/١٦٧، وطبقات الصوفية له ص٣٤٧، وحلية الأولياء ١٠/٣٨٦. وستأتي ترجمته فيما يأتي برقم (٧٦).

(٤) في (ف): أعلمها.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٣.

(٦) ورد قوله في: الاستقامة ١/١٤٨، وإحكام الدلالة ١/٥٠.
والسَّياري هو: القاسم بن القاسم السياري، أصله من مرو، صحب أبا بكر الواسطي، وصار رأساً في علوم الطائفة، مات سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة.
انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٣٠، وطبقات الأولياء ص٣٦٦.

(٧) نقل هذا القول عن ابن مسعود في: مفاتيح الغيب ١/٧٤، ومعالم أصول الدين ص١٣٥،=

الخيرَ والشَّرَّ منهُ[(١)] رَدًّا على المعتزلةِ[(٢)].

وقولُهُ: «**إنْ شاءَ الله**» نظرٌ إلى العَاقِبَةِ لا إلى الحَالةِ الَّتي هو فيهَا[(٣)].

وقولُهُ: «**عطاؤُهُ على نوعَينِ**»، ثم فسَّرَهُ بقولِهِ: «**فمَا أبقَاهُ عليكَ فهوَ كرامةٌ، ومَا أزالَهُ عنكَ فهو استدراجٌ**» معناهُ: أنَّ خَوارقَ العاداتِ إذا جرَتْ على العبدِ المُوفَّقِ، وقد كانَ خائفًا منَ الله شديدَ الرَّغبةِ في طاعتِهِ، فقَوِيَ يقينُهُ وشكرُهُ لربِّهِ على نِعَمِهِ، فدلَّ ذلكَ على كونِهِ كرامةً أكرمَهُ الله [١/٩ب] بها، وإنْ أُعجِبَ بنفسِهِ، ومدحَ نفسَهُ على ما خُصَّ بهِ وجَرَى على يَدَيهِ كانَ ذلكَ مَكْرًا واستدراجًا إلى الهَلاكِ، ولو لم يجرِ لهُ هذا الخَارِقُ وبقِيَ مع خوفِهِ وحَذَرِهِ واجتهادِهِ في طاعتِهِ كانَ أولى لهُ.

= وشرح المقاصد في علم الكلام ٢/٢٦٣.

وهذه المسألة فرع عن الكلام في مباحث الأسماء والأحكام المتعلقة بالإيمان والكفر، وقد بحث فيها المتكلمون مسألة جواز أو عدم جواز الاستثناء في الإيمان، ويتلخص مذهب الأشاعرة في كونهم يرون جواز الاستثناء في الإيمان، وأن هذا لا يقدح في الإيمان، بينما نفى غيرهم الاستثناء في الإيمان توهما منهم أن هذا يفضي إلى القول بالشك في الإيمان.

انظر تفصيل ذلك في: أصول الدين للبغدادي ص٢٥٣، ومجرد مقالات الأشعري ص١٦٢، والإنصاف للباقلاني ص٥٧.

(١) في أصول الدين للغزنوي ص١٨٩: «اعلم أن المذهب المستقيم أن تقدير الخير والشر من الله تعالى، وفعل الخير والشر من العبد، والعبد مختار في فعله اختيار تمييز وتحصيل». وانظر: الإبانة ص٢٥، ومقالات الإسلاميين ص٢٩٢.

(٢) ومذهبهم أن الخير والشر فعل العبد ليس لله ـ تعالى ـ صُنْعٌ فيه.

انظر: المغني للقاضي عبد الجبار ٨/٣، وشرح الأصول الخمسة ص٣٢٣، وأصول الدين للغزنوي ص١٩٣، والحجة في بيان المحجة ٢/٤٠٩، وأبكار الأفكار ٢/٣٤٤، واعتقادات فرق المسلمين ص٤٨.

(٣) أي: الراهنة، أو نظرًا إلى كمال الإيمان لا إلى أصله، أو رعاية للأدب بذكر الله عَزَّوَجَلَّ في أموره. انظر: إحكام الدلالة ١/٥٠.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[١]: «سمعتُ الأستاذَ أبا عَلِيّ الحسينَ بن عليّ الدَّقاقَ رَحِمَهُٱللَّهُ يَقولُ[٢]: غمزَ رَجُلٌ رِجلَ أَبِي العَبَّاسِ السَّياريِّ، فَقالَ: تَغمِزُ رِجْلًا ما نَقلْتُها قَطُّ فِي معصيةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ؟!».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وهذا من أَبِي العبَّاسِ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ إظهارُ الأعمالِ لمَنْ نَقْتَدِي بهِ؛ لتتزايَدَ رَغْبَتُهُ في الاقتداءِ والانتفاعِ، فإنَّهُ أعلمَهُ بإكرامِ الله ـ تعالىٰ ـ لهُ وحفظِهِ لأعضائِهِ، حتَّىٰ لم ينقلْ رِجْلَهُ في معصيةِ اللهِ قَطُّ، وبهذا كانَ شيخَ وقتِهِ؛ أي: ممَّنْ يُقْتَدَىٰ بهِ، فأظهرَهُ لمَنْ يقتدِي بهِ، ولو لم يكنْ ممَّنْ يُقتدَىٰ بهِ لكانَ إظهارُ الأعمالِ منَ الإِسْرَارِ إلىٰ الإِعْلانِ مِنْ غَيْرِ فائِدَةٍ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[٣]: «وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الوَاسِطِيُّ[٤]: مَنْ قَالَ: أَنا مُؤمنٌ باللهِ حقًّا، قِيلَ لَهُ: الحَقِيقَةُ تُشِيرُ إِلَىٰ إِشْرَافٍ واطِّلاعٍ[٥] وإحَاطَةٍ، فمَنْ فَقدَهُ بطَلَ دَعْوَاهُ فِيهَا[٦].

يريدُ بِذَلِكَ مَا قَالَهُ أَهْلُ السُّنَّةِ: إِنَّ المُؤْمِنَ الحَقِيقِيَّ مَنْ كَانَ مَحْكُومًا لهُ بالجنَّةِ[٧]، فمَنْ لَمْ يعلَمْ ذَلِكَ[٨] مِنْ سِرِّ حِكْمَةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فَدَعْوَاهُ بأَنَّهُ مُؤمنٌ حقًّا غيْرُ صَحِيحَةٍ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وهذهِ إشارةٌ إلىٰ ما روِيَ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ قال

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤.

(٢) ورد قوله في: الاستقامة ١/١٤٩.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٤.

(٤) ورد قوله في: تفسير القرطبي ٧/٣٦٧، والاستقامة ١/١٤٩.

(٥) أي: علىٰ المغيّبات.

(٦) أي: في حقيقة الإيمان.

(٧) أي: بلسان الشريعة المطهرة. انظر: نتائج الأفكار ١/٧٤.

(٨) أي: المذكور في جواب جبريل عَلَيهِٱلسَّلَامُ الآتي.

لحارثةَ(١): «كيفَ أصبحتَ؟ قال: أصبحتُ مُؤمنًا حَقًّا، قالَ لهُ: إنَّ لكلِّ حقٍّ حقيقةً فمَا حقيقةُ إيمانِكَ؟ قالَ: عَزَفتْ نفسِي عنِ الدُّنيَا فاستوَىٰ عندِي ذهبُهَا ومُدَرُهَا، وكأنِّي أَنْظُرُ إلىٰ عَرْشِ ربِّي بَارِزًا، وإلىٰ أَهْلِ الجنَّةِ يَتَنعَّمُونَ، وإلىٰ أهلِ النَّارِ [في النَّارِ](٢) يَتَعَاوَوْنَ، فأظمأتُ لذلكَ نَهارِي، وأَسْهَرتُ لهُ لَيْلِي، قالَ لهُ عَلَيهِ السَّلَامُ: عَرَفْتَ فَالزَمْ».

فحقيقةُ الإيمَانِ كمَا تضمَّنَهُ الخبرُ الصَّحيحِ في (مُسْلِمٍ)(٣) لمَّا سَألَ جِبْرِيلُ النَّبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عنِ الإيمَانِ فقالَ: «أنْ تؤمِنَ باللهِ ومَلائكتِهِ وكُتُبِهِ ورسُلِهِ واليومِ الآخرِ، وبالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ»، وتضمَّنَ ذلكَ حَقَارةَ الدُّنيَا وجَمَالَ الآخرةِ، وتفصيلَ ما فِي الجَنَّةِ والنَّارِ وطيِّ السَّمواتِ وحملةِ العَرْشِ للعرْشِ، وجميعِ ما تَضَمَّنَهُ الكتابُ والسُّنَّةُ.

فمَنْ آمنَ بذلِكَ إيمَانًا صَحِيْحًا يَقِينيًّا حتَّىٰ غَلَبَ علىٰ قَلْبِهِ ذلكَ حتَّىٰ كأنَّهُ [١٠/١أ] يُشَاهِدُهُ وإنْ كانَ غَائبًا عن بصرِهِ لصحَّةِ إيمانِهِ ويقينِهِ ببَصِيرَتِهِ، وهَذَا هو الاطِّلَاعُ والإِشْرَافُ علىٰ المُغَيَّبَاتِ بما جاءَ بهِ الأنبياءُ عنِ اللهِ، فَهُوَ حَقِيقةُ الإيمانِ، فمَنْ أحسَّهُ من نفسِهِ فهوَ مُؤمنٌ حقًّا، ومَنْ لَمْ يَصِلْ إلىٰ هذا الحدِّ وجَرَىٰ ذلكَ علىٰ لِسَانِهِ معَ خُلُوِّ قلبِهِ عَنْ مَعَانِيه، هوَ إمَّا شَاكٌّ أو مُنَافِقٌ(٤).

ومَعْنَىٰ «**مشهودٌ لهُ بالجنَّةِ**»: أنَّ مَنْ كانَتْ هذهِ حَالتَهُ المُستقِيمَةَ فهوَ المَشْهُودُ له بِهَا فِي وقتِهِ إنْ ماتَ عليها، ولا نَقُولُ: إنَّهُ ليسَ مُؤمنًا؛ لالتباسِ عَاقِبَتِهِ عنَّا، بلِ

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣/٢٦٦، وابن أبي شيبة في مصنفه ٦/١٧٠، والترمذي في نوادر الأصول ١/٢٧٠، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/٣٦٢.

(٢) زيادة من (ب).

(٣) صحيحه ١/٣٧ ـ حديث رقم (٨).

(٤) انظر: إحكام الدلالة ١/٥٠.

المُؤمنُ مُؤمِنٌ قَطْعًا في وقتِهِ، والكافرُ كافرٌ قطعًا في وقتِهِ، وإنْ جازَ التَّعبيرُ على كلِّ واحدٍ منهُمَا ـ والعياذُ باللهِ ـ منَ الكُفْرِ، فتجويزُنَا للمُمْكِنِ لا يَمْنعُنَا منَ القَطْعِ بالحَاصِلِ المُتيقَّنِ في نَفْسِهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١): «سَمعتُ الشَّيخَ أبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْد اللهِ يَقُولُ: سمعتُ أبا الحَسَنِ العنبَرِيَّ يَقُولُ: سمعتُ سهلَ بْنَ عَبْد اللهِ التُّسْتَرِيَّ يَقُولُ(٢): يَنْظُرُ إِلَيْهِ المؤمنونَ بِالأَبْصَارِ مِنْ غَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا إِدْرَاكِ نِهَايَةٍ.

وَقَالَ أَبُو الحُسَينِ النُّورِيُّ(٣): شَاهَدَ الحَقُّ القُلُوبَ، فلَمْ يَرَ قَلْبًا أَشْوَقَ إِلَيْهِ من قَلْبِ [نبِيِّنَا](٤) مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأَكْرَمَهُ بالمِعْرَاجِ تَعْجِيلًا للرُّؤيةِ والمُكَالَمَةِ(٥)».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فأمَّا ما قالَه سَهْلٌ فإنَّ فيه وقوعَ رُؤيةِ اللهِ ـ تعالى ـ بالأبصارِ في الآخرةِ لمَنْ منَّ عليه في الدُّنيا بمعرفتِهِ بالبصَائرِ.

وقولُهُ: «مِنْ غيرِ إحاطةٍ ولا إدراكِ نهايةٍ»(٦)؛ لأنَّ الإحاطةَ والنِّهايةَ إنَّمَا تكونُ فِي مَحْدُودٍ مَحْصُورٍ، وهذه صفاتُ الأجسامِ، والحقُّ ـ سبحانه ـ مُنزَّهٌ عن ذلكَ(٧)، وكمَا استحَالَ أنْ يكونَ جِسمًا استحالَ أنْ تتطرَّقَ إليهِ الحُدُودُ والإِحَاطَةُ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤.

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار لابن خميس الموصلي ١/٢١٧، والمختار من مناقب الأخيار لابن الأثير ٢/١٥٢.

(٣) ورد قوله في: كتاب المعراج للقشيري ص١٠٤، ونزهة الناظرين لعبيد الضرير ص٩٧.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) وذلك إظهارًا لفضيلته، والقصد بالمكالمة: المكالمة المنزهة عن الحروف والأصوات بدون واسطة من أملاك السماوات.

(٦) وعليه حُمل قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥١.

وأمَّا قولُ النُّوريِّ: «شَاهدَ الحقُّ القُلُوبَ فلم يَرَ قلبًا أشوقَ إليهِ منْ قلبِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، فهوَ إشارةٌ إلىٰ وقتِ العُرُوجِ، وإنَّمَا اللهُ ـ سبحانه ـ لم يزَل عالمًا بقلبِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الَّذِي خلقَ[(١)] الشَّوقَ لهُ، وأوصلَهُ إلىٰ الوقتِ الَّذي صلحَ أنْ يسمعَ كلامَهُ، فأكرمَهُ بالمِعْراجِ تَنْجِيزًا لفضْلِهِ عليهِ بسَمَاعِ كَلامِهِ ورُؤيتِهِ علىٰ الاختلافِ في ذلكَ بينَ العُلَمَاءِ، هلْ رأىٰ ربَّهُ ليلةَ المعراجِ أو لم يرَه[(٢)]؟.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٣)]: «سَمِعْتُ الإمَامَ أبا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بنَ الحَسَنِ بنِ فُوْرَك[(٤)] رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدًا المَحْبُوبَ خادمَ أَبِي عُثْمَان المغربيِّ يَقُولُ: قَالَ لي أَبُو عُثْمَان المَغْرِبيُّ[(٥)] يومًا: يا مُحَمَّدُ لو قَالَ [١/١٠ب] لَكَ أحدٌ: أينَ معبودُكَ؟ أَيْشٍ[(٦)] تقولُ؟ قَالَ: كنتُ أقولُ: حيثُ لَمْ يَزَلْ. قَالَ: فَإِنْ قَالَ لكَ: فأينَ كَانَ فِي الأزلِ؟ أَيْشٍ تقولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: حيثُ هُوَ الآنَ.

يَعْنِي: أَنَّهُ كَمَا كَانَ ولا مكانَ، فَهُوَ الآنَ كَمَا كَانَ، قَالَ: فارتَضَىٰ منِّي ذَلِكَ، ونَزَعَ قَمِيصَهُ وَأَعْطَانِيه[(٧)]».

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) تحر تفصيل ذلك في: الإجابة لما استدركت عائشة ص٩٦، وفتح الباري ٨/٦٠٧.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٤ ـ ٢٥.

(٤) هو: الأستاذ أبو بكر محمد بن الحسن بن فُورك، المتكلم الأصولي الأديب النحوي الواعظ الأصبهاني، سمع مسند الطيالسي من عبد الله بن جعفر لأصبهاني، وله تصانيف جمة في الكلام، توفي سنة ستٍّ وأربعمائة.
انظر في ترجمته: وفيات الأعيان ٤/٢٧٢، والوافي بالوفيات ٢/٢٥٤، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٤/١٢٧.

(٥) هو: سعيد بن سلام القيرواني البغدادي ثم النيسابوري، أبو عثمان، من الكبار، وله أحوال وكرامات، كان أوحد عصره في الورع والزهد والصبر علىٰ العزلة، مات بنيسابور سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة.
انظر في ترجمته: طبقات الصوفية للسلمي ص٣٥٨، وطبقات الأولياء ص٢٣٧.

(٦) أي: أي شيءٍ. انظر: تهذيب اللغة «ج ر م».

(٧) ورد قول أبي عثمان في: الإنصاف للباقلاني ص٤٠، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٩/٤٣.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا من حُسْنِ التَّعليمِ والتَّأديبِ لِلمُريدينَ، وامتحانِ صحَّةِ إيمانِهِم؛ لِتَنْبَنِيَ[١] أَعْمَالُهُم علىٰ أُصُولٍ صَحِيحَةٍ، ويَنْقَطِعَ عَنْ قُلُوبِهِم الأوهامُ والالتفاتُ إلىٰ الجهاتِ، وذلكَ أنَّهُ[٢] سألَهُ علىٰ وجْهِ الامتحانِ ليعرِفَ مَا يعتقدُ[٣]، فقالَ لهُ: لو قالَ لكَ قائلٌ: «أَيْنَ مَعْبُودُكَ؟»، وسؤالُ (أين) سُؤالٌ عنِ المَكَانِ، وهو - تعالىٰ - مُنَزَّهٌ عنهُ، فأجَابَهُ بقولِهِ: «حَيْثُ لم يَزَلْ».

وقولُهُ: «حيثُ لَمْ يزَلْ» يعنِي: استغناءَهُ في أزَلِه عَنِ الحَيْثِ.

فَإِنْ قالَ لكَ: «فأينَ كانَ في الأزَلِ؟ أَيْشٍ تقولُ؟»، فأجابَ: «حَيْثُ هُوَ الآنَ»، فَدَلَّ علىٰ نَفْيِ الحَيْثِ عنهُ أوَّلًا وآخِرًا، وهو السُّؤَالُ عنِ المكانِ؛ إذْ لا زمانَ ولا مكانَ، وهو الَّذي خلقَ كلَّ زمانٍ ومكانٍ، فأَعْجَبَ الشَّيخَ ذلكَ، ووَهَبَ[٤] له قَمِيصَهُ؛ لكونِ اللهِ سَدَّدَهُ ووفَّقَهُ، وزيادةً له في تَثْبيتِهِ[٥].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٦]: «سمعتُ الإمَامَ أبا بَكْرٍ [بن فُورَك][٧] رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أبَا عُثْمَان المَغْرِبيَّ يَقُولُ[٨]: كُنْتُ أَعْتَقِدُ شَيْئًا مِنْ حَدِيثِ الجِهَةِ[٩]، فَلَمَّا قَدِمْتُ بغدادَ زالَ ذَلِكَ عَنْ قَلْبِي[١٠]، فكتبتُ إلىٰ مَكَّةَ إلىٰ أَصْحَابِنا[١١]: إنِّي

---

(١) في (ج): لتبنىٰ.
(٢) في (ب): لأنه.
(٣) في (ب): يعتقده.
(٤) في (ب): وأوهب، والأصح المثبت.
(٥) انظر: إحكام الدلالة ٥٢/١.
(٦) الرسالة القشيرية ٢٥/١.
(٧) زيادة من (ف).
(٨) ورد قوله في: الإنصاف للباقلاني ص٤٠، وإحكام الدلالة ٥٢/١.
(٩) أي: كنت أميل إلىٰ القول بالجهة له تعالىٰ. انظر: نتائج الأفكار ٧٦/١.
(١٠) في (ف): زال عني ذلك.
(١١) أي: بها، ولفظ الرسالة القشيرية، و(ف): «فكتبتُ إلىٰ أَصْحَابِنَا بمكة»، وأثبت الروايتين الشيخ=

أسلمْتُ الآنَ إِسْلامًا جَدِيدًا.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ الحُسَيْنِ السّلمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ[(١)]: سَمِعْتُ أبا عُثْمان المَغْرِبِيَّ يَقُولُ ـ وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الخَلْقِ ـ فَقَالَ[(٢)]: قَوَالِبُ وأَشْبَاحٌ[(٣)] تَجْرِي عَلَيْهِم أَحْكَامُ القُدْرَةِ».**

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَفِي كَلامِهِ الأوَّلِ ذَمٌّ لِمَنْ يعتقدُ الجِهَةَ، وأنَّ الله ـ سبحانه ـ علىٰ العَرْشِ بِقَولِهِ: «**قَدْ أَسْلَمْتُ إِسْلامًا جَدِيدًا**»، وذلكَ أنَّهُ لمَّا وصلَ إلىٰ (بغدادَ) وسمعَ كَلامَ المُحَقِّقينَ فِي تَنْزِيهِ الحَقِّ اعْتَرَفَ بالحَقِّ، وكتبَ بهِ إلىٰ إِخْوَانِهِ بمكَّةَ الَّذينَ كانوا يَعْتَقِدُونَ مَذْهَبَهُ أو يَعْلَمُونَهُ[(٤)] منهُ، يُخْبِرُهُم بخِطَابِهِ فيمَا كانَ عليه، وأنَّه عرفَ الحقَّ واتَّبَعَهُ.

وفِي كَلامِهِ الثَّاني ما يدلُّ علىٰ أنَّ الأفعالَ كلَّهَا لله ـ تعالىٰ ـ، وأنَّ أفعالَ العِبَادِ جَارِيَةٌ بقُدْرةِ الله، وهو مَذْهَبُ أَهْلِ الحَقِّ، وَرَدٌّ علىٰ القَدَرِيَّةِ[(٥)]؛ وذلكَ أنَّ قولَهُ: «**سُئِلَ عنِ الخَلْقِ**»، أي: عن أَفْعَالِهِم، فأجابَ بأنَّهُم «**قوالبُ وأشباحٌ[(٦)] تَجْرِي**

= زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٢.

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٩/١١٢، والأنساب ٥/٥٦، وألف باء للبلوي ١/٢٢٤، والاستقامة ١/١٦٩.

(٣) في (ج): قوالب الأشباح.

(٤) في (ب): يتعلمونه.

(٥) الذين يعتقدون بأن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية.
انظر: المغني للقاضي عبد الجبار ٨/٣، وشرح الأصول الخمسة ص٣٢٣، والفرق بين الفرق ص٥٠، ومجرد مقالات الإسلاميين ص٩٠، وأبكار الأفكار ٢/٣٤٤، والملل والنحل للشهرستاني ١/٤٥، وغاية المرام ص٢٠٣، ورفع الشبهة والغرر ص٣٩، ونتائج الأفكار ١/٧٧.

(٦) أي: أجسام وصور ورسوم تجري عليهم أحكام القدرة؛ لكونهم في قبضتها.

عَلَيهِم أَحْكَامُ القُدْرةِ» القَدِيمَةُ، أي: أَفْعَالُهُم مَخْلُوقَةٌ للهِ ـ تعالىٰ ـ؛ إذْ لا خَلْقَ لِغَيْرِهِ[١].

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [١/١١١أ][٢]: «وَقَالَ الواسطِيُّ[٣]: لَمَّا كَانَتِ الأَرْوَاحُ وَالأَجْسَادُ قَامَتَا بِاللهِ، وَظَهَرَتَا بِهِ لَا بِذَوَاتِهَا، كَذَلِكَ قَامَتِ الخَطَرَاتُ[٤] والحَرَكَاتُ بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ لا بِذَوَاتِهَا؛ إِذِ الحَرَكَاتُ وَالخَطَرَاتُ فُرُوعُ الأَجْسَادِ والأَرْوَاحِ[٥]، صَرَّحَ بِهَذَا الكَلامِ أَنَّ أَكسابَ العِبَادِ[٦] مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ ـ تعالىٰ ـ، وكَمَا أَنَّهُ لا خَالِقَ للجَوَاهِرِ إِلَّا اللهُ، فَكَذَلِكَ لَا خَالِقَ لِلأَعْرَاضِ إِلَّا اللهُ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هذا الكلامُ فيه إشارةٌ إلىٰ الرَّدِّ علىٰ القَائلين بالحُلُولِ، فإنَّ الأرواحَ والخَوَاطرَ الكَائِنَةَ في القُلُوبِ كُلَّهَا حادِثَةٌ، والمعَانِي الَّتي يكونُ بها الإدراكُ والفهمُ عنِ الله ـ تعالىٰ ـ كلُّها حادثةٌ، فإنَّ مِنَ النَّاسِ مَن يَزْعُمُ أنَّ الأسرارَ قديمةٌ، والقائلون بالحُلُولِ يُصرِّحُونَ بِقِدَمِ الأَرْوَاحِ.

فقولُهُ: (لمَّا كانَتِ الأرواحُ والأجسادُ قامتَا بالله)، أي: وُجِدَتَا بِقُدْرَةِ اللهِ، فكذلِكَ الخطَراتُ والحَرَكَاتُ وُجِدَتَا باللهِ، فَإِنَّ[٧] الحَرَكَاتِ تَابِعَةٌ للأجسَادِ، وهي الأَعْرَاضُ، والخَوَاطِرُ تَابِعَةٌ للأَرواحِ، فَصَرَّحَ كَلامُهُ هذا بحَدثِ الجميعِ[٨].

---

(١) انظر: إحكام الدلالة ١/٥٢.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٥.

(٣) ورد قوله في: ألف باء للبلوي ١/٢٢٤، وميزان العقائد الشعرانية ص١٤٢.

(٤) أي: كل ما يخطر للنفس.

(٥) أي: تتفرع عنهما، وتتحقق بواسطتهما.

(٦) أي: أفعالهم البدنية والقلبية معًا.

(٧) في (ج): وإن.

(٨) أفاد الشيخ زكريا ذلك في: إحكام الدلالة ١/٥٢.

قَالَ الإِمَامُ[(١)] رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[(٢)]: «سَمِعْتُ الشَّيخَ أبا عَبْد الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْد اللهِ يَقُولُ: سمعتُ أبا جَعْفَرٍ الصَّيدَلانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أبَا سَعِيد الخَرَّازَ يَقُولُ[(٣)]: مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ بِبَذْلِ الجُهْدِ يَصِلُ! فَمُتَعَنٍّ[(٤)]، ومَنْ ظنَّ أَنَّهُ بِغيرِ الجُهْدِ يَصِلُ! فَمُتَمَنٍّ[(٥)].

وَقَالَ الوَاسِطِيُّ[(٦)]: أقسَامٌ قُسِّمَتْ[(٧)]، ونُعُوتٌ أُجْرِيَتْ، كَيْفَ تُستَجلبُ بحَرَكَاتٍ؟ أَوْ تُنَالُ بِسَعَاياتٍ؟!».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: في كَلامِ أَبِي سعيدٍ الخَرَّاز إِشارةٌ إلىٰ إثباتِ الكَسْبِ لِلعَبيدِ[(٨)]، والتَّبَرُّئِ منَ الحَوْلِ والقُوَّةِ بغيرِ اللهِ، فمَنْ ظنَّ أنَّهُ بِبَذْلِ الجُهْدِ يَصِلُ غَافِلٌ عن عَونِ اللهِ وقُوَّتِهِ، وَمُتَعَنٍّ، يَعْنِي أَنَّهُ مَتْعُوبٌ ولا يَصِلُ إلىٰ مَطْلُوبٍ، ومَنْ ظَنَّ أَنَّهُ بغيرِ الجَهْدِ يَصِلُ ـ يعنِي: الجهدَ في الأوامرِ والمَنَاهِي ـ فَمُتَمَنٍّ، تَرَكَ مَا أَمَرَهُ اللهُ واغْتَرَّ برحمةِ اللهِ وعَفْوِهِ، ولكنْ علىٰ العَبْدِ أَنْ يجتهدَ فيمَا أَمَرَهُ بهِ ونَهَاهُ، وَيَتَّكِلُ علىٰ عَونِهِ وفَضْلِهِ في جَمِيعِ مَا يَتَعاطَاهُ[(٩)].

وأَمَّا كَلامُ الواسطيِّ رَحِمَهُٱللَّهُ: ففيه إشارةٌ إلىٰ الرَّدِّ علىٰ القَدَرِيَّةِ[(١٠)] والتفاتٌ

(١) في (ج): الإمام القشيري.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٥ ـ ٢٦.

(٣) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٤/٢٧٦، وتاريخ دمشق ٥/١٣٣، وصفة الصفوة ٢/٤٣٥.

(٤) أي: متعب نفسه، ولا يصل إليه بذلك.

(٥) أي: مغترر.

(٦) ورد قوله في: شرح عقيدة الغزالي للشيخ زروق ص١٤٤، وميزان العقائد الشعرانية ص١٤٣.

(٧) أي: قدرت بتقدير الفاعل الحق.

(٨) في (ب): للعبد. وانظر: مفاتيح الغيب ٢٧/٤٢، وغاية المرام ١/٢٢١.

(٩) وفاقًا لما في صحيح مسلم ٤/٢٠٥٢ ـ حديث رقم (٢٦٦٤): «... احْرِصْ علىٰ ما يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ...».

(١٠) في قولهم: إن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية، كما سبق. وانظر: المغني للقاضي عبد الجبار=

إلىٰ السَّوابقِ، فإنَّه لا يجرِي علىٰ العَبيدِ في جميعِ الملكِ إلَّا ما سبقَ فِي إرادةِ اللهِ وقَدَرِهِ، ولكنْ نُذَيِّلُ[١] كَلامَهُ بما نُخلِّصُهُ من مَذْهَبِ الجَبْرِ[٢]؛ وهو أنَّ الحركاتِ والسَّعاياتِ في الطَّاعاتِ قد جعلَهَا اللهُ أسبابَ النَّجاةِ، ويكونُ الفلاحُ مشروطًا بجريانِهَا[٣]، وسبقَ فِي إرادةِ اللهِ وعِلْمِهِ [١/١١ب] أنَّ فَلاحَ العَبْدِ وَسَعادَتَهُ مَشْرُوطٌ بهذه الحَرَكاتِ والطَّاعاتِ، ولا بُدَّ من جَرَيانِ السَّببِ والمُسبَّبِ جميعًا وقد ترتبَتْ عليهَا ونيلَتْ بهَا، لا مِن حيثُ العَبْدُ بَلْ مِنْ حَيْثُ تَرتِيبُ الرَّبِّ وقَدَرِهِ، فهذا هو إثباتُ الكَسْبِ والتَّبرئ مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ، والتَّحَلِّي والتَّخَلِّي[٤].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٥]: **«وَسُئِلَ الوَاسِطيُّ[٦] عَنِ الكُفْرِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ أَوْ لِلَّهِ؟ فَقَالَ: الكُفْرُ والإيمَانُ والدُّنيَا والآخِرَةُ مِنَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وإلىٰ اللهِ، وباللهِ، وَلِلَّهِ؛ مِنَ اللهِ ابتِدَاءً وإنشَاءً، وإلىٰ اللهِ مَرْجِعًا وانتِهَاءً، وباللهِ بَقَاءً وفَنَاءً، وَلِلَّهِ مُلْكًا وخَلْقًا»**.

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ففي هذا الكَلامِ إشارةٌ إلىٰ الرَّدِّ علىٰ المَعْتزلةِ[٧] في خُرُوجِ بعضِ الأفعالِ عن قُدْرَةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ علىٰ زَعْمِهِم، ـ تعالىٰ اللهُ عن ذلكَ ـ كالكُفْرِ والشَّرِّ[٨] والظُّلمِ علىٰ زَعْمِهِم[٩].

= ٣/٨، وشرح الأصول الخمسة ص٣٢٣، والانتصار في الرد علىٰ المعتزلة القدرية ١/١٦٨، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٤٩٣.

(١) في (ب): تنزل.

(٢) في (ب): الخبر، وهو تصحيف.

(٣) أفاد ذلك الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٣.

(٤) أي: التخلي من الرذائل، والتحلي بالفضائل. انظر: مدارج السالكين ٢/٣٠٧. وانظر في تعريف المصطلحين: الإبانة لابن فورك ص٣٤٩.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٦.

(٦) ورد في: الزاهر لابن فرحون ص٢٧، وميزان العقائد الشعرانية ص١٤٣.

(٧) في قولهم: إن بعض أفعال العبد كالكفر والشَّر خارج عن قدرته عَزَّوَجَلَّ، كما سبق.

(٨) في (ج): والشرك.

(٩) انظر: الإبانة ص٢٣، وتمهيد الأوائل ص٣٤٢، وقواعد العقائد ص١٩٣.

فسُئِلَ عنِ الكفرِ والإيمانِ: هَلْ هُمَا منَ اللهِ؟ فقالَ: هُمَا[١] «**منَ اللهِ**» خَلْقًا وإنشاءً، أي: هوَ خالقُهُمَا ومُنْشِئُهُمَا، و«**إلىٰ اللهِ**» يومَ القيامةِ يُطَالِبُ بهما ويَسْأَلُ عنهمَا، «**وباللهِ**» تَصْرِيحٌ بأنَّ العَبْدَ لا يَقْدِرُ علىٰ كُفْرٍ ولا إِيمَانٍ إلَّا بِعَونِ اللهِ[٢]، «**وللهِ**» طاعَةٌ من المُطِيعِينَ وكُفْرٌ وعِصْيَانٌ منَ الكافرينَ، فبهذَا الاعتبارِ كانَا «**منَ اللهِ، وإلىٰ اللهِ، وباللهِ، وللهِ**».

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ الجُنَيدُ[٤]: سُئِلَ بَعْضُ العُلَمَاءِ عَنِ التَّوحِيْدِ؟ فَقَالَ: هُوَ اليَقِينُ، فَقَالَ السَّائِلُ: بَيِّنْ لي مَا هُوَ؟ فَقَالَ: هُوَ مَعْرِفَتُكَ أَنَّ حَرَكَاتِ الخَلْقِ وَسُكُونَهُم فِعْلُ اللهِ[٥] ـ تعالىٰ ـ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِذَا عرفتَ[٦] ذَلِكَ فَقَدْ وَحَّدْتَهُ[٧]**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ لمَّا سُئِلَ عنِ التَّوحيدِ: «**هو اليقينُ**»، أي: أنْ يُوقنَ بأنَّ اللهَ واحدٌ لا شَبيهَ لهُ، ولا شَرِيكَ لَهُ مُطْلَقًا؛ لا فِي ذاتِهِ ولا في صِفَاتِهِ ولا فِي أَفْعَالِهِ، فَلَمَّا لَمْ يَفْهَمِ السَّائِلُ ذلكَ نَزَلَ له قليلًا إلىٰ الأفعالِ خاصَّةً، قالَ لهُ: «**أنْ تَعْلَمَ أنَّ حَرَكَاتِ الخَلْقِ وسُكُونَهُم فِعْلُ للهِ ـ تعالىٰ ـ**»، فكلَّمَهُ علىٰ حسبِ فهْمِهِ خَاصَّةً، وخاطبَهُ بالأفعالِ، وسَكَتَ عنِ الذَّاتِ والصِّفَاتِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٨]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ**

---

(١) كررت في (أ، ج) عبارة: «(هُمَا مِنَ الله وإلىٰ اللهِ وبالله ولله)؛ قالَ:»، وهي زيادة لا طائل تحتها.

(٢) انظر: إحكام الدلالة ١/٥٤.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٦.

(٤) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٥٦، وألف باء للبلوي ١/٢٢٤.

(٥) في (ج): فعل لله.

(٦) في الرسالة القشيرية: فعلت.

(٧) في (ب): وجدته.

(٨) الرسالة القشيرية ١/٢٦.

عَبْدَ الوَاحِدِ بن عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ القَاسِمَ بْنَ القَاسِمِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بن مُوسَي الوَاسِطِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ الحُسَيْنِ الجَوْهَرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ [١٢/١أ] المصرِيَّ يَقُولُ(١): وجاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: ادعُ اللهَ لِي، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ قَدْ أُيِّدتَ فِي عِلْمِ الغَيْبِ بِصِدْقِ التَّوْحِيدِ، فَكَمْ مِنْ دَعْوَةٍ مُستجابةٍ(٢) قَدْ سَبَقَتْ لَك، وإلَّا فَإِنَّ النِّداءَ لا يُنقِذُ الغَرْقَى!».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أَحَدُهُمَا: أنَّ الشَّيخَ غلبَ علىٰ قلبهِ في هذا الوقتِ النَّظَرُ إلىٰ السَّوابقِ، وكلَّمَ هذا الشَّخصَ بِمَا غَلَبَ عليه، مع مَعْرِفَتِهِ بِأنَّ الدُّعاءَ مطلُوبٌ مَحْثُوثٌ عليه، ولا سيِّمَا ممَّنْ يظنُّ به الخَيْر وتُرْجَىٰ بَرَكَةُ دُعَائِهِ(٣).

الوَجْهُ الثَّانِي: أنْ يكونَ هذا السَّائِلُ ممَّنْ يميلُ إلىٰ القَدَرِ(٤) ويَبْنِي علىٰ الأسبابِ(٥)، فأجابَهُ الشَّيخُ: بأنَّكَ إنْ كُنْتَ مِنَ المَخْصُوصِينَ في عِلْمِ اللهِ - تعالىٰ - وسَابقِ قَدَرِهِ بدرجةِ المُوحِّدينَ ونَيْلِهَا فكَمْ من دعوةٍ مستجابةٍ لكَ مِنَ الأنبياءِ والصَّالحينَ الَّذينَ يدعونَ لسائرِ المُؤمنينَ والمُؤمناتِ، فأرادَ أَنْ يَحُضَّهُ علىٰ معرفةِ الحقِّ وتَحْصِيلِ دَرَجَةِ المُوحِّدِينَ(٦).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٧): «وَقَالَ الوَاسِطِيُّ(٨): ادَّعَى فِرْعَونُ الرُّبُوبِيَّةَ عَلَى

---

(١) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٤٠٦/١٧.

(٢) في (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع: مجابة، وكل صواب.

(٣) في (ب): الدعائه، والصواب المثبت.

(٤) أي: إلىٰ حُكمه.

(٥) أي: يعتمدها بظاهر الحال.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥٤/١.

(٧) الرسالة القشيرية ٢٦/١.

(٨) ورد قوله في: نفح الطيب ٢٩٣/٥، وميزان العقائد الشعرانية ص١٤٣.

الكَشْفِ، وَادَّعَتِ المُعْتَزِلَةُ عَلَىٰ السَّتْرِ، تَقُولُ: مَا شِئْتَ فَعَلتَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ذمٌّ عظيمٌ لمذهبِ القدريَّةِ حتَّىٰ ساوىٰ بينَهُم وبينَ فرعونَ في الكُفْرِ، فإنَّ كلَّ مَنِ ادَّعىٰ الرُّبوبيَّةَ فهو كافرٌ، إلَّا أنَّ فرعونَ صرَّحَ بذلكَ فقالَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، والقدريَّةَ قالوا: نفعلُ ما نَشَاءُ، فَسَتَرُوا دَعْوَاهُم الرُّبُوبيَّةَ بأفعَالِهِم، فإنَّهُ لا يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ إلَّا اللهُ، ولهذَا قِيلَ: «القَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ»(١)، فإنَّهُم لم يَرْجِعُوا إلىٰ دينٍ(٢)، فإنَّ الرَّبَّ هو المَعْبُودُ لا العِبَادُ، والمَالِكُ لا المَمْلُوكُ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): **«وَقَالَ أَبُو الحُسَيْنِ النُّورِيُّ: التَّوْحِيدُ كُلُّ خَاطِرٍ يُشِيرُ إِلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بَعْدَ أَلَّا تُمَازِجَهُ(٤) خَوَاطِرُ التَّشْبِيهِ».**

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ التَّوحيدَ تارةً يطلقُ علىٰ عِلْمِ المُوحِّدِ بالوحدانيَّةِ، وتارةً يُطْلَقُ علىٰ نُطقِهِ بالوحَدانيَّةِ، وتارةً يطلقُ علىٰ حالِهِ وإفرادِهِ الحقَّ بكلِّ ما هو فيهِ، وإضافتهِ لهُ، وهذا هو توحيدُ الصُّوفيَّةِ، وربَّمَا تبرَّأوا مِنْ هذا التَّوحيدِ ومنْ إضافتِهِ إلىٰ كسبِهِم ونفيِ استشعارِهِم وإضافتِهِم إيَّاهُ لمالِكِهِ(٥)، وبهذا الاعتبارِ قالَ: «**كلُّ خاطرٍ يشيرُ إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ**»، يعني: مفردًا لا يُزَاحِمُهُ غيرُهُ؛ لا تَشْبِيهٌ ولا غَيْرُهُ.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٤/٢٢٢، والبيهقي في سننه الكبرىٰ ١٠/٢٠٣، والطبراني في المعجم الأوسط ٣/٦٥.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٥، ثم أعقبه بقوله: «لكن لا يحكم بكفرهم عند المحققين؛ لأنهم لم يثبتوا شريكا في الألوهية بمعنىٰ وجوب الوجود، كالمجوس...».

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٦.

(٤) في (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع، وإحكام الدلالة ١/٥٥: تزاحمَهُ.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٥.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [١/١٢ب][١]: «أخبرَنا الشَّيخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَميُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: سمعتُ عَبْدَ الوَاحِدِ بنَ بَكْرٍ يَقُولُ: سمعتُ هلالَ بْنَ أَحْمَدَ يَقُولُ: سُئِلَ أَبُو عَلِيٍّ الرُّوذباريُّ عَنِ التَّوحيدِ فَقَالَ[٢]: التَّوحيدُ استقامةُ القَلْبِ بإثباتِ مُفَارَقةِ التَّعطيلِ وإنكارِ التَّشبيهِ، والتَّوحيدِ فِي كلمةٍ واحدةٍ: كُلُّ مَا صوَّرتْهُ[٣] الأوهامُ والأفكارُ فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخلافِهِ؛ لقولِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «استقامةُ القلبِ» في إثباتِ[٤] الرَّبِّ ـ تعالىٰ ـ بصفاتِهِ، مُفارقًا للتَّشبيهِ والتَّعطيلِ، فالمُشبِّهةُ كَفَرُوا، والمُعَطِّلَةُ جَحَدُوا.

وقولُهُ: «والتَّوحيدُ في كلمةٍ واحدةٍ[٥]»؛ وَهُو نَفْيُ ما صَوَّرتْهُ الأوهامُ، أو تخيَّلَتْهُ الأفكارُ، فاللهُ ـ سبحانه ـ بخلافِهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «وَقَالَ أَبُو القاسمِ النَّصرَاباذِيُّ[٧]: الجَنَّةُ باقيةٌ بإبقائِهِ، وَذِكْرُهُ لَكَ [ورحمتُهُ][٨] وَمَحَبَّتُهُ لَك باقيةٌ بِبَقَائِهِ، فشتَّانَ بَيْنَ مَا هُوَ باقٍ ببقائِهِ، وبينَ مَا هُوَ باقٍ بإبقائِهِ.

وَهَذَا الَّذِي قالَهُ الشَّيخُ أَبُو القاسمِ النَّصراباذيُّ غايةُ التَّحقيقِ، فَإِنَّ أهلَ الحَقِّ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٧.
(٢) ورد قوله في: روض الرياحين ص٤٢٠، وميزان العقائد الشعرانية ص١٤٣.
(٣) في الرسالة القشيرية: صوَّرَه.
(٤) في (ب): ثبات.
(٥) مراده: أن ما تضمنته هذه الجملة يفيد التوحيد الإجمالي، فالكلمة يريد بها الجملة. انظر: نتائج الأفكار ١/٨٢.
(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٧.
(٧) ورد قوله في: روض الرياحين ص٤٢٠، والفتاوىٰ الحديثة لابن حجر الهيتمي ص٥٤٦.
(٨) زيادة من (ب، ج، ف).

قَالُوا: صِفَاتُ [ذات][1] القَدِيمِ - سبحانه - باقيةٌ ببقائِهِ - تعالىٰ -[2]، فنبَّهَ عَلَىٰ هذهِ المسألةِ، وبيَّنَ أَنَّ البَاقِي باقٍ بِبَقَائِهِ[3]، خِلافُ مَا قالَهُ مُخَالِفُو[4] الحقِّ[5]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وفائدةُ هذه المسألةِ أنَّ العبدَ يُرقِّي هِمَّتَهُ ويكونُ مشغولًا بِنَيْلِ مَحبَّةِ الله - تعالىٰ -، وذكْرِهِ لهُ، وشَرفِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ، دُونَ مَا يَخْلُقُهُ فيهِ مِنْ أَفْعَالِهِ مِنْ كَرَامَاتِهِ ونَيْلِ عَوَافِيهِ ودرجاتِهِ في دنياهُ وآخرتِهِ من نعيمِهِ في جنَّتِهِ، فقالَ أهلَ الجنَّةِ وما فيها، والدُّنيا وما فيها: ما بقِي منهُمَا[6] فإنَّمَا بقيَ بإبقائِهِ؛ وهو أثرُ قدرتِهِ ومحبَّتِهِ وذكرِهِ لكَ[7].

«ورحمتُهُ» هيَ صفاتُهُ القديمةُ الَّتِي لم تزَلْ، فشتَّانَ بينَ مَنْ علَّقَ قلبَهُ بصفاتِهِ، وبينَ مَنْ علَّقَ قلبَهُ بأفعالِهِ! ، فأرادَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللهُ نقلَهُ منَ الوقُوفِ علىٰ الأفعالِ إلىٰ كَمَالِ الصِّفَاتِ والذَّاتِ وكَمَالِ الاشتِغَالِ[8]، وهاهُنَا بحثٌ كَلامِيٌّ في الصِّفاتِ، وهَلْ هيَ باقيةٌ لأنفسِهَا أو ببقاءٍ[9] لا يليقُ بِهَذا الموضعِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[10]: **«أخبرَنَا مُحَمَّدُ بنُ الحُسَيْنِ قَالَ: سَمِعْتُ**

---

(١) زيادة من (ف).

(٢) في الرسالة القشرية: «صفات ذَات القديم - سبحانه - باقيات».

(٣) في (ب، ج): ببقاءٍ.

(٤) في (أ، ج): مخالف، وفي الرسالة القشيرية: «مخالفو أهل»، وأشير إليه في حاشية الأصل بأنه في نسخة كذلك.

(٥) من أنه لا يبقىٰ شيء ببقائه؛ لئلا يلزم تعدد القدماء. انظر: إحكام الدلالة ١/٥٦.

(٦) في (ب): منها.

(٧) انظر: نتائج الأفكار القدسية ١/٨٢.

(٨) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٦.

(٩) انظر: مقالات الإسلاميين ص٣٦٨، وتمهيد الأوائل ص٢٩٩، وشرح المقاصد في علم الكلام ٢/٧٨.

(١٠) الرسالة القشيرية ١/٢٧.

النَّصراباذِيَّ يقُولُ[١]: أَنْتَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ صِفَاتِ الفِعْلِ وصِفَاتِ الذَّاتِ[٢]، وكِلَاهُمَا صِفَتُهُ[٣] ـ تعالىٰ ـ عَلَىٰ الحقيقةِ، فَإِذَا هَيَّمَكَ فِي مَقَامِ التَّفرقةِ قَرَنَكَ بِصِفَاتِ فِعْلِهِ، وإذا بَلَّغَكَ إِلَىٰ مَقَامِ الجَمْعِ [١٣/١أ] **قَرَنَكَ بِصِفَاتِ ذَاتِهِ، وأبو القاسمِ النَّصراباذيُّ شيخُ وقْتِهِ».**

※ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مرادُهُ هاهُنَا بـ«**الصِّفاتِ**»: الأسماءُ، والعبدُ تارةً يذكرُ اللهَ ـ تعالىٰ ـ بأسماءِ ذاتِهِ؛ من جلالِهِ وكمالِهِ وقِدَمِهِ وبقائِهِ، فإذَا كانَ مُتَفَكِّرًا فيمَا يذكرُهُ فيه في صِفَاتِ ذاتِهِ ـ تعالىٰ ـ، فهو مَقْرُونٌ بصِفَاتِ ذَاتِه، أي: ثَابِتٌ مجموعُ القَلْبِ عليها، وإذا ذكرَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ بكونِهِ خَالقًا رَازقًا مُنْعِمًا مُتَفَضِّلًا قَرَنهُ بالأسماءِ الَّتي تَدُلُّ علىٰ أفعالِهِ وهي مُتَّسعةٌ، وقد بَعَّدَ قَلْبَهُ بالفِكْرَةِ فِي الأفعالِ عن الفِكْرَةِ فِي الذَّاتِ والصِّفاتِ؛ فلذلكَ قال: «**هيَّمكَ**»، أي: فرَّقَ قلبَكَ وهُمُومَكَ، وكلُّ ما أنتَ فيه فضلُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ عليكَ وإحسانُهُ إليكَ، ولكنْ فَرْقٌ مَا بَيْنَ مَجْمُوعِ القَلْبِ مَعَ الحقِّ، وبينَ مُفَرّقِ البَالِ فِي تَفَاصِيلِ الخَلْقِ[٤].

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: **«سَمِعْتُ الأُستاذَ الإِمَامَ أبا إِسْحَاقَ الإِسْفِرَايِنِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ[٦]: لمَّا قدمتُ من (بغدادَ) كنتُ أدرِّسُ فِي (جامعِ نيسابور) مسألةَ الروحِ، وأشرحُ القولَ فِي أنَّهَا مخلوقةٌ، وَكَانَ أَبُو القاسمِ النَّصرآباذيُّ قاعدًا متباعدًا[٧]**

(١) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٧/١٠٨، ومختصره ٤/١٠٧، والمقفى الكبير ١/١٧٤.

(٢) في نتائج الأفكار ١/٨٣: «الفرق بينهما: أن صفات الذات القديمة عند الأشاعرة ما قام بالذات، أو اشتق من معنىٰ قائم بها، كالعلم وعالم، وصفات الأفعال الحادثة عندهم ما اشتق من معنىٰ خارج عن الذات، كخالق ورازق».

(٣) في (ب): صفة.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٦.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٧.

(٦) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٧/١٠٧.

(٧) في (ب): مباعدًا.

عنَّا يصغِي إِلَى كَلامِي، فاجتازَ بنا بَعْدَ ذَلِكَ يومًا[١] بأيَّامٍ قلائلَ، فَقَالَ: لمحمَّدٍ الفرَّاءِ: إشْهَدْ أنِّي أَسْلَمْتُ جديدًا عَلَىٰ يدِ هَذَا الرَّجلِ، وأشارَ إليَّ».

❊ **قالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وظاهرُ هذا الكلامِ يدلُّ علىٰ أنَّ النَّصراباذيَّ كان يعتقدُ قِدَمَ الرُّوحِ[٢]، فلمَّا سمعَ الأدلَّةَ علىٰ حَدثِهَا صرَّحَ بأنَّهُ أسلمَ علىٰ يدِ هذا الرَّجلِ.

ويحتملُ وجهًا آخرَ؛ وهوَ أنَّهُ لم يكنْ يعتقدُ القِدَمَ وكانَ يعتقدُ الحَدثَ، ولكنَّهُ لم يطَّلعْ علىٰ وجهِ الدَّليلِ علىٰ ذلكَ، فلمَّا سمعَهُ من الإمامِ أبي إسحاق الإسفرايينِي انشرحَ صدرُهُ وانفسحَ للدَّليلِ، فعبَّرَ عنه بالإسلامِ؛ وهو كمالُ الاستسلامِ والانتقال منَ الاعتقادِ إلىٰ العِلْمِ.

وقد قالَ المُحاسِبيُّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في بعضِ أَجْوبتِهِ عن الرُّوحِ: وكَفَىٰ بالبدَنِ حدًّا، والباري منزَّهٌ عنِ التَّحديدِ.

وفي هذا إشارةٌ إلىٰ الرَّدِّ علىٰ مَنْ يَقُولُ بالحُلُولِ، تعالىٰ اللهُ عن ذلكَ عُلُوًّا كبيرًا.

۞ **قالَ الإمَـامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أبا الحُسَينِ الفارسِيَّ يَقُولُ: سَمِعتُ إِبْراهِيمَ بْنَ فاتكٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيدَ يَقُولُ[٤]: مَتَىٰ يتَّصلُ مَنْ لا شَبِيهَ لَهُ ولا نَظِيرَ بِمَنْ لَهُ شَبِيْهٌ ونَظِيْرٌ؟! ، هَيهَاتَ** [١/١٣ب] ، **هَذَا ظَنٌّ عجيبٌ، إِلَّا بِمَا لَطَفَ اللَّطِيفُ؛ مِنْ حيثُ لا دركَ ولا وهمَ ولا**

---

(١) في (ب): اليوم، وسقط هذا اللفظ من (ف).

(٢) انظر: التصوف للطوسي ص٥٥٤، والروح لابن القيم ص١٤٥، والرَّوح في علم الرُّوح للكافيجي ص٢٧٢ ـ بتحقيقي.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٧.

(٤) ورد قوله في: طبقات الشافعية الكبرىٰ ٩/٤٢، ٩/٨٧، والاستقامة ١/١٨٤.

إحاطةَ إلا إشارةُ اليَقِينِ وتَحْقِيقُ الإِيمانِ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا الكلامُ في إطلاقِهِم الوصولَ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فبيَّنَ مَعْنَاهُ وأَنَّ الوصُولَ ليسَ بالحِسِّ والقُرْبِ المَعْهُودِ، وإنَّمَا هو بِكَمَالِ[1] اليَقِينِ والمَعْرِفَةِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ، ودوامِ الذِّكرِ له، وقلَّةِ الغَفَلاتِ، ولهذا قالَ: «إلَّا منْ حيثُ لا دَركَ ولا وَهمَ» إلىٰ آخر كلامه[2]، فبيَّنَ مَعْنَىٰ الوصُولِ عِنْدَ القَومِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «وأخبرَنا مُحَمَّدُ بنُ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: سمعتُ عَبْدَ الوَاحِدِ بنَ بَكرٍ يَقُولُ: حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْن عَلِيِّ البَرْدَعِيُّ، قَالَ: حدَّثنا طاهرُ بْن إِسْمَاعِيل الرَّازي، قَالَ: قيلَ ليحيىٰ بنِ معاذٍ[4]: أخبِرْنا عَنِ اللَّه عَزَّوَجَلَّ؟ فَقَالَ: إلهٌ وَاحِدٌ، فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ هُوَ؟ فَقَالَ: ملكٌ قادرٌ، فقالَ: أينَ هُوَ؟ فَقَالَ: بالمِرصَادِ، فَقَالَ السَّائلُ: لَمْ أسألْكَ عَن هَذَا!، فَقَالَ: مَا كَانَ غَيْرَ هَذَا كَانَ من صفةِ المَخْلُوقِ، فأمَّا صفتُهُ[5] فَمَا أخبرتُكَ عَنْهُ.

وأخبرَنا مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ قَالَ: سمعتُ أبا بَكْرٍ الرَّازي يَقُولُ: سمعتُ أبا عَلِيٍّ الرُّوْذبارِيَّ يَقُولُ[6]: كُلُّ مَا توهَّمَ مُتَوهِّمٌ بالجَهْلِ أَنَّهُ ـ تعالىٰ ـ كَذَلِكَ، فالعَقْلُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ بِخِلافِهِ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا السَّائلُ الَّذي سأَلَ ابنَ معاذٍ قد يكونُ ممَّنْ يعتقدُ

---

(١) في (ج): كمال.

(٢) في (ب): الكلام. وانظر: إحكام الدلالة ١/٥٨.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٨.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية للسلمي ١٠٢، وحلية الأولياء ١٠/٦٠، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٩/٤٢.

(٥) أي: الخالق.

(٦) ورد قوله في: الاستقامة ١/١٨٧.

الجِسْمِيَّةَ والجِهَةَ، فسأَلَهُ على وجهِ الامتحانِ لم ينكرْ عليهِ سؤالَهُ! ، فردَّهُ بِوَاضحِ الاستدلالِ، فسأَله عنهُ ـ تعالىٰ ـ، فأجابَهُ بأَنَّهُ إلهٌ واحدٌ.

ثُمَّ سَأَلَهُ عن الكيفيَّةِ المستحيلةِ عليه ـ تعالىٰ ـ، فأجابَهُ بصفاتِهِ وجلالِهِ؛ وهو أنَّهُ ملكٌ قادرٌ.

ثُمَّ سَأَلَهُ عن المكانِ المنزَّهِ عنهُ؛ لأنَّهُ ـ تعالىٰ ـ كانَ ولا مَكَانَ، فأجابَهُ بأنَّهُ ـ تعالىٰ ـ بالمِرْصَادِ؛ لأنَّهُ ـ تعالىٰ ـ وصفَ نفسَهُ بذلكَ؛ يعنِي يومَ القيامةِ، فقالَ: ما سَألتُكَ عن هَذَا، فأجابَهُ بأنَّ هذه صِفَةُ مَنْ سَألتَ عنهُ، وأمَّا غيرُ ذلك فهي صفةُ المَخْلُوقِ لا الخَالقِ، وإلىٰ نحوِ هذا الجوابِ، والسُّؤالِ ما صدرَ من فرعونَ لمُوسَىٰ لمَّا قالَ له: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، فأجابَهُ بأفعالِهِ الدَّالَّةِ عليه، فسألَهُ عنِ الماهيَّةِ، فأجابَهُ بالأفعالِ الَّتي تدلُّ علىٰ ثبوتِهَا ووجودِهَا[١].

وإلىٰ هذا يرجعُ قولُ الرُّوذباريِّ: «**كلُّ ما توهَّمَهُ مُتوهِّمٌ**[٢] **بالجهلِ فاللهُ بخلافِهِ**»، فإنَّ المتوهِّمَ الجاهلَ إنَّما يتوهَّمُ الأجسامَ المعهودةَ ذواتِ الأحيازِ والتَّقديراتِ، والحقُّ ـ سبحانه ـ بخلافِ ذلكَ [١/١٤أ].

قَالَ الإمامُ القشيريُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «**وسأَلَ ابْنُ شاهينَ**[٤] **الجُنَيدَ عَن معنىٰ (مَعَ)؟ فَقَالَ**[٥]: **(مَعَ) علىٰ معنيَينِ: مَعَ الأنبياءِ بالنُّصرَةِ والكِلَاءَةِ، قَالَ اللَّه ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾** [طه: ٤٦]**، ومع العامَّةِ بالعلمِ والإحاطةِ، قَالَ اللَّه ـ تعالىٰ ـ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾** [المجادلة: ٧]**، فَقَالَ ابْنُ**

---

(١) انظر: إحكام الدلالة ١/٥٨.

(٢) أي: تخيله.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٨.

(٤) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن شاهين، كما في: إحكام الدلالة ١/٨٦.

(٥) ورد قوله في: روض الرياحين ص٤١٨، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٩/٤٢، وفيض القدير ٢/٩٩.

شاهين: **مِثْلُكَ يصلحُ أَنْ يَكُونَ دالًّا للأُمَّةِ عَلَىٰ اللهِ!».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا تفصيلُ ما يدلُّ عليه لفظُ المعيَّةِ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بالنِّسبةِ إلىٰ الخلقِ، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقالَ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وقالَ: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]، فهو معَ الكلِّ بالعلمِ والإحاطةِ.

واختصَّ منهم الأولياءَ بالحفظِ والعنايةِ، تولَّىٰ نصرَهُم ومعونَتَهُم علىٰ طاعتِهِ. واختصَّ الأنبياءَ بالنَّصرِ والكِلاءَةِ.

فخرجَ من مجموعِ ذلك أنَّ المعيَّةَ بمعنىٰ المُجاورةِ والمُقاربةِ[١]، والمُداناة في وصفهِ محالٌ؛ لتعدُّدِ مَعانيها[٢].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«وسُئِلَ ذو النُّونِ المِصْرِيُّ عَن قَوْلِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾** [طه: ٥]، **فَقَالَ[٤]: أثبتَ ذاتَهُ ونَفَىٰ مَكانَهُ، فَهُوَ مَوجُودٌ بِذاتِهِ، والأشياءُ مَوجُودةٌ بِحُكْمِهِ كَما شاءَ[٥]».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: للفظِ (اسْتَوىٰ) مَحامِلُ عَديدَةٌ؛ منها: ما تجوزُ نسبتُهُ إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ، ومنهَا: ما يستحيلُ عليهِ، يقالُ: استوىٰ بِمَعْنَي: جَلَسَ، واستَوىٰ بِمَعْنَىٰ: اعتدَلَ، واستوىٰ بمعنىٰ: قهرَ، واستوىٰ بمعنىٰ: عَلَا، واستوىٰ بمعنىٰ:

---

(١) في (ب): والمقارنة.

(٢) انظر: إحكام الدلالة ١/٥٩.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٨ ـ ٢٩.

(٤) ورد قوله في: ألف باء للبلوي ١/٢١٨، والنصائح للشيخ زروق ٢/٣٤٦.

(٥) لأنها مفتقرة إليه.

قَصَدَ[(١)].

فالقسمانِ الأوَّلانِ بمعنىٰ: الاستقرار؛ منَ الاستواءِ والاعتدالِ عنِ الاعوجاجِ مُحَالانِ في حقِّ الله ـ تعالىٰ ـ، فإنَّهُمَا من صِفَاتِ الأَجْسَامِ[(٢)].

وأمَّا (قصدَ) كَمَا قَالَ ـ تعالىٰ ـ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ١١]، أي: قصدَ إلىٰ فِعْلِ أمرٍ فيها[(٣)]، و(استوىٰ) بمعنىٰ: عَلَا وَتَنَزَّهَ، كما قالَهُ مجاهدٌ[(٤)].

واستوىٰ بمعنىٰ: استولىٰ وقهرَ[(٥)]، كما قيلَ[(٦)]:

... اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَىٰ العِرَاقِ ... ...

هذا ممَّا يصحُّ نسبتُهُ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ.

فَمِنَ العلماءِ مَنْ ينفِي أنْ يكونَ المرادُ بلفظِ ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] مَا لا يليقُ بجلالِ الله ـ تعالىٰ ـ، ويمسكُ عن تعيينِ المرادِ بالآيةِ[(٧)]، فإنَّ ذلكَ

---

(١) انظر في ذلك: جلاء الشبه للمفضل بن سلمة ص٩٢، والاختلاف في اللفظ والرد علىٰ الجهمية والمشبهة ص٥٠، ونجم المهتدي ٢/٣٧٥ ـ ٣٧٩، والمواقف ٣/١٤٤.

(٢) انظر: إحكام الدلالة ١/٦٠.

(٣) انظر: الحجة في بيان المحجة ٢/٢٧٤.

(٤) كما في صحيح البخاري ٦/٢٦٩٨ ـ حديث رقم (٦٩٨١).

(٥) انظر: المقالات للبلخي ص٢٤٥، والفصل في الملل ٢/٩٧، وقواعد العقائد ص١٦٧، ونجم المهتدي ٢/٣٧٧.

(٦) من الرجز، وتمامه: قد استوىٰ...، وبعده: مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ
ونسب للأخطل في: الصحاح ٦/٢٣٨٥، واللسان «سوا»، والتاج «س وو».

(٧) هو مذهب السلف الأوائل، وهو نوع من أنواع التأويل، لكنه يُسَمَّىٰ بالتأويل الإجمالي؛ وهو صرف اللفظ عن ظاهره الموهم للتشبيه مع عدم تعين المعنىٰ المراد، ويسمىٰ أحيانا بالتفويض؛ لأن فيه عدم تعين المعنىٰ المراد وتفويض العلم فيه ـ أي بمعناه المراد ـ لله عَزَّوَجَلَّ.
انظر: شرح جوهرة التوحيد للقاني ١٠٣، وأبكار الأفكار ١/٤٦١.

هو المَحْذُورُ أنْ يعتقدَ العبدُ فِي اللهِ ـ تعالىٰ ـ ما لا يصحُّ نسبتُهُ، والتَّعيينُ لا تَدْعُو إليهِ حَاجَةٌ دينيَّةٌ [١/١٤ب].

ومِنَ العلماءِ مَنِ اختارَ التَّعيينَ بما يَجُوزُ وصفُهُ به[١]؛ لإزالةِ اللَّبسِ في السُّكُوتِ عنِ الجَوابِ؛ فاختارَ سفيانُ الثَّوريُّ: قصدَ[٢]، واختارَ مجاهدٌ: عَلا وتنزَّهَ، واختارَ جماعةٌ منَ العلماءِ: قَهَرَ ومَلَكَ.

فقولُهُ: «أثبتَ ذاتَهُ» من حيثُ دلالةُ اللَّفظِ بقولِهِ: (الرَّحمنَ)، و«نَفَىٰ مَكَانَهُ» من حيثُ دِلالةِ العقلِ[٣] علىٰ أنَّهُ ثابتٌ قَبْلَ جَمِيعِ خَلْقِهِ: العَرْشِ وغَيْرِه[٤].

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥]: «**وسُئِلَ الشِّبليُّ عَن قَوْلِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾** [طه: ٥] **فَقَالَ[٦]: الرَّحمنُ لَمْ يزَلْ، والعَرْشُ محدَثٌ، والعرشُ بالرَّحمنِ استوَىٰ.**

وسُئِلَ جَعْفَرُ بْنِ نصيرٍ عَن قَوْلِهِ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، فَقَالَ[٧]: استوَىٰ عِلْمُهُ[٨] بكلِّ شيءٍ، فليسَ شَيْءٌ أقربَ إِلَيْهِ من شَيْءٍ».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا الشِّبلِيُّ فأشارَ إلىٰ استغنائِهِ ـ تعالىٰ ـ عنِ العَرْشِ

---

(١) وهو مذهب الخلف، انظر: أبكار الأفكار ١/٤٦٢، وتحفة المريد ص١٠٤.

(٢) انظر: التبصير في الدين ص١٥٨، ونزهة الأعين النواظر ص١٥٣.

(٣) في (ب): العقد، والصواب المثبت.

(٤) أي: لأنه ثابت قبل العرش وغيره من سائر الخلق، وأفاد الشيخ زكريا ذلك في: إحكام الدلالة ١/٥٩.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٩.

(٦) ورد قوله في: الإنصاف للباقلاني ص٤٠، والديباج المذهب ص١١٦، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٩/٤٢، ٨٦، والاستقامة ١/١٨٩.

(٧) ورد قوله في: ألف باء للبلوي ١/٢١٩، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٩/٤٢.

(٨) في (ب): عليه.

في أزَلِه؛ فإنَّهُ قديمٌ والعرشُ مُحْدَثٌ، فكما استَغْنَىٰ عنهُ قبلَ أنْ يَخْلُقَهُ فهوَ مُسْتَغْنٍ[١] عنه بعدَ خَلْقِهِ، وإنَّما خلقَهُ وجملةَ العَالَمِ[٢] ليستدلَّ بعِظَمِهِ علىٰ عِظَمِ خَالِقِهِ، وإذا كانَ الكُرْسِيُّ الَّذي هو بينَ يدَيِ العَرْشِ وسِعَ السَّمواتِ والأرضَ بِنَصِّ القرآنِ[٣]، فكيفَ يكونُ العرشُ الَّذِي مَوضِعُهُ منَ العرشِ موضعَ الكرسيِّ منَ السَّريرِ، ولا يقدرُ قدرَ العَرْشِ إلَّا اللهُ ـ تعالىٰ ـ.

وقولُهُ: «والعَرْشُ بالرَّحمنِ اسْتَوَىٰ» يَعْنِي: بِقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ.

وقولُ جعفرِ بنِ نُصَيرٍ لمَّا سُئِلَ عن قولِهِ ـ تعالىٰ ـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ قالَ: «استوىٰ عِلْمُهُ[٤] بكلِّ شيءٍ»[٥]، ففيهِ تَنْزِيهٌ للرَّبِّ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ عنِ احتياجِهِ إلىٰ مَخْلُوقَاتِهِ، وإذا كانتْ سَائرُ الأشياءِ مَخْلُوقةً له فهيَ مَعْلُومَةٌ، فقولُهُ: «اسْتَوىٰ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيءٍ» يَعْنِي: بكلِّ مخلوقٍ، والعَرْشُ من جُمْلَةِ مَخْلُوقَاتِهِ، فأشارَ إلىٰ الفَرْقِ بينَ الصَّانعِ والمَصْنُوعِ، والقَدِيمِ والمُحْدَثِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «وَقَالَ جَعْفَرٌ الصَّادقُ[٧]: مَنْ زعمَ أَنَّ اللهَ فِي شَيْءٍ، أَوْ من شَيْءٍ، أَوْ عَلَىٰ شَيْءٍ فَقَدْ أَشْرَكَ؛ لو كَانَ عَلَىٰ شَيْءٍ لكانَ مَحْمُولًا، ولو كَانَ فِي شَيْءٍ لكانَ محْصُورًا، وَلَوْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ لَكانَ مُحْدَثًا.

وَقَالَ جَعْفَرٌ الصَّادقُ ـ أيضًا[٨] ـ فِي قَوْلِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨]:

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) في (ج): العالمين.

(٣) في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

(٤) سقط من (ب) إلىٰ قوله: «يعني بكل مخلوق».

(٥) أي: من عرشٍ وغيره.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٩.

(٧) سقط هذا اللفظ من (ب). وورد قوله والذي يليه في: الاستقامة ١/١٩٠ ـ ١٩١.

(٨) أي: في المسألة.

مَنْ تَوَهَّمَ أَنَّهُ بنفسِهِ دنا، فَقَدْ جَعَلَ ثَمَّ مَسافَةً، إِنَّمَا التَّدانِي أَنَّهُ كلَّما قَرُبَ مِنْهُ بَعَّدَهُ عَنْ أنواعِ المَعارِفِ[١]؛ إذْ لا دُنُوَّ ولا بُعْدَ[٢]».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَقَولُ جعفرٍ الأَوَّلُ: «**مَنْ زَعَمَ أنَّ اللهَ - تعالىٰ - في شيءٍ، أو مِن شيءٍ، أو علىٰ شيءٍ، فَقَدْ أشرَكَ**» إلىٰ آخرِ كلامِهِ، يحتملُ أحَدَ معنيَينِ [١/١٥أ]:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ جعلَ معَهُ شيئًا قديمًا، وقد قامَتِ الأدلَّةُ علىٰ وحدانيَّتِهِ - تعالىٰ -، وَبِهَذَا الاعتبارِ أشرَكَ معَهُ في القِدَمِ غيرَهُ.

المَعْنَىٰ الثَّانِي: أطلقَ الإشراكَ علىٰ الكُفْرِ؛ وهوَ اعتقادُ الحدثِ؛ فإنَّ مَنْ قالَ: «**إنَّ اللهَ - سبحانه - في شَيءٍ**» فَقَدْ جَعَلَهُ مَحْدُودًا مَحْصُورًا، وهذهِ صفاتُ الأجسامِ. ومَنْ قالَ: «**من شيءٍ**» فقد جعلَهُ مخلوقًا مَصْنُوعًا مَولُودًا. ومَنْ قالَ: «**علىٰ شيءٍ**» فقد جعلَهُ محمولًا، وهذا كلُّهُ يدلُّ علىٰ الجِسْمِيَّةِ، وَهُو كُفْرٌ.

وقولُهُ الثَّاني في تأويلِ قولِهِ - تعالىٰ -: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾: «**مَنْ توهَّمَ أَنَّهُ دنا بنفسِهِ مِنَ الحقِّ - سبحانه -**» كما يعهدُ مِنَ التَّدانِي بالحِسِّ، «**فقدْ جعلَ ثَمَّ مسافةً ومكانًا**»، وهوَ - سبحانه - منزَّهٌ عنِ الزَّمانِ والمكانِ.

وإنَّمَا دنُوُّ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ربِّهِ - تعالىٰ - يُحملُ علىٰ أحَدِ وجهَينِ:

[الأَوَّل]: يُحملُ علىٰ وصولِهِ إلىٰ مكانٍ شريفٍ مِنْ مخلوقاتِهِ الَّذي لم يبلغْهُ غيرُهُ منَ البَشَرِ، ويدلُّ عليهِ ما رُوِيَ مِنْ مُفَارَقَةِ جِبْرِيلَ للنَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٣]، وقالَ:

---

(١) أي: المعارف المتعلقة بالحوادث؛ لاشتغاله به - سبحانه -.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) ففي تفسير السمعاني ٥/ ٢٨٧: «وفي بعض الروايات: قال فارقني جبريل وهدأت الأصوات،=

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، وما ذكرَ منَ «الرَّفرَفِ»[١]، فتكونُ الإشارةُ هاهُنَا بـ(دنَا)، أي: قَرُبَ منَ المكانِ الشَّريفِ الَّذي لم ينلْهُ غيرُهُ، كمَا أنَّ النَّاسَ في الجنَّةِ يزورونَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ في جنَّةِ عدْنٍ[٢]، وهيَ[٣] محلُّ كشفِ الحِجَابِ عنهُم ومحلُّ زيارتِهِم، فيكونُ الحقُّ ـ سبحانه ـ شرَّفَ هذهِ الجنَّةَ بأنْ جعلَهَا محلَّ رؤيتِهِ وزيارتِهِ، وكذلِكَ دنوُّ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ هذا المقامِ الَّذِي اختصَّهُ بهِ وبلَّغَهُ إيَّاهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ليلةِ الإسراءِ، فهذا وجهٌ.

الوَجْهُ الثَّانِي: ما أشارَ إليهِ جعفرُ بنُ محمَّدٍ في كلامِهِ من أنَّهُ كمالُ اشتغالٍ باللهِ ـ تعالىٰ ـ، وقربُ قربِهِ مِنْ رؤيتِهِ ومُنَاجَاتِهِ وذكْرِهِ حتَّىٰ غَابَ عن سائرِ المخلوقاتِ؛ فإنَّهُ بَعُدَ عن غيرِهِ لكمالِ شُغْلِهِ بهِ، وهذا جائزٌ في الدُّنيا والآخرةِ، فإنَّ كُلَّ مَنْ كملَ شغلُهُ بجلالِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وجَمَالِهِ ورؤيتِهِ ومناجاتِهِ بَعُدَ قلبُهُ عن ذكْرِ غيرِهِ، بلْ ربَّمَا بَعُدَ عن ذكرِ نفسِهِ وإحسَاسِهِ عن كونِهِ ذَاكِرًا، فبهذا الاعتبارِ يكونُ القُرْبُ لا بِالحِسِّ، تعالىٰ اللهُ عن ذلكَ علوًّا كبيرًا[٤].

قَالَ الإِمَـامُ القشَيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[٥]: **«وَرَأَيْتُ بِخَطِّ الأُستاذِ أَبِي عَلِيٍّ**[٦] رَحِمَهُ اللَّهُ

= وسمعت من ربي: ادن يا محمد، وقد ذكر هذا اللفظ في الصحيح؛ وهو دنو محمد من ربه ليلة المعراج»، وانظر: تفسير القرطبي ٢٨٧/٥.

(١) في فتح الباري ٤٨٤/١٣: «وقيل: تدلىٰ الرفرف لمحمد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتىٰ جلس عليه، ثم دنا محمد من ربه». وانظر: نوادر الأصول ١٦٢/١.

(٢) في نوادر الأصول ٤٢٥/١: «وفي حديث آخر: أن أهل الجنة يزورون في كل يوم جمعة فينظرون إلىٰ الله تعالىٰ». وورد في: المغني عن حمل الأسفار ٥٧٦/١.

(٣) في (أ): وهو.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٦١/١.

(٥) الرسالة القشيرية ٢٩/١.

(٦) أي: الرُّوذباري. وورد هذا القول في: حل الرموز ومفاتيح الكنوز لابن غانم المقدسي ص١٢٠، ونشر المحاسن الغالية لليافعي ص٣٢٦.

أَنَّهُ قيلَ لِصُوفِيٍّ: أينَ اللهُ؟ فَقَالَ: أسحَقَكَ اللهُ، تَطْلُبُ مَعَ العينِ أينَ؟

أخبرَنَا الشَّيخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: سمعتُ أبا العَبَّاسِ بْنَ الخشَّابِ البغداديَّ [١/١٥ب] رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أبا القَاسِمِ بنَ مُوسَىٰ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَد يَقُولُ: سَمِعْتُ الأَنْصَارِيَّ[١] يَقُولُ: سمعتُ أبا[٢] سعيدٍ الخَرَّازَ يَقُولُ[٣]: حقيقةُ القُرْبِ فَقْدُ حِسِّ الأشياءِ منَ القَلْبِ، وهُدُوءُ الضَّميرِ إِلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذانِ القولانِ جاريانِ علىٰ ما فسَّرْنَا بهِ أحدَ الوجهَينِ في (الدُّنوِّ)؛ من أنَّهُ إذا امتلأَ القلبُ بذكْرِ الله ـ تعالىٰ ـ والشُّغلِ بمناجاتِهِ فقدَ العبدُ حِسَّ غيرِهِ من قَلْبِهِ، فأمَّا دعاءُ الأوَّلِ علىٰ السَّائلِ بقولِهِ: «أسحقَكَ اللهُ، تطلبُ معَ العَيْنِ أينَ؟» ففيهِ دليلٌ[٤] علىٰ أنَّ المَسْئُولَ كان في حالةِ الحضورِ مع اللهِ، وكانَ لا يرىٰ في كلِّ متحرِّكٍ ولا ساكنٍ إلَّا اللهَ، فكانَ كلُّ متحرِّكٍ عندَهُ وساكنٍ إنَّما يتحرَّكُ ويسكنُ باللهِ، فصارَ كالعيانِ عندَهُ، فلغلبةِ ذلكَ علىٰ قلبِهِ قالَ: «أسحقَكَ اللهُ»، أي: أبعدَكَ اللهُ، «تَطْلُبُ معَ العَيْنِ أَيْنَ؟»، و(أينَ): سُؤَالٌ عَنْ غائبٍ.

ودعاؤُهُ بـ«أسحقكَ اللهُ» يحتملُ وجهينِ:

أَحَدُهُمَا: ـ وهوَ الأحسنُ ـ أنْ يكونَ دعاءً لهُ بأنْ يغيِّبَهُ اللهُ عن نفسِهِ بكمالِ شُغْلِهِ بربِّهِ حتَّىٰ ينالَ ما سألَ عنهُ.

ومِنْ جُمْلَةِ اصطلاحاتِهِم: (السَّحقُ، والمَحْقُ)[٥]، فمَنْ شغلَهُ اللهُ بذكْرِهِ عن

---

(١) أي: أحمدَ بن عمرِ بنِ محمَّدٍ الأنصاري المرسي.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار في أصول التصوف للخركوشي ص٥٧، ومجموعة رسائل الإمام الغزالي ص١٣١، وسنن المهتدين في مقامات الدين للموّاق ص٣١.

(٤) في (ب): فيدل.

(٥) انظر: معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني ص١٠٠، ١٢٠، وعبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص٥١.

نفسِهِ وبقيتْ فيهِ بقيَّةٌ يتنعَّمُ بها فيسمُّونَهُ سَحْقًا، ومَنِ اصطلَمَ[١] بالكليَّةِ عن نفسِهِ يسمُّونَهُ مَحْقًا، فالمَحْقُ عندَهُم أتمُّ منَ السَّحقِ، فالسَّحقُ يُبقِي أثرًا، والمحقُ أبلغُ من ذلِكَ[٢].

وَالوَجْهُ الثَّانِي ـ وهوَ دونَ هذا ـ: أنْ يكونَ شَوَّشَ عليهِ حالَهُ بسؤالِهِ عنِ الأَيْنِ؛ وهوَ المكانُ، فلم يحتملْهُ فدعىٰ، والأوَّلُ أوْلَىٰ[٣].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «سمعتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سمعتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ الحافظَ يَقُولُ: سمعتُ أبا مُعَاذٍ القَزْوِينِيَّ يَقُولُ: سمعتُ أبا عَلِيٍّ الدَّلَّالَ يَقُولُ: سمعتُ أبا عَبْدِ اللهِ بْنَ قَهْرمانَ يَقُولُ: سمعتُ إِبْرَاهِيمَ الخوَّاصَ يَقُولُ[٥]: انتهيتُ إِلَىٰ رجلٍ وَقَدْ صَرَعَهُ[٦] الشَّيْطَانُ، فجعلتُ أُؤَذِّنُ فِي أذنِهِ، فَنَادَانِي الشَّيْطَانُ من جَوْفِهِ: دعْنِي أقتُلْهُ فَإِنَّهُ يَقُولُ: القُرْآنُ مَخْلُوقٌ.

وَقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ[٧]: (إِنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ لمَّا خلقَ الأحرُفَ جعلَهَا سِرًّا لَهُ، فلمَّا خلقَ آدمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بَثَّ فِيهِ ذَلِكَ السِّرَّ، وَلَمْ يبُثَّ ذَلِكَ السِّرَّ فِي أحدٍ منْ ملائكتِهِ،

---

(١) الاصطلام: الاستئصال. انظر: شمس العلوم ٣٨١٦/٦. والقصد: غاب عن نفسه بالكلية. انظر: الإبانة لابن فورك ص٣٥١.

(٢) يقول ابن فورك مقررًا ذلك: «المحق: ذهاب الشيء حتىٰ لا يبقىٰ له أثر» الإبانة ص٣٤٧.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٦١/١ ـ ٦٢.

(٤) الرسالة القشيرية ٢٩/١ ـ ٣٠.

(٥) ورد قوله في: التدوين في أخبار قزوين ١٤٠/٤، ونفح الطيب ٣٠١/٥، وروض الرياحين ص٤٢٠.

(٦) في (ب): عرصه، والصواب المثبت.
قال الشيخ زكريا: «وكان هذا الشيطان مؤمنا؛ بقرينة سماعه الأذان الآتي» إحكام الدلالة ٦٢/١. لأن غير المؤمن إذا سمع الأذان ولّىٰ، كما في صحيح البخاري ٢٢٠/١ ـ حديث رقم (٥٨٣): «عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إذا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حتىٰ لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فإذا قضي النِّدَاءَ أَقْبَلَ...».

(٧) ورد قوله في: ميزان العقائد الشعرانية ص١٤٥.

فجرَتِ(١) **الأحرفُ علَىٰ لسانِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بفنونِ الجَريانِ وفنونِ اللُّغاتِ، فجعلَهَا اللهُ ـ تعالىٰ ـ صُورًا لَهَا)، صرَّحَ**(٢) **ابْنُ عَطَاءٍ رَحِمَهُ اللَّهُ القولَ بأنَّ الحُرُوفَ مخلوقةٌ.**

وَقَالَ سهلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ(٣)**: (إنَّ الحُرُوفَ لِسَانُ فِعْلٍ لا لِسَانُ**(٤) **ذَاتٍ** [١/١٦٦أ]**؛ لأنَّهَا فِعْلٌ [فِي]**(٥) **مفْعُولٍ).**

قَالَ(٦)**: وَهَذَا ـ أَيْضًا ـ تَصْرِيحٌ بأنَّ الحُرُوفَ مَخْلُوقةٌ».**

※ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اجتمعَ قولُ الخوَّاصِ وابنِ عطاءٍ وسهلٍ علىٰ التَّصريحِ بأنَّ الحروفَ مخلوقةٌ ردًّا علىٰ مَنْ يزعمُ(٧) أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يتكلَّمُ بالحَرْفِ(٨) والصَّوتِ، وأنَّ(٩) الحادثَ يستحيلُ أن يكونَ صفةً للقَدِيمِ.

فأمَّا قولُ الخوَّاصِ: «**فنادَاني الشَّيطانُ من جَوْفِهِ: دَعْني أقتُلْهُ؛ فإنَّهُ يقولُ: القرآنُ مخلوقٌ**»، فهذا من خَوارقِ العَادَاتِ، وهو كلامُ الجنِّ لِبَنِي آدمَ، نصَّ القرآنُ(١٠) علىٰ إسلامِ بعضِهِم لمَّا سمعوا قراءةَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنخلةٍ أو بعكاظٍ(١١)، ورجعوا إلىٰ

---

(١) في (ب): فجر، والصواب المثبت.

(٢) أي: أظهر وبيَّن.

(٣) ورد قوله في: الاستقامة ١/٢٠٧.

(٤) في (ب): لإنسان، والصواب المثبت. والقصد: دالة علىٰ الفعل لا علىٰ الذات.

(٥) زيادة من (ب، ج، ف). والقصد: لأنها فعل وجد في مفعول لا صفة حقيقية قائمة بذات الفاعل.

(٦) أي: القشيري.

(٧) في (ج): زعم.

(٨) في (ب، ج): بالحروف، وقد سبق تخريج هذا المذهب.

(٩) في (ج): فإن.

(١٠) في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١ ـ ٢].

(١١) في الطبقات الكبرىٰ ١/٢١٢: «فلما نزل نخلة قام يصلي من الليل، فصرف إليه نفر من الجن سبعة=

قومِهم منذرينَ واعظينَ، فدلَّ الخارقُ من قولِ الجنِّ على كفرِ مَنْ قالَ هذا القولَ، وأنَّهُ يستحقُّ القتلَ(١).

وأمَّا قولُ ابنِ عطاءٍ: «**لمَّا(٢) خلقَ اللهُ الحُرُوفَ جَعَلَهَا سِرًّا لهُ**» معناهُ: أَسَرَّهَا عنِ الملائكةِ وعَلَّمَهَا آدمَ، وهذا معنىٰ قولِهِ: «**ثمَّ بثَّهَا فيهِ**»(٣)، كما قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وهو الَّذي خلقَهَا علىٰ لسانِ آدمَ وأجرَاها لمَّا أنبأَهُم بالأسماءِ كلِّهَا.

وقولُهُ: «**جعلَهَا صورًا**»، معناهُ: قوالبُ تُفْهَمُ منها المعاني الَّتي(٤) دلَّتْ عليها، فآدمُ وكلامُهُ كلُّ ذلك مخلوقٌ للهِ ـ تعالىٰ ـ.

وأمَّا كلامُ سَهْلٍ فيرجعُ إلىٰ هذا، وهوَ أنَّهَا أدلَّةُ أفعالٍ؛ لأنَّ اللِّسانَ عبارةٌ عمَّا يُفهَمُ منهُ، فالحروفُ دَلَّتْ علىٰ فاعلِهَا ومُحْدِثِهَا، لا علىٰ أنَّها صفةٌ لهُ وقائمةٌ بذاتِهِ؛ إذْ ليسَ تَرْجعُ من الفِعْلِ للذَّاتِ صفةٌ حقيقيَّةٌ قائمةٌ بالذَّاتِ، وإنَّما الأفعالُ كلُّهَا واقعةٌ بِقُدْرَةِ اللهِ علىٰ حسَبِ إرادتِهِ وعِلْمِهِ، والحُرُوفُ منْ جُمْلَةِ أفعالِهِ.

قَالَ الإمَامُ القُشَيريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٥): «وَقَالَ الجنيدُ(٦): فِي (جواباتِ مسائلِ

= من أهل نصيبين فاستمعوا عليه وهو يقرأ سورة الجن، ولم يشعر بهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتىٰ نزلت عليه: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ فهم هؤلاء الذين كانوا صرفوا إليه بنخلة، وأقام بنخلة أياما». وانظر: المستدرك ٢/٤٩٥، ولباب النقول ص١٩٢.

(١) انظر: إحكام الدلالة ١/٦٢، وقد أفاد الشيخ زكريا ذلك.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) أي: أظهرها له.

(٤) في (ب): الذي.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٣٠.

(٦) ورد قوله في: روض الرياحين ص٤١٨، والاستقامة ١/٢٠٩.

الشَّامِيِّين): (التَّوكُّلُ[١]: عَمَلُ القَلْبِ، والتَّوحيدُ: قَوْلُ القلبِ[٢]).

قَالَ[٣]: هَذَا قَوْلُ أهلِ الأصولِ: إنَّ الْكَلامَ هُوَ المعنىٰ الَّذِي قامَ بالقلبِ؛ من مَعْنَىٰ الأَمْرِ والنَّهيِ والخَبَرِ والاستِخْبَارِ.

وَقَالَ الجنيدُ فِي (جواباتِ[٤] مسائلِ الشَّامِيِّينَ): تفرَّدَ الحقُّ بعلمِ الغيوبِ؛ فعَلِمَ مَا كَانَ، وَمَا يَكُونُ، وَمَا لا يَكُونُ أَنْ لَو كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ»[٥].

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُ أبي القاسمِ الجُنيدِ الأوَّلُ دلالةٌ علىٰ إثباتِ كلامِ النَّفسِ علىٰ مَا ذهبَ إليهِ أهلُ السُّنَّةِ[٦]، وإنَّ الكلامَ لا يختصُّ بقولِ اللِّسانِ، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]، فجعلَ القولَ في النَّفسِ واللِّسانِ جميعًا، وكلامُ النَّفسِ ليسَ بحرفٍ ولا [١٦/١ب] صوتٍ، وإنَّما الحرفُ والصَّوتُ من توابعِ الألفاظِ، وفرَّقَ في هذا الكلامِ بينَ العلمِ وكلامِ النَّفسِ، فإنَّ مَنْ أنكرَ كلامَ النَّفسِ يردُّهُ تارةً إلىٰ العلمِ وتارةً إلىٰ الإرادةِ[٧].

وفي قولِهِ الثَّاني تعلَّقَ عِلْمُهُ القَدِيمُ بالواجِبِ والجَائِزِ والمُسْتَحِيلِ، فقولُهُ:

---

(١) في (ب): التوحيد.

(٢) كما أنه قول اللسان.

(٣) أي: القشيري.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) ورد قوله في: المقدمة القرطبية بشرح الشيخ زروق ص١٠٨، وميزان العقائد الشعرانية ص١٤٦، وورد بلا نسبة في: الإنصاف للباقلاني ص٤٧.

(٦) انظر: المواقف ١٢٩/٣، وإحياء علوم الدين ١٠٩/١، والغنية في أصول الدين ص١٠٠. وقال الزركشي: «.. وَهَذَا مُفَرَّعٌ علىٰ إِثْبَاتِ كَلَامِ النَّفْسِ، ولم يَقُلْ بِهِ إِلَّا الأَشَاعِرَةُ..» البحر المحيط ٣٠٣/١. وفي التلخيص في أصول الفقه ٢٤٥/١: «وأما المعتزلة فقد أطبقوا علىٰ أن أقسام الكلام راجعة إلىٰ العبارات، وأنكروا ما عداها من كلام النفس الذي نثبته».

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٦٤/١.

«**بِمَا كَانَ**» إشارةٌ إلىٰ الموجودِ، وقولُهُ: «**وَمَا يَكُونُ**» إشارةٌ إلىٰ الجائزِ الوجودِ، وكذلِكَ «**مَا لا يكونُ**» ممَّا يصحُّ أنْ يكونَ، فهوَ أحَدُ قسمَي الجائزِ.

ويوجدُ من هذا عمومُ تعلُّقِ علْمِهِ بكلِّ معلومٍ سبقَ في علْمِهِ وجودُهُ علىٰ التَّفصيلِ، فإنَّ نعيمَ أهلِ الجنَّةِ وعذابَ أهلِ النَّارِ لا يَتَنَاهَىٰ، وكلُّ مَا يُنْعَّمُ بهِ أَهْلُ الحَقِّ وَيُعَذَّبُ بهِ أهلُ الضَّلالِ معلومٌ له علىٰ التَّفصيلِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَقَالَ الحُسَيْنُ بنُ مَنْصُورٍ: مَنْ عرفَ الحقيقةَ فِي التَّوحيدِ سقطَ عَنْهُ: لِمَ، وكيفَ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يعني أنَّ حقيقةَ التَّوحيدِ إفرادُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ذاتًا وصِفَةً وفعلًا، وأنَّ مِن جائزاتِهِ أنَّ لهُ أنْ يفعلَ ما يشاءُ، وأنَّهُ لا يقعُ خلاف ما سبقَ، ولا يتغيَّرُ معلومٌ، ولا يتبدَّلُ مقسومٌ.

فمَنْ صحَّ عندَهُ هذا المعنىٰ سقطَ عن قلبِهِ الاعتراضُ علىٰ ما يشاهدُهُ مِنَ الواقعِ في الإضلالِ والهدايةِ والفَسَادِ، ومقتَضَىٰ الحِكْمَةِ[٢]، و(لِمَ) و(كيفَ)[٣]؛ فإنَّ لهُ أنْ يفعلَ ما يشاءُ؛ إذْ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣][٤].

قَالَ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ[٥]: «**أخبرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ قَالَ: سمعتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سمعتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ يَقُولُ: قَالَ الجُنَيدُ[٦]: أَشْرَفُ المَجَالِسِ**

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٠.

(٢) في (ب): الجملة.

(٣) أي: والسؤال بـ(لِمَ) و(كيف). والقصد: لم يقع منه اعتراض علىٰ ما يشاهده بـ(لِمَ كان كذا)، أو (كيف كان كذا)، وذلك لتحققه بعلم مظاهر أحدية الحق تعالىٰ. انظر: نتائج الأفكار ١/٩٣.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٦٤.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٣٠.

(٦) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٤٢٥، وفيض القدير ٣/٢٦٣.

وأَعْلاهَا: الجُلُوسُ مَعَ الفِكْرَةِ فِي ميدَانِ التَّوحيدِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَعْنِي[(١)] ـ والله أعلمُ ـ الجلوسَ معَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ متفكِّرًا في عظمتِهِ وجلالِهِ وتنزُّهِهِ ووحدانيَّتِهِ فِي قِدَمِهِ وبقائِهِ، واستغنائِهِ عن خلْقِهِ، وكمالِ صفاتِهِ وتعلُّقِهَا بمتعلقاتِهَا من علمِهِ وإرادتِهِ وقدرتِهِ ووجودِ العظمَةِ الَّتِي تُدهشُ والجمالِ الَّذي يُخرسُ.

فهذهِ الحالةُ أشرفُ أحوالِ العبدِ بالنِّسبةِ إلىٰ فِكرَتِهِ في الجنَّةِ ومَا احْتَوَتْ عليهِ منَ الخَيْرَاتِ، أو فِي النَّارِ وما احتَوَتْ عليهِ من أصنافِ العذابِ وأنواعِ المشقَّاتِ[(٢)]، وكذلِكَ الفكرةُ فيمَا احتوَتْ عليه الأرضُ منَ المخلوقاتِ وأنواعِ الحيواناتِ والنَّباتاتِ وغير ذلكَ، فإنَّ هذهِ أسبابٌ تدلُّ علىٰ كمالِ فاعلِهَا وخالِقِهَا، فإذا وَصَلَ [١٧/١أ] القَلْبُ إلىٰ مَعْرِفَتِهِ وبَقِيَ مَشْغُولًا بالنَّظرِ في كَمَالِهِ وجَمَالِهِ كانَ ذلكَ من أَشْرَفِ أَحْوَالِهِ، وإنْ كَانَتْ أَحْوَالُهُ وفِكْرُهُ فِي الأُمُورِ الدِّينيَّةِ كُلُّهَا شَرِيفَةً.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: **«وَقَالَ الواسطيُّ: (مَا أحدثَ اللهُ شَيْئًا أَشْرَفَ[(٤)] منَ الرُّوحِ!)، صرَّحَ بهذا الكَلامِ أنَّ الرُّوحَ مَخْلُوقَةٌ»**.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فيه ردٌّ علىٰ القائلينَ بقدَمِ الأرواحِ، والصَّائرينَ إلىٰ حلولِهَا في الأشباحِ، منَ النَّصارىٰ وغيرِهِم[(٥)] مِمَّنْ بعُدَ منَ الفَلاحِ والنَّجاحِ.

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٦٥/١.

(٣) الرسالة القشيرية ٣٠/١.

(٤) في (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع: أكرم، وألمح الشيخ زكريا إلىٰ هذا الفرق في: إحكام الدلالة ٦٥/١.

(٥) انظر: معارج القدس ص١١٢، والروح لابن القيم ١٥٤/١، ومجموع الفتاوىٰ ٢٢١/٤، ١٥٠/١٧، ومنازل الأرواح للكافيجي ص٢٣. =

قَالَ الإِمَامُ القُشَيرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فدلَّتْ هذهِ الحكاياتُ علَىٰ أنَّ عقائدَ مشايخِ الصُّوفيَّةِ تُوافِقُ أَقَاوِيلَ أهلِ الحقِّ فِي مَسَائِلِ الأُصُولِ، وَقَد اقتصرْنَا عَلَىٰ هَذَا المقدارِ؛ خَشْيَةَ خُرُوجِنَا عمَّا آثَرْنَاهُ من الاختِصَارِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وما ذكرَهُ الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحيحٌ، وقدْ نبَّهنَا علىٰ وجوهِ مَقَالاتِهِم في التَّوحيدِ وإجرائِهَا علىٰ مَسَائِلِ الأصولِ، واللهُ المُستعانُ والمُوفِّقُ.

= وقد نعت الغزالي القائل بهذا القول بقوله: «فإن القائل بقدم الأرواح مغرور جاهل، لا يدري ما يقول» إحياء علوم الدين ١/٥٤.

(١) الرسالة القشيرية ١/٣١.

فصــلٌ
[فِي بَيَانِ عَقَائِدِ الصُّوفِيَّةِ فِي مَسَائِلِ التَّوْحِيدِ]

قَالَ الأستاذُ الإمامُ أَبو القاسمِ القُشيريُّ حجّةُ الإسلامِ[(١)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]:

«وَهَذِهِ فُصُولٌ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ بَيَانِ عَقَائِدِهِمْ فِي مَسَائِلِ التَّوْحِيدِ[(٣)]، ذَكَرْنَاهَا عَلَىٰ هَذَا[(٤)] التَّرْتِيبِ:

قَالَ شيوخُ هذهِ الطَّريقةِ؛ عَلَىٰ مَا يدلُّ عَلَيْهِ مُتَفَرِّقَاتُ كلامِهِمْ ومجموعاتُها ومصنَّفاتُهُم فِي التَّوحيدِ:

إِنَّ الحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَوْجُودٌ، قَدِيمٌ، وَاحِدٌ، حَكِيمٌ، قَادِرٌ، عَلِيمٌ، قَاهِرٌ[(٥)]، رَحِيمٌ، مُرِيدٌ، سَمِيعٌ، مَجِيدٌ، رَفِيعٌ، مُتَكَلِّمٌ، بَصِيرٌ، مُتَكَبِّرٌ، قَدِيرٌ، حَيٌّ، أَحَدٌ، بَاقٍ، صَمَدٌ.

وَأَنَّهُ عَالِمٌ بِعلمٍ، قَادِرٌ بِقُدْرَةٍ، مُرِيدٌ بِإِرَادَةٍ، سَمِيعٌ بِسَمْعٍ، بَصِيرٌ بِبَصَرٍ، مُتَكَلِّمٌ بِكَلَامٍ، حَيٌّ بِحَيَاةٍ، بَاقٍ بِبَقَاءٍ، وَلَهُ يَدَانِ هُمَا صِفَتَانِ، يَخْلُقُ بِهِمَا مَا يَشَاءُ عَلَىٰ التَّخْصِيصِ، وَلَهُ الوَجْهُ الجَمِيلُ.

وَصِفَاتُ ذَاتِهِ مُخْتَصَّةٌ بِذَاتِهِ، لَا يُقَالُ: هِيَ هُوَ، وَلَا هِيَ أَغْيَارٌ لَهُ، بَل هِيَ

---

(١) في (ب): جار الإسلام.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٢ ـ ٣٣.

(٣) في اللمع في التصوف ص٥٥: «ولمشايخنا في التوحيد مصنفات».

(٤) في (ف): وجه.

(٥) في (ف): فاطر.

صِفَاتٌ لَهُ أَزَلِيَّةٌ، وَنُعُوتٌ سَرْمَدِيَّةٌ.

وَأَنَّهُ أَحَدِيُّ الذَّاتِ، لَيْسَتْ[١] تشبهُ شَيْئًا مِنَ المَصْنُوعَاتِ، وَلَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنَ المَخْلُوقَاتِ، لَيْسَ بِجِسْمٍ، وَلَا جَوْهَرٍ، وَلَا صِفَاته أَعْرَاضٌ.

لا يُتَصَوَّرُ فِي الأَوْهَامِ[٢]، وَلَا يتقدَّرُ فِي العقُولِ، وَلَا لَهُ جهةٌ ومكانٌ، ولا يَجْرِي عَلَيْهِ وقتٌ وزمانٌ، ولا تجُوزُ فِي وصفِهِ زيادةٌ ولا نُقْصَانٌ، ولا تخصُّهُ هيئةٌ وَلا قَدٌّ[٣]، وَلَا تَقْطَعُهُ نِهَايَةٌ وَحَدٌّ، وَلَا يَحُلُّهُ حَادِثٌ، وَلَا يَحْمِلُهُ عَلَى الفِعْلِ بَاعِثٌ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ لَوْنٌ وَلَا كَوْنٌ، وَلَا يَنْصُرُهُ مَدَدٌ وَلَا عَوْنٌ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ قُدْرَتِهِ مَقْدُورٌ[٤] [١/١٧ب]، ولا ينفكُّ عَن حُكْمِهِ مَفْطُورٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مَعْلُومٌ، وَلَا هُوَ عَلَىٰ فِعْلِهِ كَيْفَ يَصْنعُ وَمَا يصنعُ ملومٌ[٥].

لا يقالُ لَهُ: أينَ، ولا حَيْثُ، ولا: كَيْفَ[٦]، ولا يستفتحُ لَهُ وجودٌ فيقالُ[٧]: مَتَىٰ كَانَ؟، ولا ينتهِي لَهُ بقاءٌ فيقالُ: استوفىٰ الأجلَ والزَّمانَ، ولا يقالُ: لِمَ فعلَ مَا فَعَلَ؛ إذ لا علَّةَ لأفعالِهِ، ولا يقالُ: مَا هُوَ؛ إِذْ لا جنسَ لَهُ فيتميَّزُ بأمارةٍ عَن أشكالِهِ.

يَرَىٰ لا عَن مُمَاقلَةٍ[٨]، ويُرَىٰ لا عَن[٩] مُقَابلةٍ، ويصنعُ لا بِمُبَاشَرةٍ

---

(١) في (ج، ف): ليس.

(٢) لأن التصور حصر، ولا يكون إلا للحادث.

(٣) في (ج): قدر. والقصد: كيفية ومقدار

(٤) أي: من الممكنات.

(٥) في (ج): معلوم.

(٦) لأنه منزه عن المكان والكيفية.

(٧) سقط من (ج) إلىٰ قوله: لم فعل.

(٨) أي: لا تراه بالمقلة في جهة.

(٩) في (ب، ج): علىٰ.

ومُزَاولةٍ[١].

لَهُ الأسماءُ الحسنىٰ، والصِّفاتُ العُلَىٰ، يفعلُ مَا يريدُ، وَيَذِلُّ لحكمِهِ العبيدُ، لَا يَجْرِي فِي سُلْطَانِهِ إِلَّا مَا يَشَاءُ، ولا يحصُلُ فِي مُلْكِهِ غَيْرُ مَا سَبَقَ بِهِ القَضَاءُ، مَا عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ مِنَ الحادثاتِ.. أَرَادَ أَن يَكُونَ، وَمَا عَلِمَ أَنَّهُ لا يَكُونُ مِمَّا جَازَ أَن يَكُونَ أَرَادَ أَنْ لا يَكُونَ.

خَالِقُ أَكْسَابِ العِبَادِ خيرِهَا وشَرِّهَا، وَمُبْدِعُ مَا فِي العَالَمِ مِنَ الأَعْيَانِ والآثارِ؛ قُلِّهَا وَكُثْرِهَا[٢].

وَمُرسِلُ الرُّسلِ إِلَىٰ الأُمَمِ مِنْ غَيْرِ وُجُوبِ عَلَيْهِ[٣]، وَمُتَعَبِّدُ[٤] الأَنَامِ عَلَىٰ لسانِ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِمَا لَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ بِاللَّوْمِ وَالاعْتِرَاضِ إِلَيْهِ[٥].

وَمُؤَيِّدُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدًا[٦] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرةِ، والآياتِ الزَّاهرةِ[٧]، بِمَا أزاحَ بِهِ العُذْرَ[٨]، وأوضحَ بِهِ اليقينَ والنُّكْرَ[٩]، وَحَافِظُ بَيْضَةِ الإِسْلامِ[١٠] بَعْدَ وفاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخلفائِهِ، ثُمَّ حَارِسُ الحَقِّ وَنَاصِرُهُ بِمَا يوضِّحهُ

---

(١) أي: معالجة.

(٢) في (ف): قليلها وكثيرها.

(٣) إذ لا يجب عليه عَزَّوَجَلَّ شيء، خلافا للمعتزلة. انظر: شرح الأصول الخمسة ص١٣٢، والإرشاد ص٢٧١.

(٤) في (ب): ومتقيد.

(٥) في (الشرح): عليه.

(٦) في (النسخ): محمد.

(٧) في (ج): الباهرة.

(٨) في نتائج الأفكار ١/١٠٢: «المراد: أن من اطلع علىٰ ذلك، وتأخر عن الإيمان به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقبل له اعتذار».

(٩) في (ف): والذكر.

(١٠) أي: عزّه وجماعته.

مِنَ حُجَجِ الدِّينِ عَلَىٰ أَلْسنَةِ أَوْلِيَائِهِ.

عَصَمَ الأُمَّةَ الحنيفيَّةَ عَنِ الاجتماعِ عَلَىٰ الضَّلالةِ[١]، وحسمَ مادَّةَ الباطلِ بِمَا نَصبَ مِنَ الدَّلَالَةِ، وَأَنْجَزَ مَا وَعَدَ مِنْ نُصْرَةِ الدِّينِ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

فَهَذِهِ فُصُولٌ[٢] تُشِيرُ إِلَىٰ أُصُولِ المَشَايِخِ[٣] عَلَىٰ وَجْهِ الإِيجَازِ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما ذكرَهُ الإمامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ فقدْ درجَ فيهَا ما تقدَّمَ نسبتُهُ إلىٰ المشايخِ وزيادةٌ عن ذلكَ، وَفِي بَعْضِ كَلَامِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يحتاجُ إلىٰ تبيينِهِ، وهوَ قولُهُ: (باقٍ ببقاءٍ)، فإنَّ للعلماءِ فيه اختلافًا[٤]؛ وذلكَ أنَّ وجودَهُ ـ سبحانه ـ لنفسِهِ لا أوَّلَ لهُ، وإذا تحقَّقَ ذلكَ استحالَ أنْ يكونَ له آخرٌ، فيكونُ البقاءُ علىٰ هذا عبارةً عن دوامِ وجودِهِ، لا يرجعُ إلىٰ معنىٰ، ويلزمُ منَ القولِ بأنَّ البقاءَ معنىٰ قيامِ المعنىٰ بالمعنىٰ، وذلكَ محالٌ كما تقرَّرَ[٥] فِي غيرِ هذا الموضعِ[٦].

فالباريُ ـ سبحانه ـ صفاتُهُ معانٍ قديمةٌ: علمٌ، وقدرةٌ، وإرادةٌ، وسمعٌ، وبصرٌ، وكلامٌ[٧].

---

(١) في مسند أحمد ٦/٣٩٦: «.. سَأَلْتُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أن لَا يَجْمَعَ أمتي علىٰ ضَلَالَةٍ فَأَعْطَانِيهَا...»، وأخرجه الطبراني أيضا في: المعجم الكبير ٢/٢٨٠.

(٢) في (أ): أصول.

(٣) أي: الأصول التي بنوا قواعدهم عليها.

(٤) تأمل تفصيل ذلك في: أبكار الأفكار ١/٤٤٦، ومقالات الإسلاميين ص٣٦٨، وتمهيد الأوائل ص٢٢٩، وشرح المقاصد في علم الكلام ٢/١٠٧.

(٥) في (ج): تقدم.

(٦) ص١٥٦.

(٧) قال الجويني: «القديم الباري سبحانه وتعالىٰ عالم بعلم قديم، قادر بقدرة قديمة، حي بحياة قديمة» لمع الأدلة ص٩٩.
=

وكذلكَ قولُهُ: [١/١٨أ] «**لهُ يدانِ**» هما صفتَانِ، فاليدُ تطلقُ على يدِ القُدْرةِ، وتطلقُ على يدِ النِّعمةِ، يقالُ: لهُ عليَّ يدٌ، أي: نعمةٌ، وله يدٌ وسطوةٌ، أي: قُدْرَةٌ(١)، وقال ـ تعالى ـ في كتابِهِ العزيزِ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتح: ١٠] وقالَ: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، يعنِي: آدمَ، واللهُ ـ تعالى ـ إنَّمَا خلقَهُ بقدرتِهِ وخصَّصَهُ بما خلقَهُ عليه بإرادتِهِ، وأكرمَهُ بسجودِ ملائكتِهِ، فلهُ ـ سبحانه ـ عليهِ يدُ القُدْرَةِ ويَدُ النِّعمَةِ(٢).

وعَلَى الجُمْلَةِ: فالَّذِي يعتقدُ أنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ مُنَزَّهٌ عنِ يدٍ بمعنى الجارحةِ، وأنَّ ذلكَ مُحَالٌ فِي وَصْفِهِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِجِسْمٍ، وَكَذَلِكَ الوَجْهُ، يقالُ: فعلتُهُ لوجْهِكَ، أي: لكَ ولأمْرِكَ، وحُرْمَتِكَ وجلَالِكَ(٣).

ونسلُكُ في هذِهِ المواضعِ الَّتِي وردَتْ فيهَا هذِهِ الألفاظُ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ مَا اختارَهُ الصَّدرُ الأوَّلُ؛ مِنْ نفْيِ ما لا يليقُ بجلالِ اللهِ ـ سبحانه ـ، والإمساكُ عنِ التَّعيينِ والتَّخصيصِ؛ إذا لمْ يتعلَّقْ بهِ عملٌ دينيٌّ.

وقولُهُ في صفاتِهِ ـ سبحانه ـ المعنويَّةِ: «**لَا يقالُ: هيَ هوَ، ولا: هيَ غيرُهُ**» معناهُ: أنَّ مَنْ قالَ: «هيَ هوُ» فقدْ نفى الصِّفاتِ وأثبتَ ذاتًا خاصَّةً، ومَنْ قالَ: «هيَ غيرُهُ» فقدْ جعلَهَا أغيارًا، وجوَّزَ مفارقتَهَا للذَّاتِ، فإنَّ حدَّ الغيرَينِ(٤): ما يجوزُ

= وفي غاية المرام ص٣٨: «مذهب أهل الحق: أن الواجب بذاته، مريد بإرادة، عالم بعلم، قادر بقدرة، حي بحياة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، وهذه كلها معان وجودية أزلية زائدة على الذات». وانظر: المواقف ٣/٦٨.

(١) انظر: جلاء الشبه ص١١١، ومختصر الوجوه في اللغة ص١٠٨، وتصحيح الوجوه والنظائر ص٥٠٨، والغريبين ٦/٢٠٤٩.

(٢) انظر: إحكام الدلالة ص٦٨.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ص٦٨.

(٤) انظر: عيار النظر ص٣٢٤، والغنية في أصول الدين ص١١٠، وشرح المقاصد في علم الكلام ٢/٧٦، والكليات ص٦٦٥.

مفارقةُ أحدِهِمَا للثَّانِي فِي زمانٍ أو مكانٍ أو وجودٍ أو عدَمٍ، وصفاتُهُ ـ سبحانه ـ قديمةٌ قائمةٌ بذاتِهِ يستحيلُ عليها التَّغييرُ والتَّبديلُ.

وقولُهُ: «يُرىٰ لَا عَلَىٰ مُقَابلةٍ» ردًّا علىٰ المعتزلةِ فِي اشْتِرَاطِهِم فِي الرُّؤيةِ بِنْيَةً مخصوصةً وخروجَ أشعَّةٍ تتعلَّقُ بما يُقَابِلُهَا[١]، فالحقُّ ـ سبحانه ـ منزَّهٌ عنِ الجهاتِ والأقطارِ[٢]، ويُرَىٰ ـ سبحانه ـ في الآخرةِ بإدراكٍ يخلُقُهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ في الأبصارِ، ويدركُ بِهِ ما ليسَ فِي جهةٍ، كما خلقَ في قلوبِ العارفينَ بهِ فِي الدُّنيَا علمًا بما ليسَ في جهةٍ[٣].

وقولُهُ: «ويرَىٰ لا عَنْ مُمَاقلةٍ»: تنزيهُ الحقِّ ـ سبحانه ـ عنِ الحدقِ والأجفانِ والمُقَلِ، فإنَّ ذلكَ منْ صِفَاتِ الأجسامِ، وإنَّمَا رؤيتُهُ ـ سبحانه ـ لسائرِ الموجوداتِ صفةٌ قديمةٌ قائمةٌ بذاتِهِ؛ كعلْمِهِ المتعلِّقِ بالموجوداتِ والجَائزَاتِ والمُستحيلاتِ، [واللهُ ـ سبحانه ـ الموفِّقُ][٤].

---

(١) هذه المسألة من أهم المسائل التي وقع فيها النزاع بين الأشاعرة وغيرهم من سائر الفرق وخصوصا المعتزلة، حيث ذهبت المعتزلة إلىٰ منع رؤية المولىٰ ـ سبحانه ـ بدافع من التنزيه، فذهبوا إلىٰ أن الرؤية تتطلب شرائط معينة، ولا يجوز وقوعها إلا بشرائطها، وإذا طبقت الرؤية بشروطها علىٰ رؤية الله فإن هذا يجوز علىٰ الله ما يكون للجسم من الجهة والحد والمكان وغير ذلك، ومن ثم منعوا الرؤية. بينما ذهب الأشاعرة إلىٰ جواز رؤية الله، انطلاقا من الأدلة الكثيرة التي أشارت إلىٰ ذلك، أما فيما يتعلق بشرائط الرؤية فقد جوزوا وقوع الرؤية دون وقع شرائطها، من الحد والجهة وغير ذلك.
انظر: مجرد مقالات الأشعري ص٧٩، وأصول الدين للبغدادي ص٩٧، والإرشاد للجويني ص١٦٧، ١٧٠، وغاية المرام ص ١٦٨، وأبكار الأفكار ٤٨٥/١، والمواقف ١٥٧/٣.

(٢) قال القاري: «مذهب أهل الحق: أن الرؤية قوة يجعلها الله ـ تعالىٰ ـ في خلقه، ولا يشترط فيها الأشعة، ولا مقابلة المرئي ولا غير ذلك» مرقاة المفاتيح ٣٢٠/١٠.

(٣) سقط من (ب) قوله: «كما خلق في قلوب العارفين به في الدنيا علمًا بما ليس في جهة». وانظر: مجرد مقالات الأشعري ص٨١، وأصول الدين للبغدادي ص٩٧، وأبكار الأفكار ٤٩١/١.

(٤) زيادة من (ج).

بَابٌ
فِي ذِكْرِ مَشَايِخِ هذهِ الطَّرِيقَةِ
وَمَا يدلُّ مِنْ سِيَرِهِم وَأَقْوَالِهِم عَلَى تَعْظِيمِ الشَّرِيعَة

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «اعلمُوا ـ رحِمَكُمُ اللهُ ـ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَتَسَمَّ أَفَاضِلُهُم فِي عَصْرِهِمْ بِتَسْمِيَةٍ عَلَمٍ سِوَىٰ صحبةِ الرَّسُولِ [١/١٨ب] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إِذْ لَا فَضِيلَةَ فَوْقَهَا، فَقِيلَ لَهُمْ: الصَّحَابَةُ، وَلَمَّا أَدْرَكَ[ـهُمْ] أَهْلُ العَصْرِ الثَّانِي سُمِّيَ مَنْ صَحِبَ الصَّحَابَةَ: التَّابعينَ، ورأوا ذَلِكَ أشرفَ سِمَةٍ، ثُمَّ قيلَ لِمَنْ بَعْدَهُم: أَتْبَاعُ التَّابِعِينَ[٢].

ثُمَّ اختلفَ النَّاسُ وتباينَتِ المراتبُ، فَقِيلَ لِخَوَاصِّ النَّاسِ مِمَّنْ لَهُمْ شِدَّةُ عنايةٍ بِأَمْرِ الدِّينِ: الزُّهَّادُ وَالعُبَّادُ.

ثُمَّ ظهرتِ البِدَعُ، وحصلَ التَّداعِي بَيْنَ الفِرَقِ، فَكُلُّ فَرِيقٍ ادَّعَوا أَنَّ فِيهِم زُهَّادًا، وَانْفَرَدَ خَوَاصُّ أهلِ السُّنَّةِ المُراعونَ أنفاسَهُمْ مَعَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، الحَافِظُونَ قُلُوبَهُمْ عَنْ طَوَارِقِ الغَفْلَةِ بِاسْمِ: التَّصَوُّفِ، وَاشْتُهِرَ هَذَا الاسمُ لهؤلاءِ الأكابرِ قبلَ المائتَينِ منَ الهجرةِ.

وَنحْنُ نَذْكُرُ فِي هَذَا البابِ أسامي جَمَاعَةٍ من شيوخِ هذهِ الطَّائفَةِ، من الطَّبقةِ الأولىٰ إِلَىٰ وَقْتِ المُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ، وَ[نحنُ][٣] نَذْكُرُ جُمَلًا مِنْ سِيَرِهِمْ وَأَقاوِيلِهِمْ، بِمَا يَكُونُ فِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَىٰ أُصُولِهِم وَآدَابِهِم ـ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ ـ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٤ ـ ٣٦، وقدَّم قوله علىٰ لفظ (باب)، فوضعته هنا للتناسب.

(٢) انظر: اللمع في التصوف ص٤٢.

(٣) زيادة من (ف).

فَمِنْهُم:

[١] أَبُو إِسْحَاق إِبْرَاهِيمُ بْنِ أَدْهَمِ بْنِ مَنْصُورٍ (١)

مِنْ كُورَةِ (بَلْخٍ)(٢)، كَانَ مِنْ أبناءِ الملوكِ، فَخَرَجَ يَوْمًا مُتَصَيِّدًا(٣)، وَأَثَارَ ثَعْلَبًا - أَوْ أَرْنَبًا(٤) - وَهُوَ فِي طَلَبِهِ، فَهَتَفَ بِهِ(٥) هَاتِفٌ: أَلِهَذَا خُلِقْتَ! أَمْ بِهَذَا أُمِرْتَ؟! ثُمَّ هَتَفَ بِهِ(٦) مِنْ قَرَبُوسِ سَرْجِهِ(٧): واللهِ مَا لِهَذَا خُلِقْتَ! ولا بِهَذَا أُمِرْتَ!، فَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ وَصَادَفَ رَاعِيًا لِأَبِيهِ، فَأَخَذَ جُبَّةَ الرَّاعِي مِنْ صُوفٍ فَلَبِسَهَا، وَأَعْطَاهُ فَرَسَهُ وَمَا مَعَهُ، ثُمَّ إِنَّهُ دَخَلَ البادِيَةَ، ثُمَّ وَصَلَ(٨) مَكَّةَ وَصَحِبَ بِهَا سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ، والفُضَيْلَ بْنِ عياضٍ، ودخلَ الشَّامَ وَمَاتَ بِهَا رَحِمَهُ اللهُ(٩).

وَكَانَ يأكلُ مِنْ عملِ يدِهِ، مثل: الحصَادِ، وحفْظِ البساتِينِ وغيرِ ذَلِكَ، وأَنَّهُ رأىٰ فِي الباديةِ رَجُلًا عَلَّمَهُ اسْمَ اللهِ الأعظمَ، فَدَعَا بِهِ بَعْدَهُ فَرَأَىٰ الخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّمَا عَلَّمَكَ أَخِي دَاوُدُ اسمَ اللهِ الأعظمَ.

---

(١) **انظر في ترجمته**: حلية الأولياء ٧/٣٦٧، وطبقات الصوفية للسلمي ص٣٥، ومناقب الأبرار ومحاسن الأخيار ١/٢٢، وتاريخ دمشق ٦/٢٧٧، وتهذيب الكمال ٢/٢٧، والمنتظم ٨/٢٤٠، والبداية والنهاية ١٠/١٣٥، وطبقات الأولياء ص٥، وفيه: «ومناقبه جمة، أفردها ابن الحلبي بالتأليف»، والطبقات الكبرىٰ للشعراني ١/١٢٨، والكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ١/١٩٥.

(٢) أي: من مدينة بلخ، وبلخ من أشهر مدن خراسان. انظر: معجم البلدان ١/٤٧٩.

(٣) أي: مريدًا الصيد.

(٤) أي: وثب عليه.

(٥) أي: صاح به.

(٦) أي: ألهمه.

(٧) أي: ما انحنىٰ من السرج. انظر: اللسان «ق ر ب س».

(٨) في (ج، ف): دخل.

(٩) سنة إحدىٰ وستين ومائة.

أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ الشَّيخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ[(١)]، قَالَ: حدَّثنا مُحَمَّدُ بْنُ الحسنِ بْنِ الخشَّابِ، قَالَ: حدَّثَنا أَبُو محمَّدٍ الحَسَنُ[(٢)] عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ المِصْرِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنا أَبُو سَعِيدٍ الخرَّازُ، قَالَ: حدَّثنا إِبْرَاهِيمُ بنُ بَشَّارٍ، قَالَ: صَحِبْتُ إِبْرَاهِيمَ بنَ أدهَمَ، فَقُلْتُ: خبِّرْنِي عَن بَدْءِ أَمْرِكَ فَذكَرَ هَذَا.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أدهَم كبيرَ الشَّأنِ فِي بَابِ الوَرَعِ، يُحْكَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ[(٣)]: (أَطِبْ مَطْعَمَكَ، وَلَا عَلَيكَ أَلَّا تَقُومَ اللَّيلَ، ولا تصومَ النَّهارَ).

وقيلَ: كَانَ عامَّةُ دعائِهِ: (اللَّهُمَّ انقلْنِي من ذُلِّ مَعْصِيَتِكَ إِلَى عِزِّ طَاعَتِكَ)[(٤)].

وَقِيلَ: لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ أدهَم: (إِنَّ اللَّحْمَ قَدْ غَلا! ؟ فَقَالَ: أَرْخِصُوهُ؛ أَيْ: لا تَشْتَرُوهُ)[(٥)].

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: [١/١١٩أ]: ما سَمِعَهُ منَ الهاتفِ يحتملُ أنْ يكونَ صوتًا من ملكٍ، أو منْ وليٍّ سمِعَهُ بأُذنَيْهِ، ويحتملُ أنْ يكونَ خاطرًا وقعَ في قَلْبِهِ، والأوَّلُ أظهرُ.

وأمَّا ما سَمِعَهُ من (قَربُوسِ سَرْجِهِ) وأكَّدَ باليمينِ أنَّهُ ما لهذا خُلِقَ ولا بِهِ أُمِرَ، وهذا سماعُ صوتٍ من قَربُوسِ السَّرْجِ، فهوَ بأذنِهِ لا شكَّ فيهِ، فيجوزُ أنْ يكونَ ملكًا، ويجوزُ أنْ يخلقَ اللهُ فِي[(٦)] السَّرجِ صوتًا يسمعُهُ يعظُهُ بهِ، والأصواتُ لا يُشْتَرَطُ في قيامِهَا الحياةُ على مذهبِ أهلِ الحقِّ، فقدْ سبَّحَ الحصَى في كفِّ النَّبيِّ

---

(١) طبقات الصوفية ص٣٦ ـ ٣٧.
(٢) في النسخ: الحسين، والمثبت موافق لما في طبقات الصوفية، والرسالة القشيرية.
(٣) في (ب): بالليل، ولا تصوم بالنهار. وورد قوله في: حلية الأولياء ٨/٣١، ومناقب الأبرار ١/٢٣، وتاريخ دمشق ٦/٢٨٢، والتدوين في أخبار قزوين ٢/٣٤٨.
(٤) ورد قوله في: حلية الأولياء ٨/٣١، وتاريخ دمشق ٦/٢٨٢، ومناقب الأبرار ١/٢٣.
(٥) ورد قوله في: حلية الأولياء ٨/٣٢، وتاريخ دمشق ٦/٢٨٢.
(٦) في (ب): من.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصَّحابةِ[١]، وقد سمِعُوا حنينَ الجذْعِ الَّذِي كانَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطبُ لهُ حينَ انتقلَ إلى المنبرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٢].

وأكلُهُ من عَمَلِ يدِهِ وورَعُهُ وحراستُهُ الكرومَ مشهورةٌ، وهوَ أصفى في حلِّهِ وأسترُ لحالِهِ.

وكونُهُ لقي رجلًا يسمَّى داودَ[٣] علَّمَهُ اسمَ اللهِ الأعظمَ، فأسماءُ اللهِ - تعالى - كلُّهَا عظيمةٌ، فقالَ بعضُ النَّاسِ: اسمُ اللهِ الأعظمُ ما دعَوْتَهُ بهِ فِي حالِ تعظيمِكَ لهُ، وانقطاعِ قلبِكَ إليهِ، وإفْرَادِكَ إيَّاهُ بالهمَّةِ، فما دعوتَ بهِ في هذِهِ الحالةِ اُسْتُجِيبَ لكَ بأيِّ اسمٍ دعوتَ بهِ[٤].

فإذا كانَ الأمرُ على هذا الوجهِ فيكونُ علَّمَهُ الحالةَ الَّتِي أجرى اللهُ العادةَ بالاستجابةِ لِمَنْ دعاهُ وهو عليهَا، وفاءً بقولِهِ - تعالى -: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

وقيلَ[٥]: هوَ اسمٌ مخصوصٌ يُعَلِّمُهُ اللهُ - تعالى - مَنْ شاءَ من خواصِّهِ، ممَّنْ

---

(١) ففي دلائل النبوة للأصبهاني ص٤٧: «... فتناول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبع أو تسع حصيات فسبحن حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم أخذهن فوضعهن في يد أبي بكر فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن». وورد أيضا في: تاريخ دمشق ١٢١/٣٩، وتاريخ الإسلام ٣٥٢/١، ووسيلة الإسلام ١٣١/١.

(٢) في صحيح ابن حبان ٤٣٥/١٤: «عَنِ ابنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ فَيَخْطُبُ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَأَنَّهُ لَمَّا صَنَعَ المِنبَرَ تَحَوَّلَ إِلَيْهِ فَحَنَّ الجِذْعُ، فَأَتَاهُ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَهُ». وأخرجه الدارمي أيضا في سننه ٢٩/١، والبيهقي في دلائل النبوة ٦٦/٦.

(٣) أي: داوود البلخي، كما في: حلية الأولياء ٤٤/١٠.

(٤) انظر: جواب من استفهم عن اسم الله الأعظم لابن بنت الميلق، وفتح الباري ٢٢٤/١١، والدر المنظم في اسم الله الأعظم للسيوطي، وإحكام الدلالة ٧٧/١.

(٥) انظر: شرح الأسماء الحسنى للكافيجي ص٦٤ ـ ٦٥.

لا يدعو بهِ إلَّا في الموضعِ الَّذي يصلحُ.

وقَدْ حُكِيَ(١) أنَّ رجلًا صالحًا صحبَ ذا النُّونِ المصريَّ مدَّةً منَ الزَّمانِ وخدمَهُ سنينَ، ثمَّ قالَ لهُ: يا أبا الفَيْضِ، أنتَ تعلمُ صلاحيَتِي لمَا أسألُكَ عنهُ وأمانَتِي عليهِ، أحبُّكَ أنْ تعلِّمَنِي اسمَ اللهِ الأعظمَ؛ فإنَّهُ بلغنِي أنَّكَ تعرفُهُ، قالَ: فسكتَ عنهُ ذو النُّونِ مدَّةً، وأوهَمَهُ أنَّهُ يعلمُهُ، ثمَّ أخذَ ذُو النُّونِ يومًا طبقًا؛ فجعلَ فيهِ فَأْرَةً حَيَّةً، وَأَكَبَّ عليهِ غطاءً، وشدَّهُ في مِئْزَرٍ، وقالَ لهذا الرَّجلِ: أتعرفُ صاحبَنَا الَّذي بالجِيْزةِ بالمكانِ الفُلانيِّ، ووصفَهُ لهُ حتَّىٰ عرفَهُ، ثمَّ قالَ لهُ: فتوصِّلُ إليهِ هذهِ الأمانةَ، قالَ: فأخذَ الرَّجلُ الطَّبقَ ومضىٰ ليوصِّلَهُ إلىٰ ذلكَ الرَّجلِ؛ فوجدَ الطَّبَقَ خفيفًا فتعجَّبَ ممَّا(٢) فيهِ، وحسُنَ عندَهُ حَلُّهُ والنَّظرُ لمَا فيهِ، فلمَّا رفعَ الغطاءَ قفزَتِ الفأرةُ فهربَتْ، قالَ: فازدادَ غيظًا، وقالَ: يسخرُ بي؛ يُحَمِّلُنِي فَأْرَةً هديَّةً، قالَ: فلمَّا رآنِي عَلِمَ مَا فِي نَفْسِي، وَرَأَىٰ حَالَتِي الَّتِي أَنَا عَلَيهَا، [١٩/١ب] فَقَالَ لِي: يَا مِسْكِينُ، اِئْتَمَنْتُكَ عَلَىٰ فَأْرَةٍ فَلَمْ تُؤَدِّ الأَمَانَةَ، فَكَيْفَ أَئْتَمِنُكَ علىٰ اسمِ اللهِ الأعظمِ؟!، اذهَبْ فلستَ تصلحُ لهُ.

وهذا يدلُّ مِنْ فعْلِ ذي النُّونِ علىٰ أنَّهُ اسمٌ معيَّنٌ يخصُّ اللهُ بهِ مَنْ شاءَ من أوليائِهِ، ولذلكَ(٣) قالَ لهُ الخَضِرُ: إنَّمَا عَلَّمَكَهُ(٤) أخي داودُ، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الخضرَ عَلَيهِ السَّلَامُ موجودٌ إلىٰ زمنِ إبراهيمَ وغيرِهِ وبعدَهُ بالنَّقلِ(٥) الصَّحيحِ عنِ الأولياءِ إلىٰ أزمنتِنَا، ردًّا علىٰ مَنْ يزعمُ أنَّهُ ماتَ(٦)، ويتمسَّكُ بالخبرِ المرويِّ عنِ

(١) انظر هذه الحكاية في: طبقات الأولياء ص٢٢١.

(٢) في (ب): بما.

(٣) في (ب): وكذلك.

(٤) في (ب، ج): علمك، والأصح المثبت.

(٥) في (ج): فالنقل.

(٦) تحرَّ تفصيل ذلك في: الزهر النضر في أخبار الخضر ص٤٩، وما بعدها، والحذر في أمر الخضر ص١٤٩.

النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ[١]: «لا يأتِي رأسُ مائةِ سنةٍ وعلىٰ وجْهِ الأرضِ نفْسٌ منفوسةٌ ممَّنْ هيَ عليهَا الآنَ»، وهذا عامٌّ يحتملُ التَّخصيصَ.

وإذا ثبتَ النَّقلُ الصَّريحُ عنِ الأولياءِ في كلِّ زمانٍ أنَّهُ حيٌّ اعتُمِدَ عليهِ، والعامُّ يجوزُ تخصيصُهُ، ولا مناقضَةَ بينَ الخبرِ والنَّقلِ للحَياةِ[٢].

وقولُهُ: «**أَطِبْ مَطْعَمَكَ، وَلَا عَلَيكَ أَلَّا تَقُومَ بِاللَّيلِ، وَلَا تَصُومَ بِالنَّهَارِ**» تحريضٌ علىٰ الاشتغالِ بالأَوْلَىٰ والأَشَقِّ علىٰ النَّفسِ والأنفعِ في القلوبِ والأبدانِ، فإنَّ طِيْبَ المَطْعَمِ كالزَّيتِ الصَّافِي فِي القُلُوبِ، وإذا صلحَتِ القلوبُ تَبِعَتْهَا الأبدانُ، ولم يأمُرْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بتَرْكِ الصَّومِ والصَّلاةِ، وإنَّمَا رآهُ يستكثِرُ من هذَينِ ويهملُ طلبَ الحلالِ، فأمرَهُ بالأنفعِ لهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: «**أَرْخِصُوهُ**» يريدُ بالزُّهدِ فيهِ، فإِذَا قَلَّتِ الرَّغبةُ في اللَّحمِ خَفَّ عَلَىٰ القَلْبِ أمرُ غلائِهِ، ورُخْصُهُ بقلَّةِ الرَّغبةِ فيهِ[٣].

قَالَ الإِمَامُ القُشَيرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «أَخبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: سمعتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ حامدٍ يَقُولُ: سمعتُ أَحْمَدَ بْنَ خَضْرَويهِ يَقُولُ: قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أدهَم لرجلٍ فِي الطَّوافِ: اعلَمْ أَنَّكَ لَا تنالُ درجة

---

(١) وورد في صحيح مسلم ٤/١٩٦٦ ـ حديث رقم (٢٥٣٨) بلفظ: «.. ما من نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ اليَوْمَ تَأْتِي عليها مِائَةُ سَنَةٍ وَهِيَ حَيَّةٌ يَوْمَئِذٍ». وأخرجه الترمذي في: سننه ٤/٥٢٠.

(٢) قال النووي: «الجمهور علىٰ حياته كما سبق في باب فضائله، ويتأولون هذه الأحاديث علىٰ أنه كان علىٰ البحر لا علىٰ الأرض، أو أنها عام مخصوص» شرح صحيح مسلم ١٦/٩٠.

(٣) ومنه قول الشاعر:

وإذا غَلَا شَيءٌ عليَّ تَرَكْتُهُ ❊ فيكونُ أرخصَ ما يكونُ إذا غَلَا

انظر: محاضرات الأدباء ١/٥٥١، والمستطرف ١/٢٢٤، والسلوك للمقريزي ٥/١١٣.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٦.

الصَّالحين حَتَّىٰ تجوزَ ستَّ عقباتٍ[١]:

أوَّلُها: تُغْلِقُ بَابَ النِّعمةِ[٢]، وتفتحُ بَابَ الشِّدَّةِ.

وَالثَّانِي: تُغْلِقُ بَابَ العزِّ، وتفتحُ بَابَ الذُّلِّ.

والثَّالثُ: تُغْلِقُ بَابَ الرَّاحةِ، وتفتحُ بَابَ الجَهْدِ[٣].

والرَّابعُ: تُغْلِقُ بَابَ النَّومِ، وتفتحُ بَابَ السَّهرِ.

والخامسُ: تُغلقُ بَابَ الغِنَىٰ، وتفتحُ بَابَ الفقْرِ[٤].

والسَّادسُ: تغلقُ بَابَ الأملِ[٥]، وتفتحُ بَابَ الاستعدَادِ للموتِ[٦]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ درجاتِ[٧] الصَّالحينَ هي درجةُ الولايةِ الخاصَّةِ والحفظُ منَ الله ـ تعالىٰ ـ فِي سائرِ الأعضاءِ، واستجابةُ الدُّعاءِ كما تضمَّنهُ الحديثُ[٨] الصَّحيحُ من قولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٩]: «مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ ....

---

(١) في (ج، ف): عقاب، والأصح المثبت. وورد قوله في: الزهد الكبير ١/٢٠٠، وتاريخ دمشق ٦/٣٣٨، ومناقب الأبرار ١/٢٣، والسلوك في طبقات الملوك ٢/٣٥٦.

(٢) أي: التنعم والترفه.

(٣) أي: الاجتهاد في فعل العبادة.

(٤) أي: الافتقار إلىٰ الله تعالىٰ.

(٥) لأنه يؤدي إلىٰ الغفلة، والتهاون في الطاعات، والتسويف بها. انظر: نتائج الأفكار ١/١٠٩.

(٦) بالتزود له بالخيرات.

(٧) في (ب، ج): درجة.

(٨) في (ج): الخبر.

(٩) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٧/٩٦، وأخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٣٨٤ ـ حديث رقم (٦١٣٧) بلفظ: «.. وما تَقرَّبَ إلي عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إلي مِمَّا افتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلي بِالنَّوَافِلِ حتىٰ أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ».

إِلَيَّ[(١)] بِمِثْلِ [أَدَاءِ][(٢)] مَا افْتَرَضْتُ[(٣)] عَلَيهِمْ، [١٢٠/١] وَلَا يَزَالُ العَبْدُ[(٤)] يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَيَدًا وَمُؤَيِّدًا، إِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ»... الحديث باختلافِ طرقِهِ، وهذا الأمرُ لا ينالُ إلَّا بارتكابِ المشقَّاتِ والإعراضِ عنِ[(٥)] الرَّاحاتِ[(٦)].

والمشقَّاتُ: السَّهرُ والجوعُ والفقرُ، والتَّعبُ والشِّدَّةُ والذُّلُّ وما يَجْرِي مَجْرَاهُ، وأضدادُ هذهِ الأمورِ منَ الرَّاحةِ والغِنَىٰ، والشِّبَعِ والنَّومِ، والعزِّ والرَّخاءِ، فهذهِ الرَّاحاتُ الَّتِي تُغلقُ أبوابُهَا، وما تقدَّمَ ذكرُهُ هي الَّتِي تفتحُ أبوابُهَا؛ فإنَّها بالتَّحقيقِ أبوابُ الخيراتِ، وأضدادُهَا هيَ المشغلاتُ القاطعاتُ.

ومعنىٰ فتح أبوابِهَا: تعرُّضُهُ لها، ولا يَنْفِرُ منهَا إذا ابتُلِيَ بها، فإنَّهَا أسبابُ الخَيْرَات، والموصلةُ إلىٰ أعلىٰ الدَّرجَات، إذا صحَّتْ فيها النِّيَّات[(٧)].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٨)]: **«وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أدهَم يحفظُ كَرْمًا[(٩)]، فَمَرَّ بِهِ جُنْدِيٌّ فَقَالَ[(١٠)]: أَعْطِنَا مِنْ هَذَا العِنَبِ، فَقَالَ: مَا أَمَرَنِي بِهِ صَاحِبُهُ، فَأَخَذَ يضربُهُ**

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) زيادة من (ج).

(٣) في (ب): افترضته.

(٤) في (ب): عبدي.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٦) في (ج): الدرجات.

(٧) الرسالة القشيرية ٣٦/١.

(٨) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الرسالة ٧٨/١.

(٩) سقط هذا اللفظ من (ب).

(١٠) ورد قوله في: حلية الأولياء ٣٧٩/٧، ومناقب الأبرار ٣٢/١، وتاريخ دمشق ٣٣٨/٦، والمنتظم ٢٤١/٨.

بِسَوطِهِ، فطأطأَ رأسَهُ، وَقَالَ: اضرِبْ رَأسًا طالمَا عَصَى اللهَ - تعالىٰ -، فانحجزَ[١] الرَّجلُ ومَضَىٰ».

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَهَذَا يَدُلُّ علىٰ حُسْنِ اعتبارِهِ بحَالِهِ، وكَمَالِ صَبْرِهِ علىٰ أذيَّتِهِ، وذلكَ أنَّهُ كانَ في[٢] أيامِ ولايتِهِ وإمارتِهِ ربَّمَا فعلَ قريبًا من هذا لمَنْ خالفَهُ في مَقَاصدِهِ، فلمَّا ضربَهُ هذا الجنديُّ تذكَّرَ ما كانَ فيهِ، ورجَا أنْ يكونَ قِصاصًا، فقالَ في نفسِهِ لنفسِهِ: «اضربْ رأسًا طَالمَا عَصَىٰ اللهَ»[٣]، وصبَّرهُ علىٰ أذاهُ لعجزِهِ عنِ الانتصارِ لنفسِهِ، وإلَّا لو أمكنَهُ الهُرُوب منهُ لم يَصْبِرْ علىٰ ضَربِهِ؛ لأنَّهُ ظَالمٌ لهُ[٤].

* قَالَ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ[٥]: «وَقَالَ سَهْلُ بنُ إِبْرَاهِيم[٦]: صَحِبْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ، فَمرضتُ فَأَنْفَقَ عَلَيَّ نفقتَهُ، فاشتهيتُ شَهْوةً، فباعَ حمارَهُ وأنفقَ عَلَيَّ ثَمَنَهُ[٧]، فَلَمَّا تَمَاثَلتُ[٨] قُلْتُ: يا إِبْرَاهِيمُ؛ أينَ الحمارُ؟ فَقَالَ: بعناهُ، فَقُلْتُ: فَعلَىٰ مَاذَا أَرْكَبُ؟! فَقَالَ: يا أَخِي عَلَىٰ عُنُقِي، فَحَمَلَنِي ثَلاثَ منازلَ».

---

(١) في (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع: فأُعْجِز، ومصادر تخريجه.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) لعل الذي حمله علىٰ قوله هذا ما أخرجه الترمذي في سننه ٥/٣٧٧ بلفظ: «أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: لَا يُصِيبُ عَبْدًا نَكْبَةٌ فما فَوْقَهَا أو دُونَهَا إلا بِذَنْبٍ»، أو قاله هضما لحق نفسه، أو ليتنبه الضارب فيرجع عن فِعْله.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٧٨.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٣٧.

(٦) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٦/٣٣٨، ومناقب الأبرار ١/٣٢، وتاريخ الإسلام ١٠/٥٥، وطبقات الأولياء ص١٠.

(٧) سقط هذا اللفظ من (ج).

(٨) أي: قاربت البرء من مرضي.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا منهُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ دليلٌ علىٰ ما تقدَّمَتْ وصيَّتُهُ بهِ في السِّتَّةِ المذكورةِ[١]؛ مِنْ تقديمِ التَّعبِ علىٰ الرَّاحَةِ، والذلِّ علىٰ العِزِّ، والفَقْرِ علىٰ الغِنَىٰ.

❊ ❊ ❊

(١) ص١٨٧.

قَالَ الإِمَامُ القُشَيرِيُّ[١] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]:

«وَمِنْهُم:

[٢] أَبُو الفَيْضِ ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ[٣]

واسمُهُ: ثوبانُ بْنُ إِبْرَاهِيم، وقيلَ: الفيضُ بْنُ إِبْرَاهِيم، وأبوهُ كَانَ نُوبِيًّا[٤]، توفِّيَ سنةَ خمسٍ وأربعينَ ومَائتَينِ، فائقُ هَذَا الشَّأنِ[٥]، وأوحدُ وقتِهِ عِلْمًا وورَعًا، وحالًا وأَدَبًا، سَعَوا بِهِ إِلَىٰ المتوكِّلِ[٦] فاستحضَرهُ[٧] من مِصْرَ، فلمَّا دَخلَ عَلَيْهِ[٨] وعظَهُ، فبكىٰ المتوكِّلُ وردَّهُ [١/٢٠ب] مكرَّمًا، وَكَانَ المتوكِّلُ إِذَا ذُكِرَ بَيْنَ يديهِ أهلُ الورَعِ يَبْكِي وَيَقُولُ[٩]: إِذَا ذُكِرَ أهلُ الورعِ فحيَّهلا بذِي النُّونِ!.

وَكَانَ رَجلًا نحيفًا، تَعْلُوهُ حُمْرَةٌ، لَيْسَ بِأبيضِ اللِّحيةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا منهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدلُّ علىٰ قيامِهِ بالحقِّ والنُّصحِ لمَنْ يُخشىٰ شأنُهُ، ولا سيَّما في وقتِ المخافةِ؛ لأنَّهُ سُعِيَ بِهِ[١٠] إليهِ، ونُسِبَ إلىٰ

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب، ج).

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٧ ـ ٣٨.

(٣) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية للسلمي ص٢٧، وتاريخ دمشق ١٧/٣٩٨، ومناقب الأبرار ١/٥٩، ونجم المهتدي ١/٣٠١، والكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري لابن عربي، ولسان الميزان ٢/٤٣٧، وتاريخ الإسلام ١٨/٢٦٥، وسير أعلام النبلاء ١١/٥٣٢، ووفيات الأعيان ١/٣١٥، والوافي بالوفيات ١١/١٨، وطبقات الأولياء ص٢١٨، والطبقات الكبرىٰ للشعراني ١/١٢٩، والكواكب الدرية ١/٥٩٧.

(٤) أي: من النُّوبة في جنوب مصر.

(٥) من فاق الرجل أصحابه؛ إذا علاهم بالشرف.

(٦) أي: وَشَوا به.

(٧) في (ف): فأتوا به.

(٨) سقط هذا اللفظ من (ج).

(٩) انظر: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري ص١٨.

(١٠) في (ب): لا يسعىٰ به.

ما لا يصلحُ، وأحضرَهُ لمَا قيلَ فيهِ، فلم يَمْنَعْهُ ذلكَ من نُصْحِهِ وَوَعْظِهِ، وكذلكَ عرفَ المتوكِّلُ فضلَهُ في الدِّينَ، وقالَ: «إذَا ذُكِرَ أهلُ الورعِ فحيَّهلا بذِي النُّونِ!»، أي: فأسرعْ بذكْرِهِ فإنَّهُ أفضَلُهُم[(١)].

قَالَ الإمَامُ القُشَيريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ محمَّدٍ يَقُولُ: سمعْتُ سَعِيدَ بْنَ عُثْمَان يَقُولُ: سَمِعْتُ ذا النُّونِ يَقُولُ[(٣)]: مدارُ الْكَلامِ عَلَىٰ أربَعٍ: حُبِّ الجَلِيلِ، وبُغْضِ القَلِيلِ، واتِّبَاعِ التَّنزِيلِ، وخَوْفِ التَّحْوِيلِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «مدارُ الكلامِ» يَعْنِي: كُلّ مَا تكلَّمَ[(٤)] فيهِ أهلُ التَّحقيقِ لا يخلو مِنْ هَذِهِ الأوجُهِ؛ إمَّا أنْ يتكلَّمُوا في معرفةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وكمالِهِ وجلالِهِ وعظمَتِهِ، أو في تصغيرِ الدُّنيَا وهوانِهَا والإعراضِ عنهَا، أو ما جاءَتْ بهِ الشَّرائعُ منَ الأعمالِ، وبيانِ شروطِهَا وفضْلِهَا وكمالِهَا والنَّظرِ فيما سبقَ، وخوفِ التَّغييرِ والتَّبديلِ بعدَ الاستقامةِ[(٥)].

فإذا عرفَ العبدُ ربَّهُ وأحكامَهُ وطاعتَهُ، وعرفَ دُنْيَاهُ، وتَمَّتْ استقامتُهُ، وحذرَ علىٰ نفسِهِ مِنَ الخَاتِمَةِ وهيَ السَّابِقَةُ، فقدِ استقامَتْ أَحْوَالُهُ، وبقِيَ هاهُنَا الكلامُ فِي الشَّيطانِ ونَزعاتِهِ وعَدَاوَتِهِ، وهو داخلٌ فيما جاءَتْ بهِ الشَّرائعُ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «سمعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سمعْتُ

(١) انظر: إحكام الدلالة ١/٧٩.
(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٨.
(٣) ورد في: تاريخ بغداد ٨/١١٥، والبداية والنهاية ١١/١٣٥ عن الحلاج. ونُسب إليه في: سراج الطالبين ٢/٤٥.
(٤) في (ج): يتكلم.
(٥) انظر: إحكام الدلالة ١/٨٠.
(٦) الرسالة القشيرية ١/٣٨.

سَعِيدَ بنَ[١] أَحْمَدَ بْنَ جَعْفَرٍ يَقُولُ: سمعْتُ مُحَمَّدَ بنَ[٢] أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدِ بنِ سهْلٍ يَقُولُ: سمعْتُ سَعِيدَ بنَ عُثْمَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ المِصْرِيَّ يَقُولُ[٣]: مِنْ علامَاتِ المُحِبِّ للَّهِ عَزَّوَجَلَّ[٤]: متابعةُ حبيبِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَخْلَاقِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَوَامِرِهِ وَسُنَّتِهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا مأخوذٌ من قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فشرطَ ـ سبحانه ـ حُصُولَ محبَّتِهِ للعبدِ باتِّباعِ سُنَّةِ نبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يتَّبعُ سنَّتَهُ علىٰ التَّحقيقِ إلَّا مَنِ اتَّبعَهُ مطلقًا فِي سَائِرِ مَا أمرَ بهِ وفعلَهُ منَ الوَاجِبَاتِ والمَنْدُوبات، وإنْ تعالَتْ فِي الدَّرجاتِ، وكذلِكَ أخلاقُهُ الشَّريفةُ وخِصَالُهُ الحَمِيدَةُ؛ من حِلْمِهِ [١/٢١أ]، وعَفْوِهِ عمَّنْ أذاهُ، وزهدِهِ، وتوكُّلِهِ، وغير ذلِكَ من مقامَاتِ الدِّينِ ودرجاتِهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ[٥]: **«وَسُئِلَ ذُو النُّونِ عَنِ السَّفِلَةِ، فَقَالَ[٦]: مَنْ لَا يَعْرِفُ الطَّرِيقَ إِلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَلَا يَتَعَرَّفُهُ».**

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صَحِيحٌ، فَإِنَّ أَهْلَ التَّوفيقِ والسَّدَادِ رجُلانِ: عالمٌ ومتعلِّمٌ، هُمَا على سَبِيلِ النَّجاةِ، ومَنْ عَدَاهُمَا مَخْدُوعٌ هَالِكٌ عَامِلٌ بِهَواهُ، ومَشْغُوفٌ بِحُبِّ دُنْيَاهُ[٧].

---

(١) سقط من (ب، ج) قوله: سعيد بن.

(٢) سقط من (ب) قوله: محمد بن.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٠، وتاريخ دمشق ٤٢٧/١٧، ومناقب الأبرار ٦١/١، والاعتصام للشاطبي ٩٠/١، ومرآة الجنان ١٥١/٢.

(٤) الصادق في محبته، ففي صحيح مسلم ٢٠٣٤/٤ ـ حديث رقم (٢٦٤٠): «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: المَرْءُ مع من أَحَبَّ».

(٥) الرسالة القشيرية ٣٩/١.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٨٠/١.

(٧) ورد قوله في: حلية الأولياء ٣٧٢/٩، وتاريخ دمشق ٤٢٧/١٧، ومناقب الأبرار ٦٤/١،=

قَالَ الإِمَـامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ[(٢)] أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: سمعتُ [أبا بكرٍ][(٣)] مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ شاذانَ يَقُولُ: سمعْتُ يُوسُفَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: حَضَرْتُ مَجْلِسَ ذِي النُّونِ يَوْمًا وَجَاءَهُ سَالِمٌ المَغْرَبِيُّ فَقَالَ لَهُ: يا أبا الفَيضِ، مَا كَانَ سَبَبَ توبتِكَ؟ قَالَ[(٤)]: عَجَبٌ[(٥)] لا تُطِيقُهُ، قَالَ: بمعبودِكَ؛ إِلَّا أخبرتَنِي[(٦)]، فَقَالَ ذو النُّونِ: أردتُ الخُرُوجَ من مِصْرَ إِلَىٰ بَعْضِ القُرَىٰ فنِمْتُ فِي الطَّرِيقِ فِي بَعْضِ الصَّحارِي، ففتحْتُ عَيْنِي فَإِذَا أَنَا بِقُنْبَرةٍ عَمْيَاءَ، سَقَطَتْ مِنْ وَكْرِهَا عَلَىٰ الأَرْضِ؛ فَانْشَقَّتِ الأَرْضُ فخرَجَ منها سُكُرُّجَتَانِ؛ إِحْدَاهُمَا ذَهَبٌ، وَالأُخْرَىٰ فِضَّةٌ، وَفِي إِحْدَاهُمَا سِمْسِمٌ، وَفِي الأُخْرَىٰ مَاءٌ، فَجَعَلَتْ تأكلُ من هَذَا وَتَشْرَبُ مِنْ هَذَا، فَقُلْتُ: حَسْبِي[(٧)]! قَدْ تُبتُ، وَلزمْتُ البابَ إِلَىٰ أَنْ قبلَنِي».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا يحتملُ أَمْرَينِ:

أحدُهُمَا: أنْ تكونَ رُؤيَا رأىٰ فيهَا القُنْبُرَةَ[(٨)] والسُّكُرُّجتَينِ[(٩)]، فنبَّهَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ أنَّ هذهِ الدَّابَّةَ العَمْيَاءَ العَاجِزَةَ يَرْزُقُهَا أَحْسَنَ رِزْقٍ يَسُوقُهُ إليهَا، يَدُلُّ

= ومفتاح دار السعادة ص١٦٠.

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٩.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) زيادة من (ب، ف).

(٤) ورد قوله في: تاريخ دمشق ١٧/٤٠٣، ومناقب الأبرار ١/٦٤، ووفيات الأعيان ١/٣١٦، والوافي بالوفيات ١١/١٨.

(٥) في (ب): علىٰ عجب.

(٦) في النسخ: ما أخبرتني، والمثبت موافق لما في الرسالة القشيرية، ولما في مظان توثيق قوله السابق، وهو الأصح.

(٧) أي: كفاني هذا في قوة يقيني.

(٨) ضرب من الطير. انظر: حياة الحيوان ٢/٣٢٥.

(٩) تثنية الأسكرجة؛ وهي: إناء صغير توضع فيه من المشهيات علىٰ المائدة. انظر: النهاية لابن الأثير ٢/٣٨٤، والمعجم الوسيط ١/١٨.

علىٰ ذلِكَ قولُهُ: «فنِمْتُ».

و[الثَّانِي]: يحتملُ أنْ يكونَ نامَ واستيقظَ فرآها بعينَيهِ ويكونَ خرقَ عادةٍ، فأتىٰ اللهُ بهذِهِ القُنبرةِ؛ ليقوِّيَ يقينَهُ بهَا علىٰ هذا الوجهِ، يدلُّ عليهِ قولُهُ: «فَفَتحْتُ عَيْنِي»، وهذا يدلُّ علىٰ اليقظَةِ، وكلاهُمَا جائزٌ لا استحالةَ فِيهِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**سمِعْتُ مُحمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سمِعْتُ عَلِيَّ بنَ عُمَر الحافظ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ الرَّشِيقِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا دُجَانَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ يَقُولُ**[٢]: **لا تَسْكُنُ الحِكْمَةُ مَعِدَةً مُلِئَتْ طَعَامًا**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا يَحْتَمِلُ أَمْرَينِ:

أَحَدُهُمَا: أنَّ مَنْ[٣] تَوالَىٰ عليهِ الشِّبعُ يدلُّ علىٰ قوةِ شهواتِهِ وكثرةِ نهمتِهِ فِي الأكلِ، ومحبَّتِهِ للتنعُّمِ، والحكمةُ إصابةُ الصَّوابِ فِي القولِ والفِعْلِ والباطنِ[٤] والظَّاهِرِ، وأينَ مَنْ هو مشغولٌ بالشَّهواتِ والتفرُّغ لهذِهِ الخَيرَاتِ، ولذلكَ قيلَ[٥]: «إذا قَوِيَتِ البطنَةُ خرسَتِ الحِكْمَةُ».

وَالوَجْهُ الثَّانِي: [١/٢١ب] أنَّ ذلكَ في وَقْتِ الامتلاءِ بالطَّعامِ، فيكونُ شغلُهُ بمَا هو فيهِ يضادُّ الفكرةَ في الحِكْمَةِ في وَقْتِهِ هذَا، ويكفِي في حدِّ الامتلاءِ ما زادَ عمَّا قدَّرَهُ الشَّرعُ بقولِهِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[٦]: «حَسْبُ ابْنِ آدمَ أكلاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ـ يَعْنِي جَمع

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٩/١.
(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٦٥/١.
(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٤) في (ب): والباطل، وهو تحريف.
(٥) انظر: حلية الأولياء ٦٧/١٠، ومحاضرات الأدباء ٧٢٨/١. وفي إحياء علوم الدين ٨٢/٣: «وقال لقمان لابنه: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة».
(٦) أخرجه الترمذي في سننه ٥٩٠/٤، وابن ماجه في سننه ١١١١/٢، والبيهقي في سننه الكبرىٰ=

أَكْلَة ؛ وَهِيَ اللُّقمةُ ـ فَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ: فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ».

فإذا امتلأَ العبدُ من الطَّعامِ وكانَ الماءُ زيادةً ضاقَ النَّفَسُ، وحَصَلَ الشُّغْلُ بالنَّفسِ[١]، وأعرضَ عنِ الحكمةِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: **«وسُئِلَ ذو النُّونِ عَنِ[٣] التَّوبةِ، فَقَالَ[٤]: تَوْبَةُ العَوامِّ من الذُّنُوبِ، وتَوْبَةُ الخَواصِّ من الغَفْلَةِ».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ حقيقةَ التَّوبةِ: هيَ الرُّجوعُ إلى اللهِ ـ تعالى ـ[٥]، فإنْ كانَتْ عن ذَنْبٍ كانَتْ[٦] واجبةً، وهيَ أوَّلُ الدَّرجاتِ، ولهذا جعلَهَا توبةَ العَوامِّ[٧].

وإنْ كانَتْ عن نقصٍ؛ إمَّا مكروهٌ، أو تركُ مندوبٌ، أو اشتغالٌ بمفضولٍ عن أفضلَ، أو بغفلةٍ عن يقظةٍ وذكْرٍ، فهذِهِ كلُّهَا توبةٌ مندوبٌ إليهَا، وهيَ توبةُ الخواصِّ[٨]، ومِنْ كمالِ توبتِهِمْ رجوعُهُمْ إلى اللهِ ـ تعالى ـ عن سُكُونِهِمْ لِتوبتِهِم، ورُؤيتُهُمُ الفضْلَ لهُ في سائرِ أعمالِهِم.

= ٤/١٧٨، والطبراني في المعجم الكبير ٢٠/٢٧٣.

(١) في (ب): بالتنفس.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٩.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) ورد قوله في: تاريخ دمشق ١٧/٤٣١، ومناقب الأبرار ١/٦٥، والآداب الشرعية ١/١٣٦.

(٥) انظر: التعريفات ص٩٥، ومعجم مقاليد العلوم ص٢١٦.

(٦) في (ب): فكانت.

(٧) مصداقا لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

(٨) أي: خواص المؤمنين، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]. وزاد بعضهم توبة خواص الخواص؛ وهي التوبة من رؤية الحسنات والالتفات إليها. انظر: إحكام الدلالة ١/٨٢.

قَالَ الإمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ(١):

«وَمِنْهُم:

[٣] أَبُو عَلِيٍّ الفُضَيْلُ(٢) بنُ عِيَاضٍ(٣)

خُرَاسَانِيٌّ، مِنْ نَاحِيَةِ (مَرْوَ)(٤)، وَقِيلَ: إِنَّهُ وُلِدَ بِـ(سَمَرْقَنْد) وَنَشَأَ بِـ(أَبِيوَرْد)(٥)، مَاتَ بِمَكَّةَ فِي المُحَرَّمِ(٦) سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلاثِينَ(٧) ومائةٍ.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: أخبرَنا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: حدَّثَنا الحَسَنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ العسكريُّ قَالَ: حدَّثَنَا ابْنُ أَخِي أَبِي زرعةَ، قَالَ: حدَّثَنا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ راهويهِ قَالَ: حدَّثَنا أَبُو عُمارةَ(٨) عَنِ الفَضْلِ بْنِ موسى قَالَ: كَانَ الفُضَيلُ شاطرًا يقطعُ الطَّريقَ بَيْنَ (أَبِيوَرْدٍ)(٩) وَ(سَرَخْس)، وَكَانَ سَبَبُ تَوْبَتِهِ أَنَّهُ عَشقَ جَارِيَةً، فَبَيْنَمَا هُوَ يَرْتَقِي(١٠) الجُدْرَانَ إِلَيْهَا سمعَ تَالِيًا يَتْلُو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٤٠.

(٢) في (ج): أبو الفضيل، والصواب المثبت.

(٣) انظر في ترجمته: الطبقات الكبرى ٥/٥٠٠، والمعارف ص٥١١، والثقات ٧/٣١٥، وطبقات الصوفية ص٢٢، وحلية الأولياء ٨/٨٤، ومناقب الأبرار ١/٧، وتاريخ دمشق ٤٨/٣٧٥، وتهذيب الكمال ٢١/٩٦، ووفيات الأعيان ٤/٤٧، وتاريخ الإسلام ١٢/٣٣١، وتذكرة الحفاظ ١/٢٤٥، والوافي بالوفيات ٢٤/٥٩، والبداية والنهاية ١٠/١٨٣، والعقد الثمين ٧/١٣، وطبقات الحفاظ ص١١٠، والكواكب الدرية ١/٣٩٥.

(٤) أشهر مدن خراسان. انظر: معجم البلدان ٥/١١٢.

(٥) مدينة بخراسان. انظر: معجم البلدان ١/٨٦، والروض المعطار ص٧.

(٦) في (ب): الحرم.

(٧) في (الشرح): وثمانين.

(٨) في الرسالة القشيرية: عمار.

(٩) هي: مدينة بخراسان بين سرخس ونسا. انظر: معجم البلدان ١/٨٦.

(١٠) في (ج): يرقى.

ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] فقالَ: يا ربِّ قدْ آنَ، فرجَعَ[(١)]، فآواهُ اللَّيلُ إلىٰ خربةٍ، فإذا فيها رُفْقةٌ[(٢)]، فقالَ بعْضُهم: نرتحلُ، وقالَ قومٌ: حتَّىٰ نُصْبحَ، فإنَّ فُضيلًا علىٰ الطَّريقِ يقْطَعُ علَيْنا، فتابَ الفُضيلُ وأمَّنَهُم، وجاورَ الحَرَمَ[(٣)] [حتَّىٰ ماتَ][(٤)]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهذِهِ[(٥)] الحكايةُ فيها بعضُ ما يُغْضِي[(٦)] عليهِ ممَّا لو تُرِكَ كانَ أحسنَ، وقدِ استخرتُ اللهَ ـ تعالىٰ ـ في أنْ نتأوَّلَ من هذِهِ الرِّسالةِ، مِنْ ذلكَ كلَّ مَا نُصادِفُهُ في بابٍ منَ الأبوابِ، ونبيِّنُ فيهِ وجهَ الصَّوابِ ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ، فقولُهُ: هاهُنَا ذكرُ الجاريةِ وارتقاؤُهُ [١/٢٢أ] إليها الجُدُراتُ يستغني عنهُ بأنْ يقالَ: كانَ في أيَّامِ صبوتِهِ وجهالَتِهِ سمعَ تاليًا يتلُو: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ﴾ [الحديد: ١٦]... الآية، فتابَ، فإنَّ التَّصريحَ بذكْرِ النَّقائصِ يُؤلِمُ سَامِعَهَا[(٧)] وإنْ تابَ عنها إذا بَلَغَتْهُ، ومن هذا الوجْهِ منعَ الشَّرعُ منَ الغيبَةِ، وإنَّمَا التفتَ الإمامُ إلىٰ فائدةِ الحِكَايةِ وأعرضَ عن لفظِهَا، واللهُ الموفِّقُ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ[(٨)]: «وقالَ الفُضيلُ بنِ عياضٍ[(٩)]: إذا أحبَّ اللهُ عبدًا**

---

(١) في نتائج الأفكار ١/١١٧: «تأمل يا أخي، حيث جعل الله الذهاب إلىٰ المعصية رجوعًا إلىٰ الطاعة».

(٢) أي: جماعة من الناس.

(٣) أي: مكث فيه حتىٰ مات.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) في (ب): هذه.

(٦) أي: يُسكت عنه.

(٧) في (ب): سماعها.

(٨) الرسالة القشيرية ١/٤٠.

(٩) ورد قوله في: حلية الأولياء ٨/٨٨، وتاريخ بغداد ١١/٤٠، وتاريخ دمشق ٤٨/٤٢٦، ومناقب=

أَكْثَرَ غَمَّهُ ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبدًا وَسَّعَ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ (١)».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا فيه نظرٌ ؛ فإنَّ غمَّهُ بمَا فاتَهُ منَ الدُّنيا وما ضُيِّقَ عليهِ فيها ليس محمودًا على الإطلاقِ ، بل نَخْشَى على مَنِ ابْتُلِيَ بهِ التَّسخُّطَ بالمَقْدُورِ ، وأحسنُ أحوالِهِ الَّذِي يُرجى [لَهُ] (٢) فيها الثَّوابُ غمُّهُ على تأخُّرِ ما لا بُدَّ له منهُ ممَّا يستعينُ به على طاعةِ ربِّهِ ، ويزيلُ عنه تَشْوِيشَهُ ؛ لِيوقِعَ طَاعتَهُ (٣) على أَكْمَلِ وَجْهٍ.

وأمَّا الوجهُ البيِّنُ الواضحُ فغمُّهُ على تقصيرِهِ فِي أَمْرِ دِينِهِ ، وَعَدَمُ نهضتِهِ في طاعاتِهِ لربِّهِ ، وقِلَّةُ ذكْرِهِ لهُ فِي سَائِرِ حَرَكَاتِهِ ، فَهَذَا الغَمُّ محمودٌ كلُّهُ ، فإنَّهُ الدِّينُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَإِذَا أَبْغَضَ اللهُ عَبْدًا وَسَّعَ عَلَيهِ دُنْيَاهُ» ، فهذا ـ أيضًا ـ فيه تفصيلٌ ، فإنَّ مَنْ وسَّعَ عليه دُنْيَاهُ وشَغَلَتْهُ عنه بِحُبِّهِ لها (٤) وتصرُّفِهِ فِي تحصيلِهَا وحفظِهَا حتَّى شغلَهُ ذلكَ عن أمرِ آخرتِهِ ، فهذهِ علامةُ البُغْضِ والإبعادِ.

وأمَّا مَنْ وسَّعَ عليهِ دنياهُ وزهَّدَهُ فيها ويسَّرَهُ لِصَرْفِهَا في جهةِ البرِّ والطَّاعاتِ ، فهذهِ علامةُ المحبَّةِ لهُ وتيسيرُ أبوابِ الخيراتِ ، فكلامُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مخصوصٌ ببعضِ الجهاتِ لا على الإطلاقِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ (٥): «وَقَالَ ابْنُ المُبَارَكِ (٦): إِذَا مَاتَ الفُضَيلُ ارْتَفَعَ الحُزنُ».

= الأبرار ١/٨ ، ١٥ ، ووفيات الأعيان ٤/٤٨ ، وسير أعلام النبلاء ٨/٤٣٢.

(١) أي: يسَّر له تحصيلها.

(٢) زيادة من (ج).

(٣) في (ب): طاعة.

(٤) في (ب): وشغلته المحبة لها.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٤٠.

(٦) ورد قوله في: حلية الأولياء ٨/٨٧ ، وتاريخ دمشق ٤٨/٣٨٢ ، ومناقب الأبرار ١/١١ ، ووفيات الأعيان ٤/٤٩ ، وتاريخ الإسلام ١٢/٣٣٦.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على أنَّ الفُضَيلَ كان في زمانِهِ أظهرَ المَحْزُونِيْنَ، وبهذا قالَ: «ارتفعَ»، يعني هذا الحزنَ البالغَ، وقد كانَ الحسنُ البصريُّ شديدَ الحزنِ حتَّى كأنَّهُ حديثُ عهدٍ بمصيبةٍ في كلِّ وقتٍ.

وحكِيَ أنَّ الحسنَ قال لأصحابِهِ(١): سيروا بنَا نزورُ العلاءَ بنَ زيادٍ، وكان من المحزونينَ، حتَّى سَلَّهُ الحُزْنُ(٢)، وكانتْ أختُهُ تَنْدفُ(٣) تحتَه القُطنَ ليضعَ جنبَهُ عليهِ، فلمَّا دخلَ عليهِ الحسنُ فقالَ لهُ: كيف أنتَ يا علاءُ؟ فأجابَهُ: واحزنَاهُ على الحزنِ، فقالَ الحسنُ [١/٢٢ب] لأصحابِهِ: قومُوا بنا فإلى هذا انتهى استقلالُ الحُزْنِ، فاستقلَّ الحسنُ حزنَ نفسِهِ وأصحابِهِ بالنِّسبةِ لحُزْنِ العَلاءِ، واستقلَّ العلاءُ حزنَ نفسِهِ لمَا يعلمُهُ من درجاتِ المَحْزُونِينَ.

فيحملُ كلامُ ابنِ المباركِ على ما ذكرناهُ؛ مِن أنَّهُ فِي زمانِهِ كانَ أكثرَ النَّاسِ حُزْنًا.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٤): «وَقَالَ الفُضَيلُ [بنُ عِيَاضٍ](٥): لو أَنَّ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا عُرِضَتْ عَلَيَّ، [وَ]لَا أُحَاسَبُ بِهَا، لَكُنتُ أَتقذَّرُهَا، كَمَا يَتَقَذَّرُ أَحَدُكُم الجِيفَةَ إِذَا مَرَّ بِهَا أَنْ تُصِيبَ ثَوْبَهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على كَمَالِ حَالِهِ مَعَ مَوْلَاهُ، وأُنْسِهِ بِهِ

---

(١) ورد قوله في: الهم والحزن لابن أبي الدنيا ص٥٤، وحلية الأولياء ٢/٢٤٢، وصفة الصفوة ٣/٢٥٣، وسير أعلام النبلاء ٤/٢٠٤.

(٢) في (ب): سأله عن الحزن، والصواب المثبت.

(٣) في التهذيب «ن د ف»: «النَّدْفُ: طَرْق القَطن بالمِنْدَفِ، والفِعل: يَنْدِف... والنَّدِيفُ: القُطن الذي يباع في السوق مَنْدوفاً».

(٤) الرسالة القشيرية ١/٤١.

(٥) زيادة من (ب). وورد قوله في: حلية الأولياء ٨/٨٩، وتاريخ دمشق ٤٨/٣٨٢، ومناقب الأبرار ١/٨، وإحياء علوم الدين ٣/٢٠٩، وصفة الصفوة ٢/٢٣٨، ووفيات الأعيان ٤/٤٨، والبداية والنهاية ١٠/١٩٩.

وتلذُّذِهِ في خُلْوتِهِ بِمُنَاجَاتِهِ، وكَمَالِ استغراقِهِ بهِ وشَريفِ حَالَاتِهِ، حتَّىٰ صَارَ ذلكَ قرَّةَ عينِهِ، فهو يكرَهُ كلَّ ما يشغلُهُ عنهُ أو يشوِّشُهُ[١] عليهِ، فمَنْ هذِهِ حالُهُ لو عُرِضَتْ عليه الجَنَّةُ بما فيها لكانَ ما هوَ فيهِ ألذَّ عندَهُ منها، فكيفَ بالدُّنيَا وكراهةِ مولاهُ لهَا، وتَزْهيدِ عبادِهِ فيها؟![٢].

وهَذَا موجودٌ فيما بينَنَا مَنْ أبغضَ شخصًا شقَّتْ عليهِ رؤيتُهُ وسَمَاعُ حديثِهِ، بل ذكرُ اسمِهِ من غَيْرِهِ، فاللهُ ـ تعالىٰ ـ يمُنُّ علينا[٣] بتَمامِ مَعْرِفَتِهِ، والتلذُّذِ بِمُنَاجَاتِهِ، ونَيْلِ جَمِيْلِ الأَحْوَالِ الشَّريفةِ في قُرْبِهِ ودرجاتِهِ بمحمَّدٍ وآلِهِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «وَقَالَ الفُضَيلُ[٥]: لَو حَلَفْتُ أَنِّي مُراءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ أَنِّي لَسْتُ بِمُرَاءٍ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ للرِّياءِ درجاتٍ باختلافِ مَراتبِ الصَّالحينَ، وذلكَ أنَّ حقيقةَ الرِّياءِ: هو التفَاتُ القَلْبِ في الطَّاعاتِ إلىٰ ثَوابِ غيرِ اللهِ وجَزَائِهِ علىٰ الأعمالِ.

فمِنَ النَّاسِ[٦] مَنْ يفعلُ هذا ويدخلُ عَمَلَهُ عليهِ، فهذا غايةٌ فِي الفسادِ.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ يدخلُ عَمَلَهُ للهِ ويعرضُ لهُ فِي أثنائِهِ ما يتزيَّدُ[٧] بسببِهِ، فيبطلُ عَمَلُهُ.

---

(١) في (ب): يشوش.
(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٨٤.
(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٤) الرسالة القشيرية ١/٤١.
(٥) ورد قوله في: حلية الأولياء ٨/٩٤، وتاريخ دمشق ٤٨/٣٨٢، وسير أعلام النبلاء ٨/٤٣٤.
(٦) شرع في بيان أحوال المُرائين.
(٧) في (ب): يتز.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْفِي مَا خَطَرَ لهُ منَ التَّزيُّدِ، ويبقىٰ مسرورًا فرِحًا باطِّلاعِ النَّاسِ عليهِ في عملِهِ ولا ينفيهِ، فهذا مختلَفٌ فيهِ.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ يسكنُ لعمَلِهِ، وَإِنْ كَانَ صَحِيحًا تَامًّا، وَيَسْتَحْسِنُهُ وَيعجبُ بهِ، ويَنْسَىٰ مِنَّةَ ربِّهِ.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ يلتفتُ في وقتِ عبادتِهِ لربِّهِ؛ لحُسْنِ عملِهِ، وإنْ رأىٰ مِنَّةً مِنْ رَبِّهِ عَلَيهِ وسلِمَ منْ عُجْبِهِ[١].

وبهذا الاعتبارِ قيلَ[٢]: «رِيَاءُ العَارِفِينَ أَفْضَلُ مِنْ إِخْلَاصِ المُرِيدِينَ»، فإخلاصُ المريدينَ سلامتُهُمْ من أوَّلِ رُتَبِ الرِّياءِ المُحَرَّمِ، ويكونُونَ[٣] مُخْلِصِينَ، والتفاتُ العارفِ إلىٰ عملِهِ [١/٢٣أ] والنَّظرُ لحُسْنِهِ في حالِ عِبادتِهِ التفاتٌ إلىٰ غيرِ اللهِ، فعبَّرَ بهذهِ الحالةِ عن رياءِ العارفينَ[٤]، وبينَهُ وبينَ الرِّياءِ الأوَّلِ درجاتٌ[٥].

فيحملُ[٦] كلامُ الفُضَيلِ علىٰ أنَّهُ لو حلفَ أنَّهُ مُراءٍ لعَدَمِ سلامتِهِ منْ هذهِ المَرَاتِبِ كلِّهَا لصَدَقَ، ولو قيلَ لهُ: احلِفْ أنَّكَ لستَ بمراءٍ ما جَسَرَ ـ وإنْ كانَ منَ المخلصينَ ـ خوْفًا منَ الإخلالِ بهذِهِ الدَّرجاتِ العاليةِ، واللهُ أعلمُ.

قَالَ الإِمَامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٧]: «وَقَالَ الفُضَيلُ[٨]: تَرْكُ العَمَلِ لِأَجْلِ النَّاسِ رِيَاءٌ،

---

(١) فهذان لا يبطلان عمله.

(٢) نُسب لرويم في: حلية الأولياء ١٠/٢٩٧، وتاريخ بغداد ٨/٤٣٠، وتاريخ الإسلام ٢٣/١٢١.

(٣) في (أ، ج): ويكونوا، و(ب): ويكونا. والصواب المثبت.

(٤) أي: ورياء العارفين التفاتهم إلىٰ عملهم، ونظرهم إلىٰ حُسنِه في حال عبادتهم.

(٥) أفاد ذلك كله بنصه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٨٤ ـ ٨٥.

(٦) في (ج): فيحتمل.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٤١.

(٨) ورد قوله في: حلية الأولياء ٨/٩٥، وتفسير البغوي ١/١٢١، والتعريفات ص٢٨، والأذكار للنووي ص٦، والكبائر ص١١، ومرقاة المفاتيح ٥/١٥٥.

وَالعَمَلُ لِأَجْلِ النَّاسِ هُوَ الشِّرْكُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «تَرْكُ العملِ لأجْلِ النَّاسِ رياءٌ» فيه تفصيلٌ: وذلكَ أنَّ مَنْ تركَ العَمَلَ لأجْلِ النَّاسِ خَوْفًا من وُقُوعِهِ في الرِّياءِ لا يكونُ مُرائيًا، وإنْ كانَ خاسرًا لعملِهِ مضيِّعًا لهُ، بل حقُّهُ أنْ ينفيَ ذلكَ الخاطرَ ويدخلَ.

وأمَّا مَنْ تركَ العملَ ليُثنَىٰ عليهِ بالإخلاصِ فهوَ مُرَاءٍ، وكذلِكَ قد يُرَائِي بالشِّركِ كمَا يُرائِي بالفعْلِ مَنْ سكتَ عنِ الغيبَةِ والكَذِبِ والأمورِ الَّتِي تنزلُ بقدرِهِ فِي الدِّينِ؛ لئلَّا تنزلَ درجتُهُ عندَهُم، فقد راءىٰ بالتَّرْكِ أَيْضًا.

وأمَّا قولُهُ: «وَالعَمَلُ لِأَجْلِ النَّاسِ هُوَ الشِّرْكُ[(١)]» فيُحمَلُ علىٰ أنَّهُ أرادَ بعمَلِهِ وجهَ اللهِ ومحمدَةَ الخَلْقِ، فهذا هو المُشركُ؛ لكونِهِ أشركَ فِي نيَّتِهِ، وإنْ كانَ الكلُّ رياءً، سواءٌ انفردَ باعثُ الرِّياءِ أو انضمَّ إليهِ قصدُ اللهِ، فالكلُّ رياءٌ محرَّمٌ، إلَّا أنَّ التَّرْكَ أو الفعلَ لأجلِ النَّاسِ خاصَّةً فهوَ رياءٌ لا شِرْكَ فيهِ، وإنَّمَا يكونُ الشِّركُ إذا عملَ العبدُ بِبَاعِثَينِ؛ أحدهُمَا: للهِ، والثَّانِي: نيلُ ما عندَ المخلوقينَ من حَمْدٍ أو مالٍ، أو ما يَجْرِي مَجْرَاهُ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الرَّازِيُّ[(٣)]: صَحِبْتُ الفُضَيْلَ ثَلَاثِينَ سَنَةً مَا رَأَيْتُهُ ضَاحِكًا وَلَا مُتَبَسِّمًا إِلَّا يَوْمَ مَاتَ ابْنُهُ عَلِيٌّ، فَقُلْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ! فَقَالَ: إِنَّ اللهَ أَحَبَّ أَمْرًا، فَأَحْبَبْتُ ذَلِكَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا دليلٌ علىٰ كَمَالِ حزنِهِ وغلبَةِ حالِهِ عليهِ في

---

(١) أي: الشرك الخفي في العمل.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٤١.

(٣) ورد قوله في: الرضا عن الله بقضائه لابن أبي الدنيا ص١٠٨، وحلية الأولياء ٨/١٠٠، وتاريخ دمشق ٤٨/٣٨٣، ومناقب الأبرار ١/٨، ووفيات الأعيان ٤/٤٩.

سائرِ أوقاتِهِ، وإنَّمَا تكلَّفَ البشرَ والسُّرورَ بموتِ ولَدِهِ مخالفةً للعادةِ، فإنَّ النَّاسَ يَحْزَنُونَ عند هذهِ الوَقَائعِ ويَتألَّمونَ لهَا، والحقُّ - سبحانه - يَخْتَبِرُ أولياءَهُ ويَمْتَحِنُهُمْ وينظرُ كيفَ يَعْمَلُونَ، وعَلِمَ أنَّ اللهَ - تعالىٰ - يحبُّ منهُ هذهِ الحالةَ الَّتِي ظهرَتْ منهُ، فإنَّهَا دليلُ الرِّضَىٰ بقضائِهِ - تعالىٰ -، فأظهرَهَا موافقةً لِمَولاهُ، واستقبالًا [٢٣/١ب] بالرِّضَىٰ لمَا قَدَّرَهُ وقَضَاهُ[(١)]؛ ولذلكَ قالَ: «**إنَّ اللهَ أحبَّ أمرًا، فأحببْتُ ذلكَ**».

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَقَالَ الفُضَيلُ[(٣)]: إنِّي لأَعْصِي اللهَ، فَأَعْرِفُ ذَلِكَ فِي خُلُقِ حِمَارِي، وَخَادِمِي[(٤)]**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا مِن جُملةِ الحفظِ للأولياءِ إذا قصَّرُوا في أحوالِهِم فيما بينَهُم وبينَ ربِّهم أَدَّبَهُم وَنَبَّهَهُم عَلَىٰ مَا وَقَعَ مِنْهُم؛ لِيَرْجِعوا إليهِ بسرعةٍ، وتارةً يعكسُ عليهِم أسبابَ دُنْيَاهُمْ، وتَارَةً أسبابَ آخرتِهِم مِنْ تغيُّرِ قلوبِهِم وعَدَمِ نَشَاطِهِم وفُقْدَانِ لَذَّتِهِم في عِبَادَتِهِم، فإذا رَجَعُوا إليهِ بالتَّذلُّلِ والسُّؤالِ مَنَّ عَلَيهِم بِشَرِيفِ النَّوالِ[(٥)].

فمِنْ ذلكَ مَا حُكِيَ عن بَعْضِهِم أنَّهُ كانَ سائرًا إلىٰ الجمعةِ فانقطعَ شِسْعُ نَعْلِهِ[(٦)]، فجلسَ ليُصلحَهُ، فقالَ له شابٌ: يا عَمِّ، هاتِ نُصْلِحْهُ لكَ، فأَذِنَ له في ذلكَ، ثمَّ قالَ لهُ: يا وَلَدِي، تدرِي لِمَ انقطعَ شَسْعُ نعلِي؟ فقال لهُ: يقولُ الشَّيخُ،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٨٥.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٤١.

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ٨/١٠٩، ومناقب الأبرار ١/٨، وتاريخ دمشق ٤٨/٣٨٣، والتدوين في أخبار قزوين ٤/٣٣، وصفة الصفوة ٢/٢٣٨.

(٤) وذلك بإساءة خلقه معي.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٨٥.

(٦) الشسع: سير يمسك النعل بأصابع القدم. انظر: تهذيب الأسماء ٣/١٥٤، والمعجم الوسيط ١/٤٨١.

فقالَ [له][١]: لأنِّي ما اغتسلْتُ للجمعةِ، قالَ لهُ: يا عَمِّ، هنا موضعٌ تَدْخُلُ لِتَغْتَسِلَ، فَدَخَلَ فَاغْتَسَلَ[٢]، فلمَّا أخلَّ بسُنَّةِ غَسْلِ الجمعةِ نُبِّهَ بقطْعِ شِسْعِ نَعْلِهِ؛ وهو أنَّكَ لم تَمْشِ مستقيمًا على أفضلِ وُجُوهِ عبادتِكَ، فلمَّا أهملتَ أُهْمِلْتَ.

وهذا لِمَنْ[٣] جلَّتْ رتبتُهُ، فإنَّهُ لم يُسْمَحْ له كَمَا يُسْمَحُ لِغَيرِهِ، وربَّمَا كانَتِ الغَفلاتُ لِمَنْ هذهِ درجتُهُ؛ رحمةً لمَا يَعْقُبُهَا مِنَ الجَدِّ وَالتَّشْمِيرِ، وَإِنْ كَانَتِ الغَفْلَةُ بَلاءً وَنِقْمَةً فِي حَقِّ غَيْرِهِ، وَاللهُ المعينُ[٤].

(١) زيادة من (ب).
(٢) حُكي ذلك عن أحمد بن حنبل في: مدارج السالكين ٢/٤٦٧.
(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٨٥.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

وَمِنْهُم:

[٤] أَبُو مَحْفُوظٍ مَعْرُوفُ بْنِ فَيْرُوزٍ الكَرْخِيُّ[(٢)]

كَانَ مِنَ المَشَايِخِ الكِبَارِ، مُجَابَ الدَّعْوَةِ، يُسْتَشفَىٰ[(٣)] بِقَبْرِهِ، يَقُولُ البَغْدَادِيُّونَ: قَبْرُ مَعْرُوفٍ تِرْيَاقٌ مُجَرَّبٌ.

وَهُوَ مِنْ مَوَالِي عَلِيِّ بْنِ مُوسَىٰ الرِّضَا[(٤)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مَاتَ سَنَةَ مِائَتَيْنِ.

وَقِيلَ: إِحْدَىٰ وَمِائَتَيْنِ.

وَكَانَ أُسْتَاذَ سَرِيٍّ السَّقَطِيِّ، وَقَدْ قَالَ لَهُ يَوْمًا: إِذَا كَانَتْ لَكَ إِلَىٰ اللهِ حَاجَةٌ فَأَقْسِمْ عَلَيْهِ بِي».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا سائغٌ إذا سَلِمَ من رؤيَةِ النَّفسِ، وصحَّتْ فيهِ النِّيَّةُ فِي كمالِ حُسْنِ ظنِّ المريدِ بهِ؛ ليكمُلَ اقتداؤُهُ بهِ، ويترقَّىٰ فِي درجاتِ الخيرِ بسببِهِ، فإنَّهُ إذا كانَتْ لهُ حاجةٌ وأقسَمَ علىٰ ربِّهِ بشيخِهِ فقُضِيَتْ لهُ عَلِمَ صِحَّةَ سُلُوكِ شيخِهِ في طَرِيقِهِ ورفعَ درجتَهُ عندَ ربِّهِ، وإذا استقرَّ ذلكَ في نفسِهِ سارعَ في الاقتداءِ بهِ في سُلُوكِهِ، وانتفَعَا جميعًا.

---

(١) الرسالة القشيرية ٤٢/١.

(٢) انظر في ترجمته: حلية الأولياء ٣٦٠/٨، وطبقات الصوفية ص٨٠، والثقات ٢٠٦/٩، وطبقات الحنابلة لأبي يعلىٰ ٣٨١/١، ومناقب الأبرار ١٠٩/١، والسلوك في طبقات الملوك ٣٥٤/٢، وفيات الأعيان ٢٣١/٥، والمنتظم ٨٨/١٠، والمستطرف ٣١٢/١، ووفيات الأعيان ٢٣١/٥، وتاريخ الإسلام ٣٩٨/١٣، وسير أعلام النبلاء ٣٣٩/٩، وطبقات الأولياء ص٢٨٠، والطبقات الكبرىٰ ١٣٣/١، وشذرات الذهب ٣٦٠/١، والكواكب الدرية ٧١٥/١.

(٣) في (ج، ف): يستسقىٰ، وهو تصحيف، والقصد: بالحضور عند قبره.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

فصارَ هذا الكلامُ منْ[١] معروفٍ للسَّريِّ [١/٢٤أ] من بابِ التَّنْبِيهِ علىٰ الخَيْرِ ؛ بل مِنْ أفضلِهَا ، ومن هذا القبيلِ ذِكْرُ الشَّيخِ لتلميذِهِ كراماتِهِ ، وخوارقَ عاداتِهِ ، وأَسْرَارَ مُعَامَلَتِهِ بينَهُ وبينَ ربِّهِ في قَلْبِهِ[٢] ، ولولا ذلكَ ما نُقِلَ إلينا من أَحْوَالِهِمْ شَيءٌ ، وإنَّمَا يُظْهِرُونَهَا لمثلِ هذهِ الفوائدِ ، واللهُ المسدِّدُ .

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣] : «سَمِعْتُ الأستاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، يَقُولُ : كَانَ معروفُ الكرخيُّ أَبَوَاهُ نَصْرَانِيَّينِ ، فَسَلَّموا مَعْرُوفًا إِلَىٰ مؤدِّبِهم وَهُوَ صَبِيٌّ ، فكَانَ المُؤَدِّبُ يَقُولُ لَهُ : قلْ : اللهُ[٤] ثالثُ ثلاثةٍ ، فَيَقُولُ : بَلْ هُوَ وَاحِدٌ[٥] ، فَضَرَبَهُ المُعَلِّمُ يَوْمًا[٦] ضَرْبًا مُبْرِحًا ، فَهَرَبَ مَعْرُوفٌ ، فكَانَ أَبَوَاهُ يَقُولَانِ : لَيْتَهُ يَرْجِعُ إِلَيْنَا عَلَىٰ أَيِّ دِينٍ يشَاءُ فنوافِقَهُ .

ثُمَّ إِنَّهُ أَسْلَمَ عَلَىٰ يَدَي عَلِيِّ بْنِ موسَىٰ الرِّضَا ، وَرجعَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ ، وَدَقَّ البَابَ ، فَقِيلَ : مَنْ بِالبَابِ ؟ فَقَالَ : مَعْرُوفٌ ، فَقَالُوا : عَلَىٰ أَيِّ دِينٍ ؟ فَقَالَ : عَلَىٰ الدِّينِ الحَنِيفِيِّ ، فَأَسْلَمُ أَبَوَاهُ» .

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : وهذا من جُمْلَةِ حفظِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ للأولياءِ أن يُكَرِّهَ لَهُمُ الشُّرورَ من صِغَرِهِمْ ويُحَبِّبَ لَهُم الخيراتِ ؛ لتسهُلَ عليهِم عندَ البلوغِ ووقتَ التَّكليفاتِ ، ولذلِكَ أمرَنَا أنْ نأمرَ الصِّبيانَ بالصَّلاةِ لسبعِ سنينَ ، ونضربَهُمْ عليهَا لعشرٍ .

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب) .

(٢) أفاده الشيخ زكريا في : إحكام الدلالة ١/٨٦ ـ ٨٧ .

(٣) الرسالة القشيرية ١/٤٢ .

(٤) سقط لفظ الجلالة من (ج ، ف) .

(٥) في (ف) : «فيقول معروف : بل هو الله الواحد» .

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب) .

فالحقُّ ـ سبحانه ـ يقوِّي قلبَ مَنْ أرادَهُ بالخيرِ، ويكرهُ له الشَّرَّ فِي صغرِهِ، ولذلِكَ كانَ المعلِّمُ يضربُهُ علىٰ أنْ ينطقَ بكلمَتَي الكفرِ فلم يفعَلْ، فلمَّا أغلظَ عليهِ فَرَّ إِلَىٰ مَوْلَاهُ، وَلَمَّا بلغَ أسلَمَ علىٰ يدَي عليِّ بنِ موسىٰ الرِّضَا[١]، وكانَ من بركَةِ إسلامِهِ وحُسْنِ سلوكِهِ تأثيرُ ذلِكَ في أبوَيهِ، حتَّىٰ لم يجمعْ اللهُ بينَهُ وبينَهُمَا إلَّا علىٰ أحسنِ الأحوالِ، وَهَذَا شَأْنُهُ ـ تعالىٰ ـ مَعَ كُلِّ مَنْ فَرَّ إِلَيهِ مِنْ مَحَلِّ[٢] سخطِهِ أنْ يردَّهُ إليه مُكرَّمًا، فينتفعَ بهِ مَنْ فرَّ منهُ، ومِنْ ذلِكَ ما جرَىٰ لموسىٰ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ لمَّا فرَّ من فرعونَ، كلَّمَهُ ربُّهُ وردَّهُ إليه رسولًا، ولمَّا خرجَ نبيُّنَا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكَّةَ مُهاجرًا مَكَّنَهُ رَبُّهُ وَرَدَّهُ إليهَا فَاتِحًا، وَمَالِكًا قَاهِرًا[٣]، فلَهُ الحمدُ علىٰ جَميلِ صُنْعِهِ معَ أنبيائِهِ وأوليائِهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الحَرْبِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ سَرِيًّا السَّقَطِيَّ يَقُولُ**[٥]: **رَأَيْتُ مَعْرُوفًا الكَرْخِيَّ فِي النَّوْمِ كَأَنَّهُ تَحْتَ العَرْشِ** [١/٢٤ب]، **فَيَقُولُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **لِمَلَائِكَتِهِ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَعْلَمُ يَا رَبِّ**[٦]، **فَيَقُولُ: هَذَا مَعْرُوفُ الكَرْخِيُّ، سَكِرَ مِنْ حُبِّي**[٧]، **فَلَا يَفِيْقُ إِلَّا بِلِقَائِي**».

---

(١) هو: أبو الحسن علي الرضا بن موسىٰ الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين، مات بطوس سنة اثنين ومائتين، وقيل: ثلاث ومائتين.
انظر في ترجمته: وفيات الأعيان ٣/٢٦٩، والأنساب للسمعاني ٣/٧٤.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٨٧.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٤٢ ـ ٤٣.

(٥) ورد قوله في: حلية الأولياء ٨/٣٦٦، ومناقب الأبرار ١/١١٠، ووفيات الأعيان ٥/٢٣٢، وسراج الطالبين ٢/٢٨.

(٦) في (ج): يا ربنا.

(٧) في نتائج الأفكار ١/١٢٣: «أي: غلب عليه هيام الحب بدوام المتابعة مع الإخلاص في العمل=

※ قَالَ الشَّـارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذهِ الرُّؤيَا تَنْبِيْهٌ للسَّرِيِّ علىٰ الجدِّ والسُّلُوكِ والتَّخلُّقِ بأخلاقِ شَيْخِهِ، في كَمَالِ محبَّتِهِ لِمَولاهُ، وجَمِيلِ حَالتِهِ فِي تَقْوَاهُ، حتَّىٰ بَاهَىٰ ـ سبحانه ـ بهِ ملائكتَهُ بقولِهِ: مَنْ هذا؟ وهو أعلمُ بهِ؛ ليجمعَ هِمَمَهُمْ عليهِ قبلَ الجَوَابِ، ويعرفَّهُمْ ما هو عليهِ من حُسْنِ الاستقامةِ والصَّوابِ معَ ما ابتلاه بهِ من اختلافِ الأهواءِ والشَّهَواتِ، وتسليطِ عَدُوِّهِ عليهِ بالوَسْوسةِ وصنوفِ الحِيَلِ والتَّلبيساتِ، ومعَ ذلكَ سَكِرَ من حُبِّ مولاه، حتَّىٰ لم يلتفتْ لِسِوَاهُ، فإنَّ الملائكةَ ـ صلواتُ اللهِ عليهِم ـ لم يُبتَلوا بما ابْتُلِيَ بهِ الإنسانُ، ولا امْتُحِنُوا بِمُعَادَاةِ النَّفسِ والشَّيطانِ[١]، فلهُ الحَمْدُ علىٰ حِفْظِهِ وعَونِهِ في كلِّ حِيْنٍ وَزَمَانٍ.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ معروفٌ[٣]: قَالَ لي بَعْضُ أَصْحَابِ دَاوُدَ الطَّائيِّ: إِيَّاكَ أَنْ تتركَ العَمَلَ، فَإِنَّ ذَلِكَ الَّذِي يُقَرِّبُكَ إِلَىٰ رِضَا مَولَاكَ، فَقُلْتُ: وَمَا ذَلِكَ العَمَلُ؟ فَقَالَ: دَوَامُ طاعةِ ربِّكَ، وحُرْمَةُ[٤] المُسْلِمِينَ، والنَّصِيحةُ لَهُم**».

※ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وفي هذِهِ الحكايةِ رَدٌّ علىٰ مَنْ غلطَ وزعمَ أنَّهُ إذا وصلَ إلىٰ دوامِ الحضورِ والذِّكْرِ ولذَّةِ المُنَاجَاةِ معَ مَولَاهُ استغْنَىٰ عنِ الأَعْمَالِ[٥].

فقولُهُ: «**إِيَّاكَ أَنْ تتركَ العملَ**» إشارةٌ إلىٰ التَّحذيرِ من هذا المَذْهَبِ الخَسِيسِ، وتفسيرُهُ العملَ بالدَّوامِ علىٰ الطَّاعةِ بالقلبِ والجوارحِ[٦].

= والمراقبة، حتىٰ غيبه عما سوىٰ الحق تعالىٰ، فلا يفيق من هذه الغيبة إلا باللقاء».

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٨٨.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٤٣.

(٣) ورد قوله في: وفيات الأعيان ٥/٢٣٢.

(٤) في الرسالة القشيرية: وخدمة، وأشير إليه في حاشية الأصل أنها في نسخة هكذا، وفي (ب): «وخدمة، وحرمة». وفي إحكام الدلالة ١/٨٨: «وحرمة» أيضًا، وسيفسرها المؤلف في شرحه فيما يأتي.

(٥) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٨٨.

(٦) فيه إشارة إلىٰ الحث علىٰ دوام الجد في العبادة، ولو بلغ العبد غاية الكمال في القرب.

و«حُرْمَةُ المُسْلِمِيْنِ»: مَعْرِفَةُ مَنْزِلَتِهِمْ في الدِّينِ والشَّفَقَةُ عليهِم يَلْزَمُ منهُ مُسَاعَدَتُهُم فِي مقاصدِهِم الصَّحيحةِ، وحملُ ما يَطْرَأُ من أذاهُمْ وتقصيرِهِمْ في حَقِّهِ، فدلَّهُ علىٰ العَمَلِ الَّذِي يُصْلِحُ له دنياهُ وآخرتهُ، وأمرَهُ بالمُلازمةِ لهُ، ونَهَاهُ عن تَضْيِيعِهِ، وأَعْلَمَهُ أنَّ المُلازَمَةَ(١) هيَ الَّتِي تُقَرِّبُهُ إلىٰ اللهِ، فكيفَ يزعمُ مَنْ قالَ بتركِهِ أَنَّهُ قَرِيبٌ منَ اللهِ وهوَ بَعِيْدٌ!؛ لأنَّهُ تَرَكَ ما يُقَرِّبُهُ إليهِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٢): «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ الدَّلَّالَ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سمعتُ أَبِي يَقُولُ(٣): رَأَيْتُ مَعْرُوفًا الكَرْخِيَّ فِي النَّوْمِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي، فَقُلْتُ: بِزُهْدِكَ وَوَرَعِكَ؟ فَقَالَ: لَا، [بَلْ](٤) بِقَبُولِي مَوْعِظَةَ [١/١٢٥أ] ابْنِ السَّمَّاكِ، وَلُزُومِي الفَقْرَ، وَمَحَبَّتِي لِلْفُقَرَاءِ.

وَمَوْعِظَةُ ابْنِ السَّمَّاكِ(٥) مَا قَالَهُ(٦) معروفٌ: كُنْتُ مَارًّا بِالكُوفَةِ، فَوَقَفْتُ عَلَىٰ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ السَّمَّاكِ وَهُوَ يَعِظُ النَّاسَ، فَقَالَ فِي خِلَالِ(٧) كَلَامِهِ: مَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللهِ بِكُلِّيَّتِهِ أَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ جُمْلَةً، وَمَنْ أَقْبَلَ عَلَىٰ اللهِ بِقَلْبِهِ أَقْبَلَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ عَلَيْهِ، وَأَقْبَلَ بِوُجُوهِ جَمِيعِ الخَلْقِ إِلَيْهِ(٨)، وَمَنْ كَانَ مَرَّةً وَمَرَّةً فَاللهُ يَرْحَمُهُ وَقْتًا مَا.

---

(١) في (ب، ج): الملازمة عليه.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٤٣.

(٣) ورد قوله في: وفيات الأعيان ٥/٢٣٢، ومناقب معروف الكرخي لابن الجوزي ص٥٤.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) وردت في: مناقب معروف الكرخي لابن الجوزي ص٥٤.

(٦) في (ب، ج، ف): قال.

(٧) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٨) في الرسالة القشيرية: «أقبل اللَّه برحمته إِلَيْهِ، وأقبل بجميع وجوه الخلق إِلَيْهِ». وأشير إلىٰ رواية المؤلف في: إحكام الدلالة ١/٨٩.

فَوَقَعَ كَلَامُهُ فِي[1] قَلْبِي، فَأَقْبَلْتُ عَلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وَتَرَكْتُ جَمِيعَ مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، إِلَّا خِدْمَةَ مَوْلَايَ عَلِيِّ بْنِ مُوسَىٰ الرِّضَا.

وَذَكَرْتُ هَذَا الْكَلَامَ لِمَوْلَايَ، فَقَالَ: يَكْفِيكَ بِهَذَا مَوْعِظَةً إِنِ اتَّعَظْتَ[2].

أَخْبَرَنِي بِهَذِهِ الحكايةِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ، قَالَ: سمعتُ عَبْدَ الرَّحِيمِ بْنَ عَلِيٍّ الحافظَ[3] ببغدادَ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عُمَرَ بنِ الفضلِ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ عِيسَىٰ يَقُولُ: سَمِعْتُ سَرِيًّا السَّقَطِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَعْرُوفًا يَقُولُ ذَلِكَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: روحُ هذِهِ الموعظةِ أنَّ مَنْ أقبلَ علىٰ اللهِ بقلبِهِ أقبلَ اللهُ عليهِ، وأقبلَ بوجوهِ الخَلْقِ إليهِ، ومَنْ أعرضَ عنهُ جُملةً ـ أي: اشتغلَ بِدُنياهُ عَن طَاعَتِهِ بالكليَّةِ ـ أَعْرضَ اللهُ عنهُ.

ومعنىٰ إعراضِ اللهِ عنهُ: قَطْعُ رحمتِهِ عنهُ وتوفيقِهِ لهُ، ومَنْ كان وقتًا ووقتًا نالتْهُ الرَّحمَةُ علىٰ حسبِ إقبالِهِ، فَحَمَلَتْهُ هذهِ الموعظةُ علىٰ أنْ أعرضَ عن كُلِّ مُشْغِلٍ، وأقبلَ علىٰ اللهِ بكليَّتِهِ إلَّا خِدْمَةَ شَيْخِهِ عليِّ بنِ مُوسَىٰ الرِّضا، وهيَ مِنْ جمْلَةِ الطَّاعاتِ.

وقولُهُ في أوَّلِ الحكايةِ: «بزُهْدِكَ وورَعِكَ؟ قالَ: لا» أي: لم يكنْ ذلكَ أوَّلَ التَّنْبِيهِ، بل كانَ أوَّلُ التَّنبيهِ المَوْعِظَةَ، ثمَّ لزمَ الفقرَ وأحبَّ الفُقَراءَ، ونَالَ الزُّهدَ والوَرَعَ ومقاماتِ أهلِ الخيرِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ[4]: «وَقِيلَ لِمَعْرُوفٍ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ: أَوْصِ،

---

(١) في (ب، ج): علىٰ.

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/١١٢، ووفيات الأعيان ٥/٢٣٢، ومرآة الجنان ١/٤٦١. وقوله: «إن اتعظت»، أي: إن كان فيك قابلية قبول المعرفة.

(٣) في (ف): علي بن عبد الرحيم الحافظ.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٤٣ ـ ٤٤.

فَقَالَ[(١)]: **إِذَا مِتُّ فَتَصَدَّقُوا بِقَمِيصِي ؛ فَإِنِّي أُرِيدُ أَن أَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا عُرْيَانًا ، كَمَا دَخَلْتُهَا عُرْيَانًا»** .

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «**تَصَدَّقُوا بِقَمِيصِي**» هذهِ وصيَّةٌ بجميعِ ما يملكُ ، فإذا لم يكنْ للرَّجُلِ وارثٌ[(٢)] سِوَىٰ بيتِ المالِ ، ومصرفُ بيتِ المَالِ الفقراءُ ، ولاسيَّمَا إذا تعيَّنَ الصَّرفُ لهم جازَ ذلكَ ، وأمَّا كونُهُ لم يَلْتَفِتْ لكونِهِ يُكفَّنُ فيهِ ؛ فَلِمَا يَعْلَمُ من إِخْوَانِهِ وَمُحِبِّيهِ والرَّاغبينَ في تَجْهِيزِهِ علىٰ أحسنِ وجْهٍ ، وربَّمَا أدخلَ[(٣)] عليهِمْ بذلِكَ مسرَّةً[(٤)] .

ومقصودُهُ[(٥)] الأصليُّ الَّذِي صرَّح بهِ: أنَّهُ يخرجُ منَ الدُّنيَا ولم يَتَعَلَّقْ [١/٢٥ب] قَلْبُهُ بشيءٍ ، كَمَا أَنَّهُ دخلَ إليها ولا يَمْلِكُ شَيئًا أَحَبَّ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا ولا يَمْلِكُ شَيْئًا[(٦)] .

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٧)]: «**وَمَرَّ مَعْرُوفٌ بِسَقَّاء وَهَوَ يَقُولُ: رَحِمَ**[(٨)] **اللهُ مَنْ يَشْرَبُ ، فَتَقَدَّمَ فَشَرِبَ ، فَقِيلَ لَهُ: أَلَمْ تَكُنْ صَائِمًا ؟ ، فَقَالَ: بَلَىٰ ، وَلَكِنِّي رَجَوْتُ دُعَاءَهُ**»[(٩)] .

---

(١) انظر قوله في: حلية الأولياء ٨/٣٦٢ ، ومناقب الأبرار ١/١١٣ ، وصفة الصفوة ٢/٣٢٤ ، والثبات عند الممات ص١٥٦ ، والمستطرف ١/٣١٣ ، والكواكب الدرية ١/٧١٨ .

(٢) في (أ ، ج): وارثا ، والأصح المثبت .

(٣) في (ب): دخل .

(٤) انظر: إحكام الدلالة ١/٩٠ .

(٥) في (ب): وقصوده ، والصواب المثبت .

(٦) فيه ذلك دلالة علىٰ تمام تجرد قلبه ، وتخلصه من علق الدنيا .

(٧) الرسالة القشيرية ١/٤٤ .

(٨) في (ب): يرحم .

(٩) ورد قوله في: حلية الأولياء ٨/٣٦٥ ، ومناقب الأبرار ١/١١٣ ، ووفيات الأعيان ٥/٢٣٣ ،=

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، ولكنَّهُ لا يجري علىٰ مذهبِ مالكِ بنِ أنسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]؛ لأنَّ العبدَ إذا دخلَ عندَهُ فِي نافلةِ صومٍ أو صلاةٍ أو غيرِ ذلكَ منَ الأعمالِ المتَّحدةِ حَرُمَ عليهِ قطعُهُ وإبطالُهُ.

وأمَّا الشَّافعيُّ والمُحَاسِبِيُّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[٢] ـ وهو ظاهرُ قولِ معروفٍ ـ فإنَّهُم يُجَوِّزونَ قَطْعَ النَوافلِ بعدَ الدُّخولِ فيها ما عدا الحجَّ والعُمْرةَ، فإنَّهُ لابُدَّ منَ التَّمادِي وإنْ فسدَتْ[٣]، إلَّا أنَّ أهلَ الحَزْمِ والوَرَعِ من أهلِ تلكَ المذاهبِ لا يقطعُونَ هذهِ الأعمالَ إلَّا لمَا هوَ أَوْلَىٰ منهَا.

وقَدْ رأىٰ معروفٌ أنَّ دعاءَ هذا الشَّخصِ لهُ إذا شرِبَ أفضلُ منِ استمَرارِهِ علىٰ الصَّومِ؛ لِمَا رأىٰ عليهِ من عَلاماتِ الصَّلاحِ ورجائِهِ مِنِ استجابَةِ دُعَائِهِ[٤].

ومِنْ هذا القَبِيلِ ما رُوِيَ أنَّ بعضَ المشايخِ زارَهُ قومٌ منَ الصَّالحينَ وكانَ عندَهُ

= والكواكب الدرية ٧١٨/١.

(١) في الموطأ ٣٠٦/١: «قال مَالِكٌ: وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَدْخُلَ الرَّجُلُ في شَيْءٍ مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالحَجِّ وما أَشْبَهَ هذا مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ التي يَتَطَوَّعُ بها الناس فَيَقْطَعَهُ حتىٰ يُتِمَّهُ علىٰ سُنَّتِهِ».

وقد شارك الحنفية المالكية في ذلك. قال ابن العربي: «.. وقال مالك وأبو حنيفة: ليس له ذلك؛ لأنه إبطال لعمله الذي انعقد له» أحكام القرآن ١٣٤/٤. وانظر: شرح الرسالة لابن أبي زيد القيرواني ٢٩٦/١، والذخيرة ٤٠٣/٢، ٥٢٨، ومواهب الجليل ٤٣٠/٢، والفقه الإسلامية وأدلته ١٦٤٧/٣ ـ ١٦٤٨.

(٢) وشارك الحنابلة الشافعية في ذلك. انظر: الأم ٢٨٤/١، والمجموع للنووي ٣٣٦/٢، والهداية شرح البداية ١٢٧/١، والفقه الإسلامية وأدلته ١٦٤٨/٣، والفقه علىٰ المذاهب الأربعة ٥٠٧/١.

(٣) في تحفة الفقهاء ٣٥٢/١: «... الفرق بينهما أن الظن في باب الحج نادر، وفي باب الصوم والصلاة ليس بنادر، فكان في إيجاب المعنىٰ والقضاء حرج لكثرة وجوده ههنا بخلاف الحج». وانظر: الاستذكار ٣٥٧/٣.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٩٠/١.

خادمٌ يخدمُهُ حَسَنُ السَّمْتِ والهيئةِ، فلمَّا قدَّمَ لهمُ الطَّعامَ أحبُّوا ذلكَ الخَادمَ أنْ يأكلَ معَهُم لمَا رَجَوا في أكْلِهِ معَهُم، وكانَ الشَّابُّ صَائمًا، فسألُوا الشَّيخَ في ذلِكَ فأمرَهُ بالأكْلِ فأبىٰ، فقالَ لهُ: كُلْ ولكَ أجرُ شهرٍ، فأَبىٰ، فقالَ: كُلْ ولكَ أجرُ سنَةٍ فأبىٰ، فقالَ لهُمُ الشَّيخُ: «دَعُوهُ فقدْ سقطَ من عينِ اللهِ»[1].

فهذَا يدلُّ من قولِ شيخِهِ لهُ: (كُلْ) عَلَىٰ جوازِ الفطْرِ، وأنَّهُ يصحُّ لكثرةِ الأجْرِ الزَّائدِ علىٰ الصَّومِ، ولذلكَ قالَ لهُ: (شهرٌ وسنَةٌ)، لا للتَّحديدِ، بلْ لكثْرَةِ الأجْرِ لموافقتِهِمْ وموافقةِ شيخِهِ، فلمَّا أبىٰ قالَ: (دَعُوهُ فإنَّهُ قدْ سقطَ مِنْ عينِ اللهِ)، أي: لكونِهِ تركَ تقليدَ مَنْ يجبُ عليهِ تقليدُهُ في الأفضليَّةِ وعملَ برأيِهِ، وهوَ ممَّنْ يجبُ عليهِ التَّقليدُ.

ومعنىٰ (سقطَ منْ عينِ اللهِ): مِنْ حِفْظِ اللهِ، فإنَّهُ لمْ يرتكِبْ مُحَرَّمًا، وإنَّما فاتَهُ أفضلُ الأجْرِ.

(١) ورد القول لأبي يزيد البسطامي في: الموافقات ٤/٣٢٤، والتاج والإكليل ٢/٤٣٠، ومدارج السالكين إلىٰ رسوم طريق العارفين ص٧٨.

قَالَ الإِمَـامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

«وَمِنْهُم:

[٥] أَبُو الحَسَنِ سَرِيُّ بنُ المُغَلِّسِ السَّقَطِيُّ(٢)

خَالُ الجُنَيدُ وَأُسْتَاذُهُ، وَكَانَ تِلْمِيذَ مَعْرُوفٍ الكَرْخيِّ.

كَانَ أَوْحَدَ زَمَانِهِ فِي الوَرَعِ وَالأَحْوَالِ السَّنِيَّةِ وعلومِ التَّوحيدِ.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: سمعتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ الطُّوسيَّ يَقُولُ: سمعتُ أبا عَمْرو بْنَ عُلوان يَقُولُ: سمعتُ [١/٢٦أ] أبا الْعَبَّاسِ بْنَ مَسْرُوقٍ يَقُولُ: بلغني أَنَّ السَّرِيَّ السَّقطيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكونُ(٣) فِي السُّوقِ، وَهُوَ من أَصْحَابِ معروفٍ الكرخيِّ، فجاءَهُ معروفٌ يوماً وَمَعَهُ صَبيٌّ يَتِيمٌ، فَقَالَ: أُكْسُ هَذَا اليتيمَ، قَالَ سَرِيٌّ: فَكَسَوْتُهُ، فَفَرِحَ بِهِ معروفٌ، وَقَالَ: بَغَّضَ اللهُ إليك الدُّنيا، وَأَرَاحَكَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ، فَقُمْتُ مِنَ الحَانُوتِ(٤) وَلَيْسَ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا، وَكُلُّ مَا أنا فِيهِ مِنْ بَرَكَاتِ مَعْرُوفٍ(٥)».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٤٥.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٥١، وحلية الأولياء ١٠/١١٦، والمختار من مناقب الأبرار ١/١٤٤، وتاريخ دمشق ٢٠/١٦٧، ونجم المهتدي ١/٣٠٢، ووفيات الأعيان ٢/٣٥٧، وصفة الصفوة ٢/٣٧١، والوافي بالوفيات ١٥/٨٥، وتاريخ الإسلام ١٩/١٥٠، وسير أعلام النبلاء ١٢/١٨٦، وطبقات الأولياء ص١٦٠، والطبقات الكبرىٰ ١/١٣٦، وشذرات الذهب ٢/١٢٧، والنجوم الزاهرة ٢/٣٣٩، والكواكب الدرية ١/٦١٨.

(٣) في (ج): كان يكون.

(٤) هو دكان البائع، ففي تهذيب الأسماء ٣/٧٠: «الحانوت معروف، يذكر ويؤنث لغتان؛ وهو الدكان».

(٥) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/١٢٣، وتاريخ بغداد ٩/١٨٨، وتاريخ دمشق ٢٠/١٦٩، ومناقب الأبرار ١/١٤٤، وبغية الطلب ٩/٤٢١٧، ووفيات الأعيان ٢/٣٥٧.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ففي هذهِ الحكايةِ تَحْرِيضٌ على إدخالِ المَسَرَّةِ على المشايخِ بفعْلِ مَا يُشِيرُون إليهِ، وحفظِ قلوبِهِم معَ اللهِ ـ تعالى ـ[١]، فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يَغَارُ على قلوبِهِم أنْ تشتغلَ بغيرِهِ، فكلُّ مَنْ حفظَهَا وأزالَ المشوِّشاتِ عنهَا فهو سَاعٍ[٢] فيمَا يرضي اللهَ ـ تعالى ـ ويُحِبُّهُ، وإذا وجدَ الشَّيخُ رَاحَةً ودخلَتْ على قلبِهِ مسرَّةٌ بفعْلِ بعضِ النَّاسِ دَعَا له باجتهادٍ ورجوعٍ إلى الله باضطرارٍ، وهذه الحالُ هي المَوعودُ عليها بالإجابةِ؛ لقولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، مادحًا نفسَهُ بذلِكَ.

❊ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَمْرٍو الأَنْمَاطِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ[٤]: مَا رَأَيْتُ أَعْبَدَ مِنَ السَّرِيِّ؛ أَتَتْ عَلَيْهِ ثَمانٍ وَتِسْعُونَ حجَّةً[٥] ما رُئِيَ مُضْطجعًا إِلَّا فِي عِلَّةِ الْمَوْتِ**».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ففي هذِهِ الحكايةِ الدَّليلُ على كَمالِ مُجَاهدتِهِ، واستقبالِهِ القبلةَ من بدايتِهِ، ودوامِهِ على ذلِكَ إلى آخرِ عمرِهِ، فلم يَرَهُ الجنيدُ إلَّا قائمًا أو جالسًا، ولم يَرَهُ مُضطجعًا إلَّا في علَّةِ الموتِ لعجْزِهِ عن ذلكَ، هذا عظيمٌ[٦] في الصَّبرِ والملازمَةِ على الأدبِ والإقبالِ على اللهِ ـ تعالى ـ بالقلبِ

(١) انظر: إحكام الدلالة ١/٩١.
(٢) في (ب): سارع، والصواب المثبت.
(٣) الرسالة القشيرية ١/٤٥.
(٤) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٢٠/١٧٨، وإحياء علوم الدين ٤/٤٠٩، ومناقب الأبرار ١/١٤٥، والمنتظم ١٢/٦٧، ووفيات الأعيان ٢/٣٥٨، وسير أعلام النبلاء ١٢/١٨٦، وتوضيح المشتبه ٥/٨٠، والبداية والنهاية ١١/١٤.
(٥) أي: سنة.
(٦) في (ج): أعظم.

والجوارحِ إلى الجهةِ المأمورِ بالتَّوجُّهِ إليهَا.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَيُحكَى عَنِ السَّرِيِّ أَنَّهُ قَالَ[٢]: التَّصوُّفُ اسمٌ لِثَلَاثَةِ مَعَانٍ: وَهُوَ الَّذِي لَا يُطفِئُ نُورُ مَعْرِفَتِهِ نُورَ وَرَعِهِ، وَلَا يتكلَّمُ بِبَاطِنٍ فِي عِلْمٍ ينقضُهُ عَلَيْهِ ظاهرُ الكتابِ أَوِ السُّنَّةِ[٣]، ولا تحملُهُ الكَرَامَاتُ عَلَى هَتْكِ أَسْتَارِ مَحَارِمِ اللهِ ـ تعالى ـ.

وَمَاتَ السَّرِيُّ سنةَ سبعٍ وخمسينَ ومائتَيْنِ[٤]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «التَّصوُّفُ اسمٌ لثلاثةِ معانٍ»؛ أي: مَنِ اجتمعَتْ فيهِ هذهِ المعانِي، فهوَ المسمَّى بالصُّوفيِّ، أحدُهَا: «ألَّا يطفئَ نورُ معرفتِهِ [٢٦/١ب] نورَ ورعِهِ»، ومعرفتُهُ هو: أنَّهُ لا يجري على العبدِ في دُنْيَاهُ مِنْ طاعتِهِ ومعصيتِهِ إلَّا ما سبقَ لهُ عندَ مولاهُ، وأنَّ ما سبقَتْ بهِ الأقدارُ وإرادةُ الواحدِ القهَّارِ لا يتبدَّلُ ولا يتغيَّرُ، وإذا تقرَّرَ هذا في النَّفسِ أخطرَ الشَّيطانُ العدوَّ لِمَنْ أرادَ اللهُ خذلانَهُ إنَّ عملَكَ وعبادتَكَ ومعاصيكَ وغيرَ ذلكَ ممَّا تعملُهُ لا يفيدُكَ شيئًا[٥]؛ لأنَّهُ لا يجرِي عليكَ إلَّا ما سبقَ، فيتركُ العملَ ويركنُ إلى الخُذْلانِ والكَسَلِ، فهذا هو الَّذِي «أطفأَ نورُ معرفتِهِ نورَ ورعِهِ»؛ لأنَّ الورعَ: الانكفافُ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، وعنِ الكَسَلِ عنِ القيامِ بواجباتِ اللهِ، ومَنْ سدَّدَهُ اللهُ ونوَّرَ بَصِيرَتَهُ عَلِمَ أنَّ الذِي

(١) الرسالة القشيرية ١/٤٥ ـ ٤٦.

(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٢٠/١٩٥، ومدارج السالكين ٢/٤٦٤، ومناقب الأبرار ١/١٤٥، وبغية الطلب ٩/٤٢٢٥.

(٣) سقط من (ج، ف) قوله: أو السنة.

(٤) وقيل: سنة إحدى وخمسين، وقيل: ثلاث وخمسين، وقبره بالشُّونيزية ـ مقبرة بالجانب الغربي من بغداد ـ ظاهر بها يُزار. انظر: تاريخ بغداد ٩/١٩٢، ومناقب الأبرار ١/١٤٤، وطبقات الأولياء ص١٦٠، والكواكب الدرية ١/٦٢٣.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٩١.

سبقَ لهُ لا يَدْرِي ما هوَ، والَّذي يعلمُ ما هوَ هوَ ربُّهُ، وقد أمرَهُ بما يصلحُهُ ونهاهُ عمَّا يضرُّهُ، فكمالُ توفيقِهِ قيامُهُ بما أمرَ واجتنابُهُ عمَّا(١) نَهَىٰ عنهُ، وهذا هوَ الوَرَعُ الواجبُ، وعلمُهُ بما سَبَقَ لا يمنعُهُ من هذا؛ لأَنَّهُ لا يدري ما سبقَ لهُ علىٰ التَّعيينِ، وإنَّمَا متعلَّقُ علمِهِ لا يجري عليهِ إلَّا ما سبقَ [عليهِ](٢) عِلْمٌ جُمليٌّ.

فالمُحِقُّ(٣) هوَ مَنْ لا يطفئُ نورُ معرفتِهِ نورَ ورعِهِ، وكذلكَ إذا وقعَتْ في قلبِهِ خواطرُ واستحسَنَهَا وصدقَتْ فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ فَلَا يَعْتَمِدُ عَلَيهَا حَتَّىٰ يَزِنَهَا بالشَّريعةِ، وينظرَ قَبُولَهَا هل هوَ منَ الجائزاتِ أوِ الممنوعاتِ؟ وهذا هو المرادُ بقولِهِ: «**لَا يتكلَّمُ بباطنٍ في علمٍ ينقضُهُ عليهِ ظاهرُ الكتابِ**».

وأيضًا فلا تَحْمِلُهُ الكراماتُ وجريانُ خَوَارقِ العَادَاتِ علىٰ أنْ يعتقدَ أنَّهُ مِمَّنْ لا يؤاخَذُ بالزَّلَّاتِ، ولا ارتكابِ بعضِ المُحَرَّماتِ، فإنَّهُ آمنٌ لمكرِ اللهِ، ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾(٤) [الأعراف: ٩٩].

فهذه الثَّلاثةُ هي الَّتي إذا تخلَّقَ العبدُ بها، وحسُنَ حالُهُ فيها عُبِّرَ عنهُ بالصُّوفيِّ؛ لأنَّ التَّصوُّفَ علىٰ الصَّحيحِ مشتقٌّ مِنَ الصَّفَا عنِ الكَدرِ، والسَّلامَةِ من لُحُوقِ الضَّررِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَحْكِي عَنِ الجنيدِ أَنَّهُ قَالَ(٦): سَأَلَنِي السَّرِيُّ يَوْمًا عَنِ المَحَبَّةِ؟ فَقُلْتُ: قَالَ قَوْمٌ: هِيَ المُوافَقَةُ(٧)**،

---

(١) في (ب): ما.
(٢) زيادة من (ب).
(٣) في (ب): فالمحقق.
(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٩١.
(٥) الرسالة القشيرية ١/٤٦.
(٦) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/١٤٥، وبغية الطلب ٩/٤٢١٧.
(٧) أي: بأن يكون مراد المحب تابعا لمراد المحبوب.

وَقَالَ قومٌ: هِيَ الإيثَارُ[١]، وَقَالَ قومٌ: هيَ كَذَا وكذا، فَأَخَذَ السَّرِيُّ جلدةَ ذِرَاعِهِ وَمَدَّهَا فَلَمْ تَمْتَد، ثُمَّ قَالَ: وعِزَّتِهِ لوْ قُلْتُ: إِنَّ هَذِهِ الجِلدةَ يَبِسَتْ عَلَىٰ هَذَا العظمِ مِنْ مَحَبَّتِهِ لَصَدقتُ، ثُمَّ غُشِيَ عَلَيْهِ، فدارَ وجْهُهُ كَأَنَّهُ قَمرٌ مُشْرِقٌ، وَكَانَ السَّرِيُّ بِهِ أُدْمَةٌ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ بالغٌ فِي تعليمِ التَّلامذةِ [١/١٢٧أ] اكتسابَ الأحوالِ والمَقاماتِ بأنواعِ المجاهداتِ، ولا يقنعونَ بِمُجرَّدِ الأقوالِ[٢] والرُّكُونِ إلىٰ الرَّاحَاتِ، فسألَ السَّرِيُّ تلميذَهُ ـ وهوَ الجنيدُ ـ عنِ المحبَّةِ لينظرَ ما عندَهُ، فأخذَ يعدُّ لهُ أقوالَ النَّاسِ فيهَا، فلمَّا سَمِعَ السَّرِيُّ قولَهُ أرادَ أنْ يعرِّفَهُ المحبَّةَ بالأحوالِ والأماراتِ، وذلكَ أنَّ مَنْ قويَتْ مَحَبَّتُهُ فِي شيءٍ جَدَّ فِي تَحْصِيلِهِ، وَأَزَالَ ذَلِكَ نومَهُ، وَأَطَالَ سَهَرَهُ وهُمُومَهُ وغُمُومَهُ، وقلَّ لِذَلِكَ طعمُهُ وشُرْبُهُ، فيبسَ جلدُهُ علىٰ عظمِهِ مِنْ تَوالِي ذلكَ علىٰ قلبِهِ[٣]، فَمَدَّ السَّرِيُّ يَدَهُ إلىٰ جلدةِ ذِراعِهِ وجذبَهَا فلمْ ترْتَفِعْ عنِ العَظْمِ، ثمَّ أَقْسَمَ بعزَّةِ اللهِ أنَّهُ لو حَلَفَ أنَّهَا يَبِسَتْ من محبَّتِهِ لصدَقَ، وغلبَ عليهِ الحالُ لكمالِ هذا الوقتِ الَّذِي أقسمَ فيهِ، فَغُشِيَ عليهِ وظهرَتْ آثارُ صِدْقِهِ علىٰ وَجْهِهِ[٤]، فنارَ وجهُهُ كأنَّهُ قمرٌ مُشْرِقٌ، وكانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسمرَ اللَّونِ، وهوَ قولُهُ: «**وكانَتْ بِهِ أدمةٌ**».

فالتَّأديبُ بالحَالِ أَكْمَلُ مِنْهُ بالمَقَالِ، وفِي هذا جوازُ إظهارِ الصِّفاتِ المَحْمُودَةِ والأَحْوَالِ الَّتِي هيَ سِرٌّ بينَهُمْ وبينَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ والنُّطقِ بها للتَّلامذةِ؛ ليكملَ اقتداؤُهُم بهِم بالحَالِ والمَقَالِ[٥].

---

(١) أي: تقديم المحب محبوبه علىٰ نفسه في الأغراض الدنيوية.

(٢) لأن ذلك من حظ المنافقين.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٩٢.

(٤) سقط من (ب) قوله: «هذا الوقت الذي أقسم فيه، فغشي عليه وظهرت آثار صدقه علىٰ وجهه».

(٥) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٩٢.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَيُحْكَىٰ عَنِ السَّرِيِّ أَنَّهُ قَالَ[(٢)]: منذُ ثلاثينَ سنةً أنا فِي الاستغفارِ عن قَولِي: الحمدُ للَّهِ مرَّةً، قيلَ: وكيفَ ذَلِكَ؟! قَالَ: وقعَ ببغدادَ حريقٌ، فاستقبلَنِي أحدُ[(٣)] النَّاسِ، فَقَالَ لي: نَجَا حَانُوتُكَ، فَقُلْتُ: الحمدُ للَّهِ! فمنذُ ثلاثينَ سنةً أنا نادمٌ عَلَىٰ مَا قُلْتُ؛ حيثُ أردتُ لنفسِي خيرًا مِمَّا لِلمُسْلِمِينَ.

أخبرَني بِهِ عَبْدُ اللهِ بْن يُوسُفَ قَالَ: سمعتُ أبا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سمعتُ أبا بَكْرٍ الحَرْبِيَّ[(٤)] يَقُولُ: سَمِعْتُ السَّرِيَّ يَقُولُ ذَلِكَ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ جَرَىٰ مِنْهُ في ابتداءِ أمْرِهِ في الوقتِ الَّذِي كانَ في السُّوقِ يَبِيعُ ويَشْتَرِي قبلَ أنْ يأتيَهُ معروفٌ بالصَّبيِّ الَّذي تقدَّمَ ذكرُهُ[(٥)] ودعَا لهُ بأنْ يريحَهُ ممَّا هوَ فيهِ.

وقولُهُ: «وأنَا أستغفرُ اللهَ مِنْ قولِي: الحمدُ للهِ»، فـ(الحمدُ للهِ) طاعةٌ من جُملةِ الطَّاعاتِ، وسلامةُ دكَّانِهِ منَ النِّعمِ الَّتِي يَحْمدُ اللهَ عليهَا، وإنَّمَا كانَ استغفارُهُ لكونِهِ لم يسبقْ لقلبِهِ الغَمُّ علىٰ المسلمينَ الَّذينَ أصابَهُمُ الحريقُ وتلِفَتْ أموالُهُمْ، وأحبَّ لنفسِهِ ما شغلَهُ عنِ الغمِّ عليهِمْ، وكانَ حقُّهُ أنْ يغتمَّ للمسلمينَ، فلمَّا فاتَهُ هذا المقامُ فكلَّمَا تذكَّرَ ذلكَ استغفرَ اللهَ من غفلتِهِ [١/٢٧ب]، ودَوَامُهُ علىٰ الطَّاعةِ والاستغفارُ ثلاثينَ سَنَةً كَمَالٌ فِي رِفْعَتِهِ وَعُلُوِّ دَرَجَتِهِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «وَيُحْكَىٰ عَنِ السَّرِيِّ أَنَّهُ قَالَ[(٧)]: أَنَا أَنْظُرُ فِي أَنْفِي

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٤٦.

(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٢٠/١٧٦، ومناقب الأبرار ١/١٤٥، وبغية الطلب ٩/٤٢١٧.

(٣) في (ب، ف): واحد.

(٤) في (ج): الحذا، وهو تحريف.

(٥) ص٢٠٦.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٤٦.

(٧) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/١٤٥، وبغية الطلب ٩/٤٢١٨.

فِي اليَوْمِ كَذَا وَكَذَا مَرَّةً مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اسْوَدَّ؛ خَوْفًا مِنَ اللهِ أَنْ يُسَوِّدَ صُورَتِي لِمَا أَتَعَاطَاهُ».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا عظيمٌ في الخَوفِ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وكمالِ التَّعظيمِ لهُ بالإجلالِ ورُؤيةِ التَّقصيرِ في عبادتِهِ، وإلَّا فحالُهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُنَزَّهٌ عن أنَّهُ يكونُ في معاصٍ يخافُ تسويدَ وجهِهِ من أجلِهَا، وإنَّمَا ذلكَ لكمالِ معرفتِهِ لإجلالِ ربِّهِ وعظمتِهِ، وكونِهِ لا يأتِي بعبادتِهِ علىٰ مَا يليقُ بجلالِ ربِّهِ وعظمتِهِ، وما يداخلُهَا في بعضِ الأوقاتِ من مَيْلِهِ لِشَهْوتِهِ وطُرُوقِ سَهْوِهِ وَغَفْلَتِهِ عنهُ، وهوَ في أثناءِ عِبادتِهِ، فيخافُ مِنْ ذَلِكَ حُلولَ ما ذكرَهُ بهِ لكمالِ مراقبتِهِ، والعبدُ لا يرىٰ منْ وجهِهِ سوىٰ أنفِهِ، فهو يكرِّرُ النَّظرَ إلىٰ أنفِهِ في كلِّ وقتٍ؛ خوفًا من تَسْويدِ وجهِهِ؛ لقلَّةِ أدبِهِ وإخلالِهِ بواجبِ حقِّ ربِّهِ، فاللهُ ـ تعالىٰ ـ يَمُنُّ عَلَينا بِمَا مَنَّ عليهِم، ويُحيي قلوبَنَا كمَا أحيَا قلوبَهُمْ بمنِّهِ وكَرَمِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: **«سمعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ: سمعتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ[(٢)] بنِ الخشَّابِ يَقُولُ: سمعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ نُصَيرٍ يَقُولُ: سمعْتُ الجنيدَ يَقُولُ: سمعْتُ السَّرِيَّ يَقُولُ[(٣)]: أعرفُ طَرِيقًا مُختصرًا قَصْدًا[(٤)] إِلَىٰ الجَنَّةِ، قُلْتُ لَهُ: مَا هُوَ؟ فَقَالَ: لا تَسْأَلْ مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا، وَلَا تَأْخُذْ مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا، وَلَا يَكُنْ مَعَكَ شَيْءٌ تُعْطِي مِنْهُ[(٥)] أَحَدًا».**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «**طَرِيقًا قصدًا إلىٰ الجنَّةِ**» معناهُ عِنْدِي ـ واللهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٤٦/١.
(٢) في (ب، ج، ف): الحسن، والأصح المثبت.
(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٥٣، وتاريخ دمشق ١٧٦/٢٠، ومناقب الأبرار ١٤٥/١، وبغية الطلب ٤٢٢٢/٩.
(٤) أي: مستقيمًا.
(٥) سقط هذا اللفظ من (ج، ف).

أعلمُ ـ: أنَّ العبدَ يكتسبُ مقدارَ الضَّرُورةِ والحاجةِ من غيرِ فُضُولٍ من وجهٍ طيِّبٍ، فيستغني بذلكَ عنِ السُّؤالِ، ولا يكونُ معَهُ فضلَةٌ يتعلَّقُ بها حَقٌّ لأحَدٍ مِنَ المُحْتَاجِينَ، فهذا طريقٌ سَهْلٌ قَصْدًا إلى الجنَّةِ[١].

وسَمِعْتُ بعضَ النَّاسِ يتأوَّلُ هذا على غيرِ ما أَشَرْتُ إليهِ، ويقولُ: لا تَسَلْ غيرَ اللهِ، ولا تقبلْ منْ غيرِ اللهِ، وإنْ أَعطيْتَ شيئًا فأعطِهِ للهِ، وهذا لا يساعدُ عليهِ مدلولُ لفظِ الشَّيخِ من وجهَينِ:

أَحَدُهُمَا: أنَّ هذا مقامٌ شَرِيفٌ، وهو شُغْلٌ باللهِ ـ تعالىٰ ـ والنَّظرِ إليهِ عنِ الجنَّةِ وغيرِهَا إلىٰ جعْلِ الطَّريقِ القصدَ إليهَا.

وَالثَّانِي: أنَّهُ إنْ سألَ اللهَ فَقَدْ [١/٢٨أ] سَأَلَ أَحَدًا وأخذَ من أحَدٍ ودَفَعَ لأَحَدٍ، فإنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ هوَ الواحدُ الأحدُ، الفردُ الصَّمدُ، وصلَّى اللهُ علىٰ محمَّدٍ وآلِهِ وسَلَّمَ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ يُوسُفَ الأَصْبَهَانِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سمعْتُ أَبَا نصرٍ السَّرَّاجَ الطُّوسيَّ يَقُولُ: سمعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ نصيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيدَ[٣] بْنَ مُحَمَّدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ السَّرِيَّ يَقُولُ[٤]: أشتَهِي أَنْ أموتَ ببلدٍ غَيْرِ بغدادَ، فقيلَ لَهُ: وَلِمَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: أخافُ أَنْ لا يقبلَنِي قبرِي فَأَفْتَضِحَ**».

۞ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ رحِمَكَ اللهُ ـ من بابِ تهمتِهِ لنفسِهِ وسوءِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٩٤.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٤٧.

(٣) في النسخ: الحسن، والتصويب من مظان تخريج قوله، والرسالة القشيرية.

(٤) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/١١٦، وتاريخ دمشق ٢٠/١٨٢، ومناقب الأبرار ١/١٤٦، وبغية الطلب ٩/٤٢١٨، والمنن الوسطىٰ للشعراني ص٤٤١.

ظنِّه بهَا، وهوَ يُشْبِهُ مَا تقدَّمَ من نظرِهِ في أنفِهِ كلَّ يومٍ مرَّاتٍ خوفًا منَ التَّسويدِ؛ لمَّا كانَ عندَ نفسِهِ بهذِهِ المثابَةِ وهو مستورُ الحالِ فيمَا بينَهُ وبينَ النَّاسِ رأىٰ فضلَ اللهِ عليهِ في ستْرِ حالِهِ فِي الدُّنيَا، فأرادَ أنْ يسترَهُ عنِ النَّاسِ في الآخرةِ، ومحبَّتُهُ لسترِ حالِهِ محمودٌ، فلذلكَ تمنَّاهُ، وليسَ مقصودُهُ بقاءَ المنزلةِ فِي قُلُوبِهِم ومَا يعتقدونَهُ فيهِ منَ الخيرِ والصَّلاحِ، ومحبةِ ذلكَ منهُم، وكراهةِ نُزُولِ قدرِهِ عندَهُم، فإنَّ هذهِ قواعدُ الرِّياءِ، ويُحاشا عن ذلِكَ، وإنَّمَا هوَ محبَّةٌ لسترِ اللهِ عليهِ في الدُّنيَا والآخرةِ، وهذا القدْرُ محمودٌ لا نقصَ فيهِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ مَقْصُودُهُ حِفْظَ قُلُوبِ العامَّةِ من أنْ يَسُوءَ ظنُّهُم بالصَّالحينَ علىٰ الجُمْلةِ، فلا ينتفعونَ بهِمْ، ولا يقتدونَ بآثارِهِم، فإنَّهُمْ إذا رأَوا مَنِ اشتهرَ بالخيرِ والصَّلاحِ لم يقبلْهُ قبرُهُ، ورفضتْهُ الأرضُ دلَّهُمْ ذلكَ علىٰ خبْثِ باطنِهِ، وسوءِ سَرِيرَتِهِ، فيسوءُ ظنُّهُمْ بأمثالِهِ، فأشفقَ عليهِم من أنْ يقعَ في قُلُوبِهِم مثلُ هذَا[١].

والأوَّلُ أولَىٰ وأحسنُ؛ وهوَ محبَّةُ سترِ اللهِ عليهِ في الدُّنيَا والآخرةِ.

قَالَ الإمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: **«سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ يُوسُفَ الأَصْبَهَانِيَّ يَقُولُ: سمعْتُ أبَا الحَسَنِ بْنَ عَبْدِ اللهِ الفُوطِيَّ[٣] الطَّرَسُوسِيَّ يَقُولُ: سمعتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ السَّرِيَّ يَقُولُ[٤]: اللَّهُمَّ مَهْمَا عَذَّبْتَنِي بِشَيءٍ فَلا تعذِّبْنِي بِذُلِّ الحِجَابِ[٥]»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ كَمَالِ مَعْرِفَتِهِ بربِّهِ، ودَوَامِ أُنْسِهِ بِهِ،

(١) أفاد الوجهين الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٩٤.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٤٧.

(٣) في (أ): القرظي، والمثبت موافق لما في الرسالة القشيرية، وبغية الطلب ١٠/٤٣٩٤.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٥٤، وحلية الأولياء ١٠/١٢٠، وشعب الإيمان ١/٥٠٧، وتاريخ دمشق ٢٠/١٨٨، وصفة الصفوة ٢/٣٧٨.

(٥) يشير إلىٰ أن النار هي نار البعد، والجنة هي جنة القُرب.

وتلذُّذِهِ بمناجاتِهِ في ليلِهِ ونهارِهِ، ومراقبَتِهِ لهُ في سائِرِ حَرَكَتِهِ وسُكُونِهِ، حتَّىٰ صَارَ الحَجْبُ عنهُ أشقَّ عليهِ من كلِّ حجابٍ، وقطعُهُ عن لذَّتِهِ أعظمَ من قَطْعِهِ عنِ لَذائذِ الآخرةِ والدُّنيَا، وألمُهُ بذلِكَ أشدَّ الألمِ[١]، فإنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يعذِّبُ فِي الدُّنيَا بأنواعٍ منَ العذابِ [١/٢٨ب]، وقد يمنعُ الشَّخصَ لَذائذَهُ في الدُّنيَا والآخرةِ ويتألَّمُ لذلِكَ، فسألَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ إنْ سبقَ[٢] في عِلْمِهِ أَنْ يُعَذِّبَهُ علىٰ بعضِ أجرامِهِ[٣] فلا يعذِّبُهُ بِحَجْبِهِ عنهُ، فإنَّ ذلكَ يذلُّهُ ويهينُهُ أعظمَ من كلِّ إهانةٍ وذُلٍّ.

❁ قَالَ الإمَامُ القُشَيريُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٤]: «وَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ يُوسُفَ الأَصْبَهَانِيَّ يَقُولُ: سمعْتُ أبا بَكْرٍ الرَّازيَّ يَقُولُ: سمعْتُ الجُرَيريَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنيدَ يَقُولُ[٥]: دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَىٰ السَّرِيِّ السَّقَطِيِّ وَهُوَ يَبْكِي فَقُلْتُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: جَاءَتْنِي البَارِحَةَ الصَّبِيَّةُ فَقَالَتْ: يَا أَبَتِ، هَذِهِ لَيْلَةٌ حَارَّةٌ، وَهَذَا الكُوزُ أُعلِّقُهُ هاهُنَا[٦]، ثُمَّ إنَّهُ حملتنِي عينايَ فَنِمْتُ، فرأيتُ جاريةً من أَحسَنِ الخَلْقِ قَدْ نزلَتْ مِنَ السَّماءِ، فَقُلْتُ: لمَنْ أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: لمَنْ لا يَشْرَبُ المَاءَ المُبَرَّدَ[٧] فِي الكِيزَانِ، فتناولتُ الكوزَ فضربتُ بِهِ الأَرْضَ فكَسَرْتُهُ[٨].

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٩٤.
(٢) في (ب): يسبق.
(٣) أي: أثقاله.
(٤) الرسالة القشيرية ١/٤٧.
(٥) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٤/٤٣١، وشعب الإيمان ٥/٤٩، والزهد الكبير ١/١٧٨، وتاريخ دمشق ٢٠/١٨٥، والتعرف لمذهب التصوف ص١٥٥، ومناقب الأبرار ١/١٤٦، والوافي بالوفيات ١٥/٨٥، وبغية الطلب ٩/٤٢٢٠.
(٦) أي: شفقة علىٰ ولدها وبرا به. انظر: نتائج الأفكار ١/١٣٤.
(٧) في (ب): البارد.
(٨) سقط هذا اللفظ من (ب، ج، ف).

قَالَ الجنيدُ: فرأيتُ الخَزَفَ [المَكْسُورَ][١] لَمْ يَرْفعْهُ وَلَمْ يمسّهُ حَتَّىٰ عفا عَلَيْهِ التُّرابُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا تنبيهٌ للسَّريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ علىٰ الإعراضِ عنِ الشَّهواتِ العَاجِلَةِ، فإنَّ ذلكَ يفرِّغُ قلبَهُ ويحسِّنُ أدبَهُ مَع مولاه[٢]، ويتفرَّغُ في صلاتِهِ وذكْرِهِ لأحسنِ نجوَاه، وعلىٰ ذلكَ يكونُ حسنُ ثوابِهِ من ربِّهِ وعطايَاه[٣]، ورأىٰ ذلكَ فِي المنامِ، رأىٰ جزاءَ عملِهِ في صورةِ حوراءَ، وتناولتُ الكوزَ فكسرتهُ تحقيقًا لحثِّهِ علىٰ الإعراضِ عنِ الشَّهواتِ؛ لينالَ حظَّهُ منها، فإنَّهُ سألَهَا لمَنْ أنتِ، ولمْ يكنْ ذلكَ إلَّا لكونِهَا أعجبَتْهُ وأحبَّ أنْ تكونَ لهُ[٤]، فَدَلَّتْهُ بقولِهَا وفعْلِهَا علىٰ تَرْكِ الشَّهَواتِ العَاجِلَةِ، ومِنْ جملتِهَا شربُ المَاءِ المبرَّدِ.

❊ ❊ ❊

(١) زيادة من (ف).

(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٩٥.

(٣) في (ب): وعقابه.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُم:

[٦] أَبُو نصرٍ: بِشْرُ بْنُ الحَارِثِ الحَافِي[٢]

أصلُهُ من (مَرْو) وسكنَ (بغدادَ)، وَمَاتَ بِهَا، وَهُوَ ابْنُ أختِ عَلِيِّ بْنِ خشرمٍ، مَاتَ سنةَ سبعٍ وعشرينَ ومائتَينِ، وَكَانَ كبيرَ الشَّأنِ.

وَكَانَ سببُ توبتِهِ: أَنَّهُ أصابَ[٣] فِي بعضِ الطَّرِيقِ كاغَدةً[٤] مَكْتُوبًا فِيهَا اسمُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ قَدْ وَطِئَتْهَا الأقدامُ، فأخذَهَا واشترىٰ بدرهمٍ كَانَ مَعَهُ غاليةً[٥]، فَطَيَّبَ بِهَا الكَاغَدةَ، وَجَعَلَهَا فِي شقِّ حائطٍ، فَرَأَىٰ فِي النَّوْمِ فِيمَا يَرَىٰ النَّائِمُ كَأَنَّ قَائِلاً، يَقُولُ لَهُ: يَا بِشْرُ، طَيَّبْتَ اسْمِي! لَأُطَيِّبَنَّ اسْمَكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ إجلالَ اللهِ - تعالىٰ - وتعظيمَهُ، وتعظيمَ كلِّ ما يدلُّ علىٰ أسمائِهِ وصفاتِهِ من أفضلِ الطَّاعاتِ وأحبِّهَا لخالقِ الأرضِ والسَّماواتِ، فإنَّ الكاغدةَ إنَّمَا فيها حروفٌ دالَّةٌ علىٰ اسمِ اللهِ، فَأَجَلَّ الكاغَدةَ [٢٩/١أ] الَّتي تضمَّنَتِ الحروفَ الدَّالةَ علىٰ اسمِ اللهِ، ولم يهنْ علىٰ قلبِهِ تَرْكُهَا تُداسُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٤٨/١.

(٢) انظر في ترجمته: الطبقات الكبرىٰ ٣٤٢/٧، وطبقات الصوفية ص٤٢، وحلية الأولياء ٣٣٦/٨، والثقات ١٤٣/٨، والفهرست ص٢٦١، وتاريخ بغداد ٦٧/٧، ومناقب الأبرار ١١٩/١، وصفة الصفوة ٣٢٥/٢، وتاريخ الإسلام ١٠٥/١٦، والوافي بالوفيات ٩١/١٠، وتهذيب التهذيب ٣٨٩/١، والبداية والنهاية ٢٩٧/١٠، وطبقات الأولياء ص١٠٩، والكواكب الدرية ٥٥٧/١، والعارف بالله (بشر بن الحارث الحافي) تأليف الإمام: عبد الحليم محمود. وصنف ابن الجوزي كتابا في أخباره، ففي وفيات الأعيان ٦٥/١: «ذكر أبو الفرج بن الجوزي في كتابه الذي صنفه في أخبار بشر بن الحارث الحافي».

(٣) أي: وجد.

(٤) الكاغَد: القرطاس، الورق. انظر: صبح الأعشىٰ ٥١٤/٢.

(٥) من أنواع الطيب.

تحتَ الأرْجُلِ، فطهَّرَهَا وطيَّبَهَا وحفظَهَا في موضعٍ تَسْلَمُ فيهِ منَ الإهانةِ، فلمَّا فعلَ ذلكَ إجلالًا للهِ، ولمَّا دلَّ على اسمِهِ - تعالى - أراهُ تلكَ الرُّؤيةَ في المنامِ أنَّهُ يُقالُ لهُ: «**طيَّبْتَ اسمِي! لأُطيِّبَنَّ اسمَكَ**[١] **فِي الدُّنيَا والآخرةِ**»؛ فلذلِكَ اشتهرَ بِشْرٌ الحافِي، وكمْ منِ حَافٍ ومُنْتَعِلٍ لا يُلتَفتُ إليهِ، ولكنْ مَنْ أَجلَّ اللهَ أَجَلَّهُ.

ولهذَا كانَ الإجلالُ والتَّعظيمُ للهِ - تعالى - أَصْلًا فِي القِيَامِ بواجِبَاتِهِ، والبُعْدِ عن مَنَاهِيهِ، والخَوْفِ من وَعِيْدِهِ، والرَّجاءِ لمَوعُودِهِ، ولو لمْ يُعَظِّمِ الحقُّ - سبحانه - في قُلُوبِ السُّعدَاءِ والموفَّقِينَ لَمَا عظُمَ عندَهُم أمرُهُ ولا نهيُهُ، ولسَهُلَ عليهِم مُخَالفتُهُ، ولم يعظُمْ عندَهُم وَعْدُهُ ولا وعيدُهُ، كما نشاهدُ من كثيرٍ منَ الجاهِلِينَ الغافلينَ عمَّا خُلِقُوا له منَ المُنهَمِكِينَ في الشَّهواتِ، والمُنعَكِفِينَ على اللَّذَّاتِ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ الأستاذَ أبا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ**[٣]: **مَرَّ بِشْرٌ ببعضِ النَّاسِ فَقَالُوا: هَذَا الرَّجلُ لا ينامُ اللَّيلَ كُلَّهُ، ولا يفطرُ إلَّا فِي كُلِّ ثلاثةِ أيَّامٍ مرَّةً، فَبَكَى بِشْرٌ**[٤] **فقيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: إنِّي لا أذكُرُ أنِّي سَهِرْتُ ليلةً كاملةً، ولا أنِّي صُمْتُ يَوْمًا لَمْ أفطرْ من لَيْلتِهِ، ولكنَّ اللهَ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **يُلقي فِي القلوبِ أَكْثَرَ مِمَّا يفعلُهُ العَبْدُ لُطْفًا منهُ - سبحانه - وكَرَمًا، ثُمَّ ذكرَ ابتداءَ أَمْرِهِ كَيْفَ كَانَ عَلَى مَا ذكرنَاهُ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فبكاؤُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قولِ النَّاسِ: «**هذا لا ينامُ الليلَ، ولا يفطرُ إلَّا في [كُلِّ] ثلاثةِ أيَّامٍ**» شكرًا لربِّهِ في كونِهِ سترَ أمرَهُ وأظهرَ جَمِيْلَهُ،

---

(١) أي: ذكرك.

(٢) الرسالة القشيرية ٤٨/١.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٢٠٢/١٠، ومناقب الأبرار ١٢٠/١، وفيض القدير ٢٠٣/٢.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

ورجاءَ أنْ يفعلَ به ذلكَ في آخِرَتِهِ، ولذلكَ قالَ ما قالَهُ: من أنَّهُ ليسَ كما ظُنَّ فيه أدبًا لنفسِهِ، وَتَحْقِيقًا لِبَرَاءَتِهِ مِمَّا قَالُوه؛ خَوْفًا مِنْ غُرُورِ نَفْسِهِ، وَسُكُونِهَا إلىٰ مَدْحِهِم بما ليسَ فيهِ[1]، وهذا بكاءُ الفَرَحِ والسُّرُورِ بِصُنْعِ اللهِ، فالعبدُ تارةً يَبْكِي حُزْنًا وَخَوْفًا، وتارةً يَبْكِي سُرُورًا وَفرحًا، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨].

❁ **قَالَ الإمَـامُ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ[2]: «سَمِعتُ الشَّيخَ أَبا عَبد الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الرازيَّ يَقُولُ: سمعتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي حاتمٍ يَقُولُ: بَلَغَنِي أَنَّ بِشْرَ بْنَ الحَارِثِ الحافِي قَالَ[3]: رأيتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي المَنَامِ فَقَالَ لِي: يا بشرُ، تدرِي لِمَ رَفَعَكَ اللهُ مِنْ بَيْنِ أقرانِكَ؟ قُلْتُ: لا يا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: باتِّبَاعِكَ لسُنَّتِي، وخِدْمتِكَ الصَّالحينَ، ونَصِيحتِكَ لإخوانِكَ، ومحبَّتِكَ لأَصْحَابي وأهلِ بَيْتِي، هُوَ [١/٢٩ب] الَّذِي بَلَّغَكَ مَنازِلَ الأَبْرَارِ».**

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الغالبَ علىٰ زمانِ بِشْرٍ الإخلالُ بما ذكرَهُ في أهلِ الدِّينِ، فضلًا عنِ العوامِّ، فلذلكَ عرفَ في النَّومِ بما[4] رفعَهُ اللهُ عن أقرانِهِ ـ يعني مِنَ الصَّالحينَ ـ؛ إمَّا لإخلالِهِمْ بكلِّ ما ذكرَ أو ببعضِهِ، فإنَّ اتِّباعَ السُّنَّةِ أمرٌ جمليٌّ، يشملُ القيامَ بالواجباتِ والمندوباتِ والبُعدِ عنِ المحرَّماتِ والمكروهاتِ، وأنَّ تَرَاقِي ذلكَ في الدَّرجَاتِ وكذلِكَ خدمةُ الصَّالحينَ إكرامٌ لمَنِ اختصَّهُ اللهُ وشَرَّفَهُ، وذلكَ من إجلالِهِ للهِ أنْ يجلَّ[5] العَبْدُ مَنْ أَجَلَّهُ اللهُ، والنَّصيحةُ

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٩٦.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٤٨.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ١٠/١٩٣، ومناقب الأبرار ١/١٢٠.

(٤) في (ب): مما.

(٥) في (ج): يجعل.

ـ أيضًا ـ للإخوانِ تابعةٌ لكمالِ المحبَّةِ لهُم.

وأمَّا محبَّتُهُ لأصحابِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهلِ بيتِهِ فذلكَ لمحبَّتِهِ في النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنَّهُ على حسبِ محبَّتِهِ لهُ يحبُّ مَنْ أحبَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

وبهذا الاعتبارِ كانَتْ محبَّةُ اللهِ ـ تعالى ـ لِمَنْ أحبَّ رسولَهُ، فإنْ(٢) أحبَّ اللهِ مَنْ أحبَّهُ اللهُ فحقيقٌ لِمَنِ اتَّصَفَ بهذِهِ الأخلاقِ أنْ يجلَّهُ اللهُ ويشرِّفَهُ، ويَرْفعَهُ على أَقْرَانِهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللهُ(٣): «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَينِ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الرَّازيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ بِلالًا الخَوَّاصَ يَقُولُ(٤): كنتُ فِي تيهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا رجلٌ يُمَاشِينِي(٥) فَتعَجَّبْتُ مِنْهُ، ثُمَّ أُلْهِمتُ أَنَّهُ الخضرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقُلْتُ لَهُ: بحقِّ الحقِّ؛ مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أخوكَ الخَضِرُ، فَقُلْتُ لَهُ: أريدُ أَنْ أسألَكَ فَقَالَ: سَلْ، فَقُلْتُ: مَا تقولُ فِي الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ؟ فَقَالَ: هُوَ منَ الأوتادِ، فَقُلْتُ: مَا تقولُ فِي أَحْمَدَ بْنِ حنبلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؟ قَالَ: رجلٌ صِدِّيقٌ(٦). قُلْتُ: فَمَا تقولُ فِي بِشْرِ بْنِ الحَارِثِ؟ فَقَالَ: لَمْ يُخَلَّفْ بعدَهُ مِثْلَهُ، فَقُلْتُ: بأيِّ وَسِيلَةٍ رأيتُكَ؟ فَقَالَ: بِبِرِّكَ لأُمِّكَ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: تَوَاتَرَتِ الأخبارُ سَلَفًا وخَلَفًا بحياةِ الخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛

---

(١) ففي سنن الترمذي ٥/٦٦٤: «قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ من نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي».

(٢) في (ب): فإنه.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٤٩.

(٤) ورد قوله في: حلية الأولياء ٩/١٨٧، ومناقب الأبرار ١/١٢١، والزهر النضر في أخبار الخضر ص١٥٣.

(٥) أي: يصاحبني في المشي.

(٦) أي: بالغ في الصدق غايته.

لِمَا نُقِلَ عن عمرِ بنِ عبدِ العزيزِ، وإبراهيمَ بنِ أدهمَ، وبلالِ الخَوَّاصِ، وأبي زكريَّا المَغْيَلِيِّ، ومَنْ عَاصَرْنَاهُ في زمانِنَا ممَّا لا أشكُّ في صِدْقِهِ من: إسماعيلِ الإشبيليِّ، وأبي موسى، والفقيهِ خيرٍ، وأبي عبدِ اللهِ المالَقِي، وسَيِّدِهِم الإسكندَرانِي، والشيخِ أبي العبَّاسِ المُولي، والمغاورِي، والشَّيخِ الردانِ الرَّجُلِ الصَّالحِ[(١)]، وأختِ الفقيهِ أبي الحسَنِ المقدسِيِّ ـ رحمةُ اللهِ عليهِما ـ، وغيرِ هؤلاءِ ممَّنْ لَوْ قصدنَا تَتَبُّعَهُمْ منَ الكتبِ وغيرِهَا لأكثرْنَا.

وأمَّا سؤالُهُ عنِ الشَّافعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجوابُهُ أنَّهُ «منَ الأوتادِ» فصحيحٌ، فإنَّ الأوتادَ هُمُ الَّذينَ [١/٣٠أ] يُحفظُ بهِمِ الدِّينُ، والشَّافعيُّ منهُمْ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهوَ كان معَ علمِهِ منَ السُّيَّاحِ الزَّاهدينَ الكُرَمَاءِ.

وسؤالُهُ عن أحمدَ بنِ حنبَل رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجوابُهُ أنَّهُ «صِدِّيقٌ» دليلٌ على صِدِّيقيَّتِهِ ما قاسَاهُ في اللهِ منَ الضَّربِ والهَوانِ[(٢)]، ولمْ ينطقْ بكلمةٍ واحدةٍ يتخلَّصُ بهَا ممَّا هو فيهِ[(٣)]؛ حفظًا لدينِ اللهِ ولعبادِ اللهِ؛ لئلَّا يَعْتَقِدُونَ[(٤)] في كلامِ اللهِ ما لا يليقُ بهِ وبقِدَمِهِ[(٥)].

وسؤالُهُ عن بِشْرِ بنِ الحارثِ وقولُهُ: «لمْ يُخَلِّفْ بعدَهُ مثلَهُ» يعنِي: بعدَ موتِهِ

(١) سقط من (ب) قوله: الرجل الصالح.

(٢) وذلك لما طلب منه القول بخلق القرآن فأبى. انظر: إحكام الدلالة ١/٩٧. وفي طبقات الحنابلة لأبي يعلى ١/٢٢٧: «سمعت علي بن المديني يقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث: أبو بكر الصديق يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة». وللاستزاده انظر: كتاب المحنة برواية أبي علي الشيباني، ط/مركز الملك فيصل، وجواب الإمام أحمد بن حنبل عن سؤال في خلق القرآن ـ مخطوط مكتبة روان كوشكي ٥١٠/٩، والمحن ص٤٥٢.

(٣) مع تمكنه من ذلك.

(٤) في (ب): يُعْتَقَد، وكل صواب.

(٥) في (ب): وتقدمه.

في زمانِهِ الَّذِي هوَ فيهِ خاصَّةً.

وقولُهُ: «بأيِّ وسيلةٍ رأيتُكَ؟ فقالَ: بِبِرِّكَ بِأُمِّكَ[١]» فيهِ تحريضٌ لِمَنْ[٢] سمعَ هذهِ الحكايَةَ علىٰ برِّ الوالدَيْنِ، فإنَّهَا تُوصِّلُ إلىٰ كلِّ خيرٍ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، وقدْ قَرَنَهُ اللهُ بِبِرِّهِ، فقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: ١٤].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «سَمِعْتُ الأستاذَ أبا عَلِيٍّ الدَّقَّاق رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ[٤]: أَتىٰ بِشْرُ بنُ الحَارثِ بَابَ المُعَافىٰ بْنِ عمرانَ، فَدَقَّ عَلَيْهِم البابَ، فقيلَ: مَنْ؟ قَالَ: بِشْرٌ الحَافِي. فَقَالَتْ بُنَيَّةٌ مِنْ دَاخِلِ الدَّارِ: لَو اشتريتَ لَكَ نَعْلًا بدانَقَينِ[٥] لذَهَبَ عَنْكَ اسمُ الحَافِي!

أخبَرَنِي بِهَذِهِ الحكايَةِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الشِّيرازِي، [قالَ] حدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ الفُضَيلِ قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ قَالَ: سمعتُ عَبْدَ اللهِ المَغَازليَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ بشرًا الحَافِيَّ يَحْكِي هَذِهِ الحِكَايَة.

وسمعْتُ مُحَمَّدَ بْنُ الحُسَينِ[٦] يَقُولُ: سمعْتُ أبا الحُسَيْنِ الحَجَّاجِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ المَحَامِلِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحَسَنَ المُسُوحيَّ يَقُولُ: سمعْتُ بشرَ بْنَ الحَارثِ يَحْكِي هذِهِ الحِكَايَةَ».

---

(١) لحديث صحيح البخاري ٥/٢٢٢٧ ـ حديث رقم (٥٦٢٦): «يا رَسُولَ اللهِ من أَحَقُّ الناس بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قال: أُمُّكَ...».

(٢) في (أ): من، وفي (ب): علىٰ من.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٤٩.

(٤) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٧/٦٩، وتاريخ دمشق ١٠/١٨٣، وتهذيب الكمال ٤/١٠٢، وصفة الصفوة ٤/٤٤٢، والأذكياء ص٢٠٢، وسير أعلام النبلاء ١٠/٤٧٤، والوافي بالوفيات ١٠/١٩١.

(٥) مثنىٰ: دانق، وفي التعريفات ص٣٣٢: «الدانق: معرب؛ وهو سدس درهم».

(٦) في (أ): الحسن.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على أنَّ بِشْرًا وَجَدَ فِي نَفْسِهِ من هذِهِ الحكايةِ وَجْدًا كَثِيرًا، حتَّى كَثُرَ ذِكْرُهُ لَهَا، فنقلت عنهُ من طُرُقٍ، وذلكَ أنَّ اللهَ نبَّهَهُ على سَتْرِ حَالِهِ على لسَانِ صغيرةٍ؛ وهو أنَّهُ لوِ اشترَى نعلًا بدانقينِ لزالَتْ عنهُ هذِهِ[١] الشُّهرةِ.

وفِي هذِهِ الحكايةِ تَنْبِيهٌ على أنَّ الإنسانَ إذا قدرَ على سَتْرِ حَالِهِ وتَرْكِ شُهْرَتِهِ كانَ ذلكَ أَوْلَى بهِ؛ لأنَّ بِشْرًا اتَّخذَهَا عِبْرَةً وفَائِدَةً، ولذلِكَ نقلَهَا النَّاسُ عنهُ[٢].

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «وَسَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أبا الفضلِ العطَّارَ يَقُولُ: سمعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيٍّ الدِّمشقيَّ يَقُولُ: قَالَ لي أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ الجَلَّا[٤]: رأيتُ ذا النُّونِ وكانَتْ لَهُ العبارةُ، ورأيتُ سَهْلًا وَكَانَتْ لَهُ الإِشَارَةُ، ورأيتُ بِشْرَ بنَ الحَارِثِ وَكَانَ لَهُ الوَرَعُ، فقيلَ لَهُ: فإلى [١/٣٠ب] مَنْ كنتَ تميلُ؟ فَقَالَ: لبِشْرِ بنِ الحَارِثِ أُسْتَاذِنَا».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ الورعَ والكَفَّ عن تَرْكِ الواجباتِ وارتكابِ المحرَّماتِ والإعراضَ عنِ المُكْرُوهَاتِ وإنْ دقَّ شبهُهَا بالمحرَّماتِ، وتَعَاطِي المَنْدُوبَاتِ وإنْ تعالَتْ في الدَّرجاتِ، ففي هذا السَّلامةُ منَ الشُّرورِ، والاشتغالُ بمَعَالي الأُمُورِ، فالاقتداءُ بمَنْ هذِهِ حالُهُ أَوْلَى، فَإِنَّ الاقتداءَ بالأَحْوَالِ

(١) في (ب): اسم هذه.

(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٩٨.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٥٠.

(٤) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٧/٧٣، وأردف الخطيب هذه الحكاية بقوله: «وأحمد بن يحيى الجَلَّا لم ير بشرًا ولم يدركه، وإنما أبوه يحيى أدركه وصحبَهُ، فالله أعلم»، وتاريخ دمشق ٥/٥٢، ١٠/١٩٢، ومناقب الأبرار ومحاسن الأخيار ١/١٢٢، والمختار من مناقب الأخيار ١/٢٧٨، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار ٨/٥٨.

أَبْلَغُ منَ الاقتداءِ بالأَقْوالِ[١].

وأمَّا حُسْنُ العِبارةِ فِي بَيانِ الدَّرجاتِ الَّذِي كانَ لِذِي النُّونِ والإشارةُ إلىٰ أعلىٰ المقاماتِ الَّذِي كانَ لسَهْلٍ فإنَّمَا ينتفعُ بهِ أربابُ الأحوالِ، ولهذا قالَ بعضُهُم[٢]: «اقتدُوا بِخَمْسَةٍ مِن شيوخِنَا وذكرَهُمْ»، وعلَّلَ ذلكَ بأنَّهُم جَمَعُوا بَيْنَ العِلْمِ والحَقِيقَةِ، يَعْنِي: الأعمالَ بالعلمِ وغلبةِ الأحوالِ.

قَالَ الإِمَامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «وقيلَ: إنَّهُ اِشْتَهىٰ البَاقِلَّاءَ سنينَ فلم يأكلْهُ، فَرُئِيَ فِي المنامِ بَعْدَ وفاتِهِ، فقيلَ لَهُ: مَا فعلَ اللهُ بكَ؟ فَقَالَ: غفرَ لي، وَقَالَ[٤]: كُلْ يَا مَنْ لَمْ يأكلْ، واشرَبْ يا مَنْ لَمْ يشرَبْ.

أخبرَنَا الشَّيخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ[٥]: أخبرَنا عُبَيْدُ اللهِ بنُ عُثْمَان بنِ يَحْيَي قَالَ: حدَّثَنَا أَبُو عَمْرو بنُ السَّمَّاكِ قَالَ: حدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ العَبَّاسِ قَالَ: حدَّثَنا أَبُو بَكْرِ بنُ بنتِ مُعَاوِيَةَ قَالَ: سَمِعتُ أبا بَكْرِ بنَ عَفَّانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ بشرَ بنَ الحَارِثِ يَقُولُ: إنِّي لأشتهِي الشِّواءَ منذُ أربعينَ سنةً ما صَفا لِي ثمنُهُ.

وقيلَ لِبِشْرٍ[٦]: بأيِّ شَيْءٍ تأكلُ الخُبْزَ؟ فَقَالَ: أذكرُ العافيَةَ وأجعلُهَا إدامًا،

---

(١) انظر: إحكام الدلالة ١/٩٩.

(٢) هو قول عبد الله بن خفيف، ففي الرسالة القشيرية ١/٥١: «قَالَ أَبُو عَبْد اللهِ بن خفيف: اقتدوا بخمسة من شيوخنا ـ والباقون سلموا لَهُمْ حالهم ـ: الحَارِث بْن أسد المحاسبي، والجنيد بن مُحَمَّد، وأبو مُحَمَّد رُويم، وأبو العَبَّاسِي بن عَطَاء، وعمرو بن عُثْمَان المَكِّي؛ لأنهم جمعوا بَيْنَ العلم والحقائق». وورد قوله أيضا في: مناقب الأبرار ١/١٦٦، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٧٦، ونشر المحاسن الغالية ص٣٢٥، وسراج الطالبين ٢/١٦٣.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٥٠.

(٤) ورد قوله في: حلية الأولياء ٩/١٩٠، وتاريخ دمشق ٥/٣٣٧، ومناقب الأبرار ١/١٢٢.

(٥) طبقات الصوفية ص٤٩، وفيه: «درهمه» بدل «ثمنه». وورد أيضا في: تاريخ دمشق ١٠/١٩٥، وشعب الإيمان ٥/٤٣، والزهد الكبير ص١٦٦، ومناقب الأبرار ١/١٢٢.

(٦) ورد قوله في: طبقات السلمي ص٤٩، ومناقب الأبرار ١/١٢٢، ووفيات الأعيان ١/٢٧٥،=

أخبرَنَا بِهِ مُحَمَّدُ بنِ الحسينِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخبرَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عُثْمَان أخبرَنَا أَبُو عَمْرو بْنُ السَّمَّاكِ، حدَّثَنا عَمْرو بْنُ سَعِيدٍ، حدَّثَنَا ابْنُ أَبِي الدُّنيا قَالَ: قَالَ رجلٌ لِبِشْرِ الحِكَايَةَ.

وَقَالَ بشرٌ[1]: لا يحتملُ الحَلالُ السَّرَفَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: هذهِ الحكاياتُ في الباقلَّاءِ والإدامِ وفي الشِّواءِ تجري فِي سلكٍ واحدٍ، وهي تدلُّ على كَمَالِ وَرَعِهِ، وذلكَ أنَّ مُخَالَفَةَ الشَّهْوَةِ أصلٌ في صحَّةِ الوَرَعِ، فإنَّ مَنْ وافقَ شَهَوَاتِهُ لم يكْمُلْ وَرَعُهُ؛ لأنَّ الورعَ: الكفُّ عمَّا يَشْتَهِي ممَّا فيهِ ضَرَرٌ أو نَقْصٌ دِيْنِيٌّ، والباقلَّاءُ: هي الفُوْلُ[2]، فلمْ يعطِ نفسَهُ شهوتَهَا في هذا الشَّيءِ اليسيرِ.

وأمَّا قولُهُ في الشِّواءِ[3]: «ما صَفا لي ثمنُهُ» يحتملُ أمرينِ[4]:

أحدهُمَا: أنَّهُ ما صفَا له حلُّ ما يشتريهِ بهِ لقلَّةِ الحلالِ في زمانِهِ.

ويحتملُ أنَّهُ وجدَ الحلالَ ورأىٰ صرفَهُ في جهاتِ البرِّ أولَىٰ [١/٣١أ] من أكلِ هذِهِ الشَّهوةِ، فما تخلَّصَ لهُ صرفُهُ فيهَا حتَّىٰ يكون أولىٰ من إخراجِهِ في غيرِهِ.

ويحتملُ وجهًا آخرَ يلتحقُ بما تقدَّمَ، أنَّهُ ما صفا لهُ أكلَهُ للهِ حتَّىٰ يكون أكلُهُ بغيرِ شهوةِ نفسِهِ؛ مثل أنْ يأتيَهُ بهِ أخٌ يسرُّهُ أكلُهُ لهُ، أو يتكلَّفُهُ متكلِّفٌ ويدعوهُ إليهِ،

= وفيض القدير ٢/١٦٢.

(١) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٥٠، تاريخ بغداد ١١/٣٠١، وتاريخ دمشق ١٠/٢٠٨، ومناقب الأبرار ١/١٢٢. ونسب للثوري في: حلية الأولياء ٦/٣٨٢.

(٢) ففي الجمهرة ٢/٩٧١: «وأهل الشام يسمّون الباقلّاء اليابس: الفول».

(٣) أي: المشوي.

(٤) أفادهما الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٩٩.

أو ما يَجْرِي مَجْرَاهُ من جِهَاتِ البِرِّ، فيرجعُ هذا إلىٰ مُخَالَفَةِ نَفْسِهِ، كما ذكرناهُ فِي أَكْلِ الفُولِ.

وأمَّا قولُهُ: «أذكرُ العافيةَ، وأجعلُهَا إدامًا»، هو أيضًا من بابِ تَرْكِ الشَّهوةِ وكثرةِ الجوعِ والأكلِ عندَ الفَاقةِ، فإنَّ مَنْ كانَ في عافيةٍ ولم يأكلْ إلَّا عندَ الحاجةِ لم يحتجْ إدامًا للخبزِ بمشيهِ؛ لشدَّةِ رغبتِهِ فيهِ[1]، ولذلكَ قالَ بعضُهُم[2]: «مَنْ كانَتْ قناعتُهُ سمينةً، طابَتْ لهُ كلُّ مَرَقَةٍ».

وأمَّا قولُهُ: «لا يحتملُ الحَلالُ السَّرَفَ» فهو لعزَّةِ وجودِهِ، فإنَّ مَنْ أخذَ مِن أيِّ جهةٍ كانَ لم يبالِ في أيِّ جهةٍ صرفَ إسرافًا كانَ أو غيرَ إسرافٍ، ومَنْ عرف عزَّةَ الطَّلبِ للشَّيءِ لم يَهُنْ عليهِ التَّفريطُ فيهِ، وَأَخْرَجَهُ فيما يحبُّ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «وَرُئِي بشرٌ فِي المَنَامِ فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ[4]: غَفَرَ لِي، وأباح لي نِصْفَ الجَنَّة، وَقَالَ لي: يا بشرُ؛ لو سَجدتَ لي عَلَىٰ الجَمْرِ مَا أَدَّيتَ شُكْرَ مَا جعلتُهُ لَكَ فِي قُلُوبِ عِبَادِي».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذهِ الحكايةُ ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ جاريةٌ علىٰ ما تقرَّرَ فِي الشَّريعةِ أنَّ الميِّتَ إذَا قُبِرَ فِي قَبْرِهِ وأتاهُ الملكانِ وسألَاهُ وأجابَهُمَا بالحقِّ الَّذِي كانَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٩٩.

(٢) ورد في: الرسالة القشيرية ١/٢٩٥، وأدب الدنيا والدين ص٢٢٨، وقناطر الخيرات ص٣٢، والسلامة في الدين بترك الطمع في المخلوقين للملوي ص٧٢ ـ بتحقيقي، وأدرفه بقوله: «فيه إشارة إلىٰ أنَّ مَن كمُلت قناعتُه اكتفىٰ بأيسر شيء من الدنيا». وسمينة: غزيرة.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٥٠.

(٤) ورد قوله في: المنامات لابن أبي الدنيا ص١٢٨، وتاريخ بغداد ٧/٧٨، وتاريخ دمشق ١٠/٢٢٧، ومناقب الأبرار ١/١٢٢، والمختار من مناقب الأخيار ١/٢٨٣، والمجالسة وجواهر العلم ص٧٧، وتهذيب الكمال ٤/١٠٨.

يعتقدُهُ في الدُّنيَا يُفْتَحُ لهُ بابٌ إلى الجنَّةِ، ويُقالُ له[١]: «هذا ما أعدَّ اللهُ لكَ»، ويَرَى النَّارَ، ويقالُ لهُ: انظُرْ ما صرَفَ اللهُ عنكَ، وتسرحُ روحُهُ في جنَّتِهِ ما دامَ في حفرتِهِ.

وكذلِكَ جاءَ «أنَّ أرواحَ الشُّهداءِ في قناديلَ معلَّقةٍ بالعَرْشِ، تعلَّقُ في ثمَارِ الجنَّةِ»[٢]. فقولُ بِشْرٍ: «**غفرَ لِي، وأباحَ لي نصفَ الجنَّةِ**» أنَّ روحَ الصَّالحِ تَتَنَعَّمُ بالجنَّةِ[٣]، وهوَ في البَرْزَخِ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ دخلَهَا بجسمِهِ وروحِهِ، فقولُهُ: «نِصْفَ الجنَّةِ» يَعْنِي: نِصْفَ جنَّتِهِ هوَ، يَعْنِي: نِصْفَ نَعِيمِهِ؛ أي: برُوحِهِ، ويكملُ لهُ نعيمهُ ببدنِهِ معَ روحِهِ في الآخرةِ ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالى ـ[٤]، ولو أخذَ نصفَ الجنَّةِ[٥] بكمالِهَا، فأينَ درجاتُ الأنبياءِ والأولياءِ؟!.

وقولُهُ: «**لوْ سجدْتَ لي علَى الجمْرِ مَا أدّيتَ الشُّكرَ لِمَا جعلْتُ لكَ في قلوبِ عبادِي**»، وذلكَ أنَّ اللهَ ـ تعالى ـ أظهَرَ جميلَهُ، وأحسنَ ظنَّ الخلقِ بهِ حتَّى [١/٣١ب] أحبُّوهُ واقتدَوا بِهِ، فكَثُرَ خيرُهُ وأجرُهُ بكثرةِ مَنِ اقتدَى بهِ، فنعمةُ السَّترِ وإظهارُ الجميلِ ومحبَّةُ المؤمنينَ لهُ وسُرْعَةُ اقتدائِهِم بآثارِهِ نعمةٌ عظيمةٌ لهُ؛ لا يفِي بهَا عملُ العَبْدِ، فأرادَ اللهُ ـ سبحانه ـ أنْ يعرفَ العَبْدُ أنَّ أَعْمَالَهُ جَمِيعَهَا ـ ولو كثُرَتْ، وشقَّ عملُهَا عليهِ ـ لا تفِي ببعضِ نعَمِ اللهِ عليهِ، فكيفَ بنعَمِهِ كلِّهَا!.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ[٦]: «**وَقَالَ بِشرٌ**[٧]: **لَا يَجِدُ حَلَاوَةَ** ....

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/٥٣٥، والمصنف لابن أبي شيبة ٣/٥٦. وورد في: الروح ص٤٧.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٥/٢٦٤، وورد في: تفسير الثعلبي ٢/٢٢، وكنز العمال ٤/١٧٧.

(٣) في (ب): في الجنة.

(٤) انظر: إحكام الدلالة ١/١٠٠، وروح البيان ١/٢٥٩، ٨/١٩٠.

(٥) في نتائج الأفكار ١/١٤٣: «... والنصفية باعتبارات التنعيم مقصور على الروح لبقاء الجسم في البرزخ، فافهم».

(٦) الرسالة القشيرية ١/٥٠.

(٧) ورد قوله في: التواضع والخمول لابن أبي الدنيا ص٩٥، وحلية الأولياء ٨/٣٤٣، وإحياء علوم=

الآخرةِ[١] رجلٌ يُحِبُّ أَنْ يعرفَهُ النَّاسُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومحبَّةُ أنْ يعرفَهُ النَّاسُ دليلٌ على محبَّةِ الشُّهرةِ عندَهُمْ، وأنْ يعرفوا دينَهُ وكمالَهُ فِي عِلْمِهِ وَعَمَلِهِ، وهذهِ قاعدةُ الرِّياءِ، ومحبَّةُ المنزلةِ في قلوبِ النَّاسِ بالدِّينِ، بخلافِ مَنْ شهرَهُ اللهُ بغيرِ اختيارِهِ بالعلْمِ واحتياجِ النَّاسِ إليهِ وتعيينه في ذلكَ، فإنَّ هذا ليسَ من محبَّتِهِ، وإنَّمَا اللهُ - تعالى - فعلَ بهِ ذلكَ إمَّا لِمَا وضعَ لهُ في قلوبِ الخلقِ من المحبَّةِ، كمَا جاءَ في الخبرِ الصَّحيحِ[٢]: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ القَبُولُ في الأَرْضِ»، ويعضدُ هذَا الحديثَ قولُهُ - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، أي: محبَّةً فِي القُلُوبِ، ويكونُ إشهارُهُ - تعالى - لهُمْ ومعرفةُ النَّاسِ بِهِمْ؛ ليقتدُوا بآثارِهِم، فتكملَ أجورُهُمْ، كما أثنى[٣] - تعالى - على مَنْ سَألَ ذلكَ منهُ في قولِهِ - تعالى -: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، أي: أئمَّةً يُقْتَدَى بِهِم وتُقْتَصُّ آثارُهُم، ويعملُ بما قالُوهُ بعدَ موتِهِم، وهذهِ شُهْرَةٌ محمودةٌ[٤]، وإنْ كانَتْ بقصْدِ العبْدِ[٥] محبَّتَهُ، لكنْ لأمْرِ ربِّهِ لا لهواهُ وعاجلِ شَهْوتِهِ[٦].

❊ ❊ ❊

= الدين ٣/٢٧٦، ومناقب الأبرار ١/١٢٢.

(١) في (ب): الأجر، وهو تحريف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٢٤٦ ـ حديث رقم (٥٦٩٣)، ومسلم في صحيحه ٤/٢٠٣٠ ـ حديث رقم (١٦٣٧).

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) أي: يُثاب عليها.

(٥) أي: باختياره.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٠٠.

قَالَ الإِمَـامُ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ (١):

«وَمِنْهُم:

[٧] أَبُو عَبْدِ اللهِ الحَارِثُ بْنُ أَسَدٍ المُحَاسِبِيُّ (٢)

عديمُ النَّظيرِ فِي زَمَانِهِ: عِلمًا وَوَرَعًا وَمُعَامَلَةً وَحَالاً، بَصْرِيُّ الأَصْلِ، مَاتَ ببغدادَ سنةَ ثَلاثٍ وأربعينَ ومائتينِ.

قيلَ: إِنَّهُ ورثَ من أَبِيهِ سبعينَ ألفِ دِرْهمٍ، فلمْ يأخذْ منهَا شَيْئًا؛ لأَنَّ أباهُ كَانَ يَقُولُ بالقَدَرِ، فرأىٰ فِي الورعِ أَلَّا يأخذَ مِن مِيراثِهِ، وَقَالَ: صحَّتِ الرِّوايةُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (٣): «لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّىٰ».

سمعْتُ مُحَمَّدَ بنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سمعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ يَحْيَي يَقُولُ: [١/٣٢أ] سمعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ نُصَيرٍ يَقُولُ (٤): سَمِعْتُ ابْنَ مَسْرُوقٍ يَقُولُ: مَاتَ الحَارِثُ بْنُ أَسَدٍ المحاسبيُّ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ دِرْهمٍ، وخلَّفَ أبوهُ ضِياعًا (٥) وعَقَارًا

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٥١.

(٢) انظر في ترجمته: الفهرست ص٢٦١، وطبقات الصوفية ص٥٨، وحلية الأولياء ١٠/٧٣، وتاريخ بغداد ٨/٢١١، ومناقب الأبرار ١/١٦٥، والمنتظم ١١/٣٠٨، وتهذيب الكمال ٥/٢٠٨، وميزان الاعتدال ٢/١٦٤، وتاريخ الإسلام ١٨/٢٠٥، والعبر ١/٤٤٠، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٧٥، ولسان الميزان ٧/١٩١، والوافي بالوفيات ١١/١٩٨، وصفة الصفوة ٢/٣٦٧، وتهذيب التهذيب ٢/١١٦، وطبقات الأولياء ص١٧٥، والكواكب الدرية ١/٥٨٥.
وسُمِّي بالمُحاسبي؛ لكثرة محاسبته لنفسه. انظر: سراج الطالبين ٢/١٦٣.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ٣/١٢٥، وابن ماجه في سننه ٢/٩١٢، والنسائي في سننه الكبرىٰ ٤/٨٢، والبيهقي في سننه الكبرىٰ ٦/٢٢٣. و(شتىٰ): متفرقون.
وفي سبل السلام ٣/٩٩: «الحديث دليل علىٰ أنه لا توارث بين أهل ملتين مختلفتين بالكفر، أو بالإسلام والكفر».

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/١٦٦، وتاريخ ابن الوردي ١/٢١٩.

(٥) جمع: ضَيعة، وهي العقار، والعطف بقوله (وعقارًا) للتفسير.

فَلَمْ يَأخُذْ منهُ شَيْئًا».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا يدلُّ علىٰ أنَّه كان مُتوقفًا في القَوْلِ في التَّكفيرِ بالمَآلِ[1]، فلو صحَّ عندَه أنَّ القدريَّةَ كفَّارٌ[2] لوجَبَ عليه تركُ مِيْرَاثِ أبيهِ، ولم يكنْ تَرْكُهُ وَرَعًا مَنْدُوبًا إليهِ، والَّذي يُؤتىٰ به في المَنَاقِبِ ورفعهُ[3] الدَّرجاتِ الوَرَعُ المَنْدُوبُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: **«سمعتُ الأستاذَ أبا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ[5]: كَانَ الحارثُ المُحاسِبِيُّ إذا مَدَّ يَدَهُ إِلىٰ طَعَامٍ فِيهِ شبهةٌ تَحرَّكَ عَلَىٰ إِصْبَعِهِ عِرْقٌ، فكانَ يَمْتَنِعُ مِنْهُ»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا أيضًا يدلُّ علىٰ كَمَال وَرَعِهِ، وأنَّه احترزَ في الأَمَاراتِ الظَّاهرةِ الشَّرعيَّة في تَرْكِ الشُّبهاتِ، فحفظهُ اللهُ - تعالىٰ - بالأماراتِ بِخَرقِ العَادَاتِ، فإنَّ ضَرَبانَ العِرْقِ علىٰ إِصْبَعِهِ أمارةٌ غيرُ معروفةٍ في العادةِ، فجريانُهَا له خرقُ عادةٍ دلَّهُ اللهُ بها علىٰ أنَّ في[6] الطَّعام[7] شيئًا يَنْبَغِي تَرْكُهُ، وذلكَ أنَّهُ قد يمدُّ يدَهُ في بعضِ الأوقاتِ إلىٰ طعامٍ، فيجدُ الأمارةَ خارقةً للعَادةِ فيبحثُ

---

(١) في بداية المجتهد ٣٤٣/٢: «ومعنىٰ التكفير بالمآل: أنهم لا يصرحون بقول هو كفر، ولكن يصرحون بأقوال يلزم عنها الكفر». وانظر: الاعتصام للشاطبي ١٧٦/١.

(٢) في اعتقاد أهل السنة ٧٠٧/٤: «... وحكىٰ المازني عن الشافعي: أنه كفرهم. وعن إبراهيم بن طهمان: القدرية كفار..».

وقال العروسي: «المعتمد أنهم فسقة لا كفرة» نتائج الأفكار ١٤٥/١.

(٣) في (ب): ورفع.

(٤) الرسالة القشيرية ٥١/١.

(٥) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٧٠، ومناقب الأبرار ١٦٦/١، ووفيات الأعيان ٥٨/٢.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٧) في (ج): الطاعات.

عن ذلك الطَّعامِ، ويسألُ عنهُ فيجدُ فيه ما حَضَّ الشَّرعُ علىٰ تَرْكِهِ، وفيهِ الفضلُ، ثمَّ يمدُّ يدَهُ إلىٰ غيرِهِ منَ الطَّعامِ فلا تَجْرِي الأمارةُ، فإذا تكرَّرَ عليهِ وجودُهَا مع البحثِ عنِ الطَّعامِ الَّذي جرَتْ فيه حصلَتْ له من ذلكَ غَلَبَةُ ظنٍّ في عَادةِ اللهِ معَهُ فينكفُّ.

وشرطُ هذا المعنىٰ ألَّا يَتأذَّىٰ به أحَدٌ، وإنَّمَا هوَ يعرفُهُ في نَفْسِهِ، ولقد حُكِيَ أنَّ الجنيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرَّ بهِ المحاسبيُّ يومًا فرأىٰ في وجْهِهِ أثرَ الجوعِ فقالَ: يا عمٍّ، تدخلُ تَتَناولُ شيئًا، فقالَ لهُ: نعَم، فقدَّمَ إليه طعامًا حملَ من عُرْسٍ، فأخذَ لقمةً وألقاهَا في الدّهليزِ ومضىٰ، وستأتي الحكايةُ في آخرِ هذا البابِ.

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّهُ قد يمدُّ يدَهُ ولا يضربُ العرقَ[(١)] ويتناولُ الطَّعامَ ولا يقدرُ علىٰ ابتلاعِهِ، فتكونُ له أمارتانِ: أمارةٌ عندَ مدِّ اليدِ، وأمارةٌ عندَ الابتلاعِ، وربَّمَا كانَ ذلكَ لقوَّةِ الشُّبْهَةِ في أحدِ المَحلَّينِ، فإذا كانَتْ قويةً صَانَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ[(٢)] مدِّ اليدِ، وإذا كانَتْ خَفِيفَةً صَانَهُ عنِ الابتلاعِ بعدَ مَدِّ اليدِ.

قَالَ الإمَـامُ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ[(٣)]: «**وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بنُ خفيفٍ[(٤)]: اقتدُوا بِخَمْسَةٍ مِنْ شُيوخِنَا، والباقونَ سَلِّمُوا لَهُم[(٥)] حالَهُم: الحَارثُ بنُ أسدٍ المُحَاسِبيُّ**، [١/٣٢ب]، **والجُنَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ[(٦)]، وأبو مُحَمَّدٍ رُويمٌ، وأبو العَبَّاسِ بْنُ عَطَاءٍ، وعمرو بْنُ عُثْمَانَ المَكِّيُّ؛ لأنَّهُمْ جمعُوا بَيْنَ العِلْمِ والحَقَائقِ[(٧)]**».

---

(١) في (ب): الحرق.

(٢) في (ج): عن.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٥١.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/١٦٦، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٧٦.

(٥) في نتائج الأفكار ١/١٤٦: «لأن من سلَّم سلِم، ومن خاض فقد خسر وندم».

(٦) في (ب): بن إبراهيم.

(٧) أي: بين عِلْم الشريعة والحقيقة؛ فعِلْمُ الشَّريعة مَدَارُه النَّقل، وعلم الحقيقة مداره علىٰ الذَّوق والكشف.

※ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على أنَّهُم هُم[١] المَشْهُورونَ في زمانِهِ[٢] خاصةً؛ لأنَّهُم جمعوا بينَ العلمِ والحقيقةِ.

ومقصودُهُ بالعلمِ: علمُ الشَّريعةِ، ومقصودُهُ بالحقيقةِ: غلبةُ حالِ التَّوحيدِ على القلبِ، وغلبةُ الأَحْوالِ والمَقاماتِ على القَلْبِ، فكلُّ مَنْ كانَ عندَهُ العلمُ والأحوالُ لا يُجيبُ النَّاسَ من حَالِهِ، وإنَّمَا يكلِّمُهُمْ على قدْرِ ما تَقْتَضِيهِ أحوالُهُم منَ العلمِ، ويكونُ الأولى بهم مِنْهُ ما يَدُلُّهُم عليهِ، وغير هؤلاءِ من المذكورينَ ممَّنْ غلبَ عليهِ حالُهُ فإنَّمَا يكلِّمُ النَّاسَ بما غلبَ عليهِ، فلا يصلحُ أن يُقْتَدَى بهِ.

وبيانُهُ: أنَّ مَنْ غلبَ عليهِ حالُ الجوعِ ـ مثلًا ـ وفتحَ له منهُ، وكانَ الغالبُ عليهِ في سلامةِ قلبِهِ ونشاطِ بدَنِهِ، ذلكَ فإنَّمَا يكلِّمُ النَّاسَ بِمَقَامِهِ وحَالِهِ، وليسَ كلُّ أحدٍ منَ السَّالكينَ يصلحُ له ذلكَ، وقد يكونُ بعضُ النَّاسِ فتحَ لهُ من بابِ التَّبذُّلِ ولِبَاسِ القُمَاشِ الخَلِقِ وخدمةِ الفقراءِ، ولا يرى طريقًا فتحَ اللهُ لهُ فيهِ سِوَى هذا الطَّريقِ، فأيّ مَنْ كلَّمَهُ منَ المريدينَ دلَّهُ على حالِهِ، والطَّريقُ الَّذِي فتحَ لهُ منه فلا ينتفعُ به كلُّ النَّاسِ، وكذلك قد يكونُ بعضُ السَّالكينَ خرجَ عنِ الأسبابِ دفعَةً وتركَ الكسبَ مرَّةً ومدَّهُ اللهُ بعَونِهِ وقَوَّى يقينَهُ، ونالَ درجةَ المتوكِّلينَ فيأمرُ كلَّ مريدٍ أرادَ التَّوكُّلَ أنَّهُ يبعدُ عنِ الأسبابِ ويتركُهَا بالكليَّةِ، وإنْ فَعَلَ ذلكَ هذا المأمُورُ أخلَّ بواجباتِهِ، وعَصَى ربَّهُ في تَضْيِيعِ نَفْسِهِ وأَهْلِهِ.

وعلى الجملةِ فالشَّيخُ المُقْتَدَى بهِ يَنْبَغِي أَنْ يكونَ طبيبًا عارفًا بسائرِ الأدويةِ والأمراضِ وأسبابِ الصِّحَّةِ، فيُداوي كلَّ عَلِيلٍ بالدَّواءِ اللَّائقِ بِمَرَضِهِ[٣]، ويحفظُ

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ج).

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب): زماننا.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٠٢.

عليهِ صحَّتَهُ بعدَ ذلك بالأسبابِ الحافظةِ لِصِحَّتِهِ، خوفًا من رجوعِهِ إلىٰ سُوءِ عَادَتِهِ، ولذلكَ قالَ هذا القائلُ: «اقتدُوا بهؤلاءِ الخَمْسةِ» فإنَّهُم بهذِهِ المثابةِ الَّتي ذكرناها، والباقونَ سلِّموا لهُم أحوالَهُم، فإنَّهُم مُغَلوبُونَ ينطقُ كلٌّ منهم عن حالِ نفسِهِ، وما منَّ عليهِ بهِ ربُّهُ فِي خاصَّتِهِ[1] فلا يصلحُ أنْ يكونَ طبيبًا لغيرِهِ، ومثالُهُ ـ لو فعلَ ـ مثالُ طبيبٍ يشفِي النَّاسَ من بَرْنيَّةٍ[2] واحدةٍ وأمراضُهُم مختلفةٌ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «سمعْتُ أبا عَبْدِ الرَّحْمنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: سمعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ الطُّوسِيَّ يَقُولُ: سمعتُ جعفرًا الخُلْدِيَّ يَقُولُ: [١/١٣٣أ] سمعتُ أبا عُثْمَان البَلَدِيَّ يَقُولُ: قَالَ الحَارِثُ المُحَاسِبِيُّ[4]: مَنْ صحَّحَ باطنَهُ بالمُراقَبَةِ والإِخْلاصِ؛ زيَّنَ اللهُ ظاهِرَهُ بالمُجَاهَدةِ واتِّباعِ السُّنَّةِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ راقبَ حَرَكَاتِهُ بقلبِهِ وجوارِحِهِ ووزنَهَا بميزانِ العلمِ حتَّىٰ عرفَ كونَهَا سُنَّةً أو بدعةً، وعلمَ هلَ أرادَ اللهُ بها خالصةً أو فيها شوبٌ؟ ودامَ علىٰ ذلكَ تجلَّىٰ به ظاهِرُهُ، فلا يَرَاهُ أبدًا إلَّا موزونَ الحَرَكَاتِ، مُسْتَقِيمًا علىٰ الخَيْراتِ، وقَدْ تزَيَّنَ ظَاهِرُهُ بالمُجَاهَدَةِ في اتِّباعِ السُّنَّةِ وإيقاعِ حَرَكَاتِهِ علىٰ وَفْقِ العلمِ والخَلاصِ من البِدْعَةِ، فلا تراهُ إلَّا في شَرٍّ يتَّقِيه[5]، أو خيرٍ يعملُ فيه.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[6]: «وَيُحْكَىٰ عَنِ الجُنَيدِ أَنَّهُ قَالَ[7]: مَرَّ بِي يَوْمًا الحَارِثُ

---

(١) في (ج): خاصيته.

(٢) هو: ضَرْبٌ مِن التَّمْرِ أَحْمَرُ مُشْرَبٌ بصُفْرةٍ كثيرُ اللِّحاءِ عَذْبُ الحَلاوَةِ، ويقالُ: نَخْلَةٌ بَرْنِيَّةٌ. انظر: تاج العروس «ب رن».

(٣) الرسالة القشيرية ١/٥١.

(٤) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٧٥، ومناقب الأبرار ١/١٦٦.

(٥) في (ب): سر ينفيه، والصواب المثبت.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٥٢.

(٧) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/١٦٦.

المُحَاسِبِيُّ، فرأيتُ فِيهِ أثرَ الجُوعِ، فَقُلْتُ: يَا عمُّ، تدخلُ الدَّارَ وتتناولُ شَيْئًا؟ فَقَالَ: نعمْ، فدخلتُ الدَّارَ وطلبتُ شَيْئًا أُقَدِّمُهُ إِلَيْهِ، فكانَ فِي البَيْتِ شَيْءٌ من طَعَامٍ حُمِلَ إِلَيَّ من عُرْسِ قومٍ، فَقَدَّمْتُهُ إِلَيْهِ، فأخذَ[1] لُقْمَةً، وَأَدَارَهَا فِي فِيهِ مرَّاتٍ، ثُمَّ إنَّهُ قامَ وأَلْقَاهَا فِي الدِّهليزِ[2] ومرَّ.

فَلَمَّا رَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ بأيَّامٍ، قُلْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: إنِّي كنتُ جائعًا، وَأَرَدْتُ أَن أَسُرَّكَ بِأَكْلِي وَأَحْفَظَ قَلْبَكَ، ولَكِنْ بينِي وبينَ اللهِ ـ سبحانه ـ علامةٌ أَنْ لا يُسَوِّغَنِي طَعَامًا فِيهِ شُبهةٌ، فلمْ يمكنِّي ابتلاعُهُ، فمِنْ أينَ كَانَ لَكَ ذَلِكَ الطَّعامُ؟ فَقُلْتُ: إنَّهُ حُمِلَ إِلَيَّ مِنْ دَارِ قَرِيبٍ لِي مِنَ العُرْسِ، ثُمَّ قُلْتُ: تَدْخُلُ الدَّارَ اليومَ؟ فَقَالَ: نعَمْ، فقدَّمْتُ إِلَيْهِ كِسَرًا كانَتْ لنَا فأكلَ، وَقَالَ: إِذَا قَدَّمْت إِلَىٰ فَقِيرٍ شَيْئًا فقدِّمْ مِثْلَ هَذَا».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفي هذهِ الحكايةِ ممَّا يدلُّ علىٰ فضيلتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من وجوهٍ عدَّةٍ غير حفظِهِ منَ الطَّعامِ، وذلكَ أنَّهُ لا يأكلُ إلَّا عندَ الجُوعِ، ولا يجيبُ مَنْ يَدْعُوهُ عندَ الجُوعِ إلَّا لإدخالِ المَسَرَّةِ عليهِ وحفظِ قلبِهِ إذا كانَ مستحقًّا لحفظِ القلبِ منَ التَّغيُّرِ إذا لم يُجَبْ[3].

وأمَّا قولُهُ لمَّا قُدِّمَ إليه الكسرُ: «**إذا قدَّمْت إلىٰ فَقِيرٍ شيئًا فقدِّمْ إليهِ مِثْلَ هَذَا**» يعني: ما تعرفُ وجهَ حِلِّهِ وما تعاطيتَهُ أنتَ بنفسِكَ، فإنَّ طعامَ العُرسِ تَختلفُ أحوالُ أربابِ العُرسِ ومقاصدُهُم ونِيَّاتُهم في عَمَلِهِ للهِ أو لغيرِهِ، وفيه أنواعٌ منَ الأطعمةِ [١/٣٣ب] مختلفةٌ قد لا يَصْفُو أكثرُهَا، وتطرقُ الشُّبهةِ إليهِ أكثرُ، فَنَهَاهُ أنْ يحفظَ قُلُوبَ الفُقَراءِ إذا دَعَاهُمْ إلىٰ طَعَامٍ أن يقدِّمَ إليهِم ما يحتاجونَ إلىٰ الامتناعِ منهُ، فيؤدِّي ذلكَ إلىٰ حُصُولِ تَشْوِيشٍ بينَهُ وبينَهُم وهوَ لا يَشْعُرُ.

---

(١) في (أ، ب): فأكل.

(٢) الدهليز: المدخل إلىٰ الدار، وفي القاموس المحيط ١/٦٥٧: «الدهليز ـ بالكسر ـ: ما بين الباب والدار والحنية».

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٠٣.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُم:

[٨] أَبُو سُلَيمَانَ دَاوُدُ بْنُ نُصَيرٍ الطَّائِيُّ[(٢)]

وَكَانَ كبيرَ الشَّأنِ. أخبرَنَا الشَّيخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلميُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، أخبرَنَا أَبُو عُمَر بْنُ مطرٍ قَالَ: حدَّثنَا مُحمَّدُ بْنُ المُسَيِّبِ قَالَ: حدَّثنَا ابْنُ خُبَيْقٍ[(٣)] قَالَ: قَالَ يُوسُفُ[(٤)]: ورثَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ عشرينَ دِينَارًا، فأكلَهَا فِي عِشْرِينَ سَنَةً[(٥)]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا لا يدلُّ علىٰ حرصِهِ وشُحِّهِ علىٰ المَالِ؛ بل إنَّمَا أَمْسَكَهَا لكونِهَا حَلالًا، إذا أخرجَهَا غلبَ علىٰ ظنِّهِ أنَّهُ لا يجدُ مثلَهَا يَقْتَاتُ منهُ[(٦)]، ولم يتعيَّنْ عليهِ إخراجُهَا لوجودِ غيرِهَا وتيسيرِهِ، بل حُكِيَ أنَّ حجَّامًا حجمَهُ فأعطاهُ دينارًا، وهذا يدلُّ علىٰ كرمِ نفسِهِ وعدمِ قدرِ الدُّنيا في قَلْبِهِ، وإنَّمَا أَمْسَكَ العِشْرِينَ دِينَارًا لِوَجْهٍ دلَّتْهُ عليهِ الشَّريعةُ، ولم يَكُنْ إِخْرَاجُهَا عِنْدَهُ أولَىٰ مِن مَسْكِهَا.

هذا هو الظَّنُّ بِهِ وبأمثالِهِ، وبهذا الاعتبارِ يُمْسِكُ جَمَاعةٌ من أهلِ الوَرَعِ قُوتَهُمْ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٥٣.

(٢) انظر في ترجمته: الطبقات الكبرىٰ ٦/٣٦٧، والتاريخ الكبير ٣/٢٤٠، والمعارف ص٥١٥، والثقات ٦/٢٨٢، وحلية الأولياء ٧/٣٣٥، وتاريخ بغداد ٨/٣٤٧، وتهذيب الكمال ٨/٤٥٥، والمنتظم ٨/٢٧٨، ووفيات الأعيان ٢/٢٥٩، والوافي بالوفيات ١٣/٣١٢، وتاريخ الإسلام ١٠/١٧٧، والعبر ١/٢٣٨، والكاشف ١/٣٨٢، والبداية والنهاية ١٠/١٤٥، ولسان الميزان ٧/٢١٣، وطبقات الأولياء ص٢٠٠، والنجوم الزاهرة ٢/٥٠، والكواكب الدرية ١/٢٧٢.

(٣) في (ب): جبير، وهو تحريف. وهو: عبد الله بن خبيق الأنطاكي.

(٤) هو: يوسف بن أسباط الزاهد. انظر في ترجمته: حلية الأولياء ٨/٢٣٧، وتاريخ الإسلام ١٣/٤٨٣.

(٥) ورد قوله في: حلية الأولياء ٧/٣٤٧، ومناقب الأبرار ١/١٧٥، والمجالسة وجواهر العلم ص١٦، والتوابين للمقدسي ص٢٠٧.

(٦) أي: يأكل منه، وقد أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٠٤.

من القمحِ الَّذِي لا يجدونَهُ إلَّا من عامٍ إلىٰ عامٍ، ويهملونَ ما عداهُ من الأُدمِ وغيرِهِ الَّذِي لا تدعوهُم حاجةٌ إلىٰ حفظِهِ، ولو تعيَّنَ عليهِمْ إخراجُ هذا القُوتِ لِمَنْ وجبَ الإخراجُ إليهِ لأخرجوهُ ولم يُمْسِكُوهُ، وكذلكَ لو نُدِبُوا إلىٰ إِخْرَاجِهِ في بعضِ الوجُوهِ وكانَ إخراجُهُ أفضلَ شَرْعًا من إِمْسَاكِهِ لأَخْرَجُوهُ وتَوكَّلُوا عَلَىٰ اللهِ فِي الإتيانِ بمثلِهِ في وقتِ حاجتِهِم.

وهذا هو شأنُهُم لِمَنْ تفقَّدَ أَحْوَالَهُمْ عدمُ الحرصِ عليهِ، وإنَّمَا هم معَ الدَّليلِ حيثُ ما دارَ دارُوا، فاللهُ ـ تعالىٰ ـ يَجْعَلُنَا مِنْهُم، ويَمُنُّ علينَا من أَحْوَالِهِم.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: **«سَمِعْتُ الأستاذَ أبا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ[(٢)]: كَانَ سَبَبَ زُهْدِ دَاوُدَ الطَّائِي: أَنَّهُ كَانَ يَمُرُّ بِبَغْدَادَ يَوْمًا، فَنَحَّاهُ المُطَرِّقُونَ بَيْنَ يَدَي حُمَيدٍ الطُّوسِيِّ[(٣)]، فَالتفتَ دَاوُدُ فَرَأَىٰ حُمَيْدًا، فَقَالَ دَاودُ: أُفٍّ لِدُنْيَا سَبَقَكَ بِهَا حُمَيْدٌ، ولزمَ البَيْتَ وأخذَ فِي الجهدِ والعِبَادَةِ».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ شَرَفِ هِمَّةِ داودَ وتثبُّتِهِ، حتَّىٰ فرَّقَ بينَ شَرَفِ [١/٣٤أ] الدُّنْيَا وشَرَفِ الآخرةِ؛ وذلك ـ واللهُ أعلمُ ـ أنَّ شَرَفَهُ في الدُّنيا كانَ أكملَ من شَرَفِ حُمَيدٍ المذكورِ، فلمَّا نحَّاهُ المُطَرِّقُونَ ـ يعني الَّذِين يُوسِّعونَ[(٤)] الطَّرِيقَ بينَ يَدَي الوِلَاةِ ـ فردُّوا داودَ عنِ الطَّريقِ وأسندوهُ إلىٰ جانبٍ، فالتفتَ فرأىٰ حميدًا قد ارتفعَ في الدُّنيَا حتَّىٰ صارَ أميرًا يطرقُ بينَ يديهِ، فلم ترضَ هِمَّتُهُ بهذِهِ المنزلةِ، ورأىٰ أنَّ شرفَ الآخرةِ أكملُ، فلزمَ بيتَهُ واجتهدَ في العبادةِ حتَّىٰ سَادَ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٥٣.

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/١٧٥.

(٣) هو: حميد بن عبد الحميد، أبو غانم الطوسي، أمير المأمون، توفي سنة عشر ومائتين. انظر في ترجمته: الوافي بالوفيات ١٣/١١٩.

(٤) في (ب): وسعوا.

وهذا قريبٌ ممَّا حُكِيَ عن عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّهُ قالَ[(١)]: «كانتْ لِي نَفْسٌ توَّاقَةٌ إلى المَنازلِ الرَّفيعَةِ في الدُّنيَا، فلمَّا نالَتْ أرفعَ المَنازلِ ـ وهيَ الخِلافةُ ـ رأَتْ أنَّ رِفْعَةَ الآخرةِ أكملُ، فاشتغلتْ بهَا»، وإنْ كانَ المثلُ لا يطابقُ من كلِّ وجهٍ، وإنَّمَا هو لِرَفْعِ الهِمَّةِ، و«خيارُكُم في الجاهليَّةِ خيارُكُم في الإسلامِ إذا فقهُوا»[(٢)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «وَسَمِعْتُ بِبَغْدَادَ بَعْضَ الفُقَرَاءِ يَقُولُ[(٤)]: إِنَّ سَبَبَ زُهْدِهِ أَنَّهُ سَمِعَ نَائِحَةً تَنُوحُ وَتَقُولُ:**

بِأَيِّ خَدَّيْكَ تَبَدَّى البِلَى؟ ❁ وَأَيُّ عَيْنَيْكَ إِذَا سَالَا؟»[(٥)].

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ اليقظةُ سببُهَا الاعتبارُ بالأَمْواتِ، وأنَّ جَمالَ العَبْدِ فِي الدُّنيَا ـ وإنْ تَعَالَى فِي الجَمَالِ ـ مَصِيْرُهُ إلى ما ذُكرَ مِنَ الحَالِ، فاعتَبَرَ في نفسِهِ بغيرِهِ، وخَشِيَ مُعَاجَلَةَ المَوتِ وهوَ على غَفْلَتِهِ، فَجَدَّ في الخَيْرِ، واجتهدَ في العبادةِ حتَّى نفذَ[(٦)] وَسَادَ[(٧)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ[(٨)]: «وَقِيلَ[(٩)]: كَانَ سَبَبَ زُهْدِهِ أَنَّهُ كَانَ يُجَالِسُ أَبَا حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ يَوْمًا: يَا أَبَا سُلَيْمَانَ، أَمَّا الأَدَاةُ[(١٠)] فَقَدْ أَحْكَمْنَاهَا،**

---

(١) ورد قوله في: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص٥٩، والعقد الفريد ١/٣٢٣.
(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١٢٣٥ ـ حديث رقم (٣١٩٤).
(٣) الرسالة القشيرية ١/٥٣.
(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/١٧٦.
(٥) من السريع، وورد في: عيون الأخبار ٢/٣٢٥، ومناقب الأبرار ١/١٧٦، وطبقات الأولياء ص٢٠٠.
(٦) في (ب، ج): نفد.
(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٠٥.
(٨) الرسالة القشيرية ١/٥٣ ـ ٥٤.
(٩) ورد قوله في: حلية الأولياء ٧/٣٤١ ـ ٣٤٢، ومناقب الأبرار ١/١٧٦.
(١٠) أي: العلم.

فَقَالَ لَهُ دَاودُ: فَأَيُّ شَيْءٍ بَقِي؟ قَالَ: العَمَلُ بِهِ.

قَالَ دَاوُدُ: فَنَازَعَتْنِي نفْسِي إِلَىٰ العُزْلَةِ، فَقُلْتُ لِنَفْسِي: حَتَّىٰ تُجَالِسِيهِمْ[1] ولا تَتكلَّمُ فِي مَسْأَلَةٍ، قَالَ: فَجَالَسْتُهُم سَنَةً لا أتكلَّمُ فِي مسألةٍ، وكانَتِ المسألَةُ تَمُرُّ بِي وأنا إِلَىٰ الْكَلامِ فِيهَا أشدُّ نزاعًا مِنَ العَطْشَانِ عَلَىٰ المَاءِ ولا أتكلَّمُ بِهِ[2]، ثُمَّ صَارَ أمرُهُ إِلَىٰ مَا صَارَ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ أيضًا ـ يدلُّ علىٰ شَرَفِ همَّتِهِ، وقوَّةِ عزيمتِهِ في مجاهدةِ نفسِهِ، ويدلُّ أنَّهُ كانَ منَ العلماءِ، فإنَّ أبا حنيفةَ رَحِمَهُ اللَّهُ لا يقولُ لهُ: «**أمَّا الأداةُ فقد أَحْكَمْنَاهَا**» إلَّا وهوَ عِنْدَهُ كَامِلٌ فِي العلمِ بالأحكامِ، ومعرفةِ الحلالِ والحرامِ.

فقالَ لهُ داودُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [١/٣٤ب]: «**فأيُّ شيءٍ بَقِي علينا؟**»، فقالَ: العملُ بما عَلِمْنَاهُ، فلمَّا عزمَ علىٰ البُعدِ منَ النَّاسِ ليتفرغَ للعَمَلِ اتَّهَمَ نفسَهُ في قِلَّةِ صِدْقِهَا وصَبْرِهَا علىٰ ما ادَّعَتْهُ وعَزَمَتْ عليهِ، فقالَ لهَا: «**حتَّىٰ تُجالسيهِمْ**» ـ يعني أبَا حنيفةَ وأصحابَهُ ـ ولا تتكلَّمي، فجاهَدَ نفسَهُ بتَرْكِ الكلامِ الَّذِي هوَ غالبٌ علىٰ الفقهاءِ في البحثِ في المجالسِ، حتَّىٰ قالَ: «**فلمَّا جالستُهُمْ سنةً لا أتكلَّمُ بكلمةٍ وتمرُّ بي المسألةُ وأنا أشهىٰ إلىٰ الكلامِ فيها من العطشانِ إلىٰ الماءِ**» البَارِدِ «**ولا أتكلَّمُ**»، علمَ أنَّ مجاهدَتَهُ لنفسِهِ غالبةٌ لِهَوَاهُ وَمَحبَّتِهِ إلىٰ الكَلامِ، فحينئذٍ خَلَا بِنَفْسِهِ واجْتَهَدَ[3].

---

(١) في (ب، ف): تجالسَهم، وهو موافق لما في الرسالة القشيرية، لكن ستتفق النسخ علىٰ اللفظ المثبت فيما يأتي، وكلٌّ صَوابٌ.

(٢) في (ف): فيها.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٠٦.

قَالَ الإِمَـامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وَقِيلَ[(٢)]: حَجَمَ جُنَيدٌ الحَجَّامُ دَاوُدَ الطَّائِيَّ، فَأَعْطَاهُ دِينَارًا، فَقِيلَ لَهُ: هَذَا إِسْرَافٌ! فَقَالَ: لا عِبَادَةَ لِمَنْ لا مُرُوءَةَ لَهُ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا مِمَّا نَبَّهنَا عَلَيهِ أَوَّلًا؛ وهوَ أَنَّ إنفاقَهُ العشرينَ دينارًا في عشرينَ سنةً لم يَكُنْ شُحًّا علىٰ المالِ ولا حرصًا، وإنَّمَا يفعلُ ذلكَ لوجْهٍ دينيٍّ اقتضاهُ.

وقولُهُ: «لا عِبَادَةَ»، يعنِي كَامِلَةً[(٣)]، فإنَّ الغَالِبَ منَ الشَّحيحِ الإخلالُ بِمُروءَتِهِ، وكَمَالُ الدِّينِ بكَمَالِ المُرُوءَةِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَكَانَ يَقُولُ فِي اللَّيلِ[(٥)]: إِلَهِي؛ هَمُّكَ عَطَّلَ عَلَيَّ الهُمُومَ[(٦)]، وَحَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ الرُّقَادِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ومَنْ كانَتْ تلكَ بدايتُهُ في الاجتهادِ، تَعَمَّرَ قلبُهُ بكمالِ المحبَّةِ والجدِّ في الطَّلبِ حتَّىٰ مَنَعَ منهُ الرُّقاد[(٧)].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٨)]: «سمعتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيَّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٥٤.

(٢) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٨/٣٥٠، وحلية الأولياء ٧/٣٥٤، ومناقب الأبرار ١/١٧٦، وصفة الصفوة ٣/١٣٧، ووفيات الأعيان ٢/٢٦٠.

(٣) وفي ذلك إشارة إلىٰ تزييف السائق في دعواه الإسراف.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٥٤.

(٥) ورد قوله في: التهجد وقيام الليل لابن أبي الدنيا ص٢٤٩، والثقات ٨/٩١، وطبقات الصوفية ص٣٩٥، وتاريخ بغداد ٨/٣٥١، وحلية الأولياء ٧/٣٥٧، ومناقب الأبرار ١/١٧٦، والمدهش ص٣٣٢.

(٦) أي: الدنيوية.

(٧) سقطت هذه الجملة من (ب).

(٨) الرسالة القشيرية ١/٥٤.

يَقُولُ[١]: حدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَمْرو، حدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حَرْبٍ الْمَوْصِلِيُّ، حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ زِيَادٍ الطَّائِيُّ قَالَ: قَالَتْ دايَةُ دَاوُدَ الطَّائِيِّ: أَمَا تَشْتَهِي الْخُبْزَ؟! فَقَالَ: بَيْنَ مضغ الْخُبْزِ وشُرْبِ الفَتِيتِ قِرَاءَةُ خَمْسِينَ آيَةً».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ أيضًا ـ دليلٌ على كَمَالِ مُحَاسَبتِهِ لنفسِهِ وشَفقتِهِ على ضياعِ أوقاتِهِ في غيرِ مقصودِهِ؛ من ذكْرٍ لتلاوةِ كتابِ ربِّهِ، فكانَ لا يأكلُ الخُبْزَ، فقالتْ له دايتُهُ[٢]: «أَمَا تَشْتَهِي الخُبْزَ؟!» لمَّا رَأَتْهُ لا يأكلُهُ، فأخبرَهَا أنَّ تَرْكَهُ له ليسَ لقلَّةِ رغبتِهِ فيه، وإنَّمَا لِمَا بينَ شربِ الفتيتِ[٣] ومضغِ الخبزِ من شُغْلِ الفمِ بغيرِ المقصودِ الَّذي هو فيهِ، فقالَ: إنَّهُ حسبَ ما بينَهما، فجعلَ أكلَ الخبزِ يُفَوِّتُهُ قراءةَ خمسينَ آيةً [١/٣٥أ]، ولا يَفُوتُهُ ذلك في شُرْبِ الفتيتِ[٤].

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «ولمَّا توفِّيَ رآهُ بَعْضُ الصَّالحينَ فِي المَنَامِ وَهُوَ يَعْدُو، فَقَالَ لَهُ: مَا لكَ؟ فَقَالَ: السَّاعةَ تَخَلَّصتُ مِنَ السِّجنِ، فاستيقظَ الرَّجلُ من مَنَامِهِ[٦]، فارتفعَ الصِّياحُ: مَاتَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ[٧].

وَقَالَ لَهُ رجلٌ: أوصِنِي، فَقَالَ[٨]: عَسكرُ المَوْتَى يَنتَظِرُونكَ».

---

(١) ورد قوله في: الثقات ٨/٩٣، وحلية الأولياء ٧/٣٥٠، وتاريخ بغداد ٨/٣٥٣، والزهد الكبير ص١٩٩، ومناقب الأبرار ١/١٧٦، وإحياء علوم الدين ٤/٤٠٩، والمجالسة وجواهر العلم ص١٧، والمنتظم ٨/٢٧٩، وصفة الصفوة ٣/١٤٠.

(٢) في (ب، ج): جاريته.

(٣) هو الخبز المفتوت كالدقيق، ففي العين ٨/١٠٩: «الفتيت: كل شيء مفتوت، إلا أنهم خصُّوا الخبز المفتوت». وانظر: المغرب للمطرزي ٢/١٢١.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٠٦.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٥٤.

(٦) سقط من (ب) قوله: من نومه.

(٧) ورد في: مناقب الأبرار ١/١٧٦.

(٨) ورد قوله في: حلية الأولياء ٧/٣٥٦، ومناقب الأبرار ١/١٧٦، والكواكب الدرية ١/٢٧٤.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ففي الرُّؤيَا دليلٌ على كَمَالِ زُهْدِهِ فِي الدُّنيَا، وإنَّما كانَتْ سِجْنَهُ، كما جاءَ في الخبرِ(١): «**الدُّنيَا سجنُ المؤمنِ**»، ولذلكَ رآه في النَّومِ يَعْدُو؛ أي: يَجْرِي مستعجلًا، فقالَ لهُ في ذلكَ، فقالَ: «**السَّاعةَ تخلَّصتُ من السِّجْنِ**».

وأمَّا وصيَّتُهُ لمَنْ طلبَ منهُ الوصيَّةَ، بِقَولُهُ: «**عسكرُ المَوْتَى ينتظرونكَ**»، ففيهِ تنبيهٌ له على مُرَاعَاةِ المَوتِ والعملِ لهُ، فإنَّ جميعَ مَنْ ماتَ منتظرونَ لمَنْ بَقِيَ، فإذا كمُلوا(٢) رحلُوا مرَّةً واحدةً إلى الآخرةِ، ففيه تنبيهٌ على المَوتِ وقيامِهِ من قَبْرِهِ(٣).

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(٤): «**ودخلَ بَعْضُهُمْ عَلَيْهِ فرأى جَرَّةَ ماءٍ(٥) انبسَطَتْ عَلَيْهَا الشَّمْسُ، فَقَالَ لَهُ: أَلَا تُحَوِّلُهَا(٦) إِلَى الظِّلِّ؟ فَقَالَ: حِينَ(٧) وَضَعْتُهَا لَمْ تَكُنْ شَمْسٌ، وأنا أَسْتَحِي أَنْ يَرَانِي اللهُ أَمْشِي لِمَا فِيهِ حَظُّ نَفْسِي**»(٨).

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا ممَّا تقدَّمَ مِن كَمَالِ اشتغالِهِ وعمَارةِ أَوْقَاتِهِ بالطَّاعَاتِ حتَّى لا يصرفَ حركاتِهُ في شيءٍ منَ الجائزاتِ(٩)، مُرَاعَاةً للرَّاحَاتِ؛

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٢٧٢ ـ حديث رقم (٢٩٥٦). قال العروسي: «إنما كانت سجنًا له؛ لأنها دار امتحان وابتلاء» نتائج الأفكار ١/١٥١.

(٢) أي: كمُل موتهم.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٠٧.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٥٤.

(٥) أي: قُلَّة. ففي تحرير ألفاظ التنبيه ص٣٢: «القلة في اللغة: الجرة العظيمة، سُمِّيت بذلك؛ لأن الرجل العظيم يقلّها بيديه، أي: يرفعها».

(٦) في (ف): تحملها.

(٧) في (ف): حيث.

(٨) ورد في: مناقب الأبرار ١/١٧٧.

(٩) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٠٧.

وذلِكَ أنَّ المَاءَ إذا انبسطَتْ عليهِ الشَّمسُ سَخُنَ وتغيَّرَ طعمُهُ عمَّا كانَ عليهِ، فأشارَ عليه هذا الدَّاخلُ عندَهُ بأنْ(١) يُحَوِّلَ الجرَّةَ منَ الشَّمسِ إلىٰ الظِّلِّ، فقالَ: حينَ وضعتُهَا لم تكُنْ شَمْسٌ، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّهُ أوَّلًا(٢) وضعَهَا في مَوضِعٍ لا ضَرَرَ فيهِ، فإنَّ بعضَ العلماءِ كَرِهَ الطَّهارةَ بالماءِ المُشَمَّسِ(٣)، وعلَّلَهُ بعضُهُمْ بأنَّهُ يؤثِّرُ في الأبدانِ بَرَصًا علىٰ رأيِ الأطِبَّاءِ(٤)، فأخبرَهُ إنِّي لم أتعمَّدْ هذا، فإنْ جرَىٰ شيءٌ فبِقَدَرِ اللهِ.

الوجْهُ الثَّانِي: وهوَ الَّذِي صرَّحَ بهِ آخرَ كلامِهِ: أنَّ نقْلِي لهَا إنَّمَا هوَ لوجودِ راحةِ الماءِ الباردِ، وأنَا أكرَهُ أنْ يرانِي اللهُ أفعلُ فِعْلًا ليسَ لوجْهِهِ.

وَمِنْ هذا القبيلِ ما حُكِيَ أنَّ بعضَهُمْ شربَ دواءً مُسْهِلًا فتأخَّرَ مَقْصُودُهُ، فقيلَ لهُ: لو مشيتَ(٥) لعملَ الدَّواءُ، فقالَ(٦): «هذهِ مِشْيَةٌ لا أعلمُ لهَا وجْهًا».

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٧): «**وَدَخَلَ بَعْضُهُم عليه، فجعلَ يَنْظُرُ إِلَيْه، فَقَالَ(٨)**:

(١) في (ب): أن.
(٢) في (ب): لا أولا، والصواب المثبت.
(٣) في (ج): المسخن. وفي سنن البيهقي الكبرىٰ ٦/١: «قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تغتسلوا بالماء المشمس، فإنه يورث البرص».
(٤) في سنن البيهقي الكبرىٰ ٦/١: «قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تغتسلوا بالماء المشمس، فإنه يورث البرص»، ورواه الدار قطني أيضًا في سننه ٣٩/١. وفي مرقاة المفاتيح: «واعلم أن استعمال الماء المشمس مكروه علىٰ الأصح من مذهب الشافعي، والمختار عند متأخري أصحابه عدم كراهيته، وهو مذهب الأئمة الثلاثة، والماء المسخن غير مكروه بالاتفاق، وحكي عن مجاهد كراهته، وكره أحمد المسخن بالنجاسة». وانظر: الأم ٣/١، والحاوي الكبير ٤٢/١، والمجموع ١٣٠/١، والإقناع للشربيني ٢٢/١، ومغني المحتاج ١٩/١.
(٥) في (ب): شئت، والصواب المثبت.
(٦) ورد في: الأربعين في أصول الدين للغزالي ص٤١.
(٧) الرسالة القشيرية ٥٤/١.
(٨) ورد قوله في: الورع لابن أبي الدنيا ص٦٢، وحلية الأولياء ٣٥٢/٧، وتاريخ بغداد ٣٤٩/٨،=

أمَا علِمْتَ أنَّهُمْ كَانُوا يكرهُونَ فُضُولَ النَّظرِ[(١)]، كَمَا يكرهُونَ فُضُولَ الكلامِ ؟! [١/٣٥ب]

أخبرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ الأَصْبَهَانِيُّ [قالَ:][(٢)] أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَي المُزَكِّي قَالَ: حدَّثَنَا قاسمُ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: سَمِعَتُ ميمونًا[(٣)] الغَزَّالَ قَالَ: قَالَ أَبُو الرَّبِيعِ الواسِطيُّ: قُلْتُ لداودَ الطَّائيِّ: أَوْصِنِي فقَالَ: صُمْ عَنِ الدُّنيَا، واجعلْ فطرَكَ الْمَوْتَ، وَفِرَّ مِنَ النَّاسِ كَفِرَارِكَ من السَّبْعِ»[(٤)].

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ففي الحكايةِ الأُولَى دليلٌ على كمالِ النُّصحِ لزائِرِهِ، ووعظِهِ بمَا ينتفعُ بهِ في آخرتِهِ؛ وهوَ تركُ الفُضُولِ من كلِّ شيءٍ منَ الطَّعامِ والمَنَامِ والكَلامِ والنَّظرِ وغيرِهِ، وجميعُهُ داخلٌ في قولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٥)]: «**مِنْ حُسْنِ إسلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يعْنِيهِ**».

«وما لا يعنِيهِ»: هوَ مَا لا تدعو إليهِ حاجةٌ دينيَّةٌ، أو مُعِينَةٌ على الدِّينِ[(٦)]، فلمَّا كرَّرَ [إليه][(٧)] النَّظرَ نبَّهَهُ على أنَّ هذهِ الزِّيادةَ من النَّظرِ فضُولٌ، وهمْ يكرهونَ الفضولَ مطلقًا، يَعْنِي أَهْلَ الخيرِ.

= وإحياء علوم الدين ٤/٤٠٩، ومناقب الأبرار ١/١٧٧.

(١) أي: النظر الزائد عما يُحتاج إليه.

(٢) زيادة من (ف).

(٣) في النسخ: ميمون، والأصح المثبت.

(٤) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٨/٣٥١، ومناقب الأبرار ١/١٧٧، وصفة الصفوة ٣/١٣٣، ومحاضرات الأدباء ٢/٣٩٤، والتدوين في أخبار قزوين ١/٢٨٤، وسير أعلام النبلاء ٧/٤٢٤.

(٥) أخرجه مالك في الموطأ ٢/٩٠٣، وابن حبان في صحيحه ١/٤٦٦، والطبراني في المعجم الكبير ٣/١٢٨، والأوسط ٨/٢٠٢.

(٦) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٠٧.

(٧) زيادة من (ب).

وفي وصيَّتِهِ: «**صُمْ عنِ الدُّنيَا**» أمرٌ بالزُّهدِ فيهَا، والإمساكِ عن نعيمِهَا، إلَّا مَا لا بُدَّ للعبدِ منهُ في إقامةِ بِنْيَتِهِ، فإذَا وصلتَ إلى الآخرةِ، وأراكَ اللهُ جزاءَ عملِكَ فتنعَّمْ كيفَ شئتَ؛ فإنَّهُ يومُ عيدِكَ، وكَمَالُ نَعِيْمِكَ.

ثمَّ نبَّهَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أنَّ هذا القَدْرَ لا يَتِمُّ لهُ إلَّا بالخُلْوةِ والبُعْدِ منَ النَّاسِ، فَبُعْدُهُ منَ النَّاسِ سَبَبُ سَلامَتِهِ، وخُلُوُّهُ بِرَبِّهِ سَبَبُ سَعَادتِهِ.

❊ ❊ ❊

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُم:

[٩] أَبُو عَلِيٍّ شَقِيقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ البَلْخِيُّ[(٢)]

مِنْ مشايخِ خُرَاسَانَ ، لَهُ لسانٌ فِي التَّوكُّلِ ، وَكَانَ أستاذَ حاتمٍ الأصمِّ.

قيلَ[(٣)]: كَانَ سببَ توبَتِهِ: أَنَّهُ كَانَ منْ أبناءِ الأغنياءِ ، خرجَ للتِّجارةِ إِلَىٰ أرضِ التُّرْكِ وَهُوَ حدثٌ ، فدخلَ بيتًا للأصنامِ[(٤)] ، فرأىٰ خادمًا للأصنامِ فِيهِ قَدْ حَلَقَ رَأْسَهُ وَلِحْيَتَهُ وَلَبِسَ ثِيَابًا أُرْجُوانِيَّةً ، فَقَالَ شقيقٌ للخادمِ: إِنَّ لَكَ صانعًا حَيًّا عَالمًا قَادِرًا ، فَاعْبُدْهُ وَلَا تعبدْ هذِهِ الأصنامَ الَّتِي لا تَضُرُّ ولا تنفعُ ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ كَمَا تقولُ فَهُوَ قادرٌ عَلَىٰ أَنْ يَرْزُقَكَ بِبَلَدِكَ ، فَلِمَ تعَنَّيْتَ إِلَىٰ هَاهُنَا لِلتِّجَارَةِ؟! ، فانتبَهَ شقيقٌ! ، وأخذَ فِي طريقِ الزُّهدِ.

وقيلَ[(٥)]: كَانَ سببَ زهدِهِ: أَنَّهُ رأىٰ مَمْلُوكًا يلعبُ ويمرحُ فِي زمانِ قحْطٍ ، وَكَانَ النَّاسُ مهتمِّينَ ، فَقَالَ له شقيقٌ: مَا هَذَا النَّشاطُ الَّذِي فيكَ؟ أَمَا ترىٰ مَا فِيهِ النَّاسُ منَ الحزنِ والقحطِ؟! فَقَالَ ذَلِكَ المملوكُ: وَمَا عَلِيَّ مِنْ ذَلِكَ ولِمَولايَ قَرْيَةٌ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٥٥.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٦٣ ، وحلية الأولياء ٨/٥٨ ، وتاريخ دمشق ٢٣/١٣١ ، والمنتظم ٨/١٧٠ ، وصفة الصفوة ٤/١٥٩ ، ومناقب الأبرار ١/١٨٢ ، وفيات الأعيان ٢/٤٧٥ ، والوافي بالوفيات ١٦/١٠١ ، ولسان الميزان ٣/١٥١ ، وميزان الإعتدال ٣/٣٤٨ ، وسير أعلام النبلاء ٩/٣١٣ ، ومسالك الأبصار ٨/٤٢ ، وشذرات الذهب ١/٣٤١ ، والطبقات الكبرىٰ للشعراني ١/١٣٩ ، والكواكب الدرية ١/٣٢٠.

(٣) ورد في: تاريخ دمشق ٢٣/١٣٤ ، وحلية الأولياء ٨/٥٩ ، والأنساب ٣/٤٤٧ ، ومناقب الأبرار ١/١٨٢.

(٤) في (ب): بيت الأصنام.

(٥) ورد في: تاريخ دمشق ٢٣/١٣٥ ، وسراج الطالبين ٢/٩٤.

خالِصَةٌ، يدخلُ إليهِ منها ما نحتاجُ نحنُ إليْهِ، فانتبَهَ شقيقٌ[١] وقَالَ: إنْ كَانَ لمولَاهُ قريةٌ، ومولاهُ مخلوقٌ فقيرٌ [١/١٣٦أ]، ثُمَّ إنَّهُ ليْسَ يهتمُّ لرزقِهِ، فكيفَ ينبغِي أَنْ يهتمَّ المسلمُ لرزقِهِ ومولَاهُ غنيٌّ؟!».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ففي هاتَينِ الحكايتَينِ تَنْبيهٌ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لشقيقٍ علىٰ ترْكِ الكَدِّ والكَدحِ في طلبِ الدُّنيَا، والرُّجوعِ إلىٰ القَنَاعةِ بمَا تيسَّرَ، واعتمادِ قلبِهِ في الإتيانِ بذلِكَ وقتَ الحاجةِ[٢].

وهذا لا يدلُّ علىٰ أنَّ التوكُّلَ تَرْكُ الكسبِ، وإنَّمَا التَّوكُّلُ اعتمادُ القلبِ علىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ في الإتيانِ بالمُحْتَاجِ إليهِ، سواءٌ تسبَّبَ العبدُ فيهِ أو لم يتسبَّبْ.

ففي الحكايةِ الأُولَىٰ أنَّهُ رأىٰ مَنْ يشتغلُ بغيرِ اللهِ ويعظِّمُهُ من خادمِ الأصنامِ، فلمَّا حسُنَتْ نيَّتُهُ في وعْظِهِ ليرجعَ إلىٰ الإسلامِ ويدَعَ خدمةَ الأصنامِ، أجرَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ لسانِ هذا الخادمِ كلامًا جَازَىٰ به شقيقًا نقلَهُ مِنَ الكَدحِ والطَّلبِ، إلىٰ الإعراضِ عنِ السَّببِ، والاشتغالِ بما يَجِبُ.

وَفِي الحِكَايَةِ الثَّانيةِ اعتبارُهُ بالمَمْلُوكِ الَّذِي هوَ مُنْبَسِطٌ ومُنْشَرِحٌ في وَقْتِ غَلاءِ الأسعَارِ وشدَّةِ حالِ النَّاسِ فيمَا هم فيهِ منَ الإقتارِ، فسألَهُ عن سببِ انبساطِهِ، فقالَ: «لِسَيِّدِي قريةٌ يدخلُ إلينا منهَا كلُّ ما نَحْتَاجُ»، فاستحيَا منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أنْ يهتمَّ برزقِهِ وقَدْ ضَمِنَهُ لهُ مالكُ السَّماواتِ والأرضِ، فانتقلَ بقلبِهِ إلىٰ فضْلِ ربِّهِ عن هَمِّهِ وَكَرْبِهِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ

---

(١) أي: تنبه من غفلة الركون علىٰ الأسباب بالرجوع إلىٰ مسببها، فزهد في الدنيا بما فيها.

(٢) انظر: إحكام الدلالة ١/١٠٩.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٥٥ ـ ٥٦.

يَقُولُ[(١)]: سَمِعْتُ أَبَا الحُسَينِ بْنَ أَحْمَدَ العطَّارَ البَلْخِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدٍ الْبُخَارِيَّ يَقُولُ: قَالَ حَاتِمٌ الأَصَمُّ: كَانَ شقيقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ موسِرًا، وَكَانَ يتفتَّىٰ[(٢)] ويعاشرُ الفتيانَ، وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ مُوسَىٰ[(٣)] بْنِ ماهانَ أَمِيرَ (بَلْخٍ)[(٤)]، وَكَانَ يُحِبُّ كلابَ الصَّيدِ، ففقدَ كلبًا من كلابِهِ، فَسُعِيَ[(٥)] برجلٍ أَنَّهُ عندَهُ، وَكَانَ الرَّجلُ فِي جِوارِ شقيقٍ، فطلبَ الرَّجلَ فهربَ، فدخلَ دارَ شقيقٍ مستجيرًا، فمضىٰ شقيقٌ إِلَىٰ الأميرِ، وَقَالَ: خلُّوا سبيلَهُ فَإِنَّ الكلبَ عِنْدِي، أَرُدُّهُ إِلَيكُم إِلَىٰ ثلاثةِ أَيَّامٍ، فخلُّوا سبيلَهُ، وانصرفَ شقيقٌ مهتمًّا لِمَا صنَعَ[(٦)].

فلمَّا كَانَ اليومُ الثَّالثُ كَانَ رجلٌ من أصدقاءِ شقيقٍ غائبًا مِنْ (بَلْخٍ) رجعَ إِلَيْهَا، فوجدَ فِي الطَّريقِ كلبًا عَلَيْهِ قلادةٌ، فأخذَهُ وَقَالَ: أُهْدِيهِ إِلَىٰ شقيقٍ فَإِنَّهُ يشتغلُ بالتَّفتِّي، فحملَهُ إِلَيْهِ، فنظرَ شقيقٌ فَإِذَا هُوَ كلبُ الأميرِ! فسُرَّ بِهِ وحملَهُ إِلَىٰ الأميرِ، فتخلَّصَ منَ الضَّمانِ، فرزقَهُ[(٧)] اللهُ - تعالىٰ - الانتبَاهَ، وتابَ مِمَّا كَانَ فِيهِ، وسلكَ طريقَ الزُّهدِ» [١/٣٦ب]

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذهِ الحكايةُ تدلُّ علىٰ أَنَّهُ مِن ذَوِي المُرُوءاتِ،

---

(١) سِيقت روايةً عنه في: تاريخ دمشق ٢٣/١٣٤، ووردت أيضًا في: مناقب الأبرار ١/١٨٥، ومسالك الأبصار ٨/٤٤، وسراج الطالبين ١/٩٤.

(٢) أي: يبذل ماله وجاهه وفاءً بمروءته، من الفتوة، كما سيذكر المؤلف.

(٣) في (ب): بن موسىٰ بن عيسىٰ، وفي (ف): علي بن عيسىٰ، والصواب المثبت. وهو: الأمير الكبير علي بن عيسىٰ بن ماهان الأمير، كان من كبار قواد العباسيين، وهو الذي أشار علىٰ الأمين بخلع المأمون، وكان واليا علىٰ همذان، ونهاوند، وأصبهان.

انظر في ترجمته: الوافي بالوفيات ٢١/٢٤٦، وتاريخ الخلفاء ص٢٩٨، والنجوم الزاهرة ٢/١٤٧.

(٤) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان. انظر: معجم البلدان ١/٤٧٩.

(٥) أي: وُشي به عنده.

(٦) أي: من التزامه إحضار الكلب وفاءً بالمروءة ولم يكن عنده.

(٧) في (ب): رزقه.

وكمالِ الهمَّةِ، وتحمُّلِ أعباءِ الأمورِ وفاءً بِمُرُوءَتِهِ، وإنْ كانَ فِي جَاهليَّتِهِ وصبوتِهِ، فَفِي ذلكَ دليلٌ على أنَّه إذا رجعَ إلى طريقِ اللهِ ـ تعالى ـ وفيهِ هذهِ الأخلاقُ نالَ منها الغَايَاتِ والبَرَكاتِ، وذلكَ أنَّ شقيقًا كما ذُكِرَ كان يتفتَّى بأموالِهِ وجاهِهِ وما يمكنُهُ، والفتي: اسمٌ لمَنْ لا يدَّخِرُ ممكنًا عن قاصدِهِ[١]، فلمَّا ضاعَ كلبُ الأميرِ واتَّهَمَ بهِ بعضَ جيرانِهِ دخلَ على شقيقٍ مستجيرًا بهِ، فحملتْهُ مُرُوءَتُهُ والوفاءُ لِمَنْ دخلَ عليهِ أنْ قالَ للأميرِ: ضمانُ مجيءِ الكلبِ عليَّ بعدَ ثلاثٍ.

فلمَّا علمَ[٢] اللهُ صِدْقَهُ لقيَ بعضُ أحبابِهِ الكلبَ في الصَّحَراءِ سائبًا وفي حلْقِهِ قِلادةٌ تدلُّ على أنَّهُ مُعَلَّمٌ؛ فقالَ في نفسِهِ: يصلحُ هذا الكلبُ لشقيقٍ يتفتَّى بهِ، فإنَّهُ منَ الفتيانِ، فلمَّا راَهُ شقيقٌ سُرَّ بذلكَ وحملَهُ إلى الأميرِ، فلمَّا رأى شقيقٌ لطفَ اللهِ بهِ وحُسْنَ صَنِيعِهِ معَهُ في تخليصِهِ من وعْدِ الأميرِ انتبَهَ، وقالَ في نفسِهِ: إذا كانَ لُطفُهُ بي وأنَا في حَالِ الغَفْلَةِ والجَفَاءِ، فكيفَ إذا رجعتُ إليه بصدقِ العبارةِ والوَفَاءِ[٣]، هذا معناهُ، واللهُ أعلمُ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وقالَ[٥] حاتمُ الأصمُّ[٦]: كُنَّا مَعَ شقيقٍ فِي مصافٍّ[٧] نُحَارِبُ التُّركَ فِي يَوْمٍ لا تُرى فِيهِ إلَّا رُؤُوسٌ تَنْدُرُ[٨]، ورماحٌ تنقصِفُ، وَسِيُوفٌ**

(١) انظر: إحكام الدلالة ١/١٠٩، والفتوة للسلمي ص٦٠.

(٢) في (ب): أن علم.

(٣) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١١٠.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٥٦.

(٥) في (ف): وحكى.

(٦) ورد قوله في: حلية الأولياء ٨/٦٤، وتاريخ دمشق ٢٣/١٤٤، ومناقب الأبرار ١/١٨٦، وصفة الصفوة ٤/١٦٠، والمنتظم ٨/١٧١، والوافي بالوفيات ٦/١٠٢، وفوات الوفيات ١/٤٨٥، وتاريخ الإسلام ١٣/٢٢٩.

(٧) موضع الحرب.

(٨) أي: تسقط.

تنقطعُ ، فَقَالَ لي شقيقٌ : كَيْفَ تَرَىٰ نَفْسَكَ يا حاتمُ فِي هَذَا اليوم؟ تراهُ مثلَ مَا كنتَ فِي الليلةِ الَّتِي زُفَّتْ إِلَيكَ امْرَأَتُكَ(١)؟ فَقُلْتُ : لا واللهِ ، قَالَ : لكنِّي واللهِ أرىٰ نفسِي فِي هَذَا اليومِ مثلَ مَا كنتُ تلكَ الليلةَ ، ثُمَّ نامَ بَيْنَ الصفَّينِ وَدَرَقَتُهُ(٢) تَحْتَ رَأْسِهِ حَتَّىٰ سَمِعْتُ غَطِيطَهُ(٣)» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وهذا ـ يرحمُكَ اللهُ ـ دليلٌ علىٰ كمالِ اليقينِ بأنَّ العبدَ لا يصيبُهُ إِلَّا ما قُدِّرَ عليهِ في سائرِ الأحوالِ المخوفةِ وغيرِهَا ، ومقصودُ شقيقٍ بهذا أنْ يَعْرِفَ تلميذُهُ قوَّةَ اليقينِ بالحالِ دونَ المَقَالِ(٤) ؛ وذلكَ أنَّ هذا اليومَ كان يومًا شديدًا في الحربِ من كثرةِ القتلِ وتلافِ العُدَدِ ، فلمَّا انفصلَ النَّاسُ رجعَ كلُّ طائفةٍ إلىٰ مكانِهَا ، قالَ شقيقٌ لتلميذِهِ : كيفَ قلبُكَ في هذا الوقتِ منَ الخوفِ من كثرةِ العدوِّ وسكونِهِ؟ ، هلْ أنتَ كالحالةِ الَّتِي زُفَّتْ عليكَ فيها امرأتُكَ في مستقرِّكَ وطُمأنينةِ قلبِكَ وسكونِهِ [١/١٣٧أ] ؟

فأجابَهُ حاتمٌ : لا ؟ فقالَ له شقيقٌ : أنا كذلكَ ، فدلَّهُ علىٰ ذلكَ بالمَقَالِ ، وأرادَ أنْ يحقِّقَهُ بالحَالِ ، ووضعَ دَرَقَتَهُ تحتَ رأسِهِ وامتدَّ ونامَ حتَّىٰ سمعَ غَطِيطَهُ ، ولا ينامُ في هذا الحالِ إلَّا مَنْ هو شَدِيدُ الطمأنينةِ .

وهذا لا يدلُّ علىٰ أنَّهُ مُغرَّرٌ بنفسِهِ ، وكيفَ يرقدُ في هذِهِ الحالةِ؟ فإنَّهُ من جملةِ المسلمينَ ، وبعضُهُمْ يحرسُ بعضًا ، ولو تحرَّكَ العدوُّ أدنىٰ حركةٍ وتزاحفَ النَّاسُ لاستيقظَ(٥) ، واللهُ الموفِّقُ .

---

(١) من : مسرّتك وطمأنينة قلبك .

(٢) الدَّرَقة : ترس من جلدٍ ليس فيه خشب . انظر : العين ٥/١١٥ ، والمغرب للمطرزي ١/٢٨٥ .

(٣) أي : شخيره .

(٤) أي : التخلق دون القول . وقد أفاده بلفظه الشيخ زكريا في : إحكام الدلالة ١/١١١ .

(٥) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في : إحكام الدلالة ١/١١١ .

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: «وَقَالَ شقيقٌ[2]: إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ الرَّجُلَ، فَانْظُرْ إِلَىٰ مَا وَعَدَهُ اللهُ وَوَعَدَهُ النَّاسُ، فَبِأَيِّهِمَا يَكُونُ قَلْبُهُ أَوْثَقَ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا بهِ ميزانٌ صحيحٌ، يَمتحنُ الإنسانُ نفسَهُ في الوعدِ والأمرِ والنَّهيِ، وغيرِ ذلكَ، ورُبَّمَا وعدَ بعضُ الكفارِ منَ اليهودِ والنَّصارىٰ بعضَ النَّاسِ بمالٍ في وقتٍ معيَّنٍ زاحمَتْهُ في ذلكَ الوقتِ عبادةٌ وعدَ اللهُ فيهَا جزيلَ الثَّوابِ كصلاةِ الجمعةِ وغيرِهَا، فليمتحِنْ قلبَهُ، لأيِّ جهةٍ هُوَ مَصْرُوفٌ؟ هل إلىٰ العِبَادةِ رجَاءَ وعدِ اللهِ، ولا يلتفتُ لمَا وعدَ بهِ منَ المالِ، أو لتلكَ الجهةِ الخَسِيسَةِ، معَ جوازِ الخُلْفِ في الوَعدِ والمَقَالِ[3]؟

وكذلِكَ لو أمرَهُ طبيبٌ من هذا القَبِيلِ بِأنْ لا يقربَ بعضَ الأطعمةِ؛ لأنَّهُ يضرُّهُ ضررًا عاجلًا، وأمرَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بأنْ لا يقربَ بعضَ المعاصِي الَّتِي تضرُّهُ عاجلًا وآجلًا وجدَ نفسَهُ مائلًا إلىٰ البُعْدِ والحَذَرِ ممَّا نهَاهُ عنهُ الطَّبيبُ، وإنْ كانَ عدوًّا للهِ غاشًّا للمسلمينَ، وقدْ لا يصيبُهُ ما حذَّرَهُ عنهُ[4] إنْ لم يكنْ مقدورًا، ولا يجدُ قلبَهُ كذلِكَ فيما نهاهُ اللهُ عنهُ، بلْ يجدُ شهوتَهُ غالبةً لمَا نُهِيَ عنهُ وحذَرُهُ ضَعِيفًا.

وكذلكَ في المأموراتِ ما أمرَهُ بهِ اللهُ، وأمرَهُ بهِ بعضُ المخلوقينَ إذا تزاحمَا علىٰ وقتٍ واحدٍ، أيُّهمَا يُؤْثِرُ القيامَ بهِ، فإذا أرادَ العبدُ أن يمتحنَ إيمانَهُ ويَقِينَهُ ويعرفَ قوَّتَهُ من ضَعْفِهِ، فليزِنْ نفسَهُ ويختبرْهَا في هذِهِ المواضعِ، فإنَّهُ يعرفُ نقصَهُ أو كَمَالَهُ، فإنْ رأىٰ نَقْصًا فليجتهدْ في التَّدارُكِ قبلَ المَمَاتِ[5]، فإنَّهَا من[6] أسوأِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٥٦.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ٨/٦٤، وطبقات الصوفية ص٦٥.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١١١.

(٤) كذا في النسخ، والصواب: منه.

(٥) الذي ييأس به الإنسان من تدارك ما فاته، وقد أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١١١.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

الأماراتِ على ضعْفِ الإيمانِ، وأكبرِ العلاماتِ على وجودِ الخُسْرَانِ، واللهُ الموفِّقُ، وهوَ المُسْتَعَانُ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقَالَ شقيقٌ**[(٢)]: **تُعْرَفُ تَقْوَى الرَّجُلِ فِي ثلاثةِ أشياءَ: فِي أَخْذِهِ، وَمَنْعِهِ، وَكَلَامِهِ**». [١/٣٧ب]

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، وهو قريبٌ من الأوَّلِ، إلَّا أنَّ الأوَّلَ امتحانُ الإيمانِ الَّذِي في القلوبِ، وهذا امتحانُ صحَّةِ الأعمالِ المُبَرَّأَةِ مِنَ النَّقصِ أو الذُّنوبِ، فيُعْرَفُ دينُ الرَّجُلِ في أقوالِهِ وأخْذِهِ وترْكِهِ؛ فإنْ قالَ فلا يقولُ إلَّا حقًّا[(٣)]، وإنْ فعلَ فلا يفعلُ إلَّا واجبًا أو مندوبًا أو جائزًا، أو لا يتركُ إلَّا محرَّمًا أو مكروهًا، أو ما يجوزُ له تركُهُ، فإنَّهُ قدْ يعصِي بالتَّركِ لبعضِ الواجباتِ كمَا يعصِي بالفعلِ لبعضِ المحرَّمَاتِ.

فالأوَّلُ امتحانُ الإيمانِ[(٤)]، والثَّاني امتحانُ الأديانِ في أعمالِ القلوبِ والأبدانِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٥٦.

(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٢٣/١٤٤، وطبقات الصوفية ص٦٤، ومناقب الأبرار ١/١٨٣، والمدخل لابن الحاج ٣/١٤٩.

(٣) أي: بشاهد الكتاب والسنة.

(٤) أي: فيما نشأ عن قوته من المقامات والأحوال، كالزهد والورع وغير ذلك.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُم:

[١٠] أَبُو يَزِيدَ طَيفورُ بْنُ عِيْسَى البِسْطَامِيُّ[٢]

وَكَانَ جَدُّهُ مَجُوسِيًّا أَسْلَمَ، وَكَانُوا ثَلَاثَةَ إِخْوَةٍ: آدمَ، وطيفورَ، وعليَّ، وَكُلُّهُم كَانُوا زُهَّادًا عُبَّادًا، وَأَبُو يَزِيدَ كَانَ أجلَّهُم حالًا.

قيلَ: مَاتَ سنةَ إحدىٰ وستِّينَ ومائتَينِ، وقيلَ: أربعٍ وثلاثينَ ومائتَينِ[٣].

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أبا الحُسَينِ الفَارِسِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سُئِلَ أَبُو يَزِيدَ: بِأَيِّ شَيْءٍ وَجَدْتَ هَذِهِ المعرفَةَ؟ فَقَالَ: بِبَطْنٍ جَائِعٍ، وَبَدَنٍ عَارٍ[٤]»[٥].

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومَا ذكرَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الجُوعِ والعُريِ ليسَ من وَسَائِلِ المَعَارِفِ، وإنَّمَا مرادُهُ: أنَّه اشتغلَ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وبمعرفتِهِ وعِبَادَتِهِ حتَّىٰ نالَ ما نَالَ[٦]،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٥٧.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٦٧، والأنساب ١/٣٥١، وصفة الصفوة ٤/١٠٧، ووفيات الأعيان ٢/٥٣١، والإكمال ٧/١١٢، ومناقب الأبرار ١/١٩٢، ومعجم البلدان ١/٤٢١، ومسالك الأبصار ٨/٨٤، وتوضيح المشتبه ١/٥٠٦، وميزان الاعتدال ٣/٤٧٤، والبداية والنهاية ١١/٣٥، ولسان الميزان ٣/٢١٤، والعبر ٢/٢٩، وتاريخ الإسلام ٢٠/١١٠، والوفي بالوفيات ١٦/٢٩٥، وطبقات الأولياء ص٣٩٨، والنجوم الزاهرة ٣/٣٥، وشذرات الذهب ٢/١٤٣، والطبقات الكبرىٰ للشعراني ١/١٤٠، والكواكب الدرية ١/٦٥١.

(٣) وقيل: سنة أربع وستين ومائتين. انظر: مناقب الأبرار ١/١٩٢.

(٤) مرادُهُ: عدم الاعتناء بما يلبسه، فكان يقتصر علىٰ ما يستر البدن بأي وجهٍ كان. انظر: نتائج الأفكار ١/١٦١.

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٧٣، ووفيات الأعيان ٢/٥٣١، والمستطرف ١/٣١٧.

(٦) أي: وصل إلىٰ ما وصل.

ولم يلتفِتْ للقَوَاطِعِ العَاديَّةِ الَّتِي تقطعُ النَّاسَ مِن طَعَامِهِمْ ولِبَاسِهِم وشَهَواتِهِم[(١)]، وكأَنَّ كَلَامَهُ خرجَ تنبيهًا وأدبًا لبعضِ السَّالكينَ مِمَّنْ شغلَهُ أمرُ بَدَنِهِ؛ مِن بَطْنِهِ ولِبَاسِهِ[(٢)]، فلمَّا سألَهُ بمَا نالَ؟ أجابَهُ بالإعراضِ والانتقالِ عن حَالِهِ، فإنَّ اللهَ يُنيلُهُ بعضَ مَا أنالَ المُجْتَهِدِينَ، واللهُ أَعْلَمُ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٣)]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ عِيسَى[(٤)] البِسْطَامِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أبا يَزِيدَ يَقُولُ[(٥)]: عَمِلْتُ فِي المُجَاهَدَةِ ثلاثينَ سنةً، فَمَا وجدْتُ شَيْئًا أشدَّ عَلَيَّ من العِلْمِ ومُتَابعَتِهِ، ولَولَا اخْتِلافُ العُلَمَاءِ لتَعِبْتُ، واخْتِلافُ العُلَمَاءِ رَحْمَةٌ إلَّا فِي تَجْرِيدِ التَّوحِيدِ.**

وقيلَ: لَمْ يَخْرُجْ أَبُو يزيدَ من الدُّنيا حتَّى استظْهَرَ القُرْآنَ».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**مَا رَأَيْتُ أَشَدَّ مِنَ العِلْمِ ومُتَابعَتِهِ**»، وهذا يدلُّ على الشَّريعةِ بجُمْلَتِهَا، وذلكَ أنَّ الشَّريعةَ عِلْمٌ وعَمَلٌ، ولا يتمُّ للعبدِ ذلكَ إلَّا بِمُخَالَفَةِ هَوَاه [٣٨/أ]، واجتهادِهِ فِي تَقْوَاه، وفي هذا منَ المشقَّةِ ما لا يَخْفَى، ولا سيَّمَا العُلُومُ المُتَعَلِّقَةُ بالقَلْبِ؛ منَ الرِّيَاءِ والعُجْبِ والكِبْرِ والحَسَدِ، وغيرِ ذلكَ من

---

(١) في (ج): وشرابهم.

(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١١٢.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٥٧.

(٤) في النسخ: عيسى، وفي (ف): عمي، وهو الصواب كما في الرسالة القشيرية المطبوع، ومظان تخريج قوله، وقد تكرر ذكره بهذا التصويب في الرسالة القشيرية ١/٥٨، ٢/٤١٨، ٥٠٢، ٥٥٣.
وعمّي البسطامي هو: أبو عمران موسى بن عيسى البسطامي المعروف بـ(عمي). انظر: تاريخ دمشق ٦٠/٣٢٠.

(٥) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٣٦، وصفة الصفوة ٤/١٠٨، ومناقب الأبرار ١/١٩٣.

الأخلاقِ المذمومةِ، والورعِ والزُّهدِ والإخلاصِ والصِّدقِ والتَّوكُّلِ والرِّضَىٰ، وغيرِ ذلكَ منَ الأخلاقِ المحمودةِ، ومعرفةُ ذلكَ، والتَّخلُّقُ بهِ مُشِقٌّ جدًّا[١].

وقولُهُ: «وَلَوْلَا اخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ[٢] لَتَعِبْتُ» يعنِي: أنَّ مَنْ يُقَلِّدُهُ يُسوِّغُ له الأمرينِ، فيجدُ راحةً للوسعِ، ولذلكَ قالَ: لولَا اختلافُ العلماءِ في بعضِ المسائلِ وكانَ الحكمُ واحدًا لشقَّ عليَّ القيامُ بهِ وعجزتُ عنهُ[٣].

فبهذا الاعتبار كانَ اختلافُ العلماءِ رحمةً، إلَّا فِي تجريدِ التَّوحيدِ؛ وذلكَ أنَّ المقصودَ من مسائلِ التَّوحيدِ القطعُ[٤]، والحقُّ فيهَا واحدٌ، والفروعُ المطلوبُ فيهَا[٥] الظَّنُّ، ومتَىٰ غلبَ علىٰ ظنِّ بعضِ العلماءِ شيءٌ فهوَ حُكْمُ اللهِ عليهِ.

وقولُهُ: «أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ حتَّىٰ استظهَرَ القرآنَ»، يعني معَ كمالِ هذا الشُّغْلِ بنفسِهِ وكثرةِ مجاهدتِهِ فِي رياضةِ أخلاقِهِ وإصلاحِ ظاهِرِهِ وباطنِهِ لم يُهْمِلْ حِفْظَ القرآنِ جَمِيعِهِ.

وهذَا يدلُّ علىٰ كمالِ اجتهادِهِ؛ لأَنَّهُ كانَ يُجْزِئُهُ[٦] أنْ يحفظَ مَا يُصلِّي بهِ لَا غير.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٧]: «أَخْبَرَنَا أَبُو حَاتِمٍ السَّجستَانِيُّ، أخبرَنَا أَبُو نَصْرٍ السَّرَّاجُ قَالَ[٨]: سَمِعْتُ طَيْفُورَ البِسْطامِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ المعروفَ بِـ(عَمِّي**

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١١٣.

(٢) مراده: توضيح معنىٰ خبر: «اختلاف أمتي رحمة». انظر: نتائج الأفكار ١/١٦٢.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١١٣.

(٤) أي: الجزم.

(٥) في (أ، ج): منها، والأصح المثبت.

(٦) في (ج): يحزنه، والصواب المثبت.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٥٧.

(٨) اللمع ص١٤٤ ـ ١٤٥.

البِسْطَامِيَّ) يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: قَالَ أَبُو يَزِيدَ: قُمْ بِنَا حَتَّىٰ نَنْظُرَ إِلَىٰ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي قَدْ شَهَرَ نَفْسَهُ بِالوِلَايَةِ، وَكَانَ رَجُلًا مقصودًا مشهورًا بالزُّهدِ، فمضيْنا، فلمَّا خرجَ من بيتِهِ ودخلَ الْمَسْجِدَ، رمىٰ ببصَاقِهِ تجاهَ القِبْلَةِ، فانصرفَ أَبُو يَزِيدَ وَلَمْ يُسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَقَالَ: هَذَا غَيْرُ مأمونٍ عَلَىٰ أَدَبٍ مِنْ آدَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فكيفَ يَكُونُ مَأْمُونًا عَلَىٰ مَا يَدَّعِيهِ؟!

وَبِهَذَا الإِسْنَادِ قَالَ أَبُو يَزِيدَ(١): لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَسْأَلَ اللهَ - تعالىٰ - أَنْ يكفِيَنِي مؤنَةَ الأكْلِ ومؤنةَ النِّسَاءِ، ثُمَّ قُلْتُ: كَيْفَ يَجُوزُ لِي أَنْ أسألَ اللهَ هَذَا وَلَمْ يسألْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِيَّاهُ؟! فَلَمْ أَسْأَلْهُ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ - سبحانه - كفانِي مَؤنَةَ النِّسَاءِ حَتَّىٰ لَا أُبَالِي اسْتَقْبَلَتْنِي(٢) امْرَأَةٌ أَوْ حائطٌ!».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يَدُلُّ على اتِّبَاعِهِ لِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمُرَاعَاةِ ذلكَ فِي النَّاسِ، ومَعْرِفَةِ قدْرِهِم بهِ، وذلكَ أَنَّهُ لمَّا سَمِعَ [١/٣٨ب] بفضْلِ هذا الرَّجُلِ المعروفِ بالزُّهدِ المَشْهُورِ بهِ أَتَاهُ لينتفعَ بهِ، وتتزيَّدَ حالُهُ بسببِهِ، ويسمعَ من أقوالِهِ، ويرىٰ أحوالَه، فلمَّا كانَ أوَّلَ رُؤيتِهِ لهُ أَنَّهُ رآهُ بصقَ لجهَةِ القِبْلَةِ، دلَّ علىٰ أَنَّهُ غيرُ مُتَثبِّتٍ ولا مُراعٍ لأفعالِهِ، فَغَلَبَ علىٰ ظَنِّهِ أَنَّهُ إذا لم يحفَظْ في هذا الشَّيءِ القريبِ لم يحفظْ فيمَا عداهُ من أقوالِهِ وأفعالِهِ، فلا يحصلُ لهُ بهِ انتفاعٌ، وخشِيَ أَنْ يطَّلِعَ منهُ علىٰ ما سِوَىٰ ذلكَ، فتركَهُ وذهَبَ.

وهكذَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَبِرَ النَّاسُ بِمُلازمَتِهِم للشَّريعةِ وآدابِهِم، فإنَّ الوَلِيَّ هوَ المحفوظُ مِنَ الزَّلَلِ(٣)، كمَا جاءَ فِي الخبرِ الصَّحِيحِ(٤): «مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ

---

(١) اللمع للطوسي ص١٤٥. وورد أيضا في: مناقب الأبرار ١/١٩٦، والمختار من مناقب الأخيار ٢/٢١٧.

(٢) في (ج): استقبلني، والصواب المثبت.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١١٤.

(٤) سبق تخريجه.

بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيهِم» . . . الحديث .

وممَّا يدلُّ على أنَّ مُتابَعَةَ السُّنَّةِ حالَ أبِي يزيدَ في نَفْسِهِ تَوَقُّفُهُ عن دُعَائِهِ رَبَّهُ أنْ يكفيَهُ مؤنةَ الأكلِ والنِّساءِ ، فبحثَ في السُّنَّةِ فلم يجدْ النَّبيَّ ﷺ سأل ذلكَ[١] ، فتوقَّفَ عنهُ أدبًا معَ ربِّهِ وسُنَّةِ نبيِّهِ ﷺ ، وكانَ من ثمرةِ هذا التَّوقُّفِ ما حكاهُ عن نفسِهِ أنَّهُ لا يُبالِي لقيتْهُ امرأةٌ أو جِدارٌ .

❁ قَالَ الإِمَامُ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ[٢] : «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ : سَمِعْتُ الحَسَنَ بْنَ عليٍّ يقولُ : سَمِعْتُ عمِّي البسطاميَّ يَقُولُ : سَمِعْتُ أبي يَقُولُ[٣] : سألْتُ أبا يَزِيدَ عَنِ ابتدائِهِ وزهدِهِ فَقَالَ : لَيْسَ للزُّهدِ مَنْزِلَةٌ[٤] ، فَقُلْتُ : لِمَاذَا ؟ فقلتُ : لأنِّي كنتُ ثلاثةَ أيَّامٍ فِي الزُّهدِ ، فلمَّا كَانَ اليومُ الرَّابعُ خرجْتُ منهُ ؛ اليومُ الأَوَّلُ : زهدْتُ فِي الدُّنيا وَمَا فِيهَا ، واليومُ الثَّانِي : زهدْتُ فِي الآخرةِ وَمَا فِيهَا ، واليومُ الثَّالثُ : زهدْتُ فيمَا سِوَى اللهِ[٥] ، فلمَّا كَانَ اليومُ الرَّابعُ لَمْ يبقَ لي سِوَى اللهِ ، فنِمْتُ[٦] ، فسَمِعْتُ هاتفًا يَقُولُ : يَا أَبَا يَزِيدَ ، لَا تقْوَى معَنَا ، فَقُلْتُ : هَذَا الَّذِي أريدُهُ[٧] ، فسَمِعْتُ قائلًا يَقُولُ : وَجَدْتَ ، وَجَدْتَ[٨]» .

---

(١) ففي صحيح البخاري ١٩٤٩/٥ ـ حديث رقم (٤٧٧٦) : «أَمَا والله إني لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ له ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فليس مِنِّي» .

(٢) الرسالة القشيرية ٥٨/١ .

(٣) ورد قوله في : مناقب الأبرار ١٩٦/١ ، والمختار من مناقب الأخيار ٢١٧/٢ ، ومسالك الأبصار ٨٦/٨ .

(٤) أي : حالة وصفة لا تتغير .

(٥) الشامل للدنيا والآخرة حتى نفسه . انظر : إحكام الدلالة ١١٤/١ .

(٦) في (ف) وفي الرسالة القشيرية المطبوع : «فَهِمْتُ» من هام على وجهه ، والمثبت موافق لما في مظان تخريج قوله . وأشار للفظين الشيخ زكريا في : إحكام الدلالة ١١٤/١ .

(٧) أي : من أن أكون عاجزًا فقيرًا إلى فضلكم وعَوْنكُم .

(٨) أي : كناية عن إشارة الوصول ، والتكرير للتأكيد ، أي : وجدتَ مطلوبك .

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: فسألَهُ السَّائلُ عنِ ابتداءِ سُلُوكِهِ وزُهْدِهِ، فأخبرَهُ أنَّ الزُّهدَ ليس منزلةً(١) واحدةً حتَّىٰ يجيبهُ عنهُ جوابًا واحدًا(٢)، بلِ الزُّهدُ علىٰ درجاتٍ، فجمعَ لهُ فِي اليومِ الأوَّلِ(٣) الزُّهد فِي الدُّنيَا بأسْرِهَا، وهيَ علىٰ أقسامٍ: الزُّهدُ فِي الطَّعامِ واللِّباسِ والمنامِ وفضولِ الكلامِ والرَّاحةِ، وغيرِ ذلكَ منَ الأقسامِ، والنَّاسُ في هذا مختلفُونَ، وكلٌّ منهُمْ يُسَمَّىٰ زاهدًا، وهذا هوَ الَّذِي زهَّدَ اللهُ فيه الخَلْقَ، ومعرفةُ النَّاسِ منَ الزُّهدِ [١٣٩/١أ].

وأمَّا الزُّهدُ في الآخرةِ في ثانِي يومٍ فليسَ يعرفُهُ كلُّ الخُلْقِ، فإنَّ اللهَ رغَّبَ فيهَا وفِي العَمَلِ لأجلِهَا وَنَيْلِ نَعيمِهَا، وفصَّلَ الجنَّةَ وما فيها؛ من طعامِهَا وشرابِهَا وحورِ عينِهَا، كلُّ ذلكَ في التَّرغيبِ للعملِ لهَا والزُّهدِ فيهَا، باعتبارٍ آخرَ ليس لحقارتِهَا، كالزُّهدِ في الدُّنيَا الَّتِي لا تزنُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ(٤)، وإنَّمَا أعرضَ(٥) عنها العارفونَ شغلًا بمولاهُم، والتفرُّغَ لمناجاتِهِ في سائرِ أحوالِهِم، فعبَّرَ بالإعراضِ عنهَا شغلًا بما هو أشرفُ منهَا بالزُّهدِ فيهَا(٦).

وأمَّا قولُهُ: «**فَلَمَّا كانَ في اليومِ الثَّالثِ زَهدْتُ فيمَا سِوَىٰ اللهِ**»، فرُبَّمَا سبقَ لبعضِ النَّاسِ أنَّهُ إذا زهدَ في الدُّنيَا والآخرةِ لم يبقَ له شيءٌ آخرُ يزهدُ فيهِ، وهوَ غفلتُهُ عن نَفْسِهِ، فإنَّهُ في اليومِ الثَّالثِ زهدَ في نفسِهِ، وبذلَهَا اجتهادًا لربِّهِ، حتَّىٰ لم يلتفتْ لِحُظُوظِهَا مطلقًا، فلمَّا نامَ وعلمَ اللهُ منه كَمَالَ جَهْدِهِ واجتهادِهِ، هتفَ بهِ

(١) في (ب): بمنزلة.

(٢) سقط من (ج) قوله: «حتىٰ يجيبه عنه جوابًا واحدًا».

(٣) في (ب): «فجمع في الدنيا الأولىٰ».

(٤) كما في سنن ابن ماجه ١٣٧٦/٢: «وَلَوْ كانت الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ما سَقَىٰ كَافِرًا منها قَطْرَةَ أَبَدًا».

(٥) في (ب): غوض.

(٦) في (ب): منها.

الهَاتفُ: إنَّكَ لا تقْوَىٰ معنَا علىٰ هذِهِ الحالةِ الَّتِي أنتَ عليهَا منَ الشُّغلِ بِنَا، فألهمَهُ الحقُّ ـ سبحانه ـ هذا الَّذِي أُرِيدُ أنْ أكونَ معكُم عاجزًا فقيرًا إلىٰ فضلِكُم وعَوَنِكُم، فنُودِيَ في سِرِّهِ: «وجدتَ وجدتَ».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وقيلَ لأَبِي يَزِيدَ[(٢)]: مَا أشدُّ مَا لقيتَ فِي سَبيلِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ؟ فَقَالَ: لا يُمكِنُ وَصْفُهُ، فقيلَ لَهُ: مَا أهونُ مَا لقيتْ نفسُكَ منكَ؟ فَقَالَ: أمَّا هَذَا فنعَمْ، دعوتُهَا إِلَىٰ شَيْءٍ مِن الطَّاعَاتِ فلمْ تُجبْنِي، فَمَنعتُهَا المَاءَ سَنَةً**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا عظيمٌ فيما لَقِيَهُ فِي سُلُوكِهِ إلىٰ ربِّهِ؛ لأنَّ السَّبيلَ: هوَ الطَّرِيقُ المُوصِّلُ إلىٰ اللهِ في سَائرِ الطَّاعاتِ، حتَّىٰ أجملَ الجَوابَ بقولِهِ: شديدٌ لا يطيقُهُ، فلمَّا سُئِلَ عن أَيْسَرِ مَا لَقِيَتْ منكَ نفسُكَ، فقالَ: «**هذَا نعَمْ**»، دعاهَا إلىٰ عبادةٍ فتكاسَلَتْ، فمنعَهَا الماءَ سنةً، فإذا كانَ هذا هوَ الأيسرُ، فما ظنُّكَ بالشَّديدِ[(٣)]؟!

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «**وَقَالَ أَبُو يَزِيدَ[(٥)]: مُنْذُ ثَلاثِينَ سَنَةً أُصَلِّي وَاعْتِقَادِي فِي نَفْسِي عِنْدَ كُلِّ صَلاةٍ أُصلِّيهَا كَأَنِّي مَجُوسِيٌّ، أُرِيدُ أَنْ أَقْطَعَ زُنَّارِي[(٦)]**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا قدْ فسَّرَهُ في موضعٍ آخرَ، قالَ[(٧)]:

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٥٨.

(٢) ورد قوله في: وفيات الأعيان ٢/٥٣١، والبداية والنهاية ١١/٣٥، والوافي بالوفيات ١٦/٢٩٥، ومسالك الأبصار ٨/٨٦، وطبقات الأولياء ص٣٩٩.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١١٥.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٥٨.

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/١٩٦، ومسالك الأبصار ٨/٨٦.

(٦) وذلك لعدم صفاء أعماله من كدورات الحظوظ، والزُّنار: هو ما يشد به الوسط. انظر: نتائج الأفكار ١/١٦٥.

(٧) أفاده كله الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١١٥ ـ ١١٦.

«كنتُ[(١)] ثلاثينَ[(٢)] سنةً حدَّادَ نفسِي[(٣)]، وخمسَ سنينَ مِرْآةَ قلبِي[(٤)]، وسنةً أنظرُ فيمَا بينهُمَا، فإذا في وسطِي زُنَّارٌ ظاهرٌ[(٥)]، فعملتُ في قطْعِهِ خمسَ سنينَ، ثم نظرتُ فإذا في [١/٣٩ب] وسطِي زُنَّارٌ باطنٌ، فعملتُ في قطعِهِ، فلمَّا قطعَهُ رأى الخلقَ كلَّهُمْ مَوْتَى ونَفْسَهُ منهُمْ»؛ أيْ: لا يقدرونَ لهُ على نفعٍ ولا على ضرٍّ، فَأَشْبَهُوا عِنْدَهُ المَوتَى تَحْقِيقًا، فكبَّرَ عليهِمْ أربعَ تكبيراتٍ، وذلكَ أنَّ الحَدَّادَ شأنُهُ أنْ يَحمِيَ الحديدَ ويطرقَهُ ليُصفِّيَهُ ويخرجَ وسخَهُ، فقالَ: كنتُ أُعَدِّلُ جَوَارِحِي وَخَواطِرِي بالخَوفِ والرَّجاءِ هذهِ المُدَّةَ، حتَّى اعتدَلَتْ على الشَّريعةِ واستقامَتْ، فرأيتُ في نفسِي التفاتًا إلى الخلقِ ليعرفُوا ما أنا عليهِ منَ الطَّاعةِ الخَالِصَةِ، فشبَّهَهُ بعلامةِ الشِّركِ؛ وهوَ الزُّنَارُ الظَّاهرُ، وهوَ التفافُهُ في عملِهِ إلى غيرِ اللهِ، فعملَ في قطعِهِ، فلمَّا تخلَّصَ منهُ أُعْجِبَ بنفسِهِ وبقوَّتِهِ[(٦)] وكياسَتِهِ وحُسنِ تفقُّدِهِ لأعمالِهِ، وحمدَ نفسَهُ على ذلكَ ونسِيَ مِنَّةَ ربِّهِ، فلمَّا أدركَهُ رآهُ زُنارًا باطنًا؛ وهوَ أنَّهُ جعلَ لنفسِهِ أثرًا فِي طاعتِهِ، فلمَّا مَنَّ اللهُ عليهِ برُؤيةِ فَضلِهِ عليهِ، وأنَّهُ هوَ والخلقُ جميعُهُم لا يقدرُونَ لأنفسِهِم ولا لغيرِهِم على دَفْعِ شَرٍّ ولا جَلْبِ خَيْرٍ كَبَّرَ عليهم أربعَ تكبيراتٍ[(٧)]، ذكرَ اللهَ وحدَهُ وأضافَ العظمةَ والاقتدارَ لهُ لا لغيرِهِ.

فقولُهُ: «**كَأَنِّي فِي صَلَاتِي مَجُوسِيٌّ**»، يعنِي: المدَّةَ الَّتِي كانَ يعملُ فيهَا في قطْعِ الزُّنَّارِ الظَّاهرِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) في إحكام الدلالة ١/١١٥: «ثنتي عشرة سنة».

(٣) أي: يجهدها في أنواع العبادات.

(٤) أي: أشاهد ذاتي في غيري من أمثالي.

(٥) أي: بواسطة استحساني لأحوالي وأعمالي.

(٦) في (ج): وتقوية.

(٧) كناية عن فنائه عن الجميع حتى عن نفسه.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُوسَىٰ بْنَ عِيسَىٰ يَقُولُ: قَالَ [لي][٢] أَبِي: قَالَ أَبُو يَزِيدَ[٣]: لو نَظَرْتُم[٤] إِلَىٰ رَجُلٍ أُعْطِيَ مِنَ الكَرَامَاتِ حَتَّىٰ يَرْتَفِعَ[٥] فِي الهَوَاءِ فَلا تَغْتَرُّوا بِهِ حَتَّىٰ تَنْظروا كَيْفَ تَجِدُونَهُ عِنْدَ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَحِفْظِ الحُدُودِ وَأَدَاءِ الشَّرِيعَةِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ الكرامةَ[٦] مَا كانَ عَوْنًا للعَبدِ علىٰ ما يُقَرِّبُهُ مولَاهُ ويُقَوِّي يَقِينَهُ، ويمكِّنُهُ من مَحبَّتِهِ ورِضَاهُ، فإذَا جرَىٰ الخَارِقُ فِي العَادَةِ علىٰ يَدِ العَبْدِ، ولمْ تشهَدْ الشَّريعةُ لهُ بالاستقامةِ[٧]، دلَّ علَىٰ أنَّهُ مَخْدُوعٌ مَمْكُورٌ بهِ غيرُ مُسْتَقِيمٍ فِي سُلُوكِهِ[٨]، وإنَّمَا يُعْرَفُ توفِيقُ العبدِ بِحُسْنِ استقامتِهِ علىٰ ما يُرضِي مَوْلَاهُ، وتَوقُّفِهِ عندَ حدودِهِ الَّتِي حَدَّهَا، لَا تُتَعَدَّىٰ من واجِباتِهِ ومَنَاهِيهِ.

قَالَ الإِمَامُ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ[٩]: «وحكَىٰ عمِّي البسطَامِيُّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ[١٠]: ذَهَبَ أَبُو يَزِيدَ ليلةً إِلَىٰ الرِّبَاطِ لِيَذْكُرَ اللهَ [١/٤٠أ] ـ سبحانه ـ عَلَىٰ سُورِ الرِّبَاطِ، فبقيَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٥٨.

(٢) زيادة من (ف).

(٣) ورد قوله في: شعب الإيمان ٢/٣٠١، وحلية الأولياء ١٠/١٠، ووفيات الأعيان ٢/٥٣١، ومناقب الأبرار ١/١٩٦، ومدارج السالكين ٢/٤٦٥، وتاريخ الإسلام ٢٠/١١١.

(٤) في (ب): نظرت. ومراده: الحث علىٰ متابعة القرآن والسنة.

(٥) في (ف): تربع، وفي الرسالة القشيرية: يرتقي. وأشار الشيخ زكريا لاختلاف النسخ في: إحكام الدلالة ١/١١٦.

(٦) أي: ما يكرم الله به عبده.

(٧) لعدم العمل بأحكامها.

(٨) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١١٦.

(٩) الرسالة القشيرية ١/٥٨.

(١٠) ورد قوله في: مسالك الأبصار ٨/٨٦.

إِلَىٰ الصَّباحِ لَمْ يذكرْ، فَقُلْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: تَذَكَّرْتُ كلمةً جرَتْ عَلَىٰ لِسَانِي فِي حَالِ صِبَايَ[(١)]، فَاحْتَشَمْتُ أَنْ أَذْكُرَهُ سُبْحَانَهُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على كَمَالِ تَعْظِيمِهِ لِمَولاه، واستِحْيائِهِ منهُ فِي جَمِيعِ مَا يتَعَاطَاه، وَذَلِكَ أَنَّ الرِّبَاطَ عَلَىٰ السُّورِ إِنَّمَا يَكُونُ بذكرِ اللِّسانِ غالبًا؛ لِيُعْرَفَ أَنَّهُ محروسٌ ممَّنْ يقصدُهُ منَ الأعداءِ، فمضَىٰ أبو يزيدَ ليلةً لينالَ فضيلةَ الحِرَاسةِ في الذِّكْرِ بلسانِهِ غالبًا[(٢)]، ولهذَا قالَ صاحبُهُ: «فلم يذكُرْ»، يعني بِلِسَانِهِ، وأمَّا ذِكْرُ قلبِهِ فلا اطِّلَاعَ له عليهِ، ولولا ذكرُهُ لربِّهِ بِقَلْبِهِ لمَا كَمُلَ استحياؤُهُ منهُ، فلمَّا سألَهُ عن سُكُوتِهِ بِلِسَانِهِ قالَ لَهُ: أَذْكَرَنِي اللهُ ـ تعالىٰ ـ في هذا الوَقْتِ كلمةً كنتُ قُلْتُهَا لا تُرْضِيه، فاستحيَيْتُ منهُ أنْ أذكرَهُ بلسانٍ عَصَيتُهُ بهِ، هذَا الَّذِي أسكتَنِي.

ومِنْ هذا القَبِيلِ مَا حُكِيَ أَنَّ بعضَهُمْ صلَّىٰ خارجَ المسجدِ، فقيلَ لهُ: لِمَ تركتَ الصَّلاةَ في المسجدِ؟ قالَ: «خطرَ ببالِي: أمَا تستحِي تَدْخُلُ بيتَهُ وقدْ عَصَيتَهُ؟!».

ومنْ هذا القبيلِ قولُ بعضِهِم: «إنَّ لهُ سنينَ عِدَّةً مَا رفعَ رأسَهُ إلىٰ السَّماءِ حياءً منَ اللهِ».

وربَّمَا اعترضَ بعضَ هذهِ الأحوالِ منَ الفقهاءِ مَنْ لمْ يَعْرِفْهَا، ويقولُ: كيفَ نَوىٰ خيرًا فاضلًا فتركَهُ؟ وكيفَ تركَ الدُّخولَ إلىٰ المسجدِ وصلَّىٰ خارجَهُ وهوَ أفضلُ؟، وكيفَ لم يَرْفَعْ رأسَهُ إلىٰ السَّماءِ واللهُ مُنَزَّهٌ عنِ الجِهَاتِ؟!

والجَوابُ السَّهلُ: أنَّ مَنْ استحيَا ممَّنْ يَرَاهُ أَطْرَقَ بِرَأسِهِ لعلمِهِ برؤيتِهِ مطلقًا، وإنْ لَمْ يعلمْ جِهَةً، ولو صحَّ حياؤُكَ من أحدٍ من النَّاسِ لقلَّ إِقْدَامُكَ عليهِ، واستحييتَ ممَّا سبقَ منكَ، واللهُ المُوفِّقُ.

---

(١) فيه إشارة إلىٰ عدم صدور المخالفات منه بعد التكليف.

(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١١٦.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُم:

[١١] أَبُو مُحَمَّدٍ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ[(٢)]

أحدُ أئمَّةِ القَوْمِ ؛ ولَمْ يكنْ لَهُ فِي وقتِهِ نظيرٌ فِي المعاملاتِ والورَعِ، وكَانَ صاحبَ كَراماتٍ، لقِيَ ذا النُّونِ المصريَّ بمكَّةَ سنةَ خُرُوجِهِ إِلَى الحجِّ.

تُوُفِّيَ ـ كَمَا قيلَ ـ سنةَ ثَلاثٍ وثمانينَ ومائتَينِ، وقيلَ: ثَلاثٍ وسبعينَ ومائتَينِ.

وَقَالَ سهلٌ[(٣)]: كنتُ ابنَ ثَلاثِ سنينَ وكنتُ أقومُ باللَّيلِ أنظرُ إِلَى صلاةِ خَالِي مُحَمَّدِ بْنِ سوَّارٍ[(٤)]، وَكَانَ يقومُ باللَّيلِ، وربَّمَا كَانَ يَقُولُ لِي: يا سَهْلُ ؛ اذهَبْ فنَمْ، فَقَدْ شغلْتَ قَلْبِي.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: [١/٤٠ب] سَمِعْتُ أبا الفتحِ يُوسُفَ بْنَ عُمَرَ الزَّاهدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبْدِ الحميدِ يَقُولُ: سَمِعْتُ عُبيدَ اللهِ بْنَ لؤلؤٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ واصِلٍ البصريَّ يحكِي عَن سهلِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ لي خَالِي يَوْمًا: أَلَا تَذْكُرُ اللهَ الَّذِي خَلَقَكَ؟ فَقُلْتُ: كَيْفَ أَذْكُرُهُ؟ فَقَالَ: قُلْ بِقَلْبِكَ[(٥)]

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٥٩ ـ ٦٠.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٦٦، وحلية الأولياء ١٠/١٨٩، والأنساب ١/٤٦٥، ومناقب الأبرار ١/٢٠٦، ونجم المهتدي ١/٣٠٣، وصفة الصفوة ٤/٦٤، ووفيات الأعيان ٢/٤٢٩، والوافي بالوفيات ١٦/١١، والكامل في التاريخ ٦/٣٨٩، وتاريخ الإسلام ٢١/١٨٦، والعبر ٢/٧٦، وطبقات الأولياء ص٢٣٢، والطبقات الكبرى للشعراني ١/١٤٢، وشذرات الذهب ٢/١٨٢، والنجوم الزاهر ٣/٩٥، والكواكب الدرية ١/٦٣٣.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٢٠٧ ـ ٢٠٨، وإحياء علوم الدين ٣/٧٤، ووفيات الأعيان ٢/٤٢٩، وطبقات الأولياء ص٢٣٣.

(٤) في ذلك دلالة على أنه كان من ذوي الهمم العالية.

(٥) أي: مع حضور قلبك.

عِنْدَ تقلُّبكَ فِي ثِيَابِكَ[١] ثَلاثَ مرَّاتٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُحَرِّكَ بِهِ لِسَانَكَ: اللهُ معِي[٢]، اللهُ ناظرٌ إِلَيَّ[٣]، اللهُ شَاهِدِي[٤]، فَقُلْتُ ذَلِكَ ليالِيَ ثُمَّ أَعْلَمْتُهُ، فَقَالَ: قُلْهَا فِي كُلِّ ليلةٍ سبعَ مرَّاتٍ، فقلتُ ذلكَ، ثمَّ أعلمْتُهُ، فقالَ: قلْ في كلِّ ليلةٍ إحدىٰ عشرةَ مرَّةً، فَقُلْتُ ذَلِكَ؛ [ثُمَّ أَعْلَمْتُهُ، قَالَ:][٥] فوقعَ فِي قلبِي لَهُ حلاوةٌ.

فلمَّا كَانَ بَعْدَ سنةٍ، قَالَ لي خالِي: احفَظْ مَا علَّمْتُكَ وَدُمْ عَلَيْهِ إِلَىٰ أَنْ تَدْخُلَ القبرَ، فَإِنَّهُ ينفعُكَ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، فلَمْ أزَلْ علَىٰ ذَلِكَ سِنَينَ، فَوجَدْتُ لَهَا حَلاوةً فِي سِرِّي.

ثُمَّ قَالَ لِي خَالِي يَوْمًا: يَا سَهْلُ، مَنْ كَانَ اللهُ مَعَهُ[٦] وَهُوَ ناظرٌ إِلَيْهِ وشاهدٌ أيعصِيهِ؟! إيَّاكَ والمعصيةَ[٧].

فكنتُ أخلُو؛ فبعثُونِي إِلَىٰ الكُتَّابِ، فَقُلْتُ: إنِّي لأخشَىٰ أن يتفرَّقَ عَلَيَّ همِّي[٨]، ولكنْ شارطُوا المعلِّمَ[٩] أَنِّي أذهبُ إِلَيْهِ ساعةً فأتعلَّمُ ثُمَّ أرجعُ.

فمضيتُ إِلَىٰ الكُتَّابِ، وحفظتُ القُرْآنَ وأنا ابْنُ سِتِّ سنينَ، أَوْ سبعِ سنينَ، وكنتُ أَصُومُ الدَّهْرَ وقُوتِي خُبزُ الشَّعِيرِ إِلَىٰ أَن بلغتُ اثنتَي عشرةَ سنةً، فوقعتْ لي مسألةٌ وأنا ابْنُ ثَلاثَ عشرةَ، فسألتُ[١٠]: أَن يبعثُوا بي إِلَىٰ البصرةِ أسألُ عَنْهَا،

(١) في (ب): شأنك.
(٢) أي: بالحفظ.
(٣) أي: عالم بي.
(٤) أي: يراني ويرىٰ أفعالي.
(٥) زيادة من (ف).
(٦) أي: بالحفظ والعلم والإعانة.
(٧) أي: احذر التلبس بها.
(٨) أي: ما أهتم به؛ وهو ذكر ربي في الخلوة مع حضور قلبي.
(٩) أي: اشترطوا عليه.
(١٠) أي: أهلي.

فجئتُ البصرةَ ؛ وسألتُ علماءَهَا ، فلمْ يشفِ عَنِّي أَحَدٌ شَيْئًا .

فخرجتُ إِلَى (عَبَّادان)(١) عَلَىٰ رَجُلٍ يُعْرَفُ بأبي حبيبٍ حمزةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ العبَّادانِي ، فسألتُهُ عَنْهَا فأجابَنِي ، وأقمتُ عندَهُ مدَّةً أنتفعُ بِكَلَامِهِ ، وَأَتَأَدَّبُ بآدابِهِ .

ثُمَّ رجعتُ إِلَىٰ (تُسْتَر)(٢) فَجَعَلْتُ قُوتِي اقتصارًا(٣) عَلَىٰ أَن يُشْتَرَىٰ لِي بِدِرْهَمٍ منَ الشَّعيرِ الفَرْق(٤) ، فيطحنَ ويُخْبزَ لي ، فأُفْطِرَ عِنْدَ السَّحَرِ كُلَّ لَيْلَةٍ عَلَىٰ أُوقِيَّةٍ واحدةٍ بَحْتًا(٥) بِغَيْرِ مِلْحٍ وَلَا إِدَامٍ ، فَكَانَ يَكْفِينِي ذَلِكَ الدِّرهمُ سنةً .

ثُمَّ عَزَمْتُ عَلَىٰ أَن أطوِيَ ثَلَاثَ لَيَالٍ ، ثُمَّ أفطرَ ليلةً ، ثُمَّ خَمْسًا ، ثُمَّ سَبْعًا ، ثُمَّ خَمْسًا(٦) وَعِشْرِينَ لَيْلَةً ، فَكُنْتُ عَلَيْهِ عِشْرِينَ سَنَة .

ثُمَّ خَرَجْتُ أَسِيحُ فِي الأَرْضِ سِنِينَ ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَىٰ «تُسْتَر» وَكُنتُ أَقُومُ اللَّيلَ كُلَّهُ» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : ففي هذه الحكايةِ تعليمٌ وتدريجٌ للمريدِ كيف يتعلَّمُ المُرَاقَبَةَ ، وأوَّلُهَا ذكرُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ [١/١٤١أ] باللِّسانِ مكرَّرًا مع حُضُورِ القَلْبِ ، فإذَا تَنبَّهَ أمرَهُ أنْ يذكرَ بقلبِهِ خاصَّةً ، فلهذا قالَ لهُ : «بقلبِكَ من غيرِ أنْ تُحرِّكَ به لِسَانَكَ» ،

(١) في الروض المعطار ص٤٠٧ : «عبادان بالعراق بقرب البصرة ، بينهما اثنا عشر فرسخًا» . وانظر : معجم البلدان ٤/٧٤ .

(٢) مدينة بالأهواز ، وهي أعظم مدينة بخوزستان . انظر : معجم البلدان ٢/٢٩ ، والروض المعطار ص١٤٠ .

(٣) أي : مقتصرا فيه علىٰ خصوص الشعير .

(٤) مكيال لأهل المدينة . ففي مسند الربيع ص٦٧ : «الفرق : مكيال أهل الحجاز ؛ وهو ستة عشر رطلا» . وفي المقاييس ٤/٤٩٥ : «الفرق مكيال من المكاييل تفتح راؤه وتسكن ، قال القُتَيبي : هو الفرق ـ بفتح الراء» .

(٥) أي : خالصًا صِرْفًا .

(٦) في (ف) : «ثم خمسٍ ثم سبعٍ ثم خمسٍ» .

بل عندَ حَرَكتِكَ وسُكُونِكَ وتقلُّبِكَ في ثِيَابِكَ تقولُ: «**اللهُ معِي، وناظرٌ إليَّ، وشاهدِي**»، فأمرَهُ أن يقولَ ذلك في كلِّ ليلةٍ ثلاثَ مرَّاتٍ[(١)]، ثُمَّ سبعًا، ثم إحدىٰ عشرةَ مرَّةً.

فهذا التَّدريجُ تَسْهِيلٌ لانتقالِ العَبْدِ من شيءٍ إلىٰ ما هو أَوْلَىٰ منهُ، وكونُهُ نقلَهُ في عددِ الأفرادِ فيه سرٌّ، وهو أنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ فردٌ يُحِبُّ الفَرْدَ، ولذلكَ جاءَ في التَّسبيحِ في إثرِ الصَّلاةِ «ثلاثًا وثلاثينَ، وثلاثًا وثلاثينَ»[(٢)]، وهي أفرادٌ، فلمَّا دامَ علىٰ ذلك مدَّةً، نبَّهَهُ علىٰ فائدتِهِ؛ وهوَ أنَّ مَنِ استشعرَ أنَّ اللهَ معَهُ وناظرٌ إليهِ وشاهدُهُ لا يَعْصِيهِ بإِخْلالِ واجبٍ أو ارتكابِ مُحَرَّمٍ[(٣)].

وقولُهُ لهُ: «**دُمْ علىٰ مَا عَلَّمْتُكَ إلىٰ القَبْرِ، فإنَّهُ ينفعُكَ في الدُّنيَا والآخرةِ**» ففيهِ إشارةٌ لقولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لجبريلَ لمَّا سألَهُ عنِ الإحسانِ[(٤)]: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كأَنَّكَ تَرَاهُ**»، وهوَ أوَّلُ كلِّ خَيْرٍ؛ وهي مراقبةُ اللهِ عندَ الأفعالِ، فلمَّا دامَ علىٰ ذلكَ وجدَ في نفسِهِ لذَّةً تحملُهُ علىٰ ملازمةِ ذلك، فوقعَتْ لهُ مسألةٌ، والظَّاهرُ أنَّهَا من أحوالِ القُلُوبِ والمُعَامَلاتِ فيما بينَ العَبْدِ وبينَ ربِّهِ، ولم يجِدْ فِي البصرةِ مَنْ يُجيبُهُ عنهَا، فسافرَ إلىٰ «عَبَّادَان»، فوجدَ مَنْ أجابَهُ وخَدَمَهُ، وانتفعَ علىٰ يديهِ.

وهذا يدلُّ علَىٰ أنَّهُ لَا يُقَلِّدُ فِي كُلِّ فنٍّ إلَّا مَنْ يَعْرِفُهُ ويأخذُهُ من أدلَّتِهِ الخَاصَّةِ بهِ.

---

(١) في (ب، ج): «ثم خمسًا»، ولم ترد في نص القشيرية.

(٢) كما في صحيح البخاري ١١٣٣/٣ ـ حديث رقم (٢٩٤٥)، ومسلم ٢٠٩١/٤ ـ حديث رقم (٢٧٢٧): «... إذا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا فكَبِّرَا اللهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ..».

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١١٨/١.

(٤) سبق تخريجه.

وأمَّا قناعتُهُ باليسيرِ وخُبزِ الشَّعيرِ وأكلُهُ اليسيرَ حتَّىٰ تعوَّدَ الجوعَ وهانَ عليه أمرُهُ وخفَّ عليهِ الوِصَالُ، وحينئذٍ ساحَ[١].

هكذا ينبغِي ألَّا يتعرَّضَ الإنسانُ للسِّياحةِ ودخولِ البَرَارِي بلا زادٍ حتَّىٰ يعوِّدَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ الصَّبرَ والقَنَاعةَ بِاليَسِيرِ، والقوَّةَ علىٰ الجُوعِ، ودوامَ الشُّغلِ بهِ حتَّىٰ تَصِيرَ راحتُهُ في دوامِ ذكرِهِ ومُنَاجاتِهِ، فيشتغلَ بذلكَ عن أكلِهِ وشُرْبِهِ؛ لوجودِ رَاحتِهِ فيهِ، وَيَمُنَّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عليهِ بالقُوَّةِ فيهِ[٢]، كما قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لمَّا نَهَاهُم عن الوصالِ رحمةً بِهِم وشفقةً عليهِم، قالوا: إنَّكَ تُوَاصِلُ يا رَسُولَ اللهِ، قالَ[٣]: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنَّ لِي طَاعِمًا يُطْعِمُنِي، وَسَاقِيًا[٤] يَسْقِينِي».

هذا هو مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ[٥] أنَّ الشِّبعَ أمرٌ يخلقُهُ اللهُ عندَ الأكلِ، وكذا الرِّيُّ[٦] عندَ الشُّربِ، ويجوزُ أن يخلقَهُمَا اللهُ ـ تعالىٰ ـ [٤١/١ب] لغيرِ[٧] هذا السَّببِ، كمَا خَلَقَهُمَا عندَهُ[٨].

---

(١) في (ب): شاح، وهو تصحيف.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٢٠.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ٢/٣٠٩ بلفظ: «.. فَقِيلَ له يا رَسُولَ اللهِ: إِنَّكَ تُوَاصِلُ إلىٰ السَّحَرِ، فقال: إني أُوَاصِلُ إلىٰ السَّحَرِ، وَرَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي».
والترمذي في سننه ٣/١٤٨ بلفظ: «قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تُوَاصِلُوا، قالوا: فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ يا رَسُولَ اللهِ، قال: إني لَسْتُ كَأَحَدِكُم، إِنَّ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي».

(٤) في (أ، ب): وساقٍ، والصواب المثبت.

(٥) انظر: تمهيد القواعد ص٥٩، والغنية في أصول الدين ص١٦٥، وتهافت الفلاسفة ص٢٣٩، الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥/٦٨، وتحفة المريد ص١١١.

(٦) في (ج): الذي، وهو تحريف.

(٧) في (ب): بغير.

(٨) هذه المسألة تتصل بمسألة أفعال العباد، فالكلام عن طبيعة الفعل وما يحدثه مما لا دخل للعبد فيه، وهل هذه الطباع للأفعال مخلوقة لله أم هي ذاتية للفعل، فالسادة الأشاعرة يقررون أن الأفعال كلها=

وحفظُهُ القرآنَ ـ أيضًا ـ وهوَ صغيرٌ من جُملَةِ حفظِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لهُ ولطفِهِ بهِ، وهذا جميعُهُ يدلُّ علىٰ أنَّهُ مُرادٌ مَخْصُوصٌ بالعَونِ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ من صِغَرِهِ إلىٰ كِبَرِهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أبا العَبَّاسِ [السّياريَّ][2] البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ فراسٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ نَصْرَ بْنَ أَحْمَدَ يَقُولُ: قَالَ سهلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[3]: كُلُّ فِعْلٍ يَفْعَلُهُ العَبْدُ بِغَيرِ اقتداءٍ ـ طاعةً كَانَ أَوْ معصيةً ـ فَهُوَ عيشُ النَّفْسِ[4]، وَكُلُّ فِعْلٍ يفعلُهُ بالاقتداءِ فَهُوَ عذابٌ للنَّفسِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ لأنَّ الاقتداءَ مخالفةُ الهوىٰ، وخلافُهُ عملٌ بالهَوىٰ، وقد مدحَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ النَّاهِي نفسَهُ عنِ الهَوَىٰ[5].

وقولُهُ: «طاعةً كانَ أو معصيةً» يريدُ أنَّ الهَوىٰ يكونُ في الطَّاعةِ والمعصيةِ جميعًا، فمَنْ رَائَىٰ بطاعتِهِ فقد اتَّبعَ هواهُ، ومَنْ استحسنَ رأيَهُ في الفُرُوعِ أو الأُصُولِ[6] بغيرِ الاقتداءِ بالكتابِ والسُّنَّةِ والسَّلفِ المُهتدينَ فقد عَملَ بِهَوَاه.

= وطبائعها مخلوقة لله، ولو شاء الله أن يوجد النار دون إحراق لفعل، أو الماء دون ري لفعل، بينما يقرر غيرهم خلاف ذلك.
انظر: التمهيد ص٥٩ وما بعدها، والغنية في أصول الدين ص١٦٥.

(١) الرسالة القشيرية ٦٠/١.
(٢) زيادة من (ف).
(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢٠٨/١، ومدارج السالكين ٤٦٤/٢، والاستقامة ١٤١/٢، والكواكب الدرية ٦٣٩/١.
(٤) أي: حظُّها.
(٥) في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١]. وقد أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٢٠/١.
(٦) في (ب): والأصون، وهو تحريف.

ولم يرَ أنَّ الاقتداءَ فِي المَعَاصِي لا هَوَاءَ فيهِ، وإنَّمَا مُرَادُهُ ما بيَّنَّاهُ؛ من أنَّ الهَوَىٰ يكونُ فِي الطَّاعةِ والمَعْصِيةِ جَمِيعًا، اللَّهمَّ إلَّا أنْ يُرِيدَ بالمَعْصِيةِ تَرْكَهَا، فإنَّ تَرْكَهَا قد يكونُ فيه الهَوَىٰ كمَا يكونُ في فِعْلِهَا إذا تَرَكَهَا رِيَاءً، وإنْ تركَهَا بِنِيَّةٍ للهِ ـ تعالىٰ ـ كانَ اقتداءً مَحْمُودًا.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُم:

[١٢] أَبُو سُلَيمَانَ عَبدُ الرَّحمَنِ بنُ عَطِيَّةَ الدَّارَانِيُّ[(٢)]

و(دَارِيَّا)[(٣)] قريةٌ من قُرَىٰ (دِمَشْق)، مَاتَ سنةَ خمسَ عشرةَ ومائتينِ.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ[(٤)] يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُحَمَّدٍ الرَّازِيَّ[(٥)] يَقُولُ: سَمِعْتُ إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيم بْنِ أَبِي حسَّان يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي الحواريِّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أبا سُلَيْمَان الدَّارانِيَّ[(٦)] يَقُولُ[(٧)]: مَنْ أَحْسَنَ فِي نهارِهِ كُوفِئَ[(٨)] فِي ليلِهِ، ومَنْ أَحْسَنَ فِي ليلِهِ كُوفِئَ فِي نهارِهِ، ومَنْ صدقَ فِي تَرْكِ شَهْوةٍ ذَهَبَ اللهُ بِهَا مِنْ قَلْبِهِ[(٩)]، واللهُ ـ تعالىٰ ـ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَذِّبَ قَلْبًا بِشَهْوَةٍ تُرِكَتْ لَهُ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٦١.

(٢) انظر في ترجمته: تاريخ داريا للخولاني ص٥١، وطبقات الصوفية ص٧٤، وحلية الأولياء ٩/٢٥٤، والإكمال ٦/٣٥٤، ومناقب الأبرار ١/٢٣٤، والبداية والنهاية ١٠/٢٥٥، وسير أعلام النبلاء ١٠/١٨٣، والروضة الريا فيمن دفن برايا ص٨١، وطبقات الأولياء ص٣٨٦، والطبقات الكبرىٰ ١/١٤٥، والكواكب الدرية ١/٦٦٩.

(٣) في (ب): وداران، وهو تحريف. وفي معجم البلدان ٢/٤٣١: «داريا: قرية كبيرة مشهورة من قُرَىٰ دمشق بالغوطة، والنسبة إليها: داراني علىٰ غير قياس، وبها قبر أبي سليمان الدَّاراني».

(٤) في (ج): الحسن.

(٥) في (ب، ج): الداراني، والصواب المثبت.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب، ج).

(٧) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٧٦، وحلية الأولياء ٩/٢٦٠، وتاريخ دمشق ٣٤/١٣٥، ومناقب الأبرار ١/٢٣٥، وصفة الصفوة ٤/٢٢٩، والروضة الريا فيمن دفن برايا ص٨٣، وروضة المحبين ص٤٤١.

(٨) أي: جُوزِي.

(٩) أي: صرف قلبه عن الميل إليها.

وَبِهَذَا الإِسْنَادِ قَالَ[(١)]: «إِذَا سَكَنَتِ الدُّنْيَا القلبَ تَرَحَّلَتْ مِنْهُ الآخِرَةُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «**مَنْ أَحْسَنَ فِي نهارِهِ كُوفِئَ فِي لَيْلِهِ**»، وذلكَ أَنَّ الإحسانَ كما تقدَّمَ فِي الخبرِ الصَّحيحِ في حديثِ جبريلَ مع النَّبيِّ - عليهِمَا الصَّلاةُ والسَّلامُ -[(٢)]: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ [١٤٢/١أ]، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

ومَنْ كانَ فِي نَهَارِهِ مُرَاقِبًا لِحَرَكَاتِهِ وسُكُونِهِ؛ ليوقعَ ذلك على حَسَبِ مَطالبِ ربِّهِ، ومستشعرًا لنظرِ ربِّهِ إليهِ فِي سَائِرِ تَقَلُّبِهِ بَقِيَتْ فِي قَلْبِهِ هذهِ الخَشْيَةُ والمُرَاقَبَةُ، فَيَحْفَظُهُ[(٣)] اللهُ - تعالى - بها فِي لَيْلِهِ.

وكذلكَ إذا كانَ قائمًا في ليلِهِ، تاليًا لكِتَابِ رَبِّهِ، تارِكًا لِلَذَّةِ نَوْمِهِ لِوَجْهِهِ، وطَلَبَ قُرْبَهُ وَتَلَذَّذَ فِي مُنَاجَاتِهِ، بَقِيَتْ آثارُ بَرَكَتِهِ في ليلِهِ على نَهَارِهِ، فيكفيهِ اللهُ شَرَّ نَفْسِهِ وشَيْطَانِهِ، وغَيْرَ ذلكَ من أعدائِهِ ومُفْسِدَاتِ أَعْمَالِهِ في ليلِهِ ونَهارِهِ.

وأمَّا قولُهُ: «**إِذَا سَكَنَتِ الدُّنْيَا القَلْبَ تَرَحَّلَتْ مِنْهُ الآخِرَةُ**» يَعْنِي: إذا كَمُلَ اشتِغَالُهُ بِدُنْيَاهُ، وعَاجلَ شَهَوَاتِهِ فِي مُوافَقَةِ نَفْسِهِ وَهَوَاهُ، عَمِيَ[(٤)] بذلكَ عن عَمَلِ أُخْرَاهُ، وبهذا الاعتبارِ تَرَحَّلَتِ الآخِرَةُ عَن قَلْبِه؛ أي: لَمْ يتفكَّرْ في أعمالِهَا، ولا استعدَّ لآخِرَتِه[(٥)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُحَمَّدَ بنَ**

---

(١) ورد قوله في: الزهد الكبير ١٣٥/١، وحلية الأولياء ٢٦٠/٩، وتاريخ دمشق ١٣٦/٣٤، ومناقب الأبرار ٢٣٥/١، والبداية والنهاية ٢٥٧/١٠.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في (ج): فحفظه.

(٤) في (ب): عمل، والصواب المثبت.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٢١/١.

(٦) الرسالة القشيرية ٦١/١.

الحُسَينِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ الْحُسَيْنَ بْنَ يَحْيَي يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّد بْن نُصَيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجنيدَ يَقُولُ: قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ[١]: رُبَّمَا تَقَعُ فِي قَلْبِي النُّكْتَةُ مِنْ نُكَتِ الْقَوْمِ أَيَّامًا، فَلَا أَقْبلُ مِنْهُ[٢] إِلَّا بِشَاهِدَينِ عَدْلَينِ[٣]: الكِتَاب، وَالسُّنَّة».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «يَقَعُ فِي قَلْبِي نُكْتَةٌ» يعني: الكَلِمَةَ مِنَ الحكمةِ، فلا أقنعُ باستحسانِهَا برأيِي حتَّىٰ أجدَ لهَا دليلًا منَ الكتابِ والسُّنَّةِ، وقد يكتفِي بأحدِ الدَّليلينِ؛ وهوَ الكتابُ إذا كان عالمًا بِمَعَانِيه وَأَدلَّتِهِ، إلَّا أنَّهُ أرادَ بالسُّنَّةِ ـ واللهُ أعلمُ ـ أن يكونَ دَرَجَ عليه الصَّدرُ الأوَّلُ وقالُوا بهِ، فإنَّهُ قد يكونُ في الكِتَابِ مَا نُسِخَ، أو عامٌّ خُصِّصَ، أو مُجْمَلٌ فُسِّرَ، أو ما يَجْرِي مَجْرَاهُ تَعْمَلُ الأُمَّةُ بأحدِ مَعَانِيه، فكانَ لا يقنعُ إلَّا بِدَليلَينِ[٤]، أنْ يكونَ وردَ في الكتابِ ودَرَجَ عليه عَمَلُ النَّاسِ، واللهُ أعلَمُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ[٦]: أَفْضَلُ [العباداتِ و][٧]الأَعْمَالِ خِلَافُ هَوَىٰ النَّفْسِ».

---

(١) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٧٦، وتاريخ دمشق ١٢٧/٣٤، ومناقب الأبرار ٢٣٥/١، وصفة الصفوة ٢٢٩/٤، وسير أعلام النبلاء ٢٣١/١٨.

(٢) أي: من القلب.

(٣) في (ف): «بشاهدي عدل».

(٤) أي: لم يكتفِ بأحدهما؛ لجواز أن يكون أحدهما مخصِّصًا، أو ناسخًا، أو مبيِّنًا للآخر.

(٥) الرسالة القشيرية ٦١/١.

(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٧٩، وتاريخ دمشق ١٢٧/٣٤، ومناقب الأبرار ٢٣٦/١، وذم الهوىٰ ص٢٩، والبداية والنهاية ٢٥٦/١٠، وسير أعلام النبلاء ١٨٣/١٠، ونُسب للفضيل في: تفسير السُّلمي ٣٧٢/٢.

(٧) زيادة من (ف).

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا بظاهِرِهِ يدلُّ على أنَّ أفضلَ الأعمالِ ما خَالفَتْ فيهِ هَوَىٰ نَفْسِكَ.

وقَدْ يكونُ مُرَادُهُ أنَّ أفضلَ الأعمالِ ما ليسَ للنَّفسِ فيهِ هَوَىٰ، فإنَّ العَمَلَ الَّذي يُنشِئُهُ عَامِلُهُ علىٰ الصِّدقِ والإخلاصِ أفضلُ الأعمالِ[١]، وما خطرَ فيهِ الهَوَىٰ ثمَّ نفيَ عنهُ وخُولفَتْ فيه النَّفسُ لا يُسَاوِي ما ذكرْنَاهُ في الفضْلِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

قَالَ الإمَـامُ رَحِمَهُ اللهُ [١/٤٢ب][٢]: «وَقَالَ[٣]: لِكُلِّ شَيْءٍ عَلَمٌ، وَعَلَمُ الخُذْلانِ[٤]: تَرْكُ البُكَاءِ.

وَقَالَ: لكلِّ شَيْءٍ صَدأٌ[٥]، وَصَدأُ نُورِ القَلْبِ: شِبَعُ البطْنِ[٦]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُهُ: «لِكُلِّ شَيءٍ عَلَمٌ، وَعَلَمُ[٧] الخُذْلانِ: تَرْكُ البُكَاءِ»، وهذا إنَّمَا يكونُ مَعَ الذُّنوبِ أو التَّقصيرِ، فإذا كانَ الإنسانُ مُتَلَطِّخًا بِالمَعَاصِي مِنَ الإخْلَالِ بِالوَاجِبَاتِ أَو ارْتِكَابِ المُحَرَّمَاتِ، وَلَمْ يَبْكِ وَلَمْ يَتُبْ وَلَمْ يرجعْ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فَهِي عَلامةُ الخُذْلانِ، فقد[٨] لا يكونُ عَاصِيًا، ويكونُ عازمًا

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٢١.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٦١.

(٣) ورد هذا القول والذي يليه في: طبقات الصوفية ص٧٩، وتاريخ دمشق ٣٤/١٢٧، وتاريخ الإسلام ١٥/٢٥٣، والبداية والنهاية ١٠/٢٥٦.

(٤) أي: علامة الرد، وعدم القبول، وعدم التوفيق.

(٥) أي: وسخ يمنع صفوه.

(٦) أي: تعاطي الزائد عن المأذون فيه من الشرع؛ لما ينشأ عنه من الظلمة، والفتور عن الطاعة، لذا قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في سنن الترمذي ٤/٥٩٠: «... فَإِنْ كان لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ».

(٧) في (ب): وعلامة.

(٨) في (ب): وقد.

علىٰ سُلُوكِ طريقِ الأفضلِ والأولَىٰ، ولا يجدُ من نفسِهِ نهضةً إلىٰ قيامِ اللَّيلِ وصيامِ النَّهارِ، ودوامِ الذِّكْرِ والاعتبارِ، فعلامةُ خذلانِهِ - أيضًا - فِي سُلُوكِ طريقِهِ تركُ البكاءِ والتَّضرُّعِ.

والدَّليلُ علىٰ الأوَّلِ والثَّاني: قولُهُ - تعالىٰ -: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ [الأنعام: ٤٣]، وَكُلٌّ عَلَىٰ حَسَبِ دَرَجَتِهِ، فَالكَسَلُ وَالفُتُورُ يَأْسٌ وَبُؤْسٌ، وَغَفْلَةٌ عَنْ دَوَامِ الذِّكْرِ ومُرَاقَبَةِ اللهِ بؤسٌ، ولا يُوجَدُ لهذِهِ الأَمْرَاضِ أنفعُ منَ البُكَاءِ والتَّضرُّعِ، فإنَّ مَا كانَ بيدِ القَوِيِّ القَاهِرِ لا يُنَالُ إلَّا بِذَلِكَ.

قَالَ الإِمَامُ - رحمةُ اللهِ عليهِ -[1]: «**وَقَالَ[2]: كُلُّ مَا شَغَلَكَ عَنِ اللهِ - تعالىٰ - مِنْ أَهْلٍ، أَوْ مَالٍ، أَوْ وَلَدٍ، فَهُوَ عَلَيكَ مَشْئُومٌ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ اللهَ - تعالىٰ - قَالَ: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقالَ - تعالىٰ -: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وإنَّما ذلك لاشتغالِ الإنسانِ بِهِم عن آخرتِهِ، والسَّعْيِ فِي ليلِهِ ونهارِهِ فِي مآربِهِم وأغراضِهِم، فيفوتُهُ بذلكَ الاشتغالُ بِأَمْرِ آخِرَتِهِ، فَبِهَذَا الاعْتِبَارِ كَانَ مَشْئُومًا.

قَالَ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «**وَقَالَ أَبُو سُلَيمَانَ[4]: كُنْتُ لَيْلَةً بَارِدَةً فِي المِحْرَابِ، فَأَقْلَقَنِي[5] البَرْدُ، فَخَبَّأْتُ إِحْدَىٰ يَدَيَّ مِنَ البَرْدِ وَبَقِيَتِ الأُخْرَىٰ**

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٦١.

(٢) ورد قوله في: الزهد الكبير ١/١٠٧، وحلية الأولياء ٩/٢٦٤، وتاريخ بغداد ١٠/٢٤٨، وإحياء علوم الدين ٤/٢٣٨، ومناقب الأبرار ١/٢٣٧.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٦١.

(٤) ورد قوله في: حلية الأولياء ٩/٢٥٩، ومناقب الأبرار ١/٢٣٧، والبداية والنهاية ١٠/٢٥٦، والروضة الريا فيمن دفن بداريا ص٩٠.

(٥) في (ج): فأقلنين والأصح المثبت.

مَمْدُودةً، فغلَبَتْني عَيْنِي، فهَتَفَ بي هاتِفٌ: يَا أبا سُلَيْمَانَ، قَدْ وَضَعْنَا فِي هَذِهِ مَا أَصَابَهَا، وَلَوْ كَانَتِ الأُخْرَىٰ لَوَضَعْنَا فِيهَا، فَآلَيتُ عَلَىٰ نَفْسِي أَنْ لَا أَدْعُو إِلَّا وَيَدَايَ خَارِجَتَانِ، حَرًّا كَانَ، أَوْ بَرْدًا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا تنبيهٌ على أنَّ العبدَ ينبغي له إذا دَعَا أنْ يَسْتَفْرِغَ كُلِّيَّتَهُ بقلبِهِ وجَوارحِهِ وإقبالِهِ على ما أُمِرَ بالإقبالِ إليه، وَبَسْطُ اليدَينِ في الدُّعاءِ[1] في الأخبارِ الصَّحيحةِ موجودٌ ثابتٌ[2]، ويمسحُ بهمَا وجهَهُ.

وكان مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ فيما نُقِلَ عنهُ أَنَّهُ رفعَ يديهِ وبطونهمَا إلى الأرضِ وظهورهمَا إلى السَّماءِ حينَ عزمَ الإمامُ [١/١٤٣أ] على النَّاسِ في الدُّعاءِ للاستسقاءِ، وقالَ[3]: «إنْ كان الرَّفعُ فهكذا».

وهذا يحتملُ أن يكونَ مخصوصًا بالدُّعاءِ في هذا الوقتِ، فإنَّهُ قد فرَّقَ بينَ دعاءِ الرَّغبةِ والرَّهبةِ، وجعلَ دعاءَ الرغبةِ ببسْطِ اليدَينِ، والرهبةِ كما وصفناهُ، والَّذي يناسبُ مَنْ تأخَّرَ عنه الغيثُ الرَّهبةُ والخوفُ، أن يكونَ ذلك بذنوبِهِ، ودعاءُ الرَّغبةِ يناسبُ أن يكونَ في أثرِ العِباداتِ والفَراغِ من الطَّاعاتِ، وقد لا يرفعُ العبدُ يدَيهِ ويبسطهُمَا غيرَ مرفوعتَينِ فلا يخالفُ إمامَهُ.

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٢٢.

(٢) ففي صحيح مسلم ٢/٦١٢ ـ حديث رقم (٨٩٥): «عن أَنَسٍ قال رأيت رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ في الدُّعَاءِ حتى يُرَى بَيَاضُ إِبْطَيْهِ.... عن أَنَسٍ أَنَّ نَبِيَّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لَا يَرْفَعُ يَدَيْهِ في شَيْءٍ من دُعَائِهِ إلا في الِاسْتِسْقَاءِ حتى يُرَى بَيَاضُ إِبْطَيْهِ... عن أَنَسِ بن مَالِكٍ أَنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَسْقَى فَأَشَارَ بِظَهْرِ كَفَّيْهِ إلى السَّمَاءِ». وتأمل تفصيل الحديث في «صفة رفع اليدين» في: شرح النووي على مسلم ٤/٩٥، وفتح الباري ٢/٢٢١.

(٣) المدونة الكبرى ١/٦٨، والتهذيب في اختصار المدونة ١/٢٣٧، والجامع لمسائل المدونة ٢/٤٩٦. وانظر: جامع الأمهات ص١٩٩، ومناهج التحصيل للرجراجي ١/٢٤٤.

قَالَ الإِمَـامُ[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «**وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ[٣]: نِمْتُ عَنْ وِرْدِي، فَإِذَا أَنَا بِحوراءَ تقولُ لِي: تنامُ وَأَنَا أُرَبَّىٰ لَكَ فِي الخُدُورِ مُنْذُ خمسمائةِ عامٍ؟!**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا ما تقدَّمَتِ الإشارةُ إليهِ من أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يَعِظُ عَبْدَهُ ويُؤَدِّبُهُ في ليلِهِ ونهارِهِ، وفي يَقَظتِهِ ومَنَامِهِ، فلمَّا نامَ هذا عن وِرْدِهِ مثَّلَ لهُ مَلَكُ الرُّؤيا بإذنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بهذهِ الحَوراءِ الجميلةِ، وقالتْ له: «**أنا أُرَبَّىٰ لك في الخُدُورِ منذُ خمسمائةِ عامٍ، تنامُ!**»، وهو أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ أعدَّ لكَ الجزاءَ قبلَ أن تعملَ، فكيفَ يمكنُكَ أن تَنَامَ، فكانَ ذلكَ سببَ ذهَابِ النَّومِ عنه.

و(الخمسمائةُ) يمكنُ أن يكونَ أوَّلُ خَلْقِهِ لهَا ـ سبحانه ـ وإنشائهَا وتربيتهَا زيادةَ جمالِهَا وحُسْنِهَا وكمالِهَا، وذلك بتوفيقِ الله ـ تعالىٰ ـ له فِي أعمالِهِ، كلَّمَا ازدادَ عملُهُ زادَ أجرُهُ وكَمُلَ جزاؤُهُ.

ومِن هذا القبيلِ ذكرَ أنَّ بعضَهُم رأىٰ فِي منامِهِ حوراءَ وعلىٰ وجهِهَا نورٌ عظيمٌ فسألَهَا عن ذلك النُّورِ؛ فقالَتْ لهُ: «تذكرُ ليلةَ كيتْ وكِيتْ ولمَّا بكيْتَ أخذتُ دمعةً من بكائِكَ فمسحتُ بها وجْهِي، فمنهُ هذا النُّورُ»، وإنَّمَا هي أعمالُكُم تردُّ عليكم، واللهُ يضاعفُ لمَنْ يشاءُ، ويتفضَّلُ بلا عَمَلٍ علىٰ مَنْ يشاءُ، كيفَ وأصلُ العَمَلِ مِن فَضْلِهِ.

قَالَ الإِمَـامُ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ[٤]: «أخبرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ الأَصْبَهَانِيُّ، أخبرَنَا أَبُو عَمْرو الجُولَسْتيُّ قَالَ: أخبرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ قَالَ: حدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ

---

(١) في (ج): الشارح، وهو تحريف.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٦٢.

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ٩/٢٥٩، وتاريخ دمشق ٣٤/١٢٧، ومناقب الأبرار ١/٢٣٧، وصفة الصفوة ٤/٢٢٤، والبداية والنهاية ١٠/٢٥٦، والروضة الريا فيمن دفن بداريا ص٩٠.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٦٢.

أَبِي الحَوارِيِّ؛ قَالَ[١]: دخلْتُ علَى أَبِي سُلَيْمانَ يومًا وَهُوَ يَبْكِي، فَقُلْتُ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: يا أَحْمَدُ، وَلِمَ لَا أَبْكِي؟! إِذَا جَنَّ اللَّيلُ، ونامَتِ العيونُ وخَلا كُلُّ حبيبٍ بحبيبِهِ، وافترَشَ أهلُ المَحَبَّةِ أقدامَهُم، وجرَتْ دُمُوعُهُم علَى خُدُودِهِم، وتقطَّرَتْ فِي محاريبِهِم.. أشرفَ الجليلُ سبحانَهُ، فنادَى: يَا جبريلُ؛ بِعَيْنِي مَنْ تلذَّذَ بِكَلَامِي، وَاسْتَرَاحَ إِلَى ذِكْرِي، وَإِنِّي لَمُطَّلِعٌ عَلَيْهِم [١/٤٣ب] فِي خَلَوَاتِهِم[٢]، أَسْمَعُ أَنِينَهُم، وأرَى بكاءَهُم، فلِمَ لَا تُنَادِي فِيهِم يَا جِبْرِيلُ: مَا هَذَا البكاءُ؟ هَلْ رَأَيْتُمْ حَبِيبًا يُعَذِّبُ أَحبَابَهُ؟! أم كَيْفَ يَجْمُلُ بي أَنْ آخُذَ قَوْمًا إِذَا جَنَّهُم اللَّيلُ تَمَلَّقُوا لِي[٣]؟! فَبِي حَلَفْتُ إِنَّهُم إِذَا وَرَدُوا عَلَيَّ القِيَامَةَ لأَكْشِفَنَّ لَهُم عَنْ وَجْهِيَ الكَرِيمِ حَتَّى ينظرُوا إليَّ وَأَنْظُرَ إِلَيهِمْ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والبكاءُ يكونُ على وجوهٍ: بكاءُ الخوفِ، وبكاءُ الفَرَحِ بالنِّعمِ، وبكاءُ الشُّكرِ للقبُولِ، وبكاءُ المَحَبَّةِ والشَّوقِ للوصُولِ.

فدخلَ عليه شيخُهُ وهو يبكِي؛ فسألَهُ عن بكائِهِ، فأخبرَهُ[٤] أنَّهُ بكاءُ أهلِ المحبَّةِ إذا جنَّهُمُ اللَّيلُ، فقامُوا لمولاهُمْ تالينَ لكتابِهِ، متلذِّذينَ بِمُنَاجَاتِهِ، بَاكِينَ مُتَضَرِّعِينَ، فأشرفَ عليهم الجليلُ جَلَّ جَلَالُهُ؛ أيْ: أسبَغَ عليهِمْ من نِعَمِهِ، وزادَ قلوبَهُم حُضُورًا وشَوقًا إليهِ، وتَقَطُّعًا بينَ يديهِ، وإلَّا فالحقُّ - سبحانه - لا يغيبُ عنهُ شيءٌ.

وإنَّمَا إشرافُهُ عليهم برحمتِهِ وَنَيْلِ زيادةِ كَرَامَاتِهِ، وباهَى بِهِم مَلائكتَهُ، وقالَ

---

(١) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/١٧، وتاريخ دمشق ٣٤/١٣٧، ومناقب الأبرار ١/٢٣٨، وصفة الصفوة ٤/٢٣٠، والروضة الريا فيمن دفن بداريا ص٨٤.

(٢) في (ب): خلواتي، والصواب المثبت.

(٣) أي: إذا سترهم الليل تودَّدوا وتلطَّفُوا لي.

(٤) في (ب): فأخبر.

لجبريلَ: يا جبريلُ، لِمَ لا تُنَادِي فيهم ليسمعُوا كلامَ المَلكِ بالبُشْرَىٰ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فيزدَادُوا سُرُورًا وفَرَحًا وأمْنًا بقولِهِ: «**هَلْ رأيتُم حَبِيبًا يُعَذِّبُ أَحْبَابَهُ؟!**»، وأقسمَ بِجَلالِهِ أنَّهُ إذا كانَ يومُ القِيَامةِ كشفَ عَنْهُم الحُجُبَ الَّتِي تحجبُهُم عن رُؤيتِهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّىٰ يَرَوهُ بأبصَارِهِم، فإنَّ الخلقَ هُمُ المَحْجُوبُونَ، والحَقُّ ـ سبحانه ـ يستحيلُ أنْ يُحْجَبَ لتنزُّهِهِ عن الجِسْمِ والجِهَةِ والمِقْدَارِ، تعَالىٰ عَنْ ذلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

قَالَ الإِمَـامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]:

«وَمِنْهُم:

[١٣] أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَاتِمُ بْنُ عُنْوانَ[(٢)]

ويقالُ: حَاتِمُ بْنُ يُوسُفَ الأَصَمُّ.

مِنْ أَكَابِرِ مَشَايخِ (خراسانَ)، وَكَانَ تلميذَ شَقيقٍ، وأستاذَ أَحْمَدَ بْنِ خِضْرَوَيْهِ.

قيلَ: لَمْ يكُنْ أصمَّ، وإنَّما تَصامَمَ[(٣)] مَرَّةً فسُمِّيَ بِهِ.

[ومَاتَ سنةَ سِتٍّ وثَلَاثينَ ومائتَين][(٤)].

سَمِعْتُ الأستاذَ أبا عَلِيٍّ الدَّقَّاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ[(٥)]: جاءَتْ امْرَأَةٌ فسألَتْ حَاتمًا عَن مسألةٍ، فاتَّفَقَ أَنَّهُ خرجَ منهَا فِي تلكَ الحالةِ صوتٌ، فَخَجِلَتْ، فَقَالَ حاتمٌ: ارفَعِي صَوتَكِ، فَأَرَىٰ مِنْ نَفْسِهِ[(٦)] أَنَّهُ أَصَمُّ؛ فسُرَّتِ المَرأةُ بِذَلِكَ، وَظَنَّتْ أَنَّهُ لَم يسمَعِ الصَّوتَ، فَغَلَبَ عَلَيْهِ اسمُ الصَّمَمِ».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٦٣.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٨٦، وحلية الأولياء ٨/٧٣، وتاريخ بغداد ٨/٢٤١، ومناقب الأبرار ١/٢٥٦، والأنساب ١/١٨١، ووفيات الأعيان ٢/٢٦، والمنتظم ١١/٢٥٣، وصفة الصفوة ٤/١٦١، والوافي بالوفيات ١١/١٧٩، وتاريخ الإسلام ١٧/١١٨، وسير أعلام النبلاء ١١/٤٨٤، ومسالك الأبصار ٨/٦٢، وطبقات الأولياء ص١٧٨، وشذرات الذهب ٢/٨٧، والطبقات الكبرىٰ ١/١٤٧، والكواكب الدرية ١/٥٨٩.

(٣) أي: تكلَّف الصَّمَم.

(٤) زيادة من (ف).

وقيل: مَاتَ بِوَاشَجِرد، سنة سبع وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْن. انظر: طبقات الصوفية ص٨٦، ومناقب الأبرار ١/٢٥٦.

(٥) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٨/٢٤٤، ومناقب الأبرار ١/٢٥٦، ووفيات الأعيان ٢/٢٨.

(٦) أي: أظهر من نفسه.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا مِنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من جُمْلَةِ الشَّفقةِ على خَلْقِ الله، ودفْعِ ما يؤلِمُهُم عنهم، وهي من عَلامَةِ الولاياتِ، وذلك أنَّ المَرْأَةَ الشَّدِيدةَ الحَيَاءِ تَستَحْيِي أنْ تتكَلَّمَ بِلِسَانِهَا بَيْنَ يَدي الرِّجالِ إلَّا من ضَرُورةٍ، فكيفَ [١٤٤/١] إذا خرجَ منها رِيحٌ ؟!، فتكادُ أنْ تَمُوتَ ؛ لمَا يلحقُهَا من الخَجَلِ والحَيَاءِ، فلمَّا جَاءَتْ هذه المَرأةُ تسألُ حاتمًا في مسألةٍ دعتْهَا إليها حاجةٌ، فخرجَ منها ريحٌ في تلك الحالِ، فكادَتْ تموتُ من الخَجَلِ والحَيَاءِ، فأدركَ حاتمٌ منها ذلكَ، فأوهمَهَا أنَّهُ [أصمٌّ](١) لم يَسْمَعْ ما خَرَجَ منها، وأنَّ ذلكَ لِثِقَلٍ في سَمْعِهِ، وإنَّمَا فعلَهُ تصَامُمًا رحمةً بها، فسُمِّيَ بالأصمِّ لذلك، ولم يكنْ عندَه صمَمٌ على التَّحقيقِ، وتحدَّثَ بذلك لمَنْ يَقْتَدِي به من أصحابِهِ ؛ لِيَسْلُكَ مَسْلَكَهُ فِي الشَّفقةِ على الخَلْقِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**أَخْبَرَنَا الشَّيخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **قَالَ(٣): سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ سَعِيدَ بْنَ أَحْمَدَ يَقُولُ: سمعْتُ أَبِي يَقُولُ: سمعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْد اللهِ(٤) يَقُولُ: سَمِعْتُ خَالِي مُحَمَّدَ بْنَ اللَّيْثِ يَقُولُ: سَمِعْتُ حَامِدًا اللَّفَّافَ يَقُولُ: سَمِعْتُ حَاتِمًا الأَصَمَّ يَقُولُ: مَا مِنْ صَبَاحٍ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَقُولُ لِي: مَا تَأْكُلُ ؟ وَمَا تَلْبِسُ ؟ وَأَيْنَ تَسْكُنُ !؟ فَأَقُولُ لَهُ: آكلُ المَوْتَ(٥)، وَأَلْبِسُ الكفنَ، وَأَسْكُنُ القَبْرَ.**

---

(١) زيادة من (ب).

(٢) الرسالة القشيرية ٦٣/١.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٨٩، ومناقب الأبرار ٢٥٨/١، وصفة الصفوة ١٦٢/٤.

(٤) في طبقات الصوفية ص٨٩: بن عبدٍ، وفي شعب الإيمان ٤٥١/٥: بن عبيد. وأشار الشيخ زكريا إلى الفروق الثلاثة في: إحكام الدلالة ١٢٤/١.

(٥) وأُثِرَ عنه أيضا قوله كما في: تاريخ بغداد ٢٤٤/٨، وشعب الإيمان ١١٤/٢، ومناقب الأبرار ٢٦٢/١: «سمعت حاتمًا الأصم، وقيل له: من أين تأكل؟ فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]».

وبإسناده قيلَ لهُ[١]: ألا[٢] تَشْتَهِي؟ فَقَالَ: أَشْتَهِي عَافِيَةَ يَوْمٍ إِلَىٰ اللَّيلِ، فقيلَ لَهُ: أليسَتِ الأَيَّامُ كُلُّها عافيةً؟ فَقَالَ: إِنَّ عَافِيَةَ يَوْمِي أَلَّا أَعْصِيَ اللهَ فِيهِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: في كلامِهِ الأوَّلِ إشارةٌ إلىٰ قِصَرِ الأملِ، وأنَّ الشَّيطانَ إنَّمَا يُوَسْوِسُ للإنسانِ، ويمدُّ له في الآمالِ؛ لاستشعارِهِ طولَ الحياةِ، فإذا استشعرَ ذلكَ وَسْوَسَهُ بما يأكلُ وما يَلْبِسُ وأينَ يسكنُ طولَ المدَّةِ الَّتي يمدُّ لها أَمَلَهُ، فإذا وَسْوَسَ الشَّيطانُ من قِصَرِ أملِهِ أجابهُ بهذا الجوابِ، وهو ذكْرُ المَوتِ والقَبْرِ.

وفي الحكايةِ الثَّانيةِ عندَهُ لمَّا قيلَ له: «**ألَا تَشْتَهِي؟ فقالَ: عافيةَ يومٍ إلىٰ اللَّيلِ**»، فقيلَ لهُ: ألسْتَ في عَافيةٍ؟ فقالَ: إنَّمَا العَافِيَةُ ألَّا تَعْصِيَ اللهَ[٣]، فأجابَهُ بالعَافيةِ الَّتِي لا مَرَضَ بعدَهَا؛ وهي السَّلامةُ منَ العِقَابِ وأسبابِهِ في الدُّنيا والآخِرَةِ[٤].

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**وَحُكِيَ عَن حَاتِمِ الأَصَمِّ أَنَّهُ قَالَ[٦]: كُنْتُ فِي بَعْضِ الغَزَوَاتِ، فَأَخَذَنِي تُرْكِيٌّ فَأَضْجَعَنِي لِلذَّبحِ، فَلَمْ يشتغِلْ بِهِ قَلْبِي، بَل كنتُ أنظرُ ماذا يحكُمُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ، فَبَيْنَا هُوَ يَطْلُبُ السِّكِّينَ منْ خُفِّهِ أَصَابَهُ سهمٌ غَرْبٌ، فَقَتَلَهُ وَطَرَحَهُ عَنِّي، فَقُمْتُ**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ففي هذه الحكايةِ ـ وفَّقَكَ[٧] اللهُ ـ كمالُ التَّثبُّتِ

---

(١) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٨٩، وحلية الأولياء ٨/٨٣، والزهد الكبير ١/٢٩٠، ومناقب الأبرار ١/٢٥٩، وإحياء علوم الدين ٢/٢٣٠.

(٢) بمعنىٰ: هل.

(٣) أي: العافية في الدين لا في البدن. انظر: نتائج الأفكار ١/١٨٠.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٢٥.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٦٣.

(٦) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٢٣/١٤٥، ومناقب الأبرار ١/٢٥٩، وتاريخ الإسلام ١٣/٢٣٠.

(٧) في (ب): وفعل.

وقوَّةُ اليقينِ بأنَّهُ لا يَجْرِي على العبدِ إلَّا ما سَبَقَتْ به المَقَاديرُ(١)، وفيها [١/٤٤ب] تعلُّمُ ذلكَ والتَّرقِّي في دَرَجَاتِهِ، وذلك أنَّ حاتمًا حَكَىٰ عن نَفْسِهِ أنَّهُ كانَ فِي بعضِ الغزَوَاتِ فأخذَهُ تركيٌّ وأضجَعَهُ للذَّبحِ وجلسَ علىٰ صدرِهِ، وهو يُخْرِجُ السِّكِّينَ من خُفِّهِ، ومعَ هذه الحالةِ الشَّديدةِ وانتظارِ المَوتِ منَ الأعداءِ أقسَمَ حاتمٌ أنَّ قلبَهُ لم يكُنْ مشغولًا بذلكَ ـ يعنِي بألَمِ الذَّبحِ ـ، وإنَّمَا كانَ قلبُهُ مشغولًا بِمُنَاجَاةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ والنَّظرِ بما تَجْرِي بِهِ المَقَاديرُ(٢)، وهو يقولُ: يا ربِّ، قضيْتَ عليَّ أنْ يذبحَنِي هذا الكافرُ على الرَّأسِ والعَيَنِ، يعني: أنَّهُ رَاضٍ بِمَا قُضِيَ عليهِ، فبينَا أنا معَهُ كذلك إذْ أتَاهُ سَهْمُ غَربٍ ـ يعنِي طَائِحًا ـ(٣)، فألقاهُ عنِّي، فقمتُ(٤).

وَفِي بعضِ الرِّواياتِ(٥): «**فَقُمْتُ فأخذْتُ السِّكِّينَ من يَدِهِ فَذَبحْتُهُ بِهَا**»، فيا هؤلاءِ، لتكُنْ قلوبُكُم معَ اللهِ؛ لِتَروا منهُ ما لم تَروهُ منَ الآباءِ والأمَّهاتِ!(٦).

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ(٧): «**سمعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ يُوسُفَ الأَصْبَهَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ مَنْصُورَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الفقيهَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ نُصَيرٍ يَقُولُ: رُوِيَ عَنْ حاتمٍ أَنَّهُ قَالَ(٨): مَنْ دَخَلَ فِي مَذْهَبِنَا**

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٢٥.

(٢) عملا بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أَصَابَكَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ ما أخطاك لم يَكُنْ لِيُصِيبَكَ» سنن أبي داود ٤/٢٢٥.

(٣) أي: أتاه من حيث لا يدري.

(٤) أي بسِرِّ قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

(٥) كما في: تاريخ بغداد ٨/٢٤٤، ووفيات الأعيان ٢/٢٨، وصفة الصفوة ٤/١٦٣، والثبات عند الممات ص٤١، والمنتظم ١١/٢٥٤، وتسلية أهل المصائب ١/٢٣١.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٢٥.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٦٣ ـ ٦٤.

(٨) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٨٧، وحلية الأولياء ٨/٧٨، وشعب الإيمان ٥/٤٣، والزهد الكبير ١/١٧٥، ومناقب الأبرار ١/٢٥٧، وشذرات الذهب ٢/٨٧.

هَذَا فليجعَلْ فِي نَفْسِهِ أَرْبَعَ خِصَالٍ مِنَ المَوْتِ: مَوْتًا أَبْيضَ؛ وَهُوَ الجوعُ، وَمَوْتًا أَسْوَدَ؛ وَهُوَ احتمالُ الأذَىٰ مِنَ الخَلْقِ، وَمَوْتًا أحمرَ؛ وَهُوَ العملُ ومخالفةُ الهوَىٰ، وموتًا أخضرَ؛ وَهُوَ طرحُ الرِّقاعِ بَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وإنَّمَا سَمَّىٰ هذه الخِصَالَ بالمَوتِ؛ لمَا فيها مِنَ المَشَقَّةِ، ويظهرُ لمناسبتِهَا للألوانِ وجهٌ، وأنَّ الجُوْعَ يُذْهِبُ[١] الدَّمَ، فتذهبُ مائيَّةُ الوَجْهِ، ولكنَّهُ يُحْيِي القَلْبَ[٢]، ويُصَفِّيهِ للذِّكْرِ، [لذلكَ] سَمَّاهُ أبيضَ.

وأمَّا الأسودُ: فهو احتمالُ الأذىٰ مِنَ الخلقِ، وذلك لمَا يلحقُ الإنسانَ مِنَ الغَمِّ وعدمِ الانتصارِ[٣] للنَّفسِ، فسمَّاهُ أسودَ بهذا الاعتبارِ.

وأمَّا الأحمرُ: فهو مخالفةُ الهوَىٰ ودفعُ النَّفسِ بِبُعْدِهَا من أغراضِهَا، وقطعِهَا عن شهواتِهَا، فاستعارَ لهذا الذَّبحِ لونَ الدَّمِ؛ وهيَ الحمرةُ.

وأمَّا الرَّابعُ ـ وهوَ الأخضرُ ـ[٤]: فطرحُ الرِّقاعِ بعضِهَا علىٰ بعضٍ، وذاكَ شعارُ الصَّالحينَ، فإنَّ لباسَهُمُ الأخضرَ في الجنَّةِ، واللهُ أعلمُ، فإنَّ العبدَ إذا كانَ في الدُّنيا لا غرضَ له في اللِّباسِ إلَّا ما يسترُ عَوْرَتَهُ، فإنِ انقطعَ ممَّا عليهِ موضعٌ التقطَ رُقْعَةً مِنَ الأرضِ وغَسَلَهَا بالماءِ وسترَ بهَا عورتَهُ، فجزاءُ هذا التقلُّلِ في اللِّباسِ ما وعدَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ [١٤٥/أ] بهِ السَّابقينَ أوَّلَ النَّاسِ، كما قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]، وقال في آخرِ الآيةِ: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞ﴾ [الإنسان: ٢١]، **والله أعلمُ بمَا أرادَ**[٥].

---

(١) في (ب): يدم.

(٢) في (أ): القلوب، والأصح المثبت. والقصد: يكون سببا في حياته، والشبع يميته ويظلمه؛ إذ البطنة تُميت الفطنة.

(٣) في (ب): الانتظار.

(٤) باعتبار ما يترتب عليه من حُلَل الجنة المُعَدَّة للصابرين.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٢٥ ـ ١٢٦.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُم:

[١٤] أَبُو زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ الوَاعِظ[٢]

نَسِيجُ[٣] وحدَهُ فِي وَقْتِهِ، لَهُ لِسَانٌ فِي الرَّجَاءِ خُصُوصًا، وكلامٌ فِي المَعْرِفَةِ.

خرَجَ إِلَىٰ (بَلْخ)، وأقامَ بِهَا مدَّةً، ورجعَ إِلَىٰ (نَيسابُور)، وَمَاتَ بِهَا سنة ثمانٍ وخمسينَ ومائتَينِ.

سمعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَينِ[٤] يَقُولُ: سمعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَد بْنِ حِمْدَان العُكْبَرِيَّ يَقُولُ: سمعْتُ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ السَّرِيّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عِيْسَىٰ يَقُولُ: سَمِعْتُ يَحْيَي يَقُولُ[٥]: كَيْفَ يَكُونُ زاهدًا مَنْ لَا وَرَعَ لَهُ؟!، تورَّعْ عَمَّا لَيْسَ لَكَ، ثُمَّ ازْهَدْ فِيمَا لَكَ.

وبهذَا الإسنادِ قَالَ[٦]: جُوعُ التَّوَّابِينَ تَجْرِبَةٌ، وَجُوعُ الزَّاهِدِينَ سِيَاسَةٌ، وَجُوعُ الصِّدِّيقِينَ تَكْرِمَةٌ».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٦٥.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٩٨، وحلية الأولياء ١٠/٥١، والفهرست ١/٢٦٠، ومناقب الأبرار ١/٢٧٠، ووفيات الأعيان ٦/١٦٥، وطبقات الأولياء ص٣٢١، والكامل في التاريخ ٦/٢٣٩، ومرآة الجنان ٤/٦٦، وسير أعلام النبلاء ١٣/١٥، والعبر ٢/٢٣، ومسالك الأبصار ٨/٨٠، والطبقات الكبرىٰ ١/١٤٨، والكواكب الدرية ١/٧٢٦.

(٣) في (أ، ج): شيخ. والقصد: لا نظير له في وقته، علمًا وعملا.

(٤) في (أ): الحسن.

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٠٠، ومناقب الأبرار ١/٢٧١، ومرآة الجنان ٢/١٧٠، ووفيات الأعيان ٦/١٦٥.

(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٠٠، ومناقب الأبرار ١/٢٧١، ووفيات الأعيان ٦/١٦٥.

* **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «**كيفَ يكونُ زاهدًا مَنْ لم يَكُنْ ورعًا ؟!**»، وذلكَ الورعُ إنَّمَا هوَ في الشُّبهَاتِ والمَكْرُوهَاتِ، فإذا لم يَهُنْ علىٰ نفْسِ الرَّجُلِ الإعراضُ عن ذلكَ، فكيفَ يُعْرِضُ عنِ الحلالِ الصِّرفِ الَّذي لا شيءَ فيهِ[(١)]، ولهذَا قالَ: «**تَوَرَّعْ عمَّا لَيسَ لكَ، ثُمَّ ازهَدْ فيمَا لَكَ**»، أيْ: تورَّعْ عمَّا ليسَ لكَ أَخْذُهُ شَرْعًا، ثُمَّ ازهدْ فيمَا لكَ أَخْذُهُ شَرْعًا.

وقولُهُ في الحكايةِ الثَّانيةِ[(٢)]: مدحُ الجُوعِ، وأَنَّ أَهْلَ كُلِّ مَقَامٍ يَنْتَفِعُونَ بهِ؛ وذلكَ أنَّ التَّقلُّلَ منَ الطَّعامِ والشَّرابِ يُجفِّفُ الأبدانَ ويُقلِّلُ المَنَامَ، وينهضُ القلبَ ويُحييهِ لِسُرعَةِ الفهْمِ للأحكامِ وخَواطِرِ الإلهَامِ، فالمريدُ يجوعُ ليجرِّبَ نفسَهُ، هل يصبرُ عنِ الطَّعامِ!، فإنَّهُ يعملُ في مخالفةِ العَادَةِ[(٣)].

والزَّاهدُ قد قلَّتْ رغبتُهُ في الدُّنيَا في الطَّعامِ وغيرِهِ، وإنَّمَا جوعُهُ سياسةٌ لنفسِهِ في بعضِ الأوقاتِ دونَ بعضٍ[(٤)]؛ لِصَلاحِ حَالِهِ فيما هوَ فيهِ، لا لتعوُّدِ الجُوعِ والصَّبرِ عنِ الطَّعامِ، فإنَّ نفسَهُ مُعْرِضَةٌ عنه بِزُهدِهَا.

وأمَّا جوعُ الصِّدِّيقينَ[(٥)]، فاللهُ ـ تعالىٰ ـ يشغلُهُم بذكرِهِ ومُنَاجَاتِهِ ودَوَامِ أُنْسِهِ، والتَّلذُّذِ بمَا هم فيهِ من قُرْبِه، فَشَغَلَهُمْ بهذِهِ الكَرَامَةِ عنِ الطَّعامِ، فَجُوعُهُم بِسَبَبِ هذا الإكرامِ يكونُ تَبَعًا وَتَشْرِيفًا لَهُم[(٦)] بينَ الأنامِ.

---

(١) إذِ الورع: ترك الشبهات، والزهد: ترك الحلال.

(٢) التي ذكر فيها أنواع الجوع.

(٣) يشير إلىٰ أن جوع التوابين تجربة لهم: هل يصبرون عن الطعام؛ لأن عملهم علىٰ خلاف العادة.

(٤) يشير إلىٰ أن جوع الزاهدين سياسةٌ: قيام علىٰ أنفسهم بما يصلحهم، لا بما يتعودون به الجوع.

(٥) أي: الواصلين إلىٰ مقام الصديقية، فجوعهم تكرمَةٌ من الله لهم، حيث شغلهم بذكره ومناجاته عن الطعام.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ يَحْيَي[(٢)]: الفَوتُ أَشَدُّ مِنَ المَوْتِ ؛ لِأَنَّ الفَوْتَ انقِطَاعٌ عَنِ الحَقِّ، وَالمَوْتَ انْقِطَاعٌ عَنِ الخَلْقِ[(٣)]».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [١/٤٥ب]: وهذا أمرٌ كلِّيٌّ جارٍ في سائرِ المطالبِ، وذلك أنَّ الموتَ أمرٌ معلومٌ، والعبدُ يَنْتَظِرُهُ ويتهيَّأُ لوقوعِهِ، وما كانَ كذلك خَفَّ أمرُهُ عندَ نُزُولِهِ.

وأمَّا ما تعلَّقَ القلبُ به ورجَا حُصُولَهُ، واجتهدَ في تحصيلِهِ، ثمَّ فاتَهُ، فألمُهُ عليه شديدٌ، فإنْ كان الفائتُ عظيمًا ويَفُوتُ بفواتِهِ خيرٌ كثيرٌ فالألمُ عليه أشدُّ، ولا أعظمَ منَ اللهِ ـ سبحانه ـ، فكلُّ الخيراتِ بيدِهِ.

فمَنْ أفرغَ جهدَهُ في دنياه، واشتغلَ بجميلِ تَقْوَاه، ودامَ ذِكْرُهُ لمولاه، ورجا نيلَ قُرْبِهِ منه ومنَاه، ففاتَهُ ذلكَ بسببٍ منَ الأسباب، أو حُجِبَ عنه بِحِجَاب، فألمُهُ أشدُّ الألمِ، وبلاؤُهُ أشدُّ البلاءِ، ولذلكَ قال بعضُهُم[(٤)]: «اللَّهُمَّ إنْ عذَّبْتَنِي بشيءٍ فلا تعذِّبْنِي بذُلِّ الحِجَابِ[(٥)]»[(٦)].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٧)]: «وَقَالَ يَحْيَي[(٨)]: الزُّهدُ ثلاثةُ أشياءَ: القِلَّةُ،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٦٥.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٠١، ومناقب الأبرار ١/٢٧٢، ووفيات الأعيان ٦/١٦٥، ومرآة الجنان ٤/٦٦. وورد بلا نسبة في: إغاثة اللهفان ١/٧٢.

(٣) في (ف): المخلوقين.

(٤) هو السّري السقطي، وقد مرَّ قوله.

(٥) وإنما كان الحجاب ذُلا ؛ لأن من ذاق معالي القرب، ثم حُرِم الوصول إليها كان في غاية الذلِّ. انظر: نتائج الأفكار ١/١٨٥.

(٦) أفاده بلفظ الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٢٧.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٦٥.

(٨) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٠٢، والزهد الكبير ١/٧٥، ومناقب الأبرار ١/٢٧٢، والكواكب الدرية ١/٧٢٩.

والخلوة[١]، والجوع».

قال الشارح رضي الله عنه[٢]: وهذه أدلة الزهد وعلاماته لا عينه، فإن من زهد في المال تقلل، ومن زهد في الطعام جاع.

وحقيقة الزهد: عزوف النفس عن الدنيا، وقلة الرغبة فيها، وما ذكره بعض الدنيا المزهود فيها؛ لأن الدنيا ليست محصورة في المال والطعام ومخالطة الخلق[٣].

قال الإمام رضي الله عنه[٤]: **«وقال يحيى[٥]: لا تربح على نفسك بشيء أجل من أن تشغلها في كل وقت بما هو أولى بها».**

قال الشارح رضي الله عنه: وهذا صحيح، فإن حياة العبد في الدنيا هي رأس ماله، وهي نفسه على التحقيق، فإن خسرها وردها في البطالات، فضلاً عن الشغل بالمحرمات، أولئك الذين خسروا أنفسهم، وإن شغلها بالخيرات، والتقرب إلى مالك الأرض والسماوات، فهو الرابح على نفسه في جميع الحالات.

وأجل ما يربح عليها ولها إذا شغلها في كل وقت بما هو الأولى بها والأفضل لها بعد القيام بالواجبات، ولذلك قيل[٦]: «الصوفي ابن وقته؛ لا التفات له إلى ماض ولا مستقبل»، فيه إشارة إلى عمارة وقته بما هو الأولى به، فإن اشتغل بما

---

(١) أي: العزلة بقصد العبادة.

(٢) سقط من هنا في (ب) مقدار لوحة، استمر إلى قوله الآتي: «وفي أول كلامه رضي الله عنه ما يدل على غلبة السوابق».

(٣) أفاده بلفظ الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٢٧.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٦٣.

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٠٣، وذم الهوى ص٥٠، ومناقب الأبرار ١/٢٧٣.

(٦) ورد في: شرح منازل السائرين للمؤلف ص٦٠. ونُسب جزء منه ـ وهو: الصوفي ابن وقته ـ لأبي الوقت بن أبي عبد الله السجزي في: تاريخ الإسلام ١١٣/٣٨، وسير أعلام النبلاء ٢٠٣٠٦.

مَضَىٰ منْ وقتِهِ وَدَّرَ[(١)] ما هو فيهِ، والوقتَ الآتِي[(٢)] لَا يَدْرِي حَالهُ كَيْف هو فيهِ![(٣)].

❁ قَالَ الإِمَـامُ -رحمةُ اللهِ عليه-[(٤)]: «وقيلَ: إِنَّ يَحْيَي بْنَ مُعَاذٍ تكَلَّمَ بِـ(بَلْخ) فِي تفضيلِ الغِنَىٰ عَلَىٰ الفقْرِ، فأُعطِيَ ثلاثين أَلْف دِرهَمٍ، فَقَالَ بَعْضُ المشايخ: لا بارَكَ اللهُ لَهُ فِي هَذَا المالِ، فخرَجَ إِلَىٰ (نيسابور)، ووقَعَ عَلَيْهِ [١٤٦/١أ] اللِّصُّ، وَأَخَذَ ذَلِكَ المَالَ[(٥)]».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ وُرُودُهَا: إمَّا لاستجابةِ دعاءِ الدَّاعي عليهِ، أو لبيانِ فضيلتِهِ في نفسِهِ.

فإنْ كانَ المقصودُ منها أنَّ الفقرَ أفضلُ منَ الغنىٰ، فَلِمَا رجَّحَ يحيىٰ بن معاذٍ الغِنَىٰ عليهِ، وهي مسألةُ خلافٍ، وسببُ الخلافِ فيها النَّظرُ إلىٰ الأعمالِ المتعدِّيَةِ والقاصرةِ علىٰ فاعلِهَا، والغفلةُ عن فَوائدِ القلوبِ وعِمَارتِهَا، وفَراغهَا لِمُنَاجَاةِ عَلَّامِ الغُيُوبِ.

فمَنْ نظرَ إلىٰ هذه المعاني الشَّريفةِ، وأنَّ المقصودَ منَ العبدِ قلبُهُ، رجَّحَ الفقرَ للخلاصِ عن المُشْغِلاتِ، ومَنْ نظرَ إلىٰ الأعمالِ المتعدِّيةِ للخلقِ وما يحصلُ من فَوائِدِ المَالِ بالصِّلاتِ والصَّدقاتِ وصُنُوفِ الطَّاعاتِ رجَّحَ الغِنَىٰ علىٰ الفقرِ.

وهذا إنَّمَا يصلحُ معَ سَلامةِ القلوبِ في الجانبَينِ وعمارتِهَا بمراقبةِ اللهِ -تعالىٰ- في الأفعال، والنَّظرِ إليه في كلِّ حال، وهذا بعيدٌ في العاداتِ لأربابِ الأموال، وإنَّمَا

(١) أي: ضيَّع. وفي المحكم واللسان «ودر»: «وَدَّر الرجلَ تَوْدِيرًا: أَوقعه فِي مَهْلَكَةٍ».

(٢) أي: المستقبل.

(٣) انظر: الفصل في الملل ١٨/٥، وعدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص١٥٢، والآداب الشرعية ٤٦٩/٣، والمفاضلة بين الغني الشاكر والفقير الصابر للبيركلي.

(٤) الرسالة القشيرية ٦٥/١.

(٥) ليُعلم أن التجرد هو المختار له.

ينالُهُ الخواصُّ منَ الرِّجال ، ولذلكَ قالَ فُقَراءُ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١]: «سبقَنَا أهلُ الدُّثورِ بالأجورِ» ، فأمرَهُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالذِّكْرِ ، فقالَ ذلك أهلُ السَّعةِ وشاركوهُم فيمَا أمرَهُمُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهِ ، فأخبرُوا النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلكَ ، فقالَ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤] ، وذلكَ لتساويهِمْ في كَمالِ القلوبِ ، وأَنْوَارِ النُّبُوَّةِ ، والإعراضِ عنِ الدُّنيَا ، وبذْلِ نُفُوسِهِمْ ، فضلًا عَن أموالِهِم للهِ ، وزادُوا زيادةً على الفُقَراءِ ، والغالبُ في أكثرِ الأَزْمِنَةِ خِلافُ ذلكَ ، ولم يزَلْ كلُّ مَنْ تفرَّغَ للعبَادَةِ واشتغلَ باللهِ ـ تعالىٰ ـ أعرضَ عن الفُضُولِ لينالَ بعضَ المَأمُولِ .

ومقصودُ هذِهِ الحكايةِ إنْ كانَتْ فضيلةً ليحيَىٰ ؛ لأنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ ردَّهُ إلى الفَقْرِ ، ولم يجعلْ في يدِهِ شيئًا منَ الدُّنيَا ، ويحصلُ الجمعُ بينها وبينَ الدَّاعِي عليه ؛ لأَنَّهُ رجَّحَ الفقرَ وتألَّمَ على تَرْجِيحِهِ الغِنَىٰ ، ولذلكَ دَعَا فَرَدَّ اللهُ يحيَىٰ إلىٰ الفقرِ لُطْفًا بهِ ورَحْمَةً[٢] .

هذا مَا يمكنُ التَّوجيهُ لهذِهِ الحكايةِ ، وإلَّا فترْكُهَا أَوْلَى .

قَالَ الإمَـامُ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ[٣]: «**أخبرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ الأَصْبَهَانِيُّ قَالَ: أخبرَنَا أَبُو القاسم عَبْدُ اللهِ بْنُ الحُسَيْنِ بْنِ بالَوَيْهِ الصُّوفِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ** [١/٤٦ب] **عَلَوِيَّهِ يَقُولُ: سمِعْتُ يَحْيَي بْنَ معاذٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ**[٤]: **مَنْ خَانَ اللهَ فِي السِّرِّ ، هَتَكَ اللهُ سِتْرَهُ فِي العَلَانِيَةِ**[٥] .

سمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ يُوسُفَ يَقُولُ: سمِعْتُ أبا الحُسَيْنِ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في صحيحه ٤١٦/١ ـ حديث رقم (٥٩٥).

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٢٨/١.

(٣) الرسالة القشيرية ٦٥/١ ـ ٦٦.

(٤) ورد قوله في: شعب الإيمان ٣٦٩/٥ ، ومناقب الأبرار ٢٧٣/١ ، ووفيات الأعيان ١٦٥/٦.

(٥) أي: فضحه علىٰ رؤوس الأشهاد في الأخرىٰ.

المُؤَذِّنَ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ مُحَمَّدٍ الجُرْجَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ مُعَاذٍ [الرازي][١] يَقُولُ[٢]: تَزْكِيَةُ الأَشْرَارِ هُجْنَةٌ بِكَ[٣]، وَحُبُّهُمْ لَكَ عَيْبٌ عَلَيكَ، وَهَانَ عَلَيكَ مَنِ احْتَاجَ إِلَيكَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُهُ: «**مَنْ خَانَ اللهَ فِي السِّرِّ**» فَخِيَانَةُ اللهِ - تعالىٰ - في السِّرِّ في مُعَامَلَتِهِ، وذلِكَ إمَّا مُرائِي أو مُتَزَيِّنٌ بمَا لم يَنَلْ؛ وهوَ المُدَّعِي، وكلاهُمَا مُتَكلِّفٌ، والغالبُ على كلِّ مُتَكلِّفٍ الانقطاعُ، فإنَّ الحَوَامِلَ في قَلْبِهِ ضَعِيفَةٌ، والعَوْنُ منَ اللهِ - تعالىٰ - مِنْهُ بعيدٌ، فينكشفُ حَالُهُ، ويظهرُ لا محالَةَ في العَلانيَةِ.

وأمَّا قولُهُ: «**تَزْكِيَةُ الأَشْرَارِ هُجنةٌ بكَ، ومحبَّتُهُمْ لكَ عارٌ عليكَ**»، وذلكَ أنَّ الأشرارَ منَ النَّاسِ لَيْسُوا بأهلِ خيرٍ وَصَلاحٍ، هُم أربابُ أَهْوِيَةٍ، وأغراضٍ دُنْيَوِيَّةٍ، والغالبُ أنَّ شُكْرَهُمْ ومحبَّتَهُمْ إنَّمَا يكونُ لِمَنْ يوافقُهُمْ ويُسَاعِدُهُمْ علىٰ ما هُمْ عليهِ، فحينئذٍ يحبُّونَهُ، وإلَّا لَوْ نَصَحَهُمْ وأنكرَ عليهِمْ لأبعدُوهُ وكَرِهُوهُ، فَمَحَبَّتُهُمْ وتَزْكِيَتُهُمْ لَهُ[٤] دليلٌ علىٰ تَرْكِ الإنكارِ وقِلَّةِ النُّصْحِ لَهُم، فبهذا كانَ هُجْنَةً ونَقْصًا رَاجِعًا إليهِ.

وأمَّا قولُهُ: «**مَنِ احْتَجْتَ إِلَيْهِ هُنْتَ عَلَيْهِ**» فهوَ تنبيهٌ علىٰ أنَّ عدمَ الزُّهدِ والاحتياجَ إلىٰ الخلقِ يُؤدِّي إلىٰ هَوَانِكَ، بخلافِ حاجتِكَ وسُؤالِكَ مِنَ اللهِ، الَّذِي لا يَملُّهُ السَّائلُونَ، وهذَا هوَ الغالبُ أنَّ مَنِ احْتَجْتَ إليهِ هُنْتَ عليهِ، إلَّا الَّذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ، الَّذينَ إذَا احتجْتَ إليهِمْ سَاعدُوكَ بأنفُسِهم وأموالِهِم، ودَعَوا اللهَ - تعالىٰ - لكَ أنْ يُمدَّكَ بعوْنِهِ ويُغْنِيكَ عنهُم، وقليلٌ مَا هُمْ[٥].

---

(١) زيادة من (ف).

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٢٧٤.

(٣) أي: قبحٌ ونقصٌ بك.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ج).

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٢٩.

قَالَ الإِمَامُ - رحمةُ اللهِ عليهِ -[(١)]:

«وَمِنْهُمْ:

[١٥] أَبُو حَامِدٍ أَحْمَدُ بْنُ خِضْرَوَيْهِ البَلْخِيُّ[(٢)]

مِنْ كِبَارِ مَشَايِخِ (خُرَاسَان)، صَحِبَ أَبَا تُرَابٍ النَّخْشَبِيَّ.

قَدِمَ (نيسابورَ)، وزارَ[(٣)] أبا حفْصٍ[(٤)]، وخرَجَ إِلَىٰ (بسطَامٍ) فِي زيارةِ أبي يَزِيدَ البسطامِيِّ، وَكَانَ كبيرًا فِي الفتوَّةِ[(٥)].

وَقَالَ أَبُو حفصٍ[(٦)]: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْبَرَ هِمَّةً وَلَا أَصْدَقَ حَالًا مِنْ أَحْمَدَ بْنِ خِضْرَوَيْهِ.

وَكَانَ أَبُو يَزِيدَ يَقُولُ: أستاذُنَا أَحْمَدُ[(٧)].

سمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: سمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ [١/٤٧أ]: سمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ حَامِدٍ[(٨)] يَقُولُ[(٩)]: كنتُ جالسًا عِنْدَ أَحْمَدَ بْنِ خِضْرَوَيْهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٦٧.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٩٥، وحلية الأولياء ١٠/٤٢، ومناقب الأبرار ١/٢٨٩، والمنتظم ١١/٢٧٥، وصفة الصفوة ٤/١٦٣، والوافي بالوفيات ٦/٢٣١، وتاريخ الإسلام ١٧/٢٩، وسير أعلام النبلاء ١١/٤٨٧، وطبقات الأولياء ص٣٧، والطبقات الكبرىٰ ١/١٤٩، والكواكب الدرية ١/٥٣٢.

(٣) في (ج): فزار.

(٤) أي: عمر بن سلم الحداد، الآتي ترجمته فيما بعد.

(٥) أي: قوة البذل للمال والجاه والعلم علىٰ حسب إذن الشرع.

(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٩٥، ومناقب الأبرار ١/٢٨٩.

(٧) تبجيلا وتعظيما له.

(٨) في (ج): حاتم.

(٩) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٤٢، والمنتظم ١١/٢٧٥، وصفة الصفوة ٤/١٦٤، والثبات=

وهُوَ فِي النَّزْعِ، وَكَانَ قَدْ أتىٰ عَلَيْهِ خمسٌ وتسعونَ سنةً، فسألَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ عَن مسألةٍ، فدمعَتْ عيناهُ، وَقَالَ: يا بُنَيَّ، بَابٌ كنتُ أَدُقُّهُ مُنْذُ خمسٍ وتسعينَ سنةً، هُوَ ذا يُفْتَحُ لِيَ السَّاعةَ، لا أدرِي أبالسَّعادةِ يُفْتَحُ أمْ بالشَّقاوةِ؟، أَنَّىٰ[١] لِي أَوَانُ الجَوَابِ؟!

قَالَ[٢]: وَكَانَ عَلَيْهِ سبع مائةُ دِينَارٍ، وغُرَمَاؤُهُ عِنْدَهُ، فنظرَ إليهِمْ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ جَعَلْتَ الرُّهُونَ وثيقةً لِأَرْبَابِ الأَمْوَالِ، وأنْتَ تأخذُ عَنْهُم وثيقَتَهُمْ، فَأَدِّ عَنِّي، قَالَ: فَدَقَّ دَاقٌّ البَابَ، فَقَالَ: أَيْنَ غُرَمَاءُ أَحْمَدَ؟ فقضىٰ عَنْهُ، ثُمَّ خَرَجَتْ رُوحُهُ.

وَمَاتَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنةَ أربعينَ[٣] ومائتَينِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ففي أوَّلِ كلامِهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ما يدلُّ علىٰ غلبَةِ السَّوابقِ علىٰ قَلْبِهِ؛ وهيَ الخَواتِمُ، وذلكَ أنَّهُ في حَالِ النَّزْعِ مشغولٌ باللهِ ـ تعالىٰ ـ، وذِكْرُهُ كَمَالُ الشُّغْلِ، واستشعارُهُ فراقَ الدُّنيا وانقطاعَ العَمَلِ، فلمَّا سألَهُ سَائلٌ عن مسألةٍ أرادَ أنْ يؤدِّبَهُ بلُطْفٍ، وقالَ: يَا ولَدِي، بابٌ لِي اليومَ أدُقُّهُ خمسًا وتسعينَ سنةً، يعنِي: عبادَتَهُ لربِّهِ واشتغالَهُ بِهِ رجاءَ قُرْبِهِ والبُعْدِ مِنْ سَخَطِهِ وحجبِهِ، هوَ ذا مفتَّحٌ لِيَ الآنَ، لا أدرِي إلىٰ جنةٍ أو إلىٰ نارٍ، فأنَّىٰ لي والجوابَ في مِثْلِ هذهِ الحَال.

ولهذا أمرَ [اللهُ][٤] النَّاسَ إذا لقَّنُوا المَيِّتَ ذِكْرَ اللهِ لا يلحُّوا عليهِ بالتَّكرارِ، فإنَّهُ قد يكونُ في شغْلٍ تامٍّ بالخَيْرِ، فيشوشونَ عليهِ حالَهُ معَ ربِّهِ، وإنَّمَا الأحسنُ أنْ

= عند الممات ص١٧٠، والعاقبة في ذكر الموت ص١٣٨.

(١) أي: من أين؟

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ٤٢/١٠، والمنتظم ٢٧٦/١١، وصفة الصفوة ١٦٤/٤.

(٣) في النسخ: أربع، والتصويب من الرسالة القشيرية، ومظان ترجمته السابقة.

(٤) زيادة من (ب).

يُقالَ لهُ كلمةٌ بعدَ كلمةٍ؛ لاحتمالِ[١] غَفْلَتِهِ.

وأمَّا آخرُ الحكايةِ: وهوَ أنَّ كثْرَةَ الدَّيْنِ الَّذِي كانَ عليهِ، فالظَّاهرُ من حالِهِ إنَّما كانَ يتديَّنُ للإنفاقِ علىٰ الفقراءِ وأهْلِ الخيرِ وجِهَةِ البِرِّ، وكان أربابُ الدُّيونِ يعلمُونَ حالَهُ، وأنَّهُ إذا فُتِحَ عليهِ بشيءٍ قضَاهُ، وكانُوا واثِقِينَ بوجودِهِ وحياتِهِ، فلمَّا حضرُوا عندَ موتِهِ ورآهُمْ ذَكَرَ دَيْنَهُمْ، وأنَّ نفوسَهُمْ إنَّمَا كانَتْ تطِيبُ بسببِ حياتِهِ، فناجَىٰ ربَّهُ، فقالَ: يا ربِّ، أنتَ تعلمُ أنَّ الرُّهونَ وثائقٌ لأربابِ الأموالِ، تطيبُ أنفُسُهُمْ بوجودِ رَهْنِهِمْ، وأنتَ تأخذُ الرَّهنَ، فاقْضِ عنِّي الدَّينَ، يعنِي نفسَهُ، فعلمَ اللهُ صِدْقَهُ، فاستجابَ دُعَاءَهُ، ويسَّرَ محبًّا للخيرِ كانَ ذا ثروةٍ، وعلِمَ حالَهُ، فقضَىٰ غُرَمَاءَهُ.

ويحتملُ أنْ يأتيَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بِوَلِيٍّ، أو مَلكٍ، أو جِنِّي فِي صُورَةِ آدميٍّ فيقضِي عنهُ[٢]، كلُّ ذلِكَ جائزٌ [١/٤٧ب].

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ خِضْرَوَيْهِ[٤]: لَا نَوْمَ أَثْقَلُ مِنَ الغَفْلَةِ، وَلَا رِقَّ أَملكُ مِنَ الشَّهْوَةِ، وَلَوْلَا ثِقَلُ الغفْلَةِ عَلَيكَ لَمَا ظَفرَتْ بِكَ الشَّهْوَةُ».**

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا كلامٌ صحيحٌ، وذلكَ أنَّ النَّومَ غَايتُهُ أنْ يقطعَ عن أسبابٍ دنيويَّةٍ، وربَّمَا قطعَ عن بعضِ الأسبابِ الأخرويَّةِ، والغفلةُ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ والدَّارِ الآخرةِ أعظمُ من كلِّ نومٍ وأثقلُ، والنَّائمُ حِسًّا إذا نُبِّهَ انتبهَ سَرِيعًا، والنَّائمُ غفلةً[٥] عنِ الخيرِ وقِلَّة الرَّغبةِ فيهِ، يُنبَّهُ مرارًا ولا يستيقظُ.

---

(١) في (ب): لاحتماله، والصواب المثبت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣١.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٦٧.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٩٧، ومناقب الأبرار ١/٢٩١، وصفة الصفوة ٤/١٦٤، وذم الهوىٰ ص٢٩.

(٥) أي: نَومًا بمعنىٰ الغفلة.

وكذلِكَ «لا رِقَّ أملكُ منَ الشَّهوةِ»؛ لأنَّ مَنْ ملكَهُ هَوَاهُ عَمِيَ عن عمَلِ أُخْرَاهُ، ولذلِكَ قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وعَبْدُ القَطِيفَةِ، وعَبْدُ الخَمِيصَةِ»، وجعلَهُ عبدًا لهذِهِ الأشياءِ؛ لامْتِلَاءِ قَلْبِهِ بِمَحبَّتِهَا واستسخَارِهِ[(٢)] في تَحْصِيْلِهَا وحِفْظِهَا، وهذا هو معنَى الاستعبادِ والاستسخَارِ.

وقولُهُ: «وَلَوْلَا ثِقَلُ الغَفْلَةِ لَمَا ظَفِرَتْ بِكَ الشَّهْوَةُ[(٣)]»، وهوَ صحيحٌ؛ لأنَّ العبدَ لو كانَ متيقِّظًا عندَ حُضُورِ[(٤)] خَوَاطِرِهِ وَدَوَاعِي نفسِهِ لأفعالِهِ، وفرَّقَ بينَ المَذْمُومِ منهَا والمَحْمُودِ لَسَلِمَ من شَهَوَاتِه، واشتغلَ بقُرْبِهِ وطاعاتِه[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١٠٥٧ ـ حديث رقم (٢٧٣٠).
و(الخميصة): ثوب خز أو ثوب صوف معلم. والقطيفة: كساء له خمل، وهو المهذب، و(عبد القطيفة): الذي يعمل لها ويهتم بتحصيلها. انظر: الكاشف عن حقائق السنن ١٠/٣٢٧٤، ٤/١٤٠٦، ومرقاة المفاتيح ٤/١٥٣.

(٢) في (ج): واستصخاره، والصواب المثبت.

(٣) لأن قوة الشهوة من تزايد الغفلة.

(٤) في (ب): حظور، وفي (ج): خطور، والأصح المثبت.

(٥) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣١.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُمْ:

[١٦] أَبُو الحَسَنِ أَحْمَـدُ بْنُ أَبِي الحَوَارِيّ[(٢)]

مِنْ أَهْلِ دِمَشْقٍ، صَحِبَ أبا سُلَيْمانَ الدَّارانِيَّ وغيرَهُ.

مَاتَ سنةَ ثلاثينَ ومائتَينِ[(٣)].

وَكَانَ الجنيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[(٤)]: أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الحَوَارِيِّ رَيْحَانَةُ الشَّامِ.

سمِعْتُ الشَّيخَ أبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ: سمِعْتُ أبا أَحْمَدَ الحافظَ يَقُولُ: سمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ الحلبِيَّ يَقُولُ: سمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي الحَوَارِيِّ يَقُولُ[(٥)]: مَنْ نَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا نَظَرَ إِرَادَةٍ وَحُبٍّ لَهَا، أَخْرَجَ اللهُ نُورَ اليَقِينِ وَالزُّهْدِ مِنْ قَلْبِهِ[(٦)].

وَبِهَذَا الإِسْنَادِ يَقُولُ[(٧)]: مَنْ عَمِلَ عملًا[(٨)] بلا اتِّبَاعِ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٦٨/١.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٩١، وحلية الأولياء ٥/١٠، ومناقب الأبرار ٢٩٣/١، وصفة الصفوة ٢٣٧/٤، والمنتظم ١٥٤/١١، وبستان العارفين ص١٧٢، والبداية والنهاية ٣٤٨/١٠، وسير أعلام النبلاء ٨٥/١٢، ومسالك الأبصار ٦١/٨، وطبقات الأولياء ص٣١، والمقصد الأرشد ٩٠/١، والطبقات الكبرىٰ ١٥/١، والكواكب الدرية ٥٣٤/١.

(٣) قال ابن الملقن: «الصواب سنة أربعين، كما نبه عليه ابن عساكر عن اثنتين وثمانين سنة» طبقات الأولياء ص٣١. وفي مرآة الجنان ١٥٣/٢: إنه توفي سنة ست وأربعين ومائتين.

(٤) ورد قوله في: طبقات الحنابلة لأبي يعلىٰ ٧٨/١، ومناقب الأبرار ٢٩٣/١، وتهذيب الكمال ٣٧٣/١، وتاريخ الإسلام ٥٣/١٨، والمقصد الأرشد ٩٠/١، ومرآة الجنان ١٥٤/٢.

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٩٢، وحلية الأولياء ٦/١٠، والزهد الكبير ص١٣٤، ومناقب الأبرار ٢٩٤/١، وبغية الطلب ٩٥٥/٢.

(٦) أي: ونور الزهد من قلبه، عطفًا علىٰ ما قبله.

(٧) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٩٢، ومناقب الأبرار ٢٩٤/١، وسير أعلام النبلاء ٨٨/١٢.

(٨) سقط هذا اللفظ من (ب).

فباطلٌ عَمَلُهُ.

وبهذَا الإسنادِ قَالَ أَحْمَدُ[١]: أَفْضَلُ البُكَاءِ: بُكَاءُ العَبْدِ عَلَىٰ مَا فَاتَهُ مِنْ أَوْقَاتِهِ عَلَىٰ غَيْرِ مُوَافَقَةٍ.

وَقَالَ أَحْمَدُ[٢]: مَا ابْتَلَىٰ اللهُ عَبْدًا بِشَيءٍ أَشَدَّ مِنَ الغَفْلَةِ وَالقَسْوَةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «مَنْ نَظَرَ إِلَىٰ الدُّنيَا نَظَرَ إرادَةٍ وحُبٍّ للدُّنيَا أخرَجَ اللهُ نورَ اليقينِ والزُّهدِ من قلبِهِ» يعنِي في حالةِ نَظرِهِ، وذلكَ أنَّ يقينَ العبْدِ تحقرُ بهِ الدُّنيَا، ونقصُهَا عندَ خالِقِهَا، ومعرفتُهُ بطلَبِ الزُّهدِ فيها مضادٌّ [١/١٤٨أ] لإرادتِهَا ومحبَّتِهَا[٣]، ومتىٰ أحبَّهَا العبدُ لاستحسانِهَا عندَهُ ورغبَ في تحصيلِهَا، غفلَ عن حقريَّتِهَا عندَ ربِّهِ وتزهيدِهِ فيهَا.

وهذا معنىٰ خروجِهَا من قلبِهِ؛ لا أنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ يعاقبُهُ بهذِهِ الإرادةِ والمحبَّةِ علىٰ أنْ لا ينالَ الزُّهدَ ولا اليقينَ أبدًا.

وقولُهُ: «مَنْ عَمِلَ بلَا اتِّباعِ سُنَّةٍ فَبَاطِلٌ عمَلُهُ» يعنِي: أخلَّ بشروطِ العملِ وأركانِهِ الَّتِي هي شروطُ صحَّتِهِ، فيكونُ العملُ باطلًا من أصلِهِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ إنَّمَا أرادَ بُطْلانَ ثَوَابِ فضائِلِهِ وكَمَالِهِ، فإنَّ مَنْ عملَهُ وأتىٰ بشروطِ صحَّتِهِ، وأخلَّ بفضائِلِهِ الَّتِي سنَّهَا الشَّرعُ فيهِ فقد بطلَ عليهِ ثوابُ هذِهِ الزِّياداتِ المَسْنُونَةِ، خاصَّةً معَ صحَّةِ عَمَلِهِ[٤].

---

(١) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٩٢، وشعب الإيمان ١/٥٠٩، ومناقب الأبرار ١/٢٩٤، وتهذيب الكمال ١/٣٧٤، وتتمة قوله فيها: «أو بكاءُ علىٰ ما سبقَ له من المخالفة».

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٩٣، وتهذيب الكمال ١/٣٧٤، وبغية الطلب ٢/٩٥٥، ومرآة الجنان ٢/١٥٤.

(٣) القصد: أن بين إرادتها وحبها، وبين يقين حقارتها ونقصها عند خالقها والزهد فيها تضادًا.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣٢.

وأمَّا قولُهُ: «**أَفْضَلُ البكاءِ: بكاءُ العبدِ علىٰ ما فاتَهُ منْ أوقاتِهِ علىٰ غيرِ موافقةٍ**»، قلنَا: البكاءُ متنوِّعٌ، وهوَ علىٰ أقسامٍ، ـ وإنْ كانَ كلُّهُ فاضلًا إذا كانَ لله ـ:

فقدْ يبكِي العبدُ علىٰ وقوعِهِ في المَعَاصِي؛ لإخلالِهِ بالواجِبَاتِ وارتكَابِ المُحَرَّمَاتِ.

وقدْ يبكِي علىٰ غلبَةِ نفسِهِ إيَّاهُ علىٰ التَّوبةِ عنهَا بعدَ الوقوعِ.

وقدْ يبكِي علىٰ ارتكابِ المَكْرُوهاتِ، أو الكَسَلِ عنِ المندوباتِ.

وقدْ يبكِي علىٰ تقصيرِهِ عن أرفعِ الطَّاعاتِ، ونيلِ المقاماتِ العالياتِ، فِي قلبِهِ وجوارحِهِ في عمومِ السَّاعاتِ.

وقَدْ يبكِي علىٰ طُرُوقِ الغفلَاتِ[1]، في كثيرٍ منَ الأوقاتِ.

وقد يبكِي علىٰ عدمِ التَّلذُّذِ بالمُنَاجاة، والحُضُورِ بقلبِهِ في الدَّعوَاتِ.

وما ذكرَهُ من قولِهِ: «**علَىٰ مَا فاتَهُ منْ أوقاتِهِ علىٰ غيرِ الموافقاتِ**» يجرِي علىٰ كلِّ قسمٍ من هذِهِ الأقسامِ المذكورات، علىٰ حَسَبِ الدَّرجاتِ والمَقَامَات[2].

وقولُهُ: «**مَا ابْتَلَىٰ اللهُ عَبْدًا بِشَيْءٍ أَشَدَّ مِنَ الغَفْلَةِ وَالقَسْوَةِ**» صحيحٌ؛ فإنَّ القسوةَ تمنعُ منْ قَبُولِ التَّنبيهاتِ وسَمَاعِ واعظِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ في قلبِ كلِّ مسلمٍ علىٰ ما وردَ فِي الأخبارِ الواضحاتِ، وإنَّمَا تقسُو القُلُوبُ[3] بتوالِي المخالفاتِ[4] والتَّلذُّذِ بالشَّهواتِ، وعنْ ذلكَ تكونُ الغفَلَاتُ[5]، فروحُ هذِهِ

(١) القاطع لدوام المراقبات.

(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣٢.

(٣) في (ب): القلب.

(٤) التي هي سبب الحجاب والانقطاع.

(٥) سقط من هنا في (ب) إلىٰ قوله: «وتتأنس النفس».

البليَّاتِ الاشتغالُ بالشَّهواتِ المحرَّمَاتِ والمكروهاتِ، وغيرِهَا منَ المُشْغِلَات، يكونُ عنها الغَفَلات[(١)]، وتتأنَّسُ النَّفسُ بذلكَ فيقسُو القلبُ ويصلبُ عن سَمَاعِ المواعظِ والمذكِّراتِ.

وهذا البلاءُ هوَ الَّذي يُفَوِّتُ خَيراتِ الآخرةِ، ويُثْمِرُ فِي القلبِ سائِرَ الحَسراتِ والنَّداماتِ، بخلافِ بلايا الدُّنيَا، فإنَّهَا لا [١/٤٨ب] تخلُو من أجورٍ[(٢)] وإنْ كانَتْ فيها مَشقَّات، فبهذا الاعتبارِ كانَتِ القسوةُ والغَفْلَةُ أعظمَ البَلِيَّات.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣٢.

(٢) إن صحبها الصبر وعدم الشكوى.

❁ قَالَ الإمَامُ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ[(١)]:

«وَمِنْهُمْ:

[١٧] أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ بْنُ سَلَمَةَ[(٢)] الحَدَّادُ[(٣)]

من قريةٍ يقالُ لَهَا: (كُورَدَابَاذ)[(٤)] عَلَىٰ بَابِ مدينةِ (نيسَابور) عَلَىٰ طريقِ (بُخَارىٰ)، أحدُ الأئمَّةِ والسَّادةِ.

مَاتَ سنةَ نيِّفٍ وستِّينَ ومائتَينِ[(٥)].

قَالَ أَبُو حفصٍ[(٦)]: المَعَاصِي بَرِيدُ الكُفْرِ[(٧)]، كَمَا أَنَّ الحُمَّىٰ بَرِيدُ الْمَوْتِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وكلامُهُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيهِ تحريضٌ علَىٰ تَرْكِ المَعَاصِي والبُعْدِ عنهَا، والاشتغالِ بالطَّاعاتِ، ودوامِ الذِّكْرِ للهِ ـ تعالىٰ ـ، فإنَّ العبدَ إذَا اشتغلَ بذلِكَ تَجَدَّدَ إيمانُهُ، وقَوِيَ يَقِيْنُهُ، وعاشَ قلبُهُ مِنْ مَوْتِ الغَفْلَةِ، وإذَا توالَتْ عليهِ المَعَاصِي وَدَامَ عليها تعَلَّقَ قَلْبُهُ بمَا عَسُرَتْ عليهِ المُفَارَقَةُ، وقلَّ سَمَاعُهُ[(٨)] للمواعظِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٦٩.

(٢) في النسخ: سهل، وفي (ف): سالم، والتصويب من الرسالة القشيرية، ومظان ترجمته.

(٣) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٠٣، وحلية الأولياء ١٠/٢٢٩، ومناقب الأبرار ١/٣٠١، ومرآة الجنان ٢/١٧٩، ومسالك الأبصار ٨/٨٨، وتاريخ الإسلام ٢٠/١٤٢، وسير أعلام النبلاء ١٢/٥١٠، وطبقات الأولياء ص٢٤٨، والطبقات الكبرىٰ ١/١٥٠، وشذرات الذهب ٢/١٥٠، والكواكب الدرية ١/٦٨٥.

(٤) في (أ): كورة أباد، وفي (ف): كوز أباد.

(٥) في سير أعلام النبلاء ١٢/٥١٣: «توفي الأستاذ أبو حفص سنة أربع وستين ومائتين، وقيل: سنة خمس». وقال في تاريخ الإسلام ٢٠/١٤٥: «ووهم من قال: سنة سبعين ومائتين».

(٦) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٢٩، وطبقات الصوفية ص١٠٤، وشعب الإيمان ٥/٤٤٧، وسير أعلام النبلاء ١٢/٥١٠.

(٧) قال النووي: «أي: تسوقُ إليه» شرح صحيح مسلم ١١/٢٩.

(٨) في (ج): تدبره، وكل صواب.

والزَّواجرِ لِقَسْوَةِ قَلْبِهِ، وصارَ أَنِيسًا للشَّيطانِ، ومُوافقًا[١] لهُ، ومِن حِزْبِهِ، فإذا جاءَ وقتُ خُرُوجِ الرُّوحِ اشتدَّ كَيْدُ الشَّيطَانِ ـ لعَنَهُ اللهُ ـ علىٰ خُرُوجِ روحِ الإنسانِ علىٰ غيرِ الإيمانِ ـ والعياذُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ ـ.

وإذا كانَ العبدُ في حالِ صحَّتِهِ وعقلِهِ والشَّيطانُ يلعبُ بهِ، فكيفَ إذا تَوالَتْ أَوْجَاعُهُ!، وكثُرَتْ هُمُومُهُ، واشتغلَ عقلُهُ الحارسُ لِهَوَاهُ بمَا هو فيهِ، وخُشِيَ عليهِ مُوافَقَةُ الشَّيطانِ، فيما يدعُوهُ إليه منَ الكُفْرِ بالرَّحمنِ ـ والعياذُ باللهِ المنَّانِ ـ.

فبهذا الاعتبارِ كانَتِ المَعَاصِي بَرِيدَ الكفرِ؛ أيْ: رُسُلهُ ومقدِّماته، كما أنَّ توالي الأمراضِ والحماياتِ بريدُ المَوتِ[٢].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ أَبُو حفصٍ**[٤]: **إِذَا رَأَيْتَ المُرِيدَ يُحِبُّ السَّمَاعَ**[٥] **فَاعْلَمْ أَنَّ فِيهِ بَقِيَّةً مِنَ البَطَالَةِ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ العبدَ لو كَمُلَ شُغْلُهُ باللهِ ـ تعالىٰ ـ، ودوامِ ذكْرِهِ، وترتيبِ أورادِهِ، وعمارةِ أوقاتِهِ، رَزَقَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ فيه منَ اللَّذَّةِ والحُضُورِ والأُنْسِ بِمُنَاجَاتِهِ ما يَسْتَغْنِي بهِ عن المُحَرِّكَاتِ، فإنَّ الغالبَ منَ السَّماعِ إذا أُخِذَ علىٰ وَجْهِهِ وسَلِمَ منَ الآفاتِ والمُنْكَراتِ تَحرِيكُ القُلُوبِ لِتَنْشَطَ للطَّاعاتِ، ومتىٰ احتاجَ العبدُ في عِمَارةِ أوقاتِهِ وشغلِهِ بربِّهِ إلىٰ المُحرِّكاتِ كانَ فيهِ بقيَّةٌ منَ البَطَالةِ[٦].

---

(١) في (ج): ومواليا.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣٣.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٦٩.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٣٠٧، وتاريخ الإسلام ٢٦/٩١، وطبقات الأولياء ص٢٤٩، ونسب للجنيد في: الاعتصام للشاطبي ٢/٢٨٢.

(٥) بغير شاهد من الكتاب والسنة. انظر: نتائج الأفكار ١/١٩٦.

(٦) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣٣.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ[(٢)]: حُسْنُ أَدَبِ الظَّاهِرِ عُنْوَانُ حُسْنِ أَدَبِ البَاطِنِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [١٤٩/١أ]: وذلكَ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ[(٣)]: «إِنَّ فِي البَدَنِ مُضْغَةً ـ أَوْ بِضْعَةً ـ إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ سَائِرُ الجَسَدِ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ الجَسَدِ؛ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»، فإذا تَعَمَّرَ القَلْبُ بالمُرَاقَبَةِ للهِ ـ تعالىٰ ـ ولأَحْكَامِهِ بالنَّظرِ إلىٰ أفعالِ قَلْبِهِ وجَوَارِحِهِ، وتأدَّبَ بأدبِ اللهِ الَّذي أدَّبَهُ بهِ علىٰ لِسانِ رسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبعَتِ الجَوَارحُ القلبَ؛ لأنَّ القلبَ أوَّلُ عامرٍ[(٤)]، وهوَ محلُّ النِّيَّاتِ[(٥)] والعُزُوم، وتقعُ الأعمالُ بالصِّحَّةِ والفسادِ علىٰ حسبِ ما يكونُ في[(٦)] القلبِ علىٰ الحقِّ المَعْلُوم.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٧)]: «وَقَالَ: الفُتوَّةُ[(٨)]: أداءُ الإِنْصافِ[(٩)]، وتَرْكُ مُطَالَبَةِ الإِنْصَافِ».

---

(١) الرسالة القشيرية ٦٩/١.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٠٨، وحلية الأولياء ٢٣٠/١٠، ومدارج السالكين ٣٧٧/٢، ومرآة الجنان ١٧٩/٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٨/١ ـ حديث رقم (٥٢)، ومسلم في صحيحه ١٢١٩/٣ ـ حديث رقم (١٥٩٩).

(٤) في (ب): علم، والأصح المثبت.

(٥) قال الغزالي: «النية محلها القلب، وليس فيها نطق ونظم حروف، لا بالقلب ولا باللسان» الوسيط ٨٩/٢، وقد أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٣٤/١.

(٦) في (ج): عليه.

(٧) الرسالة القشيرية ٦٩/١.

(٨) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٠٥، وحلية الأولياء ٢٣٠/١٠، ومسالك الأبصار ٨٩/٨، وشذرات الذهب ١٥٠/٢.

(٩) في (ج): الاتصاف.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ الفتىٰ هو الَّذِي يبذلُ كلَّ ممكنٍ بسهولةٍ مِنْ نَفْسٍ أو مَالٍ أو جَاهٍ، ولا يرىٰ له علىٰ ذلكَ حقًّا لحُسْنِ خُلقِهِ، وكَمَالِ فتوَّتِهِ، وسَخَائِهِ بالخَيْراتِ.

ومَنْ هذِهِ صفتُهُ لا يخطرُ ببالِهِ أَنْ يَطْلُبَ من أحدٍ أنْ يُنْصِفَهُ، فإنَّ طَلَبَهُ الانتصافَ ممَّنْ آذاهُ أو ظَلَمَهُ دَلِيْلٌ علىٰ المُؤاخَذَةِ بحقِّهِ ورُؤيَةِ الحقِّ لنفسِهِ، وهذا ليسَ من كَمَالِ الفتوَّةِ(١).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الحُسَيْنِ مُحَمَّدَ(٣) بْنَ مُوسَىٰ يَقُولُ: سمِعْتُ أبا عَلِيٍّ الثَّقفيَّ يَقُولُ: كَانَ أَبُو حفصٍ يَقُولُ(٤): مَنْ لَمْ يَزِنْ أفعالَهُ وأَحْوالَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَمْ يَتَّهِمْ خَوَاطِرَهُ فَلَا تَعُدَّهُ فِي دِيوانِ الرِّجَالِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ بهذِهِ الصِّفةِ فقدِ اغترَّ بِحَالِهِ فِي وَقْتِهِ، وأَمِنَ خدعةَ نفسِهِ وعَدُوِّهِ، ومَنْ أَمِنَ عَدَاوَةَ مَنْ أمرَ اللهُ بِعَدَاوتِهِ، وبَنَىٰ عَلَىٰ أنَّهُ لا يضرُّهُ كيدُ مَنْ كَادَهُ فقدْ أَمِنَ المَكْرَ، فإنَّهُ لا ﴿يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وإذا تثبَّتَ العَبْدُ عندَ أوائِلِ أَفْعَالِهِ، ووزنَهَا بِميزَانِ الشَّرِيعَةِ، سَواء كانَتْ بِقَلْبِهِ أو جَوَارِحِهِ، وميَّزَ بينَ رَدِيئِهَا وَجَيِّدِهَا بِعِلْمِهِ، وقَبِلَ ما يَنْبَغِي قَبُولُهُ، ونَفَىٰ ما يَنْبَغِي نَفْيُهُ، فهذِهِ عَلامَةُ سَلامتِهِ، وَرِفْعَةُ دَرَجَتِهِ، ولذلكَ قالَ: فلا يُعَدُّ مَنْ لم يكُنْ هَذِهِ

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣٤.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٦٩.

(٣) في (ب): بن محمد، والصواب المثبت.

(٤) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٣٠، وشعب الإيمان ٢/٣٠٢، وصفة الصفوة ٤/١٢٠، ومدارج السالكين ٢/٤٦٤، وسير أعلام النبلاء ١٢/٥١٢.

صِفَتُهُ من الرِّجَالِ، كما قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وعهدُ اللهِ الوفاءُ بمَا لَزِمَ العبدَ القِيَامُ بهِ، ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١]، ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ [يس: ٦٠].. الآية [٤٩/١ب](١).

❊ ❊ ❊

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣٤ ـ ١٣٥.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُم:

[١٨] أَبُو تُرَابٍ عَسكَرُ بْنُ حُصَيْنٍ النَّخْشَبِيُّ[(٢)]

صَحِبَ حَاتِمًا الأَصَمَّ، وَأَبَا حَاتِمٍ العَطَّارَ البَصْرِيَّ.

مَاتَ سنةَ خمسٍ وأربعينَ ومائتَينِ، قيلَ: مَاتَ بالباديةِ، نَهَشَتْهُ[(٣)] السِّباعُ.

وَقَالَ ابْنُ الجَلَّا[(٤)]: صَحِبْتُ سِتَّمائةِ شيخٍ، مَا لقيتُ فيهِمْ مثلَ أربعةٍ؛ أَوَّلُهُمْ: أَبُو ترابٍ النَّخشَبِيُّ[(٥)].

قَالَ أَبُو ترابٍ[(٦)]: الفَقِيرُ قُوتُهُ مَا وَجَدَ، وَلِبَاسُهُ مَا سَتَرَ، وَمَسْكَنُهُ حَيْثُ نَزَلَ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا دليلٌ على أَنَّ الفقيرَ إِنَّمَا ينالُ من منافعِ الدُّنيَا ما دعَتْهُ إليه ضرورةُ وقتِهِ وحاجتُهُ، والَّذِي تَدْعُوهُ[(٧)] إليهِ[(٨)] حاجتُهُ استقرارُهُ في

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٧٠.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٢٤، وحلية الأولياء ١٠/٤٥، وتاريخ دمشق ٤٠/٣٤٠، وطبقات الحنابلة لأبي يعلى ١/٢٤٨، ومناقب الأبرار ١/٣١٢، والمنتظم ١١/٣٣٤، وصفة الصفوة ٤/١٧٢، وطبقات الفقهاء الشافعية ٢/٥٩٢، ومسالك الأبصار ٨/٧٢، والعبر ١/٤٤٥، وتاريخ الإسلام ١٨/٣٤٩، وسير أعلام النبلاء ١١/٥٤٥، وطبقات الأولياء ص٢٤٨، والطبقات الكبرى ١/١٥١، والمقصد الأرشد ٢/٢٨٤، والكواكب الدرية ١/٥٤٢.

(٣) في (ب): رمسته، والأصح المثبت. وفي المقاييس ٥/٣٦٣: «قال الأصمعي: النهس والنهش واحد؛ وهو أخذ اللحم بالفم، وخالفه أبو زيد فقال: النهش بمقدم الفم».

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٢٥، وحلية الأولياء ١٠/٤٧، وتاريخ بغداد ٨/٣٩٣، وتاريخ دمشق ٤٠/٣٤٢، ومناقب الأبرار ١/٣١٢. وسترد ترجمته فيما يأتي.

(٥) في طبقات الفقهاء الشافعية ٢/٥٩٣: «والثلاثة الآخرون: أبوه يحيى الجلا، وأبو عبيد البسري، وذو النون المصري». وانظر: طبقات الشافعية الكبرى ٢/٣٠٧.

(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٢٦، وتاريخ دمشق ٤٠/٣٤٢، ومناقب الأبرار ١/٣١٣، وطبقات الشافعية الكبرى ٢/٣١٠.

(٧) في (ج): تدعوا.

(٨) سقط من (ب) عبارة: «ما دعته إليه ضرورة وقته وحاجته، والذي تدعوه إليه».

موضعٍ يَكنُّهُ ويسترُ حالَهُ، وقوتٌ يُقيمُ صُلبَهُ، ولباسٌ يسترُ عورتَهُ، من أيِّ نَوْعٍ كانَ مِنْ غيرِ تفصيلٍ إلَّا بالنَّظرِ إلى الصِّحَّةِ والمَرضِ، والسَّفرِ والحضَرِ، والاجتماعِ معَ النَّاسِ والبُعْدِ منهُم، فإنَّ ذلك يختلفُ حالُ الشَّخصِ فيه، فالَّذي ينالُهُ فِي صِحَّتِهِ مِنَ الطَّعَامِ قد لا يوافقُهُ في حَالِ مرضِهِ، ولا يستقيمُ دينُهُ معَهُ[١]، والَّذي يلبسُهُ إذا كانَ مُنْفَرِدًا بَعِيْدًا منَ النَّاسِ قد لا يَحْسُنُ بهِ إذا كانَ معَهُم في الجُمَعِ والأَعْيَادِ والشُّهرةِ وسَتْرِ الحالِ، وغيرِ ذلكَ على ما تَقْتَضِيهِ الأَدِلَّةُ الشَّرعيَّةُ، باخْتِلافِ الأَحْوَالِ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ أَبُو تُرَابٍ**[٣]: **إِذَا صَدَقَ العَبْدُ فِي العَمَلِ وَجَدَ حَلَاوَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلَهُ، فَإِذَا أَخْلَصَ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَتَهُ وَقْتَ مُبَاشَرَةِ الفِعْلِ**[٤]».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الصِّدقُ: هو الجدُّ فِي إصابةِ الحقِّ؛ فإنْ كانَ فِي اللِّسانِ فهو الإخبارُ عنِ الشَّيءِ على ما هو عليهِ، وإنْ كانَ فِي القلبِ فَقُوَّةُ العَزْمِ وشِدَّةُ الحَمْلِ على الإيقاعِ منْ غيرِ فُتُورٍ ولا إخلالٍ، وإنْ كانَ في الجوارحِ فَبِكَمَالِ النَّشاطِ معَ نفْيِ الكَسَلِ والمَلالِ[٥].

ومَتَى كانَ متَّصِفًا بالصِّدقِ وَجَدَ لذَّةَ صِدْقِهِ وسُرُورَهُ في قلبِهِ قبلَ أنْ يدخلَ في العملِ، فإذا دخلَ فيه معَ هذا الجدِّ والإخلاصِ تَنَعَّمَ بهِ في أثناءِ عَمَلِهِ، وانْبَعَثَ الشُّكرُ من قَلْبِهِ عليه لِرَبِّهِ، وهوَ وجُودُ اللَّذَّةِ والتَّنعُّمُ بهَا والفَرحُ بما مَنَّ بهِ عليهِ، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]، ففرحُهُم بفضلِ مَولاهُم

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣٥.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٧٠.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٢٦، وحلية الأولياء ١٠/٥٠، وتاريخ دمشق ٤٠/٣٤٢، ومناقب الأبرار ١/٣١٤.

(٤) في الرسالة القشيرية، ومظان تخريجه: مباشرة العمل.

(٥) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣٦.

عليهِم لَا بأنفسِهِمْ وجَمِيْلِ تَقْوَاهُم.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١): «سَمِعْتُ الشَّيخ أَبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَدِّي إِسْمَاعِيلَ بْنَ نُجَيدٍ يَقُولُ: كَانَ أَبُو تُرَابٍ إِذَا رَأَىٰ مِنْ أَصْحَابِهِ مَا يَكْرَهُ زَادَ فِي [١/١٥٠أ] اجتهادِهِ وجَدَّدَ توبتَهُ، وَيَقُولُ(٢): بِشُؤْمِي دُفِعُوا إِلَىٰ مَا دُفِعُوا إِلَيْهِ(٣)؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ كمالِ اقتداءِ أصحابِهِ بهِ فِي سائرِ أعمالِهِ، فإذا رأىٰ منهُمْ فَتْرَةً عمَّا يشيرُ بهِ عليهِم نسبَ النَّقصَ إلىٰ نفسِهِ، وقالَ لنفسِهِ: لو علِمَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ من قلبي غيرَ ما أشرتُ به عليهِمْ لسهَّلَهُ عليهِم، فَمِنِّي أُتوا، واستدلَّ بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، فجعلَ تغييرَ نفسِهِ تَغْيِيرًا(٤) لجميعِ مَنْ يَقْتَدِي بهِ(٥).

ويحتملُ أنْ يكونَ هذا من بَابِ تُهْمَةِ النَّفسِ وأدبًا لأصحابِهِ، فإذا سمعُوا مِنْهُ نسبةَ النَّقصِ لنفسِهِ مع أنَّهُ أفضلُهُم، حرَّكَهُم ذلك فِي الجدِّ والاجتهاد، وكمالِ الاستعداد.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٦): «قَالَ: وسمِعْتُهُ يَقُولُ لأَصْحَابِهِ(٧): مَنْ لَبِسَ مِنْكُمْ مُرَقَّعَةً فَقَدْ سَأَلَ، ومَنْ قعَدَ فِي خَانقاه(٨)، أَوْ مَسْجِدٍ فَقَدْ سَأَلَ، ومَنْ قَرَأَ القُرْآنَ مِنْ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٧٠.
(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٤٠/٣٤٣، ومناقب الأبرار ١/٣١٤.
(٣) أي: مما كرهته منهم.
(٤) سقط (ج) قوله: نفسه تغييرا.
(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣٦.
(٦) الرسالة القشيرية ١/٧٠.
(٧) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٤٦، ومناقب الأبرار ١/٣١٤.
(٨) مدرسة الصوفية، ففي تاج العروس «خ ن ق»: «أَصْلُ الخانَقاه: بُقْعَةٌ يَسْكُنُها أَهْلُ الصَّلاةِ والخَيْرِ=

مُصْحَفٍ أَوْ كَيْمَا يُسْمعَ النَّاسَ فَقَدْ سَأَلَ [الناسَ][(١)]».

قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا منهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تعليمٌ لأصحابِهِ في كَمالِ التَّوكُّلِ والإعراضِ عنِ الأسبابِ، وَخَوْفًا عليهم مِنْ أَنْ يَتَعَرَّضُوا بهذِهِ الأفعالِ للشُّهرةِ بالصَّلَاحِ فيُبَرُّوا ويُوصَلُوا لذلِكَ[(٢)].

وفي كلامِهِ فائدتَانِ: بُعْدُهُمْ[(٣)] عن أسبابِ الرِّياءِ، وإعراضُهُم عنِ الأسبابِ قَصْدًا للتَّوكُّلِ؛ فَإِنَّ مَنْ سَتَرَ حَالَهُ فِي العِبَادَةِ بِحَيْثُ لَا يلبسُ مُرَقَّعَةً، ولا يديمُ الانقطاعَ فِي المَسَاجِدِ، وَلَا يُكْثِرُ القراءةَ بينَ النَّاسِ لا فِي المُصْحَفِ ولا جَهْرًا، فقد احترزَ منَ الرِّياءِ والتَّعرُّضِ للخلْقِ بأنْ يَصِلُوهُ أو يبرُّوهُ، فيسلمُ منَ الرِّياءِ ويتعلَّمُ التَّوكُّلَ، وأخبرَهُم أنَّ السُّؤالَ والطَّلبَ للدُّنيَا يكونُ بالحَالِ والمَقَالِ، فأنتُمْ وإنْ لم تَسْأَلُوا بالمَقَالِ، فهذه الأسبابُ سُؤَالٌ بالحَالِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: كَانَ أَبُو تُرابٍ يَقُولُ[(٥)]: بَيْنِي وَبَيْنَ اللهِ عَهْدٌ أَلَّا أَمُدَّ يدِي إِلَىٰ حرامٍ إِلَّا قَصُرَتْ يدِي عَنْهُ.

وَنَظَرَ أَبُو تُرَابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا إِلَىٰ صُوفِيٍّ مِنْ تَلَامِذَتِهِ مَدَّ يَدَهُ إِلَىٰ قِشْرِ بَطِّيخٍ وَقَدْ طَوَىٰ ثلاثةَ أَيَّامٍ، فَقَالَ لَهُ أَبُو ترابٍ[(٦)]: تَمُدُّ يدكَ إِلَىٰ قِشْرِ البَطِّيخِ ؟!، أَنْتَ لَا

= والصُّوفِيَّةُ، والنونُ مفتوحة مُعَرَّب، فإنه (كاه)، قالَ المَقْرِيزِيُّ: وقد حَدَثَتْ في الإسلام في حُدودِ الأَرْبَعِمائة، وجُعِلَتْ لمُتَخَلَّى الصوفيَّة فِيها لعِبادَةِ اللهِ تعالى».

(١) زيادة من (ف).

(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣٦.

(٣) في (ب): بعد، والصواب المثبت.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٧٠.

(٥) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٤٨، وتاريخ دمشق ٤٠/٣٤٣، وصفة الصفوة ٤/١٧٣، ومناقب الأبرار ١/٣١٥.

(٦) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٤٩، وتاريخ دمشق ٤٠/٣٤٤، ومناقب الأبرار ١/٣١٥.

يَصْلُحُ لَكَ التَّصوُّفُ[١] ، الزَمِ السُّوقَ» .

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقصرُ يدِهِ عن الطَّعامِ الَّذِي فيه الشُّبهةُ أو حَرَامٌ كَرَامَةٌ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وحفظٌ ، كما جرَىٰ للمحاسِبيِّ وغيرِهِ[٢] .

وأمَّا مَا أدَّبَ بهِ تلميذَهُ من أنَّهُ مدَّ يدَهُ إلىٰ قِشْرِ بطِّيخٍ بعدَ أنْ واصلَ ثلاثةَ أيَّامٍ فزَجرَهُ ، وقالَ لهُ: «**لا يصلحُ لكَ التَّصوُّفُ ، الزَمِ السُّوقَ**» ، فهوَ من بابِ الأمرِ بالصَّبرِ وكمَالِ المُجَاهَدةِ وَرَفْعِ الهِمَّةِ[٣] عَنْ تنَاولِ ما لا يَصْلُحُ لمثْلِهِ منَ الزُّهَّادِ ، وذلكَ أنَّ مَنْ وصلَ إلىٰ أنْ يَصْبِرَ ثلاثةَ أيَّامٍ بليالِيهَا ، شغلًا بالخيرِ وتفرُّغًا لهُ لا يليقُ بهِ خسَّةُ الهِمَّةِ وتناولُ ما يُلقيهِ النَّاسُ ولا يأكلونَهُ[٤] .

ومن هذا مَا رُوِيَ أنَّ بعضَهُمْ قالَ: جُعْتُ في الحَرَمِ عشرةَ أيَّامٍ ، ثمَّ خرجتُ فرأيتُ سلجمةً[٥] مطروحةً فِي الطَّريقِ متغيِّرَةً فرفعتُهَا لآكُلَهَا ، فوجدتُ فِي سِرِّي: جُعْتَ لنَا كَيت وكَيت ، ويكونُ حظُّكَ سلجمةً متغيِّرةً! قال: فرميتُ بها ورجعتُ إلىٰ الحرمِ ، فَبينَا أنا جالسٌ فإذا[٦] بأعجميٍّ قد وضعَ بينَ يدَيَّ قَمَّطْرةً ، وقالَ: هذِهِ لكَ ، فقلتُ: ما السَّببُ؟ فقالَ: اعلَمْ أنَّا كنَّا في البحرِ وهاجَتْ علينا ريحٌ ، فنذرَ كلٌّ منَّا شيئًا إنْ سلَّمَهُ اللهُ ، فَنَذَرْتُ أنا أنْ أدفعَ هذِهِ لأوَّلِ مَنْ وقعَ بصري عليهِ منَ المُجَاوِرينَ ، فقالَ لهُ: افتحْهَا ، ففتحَهَا ، فإذا فيها كعكٌ سميدٌ[٧] وسكَّرٌ كعابٌ

(١) لأنه صفة عزيزة لا يتحلىٰ بها إلا العزيز ، الذي لا يطلب سفاسف الأشياء ، بل يقتصر علىٰ الأشراف . انظر: نتائج الأفكار ١/٢٠٠ .

(٢) انظر ص٢٤٠ .

(٣) في (أ): التهمة ، وهو تحريف . ورفعَ همتَهُ عملا بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ وأَشْرَافَهَا ، وَيَكْرَهُ سفسافها» المعجم الكبير ٣/١٣١ .

(٤) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣٧ .

(٥) السلجمة: اللفت . انظر: المعجم الوسيط ١/٤٤١ .

(٦) في (أ ، ج): وإذا .

(٧) في معجم اللغة العربية المعاصرة ٢/١١٠٥: «سَمِيد: لُباب الدّقيق ، نوعٌ من الطّحين الأبيض الخشن» .

ولوزٌ، فقبضتُ من هذا قبضةً، ومن هذا قبضةً، ثمَّ قلتُ: ارفعِ الباقي إلىٰ صِبْيَانِكَ، فهو هديةٌ منِّي إليهِم.

وهكذا يكونُ رفْعُ الهمَّةِ، وإليهِ ـ واللهُ أعلمُ ـ أشارَ أبو ترابٍ لتلميذِهِ، فيكونُ عندَ الجوعِ الشَّديدِ لا يَرْضَىٰ بِشَيءٍ من المُسْتَقذَرَاتِ الَّتِي تَعَافُّهَا النُّفوسُ.

وفي هذه الحكايةِ زيادةٌ؛ وهوَ أنَّهَا بعدَ أنْ جَاءَتْهُ من وجهٍ طيِّبٍ أخذَ منهُ ما يُزِيلُ جوعَهُ فِي وَقْتِهِ، وَزهدَ في الفاضلِ ثقةً باللهِ أنَّهُ يأتيهِ في وقتٍ آخرَ بمَا يحتاجُ إليهِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنِ الحُسَيْنِ**[٢] **يَقُولُ: سمِعْتُ أبا العَبَّاسِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سمِعْتُ أبا عَبْدِ اللهِ بنَ الفارسيِّ يَقُولُ: سمِعْتُ أبا الحَسَنِ الرَّازي يَقُولُ: سمِعْتُ يُوسُفَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سمِعْتُ أبا ترابِ النَّخْشَبِيَّ يَقُولُ**[٣]: **ما تَمَنَّتْ نَفْسِي عَلَيَّ شَيْئًا**[٤] **قَطُّ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً؛ تَمَنَّتْ عَلَيَّ خُبْزًا وَبَيْضًا وَأَنَا فِي سَفَرِي، فعدلتُ عَنِ الطَّرِيقِ إِلَىٰ قَرْيَةٍ، فَوَثَبَ رَجُلٌ وَتَعَلَّقَ بِي وَقَالَ: كَانَ هَذَا مَعَ اللُّصوصِ، فَبَطَحُونِي وَضَرَبُونِي سَبْعِينَ خَشَبَةً، فَوَقَفَ عَلَيْنَا رَجُلٌ صُوفِيٌّ**[٥] **فَصَرَخَ وَقَالَ: وَيْحَكُمْ!، هَذَا أَبُو تُرابٍ النَّخْشَبِيُّ! فَخَلُّونِي، واعْتَذَرُوا إِلَيَّ،** [١/١٥أ] **وَأَدْخَلَنِي الرَّجلُ مَنْزِلَهُ، وَقَدَّمَ إِلَيَّ خُبْزًا وَبَيْضًا، فَقُلْتُ: كُلْهَا بَعْدَ سَبْعِينَ جَلْدَةً**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا عظيمٌ في الرِّياضةِ حتَّىٰ أعرضَتْ نفسُهُ عنِ

(١) الرسالة القشيرية ١/٧١.

(٢) في (ب): أبا محمد الحسن، والصواب المثبت.

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٤٧، وتاريخ بغداد ١٢/٣١٧، وتاريخ دمشق ٤٠/٣٤٥، ومناقب الأبرار ١/٣١٥، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٣٠٧.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

الشَّهواتِ بالكلِّيَّةِ، حتَّىٰ لم تتمنَّهَا فضلًا عن أكلِهَا، فلمَّا كانَ في بعضِ أسفارِهِ خطرَ له ذلكَ فعدلَ عنِ الطَّريقِ إلىٰ بعضِ إخوانِهِ ليأكلَ ذلكَ عندَهُ، وهذا هو الغالبُ علىٰ أهلِ الأَرْيَافِ؛ لأنَّهُ المتيَسِّرُ عندَهُم، فلمَّا عدلَ عنِ الطَّريقِ لذلكَ أدَّبَهُ اللهُ في كونِهِ فَسَخَ عَزْمَهُ في ترْكِ تمنِّي الشَّهواتِ فَمَسَكَ.

وقيلَ: كانَ هذا معَ اللُّصوصِ وأُتِيَ بهِ إلىٰ والي البلدةِ ليقرَّ سبعينَ خشبةً وهوَ صابرٌ لقضاءِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فعرَفَهُ بعضُ الحاضرينَ فصرخَ بأعلىٰ صوتِهِ: هذا أبو ترابٍ النَّخْشَبيُّ، وكانَ اسمُهُ معروفًا بالصَّلاحِ عندَ الأميرِ وغيرِهِ، فخلَّىٰ سبيلَهُ، واعتذرَ إليه، وحملَهُ الرَّجلُ الَّذِي عرَفَهُ إلىٰ منزلِهِ، وأضافَهُ، وقدَّمَ إليهِ خبزًا وبيضًا، ولم يُمْكِنْهُ مخالفتُهُ في ترْكِ أكْلِ البَيْضِ؛ لأنَّهُ ضَيْفٌ، وهذا الَّذِي تيسَّرَ للمُضِيفِ فأكلَهُ جَبْرًا لقلبِهِ، وقالَ في نفسِهِ لنفسِهِ: كُلْ مَا اشْتَهَيْتَ وَتَمَنَّيْتَ بَعْدَ سَبْعِينَ خَشَبَةً!، فَتَفَطَّنَ لكونِهِ أُدِّبَ لنقْضِ عزْمِهِ، وأكلُهُ الثَّانِي لا يكونُ شهوةً، بل هو طاعةٌ، وكذا كلُّ مَنْ أكلَ شيئًا طيِّبًا بنيَّةٍ صَالحةٍ، وإنْ كانَ مُشْتَهًىٰ طبعًا فلا يضرُّهُ أكلُهُ، بل ينتفعُ بهِ[1].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وحكَىٰ ابْنُ الجلَّا قَالَ: دَخَلَ أَبُو تُرابٍ[3] مَكَّةَ طَيِّبَ النَّفسِ، فَقُلْتُ: أينَ أكلْتَ أيُّهَا الأستاذُ؟ فَقَالَ: أكلةً بالبصرةِ، وأكلةً بالنِّباجِ[4]، وأكلةً هاهُنا».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ أحدِ أمرَينِ:

[الأمرُ الأوَّل]: إمَّا كمالُ الصَّبرِ واعتيادُ الجوعِ الأيامَ الكثيرةَ، حتَّىٰ قطعَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣٧.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٧١.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) موضع بين مكة والبصرة.

الصَّحراءَ بأَكْلَةٍ واحدةٍ أكلَهَا في الطَّريقِ خاصَّةً، والأكلةُ الأولى بالبصرةِ، والثَّالثةُ[(١)] بمكَّةَ، فأكلَ في الطَّريقِ أكلةً واحدةً بالنِّباجِ.

والأمرُ الثَّاني: طيُّ الأرضِ، فقطعَ الصَّحراءَ في الأمَدِ القليلِ[(٢)]، فكانَ أكلُهُ تبعًا لِزَمَانِه، وكلاهُمَا جائزٌ[(٣)].

---

(١) في (ب): والثانية.

(٢) أي: الزمن اليسير.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣٨.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

«وَمِنْهُمْ:

[١٩] أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ خُبَيْقٍ(٢)

مِنْ زُهَّادِ المُتَصَوِّفَةِ، صَحِبَ يُوسُفَ بْنَ أسباطٍ، كوفِيُّ الأَصْلِ، ولكنَّهُ سكنَ (أنطاكيةَ).

سمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سمِعْتُ أبا الفرَجِ الوَرَثَانِيَّ يَقُولُ: سمِعْتُ أبا الأزهَرِ المَيَّافارقِيَّ(٣) [١/٥١ب] يَقُولُ: سمِعْتُ فتحَ بْنَ شَخْرَفٍ يَقُولُ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ خُبَيقٍ أَوَّلَ ما لقيتُهُ، فَقَالَ(٤): يا خراسانيُّ؛ إِنَّمَا هِيَ أربعٌ لا غَيْرُ(٥): عينُكَ، ولسانُكَ، وقلبُكَ، وهَوَاكَ، فانظُرْ عينَكَ لا تَنْظُرْ بِهَا إِلَىٰ مَا لا يحلُّ، وانظُرْ لسانَكَ لا تَقُلْ بِهِ شَيْئًا يعلمُ اللهُ - تعالىٰ - خلافَهُ مِنْ قَلْبِكَ، وَانْظُرْ قَلْبَكَ لَا يَكُون فِيهِ غِلٌّ ولا حقدٌ عَلَىٰ أحدٍ من المُسْلِمِينَ، وانظُرْ هواكَ لا تَهْوَ بِهِ شَيْئًا من الشَّرِّ، فَإِذَا لَمْ تكُنْ فيكَ هذهِ الأربعُ مِنَ الخِصَالِ فَاجعَلِ الرَّمادَ عَلَىٰ رأسِكَ، فَقَدْ شَقِيتَ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الأربعُ هيَ أصولٌ لمحرَّماتٍ كثيرةٍ، وهيَ الغاليةُ علىٰ ابنِ آدمَ؛ لأنَّ العينَ سابقةٌ إلىٰ المنظوراتِ المُسْتَحسَناتِ، ومِنَ القلبِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٧٢.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٢٠، وحلية الأولياء ١٠/١٦٨، ومناقب الأبرار ١/٣٢٠، وصفة الصفوة ٤/٢٨٠، وتبصير المنتبه ٢/٥٢٤، وطبقات الأولياء ص٣٣٨، والطبقات الكبرىٰ ١/١٥٢، والكواكب الدرية ١/٦٧٦.

(٣) في (ف): الميافارقيني، والصواب المثبت.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٢١، وحلية الأولياء ١٠/١٦٨، والزهد الكبيرص ١٧٤، ومناقب الأبرار ١/٣٢٠، وصفة الصفوة ٤/٢٦٨، وذم الهوىٰ ص٨٤.

(٥) يشير إلىٰ أن أصول المفاسد الدينية أمهاتها أربع، وذلك باعتبار ما ينشأ عنها من المخالفات.

بسببِهَا تنْبَعِثُ الشَّهَواتُ إلى المُشْتَهياتِ.

وكذلِكَ اللِّسانُ هوَ الغالبُ على الإنسانِ، ويقعُ في كثيرٍ منَ الخَطِيئَاتِ، منَ الكَذِبِ والغَيْبَةِ والنَّميمةِ والسَّبِّ وغيرِ ذلكَ منَ الآفاتِ.

والقلبُ إذا لمْ يَتَعَمَّرْ بالخَيرِ من مَعْرِفَةِ اللهِ ـ تعالى ـ ومعرفةِ أحكامِهِ والخَوفِ منهُ والرَّجاءِ لهُ تعذَّرَتْ عليهِ الطَّاعَاتُ، واختلَّتْ عليهِ العِبَاداتُ.

وأمَّا هَوَاهُ فهوَ ميلُهُ إلى المُشْتَهياتِ منَ المَطعُومَاتِ والمَلْبُوسَاتِ والمَنْكُوحَاتِ، وغيرِ ذلكَ منَ المتعلّقاتِ، فقدِ اندرجَ تحتَ هذهِ الكلماتِ أنواعٌ منَ المحرَّماتِ، فإنْ لم يكنِ الإنسانُ حافظًا لهَا، ومتَّقيًا ما يدخلُ عليهِ من أجلِهَا، فليضَعْ على رأسِهِ التُّرَابَ، فإنَّهُ منَ الأشقياءِ، إلَّا أنْ يتوبَ عليهِ مولاهُ، وينقلَهُ إلى ما خصَّ بهِ عبادَهُ الصَّالحِينَ منَ الأولياءِ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: «وَقَالَ ابنُ خُبَيْقٍ[2]: **لَا تَغْتَمَّ إلَّا مِنْ شَيْءٍ يَضُرُّكَ غدًا، وَلَا تَفْرَحْ إلَّا بِشَيءٍ يَسُرُّكَ غدًا.**

وَقَالَ ابْنُ خُبَيقٍ[3]: وحشةُ العبادِ عَنِ الحقِّ[4] أَوحشَ مِنْهُمُ القُلُوبَ[5]، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَنِسُوا بِرَبِّهِمْ[6]، لَاسْتَأْنَس بِهِمْ كُلُّ أَحَدٍ».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٧٢.

(٢) في (ب): بن رشيق، وهو تحريف. وورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٢٣، وحلية الأولياء ١٠/١٦٩، وصفة الصفوة ٤/٢٨١، ومناقب الأبرار ١/٣٢١، والمستطرف ١/٣٠٨. ونُسب لبشر الحافي في: الهم والحزن لابن أبي الدنيا ص٩٦.

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/١٦٩، ومناقب الأبرار ١/٣٢٢.

(٤) أي: توحشهم بالإعراض عن ذكره وشكره ومراقبته بالإجلال والتعظيم. انظر: نتائج الأفكار ١/٢٠٣.

(٥) أي: كانت سببًا في قسوة قلوب الخلق عليهم.

(٦) بدوام الذكر والفكر والشكر والمراقبة.

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ففي كلامِهِ الأوَّلِ تَزْهِيدٌ فِي الدُّنيَا، وأنَّ الغمَّ علىٰ ما فَاتَ منهَا ليسَ بمحمُودٍ، وإنَّمَا الغمُّ المَحْمُودُ علىٰ ما فاتَ من أعمالِ البِرِّ الَّذِي ينتفعُ الإنسانُ بها في الآخرةِ.

وفي كَلامِهِ الثَّانِي إشارةٌ إلىٰ ارتباطِ خيرِ[١] الدُّنيَا والآخرةِ بالاشتغالِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وطلبِ قُرْبِهِ ومُنَاجاتِهِ؛ لأنَّ هذا المَعْنَىٰ يحصُلُ لهُ بهِ خيرُ الدُّنيا والآخِرَةِ، ويدلُّ عليهِ الخَبَرُ الصَّحيحُ، وهو قولُهُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ[٢]: «مَا تقرَّبَ المتقرِّبونَ [١/١٥٢أ] إليَّ بمثلِ أداءِ ما افترضْتُ عليهِمْ، ولا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتَّىٰ أُحِبَّهُ»، وفي الخَبَرِ[٣]: «وإذَا أحبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَىٰ: يا جِبْرِيلُ، إنِّي أُحِبُّ فلانًا فأحِبَّهُ، فيحبُّهُ[٤] جبريلُ، وتحبُّهُ ملائكةُ السَّمَاءِ، ويُوضَعُ له القَبُولُ فِي الأرضِ، وإذا أبغضَ اللهُ عبداً..» الحديث.

وقولُهُ: «**مَا كانَتِ الوَحْشَةُ بينَ العَبْدِ والخَلْقِ إلَّا لِقِلَّةِ أُنْسِهِ باللهِ واسْتِيحَاشِهِ منهُ، وَلَوْ أَنِسَ باللهِ لاستأنَسَ بهِ كلُّ شيءٍ**»، بل قدْ جاءَ أنَّ الذِّئابَ كانَتْ تستأنسُ معَ الغَنَمِ في زمانِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فلمَّا ماتَ وثبَتِ الذِّئابُ علىٰ الغنَمِ.

فهذا أعظمُ منَ الأوَّلِ أثَّرَتْ بركتُهُ في غيرِهِ منَ الحَيَوانَاتِ! فألَّفَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بينَ الأضدَّادِ والأعداءِ منَ البهائمِ فيمَا جرَتْ بهِ العاداتُ[٥].

---

(١) في (ج): خبر.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٠٣٠ ـ حديث رقم (٢٦٣٧)، وتمامه فيه: «وإذا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فيقول: إني أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قال: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي في أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قال: فَيُبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ له البَغْضَاءُ في الأرض».

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣٩.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ[٢]: أَنْفَعُ الخَوْفِ: مَا حَجَزَكَ عَنِ المَعَاصِي، وَأَطَالَ مِنْكَ الحزنَ عَلَىٰ مَا فَاتَ، وَأَلْزَمَكَ الفِكْرَةَ فِي بَقِيَّةِ عُمْرِكَ، وَأَنْفَعُ الرَّجَاءِ: مَا سَهَّلَ عَلَيكَ العَمَلَ[٣]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ الخَوْفَ والرَّجاءَ علىٰ درجاتٍ، فمَنْ لم يَكُنْ عندَهُ منَ الخوفِ ما يحجزُهُ عنِ المحرَّماتِ، ومنَ الرَّجاءِ ما يحملُهُ علىٰ القيامِ بالواجِبَاتِ، فخوفُهُ ضعيفٌ جِدًّا لم يحصلِ الخوفُ المطلوبُ، ومَنْ قَوِيَ خوفُهُ حتَّىٰ وقعَ في القُنُوطِ والإياسِ من رحمةِ اللهِ، فقد تعدَّىٰ الحدَّ المَحْبُوبَ منهُ المرغوبَ، وكذلِكَ مَنْ تعدَّىٰ رَجَاؤُهُ حتَّىٰ وَقَعَ في الأمنِ من مكرِ اللهِ والإدلالِ علىٰ العبدِ فقدْ صَارَ رجاؤُهُ مِنْ جُمْلةِ الذُّنُوب.

وأعدلُ الخَوْفِ والرَّجاءِ وأنفعُهُ ما حملَ علىٰ عِمَارةِ الأوقات، ويُذَمُّ العبدُ بِسَبَبِهِ علىٰ ما فات، وعزمَ علىٰ عِمَارةِ الأوقاتِ المُسْتَقبلات.

قَالَ الإِمَامُ - رحمةُ اللهِ عليهِ -[٤]: «وَقَالَ[٥]: طُولُ الاستِمَاعِ إِلَىٰ البَاطِلِ[٦] يُطْفِئُ نُورَ حَلاوةِ الطَّاعةِ مِنَ القَلْبِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ الطَّاعةَ لا تلذُّ ويجدُ الإنسانُ حَلاوتَهَا إلَّا بالدَّوامِ عليها والحُضُورِ فيهَا، وحُسْنُ المُنَاجَاةِ والتَّذلُّلِ، واستشعَارُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٧٢.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ٩/٢٨٢، ومناقب الأبرار ١/٣٢٢، وطبقات الأولياء ص٣٣٨.

(٣) في (ف): «أنفع الخوف ما يحجزك عن المعاصي، وأنفع الرجاء ما سهل عليك العمل، وأطال منك الحزن علىٰ ما فاتك وألزمك الفكر في بقية عمرك».

(٤) الرسالة القشيرية ١/٧٢.

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٢٤، وحلية الأولياء ١٠/١٦٩، ومناقب الأبرار ١/٣٢٢، وطبقات الأولياء ص٣٣٨.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣٩.

نَظَرِ الحقِّ، وحُسْنُ العبادةِ في مُنَاجَاتِهِ، واستماعُ الباطلِ والدَّوامُ عليهِ يضادُّ[(١)] ما ذكرْنَاهُ، وإذا ضادَّهُ[(٢)] أطفأَ نُورَهُ، وأزالَ حَلاوتَهُ[(٣)] [١/٥٢ب].

(١) مراده بالباطل: كل ما شغل عن الحق من شؤون الدنيا، لا خصوص الكذب.

(٢) في النسخ: ضادده، والصواب الإدغام، كما أشار إليه الناسخ في حاشية الأصل بقوله: «صوابه: إدغام الدال الثانية في الأولى».

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٣٩.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُمْ:

[٢٠] أَبُو عَلِيٍّ أَحْمَدُ بْنُ عَاصِمٍ الأَنطَاكِيُّ[(٢)]

مِنْ أقرانِ بِشْرِ بنِ الحارثِ، والسَّريِّ السَّقطيِّ، والحارثِ المُحَاسِبي.

كَانَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّرانِيُّ يُسمِّيهِ: جَاسُوسَ القُلُوبِ؛ لِحِدَّةِ فِرَاسَتِهِ.

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَاصِمٍ[(٣)]: إِذَا طلبْتَ صلاحَ قلبِكَ فاستَعِنْ عَلَيْهِ بحفْظِ لسانِكَ.

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنِ عَاصِمِ الأنطاكيُّ[(٤)]: قَالَ اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]: ونَحْنُ نَسْتَزِيدُ مِنَ الفِتْنَةِ[(٥)]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ويدلُّ على إثباتِ الفِراسَةِ قولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٦)]: «المُؤْمِنُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ»، وقال ـ تعالى ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

قيلَ: التَّوسُّمُ: التَّفرُّسُ، فمَنْ كانَتِ الفِراسَةُ وَصْفَهُ يُسَمَّى جاسُوسَ القلُوبِ، وقد يكونُ النُّورُ الَّذي ينظرُ بهِ المُؤمنُ الفِرَاسَةَ، وقد يكونُ نورَ العلمِ، يزِنُ بهِ العَالِمُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٧٢ ـ ٧٣.

(٢) انظر في ترجمته: الثقات ٨/٢٠، وطبقات الصوفية ص١١٨، وحلية الأولياء ٩/٢٨٠، ومناقب الأبرار ١/٣٢٤، وصفة الصفوة ٤/٢٧٧، وسير أعلام النبلاء ١١/٤٠٩، وطبقات الأولياء ص٤٦، والطبقات الكبرى ١/١٥٢، والكواكب الدرية ١/٥٣٠.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٢٠، ومناقب الأبرار ١/٣٢٦، وطبقات الأولياء ص٤٦.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٢٠، ومناقب الأبرار ١/٣٢٦، وبغية الطلب ٢/٨٤٩.

(٥) في (ب): الفتن.

(٦) أخرجه الترمذي في سننه ٥/٢٩٨، وتمامه فيه: «.. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ فإنه يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾».

أَحْوالَ الخلْقِ في تصرُّفِهِم، ويستدلُّ بما يظهرُ على ألسنتِهِم علىٰ مَا في قُلُوبِهِم، وقد يكونُ إلهامًا وفَتْحًا منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ من غَيْرِ استدلالٍ.

وقولُهُ: «**إذَا طلَبْتَ صَلاحَ قلبِكَ فاستَعِنْ عليهِ بحفْظِ لسانِكَ**»، وكذلكَ سائرُ جوارِحِكَ؛ منَ العينِ والأذنِ واللَّمسِ، فإنَّ كلَّ جارحةٍ من هذِهِ الجوارحِ تُوصِلُ إلىٰ القلبِ مَا تدركُهُ، فإنْ كانَتْ تدركُ الشُّرورَ والخيراتِ وصلَتْ إليهِ المختلفاتُ، وإنْ أدركَتِ الشُّرورَ خاصَّةً أوصلَتْ إليه المفسداتُ.

وإذا حفظَ الإنسانُ جَوَارِحَهُ ووزنَهَا بميزانِ الشَّريعةِ وجرَتْ علىٰ موافقةِ الحقِّ وصلَ منها إلىٰ القلبِ الخَيْرَاتُ والبَرَكَاتُ، وكلَّمَا صلحَ القلبُ حَسنَتْ منه النِّيَّاتُ وسَلِمَتْ قُصُورُهُ منَ الآفاتِ، وكلَّمَا كانَ كذلكَ صَلحتْ أعمالُهُ مِنَ المُفْسِدات، وعَادَتْ بركةُ عَمَلِهِ علىٰ قلبِهِ بأنوارِ الطَّاعات[١].

وبهذا الاعتبارِ قالَ بعضُهُم: «سَمِعَ لِسَانِي مِنْ قَلْبِي ثَلاثينَ سنةً، وصَارَ قَلْبِي يسمعُ منْ لساني بعدَ ذلكَ ثلاثينَ سنةً»، وذلكَ أنَّهُ لا يقولُ قولًا بلسانِهِ حتَّىٰ يتثبَّتَ وتصحَّ نيَّتُهُ، فينطقُ بالحقِّ الَّذِي يعرفُهُ، فإذَا تعوَّدَ لسانُهُ الحقَّ والنُّطقَ بهِ هذِهِ المُدَّة ـ معَ اختلافِ أنواعِهِ واختلافِ حالاتِهِ ـ صارَ حكيمًا، وجَرَتْ أقوالُهُ معَ غيرِهِ علىٰ وَجْهِ الحكمةِ، وفيما بينَهُ وبينَ ربِّهِ علىٰ وجْهِ الحقِّ وإدامَةِ الحُرْمَةِ، فصارَ قَلْبُهُ ينتفعُ بمَا يُجْرِيهِ الحقُّ علىٰ لسانِهِ، وعادَتْ بركةُ [١/١٥٣أ] قلبِهِ علىٰ لسانِهِ، ثمَّ عَادَتْ بركةُ لسانِهِ علَىٰ قلبِهِ، حتَّىٰ صارَ وليًّا لربِّه، محفوظًا بقُرْبِهِ وأدَبِه، مخصوصًا بِولايتِهِ وحِزْبِه.

وقولُهُ: «**قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ﴾ ونَحْنُ نَسْتَزِيدُ مِنَ الفِتْنَةِ**»، وهذا أوردَهُ في ذَمِّ المَشْغُولِينَ بالدُّنيا والازديادِ من أموالِهَا

---

(١) ومن ثَمَّ قال ابن عاصم: «إذا صارت المعاملة الىٰ القلب استراحت الجوارح»، كما في: حلية الأولياء ٩/٢٨١، وصفة الصفوة ٤/٢٧٧.

وأولادِهَا[١]، وذلكَ بعدَ ذَمِّ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لذلكَ، وإعلامِهِم أَنَّ فيهِ الفِتْنَة، فَمَا سَمِعَ العَبْدُ ذَمَّ ربِّهِ للدُّنيا وهو يَعْمَلُ بِهَواهُ؛ الَّذِي حَجَبَهُ وأَعْمَاهُ عَنْ نُصْحِ رَبِّهِ لهُ ونَهْيِهِ عن هَوَاهُ.

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٤١.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُم:

[٢١] أَبُو السَّرِيِّ مَنْصُورُ بْنُ عَمَّارٍ[(٢)]

مِنْ أَهْلِ (مَرْو)، مِنْ قَرْيَةٍ يقالُ لَهَا: (دندانقان)[(٣)].

وقيلَ: إِنَّهُ مِنْ (بُوشَنْج)[(٤)]، أقامَ بالبصرةِ وَكَانَ مِنَ الواعظِينَ الأكابِرِ.

قَالَ مَنْصُورُ بْنُ عمَّارٍ[(٥)]: مَنْ جَزِعَ مِنْ مَصَائِبِ الدُّنْيَا تَحَوَّلَتْ مُصِيبَتُهُ فِي دِينِهِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ مصائبَ الدُّنيَا هيَ الآلامُ والأسقامُ، وتلافُ المَالِ والوَلَدِ، وما يجرِي مجراهُ، فإذَا ابْتُلِيَ الإنسانُ بذلكَ وتسخَّطَ[(٦)] تحوَّلَتْ مصيبتُهُ في دينِهِ، وإنْ صَبَرَ على ما ابْتُلِيَ بهِ، أو شَكَرَ على حسبِ منزلتِهِ ارتفعَتْ درجتُهُ عندَ ربِّهِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٧٤.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٣٣، وحلية الأولياء ٩/٣٢٥، وتاريخ بغداد ١٣/٧١، وتاريخ دمشق ٦٠/٣٢٤، والأنساب ٢/٤٩٧، ومناقب الأبرار ١/٣٢٩، وصفة الصفوة ٢/٣٠٨، والمنتظم ١١/١٠٨، وتاريخ الإسلام ١٣/٤٠٩، وطبقات الأولياء ص٢٨٧، والطبقات الكبرى ١/١٥٣، والنجوم الزاهرة ٢/٢٤٤، والكواكب الدرية ١/٧٢٠. مات ببغداد سنة خمس وعشرين ومائتين.

(٣) في معجم البلدان ٢/٤٧٧: «دندانقان ـ بفتح أوله، وسكون ثانيه، ودال أخرى، ونون مفتوحة وقاف، وآخره نون أيضا ـ: بلدة من نواحي مرو الشاهجان... بين سرخس ومرو، رأيتها».

(٤) قرية من قرى (ترمذ). انظر: معجم البلدان ١/٥٠٨.

وفي طبقات الصوفية ص١٣٣: «يُقَال: إِنَّه من أهل (أبيورد)، كَذَلِك ذكره لي أَبُو الفضل الشَّافِعِي الأخباري». وانظر: الأنساب ٢/٤٩٧، وتاريخ دمشق ٦٠/٣٢٧.

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٨٦، وحلية الأولياء ٩/٣٢٧، وتاريخ دمشق ٦٠/٣٢٨.

(٦) في (ب): وجزع وسخط.

وَمَنْ تركَ تغييرَ المُنْكَرِ إذا شَاهَدَهُ جَزَعًا من ذَمِّهِ فتَرَكَهُ تحوَّلَتْ مُصِيبَتُهُ فِي دِيْنِهِ، وكذلِكَ إِذَا اغتيبَ عندَهُ وخَشِيَ مِن ألَمِ مَنْ ردَّ عليهِ، ونَهَاهُ[١] ألمُ قلبِهِ ومقاطعَتَهُ تَحَوَّلَتْ مصيبتُهُ في دِيْنِهِ، وكثيرًا من هذا القَبِيلِ ممَّا يكونُ فِي الدُّنيَا أنَّ جزعَ الإنسانِ مِن تحمُّلِهِ لديهِ أو ترْكِ القيامِ بهِ خَوْفًا من خَلقِهِ رجعَتْ مُصِيبتُهُ فِي دِينِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ مَنْصُورُ بْنُ عَمَّارٍ**[٣]: **أَحْسَنُ لباسِ العبدِ**[٤]: **التَّواضعُ، والانكسارُ، وأحسنُ لباسِ العارفينَ: التَّقوَىٰ؛ قَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ:** ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: واللَّائقُ بالعبدِ في حالِ عبادتِهِ تَذَلُّلُهُ وانكسارُهُ وخضوعُهُ لمولَاه، فإنَّ ذلكَ أقربُ لِنَيْلِ مَطْلُوبِهِ ومُنَاه، وحفظِهِ مِنَ التَّعرُّضِ لمَا يخشَاه، قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وأمَّا العارفونَ الَّذينَ غَلَبَتْ علىٰ قُلُوبِهِم أحوالُهُم؛ وهوَ دوامُ نَظَرِهِمْ لِمَولَاهُم، ومَا سبقَ لهُم عندَهُ ممَّا يجرِي [١/٥٣ب] عليهِم في دنياهُم، فإنَّهُمْ بمَا سبَقَ لهُمْ مَشْغُولُونَ، ولمَا يُجْرِيهِ عليهِم وعلىٰ غيرِهِمْ من ذلِكَ يتصفَّحُونَ، فأحسنُ النَّاسِ مَنْ غَلَبَ علىٰ قَلْبِهِ التَّوحيدُ وانفرادُ ربِّهِ بالأفعال، أنْ يَتَسَرْبَلَ[٥] بِتَقْوَاهُ في كُلِّ حَال، فِي أعمالِ قلبِهِ وجَوارِحِهِ من غيرِ إخلال، ولذلكَ قيلَ[٦]: «العارفُ: مَنْ لا يُطفِئُ نُورُ معرفتِهِ نُورَ وَرَعِهِ»؛ فمعرفتُهُ انفرادُ ربِّهِ بالأفعال، وورعُهُ مُلازمتُهُ لامتثالِ أمرِ

---

(١) كرر هذا اللفظ في (أ).
(٢) الرسالة القشيرية ١/٧٤.
(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١١٧، وحلية الأولياء ٩/٣٢٧، وتاريخ دمشق ٦٠/٣٢٨.
(٤) أي: أحلىٰ وصف يتحلىٰ به.
(٥) أي: يلبس، يقال: تسربل بالسربال: لَبِسَه.
(٦) قول السري السقطي وقد مرَّ ص٢١٧.

ربِّهِ واجتنابُ نَهْيِهِ فِي كُلِّ حَالٍ[(١)].

* قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «وَقِيلَ[(٣)]: إِنَّ سَبَبَ تَوْبَتِهِ: أَنَّهُ وَجَدَ فِي الطَّرِيقِ رُقْعَةً مَكْتُوبٌ فِيهَا[(٤)]: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، فَرَفَعَهَا، فَلَمْ يَجِدْ لَهَا مَوْضِعًا، فَأَكَلَهَا، فَرَأَىٰ فِي المَنَامِ كَأَنَّ قَائِلاً قَالَ لَهُ: فُتِحَ عَلَيكَ بَابُ الحِكْمَةِ؛ بِاحْتِرَامِكَ لِتِلْكَ الرُّقْعَةِ».

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا فيهِ تَنْبِيهٌ علىٰ دَوَامِ احتِرَامِ كُلِّ ما ينسبُ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، ممَّا أضافَهُ إلىٰ نفسِهِ منَ المخلوقاتِ كالمَسَاجِدِ والصَّالحينَ، ومَا يدلُّ علىٰ أسمائِهِ وصفاتِهِ منَ الحُرُوفِ، وكذلِكَ سَائرُ نِعَمِهِ إذَا وُجِدَتْ مَطْرُوحَةً في الطَّريقِ منَ الأطعمةِ وغيرِهَا[(٥)]، فإنَّهُ نُبِّهَ في الرُّؤيا علىٰ أنَّ سَبَبَ جَريانِ الحِكْمَةِ في قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ احترامُ هذهِ الرُّقعةِ؛ لمَا تَضَمَّنَتْهُ منَ الحُرُوفِ الدَّالَّةِ علىٰ أَسْمَائِهِ ـ تعالىٰ ـ.

* قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «سمِعْتُ الشَّيخَ أبَا عَبدِ الرَّحْمَنِ السُّلميَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[(٧)]: سَمِعْتُ أبا بَكْرٍ الرَّازِي يَقُولُ: سمِعْتُ أبا العَبَّاسِ القَاصَّ يَقُولُ: سمِعْتُ أبا الحَسَنِ الشَّعرانيَّ يَقُولُ: رأيتُ مَنْصُورَ بْنَ عمَّارٍ فِي المَنَامِ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا فعلَ اللهُ بكَ؟ فَقَالَ: قَالَ لِي: أَنْتَ مَنْصُورُ ابْنُ عَمَّارٍ؟ فَقُلْتُ: بلىٰ يَا رَبِّ!، قَالَ: أَنْتَ

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٤٢ ـ ١٤٣.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٧٤.

(٣) ورد في: شعب الإيمان ٢/٥٤٥، وتاريخ دمشق ٦٠/٣٢٧، ومناقب الأبرار ١/٣٢٩، والمختار من مناقب الأخيار ٣/٢١٥.

(٤) في (أ، ب): فيها مكتوب.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٤٣.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٧٤ ـ ٧٥.

(٧) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٦٠/٣٤٣، ومناقب الأبرار ١/٣٣١، وصفة الصفوة ٢/٣٠٩، والقصاص والمذكرين ص٣٣٧، والمنتظم ١١/١١٠، والمختار من مناقب الأخيار ٣/٢١٧، وطبقات الأولياء ص٢٨٧، والتحرير المرسخ في أحوال البرزخ لابن طولون ص٣٢٨.

الَّذِي كُنْتَ تُزَهِّدُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا وترغَبُ فِيهَا؟! قُلْت: قَدْ كَانَ ذَلِكَ يا ربِّ!، ولكنِّي مَا اتخذْتُ مجلسًا إلَّا بدأتُ بِالثَّنَاءِ عَلَيكَ، وَثَنَّيتُ بالصَّلاةِ عَلَىٰ نبيِّكَ ﷺ، وثَلَّثْتُ بالنَّصِيحَةِ لِعِبَادِكَ، فَقَالَ: صَدقَ، ضَعُوا لَهُ كُرْسِيًّا يُمَجِّدُنِي فِي سَمَائِي بَيْنَ مَلَائِكَتِي، كَمَا كَانَ مَجَّدَنِي فِي أَرْضِي بَيْنَ عِبَادِي».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفي هذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ الأَوْلَىٰ بمَنْ يُزَهِّدُ النَّاسَ في الحَلالِ أنْ يكونَ أوَّلَ زاهدٍ فيه[1]؛ ليكونَ انتفاعُهُمْ بحالِهِ ومقالِهِ جميعًا، ولو زهَّدَهُمْ وحثَّهُمْ عليهِ ورغَّبَهُمْ في التَّخلُّقِ بِهِ ببيانِ أدلَّتِهِ وثمراتِهِ وأحوالِ الزَّاهدينَ لكانَ [١٥٤/١أ] فاعلًا خيرًا، وداعيًا إليهِ، ولذلكَ لمَّا سألَهُ مولاهُ عن حالِهِ ـ وهوَ أعلمُ ـ في الرُّؤيَا سُؤالًا يسيرًا، وانقلبَ إلىٰ أهلِهِ مسرورًا، وذلكَ أنَّهُ لم يرتكِبْ إثمًا، وإنَّمَا أخلَّ بكَمَالِ فَضِيلَةٍ، فلمَّا اعترفَ لربِّهِ بفعلِهِ، وهوَ أعلمُ، ثمَّ ذكرَ لهُ أفضلَ ما كانَ يجرِي منهُ في وَعْظِهِ؛ وهوَ ثناؤُهُ علىٰ ربِّهِ بِكَمَالِ صفاتِهِ، وصلاتُهُ علىٰ رسولِهِ ونبيِّهِ الَّذِي شرَّفَهُ وأحبَّهُ، وثلَّثَ بوعْظِ[2] عبادِهِ ونصْحِ خلْقِهِ، وهذِهِ الأفعالُ من أَشْرَفِ أفعالِهِ وطَاعاتِهِ، أمرَ لهُ بجزاءِ أعمَالِهِ بأنْ يمجِّدَهُ بينَ ملائكتِهِ في آخرتِهِ، كمَا كانَ يمجِّدُهُ في دنياه بينَ عبادِهِ.

وهذِهِ بُشْرَىٰ في الرُّؤيَا أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يلقيهِ خيرًا، ويجازيهِ بعملِهِ أفضلَ الجزاءِ عندَهُ[3].

---

(١) عملا بقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ابْدأْ بِنَفْسِكَ»، كما في: صحيح مسلم ٢/٦٩٢.

(٢) في (ب): بوعظه، وكل صواب.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٤٣.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١):

وَمِنْهُم:

[٢٢] أَبُو صَالِحٍ حَمْدُون بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَمَّارٍ القَصَّارُ(٢)

نيسابوريٌّ، منهُ انتشرَ مذهبُ المَلَامِتِيَّةِ(٣) بـ(نيسابور)، صَحِبَ سَلْمًا(٤) البَارُوسِيَّ، وأبَا ترابٍ النَّخْشَبيَّ.

مَاتَ سنةَ إحدَىٰ وسبعينَ ومائتَينِ.

سُئِلَ حمدونُ(٥): مَتَىٰ يَجُوزُ للرَّجلِ أَنْ يتكلَّمَ عَلَىٰ النَّاسِ؟ فَقَالَ: إِذَا تعيَّنَ عَلَيْهِ أداءُ فرضٍ من فرائِضِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي عِلْمِهِ، أَوْ خَافَ هَلاكَ إِنْسَانٍ فِي بدعةٍ وَهُوَ يرجو أَن يُنَجِّيَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ مِنْهَا».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا الكلامُ يحتاجُ إلىٰ بسْطٍ، وذلكَ أنَّ قولَهُ: «مَتَىٰ يجوزُ للرَّجُلِ أنْ يتكلَّمَ علىٰ النَّاسِ» ظاهرُهُ: أنَّهُ متىٰ يجوزُ له أنْ يعظَهُم وينبِّهَهُم،

---

(١) الرسالة القشيرية ٧٦/١.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٠٩، وحلية الأولياء ٢٣١/١٠، ومناقب الأولياء ٣٣٥/١، وصفة الصفوة ١٢٢/٤، والأنساب ٥٠٨/٤، والمختار من مناقب الأخيار ٤٢٨/١، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار ٩٠/٨، وتاريخ الإسلام ٣٤٠/٢٠، وسير أعلام النبلاء ٥٠/١٣، وطبقات الأولياء ص٣٥٩، والطبقات الكبرىٰ ١٥٣/١، وشذرات الذهب ٢٨٨/٢، والكواكب الدرية ٥٩١/١.

(٣) هم: جماعة (حماد القصار) من الصوفية، وهم قوم يعنون بتعمير الباطن فيما بين العبد وبين ربه، ويغفلون تعمير الظاهر بخير أو شر؛ احترازا من الرياء.
انظر في هذه الفرقة: إحياء علوم الدين ٢٨٨/٣، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص٥٧٥، والتوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص٦٧٦، ودستور العلماء ٢٢٨/٣، والملامتية والصوفية وأهل الفتوة لأبي العلا عفيفي ص٢٠، ٩٢، والفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية ص٣٧٨.

(٤) في (أ، ف): سالمًا، وأشار الشيخ زكريا لهذا الاختلاف في: إحكام الدلالة ١٤٤/١.

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١١٠، ومناقب الأبرار ٣٣٦/١.

ويجلسَ للنَّاسِ، ويردَّ الشَّاردينَ إليه بحُسْنِ نُصْحِهِ وتَنْبِيهِهِ؟، وهذَا لا يختصُّ بأنْ يجبَ عليهِ ذلكَ، بل متىٰ وجدَ من نفسِهِ العلمَ بذلِكَ وسَلِمَ في حالِ وَعْظِهِ وتنبيهِهِ من دُخُولِ الآفاتِ عليهِ؛ منَ الكبرِ والعُجْبِ والرِّياءِ وغيرِهِ نُدِبَ له[١] ذلكَ، وكانَ من أفضلِ عباداتِهِ، كمَا جاءَ في فضْلِ مَنْ ردَّ الشَّاردينَ إلىٰ اللهِ، ولكنْ بعدَ حُصُولِ الشُّروطِ الَّتِي ذكرناهَا ومعرفتِهَا مِنْ نفسِهِ وعَرفها النَّاسُ منهُ.

وأمَّا إذا رأىٰ مَنْ هو في بِدْعةٍ وضَلالةٍ وسألَهُ عن ذلِكَ أو تَعَيَّنَ عليهِ نُصْحُهُ لاختصاصِهِ ومعرفتِهِ بحالِهِ، فهذا ممَّا يجبُ عليهِ، وكذلكَ لو قدَّرنَا شُغُورَ الجهةِ الَّتِي هو فيها عمَّن يقومُ مقامَهُ، واحتاجَ النَّاسُ إلىٰ مَنْ ينبِّهُهُم ويذكِّرُهُم وإلَّا هلكوا بارتكابِ معاصيهِم ودوامِ غفلاتِهِم.

وربَّمَا تعيَّنَ عليهِ ذلكَ ووجبَ، وذلكَ لاختلافِ النَّاسِ هَلْ يجبُ علىٰ العالِمِ أنْ يشهرَ [١/٥٤ب] نفسَهُ خاصَّةً بالعلمِ، ويجبُ علىٰ العامَّةِ أنْ يقلِّدوهُ فيمَا يحتاجونَ إليهِ من أمرِ دينِهِم؟، أو يجبُ عليهِ هوَ ابتداءً أنْ يذكِّرَهُم وينصحَهُمْ لوجوبِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكرِ والنُّصحِ للهِ، والقيامِ بأمرِ اللهِ؟، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧][٢]، فلذلكَ قلنَا: رُبَّمَا.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ**[٤]: **مَنْ ظَنَّ أَنَّ نَفْسَهُ خَيْرٌ مِنْ نَفْسِ فِرْعَوْنَ فَقَدْ أَظهرَ الكِبرَ**».

---

(١) في (ب، ج): إلىٰ.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٤٥.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٧٦.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١١٠، ومناقب الأبرار ١/٣٣٦، والمختار من مناقب الأخيار ١/٤٢٨، ومسالك الأبصار ٨/٩١، والكواكب الدرية ١/٥٩٢.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ نظرٌ، وذلكَ أنَّ نفسَ المُؤمنِ خيرٌ من نفسِ الكافرِ على القَطعِ فِي الحَالِ الَّذِي همَا فيهِ، فإنَّ هذا مؤمنٌ باللهِ وليٌّ لهُ، كمَا قالَ ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧] والكافرُ كافرٌ باللهِ عدوٌّ لهُ، كما قالَ ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، وأمَّا في المَآلِ فإنَّ المؤمنَ ما دام في الدُّنيَا هوَ والكافرُ لا يَدْرِي المُؤمنُ بمَ يُختَمُ لهُ وبمَ يُخْتَمُ للكافرِ، فقد يختمُ للكافرِ بالإيمانِ والإسلامِ، وقد يختمُ للمؤمنِ ـ والعياذُ باللهِ ـ بالكفرِ والرِّدَّةِ.

فإذا كانَ المُؤمنُ في هذه الحالةِ منَ الغَرَرِ فيما غابَ عنهُ من خَاتِمَتِهِ وخاتمةِ الكافرِ، فحكمُهُ بأنَّ نفسَهُ خيرٌ من نفسِ الكافرِ مطلقًا خَطَأٌ، وإنْ كانَ فرعونُ الَّذِي ادَّعى الرُّبوبيَّةَ زيادةً على الكفرِ وماتَ وهوَ كافرٌ غَرِيقًا فِي البَحْرِ، وأخبرَ اللهُ ـ تعالى ـ أنَّهُ لم يَنْتَفِعْ بإسلامِهِ وقتَ المَوتِ بقولِهِ: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، فالعبدُ ـ أيضًا ـ وإنْ تيقَّنَ بمَا خُتمَ لفرعونَ فهوَ في غَرَرٍ مِن نَفْسِهِ وجهلٍ بمَا[1] يُخْتَمُ لهُ، وإنْ كانَ يُحسنُ ظَنَّهُ بربِّهِ أنْ يختمَ لهُ بخواتمِ الصَّالحينَ، وأنْ يُميتَهُ على ما مَنَّ بهِ عليهِ، ولكنَّهُ لا يقطعُ بأنَّهُ خيرٌ ممَّنْ ماتَ على الكفرِ لجهلِهِ بخاتمةِ أمرِهِ الآنَ، واللهُ المُستعانُ[2].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «وَقَالَ[4]: **مُذْ عَلِمْتُ أَنَّ لِلسُّلْطَانِ[5] فِرَاسَةً فِي الأَشْرَارِ مَا خَرَجَ خَوْفُ السُّلْطَانِ مِنْ قَلْبِي**».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يجري على ما ذكرَهُ من مذهبِ المَلامتيَّةِ،

---

(١) في (ب، ج): بماذا.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٤٥.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٧٦.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١١٠، ومناقب الأبرار ١/٣٣٦، ومسالك الأبصار ٨/٩١.

(٥) في (ف): للشيطان، والصواب المثبت.

وأنَّ منهُ انتشرَ، وذلك أنَّ [مذهبَ](١) المَلامتيَّةِ يَسْتُرُونَ صلاحَهُم وأحوالَهُمْ في الدِّينِ بأمورٍ ظاهرةٍ يتداولُهَا العوامُّ وليستْ بمعاصٍ، وإنَّمَا يتشبَّهونَ بالعوامِّ لسترِ أحوالِهِم في الصَّلاحِ، وربَّمَا سمّوهُ التَّخريبَ منْ أنَّ [١/١٥٥] الإنسانَ إذا حسنَ ظنٌّ غيرِهِ بهِ أظهرَ أقوالًا وأفعالًا تُشكِّلُ من حُسْنِ ظنِّهِ بهِ.

وهذه الطَّريقـ[ـةُ](٢) فيها غررٌ وضررٌ دينيٌّ ودنيويٌّ، فإنَّ السَّلفَ ـ رضوانُ اللهِ عليهِم ـ منَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ لم يتخلَّقُوا بهذهِ الأخلاقِ، بل يقصدُوا إظهارَ الدِّينِ معَ الصِّدقِ والإخلاصِ؛ ليُقْتَدَىٰ بهِم وتُقْتَصَّ آثَارُهُم.

ومن هذا المذهبِ ـ واللهُ أعلمُ ـ ما حُكِيَ أنَّ بعضَهُم دخلَ حمَّامًا(٣) ولبسَ قماشَ رجلٍ، ووقفَ ظاهرَ الحمَّامِ، فمُسكَ ونُسِبَ للصوصيَّةِ لتسقطَ منزلتُهُ في الدِّينِ، وهذا خطأٌ، ولم يسلكْ مسلكَ المَلامتيَّةِ لسترِ أحوالِهِمْ بالمُباحِ، وغايةُ التَّقديرِ لهُ وحسنُ الظَّنِّ أنْ يكونَ قُماش بعضِ أصحابِهِ وأذنَ لهُ في لباسِهِ وفعلَ ذلكَ لمقصودِهِم، وفي هذا إساءةُ الظَّنِّ بالمسلمينَ والصَّالحينَ ونسبتُهُم إلىٰ مَا يزرِي بهم في الدِّينِ.

ولنرجعْ إلىٰ الحكايةِ، فقولُ هذا الشَّيخِ حمدون: «**منذُ علمتُ أنَّ للسُّلطانِ فراسةً في الأشرارِ ما خرجَ خوفهُ من قلبِي**»، وفراسةُ(٤) السُّلطانِ في الأشرارِ، يعنِي: أهلَ الفسقِ والسَّرقةِ وشُربِ الخمورِ، فإنَّ عليهم علاماتٍ يعرفُهَا السُّلطانُ وخُدَّامُهُ(٥) بتَوالِي ذلكَ عَلَيهِم(٦)، فأظهَرَ بهذا الكلامِ أنَّهُ عدَّ(٧) نفسَهُ منَ الأشرارِ الَّذِينَ يعرفُ

---

(١) زيادة من (ج).

(٢) تتمة يقتضيها المقام، كما في: إحكام الدلالة ١/١٤٤، وقد أفاد الشيخ زكريا ذلك من المؤلف.

(٣) في (ب): حمام.

(٤) كرر هذا اللفظ في الأصل.

(٥) في (ب): وخادمه.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٧) في (ب، ج): عند، والصواب المثبت.

أحوالَهُم[(١)] السُّلطانُ، فيكونُ في هذا سترةٌ لحالِهِ، وأنَّهُ من هذا القبيلِ حتَّىٰ خافَ ما يخافهُ أربابُهُ، ويكونُ باطنُهُ بخلافِ ذلكَ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «وَقَالَ[(٣)]: إِذَا رَأَيْتَ سَكْرَانًا فَتَمَايَلْ؛ لِئَلَّا تَبْغِيَ[(٤)] عَلَيْهِ، فَتُبْتَلَىٰ بِمِثْلِ ذَلِكَ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا البَغْيُ والتَّكبُّرُ علىٰ العصاةِ فمذمومٌ شرعًا، وأمَّا معرفةُ ما هُم عليه ونقصُهُم فِي الدِّينِ فواضحٌ لا يخفَىٰ، وما يلزمُ من معرفةِ نقصِهِ أنْ يتكبَّرَ عليهِ، فإنَّ الكبرَ لا يَلِيقُ إلَّا باللهِ - تعالىٰ -[(٥)]، بَلْ حقُّ المُؤمنِ[(٦)] أنْ يرحمَهُ ويدعُو إليهِ، ويشكرَ اللهَ علىٰ عصمتِهِ؛ ممَّا ابتلاهُ.

ويبقىٰ قولُهُ: «فَتَمَايَلْ» إنْ أرادَ بهِ تَشَبَّهْ بهِ في سُكْرِهِ، فليسَ بواضحٍ، وإنْ أرادَ [بهِ][(٧)]: تَمَايَلْ علىٰ نفسِكَ وخَفْ عليها منَ التَّغيُّرِ[(٨)] ومعرفةِ القَدْرِ والنَّقصِ؛ لئلَّا تقعَ في الكبرِ فَحَسَنٌ[(٩)].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١٠)]: «وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَنَازِلٍ[(١١)]: قُلْتُ لِأَبِي صَالِحٍ:

---

(١) في (ج): حالهم.
(٢) الرسالة القشيرية ٧٦/١.
(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٣٣٦/١، وصفة الصفوة ١٢٢/٤، ومسالك الأبصار ٩١/٨، والكواكب الدرية ٥٩١/١.
(٤) في (ب): تبقي، والصواب المثبت.
(٥) لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في سنن أبي داود ٥٩/٤: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي...».
(٦) في حاشية الأصل: المُوفَّق.
(٧) زيادة من (ج).
(٨) في (ب، ج): التغيير.
(٩) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٤٦/١.
(١٠) الرسالة القشيرية ٧٦/١.

أَوْصِنِي؛ فَقَالَ: إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تَغْضَبَ لِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا فَافْعَلْ» [١/٥٥ب].

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا منهُ تنبيهٌ على حُسْنِ الخلقِ واحتمالِ الأذى مِنَ الخَلْقِ، والعفوِ عنِ الزَّلَّاتِ إليكَ من غيرِكَ والأذيَّةِ لكَ، وذلكَ أنَّ الغضبَ إنَّمَا يكونُ إذا انتقصَ مِنْ عِرْضِ الإنسانِ أو مالِهِ أو ما يجرِي مجرَاهُ، فإذا زَهِدَ العبدُ في الدُّنيا وتخلَّقَ بالحِلْمِ والصَّفحِ وعدمِ المكافأةِ والمجازاةِ سلِمَ مِنَ الوقوعِ في المحرَّماتِ؛ لأنَّ العبدَ إذا غضبَ تعدَّى الحدود، وزادَ على ما يجبُ له مِنَ الحقِّ المحدود، ومعرفتُهُ بِضَرَرِ الغَضَبِ يُنْجِيهِ في الدُّنيَا وفي اليومِ الموعود، ولذلكَ قالَ رجلٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسولَ اللهِ، أوصِنِي، فقالَ لهُ[1]: «لا تغضَبْ»، فاستزادَهُ وهوَ يقولُ له[2]: «لا تَغْضَبْ، لا تَغْضَبْ»، كلُّ ذلكَ تَحْذِيرٌ مِنْ آفَاتِ الغَضَبِ، فإنَّ الغضبَ كما قيلَ[3]: «غُوْلُ العَقْلِ يأكلُهُ»، فإذا ذهبَ العقلُ عُدِمَ التَّثبُّتُ، فوقعَ العَبْدُ في الخَطَأِ والزَّلَل، وفاتَهُ حُسْنُ العَمَل.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «وَمَاتَ صَدِيقٌ لَهُ وَهُوَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَلَمَّا مَاتَ أَطْفَأَ حَمْدُون السِّرَاجَ، فَقَالُوا لَهُ: فِي مِثْلِ هَذَا الوَقْتِ يُزَادُ الدُّهن[5] فِي السِّرَاجِ! فَقَالَ لَهُمْ[6]: إِلَى هَذَا الوقتِ كَانَ الدُّهنُ لَهُ، وَمِنْ هَذَا الوَقْتِ صَارَ الدُّهنُ لِلوَرَثَةِ»[7].

= وورد قوله في: طبقات الصوفية ص١١١، وحلية الأولياء ١٠/٢٣١، والزهد الكبير ص١٤٤، ومناقب الأبرار ١/٣٣٦، ومسالك الأبصار ٨/٩١.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٢٦٧ ـ حديث رقم (٥٧٦٥).

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) ورد في: غريب الحديث للخطابي ١/٢٥٨، وإحياء علوم الدين ٣/١٦٦، وأعلام الموقعين ٢/١٧٥.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٧٦ ـ ٧٧.

(٥) أشار الناسخ أنه من نسخة، وهو مثبت في الرسالة القشيرية.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب، ج).

(٧) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٣٣٧، ومسالك الأبصار ٨/٩١، وطبقات الأولياء ص٣٦٠.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا فيه نَظَرٌ؛ وذلك أنَّ حقَّ الورثةِ إنَّمَا يكونُ بعدَ القيامِ بحقوقِ الميِّتِ كلِّهَا الَّتِي لا تَزرِي بحالِهِ، ولا تدلُّ علىٰ نَقْصِهِ وإهانتِهِ في دنياه، ولذلكَ كانَ الكفنُ والحَنُوطُ(١) إنَّمَا يؤخذُ علىٰ حسبِ مَرْتَبَةِ العبدِ وجَاهِهِ في الدُّنيَا من رأسِ المَالِ، ولا يقالُ: فرغَ حقُّهُ من مالِهِ بنفسِ موتِهِ حتَّىٰ يُكفَّنَ في أيِّ شيءٍ كانَ، ويزرِي بقدرِهِ وحرمتِهِ في كفنِهِ وتجهيزِهِ إلىٰ قَبْرِهِ(٢).

فإذَا تقرَّرَ ذلكَ قلنَا: السِّراجُ من حُقُوقِ الإنسانِ في دُنْيَاه، وانتفاعُهُ بهِ وإقامةُ حُرْمتِهِ، ولا سيَّمَا إذَا كانَتْ هذهِ عادتهُ فِي بيتِهِ معَ أهلِهِ، فإذَا ماتَ وقلنَا: فرغَ حقُّهُ من الدُّهنِ(٣)، ويطفأُ السِّرَاج، ويبقىٰ الأمرُ للورثةِ إنْ شاءُوا يُقدرونَهُ أو لَا، كانَ فيهِ إهمالٌ لحقِّهِ، وازدراءٌ بحُرمتِهِ، والظَّاهرُ أنَّ حقَّهُ فيهِ، ويحتملُ أنْ يخصَّ الكَفَنَ بهذهِ المَزِيَّةِ، بخلافِ بقيَّةِ أموالِهِ الَّتِي لا حقَّ لهُ فيهَا، ففي المسألةِ هذا النَّظرُ، واللهُ المُسَلِّمُ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ(٤): «**وَقَالَ حَمْدُونُ**(٥): **مَنْ نَظَرَ فِي سِيَرِ السَّلَفِ عَرَفَ تَقْصِيرَهُ وَتَخَلُّفَهُ عَنْ دَرجَاتِ الرِّجَالِ** [١/٥٦أ]».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ الصَّحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بذلُوا أموالَهُم وأنفسَهُم في سبيلِ اللهِ، وباعوا أنفسَهُم للهِ، وصدقُوا فيمَا عاهدُوا عليهِ اللهَ، كما قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، والتَّابعونَ بعدَهُم بعدَ استقرارِ الإسلامِ واشتهارِهِ في سائرِ

---

(١) هو: أنواع من الطيب تخلط للميت. انظر: تحرير ألفاظ التنبيه ص٩٦.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٤٦. وانظر: نتائج الأفكار ١/٢١٣.

(٣) سقط من (ب) قوله: من الدهن.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٧٧.

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١١٢، ومناقب الأبرار ١/٣٣٧، والاعتصام ١/٩٥، ومسالك الأبصار ٨/٩١.

الأقطارِ أَجْهَدُوا أنفسَهُمْ فِي العلومِ والأعمالِ، وانتشرَ عنهُم منَ العلمِ والأحكامِ وشدَّةِ الجهدِ في العملِ والإعراضِ عنِ الحُطَامِ(١)؛ ممَّا لا يَخْفَىٰ علىٰ مَنِ استقامَ وتتبَّعَ آثارَهُم بالاهتمامِ.

فإذا وزنَ العبدُ نفسَهُ بأحوالِهِم، لم يجِدْ عندَهُ عُشرَ عشيرِ منالِهِم، وسألَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ أنْ يُلحقَهُ بأذيالِهِم، ويَمُنَّ عليهِ ببركةِ محبَّتِهِ لهُم، وتعظيمِهِم واحترامِهِم(٢).

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «**وَقَالَ(٤): لَا تُفْشِ عَلَىٰ أَحَدٍ مَا تُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مَسْتُورًا مِنْكَ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صَحِيحٌ مُطَّرِدٌ فِي أعمالِ الدِّينِ والدُّنيَا والخَيْرَاتِ والكَرَامَاتِ، فإنَّ النَّاسَ في ذلكَ مختلفونَ؛ فمِنْهُم مَنْ لا يحبُّ أنْ يَظْهَرَ شَيءٌ من أحوالِهِ الصَّالحةِ لمقصودٍ لهُ صحيحٍ في نفسِهِ، فنقلُكَ حالَهُ وكشفُكَ ما هوَ عليهِ مستورٌ عن غيرِهِ مؤلمٌ لهُ، وإذَا كانَ هذا بالصَّلاحِ، فكيفَ بغيرِهِ منَ الأحوالِ القِبَاحِ! فيجعلُ الإنسانُ نفسَهُ أصلًا، فكلَّمَا كرهَ أنْ يُفْشِيَ مِن أحوالِهِ فلَا يُفْشِهِ إنْ عَلِمَهُ من حالِ غيرِهِ، فإنَّ النَّاسَ في ذلكَ متفاوتُونَ(٥)، إذا كانَ ذلكَ نَقْصًا.

فأمَّا إظهارُ صفاتِ الكَمَالِ فإنَّهُ يختصُّ ببعضِ الصَّالحينَ وينفردُ بِهِ الآحادُ، والنَّاسُ في ذلكَ مختلفُونَ، وعلىٰ الجملةِ فالسَّلامةُ تركُ الفُضُولِ، فيمَا يفعلُ أو يقولُ، واللهُ المستعانُ(٦).

❁ ❁ ❁

(١) في (ج): الحكام، وهو تحريف. وفي التوقيف للمناوي ص٢٨٣: «الحطام: الخبيث والحرام».
(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٤٦.
(٣) الرسالة القشيرية ١/٧٧.
(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١١٣، ومناقب الأبرار ١/٣٣٧، وصفة الصفوة ٤/١٢٢.
(٥) في (ج): متقاربون.
(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٤٧.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُم:

[٢٣] أَبُو القَاسِمِ الجُنَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ[٢]

سَيِّدُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ وَإِمَامُهُم، أَصْلُهُ مِنْ (نَهَاوَنْد)، وَمَنْشَؤُهُ ومَوْلِدُهُ العِرَاق، وَأَبُوهُ كَانَ يَبِيعُ الزُّجَاجَ[٣]، فَلِذَلِكَ يُقَالُ لَهُ: القَوَارِيرِيُّ.

وَكَانَ فَقِيهًا عَلَىٰ مَذْهَبِ أَبِي ثَوْرٍ، صَحِبَ السَّرِيَّ[٤]، والحَارِثَ المُحَاسِبِيَّ، ومُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ القَصَّابَ.

مَاتَ سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَتَيْنِ.

سَمِعْتُ[٥] مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الفَرْغَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ[٦]: وَقَدْ سُئِلَ: مَنِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٧٨.

(٢) انظر في ترجمته: الفهرست ص٢٦٤، وطبقات الصوفية ص١٢٩، وحلية الأولياء ١٠/٢٥٥، وتاريخ بغداد ٧/٢٤١، والتحبير في المعجم الكبير ١/١٦٧، ونجم المهتدي ورجم المعتدي ١/٣٠٥، وصفة الصفوة ٢/٤١٦، والأنساب ٤/٥٥٦، ومناقب الأبرار ١/٣٤١، ووفيات الأعيان ١/٣٧٣، والوافي بالوفيات ١١/١٥٧، والمستطرف ١/٣١٧، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٠، والبداية والنهاية ١١/١١٣، وسير أعلام النبلاء ٢٠/٢٧٢، ومسالك الأبصار ٨/١٠٤، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ١/٧٦، وطبقات الأولياء ص١٢٦، وشذرات الذهب ٢/٢٢٨، والنجوم الزاهرة ٣/١٦٨، والكواكب الدرية ١/٥٧٠، والإمام الجنيد سيد الطائفتين، إعداد: أحمد فريد المزيدي.

(٣) في (ب): الدجاج، وهو تحريف.

(٤) وهو خاله.

(٥) في (ف): «سمعت السلمي سمعت».

(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٣٠، والوافي بالوفيات ١١/١٥٦، والبداية والنهاية ١١/١١٤، وطبقات الأولياء ص١٢٨.

العَارِفُ؟ قَالَ: مَنْ نَطَقَ عَنْ سِرِّكَ [١/٥٦ب] وَأَنْتَ سَاكِتٌ».

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والعارفُ عندَهُم: عبارةٌ عمَّنْ تَوالَىٰ عليهِ الذِّكْرُ لمعلومِهِ ودوامُ الحُضُورِ والأدبِ معَهُ في سائِرِ حَرَكَاتِهِ وسُكُونِهِ، وغلبَ ذلكَ علىٰ قَلْبِهِ حتَّىٰ قَلَّتْ غَفَلاتُه، وعَلَتْ حَالَاتُه، وصارَ يعبدُ ربَّهُ كأنَّهُ يراهُ[١]، ومَنْ وصلَ إلىٰ هذهِ الأحوالِ توالَتْ عليهِ الكَرَامَات، وخصَّهُ اللهُ ـ سبحانه ـ بالفِرَاسةِ الصَّادقةِ وأنواعِ المُكَاشفات، فلذلِكَ قالَ: «العارفُ: مَنْ نطقَ عَنْ سِرِّكَ» وأنتَ صامتٌ، وقَدْ قالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٢]: «الأرواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فمَا تَعَارَفَ منهَا ائتَلَفَ»، وكثيرًا ما يُسلِّمُ الأولياءُ بعضُهُم علىٰ بعضٍ في أوَّلِ لُقْيَاهُم[٣]، فيردُّ عليهِ باسمِهِ، [ويَسألُهُ][٤] عمَّنْ عَرَّفَهُ باسمِهِ، فيجيبُهُ الَّذِي عرَّفَكَ.

* قَالَ الإِمَامُ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ[٥]: **«سَمِعْتُ الشَّيخَ أبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الرَّازِيَّ قَالَ: سَمِعْتُ أبا مُحَمَّدٍ الجُرَيْرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ[٦]: مَا أَخَذْنَا التَّصوُّفَ عَنِ القِيْلِ والقَالِ، لكنْ عَنِ[٧] الجُوعِ، وتَرْكِ الدُّنيا، وَقَطْعِ المَأْلُوفاتِ والمُسْتَحْسَنَاتِ».**

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والتَّصوُّفُ: عبارةٌ عنِ التَّخلُّقِ بأَشْرَفِ الأخلاقِ

---

(١) فتعريفه للعارف يصدق عليه هو. انظر: نتائج الأفكار ٢١٨/١. وللاستزادة في تعريف «العارف» انظر: معجم اصطلاحات الصوفية ص١٢٤، ومعجم مصطلحات الصوفية ص١٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٢١٣/٣ ـ حديث رقم (٣١٥٨)، ومسلم في صحيحه ٢٠٣١/٤ ـ حديث رقم (٢٦٣٨).

(٣) في (ب): لقيام.

(٤) زيادة من (ب).

(٥) الرسالة القشيرية ٧٨/١.

(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٣١، وحلية الأولياء ٢٧٧/١٠، وتاريخ بغداد ٢٤٦/٧، ومناقب الأبرار ٣٤٢/١، وذم الهوىٰ ص٥١، وتلبيس إبليس ص٢٠٨.

(٧) سقط هذا اللفظ من (ب).

الحَميدةِ[(١)]؛ من الوَرَعِ والزُّهدِ والتَّوكُّلِ والرِّضا والتَّسليمِ والمَحبَّةِ والأُنْسِ، وغيرِ ذلكَ منَ الأخلاقِ المَحْمُودَةِ المَطْلُوبَةِ، والبُعْدِ عنِ الأخلاقِ الذَّميمَةِ؛ منَ الرِّياءِ والكِبْرِ والعُجْبِ والحَسَدِ والشَّمَاتَةِ وسُوءِ الظَّنِّ والإدلالِ والسُّكُونِ إلىٰ الأعمال، وغيرِ ذلكَ من أدلَّةِ النَّقصِ والغفلَاتِ[(٢)].

وإذا كانَ هذا هوَ التَّصوُّفَ فلا يُغْنِي في تَحْصِيلِهِ: قالَ فلانٌ، وقالَ فلانٌ، ولا معرفةُ الأحوالِ والمقاماتِ من أقوالِ الرِّجال، بل لَا بُدَّ منَ الجدِّ والتَّشميرِ والبُعْدِ عنِ الشَّهواتِ والرَّاحات، وقَطْعِ المَألوفات، والجدِّ في تحصيلِ الخيرات، والتَّبرِّي منَ الحولِ والقوَّةِ في ذلكَ وإضَافَتِه إلىٰ خَالقِ الأرضِ والسَّمَاواتِ[(٣)]، فهذه أسبابُ حصولِ هذا المقامِ مِنَ التَّصوُّفِ.

وكذلكَ سُئِلَ عنهُ مرَّةً أُخرَىٰ فقالَ: «قُعُودِي تَحْتَ تلكَ الدَّرجةِ كذَا وكذَا سنةً» إشارةٌ إلىٰ الانفرادِ بحَالِه، وشُغْلِهِ بِكَمَالِ نيْلِ مَقْصُودِهِ وحُصُولِ مُرَادِه، وإذا كانَ كذلكَ احتاجَ إلىٰ فَرَاغِ القَلْبِ منَ المُشْغِلَات، والبَطْنِ منَ المُشتهيَاتِ والمَلْذُوذَاتِ[(٤)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٥)]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يَقُولُ: سمِعْتُ أبا بَكْرِ الرَّازِي يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُرَيريَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيدَ** [١/١٥٧أ] **يَقُولُ**[(٦)] **لرجلٍ ذَكَرَ المَعْرِفَةَ وَقَالَ: أهلُ المَعْرِفَةِ باللهِ يَصلُونَ إلَىٰ تركِ الحرَكَاتِ من بَابِ البرِّ**

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) للمزيد في تعريفاته انظر: تهذيب الأسرار ص٢٥، وما بعدها، والتعريفات ص٨٣.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٤٨.

(٤) في (ج): والملذذات.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٧٨ ـ ٧٩.

(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٣١، وحلية الأولياء ١٠/٢٧٨، ومناقب الأبرار ١/٣٤٢، والاعتصام ص٩٥، ومدارج السالكين ٢/١٠٠.

والتَّقرُّبِ إلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ! فقالَ الجُنَيْدُ[(١)]: إنَّ هَذَا قَوْلُ قَوم تَكَلَّمُوا بإِسْقَاطِ الأَعْمَالِ، وَهُوَ عِنْدِي عَظِيمَةٌ، والَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي أَحْسَنُ حالًا من الَّذِي يَقُولُ هَذَا[(٢)]، [و]إنَّ العَارِفِينَ باللهِ ـ تعالىٰ ـ أخذُوا الأعمالَ عَنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وإليهِ رجعُوا[(٣)] فِيهَا، ولوْ بقيتُ ألفَ عامٍ لَمْ أَنْقُصْ مِنْ أَعْمَالِ البِرِّ ذَرَّةً إلَّا أَنْ يُحَالَ بِي دُونَهَا».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ قالَ: إنَّمَا تُزادُ الطَّاعاتُ من الصَّومِ والصَّلواتِ والذِّكْرِ والمُنَاجاةِ وغيرِ ذلكَ من أنواعِ المَقَامَاتِ إلَّا لتوصِّلَ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فإذَا وصَّلَتْ إليهِ استُغْنِيَ عنهَا، فهذا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: «**إنَّ هذَا قولُ قومٍ تكلَّمُوا بإسقاطِ الأعمالِ، وهوَ عِنْدِي**[(٤)] عظيمةٌ، **والَّذِي يسرقُ ويزنِي أحسنُ حالًا**[(٥)] **منهُ**»، وهوَ صحيحٌ؛ لأنَّ مَنْ يسرقُ ويزنِي يَعْرِفُ نقصَهُ وعصيانَهُ ويرجو النَّقلةَ عمَّا هوَ فيهِ، والتَّوبةَ إلىٰ ربِّهِ، ومَنْ تدبَّرَ بترْكِ الأعمالِ يعتقدُ أنَّهُ في أرفعِ مقاماتٍ وأحسنِ الأحوالِ، فلا يرجعُ عن هذا الشَّرِّ أبدًا، وهوَ قولُ الجُنيدِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**إنَّ العارفينَ أخذُوا الأعمالَ عنِ اللهِ**» امتثالًا لأمْرِهِ، «**وإليهِ رَجَعُوا فيهَا**»، أيْ: هوَ الَّذِي يُعينُهُم عليهَا ويقوِّيهم ويجزيهِم بهَا، وأخبرَ عن نفسِهِ أنَّهُ لو بقِيَ في الدُّنيَا مَا أبقاهُ اللهُ لم يتركْ مِنْ أورادِهِ شيئًا إلَّا أنْ يعجزَ عَنْ ذَلِكَ، فيكونَ مَعْذُورًا، فَبَيَّنَ خطأَ هذِهِ الطَّائفةِ بقولِهِ وفعلِهِ جميعًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَحِمَهُٱللَّهُ[(٦)]: **«وَقَالَ الجُنَيْدُ[(٧)]: إنْ أَمْكَنَكَ أَلَّا تَكُونَ آلَةُ بيتِك**

---

(١) أعاد ذكر اسمه؛ لطول الفصل.

(٢) في (ب): يرجعوا.

(٣) أي: هذا القول.

(٤) أي: وهو عندي هفوة، أو زلة. انظر: إحكام الدلالة ١/١٤٩، ونتائج الأفكار ١/٢١٨.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ج).

(٦) الرسالة القشيرية ١/٧٩.

(٧) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٣٢، ومناقب الأبرار ١/٣٤٢، وصفة الصفوة ٢/٣٧٥.

إِلَّا خزَفًا .. فَافْعَلْ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا تحريضٌ على التَّقلُّلِ منَ الدُّنيَا، والاحترازِ باليسيرِ منهَا؛ وهوَ الفُخَّارُ دونَ النُّحَاسِ وغيرِهِ، فإنَّ ذلكَ يدلُّ على طولِ الأملِ ورجاءِ الانتفاعِ بالآلةِ فيما يأتي منَ الزَّمانِ، والصُّوفيُّ ابنُ وقتِهِ(١)، وموتُهُ بينَ عينَيهِ، فينبغِي أنْ يجتزِئَ منَ الدُّنيَا بمَا تيسَّرَ منَ القوتِ واللِّباسِ وغيرِ ذلكَ ممَّا تيسَّرَ منَ الآلاتِ(٢).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وَقَالَ الجُنَيْدُ(٤): الطُّرُقُ كُلُّهَا مَسْدُودَةٌ عَنِ الخَلْقِ إِلَّا عَلَى مَنِ اقْتَفَى أَثَرَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ الطُّرُقَ المرادُ منهَا: ما يوصلُ إلى اللهِ، ولا يُوصَلُ إلى اللهِ إلَّا بطاعتِهِ واتِّبَاعِ مَرضَاتِهِ(٥)، ولا يعرفُ ذلكَ إلَّا مِنْ [١/٥٧ب] قولِ رسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفعْلِهِ، فكلُّ مَنْ لَمْ يسلُكْ منَ الطُّرُقِ ما بيَّنَهُ الرَّسولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وسَلَكَهُ إلى ربِّهِ فهوَ بعيدٌ مِنْ قُرْبِهِ، وليسَ مَعْدُودًا مِنْ حِزْبِهِ، ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٦): «سمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سمِعْتُ أبا عَمْرٍو(٧) الأنماطِيَّ يَقُولُ: سمِعْتُ الجُنَيْدَ

---

(١) فهو دائما لا يشتغل إلا بوظيفة الحال.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٤٩.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٧٩.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٣٢، ومناقب الأبرار ١/٣٤٢.

(٥) فلا طريقة إلا على موجب الشريعة، ولا وسيلة في القرب إلى بمتابعة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٧٩.

(٧) في النسخ: عمر، والتصويب من الرسالة القشيرية، ومظان تخريج القول.

يَقُولُ[١]: لَوْ أَقْبَلَ صَادِقٌ عَلَى اللهِ ـ تعالىٰ ـ أَلفَ أَلفِ سَنَةٍ، ثُمَّ أعرَضَ عَنْهُ لحظةً.. كَانَ مَا فَاتَهُ أَكْثَرَ مِمَّا نَالَهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ لأنَّ الصَّادقَ في سُلُوكِهِ إلىٰ ربِّهِ كلَّ يومٍ يَتَرَقَّىٰ في دَرَجِ قُرْبِهِ، فتكملُ معارفُهُ بربِّهِ وبجلالِهِ وعَظَمَتِهِ، فهوَ في كلِّ درجةٍ مرتقبٌ لمَا هوَ أعلىٰ منهَا، وإنَّمَا يطيقُ حملَ الأعلىٰ بما تقدَّمَ لهُ منَ الأسبابِ المقويَّةِ لهُ، بفضْلِ ربِّهِ.

وإذا كانَ كذلكَ وهوَ في كلِّ يومٍ في ازديادٍ وما حصلَ لهُ منَ المَعَارفِ سببٌ وتقويةٌ لحملِ ما يفتحُ بهِ عليهِ ممَّا لم ينَلْهُ، فإذَا أعرضَ عمَّا هوَ فيهِ منَ السُّلوكِ ونَيْلِ الخيراتِ، فقَدْ فاتَهُ في حَالِ إعراضِهِ ما هو أفضلُ منْ جميعِ ما نالَهُ؛ فإنَّ ما نالَهُ وسيلةٌ لحمْلِ ما لمْ ينَلْهُ[٢].

وبهذا الاعتبارِ كانَ التَّدريجُ في السُّلوكِ رحمةً منَ اللهِ بالسَّالكينَ في سَائِرِ المَقَامَاتِ، فإنَّهُمْ إنْ أنالُوا منهَا شيئًا كانَ ذلكَ عَوْنًا لهُمْ علَىٰ حمْلِ مَا بعدَهُ، ويمثلُ ذلكَ بأنَّ العبدَ يعلمُ أنَّهُ لا ضارَّ ولا نافعَ ولا مُعْطِي ولا مانعَ لسائِرِ مَا هوَ فيهِ وغيرِهِ إلَّا اللهُ، وعوائدُهُ تُجاذبُهُ، والتفاتُهُ إلىٰ الأسبابِ يشغلُهُ ويصدُّهُ، فإذَا قوِيَ في سُلُوكِهِ يقينُهُ وثبتْ لبعْضِ المهمَّاتِ والنَّوازلِ المُؤلِمَاتِ حتَّىٰ أَتَتْهُ مِنْ ربِّهِ المَعُونَاتُ حصلَ لهُ منَ اليقينِ بانفرادِ ربِّهِ بالأفعالِ طرفٌ، ثمَّ طرقتهُ كائنةٌ أخرىٰ أطمَّ منَ الأولىٰ التفتَ فيهَا إلىٰ الأسباب، وتسبَّبَ في خلاصِهِ منها بأحبِّ الإخوانِ والأصحاب، فلم يجدْهُم يغنُوا عنه شيئًا، فرجعَ إلىٰ ربِّهِ بالافتقارِ، وسألَهُ وتضرَّعَ إليه في الانتصارِ، فاتَتْهُ المعونةُ من ربِّهِ في الحال، ولمْ يجدْ شيئًا ممَّا كانَ يخافُهُ في المآل، فقَدْ تزايدَ

---

(١) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٣٣، وحلية الأولياء ١٠/٢٧٨، ومناقب الأبرار ١/٣٤٢، وصفة الصفوة ٢/٤٢١، ومدارج السالكين ١/٢٩٧، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٥.

(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٥٠.

يقينُهُ وحملَ هذِهِ الكائنةَ العظيمةَ بمَا تقدَّمَ لهُ منَ الألطافِ، وكذلكَ يتراقَىٰ فِي الدَّرجاتِ، حتَّىٰ يتمَّ ما قالَهُ سفيانُ الثَّوريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ لَمْ تمطرِ السَّماءُ، ولو لمْ تنبتِ الأرضُ، ووقعَ في نفسِي اهتمامُ الرِّزقِ؛ لظننْتُ أنِّي كافرٌ»، وذلكَ لكمالِ إعراضِهِ عنِ الأسبابِ، وحُصُولِ ما يحتاجُ [١٥٨/١أ] إليهِ مِنْ رَبِّ الأَرْبَابِ لَا غيرُ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ الجنيدُ[٢]: مَنْ لَمْ يحفَظِ القُرْآنَ وَلَمْ يكتُبِ الْحَدِيثَ [فـ][٣]لا يُقْتَدَىٰ بِهِ فِي هَذَا الأمْرِ[٤]؛ لأنَّ عِلْمَنَا هَذَا مقيَّدٌ بالكتَابِ والسُّنَّةِ[٥]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «مَنْ لم يحفَظِ القرآنَ ولمْ يكتبِ الحديثَ لا يُقْتَدَىٰ بِهِ»، لمْ يُرِدْ أنَّهُ يحفظُ القرآنَ بلسانِهِ تِلَاوةً، وكذلِكَ الحديثُ نَقْلًا، وإنَّمَا يريدُ مَا فهمَ من أحكامِهِمَا منَ الحلالِ والحرامِ، وكانَ فقيهًا في الأحكامِ، وعلمَ[٦] النَّصَّ والظَّاهرَ، والعامَّ والخاصَّ، والمطلقَ والمقيَّدَ، والنَّاسخَ والمنسوخَ، ومحلَّ الإجماعِ والخلافِ، هذَا هوَ الَّذِي يُقْتَدَىٰ بهِ، وقالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٧]: «رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»؛ فالأوَّلُ فقيهٌ في النَّقْلِ، والثَّانِي أفقهُ منهُ في النَّقْلِ والحُكْمِ.

وفيهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ العِلْمَ بطريقِ المريدينَ والسَّالكينَ يرجعُ إلىٰ هذِهِ الأصولِ: الكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ، وهوَ معنىٰ[٨] قولِهِ: «عِلْمُنَا هذا مقيَّدٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ»؛

---

(١) الرسالة القشيرية ٧٩/١.

(٢) رد قوله في: مناقب الأبرار ٣٤٢/١، ومدارج السالكين ٤٠/٢، والاعتصام ٩٥/١، والبداية والنهاية ١١٤/١١، وشذرات الذهب ٢٢٨/٢.

(٣) زيادة من (ف).

(٤) أي: التصوف.

(٥) والإجماع والقياس يرجعان إليهما.

(٦) في (ب): وعرف.

(٧) أخرجه أبو داود في سننه ٣٢٢/٣، وابن ماجه في سننه ٨٤/١، والترمذي في سننه ٣٣/٥.

(٨) سقط هذا اللفظ من (ب).

أيْ: مُسْتَدَلٌّ[١] عليهِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «سمِعْتُ مُحمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سمِعْتُ أبا نَصْرٍ الأَصْبَهَانِيَّ يَقُولُ: سمِعْتُ أبَا عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيَّ يَقُولُ عَنِ الجُنَيدِ[٣]: مَذْهَبُنَا هَذَا مقيَّدٌ بالأُصُولِ؛ الكتاب والسُّنَّةِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ففي الأوَّلِ[٤] قالَ: «عِلْمُنَا مقيَّدٌ»، يعني يدلُّ على صحَّةِ العلمِ، وهاهُنَا مذهبُنَا يدلُّ على صحَّةِ السُّلوكِ، فلم يستغنُوا في عِلْمِهِم ولا عَمَلِهِمْ عنِ الكتابِ والسُّنَّةِ بحالٍ[٥].

وفيهِ ردٌّ على مَنْ يعتمدُ في سُلُوكِهِ على ما يقعُ في قلبِهِ منَ الخواطِرِ، ويَزْعُمُ أنَّهَا عنِ[٦] اللهِ صادقةٌ، فلا يمكنُهُم مخالفتُهَا، ويستغنِي عن وزنِهَا بالكتابِ والسُّنَّةِ، وهذَا هوَ الضَّلالُ المبينُ![٧] نعَمْ، لا يُنكرُ حفظُ اللهِ ـ تعالى ـ للأولياءِ في خواطِرِ قلوبِهِم وعزومِهَا وأعمالِ جوارِحِهِم، ومنْ عَلامَةِ حِفْظِهِ لهُمْ أنْ يكونَ ما يقعُ لهُم مُوافقًا لمَا جاءَتْ بهِ الأنبياءُ عنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مَشْهُودًا[٨] لهُ بِالصِّحَّةِ.

---

(١) في (ب): يستدل.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٧٩.

(٣) ورد قوله في: وفيات الأعيان ١/٣٧٣، وإغاثة اللهفان ١/١٢٥، وتلبيس إبليس ص٢٠٨.

(٤) أي: في القول الذي سبق هذا القول.

(٥) قال الإمام الشاطبي مقررًا ذلك: «.. فأول شيء بنوا عليه طريقتهم اتباع السنه واجتناب ما خالفها، حتى زعم مذكرهم وحافظ مأخذهم وعمود نحلتهم أبو القاسم القشيري أنهم إنما اختصوا باسم التصوف انفرادا به عن أهل البدع فذكر أن المسلمين بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتسم أفاضلهم في عصرهم باسم علم سوى الصحبة إذ لا فضيلة فوقها» الاعتصام ١/٨٩.

(٦) في (ب): من.

(٧) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٥٠.

(٨) في (ب): مشهودٌ، والصواب المثبت.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ الجُنيدُ[(٢)]: عِلْمُنَا هَذَا مُشَيَّدٌ بحَدِيثِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٣)].

أنبأَنَا مُحَمَّدُ بنُ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ[(٤)]: سمِعْتُ أبا الحُسَيْنِ بنَ فَارِسٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أبا الحُسَيْنِ عَلِيَّ بْنَ إِبْرَاهِيم الحَدَّادَ يَقُولُ: حضَرْتُ مجلسَ القَاضِي أَبِي العَبَّاسِ بنِ سُرَيجٍ، فتكلَّمَ فِي الفُرُوعِ والأصولِ [١/٥٨ب] بكلامٍ حسَنٍ أعجبتُ به[(٥)]، فلمَّا رأىٰ إعجابِي قَالَ: أَتَدْرِي مِنْ أَيْنَ هَذَا؟ قُلْتُ: يَقُولُ بِهِ القَاضِي، فَقَالَ: هَذَا بركةُ مُجَالَسَةِ أَبِي القَاسِمِ الجُنَيدِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ جودةَ الكَلامِ في العُلُوم إنَّمَا يكونُ لكَمَالِ التَّثبُّتِ وامتحانِ ما يطرقُ القلبَ، فإذَا صحَّ بالنَّظرِ السَّديدِ عبَّرَ اللِّسانُ عنهُ، وإذَا كانَ العَبْدُ مخلصًا في أعمالِ قلبِهِ وجوارِحِهِ في أسبابِ دُنْيَاهُ وآخِرتِهِ فلا يوقعُ منهَا شيئًا حتَّىٰ يتثبَّتَ فيهِ، ويعرفَ وجْهَ صحَّتِهِ من فسادِهِ، وتخلُّصِهِ لربِّهِ، ودامَ علىٰ هذِهِ الأحوالِ مُدَّةً، جرَتْ علومُهُ وأعمالُهُ محكمةً متقنةً مبرَّأَةً منَ الآفاتِ؛ لِعِلْمِهِ بالمُفْسِدَاتِ والمُنْقِصَاتِ.

فإذَا تكلَّمَ مَنْ هذِهِ صفتُهُ في علمٍ منَ العُلُومِ المتعلِّقَةِ بالقلوبِ أوِ الجوارحِ، كانَ كلامُهُ بعيدًا عنِ الخطأِ، سالمًا منَ الآفاتِ، مشيرًا إلىٰ أعلىٰ المقاماتِ؛ و«همُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٧٩.

(٢) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٧/٢٤٣، ومسالك الأبصار ٨/١٠٧، ومدارج السالكين ٢/١٠٠، والاعتصام ١/٩٥، ومفتاح الجنة للسيوطي ص٧١.

(٣) أي: مرتفع بحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الحديث الشريف هو الكاشف لأسرار الكتاب العزيز: تارة ببيان المراد، وتارة بالتقييد والتخصيص، وتارة بالنسخ للحكم، وغير ذلك. انظر: نتائج الأفكار ١/٢٢٠.

(٤) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٧/٢٤٣، ومناقب الأبرار ١/٣٤٢ ـ ٣٤٣، ومسالك الأبصار ٨/١٠٧.

(٥) في (أ، ج): منه، والأصح المثبت.

القومُ لا يشْقَى بهِمْ جليسُهُمْ»[١]، بَلْ يسعَدُ وينتفعُ ويزدادُ درجتُهُ، وينتفعُ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

❁ قَالَ الإِمَامُ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ[٢]: «وقِيلَ للجُنيدِ[٣]: مِنْ أَيْنَ استفَدْتَ هَذا العلمَ؟ فقَالَ: مِنْ جلوسِي بَيْنَ يدَيِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ[٤] ثلاثينَ سنةً تَحْتَ تلكَ الدَّرجةِ، وأَوْمَأَ إِلَى درجَةٍ فِي دارِهِ. سَمِعْتُ الأستاذَ أبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاق رَحِمَهُ اللَّهُ يحكِي ذَلِكَ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا قَدْ تقدَّمَ الكلامُ عليهِ، ونبَّهنا أنَّهُ ليسَ بقعودِهِ تحتَ الدَّرجةِ خاصَّةً، وإنَّما هوَ للزومِهِ لأَوْرَادِهِ، واشتغالِهِ بإصلاحِ قلْبِهِ وجَوَارِحِهِ، وجمعِ حَالِهِ معَ مَولاه، وإِعْرَاضِهِ عَنْ كلِّ ما يشغلُهُ عَنْ ذلكَ ويأْبَاه.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وسمِعْتُهُ[٦] يَقُولُ[٧]: رُؤِيَ فِي يَدِهِ[٨] سِبْحَةٌ، فقِيلَ لَهُ: أَنْتَ مَعَ شَرَفِكَ تَأْخُذُ بِيَدِكَ سِبْحَةً! فَقَالَ: طريقٌ بِهِ وَصَلْتُ إِلَى رَبِّي لَا أُفَارِقُهُ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على ملازمتِهِ لأورادِهِ، وعدمِ ذِكْرِهِ وتسبيحاتِهِ، حتَّى لا يخلَّ بشيءٍ منهَا، وهوَ يدلُّ على كمالِ اجتهادِهِ وملازمتِهِ لما

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٧٩.

(٣) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٧/٢٤٥، ومناقب الأبرار ١/٣٤٣، ومسالك الأبصار ٨/١٠٧، والبداية والنهاية ١١/١١٤.

(٤) أي: من دوام مراقبة الحق سبحانه وتعالى في كامل حركاتي وسكناتي ثلاثين سنة. انظر: نتائج الأفكار ١/٢٢١.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٨٠.

(٦) أي: أبو علي الدقاق.

(٧) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٧/٢٤٥، والزهد الكبير ص٢٩٣، ومناقب الأبرار ١/٣٤٣، ومدارج السالكين ٣/١٢٠، ومسالك الأبصار ٨/١٠٧.

(٨) أي: الجنيد.

عزَمَ عليهِ لمولَاهُ[(١)].

ولهذَا قيلَ لبعضِهِمْ ورَأَوْهُ يعقدُ التَّسبيحَ على يدِهِ: «أنْتَ تعدُّ التَّسبيحَ على اللهِ! فقالَ: لَا، أنَا أعدُّ لهُ لا عليهِ»، وهذَا منَ الكياسَةِ؛ لأنَّهُ قدْ جاءَ مَنْ قالَ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ مائةَ مرَّةٍ»[(٢)]، و: «مَنْ سبَّحَ ثلاثًا وثلاثينَ، وكبَّرَ ثلاثًا وثلاثينَ، وحمدَ ثلاثًا وثلاثينَ» عندَ نومِهِ [١/١٥٩أ] وفي آخرِ صلاتِهِ[(٣)]، وفي روايةٍ عشرَ مَرَّاتٍ[(٤)]، فمَنْ فعلَ ذلكَ لأمْرِ اللهِ فهوَ يعدُّ لهُ لا عليهِ، وهذا هو التَّبرِّي منَ الأعمالِ، وإيقاعُهَا لهُ بحكمِ الامتثالِ، والاستعانةُ به في كلِّ حالٍ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: **«وسَمِعْتُ الأستاذَ أبا علِيٍّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ**[(٦)]: **كَانَ**

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٥١.

(٢) في المعجم الكبير ٢٤/٤٣٤: «... وَقُولِي: لا إِلَهَ إلا اللهُ مِائَةَ مَرَّةٍ، لا يَذَرُونَ دِينًا وَلا يَسْبِقُهُنَّ عَمَلٌ». وفي المعجم الأوسط ٦/٢٤٨: «وقولي لا إله إلا الله مائة مرة فهو خير لك مما أطبقت عليه السماء والأرض». وفي مسند الشاميين ٢/١٠٣: «ما من عبد يقول: لا إله إلا الله مائة مرة إلا بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر».

(٣) ففي صحيح البخاري ٣/١١٣٣ ـ حديث رقم (٢٩٤٥): «.. إذا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا فَكَبِّرَا اللهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فإن ذلك خَيْرٌ لَكُمَا مِمَّا سَأَلْتُمَاهُ». وفي صحيح مسلم ١/٤١٨: «عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من سَبَّحَ اللهَ في دُبُرِ كل صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَتْلِكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وقال تَمَامَ الْمِائَةِ: لَا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له له الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وهو على كل شَيْءٍ قَدِيرٌ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كانت مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ».

(٤) ففي سنن الترمذي ٥/٥١٥: «من قال في دُبُرِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وهو ثَانِي رِجْلَيْهِ قبل أَنْ يَتَكَلَّمَ: لَا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له له الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وهو على كل شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ كتب له عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمُحِيَتْ عنه عَشْرُ سَيِّئَاتٍ، وَرُفِعَ له عَشْرُ دَرَجَاتٍ، وكان يَوْمَهُ ذلك في حِرْزٍ من كل مَكْرُوهٍ وَحُرِسَ من الشَّيْطَانِ..».

(٥) الرسالة القشيرية ١/٨٠.

(٦) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٧/٢٤٥، وشعب الإيمان ٣/١٧١، وصفة الصفوة ٢/٤١٨، وتاريخ=

الجُنَيْدُ يَدْخُلُ كُلَّ يَوْمٍ حَانُوتَهُ، وَيُسبلُ السِّتْرَ، ويُصَلِّي أربعمائَةِ ركعةٍ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَىٰ بيتِهِ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ العَطَوِيُّ[١]: كنتُ عِنْدَ الجنيدِ حِينَ مَاتَ؛ خَتَمَ القُرْآنَ، ثُمَّ ابتدأَ منَ (البقرةِ)، وقرأَ سبعينَ آيةً، ثُمَّ مَاتَ رَحِمَهُ اللهُ»[٢].

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهاتانِ الحكايتَانِ يَدُلَّانِ علىٰ كَمَالِ اجتهادِهِ وملازمتِهِ لأورادِهِ إلىٰ حينِ وفاتِهِ.

ومِنْ كلامِهِ[٣]: «مَنْ طلبَ عزًّا بباطلٍ أورثَهُ اللهُ ذُلًّا بِحَقٍّ».

وفي الحكايةِ الأخرَىٰ: إشارةٌ إلىٰ سَتْرِ أعمالِهِ وملازمتِهِ للأسباب؛ ليكونَ بينَهُ وبينَ مَنْ لا يعرفُهُ أكبرُ حِجَابٍ، وذلكَ أنَّهُ إذا أُرِيَ فِي دُكَّانِهِ فهوَ متشبِّهٌ بالمُستبِّبينَ المُكْتسبينَ، ويسبلُ[٤] السِّترَ بينَهُ وبينَ النَّاسِ؛ ليظنَّ أنَّهُ في إصلاحِ أسبابِ دكَّانِهِ، وهوَ مشتغلٌ بالوفاءِ بأورادِهِ وأسبابِ عَوْنِهِ منْ ربِّهِ وإسعَادِهِ.

وكونُهُ يُصلِّي مَائتَي تَسْليمةٍ يَدُلُّ علىٰ أنَّهُ يخفِّفُ القِرَاءةَ بالنَّهارِ، ويكثرُ الرُّكوعَ والسُّجودَ، وهذا هوَ الأحسنُ في أعمالِ النَّهارِ، وأكملُ في سترِ حالِهِ لِمَنْ يطرقُهُ مِنَ النَّاسِ في بعضِ أشغالِهِ، فيسرعُ إلىٰ جَوَابِهِ لِخِفَّةِ صَلاتِهِ، بخلافِ صَلاةِ اللَّيلِ التِي هو فيها بَعِيْدٌ عنِ المُشغِلاتِ، فارغُ القلبِ لكَمَالِ المُنَاجاة، وطولُ القيامِ وكثرةُ القراءةِ فيها دأبُ العمَّال، وكذلكَ طولُ السُّجودِ بينَ يدَي ذِي الجلال، وقدْ

= الإسلام ٢٢/١٢١، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦١.

(١) في (أ، ج): القطوي، والصواب المثبت، كما في الرسالة القشيرية، ومظان تخريج قوله.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٦٤، وتاريخ بغداد ٧/٢٤٨، ومناقب الأبرار ١/٣٤٣، ومدارج السالكين ٣/١٢١، وتاريخ الإسلام ٢٢/١٢٢، وسير أعلام النبلاء ١٤/٧٦، والنجوم الزاهرة ٣/١٧٠.

(٣) عُزي لعبد الله بن أبي لبابة في: محاضرات الأدباء ١/٢٦٩.

(٤) في (ب): وسبل.

وصفَتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا صلاةَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَتْ(١): «كانَ يصلِّي أَرْبعًا، فلا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ».

وفي حديثِ ابنِ عبَّاسٍ(٢): «صَلَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ ركعتَينِ، ثُمَّ ركعَتَينِ، ثمَّ ركعتَينِ، ثمَّ ركعتَينِ».. الحديث.

ففي روايةٍ(٣): «عشرًا، وأوترَ بواحدةٍ».

وفي روايةٍ(٤): «اثني عشرَ، وأوترَ بواحدةٍ» إذا خشِيَ الصُّبحَ، وهذَا يدلُّ على طولِ القيامِ.

❁ ❁ ❁

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ١/٣٨٥ ـ حديث رقم (١٠٩٦)، ومسلم في صحيحه ١/٥٠٩ ـ حديث رقم (٧٣٨).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ١/٧٨ ـ حديث رقم (١٨١)، ومسلم في صحيحه ١/٥٢٦ ـ حديث رقم (٧٦٣).

(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٢/١٤٠، ولفظه: «سمعت جابر بن عبد الله قال: رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أناخ راحلته، ثم نزل فصلَّى عشر ركعات وأوتر بواحدة، صلَّى ركعتين ركعتين، ثم أوتر بواحدة، ثم صلى ركعتي الفجر، ثم صَلَّى بنا الصبح».

(٤) كما في مختصر كتاب الوتر للمقريزي ص٥٦، ولفظه: «وفيه حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: فعد زيد بن خالد صلاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ركعتين ركعتين؛ اثنتي عشرة ركعة ثم قال: ثم أوتر، فذلك ثلاث عشرة ركعة».

ولفظه في سنن أبي داود ٢/٤٧: «عن زَيْدِ بن خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قال لَأَرْمُقَنَّ صَلَاةَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّيْلَةَ، قال: فَتَوَسَّدْتُ عَتَبَتَهُ أو فُسْطَاطَهُ فَصَلَّى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ صلى رَكْعَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ، ثُمَّ صلى رَكْعَتَيْنِ وَهُمَا دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا، ثُمَّ صلى رَكْعَتَيْنِ دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا، ثُمَّ صلى رَكْعَتَيْنِ دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا، ثُمَّ صلى رَكْعَتَيْنِ دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا، ثُمَّ أَوْتَرَ فَذَلِكَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً».

قَالَ الإِمَـامُ - رحمةُ اللهِ عليهِ - [(١)]:

«وَمِنْهُم:

[٢٤] أَبُو عُثْمَانَ سَعِيدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الحِيَرِيُّ [(٢)]

المقيمُ بـ(نيسَابورَ)، وَكَانَ مِنَ (الرِّيِّ)، صَحِبَ شَاه الكِرْمَانِي، ويحيَىٰ بن معاذٍ.

ثمَّ وردَ (نيسابورَ) معَ شَاه الكرمانِي علَىٰ أَبِي حفصٍ الحدَّادِ، وأقامَ عندَهُ، وتخرَّجَ بِهِ [١/٥٩ب]، وزَوَّجَهُ أَبُو حفصٍ ابنتَهُ.

مَاتَ سنةَ ثمانٍ وتسعينَ ومائتَينِ، وعاشَ بَعْدَ أَبِي حفصٍ نيِّفًا وثلاثينَ سنةً.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أبا عَمرو بْنَ حمدانَ يَقُولُ: سمِعْتُ أبا عُثْمَانَ يَقُولُ [(٣)]: لَا يَكْمُلُ إِيمَانُ الرَّجُلِ حَتَّىٰ يَسْتَوِيَ فِي قَلْبِهِ أَرْبَعَةُ أشياءَ: المَنْعُ، وَالعَطَاءُ، وَالعِزُّ، وَالذُّلُّ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا في أسبابِ الدُّنيَا لا في أسبابِ الآخرةِ، ومتىٰ كانَ المَنْعُ نَقْصًا مِنَ الخيرِ، والعَطَاءُ فعلًا منَ الشَّرِّ، فلا ينبغي أنْ يستويَ عندَهُ بالنَّظرِ لمنفعتِهِ في آخرتِهِ، وعليهِ أنْ يبكيَ ويتضرَّعَ ويستغيثَ ويتنصَّلَ [(٤)].

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٨١.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٤٠، وحلية الأولياء ١٠/٢٤٤، وتاريخ بغداد ٩/٩٩، ومناقب الأبرار ١/٣٧٩، والإكمال ٣/٤٣، ووفيات الأعيان ٢/٣٦٩، والأنساب ٢/٢٩٨، ومسالك الأبصار ٨/١١٠، والبداية والنهاية ١١/١١٥، وتاريخ الإسلام ٢٢/١٤٩، وسير أعلام النبلاء ١٤/٦٣، وطبقات الأولياء ص٢٣٩، وشذرات الذهب ٢/٢٣٠، والنجوم الزاهرة ٣/١٧٧، والطبقات الكبرىٰ ١/١٥٨، والكواكب الدرية ١/٦٢٣. والحِيَري: نسبة الحِيرة، محلة بنيسابور.

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٤٥، ومناقب الأبرار ١/٣٨٠، وتاريخ الإسلام ٢٢/١٥١، وطبقات الأولياء ص٢٤٠.

(٤) في اللسان «ن ص ل»: «التنصل: شبه التبرؤ من جناية أو ذنب، وتنصل إليه من الجناية: خرج وتبرأ».

وأمَّا بالنَّظرِ إلىٰ ربِّهِ فيستوِي منْ حيثُ أنَّ لهُ أنْ يفعلَ ما يشاءُ منَ الخيرِ والشَّرِّ، ولا يُنْسَبُ في ذلكَ إلىٰ ظلمٍ ولا جَوْرٍ - تعالىٰ عَنْ ذلِكَ علوًّا كبيرًا -.

وأمَّا العِزُّ والذُّلُّ، فالعزُّ باللهِ والذُّلُّ لهُ مَحْمُودَانِ، والعِزُّ بالدُّنيَا والتَّذلُّلُ لأهلِهَا طَمَعًا فيها مَذْمُومَانِ، وهمَا يَسْتَويانِ من وجهٍ، ولا يستويانِ من وجهٍ[1].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: **«سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سمِعْتُ بَعْضَ أَصْحَابِ أَبِي عُثْمَانَ يَقُولُ: سمِعْتُ أبا عثمانَ يقولُ[3]: صحِبْتُ أَبَا حفصٍ مُدَّةً وَأَنا شَابٌّ، فَطَرَدَنِي مَرَّةً وَقَالَ: لَا تَجْلِسْ عِنْدِي، فَقُمْتُ وَلَمْ أُوَلِّه ظَهْرِي، وَانْصَرَفْتُ إِلَىٰ وَرائِي وَوَجْهِي إِلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ غِبْتُ عَنْهُ، وَجَعَلْتُ عَلَىٰ نَفْسِي أَنْ أَحْفِرَ عَلَىٰ بَابِهِ حُفْرَةً لَا أَخْرُج مِنْهَا إِلَّا بِأَمْرِهِ، فَلَمَّا رَأَىٰ ذَلِكَ أَدْنانِي، وَجَعَلَنِي مِنْ خَوَاصِّ أَصْحَابِهِ.**

وَكَانَ يقالُ[4]: فِي الدُّنيَا ثلاثةٌ لا رابعَ لَهُمْ: أَبُو عُثْمَانَ بِـ(نيسابُورَ)، والجُنَيدُ بِـ(بَغْدَادَ)، وأبو عَبْدِ اللهِ بْنِ الجلَّا بِـ(الشَّامِ)».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُهُ في الحكايةِ عن نفسِهِ لمَّا طردَهُ أبو حفصٍ، ففيهَا دليلٌ علىٰ قوَّةِ رغبتِهِ في الخيرِ، واحتمالِ ما يلقَىٰ منَ الأذيَّةِ في ذلكَ، وهي وصيَّةُ المُريدِينَ الرَّاغبينَ في السُّلوكِ والمقتدِينَ بالمَشَايخِ، وذلكَ أنَّهُم لا يطرُدُونَ شَخْصًا إلَّا إذا أساءَ أدبَهُ، وقدْ يَطْرُدُونَهُ امتحانًا؛ ليعرفوا شدَّةَ رَغْبَتِهِ[5]، فلمَّا طردَهُ

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٥١.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٨١.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١٤/٧٠، ومسالك الأبصار ٨/١١٢، وشذرات الذهب ٢/٢٣٠.

(٤) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٧/٢٤٦، ومناقب الأبرار ١٤/٧٠، وبغية الطلب ٣/١٢٣٥، وسير أعلام النبلاء ١٤/٧٠.

(٥) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٥٣.

هذا الشَّيخُ تأدَّبَ معَهُ، فلمْ يولِّهِ ظهرَهُ وتأخَّرَ عنهُ ووجهُهُ لوجهِهِ، حتَّىٰ غابَ عنهُ، ثمَّ فكَّرَ في نفسِهِ، فلم يجِدْ مَنْ ينتفعُ بهِ سِوَاهُ، فحفرَ حفرةً علىٰ بابِ دارِ الشَّيخِ، وصارَ يلازمُهَا فيقضِي مَا لا بُدَّ لهُ منهُ في الضَّرورةِ، ويعودُ فيجلسُ إليها، فلمَّا عرَفَ ذلكَ الشَّيخُ مِنْ صَبْرِهِ وَشِدَّةِ رَغْبَتِهِ فِي الخَيْرِ قَرَّبَهُ وَأَدْنَاهُ [١/١٦٠أ] وانتفعَ بهِ.

وفي هذه الحكايةِ تَنْبِيهٌ مِنْ وَجْهٍ آخرَ؛ وهوَ أنَّ المُريدَ إذا أبعدَهُ الحقُّ[(١)] ـ سبحانه ـ بسببِ زلَّةٍ زلَّهَا، فلا يذهب معَ شهواتِهِ، وليرجعْ إليهِ بالتَّوبةِ، ويلزمِ البابَ بالتَّوبةِ والبكاءِ والنَّدمِ ليَغفرَ لهُ ما تقدَّمَ، ويَمُنَّ عليهِ بما مَنَّ بهِ علىٰ مَنْ سَعِدَ بقُرْبِهِ وسلمَ.

وأمَّا قولُهُمْ: «كانَ يقالُ»، فهذا من كلامِ غيرِ الشَّيخِ، وهوَ مِنْ كلامِ الإمامِ القُشَيرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «في الدُّنيَا ثلاثةٌ لا رابعَ لهُم»، فهذَا لا يصحُّ علىٰ التَّعميمِ، فإنَّ أولياءَ اللهِ كثيرٌ أفضلُ ممَّنْ ذكرَهُ في الصَّحابةِ والتَّابعينَ، وإنَّمَا يحسُنُ كلامُهُ بالنَّظرِ لزمانِهِم[(٢)] خاصَّةً في نظَرِ القائلِ، وقدْ يكونُ في الدُّنيَا مَنْ لا يعرفُهُ هذا القائلُ ممَّنْ هوَ أفضلُ من هؤلاءِ المشهورينَ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: **«وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ[(٤)]: منذُ أربعِينَ سنةً ما أقامَنِي اللهُ ـ تعالىٰ ـ فِي حَالٍ فكَرِهْتُهُ[(٥)]، وَلَا نَقَلَنِي إِلَىٰ غَيْرِهِ فَسَخِطْتُهُ[(٦)]»**.

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) في (ب): إلىٰ زمانهم، وفي (ج): لزمانه.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٨١.

(٤) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٤٤، وتاريخ بغداد ٩/١٠١، ومناقب الأبرار ١/٣٨٠، وصفة الصفوة ٤/١٠٦، ومدارج السالكين ٢/١٧٧.

(٥) في (ف): فكرهتها.

(٦) في (ف): فسخطتها.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على نيلِهِ مقامَ الرِّضَا، وبلوغِهِ درجتَهُ من الوقتِ الَّذِي ذكرَهُ، فإنَّ حقيقةَ الرِّضَا إنَّمَا يكونُ بالواقعِ، فأيُّ مقامٍ أقامَهُ اللهُ فيهِ رضِيَ بهِ وَلَمْ يَكْرَهْهُ، وإذَا كانَ في خيرٍ فنقلَهُ إلى غيرِهِ، وإنْ كانَ أدونَ منهُ رضيَ بهِ ولم يَسْخَطْهُ، وهذا مشروطٌ بأنْ يكونَ المنقولُ إليهِ ليسَ ممَّا يسخطُهُ الرَّبُّ من المحرَّماتِ والبدعِ والكفرِ وغيرِ ذلكَ من أنواعِ الضَّلالاتِ، فإنَّ الرِّضَا بذلكَ لا يصحُّ، فإنَّ اللهَ ـ تعالى ـ قالَ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وإنَّمَا يرضى العبدُ بمَا يرضى اللهُ(١)، وإنَّمَا الَّذِي يلزمُهُ أنْ يعرفَ الخيرَ والشَّرَّ منَ اللهِ لَا غيرُ، ويتصرَّفُ في ذلكَ على حسبِ الأمْرِ والنَّهيِ عندَ وقوعِهِ، فإنْ كانَ ممَّا يرضى اللهُ بهِ رضِيَ، وإنْ كانَ ممَّا يسخطُهُ سخطَ وتألَّمَ وبكَى وتضرَّعَ وَدَعَا.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ، يَقُولُ: سمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُحَمَّدٍ الشَّعرانِيَّ يَقُولُ: سمِعْتُ أبا عُثْمَانَ يَقُولُ ذَلِكَ.

ولمَّا تغيَّرَ عَلَى أبِي عُثْمَانَ الحالُ مزَّقَ ابنُهُ أَبُو بَكْرٍ قَمِيصًا عَلَى نَفْسِهِ، ففتحَ أَبُو عُثْمَانَ عينَيهِ وَقَالَ: خلافُ السُّنَّةِ(٣) يا بُنَيَّ فِي الظَّاهِرِ، عَلامةُ رِيَاءٍ فِي الباطِنِ»(٤).

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ العبدَ إذا لم تكنْ عندَهُ مُرَاقَبَةٌ للهِ ـ تعالى ـ واتِّباعُ أمْرِهِ عندَ نزولِ المصائبِ، سبقَ إلى قلبِهِ ذمُّ النَّاسِ لهُ إنْ لم يُظْهِرِ الجزعَ والحزنَ بموتِ مَنْ يعزُّ عليهِ، هذا معنى الرِّياءِ كونُهُ(٥) أظهرَ الحزنَ والألَمَ؛

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٥٤/١.
(٢) الرسالة القشيرية ٨١/١ ـ ٨٢.
(٣) قال العروسي: «مراده بالسنة: مطلق الطريقة؛ لأن ما فعله ولده من المحرمات» نتائج الأفكار ٢٢٥/١.
(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٣٨٠/١، ووفيات الأعيان ٣٧٠/٢، ومدارج السالكين ٤٤٧/٢، ومفتاح الجنة ص٧١.
(٥) أي معنى الرياء هنا: وهو هنا كونه أظهر. وقد أفاد ذلك الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٥٤/١.

لئلَّا يذمَّ بتَرْكِ الحنوِّ على [١/٦٠ب] الوالدَينِ والمحبَّةِ لهُم، فلمَّا كانَ عندَ النَّزعِ وغُشِيَ عليهِ مزَّقَ ولدُهُ قميصَهُ لظنِّهِ أنَّهُ تُوُفِّيَ، فلمَّا فتحَ عينَيهِ بعدَ إفاقتِهِ منَ الغشْيةِ رأى ثوبَهُ مقطَّعًا، قالَ لهُ: يا ولَدِي، ما هذِهِ السُّنَّةَ عندَ الموتِ المعروفةَ منَ الصَّالحينَ، بلِ السُّنَّةُ الصَّبْرُ والتَّحمُّلُ والرَّحمةُ على الوالدَينِ، ما فعلْتَ هذا إلَّا رياءً!، فاستدلَّ بظاهرِهِ المُخالِفِ للعِلْمِ على فسَادِ باطِنِه.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «**سمِعْتُ مُحمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سمِعْتُ مُحمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ المَلامِتيَّ يَقُولُ: سمِعْتُ أبا الحُسَيْنِ الوَرَّاقَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أبا عُثْمَانَ يَقُولُ(٢): الصُّحْبَةُ مَعَ اللهِ بِحُسْنِ الأَدَبِ وَدَوامِ الهَيْبَةِ وَالمُرَاقَبَةِ، وَالصُّحْبَةُ مَعَ الرَّسولِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **باتِّباعِ سُنَّتِهِ ولُزُومِ ظَاهِرِ العِلْمِ، والصُّحبةُ مَعَ أولياءِ اللهِ ـ تعالى ـ بِالاحْتِرَامِ وَالخِدْمَةِ، والصُّحبةُ مَعَ الأهْلِ بحُسْنِ الخُلُقِ، والصُّحبةُ مَعَ الإخوانِ بِدَوامِ البِشْرِ مَا لَمْ يكُنْ إِثْمًا، والصُّحبةُ مَعَ الجُهَّالِ بالدُّعاءِ لَهُم والرَّحمةِ عَلَيْهِم**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إطلاقُ الصُّحبةِ هاهُنا معَ اللهِ مَشْرُوعٌ جائِزٌ، وقَدْ قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعائِهِ(٣): «أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَأَنْتَ الخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ».

ومرادُهُ هاهُنا بالصُّحبةِ: يعنِي دوامَ معاملةِ اللهِ ـ تعالى ـ، كأنَّهُ قالَ: إذا أردْتَ أنْ تدومَ المُعاملةُ بينَكَ وبينَ اللهِ ـ وعبَّرَ عنهَا بالصُّحبةِ ـ فالزَمِ الأدبَ معَهُ بدوامِ المراقبةِ والاحترامِ، وهوَ المعبَّرُ عنهُ بالهَيْبةِ والإجلالِ، وإذا كانَتْ معاملتُكَ معَ

(١) ورد قوله في: شعب الإيمان ٦/٢٦٧، وآداب الصحبة ص٦٥، ومناقب الأبرار ١/٣٨٠، ومدارج السالكين ٢/٤٦٥.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٨٢.

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه ٢/٩٧٨ ـ حديث رقم (١٣٤٢).

النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فالزَمْ سنَّتَهُ وفضائِلَهُ، واقتَدِ بهِ في جميعِ أحوالِهِ وأوامرِهِ.

هذا هوَ المعبَّرُ عنهُ بظاهرِ العِلْمِ؛ لأنَّ ظاهرَ العلمِ عبارةٌ عمَّا تعلَّقَ بالجَوارِحِ، وهوَ ظاهرُ البَدَنِ، وباطنُهُ ما تعلَّقَ بأعمالِ القلوبِ ومُرَاعَاةِ خَواطِرِهِ ولُزُومِهِ، والتَّمييزِ بينَ الحقِّ منهَا والباطلِ، وإلَّا فالشَّريعةُ كلُّهَا ظاهِرةٌ مُسْتَندةٌ إلىٰ الكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ، وليسَ فيهَا باطنٌ يختصُّ بهِ بعضُ النَّاسِ عن بعضٍ، وإنَّمَا فيهَا فاضلٌ ومفضولٌ، سواءٌ تعلَّقَ بقلبٍ أو جَارِحَةٍ.

والصُّحبةُ معَ الصَّالحينَ ـ وهمُ الأولياءُ للولايةِ الخاصَّةِ ـ بخدمتِهِمْ والاحترامِ لهُمْ والتَّعظيمِ؛ لأنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ خصَّهُمْ بما لَمْ يخصَّ بهِ غيرَهُم مِنْ إكْرَامِهِ.

والصُّحبةُ معَ الأهلِ ـ يعنِي أهلَ الإنسانِ [١/٦١أ]: زوجتَهُ وولدَهُ وأقاربَهُ ـ بحسنِ الخُلقِ وتأديبِهِمْ بمَا ينفعُهُمْ في دينِهِمْ، وحملِ ما يبدو منهُمْ لجهْلِهِمْ وقلَّةِ علْمِهِم.

والصُّحبةُ معَ الإخوانِ(١) بدوامِ البِشْرِ؛ وهوَ حُسْنُ المُلاقاةِ وقتَ الاجتماعِ، والسُّؤالُ عنِ الحالِ وإدخالُ المَسَرَّةِ عليهِم ما لَمْ يَجُرَّ ذلكَ إلىٰ إثمٍ، أوْ يكون ممَّنْ يجبُ هجرتُهُمْ(٢) ومقاطعتُهُمْ، فيكونُ البِشرُ لهُمْ إثمًا وإنْ كانوا مسلمِينَ مستحقِّينَ لاسمِ الأُخُوَّةِ العامَّةِ؛ كما قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ويكونُ عندَهُمْ منَ المَعَاصِي ما يُوجِبُ هِجْرَتَهُمْ فيمتنعُ لذلِكَ البِشْرُ لهُمْ وحسنُ المُبَاسَطةِ معهُم.

والصُّحبةُ معَ الجُهَّالِ، ويريدُ بالجهَّالِ: عُصَاةَ المؤمنينَ المخلطينَ ممَّنْ لا يرجعُ بموعظةٍ، ولم يبقَ إلَّا الدُّعاءُ لهُم والإنكارُ عليهِمْ؛ لما يجبُ الإنكارُ فيهِ،

---

(١) أي: في الدين.

(٢) في (ج): هجرهم.

والرَّحمةُ لهُمْ لمَا ابتلُوا بهِ وصُرِفُوا إليهِ من مُخَالَفَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ[١].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**سمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ يُوسُفَ الأَصْبَهَانِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سمِعْتُ أبا عَمْرو بْنَ نُجَيدٍ يقُولُ[٣]: سمِعْتُ أبا عُثْمانَ يَقُولُ: مَنْ أَمَّرَ السُّنَّةَ عَلَىٰ نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا.. نطَقَ بِالحِكْمَةِ، وَمَنْ أَمَّرَ الهَوَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ قولًا وفِعْلًا.. نَطَقَ بِالبِدْعَةِ، قَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾** [النور: ٥٤]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ السُّنَّةَ عبارةٌ عن جُمْلَةِ الشَّريعةِ، فمَنْ تَصرَّفَ بِمَأمُوراتِ الشَّرعِ في كلِّ وردٍ وصَدَرٍ في أعمالِ قلبِهِ وجَوَارِحِهِ وقعَتْ أفعالُهُ كلُّهَا مُحْكَمةً، سواءٌ كانَتْ بِلِسَانِهِ أو بِجَوارِحِهِ، ولذلكَ قالَ: «**نطقَ بالحِكْمَةِ**»، ومَنْ عملَ بِهوىٰ نَفْسِهِ في سَائِرِ تَصرُّفَاتِهِ جَرَىٰ علىٰ لِسانِهِ مَا هُو فِي قَلْبِهِ مِنَ التَّخليطِ والهَوَىٰ، فينطقُ تَارةً بالكُفْرِ، وتارةً بالبِدْعَةِ، وتارةً بالمَعْصِيَةِ؛ لعدَمِ ضَبْطِهِ لقلبِهِ وجَوارِحِهِ[٤].

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٥٥.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٨٢.

(٣) ورد قوله في: تفسير الثعلبي ٧/١١٤، وحلية الأولياء ١٠/٢٤٤، والزهد الكبير ص١٦٥، ومناقب الأبرار ١/٣٨١، والحجة في بيان المحجة ٢/٤٨٦، ومدارج السالكين ٢/٤٦٦.

(٤) بخلاف الأول؛ لاتباعه الرسول، فهو المهتدي.

قَالَ الإِمَـامُ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ [(١)]:

«وَمِنْهُم:

[٢٥] أَبُو الحُسَيْنِ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدٍ النُّورِيُّ [(٢)]

بغداديُّ المَولدِ والمَنشَأ، بَغَويُّ الأصلِ [(٣)].

صحِبَ السَّريَّ السَّقطيَّ [(٤)]، وابنَ أَبي الحَواريِّ، وَكَانَ من أَقْرانِ الجُنيدِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

مَاتَ سنةَ خمسٍ وتسعينَ ومائتَينِ، وَكَانَ كبيرَ الشَّأنِ حسَنَ المُعَاملَةِ واللِّسَانِ.

قَالَ النُّوريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(٥)]: التَّصوُّفُ ترْكُ كُلِّ حَظٍّ للنَّفسِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ ما وصفَهُ بهِ من حُسْنِ المعاملةِ واللِّسانِ، فإنَّ معاملتَهُ لمولاهُ هيَ إنَّما [١/٦١ب] تكْمُلُ [(٦)] بالإعراضِ عَنْ حُظُوظِ نَفْسِهِ ومُتابعتِهِ لِهَواهُ، وهذه الكلمةُ الَّتي تلفَّظَ بهَا جمعَتْ كلَّ حظٍّ يُزَاحمُ كُلَّ مَقَامٍ منَ الحُظُوظِ المُحرَّمَةِ والمَكْرُوهَةِ والمُباحَةِ والمُشغلةِ، والسُّكونَ إلىٰ المقاماتِ العاليةِ والتَّنعُّمَ بالذِّكْرِ والمناجاةِ لبقايا إحساسِهِ لنفسِهِ.

والصُّوفيُّ: مَنْ صَفَىٰ في معاملتِهِ من كلِّ حظٍ، فأتىٰ بكلمةٍ واحدةٍ شملَتْ كلَّ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٨٣.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٣٥، وحلية الأولياء ١٠/٢٤٩، وتاريخ بغداد ٥/١٣٠، ومناقب الأبرار ١/٣٨٩، وتوضيح المشتبه ١/٦٣٦، وطبقات الأولياء ص٦٢، والطبقات الكبرىٰ ١١٥٩، والكواكب الدرية ١/٥٢٢.

(٣) في طبقات الصوفية ص١٣٥: «من قَرْيَة بَين هراة ومرو الروذ، يُقَال لَهَا: بغشور، لذَلِك كَانَ يعرف بِابْن البَغَوِيّ». وانظر: معجم البلدان ١/٤٦٧.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٣٦، وتهذيب الأسرار ص٢٨، والتعرف لمذهب أهل التصوف ص٢٥، ومناقب الأبرار ١/٣٨٩.

(٦) في (أ): تحمل.

ما يشغلُ ويضرُّ وينقصُ[١] ويوقفُ معهُ في كلِّ مَقامٍ، وبيَّنَ أنَّ الصُّوفيَّ مَنْ تخلَّصَ مِنْ كلِّ شَوْبٍ ممَّا ذكرْنَاهُ، فهذا معنى حُسْنِهِ في المُعَاملةِ وفي اللِّسانِ[٢].

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«قَالَ النُّوريُّ[٤]: أَعَزُّ الأشياءِ فِي زمانِنَا شيئَانِ: عَالِمٌ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ، وعَارِفٌ يَنْطِقُ عَن حَقِيقَتِهِ»**.

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، وإذا كانَ في زمانِهِ فكيفَ في زمانِنَا؟! فإنَّ العالِمَ عبارةٌ عنِ المُحِيْطِ بالأحكامِ وَاجبِهَا ومَنْدُوبِهَا، فَاضِلِهَا ومَفْضُولِهَا، والنَّادرُ منَ النَّاسِ هوَ الَّذِي يعملُ بكلِّ ما يَعْلَمُ، ويتَّقِي في عملِهِ كلَّ ما يَخْشَاهُ مِنْ مُفْسِدٍ ومُنقِصٍ لعمَلِهِ بذلِكَ، والعارفُ عندَهُمْ: مَنْ كمُلَتْ مَعْرِفَتُهُ بمَولَاهُ، وَسَائِرِ صِفَاتِهِ، ومَا هوَ عليهِ من كمالِهِ وجلالِهِ، والنَّظرِ في كَمَالِ أفعالِهِ ومتعلقاتِ صِفَاتِهِ وسَائرِ ما سَبَقَ فِي عِلْمِهِ وإرادتِهِ، وتَصَفَّحَ ذلكَ في الجارِي على مخلوقاتِهِ، وغلبَ ذلكَ على قلبِهِ، حتَّى صارَ مشغولًا بهِ عمَّا سِوَاهُ.

ومَنْ هذِهِ صفتُهُ فالغالبُ عليهِ عجزُ لِسَانِهِ عمَّا أدركَهُ، والنَّادرُ منَ الخلْقِ مَنْ أيَّدَهُ مَولَاهُ وقَوَّاهُ بمَا منَّ عليهِ وَتَولَّاهُ، حتَّى نطقَ عنِ الحَقَائقِ الَّتِي غَلَبَتْ على قلبِهِ، وصَارَ كأنَّهُ مُشَاهِدٌ لهَا، وأشارَ إليها إشارةً يُفْهَمُ عنها مرادُهُ لمَنْ أرادَهُ، ولهذا قالَ: «**يَنْطِقُ عَنْ حَقِيقةٍ**»، وأكثرُ النَّاسِ ينطقُ عمَّا سمعَ وفهمَهُ منَ الكتبِ وأقوالِ النَّاسِ، والنَّادرُ مَنِ اجتهدَ ووجدَ وعبَّرَ عمَّا تحقَّقَ فيهِ وتخلَّقَ بهِ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: **«سَمِعْتُ أبا عَبْدِ اللهِ الصُّوفيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ:**

---

(١) في (أ): وتيقض.

(٢) في (ب، ج): واللسان.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٨٣.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٣٩، ومناقب الأبرار ١/٣٨٩، والاستقامة ١/٩٩.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٨٣.

سمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدٍ البَرْدَعِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ المُرْتَعِش يَقُولُ: سمِعْتُ النُّوريَّ يَقُولُ[(١)]: مَنْ رَأَيْتَهُ يَدَّعِي مَعَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ حَالَةً تُخْرِجُهُ عَن حَدِّ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ فَلَا تَقْرَبَنَّ مِنْهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ ؛ فإنَّ العلمَ إنَّمَا هو: شرعيٌّ وبِدْعيٌّ، فمَنْ لم تشهَدْ لأفعالِهِ القلبيَّةِ والبدنيَّةِ ـ ومنهَا أقوالُهُ ـ بالصِّحَّةِ الشَّرعيَّة[(٢)] فهوَ مُبْتَدعٌ فيما يَقُولُ ويفعلُ، والمُبْتَدِعَةُ لا [١/٦٢أ] يُنَاكَحُون، ولا يُوَاصَلُون[(٣)]، ولا يُصَلَّىٰ عَلَيهِم[(٤)] ؛ فإنَّهُمْ يهدمُونَ الدِّينَ هَدْمًا، ولذلكَ حذَّرَ منهُم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ولو جاؤُوا بغرائبَ مستغربةٍ، وجرَتْ عليهِمْ أحوالٌ نادرةٌ أو خارقةٌ للعادةِ، فلا يُلتفتُ إليهَا، فإنَّ ذلكَ مِنْ جملةِ المكرِ بهِم[(٥)]، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٦)]: «سمِعْتُ الشَّيخَ أبَا عَبدِ الرَّحْمَنِ السُّلميَّ يَقُولُ:**

---

(١) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٥٢، ومناقب الأبرار ١/٣٩٠، والاعتصام ١/٩٦، ومدارج السالكين ٢/٤٦٦.

(٢) في (أ): الشريعة، والصواب المثبت. والقصد: من لم تشهد الشريعة لأفعاله وأقواله بالصحة فهو مبتدع.

(٣) في النسخ: يناكحوا ولا يوصلوا، والصواب المثبت.

(٤) في المغني لابن قدامة ٢/٢١٩: «وقال أحمد: أهل البدع لا يعادون إن مرضوا ولا تشهد جنائزهم إن ماتوا، وهذا قول مالك. وقال ابن عبد البر وسائر العلماء يصلون علىٰ أهل البدع والخوارج وغيرهم ؛ لعموم قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صلوا علىٰ من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله». وانظر: الاستذكار ٣/٥٣، وبداية المجتهد ١/١٧٤، وكشف القناع للبهوتي ٢/١٢٤.

ولا يقبل عملهم أيضًا إلا بعد توبتهم، ففي سنن ابن ماجه ١/١٩: «قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَىٰ الله أَنْ يَقْبَلَ عَمَلَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ حتىٰ يَدَعَ بِدْعَتَهُ». وفي فيض القدير ١/٧٢: «إلىٰ أن يدع، أي: يترك بدعته بأن يتوب منها ويرجع إلىٰ اعتقاد ما عليه أهل الحق».

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٥٧.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٨٣.

سمِعْتُ أبَا العَبَّاسِ البغداديَّ يَقُولُ: سمِعْتُ الفَرْغَانِيَّ يَقُولُ: سمِعْتُ الجُنيدَ يَقُولُ[١]: منذُ مَاتَ النُّوريُّ لَمْ يُخبِرْ عَنْ حقيقةِ الصِّدقِ أحَدٌ».

❊ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ممَّا ذكرْنَاهُ أوَّلًا، فإنَّ الحقيقةَ عندَ القومِ كمَا قالَ حارثةُ لمَّا سألَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حالِهِ[٢]: «كيفَ أصبحتَ[٣]؟ قالَ: أصبحْتُ مؤمنًا حقًّا، قالَ لهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنَّ لكلِّ حقٍّ حقيقةً، فمَا حقيقةُ إيمانِكَ؟، فقالَ: عزفَتْ نفسِي عنِ الدُّنيَا»، فأخبرَهُ بحالةِ الإيمانِ الغالبةِ علىٰ قلبِهِ، وقالَ: «عزفتُ عنِ الدُّنيَا وكأنِّي أنظرُ إلىٰ عرشِ ربِّي بارزًا»، فأخبرَ عنْ حقيقةِ حالِهِ.

وكانَ النُّوريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يتكلَّمُ إلَّا فيمَا ذاقَهُ ووصلَ إليهِ منازلُهُ منَ الأحوالِ، فلذلكَ قالَ الجنيدُ: لمَّا ماتَ النُّوريُّ لمْ يخبرْ عنْ حقيقةِ الصِّدقِ أحدٌ، يعنِي: لمْ يُخْبِرْ عمَّا وجدَهُ ونالَهُ مِنْ صِدْقِهِ أحدٌ فيمَنْ رآهُ، والجنيدُ ـ أيضًا ـ كانَ منْ أهلِ هذا الشَّأنِ، وإنَّمَا كانَ النُّوريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ الجنيدِ بالغًا في الصِّدقِ، وحقيقتِهِ، ولمْ ينفِ ذلكَ عنْ كلِّ النَّاسِ منْ أهلِ زمانِهِ، وإنَّمَا ذكرَ فضيلتَهُ في ذلِكَ وامتيازَهُ عن غَيْرِهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقَالَ أَبُو أَحْمَدَ المَغَازِلِيُّ[٥]: مَا رَأَيْتُ أعْبَدَ مِنَ النُّورِيِّ، قيلَ: ولَا الجنيدُ؟ قَالَ: ولَا الجنيدُ.

وَقَالَ النُّوريُّ[٦]: كانَتِ المراقعُ غِطاءً عَلَىٰ الدُّرِّ، فصارَتِ اليومَ مَزَابِلَ عَلَىٰ جِيَفٍ».

---

(١) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٣٩٠، ومسالك الأبصار ٨/٩٣. والمراد: وصفه بقوة الصدق الناشئ عنها قوة المجاهدة.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣/٢٦٦، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/٣٦٢.

(٣) في (أ، ج): أصبح.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٨٣.

(٥) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٥/١٣١، ومناقب الأبرار ١/٣٩٠، وسير أعلام النبلاء ١٤/٧٦، ومسالك الأبصار ٨/٩٣.

(٦) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٥١، ومناقب الأبرار ١/٣٩٠، ومسالك الأبصار ٨/٩٣.

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لفظُ العبادةِ تشتملُ علىٰ أعمالِ القلوبِ وأعمالِ الأبدانِ، وكمالُ أعمالِ القلوبِ مَعَ الصِّدقِ والإخلاصِ دوامُ الاستغراقِ في الذِّكْرِ والشُّغلِ بالمذكورِ عن غيرِهِ، حتَّىٰ عن ذكْرِ الذَّاكرِ لهُ لنفسِهِ؛ لكمالِ شغلِهِ بهِ، وإذَا كانَ النُّوريُّ أرفعَ النَّاسِ في هذِهِ الأحوالِ، فهوَ أعبدُ النَّاسِ.

وقولُهُ: «**ولَا الجنيدُ، قالَ: ولا الجنيدُ**» صحيحٌ، فإنَّ الجنيدَ أقرَّ بذلكَ للنُّوريِّ كمَا تقدَّمَ.

وقولُهُ: «**كَانَتِ المَرَاقِعُ غطَاءً علَىٰ الدُّرِّ، صَارَتِ اليَوْمَ** [٦٢/١ب] **مَزَابِلَ عَلَىٰ جِيَفٍ**»، وذلكَ أنَّ المراقِعَ إنَّمَا كانَتْ منْ آثارِ التَّقلُّلِ وقلَّةِ الرَّغبةِ في الدُّنيَا والاجتزاءِ بمَا تيسَّرَ، فإذا كانَ علىٰ أحدِهِمْ ثوبٌ واحدٌ فتَخَرَّقَ فيهِ شيءٌ أخذَ رقعةً حيثُ مَا تيسَّرَتْ لهُ وطهَّرَهَا بالماءِ وأصلحَ بها موضعَ الخَرْقِ، وكانَتِ القلوبُ صافيةً زاهدةً مشتغلةً باللهِ ـ تعالىٰ ـ وبذكْرِهِ، غيرَ ملتفتةٍ للدُّنيَا، ولا لمدْحِ الخلْقِ ولا لذمِّهِم[١].

وهذا معنَىٰ «**الدُّرِّ**»[٢]، فإنَّ الدُّرَّ: عبارةٌ عن شيءٍ رفيعٍ محفوظٍ لرفعتِهِ وغلاءِ قَدْرِهِ، ولَا أرفعَ ممَّا ذكرْنَاهُ.

وأمَّا اليومُ فصارَتِ المَرَاقِعُ تَشْبُّهًا بمَنْ تَقَدَّمَ؛ إلا أَنَّهُمْ[٣] يأخذُونَ الثِّيابَ النَّصَافِيَ[٤] الرَّفيعَ[٥] وَيُقَطِّعُونَهُ قِطَعًا، ويرتِّبُونَهُ ترتيبًا في المُراقعاتِ، ففيهِ إفسادُ

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٥٧.
(٢) وهو اللؤلؤ.
(٣) في (أ، ب): لأنهم.
(٤) نوع من الأقمشة الرقيقة المنسوجة من الحرير أو الكتان. انظر: المعجم العربي لأسماء الملابس ص٤٩٤.
(٥) في (ج): الرفيعة.

المَاليَّةِ أوَّلًا منَ التَّقطيعِ، والتَّشبُّهُ بالصَّالحينَ منْ غيرِ تحقيقٍ، والقلوبُ فارغةٌ منَ الزُّهدِ والإعراضِ عنِ الدُّنيَا، وطلبُ الرِّفعةِ عندَ النَّاسِ بزيِّ الصَّالحينَ، وقِلَّةُ المُرَاقَبةِ للهِ ـ تعالىٰ ـ.

ومَنْ كانَ بهذِهِ الصِّفةِ الَّتي ذكَرْنَاهَا أخيرًا، فهوَ مَزَابلُ علىٰ جِيَفٍ، بَلْ أنْتَنُ وأَخَسُّ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: «وقيلَ[2]: **كَانَ يخرجُ كُلَّ يَوْمٍ منْ دارِهِ ويحملُ الْخبزَ مَعَهُ، ثُمَّ يتصدَّقُ بِهِ فِي الطَّرِيقِ، ويدخلُ مسجدًا يصَلِّي فِيهِ إِلَىٰ قريبٍ منَ الظُّهرِ، ثُمَّ يفتحُ بَابَ حانوتِهِ ويصومُ، فكانَ أهلُهُ يتوهَّمونَ أَنَّهُ يأكلُ فِي السُّوقِ، وأهلُ السُّوقِ يتوهَّمونَ أَنَّهُ يأكلُ فِي بيتِهِ! ، فَبَقِيَ عَلَىٰ هَذَا فِي ابتدائِهِ عِشْرينَ سنةً**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا أمرٌ بالغٌ في المجاهدةِ وسترِ الأحوالِ عَنْ أهلِ بيتِهِ الَّذينَ يعرفونَ من أمورِهِ فِي الدِّينِ ما يعرفونَ؛ لأَنَّهُم أخصُّ النَّاسِ بمعرفةِ أحوالِهِ، ما أمكنَهُ سترُهُ عنهُم مِنْ أعمالِهِ سترَهُ، فكانَ يأخذُ غِذَاءَهُ من دارِهِ فيوهمُهُم أَنَّهُ يتغذَّىٰ في دكَّانِهِ فيتصدَّقُ بهِ في الطَّريقِ، وكانَ لا يحبُّ أنْ يكونَ في دكَّانِهِ طُولَ نهارِهِ، ولم يُحِبَّ أنْ يطَّلِعَ أهلُهُ علىٰ صلاتِهِ بالنَّهارِ، فكانَ يدخلُ إلىٰ بعضِ المساجدِ فيصلِّي فيهِ إلىٰ قريبِ الزَّوالِ، فإذا صلَّىٰ الظُّهرَ مضَىٰ إلىٰ دكَّانِهِ وفتَحَهَا وقنعَ بمَا يسَّرَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ في هذا الوقتِ اليَسيرِ، فلمْ يشتهِرْ بترْكِ الأسبابِ ليُنسبَ إلىٰ التَّوكُّلِ، وسترَ ذلكَ بالدُّكَّانِ، ولم يطَّلِعْ أهلُهُ علىٰ صَوْمِهِ وَصَلاتِهِ بالنَّهارِ[3].

وربَّمَا فعلَ ذلكَ في ليلِهِ كمَا حُكِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ كانَ يدخلُ معَ أهلِهِ في

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٨٣.

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٣٩٠، ومسالك الأبصار ٨/٩٣.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٥٨.

الفراشِ، فإذا [١/١٦٣أ] استأنسُوا بهِ وناموا تركَهُمْ وقامَ.

وَحُكِيَ عَنْ بعضِهِمْ: أنَّهُ كانَ يضطَّجعُ علىٰ فراشِهِ معَ أهلِه ويتفكَّرُ فيبكِي، ولَا يشعرُ أهلُهُ ببكائِهِ.

هذِهِ أحوالُ الصَّادقينَ الرَّاغبينَ في فضيلةِ عَمَلِ السِّرِّ، وكمالِ الإخلاصِ للهِ ـ تعالى ـ، والبعدِ عن ملاحظةِ المخلوقينَ، رضي الله عنهم أجمعينَ، ونفعنَا بهِم آمِين.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ[١]:

«وَمِنْهُمْ:

[٢٦] أَبُو عَبْدِ اللهِ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَ الجَلَّا[٢]

بغداديُّ الأصلِ، أقامَ بـ(الرَّمْلَةِ) و(دِمَشْق)[٣].

مِنْ أكابرِ مشايخِ الشَّامِ، صَحِبَ أبا تُرَابٍ، وذَا النُّونِ، وأبا عُبَيْدٍ البُسْريَّ[٤]، وأباهُ يَحْيَىٰ الجَلَّا.

سمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ الطَّبَرِيَّ يَقُولُ: سمِعْتُ أبا عُمَرَ الدِّمشقيَّ يَقُولُ: سمِعْتُ ابْنَ الجَلَّا يَقُولُ[٥]: قُلْتُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٨٤.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٤٤، وتاريخ بغداد ٥/٢١٣، وتاريخ دمشق ٦/٨١، ومناقب الأبرار ١/٤٠٦، والأنساب ٢/١٣٦، وصفة الصفوة ٢/٤٤٣، ومرآة الجنان ٢/٢٤٩، وتاريخ الإسلام ٢٣/١٨٢، وسير أعلام النبلاء ١٤/٢٥١، ومسالك الأبصار ٨/١٣١، وبغية الطلب ٣/١٢٣٣، وطبقات الأولياء ص٨١، والطبقات الكبرىٰ ١/١٦٠، والكواكب الدرية ٢/٣٦.

وفي الكواكب الدرية ٢/٣٦: «.. سمي به؛ لأنه إذا تكلم جلا القلوب، وإذا وعظ أتي بكل مطلوب».

وهو بتشديد اللام مع القصر، ففي الأنساب ٢/١٣٦: «باب الجيم واللام ألف: الجَلَّا ـ بفتح الجيم وتشديد اللام ألف ـ هذه اسم لمن يجلي الأشياء الجديدة كالمرآة والسيف وغيرهما وقد ينسب إلىٰ غير ذلك واشتهر بهذه النسبة أبو عبد الله أحمد بن الجَلَّا البغدادي... قال الدقي: قلت لابن الجَلَّا: لم سمي أبوك الجَلَّا؟ فقال: ما جلا أبي شيئًا قط وما كان له صنعة، كان يتكلم علىٰ الناس فيجلو القلوب فسمِّي الجَلَّا».

وفي القاموس ص١٦٤١: «ابن الجَلَّا: مشددة مقصورة من كبار الصوفية». وانظر: توضيح المشتبه ٢/٥٥٦، وتبصير المنتبه بتحرير المشتبه ١/٣٨١.

(٣) مات بدمشق سنة ست وثلاثمائة، كما في مظان ترجمته السابقة.

(٤) في (ب): البيري، والصواب المثبت.

(٥) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٦/٨٥، ومناقب الأبرار ١/٤٠٦، وبغية الطلب ٣/١٢٣٧، ومسالك الأبصار ٨/١٢٩.

لأبي وأمِّي: أُحِبُّ أن تَهَبَانِي للَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فقالا: قَدْ وهبناكَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَغِبْتُ عَنْهُما مدَّةً، فلمَّا رَجعْتُ كانَتْ ليلةً مَطِيرَةً، فَدَقَقْتُ الباب، فَقَالَ أَبِي: مَنْ ذا؟ فَقُلْتُ: ولدُكَ أَحْمَدُ، فَقَالَ: كَانَ لنا وَلَدٌ فَوَهَبْنَاهُ للَّهِ - تعالى -، وَنَحْنُ مِنَ العَرَبِ لَا نَسْتَرْجِعُ مَا وَهَبْنَاهُ، وَلَمْ يفتحِ البَابَ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على كمالِ الوفاءِ لله - تعالى - بسائرِ ما عَزَمَ عليه، حتَّى فِي ولَدِهِ الَّذي هو أحبُّ الأشياءِ إليه عَادَةً، وما يلزمُ من تَرْكِهِ لله - تعالى - ألَّا يفتحَ[١] له البابَ ويَرَاهُ ويكلِّمَهُ، وإنَّما خَشِي على نَفْسِهِ مِنْ تَعَلُّقِ قَلْبِهِ بما تَرَكَهُ لربِّهِ، فإنَّهُ ما فَارَقَهُ ولا حتَّى أَعْرَضَ عَنْ مَحَبَّتِهِ وكَمَالِ شَهْوتِهِ، فَخَشِي أَنْ يَرْجِعَ فيما تَرَكَهُ.

فإذا كان هذا في الوَلَدِ القَعِيدِ الأَكِيْدِ، فكيفَ بغيرِهِ منَ الشَّهواتِ منَ المالِ والمُشْتَهيَاتِ وغيرِ ذلك منَ الحَظِّ العَاجلِ البَعِيْدِ![٢].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقَالَ ابْنُ الجَلَّا[٤]: مَنِ اسْتَوَىٰ عِنْدَهُ المَدْحُ وَالذَّمُّ فَهُوَ زَاهِدٌ، وَمَنْ حَافَظَ عَلَىٰ الفَرَائِضِ فِي أَوَّلِ مَوَاقِيتِهَا فَهُوَ عَابِدٌ، وَمَنْ رَأَىٰ الأَفْعَالَ كُلَّهَا مِنَ اللهِ - تعالى - فَهُوَ مُوَحِّدٌ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا كلامٌ بالغٌ جيِّدٌ، وذلك أنَّ الزُّهدَ يكونُ أوَّلًا في المَالِ، ثمَّ في الطَّعامِ والشَّرَابِ، ثمَّ في اللِّباسِ، ثمَّ في الاستئناسِ بالنَّاسِ، ولا يزهدُ في الحَمْدِ ولا يُبَالي بالذَّمِ إلَّا مَنْ كَمُلَ زهدُهُ في الجَاهِ والرِّياسَةِ، وهي أعلى

(١) في (ب): أن يفتح.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٥٨.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٨٤.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٤٦، وحلية الأولياء ١٠/٣١٤، وتاريخ دمشق ٦/٨٣، ومناقب الأبرار ١/٤٠٧.

رُتَبِ أهلِ الدُّنيَا، ولذلكَ قيلَ[(١)]: «آخرُ ما يخرجُ من رؤوسِ الصِّدِّيقينَ حبُّ الرِّياسةِ».

وأمَّا العابدُ فهو عندَهُم مَنْ هِمَّتُهُ مُتَعَلِّقَةٌ [١/٦٣ب] بإتقانِ الأعمالِ وطلبِ الجزاءِ لها، فمَنْ لم يتقِنْ فرائضَهُ ويَعْتَنِي بها معَ وُجُوبِهَا عليها وتأكيدِ طلبِهَا فهو لمَا عدَاها منَ النَّوافلِ أقلُّ إتقانًا، فلذلكَ قالَ: «ومَنْ حافظَ على الفَرائِضِ فَهُو عابِدٌ»؛ لأنَّهُ بدأَ بِالأَهَمِّ فَالأَهَمِّ، ويشهدُ لهذا قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاكيًا عن ربِّهِ عَزَّ وَجَلَّ[(٢)]: «مَا تقرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيهم، وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ»... الحديث.

وأمَّا مَنْ رَأَىٰ الأفعالَ كُلَّها منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ سواءٌ كانتْ من أفعالِ قلبِهِ أو جوارِحِهِ، من أعمالِ دنياه أو آخرتِهِ، ورأىٰ نفسَهُ محلًا[(٣)] لجريانِ ما قارنَ قدرتَهُ[(٤)]، ورأىٰ فضلَ ربِّهِ عليه فِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ؛ مِنْ سُكُونِهِ وَحَرَكَتِهِ، فهوَ لا يَرَىٰ إلَّا وَاحِدًا[(٥)]، فبِهَذَا الاعتبارِ كانَ مُوحِّدًا[(٦)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٧)]: «ولمَّا مَاتَ ابْنُ الجَلَّا نَظَرُوا إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ الطَّبِيبُ: إِنَّهُ حَيٌّ! ثُمَّ نظرَ إِلَىٰ مجسَّتِهِ[(٨)] فَقَالَ: إِنَّهُ مَيِّتٌ، ثُمَّ كشفَ عَن وَجْهِهِ**

---

(١) في (ب): قا، والصواب المثبت، وورد هذا القول في: إحياء علوم الدين ٣/٢٧٥، ومرقاة المفاتيح ٩/٥١١.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أي: باعتبار تبرِّيه من الحَوْل والقُوَّة. انظر: نتائج الأفكار ١/٢٣٣.

(٤) في إحكام الدلالة ١/١٥٨: «لجريان ما قُدِّر له».

(٥) أي: في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله.

(٦) أي: حقيق بهذا الوصف الشريف، وقد أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٥٨ ـ ١٥٩.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٨٤.

(٨) هو الموضع الذي يجسه الطبيب.

فَقَالَ: لَا أَدْرِي أَهُوَ مَيِّتٌ أَم حَيٌّ؟!. وَكَانَ فِي دَاخلِ جِلْدِهِ عِرْقٌ عَلَىٰ شكلِ للهِ»[(١)].

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وإنَّمَا تظهرُ علىٰ الجَوارِحِ مَا امتلأتْ به القُلُوبُ، فإنَّ العَبْدَ إذا كان دائمَ الذِّكْرِ لِمَولاه، قليلَ الغَفْلَةِ عنه في سَائِرِ تقلُّبِهِ ومَثْوَاه، شديدَ الحُضُورِ معَهُ عندَ خروجِ روحِهِ، ورأىٰ ملائكةَ ربِّهِ تبشِّرُهُ بما أعدَّ له مولَاه، انشرحَ صدرُهُ لذلكَ وفرِحَ، وظهرَ ذلك علىٰ وجهِهِ من تبسُّمِهِ وحُسْنِ بشرتِهِ وتهلُّلِهِ، وهذا هو الجاري في المناماتِ، يرىٰ الإنسانُ في نفسِهِ رؤيا، فيتكلَّمُ بما رأىٰ وهو نائمٌ، ينطقُ بذلك لسانُهُ، ويتحرَّكُ أعضاؤُهُ في القبضِ والبَسْطِ إذا رأىٰ من تناوله.

فهو رَضِيَٱللَّهُعَنهُ كان دائمَ الحُضُورِ مع ربِّهِ، فرأىٰ أَمَارَاتِ التَّوفيقِ عندَ خُرُوجِ روحِهِ، فتبسَّمَ معَ خروجِ روحِهِ ويبِسَ جلدُهُ كذلكَ، فلذلكَ حارَ الطَّبيبُ في أمرِهِ، وهذه أمارةُ البُشْرَىٰ والدَّلالةِ علىٰ سعادتِهِ.

وما رُؤِيَ فِي جِلْدِهِ فِي أَيَّامِ حَيَاتِهِ عَلَىٰ شَكْلِ الكِتَابةِ للهِ فِي بَعْضِ عُرُوقِهِ فَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ عَبْدٌ للهِ خَالِصٌ فِي عُبُودِيَّتِهِ[(٢)]، واللهُ أعلمُ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[(٣)]: **«وَقَالَ ابْنُ الجَلَّا** رَحِمَهُٱللَّهُ[(٤)]: **كنتُ أَمْشِي مَعَ أستاذِي فرأيتُ حَدَثًا[(٥)] [١/١٦٤أ] جَمِيلًا، فَقُلْتُ: يا أستاذُ: تُرَىٰ يُعَذِّبُ اللهُ هذهِ الصُّورةَ [بالنَّارِ][(٦)]؟ فَقَالَ: أَوَ نَظَرْتَ إِلَيْهِ[(٧)]؟ سَتَرَىٰ غِبَّهُ[(٨)].**

---

(١) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٩٢/٦، ومناقب الأبرار ٤٠٧/١، وبغية الطلب ١٢٣٩/٣.

(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٥٩/١.

(٣) الرسالة القشيرية ٨٤/١.

(٤) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٨٤/٦، ومناقب الأبرار ٤٠٧/١.

(٥) أي: غلامًا صغيرا.

(٦) زيادة من (ف).

(٧) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٨) أي: عاقبته.

قَالَ: فَنَسِيتُ الْقُرْآنَ بَعْدَهُ بِعِشْرِينَ سَنَةً».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذه الحكايةُ فيها تحذيرٌ منَ النَّظرِ بالشَّهَواتِ إلىٰ المُسْتَحسنَاتِ، فإنَّ ذلكَ يُؤثِّرُ في القلوبِ آثارًا عَظِيمَةً ولو بعدَ حِينٍ، وذلك أنَّهُ لمَّا كانَ يمشي مع شيخِهِ في بعضِ حوائِجِهِ لقيَ هذا الشَّابَّ فوقعَ بصرُهُ عليه فجأةً، فلمَّا استحسنه كرَّرَ نظرَهُ فيه متعجِّبًا من كمالِ صُورَتِهِ وحُسْنِ هَيْئَتِهِ، حتَّىٰ حملَهُ ذلك علىٰ سؤالِ شيخِهِ: هل يعذِّبُ اللهُ هذه الصُّورةَ بالنَّارِ؟ ففهمَ الشَّيخُ منه أنَّهُ لم يكفَّ نظرَهُ عندَ أوَّلِ نظرةٍ، وأنَّهُ دامَ نظرُهُ لهُ واستحسانُهُ، فقالَ لهُ: أنظرتَ؟ يعني: هذا النَّظرَ المَذْمُومَ، لتجدنَّ عقوبَتَهُ ولو بعدَ حينٍ.

فتحسَّسَ هذا الطَّالبُ لنفسِهِ، واعتبرَ أحوالَهُ بالنِّسبةِ لشهادةِ شيخِهِ، فوجدَ نفسَهُ قد نسِيَ القرآنَ بعدَمَا حفظَهُ بعدَ عشرينَ سنةً.

وقد وردَ في ذمِّ مَنْ نسيَ القرآنَ بعدَ حفظِهِ منَ الذَّمِّ في الأخبارِ شيءٌ كثيرٌ(١)، هذا وإنِ احتملَ أنْ يرادَ بالنِّسيانِ: التَّركُ للعَمَلِ بمَا في القرآنِ، فيكونَ ذلك من جُمْلَةِ المَعَاصِي، والظَّاهرُ أنَّ هذا لم يُرِدْهُ، وإنَّمَا أرادَ أنَّ اللهَ أنساهُ حفظَ القرآنِ عاملًا بأحكامِهِ، وفاتَتْهُ فضيلةُ حفظِهِ.

❊ ❊ ❊

---

(١) قال ابن حجر: «واختلف السلف في نسيان القرآن؛ فمنهم من جعل ذلك من الكبائر، وأخرج أبو عبيد من طريق الضحاك بن مزاحم موقوفًا قال: ما من أحد تعلم القرآن ثم نسيه إلا بذنب أحدثه؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ ونسيان القرآن من أعظم المصائب...... وقال القرطبي: من حفظ القرآن أو بعضه فقد علت رتبته بالنسبة إلىٰ من لم يحفظه، فإذا أخل بهذه الرتبة الدينية حتىٰ تزحزح عنها ناسب أن يعاقب علىٰ ذلك، فان ترك معاهدة القرآن يفضي إلىٰ الرجوع إلىٰ الجهل والرجوع إلىٰ الجهل بعد العلم شديد....» فتح الباري ٩/ ٨٦.
وفي مطالب أولي النهىٰ ١/ ٦٠٥: «نقل ابن رشد المالكي: الإجماع علىٰ أن مَنْ نَسِي القرآن لاشتغاله بعلم واجب أو مندوب فهو غير مأثوم».

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُمْ:

[٢٧] أَبُو مُحَمَّدٍ رُوَيمُ بنُ أَحْمَدَ[(٢)]

بغداديٌّ من أَجِلَّةِ المشَّايخِ. مَاتَ سنةَ ثَلاثٍ وثلاثمائةٍ.

وَكَانَ مُقْرِئًا فَقِيهًا عَلَىٰ مَذْهَبِ دَاوُدَ[(٣)].

قَالَ رُويمٌ[(٤)]: مِنْ حِكَمِ الحكيمِ أَن يوسِّعَ عَلَىٰ إخوانِهِ فِي الأَحْكَامِ، ويضيِّقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ فِيهَا، فَإِنَّ التَّوسعةَ عَلَيْهِم اتِّباعُ العِلْمِ[(٥)]، والتَّضييقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ من حُكمِ الوَرَعِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال[(٦)]: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَسَكِّنُوا وَلَا تُنَفِّرُوا»، وَعَلَيكُم بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ[(٧)]؛ وذلكَ لِيَتَدَرَّبَ الإنسانُ في الخَيراتِ، ويَنْتَقِلَ منَ[(٨)] الواجِبَاتِ إلىٰ المَنْدُوبَات، ثمَّ يَتَرَاقَىٰ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٨٥.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٤٧، وحلية الأولياء ١٠/٢٩٦، وتاريخ بغداد ٨/٤٣٠، ومناقب الأبرار ١/٤١٤، وصفة الصفوة ٢/٤٤٢، والبداية والنهاية ١١/١٢٥، وتاريخ الإسلام ٢٣/١٢٠، ومسالك الأبصار ٨/١١٧، وطبقات الأولياء ص٢٢٨، والنجوم الزاهرة ٣/١٨٩، والطبقات الكبرىٰ ١/١٦٠، والكواكب الدرية ١/٩٥.

(٣) أي: ظاهري المذهب.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٤٨، ومناقب الأبرار ١/٤١٤.

(٥) في (ب): العمل.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ١/٣٨ ـ حديث رقم (٦٩)، ومسلم في صحيحه ٣/١٣٥٨ ـ حديث رقم (١٧٣٢).

(٧) لأنها أحبّ الأديان، كما في المعجم الكبير ١١/٢٢٧: «.. سُئِلَ رسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الأَدْيَانِ أَحَبُّ إلىٰ اللهِ؟ قال: الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ».

(٨) في (ب): في.

في الدَّرجات، وكذلك يترك المُحرَّمات، ثمَّ المَكْرُوهَات، ثُمَّ الشُّبُهَاتِ، ثُمَّ أَبْوَابًا[1] منَ الحَلالِ مَخَافَةَ الوقُوعِ في شَيءٍ منَ المُشْكِلات.

فأمَّا مَنْ قَوِيَ في نفسِهِ وعَلَتْ هِمَّتُهُ وسهُلَتْ عليه [٦٤/١ب] الطَّاعات، وتلذَّذَ بملابستِهَا في عُمُومِ الأوقات، فليلزمْ أرفعَ الدَّرجات، وليشتغلْ بأشرفِ المَقامات، وبهذا الاعتبارِ ضيَّقَ على نفسِهِ في الوَرَعِ وملازمةِ أرفعِ الدَّرجات[2]، ووسَّعَ على غَيْرِهِ في البُعْدِ منَ المُحَرَّمِ والقِيَامِ بالوَاجِبَات.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[3]: **«سَمِعْتُ أبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلميَّ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ**[4]: **سَمِعْتُ عَبْدَ الوَاحِدِ**[5] **بْنَ بَكْرٍ يَقُول: سمِعْتُ أبا عَبْدِ اللهِ بْنَ خفيفٍ يَقُولُ: سألْتُ رُويمًا، فَقُلْتُ: أَوْصِنِي، فَقَالَ: مَا هَذَا الأمرُ إلَّا ببذْلِ الرُّوحِ، فَإِنْ أمكنَكَ الدُّخُولُ فِيهِ مَعَ هذَا وإلَّا فلا تشتَغِلْ بِتُرَّهَاتِ**[6] **الصُّوفِيَّةِ»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «بِبَذْلِ الرُّوحِ» يعني: إفراغَ الجهدِ في الطَّاعاتِ، والإعراضَ عنِ الشَّهواتِ بالكلِّيَّةِ وطلبِ الرَّاحاتِ، وإلَّا فلا تدخلْ في هذا الأمرِ، فإنَّكَ إنْ دَخلْتَ فِيهِ بِغَيْرِ مَا وَصَفْنَاهُ، وَقَنَعْتَ بالأقوالِ وحفظِ حكاياتِ الرِّجالِ، والتَّشبُّه بهمِ[7] في ظاهرِ الأحوالِ، معَ خلوِّ باطِنِكَ عمَّا أشرْنَا إليهِ،

(١) في (أ): أبواب.
(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٦٠.
(٣) الرسالة القشيرية ١/٨٥.
(٤) طبقات الصوفية ص١٤٩، وورد أيضًا في: حلية الأولياء ١٠/٢٩٧، ومناقب الأبرار ١/٤١٥، وصفة الصفوة ٢/٤٤٣، والكواكب الدرية ٢/٩٦.
(٥) في (ف): عبد الله.
(٦) جمع: تُرَّهَة، ففي شمس العلوم ٢/٧٣٦: «التُّرَّهَات: جمع تُرَّهَة؛ وهي الباطل»، وفي القاموس ص١٦٠٥: «الترهة كقُبَّرة: الباطل.. والطريق الصغيرة المتشعبة من الجادة».
(٧) سقط هذا اللفظ من (ب). وفي (أ، ج): والتشبيه، والأصح المثبت.

فحالُكَ في إدبارٍ دُونَ إقبالٍ.

و«التُّرَّهاتُ» يريدُ بها: الخُرَافَاتِ والاشتغالَ، وكثرةَ الكلامِ دونَ الأعمالِ(١)، ولم يَنْسِبْ ذلكَ لكلِّ الصُّوفيَّةِ، بل نَسَبَهُ إلىٰ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَقَالَ رُوَيمٌ(٣): قُعُودُكَ مَعَ كُلِّ طَبَقَةٍ مِنَ النَّاسِ أَسْلَمُ مِنْ قُعُودِكَ مَعَ الصُّوفِيَّةِ؛ فَإِنَّ كُلَّ الخَلْقِ قَعَدُوا عَلَىٰ الرُّسُومِ، وقعَدتْ هذهِ الطَّائِفَةُ عَلَىٰ الحَقَائِقِ، وطالبَ الخَلْقُ كلُّهُمْ أَنْفُسَهُمْ بِظَوَاهِرِ الشَّرْعِ، وطالَبَ هَؤُلاءِ أنفسَهُم بِحَقِيقَةِ الوَرَعِ(٤) وَمُدَاوَمَةِ الصِّدْقِ، فَمَنْ قَعَدَ مَعَهُم وَخَالَفَهُم فِي شَيْءٍ مِمَّا يَتَحَقَّقُونَ بِهِ نَزَعَ اللهُ نُورَ الإِيمَانِ مِنْ قَلْبِهِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ سلكَ طريقَ الزُّهدِ والورعِ وطلَبَ الفضائلَ والتَّفرُّغَ للخيراتِ، وأظهرَ ذلكَ من نفسِهِ ولم يكنْ متخلِّقًا بِهِ وَلَا مُتَكَلِّفًا فِي تَحْصِيلِهِ، فلا يخلو منْ أحدِ أمرَينِ: إمَّا أنْ يكونَ مُرَائِيًا يُظْهِرُ(٥) زِيَّ الصَّالحينَ لطلَبِ دُنْيا فانيَةٍ؛ منْ جاهٍ أو مالٍ. أو يكونَ كذَّابًا مدَّعِيًا(٦) لدرجةٍ لم ينلْهَا، وكلاهُمَا خطأٌ، وبعيدَانِ منَ اللهِ - تعالىٰ -. فإنَّ المُرَائِي عَاصٍ بِرِيَائِهِ(٧)، والمُتَشَبِّهَ بما لم يَنَلْ مُدَّعٍ كذَّابٌ(٨)، وقَدْ قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٩): «المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٦٠ - ١٦١.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٨٥.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٤٩، ومناقب الأبرار ١/٤١٥.

(٤) أي: تخلقوا به في نفس الأمر، أو تكلفوا التخلُّق به في الأخذ بأسبابه.

(٥) في (ج): مظهرًا.

(٦) في (ب): «كاذبًا أو مدعيًا».

(٧) ففي صحيح البخاري ٥/٢٣٨٣ - حديث رقم (٦١٣٤): «قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ».

(٨) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٦١.

(٩) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٠٠١ - حديث رقم (٤٩٢١)، ومسلم في صحيحه ٣/١٦٨١ -=

يَنَلْ[١] كَلَابِسِ ثَوْبَي زُورٍ» [١/١٦٥أ]، فَذَمَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٢].

وقولُهُ: «فَإِنَّ كُلَّ الخَلْقِ» أرادَ الأكثرَ[٣]، فإنَّ هذهِ الطَّائفةَ منَ الخلقِ والرُّسومِ الصَّحيحةِ ما أوجبَهُ الشَّرعُ وندَبَهُمْ إليهِ منَ الأفعالِ بظاهرِ البدَنِ.

و«الورعُ»: [هوَ البعدُ][٤] عن كلِّ مُشْكلٍ.

و«الحقائقُ»[٥] ـ كما فسَّرْنَاهُ في غيرِ موضعٍ ـ: [غلبةُ الأ][٦]حوالِ على القلبِ، ومشاهدةُ الرَّبِّ في كلِّ عمَلٍ، كما قالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٧]: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ».

وأهلُ الحقائقِ: همُ الطَّالبونَ لكمالِ هذا المقامِ، ومَنِ اكتفَى بظاهرِ العَملِ بالأبدانِ، هوَ المكتفِي بالرُّسومِ والقانعُ بهَا.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٨]: «وَقَالَ رُوَيمٌ[٩]: **اجتزْتُ ببغدادَ وقتَ الهاجرةِ ببعضِ السِّكَكِ وأنَا عطشانٌ، فاستسقَيْتُ[١٠] منْ دارٍ، ففتحَتْ صَبِيَّةٌ بَابَهَا وَمَعَهَا كُوزٌ، فلمَّا رأتْنِي قَالَتْ: صُوفِيٌّ يَشْرَبُ[١١] بِالنَّهَارِ، فَمَا أَفْطَرْتُ بَعْد ذَلِكَ اليَوْمِ قَطُّ**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على كمالِ الاعتبارِ بالكبارِ والصِّغارِ منَ الخلقِ.

= حديث رقم (٢١٢٩).

(١) أي: الذي يظهر الشبع وليس بشبعان.

(٢) في مرقاة المفاتيح ٦/٣٦٢: «.. حصل بالتشبع حالتان مذمومتان: فُقْدان ما يشبع به، وإظهار الباطل..». وانظر: كشف المشكل ٤/٤٠٢.

(٣) في (ب): الأكل.

(٤) زيادة من (ب، ج)، ومكانه بياض في (أ)، وقال الناسخ: «كذا بالأصل لم يفهم من أكلة الأرضة».

(٥) تأمل أنواع الحقائق في: نتائج الأفكار ١/٢٣٦.

(٦) زيادة من (ب، ج)، ومكانه بياض في (أ).

(٧) سبق تخريجه.

(٨) الرسالة القشيرية ١/٨٥.

(٩) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص ٢١٧، ومناقب الأبرار ١/٤١٥.

(١٠) أي: طلبتُ السُّقيا.

(١١) في (ب): يفطر.

ويدلُّ ـ أيضًا ـ علىٰ أنَّ الصَّبيَّةَ كانَتْ من بيتٍ من بيوتِ أهلِ العلمِ والفضْلِ، حتَّىٰ عرفَتْ أحوالَ الصُّوفيَّةِ، وأنَّهُمُ المجتهدونَ في الأعمال(١)، الحَريصُونَ علىٰ تحصيلِهَا في كلِّ حال، فلمَّا سمِعَتْ مستسقيًا يطلبُ الماءَ بادرَتْ إليهِ؛ لاغتنامِ الثَّوابِ، فلمَّا رأَتْ عليهِ زِيَّ الصُّوفيَّةِ، قالَتْ: «صُوفيٌّ يشربُ بالنَّهارِ»، علىٰ وجهِ الاستعجابِ والاستنكارِ!، فأثَّرَ كلامُهَا في قلبِ رُويمٍ، فكانَتْ لهُ موعظةً انكفَّ بسببِ ذلكَ عنِ الفِطْرِ إلىٰ وقتِ الانصرافِ منَ الدُّنيا والذَّهَابِ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): **«وَقَالَ رُوَيمٌ(٣): إذَا رَزَقَكَ اللهُ المَقَالَ وَالفِعَالَ، فَأَخَذَ مِنْكَ المَقَالَ وَأَبْقَىٰ عَلَيْكَ الفِعَالَ، فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ، وَإِذَا أَخَذَ مِنْكَ الفِعَالَ وَأَبْقَىٰ عَلَيْكَ المَقَالَ فَإِنَّهَا مُصِيبَةٌ، وَإِذَا أَخَذَ مِنْكَ كِلَيْهِمَا فَهِيَ نِقْمَةٌ».**

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ العبدَ لا غِنَاءَ له عنِ العلمِ والعملِ جميعًا، فإذا حصَّلَ العلمَ وعَمِلَ بهِ في نفسِهِ وعلَّمَهُ غيرَهُ كثُرَتْ منفعتُهُ، وارتفعَتْ درجتُهُ، وقدْ تكرَّمَ الحقُّ عليهِ بالمقالِ والفِعَالِ.

فإنْ أخذَ اللهُ منهُ المَقَالَ وأَبْقَىٰ عليهِ الفِعَالَ دَلَّ ذلكَ علىٰ كَمَالِ انتفاعِهِ بالعلمِ، وأنَّهُ تعلَّمَ وعلَّمَ مُدَّةً ثمَّ انقطعَ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ في آخرِ عُمْرِهِ، وهذا شأنُ النَّاسِ. وإذا أخذَ منه العَمَلَ وأبقىٰ عليهِ القولَ [١/٦٥ب]؛ فإنْ صحَّتْ نيَّتُهُ في القَوْلِ فقد نقصَ ما كان فيه من عَمَلِ المَنْدُوبِ، وَقَدْ أصابَتْهُ مصيبةٌ فيما فاتَهُ منَ الأجرِ.

وإنْ أخذَهُمَا جميعًا فقدِ انقطعَ عملُهُ المندوبُ وتعليمُهُ للنَّاسِ، فهذِهِ بليَّةٌ وعقوبةٌ لمَا سبقَ لهُ.

❁ ❁ ❁

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٦٢.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٨٦.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤١٥، وصفة الصفوة ٢/٤٤٣.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُمْ:

[٢٨] أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ الفَضْلِ البَلْخِيُّ[٢]

سَكَنَ (سَمَرْقَنْدَ)، بَلْخِيُّ الأَصْلِ، أُخْرِجَ مِنْهَا، فَدَخَلَ (سَمَرْقَنْدَ)، وَمَاتَ بِهَا.

صَحِبَ أَحْمَدَ بْنَ خِضْرَوِيهِ، وغيرَهُ، وَكَانَ أَبُو عُثْمَانَ الحِيَرِيُّ يميلُ إِلَيْهِ جدًّا.

مَاتَ سنةَ تسعَ عشرةَ وثلاثمائةٍ.

سمِعْتُ الشَّيخَ أبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلميَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٣]: سمِعْتُ محمَّدَ بْنَ أحمدَ الفرَّاءَ يَقُولُ: سمِعْتُ أبَا بكْرٍ بْنَ عُثْمَانَ يَقُولُ: كتبَ أَبُو عُثْمَانَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ الفضلِ يسألُهُ: مَا علامةُ الشَّقاوةِ؟ فَقَالَ: ثلاثةُ أشياءَ: يُرْزَقُ العِلْمَ وَيُحْرَمُ العَمَلَ، ويُرْزَقُ العَمَلَ ويُحْرَمُ الإخلاصَ، ويُرْزَقُ صُحْبَةَ الصَّالِحِينَ ولَا يحترمُ لَهُمْ.

وَكَانَ أَبُو عُثْمَانَ الحِيَرِيُّ يَقُولُ[٤]: مُحَمَّدُ بْنُ الفَضْلِ سِمْسَارُ الرِّجَالِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ رُزِقَ العلمَ ولم يعمَلْ بهِ لا يخلو؛ إمَّا أنْ يكونَ لم يعملْ بواجبِهِ وندبِهِ، أو بندبِهِ خاصَّةً، فإنْ عملَ بواجبِهِ فقد نجَا، وكان مَا عملَهُ حجَّةً عليهِ فِي تَقْصِيرِهِ عنِ الخيراتِ بعدَ مَعْرِفَتِهِ بِهَا.

وإذا مَنَّ عليهِ بالمُبَادَرةِ فِي الطَّاعاتِ المَنْدُوبَات، ولم يُوَفَّقْ للإخلاصِ فيها

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٨٧.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٧١، وحلية الأولياء ١٠/٢٣٢، ومناقب الأولياء ١/٤٢١، ومسالك الأبصار ٨/١٣١، والعبر ٢/١٨٢، وطبقات الأولياء ص٣٠٠، والكواكب الدرية ٢/١٤٩.

(٣) ورد قوله في: شعب الإيمان ٢/٢٩٢، ومناقب الأبرار ١/٤٢٤.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٢١.

صارَتْ مُحَرَّمات، وخسرَ في الحياةِ وبعدَ المَمَات.

وإذا منَّ اللهُ عليه بخلطةِ الصَّالحينَ ولم يعرفْ قدرَهُمْ ودرجتَهُمْ عندَ اللهِ لم يحترمْهُمْ وعاملَهُمْ بأسوأِ المعاملات، ففاتَتْهُ الخيرات، وحَلَّتْ بهِ البلِيَّات، واللهُ المُسَلِّمُ من جميعِ الآفاتِ.

وقولُهُ: «سِمْسَارُ الرِّجالِ» أي: يعرفُ مَنازِلَهُم وَرُتَبَهُمْ في الدِّينِ، كما يَعْرِفُ سَمسارُ السِّلَعِ قدْرَهَا وقدْرَ أثمانِهَا، وذلك لكمالِ علمِهِ ومعرفتِهِ بمراتبِ الدِّينِ وأحوالِ المقرَّبين[١].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الفَضلِ يَقُولُ[٣]: الرَّاحَةُ فِي السِّجْنِ[٤] مِنْ أَمَانِي النُّفُوسِ[٥]».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ السِّجنَ عبارةٌ عمَّنْ حُبِسَ عن نَيْلِ أغراضِهِ، ولم يخلُ معَ نَيْلِ مَقَاصِدِهِ [١/١٦٦أ] ومآربِهِ، والنَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ[٦]: «الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ»، وإنَّمَا كانَتْ سِجْنَهُ؛ لأنَّهُ فيها مسئولٌ عن حَرَكاتِ قلبِهِ وجوارِحِهِ، مأمورٌ بملازمةِ أوامرِهِ، ومنهيٌّ عن مخالفةِ ربِّهِ، وإذا كانَ كذلكَ فهوَ محبوسٌ عن كثيرٍ من شَهَواتِهِ، محمولٌ مكلَّفٌ بالقيامِ بسائرِ مأموراتِهِ، وإن كانَ أُبيحَ له في ذلك أمرٌ ففي يسيرٍ من حَالاتِهِ.

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٦٢.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٨٧.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٢٤.

(٤) أي: في الدنيا.

(٥) لأنها خلاف وضعه.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٢٧٢ ـ حديث رقم (٢٩٥٦).

ومَنْ كانتْ هذهِ صفتَهُ فطلبُهُ الرَّاحةَ فيهَا معَ هذه التَّكليفاتِ بعيدٌ في العباداتِ، إلَّا أنْ يَمُنَّ عليهِ ربُّهُ ويمدَّهُ بِمَعُونَتِهِ، ويلذِّذَ له طاعاتِهِ، فتصيرَ راحتُهُ باعتبارٍ آخرَ لا من جِهَةِ نَيْلِ شهواتِهِ.

وبهذا الاعتبارِ كانَتْ قرَّةُ عينِ سيِّدِ العربِ والعجمِ في الصَّلاةِ، فقولُ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[(١)]: «كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَفْكَهِ النَّاسِ مَعَ نِسَائِهِ[(٢)]، فإذا حضرَتِ الصَّلاةُ فكأنَّهُ لَمْ يعرفْنَا ولم نَعْرِفْهُ[(٣)]».

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: **«سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أبا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الفَضْلِ يَقُولُ[(٥)]: ذَهَابُ الإِسْلامِ مِنْ أَرْبَعَةٍ: لَا يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ، وَيَعْمَلُونَ بِمَا لا يَعْلَمُونَ، وَلَا يَتَعَلَّمُونَ مَا لا يَعْلَمُونَ[(٦)]، وَيَمْنَعُونَ النَّاسَ مِنَ التَّعَلُّمِ»**.

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وروحُ هذهِ الحكايةِ ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ أنَّ ذهابَ الدِّينِ يكونُ من إهمالِ العلمِ والعَمَلِ جميعًا، والعلمُ أكَّدَ ذلكَ، فإنَّهُ بهِ يكونُ صحَّةُ العملِ، فقولُهُ: «**لَا يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ**»، فهذا تحصيلُ العلمِ وتركُ العملِ، و«**يعملونَ بما لا يعلمونَ**» تضييعٌ لهمَا جميعًا، فإنَّ العملَ إذا كانَ على غيرِ وَفْقِ العلمِ فليسَ بِعَمَلٍ صَحِيحٍ، فقدْ ضَيَّعوهُمَا[(٧)] جميعًا، و«**لا يَتَعَلَّمُونَ ما لا يَعْلَمُونَ**»

(١) ورد في المغني عن حمل الأسفار ١/١٠٥ بلفظ: «كان رسول الله يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة، فكأنما لم يعرفنا ولم نعرفه»، وربيع الأبرار ٢/٢٦٦.

(٢) في الفائق ٣/١٣٧: «أي: من أمزحهم، والفكاهة: المزاحة».

(٣) في (أ، ج): «لا يعرفنا ولا نعرفه»، والمثبت موافق للفظ الحديث.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٨٧.

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٧٣، وحلية الأولياء ١٠/٢٣٣، ومناقب الأبرار ١/٤٢٢، ومدارج السالكين ٢/٤٦٦، والاعتصام ص٩٦، ومفتاح دار السعادة ١/١٦٠.

(٦) سقط من (ب) قوله: «وَيَعْمَلُونَ بِمَا لا يَعْلَمُونَ، ولا يتعلمون مَا لا يَعْلَمُونَ».

(٧) في (ب): ضيعهما.

فيهِ تضييعٌ لِلعِلْمِ، وإذا ضاعَ العِلْمُ تعذَّرَ العَمَلُ الصَّحِيحُ.

وقولُهُ: «ويَمْنَعُونَ النَّاسَ منَ التَّعلُّمِ» بالغٌ فِي الشَّرِّ، وهو سَدٌّ بابِ العَمَلِ بالكلِّيَّةِ، ومنعُهُم النَّاسَ منَ التَّعلُّمِ يكونُ بوجهَينِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُم يشغلونَ العلماءَ بخدمتِهِم والاشتغالِ بمظالِمِهِم، فلا يتفرَّغُونَ للتَّعليمِ.

الثَّانِي: أَنَّهُمْ يُكْثِرُونَ مَظَالِمَ العِبَادِ ويُزَاحِمُونَهُم في أرزاقِهِمِ الَّتِي لا بُدَّ لهم مِنْهَا، فيصيرُ أكثرُ انشغالِهِم في تَحْصِيلِ أَمْوَالِهِم، فلا يتفرَّغونَ لطلَبِ العِلْمِ! ، وهذا قد غَلَبَ على زَمَانِكَ غَلَبةً [١/٦٦ب] كليَّةً! ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعُونَ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَبِهَذَا الإِسْنَادِ قَالَ[٢]: العَجَبُ مِمَّنْ يَقْطَعُ المَفَاوِزَ لِيَصِلَ[٣] إِلَى بَيْتِهِ[٤]، فَيَرَى آثَارَ النُّبُوَّةِ[٥]، كَيْفَ لا يَقْطَعُ نَفْسَهُ وَهَوَاهُ لِيَصِلَ إِلَى قَلْبِهِ فَيَرَى آثَارَ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ ؟!».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومعنى هذا الكلامِ: أنَّ الأعمالَ القلبيَّةَ أنجعُ وأسرعُ في التَّقرُّبِ إلى اللهِ ـ تعالى ـ، ونيلِ ما عندَهُ منَ الكراماتِ وأفاضلِ الدَّرجاتِ؛ فضلًا عنِ الحَسَنَاتِ، فإذا هَانَ على العَبْدِ مُفَارَقَةُ الأهلِ والوَلَدِ، وإنفاقُ المَالِ وإتعابُ الجَسَدِ، وطُولُ السَّفرِ، ومُقَاسَاةُ أشدِّ الضَّرَرِ، حتَّى يَصِلَ إلى بَيْتِهِ لِيَرَى آثَارَ الأنبياءِ، ويَنَالَ رحمةَ المَولَى وفِعْلَ الطَّاعَاتِ المَنْدُوباتِ، فَمُجَاهَدَةُ[٦] نفسِهِ

(١) الرسالة القشيرية ١/٨٧.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٧٣، والزهد الكبير ص ١٥٧، ومناقب الأبرار ١/٤٢٢، وصفة الصفوة ٤/١٦٥.

(٣) في (ب): فيصل، والأصح المثبت.

(٤) أي: بيت الله الحرام.

(٥) في مناقب الأبرار ١/٤٢٢: «لأن فيه آثار أنبيائه»، وهذا يبيِّن ذاك.

(٦) في (ب، ج): فمجاهدته.

بتَرْكِ الشَّهَوات، وتحمُّلِ مَشقَّةِ العِبَادات؛ لِيَزُولَ عن قَلْبِه الغَفَلات، فيُلازمَ الذِّكْرَ والدَّعوات، ومراقبتُهُ والشُّغلُ بهِ عن سائرِ المخلوقاتِ أخفُّ عليهِ كلفةً وأقربُ لنيلِ سائرِ المطلوبات، والاطِّلاعِ على عجائبِ قلبِهِ وسائرِ المخلوقات، وكمالِ معرفتِهِ بمولاهُ وما هوَ عليهِ منَ الصِّفاتِ المتعلِّقةِ بِسَائرِ المُتَعلَّقات[1].

وبهذا الاعتبارِ تعجبُ من تَرْكِ العملِ اليسيرِ لنيلِ الأمرِ العظيم، معَ أنَّ العبدَ يتحمَّلُ في أمرِ دنياهُ ونيلِ المشقَّاتِ فيها وفي نيلِ مقاصدِهِ منهَا أعظمَ ممَّا ذكرْناهُ في أعمالِ أخرَاهُ، ولم يأمرْهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنْ يتركَ الحجَّ الواجبَ معَ شَرَفِهِ في العبادات، وإنَّمَا حضَّهُ على ما يمكنُهُ نيلُهُ بالمجاهداتِ والإعراضِ عنِ الشَّهواتِ وهو مقيمٌ فِي أَهْلِهِ عَلَى أَحْسَنِ الحَالَات.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَقَالَ[3]: إِذَا رَأَيْتَ المُرِيدَ يَسْتَزِيدُ مِنَ الدُّنْيَا، فَذَلِكَ مِنْ عَلَامَاتِ إِدْبَارِه[4]**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وَهَذَا صَحِيحٌ، فَإِنَّ الزِّيَادَةَ مِنَ الدُّنْيَا لَا تَخْلُو مِنْ وَجْهَينِ: إِمَّا أَنْ تَكُونَ بِكَسْبٍ وَتَعَبٍ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ بِمِيرَاثٍ أَوْ هِبَةٍ بِلَا طَلَب، وإذا كانَ سَالكًا مَشْغُولًا بأُخْرَاه، لم يشتغلْ بالكدْحِ والطَّلبِ في دنيَاه، وإذا كان منَ الزَّاهدينَ المعرضينَ عنِ الدُّنيَا ـ كما زعمَ ـ وأتَتْهُ بغيرِ كسبٍ صرَفَهَا في جهاتِ الخيرِ، من غَيْرِ عوضٍ عنهَا ولا سببٍ.

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٦٤.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٨٧.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٧٤، ومناقب الأبرار ١/٤٢٤.

(٤) لأنها مشغلة عن الإقبال على الله عَزَّوَجَلَّ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «وَسُئِلَ عَنِ الزُّهْدِ فَقَالَ[٢]: النَّظَرُ إِلَى الدُّنْيَا [١/١٦٧] بِعَيْنِ النَّقْصِ، وَالإِعْرَاضُ عَنْهَا تَعَزُّزًا وَتَظَرُّفًا وَتَشَرُّفًا[٣]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ بأنَّ الإعراضَ عنِ الدُّنيا تَعَزُّزًا وتَظَرُّفًا وزهدًا فِي الحَلَالِ، فَإِنَّ الإِعْرَاضَ عَنِ الدُّنْيَا إِنْ كَانَ خَوْفًا مِنْ ضَرَرِهَا فَهُوَ الوَرَعُ، وَإِنْ كَانَ لِقِلَّةِ الرَّغبةِ فيها ونَزَاهَةِ النَّفسِ عنها لصغَرِ قدْرِهَا فهوَ الزُّهدُ، وهذا زهدُ أكثرِ المريدِين[٤].

وأمَّا زهدُ العارفينَ الَّذينَ عرَفوا اللهَ ـ تعالى ـ وجَمَالَهُ وكَمَالَهُ وكثُرَ ذِكْرُهُم لهُ ومُنَاجَاتُهُ، ودامَ ذلك لهم حتَّى لم يَهُنْ على نفوسِهِمْ أنْ يشتغلوا بغيرِهِ، وكَرِهُوا كُلَّ ما يشغلُهُمْ[٥] عنهُ، فزُهدُهُم فِي الدُّنيا[٦] من هذا الوجهِ؛ خَوْفًا من أنْ يشغلَهُم عمَّا هم فيهِ من ذكْرِ قلوبِهِمْ لربِّهِم، وقُرْبِهَا منهُ.

بَلْ زادَ بعضُهُم ولم يلتفِتْ إلى الآخرةِ الَّتِي هيَ جزاءُ الأعمالِ الصَّالحةِ وقتَ شُغْلِهِ بربِّهِ، بل كَمُلَ شُغْلُ بعضِهِمْ بهِ، وبرؤيةِ جَمَالِهِ وكَمَالِهِ عن ذِكْرِ أنفسِهِمْ، ولهذا قالَ بعضُهُمْ في حَدِّ الزُّهدِ[٧]: «إنَّهُ الإعراضُ عمَّا يُشْغِلُ[٨] عنِ اللهِ مُطْلَقًا».

❁ ❁ ❁

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٨٨.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٧٥، والزهد الكبير ص٦٧، ومناقب الأبرار ١/٤٢٤، وتمام قوله في هذه المظان: «فمن استحسن من الدنيا شيئًا فقد نبَّه عن قدرها».

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب، ج)، وفي (ف): «وتطرقا وتشوقا».

(٤) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٦٥.

(٥) في (ب): شغلهم.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٧) نسب للدَّاراني في: الزهد الكبير ص٧٩، ونسب للداراني والشبلي في: مدارج السالكين ٢/١١.

(٨) في (أ، ج): شغل.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُم:

[٢٩] أَبُو بَكْرٍ أَحْمَـدُ بْنُ نَصْرٍ الزَّقَّاقُ[٢] الكَبِيرُ[٣]

كَانَ من أقرانِ الجُنَيدِ، منْ أكابِرِ مِصْرَ[٤].

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ أَحْمَدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الكتَانِيَّ يَقُولُ[٥]: لَمَّا مَاتَ الزَّقَّاقُ انقطَعَتْ حُجَّةُ الفُقَراءِ فِي دُخُولِهِم مِصْرَ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هذا فيه تنبيهٌ على كمالِهِ، وكثرةِ معارِفِهِ، وانتفاعِ المريدينَ بِرُؤيتِه، فضلًا عن صُحْبتِه، فكانَ أهلُ الأقطارِ منَ الشَّامِ والعِرَاقِ والحجازِ إذا أتَوا إلى (مصرَ) معَ أنَّهَا كثيرةُ الأرزاقِ والرَّخاءِ في الأسعارِ لا يُتَّهَمُونَ بأنَّ مجيئَهُمْ إليها لكثرةِ الأرزاقِ، إذا زعمُوا أنَّهُمْ إنَّمَا قصدوا زيارةَ هذا الرَّجلِ الكبيرِ؛ لأهليَّتِهِ لذلكَ ووجودِ الانتفاعِ بهِ[٦]، فلمَّا ماتَ[٧] قالَ الكتانيُّ:

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٨٩.

(٢) في الكواكب الدرية ٢/٤٧: «أبو بكر الزقاق: بفتح الزاي، وتشديد القاف؛ نسبة إلى بيع الزِّقّ، أو عمله». والزق: السِّقاء. ويرد في بعض المصادر بالدال المهملة هكذا: الدقاق. وانظر: الأنساب ٣/١٦٠.

(٣) انظر في ترجمته: حلية الأولياء ١٠/٣٤٤، ومناقب الأبرار ١/٤٢٦، ومرشد الزوار إلى قبور الأبرار ١/٤٧٠، وبستان العارفين للنووي ص١٨٦، وطبقات الأولياء ص٩١، والطبقات الكبرى ١/١٦٢، وحسن المحاضرة ١/٥١٢، والكواكب الدرية ٢/٤٧، وجامع كرامات الأولياء ١/٤٦٦.

(٤) وقبره بها معروف بجانب قبر الإمام الطحاوي. انظر: مرشد الزوار إلى قبور الأبرار ١/٤٧٠.

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٢٦، وحسن المحاضرة ١/٥١٢.

(٦) قرر ذلك الشَّارعي أيضًا بقوله: «لأن الفقراء كانوا يقصدون ديار مصر لما فيها من الأرزاق، وكثرة الرخاء في الأسعار، ويزعمون أنهم إنّما قصدوا مصر لزيارته» مرشد الزوار إلى قبور الأبرار ١/٤٧٠.

(٧) سنة تسعين ومائتين، وقيل: اثنتن وتسعين ومائتين. انظر: مرشد الزوار إلى قبور الأبرار ١/٤٧٣،=

«انقطعَتْ حجَّةُ الفقراءِ[١] في دخولِهِمْ مصرَ» ، أيْ: لعدَمِ مَنْ يقصدُونَهُ ، فيُتَّهمُونَ بأنَّ مجيئَهُمْ للدُّنيَا وشهواتِهَا[٢] ، وذلكَ لانفرادِ الزَّقَّاقِ[٣] بحالِهِ ونفعِهِ في زمانِهِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقَالَ الزَّقَّاقُ[٥]: مَنْ لَمْ يَصْحَبْهُ التُّقَى فِي فَقْرِهِ أَكَلَ الحَرَامَ المَحْضَ[٦]».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلك أنَّ فقرَ الزُّهَّادِ والصَّالحينَ ليس [١/٦٧ب] اضطرارًا حتَّى يلزمَهُم الأخذُ لمحْضِ الفقرِ من أيِّ جهةٍ كانَ ، وإنَّما كانَ فقرُهُمْ منَ الدُّنيَا اختيارًا وزهدًا وإعراضًا عنِ الحَلالِ ، ولا يليقُ بهِم أنْ يأخذُوا مَا لا بُدَّ لهُمْ منهُ إلَّا مِنْ أصفَى مَا يمكنُهُم ، وإذا لمْ يكنْ عندَهُم تَقْوَى ولا حَذَرٌ فيمَا يأخذونَهُ أكلوا الحَرَامَ المَحْضَ ، كمَا يَجْرِي على ألسنةِ بعضِهِم[٧]: «إنَّ الفقيرَ بحرٌ لا يكدِّرُهُ شيءٌ» ، وهذا له وَجْهٌ ، وذلك لشدَّةِ إعراضِهِ عنِ الدُّنيَا وقلَّةِ رغبتِهِ فيها ، وإعراضِهِ عن جاهِهَا ومالِهَا ، فلا يكدِّرُهُ شيءٌ من اختلافِ أحوالِهَا ، ولا من تأخُّرِ أرزاقِهَا ، بخلافِ ما ظنَّهُ من حَمْلِ أقوالِهِم على أنَّهُ يأخذُ المالَ من أيِّ جهةٍ كانَ ، ولا يبالِي لأنَّهُ فقيرٌ.

وربَّمَا يقولُ بعضُهُم[٨]: «لو كانَتِ الدُّنيَا دمًا عَبِيطًا كانَ قُوتُ المُؤمنِ منها

= وإحكام الدلالة ١/١٦٥.

(١) أي: انقطع الدليل لهم في دخولهم مصر. وانظر قول الكناني في: مسالك الأبصار ٨/٣٦٤.

(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٦٥ ـ ١٦٦.

(٣) في (ج): الزمان ، والصواب المثبت.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٨٩.

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٢٦ ، ومرشد الزوار إلى قبور الأبرار ١/٤٧٠ ، وحسن المحاضرة ١/٥١٢.

(٦) أي: الخالص عن الشبهة.

(٧) انظر: طبقات الأولياء ص٣٥٦.

(٨) نسب للفضيل بن عياض في: الجد الحثيث ص١٨٥ ، ولسهل في: إحياء علوم الدين ٣/٩٠ ،=

حَلالًا»، وهذا صحيحٌ، لو كانَتْ ـ ونعوذُ باللهِ أنْ تكونَ ـ بَلْ لَمْ تَزَلِ[١] الشَّريعةُ قائمةً، والحَلالُ والحَرَامُ مَعْرُوفًا إلىٰ يومِ القيامةِ، وَفَاءً بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وبقولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢]: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الحَقِّ ظَاهِرِينَ».. الحديث.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ يَقُولُ: سَمِعْتُ الزَّقَّاقَ يَقُولُ[٤]: تُهْتُ فِي تِيهِ بَنِي إسرائيلَ مقدارَ خمسةَ عشرَ يومًا، فلمَّا وقعتُ عَلَىٰ الطَّرِيقِ استقْبَلَنِي إِنْسَانٌ جُنْدِيٌّ، فسَقَانِي شَرْبَةً مِنْ مَاءٍ، فعادَتْ قَسْوتُهَا[٥] عَلَىٰ قَلْبِي ثلاثينَ سنةً».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ كَمَالِ مُجَاهَدَتِهِ ومُرَاقبتِهِ لأَحْوَالِهِ فِي قَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا تَاهَ هَذِهِ المدةَ قاسَىٰ مشقَّةً شديدةً منَ العطشِ، فلمَّا وقعَ علىٰ الطَّريقِ لقيَ بعضَ الأجنادِ، والغالبُ علىٰ الأجنادِ قلَّةُ التَّحفُّظِ في الأموالِ وأخذُهَا من كلِّ جهةٍ، فلمَّا سقاهُ الشَّربةَ وشربَهَا وجدَ في قلبِهِ قسوةً؛ لقلَّةِ صبْرِهِ عن شربِهَا من هذا الشَّخصِ، معَ عزمِهِ أوَّلًا علىٰ أنَّهُ لَا يتناولُ ما هذا سبيلُهُ، فكُلَّمَا ذكرَ ذلكَ تألَّمَ بسببِ ذلكَ، ودامَ تألُّمُهُ لهُ هذِهِ المدَّةَ الَّتِي ذَكَرَهَا[٦].

= وبلا نسبة في: المقاصد الحسنة ص٥٥٠، وكشف الخفاء ٢/٢٠٨. والعبيط: الطري، والإشارة به إلىٰ أن المؤمن لا يأكل إلا عن ضرورة.

(١) في (ب): لا تزال.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٨٩.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٢٦.

(٥) أي: أثرت في القلب ظلمة بسبب كونها غير خالصة عن الشبهة، فنشأ عن هذه الظلمة قسوة القلب.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٦٦.

ويحتملُ وجهًا آخرَ؛ وهوَ من بابِ الكراماتِ، كمَا كانَ للمحاسِبيِّ وبِشْرِ بنِ الحارثِ من ضربانِ العرقِ وعدَمِ انسياغِ الطَّعامِ[1] [١٦٨/١أ]، وذلكَ من حفْظِ اللهِ لهُمْ عنِ الطَّعامِ والشَّرابِ الَّذِي لا يرضَاهُ ذلكَ كرامةً لهم، فلمَّا شَرِبَهُ هذا الرَّجلُ ولم يحفَظْ منهُ عادَتْ قَسْوتُهُ علىٰ قلبِهِ المدَّةَ الَّتِي ذكرَهَا، فيكونُ في ذلِكَ زجرٌ لهُ، وتنبيهٌ علىٰ كمالِ التَّثبُّتِ والانكفافِ حتَّىٰ يتبيَّنَ لهُ حكمُ ما عزَمَ عليهِ، واللهُ أعلمُ.

***

(١) كما مر في ص٢٣٩.

قَالَ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]:

«وَمِنْهُمْ:

[٣٠] أَبُو عَبْدِ اللهِ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ المَكِّيُّ[(٢)]

لقيَ أبا عَبْدِ اللهِ النِّبَاجِيَّ، وَصَحِبَ أَبَا سَعِيدٍ الخَرَّازَ وغيرَهُ.

شيخُ القَوْمِ، وإمامُ الطَّائفَةِ فِي الأصولِ والطَّرِيقَةِ.

مَاتَ بِبَغْدَادَ سنَةَ إِحْدَىٰ وَتِسْعِينَ ومائتَينِ.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَاذَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أبا بَكْرٍ، مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَمْرو بن عُثْمَانَ المَكِّيَّ يَقُولُ[(٣)]: كُلُّ مَا تَوَهَّمَهُ قَلْبُكَ، أَو سَنَحَ فِي مَجَارِي فِكْرَتِكَ، أَوْ خَطَرَ فِي مُعَارَضَاتِ قَلْبِكَ؛ مِنْ حُسْنٍ، أَوْ بَهَاءٍ، أَوْ أُنْسٍ، أَوْ ضِيَاءٍ، أَوْ جَمَالٍ، أَوْ شَبَحٍ، أَوْ نُورٍ، أَوْ شَخْصٍ، أَوْ خَيَالٍ، فاللهُ - تعالىٰ - بَعِيدٌ مِنْ ذَلِكَ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَىٰ قَوْلِهِ - تعالىٰ -: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وَقَالَ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣، ٤]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: مَا خطَرَ في قلبِكَ، أو تخيَّلْتَهُ بِوَهْمِكَ، أو تخيَّلْتَهُ بفكْرِكَ، فهوَ كلُّهُ محالٌ في حقِّ اللهِ - سبحانه -[(٤)]؛ إذِ الفِكْرُ والخيالُ والوَهْمُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٩٠.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٦٢، وحلية الأولياء ١٠/٢٩١، وتاريخ بغداد ١٢/٢٢٣، ومناقب الأبرار ١/٤٣٢، والإكمال ٧/١٣٣، وصفة الصفوة ٢/٤٤٠، وتاريخ الإسلام ٢٣/٧٠، وسير أعلام النبلاء ١٤/٥٧، وطبقات الأولياء ص٣٤٣، والطبقات الكبرىٰ ١/١٦٢، وشذرات الذهب ٢/٢٢٥، والكواكب الدرية ١/٦٩٠.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٦٤، وتاريخ بغداد ١٢/٢٢٣، ومناقب الأبرار ١/٤٣٣.

(٤) انظر: أقاويل الثقات ص١٣٤.

إِنَّمَا يتعلَّقُ بِمَنْ لَهُ مثالٌ أو شَبِيهٌ أو نَظِيرٌ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنِ الأَنْوَارِ كُلِّهَا، سواءٌ كانَتْ محسوسةً أو معنويَّةً، لِأَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ مَخْلُوقٌ لَهُ ويستحيلُ أن يَحُلَّ في شيءٍ؛ إِذْ لو كانَ فيهِ لكانَ محصورًا مَحْدُودًا، ويستحيلُ أنْ يَحُلَّ فيه شَيءٌ؛ إذ لو كانَ كذلكَ لكان مَحَلًّا وجِرْمًا، وتعالى اللهُ عن ذلكَ عُلُوًّا كبيرًا[١].

وقولُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، عامٌّ في كلِّ شيءٍ، والشَّيءُ هوَ الموجودُ، وما ليسَ بشيءٍ نفيٌ محضٌ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] إلى قولِهِ: ﴿كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [آية: ٤]، يعنِي: لا عديلَ لهُ ولا نظيرَ لهُ في ذَاتِهِ وَلَا صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ؛ إِذْ لَا فِعْلَ لِغَيْرِهِ، فَمَا خطَرَ بِبَالِ العَبْدِ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ فَهُوَ مُحَالٌ عَلَىٰ اللهِ ـ سبحانه ـ، فإِنَّهُ الخالقُ القديمُ، وما عداهُ المخلوقُ المُحْدَثُ من جميعِ العَالمِ.

فهذا تنبيهٌ منهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على تَنْزِيهِ الحقِّ ـ سبحانه ـ، وتعليمِ العَبْدِ طَرِيقَ الوَحْدَانيَّةِ، والإفرادِ لهُ ـ سبحانه ـ في الذَّاتِ والصِّفاتِ والأفعال، وهوَ الكبيرُ المتعال [١/٦٨ب].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **«وَبِهَذَا الإِسْنَادِ قَالَ[٣]: العِلْمُ قَائِدٌ، وَالخَوْفُ سَائِقٌ، وَالنَّفْسُ حَرُونٌ بَيْنَ ذَلِكَ، جَمُوحٌ خَدَّاعَةٌ رَوَّاغَةٌ، فَاحْذَرْهَا وَراعِهَا بِسِيَاسَةِ العِلْمِ، وسُقْهَا بِتَهْدِيدِ الخَوْفِ.. يَتِمُّ لَكَ مَا تُرِيدُ»**.

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«العِلْمُ قَائِدٌ»** يعني به: العلمَ باللهِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٦٧.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٩٠.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٦٤، وتاريخ بغداد ١٢/٢٢٣، وصفة الصفوة ٢/٤٤٠، ومدارج السالكين ٢/٤٦٦.

وبكمالِهِ[١] وجلالِهِ، ومعرفةَ أحكامِهِ؛ من حَلالِهِ وحَرَامِهِ، ووعدِهِ ووعيدِهِ، هذا العلمُ إذا حصلَ في النَّفسِ تَحَرَّكَتِ النَّفسُ[٢] إلىٰ الأعمالِ؛ رجاءَ القربِ ونيلِ الجزاءِ منَ الكبيرِ المتعالِ.

وبهذا الاعتبارِ كانَ قائدًا، أيْ: يقودُ النَّفسَ إلىٰ فعْلِ الخيراتِ، والخَوفُ منَ العذابِ، أو القُصُورِ والنَّقصِ عَنْ مَرَاتِبِ الأَحْبَابِ، أو البُعْدِ والحجابِ سائقٌ، متىٰ حرنَتِ النَّفسُ وكسلَتْ عنِ القيامِ بمَا عرَفَتْ خوَّفَهَا بمَا ذكرْنَاهُ، وساقَهَا بذلكَ، فهيَ حَرُونٌ جموحٌ.

والحَرَنُ: هو الوقوفُ عنِ المشْيِ. والجموحُ: هوَ الهربُ من جهةٍ إلىٰ جهةٍ عنِ الطَّريقِ المستقيمِ، وهذا شأنُ النَّفسِ إذا حملَتِ الأثقالَ؛ إمَّا أنْ تَهْرَبَ، وَإِمَّا أنْ تكسلَ وتقفَ عنِ السَّيرِ، فإذَا أرادَ العبدُ سيرَهَا شوَّقَهَا بمَا ذكرْنَاهُ، وخوَّفَهَا بمَا بيَّنَّاهُ، ورفقَ بِهَا فِي السَّيرِ حتَّىٰ تتعوَّدَ الخيرَ ويلذَّ لهَا، فتسيرَ إليهِ بسهولةٍ بعونِ ربِّهَا، ولا يحتاجُ إلىٰ كَمَالِ القائدِ والسَّائقِ[٣]، كمَا قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «ما أصبحَ لي هَوًىٰ إلَّا في مَوَاقِعِ قدرِ اللهِ»، وتلذُّ لهُ الخَيْرَات، ولا يردُّهُ عنهَا مَا جاءَتْ بهِ الأقدارُ منَ المُشقَّات.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: **«وَقَالَ[٦]: لا يقعُ عَلَىٰ الوَجْدِ عِبارةٌ؛ لِأَنَّهُ سِرُّ اللهِ**

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) سقط من (ج) قوله: تحركت النفس.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٦٧.

(٤) ورد قوله في: الرضا عن الله بقضائه ص٧٤، والرعاية لحقوق الله للمحاسبي ص٢٦٢، وإحياء علوم الدين ٣/٣١٩، ومدارج السالكين ٢/٢٢٥.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٩٠.

(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٦٤، ومناقب الأبرار ١/٤٣٣، وإحياء علوم الدين ٢/٢٩٢، وشذرات الذهب ٢/٢٢٦.

عِنْدَ المُؤْمِنِيْنَ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ كثيرًا(١) منَ المَحْسُوسَاتِ يَعْسرُ على العبدِ التَّعبيرُ عنهَا، بلْ يعسرُ على الخلْقِ الكُلِّ(٢) التَّعبيرُ عنهَا، وإنْ كانَتْ محسوسةً لهُم، موجودةً فيمَا بينَهُمْ؛ وذلكَ لو قيلَ لقائلٍ: ما الفرقُ بينَ رائحةِ الزُّبدِ ورائحةِ المِسْكِ؟ وطُولِبَ بِعِبَارةٍ تميِّزُ هذا عن هذا لَعَسُرَ عليهِ، وهو يدركُ الفرقَ قطعًا من نفسِهِ.

ولو قيلَ لهُ: ما الفرقُ بينَ حلاوةِ السُّكَّرِ وحلاوةِ العسلِ؟ لكانَ كذلِكَ، أو حموضةِ اللَّيمونِ وحموضةِ النَّارنْجِ(٣)؟ لعسُرَ عليهِ ذلكَ.

فإذا عسرَتِ العباراتُ عن تمييزِ هذِهِ المحسوساتِ، فعجزُهَا عن مواردِ [١/١٦٩أ] القلوب، وما يفتحُ بهِ الحقُّ ويخلقُهُ فيهَا منَ الغيوب؛ منَ المحبَّةِ والشَّوقِ والفرَحِ والطَّيشِ والأُنْسِ وغيرِ ذلكَ من أحزانِ القلوبِ أَوْلَى وأَوْلَى، وإنَّمَا يشيرُ مَنْ مَنَّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عليهِ بهَا بالإشاراتِ، ويقرِّبُهَا بالأمثالِ منَ الأمورِ المَعْلُومَاتِ(٤)، ولذلكَ قالَ: «**لا تقعُ عليهِ عبارةٌ، فإنَّهُ سرُّ اللهِ**»، يَعْنِي: يَخُصُّ بهِ مَنْ يشاءُ من عِبَادِهِ، وليسَ هوَ منَ المُعْتَادِ ليمكنَ الشَّخص أنْ يحدِّثَ بهِ غيرَهُ فيفهمهُ(٥) عنهُ بمَا عندَهُ، واللهُ الموفِّقُ.

❊ ❊ ❊

---

(١) في (ب): كثيرٌ.

(٢) أي: كلهم.

(٣) انظر في وصف هذه الشجرة وثمرتها: المعجم الوسيط ٢/٩١٣.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٦٨.

(٥) في (ج): «يحدث به عن ما يفهمه عنه».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُم:

[٣١] سُمْنُونُ بْنُ حَمْزَةَ[٢]

وَكُنْيَتُهُ أَبُو الحَسَنِ، ويقالُ: أَبُو القاسِمِ.

صَحِبَ السَّرِيَّ، وأبَا أَحْمَدَ القَلَانِسِيَّ، ومحمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ القصَّابَ، وغيرَهُمْ.

قِيلَ: إِنَّهُ أنشدَ[٣]:

وَلَيْسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ ❊ فَكَيْفَ مَا شِئْتَ فَاخْتَبِرْنِي!

فأخذَهُ الأُسْرُ[٤] من ساعتِهِ، فكانَ يَدُورُ عَلَى المَكَاتِبِ وَيَقُولُ للصِّبيان: ادعُوا لِعَمِّكُمُ الكَذَّابِ.

وَقِيلَ[٥]: بَلْ أنشدَ هذهِ الأبياتَ، فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ لبعْضٍ: سَمِعْتُ البَارِحَةَ وكُنْتُ بالرُّسْتَاقِ صَوتَ أستاذِنَا سُمْنُونَ يَدْعُو اللهَ ويتضرَّعُ إِلَيْهِ ويَسأَلُ الشِّفَاءَ، فَقَالَ آخرُ: وأنا أَيْضًا كنتُ سَمِعْتُ هَذَا البارحَةَ، وكنْتُ بالموضِعِ الفُلَانِيِّ، فَقَالَ ثالثٌ ورابعٌ مثلَ هَذَا، فأُخْبِرَ سُمْنُونُ، وَكَانَ قَدِ امتُحِنَ بِعِلَّةِ الأُسْرِ، وَكَانَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٩١.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٥٨، وحلية الأولياء ١٠/٣٠٩، وتاريخ بغداد ٩/٢٣٤، ومناقب الأبرار ١/٤٣٧، والأنساب ٥/٢١٠، وصفة الصفوة ٢/٤٢٦، والبداية والنهاية ١١/١١٥، وتاريخ الإسلام ٢٢/١٥٦، وطبقات الأولياء ص٢٤٤، والكواكب الدرية ١/٦٣٠.

(٣) من مخلع البسيط، ونسب إليه في: حلية الأولياء ١٠/٣١٠، وتاريخ بغداد ٩/٢٣٤، ومناقب الأبرار ١/٤٤٠، وإحياء علوم الدين ٤/١٣٤، والأنساب ٥/٢١١، ونفح الطيب ٢/١٩٣، ونُسب للنوري في: مناقب الأبرار ١/٤٠٥.

(٤) هو: احتباس البول.

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٤٠، وبإيجاز في جُلِّ مظان ترجمته سالفة الذكر.

يصبرُ ولا يجزعُ، فلمَّا سمعَهُمْ يقولونَ هَذَا، وَلَمْ يكنْ هُوَ قَدْ دعَا ولَا نطقَ بشيءٍ من ذَلِكَ، عَلِمَ أَنَّ المَقْصُودَ منهُ إظهارُ الجَزعِ تَأَدُّبًا بالعبوديَّةِ[1] وسترًا لِحَالِهِ، فأخذَ يطوفُ عَلَى المكاتبِ، وَيَقُولُ: أُدْعُوا لِعَمِّكُمُ الكَذَّابِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا سُمْنُونُ مِنَ المشهورِينَ بالمحبَّةِ والهيمَانِ فيهَا، فلذلكَ جرىٰ علىٰ لِسَانِهِ هذا القولُ، وذلكَ أنَّ أفعالَ المَحْبُوبِ كُلَّهَا عند المُحِبِّ مَحْبُوبةٌ مُوَافِقَةٌ، فلمَّا كانَ هوَ مَقْصُودَهُ خَاصَّةً، ومَحْبُوبَهُ جَرَىٰ علىٰ لِسَانِهِ:

وَلَـيْسَ لِـي فِـي سِـوَاكَ حَـظٌّ ❊ فَكَيْـفَ مَـا شِـئْتَ فَـاخْتَبِرْنِي!

والأوَّلُ: محضُ العبوديَّةِ، والثَّاني: فيهِ شيءٌ منَ الدَّعوىٰ بأنَّهُ يصيرُ تحتَ الاختبارِ، فقيلَ: إنَّ هذَا سببُ مَا ابْتُلِيَ بهِ منَ الأَسْرِ، فلمَّا ابتُلِيَ بِهِ واختبرَ شَقَّ عليهِ ذلكَ، فصارَ يَدُورُ علىٰ المَكَاتِبِ وَيَقُولُ: «**أُدْعُوا لعمِّكُمُ الكذَّابِ في دَعْوَاهُ**».

وقيلَ: سببُ دورانِهِ علىٰ المكاتبِ غيرُ هذا، وهوَ أكملُ منَ الأوَّلِ [١/٦٩ب] وأبعدُ منَ الآفاتِ، وأشدُّ مناسبةً لحالِهِ؛ وذلكَ أنَّهُ ابْتُلِيَ بهذا المَرَضِ منَ اللهِ ـ سبحانه ـ وكانَ يَصْبِرُ ولا يظهرُهُ لأحدٍ، ويمسكُ عنِ الدُّعاءِ فيهِ، رِضًىٰ باختيارِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لهُ، فبينَا هوَ في هذا الحالِ الشَّريفِ وهوَ يُقَاسِي منَ الألمِ مَا يُقَاسِيه، ويسترُهُ عنِ الخلقِ ويُخْفِيه، إذْ رأَىٰ بعضَ أصحابِهِ في المنامِ ـ في بعضِ نَوَاحِي المَكَانِ الَّذِي الشَّيخُ فيهِ ـ أنَّهُ رأىٰ الشَّيخَ وهوَ يدعُو اللهَ ـ تعالىٰ ـ أنْ يُخَلِّصَهُ ممَّا هوَ فيهِ، ثمَّ رأىٰ رجلًا آخرَ من أصحابِهِ ذلكَ، وهوَ يدعو ويتضرَّعُ، ثمَّ رآهُ ثالثٌ ورابعٌ، فلمَّا بلغَهُ ذلكَ غَلَبَ عليهِ ظَنُّهُ أنَّ مرادَ الحقِّ منهُ إظهارُ ما هوَ فيه، والتَّضرُّعُ والبكاءُ والعجزُ عن حملِ ما ابتُلِيَ بهِ والافتقارُ إلىٰ اللهِ فيه، فَصَارَ يَدُورُ علىٰ المَكَاتبِ ويسألُ الصِّبيانَ؛ لكونِهِم لم يُذْنبُوا وهُمْ مُشْتَغِلُونَ بتعلُّمِ كتابِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ رجاءَ

(١) في (أ، ج): للعبودية

الاستجابةِ بدعائِهم، ويكونُ هوَ في أثناءِ ذلكَ داعٍ؛ لأنَّهُمْ إذَا دَعَوْا قالَ: آمينَ، وهذا من حالِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدلُّ على كَمَالِهِ ومراقبتِهِ لأَفْعَالِ رَبِّهِ، وتَنْبيهِهِ لَهُ في قلبِهِ وعلَىٰ لِسَانِ غيرِهِ، ففعلَ ذلكَ امْتِثالًا لِمَا نبَّهَ عليهِ[١].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ مُحَمَّدَ بنَ الحَسَنِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرًا الخُلْدِيَّ يَقُولُ: قَالَ لِي أَبُو أَحْمَدَ المَغَازِلِيُّ**[٣]**: كَانَ بِبَغْدَادَ رَجُلٌ فَرَّقَ عَلَىٰ الفُقَرَاءِ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَقَالَ لِي سُمْنُونُ: يَا أَبَا أَحْمَدَ؛ أَلَا تَرَىٰ مَاذَا أَنْفَقَ هَذَا وَمَا قَدْ عَمِلَهُ وَنَحْنُ مَا نَجِدُ شَيْئًا! فَامْضِ بِنَا إِلَىٰ مَوْضِعٍ نُصَلِّي فِيهِ بِكُلِّ دِرْهَمٍ أَنْفَقَهُ رَكْعَةً، فَمَضَيْنَا إِلَىٰ الْمَدَائِنِ، فَصَلَّيْنَا أَرْبَعِينَ أَلْفَ صَلَاةٍ**[٤].

وَكَانَ سُمْنُونُ ظَرِيفَ الخُلُقِ، أَكْثَرُ كَلَامِهِ فِي المَحَبَّةِ، وَكَانَ كَبِيرَ الشَّأْنِ.

مَاتَ قَبْلَ الجُنَيْدِ كَمَا قِيلَ[٥]».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ كمالِ منافستِهِ في الخيرِ وكثرةِ اجتهادِهِ فيهِ، والاقتداءِ في ذلكَ بالنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّ بعضَ الصَّحابةِ منَ الفُقَرَاءِ سَأَلُوا النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالُوا[٦]: «**سَبَقَنَا أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ**»، فدلَّهُم علىٰ الدُّعاءِ والذِّكْرِ والبَاقيَاتِ الصَّالحَاتِ، وهوَ الأمرُ المتيسِّرُ علىٰ الفقراءِ، وهوَ الَّذِي

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٦٩.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٩١ ـ ٩٢.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٤١.

(٤) في (ف): ركعة.

(٥) في تاريخ بغداد ٩/٢٣٤، ومناقب الأبرار ١/٤٤١: «مات بعد الجنيد». وفي تاريخ الإسلام ٢٢/١٥٧: «توفي سنة ثمانٍ وتسعين ومائتين».

(٦) سبق تخريجه.

يمكنُهُمْ فِعْلُهُ، فلمَّا سمعَ سُمنونُ صدقةَ هذَا الرَّجلِ بجميعِ هذهِ الدَّراهمِ فرغبَ أنْ ينالَ منَ الأجرِ مثلَ ما فعلَ امتثلَ بمَا أَمرَ بهِ [١٧٠/١أ] النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفقراءَ، فمَضَىٰ هو وصاحبُهُ فصلَّوا مكانَ كلِّ دِرْهمٍ ركعةً، هذهِ هيَ المُنَافسَةُ والمُسَارعةُ فِي الخَيْراتِ.

وأمَّا كَونُهُ ظَرِيفًا في الخُلُقِ، فَمَعْنَاهُ: أنَّ الغَالبَ علىٰ أَحْوالِهِ البَسْطُ، وهوَ الغَالبُ علىٰ قُلُوبِ أَهْلِ المَحَبَّةِ، فإنَّ كُلَّ إِنَاءٍ بالَّذِي فيه يَنْضَحُ[١].

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٧٠.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُمْ:

[٣٢] أَبُو عُبَيْدٍ البُسْرِيُّ[(٢)]

مِنْ قُدَمَاءِ المَشَايِخِ، صَحِبَ أَبَا تُرَابٍ النَّخْشَبِيَّ.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[(٣)]: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الدُّقِّيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ الجَلَّا يَقُولُ[(٤)]: لَقِيتُ سِتَّمَائَةِ شَيْخٍ، فَمَا رَأَيْتُ مِثْلَ أَرْبَعَةٍ: ذِي النُّونِ الْمِصْرِيِّ، وَأَبِي[(٥)]، وَأَبِي تُرَابٍ النَّخْشَبِيِّ، وَأَبِي عُبَيْدٍ البُسْرِيِّ.

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدٍ الثَّغْرِيَّ[(٦)] يَقُولُ[(٧)]: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ مَعْمَرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا زَرْعَةَ الجَنْبِيَّ يَقُولُ:

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٩٣.

(٢) انظر في ترجمته: مناقب الأبرار ١/٤٤٥، وتاريخ دمشق ٥٢/٢٨٠، والمؤتلف والمختلف لابن القيسراني ص٣٤، وصفة الصفوة ٤/٢٤١، وتوضيح المشتبه ١/٥٠٣، وتاريخ الإسلام ١٩/٣٨٤، ٢٠/٥٠٠، وبغية الطلب ١٠/٤٥٢٢، والكواكب الدرية ٤/١٦٥، والطبقات الكبرىٰ ١/١٦٣.

والبُسْرِي: نسبة إلىٰ بُصرىٰ قرية من قرىٰ دمشق، ففي الأنساب ١/٣٥٠: «وأما أبو عبيد البسري الصوفي من مشاهير الصوفية فهو منسوب إلىٰ بصرىٰ؛ قرية من قرىٰ الشام، فأبدل الصاد بالسين وقيل: البسري علىٰ قياس قولهم في السويق: الصويق، وفي السراط: الصراط». واسمه: محمد بن حسان.

(٣) انظر: طبقات الصوفية ص١٢٥.

(٤) ورد قوله في: تاريخ بغداد ١٤/٢٠٤، وتاريخ دمشق ٥٢/٢٨٠، والأنساب ٢/١٣٦، ومناقب الأبرار ١/٤٤٥، وتاريخ الإسلام ١٩/٣٨٤، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٣٠٧.

(٥) في (أ): (وأبو)، وكذا اللفظ الذي يليه، والصواب ما أثبته. والقصد: يحيىٰ الجلَّا.

(٦) في (أ، ج): المغربي، والصواب المثبت. وفي: تاريخ دمشق ٥٢/٢٨٧: البغوي.

(٧) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥٢/٢٨٧، ومناقب الأبرار ١/٤٤٥.

كَانَ أَبُو عُبَيْدٍ البُسْريُّ يَوْمًا عَلَىٰ جَرْجَرٍ يَدرسُ[(١)] قَمْحًا لَهُ، وبينَهُ وبينَ الحجِّ ثلاثةُ أَيَّامٍ؛ إِذْ أَتَاهُ رجُلَانِ فقالَا: يَا أَبَا عُبَيْدٍ، تَنْشَطُ لِلْحَجِّ[(٢)]؟ فَقَالَ: لا، ثُمَّ التَفتَ إِلَيَّ وَقَالَ: شيخُكَ عَلَىٰ هَذَا أقدرُ مِنْهُمَا، يَعْنِي نَفْسَهُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا من بابِ إظهارِ الكَرَامَاتِ لمَنْ يَقتَدِي بهِ؛ لتقوَىٰ نفسُهُ بوقوعِهَا مِمَّنْ يثقُ بخبرِهِ، وليَكْمُلَ حسنُ ظنِّهِ بشيخِهِ، فيسرعَ امتثالهُ لمَا يأمرُهُ به.

وفيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ خَوارقَ العَادَاتِ لا تَختصُّ بمَنْ يقطعُ الأسبابَ؛ بلْ يُجْرِيهَا اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ العبدِ، وإنْ كانَ مُتَسبِّبًا إذا كان تسبُّبُهُ للأمرِ، وكانَ معتمدًا بقلبِهِ علىٰ ربِّهِ في كلِّ حالٍ، فكانَ أبو عبيدٍ هذا «**علَىٰ جَرْجَرٍ**»، يعنِي: آلةً يدرسُ بهَا قمحهُ[(٣)] الَّذِي زَرعَهُ لقُوتِهِ، فأتاهُ هذانِ الرَّجلانِ منَ الأولياءِ، وبينَ بَلَدِهِ وبينَ (مكَّةَ) شيءٌ كثيرٌ وسفرٌ طويلٌ، ولمْ يبقَ لوقتِ الوَقْفَةِ إلَّا ثَلاثةُ أيَّامٍ، فَسَلَّمَا علىٰ شيخِهِ وقالَا لهُ: «**هَلْ تَنْشطُ مَعَنَا إلىٰ الحَجِّ؟!**»، فتثبَّتَ ورأىٰ أنَّ مَا هوَ فيهِ أَوْلَىٰ من سَفرِهِ مَعَهُمَا، فلمَّا مضيَا قالَ لتلميذِهِ: «**شَيْخُكَ أَقْدَرُ علىٰ هذَا منهُمَا**»، وهذَا هوَ طيُّ الأرضِ، وأَظْهَرَهُ لتلميذِهِ؛ لمَا ذكرْنَاهُ منَ الفوائدِ، واللهُ المُسَدِّدُ[(٤)].

---

(١) في (ف): يدوس.

(٢) في (ب): إلىٰ الحج.

(٣) في المحكم «جرجر»: «الجرجر: ما يداس به.. وهو من حديد». وهو ما يسمَّىٰ بالنُّورج قديمًا عند المصريين.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٧١ ـ ١٧٢. وفيه تنبيه علىٰ أن الكرامة لا تخصُّ بمن يقطع الأسباب.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

«وَمِنْهُمْ:

[٣٣] أَبُو الفَوَارِسِ شَاهُ بنُ شُجَاعٍ الكِرْمَانِيُّ(٢)

كَانَ مِنْ أَوْلَادِ المُلُوكِ، صَحِبَ أَبَا تُرَابٍ النَّخْشَبِيَّ، وَأَبَا عُبَيْدٍ البُسْرِيَّ، وَأُوْلَئِكَ الطَّبَقَةَ.

وَكَانَ أَحَدَ الفِتْيَانِ، كَبِيرَ الشَّأْنِ، مَاتَ [١/٧٠ب] قَبْلَ الثَّلَاثِمَائَةِ.

وَقَالَ شَاهُ(٣): عَلَامَةُ التَّقْوَى: الوَرَعُ، وَعَلَامَةُ الوَرَعِ: الوُقُوفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ.

وَكَانَ يَقُولُ لأَصْحَابِهِ(٤): اِجْتَنِبُوا الكَذِبَ وَالخِيَانَةَ وَالغِيْبَةَ، ثُمَّ اصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُهُ: «عَلَامَةُ التَّقْوَى: الوَرَعُ»، فإنَّ الورعَ هوَ تجنُّبُ ما يُخْشَىٰ منهُ(٥)، وكذلكَ التَّقوَىٰ، فإذا كانَ الشَّخصُ متجنبًا لتضييعِ الواجباتِ، ومجانبًا لارتكابِ المحرَّماتِ كانَ متَّقيًا ورِعًا؛ التَّقوىٰ الواجبَة، والورعَ الواجبَ، ولا يمكنُهُ أنْ يتورَّعَ حتَّىٰ يتوقَّفَ، فإذا توقَّفَ وتثبَّتَ تبيَّنَ لهُ المشكلُ من غيرِهِ، فحينئذٍ يتورَّعُ الورعَ المَنْدُوبَ.

وأمَّا وصيَّتُهُ لأصحابِهِ: «اجتنبُوا الكذبَ والغيبةَ والخيانَةَ»، والكذبُ والغيبةُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٩٤/١.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٥٦، وحلية الأولياء ٢٣٧/١٠، ومناقب الأبرار ٤٥٢/١، وصفة الصفوة ٦٧/٤، وتاريخ الإسلام ١٥٩/٢٢، والوافي بالوفيات ٥٣/١٦، وطبقات الأولياء ص٣٦٠، والكواكب الدرية ٣٦/٢.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٥٨، والزهد الكبير ص٣١٦، ومناقب الأبرار ٤٥٣/١.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٤٥٤/١.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب). أو هو: التوقف عما فيه شبهة.

من آفاتِ اللِّسانِ، وهما أغلبُ شيءٍ على الإنسانِ، ومَنْ قدرَ على تَجنُّبِ الأقوى فهوَ على تَجَنُّبِ الأضعفِ أَقْوَى.

وأمَّا قولُهُ: «**الخيانةُ**» فيدخلُ تحتَهَا سائرُ المعاصي؛ منَ الإخلالِ بالواجباتِ، وارتكابِ المحرَّماتِ، فإنَّ الخِيَانةَ ضِدُّ الأمانةِ، وقَدْ قَالَ ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].. الآية؛ وهيَ التَّكاليفُ، فمتى قامَ بها لربِّهِ[(١)] وأوقعَهَا في الفعلِ والتَّركِ على مقتضى أمرِهِ ونهْيِهِ، كان أمينًا قائمًا بمَا اؤْتُمِنَ بهِ، وإنْ لم يكنْ كذلكَ كان خائنًا، قالَ اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٧].. الآية.

۞ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٢)]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَدِّي ابْنَ نُجيدٍ يَقُولُ: قَالَ شَاهُ الكِرْمَانِي[(٣)]: مَنْ غَضَّ بَصرَهُ عَنِ المَحَارِمِ، وَأَمْسَكَ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهوَاتِ، وَعَمَّرَ بَاطِنَهُ بِدوَامِ المُرَاقَبَةِ، وَظَاهِرَهُ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَعَوَّدَ نَفْسَهُ أَكْلَ الحَلَالِ لَمْ تُخْطِئْ لَهُ فِرَاسَةٌ**».

۞ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَيَشْهَدُ لِصِحَّةِ مَا قَالَ الخَبَرُ الصَّحِيحُ[(٤)]: «مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيهِمْ، وَلَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ».. الحديث.

ومعنى «كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ وَرِجْلَهُ»؛ معناه: أنَّهُ يحفظُهُ في يدِهِ ورِجْلِهِ

---

(١) في (ج): لربها، والصواب المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٩٤.

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٣٧، ومناقب الأبرار ١/٤٥٤، والاعتصام ١/٩٦، وصفة الصفوة ٤/٦٧، ومدارج السالكين ٢/٤٨٤، ومفتاح الجنة ص٧٢.

(٤) سبق تخريجه.

وقلبِهِ[١]، فلا يفعلُ شيئًا مِنْ ذلكَ على وجْهِ الخطأِ؛ لحفظِ اللهِ لهُ[٢]، والفِرَاسَةُ من جُمْلةِ فَوائدِ القُلُوبِ الصَّادِرَةِ منَ الغُيُوبِ.

(١) سقط هذا اللفظ من (ب). وانظر: مرقاة المفاتيح ٥/١٤٣.

(٢) في (ب): لهم.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

«وَمِنْهُمْ:

[٣٤] يُوسُفُ [١/١٧١أ] بْنُ الحُسَيْنِ(٢)

شَيْخُ الرِّيِّ والجِبَالِ فِي وَقْتِهِ، وَكَانَ نَسِيجَ(٣) وَحْدِهِ فِي إِسْقَاطِ التَّصَنُّعِ، وَكَانَ عَالِمًا أَدِيبًا.

صَحِبَ ذَا النُّونِ المِصْرِيَّ، وَأَبَا تُرَابٍ النَّخْشَبِيَّ(٤)، وَرَافَقَ أَبَا سَعِيدٍ الخَرَّازَ.

مَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِمَائَةٍ.

قَالَ يُوسُفُ بْنُ الحُسَيْنِ(٥): لأَنْ أَلْقَى اللهَ - تعالى - بِجَمِيعِ المَعَاصِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَاهُ بِذَرَّةٍ مِنَ التَّصَنُّعِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومُرادُهُ - واللهُ أعلمُ - التَّصنُّعُ للخلقِ بالطَّاعاتِ والتَّزيُّنُ بها عندَهُم، فيكونُ مُرائِيًا، وإلَّا مطلقُ التَّصنُّعِ والتَّجمُّلِ لمقاصدَ صحيحةٍ كالأعيادِ والجُمَعِ ومَحافلِ المُسْلِمِينَ والتَّعظيمِ للعلمِ وحُرْمَتِهِ، وحديثِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٩٥.

(٢) أبو يعقوب الرازي.
انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٥١، وحلية الأولياء ١٠/٢٣٨، وتاريخ بغداد ١٤/٣١٤، وطبقات الحنابلة لأبي يعلى ١/٤١٨، ومناقب الأبرار ١/٤٥٦، وصفة الصفوة ٤/١٠٢، والمستطرف ١/٣٠٩، وسير أعلام النبلاء ١٤/٢٤٨، والعبر ٢/١٣٤، والوافي بالوفيات ٢٩/٨٢، وطبقات الأولياء ص٣٧٩، وشذرات الذهب ٢/٢٤٥، والكواكب الدرية ٢/١٦٤.

(٣) في (أ، ج): شيخ، والمثبت موافق لما في الرسالة القشيرية، والقصد: لا نظير له.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٦١، والمستطرف ١/٣١٠، وسير أعلام النبلاء ١٤/٢٤٩، والوافي بالوفيات ٢٩/٨٢، وشذرات الذهب ٢/٢٤٥.

وقَدْ رُوِيَ[(١)] أنَّ مالكَ بنِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانَ إذا أتاهُ النَّاسُ يقتبسونَ منهُ العِلْمَ يُخرجُ إليهمُ الخادمَ ويقولُ: «يقولُ لكمُ الشَّيخُ: ما الَّذِي تُرِيدُونَ؟، المسائلَ أم حديثَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فإنْ أرادوا المسائِلَ أذِنَ لهُم وهوَ علىٰ حالتِهِ الَّتِي هوَ عليهَا، وإنْ قالُوا: حديثَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قامَ فتوضَّأَ، ولبسَ ثيابًا جددًا وسَاجَهُ[(٢)]، ونُصِبَتْ له مِنَصَّةٌ يجلسُ عليها، ويبخِّرُ بالعودِ إلىٰ أنْ ينقضي حديثُ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا التَّجمُّلُ من أشرفِ الطَّاعاتِ، فلم يُكْرَهُ التَّجمُّلُ علىٰ الإطلاقِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «**وَقَالَ يُوسُفُ بنُ الحُسَيْنِ**[(٤)]: **إِذَا رَأَيْتَ المُرِيدَ يَشْتَغِلُ بِالرُّخَصِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَجِيءُ مِنْهُ شَيْءٌ أَبَدًا**».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلك أنَّ المُرِيدَ عندَهُم عبارةٌ عمَّنْ أرادَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ وتفرَّغَ لنيلِ محبَّتِهِ وقُرْبِهِ، وإسباغِ فضْلِهِ عليهِ وكرامتِهِ، هذَا لا يكونُ إلَّا بكمالِ الجدِّ في اتِّباعِ العلمِ والعملِ، وطلبِ معالِي الأمورِ، وإذا كانَ كَسْلَانًا إنْ فاتَهُ شيءٌ منَ المَنْدُوبَاتِ قَالَ: لمْ يَفُتْنِي واجبٌ، وإنِ ارتكبَ شيئًا منَ المناهي:

---

(١) ورد قوله في: ترتيب المدارك وتقريب المسالك ٢/١٤، ونشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف ص١٢٥، وفتح المغيث ٢/٣١٥، وشرح الشفا للقاري ٢/٧٨، والمواهب اللدنية بالمنح المحمدية ٢/٣٧٧.

(٢) أي: طيلسانه، وقيل: الأخضر ههنا خاصة، وفي سبل الهدىٰ والرشاد ١١/٤٤٢: «ولبس ساجه ـ بسين مهملة فألف فجيم فهاء ـ طيلسان أخضر. وقال الأزهري: وهو القور الذي ينسج مستديرًا، وتعمم ووضع علىٰ رأسه رداءه، وتلقىٰ له منصة ـ بكسر الميم ـ أي: شيئا مرتفعًا يجلس عليه فيجلس عليها وعليه الخشوع، ولا يزال يبخر بالعود حتىٰ يفرغ من حديثه».

(٣) الرسالة القشيرية ١/٩٥.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٦١، والوافي بالوفيات ٢٩/٨٢، وسير أعلام النبلاء ١٤/٢٤٩، وشذرات الذهب ٢/٢٤٥.

المكروهاتِ والشُّبُهَاتِ قالَ: لَمْ أرتكِبْ محرَّمًا، وركَنَ إلى الرَّاحاتِ والبطالاتِ، فلا يجيءُ منهُ [١/٧١ب] شيءٌ فيمَا رامَهُ من أعالِي الدَّرجاتِ، هذا مرادُهُ، واللهُ أعلمُ.

إلَّا أنَّ مَنْ تَعاطَى الرُّخَصَ الَّتِي هيَ مَسْنُونات؛ كالقَصْرِ والفِطْرِ فِي السَّفَرِ وأكلِ الميتَةِ وإزالةِ الغصَّةِ بالخمرِ وغيرِ ذلكَ ممَّا أباحَهُ الشَّرعُ عندَ الضَّروراتِ(١)، فإنَّ ذلكَ لا ينقصُهُ ولا يصدُّهُ عمَّا هوَ فيهِ من نَيْلِ أعَالِي الدَّرجَاتِ(٢).

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): **«وَكُتِبَ إِلَى الجُنَيْدِ(٤): لَا أَذَاقَكَ اللهُ طَعْمَ نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ إِنْ ذُقْتَهَا لَمْ تَذُقْ بَعْدَهَا خَيْرًا أَبَدًا».**

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والنَّفسُ في اصطلاحِ هذا الشَّأنِ عبارةٌ عنِ الشَّهواتِ الذَّميمةِ، وهذَا الطَّعمُ وجودُ لذَّةِ الرِّياسةِ والتَّعظيمِ منَ الخلودِ علَى الطَّاعةِ واستراحةُ نفسِهِ لذلكَ، واستحسانُهَا لهُ، وإنَّ العبدَ إذا تَحَسَّى حَسْوةً(٥) من حُبِّ الرِّياسَةِ وعُلُوِّ المَنْزِلةِ ونُفُوذِ الكَلِمَةِ، ولا سيَّمَا في الدِّينِ الَّذِي يذلُّ لأهلِهِ ويخضعُ لهُمُ الملوكُ والسَّلاطينُ.

فإذا ركنَتِ النَّفسُ لهذِهِ اللَّذَّةِ وتَمكَّنَتْ فيهَا أَعْمَتْهَا عَن نَظَرِ كُلِّ خَيْرٍ، وَصَدَّتْهَا عن كُلِّ فَضِيلَةٍ، وهذا دعاءٌ للجُنَيدِ أنَّ اللهَ لا يبتليهِ بذلكَ، وأخبرَهُ أنَّهُ إنِ ابْتُلِيَ بِذَلكَ عَسُرَ عليهِ الانتقالُ عنهُ، وكانَ ذلكَ حِجَابًا لهُ عن كلِّ خَيْرٍ، إلَّا أنْ يَتَدارَكَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ.

---

(١) انظر: الذخيرة ٥/٢٠٧.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٧٤ ـ ١٧٥.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٩٥.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٦١، والوافي بالوفيات ٢٩/٨٢، وتاريخ الإسلام ٢٣/١٥٢، وسير أعلام النبلاء ١٤/٢٤٩.

(٥) أي: جرعة.

قَالَ الإِمَـامُ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ[(١)]: «وَقَالَ يُوسُفُ بْنُ الحُسَيْنِ[(٢)]: رَأَيْتُ آفَاتِ الصُّوفِيَّةِ فِي صُحْبَةِ الأَحْدَاثِ[(٣)]، وَمُعَاشَرَةِ الأَضْدَادِ[(٤)]، وَرِفْقِ النِّسْوَانِ[(٥)]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ كَمَالِ تَثَبُّتِهِ ومَعْرِفَتِهِ بالآفَاتِ الدَّاخِلَةِ علىٰ أهلِ هذا البَابِ، وذلكَ أنَّ الغالبَ عليهِمُ البُعدُ منَ الأَزواجِ والأموالِ، فإذا بَعُدَ منَ الأزواجِ وهوَ شابٌّ وخالطَ الأَحْدَاثَ خُشِيَ عليهِ سمومُ اللَّحظاتِ، فضلًا عمَّا يَلِيهَا منَ الآفاتِ.

وإذَا كان ضَعِيفَ التَّوكُّلِ وقليلَ الصَّبرِ علىٰ الجُوعِ إلىٰ أنْ يُيَسِّرَ اللهُ عليهِ رزقَهُ من أحسنِ الوجُوهِ خَالَطَ الأضدَّادَ السَّالكينَ عن طَرِيقِهِ، وقَبِلَ منَ النِّسوانِ الجاهِلِينَ بحقيقةِ الأمورِ الَّذينَ يدفعونَ علىٰ أوهامٍ ويظنُّونَ بهِ ما ليسَ متحقِّقًا فيهِ، ويرفقونَهُ علىٰ ما يتوهَّمونَهُ فيهِ منَ الأحوالِ، كفىٰ بهذِهِ الأوجهِ سببًا في الإخلالِ، وتشويشِ البَالِ، والبُعدِ مِنْ أَكْلِ الحَلالِ[(٦)] [١/١٧٢أ].

❁ ❁ ❁

(١) الرسالة القشيرية ١/٩٥.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٥٥، وحلية الأولياء ١٠/٢٤٠، وذم الهوىٰ ص١١٤.

(٣) جمع: حَدَث؛ وهو الشاب الصغير المليح الجميل. وكونهم آفة؛ لأن دوام التعلق بهم ربما أدىٰ إلىٰ سوء الخاتمة. انظر: نتائج الأفكار ١/٢٥٤.

(٤) لأنهم يفسدون عليهم أحوالهم بشؤم أخلاقهم وصفاتهم.

(٥) لأنهن من حبائل الشيطان، ومحل الفِتَن.

(٦) لأن الغالب في كلٍّ من الثلاثة عدم سلامة الدين.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُمْ:

[٣٥] أَبُو عَبدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ التِّرمِذِيُّ[(٢)]

مِنْ كِبَارِ الشُّيوخِ، وَلَهُ تَصانِيفُ فِي عُلُومِ القَوْمِ.

صَحِبَ أَبَا تُرَابٍ النَّخْشَبِيَّ، وَأَحْمَدَ بْنَ خِضْرَوَيْهِ، وَابْنَ الجَلَّا، وَغَيْرَهُم.

سُئِلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ عَنْ صِفَةِ الخَلْقِ، فَقَالَ[(٣)]: ضَعْفٌ ظَاهِرٌ، وَدَعْوَىٰ عَرِيضَةٌ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ[(٤)]: مَا صَنَّفْتُ حَرْفًا عَنْ تَدْبِيرٍ، وَلَا لِيُنْسَبَ[(٥)] إِلَيَّ شَيْءٌ مِنْهُ، وَلَكِنْ كَانَ إِذَا اشْتَدَّ عَلَيَّ وَقْتِي أَتَسَلَّىٰ بِهِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «ضَعْفٌ ظَاهِرٌ»، يعنِي: عدَمَ قُدْرَتِهِم علىٰ نَيْلِ شَيْءٍ ممَّا يُصْلِحُهُم، لا فِي دِيْنِهِم ولا دُنْيَاهُم، ولا يَدْفَعُونَ عنهُمْ ما يُؤْذِيهِم، ومعَ ذلكَ يَدَّعُونَ ويَنْسبُونَ[(٦)] لأنفسِهِمْ مَا هوَ من فضْلِ اللهِ عليهِم، ولهذا قالَ:

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٩٦.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٧٥، وحلية الأولياء ١٠/٢٣٣، ومناقب الأبرار ١/٤٦٥، وصفة الصفوة ٤/١٦٧، ولسان الميزان ٥/٣٠٨، وتاريخ الإسلام ٢١/٢٧٦، وسير أعلام النبلاء ١٣/٤٤٢، والطبقات الكبرىٰ ١/١٦٥، والكواكب الدرية ٢/١٣٠، ومقدمات التحقيق لكتبه المطبوعة.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٧٧، وحلية الأولياء ١٠/٢٣٥، وتاريخ الإسلام ٢١/٢٧٧.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٦٥، وصفة الصفوة ٤/١٦٨، ولسان الميزان ٥/٣٠٨، وتاريخ الإسلام ٢١/٢٧٨.

(٥) في (أ، ج): ولا انتسبُ، والمثبت موافق لما في الرسالة، وجل مظان تخريجه. وأشير في حاشية (أ) إلىٰ أنها في نسخة أخرىٰ (تسببت).

(٦) في (ج): وينتسبون.

«**ضَعْفٌ ظَاهِرٌ**[(١)]، **وَدَعْوَىٰ عَرِيضَةٌ**» يَعْنِي بالعَرِيضَةِ: العَظِيمَةَ، فإنَّ مَنِ ادَّعَىٰ لِنَفْسِهِ مَا لا ملكَ لهُ فيهِ بالكليَّةِ، كانَ أعظمَ الدَّعْوَىٰ وأشدَّهَا خطأً، ولذلكَ قالَ: «**ما صَنَّفْتُ حَرْفًا عَنْ تَدْبِيرٍ، ولا أَنْسِبُ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْئًا**» يعني: مِنْ كَسْبِهِ وَفِكْرَتِهِ، وإنَّمَا كانَ إذا طرأَتْ عليهِ الأحوالُ الغالبةُ جرَتْ علىٰ لسانِهِ الحِكَمُ، فاشتغلَ بتعليقِهَا يتسلَّىٰ بها ويتفرَّقُ ممَّا لا يطيقُ حملَهُ منَ الأحوالِ، واللهُ أعلمُ.

كمَا حُكِيَ عنِ النُّورِيِّ أنَّهُ دخلَ عليهِ ذاتَ يومٍ وهوَ يَنتفُ شَعْرَ حَوَاجِبِهِ[(٢)] ويَجْبِذُهُ[(٣)]، فَسُئِلَ عن ذلكَ، فقالَ: الحقيقةُ غالبةٌ عليَّ ولا قدرَ لي علىٰ حملِهَا، فأنا أشتغلُ بذلكَ ليخفَّ ما بِي وأرجعَ إلىٰ إحساسِي[(٤)]، هذا معنىٰ كلامِهِ.

ومَنْ هذهِ صِفتُهُ فيهِ بقايا لإدراكِ حَالِهِ واشتغَالِهِ بمَا يفرِّقُ جمْعَهُ، ولو كانَ مُصْطلمًا[(٥)] لقوَّةِ حالِهِ، لَمَا شَعَرَ بِشَيءٍ من ذلكَ.

***

(١) أي: لأرباب البصائر.

(٢) في نتائج الأفكار ١/٢٥٦: «ومثل هذا يقال له: التخريب بفعلٍ من شدة غلبة الأنوار عليهم، فيخففون عن أنفسهم بذلك».

(٣) في (ب): ويجذبه.، والجبذ بمعنىٰ الجذب. انظر: مرقاة المفاتيح ٩/٩٥.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٧٦.

(٥) أي: مستأصلا، فالاصطلام: الاستئصال والقطع.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

«وَمِنْهُمْ:

[٣٦] أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الوَرَّاقُ التِّرْمِذِيُّ(٢)

أَقَامَ بِـ(بَلْخ)، وَصَحِبَ أَحْمَدَ بْنَ خِضْرَوَيْهِ، وَلَهُ تصانيفُ(٣) فِي الرِّيَاضَاتِ.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ مُحَمَّدٍ البَلْخِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الوَرَّاقَ يَقُولُ(٤): مَنْ أَرْضَى الجَوَارِحَ بِالشَّهَوَاتِ(٥) غَرَسَ فِي قَلْبِهِ شَجَرَ النَّدَامَاتِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ عزمَهُ الأوَّلَ فِي طريقِهِ الَّتِي يسلكُهَا لطلبِ مرضاةِ ربِّهِ وتفرُّغَهُ لنيلِ قُرْبِهِ إنَّمَا هوَ بإعراضِهِ عَنْ شهواتِ نفسِهِ، فإذا غلبَتْهُ نفسُهُ يومًا مَا ووافَقَهَا في نَيْلِ شَهَوَاتِهَا، فكلَّمَا تَذكَّرَ ذلكَ وأنَّهُ خالفَ ما عَزَمَ عليهِ لمَولاهُ ثَارَ مِنْ [١/٧٢ب] قَلْبِهِ النَّدَمُ على ذلكَ، هذا في الحيَاةِ، وأمَّا يومُ القيامةِ إذا رأى جزاءَ الأعمالِ ودرجاتِ المُجْتهدِينَ فِي الطَّاعاتِ، معَ خُلُوِّهِ عن ذاكَ واشتغَالِهِ بالشَّهَواتِ، تَوَالَتْ على قَلْبِهِ النَّدَامَاتُ والحَسَرَات(٦).

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٩٧.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٧٨، وحلية الأولياء ١٠/٢٣٥، ومناقب الأبرار ١/٤٧٠، وصفة الصفوة ٤/١٦٥، وطبقات الأولياء ص٣٧٤، والطبقات الكبرى ١/١٦٦، والكواكب الدرية ٢/١٢٣.

(٣) مما وصل إلينا منها: العالم والمتعلم.

(٤) ورد قوله في: الزهد الكبير ص١٥٩، ومناقب الأبرار ١/٤٧٠، والتكملة لكتاب الصلة ١/٦٨، وإحياء علوم الدين ٣/٦٦.

(٥) أي: أنال كل جارحة من جوارحه حظَّها من الشهوات.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٧٧.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ[٢]: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ البَلْخِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الوَرَّاقَ يَقُولُ: لَوْ قِيلَ للطَّمَعِ: مَنْ أَبُوكَ[٣]؟ قَالَ: الشَّكُّ فِي المَقْدُورِ، ولو قيلَ: مَا حِرْفَتُكَ؟ قَالَ: اكْتِسَابُ الذُّلِّ، وَلَوْ قِيلَ: مَا غَايَتُكَ؟ قَالَ: الحِرْمَانُ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ ذمٌّ لمَنْ يطمعُ لمَا في أيدِي النَّاسِ، وذلكَ أنَّهُ لوْ تيقَّنَ أنَّ رِزْقَهُ المَضْمُونَ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لا بُدَّ أنْ يَأتِيَهُ في وقتِهِ المَقْدَّرِ لَقَلَّ طَمَعُهُ لمَا في أيدِي النَّاسِ، ولمَّا شكَّ في ذلكَ، قوِيَ طَمَعُهُ، وإنْ كانَ شَكُّهُ ليسَ من بابِ الاعتقادِ ـ والعياذُ باللهِ تعالىٰ ـ، وإنَّمَا غلبَهُ عليهِ سوءُ الاعتيادِ، ولهذا «**لو قيلَ للطَّمعِ: مَنْ أبوكَ؟ قالَ: الشَّكُّ في المقدورِ**»، أيْ: عنهُ تولَّدَ وحدثَ كمَا يحدثُ الولدُ عن أبيهِ.

ولو قيلَ للطَّمعِ: «**مَا حِرْفَتُكَ؟ قالَ: اكتسابُ الذُّلِّ**»، كمَا أنَّ الحِرْفَةَ هيَ الَّتِي يكتسبُ الإنسانُ منهَا قُوَّتَهُ ويُلازِمُهَا لذلكَ، فمَنْ قَوِيَ طَمَعُهُ لا يَزَالُ مُتَذَلِّلًا لأبناءِ الدُّنيَا، ويصيرُ ذلكَ دأْبَهُ وشَأْنَهُ.

ولو قيلَ للطَّمعِ: «**ما غَايَتُكَ؟ قالَ: الحِرْمَانُ**»، وهذا هوَ الصَّحيحُ، فإنَّهُ متىٰ كانَ أصلُهُ شَكًّا في المَقْدُورِ، وحرفتُهُ دوامَ الذُّلِّ لمَنْ لا يصلحُ التَّذلُّلُ لهُ، كانَ قَمِنًا[٤] ألَّا يُنيلَهُ اللهُ ما طمعَ فيهِ[٥]؛ لأنَّهُ لم يَتَوسَّلْ إليهِ بطريقِهِ المُوصِّلَةِ إليهِ[٦].

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٩٧.

(٢) طبقات الصوفية ص١٨١، وورد أيضا في: الزهد الكبير ص٩١، ومناقب الأبرار ١/٤٧٠، وصفة الصفوة ٤/١٦٦.

(٣) يشير إلىٰ أن الطمع خبيث ذاتا ومنشأً؛ لأنه سبيل أصيل في التهافت علىٰ الدنيا وتحصيلها بأي وجهٍ.

(٤) أي: جديرا.

(٥) لأن من استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٧٧.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الوَرَّاقُ يَمْنَعُ أَصْحَابَهُ عَنِ الأسفارِ والسِّيَاحاتِ، وَيقُولُ[(٢)]: مِفْتَاحُ كُلِّ بَرَكَةِ الصَّبْرُ فِي مَوْضِعِ إِرَادَتِكَ[(٣)] إِلَىٰ أَنْ تَصِحَّ لَكَ الإِرَادَةُ، فَإِذَا صَحَّتْ لَكَ الإرادةُ فَقَدْ ظَهرَتْ عَلَيكَ أَوَائِلُ البَرَكَةِ».**

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ الضَّعيفَ اليَقِينِ، والقليلَ الاعتيادِ للخيرِ والدَّوامِ علىٰ الطَّاعَاتِ إذا عَزَمَ علىٰ ذلك ـ يعنِي علىٰ سُلُوكِ طريقِ الإرادةِ وعمارةِ الأوقاتِ، وتقويةِ اليقينِ ـ فإنَّمَا يستعينُ علىٰ ذلكَ بقطعِ المُشْغِلَاتِ، والتَّفرُّغِ لعمارةِ الأوقات، فإذَا أخذَ يسافرُ ويسيحُ ـ علىٰ زعمِهِ وهوَ ضعيفٌ ـ عرَّضَ نفسَهُ لكثيرٍ منَ الآفاتِ، وتشتَّتَ قلبُهُ[(٤)]، وتفرَّقَ همُّهُ [١٧٣/١أ] الَّذِي هوَ مُطَالبٌ لِجَمْعِهِ، وأنْ يكونَ همُّهُ للخيرِ هَمًّا واحدًا.

فإذَا صَبَرَ في أوَّلِ أمْرِهِ معَ ترتيبِ الأورادِ، والبُعْدِ عنِ المُعْتَادِ ـ ولا سيِّمَا بمحلِّ نُشُوئِهِ، وبينَ أهلِهِ ومعارفِهِ ـ فإنَّهُ لا ينالُ ذلكَ إلَّا بأعظمِ الجهادِ، فإذا قَوِيَ علىٰ نَفْسِهِ هنالكَ فَأَمْرُ نَفْسِهِ عليهِ أَخَفُّ في غيرِ ذلكَ منَ البَلادِ.

❁ ❁ ❁

(١) الرسالة القشيرية ١/٩٧.

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٧٠.

(٣) أي: سلوكك.

(٤) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٧٨.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُمْ:

[٣٧] أَبُو سَعِيدٍ [أَحْمَدُ][(٢)] بْنُ عِيسَى الخَـرَّازُ[(٣)]

مِنْ أَهْلِ بَغْدَادَ، صَحِبَ ذَا النُّونِ المِصْرِيَّ، والنَّبَاجِيَّ، وَأَبَا عُبَيْدٍ البُسْرِيَّ، والسَّرِيَّ[(٤)]، وَبِشْرًا، وغيرَهُمْ.

مَاتَ سَنَةَ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَمائَتَيْنِ.

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الخَرَّازُ[(٥)]: كُلُّ بَاطِنٍ يُخَالِفُهُ ظَاهِرٌ فَهُوَ بَاطِلٌ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَمُرَادُهُ ليسَ باطنَ الإنسانِ وظاهرَهُ، فإنَّ بَاطنَ الشَّخصِ قد يكونُ فيهِ منَ الخيرِ والإخلاصِ والصِّدقِ ما لا يظهرُ على ظَاهرِهِ، وإنَّمَا مرادُهُ بالظَّاهِرِ ظاهرَ العلمِ؛ لأنَّ كلَّ مَنْ وقعَ في قلبِهِ شيءٌ أو فُتِحَ عليهِ بشيءٍ في قلبِهِ لا تَشْهَدُ لِصِحَّتِهِ الشَّريعةُ، فهوَ باطلٌ، والباطلُ هنا ضدُّ الحقِّ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ[(٧)]: سَمِعْتُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٩٨.

(٢) زيادة من (ب، ف).

(٣) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٨٣، ومناقب الأبرار ١/٤٧٧، وتاريخ دمشق ٥/١٢٩، والأنساب ٢/٣٣٥، والبداية والنهاية ١١/٥٨، والوافي بالوفيات ٧/١٨٠، وسير أعلام النبلاء ١٣/٤١٩، والعبر ٢/٨٣، والبداية والنهاية ١١/٥٨، وطبقات الأولياء ص٤٠، والطبقات الكبرى ١/١٦٧، وشذرات الذهب ٢/١٩٢، والنجوم الزاهرة ٣/٧٦، والكواكب الدرية ١/٥١٠.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٧٩، والاعتصام ١/٩٦، وسير أعلام النبلاء ١٣/٤١٩، وطبقات الأولياء ص٤٠.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٩٨.

(٧) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٨٦، وتتمة الخبر فيه: «قال أبو سعيد: وقلَّ مَن يتخلص من هذا=

أَبَا عَبْدِ اللهِ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ الصَّيَّادَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الخَرَّازَ يَقُولُ: رَأَيْتُ إِبْلِيسَ فِي النَّوْمِ وَهُوَ يَمُرُّ عَنِّي نَاحِيَةً، فَقُلْتُ: تَعَالَ، فَقَالَ: أَيْشٍ أَعْمَلُ بِكُمْ؟! أَنْتُمْ طَرَحْتُمْ عَنْ نُفُوسِكُمْ مَا أُخَادِعُ بِهِ النَّاسَ(١)، فَقُلْتُ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ الدُّنْيَا، فَلَمَّا وَلَّىٰ عَنِّي التَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: غَيْرَ أَنَّ لِي فِيكُم لَطِيفَةً، قُلْتُ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: صُحْبَةُ الأَحْدَاثِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفي هذهِ الحكايةِ إشارةٌ إلىٰ أَنَّ جميعَ ما يتوسَّلُ بهِ الشَّيطانُ إلىٰ إهلاكِ نفسِ الإنسانِ شَهواتُهُ المُتَعَلِّقةُ بالدُّنيا، فكلُّ مَنْ زَهدَ فِي الدُّنْيَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا، مالاً كانَتْ أَوْ جَاهًا، ضَعُفَتْ خَواطرُ الشَّيطانِ عندَهُ، وقلَّ قَبُولُهُ لها، فقالَ هذَا: «رأيتُ الشَّيطانَ في مَنَامِي وَهُوَ يَمْشِي مِنِّي نَاحِيَةً»، أَي: بَعِيدًا.

فَقُلْتُ لهُ: ما لكَ تَمْشِي بعيدًا، استنكارًا لعادتِهِ معَ بني آدَمَ، فقالَ: وما أعملُ بِكُمْ؟ يعنِي: الزُّهَّادَ، فإنَّكُم تركتُمْ عن أنفسِكُم ما أخادعُ بهِ النَّاسَ، وهيَ الدُّنيَا، قالَ: ثمَّ التفتَ إليَّ، ثمَّ قالَ: «إلَّا أنَّ لِي فيكُمْ لطيفةً» يعنِي: أمرًا يخفَىٰ عليكُمْ كونُهُ يضرُّكُمْ؛ وهوَ «صُحْبَةُ الأحداثِ» يعنِي من سمومِ اللَّحظاتِ [١/٧٣ب]، واستحسانِ الحركاتِ والوجَنَاتِ.

وَقَدْ ظَهَرَتْ هذِهِ الفتنةُ في بعضِ الأزمنَةِ حتَّىٰ صارُوا يأخذونَ الشَّابَّ الجميلَ الحسنَ الصُّورةِ في السَّماعاتِ، ويأمرونَهُ بحمْلِ شَمْعَةٍ حتَّىٰ يكملَ حالُهُ بضياءِ الشَّمعِ، وتأخذهُم الأحوالُ علىٰ رُؤيةِ صُورتِهِ، ويسمُّونَهُ الشَّاهدَ، وليتَ شِعْرِي، بماذَا سمَّوهُ شاهدًا! هل علىٰ الشَّقَاءِ، أو علىٰ السَّعادَةِ؟!

فإنْ زعمُوا أنَّ نفوسَهُم معَ كمالِ هذهِ الصُّورةِ لا تتحرَّكُ للمُسْتَحسناتِ،

= من الصوفية»، ومناقب الأبرار ١/٤٧٩، وتاريخ دمشق ٥/١٣٤، وذم الهوىٰ ص١١٤.

(١) أي: من الميل إلىٰ الدنيا وشهواتها.

فيكونُ هذا من بابِ الامتحاناتِ للنَّفسِ ، ففيهِ من تكْرَارِ النَّظرِ للصُّورِ الجميلةِ ، والتَّعرُّضِ لغررِ تعلُّقِ القلبِ بهَا مَا فيهِ ، وقد تقدَّمَتِ الحكايةُ[١] عن بعضِ المشايخِ لمَّا نظرَ تلميذُهُ الَّذِي كانَ يَمْشِي معَهُ إلىٰ صُورةٍ جميلةٍ ، وقالَ للشَّيخِ : «**هل يُعذِّبُ اللهُ - تعالىٰ - هذهِ الصُّورةَ بالنَّارِ ؟** فقالَ لهُ الشَّيخُ : **أوَنظرْتَ إليهِ** ، يعنِي بشهوةٍ ، **لتجدنَّ غِبَّهَا ولو بعدَ حينٍ ، قالَ الشَّابُّ النَّاظرُ : فنسيتُ القرآنَ بعدَ عشرينَ سنةً**» .

فهذا منَ البدَعِ[٢] الَّتِي لم تكنْ في الصَّدرِ الأوَّلِ ممَّنْ يقولُ بالسَّماعِ ، فيجعلُهُ محرِّكًا للقلوبِ إلىٰ كمالِ الجدِّ في الأعمالِ والمحبَّةِ[٣] وسرعةِ الانتفاعِ ، هذا لو سَلِمَ من سُمُومِ النَّظرات ، وتعلُّقِ القلبِ بالمشتَهَيَاتِ المُحرَّمات ، ومِنْ هذا القبيلِ المذمومِ خِلْطةُ النِّسوانِ الأجانبِ في الخلوَات ، وامتحانُ النَّفسِ هل تتحرَّكُ منهُ الشَّهوات ؟! ، وهيَ كلُّهَا من بابِ الضَّلالاتِ ، الَّتِي أمرَ الشَّرعُ بإبعادِهَا وجعلَهَا منَ المحرَّمات ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، كيفَ لبَّسَ اللَّعينُ حتَّىٰ أوهمَ أنَّهَا منْ جُمْلَةِ الدِّيانات ! .

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤] : «**وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الخَرَّازُ[٥] : صَحِبْتُ الصُّوفِيَّةَ[٦] مَا صَحِبْتُ ، فَمَا وَقَعَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ خِلَافٌ ، قَالُوا : لِمَ ؟ ، قَالَ : لِأَنِّي كُنْتُ مَعَهُم عَلَىٰ نَفْسِي**» .

---

(١) ص٣٧٠ .

(٢) في (ب) : فهذه البدعة .

(٣) في (ب) : من المحبة .

(٤) الرسالة القشيرية ١/٩٨ .

(٥) ورد قوله في : تهذيب الأسرار ص٢٦٦ ، وتاريخ دمشق ٥/١٣٠ ، ومناقب الأبرار ١/٤٨٠ ، وإحياء العلوم ٢/١٨٩ .

(٦) في تهذيب الأسرار ص٢٦٦ : «الصوفية خمسين سنة» .

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهذا يدلُّ على كَمَالِ عَقْلِهِ، وأنَّ الَّذِينَ خالَطَهُم لم يطَّلِعْ عليهِم من شَيْءٍ يضرُّهُ في دِينِهِ ولا ينكرُهُ عليهِم، وإلَّا لو وقعَ ذلكَ لأنكرَ وخالفَ، وإنَّمَا كانَ يتركُ خِلافَهُ؛ لمَا يختصُّ بهِ من مخالفةِ غَرضِهِ، ويتركُ موافقتَهُ فِي مرادِهِ، فكانَ يَحْملُ على نفسِهِ، فلا يؤاخذُ أحدًا بمَا بَدَا منهُ في حَقِّهِ، ولذلكَ ما خالَفَهُم، فدَلَّ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَى مَدْحِ الصُّوفِيَّةِ، وأنَّهُ خالطَهُم مُدَّةً فلمْ يطَّلِعْ منهُمْ على ما يُوجِبُ المخالفةَ والإنكارَ دِينًا، وعلى مَعْرفتِهِ بقدرِ نفسِهِ وشِدَّةِ مُجَاهَدَتِهِ في حملِ ما يلحقُهُ منَ الأَذَى [١/١٧٤أ] مِنْ بَعْضِهِم ممَّا لمْ يحرمْ عليهِ دُنيَا(١).

❊❊❊

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٧٩.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُمْ:

[٣٨] أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ المَغْرِبِيُّ[(٢)]

أستاذُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ شيبَانَ، وتلميذُ عَلِيِّ بْنِ رَزِينٍ.

عاشَ مائةً وعشرِينَ سنةً، وَمَاتَ سنةَ تسعٍ وتسعينَ ومائتَيْنِ[(٣)].

كَانَ عجِيبَ الشَّأنِ، لَمْ يأكُلْ مِمَّا وَصَلَتْ إِلَيْهِ يدُ بَنِي آدَمَ سِنِينَ كثيرةً، كَانَ يتناولُ مِنْ أُصُولِ الحَشِيشِ أشياءَ تعوَّدَ أَكْلَهَا.

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ المغربيُّ[(٤)]: أفضلُ الأعمالِ: عمَارَةُ الأوقاتِ بالموافَقَاتِ.

وَقَالَ[(٥)]: أَعْظَمُ النَّاسِ ذُلًّا: فَقِيرٌ دَاهَنَ غَنِيًّا أَوْ تَوَاضَعَ لَهُ، وَأَعْظَمُ الخَلْقِ عِزًّا: غَنِيٌّ تَذَلَّلَ للفُقَرَاءِ وحفظَ حُرْمَتَهُم».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «أَفْضَلُ الأَعْمَالِ: عمارةُ الأوقاتِ بالمُوافقَاتِ»؛ إِنَّمَا عنِي بأنْ يكونَ أعمالُ قَلْبِهِ وجَوَارِحِهِ واقعةً على أفضلِ مَا يرضى اللهُ من المندوبات، في اتِّبَاعِ سُنَّةِ سيِّدِ المرسلينَ في الحركاتِ والسَّكنات، ولم يُرِدْ موافقةَ الإخوانِ فيمَا يحصلُ بهِ البَسْطُ والانشراحُ في المحادثات، ودخولُ الرَّاحاتِ على القلوبِ بذلكَ في كثيرٍ منَ الأوقات، وهذا وإنْ صحَّتْ فيهِ النِّيَّات، وكانَ طاعةً

(١) الرسالة القشيرية ٩٩/١.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٩٤، وحلية الأولياء ٣٣٥/١٠، ومناقب الأبرار ٤٩٢/١، وصفة الصفوة ٣٣٦/٤، والبداية والنهاية ١١٧/١١، وطبقات الأولياء ص٤٠٢، والطبقات الكبرى ١٦٩/١، والكواكب الدرية ٧١٠/١.

(٣) وقيل: مات سنة تسع وسبعين ومائتين. انظر: طبقات الصوفية ص١٩٤.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٩٥، ومناقب الأبرار ٤٩٢/١.

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٩٥، وحلية الأولياء ٣٣٥/١٠، وصفة الصفوة ٣٣٦/٤.

فالأفضلُ ما ذكرْنَاهُ مِنَ الموافقات.

وقولُهُ: «**أعظمُ النَّاسِ ذُلًّا: فقيرٌ داهَنَ غَنِيًّا، وتذلَّلَ لهُ**» وعكسُهُ: «**أعظمُ النَّاسِ عِزًّا: غَنِيٌّ تذلَّلَ للفقراءِ وعرَفَ حرمَتَهُمْ**»، وذلكَ أنَّ مَنْ تذلَّلَ لمَنْ لا يصلحُ التَّذلُّلُ لهُ لطمعٍ فيمَا لا قدرةَ لهُ علىٰ تحصيلِهِ فقد أذلَّ نفسَهُ لغيرِ فائدةٍ محقَّقَةٍ، وهوَ أعظمُ الذُّلِّ.

والغنِيُّ إذا تَذلَّلَ للفُقراءِ وعرفَ حرمَتَهُمْ فإنَّمَا يفعلُ ذلكَ للهِ، ولطلَبِ ثَوَابِهِ، فقدْ تعزَّزَ بتذلُّلِهِ لمَنْ يعزُّهُ وينالُ منهُ بَرَكَةَ فِعْلِهِ، وهوَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ، فقدْ أتىٰ الخيرَ مِن بَابِه، وقَصَدَهُ من وَجْهِه[1].

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٨٠.

قَالَ الإِمَـامُ رَحِمَهُ اللَّهُ(١):

«وَمِنْهُمْ:

[٣٩] أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْرُوقٍ(٢)

مِنْ أَهْلِ (طُوسٍ)، سكنَ بغدادَ.

وصَحِبَ الحَارِثَ المُحَاسِبِيَّ، والسَّرِيَّ السَّقطيَّ.

تُوفِّيَ ببغدادَ سنةَ تسعٍ وتسعينَ ومائتَينِ.

وقيلَ: سنةَ ثمانٍ وتسعينَ ومائتَينِ(٣).

قَالَ ابْنُ مسروقٍ(٤): مَنْ راقبَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ فِي خَطَرَاتِ قَلْبِهِ(٥)، عَصَمَهُ اللهُ فِي حَرَكَاتِ جَوَارِحِهِ.

وَقَالَ(٦): تعظيمُ حُرُمَاتِ المُؤمنِينَ مِنْ تعظيمِ حُرُمَاتِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وَبِهِ يَصِلُ العَبْدُ إِلَىٰ مَحَلِّ حَقِيقَةِ التَّقْوَىٰ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ خَوَاطرَ القُلُوبِ هيَ بَدْؤ سَائرِ التَّكاليفِ، فإنَّ أفعالَ القُلُوبِ سَابِقَةٌ لأفعالِ الجَوَارحِ والخَوَاطرِ؛ وهيَ الدَّواعِي [١/٧٤ب] في القلبِ لسائرِ الأفعالِ القلبيَّةِ والبدنيَّةِ، فمَنْ تثبَّتَ وراقبَ اللهَ قبلَ أفعالِ قلبِهِ بعدَ خُطورِ الخَواطرِ ولم يدَعْ قلبَهُ يعزمُ علىٰ الفعلِ حتَّىٰ يعلمَ حكمَهُ، أَيرضي

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٠٠.

(٢) انظر في ترجمته: ومناقب الأبرار ١/٤٩٧، والطبقات الكبرىٰ ١/١٧٠، والكواكب الدرية ١/٥٢٨.

(٣) سقط هذه الجملة من (ب). وانظر: مناقب الأبرار ١/٤٩٧.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٩٢، ومناقب الأبرار ١/٤٩٩.

(٥) أي: بعرضها علىٰ أحكام الكتاب والسنة. انظر: نتائج الأفكار ١/٢٦٢.

(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٩٢، ومناقب الأبرار ١/٤٩٩.

اللهُ قبولَ ذلكَ أو يسخطُهُ، سَلِمَ في أفعالِ قلبِهِ وجوارِحِهِ، وبهذا يَعْصِمُهُ منَ الزَّلَلِ في حَرَكَاتِ جَوَارِحِهِ[١].

وقولُهُ: «تَعْظِيمُ حُرُمَاتِ المُؤْمِنِينَ مِنْ تَعْظِيمِ حُرْمَةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ»، وذلكَ أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ حرَّمَ المؤمنَ: دمَهُ وعِرْضَهُ ومَالَهُ، وجعلَ له حرمةً، فمَنْ أبقاها وقامَ بها للهِ فإنَّمَا يفعلُ ذلك لامتثالِ أمرِ اللهِ وخوفًا منهُ، وقد حُكِيَ أنَّ ابنَ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أوِ ابنَ عبَّاسٍ قالَ للكعبةِ[٢]: (مَا أَشْرَفَكِ وَأَجَلَّكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ عندَ اللهِ!، والمؤمنُ أشدُّ حرمةً منكِ)، وإذا دامَ العبدُ علىٰ احترامِ المؤمنِينَ للهِ، وذلكَ منَ القيامِ بحرمةِ اللهِ وإجلالِهِ، وإذا دامَ علىٰ إجلالِ اللهِ وتعظيمِهِ في سائرِ ما أمرَهُ بهِ من واجبِهِ وإحرامِهِ وصلَ إلىٰ محلِّ حقيقةِ التَّقوىٰ إلىٰ الحالةِ الَّتِي تُسَمَّىٰ حقيقةً عندَ القومِ، وقد بيَّنَّا أنَّ الشَّيءَ لهُ حقٌّ وحقيقةٌ، و«الحَقِيقَةُ»[٣]: غلبةُ حَالِ الحقِّ علىٰ المَحْقِ[٤].

❁ قَالَ الشَّيْخُ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ[٥]: «وَقَالَ[٦]: شَجَرَةُ المَعْرِفَةِ[٧] تُسْقَىٰ بِمَاءِ الفِكْرَةِ، وَشَجَرَةُ الغَفْلَةِ تُسْقَىٰ بِمَاءِ الجَهْلِ، وَشَجَرَةُ التَّوْبَةِ تُسْقَىٰ بِمَاءِ النَّدَامَةِ، وَشَجَرَةُ المَحَبَّةِ تُسْقَىٰ بِمَاءِ الاتِّفَاقِ وَالمُوَافَقَةِ[٨]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ العبدَ إذا عرَفَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ بأنَّهُ الخالقُ الواحدُ الَّذِي لا ربَّ سِوَاهُ، كانَ عارفًا، فإنْ غفلَ عن هذا واشتغلَ بالأسبابِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٨١.

(٢) روي عن ابن عمر في أخبار مكة للفاكهي ١/١٧٥، وعن ابن عباس في شعب الإيمان ٥/٢٩٦.

(٣) أي: عند القوم. وانظر: معجم مصطلحات الصوفية ص٧٩.

(٤) في النسخ: المحقق، والأصح المثبت كما في: إحكام الدلالة ١/١٨١، والمحق: فناء وجود العبد في ذات الحق سبحانه. انظر: معجم مصطلحات الصوفية ص٢٣٩، ونتائج الأفكار ١/٢٦٢.

(٥) الرسالة القشيرية ١/١٠٠.

(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٩٣، وحلية الأولياء ١٠/٢١٤، ومناقب الأبرار ١/٥٠٠.

(٧) أي: معرفة العلوم الشرعية والذوقية. انظر: نتائج الأفكار ١/٢٦٢.

(٨) زيد في مظان تخريج قوله: «والإيثار».

لم تتجدَّدْ مَعْرِفَتُهُ ولا تَوَالَتْ على قَلْبِهِ، وإذَا تفكَّرَ في تفاصيلِ أفعالِهِ - تعالى - ومتعلَّقِ قدرتِهِ وإرادتِهِ وعلمِهِ بالمعلوماتِ، واستغنائِهِ عن سائرِ المخلوقاتِ، وانفرادِهِ بالأفعالِ، وخروجِ غيرِهِ عنِ القدرةِ على إيجادِ ذرَّةٍ من مِثْقَالٍ، فبهذِهِ الفكرةِ تُسْقَى معرفتُهُ وينشرحُ صدرُهُ، ويتَّسِعُ نظرُهُ في المخلوقاتِ، وتكثرُ بركاتُهُ من قلبِهِ على لسانِهِ وينتفعُ بهِ، كما أنَّ الشَّجرةَ إذا سُقيَتْ بالماءِ حَسُنَتْ فُرُوعُهَا، واخضرَّ ورقُهَا، وطاب ثَمَرُهَا، وانتفعَ بها جانِيهَا.

وكذلِكَ «**شَجَرَةُ التَّوبةِ تُسْقَى بِمَاءِ النَّدَامَةِ**»؛ وذلكَ أنَّ العبدَ إذا كانَ مخالفًا لِمَولاهُ، مُعْرِضًا عنِ القيامِ بما أوجبَهُ عليهِ ومُرْتكبًا لِمَا نَهَاهُ، ثمَّ مَنَّ عليهِ بالتَّوبةِ، وفارقَ ذلكَ وندمَ على ما [١/١٧٥أ] مَضَى مِنْهُ، وعزمَ على ألَّا يعودَ إلى مثْلِ ما وقعَ فيهِ، فهذِهِ هيَ التَّوبةُ، فكلَّمَا تفكَّرَ العبدُ في حالتِهِ وكيفَ كان ملابسًا للمعصيةِ ومولاهُ يراهُ؟! وكانَ يستحْيِي من أَدْنَى المَخْلُوقِينَ ولا يستحيِي مِنْ مولَاهُ، ويفرحُ بتيسيرِ المعصيةِ وهيَ سببُ هلاكِهِ في دنيَاهُ وأُخرَاهُ، فكلَّمَا تَفكَّرَ في هذِهِ الأمورِ تجدَّدَ منهُ النَّدمُ، وقوِيَ منهُ العَزْمُ على الهَربِ من مثْلِ مَا كانَ فيمَا تقدَّمَ، وقوِيَ جدُّهُ في الأعمالِ، وقوِيَ إعْرَاضُهُ عمَّا يكرهُهُ ربُّهُ والإهمالِ، وهذا معنى سقْيِ شجرَةِ التَّوبةِ بالنَّدامةِ.

وأمَّا «**شجرةُ المَحبَّةِ**» وهيَ محبَّةُ اللهِ [تعالى][1] للعبْدِ، ومحبَّةُ العبدِ للهِ[2]، فإنَّ الجريَانَ على السُّنَّةِ وعلى موافقةِ العلمِ ممَّا يُرْضِي اللهَ، وإذا رضِيَ اللهُ - تعالى - عنِ العَبْدِ أَحبَّهُ، وإذا أحبَّهُ وَالَى عليهِ نعمَهُ، وكلَّمَا تَوالَتْ على العبدِ النِّعمُ قويَتْ محبَّتُهُ للمُنْعِمِ، وقَدْ قالَ - تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى

(١) زيادة من (ج). وفيها: «تعالى للعبد، ومحبة الله له»، وهو تكرارٌ لا فائدة فيه.

(٢) في (ب): «محبة العبد لله، ومحبة الله له»، وكل صواب. قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة ٥٤].

يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، فأخبرَ ـ تعالىٰ ـ أنَّ مَنِ اتَّبعَ رسولَهُ في أمْرِهِ ونَهْيِهِ محبَّةً للهِ ـ تعالىٰ ـ ورجاءَ قُرْبِهِ أحبَّهُ اللهُ، فبالموافقةِ علىٰ هذا والجريانِ علىٰ موافقةِ العلمِ والسُّنَّةِ ـ وهو الاتِّفاقُ ـ تُسْقَىٰ شجرةُ المحبَّةِ.

ومعنىٰ (الاتِّفاقِ): اتَّفَقَ مرادُ العبدِ ومطلوبُ الرَّبِّ تعالَىٰ وتقدَّسَ.

وأمَّا قولُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وشَجَرَةُ الغفلَةِ**[١] **تُسْقَىٰ بمَاءِ الجَهْلِ**»، فليسَ المُرادُ بالجهلِ: اعتقادَ الشَّيءِ علىٰ خِلافِ مَا هوَ بهِ، وإنَّمَا مُرادُهُ: أنَّ مَنْ جهلَ مقدارَ ما فاتَهُ منَ اللهِ منَ الخيراتِ؛ إذَا فاتَهُ الذِّكرُ والدَّعواتُ، ولم يَعْرِفْ مقدارَ ذلكَ حتَّىٰ تحملَهُ معرفتُهُ علىٰ محبَّتِهِ، وتعلّق القلب بهِ، وإلَّا غفلَ عنهُ، وكلَّمَا تَوالَتْ منهُ الغفلةُ عنهُ بَعُدَتْ عن قَلْبِهِ فَوائدُهُ، وكلَّمَا قلَّ تَحَسُّسُهُ لفوائِدِ قُرْبِهِ وذِكْرِهِ سهُلَ عليهِ أمرُ الغفلةِ عنهُ[٢].

فعلىٰ هذا إنَّمَا كانَتِ الغفلةُ عنِ الفَوائدِ سَبَبُهَا الجهلُ بالفَوائدِ في الدُّنيَا والآخرةِ، فمَنْ جهلَ قدرَ العظيمِ لم يطلبْهُ إذا كانَ محموداً، ومَنْ جهلَ ضَرَرَهُ لم يهربْ منهُ، وإنْ كانَ قويَّ الغَفلَةِ عنهُ.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ**[٤]: **مَتىٰ طَمِعْتَ فِي المَعْرِفَةِ وَلَمْ تُحْكِمْ قَبْلَهَا مَدَارِجَ الإِرَادَةِ**[٥] **فَأَنْتَ فِي جَهْلٍ، وَمَتىٰ طَلَبْتَ الإِرَادَةَ قَبْلَ تَصْحِيحِ مَقَامِ التَّوبَةِ فَأَنْتَ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا تَطْلُبُ**».

۞ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [١/٧٥ب]: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ العارفَ عندَهُمْ مَنْ

(١) التي ينشأ عنها الإعراض عن العلم والعلم بسبب الاشتغال بالحظوظ والشهوات.
(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٨١ ـ ١٨٢.
(٣) الرسالة القشيرية ١/١٠٠.
(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٩٣، وحلية الأولياء ١٠/٢١٤، ومناقب الأبرار ١/٥٠٠.
(٥) أي: السلوك.

تَوَالَىٰ ذِكْرُهُ لِمَعْرُوفِهِ، وقلَّتْ غَفْلتُهُ عنهُ، واستشعرَ نظرهُ إليهِ بقلبِهِ في سَائرِ تَصَرُّفاتِهِ وجَمِيعِ حَرَكَاتِهِ، حتَّىٰ قالَ بعضُهم[١]: «ما رأيتُ شيئًا حتَّىٰ رأيتُ اللهَ قبلَهُ»؛ لشدَّةِ يقظتِهِ وكثرةِ ذكْرِهِ لربِّهِ وقلَّةِ غفلتِهِ عنهُ، فأيُّ حَادثٍ حَدَثَ كانَ ذكرُهُ سَابقًا للحَوادثِ فَيَرَاهَا بهِ.

وقالَ غيرُهُ: «ما رأيتُ شيئًا حتَّىٰ رأيتُ اللهَ معَهُ[٢]»، فيكونُ الحادثُ يذكرُهُ اللهُ، فعندَ حدوثِهِ يذكرُ أيضًا عَدْلَه[٣]، ومتَىٰ طلبَ العبدُ أنْ يصلَ إلىٰ هذهِ الحالةِ وهوَ في المخالفات، وقلبُهُ مشغولٌ بالشَّهوات، وموقوفٌ معَ العادات، وشديدُ الالتفاتِ إلىٰ أعمالِهِ المستحسنَات، فهوَ في غلطٍ.

وهذا معنىٰ قولِهِ: «**ولمْ يحكِمْ مداركَ السُّلوكِ**[٤]»، فمدارجُ السُّلوكِ:

أوَّلًا: التَّوبةُ عنِ المحرَّماتِ، ثمَّ عنِ المكروهاتِ؛ وهوَ الورعُ.

ثمَّ عنِ الشَّهواتِ؛ وهوَ الزُّهدُ.

ثمَّ عنِ السُّكونِ إلىٰ الأسبابِ المعتاداتِ؛ وهوَ التَّوكُّلُ.

ثمَّ الرِّضَا بما يجريهِ الحقُّ منَ المؤلماتِ.

ثمَّ المحبَّةُ لهُ ـ تعالىٰ ـ؛ وإفراغُ الجهدِ في الموافقاتِ[٥].

وحينئذٍ يصلُ العبدُ إلىٰ هذهِ الحالاتِ الشَّريفةِ، وكذلكَ المدارجُ الَّتي قدَّمَهَا،

---

(١) نسب لأبي بكر الصديق في: دستور العلماء ٤/٧٠، وورد بلا نسبة في: التعرف لمذهب التصوف ص٦٤، ومفاتيح الغيب ٣٢/١٤٦، ومرقاة المفاتيح ٢/٤٠١.

(٢) أو: فيه، كما في: التعرف لمذهب التصوف ص٦٤.

(٣) في (ج): يذكر الفاعل له.

(٤) في لفظ القشيري: الإرادة، والسلوك تفسير لها. والقصد بمدارج السلوك: أسباب السير الموصلة إلىٰ أعلىٰ المقامات والأحوال الشريفة.

(٥) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٨٢.

بعضُهَا مرتَّبٌ على بعضٍ.

والإرادةُ عندَهُمْ: إِفْرَاغُ الجَهْدِ فِي الأَعْمَالِ[(١)] الصَّالِحَاتِ، والإِعْرَاضُ عنِ الرَّاحاتِ والشَّهواتِ المعتادَةِ منَ الحلالِ الملذوذاتِ، وهوَ معنى قولِهِ: «**ومَتَى طَلَبْتَ الإرادةَ قبلَ إحكامِ مَقَامِ التَّوبةِ، فأنتَ فِي غَفْلَةٍ**».

والتَّوبةُ عنِ المحرَّماتِ والمكروهاتِ، هذِهِ التَّوبةُ مقدَّمةٌ على إفراغِ الجهدِ في الطَّاعاتِ، وهي الإرادةُ؛ لأَنَّهُمْ قالُوا[(٢)]: «الإرادةُ: بدءُ طريقِ السَّالكينَ إلى اللهِ»، وإنَّمَا يُسْلَكُ طريقُ اللهِ بالأعمالِ الصَّالحاتِ[(٣)]، ثمَّ قالُوا[(٤)]: «المريدُ مَنْ لا إرادةَ لهُ»، يعنِي: لا يتصرَّفُ بِهواهُ، وإنَّمَا يتصرَّفُ بأمْرِ مَوْلاهُ.

---

(١) في النسخ: أعمال، والأصح المثبت.
(٢) ورد في: الرسالة القشيرية ٣٥١/٢.
(٣) في (ب): الصالحة.
(٤) انظر: الرسالة القشيرية ٣٥١/٢، ونتائج الأفكار القدسية ٢١٣/١.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُمْ:

[٤٠] أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ سَهْلٍ الأَصْبَهَانِيُّ[(٢)]

مِنْ أَقْرَانِ الجُنَيدِ، قَصَدَهُ عَمرُو بْنُ عُثْمَانَ المَكِّيُّ فِي دَيْنٍ رَكِبَهُ، فَقَضَاهُ عَنْهُ؛ وَهُوَ ثَلاثُونَ أَلْف دِرْهَمٍ.

لَقِيَ أَبَا تُرَابٍ النَّخْشَبِيَّ، وَالطَّبَقَةَ.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الطَّبَرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ سَهْلٍ يَقُولُ[(٣)]: المُبَادَرَةُ إِلَى الطَّاعَاتِ[(٤)] مِنْ عَلامَةِ التَّوْفِيقِ، والتَّقَاعُدُ عَنِ المُخَالَفَاتِ مِنْ عَلامَاتِ حُسْنِ الرِّعَايَةِ، وَمُرَاعَاةُ الأَسْرَارِ مِنْ عَلامَاتِ التَّيَقُّظِ [١/١٧٦أ] وَإِظْهَارُ الدَّعَاوَى مِنْ رُعُونَاتِ البَشَرِيَّةِ، وَمَنْ لَمْ تَصِحَّ مَبَادِئُ إِرَادَتِهِ لَا يَسْلَمُ فِي مُنْتَهَى عَوَاقِبِهِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحِكَمُ مِمَّا شهدَ للأولياءِ بهَا قولُهُ[(٥)]: «مَنْ أَخْلَصَ للهِ ـ تعالى ـ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ»،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٠١.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص١٨٧، وحلية الأولياء ١٠/٤٠٤، وتاريخ أصبهان لأبي نعيم ١/٤٣٨، ومناقب الأبرار ١/٥٠٤، وصفة الصفوة ٤/٨٥، والنجوم الزاهرة ٣/١٩٧، والطبقات الكبرى ١/١٧١، والكواكب الدرية ١/٦٨٢.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٨٧، ومناقب الأبرار ١/٥٠٤، وصفة الصفوة ٤/٨٥.

(٤) أي: المسارعة إليها بجد وهِمّة.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/٨٠، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٥/١٨٩، والديلمي في الفردوس ٣/٥٦٤، والشهاب في مسنده ١/٢٨٥، قال العجلوني: «رواه أبو نعيم بسند ضعيف عن أبي أيوب، وقال في (اللآلئ): رواه أحمد وغيره عن مكحول مرسلا بلفظ: من أخلص لله أربعين يوما تفجرت ينابيع» كشف الخفاء ٢/٢٩٢.

وذلكَ أنَّ مَنْ تثبَّتَ عندَ عُزُومِهِ حتَّىٰ عرَفَ المحمودَ منهَا والمذمومَ، وجرَتْ منهُ عزومُهُ علَىٰ الحقِّ ووجْهِ الصَّوابِ، كذلِكَ تثبَّتَ قبلَ أفعالِ جَوارِحِهِ، حتَّىٰ وقعَتْ أَفْعَالُهُ علىٰ وجهِهَا المَطْلُوبِ، وسلمَتْ ممَّا يخلُّ بشُروطِ صحَّتِهَا وشُروطِ كمالِهَا، وقعَتْ أفعالُهُ محكمةً، وكذلكَ إذا لم ينطِقْ لسانُهُ إلَّا بمَا أحكمَهُ قلبُهُ وعرَفَ صحَّتَهُ وقعَتْ ألفاظُهُ محكمةً.

فإِذَا كانَتْ أفعالُ قلبِهِ ولسانِهِ وجَوارِحِهِ مُحْكَمَةً فهوَ الحكيمُ، ولا سيَّمَا إذا استمرَّ عليهَا مُدَّةً عظيمةً فلَمْ تبقَ عليهِ في ذلِكَ كلفةٌ ولا مشقَّةٌ.

فقولُهُ: «**المُبَادَرَةُ إلىٰ الطَّاعاتِ مِنْ عَلَامَةِ تَوفِيقِ اللهِ لهُ**» صَحِيحٌ، فإنَّهُ إنَّما بادرَ بعونِهِ، ولُطفِه به، وخَلْق الخَوْفِ والرَّجاءِ لهُ، وهذا معنَىٰ «**التَّوفيقِ**»؛ لأنَّ حقيقةَ التَّوفيقِ: خلقُ قُدْرَةِ الطَّاعةِ للعبدِ المُقَارنةِ لفعلِ ربِّهِ، وكذلكَ تقاعدُهُ عنِ المعاصِي مِنْ آثارِ تَثبُّتِهِ، ومراعاتِهِ بخواطرِ قلبِهِ ومعرفتِهِ بمحمودِهَا ومذمومِهَا، ولو لم يُراعِهَا ويَعْرِفْهَا لمَا حَذِرَهَا، ولو لمْ يكنْ متيقِّظًا لأفعالِهِ كلِّهَا ومعرفتِهِ بمبادِئِهَا، والأصلِ الَّتِي تكونُ عليهِ وتيقُّظِهِ لذلكَ لمَا اشتغلَ بمراعاةِ أسرارِهِ؛ لأنَّهُ لمَّا تيقَّظَ لأعمالِهِ بحثَ عن أصولِهَا فوجدَهَا خواطرَ القلوبِ، وعلِمَ أنَّ التَّثبُّتَ عندَهَا، وقبلَ العَزمَ حتَّىٰ تخلَّصَ لهُ: النِّيَّةُ في الفعلِ أصلُ كلِّ خيرٍ، هذِهِ مراعاةُ الأسرارِ؛ أي أعمالُ القلوبِ، ومَنْ أرادَ بعملِهِ اللهَ أو غيرَهُ، وهلْ قصْدُهُ خالصٌ أو مَشُوبٌ، وهل شَوبُهُ مُبْطِلٌ أوْ مُنقصٌ.

وقولُهُ: «**وَإِظْهَارُ الدَّعاوَىٰ مِن رعونَاتِ البشريَّةِ**[1]» صحيحٌ، فإنَّ مَنْ علِمَ أنَّ جميعَ ما هوَ فيهِ منَ الطَّاعاتِ والبرَكاتِ، والتَّيقُّظِ للمفسداتِ، وإتقانِ الأعمالِ الصَّالحاتِ، والعونِ عليهَا، كلُّ ذلكَ من فضْلِ ربِّهِ، ثمَّ ادَّعتْهُ نفسُهُ وأضافَتْهُ إليها؛

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٨٢.

لجريانِهِ على يدَيهَا، كانَ ذلكَ مِنْ رُعُونَتِهِ معَ قلَّةِ حِيْلَتِهِ ومَعْرِفَتِهِ بِعَجْزِهِ وعدَمِ تأثيرِ قُدْرَتِهِ، وهذا غايةُ الرُّعونَةِ(١).

وأمَّا قولُهُ [١/٧٦ب]: «**مَنْ لَمْ تَصِحَّ مَبادِئُ إرَادَتِهِ لَا يَسْلَمُ فِي مُنْتَهَي عَوَاقِبِهِ**»، وذلكَ أنَّ البِنَاءَ الصَّحيحَ إنَّمَا يكونُ على مُتَابَعَةِ العِلْمِ والسُّنَّةِ، وكَمَالِ الصِّدْقِ والصَّبرِ، فإنَّهُ يطالبُ صحَّةَ العلمِ والعَملِ في سلوكِهِ، فلا بدَّ منْ صبْرِهِ وصدْقِهِ؛ وهوَ جدُّهُ، وإذا دخلَ في أمرِهِ هذا معَ الإخلالِ بهذِهِ القواعدِ والأصولِ، فلا يظهرُ على جَوَارِحِهِ ولا لِسَانِهِ شَيءٌ مِنَ البَرَكَاتِ، ولا يستقيمُ له شَيءٌ منَ الطَّاعَاتِ، وهذا هوَ المرادُ بقولِهِ: «**مَنْ لَمْ تَصِحَّ لهُ مَبادِئُ إرادَتِهِ**(٢) **لم يَسْلَمْ في انتِهَاءِ إرادَتِهِ**».

وقالُوا(٣): «مَنْ لَمْ يَكُنْ لهُ في بدايَتِهِ قَوْمَةٌ(٤)، لمْ يكنْ لهُ في نِهَايتِهِ جَلْسَةٌ»، وأرادُوا مَنْ لمْ يكنْ لهُ اجتهادٌ في بدايتِهِ معَ قوَّةِ شبيبَتِهِ وصحَّتِهِ في بدَنِهِ على ما يَرُومُهُ منَ الخيراتِ وتَعْميرِ قلبِهِ بالمراقبةِ والمَعْرفةِ وجميلِ الخيراتِ، فإذَا كبُرَ سنُّهُ عجزَ في بدَنِهِ وكانَ قلبُهُ خاليًا منْ معرفةِ مولَاهُ ومُراقبتِهِ، كانَ جلوسُهُ غفلةً وذِكْرُهُ سَهْوًا؛ لعدمِ الحَوَامِلِ لهُ علَى الخيراتِ وضعفِهِ في وقتِهِ، هذا عنِ المجاهداتِ، ولهذَا قالَ بعضُهُم(٥): فِي الصَّيفِ: «ضَيَّعَتِ اللَّبَنَ»(٦).

---

(١) أي: بسبب كثرة جهالاتها بتوالي الغفلة على القلب وانطماس عين البصيرة. انظر: نتائج الأفكار ١/٢٦٥.

(٢) أي: باتباع الكتاب والسنة.

(٣) هو قول أبي علي الدقاق في: الرسالة القشيرية ١/٢١٦، ونتائج الأفكار ١/١٩٧.

(٤) أي: مجاهدة. والقصد: من لم يذق المشقات في طريق السلوك إلى ملك الملوك في بدايته، لم يشرب من راحة الوصول في نهايته، وهو فحوى المعنى الذي فسره به المؤلف.

(٥) ورد هذا المثل في: الأمثال لأبي عبيد ص٢٤٧، وإصلاح المنطق ص٢٨٨، وفصل المقال ص٣٥٨، وجمهرة الأمثال ص٧، والمستقصى في الأمثال ١/٣٢٩، ومجمع الأمثال ٢/٦٨.

(٦) قال ابن الأنباري: «معناه: طلبتِ الشيء في غير وقته، وذلك أن الألبان تكثر في الصيف فيضرب هذا مثلاً للرجل يترك الشيء وهو ممكن، ويطلبه وهو متعذر» الزاهر ٢/٢٢٣.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُمْ:

[٤١] أَبُو مُحَمَّدٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الحُسَيْنِ الجُرَيْرِيُّ[(٢)]

مِنْ كِبَارِ أَصْحَابِ الجُنَيدِ، صَحِبَ سَهْلَ بْنَ عَبْدِ اللهِ.

أُقْعِدَ بَعْدَ الجُنَيْدِ فِي مَكَانِهِ، وَكَانَ عَالِمًا بِعُلُومِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، كَبِيرَ الحَالِ.

مَاتَ سَنَةَ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ وَثَلَاثِمَائَةٍ[(٣)].

سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الشِّيرَازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَطَاءٍ الرُّوذْبَارِيَّ يَقُولُ[(٤)]: مَاتَ الجُرَيرِيُّ سنَةَ الهَبِيرِ[(٥)]، فَجُزْتُ بِهِ[(٦)] بَعْدَ سَنَةٍ، فَإِذَا هُوَ مُسْتَنِدٌ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٠٢.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٠٣، وحلية الأولياء ١٠/٣٤٧، وتاريخ بغداد ٤/٤٣١، ومناقب الأبرار ١/٥٠٨، والوافي بالوفيات ٧/٢٤٧، والبداية والنهاية ١١/١٤٨، وتاريخ الإسلام ٢٣/٤٠٤، وسير أعلام النبلاء ١٤/٤٦٧، وطبقات الأولياء ص٧١، والطبقات الكبرىٰ ١/١٧١، والكواكب الدرية ٢/٢٣.

واختلف في ضم (الجيم) وفتحها من (الجُريري)؛ فقال ابن المُلقن: «الجُرَيري ـ بضم الجيم ـ نسبة إلىٰ جُرير بن عباد، أخي الحارث بن عباد، من بني بكر بن وائل» طبقات الأولياء ص٧١، وتبعه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٨٤، وهكذا ضُبِط في النسخ الخطية.

وضُبِط بفتح الجيم في: توضيح المشتبه ٢/٢٨١، وتبصير المنتبه ١/٣٢٠.

(٣) وقيل سنة: ثلاث عشرة وثلاثمائة. انظر: الوافي بالوفيات ٧/٢٤٧. وقيل سنة: اثنتي عشرة. انظر: سير أعلام النبلاء ١٤/٤٦٧.

(٤) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٤/٤٣٤، ومناقب الأبرار ١/٥٠٨،

(٥) قال الذهبي: «وطئته الجمال النافرة فمات شهيدًا» سير أعلام النبلاء ١٤/٤٦٧.

وفي معجم البلدان ٥/٣٩٢: «الهَبِير: رمل زَرُود في طريق مكة كانت عنده وقعة ابن أبي سعيد الجنابي القرمطي بالحاج...».

(٦) أي: مررت به.

جَالِسٌ وَرُكْبَتُهُ إِلَىٰ صَدْرِهِ، وَهُوَ مُشِيرٌ إِلَىٰ اللهِ بِأُصْبُعِهِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ أنَّهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مشغولٌ باللهِ - تعالىٰ - في وقتِ اشتغالِ النَّاسِ بأنفُسِهِم؛ لِشدَّةِ مَا يطرقُهُم مِنَ المَصَائِبِ الدُّنيويَّةِ، فيشتغلونَ بها في الغالبِ، ومُرَاعَاتِهَا عن أديانِهِم، ولمَّا وقعَ هذا الأمرُ العظيمُ الَّذِي هلكَ فيه النَّاسُ، فعلمَ أنَّهُ لا نجاةَ منهُ إلَّا بربِّهِ، فأقبلَ عليهِ بكليَّتِهِ، وجلسَ مكانَهُ مستقبلَ القبلةِ، مُعْرِضًا عن غيرِهِ، فماتَ وهوَ كذلِكَ مشيرًا إليهِ[(١)].

وقولُهُ: «**بأصبعِهِ**» ليسَ مشيرًا إلىٰ الجهةِ[(٢)]، بل إلىٰ الوحدانيَّةِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٣)]: **سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللهُ [١/١٧٧أ] **يَقُولُ: سَمِعْتُ أبا الحسَينِ الفارِسِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ الجُرَيرِيَّ يَقُولُ[(٤)]: مَنِ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ النَّفسُ صارَ أسيرًا فِي حكمِ الشَّهواتِ، مَحْصُورًا فِي سِجْنِ الهَوَىٰ، وحرَّمَ اللهُ عَلَىٰ قلبِهِ الفَوائِدَ، فَلَا يَسْتَلِذُّ بِكَلَامِ الحَقِّ - تعالىٰ - ولا يَسْتَحْلِيهِ؛ وَإِنْ كَثُرَ تَرْدَادُهُ عَلَىٰ لِسَانِهِ؛ لِقَوْلِهِ - تعالىٰ -:** ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «**مَنِ اسْتَوْلَتْ عَلَيهِ النَّفسُ**»: قَدْ كرَّرْنَا غَيْرَ مَرَّةٍ أنَّ (النَّفسَ) في اصطلاحِ هذِهِ الطَّائفةِ تطلقُ علىٰ اتِّباعِ الهوَىٰ والأخلاقِ

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٨٤.

(٢) في (أ): إصبعه، والصواب المثبت.

(٣) الرسالة القشيرية ١/١٠٢.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٠٥، ومناقب الأبرار ١/٥٠٩، وأردفه بقوله: «قال: حتىٰ لا يفهمونهن ولا يجدون له لذة؛ لأنهم تكبروا بأحوال أنفسهم والخلق والدنيا، فصرف الله عن قلوبهم فهم مخاطبته، وأغلق عليهم سبيل فهم كتابه، وسلبهم الانتفاع بالمواعظ، وحبسهم في عقولهم وآرائهم، فلا يعرفون طريق الحق ولا يسلكون سبيله»، وصفة الصفوة ٢/٤٤٨، وذم الهوىٰ ص٥١.

المذمومةِ، فإذا ظهرَ من بعضِهم غضبٌ أو أنَفٌ أو كِبْرٌ أو حسدٌ أو ما يجري مجرَاهُ من هذِهِ الأخلاقِ قالُوا: هذهِ نَفْسٌ.

وإذَا استولَتْ على العبدِ هذِهِ الأخلاقُ المذمومةُ، حتَّى استحسنَهَا من نفسِهِ، وقوِيَ عُجْبُهُ بهَا وشغفُهُ بمَا يجري على يدَيهِ منهَا أعمَاهُ ذلكَ وأصمَّهُ عنِ النَّظرِ في غيرِهِ، وهذَا معنى كونِهِ «صَارَ أسيرَهَا..»؛ أيْ: لَا يتفرَّغُ للطَّاعاتِ، ولا يفرِّقُ بينَ ما ينفعُهُ ويضرُّهُ عندَ ربِّهِ في الميقَاتِ، وإذا كانَ كذلكَ لم يجدْ لذَّةً لمَا يتلوهُ من كتابِ ربِّهِ أو يَذْكُرُهُ بهِ بلسانِهِ وقلبِهِ؛ لامتلاءِ قلبِهِ بالشَّهواتِ، وعدمِ تفرُّغِهِ للتفَهُّمِ لمَا يجري على لسانِهِ منَ العجائِبِ والآياتِ، ولذلكَ صُرِفَ عن آياتِ ربِّهِ وما اشتملَ عليهُ كتابُهُ منَ المواعظِ والتَّنبيهاتِ، كما قالَ ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠]، فشبَّهَهُمْ ـ تعالى ـ بالأمواتِ؛ لعدمِ انتفاعِهِم لِمَا تضمَّنَهُ الكتابُ العزيزُ منَ المَواعظِ والتَّحذيراتِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: **«وَقَالَ الجُرَيرِيُّ[٢]: رُؤْيَةُ الأُصُولِ[٣] بِاسْتِعْمَالِ الفُرُوعِ، وَتَصْحِيحُ الفُرُوعِ بِمُعَارَضَةِ الأُصُولِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَقَامِ مُشَاهَدَةِ الأُصُولِ إِلَّا بِتَعْظِيمِ مَا عَظَّمَ اللهُ مِنَ الوَسَائِطِ وَالفُرُوعِ».**

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والأصولُ هيَ: الكتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ، فكلَّمَا أرادَ الإنسانُ أنْ يعملَ عملًا منْ صَلاتِهِ وصَومِهِ، وسُكوتِهِ وكلامِهِ فلا بدَّ أنْ يلتفتَ لأصولِهِ، ويعرفَ حكمَهُ منهَا في حلِّهِ وتحريمِهِ، فبهذَا الاعتبارِ تكونُ الفروعُ مُذَكِّرَةً[٤] للأصولِ من جهةِ احتياجِهَا إليهَا، فلا بدَّ من ذِكْرِهَا، فيكونُ الفَرْعُ مُذَكِّرًا

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٠٢.

(٢) ورد قوله: طبقات الصوفية ص٢٠٦، ومناقب الأبرار ١/٥١١.

(٣) أي: أصول الأحكام الشرعية.

(٤) في (ب): مذكورة، والصواب المثبت.

للأصلِ، وكذلِكَ لا يصحُّ لهُ فرعٌ حتَّىٰ يعرضَهُ علىٰ الأصْلِ [١/٧٧ب]، فيشهدَ بصحَّتِهِ.

فنبَّهَ بهذَا الكَلامِ علىٰ افتقارِ كلِّ واحدٍ منهُمَا لصاحبِهِ، إلَّا أنَّ الفرعَ مُذَكِّرٌ للأَصْلِ لِضَرُورَةِ الرَّدِّ إليهِ، والأصلُ شَاهدٌ للفَرْعِ بالصِّحَّةِ لِضَرُورةِ شَهَادتِهِ لهُ، ولا سبيلَ إلىٰ مشاهدةِ الأصولِ إلَّا بتعظيمِ ما عظَّمَ اللهُ منَ الوسائِطِ والفُرُوعِ؛ وذلكَ أنَّ الأصولَ هيَ كتابُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ المُتَواترُ، وَنَصُّ سُنَّتِهِ المُتَوَاترةُ، والإجماعُ الَّذِي شَهِدَا[١] لهُ بالصِّحةِ.

والوسائطُ بينَ العبدِ وبينَ ربِّهِ هوَ رسولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وصحابَتُهُ النَّاقلونَ عنهُ ما جاءَ بهِ عن ربِّهِ، والعلماءُ بعدَهُ الوارثونَ عنهُ دينَهُ، والوسائطُ بينَهُ وبينَ عبادِهِ، ولا بدَّ من تعظيمِ ما عظَّمَ اللهُ، وإقامةُ حُرْمَةِ مَنْ جعلَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ وسائطَ بينَهُ وبينَ عبادِهِ، فإنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ شرَّفَ الوسائطَ وأجلَّهُمْ وعظَّمَهُمْ، فلا سبيلَ إلىٰ أنْ يعظِّمَ العبدُ الأصولَ ـ وهيَ أحكامُ اللهِ تعالىٰ ـ حتَّىٰ يعظِّمَ [فُرُوعَهَا، و][٢] النَّاقِلِينَ لهَا والمُبلِّغِينَ لهَا إلىٰ عِبادِهِ، فإنَّ مَنْ لم يعظِّمْ ما عظَّمَ اللهُ لم يَكْمُلْ تَعْظِيمُهُ للهِ، وبهذا الاعتبارِ كانَتْ طاعةُ اللهِ طاعةَ رسولِهِ، قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

وهذا جميعُهُ دليلٌ علىٰ مَعْرِفَةِ هذا الرَّجلِ[٣] بِكَمَالِ الشَّريعَةِ ـ أُصُولِهَا وفُرُوعِهَا ـ، وعظمتِهَا فِي قلبِهِ، وتَعْظِيمِ مَنْ عرفَهَا وَأَحَاطَ بهَا امتثالًا لأمْرِ رَبِّهِ[٤].

---

(١) في (ب): يشهد، وكل صواب.

(٢) تتمة يقتضيها المقام من: إحكام الدلالة ١/١٨٥، ونتائج الأفكار ١/٢٦٨.

(٣) أي: الجُريري.

(٤) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٨٥.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُمْ:

[٤٢] أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَـدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَهْـلِ بْنِ عَطَاءٍ الأَدَمِيُّ[٢]

مِنْ كِبَارِ مَشَايِخِ الصُّوفِيَّةِ وَعُلَمَائِهِمْ، كَانَ الخَرَّازُ يُعَظِّمُ شَأْنَهُ، وَهُوَ مِنْ أَقْرَانِ الجُنَيْدِ، وَصَحِبَ إِبْرَاهِيمَ المَارِسْتَانِيَّ.

مَاتَ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلَاثِمِائَةٍ.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ القُرَشِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ عَطَاءٍ يَقُولُ[٣]: مَنْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ آدَابَ الشَّرِيعَةِ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ بِنُورِ المَعْرِفَةِ، وَلَا مَقَامَ أَشْرَفَ مِنْ مَقَامِ مُتَابَعَةِ الحَبِيبِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَوَامِرِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَخْلَاقِهِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والسِّرُّ فيهِ أنَّ المَحبَّةَ منَ اللهِ ـ سبحانه ـ للعبيدِ[٤] إنَّما ترجعُ إلىٰ إرادةِ الخيرِ بهِم وخلْقِ ذلكَ لهُم، والنَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هوَ حبيبُ اللهِ، بل أشرفُ المَحْبُوبِينَ، ولهذَا خصَّهُ بهذَا الاسمِ، فهوَ ـ تعالىٰ ـ يسلكُ بهِ أفضلَ ما عندَهُ منَ الطَّاعاتِ، ويخصُّهُ بأفضلِ النِّعَمِ والبركاتِ، وهوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عارفٌ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٠٣.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٠٧، وحلية الأولياء ١٠/٣٠٢، وتاريخ بغداد ٥/٢٦، ومناقب الأبرار ٢/٥١٩، وصفة الصفوة ٢/٤٤٤، والكامل في التاريخ ٧/٦، والوافي بالوفيات ٨/١٨، وتاريخ الإسلام ٢٣/٢٤٧، وسير أعلام النبلاء ١٤/٢٥٥، والعبر ٢/١٥٠، وتاريخ ابن الوردي ١/٢٤٨، وطبقات الأولياء ص٥٩، والطبقات الكبرىٰ ١/١٧٣، وشذرات الذهب ٢/٢٥٧، والكواكب الدرية ٢/٣٤.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٠٨، وتمام قوله فيه: «والتأدب بآدابه قولا وفعلا وعزمًا وعقدًا ونيةً»، وحلية الأولياء ١٠/٣٠٢، ومناقب الأبرار ٢/٥٢٠، وصفة الصفوة ٢/٤٤٥، وطبقات الأولياء ص٥٩.

(٤) في (ب): للعبد.

بأفضلِ [١/١٧٨أ] ما يحبُّهُ مولاهُ، وما يُقرِّبُهُ إليهِ ويرضَاهُ، فهوَ يسلكُ بنفسِهِ أفضلَ الطَّاعاتِ في سائرِ حَرَكاتِهِ وسُكُونِهِ بمعرفتِهِ بذلكَ من ربِّهِ، وربُّهُ ـ تعالىٰ ـ يعينُهُ علىٰ ذلِكَ، ويخلقُهُ لهُ، ويُمدُّهُ بألطَافِهِ فيهِ.

فمَنِ اتَّبعَ النَّبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيمَا كانَ عليهِ من أفعالِ قلبِهِ وجوارِحِهِ؛ مِنْ فَرْضِ ربِّهِ وسنَّتِهِ وفضائِلِهِ، فلا مَقَامَ أفضلُ من مَقَامِهِ؛ لأنَّهُ اقتدَىٰ بأفضلِ الخَلْقِ عندَ ربِّهِ وأعلَمِهِمْ بمَا هوَ أفضلُ القربِ عندَهُ ـ تعالىٰ ـ.

وبهذَا الاعتبارِ قالَ: «**ولا مقامَ أفضلُ من متابعَةِ الحبيبِ**» وهوَ أوَّلًا يُلْزِمُ ذلكَ نفسَهُ إلزامًا، ويحملُهَا عليهِ كرْهًا تارةً واختيارًا حتَّىٰ تلذَّ لها الخيرات، ويرزقَهَا اللهُ ـ تعالىٰ ـ المحبَّةَ لهذِهِ الطَّاعات، فحينئذٍ يُنَوِّرُ قلبَهُ بمعرفتِهِ بفضائِلِ الطَّاعات، وشرفِهَا عندَ ربِّهِ خالقِ الأرضِ والسَّماوات، فيصيرُ محمولًا فيهَا، مُشْتَاقًا إلىٰ بُلُوغِ كَمَالِهَا، فيتخلَّقُ بأفضلِ الأخلاق، وينالُ ما وعدَهُ بِهِ الخالقُ الرَّزَّاق؛ منَ الاقتداءِ بسيِّدِ العربِ والعجمِ من غيرِ مشقَّةٍ تلحقُهُ في ذلكَ ولَا لَمَم.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «**وَقَالَ ابْنُ عطَاءٍ(٢): أَعْظَمُ الغَفْلَةِ: غَفْلَةُ العَبْدِ عَنْ رَبِّهِ** عَزَّ وَجَلَّ، **وَغَفْلَتُهُ عَنْ أَوَامِرِهِ، وَغَفْلَتُهُ عَنْ آدَابِ مُعَامَلَتِهِ**».

۞ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ الغفلَةَ تَعْظُمُ بحسبِ المَغْفُولِ عنهُ؛ فمَنْ غفلَ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ حتَّىٰ لم يخطرْ ببالِهِ نظرُهُ إليهِ واطِّلاعُهُ علىٰ سائرِ حركاتِهِ وسكنَاتِهِ، وعِلْمُهُ بهِ في سائرِ تصرُّفاتِهِ.. كانَ ذلكَ أشدَّ الغفلةِ؛ لكونِهِ غَفَلَ عنِ الأصْلِ العظيمِ في عبادتِهِ؛ لأنَّ مَنْ لمْ يعرفِ المَعْبُودَ ولم يُرَاقِبْهُ فَاتَهُ الخَوْفُ والرَّجاءُ، وتعذَّرتْ عليهِ طَاعَتُهُ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٠٣.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢١١، ومناقب الأبرار ٢/٥٢٣، والاعتصام ١/٩٦.

ثُمَّ الغفلةُ الَّتِي تلِي ذلكَ الغفلةُ عن أوامِرِهِ ونَوَاهِيهِ الوَاجِبَةِ والمُحرَّمةِ، فإنَّ الغفلةَ عن هذِهِ الأمورِ تُوجِبُ لهُ الإخلالَ بالواجباتِ وارتكابَ المحرَّماتِ، ويكونُ ذلك سببَ العقوباتِ في النَّارِ ـ والعياذُ باللهِ خالقِ الأرضِ والسَّماواتِ ـ.

وإنَّمَا كانَتْ هذِهِ الغفلةُ دونَ الغفلةِ عنِ اللهِ، فإنَّ الاستمرارَ علىٰ الغفلةِ عنِ اللهِ تؤدِّي إلىٰ الكُفْرِ والجُحُود، وفيهِ ـ والعياذُ باللهِ ـ الخُلُودُ، والغفلةُ عنِ الطَّاعاتِ الواجباتِ وارتكابُ المحرَّماتِ يُوجِبُ العذابَ وسُوءَ المآب، ويرجعُ ـ إنْ شاءَ اللهُ ـ صاحبهَا إلىٰ الجنَّةِ بفضْلِ الرَّحيمِ التَّوَّاب.

والغفلةُ [١/٧٨ب] الثَّالثةُ دونَ هذهِ الغَفْلَةِ، فإنَّهَا غَفْلَةٌ عن كَمَالِ الآدابِ والفَضَائلِ فِي إيقاعِ الطَّاعاتِ وحُسْنِ العباداتِ، وكمالِ المناجاةِ لخالقِ الأرْضِ والسَّماواتِ، وحُسْنِ الاعتذارِ عنِ الزَّلَّاتِ، والتَّألُّمِ لضياعِ الأوقاتِ في البطالاتِ، والغفلةُ عن هذِهِ الخَيْرَاتِ إنَّمَا تفوِّتُ أَعَالِي الدَّرجاتِ، وأَعَالِي المَقَامَاتِ، ولِذَلكَ قَالَ: «**أَشَدُّ الغَفْلَةِ الغَفْلَةُ عَنِ اللهِ**»، ونزلَ بالتَّدريجِ إلىٰ ما ذَكَرْنَاهُ[١].

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الشِّيرَازِي** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَحْمَدَ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَطَاءٍ يَقُولُ**[٣]: **كُلّ مَا سُئِلْتَ عَنْهُ فاطْلُبْهُ فِي مَفَازَةِ العِلْمِ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فَفِي مَيْدَانِ الحِكْمَةِ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فَزِنْهُ بِالتَّوحِيدِ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فِي هَذِهِ المَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ.. فَاضْرِبْ بِهِ وَجْهَ الشَّيْطَانِ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ العبدَ إذا خطرَ بقلبِهِ شيءٌ ممَّا

(١) لأن العادة تقديم الأهم فالأهم.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٠٣.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٥٢٤، ومدارج السالكين ٢/٤٦٦.

سُئِلَ عنهُ ممَّا يتعلَّقُ باللهِ ـ تعالىٰ ـ أو بصفاتِهِ أو بأحكامِهِ طلبَ صِحَّتَهُ في مَفازَةِ العِلْمِ، وشبَّهَهَا بالمَفَازةِ؛ لاتِّساعِ العِلْمِ المَأْخُوذِ منَ الكتابِ والسُّنَّةِ وكثْرَةِ أدلَّتِهِ الَّتي تستندُ إليها الأحكامُ؛ لأنَّ المفازةَ هيَ الصَّحراءُ المتَّسعةُ، فإنْ وَجَدْتَ في ذلكَ دليلًا علىٰ صِحَّتِهِ فهوَ المقصودُ، وإنْ لمْ تجِدْ فاطلُبْهُ في ميدانِ الحِكْمَةِ.

ويعنِي بـ«**ميدانِ الحِكْمَةِ**»: مَا قالَهُ العلماءُ المحقِّقُونَ العالِمُونَ بمَا عجزتَ عنهُ، وسمَّاهُ ميدانًا؛ لأنَّهُ معتركُ النَّظرِ ومَجارِي العِبَرِ، فإنْ وجدْتَ في أقوالِهِمْ مَا يشهدُ لكَ بصحَّةِ ما وقَعَ لكَ فنعَمْ، «**وإنْ لَمْ تَجِدْ فَزِنْهُ بالتَّوحِيدِ**[١]»، هلْ تَليقُ نِسْبَتُهُ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ صفةً أوْ فِعْلًا؟ أوْ لَا تَليقُ؟! فإنْ لمْ تلِقْ «**فَاضْرِبْ بهِ وَجْهَ الشَّيطانِ**»، فإنَّهُ خَاطِرٌ مذمومٌ، وإنْ أَعْجَبَكَ واستحسَنْتَهُ.

وهذَا منهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدلُّ علىٰ كمالِ عِلْمِهِ بمعرفَةِ طُرُقِ الأحكامِ، وتمييزِ الحَلالِ مِنَ الحَرَامِ، والخروجِ عمَّا يُلْقِيهِ الشَّيطانُ منَ الوَسَاوسِ في قُلُوبِ العَوَامِ، لِتَزِلَّ بِهِمُ الأقدَامُ[٢]، ويستحسنُوا كلَّ مَا يقعُ[٣] في نفوسِهِمْ غيرَ مُستنِدٍ لأدلَّةٍ ولا إعْلَامٍ.

---

(١) أي: بما تقرر في علم التوحيد.

(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٨٧.

(٣) في (ب): وقع.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُمْ:

[٤٣] أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَحْمَدَ الخَوَّاصُ[(٢)]

مِنْ أَقْرَانِ الجُنَيْدِ والنُّورِيِّ، وَلَهُ فِي التَّوَكُّلِ وَالرِّيَاضَاتِ حَظٌّ كَبِيرٌ.

مَاتَ بِـ(الرِّيِّ) سَنَةَ إِحْدَىٰ وَتِسْعِينَ وَمائَتَيْنِ.

كَانَ مَبْطُونًا[(٣)]، فَكَانَ كُلَّمَا قَامَ تَوَضَّأَ وَعَادَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، فَدَخَلَ مَرَّةً المَاءَ[(٤)] فَمَاتَ [فيهِ][(٥)] رَحِمَهُ اللهُ [١/١٧٩أ].

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِي يَقُولُ: سَمِعْتُ الخَوَّاصَ يَقُولُ[(٦)]: لَيْسَ العِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، إِنَّمَا العَالِمُ: مَنِ اتَّبَعَ العِلْمَ وَاسْتَعْمَلَهُ وَاقْتَدَىٰ بِالسُّنَنِ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلَ العِلْمِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قولُهُ: «لَيْسَ العِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ» صحيحٌ؛ فإنَّ كثرة الرِّوايةِ ترجعُ إلىٰ نقلِ الحديثِ من طُرُقٍ، وكذلِكَ قراءةُ القرآنِ بالرِّواياتِ، وإنَّما الفقهُ العِلْمُ، والفقيهُ مَنْ عمِلَ بِعِلْمِهِ؛ لأنَّهُ إذا عرَفَ ربَّهُ وأحكامَهُ ووعْدَهُ ووعيدَهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٠٤.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٢٠، وحلية الأولياء ١٠/٣٢٥، ومناقب الأبرار ٢/٥٤١، وصفة الصفوة ٤/١٧١، وطبقات الأولياء ص١٦، والطبقات الكبرىٰ ١/١٧٦، والكواكب الدرية ١/٤٩٧.

(٣) أي: مريضا بداءِ البطن، وهو الإسهال. انظر: نتائج الأفكار ١/٢٧١.

(٤) أي: بيت الماء ليغتسل فمات فيه. انظر: مناقب الأبرار ٢/٥٤١.

(٥) زيادة من (ف).

(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٢١، ومناقب الأبرار ٢/٥٤٢، والاعتصام ١/٩٨.

ونفسَهُ وشيطانَهُ ودنياهُ، وعرَفَ أنَّهُ لا خلاصَ لهُ إلَّا بطاعةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ[(١)]، والدَّليلُ علىٰ صحَّةِ طاعتِهِ علْمُهُ بصحَّتِهَا، وبهذَا تكونُ نَجَاتُهُ من ربِّهِ، وخَلاصُهُ من إثْمِهِ، وإلَّا كانَ عِلْمُهُ حُجَّةً عليهِ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ جَعْفَرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الأَزْدِيَّ يَقُولُ[(٣)]: سَمِعْتُ الخَوَّاصَ يَقُولُ: دَوَاءُ القَلْبِ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ: قِرَاءَةُ القُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ، وَخَلاءُ البَطْنِ، وَقِيَامُ اللَّيلِ، وَالتَّضرُّعُ عِنْدَ السَّحَرِ، وَمُجَالَسَةُ الصَّالِحِينَ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الخمسةُ كلُّهَا متظافرةٌ علىٰ الخيرِ، يعينُ بعضُها بعضًا علىٰ تَحْصِيلِهِ، وأُسُّهَا خَلاءُ البطنِ منَ الطَّعامِ، فإنَّهُ يلزمُ عنهُ قلَّةُ المَنَامِ، وسرعةُ الفهمِ، والبكاءُ وقتَ التَّضرُّعِ، وهذِهِ الحالةُ هيَ الَّتِي وعدَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عليهَا بالإجابةِ؛ لقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ [الأنعام: ٤٣][(٤)]، وأحسنُ ما دعا الإنسانُ بهِ وذكرَ وسألَ كتابُ اللهِ ـ تعالىٰ، فإنَّ فيهِ كلَّ مَحْبُوبٍ للهِ ـ تعالىٰ ـ؛ منَ الذِّكْرِ والدُّعاءِ، ومَرْغُوبٍ فيهِ.

❁ ❁ ❁

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٨٨.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٠٤.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٢٢، وحلية الأولياء ١٠/٣٢٧، ومناقب الأبرار ٢/٥٤٢، والمستطرف ١/٤٦، وصفة الصفوة ٤/١٠١، وذم الهوىٰ ص٧٠.

(٤) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٨٩.

* قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُم:

[٤٤] أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الخَرَّازُ[(٢)]

من أهلِ (الرِّيِّ)، جاورَ بمكةَ.

صَحِبَ أبا حفصٍ، وأبَا عِمْرَانَ الكبيرَ، وَكَانَ مِنَ المتورِّعِين.

مَات قبلَ العَشَرَةِ والثَّلاثمائَةِ.

سمِعْتُ الشَّيخَ أبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلميَّ يَقُولُ[(٣)]: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ الطُّوسيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الدُّقِّيَّ يَقُولُ: دخلْتُ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ الخرَّازِ وَلِي أربعَةُ أَيَّامٍ لَمْ آكل، فَقَالَ: يجوعُ أحدُكُمْ أربعةَ أَيَّامٍ فيصبحُ يُنَادِي عَلَيْهِ الجوعُ!

ثُمَّ قَالَ: أَيْشٍ يَكُونُ لو أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ تلِفَتْ فِيمَا تُؤَمِّلُه مِنَ اللهِ - تعالىٰ -؟ تُرَىٰ يَكُونُ ذَلِكَ كثيرًا؟».

* قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا فيهِ تقويةٌ لقلوبِ المُرِيدِينَ، وحملُهُمْ على الجهادِ فيما هُمْ فيهِ؛ لِينَالُوا مَا وَعَدَهُمْ بهِ ربُّ العالمِينَ، وفيهِ مكاشفتُهُ بما عليهِ التِّلميذُ، ولا سيَّمَا قولُهُ: «أربعةَ أيَّامٍ»، فإنَّ آثارَ الجوعِ [١/٧٩ب] قد تظهرُ على الجائعِ.

وأمَّا كونُهُ جاعَ ثلاثةَ أيَّامٍ أو أربعةً لا يُعرفُ ذلك إلَّا بإلهامٍ صحيحٍ، فلمَّا

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٠٥.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٢٢، وحلية الأولياء ١٠/٣٤٥، ومناقب الأبرار ٢/٥٦٣، وطبقات الأولياء ص٣٤٨، والطبقات الكبرىٰ ١/١٧٨، والكواكب الدرية ١/٦٧٨.

(٣) طبقات الصوفية ص٢٢٣.

دخلَ عليه ورأىٰ عليه آثارَ الانكسارِ منَ الجُوعِ ، ورأىٰ نفسَهُ قد ذَلَّتْ بهِ أرادَ أنْ يقوِّي نفسَهُ ويقينَهُ ، فعرّفَهُ ما يرجوهُ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ علىٰ مجاهدتِهِ لهُ ، وأنَّ نفسَهُ لو تلفَتْ لِمَا تَرْجُوهُ من فضْلِ ربِّهَا لكانَ تلفُهَا يسيرًا في جنْبِ ما يُؤمِّلُهُ ، ولم يأمرْهُ بحَمْلِ ما لا يُطيقُهُ ، وإنَّمَا قَوّىٰ نفسَهُ حتَّىٰ لا يختلَّ حالُهُ ويرجعَ عن طريقِهِ ، فإنَّ الرِّفقَ بالنَّفسِ في السَّيرِ أولىٰ وأجرىٰ علىٰ السُّنَّةِ ، وتَرْكُهَا بلا مُجَاهَدةٍ معَ هَوَاهَا عَلامةُ الخذْلانِ[1] .

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2] : «**وَقَالَ عَبْدُ اللهِ الخرّازُ[3] : الجُوعُ طَعَامُ الزَّاهِدِينَ[4] ، وَالذِّكْرُ طَعَامُ العَارِفِينَ[5]**» .

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ ؛ فإنَّ الطَّعامَ اسمٌ لما يُعَاشُ بهِ ، والزَّاهدُ إنَّمَا يَسْتَعِينُ علىٰ فَرَاغِهِ للخيراتِ بزُهْدِهِ في المشغُلاتِ ، فكُلَّمَا قوِيَ زُهْدُهُ تفرَّغَ لِعَمَلِهِ وَحَيَا فيهِ قَلْبُهُ .

وأمَّا العارفُ فإنَّهُ بعيدٌ عنِ المُشْغِلاتِ ، مُعْرِضٌ عنِ الدُّنيا بَلْ عن غيرِهَا من جَزَاءِ الأعمالِ الصَّالحاتِ ، وإنَّمَا يعيشُ بدوامِ ذكْرِهِ ؛ لمعروفِهِ بقلبِهِ ، وأُنْسِهِ بهِ ، وتلذُّذِهِ بقُرْبِهِ[6] .

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٨٩ ـ ١٩٠ .

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٠٥ .

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٢٣ ، ومناقب الأبرار ٢/٥٦٤ .

(٤) لأنه سبب في خلو الأسرار عن الأغيار . انظر: نتائج الأفكار ١/٢٧٣ .

(٥) أي: الذكر بالقلب واللسان ، وإنما كان طعامهم الذكر ؛ لأنهم تحققوا بالله ، ورفضوا ما سواه .

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٩٠ .

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُم:

[٤٥] أَبُو الحَسَنِ بُنَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ الحَمَّالُ[٢]

واسطِيُّ الأصلِ، أقامَ بمصرَ، وَمَاتَ بِهَا سنَةَ ستَّ[٣] عشرةَ وثلاثِمائةٍ.

كبيرُ الشَّأنِ، صاحبُ الكراماتِ.

سُئِلَ بُنانٌ عَن أجَلِّ أحوالِ الصُّوفيَّةِ، فَقَالَ[٤]: الثِّقةُ بالمَضْمُونِ، والقِيَامُ بالأوامِرِ، ومُرَاعَاةُ السِّرِّ، والتَّخلِّي منَ الكَونَينِ[٥]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ العبدَ لا يكملُ حالُهُ إلَّا إذا اجتمعَتْ فيهِ هذهِ الأسبابُ، فثقتُهُ بالمضمونِ تُريحُهُ منَ المُشْغِلاتِ، وتمنعُ قلبَهُ من كثرةِ الالتفاتِ إلىٰ الأسبابِ[٦] المُعتَاداتِ.

وأمَّا قيامُهُ بالعباداتِ فإنَّهُ الأصلُ، ولأجْلِهِ استراحَ منَ المُشْغِلاتِ، فإنَّ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٠٦.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٢٤، وتاريخ بغداد ٧/١٠٠، ومناقب الأبرار ٢/٥٦٦، وتكملة الإكمال ٢/٢٧٩، والبداية والنهاية ١١/١٥٨، والوافي بالوفيات ١٠/١٨٢، وصفة الصفوة ٢/٤٤٨، وتوضيح المشتبه ١/٥٩٦، وتاريخ الإسلام ٢٣/٥٠٨، وسير أعلام النبلاء ١٤/٤٨٨، وطبقات الأولياء ص٦٩، والطبقات الكبرىٰ ١/١٧٨، وحسن المحاضرة ١/٥١٢، والنجوم الزاهرة ٣/٢٢٠، والكواكب الدرية ٢/٦٠.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٢٦، وتمامه فيه: «الكونين بالتشبُّث بالحق»، ومناقب الأبرار ٢/٥٦٧، والاعتصام ١/٩٧، وشذرات الذهب ٢/٢٧٢.

(٥) أي: كوني الدنيا والآخرة، فلا يسكن العبد فيهما لغير مولاه.

(٦) سقطت من هنا في النسخة (ب) قدر لوحة، وامتد السَّقط إلىٰ قوله: «ينبيء عن ضمائرهم وشرههم في الأكل».

المقصودَ منَ الزُّهدِ ـ وإنْ كان في نَفْسِهِ فضيلًا ـ إنَّمَا هوَ التَّفرُّغُ لإيقاعِ الطَّاعاتِ علىٰ أكملِ الجهاتِ، ولا تكملُ طاعاتُهُ وتوقعُ علىٰ أحسنِ وجوهِهَا إلَّا بتحسينِهِ لقلبِهِ ومراعاةِ خواطِرِهِ؛ ليخلِّصَهَا لوجهِ ربِّهِ، فإذا وثقَ بالمَضْمُونِ وأصلحَ قلبَهُ ووقعَتْ عِبَادتُهُ علىٰ وجْهِهَا، خُشِيَ عليهِ السُّكونُ إلىٰ الجَزَاءِ الَّذِي وَعَدَهُ اللهُ عليها، فكمالُهُ ألَّا [١/١٨٠أ] يسكنَ بقلبِهِ لغيرِ مولاهُ، فتكونَ طاعاتُهُ وذِكْرُهُ لوجودِ القُرْبِ منهُ والتَّنعُّمِ بِنَجْواهُ، في سَائرِ تَقَلُّبِهِ ومثواهُ.

وهذهِ الحالةُ هيَ المعبَّرُ عنها بالانخلاعِ عنِ الكونَينِ؛ أي: أعرضَ عن حُظُوظِهِ فيهِمَا لا أنَّهُ تَرَكَ العَمَلَ فيها لِرَبِّهِ[١].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ أَحْمَدَ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سمِعْتُ أبا عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيَّ يَقُولُ[٣]: أُلْقِيَ بُنَانُ الحَمَّالُ بَيْنَ يدَيِ السَّبعِ، فجعلَ السَّبعُ يشَمُّهُ ولا يضرُّهُ، فلمَّا أُخرِجَ قيلَ لَهُ: مَا الَّذِي كَانَ فِي قلبِكَ حيثُ شمَّكَ السَّبعُ؟ قَالَ: كنتُ أتفكَّرُ فِي اخْتِلافِ الْعُلَمَاءِ فِي سُؤْرِ السِّباعِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هؤلاءِ الصَّالحونَ تجرِي علىٰ ألسنتِهِم كلماتٌ لا يفهمُهَا مَنْ لم يُمَارِسْ أَحْوَالَهُمْ، ولا يَدرِي ما المرادُ بهَا!، فيُنْسَبُ قائلُهَا إلىٰ الخطأِ في الدِّينِ؛ فمنهُمْ مَنْ يُنْسَبُ إلىٰ الزَّندقةِ، ومنهم مَنْ يُنْسَبُ إلىٰ الحُلُولِ ويُمشىٰ بهِمْ إلىٰ السَّلاطين، كما حُكِيَ عنِ النُّورِيِّ وأصحابِهِ لمَّا أُمِرَ بضربِ أعناقِهِم،

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٠٦.

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٣٢٤، ومناقب الأبرار ٢/٥٦٨، والأنساب ٢/٢٥٤، وصفة الصفوة ٢/٤٤٩، ومدارج السالكين ٢/٤٤٦. وسبب إلقائه بيَّنه الذهبي بقوله: «وذلك أنه أمر ابن طولون بالمعروف» سير أعلام النبلاء ١٤/٤٨٩، وكان ابن طولون أمير مصر.

وتقدَّمَ النوريُّ[١]، وكذلكَ لمَّا مُشِيَ بِبُنانٍ الحمَّالِ فأُمرَ بإلقائِهِ إلىٰ السَّبعِ ليقتلَهُ، فجعلَ السَّبعُ يَشمُّهُ ولا يُؤذِيهِ، فلمَّا رُؤِيَ منهُ ذلكَ مِنَ الكَرامَةِ أُطْلِقَ، فسُئِلَ عن حالِهِ كيفَ كانَ وقتَ إلقائِهِ بينَ يدَي السَّبعِ؟! فقالَ: كنتُ أتفكَّرُ في سُؤْرِ السِّباعِ، هلْ هوَ نجسٌ أمْ لَا؟.

وهذا عظيمٌ في التَّثبُّتِ والنَّظرِ لأفعَالِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وأحكامِهِ؛ فأمَّا نظرُهُ لأفعَالِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ يدلُّ عليهِ عدمُ التفاتِهِ للسَّبعِ الَّذِي جرَتِ العادةُ بأنَّهُ يُهلكُ، وإنَّمَا كانَ نظرُهُ لمَا يُنزلُهُ اللهُ بهِ من قضائِهِ، وأمَّا مراقبتُهُ لأحكامِهِ ففكرتُهُ فِي الطَّهارةِ والنَّجاسةِ[٢]، بالإضافةِ إلىٰ سُؤْرِ السِّباعِ[٣].

---

(١) أي: مبتدرًا إلىٰ السياف ليضرب عنقه، ووردت قصته في: آداب الصحبة ص٧٢، وتاريخ بغداد ٥/١٣٤، وحلية الأولياء ١٠/٢٥٠، والمختار من مناقب الأخيار ١/٢١٦.

(٢) في تحفة الفقهاء ١/٥٤: «وأما السؤر المختلف في طهارته ونجاسته فهو سؤر الخنزير والكلب وسائر سباع الوحوش وهو نجس عند عامة العلماء، وقال مالك: طاهر، وقال الشافعي: سؤر السباع كلها طاهر سوىٰ الكلب والخنزير، وأما السؤر المكروه فهو سؤر سباع الطير كالحدأة والبازي والصقر ونحوها استحسانا، والقياس أنه نجس». وانظر: الحاوي الكبير ١/٣١٧، والمجموع ١/٢٢٧، وتبيين الحقائق ١/٦٤، والبحر الرائق ١/١٣٧.

(٣) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٩١.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

«وَمِنْهُم:

[٤٦] أَبُو حَمْزَةَ البَغْدَادِيُّ البَزَّارُ(٢)

مَاتَ قبلَ الجُنَيدِ، وَكَانَ مِنْ أَقْرَانِهِ.

صَحِبَ السَّرِيَّ، والحسنَ المُسُوحِيَّ، وَكَانَ عالمًا بالقِرَاءَاتِ، فقيهًا.

وَكَانَ مِنْ أولادِ عيسى بْنِ أَبَان، وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل يَقُولُ لَهُ فِي المسائلِ: مَا تقولُ فِيهَا يا صُوفِيُّ؟.

قيلَ: كَانَ يتكلَّمُ فِي مجلسِهِ يَوْمَ جمعةٍ(٣)، فتغيَّرَ عَلَيْهِ الحالُ، فسقطَ عَنْ كرسيِّهِ، وَمَاتَ فِي الجمعةِ الثَّانِيَةِ، وقيلَ: مَاتَ سنةَ تسعٍ وثمانينَ ومائتَينِ.

قَالَ أَبُو حمزةَ(٤): مَنْ عَلِمَ طَرِيقَ الحَقِّ ـ تعالىٰ ـ سَهُلَ عَلَيْهِ سُلُوكُهُ، وَلَا دَلِيلَ عَلَىٰ الطَّرِيقِ إِلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ إِلَّا بِمُتَابَعَةِ الرَّسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي [١/٨٠ب] أَحْوَالِهِ وأَفْعَالِهِ وأَقْوَالِهِ.

وَقَالَ أَبُو حمزةَ(٥): مَنْ رُزِقَ ثَلَاثَةَ أشياءَ فَقَدْ نَجا مِنَ الآفاتِ(٦): بَطْنٌ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٠٧.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٢٧، وتاريخ بغداد ١/٣٩٠، وتاريخ دمشق ٥١/٢٥٥، ومناقب الأبرار ٢/٥٧٥، وتاريخ الإسلام ٢٠/٢١٢، وسيرأعلام النبلاء ١٣/١٦٥، والطبقات الكبرىٰ ١/١٨٠، والكواكب الدرية ١/٥٥٠، ٦٩٧.

(٣) في مسجد المدينة. انظر: مناقب الأبرار ٢/٥٧٥.

(٤) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥١/٢٥٥، والاعتصام ١/٩٧، والاستقامة ١/٢٥٠، ومدارج السالكين ٢/٤٦٧، ومفتاح دار السعادة ١/١٦٠.

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٢٨، وتاريخ دمشق ٥١/٢٥٥، ومناقب الأبرار ٢/٥٧٧.

(٦) حصر أسباب النجاة فيما ذكر؛ لأنها أمهات الأسباب.

خَالٍ[(١)] مَعَـ[ـهُ] قَلْبٍ قَانِعٍ، وفَقْرٌ دَائمٌ مَعَهُ زُهْدٌ حَاضِرٌ، وَصَبرٌ كَامِلٌ[(٢)] مَعَهُ ذِكْرٌ دَائمٌ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: **«مَنْ رُزِقَ ثلاثًا»**، وَهِي: خُلُوُّ البطنِ، والفقرُ منَ الدُّنيَا، والصَّبرُ على ذلكَ، ولا يحملُ خُلُوَّ بطنِهِ إلَّا بقلَّةِ تَشَوُّفِهِ إلى ما خَلَا بطنُهُ عنهُ، ولا يقلُّ تشوُّفُهُ إلَّا بالقَنَاعَةِ، وكذلكَ لَا يكملُ فَقْرُهُ إلَّا بإِعْرَاضِهِ بقلبِهِ عنِ الدُّنيَا، وإلَّا مَتى كانَ لا مَالَ بِيَدِهِ وقلبُهُ مُعَظِّمٌ للدُّنيَا، مُتَشَوِّفٌ لهَا فهوَ مُعَذَّبٌ بِفَقْرِهِ.

وإذا مَنَّ اللهُ ـ تعالى ـ عليهِ بالصَّبرِ عمَّا ذكرْنَاهُ، وصَحَّ لهُ القَنَاعةُ والزُّهدُ وصَبَرَ عنِ الدُّنيَا، فلا تكملُ حَالَتُهُ إلَّا بِدَوامِ ذكْرِ اللهِ، فيكونُ صَبْرُهُ عمَّا فَاتَهُ وعلى ما هوَ فيهِ منَ الشُّغْلِ، فتكونُ هذهِ السِّتَّةُ هيَ الَّتِي سَمَّاهَا ثَلاثةً، ولكنَّ الثَّلاثةَ هيَ ما ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا مِن خُلُوِّ البَطْنِ والفَقْرِ والصَّبرِ[(٣)]، وإنَّمَا كانَ حَالُهُ بمَا أَضَافَهُ إليهَا.

❊ ❊ ❊

(١) أي من فضول الطعام بشاهد علم الشريعة.

(٢) أي: حبس النفس على الرضا بكل ما يجري به القضاء، معه ذكر وفكر دائم لا ينقطع.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٩٢.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[1]:

«وَمِنْهُم:

[٤٧] أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى الوَاسِطِيُّ[2]

خُرَاسَانِيُّ الأصلِ، مِنْ (فَرْغَانَةَ)[3]، صحِبَ الجُنيدَ والنُّوريَّ.

عالِمٌ كبيرٌ، أقامَ بـ(مَرْو)، وَمَاتَ بِهَا بَعْدَ العِشْرِينَ والثَّلاثمائَةِ.

قَالَ الواسِطِيُّ[4]: الخَوْفُ وَالرَّجاءُ زِمَامَانِ يَمْنَعَانِ مِنْ سُوءِ الأَدَبِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: قولُهُ: «الخَوْفُ والرَّجاءُ زِمَامَانِ» لم يُرِدْ ما أطلقَهُ النَّاسُ؛ من أنَّ الرَّجاءَ قائدٌ والخوفَ سَائقٌ، وإنَّمَا أرادَ بقولِهِ «زمامانِ» أي: يحفظانِ العبدَ فيزمَّانِهِ، أيْ: يُمْسِكَانِهِ عن سوءِ أدبِهِ معَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ومعَ خلْقِهِ، فإنَّهُ إنْ لاحَ لهُ محبوبٌ ومالَتْ نفسُهُ إليهِ وهوَ مُكروهٌ لمولَاهُ أو غيرُ مرضِيٍّ عندَهُ ردَّ نفسَهُ عنهُ بزمامِ الخوفِ، وإنْ عرَفَ طاعةً مرضيةً لربِّهِ ووجدَ نفسَهُ فاترةً عنهَا كسلانةً في طلبِهَا لاستحيَىٰ من ربِّهِ، وحفظَ نفسَهُ وأمسكَهَا عنِ الإعراضِ عنهُ، رجاءَ قربِهِ من ربِّهِ.

فبهذا الاعتبارِ كانَ الخوفُ والرَّجاءُ زِمَامينِ[5]، أي: يُمْسِكَانِ العبدَ ويحفظَانِهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٠٨.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٣٢، وحلية الأولياء ١٠/٣٤٩، ومناقب الأبرار ٢/٥٨٠، وطبقات الأولياء ص١٤٨، والطبقات الكبرىٰ ١/١٨١، والكواكب الدرية ٢/١٥٩.

(٣) لذا كان يعرف بـ(ابن الفرغاني). انظر: طبقات الصوفية ص٢٣٢، وحلية الأولياء ١٠/٣٤٩. وفي الروض المعطار ص٤٤٠: «فرغانة: في خُراسان، بينها وبين (سمرقند) ثلاثة وخمسون فرسخًا». وانظر: معجم البلدان ٤/٢٥٣.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٣٣، ومناقب الأبرار ٢/٥٨٢.

(٥) في النسخ: زمامان، والصّواب المثبت، ويصح علىٰ لغة من يلزم المثنىٰ الألف في كل الأحوال.

من سوءِ الأدبِ ، ومَنْ أطلقَ على الرَّجاءِ زِمَامًا ، بمعنى أنَّهُ يقودُ إلى فعْلِ الطَّاعاتِ ، وعلى الخوفِ سائقًا ، بمعنى أنَّهُ يبعدُ عنِ المحرَّماتِ ، فعلى وجهٍ آخرَ(١) .

۞ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢) : «وَقَالَ(٣) : **مُطَالَعَةُ الْأَعْوَاضِ**(٤) **عَلَى الطَّاعَاتِ مِنْ نِسْيَانِ الفَضْلِ**» .

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وهذا صحيحٌ ؛ فإنَّ العبدَ [١/١٨١أ] لو وُفِّقَ لرؤيةِ جميعِ ما هوَ فيهِ منَ الطَّاعةِ(٥) والجريانِ على وجْهِ الاستقامةِ من فضْلِ ربِّهِ لاستحْيَى منهُ أنْ يضيفَ ذلكَ لنفسِهِ ، فضلًا عن أنْ يطلبَ عنهُ عِوَضًا ، فإنَّ مَنْ كانَتْ نفسُهُ وسائرُ أفعالِهِ مِلْكًا لغيرِهِ ، لا يليقُ بهِ أنْ يطلبَ جزاءً على خدمتِهِ ويُنَزِّلَ نفسَهُ منازلَ الأحرارِ المستأجَرِينَ ، وكفى بذلِكَ نِسْيَانًا للفضْلِ(٦) .

۞ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «وَقَالَ الوَاسِطِيُّ(٧) : **إِذَا أَرَادَ اللهُ هَوَانَ عَبْدٍ أَلْقَاهُ إِلَى هَؤُلَاءِ الأَنْتَانِ والجِيَفِ**(٨) ، **يُرِيدُ بِهِ : صُحْبَةَ الأَحْدَاثِ**(٩)» .

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وهذهِ الحكايةُ ممَّا نستخيرُ اللهَ ـ تعالى ـ في إسقاطِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في : إحكام الدلالة ١/١٩٣ .

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٠٨ .

(٣) ورد قوله في : طبقات الصوفية ص٢٣٥ ، وحلية الأولياء ١٠/٣٥٠ ، ومناقب الأبرار ٢/٥٨٣ .

(٤) أي : التشوف إلى الأعواض بإيقاع العبادة بقصدها ناشئ عن الغفلة . والأعواض : جمع عوض ، وهو ما يكون في مقابلة الشيء ، والمراد به هنا : الأجر المرتب على عمل الطاعة .

(٥) في (ج) : الطاعات .

(٦) أفاده الشيخ زكريا في : إحكام الدلالة ١/١٩٣ .

(٧) ورد قوله في : مناقب الأبرار ٢/٥٨٤ ، والاستقامة ١/٤٦٠ ، والمدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات ص٩٠ ، وشرح النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية لابن زكري ٢/١٩٣ .

(٨) في (أ) : والأجياف ، والمثبت موافق لما في الرسالة القشيرية .

(٩) أي : الشاب المُرْد ـ كما مر ـ ، أو المُحدِثين ـ أي المُبتدعين ـ في دين الله ما ليس منه . انظر : إحكام الدلالة ١/١٩٤ .

الكلامِ عليها وعلى أمثالِهَا ؛ لقلَّةِ فائدتِهَا وَجَدْوَاهَا ، وعدمِ جريانِهَا في سلكِ فوائدِ الصَّالحينَ وحكمِهِمْ ، فإنَّ صحبةَ الأحداثِ لا يكونُ جيفًا وأَنْتَانًا إلَّا إذا كانَتْ لغيرِ اللهِ ، وغايةُ التَّقديرِ لمطلقِهَا ، وهوَ الواسطيُّ أنْ يكونَ وبَّخَ أقوامًا وذمَّهُمْ بذلكَ وَنَهَاهُمْ عن هذهِ المحرَّماتِ ، فلا يليقُ إدخالُهَا فِي الحكمِ .

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1] : «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أبا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ المَرْوَزِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الوَاسِطِيَّ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ**[2]: **جعلُوا سُوءَ أَدَبِهِمْ إِخلاصًا ، وَشَرَه نفوسِهِمُ انبساطًا ، ودناءَةَ الهِمَمِ جلَادَةً ، فَعَمُوا عَنِ الطَّرِيقِ ، وَسَلَكُوا فِيهِ المضيق ، فلا حياةَ تنْمُو فِي شواهدِهِمْ ، ولا عبادَةَ تزكُو فِي محاضرتِهِم ، إِنْ نطقُوا فبالغضَبِ ، وإنْ خاطبُوا[3] فبالكِبْرِ ، تَوَثُّبُ أنفسِهِم[4] يُنْبِئُ عَنْ ضَمَائِرِهِم ، وَشَرَهُهُم فِي المَأْكُولِ يُظْهِرُ مَا فِي سُوَيداءِ أسرارِهِمْ**[5] ، ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]» .

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذهِ الحكايةُ والكلماتُ الَّتِي تضمَّنَتْهَا المرادُ بهَا ذمُّ قومٍ تشبَّهُوا بأهْلِ طريقِ الحقِّ وليسُوا منهُم ، فذكرَ صفاتِهُم لِيُتَّقَوا ويُبْعَدَ منهُمْ ، فقالَ: «**جَعَلُوا سُوءَ أَدَبِهِمْ إِخْلَاصًا**» ؛ وذلكَ أنَّ الإخلاصَ: هوَ الإعراضُ عنِ المخلوقينَ ، وإفرادُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بالقوَلِ والفِعْلِ ، فَغَلَطَ هؤلاءِ وأعرضُوا عنِ العلماءِ والصَّالحينَ وأساءُوا الأدبَ معَهُم ، زَعْمًا منهُمْ بأنَّهُمْ مخلصُونَ لا يلتفتُونَ لغيرِ اللهِ .

والانبساطُ: هوَ حُسْنُ العِشْرَةِ فِي الطَّعامِ والكلامِ ، وحُسْنُ التَّصرُّفِ فِي

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٠٨ .

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٥٨٤ .

(٣) في (ف): خُوطبوا .

(٤) نهاية السقط من (ب) .

(٥) أي: حبة قلوبهم .

ذلكَ[١]، فلمَّا شَرِهَتْ نفوسُ هؤلاءِ فِي الأكلِ والكلامِ تعلَّلُوا بالانبساطِ [١/٨١ب]، وأنَّ ذلكَ منهُمْ انبساطٌ وحسنُ عِشْرَةٍ، وإنَّمَا هوَ شِدَّةُ شَرَهٍ[٢] ورغبةُ نفسٍ.

وإذا وقعَ الإنسانُ في نَقْصٍ وفُتُورٍ سَمَّىٰ هذهِ الحالةَ تَصبُّرًا وتَجلُّدًا؛ لِمَا يُجْرِيهِ اللهُ عليهِ منَ القضاءِ، وهوَ قِلَّةُ رغبتِهِ في الخيرِ ودَنَاءَةُ هِمَّةٍ، فعَمُوا بهذهِ الأفعالِ عَنْ طريقِ الحقِّ، وسلكُوا طريقًا لا[٣] يوصِّلُهُمْ إلىٰ الخيرِ من ضيقِهِ وعسرِ النفوذِ منهُ إليهِ.

ومَنْ كانَ كذلكَ لا يجدُ الإنسانُ بِصُحْبَتِهِ زِيَادةً ولا نَشَاطًا، وهوَ المعبَّرُ عنهُ بالحياةِ الَّتِي لا تنمُو في مشاهدتِهِمْ، ولا عبادةَ تزكو في محاضرتِهِمْ ومخاطبتِهِمْ؛ لقلَّةِ الاقتداءِ بهِمْ، واستحسانِ ما هُمْ عليهِ، بل يتضرَّرُ منْ مشاهدتِهِمْ ورؤيةِ أحوالِهِمْ، «**فإنَّهُمْ إنْ نطقُوا فبالغضبِ، وإنْ خاطبُوا فبالكِبْرِ**»، وهذا من آثارِ رؤيةِ النَّفسِ واعتقادِ عَظَمَتِهَا، وظهورُ هذا منهُمْ يدلُّ علىٰ خُبْثِ بَوَاطِنِهِمْ، فإنْ تكلَّمُوا فبِالعُنْفِ، وإنْ وُعِظُوا أعرَضُوا بالكَرَاهةِ والأَنَفِ.

وقولُهُ: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤] ذمٌّ لسائِرِ ما يصيرونَ إليهِ، وأنَّهُ مُبْعِدُهُمْ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ومُقْصِيهم عنهُ.

۞ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «سَمِعْتُ الأستاذَ أبا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٥]: سَمِعَتْ بَعْضُ المَراوِزَةِ إِنْسَانًا صيدلانيًّا يَقُولُ: اجتازَ الواسِطِيُّ يومَ جمعةٍ بِبَابِ حَانُوتِي، قَاصِدًا إِلَىٰ الجامعِ، فانقطعَ شِسْعُ نعلِهِ، فَقُلْتُ: أَيُّهَا الشَّيخُ، أتأذَنُ لي أَنْ

---

(١) سقطت من (ب) عبارة: «وحسن التصرف فِي ذلك».

(٢) في المحكم «ش ر ه»: «الشَّرَه: أسوأ الحرص».

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) الرسالة القشيرية ١/١٠٨ ـ ١٠٩.

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٥٨٤.

أُصلحَ نعلَكَ؟ فقَالَ: أَصلِحْ، فَأَصْلَحتُ شِسعَهُ، فَقَالَ لي[١]: تَدْرِي لمَا انقطعَ شِسْعُ نَعْلِي؟ فَقُلْتُ: حَتَّىٰ يقولَ، فقَالَ: لِأَنِّي مَا اغتسلتُ لِلجُمْعَةِ، فَقُلْتُ: يا سيِّدِي، هَهُنَا حمَّامٌ تدخلُهُ؟ فَقَالَ: نعَمْ، فأدخلتُهُ الحمَّامَ فَاغْتَسَلَ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ كَمالِ مُرَاقَبتِهِ وتَحَسُّسِهِ[٢] لأفعالِ اللهِ - تعالىٰ - بهِ وتَأدِيبِهِ لهُ، ولذلكَ أدركَ تقصيرَهُ عنِ الخيرِ لمَّا قصَّرَ بهِ، فإنَّ تَعْويقَهُ عنِ البُكُورِ إلىٰ الجُمعةِ تقصيرٌ بهِ عنِ[٣] الفضْلِ، فتفطَّنَ لسببِهِ، فوجدَ نفسَهُ قد أخلَّ بغسْلِ الجمعةِ، فكأنَّهُ لمَّا قصَّرَ قُصِّرَ بهِ، ولكنَّهُ أدَّبَهُ وجبَرَهُ بكونِهِ اغتسلَ ومضىٰ إلىٰ الجمعةِ مُغتسلًا مبادرًا[٤]، وهمَا فضيلتَانِ، وقد قالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرجلٍ تأخَّرَ عنِ البكورِ وهوَ علىٰ المِنبَرِ، «أيُّ ساعةٍ هذهِ؟»، فأجابَهُ الرَّجلُ بأنَّهُ ما زادَ علىٰ أنْ توضَّأَ وجاءَ، فقالَ لهُ: والوضوءُ أيضًا؟»[٥]، يَعْنِي: فَوَّتَّ[٦] نفسَكَ فضيلَتَينِ: فضيلةَ البكورِ للجمعةِ، وفضيلةَ الغُسْلِ، فلم يزَلِ الصَّالحونَ ينبِّهُ بعضُهُمْ بعضًا علىٰ الفَضَائلِ؛ لترتفعَ دَرَجَاتُهُم [١/٨٢أ] عندَ ربِّهِم، ومَنْ غفلَ منهُم ولم يجدْ مَنْ يؤدِّبُهُ ويُذَكِّرُهُ أدَّبَهُ مولَاهُ، ومِنْ هذا القَبِيلِ - واللهُ أعلمُ - ما جرَىٰ للواسِطِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ج).

(٢) في (ب): وتحسيسه.

(٣) في (ج): تقصيره عن.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٩٥.

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٤/٣٠ - ٣١ بلفظ: «عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ بَيْنَا هُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَادَاهُ عُمَرُ: أَيُّ سَاعَةٍ هَذِهِ؟ قَالَ: إِنِّي شُغِلْتُ اليَوْمَ فَلَمْ أَنْقَلِبْ إِلَىٰ أَهْلِي حَتَّىٰ سَمِعْتُ النِّدَاءَ، فَلَمْ أَزِدْ عَلَىٰ أَنْ تَوَضَّأْتُ، قَالَ عُمَرُ: وَالْوُضُوءُ أَيْضًا، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَأْمُرُ بِالغُسْلِ».

(٦) في (ج): فويت، والأصح المثبت.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُمْ:

[٤٨] أبُو الحَسَنِ بْنُ الصَّـائِغِ[(٢)]

وَاسْمُهُ: عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَهْلٍ الدِّيْنَورِيُّ.

أقامَ بِمِصْرَ، وَمَاتَ بِهَا، مِنْ كِبَارِ المَشَايِخِ.

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ المَغْرِبِيُّ[(٣)]: مَا رَأَيْتُ مِنَ المشايخِ أَنْوَرَ مِنْ أَبِي يَعْقُوبَ النَّهْرَجُورِيِّ، ولا أَكْثَرَ هيبةً من أَبِي الحَسَنِ بنِ الصَّائِغِ[(٤)].

مَاتَ سَنَةَ ثلاثينَ وثلاثمائةٍ.

سُئِلَ ابْنُ الصَّائِغِ عَنِ الاستدلالِ بالشَّاهدِ عَلَىٰ الغائبِ[(٥)]، فَقَالَ[(٦)]: كَيْفَ يُسْتَدَلُّ بصفاتِ مَنْ لَهُ مِثْلٌ ونظيرٌ عَلَىٰ صفاتِ مَنْ لا مِثْلَ لَهُ ولا نَظِيرَ؟!».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وقولُهُ في جوابِ مَنْ سألَهُ عنِ الاستدلالِ بالشَّاهدِ علىٰ الغائبِ: «كيفَ يُسْتَدَلُّ بصفاتِ مَنْ لهُ مثلٌ ونظيرٌ علىٰ مَنْ لا مثالَ لهُ ولَا

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١١٠.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٤٠، ومناقب الأولياء ٢/٦٠٦، وصفة الصفوة ٤/٧٨، والبداية والنهاية ١١/٢٠٤، ومرآة الجنان ٢/٣١٠، والعبر ٢/٢٣٣، وطبقات الأولياء ص٣٤٩، وحسن المحاضرة ١/٥١٣، وشذرات الذهب ٢/٣٣٠، والطبقات الكبرىٰ ١/١٨٥، والكواكب الدرية ١/٦٨٣، ٢/١١٥.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٤٠، ومناقب الأبرار ٢/٦٠٦، وصفة الصفوة ٤/٧٩.

(٤) فسئل أبو عثمان المغربي كما في: طبقات الصوفية ص٢٤٠، ومناقب الأبرار ٢/٦٠٦: «هَل كَانَ أَبُو الحسن من السالكين؟ فَقَالَ: كَانَ من المعاملين المخلصين فِي المُعَامَلَة».

(٥) أي: بالمشاهد من العالم علىٰ الغائب بالحقيقة والكُنْه، وهو الحق تبارك وتعالىٰ. انظر: نتائج الأفكار ١/٢٨١.

(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٤٢، ومناقب الأبرار ٢/٦٠٧، والاستقامة ١/١٠٣.

نَظِير»، ومَنِ استدلَّ بالشَّاهدِ على الغائبِ لم يُرِدْ ما أرادَهُ الشَّيخُ للمُشابَهَةِ بينَ الشَّاهدِ والغائبِ، وإنَّمَا لمَّا كانَ العالمُ جائزًا، وكلُّ جائزٍ لا يحدثُ إلَّا بسببٍ، علِمَ أنَّ اللهَ مُحْدِثُهُ، كمَا أنَّ كلَّ فِعْلٍ في الشَّاهدِ لابُدَّ لهُ منْ فاعلٍ، فلمَّا كانَ الفعلُ في الشَّاهدِ جائزًا يصحُّ أنْ يكونَ ويصحُّ أنْ لا يكونَ، فإذا كانَ وَحَدَثَ دلَّ ذلكَ على مُحْدِثِهِ، فكذلكَ العلماءُ لَمَّا نَظَرُوا في العالمِ وهوَ أنَّهُ جائزٌ يصحُّ أنْ يكونَ ويصحُّ ألَّا يكونَ، فلمَّا وجدَ وتحقَّقَ كونَهُ دلَّ ذلكَ على مُحْدِثِهِ، وهوَ اللهُ ـ تعالى ـ، وهذا معنى قولِهِم: «**الاستدلالُ بالشَّاهدِ على الغائبِ**»، أيْ: بيانُ طَرْدِ الدَّليلِ شاهدًا وغائبًا، وهوَ أنَّ الفعلَ لا بُدَّ لهُ من فاعلٍ.

وَقَدْ يُحْمَلُ كلامُهُ أنْ يكونَ ردًّا على مَنْ يُثْبِتُ الجِهَةَ والجسميَّةَ، ويلحقُ الصِّفاتِ بالصِّفاتِ، فيكونُ كلامُ الشَّيخِ بَيَّنَ لهُ الفرقَ بينَ القديمِ والمُحْدَثِ، وبينَ الصَّانعِ والمَصْنُوعِ، فهذا لهُ وجْهٌ[١].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَسُئِلَ عَنْ صِفَةِ المُرِيدِ، فَقَالَ**[٣]: **[صِفَتُهُ]**[٤] **مَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ**: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾[٥] [التوبة: ١١٨] . . . **الآية**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ المُرِيدَ الرَّاغبَ في طاعةِ اللهِ الهاربَ من مخالفتِهِ هوَ التَّائبُ، فكلَّمَا تفكَّرَ في سَابقِ ذُنُوبِهِ وكَثْرَةِ تَفْرِيطِهِ فِي وَاجِبِهِ، فضلًا عن نَدْبِهِ، تَوَالَتْ عليهِ الهُمُومُ والأَحْزَانُ، وكلَّمَا رَأى كسلَ نَفْسِهِ وَقِلَّةَ رَغْبَتِهَا في

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٩٥.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١١٠.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٤١، ومناقب الأبرار ٢/٦٠٧.

(٤) تتمة يقتضيها المقام من الرسالة القشيرية، ومن مظان تخريجه. والقصد: فوصف المريد بأنه هو الذي عن مُراد ربه لا يَحيد.

(٥) أي: ضاقت عليهم أرض الشَّهوات بازدحام وارد الندامات.

الخَيْرِ لَمْ يستَقِرَّ بهِ مكانٌ، وعلِمَ أنْ لَا ملجأَ منَ اللهِ إلَّا إليهِ، فبكَىٰ وتضرَّعَ [١/٨٢ب] وأعرضَ عن كُلِّ شُغلٍ لقلبِهِ وبَدَنِه وأقلَعَ(١).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَقَالَ(٣): الأَحْوَالُ(٤) كَالبُرُوقِ، فَإِذَا ثَبَتَتْ فَهُوَ حَدِيثُ النَّفْسِ وَمُلاوَمَةُ(٥) الطَّبْعِ(٦)**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ علىٰ رَأْيِ مَنْ يُفَرِّقُ بينَ الأحوالِ والمَقَامَاتِ، ويشبِّهُ الأحوالَ بالبُرُوقِ، فإنَّ البرقَ يلمعُ للبصرِ، ثمَّ يقلعُ، بخلافِ أولياءِ المقاماتِ، فإنَّهَا قدْ تُسَمَّىٰ أحوالًا لسرعةِ تغيُّرِهَا، وإذَا تمكَّنَ الإنسانُ فيهَا وثبتَتْ لهُ، وتوالَتْ عليهِ سُمِّيَتْ مَقَامًا، فهذا ليسَ بحديثِ نفسٍ.

وأمَّا علىٰ القولِ بأنَّ الأحوالَ لا تصحُّ أنْ تدومَ؛ وذلكَ كالفرحِ والطَّيشِ، والانزعاجِ والابتهاجِ الَّتِي تطرقُ القلوبَ ولا تثبُتُ، ولَا يسمونَ حالًا إلَّا ما هذَا سبيلُهُ، ويكونُ قولُهُ: «**إذَا ثبتَتْ كانَتْ حديثَ نفْسٍ**» معنَاهُ: أنَّهُ خرجَ عنِ الحالِ وبقِيَ يحدِّثُ نفسَهُ بمَا كانَ، فهذا معنىٰ قولِهِ: (إذا تثبُتُ)، يعنِي: إذا تثبتُ ذِكْرًا لا حالًا.

❁ ❁ ❁

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٩٦.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١١٠.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٤٢، وشذرات الذهب ٢/٣٣١.

(٤) جمع: حال، والحال: ما يرد علىٰ القلب بمحض الموهبة من غير تعمّل واجتلاب؛ من طرب أو حزن، أو قبض أو بسط، ويسمىٰ الحال بالوارد أيضا.
انظر: عبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص٤٥، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٨١، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٧٣.

(٥) في (ج): ومداومة، وأشير في حاشية (أ) إلىٰ ذلك، وفي (ف): وملازمة، وقد أشير إلىٰ فروق النسخ هذه في: إحكام الدلالة ١/١٩٦.

(٦) والوجه: وملائمة الطبع، أي: موافقته، كما في مظان تخريجه، وإحكام الدلالة ١/١٩٦.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُمْ:

[٤٩] أَبُو إِسْحَاق إِبْرَاهِيمُ بْنُ دَاوُدَ الرَّقِّيُّ[٢]

مِنْ كِبَارِ مشايخِ الشَّامِ، مِنْ أقرانِ الجُنَيدِ وابنِ الجَلَّا، وَقَدْ عُمِّرَ، وعاشَ إِلَىٰ سنةِ ستٍ وعشرينَ وثلاثمائةٍ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الرَّقِّي[٣]: المَعْرِفَةُ إثباتُ الحَقِّ خارِجًا عَن كُلِّ مَوْهُومٍ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ وصْفَ العَبْدِ للمَعْرِفَةِ: أنْ يعرفَ الحقَّ علىٰ مَا هوَ عليهِ، والحقُّ ـ سبحانه ـ منزَّهٌ عن كلِّ مَوهُومٍ منَ المُحدثاتِ أو معلومٍ، فإنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منزَّهٌ عنْ مُشَابَهَة خَلْقِه علىٰ الإطلاق، فمن عَرفَهُ ـ سبحانه ـ بانفراده في ذاتِهِ وصفاتِه وأفعالِه عن مشابهةِ خلْقِهِ، فهوَ العارفُ، ومَنْ توهَّمَ شيئًا من مكانٍ، أو زمانٍ، أو هيئةٍ، أو صفةٍ، فلمْ يَعْرِفْهُ ـ تعالىٰ! ـ، ولا يصحُّ أنْ يُسَمَّىٰ عَارِفًا[٤].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقَالَ[٦]: القُدْرَةُ ظَاهِرَةٌ، والأَعْيُنُ مَفْتُوحَةٌ، ولَكِنَّ أَنْوَارَ البَصَائِرِ قَدْ ضَعُفَتْ».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١١١.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٤٥، وحلية الأولياء ١٠/٣٥٤، ومناقب الأبرار ٢/٦٠٩، وصفة الصفوة ٤/١٩٧، وطبقات الأولياء ص٢٩، والطبقات الكبرىٰ ١/١٨٥، والكواكب الدرية ١/٥١٦.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٤٦، ومناقب الأبرار ١/٦١٠، وتمامه فيهما: «لِأَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: تَفَكَّرُوا فِي آلَاء الله، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي الله».

(٤) في (ب): «ولم يسم عارفًا». وقد أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٩٧.

(٥) الرسالة القشيرية ١/١١١.

(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٤٦، ومناقب الأبرار ٢/٦١٠.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، وأرادَ بظهورِ القدرةِ المقدورَ؛ وهوَ تجدُّدُ الحوادثِ فِي اللَّيلِ والنَّهارِ، وسائرِ الحيواناتِ من بنِي آدمَ والدَّوابِّ والأطيارِ، وسائرِ النَّباتِ منَ الزَّرعِ والأشجارِ، كلُّ ذلكَ كائنٌ بعدَ أنْ لمْ يكنْ للأبصارِ، ولكنَّ بَصَائرَ العُقُولِ والاستدلالَ بالصَّنعَةِ علىٰ الصَّانعِ والمَخْلُوقِ علىٰ الخالقِ ضَعِيفةٌ، وضَعْفُ البصائرِ يكونُ لأحَدِ أمرَينِ؛ إمَّا لِكَمَالِ شُغْلٍ بدُنْيَا معَ صحَّتِهَا لو نظرَتْ [١/١٨٣أ]، وإمَّا لِتَراكُمِ المُخَالَفَاتِ منَ المَعَاصِي فعَمِيَتْ عن ذلكَ بآثارِهَا وطُمِسَتْ، ونَعُوذُ باللهِ من هذا القِسْمِ الأَخِيرِ، فإنَّهُ مِن علامَاتِ [أَهْلِ](١) السَّعِيرِ(٢).

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وَقَالَ(٤): **أَضْعَفُ الخَلْقِ: مَنْ ضَعُفَ عَنْ رَدِّ شَهَوَاتِهِ، وَأَقْوَىٰ الخَلْقِ: مَنْ قَوِيَ عَلَىٰ رَدِّهَا**».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، باعتبارَينِ؛ وذلكَ أنَّ أضعفَ النَّاسِ مَنْ عجزَ عنْ مصلحةِ نفسِهِ والنَّظرِ لهَا معَ قدرتِهِ وتمكُّنِهِ، وإذَا كانَ العبدُ متمكِّنًا من ردِّ الشَّهواتِ الَّتِي تُؤذِيهِ، فلمْ يصرفْ ذلكَ عن نفسِهِ، وهيَ أحبُّ الأشياءِ إليهِ، كانَ أعجزَ النَّاسِ وأضعفَهُمْ.

وأمَّا كونُهُ أَقْوَىٰ النَّاسِ إذَا ردَّ شهواتِهِ، فمِنْ حيثُ إنَّهُ طُبِعَ علىٰ المَيْلِ لِكُلِّ لَذِيذٍ، والنَّفْرَةِ عن كلِّ كُرْبَةٍ، وإذَا كانَ الأمرُ كَذَلِكَ وكانَتِ الأَهْوِيَةُ(٥) ملذوذةً

---

(١) زيادة من (ب، ج).

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٩٧.

(٣) الرسالة القشيرية ١/١١١.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٤٦، ومناقب الأبرار ٢/٦١٠، وصفة الصفوة ٤/١٩٧.

(٥) في تصحيح التصحيف ص١٣٧: «ويقولون: أَهْوِيَةٌ مختلِفة، أي إراداتهم وشهواتهم. والصواب: أَهْوَاؤهم؛ لأنها جمع هَوًىٰ، مقصور، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾، فأما الأَهْوِيَة فجمع: الهَواء؛ الذي بينَ السماء والأرض، ممدود». وانظر: الصحاح ٦/٢٥٣٧.

للنُّفوسِ ، فمخالفةُ طبعِهَا وردُّهَا عن هَوَاهَا منْ أشقِّ الأمورِ وأَصْعَبِهَا ، فمَنْ قوَّاهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ ذلكَ وأمدَّهُ بعونِهِ حتَّىٰ نَهَى النَّفسَ عنِ الهوَىٰ ؛ فهوَ أقوَىٰ النَّاسِ وأنظرُهُمْ لنفسِهِ وأشفقُهُمْ عليهَا.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقَالَ**[(٢)]: **مِنْ عَلَامَةِ مَحَبَّةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ: إِيْثَارُ طَاعَتِهِ ، وَمُتَابَعَةُ نَبِيِّهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ ؛ فإنَّ المحبَّةَ تُثْمِرُ المَعْرِفةَ ، فمَنِ ادَّعَىٰ أنَّهُ يُحِبُّ مَحْبُوبًا ولم يُوافِقْهُ ويُسرِعْ إلىٰ محابِّهِ ومطالبِه كانَ كاذبًا فِي محبَّتِه[(٣)].

فمِنْ علامةِ محبَّةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ جريانُ العبدِ علىٰ ما تضمَّنَهُ كتابُهُ العزيزُ ، وبيَّنَتْهُ[(٤)] سُنَّةُ نبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَفِي ذلكَ متابعةُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قَوْلِهِ وفِعْلِهِ.

***

(١) الرسالة القشيرية ١/١١١.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٤٧ ، وحلية الأولياء ١٠/٣٥٤ ، ومناقب الأبرار ٢/٦١١.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٩٧.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُمْ:

[٥٠] مِمْشَـاذُ الدِّينَورِيُّ[٢]

مِنْ كِبَارِ مَشَايِخِهِم، مَاتَ سنَةَ تسعٍ وتسعينَ ومائتَينِ.

قَالَ مِمْشَاذ[٣]: أَدَبُ المُرِيدِ: فِي التِزَامِ حُرُمَاتِ المَشَايِخِ[٤]، وخِدْمَةِ الإخوَانِ، والخروجِ عَنِ الأسبابِ، وحفظِ آدابِ الشَّرْعِ عَلَىٰ نَفْسِهِ[٥]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والَّذِي ذكرَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يجمعُ أدبَ المُرِيدِ معَ اللهِ ومعَ خلْقِهِ، فقولُهُ: «التزامِ حُرُمَاتِ المشايخِ وخِدْمَةِ الإخوانِ» أدبٌ معَ الخَلْقِ؛ وهوَ امتثالٌ لأمْرِ اللهِ؛ لأنَّهُ أمرَ بذلكَ.

وأمَّا الخروجُ عنِ الأسبابِ وتعليقُ[٦] القَلْبِ [١/٨٣ب] بالمُسَبِّبِ والتزامُ آدابِ الشَّريعةِ، فهوَ الأدبُ معَ اللهِ خَاصَّةً[٧].

فَقَدْ جَمَعَ كَلامُهُ الأدبَ معَ اللهِ ومعَ خَلْقِهِ، ولا يكمُلُ ذلكَ إلَّا بكَمَالِ العِلْمِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١١٢.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٤٢، وحلية الأولياء ١٠/٣٥٣، ومناقب الأبرار ٢/٦١٤، وصفة الصفوة ٤/٧٨، والوافي بالوفيات ٢٦/٤٢، وتاريخ الإسلام ٢٢/٣١٢، والنجوم الزاهرة ١/٦١٤، والطبقات الكبرىٰ ١/١٨٥، والكواكب الدرية ١/٧١٨. ووقع في بعض هذه المصادر بالذال.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٤٤، ومناقب الأبرار ٢/٦١٥.

(٤) أي: بدوام احترامهم وإجلالهم وامتثال أمرهم.

(٥) أي: علمًا وعملا.

(٦) في (ب): ويعلق.

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/١٩٨. وللاستزادة انظر: آداب المريدين للسهروردي.

والعَمَلِ بهِ.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَقَالَ مِمْشَاذ[٢]: مَا دَخَلْتُ قَطُّ عَلَىٰ أحَدٍ مِنْ شُيُوخِي إلَّا وَأنَا خَالٍ[٣] مِنْ جَمِيعِ مَالِي، أنْتَظِرُ بَرَكَاتِ مَا يَرِدُ عَلَيَّ مِنْ رُؤْيَتِهِ وَكَلامِهِ[٤]، فَإِنَّ مَنْ دَخَلَ عَلَىٰ شَيْخٍ بِحَظِّهِ، انْقَطَعَ عَنْ بَرَكَاتِ رُؤْيَتِهِ، وَمُجَالَسَتِهِ وَكَلَامِهِ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ العبدَ إذا حَسُنَ ظَنُّهُ بِشَخْصٍ وَقَصَدَهُ لِيَنالَ مِنْ عِلْمِهِ أوْ أدَبِهِ أو بَرَكَةِ دُعَائِهِ، فلا يذهبُ لهُ بنيَّةِ الاختبارِ والامتحانِ، أوْ ليعرفَ ما عندَهُ، فإنَّهُ إذَا مضىٰ بهذِهِ النِّيَّةِ تغيَّرَتْ نيَّةُ قصدِهِ الأوَّلِ، فإنَّهُ نوىٰ أوَّلًا أنْ ينتفعَ وينالَ من بركتِهِ، وهذِهِ النِّيَّةُ اختبارٌ لحالِهِ، هل عندَهُ بركةٌ أمْ لَا؟، وهذا ضدُّ الأوَّلِ، ولهذَا قالَ: «**مَنْ دخلَ علىٰ شيخٍ بحظِّهِ**»، يعنِي: برؤيةِ نفسِهِ ومَا عندَهُ انقطعَ عن بركاتِ مَا يُجريهِ اللهُ علىٰ لِسَانِهِ، أو مَا يطَّلعُ عليهِ من حالِهِ، ومَنْ عَلِمَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ حُسْنَ نيَّتِهِ وصحَّةَ قصدِهِ للانتفاعِ أَجْرَىٰ علىٰ لسانِ المقصودِ جزاءَ نِيَّتِهِ، وأطلقَ علىٰ لِسَانِهِ ما ينتفعُ بهِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١١٢.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٤٤، ومناقب الأبرار ٢/٦١٥.

(٣) أي: في حال فراغ قلبي من جميع ما لي من الأحوال والمقامات.

(٤) سقط من هنا (ب) إلىٰ قوله: «وكلامه» الآتي، بسبب انتقال نظر الناسخ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُم:

[٥١] خَيرٌ النَّسَّاجُ[(٢)]

صَحِبَ أبَا حَمْزَةَ البغدادِيَّ، ولَقِيَ السَّريَّ، وَكَانَ مِنْ أَقْرَانِ النُّورِيِّ، إلَّا أَنَّهُ عُمِّر طَوِيلًا، وعاشَ فيمَا قيلَ: مائةً وعشرِينَ سنةً، وتابَ فِي مجلسِهِ الشِّبْلِيُّ والخَوَّاصُ، وَكَانَ أستاذَ الجَمَاعَةِ.

وقيلَ[(٣)]: كَانَ اسمُهُ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيل، مِنْ (سَامِرَّا)[(٤)]، وإنَّمَا سُمِّيَ خيرًا النَّسَّاجَ؛ لأَنَّهُ خرجَ إِلَى الحَجِّ، فَأَخَذَهُ رَجُلٌ عَلَى بَابِ (الكُوفَةِ)، وَقَالَ: أَنْتَ عَبْدِي واسْمُكَ خيرٌ، وَكَانَ أَسْوَدَ فَلَمْ يُخَالِفْهُ، وَاسْتَعْمَلَهُ الرَّجُلُ فِي نَسْجِ[(٥)] الخزِّ؛ فَكَانَ يَقُولُ لَهُ: يَا خيرُ، فيَقُولُ: لَبَّيْكَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ الرَّجلُ بَعْدَ سنتَينِ: غَلَطْتُ، لَا أَنْتَ عَبْدِي، وَلَا اسْمُكَ خيرٌ، فَمَضَى، وَقَالَ: لَا أُغَيِّرُ اسمًا سَمَّانِي بِهِ رجلٌ مُسْلِمٌ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذهِ الحكايةُ قد يعترضُ عليهَا بعضُ النَّاسِ يقولُ: كيفَ يجوزُ لهُ أنْ يتركَ نفسَهُ في الرِّقِّ ويطرأَ عليهِ ما يطرأُ على المماليكِ منَ البيعِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١١٣.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٤٧، وحلية الأولياء ١٠/٣٠٧، وتاريخ بغداد ٢/٤٨، ومناقب الأبرار ٢/٦٢٠، ووفيات الأعيان ٢/٢٥١، والعبر ٢/١٩٩، وسير أعلام النبلاء ١٥/٢٦٩، ومرآة الجنان ٢/٢٨٥، والوافي بالوفيات ١٣/٢٧٨، وطبقات الأولياء ص١٩٦، والطبقات الكبرى ١/١٨٦، وشذرات الذهب ٢/٢٩٤، والكواكب الدرية ١/٥٩٥.

(٣) ورد في: طبقات الصوفية ص٢٤٧، ومناقب الأبرار ٢/٦٢٠. وذكر في سببه تسميته بذلك قصة أخرى، تأملها في: حلية الأولياء ١٠/٣٠٧.

(٤) وفي معجم البلدان ٣/١٧٣: «سامراء لغة في (سُرَّ مَنْ رأى)؛ مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة، وقد خربت، وفيها لغات: سامِراء ممدود، وسامِرا مقصور، و(سر من رأ) مهموز الآخِر، و(سر من را) مقصور الآخر».

(٥) في (ب): نسيج.

والذِّلَّةِ والتَّسخيرِ؟! والمؤمنُ لا يَذِلُّ نفسَهُ.

والجَوَابُ عَنْ هذَا: أَنَّ العبدَ إذا دخلَ بلدةً لا يُعْرَفُ فيهَا وتعلَّقَ بهِ أحدٌ مِنَ النَّاسِ وذكرَ أنَّهُ عبدُهُ، ولم يجدِ المُدَّعَىٰ عليهِ مَنْ يشهدُ لهُ بالحُرِّيَّةِ، فمَا بقِيَ لهُ إلَّا الرِّضَا بمَا قدَّرَهُ اللهُ والتَّسليمُ إلىٰ أنْ يُفرِّجَ اللهُ، ولا سيَّمَا إذَا كانَ أسودَ اللَّونِ يُشْبِهُ المَمَاليكَ، وكانَ فقيرًا عادمَ الملكِ [١/١٨٤] فتجتمعُ هذهِ الأسبابُ، وإنِ اتَّفَقَ أنْ يكونَ المدَّعِي لملكِهِ رجلًا صالحًا لا يُتَّهَمُ في دعوَاهُ يتأكَّدُ الأمرُ، وقد يكونُ المدَّعِي ذهبَ لهُ مملوكٌ يُشْبِهُ هذَا خيرًا المذكورَ، وتكونُ دعوَاهُ حقًّا، وإنَّمَا غلطَ في شَبَهِهِ لهُ، فبَقِيَ هذَا الرَّجلُ ـ وهوَ محمَّدُ بنُ إسماعيلَ المذكورُ ـ بيَدِ هذا الرَّجلِ مدَّةً وهوَ ينادِيهِ باسمِ غلامِهِ الَّذِي ضاعَ لهُ وهوَ خيرٌ، وعلَّمَهُ نسيجَ الخزِّ، ثمَّ تبيَّنَ لهُ بعدَ ذلكَ إمَّا باطلاعٍ علىٰ غلامِهِ وخبرٍ عنهُ أنَّهُ في موضعٍ آخرَ، فرفعَ يدَهُ عنهُ، وقالَ لهُ: «ما أنتَ غلامِي، ولا المُسَمَّىٰ بخيرٍ»، فمضَىٰ ولم يغيِّرْ اسمًا سمَّاهُ اللهُ بهِ علىٰ لسانِ رجلٍ منَ المسلمينَ، ثمَّ اشتهرَ بذلكَ.

فهذَا الوجْهُ أَوْلَىٰ مِنْ أنْ يقدِّرَ أنَّ الرَّجلَ الَّذِي أخذَهُ أَخَذَهُ ظُلْمًا وعُدْوانًا.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «**وَقَالَ**(٢): **الخَوْفُ: سَوْطُ اللهِ يُقَوِّمُ بِهِ أَنْفُسًا قَدْ تَعَوَّدَتْ سُوءَ الأَدَبِ**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والخوفُ درجاتٌ، وسُوءُ الأدبِ درجاتٌ، وكلُّ مقامٍ شريفٍ يتأتَّىٰ للعبدِ أنْ يُحسنَ أدبَهُ فيهِ وأنْ يُسِيءَ، فلَا يتخلَّصُ من سُوءِ أدبِهِ إلَّا بِالخَوفِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١١٣.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٤٩، ومناقب الأبرار ٢/٦٢٢، وصفة الصفوة ٢/٤٥٣، ومدارج السالكين/٥١٣.

والمخوفاتُ أنواعٌ: قدْ يخافُ البُعدَ، وقد يخافُ الحِجَابَ، وقد يخافُ الأدبَ على سُوءِ الأدبِ، وكلامُهُ أمرٌ جمليٌّ، فإنَّ قولَهُ: «**الخوفُ سوطُ اللهِ يُقَوِّمُ بِهِ أنفسًا قدْ تعوَّدَتْ سوءَ الأدبِ**» يعني: معَهُ أو معَ مَنْ أمرَ بحُسْنِ الأدبِ معَهُ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ[٢]: سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ الْقَزْوِينِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الْحُسَيْنِ الْمَالِكِيَّ يَقُولُ: سَأَلْتُ مَنْ حَضَرَ مَوْتَ خيرٍ النَّسَّاجِ عَنْ أَمْرِهِ فَقَالَ: لمَّا حَضَرَتْ صَلَاةُ الْمَغْرِبِ غُشِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ فتحَ عَيْنَيْهِ، وَأَوْمَأَ إِلَىٰ نَاحِيَةِ بَابِ الْبَيْتِ، وَقَالَ: قِفْ عَافَاكَ اللهُ، فَإِنَّمَا أَنْتَ عَبْدٌ مَأْمُورٌ، وَأَنَا عَبْدٌ مَأْمُورٌ، وَمَا أُمِرْتَ بِهِ لَا يَفُوتُكَ، وَمَا أُمِرتُ بِهِ يَفُوتُنِي، ودَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ [وصَلَّى][٣]، ثُمَّ تَمَدَّدَ وَغَمَّضَ عَيْنَيْهِ وَتَشَهَّدَ، فَرُؤِيَ فِي الْمَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ: لَا تَسْأَلْنِي عَنْ هَذَا، وَلَكِنِّي[٤] اسْتَرَحْتُ مِنْ دُنْيَاكُمُ الْوَضِرَةِ[٥]».

۞ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ جُمْلَةِ الكراماتِ الَّتِي يُكَرِّمُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهَا أنبياءَهُ وأولياءَهُ، أمَّا الأنبياءُ فيُخَيَّرُونَ[٦] قبلَ الموتِ في أنْ يقبضَهُمُ اللهُ أو يؤخِّرَهُمْ ولا تجرِي علىٰ ألسنتِهِمْ إلَّا مَا هوَ سابقٌ لهُمْ عندَهُ، وإنَّمَا يكونُ التَّخييرُ من جملةِ [١/٨٤ب] إكرامِهِ لهُمْ، وبيانِ منزلتِهِمْ عندَهُ.

والأولياءُ ـ أيضًا ـ يُعَرِّفُهُمْ بِوقْتِ مَوتِهِمْ ليتأهَّبُوا للقُدُومِ عليهِ، فإذَا حضرَ

(١) الرسالة القشيرية ١/١١٣ ـ ١١٤.

(٢) طبقات الصوفية ص٢٤٣، وورد أيضًا في: حلية الأولياء ١٠/٣٠٦، وتاريخ بغداد ٢/٤٩، ومناقب الأبرار ٢/٦٢١، وصفة الصفوة ٢/٤٥٤، وطبقات الأولياء ص١٩٨.

(٣) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع، ومظان تخريج قوله.

(٤) في (ب، ف): ولكن.

(٥) أي: القذرة، أو ذات الرائحة الكريهة.

(٦) في (أ، ج): فيخيروا، والصواب المثبت.

وقتُ المَوْتِ أيقظَهُمْ قبلَهُ ؛ ليستعدُّوا لِلقَائِهِ ؛ مِن ذلكَ مَا حُكِيَ(١) أنَّ شابًّا دخلَ عندَ بعضِ المشايخِ وعندَهُ جماعةٌ فسلَّمَ عليهِمْ وقالَ: هل عندَكُمْ مِنْ موضعٍ نظيفٍ يموتُ الإنسانُ فيهِ ؟! ، فأشارُوا إلىٰ موضعٍ ، فمضَىٰ إليهِ وتمدَّدَ إلىٰ القِبْلَةِ ، فأتَوهُ فوجدُوهُ وقدْ تُوفِّيَ إلىٰ(٢) رحمةِ اللهِ.

ومِنْ ذلكَ مَا حُكِيَ أنَّ امرأةً صاحَتْ لحالٍ غلبَ عليهَا في مجلسِ بعضِ المَشَايخِ ، فأنكرَ ذلكَ وقالَ(٣): «إنْ كنتِ صادقةً مُوتِي! ، فخَطَتْ خطواتٍ ، فقالَتْ: قدْ مِتُّ! ، فسقطَتْ ميِّتةً».

كلُّ ذلكَ لإعلامِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بالخواطرِ الصَّادقةِ لوقْتِ موتِهم ، فيتهيَّؤُونَ لهُ قبلَ ذلكَ ويتنبَّهونَ ، ومن ذلكَ مَا جرىٰ لخيرٍ هذَا ، وهوَ أنَّهُ حضرَ عندَ صلاةِ المغربِ وهوَ منَ المُكلَّفينَ ، فإنَّ عقلَهُ حاضرٌ ، وأطْلَعَهُ اللهُ على قُدُومِ مَلَكِ المَوتِ ، وأطلقَ اللهُ علىٰ لسانِهِ: «قِفْ ـ عافاكَ اللهُ ـ» حتَّىٰ نؤدِّي مَا عليَّ منَ الصَّلاةِ ، فإنَّ مَا عليَّ يفوتُنِي ومَا تريدُهُ(٤) أنتَ لا يفوتُكَ منْ قبْضِ روحِي ، ولَا يمكنُ تأخيرُ ملكِ الموتِ عنِ الوقتِ الَّذِي أذنَ لهُ فِي قبْضِ روحِهِ ، فإنَّهُ ـ تعالىٰ ـ قالَ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١] ، وإنَّمَا يُكرمُهُمُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ برؤيةِ مَلكِ الموتِ قبلَ خروجِ الرُّوحِ حتَّىٰ يُجْرِي علىٰ لسانِهِ مَا فيهِ بيانُ فَضِيلَتِهِ عندَ ربِّهِ ، ورِفْعَةُ درَجَتِهِ واغتِنَامُ طَاعتِهِ(٥).

---

(١) ورد في: مناقب الأبرار ٢/٦١٧.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ج).

(٣) قول أبي العباس الدينوري في: الرسالة القشيرية ٢/٣٦٤، وطبقات الأولياء ص٧٩، والنجوم الزاهرة ٣/٣٠٨.

(٤) في (ج): تريد.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٠٠.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُمْ:

[٥٢] أَبُو حَمْزَةَ الخُرَاسَانِيُّ[٢]

نَيسَابُورِيٌّ، أصلُهُ من محلَّةِ (مُلْقَابَاذ)[٣]، مِنْ أقرانِ الجُنَيدِ، والخرَّازِ، وأبي تُرابٍ النَّخْشَبِيِّ، وَكَانَ وَرِعًا دَيِّنًا.

قَالَ أَبُو حمزةَ[٤]: مَنِ اسْتَشْعَرَ ذِكْرَ المَوْتِ[٥] حُبِّبَ إِلَيْهِ كُلُّ بَاقٍ، وَبُغِّضَ إليهِ كُلَّ فَانٍ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ الشِّعارَ[٦] منَ الثِّيابِ: هوَ الَّذِي يلاصقُ البدنَ ويلازمُهُ، والدِّثارَ[٧]: هوَ الَّذِي يكونُ مِنْ فوقِهِ، فمَنْ لازمَ قلبُهُ ذكْرَ الموتِ[٨] وتوالَىٰ عليهِ تواليًا، حتَّىٰ صارَ كاللازمِ لهُ الَّذِي لَا يفارقُ نفعَهُ فِي وَجْهَينِ: زُهْدُهُ في الدُّنيا؛ لِقلَّةِ مَا يَحْتَاجُهُ منهَا، وَسُرْعَةِ مُفَارَقتِهِ لهَا، ورغبةٌ في

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١١٥.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٥٠، ومناقب الأبرار ٢/٦٢٦، وتاريخ دمشق ٦٦/١٥٤، وطبقات الأولياء ص١٥٥، والطبقات الكبرىٰ ١/١٨٧، والكواكب الدرية ١/٥٥٠، ٦٩٧.

(٣) في معجم البلدان ٥/١٩٣: «مُلقاباذ ـ بالضم ثم السُّكون والقاف وآخره ذال معجمة ـ محلة بأصبهان وقيل: بنيسابور».

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٥٠، وحلية الأولياء ١٠/٣٢٢، ومناقب الأبرار ٢/٦٢٧، وتاريخ دمشق ٦٦/١٥٥.

(٥) أي: من وفقه الله عَزَّوَجَلَّ لتذكر الموت في كل وقت استشعار اعتبارٍ وعظة.

(٦) انظر: العين ١/٢٥٠، وتهذيب الأسماء ٣/١٥٤، والكليات ص٥٢٣.

(٧) انظر: المغرب للمطرزي ١/٢٨٢، والتوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص٣٣٣.

(٨) مصداقًا لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما في سنن ابن ماجه ٢/١٤٢٢، والترمذي ٤/٥٥٣: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ، يَعْنِي الْمَوْتَ».

عَمَلِ الآخرةِ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يقطعَهُ المَوتُ عن ذلكَ، فَقِصَرُ الأَمَلِ يَحْمِلُ علىٰ تَحْصِيلِ العِمْلِ وَتَحْسِينِه، والإِعْرَاضِ عَن يَسيرِ الدُّنيَا وتَحْقِيرِه(١).

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَقَالَ(٣): العَارِفُ يُدَافِعُ** [١/١٨٥أ] **عَيْشَهُ(٤) يَوْمًا بِيَوْمٍ، وَيَأْخُذُ عَيْشَهُ(٥) يَوْمًا لِيَوْمٍ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا منَ الطِّرازِ الأوَّلِ، إلَّا أنَّهُ اختلفَ باختلافِ متعلّقِ النَّظرِ، فالأَوَّلُ كانَ حِرْصُهُ وإعراضُهُ خَوْفًا منَ القَاطعِ عليهِ أملَهُ، والعارفُ شُغْلُهُ بمولَاهُ؛ لمّا امتلأَ قلبُهُ بهِ مِنْ محبَّتِهِ وأُنْسِهِ وجميلِ بلوَاهُ، وتلذُّذِهِ بمناجاتِهِ في سائرِ تقلُّبِهِ ومثواهُ، فهوَ يدافعُ عيشَهُ الَّذي يقومُ بهِ ضَرُورةُ حَيَاتِهِ يومًا بيومٍ، ويشتغلُ بمَا يُحييهِ في دنياهُ عندَ ربِّهِ يومًا ليومٍ؛ أعنِي: يشتغلُ فِي الدُّنيَا بعبادتِهِ وكمالِ قُرْبِهِ منهُ في الآخرةِ، والتَّنعُّمِ بقُرْبِهِ ورؤيتِهِ، وشتَّانَ بينَ العَيْشَينِ واليَوْمَينِ!!.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٦): «**وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ أَوْصِنِي، فَقَالَ(٧): هَيِّئْ زَادَكَ لِلسَّفَرِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أَنَّ الزَّادَ هوَ الوسيلةُ في الوصولِ إلىٰ المقصودِ، وإلَّا قطعَ بالمُسافرِ فِي الطَّريقِ، فزادُ العبدِ فِي الوصولِ إلىٰ ربِّهِ والتَّنعُّمِ بأُنْسِهِ وقُرْبِهِ في دنياهُ وآخرتِهِ إنَّمَا هوَ بملازمةِ طاعتِهِ ودوامِ ذِكْرِهِ لهُ وقلَّةِ غفلتِهِ،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٠١.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١١٥.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٧٤، وحلية الأولياء ١٠/٢٣٣، ومناقب الأبرار ١/٦٢٧، وتاريخ دمشق ٦٦/١٥٥.

(٤) أي: يُحصِّل ما يُقوِّم بنيتَهُ يومًا بيوم.

(٥) أي: الذي به حياته الأبدية.

(٦) الرسالة القشيرية ١/١١٥.

(٧) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٥١، ومناقب الأبرار ٢/٦٢٧، وتاريخ دمشق ٦٦/١٥٥.

وفاءً بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧](١).

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): **«سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ(٣): سَمِعْتُ أَبَا الطَّيِّبِ العَكِّيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الحَسَنِ المِصْرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا حَمْزَةَ الخُرَاسَانِيَّ يَقُولُ: كُنْتُ قَدْ بَقِيتُ مُحْرِمًا فِي عَبَاءَةٍ، أُسَافِرُ كُلَّ سَنَةٍ أَلْفَ فَرْسَخٍ، تَطْلُعُ الشَّمْسُ عَلَيَّ وتغرُبُ، كُلَّمَا حَلَلْتُ(٤) أَحْرَمْتُ.**

تُوُفِّيَ سَنَةَ تِسْعِينَ وَمائتَينِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يُؤْذِنُ بأَنَّ كونَهُ مُحْرِمًا علىٰ الدَّوامِ، فيهِ زيادةُ فضيلةٍ عندَ أربابِ هذِهِ المَذَاهِبِ، والأفضلُ عندَنَا(٥) أنْ يحرمَ بالحَجِّ مِنَ الميقاتِ لا قبلَهُ، وفي أشهُرِ الحجِّ، حتَّىٰ يجمعَ بينَ ميقاتِ الزَّمانِ والمكانِ، وعلىٰ مَا ذكرَ أوَّلًا، فإذَا تحلَّلَ من حجِّهِ وَطَوافِهِ وسعْيِهِ جدَّدَ إحرامَهُ بمكَّةَ ومضَىٰ إلىٰ بلادِهِ هذَا السَّفرَ الطَّويلَ منَ الفَرَاسِخِ، وأقامَ مُحْرِمًا إلىٰ أنْ يرجعَ إلىٰ زمانِ الحجِّ علىٰ إِحْرَامِهِ، فيقفَ ويفعلَ المَنَاسِكَ كلَّهَا ويتحلَّلَ، ثمَّ يُحْرِمَ مرَّةً أُخْرَىٰ.

فكانَ مَقْصُودُهُ دَوَامَ شعثِهِ، وقلَّةَ تنعُّمِهِ بلباسِهِ، وتَنْظُّفِهِ من أَوْضَارِ بَدَنِهِ وقَمْلِهِ وإِزَالَةِ شعْرِهِ، وما يمتنعُ منهُ المُحْرِمُ [١/٨٥ب].

❁ ❁ ❁

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٠٢.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١١٥.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٦٢٧.

(٤) في (ف): أحللت.

(٥) أي: عند الفقهاء. وانظر: حلية العلماء ٣/٢٢١، والمجموع ٧/١٤٨.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]:

«وَمِنْهُمْ:

[٥٣] أَبُو بَكْرٍ دُلَفُ بْنُ جَحْدرٍ الشِّبْلِيُّ[2]

بَغْدَادِيُّ المولدِ والمَنْشَأ، وأصلُهُ مِنْ (أَسْرُوشَنَة)[3].

صَحِبَ الجُنَيدَ وَمَنْ فِي عَصْرِهِ، وَكَانَ نسيجَ وحْدِهِ حالًا وظُرْفًا[4] وَعِلْمًا.

مَالِكِيُّ المَذْهَبِ. عَاشَ سَبْعًا وَثَمَانِينَ سَنَةً، وَمَاتَ سنةَ أَرْبعٍ وثَلَاثِين وثلاثمائةٍ، وقبرُهُ ببغدَادَ[5].

وَلَمَّا تَابَ الشِّبْلِيُّ فِي مَجْلِسِ خَيرٍ النَّسَّاجِ، أَتَىٰ (دُمَاوَنْد)[6] وَقَالَ: كنتُ وَالِيَ بَلدِكُمْ، فاجعلُونِي فِي حِلٍّ. وكانَتْ[7] مجاهداتُهُ فِي بدايتِهِ فَوْقَ الحَدِّ»[8].

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا مِنْ كمَالِ الصِّدقِ، وعدَمِ الالتفاتِ لحظِّ النَّفسِ، والتَّذلُّلِ في استحلالِ الخصومِ؛ لأنَّ الغالبَ علىٰ الولاةِ عدَمُ جريَانِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١١٦.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٥٧، وتاريخ بغداد ١٤/٣٨٩، ومناقب الأبرار ٢/٦٣٥، والأنساب ٣/٣٩٦، وصفة الصفوة ٢/٤٥٦، ووفيات الأعيان ٢/٢٧٣، والمستطرف ١/٣١٤، والبداية والنهاية ١١/٢١٥، وتاريخ الإسلام ٢٥/١١٦، وسير أعلام النبلاء ١٥/٣٦٧، ومرآة الجنان ٢/٣١٧، والوافي بالوفيات ١٤/١٨، وطبقات الأولياء ص٢٠٤، وشذرات الذهب ٢/٣٣٨، والنجوم الزاهرة ٣/٢٨٩، والطبقات الكبرىٰ ١/١٨٨، والكواكب الدرية ٢/٨٣.

(٣) وهي بلدة كبيرة وراء سمرقند. انظر: معجم البلدان ١/١٧٧، واللباب في تهذيب الأنساب ١/٥٤.

(٤) من الظرافة، وهي الكياسة.

(٥) في طبقات الصوفية ص٢٥٧: «دفن في مقبرة الخيزران، وقبره اليوم ظاهر».

(٦) بلدة بين الرّيّ وطبرستان، ويقال لها أيضا: دنباوند ودباوند. انظر: معجم البلدان ٢/٤٣٦، ٤٦٢، والأنساب ٢/٤٩٦.

(٧) سقط هذا اللفظ من (ب، ف).

(٨) انظر: مناقب الأبرار ٢/٦٣٦، ووفيات الأعيان ٢/٢٧٣.

أحوالِهِمْ على مقتضى العِلْمِ، فلمَّا تابَ الشِّبْلِيُّ نظرَ في أحوالِهِ وما يجبُ عليهِ أنْ يتنصَّلَ منهُ في دنياهُ من حقوقِ الخلْقِ والخالقِ، فيتنصَّلُ بالتَّوبةِ من حقوقِ الخالقِ، وبقِيَ عليهِ حقوقُ المخلوقِينَ، فعلِمَ أنَّهُ لا يخلو فِي زَمَنِ وِلَايَتِهِ مِنْ ظُلْمِ رعيَّتِهِ، فأتَى إلى البلدَةِ الَّتِي كانَ واليًا عليهَا وجمعَ النَّاسَ، وقالَ: «**كنتُ واليًا عليكُمْ فاجعلوني فِي حِلٍّ**»[1].

هذا عظيمٌ فِي التَّذَلُّلِ لِمَنْ كَانَ حَاكِمًا عَلَيهِ آمرًا فيهِ، ولكنَّهُ فعلَ ذلكَ طاعةً للهِ - تعالى - وطَمَعًا في الخَلاصِ بينَ يدَيهِ مِنْ مُطَالَبَةِ خَلْقِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**سَمِعْتُ الأُسْتاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ**[3]: **بَلَغَنِي أَنَّهُ اكْتَحَلَ بِكَذَا وَكَذَا مِنَ المِلْحِ لِيَعْتَادَ السَّهَرَ، وَلَا يَأْخُذَهُ النَّوْمُ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا فيهِ نظرٌ، وهوَ أنَّ اعتيادَهُ للسَّهرِ قدْ يمكنُ أنْ ينالَهُ بقلَّةِ الغِذَاءِ وقلَّةِ شُرْبِ المَاءِ، ولا يحتاجُ أنْ يتعاطَى المِلْحَ في عينَيهِ حتَّى يُؤلِمَهُ فيشتغلَ بألمِهِ ويتعذَّرَ عليهِ النَّومُ.

وإنَّمَا يدلُّ هذا منهُ على كَمَالِ حِرْصِهِ في الخيرِ خاصَّةً، ويعرضُ عنِ السَّببِ الَّذِي حصَّلَهُ بهِ؛ لاحتمَالِ مَرَضِ عَيْنَيهِ[4].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5]: «**وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ تَعْظِيمِهِ للشَّرْعِ إلَّا مَا حكَاهُ بكرَانُ الدَّينورِيُّ**[6] **فِي آخرِ عمرِهِ لكَانَ كَثِيرًا**[7].

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٠٣.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١١٦.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٦٦/٥٣، وتاريخ الإسلام ٢٥/١١٩، والوافي بالوفيات ١٤/١٩.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٠٣.

(٥) الرسالة القشيرية ١/١١٦ ـ ١١٧.

(٦) خادم الشبلي.

(٧) حكاه عنه القشيري بقوله: «سألت جَعْفَر بْن نصير بكران الدينوري ـ وَكَانَ يخدم الشبلي ـ مَا الَّذِي=

سَمِعْتُ الشَّيخَ أبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الْعَبَّاسِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: كَانَ الشِّبْلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ فِي آخِرِ أَيَّامِهِ(١):

وَكَـمْ مِـنْ مَوْضِـعٍ لَـوْ مِـتُّ فِيـهِ ❁ لَكُنْـتُ بِـهِ نَكَـالًا فِـي العَشِـيرَهْ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ بأنَّهُ لمْ يُرِدْ بالموضعِ موضعَ سَكنِهِ [١/١٨٦أ] بجسمِهِ، وإنَّمَا يريدُ الأحوالَ الَّتِي نقلَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عنْهَا بعدَ أنْ لابسَهَا منَ المَقَامَاتِ المَذْمُومَةِ في الشَّريعةِ والأحوالِ النَّاقصةِ عندَ اللهِ، وفي كلامِهِ هذَا شكرٌ للهِ ـ تعالىٰ ـ علىٰ نقْلِهِ منَ المواطِنِ الَّتِي لا يرضَاهَا إلىٰ ما هوَ حسنٌ عندَهُ(٢)، ولذلكَ قالَ:

وَكَـمْ مِـنْ مَوْضِـعٍ لَـوْ مِـتُّ فِيـهِ ❁ ... ...

يعني: حالةً رديئةً، لكنتُ بهِ نكالًا في العَشِيرَةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وَكَانَ الشِّبْلِيُّ إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ جَدَّ فِي الطَّاعَاتِ(٤)، وَيَقُولُ(٥): هَذَا شَهْرٌ عَظَّمَهُ رَبِّي، فَأَنَا أَوْلَىٰ مَنْ ....

= رأيتَ منه؟ فَقَالَ: قَالَ لي عَلَيَّ درهم مظلمة، وَقَدْ تصدقتُ عَن صاحبه بألوف، فَمَا عَلَىٰ قلبي شغل أَعْظَم منه، ثُمَّ قَالَ: وضِّئني للصلاة، ففعلت، فنسيت تخليل لحيته وَقَدْ أمسك عَلَىٰ لسانه فقبض عَلَىٰ يدي وأدخلها فِي لحيته، ثُمَّ مَات، فبكىٰ جَعْفَر وَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي رجل لَمْ يَفُتْهُ حَتَّىٰ فِي آخر عمره أدبٌ من آداب الشَّريعة» الرسالة القشيرية ٢/٤٧٣.

وورد أيضا في: اللمع للطوسي ص٢٨١، وتاريخ بغداد ١٤/٣٩٦، وتاريخ دمشق ٦٦/٧٧، وإحياء علوم الدين ٤/٤٨٣، وصفة الصفوة ٢/٤٥٩، وطبقات الأولياء ص٢١٢.

(١) من الوافر، وورد من إنشاده في: مناقب الأبرار ٢/٦٤٤، ووفيات الأعيان ٢/٢٧٣، والأنساب ٣/٣٩٧، ونسب إلىٰ أحمد بن موسىٰ الثقفي في: الشكر لابن أبي الدنيا ص٤٣.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٠٤.

(٣) الرسالة القشيرية ١/١١٧.

(٤) أي: بذل الوسع فيها.

(٥) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٦٦/٥٣، والأنساب ٣/٣٩٧، والوافي بالوفيات ١٤/١٩، والمستطرف ١/٣١٤.

يُعَظِّمُهُ[١]، سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ يَحْكِي ذَلِكَ[٢]».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا أمرٌ يشتركُ فيهِ سائرُ المسلمِينَ، فإنَّ فضيلةَ شهرِ رمضانَ معلومةٌ عندَ كلِّ مسلمٍ بالنَّظرِ؛ لصيامِهِ وقيامِهِ وليلةِ القدرِ الَّتي هيَ فيهِ.

وإنَّمَا يُحملُ كلامُهُ علىٰ أنَّهُ[٣] كان يظهرُ منهُ منَ الاجتهادِ وكمالِ الاشتغالِ بالخيرِ والتَّحفُّظِ مَا لا يفعلُهُ غيرُهُ منَ النَّاسِ، وصرَّحَ بذلكَ لِيَقتَدِي بهِ أصحابُهُ وطَلَبَتُهُ.

❊ ❊ ❊

---

(١) أي: ممن يعاصرني.

(٢) أي: عنه.

(٣) في (ب): الله، والصواب المثبت.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُم:

[٥٤] أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُرْتَعِشُ[٢]

نَيْسَابُورِيٌّ، مِنْ محلَّةِ (الحِيرَةِ)، وقيلَ: مِنْ (مُلْقاباذَ)[٣].

صَحِبَ أَبَا حفصٍ وأبا عُثْمانَ[٤]، ولقِيَ الجُنَيْدَ، وَكَانَ كبيرَ الشَّأنِ، وَكَانَ يقيمُ فِي مَسْجِدِ (الشُّونيزِيَّةِ)[٥].

مَاتَ ببغدادَ سنةَ ثمانٍ وعشرينَ وثلاثمائةٍ.

قَالَ الْمُرْتَعِشُ[٦]: الإِرَادَةُ: حَبْسُ النَّفْسِ عَنْ مُرَادَاتِهَا وَالإِقْبَالُ عَلَى أَوَامِرِ اللهِ ـ تعالى ـ، والرِّضَا بِمَوَارِدِ الْقَضَاءِ عَلَيْهِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ ما يُؤْمَرُ العبدُ بالصَّبرِ عليهِ أو عنهُ ثلاثةُ أشياءَ:

صَبرٌ عنِ المنهيَّاتِ؛ وهوَ حبسُ النَّفسِ عن هَوَاهَا.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١١٨.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٦٥، ومناقب الأبرار ٢/٦٦٩، وصفة الصفوة ٢/٤٦٢، وتاريخ الإسلام ٢٤/٢٥٢، وسير أعلام النبلاء ١٥/٢٣٠، والعبر ٢/٢٢١، ومرآة الجنان ٢/٢٩٥، وطبقات الأولياء ص١٤١، وشذرات الذهب ٢/٣١٧، والنجوم الزاهرة ٣/٢٦٩، والطبقات الكبرى ١/١٩٢، والكواكب الدرية ٢/١٠٩.

(٣) في (ف): بلقاباذ، والصواب المثبت.

(٤) أي: الحيري.

(٥) في معجم البلدان ٣/٣٧٤: «الشُّونيزية ـ بالضم ثم السكون، ثم نون مكسورة وياء مثناة من تحت ساكنة وزاي، وآخره ياء النسبة ـ: مقبرة ببغداد بالجانب الغربي، دفن فيها جماعة كثيرة من الصالحين».

(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٦٧، ومناقب الأبرار ٢/٦٧٣.

وصبرٌ على المأموراتِ؛ وهوَ الإقبالُ على أوامرِ اللهِ ـ تعالى ـ، وهوَ يشملُ الواجباتِ والمَنْدُوبَاتِ، وإنْ تَعَالَتْ فِي الدَّرجاتِ.

وصَبْرٌ على ما ينزلُ بهِ منَ اللهِ ـ سبحانه ـ ممَّا يخالفُ هوَاهُ؛ وهوَ المعبَّرُ عنهُ بالرِّضَا بمواردِ القضاءِ، سواءٌ كانَ الواردُ حلوًا أو مُرًّا ممَّا قضى.

فشملَ[1] كلامُهُ هذَا الصَّبرَ على ترْكِ المنهيَّاتِ، وهوَ يشملُ المحرَّماتِ والمكروهاتِ، والصَّبرَ على فِعْلِ المأموراتِ، وهوَ يشملُ الواجباتِ والمندوباتِ، وإنْ تعالَتْ فِي الدَّرجاتِ، والصَّبرَ علَى ما ينزلُ بالعبدِ مِنْ قَضَاءِ اللهِ ـ تعالى ـ خالفَ هوَاهُ أوْ وافقَ، وهذا هو جميعُ الصَّبرِ المحمودِ [١/٨٦ب][2].

[ويُسَمَّى الصَّبرُ حَبْسًا، قالَ اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨]، قالَ أَهْلُ التَّفسيرِ[3]: اِحْبِسْ نَفْسَكَ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[4]: **«وَقِيلَ لَهُ[5]: إِنَّ فُلَانًا يَمْشِي عَلَى المَاءِ!، فَقَالَ: عِنْدِي أَنَّ مَنْ مَكَّنَهُ اللهُ ـ تعالى ـ مِنْ مُخَالَفَةِ هَوَاهُ، فَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ المَشْيِ فِي الهَوَاءِ[6]»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ المشيَ على الماءِ والهواءِ من

---

(١) في (ب): فيشمل.
(٢) سقط من هنا قدر صفحة من النسخة (أ).
(٣) انظر: غريب القرآن للسجستاني ص١٠٧، وتنوير المقباس ص٢٤٦، والتبيان في تفسير غريب القرآن ص٢٧٣.
(٤) الرسالة القشيرية ١/١١٨.
(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٦٧، وفيه: «من المشي على الماء وفي الهواء»، ومناقب الأبرار ٢/٦٧٣، وصفة الصفوة ٢/٤٦٣، وسير أعلام النبلاء ١٥/٢٣١، والنجوم الزاهرة ٣/٢٦٩.
(٦) لأن ذلك لا يتم إلا بعد فناء النفس عن كامل حظوظها، فحينئذ يتحقق لها الاستقامة.

خوارِقِ العاداتِ، وخوارِقُ العاداتِ لا تُعَدُّ كرامةً إلَّا إذا قارَنَتْهَا الاستقامةُ، ومَنْ مَكَّنَهُ اللهُ من نفسِهِ، وقهرَ لهُ هوَاهُ حتَّىٰ لم يخلَّ بشيءٍ مِنْ تقوَاهُ فيمَا أمرَهُ اللهُ بهِ أو نهاهُ عنهُ، فهذا هوَ المستقيمُ.

فإنْ كانَتِ الاستقامةُ هيَ الدَّليلَ علىٰ صحَّةِ الولايةِ وخوارقِ العاداتِ الَّتِي يكرمُ اللهُ بهَا أولياءَهُ لا تكونُ إلَّا معَ الاستقامةِ، فعلىٰ هذا فالاستقامةُ هيَ الأصلُ، والدَّليلُ علَىٰ صحَّةِ الكراماتِ، فلمَّا قيلَ له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنَّ فلانًا يَمْشِي عَلَى المَاءِ**»، فقالَ: لوَ مشي في الهَوَاءِ مَنْ وهبَهُ اللهُ الاستقامةَ فقدْ وَهَبَ لهُ مَا هوَ أفضلُ منَ المَشْيِ فِي الهَوَاءِ، وقدْ قيلَ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنَّ عِيسىٰ ابنَ مَرْيَمَ مشَىٰ علىٰ الماءِ[(١)]، فقالَ: «**لَوْ ازْدَادَ يَقِينًا لَمَشَىٰ فِي الهَوَاءِ**»[(٢)]، فجعلَ الشَّيخُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الاستقامةَ أفضلَ مِنْ أعلَىٰ الكَرَامَاتِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في اليقين ص٣٥ بلفظ: «عنْ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ المُزَنِيِّ قَالَ: فَقَدَ الحَوَارِيُّونَ نَبِيَّهُمْ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقِيلَ لَهُمْ: تَوَجَّهَ نَحْوَ الْبَحْرِ، فَانْطَلَقُوا يَطْلُبُونَهُ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَىٰ البَحْرِ إِذَا هُوَ قَدْ أَقْبَلَ يَمْشِي عَلَىٰ المَاءِ، يَرْفَعُهُ المَوْجُ مَرَّةً وَيَضَعُهُ أُخْرَىٰ، وَعَلَيْهِ كِسَاءٌ مُرْتَدٍ بِنِصْفِهِ وَمُتَّزِرٌ بِنِصْفِهِ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَيهِم فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُم ـ قَالَ أَبُو هِلَالٍ أَظُنُّهُ مِنْ أَفَاضِلِهِمْ ـ: أَلَا أَجِيءُ إِلَيْكَ يَا نَبِيَّ اللهِ؟، قَالَ: بَلَىٰ فَوَضَعَ إِحْدَىٰ رِجْلَيْهِ فِي المَاءِ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَضَعَ الأُخْرَىٰ، فَقَالَ: غَرِقْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ، قَالَ: «أَرِنِي يَدَكَ يَا قَصِيرَ الإِيمَانِ، لو أَنَّ لِابْنِ آدَمَ مِنَ اليَقِينِ قَدْرَ شَعِيرَةٍ مَشَىٰ عَلَىٰ المَاءِ».

(٢) أخرجه الترمذي في: نوادر الأصول ١٧٠/٣، وأورده العراقي في المغني عن حمل الأسفار ١٠٢٢/٢، وأردفه بقوله: «هذا حديث منكر لا يعرف هكذا».

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُمْ:

[٥٥] أَبُو عَلِيٍّ أَحْمَـدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الرُّوذْبَارِيُّ[(٢)]

بَغْدَادِيٌّ، أَقَامَ بِمِصْرَ، وَمَاتَ بِهَا سنَةَ اثنتَينِ وعِشْرِين وَثَلَاثِمائَةٍ.

صَحِبَ الجُنَيْدَ، وَالنُّورِيَّ، وابْنَ الجَلَّا، والطَّبَقَةَ.

أَظْرَفُ المَشَايِخِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالطَّرِيقَةِ[(٣)].

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبدِ الرَّحمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ[(٤)]: سَمِعْتُ أَبَا القَاسِمِ الدِّمَشْقِيَّ يَقُولُ: سُئِلَ أَبُو عَلِيٍّ الرُّوذْبارِيُّ عمَّنْ يَسْمَعُ المَلَاهِي وَيَقُولُ: هِيَ لِي حَلَالٌ؛ لأَنِّي قَدْ وَصَلْتُ إِلَىٰ دَرجَةٍ لَا يُؤَثِّرُ فِيَّ اخْتِلَافُ الأَحْوَالِ، فَقَالَ: نَعَمْ، قَدْ وَصَلَ، وَلَكِنْ إِلَىٰ سَقَرَ!!».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا القولُ تصريحٌ باستحلالِ المُحرَّماتِ منَ الزَّمْرِ والأوتَارِ وغيرِ ذلكَ منَ الملَاهِي، ويقولُ: إنَّمَا حرَّمَهَا الشَّرعُ علىٰ مَنْ تحملُهُ علىٰ تعاطِي المنكرَاتِ، وشُربِ الخُمُورِ والتَّلذُّذِ بالمشتهياتِ منَ المَنْكُوحاتِ، فإذا

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١١٩.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٦٩، وحلية الأولياء ١٠/٣٥٦، ومناقب الأبرار ٢/٦٧٦، ومرشد الزوار ١/٣٧٤، وصفة الصفوة ٢/٤٥٤، والبداية والنهاية ١١/١٨٠، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٣/٤٨، وسير أعلام النبلاء ١٤/٥٣٥، وطبقات الأولياء ص٥٠، وحسن المحاضرة ١/٤٠٠، والطبقات الكبرىٰ ١/١٩٢، والكواكب الدرية ٢/٨٣.

والروذباري نسبة إلىٰ (رُوذبار)، قرية من قُرَىٰ بغداد. انظر: معجم البلدان ٣/٧٧.

(٣) أي: طريقتهم في التصوف.

(٤) طبقات الصوفية ص٢٧١، وورد أيضا في: حلية الأولياء ١٠/٣٥٦، ومناقب الأبرار ٢/٦٧٧، والاعتصام ١/٩٧، وسير أعلام النبلاء ١٤/٥٣٦.

سَلِمَ العبدُ من ذلكَ لا يَضُرُّهُ تعاطِيهَا.

وهذا جَهْلٌ؛ لأنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ قَدْ حرَّمَ هذهِ الأشياءَ منَ المُلْهِيَاتِ عليهِ والمُشْغِلَاتِ عن طاعتِهِ، فإذا أدَّتْ إلىٰ شيءٍ آخرَ منَ الفُجورِ كانَتْ معاصِي ثانيةً زائدةً عليهَا، وإنْ سلِمَ العلمُ منْ أدائِهَا][1] [١٨٧/١] إلىٰ شيءٍ آخرَ كانَتْ فِي نَفْسِهَا محرَّماتٍ، فإنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ ذمَّ اللَّهوَ واللَّعِبَ، فقالَ: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠].. الآية، وقالَ في آخرِ الآيةِ وشبَّهَهُ بالزَّرعِ كيفَ يصيرُ مُصْفَرًّا، ثمَّ يصيرُ حُطامًا، وَفِي الآخرةِ عذابٌ شَدِيدٌ، ولذلكَ لمَّا قيلَ لهُ: إنَّ أربابَ هذهِ المذاهبِ وصلُوا إلىٰ أحوالٍ لا يضرُّهُمْ سَمَاعُ هذهِ المنكرَاتِ، أيْ: لا يحملُهُمْ علىٰ غيرِهَا، قالَ: «وَصَلُوا، ولكِنْ إلىٰ سَقَرَ!»، وسَقَرُ هِيَ[2] جهنَّمُ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[3]: «**وَسُئِلَ عَنِ التَّصوُّفِ، فَقَالَ[4]: هَذَا مَذْهَبٌ كُلُّهُ جِدٌّ، فَلَا تخلطُوهُ بشيءٍ منَ الهَزلِ**».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: يعنِي أنَّ أربابَهُ والمتخلِّقينَ بهِ أفرغُوا جهدَهُمْ وغايةَ إمكانِهِمْ في طلَبِ الأفضلِ عندَ ربِّهِمْ، فلمْ يَخْلِطُوهُ بشيءٍ منَ الهَزلِ؛ يعنِي: اللَّعبَ والبَطَالَةَ، كأنَّهُ أبصرَ قَوْمًا يَزْعمُونَ أنَّهُمْ من أهلِ هذَا الشَّأنِ، وعندَهُمْ طَرَفٌ منَ اللَّهوِ واللَّعِبِ، كمَا يشتغلُ بهِ مَنْ يقولُ بالسَّماعِ معَ الزَّمرِ والغناءِ معَ المغنِّيينَ الَّذينَ يُلازمُونَ شَربةَ الخُمُورِ، ويجعلونَ الغناءَ شُغلَهُمْ ويحضرونَ لهُ فِي كُلِّ محلٍّ، ولا يصلُّونَ، ويزعمُونَ أنَّهُمْ في صلاةٍ معَ مُخَالطَةِ أهلِ المُنْكَراتِ، فيكونُ كلامُهُ توبيخًا

(١) ما بين المعقوفين زيادة من (ب، ج).
(٢) في (ب): في.
(٣) الرسالة القشيرية ١/١١٩.
(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٧١، ومناقب الأبرار ٢/٦٧٨، والتعريفات ص٨٣.

لهُمْ ، ونَهْيًا لهُم عن أحوالِهِم .

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ(٢): سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِي يَقُولُ: مِنْ عَلَامَةِ الاغْتِرَارِ: أَنْ تُسِيءَ فَيُحْسَنَ إليكَ ، فتتركَ الإنابةَ والتَّوبةَ توهُّمًا أنَّكَ تُسَامحُ فِي الهَفَوَاتِ ، وترَىٰ أَن ذَلِكَ من بسْطِ الحقِّ لَكَ .

وَقَالَ(٣): كَانَ أستاذِي فِي التَّصوُّفِ: الجُنيدُ ، وَفِي الفقهِ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ سُرَيْجٍ(٤) ، وَفِي الأدبِ ثعلبُ(٥) ، وَفِي الحَدِيث إِبْرَاهِيمُ الحَرْبِيُّ(٦)» .

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «مِنْ علامةِ الاغترارِ: أنْ تُسِيءَ فيُحسنَ إليكَ» ، وهذا صحيحٌ ، فإنَّ العبدَ يستحقُّ علىٰ إساءتِهِ العَذَابَ ، فإذَا لمْ يؤاخذْهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١١٩ .

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص ٢٧٣ ، وحلية الأولياء ١٠/٣٥٧ ، ومناقب الأبرار ٢/٦٧٩ ، وصفة الصفوة ٢/٤٥٤ ، وذم الهوىٰ ص٢١٧ .

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٧٣ ، ومناقب الأبرار ٢/٦٧٧ .
وقال الشيخ زكريا: «قاله تحدثا بالنعمة ، ودلالة علىٰ الخير ، فإن من أخذ عن هؤلاء الأئمة يُرغب في الاقتداء به» إحكام الدلالة ١/٢٠٧ .

(٤) في (ب): شريح ، وهو تصحيف .
وابن سريج هو: وأبو العباس أحمد بن عمر بن سريج القاضي الفقيه الشافعي ، سمع الزعفراني والرمادي وغيرهما ، توفي سنة ست وثلاثمائة .
انظر في ترجمته: الإكمال ٤/٢٧٦ ، وتذكرة الحفاظ ٣/٨١١ ، وشذرات الذهب ٢/٢٤٧ .

(٥) في (ب): ثعلبة ، وهو تحريف ، والقصد بثعلب ، العلامة أبو العباس أحمد بن يحيىٰ ثعلب الكوفي ، انظر دراستي حوله في: معاني القرآن وإعرابه لثعلب .

(٦) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشير البغدادي الحربي ، من جلة المحدثين العارفين بالحديث ، وكان عالمًا ورعًا عارفًا باللغة ، وكان من الحفاظ ، وله كتاب غريب الحديث ، توفي سنة خمس وثمانين ومائتين .
انظر في ترجمته: الفهرست ص٣٢٣ ، وصفة الصفوة ٢/٤٠٤ ، وسير أعلام النبلاء ١٣/٣٥٦ .

الحقُّ على الفورِ اغترَّ بذلكَ، وظنَّ أنَّهُ ممَّنْ يُعْفَى عنهُ، فكيفَ إذا أُحسنَ إليهِ، والإحسانُ بعدَ المعصيةِ أشدُّ في حُصُولِ الاغترارِ والغُرَّةِ باللهِ، فإذا تنبَّهَ العبدُ وعلِمَ أنَّهُ إنَّما يُعَاجَلُ بالعقوبةِ مَنْ يَخَافُ الفَواتَ، وعلِمَ قولَهُ ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وسَمِعَ قولَهُ ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٥]، وقولَهُ ـ تعالى ـ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣][1].

فإذا وقعَ [١/٨٧ب] العَبْدُ في مَعْصِيةٍ وأرادَ خُذْلانَهُ لم يُعَاجلْهُ بالعُقُوبةِ[2]، وأسبغَ عليهِ نِعَمَ الدُّنيَا؛ ليغفلَ عَنِ التَّوبةِ، فيدُومُ إصرارُهُ، فيزدادُ إِثْمًا، وإذا أرادَ بهِ خَيْرًا وَفَّقَهُ للتَّوبةِ على الفَوْرِ، ولا يَضُرُّهُ وُقُوعُهُ بعدَ ذلكَ في إِثْمٍ إذا تكَرَّرَتْ منهُ التَّوبةُ مَعَ كلِّ ذَنْبٍ، ولذلكَ قالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[3]: «**خِيَارُ أُمَّتِي كُلُّ مُفَتَّنٍ**[4] **تَوَّابٍ**»؛ أي: إذَا افتتنَ تَابَ ولم يؤخِّرْ، و«التَّوَّابُ»: الرَّجَّاعُ إلى طاعةِ اللهِ ـ تعالى ـ.

* * *

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٠٧.

(٢) وإذا أراد الله به خيرًا عجَّل له العقوبة، ففي سننه الترمذي ٤/٦٠١: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إذا أَرَادَ الله بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ له العُقُوبَةَ في الدُّنْيَا...».

(٣) أخرجه البزار في مسنده ٢/٢٨٠، والترمذي في نوادر الأصول ٢/٢٠٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/٤١٨، والقضاعي في الشهاب ٢/٢٣٩، والديلمي في الفردوس ٢/١٧٣.

(٤) في فيض القدير ٣/٤٦٨: «أي: ممتحنًا يمتحنه الله ـ تعالى ـ بالذنب ثم يتوب، ثم يعود ثم يتوب».

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُمْ:

[٥٦] أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَنَازِلَ[(٢)]

شيخُ (المَلامَتِيَّةِ)[(٣)]، وواحدُ وقتِهِ، صَحِبَ حَمْدُونَ القَصَّارَ، وَكَانَ عالمًا، كَتَبَ الْحَدِيثَ الكثيرَ.

مَاتَ بِـ(نيسابُورَ) سنةَ تسعٍ وعشرينَ ـ أَوْ ثلاثينَ ـ وثلاثمائةٍ.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ المُعَلِّمَ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ منازِلَ يَقُولُ[(٤)]: لَمْ يُضَيِّعْ أَحَدٌ فَرِيضَةً مِنَ الفَرَائِضِ إِلَّا ابْتَلَاهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بِتَضْيِيعِ السُّنَنِ، وَلَمْ يُبْتَلَ أَحَدٌ بِتَضْيِيعِ السُّنَنِ إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يُبْتَلَىٰ بِالبِدَعِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «لَمْ يُضَيِّعْ أَحَدٌ فَرِيضَةً إِلَّا امْتُحِنَ بِتَضْيِيعِ السُّنَنِ»، وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ الطَّلَبَ لها مُؤكَّدٌ، والزَّجرَ عن تضييعِهَا شديدٌ مُتوعَّدٌ عليهِ بالنَّارِ، فإذا ضيَّعَ العَبْدُ مَا هذا سبيلُهُ، فهوَ لمَا عَدَاهُ منَ النَّوافلِ أضيَعُ، ولذلكَ كتبَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ عمَّالِهِ[(٥)]: «إِنَّ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ[(٦)] عِنْدِي الصَّلَاةُ، فَمَنْ حَفِظَهَا وَحَافَظَ عَلَيهَا حَفظَ دينَهُ، ومَنْ ضَيَّعَهَا فهوَ لمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ»؛ وذلكَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٢٠.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٧٧، ومناقب الأبرار ٢/٦٩٢، والعبر ٢/٢٣٢، وطبقات الأولياء ص٣٤٥، وشذرات الذهب ٢/٣٣٠، والطبقات الكبرىٰ ١/١٩٤، والكواكب الدرية ٢/١٥٦.

(٣) الذين يخربون الظاهر ويعمرون الباطن، كما سبق.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٧٩، ومناقب الأبرار ٢/٦٩٣، وشذرات الذهب ٢/٣٣٠.

(٥) ورد في: الموطأ ١/٦، والمدونة الكبرىٰ ١/٥٦، والسنن الكبرىٰ للبيهقي ١/٤٤٥.
قال القاضي عياض: «معناه: أنه بتضييعه للصلاة ضيَّع غيرها» مشارق الأنوار ٢/٦٢.

(٦) في (ب): «أموركم الصلاة».

أنَّ قواعدَ الدِّينِ وواجباتِهِ: الصَّومُ والصَّلاةُ والحجُّ والزَّكاةُ والجهادُ، ففِي الصَّومِ مشقَّةُ تركِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وَفِي الزَّكاةِ إخراجُ المالِ المَحْبوبِ، وفي الحجِّ إتعابُ البدَنِ وإنفاقُ المالِ ومفارقةُ الأهلِ والوطنِ، وفي الجهادِ التَّغريرُ بالنَّفسِ فضْلًا عمَّا عدَاهَا، وليسَ في الصَّلاةِ منَ الكُلفِ ما ذكرنَاهُ، فإنَّهُ يتوضَّأُ ويدخلُ فيهَا ويصلِّيهَا[1] وهوَ في مكانِهِ بينَ أهلِهِ مستقرٌّ، ولا غرامَةَ عليهِ فيهَا فِي مَالٍ، ولا كبيرَ مشقَّةٍ فِي بدَنٍ، وتأكيدُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لهَا وطلبُهُ لهَا آكدُ، فإنَّهَا تلُو الإيمانَ، فمَنْ فرَّطَ فيمَا[2] خفَّ فِعْلُهُ، وتأكَّدَ طلبُهُ فهوَ فيمَا كثُرَتْ كُلفُهُ وعظُمَتْ مشقَّتُهُ أَوْلَىٰ وأَوْلَىٰ، فمَنْ ضيَّعَ الخفيفَ فهوَ للشَّديدِ أَضْيَعُ، ومَنْ أهملَ الأكيدَ فهوَ للخَفيفِ أَضْيَعُ.

وقولُهُ: «وَمَنِ ابْتُلِيَ بِتَضْيِيعِ السُّنَنِ وَقَعَ فِي البِدَعِ»؛ لأنَّ البِدْعَةَ ضِدُّ السُّنَّةِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «**سَمِعْتُ الشَّيخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ**[4]: **سَمِعْتُ أَبَا أَحْمَدَ بْنَ عِيسَىٰ** [١/٨٨أ] **يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَنَازِلَ يَقُولُ: أَفْضَلُ أَوْقَاتِكَ: وَقْتٌ تَسْلَمُ فِيهِ مِنْ هَوَاجِسِ نَفْسِكَ، وَوَقْتٌ يَسْلَمُ النَّاسُ فِيهِ مِنْ سُوءِ ظَنِّكَ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ العبدَ لا يَسْلَمُ من هَوَاجِسِ نَفْسِهِ وخَواطِرِ سُوءِ الظَّنِّ بغيرِهِ إذا كانَ مشغولًا بِصَلاحِ نفسِهِ مَهْمُومًا بأمْرِهِ، فلمْ يبْقَ فيهِ فَرَاغٌ لقبُولِ خَواطرِ سُوءِ الظَّنِّ بغيرِهِ، ولا لِمُوافقَةِ هَواجِسِ النَّفسِ؛ وهوَ دعاؤُهَا إلىٰ الرَّاحاتِ والشَّهواتِ، فإنَّ ذلكَ مضادٌّ لمَا هوَ فيهِ منَ الجدِّ والتَّشميرِ لنيلِ أعالِي الدَّرجاتِ والمقاماتِ.

---

(١) في (ج): فيصليها.

(٢) في (أ): فيها.

(٣) الرسالة القشيرية ١/١٢٠.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٦٩٥.

وهذِهِ الأوقاتُ الَّتِي يكونُ مَشْغُولًا فيها بنفسِهِ ونَيْلِ أفضَلِ الطَّاعاتِ هيَ أفضلُ الأوقاتِ، والوقتُ عندَ القومِ قد يُطْلَقُ علىٰ الزَّمانِ، وقد يُطلَقُ علىٰ حالةٍ فِي الوقتِ[١]، وإنَّمَا يُوصَفُ بالفَضِيلَةِ عمَلُهُ وكسْبُهُ الَّذِي هوَ فيهِ لَا ظرفُهُ منَ الزَّمانِ؛ وهوَ تعاقبُ الحَوَادثِ الَّتِي لَا تتعلَّقُ بها التَّكاليفُ، وإنَّمَا الفَضْلُ والنَّقْصُ رَاجعٌ إلىٰ أفعَالِ العِبَادِ وَأَحْوالِهِمْ[٢].

---

(١) انظر: معجم مصطلحات الصوفية ص٢٦٨.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٠٨.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُمْ:

[٥٧] أَبُو عَلِيٍّ مُحَمَّدُ بْنُ عَبدِ الوَهَّابِ الثَّقَفِيُّ[٢]

إمامُ الوقْتِ، صَحِبَ[٣] أبَا حفْصٍ وحمدُونَ القصَّارَ، وَبِهِ ظهرَ التَّصوُّفُ بِـ(نيسابُور).

مَاتَ سنَةَ ثمانٍ وعشرِينَ وثلاثمائَةٍ.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ[٤]: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ الثَّقَفِيَّ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا جَمَعَ العلومَ كلَّهَا، وَصَحِبَ طَوَائِفَ النَّاسِ.. لا يبلُغُ مبْلَغَ الرِّجَالِ إِلَّا بالرِّياضَةِ مِنْ شيخٍ أَوْ إمامٍ أَوْ مُؤَدِّبٍ نَاصِحٍ، ومَنْ لَمْ يأْخُذْ أدبَهُ مِنْ أُستاذٍ يُرِيهِ عيوبَ أعمالِهِ ورُعونَاتِ[٥] نَفْسِهِ لا يَجُوزُ الاقتداءُ بِهِ فِي تَصْحِيحِ المُعَامَلاتِ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا هو المرادُ بإطلاقِهِمْ[٦]: «مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَيخٌ كَانَ الشَّيطَانُ شَيخَهُ»، وبقولِهِمْ[٧]: «اِقْتَدُوا بِخَمْسَةٍ مِنْ شُيُوخِنَا وَالبَقِيَّة سَلِّمُوا لَهُمْ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٢١.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٧٤، ومناقب الأبرار ٢/٦٨٨، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٣/١٩٢، وطبقات الأولياء ص٢٩٨، والطبقات الكبرىٰ ١/١٩٤، والكواكب الدرية ٢/١٥٣.

(٣) في (ب): صاحب.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٧٦، ومناقب الأبرار ٢/٦٩٠، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٣/١٩٤.

(٥) في (ب): ورعونة.

(٦) هو قول أبي يزيد البسطامي في الرسالة القشيرية ٢/٥٧٤، ولفظها: «من لَمْ يكن لَهُ أستاذ فإمامه الشَّيْطَان».

(٧) هو قول أبي عبد الله بن خفيف، وقد مرَّ تخريجه ص٢٣٣.

أحوالَهُم»، وذكرَ المحاسِبيَّ والجُنيدَ وابنَ عطاءٍ ورُوَيْمًا وعمروَ بنَ عثمانَ المَكِّيَّ؛ لأَنَّهُمْ جمعُوا بينَ العلومِ والأحوالِ.

وذلكَ أنَّ مَنِ اقتدَىٰ بنفسِهِ بمَا يزعمُ أنَّهُ مُوصلُهُ إلىٰ ربِّهِ وينيلُهُ درجةَ قُرْبِهِ بغيرِ دَليلٍ عَالِمٍ بالأحكامِ منَ الحَلالِ والحَرَامِ، المتعلِّقةِ بأفعالِ الجَوَارِحِ والعُزُومِ، فليسَ فِي شَيءٍ؛ لِأَنَّ النَّاسَ رجلانِ: عالمٌ ومتعلِّمٌ حقًّا علىٰ سبيلِ النَّجاةِ، وهَمَجٌ[1] رعاعٌ أتباعُ كلِّ نَاعِقٍ، يميلونَ معَ كلِّ رِيْحٍ [١/٨٨ب]، لم يستضيئُوا بِنُورِ العِلْمِ، ولم يَلْجَأوا إلىٰ رُكْنٍ وَثِيقٍ.

والعالمُ إذا لم يعمَلْ بِعِلْمِهِ لم يعرفْ آفاتِ عَمَلِهِ وكيفيَّةَ الخَلاصِ منهَا منازلةً بنفسِهِ واستعمالًا لعلْمِهِ، ولو علمَ العلومَ كلَّهَا وآفاتِ الأعمالِ نقلًا وفقهًا من غيرِهِ لم يُسَاوِ مَنْ تحسَّسَ لذلكَ في نفسِهِ، وعرَفَ وجوهَ مَداخلِهِ وجِهَاتِ صرفِهِ، فهذا لا يحصلُ إلَّا بكمالِ المُجاهَدَةِ؛ إمَّا بالانقيادِ إلىٰ مَنْ يُسَلِّمُ له أمرَهُ وينظرُ في أَحْوَالِهِ، فإنَّ النَّفسَ كثيرةُ التَّلبُّسِ، عظيمةُ الخِدَاعِ، تُوهِمُ العبدَ أنَّهُ صادقٌ وهوَ كاذبٌ، وأنَّهُ مُوفٍ بعزْمِهِ وهوَ ناكثٌ، وأنَّهُ زاهدٌ وهوَ راغبٌ، وأنَّهُ معتمدٌ علىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ متوكِّلٌ وهوَ ساكنٌ إلىٰ الأسبابِ وجَرَيانِهَا علىٰ وفْقِ هَوَاهُ.

وإنَّمَا يعرفُ ذلكَ مِنْ نفسِهِ بِتَنْبِيهِ غَيْرِهِ، والمُنَبِّهُ إمَّا شَيْخٌ ألقىٰ إليه قيادَهُ، أو فقيهٌ يستفتيهِ في سائرِ أمورِهِ، ولا يكتمُ عنهُ شيئًا، أو صاحبٌ ناصحٌ ينبِّهُهُ[2] علىٰ ما ظهرَ لهُ مِن نَقْصٍ، ولا يُجَامِلُهُ فيمَا يَضُرُّهُ.

ومَنْ لَمْ يتأدَّبْ فِي نَفْسِهِ، ويُجَاهِدْ هَوَاهُ علىٰ هذهِ القَوَاعِدِ والأسبابِ الَّتِي

---

(١) في التوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص٧٤٣: «الهمَج: ذباب يطير علىٰ وجوه الإبل ونحوها، فشبَّه به رعاع الناس».

(٢) في (ج): ينبه، والأصح المثبت.

ذَكَرْنَاهَا حتَّىٰ يعرفَ أسبابَ الفَسَادِ والفَرْقَ بينَ الجَرَيانِ علىٰ الصِّدقِ أو المُعتادِ[١]، فلا يصلحُ أنْ يكونَ طبيبًا يُدَاوِي غَيْرَهُ منَ العِبادِ[٢]، وهذا هوَ الَّذِي جمعَ بينَ العلمِ والحقيقةِ، والعلومِ والأحوالِ، ولذلكَ ذكرَ القائلُ للخمسةِ بعدَ فراغِهِمْ منهُم، والباقونَ سلَّمُوا لهُمْ أحوالَهُمْ؛ أيْ: دَعُوهُمْ ومَا مَنَّ اللهُ عليهِم منَ الطُّرُقِ الخَاصَّةِ بهِم ولَا تُقلِّدُوهُم.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ** رَحِمَهُ اللَّهُ[٤]: **يَأْتِي عَلَىٰ هَذِهِ الأُمَّةِ زَمَانٌ لَا تَطِيبُ المَعِيشَةُ فِيهِ لِمُؤْمِنٍ إِلَّا بَعْدَ اسْتِنَادِهِ إِلَىٰ مُنَافِقٍ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ المنافقَ عبارةٌ عمَّنْ عندَهُ ظاهرٌ وباطنٌ، ومَنْ يكونُ هذهِ صفتُهُ يخالطُ الظَّلَمَةَ والصَّالحينَ، وأهلَ الحقِّ والضَّلالِ، وإذَا غلبَ الفَسَادُ علىٰ بعضِ الأَزْمِنَةِ واستُهِينَ أهلُ الحَقِّ والصَّلاحِ، فلا يطيبُ لهُمْ عَيْشٌ ولا مَعِيشَةٌ، ولَا يسلمُونَ من أذيَّةٍ إلَّا إذا استندُوا لبعضِ مَنْ يحبُّهُمْ ويكونُ لهُ جاهٌ وسَطْوَةٌ، فيكونُ قدِ اجتمعَ فيهِ الطَّرفانِ: التَّشبُّهُ بالظَّالمينَ فِي السَّطوةِ ومحبَّةُ الصَّالحينَ، فتسلمُ لهذَا الصَّالحِ معيشتُهُ في دُنياهُ، ويسلمُ منْ إهانتِهِ خَوفًا من أَذيَّةِ مَنِ استندَ إليهِ مِنْ سَطْوتِهِ، ولذلكَ قيلَ[٥]: «تعامَلَ النَّاسُ في أوَّلِ الأمرِ بالدِّينِ، فلمَّا ضَعُفَ الدِّينُ [١/١٨٩أ] تَعَامَلُوا بالمُرُوءةِ، فلمَّا قلَّتِ المُرُوءةُ تعاملُوا بالرَّغبةِ، فلمَّا قلَّتِ الرَّغبةُ في الخيرِ تعامَلُوا بالرَّهبَةِ».

فأمَّا المعاملةُ بالدِّينِ: فإنَّ دينَهُمْ يحجزُهُمْ عنِ الظُّلمِ، فإنْ خفَّ[٦] دينُهُمْ لمْ

---

(١) في (ج): والمعتاد.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٠٩.

(٣) الرسالة القشيرية ١/١٢١.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٧٧، ومناقب الأبرار ٢/٦٩١.

(٥) قول الجُريري في: آداب الصحبة للسلمي ص٧٣، وإحياء علوم الدين ٢/١٦٤.

(٦) في (ب): ضعف.

يرضَ مَنْ لهُ مُروءةٌ بتعاطِي الظُّلمَ عَادةً ؛ حفظًا لمروءتِهِ ، فإنْ ضعُفَتِ المروءةُ تعامَلُوا بالرَّغبةِ فيمَا ينالُ بعضُهُمْ منْ حُسْنِ الثَّناءِ عليهِ فِي مُعاملتِهِ ، وإنْ قلَّتِ الرَّغبةُ في ذلكَ تَعامَلُوا بالخَوفِ مِنَ الأذيَّةِ ، وهذا هوَ آخرُ الشَّرِّ ، وربَّمَا كانَ زَمانكَ فتَفَطَّنْ لذلكَ تجِدْهُ ، فإنَّ كلَّ مَنْ أَمِنَ شَرَّهُ استُهِينَ وظُلِمَ ، ومَنْ كانَ عندَهُ حِدَّةٌ وَشَرَّةٌ اتُّقِيَ وقُضِيَتْ حَاجَتُهُ ، فإنِ استنَدَ إلىٰ ظَالمٍ كَانَ ذلكَ أَسْرَعَ لِنَيلِ مَآربِهِ ومَقَاصِدِهِ ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ[١] .

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢] : **«وَقَالَ : أُفٍّ مِنْ أَشْغَالِ[٣] الدُّنْيَا إِذَا أَقْبَلَتْ ، وَأُفٍّ مِنْ حَسَرَاتِهَا إِذَا أَدْبَرَتْ ، وَالعَاقِلُ مَنْ لَا يَرْكَنُ إِلَىٰ شَيْءٍ[٤] . . إِذَا أَقْبَلَ كَانَ شُغْلًا ، وَإِذَا أَدْبَرَ كَانَ حَسْرَةً»** .

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ ؛ فإنَّ الدُّنيا كلَّمَا اتَّسعَتْ علىٰ العبدِ كثُرَ شغلُهُ بِهَا وحفظُهُ لهَا وتنميتُهُ ؛ سواءٌ كانَتِ الدُّنْيا مالًا أو جاهًا ، فأربابُ الأموالِ مُشْتَغِلُونَ بأموالِهِم وحفْظِهَا عنِ الضَّياعِ ، واستكثارِهَا زيادةً في كَمَالِ الاستمتاعِ ، وكذلكَ أربابُ الجاهِ مشغولونَ بحفْظِ حُرْمَتِهِمْ وخائفونَ منْ نقصِ درجتِهِمْ ، فالدُّنيَا إذا أقبَلَتْ أثمرَتْ هذِهِ الثَّمراتِ ، وإذَا أَدْبَرَتْ وذهبَتْ[٥] بعدَ تعلُّقِ القلبِ بها وكمالِ محبَّتِهِ لهَا واستمتاعِهِ[٦] بأنواعِهَا أورثَتِ القَلْبَ غَايَةَ الحَسَرَاتِ وأَلِيمَ النَّدَامَاتِ .

وقولُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«أُفٍّ»**: كلمةُ استنقاصٍ وذمٍّ وتأفيفٍ من شيءٍ إذا أقبلَ أورثَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٠٩ ـ ٢١٠.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٢١.

(٣) في (ب): اشتغال، والمثبت الأصح.

(٤) في (ب): شيء إلا ، والصواب المثبت.

(٥) في (ب): وهبت ، والصواب المثبت.

(٦) في (ج): واستماعه ، والصواب المثبت.

هذهِ الأشغالَ المذموماتِ، وإذا أدبرَ أورثَ القلبَ تلكَ الحَسَرَاتِ، فهذا منهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحقيرٌ للدُّنيَا واستنقاصٌ لأهلِهَا المشتغلِينَ بمَا لا ينفعُهُمْ أُخْرَىٰ[1]، ويؤذِيهم دُنْيَا وأُخْرَىٰ.

(١) أي: في الدار الآخرة. فعلىٰ الكامل أن يعرض عنها اختيارًا حتىٰ لا يقع في الضرر.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

«وَمِنْهُم:

[٥٨] أَبُو الخَيرِ الأَقْطَعُ(٢)

مَغْرِبِيُّ الأَصْلِ، سَكَنَ (تِيْنَات)(٣)، وَلَهُ كرامَاتٌ وفِرَاسةٌ حادَّةٌ، كَانَ كبير الشَّأنِ.

مَاتَ سنةَ نيِّفٍ وأربعِينَ وثلاثمائةٍ.

قَالَ أَبُو الخيرِ(٤): مَا بَلَغَ أَحَدٌ إِلَى حَالَةٍ شَرِيفَةٍ إِلَّا بِمُلَازَمَةِ المُوَافَقَةِ(٥)، وَمُعَانَقَةِ(٦) الأَدَبِ، وَأَدَاءِ الفَرَائِضِ، وَصُحْبَةِ الصَّالِحِينَ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قد تقدَّمَ غيرَ مرَّةٍ [١/٨٩ب] أنَّ أفضلَ مَا يتقرَّبُ بهِ المتقرِّبونَ بهِ إلى اللهِ ـ تعالى ـ أداءُ الفَرَائضِ، ولا تكونُ الفَرائضُ إلَّا على مُوَافقَةِ العِلْمِ.

فطلبُ العِلْمِ لصحَّةِ العَمَلِ فَرْضٌ، وأمَّا الأدبُ وصحبةُ الصَّالحينَ فمِنَ الفضائلِ، فكأنَّهُ قالَ: لا يكملُ الإنسانُ في خيرٍ حتَّى يأتي بِفَرْضِهِ ونَفْلِهِ جميعًا،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٢٢.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٨٠، وحلية الأولياء ١٠/٣٧٧، وتاريخ دمشق ٦٦/١٦٠، ومناقب الأبرار ٢/٧٠٤، وصفة الصفوة ٤/٢٨٢، وطبقات الأولياء ص١٩٠، وحسن المحاضرة ١/٥١٤، والطبقات الكبرى ١/١٩٧، والكواكب الدرية ٢/٤٤.

(٣) في الروض المعطار ص١٤٧: «التينات: مدينة بالشام بينها وبين طرابلس مسيرة أيام، منها أبو الخير التيناتي». وانظر: معجم البلدان ٢/٦٨.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٨٢، وتاريخ دمشق ٦٦/١٦١، وحلية الأولياء ١٠/٣٧٧، وتنوير الغبش ص٢٠١، وبغية الطلب ١٠/٤٤٤١، وتاريخ الإسلام ٢٥/٤٨٨.

(٥) أي: موافقة العلم والعمل به.

(٦) أي: ملازمة.

وهوَ صحيحٌ، فإنَّ الخيرَ يعضدُهُ، وهوَ قولُهُ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ[١]: «مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيهِمْ، وَلَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»... الحديث[٢].

(١) سبق تخريجه.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢١٠ ـ ٢١١.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١):

«وَمِنْهُم:

[٥٩] أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الكَتَّانِيُّ(٢)

بَغْدَادِيُّ الأَصْلِ، صَحِبَ الجُنَيدَ، وَالخَرَّازَ، وَالنُّورِيَّ.

وَجَاوَرَ بِمَكَّةَ إِلَىٰ أَن مَاتَ سنةَ اثنتَينِ وعشرينَ وثلاثمائةٍ.

سَمِعْتُ الشَّيخَ أَبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ(٣): سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: نَظَرَ الكتَّانِي إِلَىٰ شَيخٍ أَبْيَضَ الرَّأْسِ وَاللِّحيَةِ يسأَلُ [النَّاسَ](٤)، فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ أَضَاعَ حقَّ اللهِ فِي صِغَرِه، فَضَيَّعَهُ اللهُ فِي كِبَرِهِ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: معناهُ: أَنَّهُ(٥) لو تعوَّدَ في صغرِهِ القَنَاعةَ باليَسِيرِ مِنَ الدُّنيَا والوقوفَ علىٰ حَدِّ الكِفَايةِ والإعراضَ عنِ الفُضُولِ وتخلَّقَ بالورعِ والزُّهدِ والتَّوكُّلِ لم يحوجْهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ في آخرِ عمرِهِ إلىٰ السُّؤالِ منَ النَّاسِ في هذِهِ الحالةِ الَّتِي هوَ عليهَا، وأمدَّهُ بِمَعُونتِهِ وما وعدَهُ بهِ من حُسْنِ حَالتِهِ، ولو سألَ مَنْ هذهِ صِفتُهُ لم يَسْأَلْ علىٰ هذهِ الصِّفَةِ، وقصدَ بعضَ النَّاسِ وعرَّضَ بالحاجةِ.

وأمَّا التَّصدِّي لِكُلِّ النَّاسِ والسُّؤالُ علىٰ الطُّرُقَاتِ، فإِنَّهُ دليلٌ علىٰ قلَّةِ العلمِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٢٣.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٨٢، وحلية الأولياء ١٠/٣٥٧، وتاريخ دمشق ٥٤/٢٥١، ومناقب الأبرار ٢/٧١٣، والأنساب ٥/٣٢، وطبقات الأولياء ص١٤٧، وشذرات الذهب ٢/٢٩٦، والطبقات الكبرىٰ ١/١٩٩، والكواكب الدرية ٢/١٤٥.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٨٥، وتاريخ دمشق ٥٤/٢٥٨، ومناقب الأبرار ٢/٤١٧.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

وعدمِ الصَّبرِ والقناعةِ والاجتزاءِ بقدرِ الكِفَايةِ، ولا سيَّمَا مَنِ الطَّلبُ شُغلُهُ وعادتُهُ في ليلِه ونهَارِهِ، ولو حصلَتْ له الكفايةُ لمَا تَرَكَ الطَّلبَ، فإنَّ هذا فيه تعرُّضٌ للتَّحريمِ؛ لأنَّهُ ربَّمَا أخذَ وهوَ مُسْتَغْنٍ، ودُفعَ لهُ لأجْلِ فَقْرِهِ، فلا يَحِلُّ لَهُ مَا أَخَذَ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «**وَقَالَ الكتاني**[2]: **الشَّهوةُ زِمامُ الشَّيْطَانِ، مَنْ أَخَذَ بِزِمَامِهِ كَانَ عَبْدَهُ**[3]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومُرَادُهُ أنَّ الشَّيطانَ يَجُرُّ بنِي آدمَ بشهواتِهِمْ إلىٰ أنْ يَقعُوا فِي المَعَاصِي، فيكونُوا من أصحابِ السَّعيرِ، فقولُهُ: «**مَنْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ بِزِمَامِهِ**»، أيْ: مَنْ تمكَّنَ الشَّيطانُ منهُ؛ لشدَّةِ محبَّتِهِ لشهواتِهِ وإنْ لمْ تكُنْ مُحَرَّمَةً جرَّهُ بذلِكَ إلىٰ الوقوعِ في المُحَرَّمِ[4] [١/٩٠أ].

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٢٣.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٨٣، وحلية الأولياء ١٠/٣٥٨، ومناقب الأبرار ٢/٤١٧، وشذرات الذهب ٢/٢٩٦.

(٣) أي: أسيره.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢١١.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

«وَمِنْهُمْ:

[٦٠] أَبُو يَعْقُوبَ إِسْحَاقُ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّهْرَجُورِيُّ(٢)

صَحِبَ أَبَا عَمْرٍو المَكِّيَّ، وَأَبَا يَعْقُوبَ السُّوسِيَّ، وَالجُنَيْدَ، وَغَيْرَهُمْ.

مَاتَ بِمَكَّةَ مُجَاوِرًا سَنَةَ ثَلَاثِينَ وَثَلَاثِمائَةٍ.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ(٣): [سَمِعْتُ أَبَا الحُسَيْنِ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ](٤): سَمِعْتُ النَّهْرَجُورِيَّ يَقُولُ: الدُّنْيَا بَحْرٌ، وَالآخِرَةُ سَاحِلٌ، وَالمَرْكِبُ التَّقْوَىٰ، وَالنَّاسُ سَفْرٌ(٥)».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا من بابِ الاعتِبَارِ، وذلكَ أنَّ النَّاسَ في الدُّنيا ليسُوا مُقِيمِينَ، فإنَّهَا ليسَتْ دارَ استيطَانٍ، وهُمْ فيهَا مُسَافرونَ جَبْرًا باختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ إلىٰ آخرِ الأعمارِ، فأشبهَتِ البحارَ، والآخرةُ دارُ استيطانٍ، فمَنْ سافرَ إليهَا بحُسْنِ استعدادٍ وكَمَالِ زادٍ وصلَ الطَّريقَ(٦) الموصلةَ إلىٰ محلِّ استقرارِهِ وسَلِمَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٢٤.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٨٦، ومناقب الأبرار ٢/٧٢٤، وتاريخ الإسلام ٢٤/٢٧٨، وسير أعلام النبلاء ١٥/٣٢٢، وطبقات الأولياء ص١٠٥، وشذرات الذهب ٢/٣٢٥، والطبقات الكبرىٰ ١/٢٠٠، والكواكب الدرية ٢/٧٥.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٨٧، والزهد الكبير ص٣٣٥، ومناقب الأبرار ٢/٧٢٥، وسير أعلام النبلاء ١٥/٢٣٣.

(٤) زيادة من (ب، ف).

(٥) أي: مسافرون في المركب.

(٦) قال ابن الأنباري: «الطريقُ... يؤنثه أهل الحجاز، ويذكره أهل نجد، والتذكير فيه أكثرُ من التأنيث، وأجْوَدُ، وبذلك نزل القرآنُ...» المذكر والمؤنث لابن الأنباري ١/٤٥٧. وانظر: المذكر والمؤنث للفراء ص٧٨، والبلغة للأنباري ص٨٥.

وغَنِمَ، ومَنْ فرَّطَ فيما ذكرْناهُ غرِقَ وهلَكَ وتَوالَىٰ عليهِ الألَمُ في السُّلُوكِ وبعدَ الوصُولِ؛ لأنَّ الآخرةَ دارُ الجزاءِ(١).

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ(٣): سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِي يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّهْرَجُورِيَّ يَقُولُ: رَأَيْتُ رَجُلًا فِي الطَّوافِ بفردِ عينٍ يَقُولُ: أعوذُ بكَ منْكَ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا الدُّعاءُ؟ فَقَالَ: نَظَرْتُ يومًا إِلَىٰ شَخْصٍ فَاسْتَحْسَنْتُهُ، وإِذَا لَطْمَةٌ وقَعَتْ عَلَىٰ بَصَرِي، فَسَالَتْ عَيْنِي فَسَمِعْتُ هَاتِفًا يَقُولُ: لَطْمَةٌ بِلَحْظَةٍ(٤)، وَلَوْ زِدْتَ لَزِدْنَا**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا منْ جُمْلَةِ الكَرَامَاتِ وَسُرعَةِ المُؤاخَذةِ في الدُّنيَا علىٰ بعضِ الزَّلَلِ، فإنَّ مَنْ عُجِّلَتْ لهُ عقوبةٌ علىٰ عملِهِ في الدُّنيَا حتَّىٰ سلِمَ منْ عذابِ الآخرةِ فقدْ أُكْرِمَ، فإنَّهُ ليسَ بينَ عَذَابِ الدُّنيَا وعَذَابِ الآخرةِ نسبةٌ، وهذا الشَّيخُ أخبرَنَا عن حَالِهِ معَ مَولَاهُ، وأنَّ نفسَهُ غلبَتْهُ في نظرةٍ باستحسَانٍ، فَوقَعتْ لَطْمَةٌ علىٰ عَينِهِ فَسالَتْ، فأعلَمَهُ اللهُ بالهاتِفِ أنَّ ما وقعَ مَجَازاةٌ لفعْلِهِ، بقولِهِ: «**لَطْمَةٌ بِنَظْرَةٍ، وَلَوْ زِدْتَ لَزِدْنَاكَ**»، فخُذْ حَذَرَكَ مِنَّا(٥)، ولهذَا كانَ يَقُولُ: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**»، وفي اللَّفظِ بَشَاعَةٌ، وقدْ وردَ في بعضِ الدُّعاءِ أنَّ الاستعاذَةَ إنَّمَا كانَتْ منَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ، فلمَّا سمِعَ هذا السَّامعُ هذا الدُّعاءَ أنكَرَهُ فاحتاجَ إلىٰ أنْ يعرِّفَهُ سببَهُ، ولو قالَ: «أعوذُ برضاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبعفْوِكَ منْ عُقُوبتِكَ»(٦) لكانَ الكلامُ ظاهرًا(٧).

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢١٢.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٢٤.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٧٢٧، وذم الهوىٰ ص١٢٨، والتبصرة لابن الجوزي ١/١٦١.

(٤) اللحظة: نظرة بطرف العين.

(٥) وفاقا لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

(٦) اقتباس من حديث أخرجه مسلم في صحيحه ١/٣٥٢ ـ حديث رقم (٤٨٦).

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢١٢ ـ ٢١٣.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَسَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٢]: [١/٩٠ب] سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّهْرَجُورِيَّ يَقُولُ: أَفْضَلُ الأَحْوَالِ[٣] مَا قَارَنَ العِلْمَ[٤]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَعْنِي بِمُقَارَنَةِ العِلْمِ: أَنْ يشهدَ لهُ العِلْمُ بالصِّحَّةِ والكَمَالِ، فإِنَّ الأعمالَ منهَا وَاجبَاتٌ ومَنْدُوبَاتٌ، والمَنْدُوبَاتُ فيها فَاضِلٌ وأفضلُ، والعِلْمُ يدلُّ على جميعِ ذلكَ، وأفضلُ الأعمالِ ما وقعَ على أَعْلَى دَرجَاتِ الكَمَالِ، وَتَبَرَّأَ منهُ فَاعِلُهُ وَرَآهُ فَضْلًا عليهِ مِنْ ذِي الجَلالِ والإِفْضَالِ[٥].

❊ ❊ ❊

(١) الرسالة القشيرية ١/١٢٤.

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٧٢٨، والاعتصام ١/٩٧، ومدارج السالكين ٢/٤٦٧، وسير أعلام النبلاء ١٥/٢٣٣.

(٣) في (ف): الأعمال. والقصد: صفات المؤمن التي تعرض له.

(٤) أي: ما وافق العلم الشرعي.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢١٣.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُم:

[٦١] أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ المُزَيِّنُ[٢]

مِنْ أَهْلِ (بَغْدَادَ)، مِنْ أَصْحَابِ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللهِ التُّسترِيِّ، والجُنيدِ، والطَّبقةِ[٣].

مَاتَ بمكَّةَ مُجَاورًا سنةَ ثمانٍ وعشرِينَ وثلاثمائةٍ، وَكَانَ وَرِعًا كَبِيرًا.

سَمِعْتُ الشَّيخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ[٤]: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ المُزَيِّنَ يَقُولُ: الذَّنْبُ بَعْدَ الذَّنْبِ[٥] عُقُوبَةُ الذَّنْبِ، وَالحَسَنَةُ بَعْدَ الحَسَنَةِ ثَوَابُ الحَسَنَةِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ العبدَ إذا وقعَ في ذَنْبٍ ثمَّ تابَ منهُ تَبَيَّنَّا بذلكَ أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ أَجْرَىٰ عليهِ ما محَىٰ ذنبَهُ؛ وهيَ التَّوبةُ، فإذا لمْ يَتُبْ ووقعَ في ذنبٍ آخرَ تبيَّنَّا منْ ذلكَ أنَّهُ تَزَايدَ إثمًا إلىٰ إثمِهِ، وأنَّهُ لم يُحفَظْ منَ الثَّاني، كمَا لمْ يُحفَظْ منَ الأوَّلِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ أَجْرَاهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عُقُوبَةً جزاءً لذنبِهِ المُتَقَدِّمِ، وإنْ كانَ اللهُ ـ سبحانه ـ إنَّمَا يعاقبُ في الدُّنيَا ظَلامَ القَلْبِ والقفلِ والطَّبعِ في البَاطِنِ، وفي

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٢٥.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٨٩، ومناقب الأبرار ٢/٧٣٠، وصفة الصفوة ٢/٢٦٥، وتاريخ الإسلام ٢٤/٢٥١، وطبقات الأولياء ص١٤٠، وشذرات الذهب ٢/٣١٦، والطبقات الكبرىٰ ١/٢٠١، والكواكب الدرية ٢/١١٧. والمُزين: هو من يحلق الشعر.

(٣) أي: ومن في طبقتهما.

(٤) طبقات الصوفية ص٢٨٩، وورد أيضا في: وصفة الصفوة ٢/٢٦٥، وذم الهوىٰ ص١٨٥، وشذرات الذهب ٢/٣١٦.

(٥) فتكرر الذنوب سببه عدم إخلاص التوبة من الذنب الأول.

الظَّاهرِ بالهَلاكِ بالغرقِ والرِّيحِ والصَّيحَةِ، وما يجري مجرَاهُ، فيكونُ هذَا الذَّنبُ الثَّانِي عقوبةً بمعنَىٰ أَنَّهُ لمْ يُنَبَّهْ للتَّوبةِ، وتوالَتْ عليهِ الغَفْلةُ، وهيَ من جُمْلَةِ العقوباتِ.

وكذلكَ إذا فعلَ العبدُ حسنةً عَلِمْنَا أَنَّهُ محفوظٌ للهِ ـ تعالىٰ ـ ووقعَ منهُ مَا يُرْضِي رَبَّهُ، وقدْ وُعِدَ الجزاءَ علَىٰ الطَّاعاتِ، فإذَا مَنَّ عليهِ بطاعةٍ أُخْرَىٰ علمْنَا أنْ زَادَهُ خيرًا إلىٰ خَيْرِهِ الأوَّلِ، وقدْ يكونُ هذَا ممَّا عَجَّلَهُ لَهُ مَوْلَاهُ فِي دُنياهُ، ولهُ في أُخْرَاهُ جَزَاءٌ علىٰ عَمَلِهِ الأَوَّلِ والثَّانِي، هذَا معنَىٰ كلامِهِ، واللهُ أعلمُ.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «وَسُئِلَ المُزَيِّنُ عَنِ التَّوحيدِ، فَقَالَ[(٢)]: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَوْصَافَهُ مُبَايِنَةٌ لِأَوْصَافِ خَلْقِهِ؛ بَايَنَهُمْ بِصِفَاتِهِ قِدَمًا، كَمَا بَايَنُوهُ بِصِفَاتِهِمْ حَدَثًا».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ [١/١٩١أ] مخالفٌ لخلْقِهِ مُخَالَفَةً مُطْلَقَةً، لا يشبهُهُمْ في شَيءٍ ولا يُشْبِهُونَهُ، لا فِي الذَّاتِ ولا فِي الصِّفاتِ ولا في الأَفْعَالِ[(٣)].

أَمَّا ذاتُهُ فمنزَّهةٌ عنِ الجِهَاتِ والأقطارِ والتَّحيُّزِ والافتقارِ، وصفاتُهُ متعلِّقةٌ بسائرِ متعلَّقاتِهَا لأنفسِهَا، يستحيلُ عليهَا التَّحدُّدُ والتَّغيُّرُ اللَّاحقَينِ لذَوِي الأحيازِ والمِقْدَارِ، وأفعالُهُ لَا قُدْرَةَ لأحدٍ عليهَا؛ لأنَّ جميعَ مخلوقاتِهِ مِنْ جملةِ أفعالِهِ، أوجَدَهَا لَا من شَيءٍ، إنَّمَا أَمْرُهُ إذَا أرادَهُ أنْ يقولَ لهُ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، وجميعُ المخلوقاتِ أجسامٌ وأعراضٌ، ومنْ جُمْلَةِ الأعراضِ قدرهُمُ الحادثاتِ المقارنةَ لأفعالِ ربِّهِمْ في سائرِ الحركاتِ والسَّكناتِ المعبَّرِ عنهَا بالاكتسابِ؛

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٢٥.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٩٠، ومناقب الأبرار ٢/٧٣١، والنص فيهما أوسع من ذلك.

(٣) قال العروسي: «.. ولشرف هذه العقيدة اعتبر التوحيد بها، وذلك لا ينافي وجود اعتقاد غيرها من العقائد الواجبة له تعالىٰ» نتائج الأفكار ١/٣٠٥.

لِلفرْقِ بينَهَا وبينَ الضَّروريَّاتِ.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[١]: «وَقَالَ[٢]: **مَنِ اسْتَغْنَى بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ أَحْوَجَ اللهُ الخَلْقَ إلَيهِ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ الَّذِي يحتاجُ النَّاسُ إليهِ في دُنياهُم: أعمَالٌ وعلومٌ وأقوَاتٌ وحُسْنُ مُعَاشَرَاتٍ، فمتَىٰ مكَّنَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ العبدَ في العِلْمِ والعملِ الَّذِي ينفعُهُ في أُخْرَاهُ، ويسَّرَ عليهِ أرزاقَهُ وحُسْنَ أخلاقِهِ عاشَ في الدُّنيَا مستغنيًا بِمَولاهُ، فاحتاجَ إليهِ مَنْ فَقَدَ ما ذكرْنَاهُ[٣]؛ لدعا حاجتَهُ إلىٰ ذلِكَ في السَّيرِ إلىٰ مولَاهُ منَ العِلْمِ بصحَّةِ أفعالِهِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، واحتياجُهُ إلىٰ ما تقومُ بهِ بنيَّتِهِ منَ الأرزاقِ، ولحُسْنِ عِشْرَتِهِ معَ غيرِهِ منَ المُسْلِمِينَ؛ خَوْفًا منَ المُقَاطَعةِ والافتِرَاقِ.

❊ ❊ ❊

(١) الرسالة القشيرية ١/١٢٥، ونصها: «من لَمْ يستغن بالله أحوجه اللَّه إِلَىٰ الخلق، ومن استغنىٰ بالله أحوج اللَّه إِلَيْهِ الخلق».

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٩٠، ومناقب الأبرار ٢/٧٣١، وطبقات الأولياء ص١٤٠، ونُسب هذا القول لسعيد بن المسيب في: حلية الأولياء ٢/١٧٣.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢١٤.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُم:

[٦٢] أَبُو عَلِيّ بْنُ الكَاتِبِ[(٢)]

وَاسْمُهُ الحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ، صَحِبَ أَبَا عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيَّ، وَأَبَا بَكْرٍ المِصْرِيَّ، وغيرَهُمَا، كَانَ كبيرًا فِي حالِهِ.

مَاتَ سنةَ نيِّفٍ وأربعينَ وثَلاثمائةٍ.

قَالَ ابْنُ الكاتِبِ[(٣)]: إِذَا سَكَنَ الخوفُ فِي القَلْبِ لَمْ ينْطِقِ اللِّسانُ إِلَّا بِمَا يَعْنِيهُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا خَوْفُ الزَّلَلِ في المَنْطِقِ، وإلَّا فَالخَوْفُ مُنْقَسِمٌ علىٰ حَسبِ المخوِّفاتِ، ولو خافَ الإنسانُ من تَضْيِيعِ صَلاتِهِ اجتهدَ في تَحْصِيلِهَا، ولا يلزمُ ذلكَ نطقٌ بمَا يَعْنِيه خَارجًا عنِ الصَّلاةِ، وإنَّمَا مُرادُهُ: أنَّهُ إذا خَافَ العبدُ منْ زَلَلِ لِسَانِهِ تثبَّتَ ومَيَّزَ بينَ ما يَسْلَمُ منهُ ومَا لَا يَسْلَمُ، وبينَ مَا لهُ إليهِ حَاجةٌ ومَا لا حَاجَةَ إليهِ فيتركُهُ، وهوَ المُعبَّرُ عنهُ: بمَا لَا يَعْنِيه.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٤)]: [١/٩١ب] «وَقَالَ ابْنُ الكَاتِبِ[(٥)]: المُعْتَزِلَةُ[(٦)] نَزَّهُوا اللهَ - تعالىٰ - مِنْ حيثُ العقْلُ، فأخطَأوا، والصُّوفيَّةُ نَزَّهُوهُ من حيثُ العِلْمُ فَأَصَابُوا».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٢٦.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٩٢، وحلية الأولياء ١٠/٣٦٠، ومناقب الأبرار ٢/٧٣٦، ومرشد الزوار إلىٰ قبور الأبرار ١/٥٦٩، وصفة الصفوة ٤/٣٢٣، وطبقات الأولياء ص٥٧، والطبقات الكبرىٰ ١/٢٠٢، والكواكب الدرية ٢/٧٩.

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٣٦٠، ومرشد الزوار ١/٥٧٠، وصفة الصفوة ٤/٣٢٣، والمستطرف ١/٣١١.

(٤) الرسالة القشيرية ١/١٢٦.

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٩٢، ومناقب الأبرار ٢/٧٣٦، والاستقامة ١/٩٤.

(٦) في (ب): المتزلة، وهو تحريف.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ ؛ وذلكَ أَنَّهُمْ لَمْ يتأنَّسُوا في نَظَرِهِمْ بِمَا جاءَتْ بهِ الشَّرائعُ ، واعتمَدُوا على مَحْضِ النَّظَرِ العَقْلِيِّ[١] ـ في زَعْمِهِم ـ ، نَزَّهُوا اللهَ ـ تعالىٰ ـ عنْ أنْ يخلقَ الشَّرَّ والكُفْرَ والمَعَاصِي ، وغَفلُوا عن قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩] ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦] ، وما يَجرِي مَجْرَاهُ.

وأهلُ السُّنَّةِ جَمَعُوا بينَ ما ثَبَتَ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبينَ مَا دَلَّتْهُم عليهِ العُقُولُ ، فتظافَرَتِ الأدلَّةُ العقليَّةُ والسَّمْعِيَّةُ القطعيَّةُ على الحَقِّ ، فصَارُوا إليهِ.

هذا مَعْنَىٰ قَولِهِ: «وَالصُّوفِيَّةُ نَزَّهُوا اللهَ مِنْ حَيْثُ العِلْمُ فَأَصَابُوا» ، ولمْ يُرِدْ أَنَّهُمْ لَمْ ينزِّهُوهُ بعقولِهِم.

❊ ❊ ❊

(١) فيه إشارة إلىٰ أن العقل إذا جُرِّد عن العلم الشرعي لا ينفع ، بل يضر ؛ لأنه لا حكم قبل الشرع على الصحيح . انظر: المحصول للرازي ٦/١٣١.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

«وَمِنْهُم:

[٦٣] مُظَفَّرٌ القِرْمِسِينِيُّ(٢)

مِنْ مَشَايِخِ الجَبَلِ، صَحِبَ عَبْدَ اللهِ الخَرَّازَ وَغَيْرَهُ.

قَالَ مُظَفَّرٌ القِرْمِيسِينِي(٣): الصَّومُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ: صَوْمُ الرُّوحِ بِقِصَرِ الأَمَلِ، وَصَومُ العَقْلِ بِخِلَافِ الهَوَىٰ، وَصَومُ النَّفْسِ بِالإِمْسَاكِ عَنِ الطَّعامِ [والشَّرَابِ](٤) والمَحَارِمِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ حقيقةَ الصَّومِ الإمساكُ عنِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وكَمَالُ الصَّومِ بالإمسَاكِ عنِ الغِيبَةِ والنَّميمَةِ والكَذِبِ؛ لاختلافِ النَّاسِ هَلْ يبطلُ الصَّومُ بذلكَ أوْ لَا يبطلُ(٥)؟ فخرجَ من مجموعِ ذلكَ أنَّ لفظَ الصَّومِ لَا

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٢٧.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٩٨، وحلية الأولياء ١٠/٣٦٠، ومناقب الأبرار ٢/٧٤٥، وطبقات الأولياء ص٣٧١، والطبقات الكبرىٰ ١/٢٠٤، والكواكب الدرية ٢/١٦٩.
والقرميسيني نسبة إلىٰ (قرميسين): بلدة بجبال العراق، ففي الأنساب ٤/٤٧٩: «القرميسيني... هذه النسبة إلىٰ قرميسين؛ وهي بلدة بجبال العراق علىٰ ثلاثين فرسخًا من همذان».
وفي الروض المعطار ص٤٥٦: «قرميسين: بلد جليل من كور الجبل، بينه وبين (آمد) ثلاث مَرَاحل».

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٩٨، وتفسير السلمي ٢/١٤٦، ومناقب الأبرار ٢/٧٤٥.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) وجمهور الفقهاء علىٰ أنه لا يبطل، وإنما تنقص من أجر الصائم؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب»، ولقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضا: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه».
وفي الوابل الصيب ص٤٣: «فالصوم: هو صوم الجوارح عن الآثام، وصوم البطن عن الشراب والطعام، فكما أن الطعام والشراب يقطعه ويفسده فهكذا الآثام تقطع ثوابه وتفسد ثمرته فتصيره بمنزلة من لم يصم».

يختصُّ بالإمساكِ عنِ الطَّعامِ خاصَّةً، فَأُطْلِقَ علىٰ النَّفسِ ـ وهيَ ذاتُ الإنسانِ ـ الإمساكُ عنِ الطَّعامِ والشَّرابِ والفُحْشِ ومَا يجرِي مجرَاهُ، وإمساكُ العقلِ الَّذي بهِ تُعْرَفُ المصالحُ والمفاسدُ الشَّرعيَّةُ والعَاديَّةُ، فيقومُ العبدُ بمَا يحتاجُ إليهِ، ويُعْرِضُ عمَّا يضرُّهُ، فإمسَاكُهُ عنِ المَيلِ معَ الهوَىٰ، والرُّوح لهَا تعلُّقٌ بالأمورِ العاليةِ من رُؤيةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بالقلبِ في الدُّنيَا، ومُنَاجَاتِهِ والتَّلذُّذِ بقُرْبِهِ وداومِ مُرَاقبتِهِ في كلِّ حَرَكةٍ وسَكنةٍ.

فمَتَىٰ طَالَ أملُ الإنسانِ لم يجدْ في تحصيلِ هذِهِ الخَيراتِ، ومتىٰ قَصُرَ أَمَلُهُ وَخَشِيَ الفَوَاتَ أفرغَ الجهدَ في تحصيلِ ذلكَ بالغَاياتِ منَ المُمْكِنَاتِ، فجعلَ إمسَاكَ الرُّوحِ عن طُولِ الأمَلِ بِقِصَرِهِ[1].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وقال**[3]: **أَخَسُّ**[4] **الإِرْفاقِ: إِرْفَاقُ النِّسوانِ علىٰ أيِّ [١/١٩٢أ] وَجْهٍ كَانَ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ مخالطةَ النِّسوانِ أسبابُ الهلاكِ والخسرانِ، ولا ينالُ الإنسانُ إرفاقَهُنَّ إلَّا بالمُداناةِ منهنَّ والمُواصَلَةِ إليهِنَّ ومعَهنَّ، وربَّمَا جرَّ ذلكَ إلىٰ الخُلْوةِ بهنَّ لتعليمهنَّ وإرشادهنَّ، والخلوةُ بالأجنبيَّةِ حرامٌ[5]، ولو كانَ لإقرائِهَا، هذا وجْهٌ منَ الفسادِ.

الوَجْهُ الثَّانِي: أنَّهنَّ ينخدعْنَ بأدنىٰ الحالاتِ، ولا يُفَرِّقْنَ بينَ الحقِّ والباطلِ

---

(١) أي: صوم الروح يتحقق بقصر الأمل. وقد أفاد الشيخ زكريا منه ذلك في: إحكام الدلالة ١/٢١٥.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٢٧.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٩٩، ومناقب الأبرار ٢/٧٤٦.

(٤) في (ج): أضرّ، وأشير في حاشيتها أنها في نسخة: أخس، وأشير أيضا في حاشية (أ) أنها في نسخة: أضر.

(٥) انظر: الدر المختار ٦/٣٦٨، وحسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة ص٥٩١.

منَ الطَّاعاتِ، فقدْ يَرفقْنَ بعضَ الأشخاصِ لأمرٍ توهَّمْنَهُ عليهِ، وهو خَالٍ عنهُ، فلا يكونُ مَا يأخذُهُ خالصًا ولا حلالًا إلَّا لجهلهِنَّ وقلَّةِ تثبُّتِهِ[١] عندَ الأخذِ، وتنبُّهِهِ[٢] علىٰ السُّؤالِ[٣].

ووجْهٌ ثالثٌ: ربَّمَا أخذْنَ من أموالِ أزواجهِنَّ بغيرِ إذنِهِمْ، ويزعُمْنَ أنَّ هذا وجهُ برٍّ وخيرٍ لهنَّ ولأزواجهِنَّ.

فهذهِ ثلاثةُ أوجُهٍ ممَّا يحملُ علىٰ تَرْكِ إرفاقِ النِّسوانِ والأخذِ منْ أيديهنَّ، ولذلكَ جعلَهُ خسيسًا علىٰ أيِّ وجهٍ كانَ، فإنْ سلِمَ العبدُ من وجْهٍ لمْ يسلَمْ مِنْ غيرِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقَالَ[٥]: **الجُوعُ إِذَا سَاعَدَتْهُ القَنَاعَةُ [فَهُوَ][٦] مَزْرَعَةُ الفِكْرِ[٧]، وَيَنْبُوعُ الحِكْمَةِ[٨]، وَحَيَاةُ الفِطْنَةِ[٩]، وَمِصْبَاحُ القَلْبِ[١٠]**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ المُشْغِلَ للقلبِ منَ الطَّعامِ إمَّا كثرتُهُ وإمَّا حُسْنُهُ وجمالُهُ وطيبُهُ، فإنْ منَّ اللهُ على العبدِ بالزُّهدِ فيهِمَا، فزهدَ في أنواعِ الطَّيِّباتِ وتَقلَّ مِنْ ذلكَ حتَّىٰ حَصَلَ لهُ بعضُ الجُوعِ خَفَّ بَدَنُهُ للأعمالِ الصَّالحاتِ، وتفرَّغَ قلبُهُ للفكرةِ في الجِهَاتِ، وأنواعِ العلومِ ومعرفةِ المَصَالحِ

---

(١) في (ج): تلبثه.

(٢) في (ج): فيبهه.

(٣) أفاد الوجهين الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢١٦/١.

(٤) الرسالة القشيرية ١٢٧/١.

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٢٩، وحلية الأولياء ٣٦١/١٠، ومناقب الأبرار ٧٤٦/٢.

(٦) زيادة من (ف).

(٧) أي: مادة الواردات علىٰ الفكر من العلوم الشرعية والذوقية. انظر: نتائج الأفكار ٣٠٧/١.

(٨) أي: إصابة الصواب.

(٩) أي: ذكاؤها في فهم المفاسد والمصالح.

(١٠) أي: سبب تنويره بالنور الإلهي.

والآفاتِ، وبهذا الاعتبارِ يتيقَّظُ قلبُهُ منَ الغفلاتِ، وينوَّرُ قلبُهُ بالعلمِ الَّذِي يغوصُ بهِ فِي المُغْمَضاتِ؛ منَ الأمورِ(١) العقليَّةِ والسَّمعيَّةِ وغيرِ ذلكَ منَ المهمَّاتِ، وهذا كلُّهُ لبُعْدِهِ عنِ المُشغلاتِ؛ من محبَّةِ كثْرَةِ الطَّعامِ أوِ التَّلذُّذِ بأنواعِ المُشْتهياتِ، ولذلكَ قالَ: إذَا وافقَ الجُوعُ القَنَاعَةَ نَالَ القلبُ هذهِ البركاتِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): **«وَقَالَ(٣): أَفْضَلُ أَعْمَالِ العَبِيدِ: حِفْظُ أَوْقَاتِهِم(٤)؛ وَهُوَ أَلَّا يُقَصِّرُوا فِي أَمْرٍ، وَلَا يَتَجَاوَزُوا عَنْ حَدٍّ».**

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والوقتُ عندَ القَومِ يُطْلَقُ علىٰ الزَّمانِ الَّذِي هوَ فيهِ، وقدْ يُطْلَقُ علىٰ حالتِهِ الَّتِي هوَ محتاجٌ إلىٰ الكونِ عليهَا منَ الأعمالِ الصَّالحاتِ، فمتَىٰ لمْ يُتْقِنِ العَبْدُ حالَهُ في وقتِهِ [٩٢/١ب] بكمالِ العلمِ بمَا هوَ الأفضلُ في حقِّهِ، واشتغلَ بمَا مَضَىٰ من أعمالِهِ، أو بِمَا يُسْتَقْبَلُ في أَيَّامِهِ؛ ضاعَ وقتُهُ الَّذِي هوَ منهُ، فإنَّ مَا مضىٰ منهُ قد تخلَّصَ منهُ بالتَّوبةِ، وغير ذلكَ منَ الحقوقِ، ومَا يأتِي منَ الأوقاتِ لعلَّهُ لا يدركُهُ، فأحسنُ أحوالِهِ حفظُهُ لمَا هوَ فيهِ، والحفظُ عنِ الميلِ عنهُ، أو الزُّهوقُ وهوَ المعبَّرُ عنهُ بتعدِّي الحدودِ، فلا يعلِّقُ هِمَّتَهُ بمَقَامٍ يمنعُهُ من إتقانِ مَا هوَ فيهِ، ولَا يلتفتُ لمَا مضىٰ من أوقاتِهِ ما لم يجِبْ عليهِ إِصْلاحُهُ وتَلافِيهِ، فإنَّ ذلكَ من جُمْلَةِ عِمارةِ وقتِهِ الَّذِي هوَ فيهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): **«وَقَالَ(٦): مَنْ لَمْ يَأْخُذِ الأَدَبَ عَنْ حَكِيمٍ لَمْ**

---

(١) أي: الأمور العظيمة. انظر: النهاية لابن الأثير ٣/٣٨٧.
(٢) الرسالة القشيرية ١/١٢٧.
(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٠٠، وحلية الأولياء ١٠/٣٦١، ومناقب الأبرار ٢/٧٤٧، وطبقات الأولياء ص٣٧١.
(٤) أي: الحاضرة.
(٥) الرسالة القشيرية ١/١٢٧.
(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٠٠، ومناقب الأبرار ٢/٧٤٧.

يَتَأَدَّبْ بِهِ مُرِيدٌ».

* **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ الحِكْمَةَ: هيَ وضْعُ الشَّيءِ مواضِعَهُ، والحكيمُ: هوَ الَّذِي عرَفَ الأعمالَ وأوقاتهَا[1]، والمقاماتِ وتفاوتَ درجاتِهَا، والأدويةَ للأمراضِ لأغراضِ القلوبِ والأعمال، وطرُقَ حفظِهَا عنِ النَّقصِ أو الاختلال، فإذَا كانَ كذلكَ فهوَ الَّذِي يعرفُ أحوالَ النَّاسِ ومَا يليقُ بكلِّ شخصٍ بالنِّسبةِ إلىٰ حالِهِ، ولمرضِ قلبِهِ ونشاطِهِ وكَسَلِهِ وغيرِ ذلكَ ممَّا هوَ فيهِ، وأمرُهُ بالأمرِ اللَّائقِ بهِ.

وهذا هوَ الحكيمُ الَّذِي يضَعُ الأشياءَ مَواضِعَهَا، ويقابلُ الأمراضَ بأدويتِهَا، وهوَ الَّذِي يتأدَّبُ بهِ المُريدونَ، وإلَّا مَنْ سَلكَ طريقًا واحدةً أعانَهُ اللهُ عليهَا في نفسِهِ وسهَّلَهَا عليهِ من طُرُقِ الخيرِ، فمتَىٰ جاءَهُ مُريدٌ لِيَقْتَدِيَ بهِ دَلَّهُ علىٰ الطَّريقِ الَّتِي سلَكَهَا اللهُ بهِ معَ اختلافِ أمراضِ النَّاسِ وأحوالِهِم وعوائدِهِم كانَ بمنزلةِ طبيبٍ يشْفِي النَّاسَ من برنيَّةٍ واحدةٍ[2]؛ لكونِهِ يُداوِي بهَا، وربَّمَا ضرَّتْ غيرَهُ منَ المَرْضَىٰ، فضلًا عنْ أنْ تَنْفعَهُ[3].

❋ ❋ ❋

---

(١) في (أ، ب): وآفاتها.

(٢) أي: إناء واحد.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢١٦/١.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

«وَمِنْهُم:

[٦٤] أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ طَاهِرٍ الأَبْهَرِيُّ(٢)

مِنْ أَقْرَانِ الشِّبْلِيِّ، مِنْ مَشَايِخِ الجَبَلِ، عَالِمٌ وَرِعٌ، صَحِبَ يُوسُفَ بْنَ الحُسَيْنِ وَغَيْرَهُ.

مَاتَ بِقُرْبِ الثَّلَاثِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ.

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ(٣): سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرِ بْنَ طَاهِرٍ يَقُولُ: مِنْ حِكَمِ الفَقِيرِ أَلَّا يَكُونَ لَهُ رَغْبَةٌ، فَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ، فَلَا تُجَاوِزُ رَغْبَتُهُ كِفَايَتَهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ أصلَ الفقيرِ [١/١٩٣أ] السَّالكِ طريقَ الفقرِ إلىٰ اللهِ الزُّهدُ في الدُّنيا علىٰ الجملةِ؛ لكونِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ صغَّرَهَا وحقَّرَهَا(٤)، وضدُّ الزُّهدِ الرَّغبةُ، فحقُّ كلِّ زاهدٍ ألَّا تكونَ لهُ رغبةٌ فِي شيءٍ منَ الدُّنيا، وإنَّما يرجعُ إلىٰ الدُّنيا بحسبِ ما تَدْعُو إليهِ الضَّرورةُ؛ منَ الطَّعامِ والشَّرابِ والمَنامِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٢٨.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٩٥، وحلية الأولياء ١٠/٣٥١، ومناقب الأبرار ٢/٧٤١، والوافي بالوفيات ١٠/١٤٨، والطبقات الكبرىٰ ١/٢٠٣، والكواكب الدرية ٢/١١٢.

(٣) طبقات الصوفية ص٢٩٧، وورد قوله أيضا في: شعب الإيمان ٣/٢٧٥، ومناقب الأبرار ٢/٧٤٢، والتدوين في أخبار قزوين ٣/٢٢٩.

(٤) ففي سنن الترمذي ٤/٥٦٠: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو كانت الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ما سَقَىٰ كَافِرًا منها شَرْبَةَ مَاءٍ».

هذا هوَ حالُ الكفايةِ، وهيَ تختلفُ باختلافِ الأشخاصِ، فإنْ لمْ يصلِ المُريدُ إلىٰ مَقَامِ الزُّهدِ في الدُّنيَا بالكليَّةِ وبقِيَتْ لهُ رغبةٌ فِي بَعْضِهَا فلَا تُجاوزُ رغبتُهُ كِفَايتَهُ، يعنِي المحتاجَ إليهِ[١].

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **«وَبِهَذَا الإِسْنَادِ قَالَ[٣]: إِذَا أَحْبَبْتَ أَخًا فِي اللهِ فَأَقِلَّ مُخَالَطَتَهُ فِي الدُّنْيَا».**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفقَّكَ اللهُ ـ من بابِ سدِّ الذَّرائعِ، والجريانِ علىٰ الغالبِ منَ الخلقِ، فإنَّ الغالبَ منَ الخلقِ حبُّ الدُّنيَا، وإنْ كانَتْ لهُمْ نيَّةٌ في الصَّلاحِ والخَيرِ، فمتىٰ أعجبَكَ حالُ شخصٍ في دينِهِ وأردْتَ صُحْبَتَهُ فلا تخالطْهُ في دُنْيَاهُ، ولا تتصرَّفْ فيهَا بإدلالٍ عليهِ وتزعمُ أنَّهُ لا يلتفتُ لذلكَ، فإنَّ القلوبَ لها إقبالٌ وإدبارٌ.

فإنْ دعَتْكَ حاجةٌ إلىٰ مصاحبتِهِ في دنياهُ، فاعتمِدْ علىٰ إيثارِكَ لهُ علىٰ نفسِكَ[٤]، فإنْ كانَ هوَ كذلكَ في الإيثارِ ظهَرتْ بينكُمَا البركاتُ، وتساعدْتُمَا علىٰ الخيراتِ، وإنْ كانَ أحدُهُمَا يُؤْثِرُ نفسَهُ ويتَّبعُ هواهُ، فكَمْ يحتملُ أخوهُ ويصبِرُ وما عسَاهُ! فأحسَنُ أحوالِهِ إذا طالَ عليهِ الزَّمانُ أنْ يفارقَ ويمضِي عنهُ بإحسان، وإنْ لمْ يكنْ كذلكَ جرىٰ بينَهُمَا منَ الآلامِ، وتَذَكُّرِ[٥] الأفعالِ القَدِيمَةِ مَا يَقْصُرُ عنهُ الكلامُ، ويكثُرُ ذِكْرُهُ بالأقلامِ.

❁ ❁ ❁

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢١٧.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٢٨.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٩٧، وحلية الأولياء ٣/٢٤٤، ومناقب الأبرار ٢/٧٤٢.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢١٧.

(٥) في (ب): وتذكير.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُمْ:

[٦٥] أَبُو الحُسَيْنِ بْنُ بُنَانٍ[(٢)]

يَنْتَمِي إِلَىٰ أَبِي سَعِيدٍ الخَرَّازِ، مِنْ كِبَارِ مَشَايِخِ مِصْرَ.

قَالَ ابْنُ بُنَانٍ[(٣)]: كُلُّ صُوفِيٍّ كَانَ هَمُّ الرِّزْقِ قَائِمًا فِي قَلْبِهِ، فَلُزُومُ العَمَلِ أَقْرَبُ لَهُ[(٤)]، وَعَلَامَةُ سُكُونِ القَلْبِ إِلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ: أَنْ يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ عُمْدَةَ الصُّوفِيِّ فِي فَرَاغِ قلبِهِ مِنَ المُشْغِلَاتِ، وأشدُّ المُشغِلاتِ ما تدعُو الحاجةُ إليهِ فِي عُمُومِ الأوقاتِ؛ مِنْ أنواعِ الأقواتِ، فمَتَىٰ كانَ القَلْبُ محشوًّا بهذِهِ الهُمُومِ والفكرةِ في جهةِ تحصيلِهَا اشتغلَ عمَّا خلقَ لهُ من معرفةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ومعرفةِ الآخرةِ والأعمالِ [١/٩٣ب] المُوصِّلَة لهَا.

ومتىٰ قَوِيَ يَقِينُهُ وتَوكُّلُهُ علىٰ مَولَاه، بإيصالِ ما لا بدَّ منهُ ما دامَ في دنياهُ، أعرَضَتْ نفسُهُ عن كثيرٍ منَ الأسبابِ، وسكنَ قلبُهُ لربِّ الأربابِ[(٥)]، حتَّىٰ قالَ سفيانُ الثَّوريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «لو لَمْ تُمْطِرِ السَّماءُ، ولمْ تنبتِ الأرضُ، ووقعَ في قلبِي

(١) الرسالة القشيرية ١/١٢٩.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٩٤، وحلية الأولياء ١٠/٣٦٢، وتاريخ دمشق ٦٦/١٤٧، ومناقب الأبرار ٢/٧٣٩، وطبقات الصوفية ص٣٨٤، والكواكب الدرية ٢/٤٩.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٩٤، وتاريخ دمشق ٦٦/١٤٧، ومناقب الأبرار ٢/٧٣٩.

(٤) أي: أقرب لخلاصه من هذا الداء الشاغل لقلبه.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢١٧ ـ ٢١٨.

(٦) ورد قوله في: حلية الأولياء ٧/٦٥، والمختار من مناقب الأخيار ٢/١١٢.

اهتمامٌ للرِّزقِ ظننْتُ أنِّي كافرٌ»، ويعنِي بكونِهِ كافرًا للحقِّ الَّذِي علِمَهُ؛ وهوَ أنَّ اللهَ - تعالىٰ - يرزقُ بهذِهِ الأسبابِ وبغيرِهَا، والكفرُ: التَّغطيةُ والسَّترُ، فكأنَّهُ غطَّىٰ الحقَّ الَّذِي يَعْرفُهُ؛ وهوَ انفرادُ مَولَاهُ بخلْقِ الأرزاقِ بِسَببٍ وبغيرِ سَببٍ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: **«وَقَالَ[2]: اِجْتَنِبُوا دَنَاءَةَ الأَخْلَاقِ[3]، كَمَا تَجْتَنِبُونَ الحَرَامَ».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ودناءةُ الأخلاقِ منقسمةٌ إلىٰ: حرامٍ وغيرِ حرامٍ؛ فالرِّياءُ والعُجبُ والكِبْرُ والحسدُ والشَّماتةُ والعِزَّةُ من جملةِ الأخلاقِ المُحرَّماتِ، وتَرْكُ الصَّفحِ والعفوُ عنِ الزَّلَّاتِ، ومساعدةُ ذوِي الحاجاتِ، وترْكُ المبادرةِ للأعمالِ الصَّالحاتِ، كلُّ ذلكَ منَ الأخلاقِ الَّتِي تَرْكُهَا مِنْ جملةِ الخيراتِ، ولذلكَ قالَ: **«اجتنبُوا الأخلاقَ الرَّديئةَ كمَا تجتنبُونَ المحرَّماتِ»**، والسِّرُّ فيهِ: أنَّ الجريانَ معَ العاداتِ يوقعُ العبدَ فِي المحرَّماتِ، والانكفافُ عنِ الحَلالِ يحفظُ العبدَ عنِ الوقوعِ في الحرامِ، هذا معلومٌ كلُّهُ بينَ الأنامِ[4]، والسَّلامُ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٢٩.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٩٤، وتاريخ دمشق ٦٦/١٤٨، ومناقب الأبرار ٢/٧٣٩.

(٣) أي: الأخلاق المذمومة.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢١٨ ـ ٢١٩.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُم:

[٦٦] أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ شَيْبَانَ القِرْمِسِينِيُّ[٢]

شَيْخُ وَقْتِهِ، وَقَدْ صَحِبَ أَبَا عَبْدِ اللهِ المَغْرِبِيَّ، وَالخَوَّاصَ، وَغَيرَهُمَا.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ[٣]: سَمِعْتُ أَبَا يَزِيدَ المَرْوَزِيَّ الفَقِيهَ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ شَيْبَانَ يَقُولُ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَعَطَّلَ وَيَتَبَطَّلَ فَلْيَلْزَمِ[٤] الرُّخَصَ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تَقَدَّمَ غَيرَ مَرَّةٍ أَنَّهُم لَا يُرِيدُونَ بِالرُّخَصِ القَصْرَ وَالفِطْرَ فِي السَّفَرِ ومَا يجرِي مجرَاهُ ممَّا[٥] رخَّصَ الشَّرعُ فيهِ بعدَ المَنْعِ رحمةً للعالِمِينَ، إنَّمَا يريدُونَ مَا أباحَهُ الشَّرعُ ووسَّعَ فيهِ؛ مثالُهُ أنَّ مَنْ قيلَ لهُ: اعْمُرْ وقتَكَ بالذِّكْرِ والفِكْرِ أَوْ بعضَ أوقاتِكَ، فوجدَ من نفسِهِ فتورًا وكسَلًا قالَتْ لهُ نفسُهُ: ليسَ هذا واجبًا عليكَ فاترُكْهُ، فترَكَهُ لعدَمِ الوجوبِ، أوِ اشتهَتْ[٦] نفسُهُ طعامًا وكانَتْ فيهِ شُبْهَةٌ أوِ اختلافٌ فيُؤْمَرُ بتَرْكِهِ احتياطًا، وتقولُ لهُ نفسُهُ: كُلْهُ؛ لأنَّهُ لمْ يتحقَّقْ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٣٠.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٠٣، وحلية الأولياء ١٠/٣٦١، وتاريخ دمشق ٦/٤٤١، ومناقب الأبرار ٢/٧٥١، ومرآة الجنان ٢/٣٢٥، والبداية والنهاية ١١/٢٣٤، وسير أعلام النبلاء ١٥/٣٩٢، والعبر ٢/٢٥٠، والوافي بالوفيات ٦/١٦، وطبقات الأولياء ص٢١، وشذرات الذهب ٢/٣٤٤، والنجوم الزاهرة ٣/٢٩٨، والطبقات الكبرى ١/٢٠٥، والكواكب الدرية ٢/٩.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٠٤، وشعب الإيمان ٢/٢٩٨، ومناقب الأبرار ٢/٧٥١، وتاريخ دمشق ٦/٤٤٣، وتاريخ الإسلام ٢٥/١٤٦.

(٤) في (ب): فيلزم، والأصح المثبت.

(٥) في (أ): مما.

(٦) في (ج): واشتهت.

كونهُ حرامًا ، فمَنْ تبعَ هذهِ الأمورَ تعطَّلَ منْ أعمالِ البرِّ وتَبطَّلَ منهَا [١٩٤/١] ، وأهلُ الجدِّ[(١)] في السُّلوكِ والرَّاغبونَ في تحصيلِ المكارمِ والأخلاقِ الحميدةِ ، لا يرضَونَ في الفعْلِ بكونِهِ مندوبًا إليهِ خاصَّةً ، بَلْ يطلبُونَ الأَوْلَىٰ منَ المَنْدُوبِينَ ، ولا يقنعُونَ فِي التَّرْكِ بالشُّبَهِ خاصَّةً ، ولا فيمَا نُهِيَ عنهُ تنزيهًا ، بل يتركُونَ الحلالَ خوفًا من أنْ يجرَّهُمْ إلىٰ الوقوعِ فِي شَيءٍ منَ الشُّبَهِ أو لِمَكْرُوهٍ ، وذلكَ لكمالِ جدِّهِم ، ورغبتِهِم في عمارةِ أوقاتِهِمْ بأفضلِ أعمالِهِم[(٢)] .

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)] : «وَبِهَذَا الإِسْنَادِ قَالَ[(٤)] : عِلْمُ الفَنَاءِ وَعِلْمُ البَقَاءِ يَدُورُ عَلَىٰ إِخْلَاصِ الوَحْدَانِيَّةِ ، وَصِحَّةِ العُبُودِيَّةِ ، وَمَا كَانَ غَيْرَ هَذَا فَهُوَ المَغَالِيطُ[(٥)] وَالزَّنْدَقَةُ» .

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ ، فإنَّ عِلْمَ الفناءِ عن غيرِ اللهِ وعِلْمَ البقاءِ معَ اللهِ يدورُ علىٰ ركنَينِ ؛ أحدُهُمَا: إخلاصُ الوحدانيَّةِ عِلْمًا وحَالًا ، و[ثانيهما] تحقيقُ العبوديَّةِ جهدًا وامتثالًا .

فمتىٰ جهدَ العبدُ فِي موافقةِ مولَاهُ ، وكمُلَ إخلاصُهُ لهُ وإعراضُهُ عمَّنْ سواهُ ؛ فنِيَ عن غيرِهِ لكمالِ شغلِهِ بهِ ونَجوَاهُ ، ومتىٰ جدَّ في ذلكَ ورغبَ واشتدَّ رجاؤُهُ فيمَا طلبَ فنِيَ عن نفسِهِ وحُجِبَ وبقِيَ معَ مولَاهُ ؛ الَّذِي خصَّهُ بفضْلِهِ وتولَّاهُ .

والبقاءُ إنَّمَا يكونُ بعدَ الفناءِ ، فإنَّ الفناءَ إعراضٌ عن غَيْرِهِ ، والبقاءَ استغراقٌ

---

(١) في (ب): للجد ، والأصح المثبت .

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢١٩/١ .

(٣) الرسالة القشيرية ١٣٠/١ .

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٠٤ ، وتاريخ دمشق ٤٤٣/٦ ، والعبر ٢٥١/٢ ، وشذرات الذهب ٣٤٤/٢ .

(٥) لما يلزمه من شهود غير الفاعل المختار في شيء من الأشياء . انظر: نتائج الأفكار ٣١١/١ .

في ذكْرِهِ وقُرْبِهِ، وما كانَ في غيرِ إفرادِ الحقِّ علمًا وحالًا وعملًا فهوَ منَ المَغَاليطِ والوَسْوسَةِ وتخيُّلاتِ الشَّيطانِ اللَّعينِ، وتلبيسِهِ الباطلَ باليقينِ(١).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ(٣): السَّفِلَةُ(٤): مَنْ يَعْصِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والسَّفلةُ: أرذالُ النَّاسِ ورذَّالُهُمْ، ولَا أقلَّ قدرًا ولَا أرذلَ حالًا مِمَّنْ تَوالَتْ عليهِ المَعَاصِي ودامَ عليهَا ولم يَتُبْ، وإلَّا مَنْ عَصَى اللهَ وتابَ فليسَ بسفلةٍ، بل مدحَ الشَّرعُ مَنْ هذِهِ صفتُهُ فقالَ(٥): «خِيَارُكُمْ كُلُّ مُفَتَّنٍ تَوَّابٌ».

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢١٩.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٣٠.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٠٤، ومناقب الأبرار ٢/٧٥٢، وله فيهما أكثر من رواية.

(٤) إنما سموا بذلك؛ لانحطاطهم وتأخرهم عن رتبة الأبرار والمقربين، بسبب ارتكابهم للمخالفات والمعاصي.

(٥) أخرجه البزار في مسنده ٢/٢٨٠، والترمذي في نوادر الأصول ٢/٢٠٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/٤١٨.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُم:

[٦٧] أَبُو بَكْرٍ الحُسَيْنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ يَزْدَانْيَار[٢]

مِنْ (أَرْمِينِيَّةَ)[٣]، لَهُ طريقةٌ يختصُّ بِهَا فِي التَّصوُّفِ.

وَكَانَ عَالمًا، وَكَانَ ينكرُ عَلَىٰ بَعْضِ العراقِيِّين[٤] فِي إطلاقاتِ ألفاظٍ لَهُم[٥].

قَالَ ابْنُ يَزْدَانْيَار[٦]: إِيَّاكَ أَنْ تَطْمَعَ فِي الأُنْسِ بِاللهِ وَأَنْتَ تُحِبُّ الأُنْسَ بِالنَّاسِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَطْمَعَ فِي [١/٩٤ب] حُبِّ اللهِ وَأَنْتَ تُحِبُّ الفُضُولَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَطْمَعَ فِي المَنْزِلَةِ عِنْدَ اللهِ وَأَنْتَ تُحِبُّ الْمَنْزِلَةَ عِنْدَ النَّاسِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أَنَّ الأمرَ العَظِيمَ لا يُنَالُ بعضُهُ حتَّىٰ تُعْطِيَهُ كُلَّكَ، ومتىٰ كنتَ مُفرِّقًا مُبدِّدًا اشتغلَتْ بحالِكَ وتعذَّرَ عليكَ نيلُ مَا طَلَبْتَ، وذلكَ أنَّ الأنسَ باللهِ لا يتمُّ إلَّا لمَنْ فرَّغَ قلبَهُ منَ المُشتغلاتِ، وأقبلَ علىٰ ربِّهِ بكليَّةِ قلبِهِ وذكْرِهِ لهُ، وتلذَّذَ بِمُنَاجَاتِهِ في عُمُومِ الأوقَاتِ، وتحسبُهُ لمَا يُواليهِ عليهِ مِنْ نعمِهِ من أنواعِ انتقالِهِ في أعالِي الدَّرجَاتِ، فيلذُّ لهُ ما هوَ فيهِ، ويجدُ الأُنْسَ بمولاهُ،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٣١.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٠٦، وحلية الأولياء ١٠/٣٦٣، ومناقب الأبرار ٢/٧٥٧، وتاريخ الإسلام ٣٢/٧٤، وطبقات الأولياء ص٣٣٥، والطبقات الكبرىٰ ١/٢٠٦، والكواكب الدرية ٢/٨٠.

(٣) بلدة من بلد الروم. انظر: الروض المعطار ص٢٥، وأحسن التقاسيم ص٢٥٤، وإحكام الدلالة ١/٢٢٠.

(٤) في (ب): العارفين، والصواب المثبت.

(٥) انظر: اللمع للطوسي ص٥٠٢، ومناقب الأبرار ٢/٧٥٧.

(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٠٧، ومناقب الأبرار ٢/٧٥٧ وطبقات الأولياء ص٣٣٥.

ويُعْرِضُ قلبُهُ عمَّنْ سواهُ، وكيفَ يَشَمُّ هذهِ الأحوالَ مَنْ قلبُهُ مشغولٌ بغيرِ ذلكَ منَ الأفعالِ أو بالقيلِ والقالِ، وهوَ فضولُ الكلامِ، والشُّغلُ بأحوالِ الأنامِ، وإذا دامَ ذِكْرُ العبدِ لمولَاهُ حصلَ لهُ التَّحسُّسُ لمَا مَنَّ بهِ عليهِ وأولَاهُ وأحبَّهُ؛ لأنَّ القلوبَ مجبولةٌ على حبِّ مَنْ أحسنَ إليهَا، وهذا لا يكونُ إلَّا بكمالِ التَّفرُّغِ والتَّحسُّسِ للنِّعمِ، ولهذَا قالَ: «**وَلَا تَطْمَعْ فِي مَحَبَّةِ اللهِ وَأَنْتَ مُشْتَغِلٌ بِالفُضُولِ**».

ومَنْ كَمُلَ أُنْسُهُ بِمَولاهُ وكَمُلَتْ محبَّتُهُ لهُ وارتفعَتْ عندَ ربِّهِ منزلتُهُ لا يكونُ ذلكَ إلَّا بكمالِ الإخلاصِ والإعراضِ عمَّا ينالُ منَ النَّاسِ؛ مِنْ حَمْدٍ، أو خَوفِ ذَمٍّ، أو مَا(١) يَجْرِي مَجْرَاهُ ممَّا يُعبَّرُ عنهُ بالوسواسِ(٢).

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٢٠.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُم:

[٦٨] أَبُو سَعِيدِ [بنُ][(٢)] الأَعْرَابِيِّ[(٣)]

واسمُهُ: أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ البَصْرِيُّ.

جَاوَرَ الحَرَمَ، وَمَاتَ بِهِ سَنَةَ إِحْدَىٰ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثِمَائَةٍ.

صَحِبَ الجُنَيْدَ، وَعَمْرَو بْنَ عُثْمَانَ المَكِّيَّ، وَالنُّورِيَّ، وَغَيرَهُمْ.

قَالَ ابْنُ الأَعْرَابِيِّ[(٤)]: أَخْسَرُ الخَاسِرِينَ: مَنْ أَبْدَىٰ لِلنَّاسِ صَالِحَ أَعْمَالِهِ، وَبَارَزَ بِالقَبِيحِ[(٥)] مَنْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ أخسرَ الخاسرينَ مَنْ خسرَ الدُّنيا والآخرةَ، وذلكَ أنَّ المُرائِي مُعَذَّبُ القلبِ في دُنياهُ، مُتْعَبٌ في رِضَىٰ مَنْ لا ينفعُهُ رِضَاهُ، شَدِيدُ الحِرْصِ علىٰ الذَّبِّ عن نقصِهِ عندَ مَنْ يرجُو يسيرَ دنياهُ، وإذا كانَ حالُهُ كذا في دنياهُ وَرَاءَىٰ النَّاسَ بأعمالِ أُخْرَاهُ، طلبًا لمَا ذكرْنَاهُ، ولا ينالُ من ذلكَ إلَّا مَا قدَّرَهُ لهُ مولَاهُ، فحصلَ لهُ في دُنياهُ التَّعبُ والنَّصَبُ، وفي الآخرةِ الحسابُ والعذابُ[(٦)] [١/٩٥أ] إلَّا أَنْ يعفوَ اللهُ[(٧)].

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٣٢.

(٢) زيادة من (ب، ف)، والرسالة القشيرية المطبوع.

(٣) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٢٠، وحلية الأولياء ٩/٢٧٦، وتاريخ دمشق ٥/٣٥٣، ومناقب الأبرار ١/٧٧٩، والعقد الثمين ٣/١٣٧، وطبقات الأولياء ص٧٧، وشذرات الذهب ٢/٣٥٤، والكواكب الدرية ٢/٢٧، ومقدمة التحقيق لكتابه: الزهد.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٢١، وشعب الإيمان ٥/٣٦٨، ومناقب الأبرار ٢/٧٨٠.

(٥) لعدم مبالاته بارتكاب المخالفات.

(٦) في (ج): والعقاب.

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٢١.

وبهذَا الاعتبارِ كانَ أخسرَ الخاسرِينَ، فإنَّ مِنَ الخاسرِينَ مَنْ يَفُوتُهُ بعضُ دُنْياهُ، ويسلَمُ لهُ بعضُهَا معَ سلامةِ أُخرَاهُ، وبعضُهُمْ يفوتُهُ جُلُّ نَعِيم دُنْياهُ، وتَسلمُ لهُ أُخرَاهُ، وأخسرُ الخاسرِينَ مَنْ فاتَهُ خيرُ الدَّارَينِ، وحصلَ فيهِمَا بالشَّرَّينِ، والعياذُ باللهِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

«وَمِنْهُم:

[٦٩] أَبُو عَمْرٍو مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الزَّجَّاجِيُّ(٢) النَّيْسَابُورِيُّ(٣)

جَاوَرَ(٤) بِمَكَّةَ سِنِينَ كَثِيرَةً، وَمَاتَ بِهَا.

صَحِبَ الجُنَيْدَ، وَأَبَا عُثْمَانَ، وَالنُّورِيَّ، وَالخَوَّاصَ، وَرُوَيْمًا.

مَاتَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثِمَائَةٍ.

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ(٥): سَمِعْتُ جَدِّي أَبَا عَمْرِو بْنَ نُجَيدٍ يَقُولُ: سُئِلَ أَبُو عَمْرٍو الزَّجَّاجِيُّ: مَا بَالُكَ تَتَغَيَّرُ عِنْدَ التَّكْبِيرَةِ الْأُولَىٰ فِي الفَرَائِضِ؟ فَقَالَ: لِأَنِّي أَخْشَىٰ أَنْ(٦) أَفْتَتِحَ فَرِيضَتِي بِخِلَافِ الصِّدْقِ، فَمَنْ يَقُولُ: (اللهُ أَكْبَرُ) وَفِي قَلْبِهِ شَيْءٌ أَكْبَرُ مِنْهُ، أَوْ قَدْ كَبَّرَ شَيْئًا سِوَاهُ عَلَىٰ مُرُورِ الأَوْقَاتِ فَقَدْ كَذَّبَ نَفْسَهُ عَلَىٰ لِسَانِهِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا دليلٌ علىٰ كمالِ صِدْقِهِ فِي قَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ، وذلكَ أنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ أوجَبَ استقبالَ القبلةِ لجمعِ الهِمَّةِ؛ لأَنَّهُ ـ سبحانه ـ منزَّهٌ عنِ المكانِ والجِهَةِ، وأوجَبَ النِّيَّةَ لإفرادِهِ بالقصْدِ بالأعمالِ، وأوجَبَ التَّكبيرَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٣٣.

(٢) ويقال الزُّجَاجي أيضًا؛ نسبة إلىٰ الزُّجاج لا صُنعه وعمله. انظر: إحكام الدلالة ١/٢٢٢.

(٣) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٢٣، وحلية الأولياء ١٠/٣٧٦، ومناقب الأبرار ٢/٧٨٣، والعقد الثمين ١/٤٠٨، والطبقات الكبرىٰ ١/٢١٣، والكواكب الدرية ٢/١٢٤.

(٤) في (ب): جوار.

(٥) طبقات الصوفية ص٣٢٤. وورد أيضا في: مناقب الأبرار ٢/٧٨٤.

(٦) سقط من (ب، ج، ف) قوله: أخشىٰ أن.

لإشعارِ النَّفسِ أنَّهُ لا أجلَّ مِمَّنْ أقبلَتْ عليهِ واشتغلَتْ بعبادتِهِ؛ لينقطِعَ عمَّنْ سِوَاهُ ذِكْرًا وحَالًا وطمَعًا فيمَا عندَهُ، فَمَنْ قوِيَ جِدُّهُ وكَمُلَ صدقُهُ أرادَ أنْ يصدقَ في قلبِهِ ولِسَانِهِ، وإِذَا أقبلَ علىٰ العِبَادةِ وهوَ يريدُ أنْ يدخلَهَا علىٰ هذا الوصفِ الَّذِي ذكرْنَاهُ وخشِيَ أنْ لا يتمَّ لهُ ذلكَ فيكونَ منَ الكاذبينَ؛ لكونِهِ أخبرَ بلسانِهِ عمَّا ليسَ متحقِّقًا فيهِ تغيَّرَ لونُهُ، وارتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ، وجدَّ في تحصيلِ ذلكَ حتَّىٰ يقومَ بهِ لربِّهِ علىٰ وجْهِهِ في طلَبِهِ، ولقَدْ أخبرَنِي مَنْ يقصدُ هذا الأمرَ، ويجبُ أنْ يقارنَ تكبيرُهُ بلسانِهِ التَّعظيمَ بقلبِهِ زيادةً علىٰ إخلاصِ قصْدِهِ لربِّهِ، وذكرَ أنَّهُ يكابدُ في ذلكَ ويغلبُ عنهُ، وهذَا سالكُ هذَا الطَّريقَ، ويُرجَىٰ لهُ بلوغُ ما أشرْنَا إليهِ منَ التَّحقيقِ، بخلافِ مَنْ يدخلُ هذهِ العبادةَ بأنَّ قولَكَ: (اللهُ أكبَرُ) يُجْزِئُ؛ لأنَّكَ تحرَّمْتَ بهِ بالصَّلاةِ؛ لأنَّ تحريمَهَا التَّكبيرُ وتحليلَهَا التَّسليمُ، وقلبُهُ غافلٌ [١/٩٥ب] عن رُوحِ هذِهِ العبارةِ، فإنَّ مَنْ دخلَهَا كمَا وصفْنَاهُ كانَ في قراءتِهِ أشدَّ حُضُورًا، فإذَا قالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢] نالَ ما ذكرَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربِّهِ بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ[1]: «قَسمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَينِ؛ فَنِصْفُهَا لِي، وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»؛ ثمَّ فسَّرَ ذلكَ قالَ: يقولُ العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، يقولُ تعالىٰ: حَمدَنِي عَبْدِي، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [آية: ٣]، أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي، قولُهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [آية: ٥]، إِخْلَاصُ العبدِ للهِ فِي هذهِ العبادةِ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [آية: ٥]، تبرَّأَ منَ الحَوْلِ والقُوَّةِ إلَّا بهِ[2]، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [آية: ٦]، أوَّلُ مطالبِ العبدِ وسؤالِهِ.

فإذَا أثنَىٰ العبدُ علىٰ ربِّهِ بمَا تقدَّمَ منَ الصِّفاتِ والانفرادِ بالملكِ ليومِ الحسابِ وعَبَدَهُ وتبرَّأَ مِنْ حَوْلِهِ وقوَّتِهِ عن إتيانِ العبادةِ بنفسِهِ فقدْ أتىٰ بمَا هوَ لربِّهِ ثناءٌ وعبادةٌ وتبرَّأَ، والنِّصفُ الثَّاني هوَ ما دُعِيَ لهُ من هدايتِهِ إلىٰ الصِّراطِ المستقيمِ،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٩٦/١ ـ حديث رقم (٣٩٥).

(٢) في (ب): الآية، والصواب المثبت.

وخلاصِهِ عن سُلُوكِ طريقِ مَنْ أضلَّهُ وغضبَ عليهِ مِنَ المُبْعَدِينَ ، فإذَا حضرَ العبدُ في أوَّلِ صلاتِهِ ودخلَهَا بالتَّعظيم ، سهُلَ عليهِ بعدَ ذلكَ ما ذكرْنَا من هذا الجزاءِ العميم ، وإذا دخلَهَا مَعَ محضِ حركةِ اللِّسانِ بالتَّكبيرِ ومعرفةِ القلبِ أنَّهُ يؤدِّي[١] فرضَ مَا عليهِ لَا غيرُ ، وخَطرَتِ الوَسَاوِسُ لهُ في أثناءِ عِبادتِهِ لمْ يجدْ مَانعًا منَ القبولِ ؛ لعدمِ الإجلالِ والتَّعظيم ، فإنَّ القلبَ إذا امتلأَ بالخيرِ لَمْ يَجِدْ خَوَاطرُ الشَّيطانِ إلىٰ وُلُوجِهِ سبيلًا ، واللهُ المُوفِّقُ والمُعِينُ .

فتغيَّرَ لونُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمعرفتِهِ بمَا يُقْدِمُ عليهِ من هذا الغَرَرِ[٢] العظيمِ ، ولذلكَ كانَ عليُّ بنُ أبِي طالبٍ[٣] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيرُهُ إذا توضَّأَ اصفرَّ لونُهُ وتغيَّرَ ، فإذَا سُئِلَ عن ذلكَ قالَ: وَيْلَكُمْ ، أتدرونَ بينَ يدَي مَنْ أُرِيدُ أَنْ أقومَ ؟! .

وهذا جارٍ فيمَا بينَ الغافلِينَ في دنياهُمْ إذَا دُعُوا إلىٰ الحضورِ بينَ يدَيِ السَّلاطينِ ، وإنْ لمْ يكونُوا عندَهُمْ في السَّطوةِ بالغينَ لَحِقَهُمْ ما ذكرْنَاهُ ، خوفًا منْ أدنىٰ ضَرَرٍ[٤] ، فكيفَ بمَا وردَ فِي الخَبَرِ[٥]: «إنَّ العبدَ تُكْتَبُ لهُ من صَلاتِهِ: نصفُهَا ، ثلُثُهَا ، رُبْعُهَا» ، وإنَّمَا ذلكَ لزيادةِ التَّعظيمِ والاحترامِ معَ صحَّةِ أَصْلِهَا منْ غيرِ احترامٍ .

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) أي: الخطر.

(٣) هذا الخبر مروي عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في: المجالسة وجواهر العلم ص١٣٦ ، وإحياء علوم الدين ١/١٥١ ، وتاريخ دمشق ٤١/٣٧٨ ، وتهذيب الكمال ٢٠/٣٨٢ ، وصفة الصفوة ٢/٩٣ .

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٢٢ .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه ١/٢١١ بلفظ: «عن عَمَّارِ بن يَاسِرٍ قال سمعت رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وما كُتِبَ له إلا عُشْرُ صَلَاتِهِ تُسْعُهَا ثُمْنُهَا سُبْعُهَا سُدْسُهَا خُمْسُهَا رُبْعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا» ، وكذا النسائي في سننه الكبرىٰ ١/٢١١ .
قال المناوي: «أراد أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص بحسب الخشوع والتدبر ونحوه مما يقتضي الكمال» التيسير بشرح الجامع الصغير ١/٢٨٣ ، وفيض القدير ٢/٣٣٣ .

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [١/١٩٦أ][١]: «**وَقَالَ**[٢]: (**مَنْ تَكَلَّمَ عَن حَالٍ لَمْ يَصِلْ إِلَيْها كَانَ كَلَامُهُ فِتْنَةً لِمَنْ سَمِعَهُ**[٣]، **وَدَعْوَىٰ تَتَوَلَّدُ فِي قَلْبِهِ، وَحرَمَهُ اللهُ الوصولَ إِلَىٰ تِلْكَ الحَالِ**).

جَاوَرَ بِمَكَّةَ سِنِينَ كَثِيرةً لَمْ يَتطَهَّرْ[٤] **فِي الحَرَمِ، كَانَ يَخْرُجُ إِلَىٰ الحِلِّ وَيَتَطَهَّرُ فِيهِ؛ احْتِرَامًا لِلحَرَمِ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا لِمَنْ يتكلَّمُ فِي الأحوالِ العاليَةِ ويُوهِمُ أنَّهُ نالَهَا، فإنَّهُ يكونُ مُدَّعيًا متشبِّعًا بمَا لمْ ينَلْ، ويكونُ كلامُهُ سببًا للاعتراضِ عليهِ؛ لأنَّ حالَهُ يناقضُ مَا تكلَّمَ فيهِ، وبهذا الوجْهِ كانَ كَلامُهُ فتنةً علىٰ غيرِهِ، أيْ: بليَّةً ومحْنَةً، وإلَّا مَنْ تكلَّمَ في ذلكَ علىٰ وجْهِ العلمِ، وبيانِ مَرَاتبِ العَامِلِينَ ومَا منَّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عليهِم بهِ، وتفصيلِ دَرَجَاتِهِم، كلُّ ذلكَ عَلِمَهُ بأدلَّتِهِ من أحوالِ الصَّالحينَ[٥]، وإنْ كانَ نالَ بعضَ ما نَالُوهُ، فإنَّهُ يستدلُّ ببعضِ ما نالَهُ علىٰ وقوعِ أعظَمَ منهُ لغيرِهِ، ولا يكونُ مدَّعِيًا ولا متشبِّعًا بمَا لم يَنَلْ، ويكونُ كَلامُهُ دِينًا وَبَيَانًا للأحكامِ، وتَنْبِيهًا علىٰ رِفْعَةِ كُلِّ مَقَامٍ.

وأمَّا كونُهُ لم يتطهَّرْ داخلَ الحرَمِ هذِهِ المدَّةَ الطَّويلةَ، فيحتملُ أمرَينِ:

أحدُهُمَا: أنَّهُ لم يتبرَّزْ تشريفًا للحرَمِ، وإنْ كانَ يتوضَّأُ طاهرًا ويغتسلُ إنْ دعَتْهُ ضَرُورةٌ إليهِ، فإنَّ تشريفَ الحرَمِ إنَّمَا يكونُ بإبعَادِ النَّجاساتِ عنهُ، وهيَ السُّنَّةُ ـ أيضًا ـ في الإبعادِ وقتَ قَضَاءِ الحاجةِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٣٣.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٢٤، ومناقب الأبرار ٢/٧٨٤.

(٣) لأنه قد يغتر به فيدعي مثله.

(٤) في (ب): يظهر، والصواب المثبت.

(٥) في (أ): المصالحين، والصواب المثبت.

و[الثَّانِي]: يحتملُ أنْ يكونَ مرادُهُ بذلكَ أنَّهُ قليلُ الغذاءِ وقليلُ النَّومِ، إنَّمَا يأكلُ مرَّةً واحدةً، وربَّمَا كانَتْ بعدَ الأيَّامِ، فيكونُ تبرُّزُهُ ونقضُ طهارتِهِ تابعًا لقلَّةِ أكْلِهِ، فيكونُ ذلكَ نادرًا فيخرجُ إليهِ إلىٰ التَّنعيمِ، فيقضِي حاجتَهُ ويتطهَّرُ ويبقَىٰ علىٰ طهارةٍ معَ قلَّةِ نومِهِ.

وَقَدْ حُكِيَ عن جَمَاعةٍ من أهلِ الخَيْرِ عنِ سعيدِ بنِ المُسيّبِ[١] وغيرِهِ[٢] أنَّهُ كانَ يصلِّي الصُّبحَ بوضوءِ العتمَةِ[٣] أربعينَ سنةً، واللهُ أعلمُ.

(١) روي عنه في المدهش ص٤٣١. وفي حلية الأولياء ٢/١٦٣: «صلىٰ سعيد بن المسيب الغداة بوضوء العتمة خمسين سنة»، وكذا في: صفة الصفوة ٢/٨٠، والبداية والنهاية ٩/١٠٠.

(٢) روي أيضا عن أبي حنيفة في: تهذيب الأسماء ٢/٥٠٥، والبداية والنهاية ١٠/١٠٧، وعن وهب بن منبه في: الثقات ٥/٤٨٨، وصفة الصفوة ٢/٢٩٤، والمنتظم ٧/١٤٠، وعن عبد الواحد بن زيد البصري الزاهد في: العبر ١/٢٧٠، ولسان الميزان ٤/٨٠.

(٣) أي: العشاء.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُم:

[٧٠] أَبُو مُحَمَّدٍ جعفرُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ نُصَيرٍ[(٢)]

بَغْدَادِيُّ المَنْشَأِ وَالمَوْلِدِ، صَحِبَ الجُنَيْدَ وَانْتَمَى إِلَيْهِ، وَصَحِبَ النُّورِيَّ، وَرُوَيمًا، وَسُمْنُونًا، وَالطَّبَقَةَ.

مَاتَ بِبَغْدَادَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثِمَائَةٍ[(٣)].

قَالَ جَعْفَرٌ[(٤)]: لَا يَجِدُ العَبْدُ لَذَّةَ المُعَامَلَةِ مَعَ اللهِ مَعَ لَذَّةِ النَّفْسِ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الحَقَائِقِ قَطَعُوا العَلَائِقَ [١/٩٦ب] الَّتِي تَقْطَعُهُمْ عَنِ الحَقِّ قَبْلَ أَنْ تَقْطَعَهُمُ العَلَائِقُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإِنَّهُ ـ تعالى ـ قالَ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤]؛ وذلكَ أنَّ القلبَ إذا امتلأَ بشيءٍ شُغِلَ بِهِ عن غَيْرِهِ[(٥)]، ولا يجدُ اللَّذَّةَ مَعَ اللهِ والأنسَ به والتَّنعُّمَ بِمُنَاجَاتِهِ إلَّا مَنِ اجتهدَ في

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٣٤.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٢٧، وحلية الأولياء ١٠/٣٨١، ومناقب الأبرار ٢/٧٨٧، وصفة الصفوة ٢/٤٦٨، والوافي بالوفيات ١١/١٠٩، والبداية والنهاية ١١/٢٣٤، وتاريخ الإسلام ٢٥/٣٩٧، والعبر ٢/٢٨٥، وسير أعلام النبلاء ١٥/٥٥٨، وطبقات الأولياء ص١٧٠، وشذرات الذهب ٢/٣٧٨، والطبقات الكبرى ١/٢١٢، والكواكب الدرية ٢/٦٥.
ويعرف بجعفر الخلدي، وذكر في تاريخ بغداد ٧/٢٢٧ سبب تسميته بذلك، ونصه: «سمعت جعفر بن محمد الخلدي يقول: كنت يوما عند الجنيد بن محمد وعنده جماعة من أصحابه يسألونه عن مسألة، فقال لي: يا أبا محمد أجبهم، قال: فأجبتهم، فقال: يا خلدي من أين لك هذه الأجوبة؟! فجرى اسم الخلدي عليَّ إلى يومي هذا».

(٣) في مناقب الأبرار ٢/٧٨٩: «وقبره بالشونيزية عند قبر سري السقطي والجنيد».

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٢٧، وحلية الأولياء ١٠/٣٨١، ومناقب الأبرار ٢/٧٨٨، وتاريخ الإسلام ٢٥/٣٩٧.

(٥) لأنَّ المشغول لا يُشغل.

ذلكَ، وتفرَّغَ لهُ بالكلِّيَّةِ، ودامَ عليهِ حتَّىٰ مَنَّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عليهِ بمحبَّةِ ذلكَ، وصارَتْ فيهِ لذَّتُهُ وقُرَّةُ عَيْنِهِ[١]، ومَنْ كَانَ كذلكَ أعرضَ عن شَهَواتِ نَفْسِهِ، والتَّلذُّذِ بأسبابِ دُنيَاهُ، ومتَىٰ طمَعَ العبدُ أنَّهُ ينالُ شيئًا ممَّا ذَكَرْنَاهُ مَعَ اشتِغَالِهِ بِدُنياهُ، واستحسانِهِ لأحوالِهِ، وتنعُّمِهِ بشهواتِهِ، طلبَ محالًا عادةً[٢].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَينِ[٤]** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ[٥]: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَاذَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرًا يَقُولُ: إِنَّ مَا بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ الوُجُودِ أَنْ تَسْكُنَ التَّقْوَىٰ قَلْبَهُ[٦]، فَإِذَا سَكَنَتِ التَّقوَىٰ قَلْبَهُ نَزلَتْ عَلَيْهِ بَرَكَاتُ العِلْمِ، وَزَالَتْ عَنْهُ رَغْبَةُ الدُّنْيَا**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ويعنِي بالوجودِ وجودَ الحقِّ ـ سبحانه ـ، وقد أطلقَهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ نفسِهِ؛ فقالَ: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: ٣٩].. الآية.

والتَّقوَىٰ: هيَ الحذَرُ بالمُجانَبةِ، فمتَىٰ جَانبَ الإخلالَ بالواجِبَاتِ، وارتكابَ المُحرَّماتِ فِي قَلْبِهِ وبَدَنِهِ وتَرَقَّىٰ إلىٰ تَرْكِ المكروهَاتِ وفِعْلِ المَنْدُوبَاتِ، وتَعَلَّقَتْ هِمَّتُهُ بأفضلِ الطَّاعاتِ والقُرُباتِ، والإعراضِ عن يَسِيرِ المُشْكِلَاتِ والشُّبهَاتِ، نَالَ مِنْ رَبِّهِ غَايَةَ الكَرَامَاتِ، هذا معنَىٰ الوجودِ أنْ يدومَ نظرُهُ إلىٰ مَوْلَاهُ، وتَعبُّدُهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ.

---

(١) فذوق لذة المعاملة له عَزَّوَجَلَّ لا يتم مع وجود لذة حظوظ النفس؛ إذ لا يجتمع نور وظلمة في محل واحد.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٢٣.

(٣) الرسالة القشيرية ١/١٣٤.

(٤) في (أ، ج): الحسن، والمثبت موافق لما في الرسالة القشيرية.

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٢٩، ومناقب الأبرار ٢/٧٨٩، طبقات الأولياء ص١٧١.

(٦) وذلك بفعل المأمورات وترك المنهيات.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١):

«وَمِنْهُم:

[٧١] أَبُو العَبَّاسِ السَّيَّارِيُّ(٢)

وَاسْمُهُ القَاسِمُ بْنُ القَاسِمِ، مِنْ (مَرْوٍ)، صَحِبَ الوَاسِطِيَّ، وَانْتَمَى إِلَيْهِ فِي عُلُومِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، وَكَانَ عَالِمًا(٣).

مَاتَ سَنَةَ اثْنَتَينِ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثِمَائَةٍ.

سُئِلَ أَبُو العَبَّاسِ السَّيَّارِيُّ(٤): بِمَاذَا يُرَوِّضُ المُرِيدُ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ: بِالصَّبْرِ عَلَى فِعْلِ الأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، وَصُحْبَةِ الصَّالِحِينَ، وَخِدْمَةِ الفُقَرَاءِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وقد تكَرَّرَ هذا مِرَارًا أنَّ العَبْدَ إنَّمَا يُرَوِّضُ نفسَهُ بالأُمُورِ الشَّرعيَّةِ المُوافِقَةِ للسُّنَّةِ، لَا بمَا يزعمُ بعضُ النَّاسِ أنَّهُ يلتفتُ إلى المقصودِ خاصَّةً ولا يلتفتُ إلى الوسَائِلِ حتَّى يحصِّلُوا طيبَ [١/١٩٧أ] الأحوالِ ووجودَ السَّماعِ بأيِّ سببٍ كانَ؛ منَ الغناءِ والشَّبَّابةِ(٥)، وغيرِ ذلكَ منَ الأسبابِ المكروهةِ المُحَرَّمةِ(٦) على الاختلافِ(٧).

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٣٥.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٣٠، ومناقب الأبرار ٢/٧٩٨، وتاريخ الإسلام ٢٥/٢٦٧، وسير أعلام النبلاء ١٥/٤٨٧، والعبر ٢/٢٢٦، وطبقات الأولياء ص٣٦٧، وشذرات الذهب ٢/٣٦٤، والنجوم الزاهرة ٣/٣٠٩، والطبقات الكبرى ١/٢١٤، والكواكب الدرية ٢/٥١.

(٣) سقط من (ب) قوله: وكان عالما.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٣٢، ومناقب الأبرار ٢/٧٩٨.

(٥) آلة من آلات الملاهي، وهي الزمارة. انظر: تهذيب الأسماء ٣/٣٧١. وانظر حكمها الفقهي في: الحاوي الكبير ١٧/١٩٢.

(٦) في (ج): المحرمات، والأصح المثبت.

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٢٤.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ[٢]: مَا التَذَّ عَاقِلٌ بِمُشَاهَدَةِ الحَقِّ[٣] قَطُّ؛ لِأَنَّ مُشَاهَدَةَ الحَقِّ فَنَاءٌ لَيْسَ فِيهَا لَذَّةٌ[٤]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهوَ يُرِيدُ كَمَالَ الاصطِلَامِ حتَّى يَفْقِدَ العبدُ إِحْسَاسَهُ بنفسِهِ، فعبَّرَ بالمُشَاهَدةِ عن هذهِ الحَالةِ وإلَّا فَقَدْ يكونُ العَبْدُ مُشَاهِدًا لمولاهُ قليلَ الغَفْلَةِ عنهُ، نَاظرًا لمَا يَرِدُ عليهِ من فَضْلِهِ، وهوَ مدركٌ لنفسِهِ ومولَاهُ وبفضْلِهِ عليهِ فيكونُ مشاهدًا لا يخرجُ بهذِهِ التَّفرقةِ عن كونِهِ مشاهدًا، فإنَّهُمْ سمَّوا الجمعَ وجمعَ الجَمعِ[٥]، وأطلقُوا الفَنَاءَ وفَنَاءَ الفَنَاءِ[٦].

فمتَى كَمُلَ شغلُ الإنسانِ بربِّهِ، حتَّى فنِيَ من ذِكْرِ غيرِهِ مِنْ قلبِهِ كانَ فناءً، وإِنْ قَوِيَ شغلُهُ بهِ حتَّى نسِيَ نفسَهُ كانَ فناءَ الفَناءِ[٧]، وكذلكَ المُشَاهدةُ فيهَا أعلَى وأدْنَى.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٣٥.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٣٢، ومناقب الأبرار ٢/٧٩٩، وتاريخ الإسلام ٢٥/٢٦٨، وتتمة قوله فيها: «ولا التذاذ، ولا حظ، ولا احتظاظ».

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) لفناء الإحساس بفناء النفس في هذا المقام.

(٥) في معجم اصطلاحات الصوفية ص٦٧: «الجمع: شهود الحق بلا خلق. جمع الجمع: شهود الخلق قائما بالحق، ويسمّى الفرق بعد الجمع». وانظر: عبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص٥٦.

(٦) انظر: معجم اصطلاحات الصوفية ص٣٦٥، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٢٠٧.

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٢٤.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«**وَمِنْهُمْ:**

[٧٢] أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ دَاوُدَ الدِّينَوَرِيُّ، الْمَعْرُوفُ بِ(الدُّقِّيِّ)[٢]

أَقَامَ بِالشَّامِ، وَعَاشَ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ سَنَةٍ.

مَاتَ بَعْدَ الخَمْسِينَ وَثَلَاثمائَةٍ.

صَحِبَ ابْنَ الجَلَّا، وَالزَّقَّاقَ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الدُّقِّيُّ[٣]: المِعْدَةُ مَوْضِعٌ يَجْمَعُ الأَطْعِمَةَ، فَإِذَا طَرَحْتَ فِيهَا الحَلَالَ صَدَرَتِ[٤] الأَعْضَاءُ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَإِذَا طَرَحْتَ فِيهَا الشُّبْهَةَ اشْتَبَهَ عَلَيكَ الطَّرِيقُ إِلَى اللهِ ـ تعالى ـ، وَإِذَا طَرَحْتَ فِيهَا الحَرَامَ[٥] كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَمْرِ اللهِ حِجَابٌ».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا خِلافَ أنَّ الحَلالَ واجبٌ على العَبْدِ مَعْرِفَتُهُ وطلَبُهُ، ولَا يصحُّ طلبُهُ لهُ ومعرفتُهُ إلَّا بعدَ تَثَبُّتِهِ وقتَ تصرُّفِهِ في أَخْذِهِ وعطائِهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٣٦.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٣٥، ومناقب الأبرار ٢/٨٠٣، وتاريخ دمشق ٥٢/٤٣٥، والأنساب ٢/٤٨٦، وبغية الطلب ١٠/٤٣٤٥، وتاريخ الإسلام ٢٦/٢١٧، والوافي الوفيات ٣/٥١، ومسالك الأبصار ٨/١٥٥، وطبقات الأولياء ص٣٠٦، والطبقات الكبرى ١/٢١٥، والكواكب الدرية ٢/١٢٨.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٣٦، وتاريخ دمشق ٥٢/٤٣٥، ومناقب الأبرار ٢/٨٠٤، وطبقات الأولياء ص٣٠٦.

(٤) في (أ، ج): صارت، وأشار الناسخ في حاشية (ب) أنها في نسخة: صارت، والمثبت موافق لما في الرسالة القشيرية، ومظان تخريجه.

(٥) في (ف): التبعات، وأشير في حاشية (ب) أنها في نسخة: التبعات، وهكذا مثبت في الرسالة القشيرية المطبوع، وهما بمعنى واحد، وقد أبقيتُ على المثبت؛ لأنه في مقابل: الحلال.

وتحصيلِهِ من جهاتِهِ، وإذا كانَ كذلكَ كانَتْ أعضاؤُهُ كلُّهَا متصرِّفةً في الخَيرَاتِ، مُحَصِّلةً لصَفاءِ الأَقْواتِ، عينُهُ ويَدُهُ وَرِجْلُهُ ولِسَانُهُ وسَائرُ حَرَكَاتِهِ، فيكونُ الحاملَ لإصلاحِ هذِهِ الأعضاءِ تثبُّتُهُ في طلبِ الحَلالِ، هذا وَجْهٌ في إصلاحِ أعضائِهِ وجريَانِهَا على مقتضَى العِلْمِ.

الوَجْهُ الثَّانِي: أنَّ الحلالَ كالزَّيتِ الَّذِي منهُ يُنوَّرُ البيتُ، فيكونُ اللهُ ـ سبحانه ـ أَجْرَى العَادَةَ بأنَّ مَنْ أكلَ حلالًا نشطَ لعملِ الطَّاعاتِ، ووُفِّقَ للأعمالِ الصَّالحاتِ.

ومتَى كانَ العبدُ بخلافِ ما [١/٩٧ب] ذَكَرْنَاهُ منَ التَّثبُّتِ بقلبِهِ وسَائرِ أعضائِهِ فيمَا يأكلُهُ حتَّى أكلَ حَرَامًا كانَ بينَهُ وبينَ اللهِ حِجَابٌ؛ لغلبةِ شَهْوَتِهِ على قلْبِهِ حتَّى أَعْمَتْهُ عن تثبُّتِهِ، وإذا أكلَ متشابهًا كانَ بينَ ذلكَ؛ وهوَ أنَّ عندَهُ بعضَ التَّثبُّتِ حتَّى يخلصَ منَ الحَرَامِ البيِّنِ، ولم يكملْ تَقْوَاهُ حتَّى وَصَلَ إلى الحَلالِ الصَّافِي، ولذلكَ اشتبَهَ الأمرُ عليهِ، واللهُ أعلمُ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُم:

[٧٣] أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الرَّازِيُّ[٢]

مَوْلِدُهُ وَمَنْشَؤُهُ بِـ(نَيْسَابُورَ).

صَحِبَ أَبَا عُثْمَانَ الحِيرِيَّ، وَالجُنَيْدَ، وَيُوسُفَ بْنَ الحُسَيْنِ، وَرُوَيْمًا، وَسُمْنُونًا، وَغَيْرَهُمْ.

مَاتَ سَنَةَ ثَلاثٍ وَخَمْسِينَ وَثَلاثِمِائَةٍ.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٣]: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ الرَّازِيَّ يَقُولُ وَقَدْ سُئِلَ: مَا بَالُ النَّاسِ يَعْرِفُونَ عُيُوبَهُمْ وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَى الصَّوَابِ؟ فَقَالَ: لِأَنَّهُمُ اشْتَغَلُوا بِالمُبَاهَاةِ بِالعِلْمِ وَلَمْ يَشْتَغِلُوا بِاسْتِعْمَالِهِ، وَاشْتَغَلُوا بِالظَّوَاهِرِ وَلَمْ يَشْتَغِلُوا بِآدَابِ البَوَاطِنِ، فَأَعْمَى اللهُ قُلُوبَهُم[٤]، وَقَيَّدَ جَوَارِحَهُمْ عَنِ العِبَادَاتِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ العبدَ إنَّمَا يرجعُ عن خَطَئِهِ وَزَلَلِهِ بكَمَالِ خَوفِهِ من ربِّهِ، وَشِدَّةِ حذَرِهِ من مَقْتِهِ وعَذَابِهِ، وإنَّما يصحُّ لهُ ذلكَ بدوامِ الفكْرِ في وعدِهِ ووعيدِهِ، وتفصيلِ ما ذكرَهُ في كتابِهِ ممَّا أهلكَ بهِ العُصَاةَ في القلوبِ والأبدانِ؛ منَ الرَّيْنِ والطَّبعِ والقفلِ والقَسْوةِ وغيرِ ذلكَ من آفاتِ القلوبِ، وما

(١) الرسالة القشيرية ١/١٣٧.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٣٧، ومناقب الأبرار ٢/٨٠٩، وطبقات الأولياء ص١٣٩، والطبقات الكبرى ١/٢١٦، والكواكب الدرية ٢/١٠٨.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٣٧، وشعب الإيمان ٢/٢٩٥، ومناقب الأبرار ٢/٨٠٩، والكواكب الدرية ٢/١٠٨.

(٤) في مظان تخريج قوله: «فأعمى الله قلوبهم عن الطريق إلى الصواب».

أهلَكَ جُمْلَتَهُمْ بالغَرقِ والرِّيحِ والصَّيحةِ(١) والحجارةِ، وغيرِ ذلكَ منَ البلاءِ النَّازلِ بهِمْ في الدُّنيَا، وأينَ هذا من عذابِ الآخرةِ!، وتفصيلِ مَا وصفَهُ - سبحانه - في جهنَّمَ وسلاسلِهَا وأغلالِهَا(٢) وشَرابِهَا وسُوءِ مائِهَا(٣).

فالفِكْرةُ في هذِهِ الأمورِ تحملُ العقلاءَ علىٰ الإقلاعِ عن ذنوبِهِم بالتَّوبةِ إلىٰ ربِّهِم، وإذَا فُقِدَتْ هذِهِ الأمورُ وهوَ المُعَبَّرُ عنهُ، والمُرادُ بقولِهِ: «**وَلَمْ يَشْتَغِلُوا بِآدَابِ البَوَاطِنِ أَعْمَىٰ اللهُ قُلُوبَهُمْ**»، وَإِذَا لم تتأدَّبِ البواطنُ وتَنْصَلِحْ لمْ تَنْصَلِحِ الظَّواهرُ؛ لأنَّ «في البَدَنِ مضغةً إذَا صَلُحَتْ صَلُحَ سائرُ الجسدِ، وإذا فسدَتْ فسدَ سائرُ الجسدِ، ألَا وهيَ القلبُ»(٤).

فمَنِ اشتغلَ بإصلاحِ ظاهرِهِ بزعْمِهِ ولَمْ يعتَنِ بإصلاحِ باطنِهِ أسرعَ إليهِ الفسادُ، ولذلكَ يعودُ إلىٰ ما كانَ عليهِ منَ المُعْتادِ(٥).

---

(١) كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وغير ذلك.

(٢) كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤].

(٣) كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ١/٢٨ ـ حديث رقم (٥٢)، ومسلم في صحيحه ٣/١٢١٩ ـ حديث رقم (١٥٩٩)، بلفظ: «... ألا وَإِنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وَهِيَ القَلْبُ».

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٢٦.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُم:

[٧٤] أَبُو عمرٍو إِسْمَاعِيلُ بْنُ نُجَيدٍ[(٢)]

صَحِبَ أَبَا عُثْمَانَ[(٣)]، وَلَقِيَ الجُنَيْدَ، وَكَانَ كَبِيرَ الشَّأْنِ.

آخرُ مَنْ مَاتَ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي عُثْمَانَ.

تُوُفِّيَ سَنَةَ سِتٍّ [١/١٩٨أ] وَسِتِّينَ وَثَلَاثِمَائَةٍ.

سَمِعْتُ الشَّيخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَقُولُ[(٤)]: سَمِعْتُ جَدِّي أَبَا عَمْرِو بْنَ نُجَيدٍ يَقُولُ: كُلُّ حَالٍ لَا يَكُونُ عَن نَتِيجَةِ عِلْمٍ فَإِنَّ ضَرَرَهُ عَلَىٰ صَاحِبِهِ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ العلومَ بالمَعْلُومَاتِ هيَ الَّتي تُكسبُ القُلُوبَ الأحوالَ، كالعلمِ بالمخوفِ فإنَّهُ يكسبُ القلبَ الهَربَ، والعلمِ بالمَرْجُوِّ فإنَّهُ يكسبُ القلبَ شِدَّةَ الطَّلَبِ، والعلمِ بالمُنْعِمِ ومعرفةِ النِّعمِ يفيدُ القلبَ المحبَّةَ للمُنْعِمِ، وكذلكَ معرفةُ الجَمالِ والجلالِ تُكْسِبُ القلبَ الهيبةَ والتَّعظيمَ، وكلُّ حالٍ لا يكونُ عن هذهِ العلومِ فإنَّ ما فعلَهُ صاحبُهُ تكلُّفًا إمَّا رياءً أو تشبُّعًا بمَا لم ينَلْ، وأمَّا إذا كانَ طالبًا لهُ بعدَ مَعْرِفَتِهِ ومُتكلِّفًا لكَمالِ قُوَّتِهِ كالمتخوِّفِ حتَّىٰ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٣٨.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٣٩، ومناقب الأبرار ٢/٨١٢، والأنساب ٣/٢٧٩، والإكمال ١/١٨٨، وسير أعلام النبلاء ١٦/١٤٦، والعبر ٢/٣٤٢، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٣/٢٢٢، ومسالك الأبصار ٨/١٥٨، وطبقات الأولياء ص١٠٧، وشذرات الذهب ٣/٥٠، والطبقات الكبرىٰ ١/٢١٧، والكواكب الدرية ٢/٥٥.

(٣) أي: الحِيري.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٤٠، والاعتصام ١/٩٧، وتاريخ الإسلام ٢٦/٣٣٦، ومدارج السالكين ٢/٤٦٨.

يصيرَ خائفًا، وكالمتزهِّدِ إلىٰ أنْ يصيرَ زاهدًا، وكالمتباكِي إلىٰ أنْ يهيجَ منهُ البكاءُ، فهذا كلُّهُ محمودٌ، وإنَّمَا المذمومُ التَّكلُّفُ[(١)] للتَّشبُّعِ، بما لم ينَلْ؛ وهوَ الكذَّابُ، أوِ المُرَائِي بالخيرِ لنَيْلِ دُنْيَا، وهمَا هالكانِ إلَّا أنْ يعفوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ[(٢)].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ[(٤)]: مَنْ ضَيَّعَ فِي وَقْتٍ مِنْ أَوْقَاتِهِ فَرِيضَةً افْتَرَضَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عَلَيْهِ.. حُرِمَ لَذَّةَ تِلْكَ الفَرِيضَةِ وَلَوْ بَعْدَ حِينَ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وتضييعُهَا: إمَّا بإسقاطِهَا بالكلِّيَّةِ، أو إيقاعِهَا مُخْتَلَّةً ببعضِ شُرُوطِهَا[(٥)]، أو بأنْ يُحدثَ فيهَا مَا يفسدُهَا منَ الأفعالِ والكلامِ، فهذَا كلُّهُ تضييعٌ لِلفَرِيضَةِ.

وقولُهُ: «مُنِعَ لَذَّتَهَا وَلَوْ بَعْدَ حِين» يعنِي: أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يعاقبُهُ علىٰ تَضْيِيعِهَا متعمِّدًا، ولَوْ قَضَاهَا بِأنْ يزيلَ لذَّتَهَا من قلبِهِ ولوْ بعدَ حِين.

وفِي روايةٍ أُخْرَىٰ[(٦)]: «إلَّا بعدَ حِين»، فالأوَّلُ يعاقبُهُ بعدَ مدَّةٍ، والثَّانِي يمنعُهُ من وجودِ اللَّذَّةِ ناجزًا في القيامِ بتلكَ العبادةِ مدَّةً منَ الزَّمانِ إلىٰ أنْ يعفوَ عنهُ فيُعيدَ لهُ لذَّتَهَا، وهذَا كمَا حُكِيَ[(٧)].

وقد تقدَّمَ أنَّ بعضَهُم نظرَ إلىٰ شابٍ جميلِ الصُّورةِ قالَ لهُ شيخُهُ[(٨)]: «أَنَظَرْتَ

---

(١) في (ب): المتكلف.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٢٧.

(٣) الرسالة القشيرية ١/١٣٨.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٤٠، ومناقب الأبرار ٢/٨١٣.

(٥) سواء كانت شروط صحة أو كمال. انظر: نتائج الأفكار ٢/٧.

(٦) أشير في حاشية (أ) إلىٰ أنه في نسخة: «إلا بعد حين».

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٢٧.

(٨) سبق تخريجه ص٣٧١.

إليهِ؟ لَتجِدَنَّ عُقُوبَتَهَا ولو بعدَ حِين، قالَ الطَّالبُ: فَنَسِيتُ القرآنَ بعدَ عشرينَ سنةً»، فهذِهِ عقوبةٌ على ارتكابِ المَحَارمِ، والأوَّلُ عُقُوبةٌ على الإخْلالِ بِوَاجِبٍ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَسُئِلَ عَنِ التَّصوُّفِ فَقَالَ[(٢)]: الصَّبْرُ تَحْتَ الأَمْرِ وَالنَّهْي [١/٩٨ب]، [سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ الحُسَينِ يقولُ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلكَ][(٣)]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا جيِّدٌ؛ فإنَّهُ فَسَّرَ بهِ التَّصوُّفَ لا الصُّوفيَّ، فإنَّ التَّصوُّفَ: هوَ التَّخلُّقُ باكتسابِ أخلاقِ الصُّوفيَّةِ، وذلكَ من جنْسِ التَّباكِي إذا تكلَّفَ البُكَاءَ واستجلَبَهُ، وإنَّمَا يتعوَّدُ الإنسانُ الأخلاقَ المَحْمُودَةَ والتَّخلُّصَ منَ الأخلاقِ المَذْمُومَةِ بالصَّبرِ تحتَ الأمْرِ والنَّهْيِ.

فكلُّ مأمورٍ بهِ حَسَنٌ شَرْعًا، واجبًا كانَ أو مَنْدُوبًا، وإنْ تعالَتْ درجتُهُ فلا يُنالُ إلَّا بالصَّبرِ، وكلُّ مَنْهِيٍّ عنهُ قبيحٌ شرْعًا مُحَرَّمًا كانَ أو مكروهًا، أو مشغلًا، ولا يُنالُ الخَلاصُ من ذلكَ إلَّا بالصَّبرِ، فقولُهُ: «**الصَّبرُ تَحْتَ الأمْرِ والنَّهْيِ**»، يعنِي: في امتثالِهِمَا، ويدخلُ تحتَ هذَا ما تضمَّنَهُ؛ وهوَ الصَّبرُ تحتَ المُرِّ والحلْوِ منَ القَضاءِ، فإنَّهُ مأمورٌ بهِ مَنْهِيٌّ عنِ الجَزَعِ فيهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَقَالَ[(٥)]: آفَةُ العَبْدِ رِضَاهُ مِنْ نَفْسِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ الآفَةَ المَانِعَةَ مِنَ السُّلوكِ هي قنوعُ العبدِ ورِضَاهُ بمَا هوَ فيهِ منَ المقاماتِ، فإنَّ ذلكَ يمنعُهُ منَ التَّطلُّبِ لمَا هوَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٣٨.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٣٩، ومناقب الأبرار ٢/٨١٣.

(٣) زيادة من (ف).

(٤) الرسالة القشيرية ١/١٣٨.

أعلَىٰ منهُ، وهذا فيهِ غلطٌ، وذلكَ أنَّ الرِّضَا بالحاصلِ لا يمنعُ العبدَ من طلَبِ مَا لم يحصلْ منَ المُمْكنَاتِ، من فَضْلِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ورفيعِ الدَّرجاتِ، فإنَّ الرِّضَا إنَّمَا يتحقَّقُ بعدَ نُزُولِ القَضَاءِ، وأمَّا قبلَ ذلكَ فعزمٌ عليهِ، فإذا وقعَ أو نَزلَ المقضِيُّ رضِيَ العبدُ بهِ إنْ كانَ ممَّا يَصِحُّ الرِّضَا بهِ، والَّذِي يضادُّ الرِّضَا سَخَطُهُ لمَا وقعَ وكراهتُهُ لهُ، وأمَّا ما لمْ يقَعْ ممَّا يمكنُ وقوعُهُ فسؤالُهُ ربَّهُ في الفتْحِ عليهِ بهِ لا يضادُّ الرِّضَا بالحَاصِلِ، ولمْ يزَلِ العلماءُ السَّادةُ الرَّاضونَ بقضاءِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ الواقعِ يسألونَهُ الخيرَ فيمَا لم يقَعْ، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ لنبيِّهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(١) [طه: ١١٤].

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٢٧ ـ ٢٢٨.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

«وَمِنْهُمْ:

[٧٥] أَبو الحَسَنِ(٢) عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سَهْلٍ البُوشَنْجِيُّ(٣)

أَحَدُ فِتْيَانِ خُرَاسَانَ، لَقِيَ أَبَا عُثْمَانَ، وَابْنَ عَطَاءٍ، وَالجُرَيْرِيَّ، وَأَبَا عَمْرٍو الدِّمَشْقِيَّ.

مَاتَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثمَائَةٍ(٤).

سُئِلَ البُوشَنْجِيُّ عَنِ المُرُوءَةِ فَقَالَ(٥): تَرْكُ اسْتِعْمَالِ مَا هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيكَ مَعَ الكِرَامِ الكَاتِبِينَ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مُرَادُهُ ـ واللهُ أَعْلَمُ ـ تَرْكُ الحَرامِ علىٰ كُلِّ حالٍ؛ سَواءٌ كانَ وحْدَهُ أو معَ النَّاسِ، وإنْ كانَ لا يخلو منَ الملائكةِ الكِرامِ الكَاتِبِينَ [١/٩٩أ]، ومِنْ مُرُوءتِهِ أَلَّا يُشهدَهُمْ ما يكرهون كتابَتَهُ ممَّا حرَّمَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ، فإنَّهُ قدْ جاءَ في بعضِ الأخبارِ أنَّهُمْ يُرَدُّونَ(٦) بالأعمالِ الخسيسةِ الَّتي يعلمُهَا اللهُ ـ تعالىٰ ـ ولا تعلمُهَا الملائكةُ، ويقالُ: اضربُوا بهِ وجْهَ عامِلِهِ، فإنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي بهذا العَمَلِ،

(١) الرسالة القشيرية ١/١٣٩.

(٢) في (أ، ج): أبو الحسين، والمثبت الصواب، وهو موافق لما في الرسالة القشيرية ومظان ترجمته.

(٣) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٤٢، وحلية الأولياء ١٠/٣٧٩، وتاريخ مدينة دمشق ٤١/٢١١، ومناقب الأبرار ٢/٨١٦، والوافي بالوفيات ٢٠/٨٦، وفيه: «ويقال: عليّ بن إبراهيم»، وطبقات الفقهاء الشافعية ٢/٥٩٥، وطبقات الأولياء ص٢٥٢، والنجوم الزاهرة ٣/٣٢٠، والطبقات الكبرىٰ ١/٢١٧، والكواكب الدرية ٢/٣١.

(٤) في طبقات الفقهاء الشافعية ٢/٥٩٥: «توفي بنيسابور سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، ودفن بقرب أبي علي الثقفي».

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٤٣، وتاريخ دمشق ٤١/٢١٣، ومناقب الأبرار ٢/٨١٧.

(٦) في (أ، ج): يردوا، والصواب المثبت.

وإذا كانَ كذلكَ حَصَلَ للمَلائكةِ في رَدِّهِمْ ما ظنُّوا حُسْنَهُ مَا فيهِ.

فمِنَ المُرُوءةِ الكاملةِ أنْ يتحفَّظَ ويتثبَّتَ في جميعِ أفعالِهِ بقلبِهِ وجوارِحِهِ حتَّىٰ لا يكونَ فيهَا ما يكرهُهُ مولَاهُ، ولا أحدٌ من خلقِهِ[١]، ويدخلُ في هذا كشفُ عَورتِهِ إذا كانَ وحدَهُ من غيرِ ضَرُورةٍ، هل يحلُّ لهُ ذلكَ أمْ لَا؟ لاختلافِ النَّاسِ فيهِ، فمِنْ مُرُوءتِهِ ألَّا يكشفَهَا إلَّا لِضَرُورةِ قَضَاءِ الحَاجةِ وَغيرِهَا.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقَالَ لَهُ إِنْسَانٌ: ادْعُ اللهَ لِي، فَقَالَ[٣]: أَعَاذَكَ اللهُ مِنْ فِتْنَتِكَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا راجعٌ إلىٰ قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]؛ فإنَّ العبدَ هوَ المفتونُ، والأموالَ بهَا يُفْتَتَنُ، فكأنَّهُ دعَا له بِسَلامتِهِ منَ الفتنةِ مطلقًا من كلِّ ما يُفْتَتَنُ بهِ، وقد يُفْتَتَنُ الإنسانُ بالمَالِ والجَمَالِ والولدِ والجَاهِ، وغيرِ ذلكَ ممَّا يحبُّ ويشتغلُ الإنسانُ بهِ عن دينِهِ، فدعا لهُ دعوةً عامَّةً بالسَّلامةِ من كُلِّ فتنةٍ[٤].

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقَالَ البُوشَنْجِيُّ[٦]: أَوَّلُ الإِيمَانِ مَنُوطٌ بِآخِرِهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ أوَّلَهُ شهادةُ (أنَّ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، [وأنَّ] محمَّدًا[٧] رسُولُ اللهِ) نُطْقًا باللِّسانِ، واعتقادًا بالقلبِ، وإذا عمِلَ الإنسانُ

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢٢٨/١.
(٢) الرسالة القشيرية ١٣٩/١.
(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٤٤، وتاريخ مدينة دمشق ٢١٣/٤١، ومناقب الأبرار ٨١٧/٢.
(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢٢٨/١.
(٥) الرسالة القشيرية ١٣٩/١.
(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٤٤، وحلية الأولياء ٣٧٩/١٠، وتاريخ دمشق ٢١٣/٤١.
(٧) في (ب): محمد، والأصح المثبت.

بمقتضى هذهِ الشَّهادةِ أفردَ ربَّهُ بالقصدِ والعمل، ورسولَهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحقِّ فيمَا قالَ وفعل، فإذَا كمُلَ في هذهِ الأفعالِ والأخلاقِ وصارَتْ لهُ غالبةً على قلبِهِ حتَّى لم يرَ غيرَ ربِّهِ، فقدَ وصلَ إلى غايةِ الإيمانِ، وهوَ مقامُ الإحسانِ؛ وهوَ أنْ يعبدَ العبدُ ربَّهُ كأنَّهُ يرَاهُ، فأوَّلُهُ عقدٌ بالقلبِ ونطقٌ باللِّسان، وآخرُهُ شُغْلٌ بالحقِّ عن كُلِّ إنسان، وبهذَا كانَ أوَّلُهُ متعلِّقًا بآخرِهِ.

ويحتملُ وجهًا آخرَ: أنْ يكونَ ما سبقَ للعبدِ في الأزَلِ، هوَ الَّذِي يجرِي عليهِ في الأبَدِ؛ من إيمانٍ أو كفرٍ أو طاعةٍ أو عصيانٍ؛ ومعناهُ: لَا يجرِي عليكَ في مستأنفِ الأزمانِ إلَّا ما سبقَ بهِ قدَرُ الرَّحمنِ، فقدِ ارتبَطَ أوَّلُهُ بآخرِهِ.

ويحتملُ وجهًا آخرَ: وهوَ [١/٩٩ب] نَفْيُ الاغترارِ عنِ العُمَّالِ بأوائلِ الأمورِ، حتَّى يتحقَّقُوا مَا يُخْتَمُ لهُمْ بهِ منَ المَقدُورِ[١].

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٢٨ ـ ٢٢٩.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُم:

[٧٦] أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ خَفِيفٍ الشِّيرَازِيُّ[(٢)]

صَحِبَ رُوَيْمًا، وَالجُرَيرِيَّ، وَابْنَ عَطَاءٍ، وَغَيرَهُمْ.

مَاتَ سَنَةَ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِمَائَةٍ. شَيْخُ الشُّيوخِ وَأَوْحَدُ[(٣)] وَقْتِهِ.

وَقَالَ ابْنُ خَفِيفٍ[(٤)]: الإِرَادَةُ: اسْتِدَامَةُ الكَدِّ، وَتَرْكُ الرَّاحَةِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قد تقدَّمَ[(٥)] أنَّ الإرادةَ[(٦)]: اسمٌ لمَبادِئِ سُلُوكِ الطَّريقِ لأعالِي الدَّرجاتِ، ولَا يُنالُ ذلكَ إلَّا بالكدِّ والاجتهادِ في تحصيلِ المُرَادِ، ويكونُ العَبْدُ مُتَبَرِّئًا من إرادتِهِ وعَادَاتِهِ، مَشْغُولًا بتحصيلِ مَطْلُوبِ ربِّهِ وإنْ تعالَىٰ في دَرَجَاتِهِ، ولذلكَ قَالُوا[(٧)]: المُرِيدُ مَنْ لا إرادةَ لهُ[(٨)].

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٤٠.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية للسلمي ص٣٤٥، وتاريخ دمشق ٥٢/٤٠٥، ومناقب الأبرار ٢/٨١٩، والوافي بالوفيات ٣/٣٥، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٣/١٤٩، وتاريخ الإسلام ٢٦/٥٠٦، وسير أعلام النبلاء ١٦/٣٤٢، وتوضيح المشتبه ٣/٤٣٧، وطبقات الأولياء ص٢٩٠، والطبقات الكبرىٰ ١/٢١٨، والكواكب الدرية ٢/١٤٠، وهدية العارفين ١/٤٩.

(٣) في (ج): وواحد.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٤٧، ومناقب الأبرار ٢/٨٢٠، ولفظهما: «حقيقة الإرادة».

(٥) ص٢٠٦، ٤٢٠.

(٦) أي: الإرادة المعتبرة لنيل المشاهدات. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٠.

(٧) ورد في الرسالة القشيرية ٢/٣٥١. وانظر: مدارج السالكين ٢/٣٦٤.

(٨) أي: من لا إرادة له ترجع إلىٰ الشهوة.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَقَالَ[2]: لَيْسَ شَيْءٌ أَضَرَّ بِالمُرِيدِ مِنْ مُسَامَحَةِ النَّفْسِ فِي رُكُوبِ الرُّخَصِ[3] وَقَبُولِ التَّأْوِيلَاتِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يعضِّدُ ما تقدَّمَ مِنْ كَلامِهِ، فإذا كانَ المُريدُ هوَ شَديدَ الجهدِ والاجتهاد، في تَحْصِيلِ المَأمُورِ بهِ المُرَاد، فأضرُّ ما عليهِ ميلُهُ إلىٰ الرَّاحاتِ، وأنواع الفَرَحِ[4] والبَطَالاتِ الَّتِي لَيْسَتْ بِمُحرَّماتٍ، فإنَّ ذلكَ يُضَادُّ اجتهَادَهُ فِي الخَيْرَاتِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَسُئِلَ عَنِ القُرْبِ فَقَالَ[5]: قُرْبُكَ مِنْهُ ـ تعالىٰ ـ بِمُلَازَمَةِ المُوَافَقَاتِ، وَقُرْبُهُ مِنكَ بِدَوَامِ التَّوْفِيقِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ القُرْبَ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ليسَ بالتَّدَانِي والمَسَافةِ، فإنَّ ذلكَ من لَوَاحقِ الأجسامِ، والحقُّ ـ سبحانه ـ ليسَ بجسمٍ، وهوَ منزَّهٌ عنِ المكانِ والزَّمانِ، وإنَّما قُرْبُ العبدِ مِنْ رَبِّهِ استشعارُ قَلْبِهِ نَظَرَهُ إليهِ، وقلَّةُ غَفْلَتِهِ عنهُ، ومُرَاقبتُهُ في سَائرِ حَرَكَاتِهِ وسَكَنَاتِهِ من أعمالِ قَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ، وقُرْبُ الحقِّ منَ العبدِ بتوَالِي نِعَمِهِ عليهِ[6]، وحفظِهِ لهُ، وتوفيقِهِ إيَّاهُ لسائرِ ما يُحِبُّهُ منهُ ويَرْضَاهُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[7]: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ [بن بَاكويه][8] الصُّوفِيَّ

(١) الرسالة القشيرية ١/١٤٠.
(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٤٧، وتاريخ دمشق ٥٢/٤٠٧، ومناقب الأبرار ٢/٨٢١، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٣/١٥٥.
(٣) أي: ارتكابها.
(٤) في (ج): الفرج، وهو تصحيف.
(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٤٧، وتاريخ دمشق ٥٢/٤٠٧، ومناقب الأبرار ٢/٨٢١.
(٦) أي: بإفاضة الأنوار وقوة الأسرار.
(٧) الرسالة القشيرية ١/١٤٠.
(٨) زيادة من (ف).

[الشِّيرَازِيّ][(١)] يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ بْنَ خفيفٍ يَقُولُ[(٢)]: رُبَّمَا كُنْتُ أَقْرَأُ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِي فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ عَشْرَ آلافِ مَرَّةٍ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وَرُبَّمَا كُنْتُ أَقْرَأُ فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ الْقُرْآنَ كُلَّهُ، وَرُبَّمَا كُنْتُ أُصَلِّي مِنَ الغَدَاةِ إِلَىٰ العَصْرِ أَلْفَ رَكْعَةٍ!».

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا إنَّمَا يذكرُهُ تحريكًا للمُريدينَ الشَّبابِ؛ لِيَجِدُّوا فيمَا هُمْ فيهِ، وتَعْرِيفًا لهُمْ بتقصيرِهِمْ [١/١٠٠أ] فيمَا يدعونَ بسلُوكِهِ ويخبرُهُمْ بِبِدَايَتِهِ كيفَ كانَتْ؛ ليحقِّرُوا أنفسَهُمْ ويجدُّوا في الطَّلب؛ لنيلِ المقصودِ والأرب.

وهذا الَّذِي ذكرَهُ عظيمٌ فِي المجاهدةِ، ولذلكَ قالَ: **(وَلَرُبَّمَا)** إشارةً لبعضِ أحوالِهِ، وليسَ كانَ ذلكَ منهُ علىٰ الدَّوامِ، وإنَّمَا كانَ يُرتِّبُ أورادَهُ علىٰ حسبِ طاقتِهِ، وإذا فُتِحَ لهُ بابٌ منَ الخيرِ انتهزَهُ في بعضِ الأوقاتِ، فيقرأُ القرآنَ كلَّهُ في ركعةٍ، كمَا حُكِيَ[(٣)] أنَّ بعضَ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: كنتُ بمكَّةَ ليلةً في المقامِ[(٤)] أصلِّي فإذَا رجلٌ منْ خلْفِي وضعَ يدَهُ بينَ كتِفِي إشارةً إلىٰ أنْ أوسِّعَ لهُ، فإذَا هوَ عثمانُ بنُ عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأحرَمَ ثُمَّ ابتدأَ القرآنَ وختمَهُ في ركعةٍ واحدةٍ، وربَّمَا كانَتْ وِتْرَهُ، وصلَّىٰ قبلَهَا مَا شاءَ اللهُ.

* قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: **«سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ بْنَ بَاكُويه الشِّيرَازِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا أَحْمَدَ الصَّغِيرَ يَقُولُ: دَخَلَ يَوْمًا مِنَ الأَيَّامِ فَقِيرٌ، فَقَالَ لِلشَّيْخِ أَبِي**

---

(١) زيادة من (ف). وهو: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن باكويه الشيرازي الباكوي، شيخ الصوفية في وقته، العالم بطريقهم، توفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة.
انظر في ترجمته: الإكمال ١/١٦٦، وتوضيح المشتبه ١/٣٣١، وميزان الاعتدل ٨/١٨٠.

(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥٢/٤١٤، ومناقب الأبرار ٢/٨٢٢.

(٣) في (ب): في ليلة المقام.

(٤) في (ب): في ليلة المقام.

(٥) الرسالة القشيرية ١/١٤٠.

عَبْدِ اللهِ بْنِ خَفِيفٍ[١]: بِي وَسْوَسَةٌ، فَقَالَ الشَّيْخُ: عَهْدِي بِالصُّوفِيَّةِ يَسْخَرُونَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَالآنَ الشَّيْطَانُ يَسْخَرُ بِهِمْ!».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ النُّفوسَ إنَّما تكرَّرَ عليهَا الوسواسُ منَ الشَّيطانِ اللَّعينِ بسببِ تعلُّقِهَا بالمَحْبُوبَاتِ ويَرْجُو موافقتَهَا لهُ في ذلكَ ويحجزُهَا إيمانُهَا فتردُّ، ثمَّ يُكرِّرُ الشَّيطانُ الوسوسةَ، وهذا حالُ الضُّعفاءِ.

وأمَّا مَنْ ثبتَ عندَ دعاءِ الشَّيطانِ وعرَفَ مَا دعاهُ إليهِ منَ الخُسْرَانِ، وكانَ شديدَ الحذَرِ منَ المُنْقِصَاتِ، شديدَ الرَّغبةِ في الخَيْراتِ استهزَأَ بخواطرِ الشَّيطانِ؛ لقلَّةِ رغبتِهِ فيمَا دعَاهُمْ إليهِ منَ الخُسْرانِ[٢]، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ لتلميذِهِ: «إذا دعاكَ خاطرٌ منَ الشَّيطانِ إلى شيءٍ فاضْحَكْ؛ فإنَّهُ ينقطعُ عنكَ»، وذلكَ أنَّ ضَحِكَهُ دليلٌ على استهانتِهِ بخواطرِهِ وقلَّةِ أثرِهَا في قلبِهِ، وربَّمَا كانَتْ خواطرُ اللَّعينِ سببًا لزيادةِ هذا المُوفقِّ في الجدِّ بكمالِ اليقينِ، فإذَا رآهُ الشَّيطانُ كذلكَ ترَكَهُ ومَا هوَ عليهِ، ولَا يكونُ مُحَرِّكًا لهُ إلى زيادةِ الخَيْرَاتِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الْعَبَّاسِ الكَرْخِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ بْنَ خفيفٍ يَقُولُ: ضَعُفْتُ عَنِ القِيَامِ فِي النَّوَافِلِ، فَجَعَلْتُ بَدَلَ كُلِّ رَكْعَةٍ مِنْ أَوْرَادِي رَكْعَتَيْنِ قَاعِدًا؛ لِلْخَبَرِ[٤]: «صَلَاةُ القَاعِدِ عَلَى النِّصْفِ مِنْ صَلَاةِ القَائِمِ»».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ [١/١٠٠ب] على كَمَالِ اجتهادِهِ كمَا قدَّمْنَاهُ.

---

(١) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥٢/٤٠٩.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٣٠.

(٣) الرسالة القشيرية ١/١٤٠.

(٤) أخرجه بلفظه النسائي في سننه الكبرى ١/٤٣٠، وابن ماجه في سننه ١/٣٨٨، والبيهقي في سننه الكبرى ٢/٤١٩. وأخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم (١٠٦٤) بلفظ: «.. وَمَنْ صلى قَاعِدًا فَلَهُ نِصْفُ أَجْرِ القَائِمِ».

وقد حملَ بعضُ العلماءِ هذَا الحديثَ على أنَّهُ صلَّى قاعدًا من غيرِ ضَرورةٍ وهوَ قادرٌ على القيامِ فنقصَ أجرُهُ لتَرْكِ القيامِ معَ إمكانِهِ، وأمَّا إذَا كانَ قُعُودُهُ اضطرارًا لمَرَضٍ أو عجزٍ فهذِهِ حالتُهُ الَّتِي يمكنُهُ الصَّلاةُ عليهَا، فيستوِي أجرُهُ قائمًا وجالسًا[١]، فإنَّهُ لم يقصِّرْ عنْ مُمْكِنِهِ ولَا يكلِّفُ اللهُ نفسًا إلَّا وسعَهَا، ويعضدُّ هذَا جريانُهُ في الفَريضةِ؛ وهوَ أنَّ مَنْ كانَتْ في ذمَّتِهِ صلواتٌ وهوَ صحيحٌ قادرٌ على القيامِ ففرَّطَ فيهَا، فلمَّا تابَ وعزَمَ على قضائِهَا وكانَ عاجزًا عنِ القيامِ فصلاتُهُ قاعدًا تُجْزِئُهُ، وتنوبُ لهُ عمَّا تركَهُ وهوَ قائمٌ، واللهُ المُسَلِّمُ.

(١) انظر: المجموع للنووي ٣/٢٣١.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]:

«وَمِنْهُم:

[٧٧] أَبُو الحُسَيْنِ بُنْدَارُ بْنُ الحُسَيْنِ الشِّيرَازِيُّ[2]

كَانَ عَالِمًا بِالأُصُولِ، كَبِيرًا فِي الحَالِ[3]، صَحِبَ الشِّبْلِيَّ.

مَاتَ بِـ(أَرَّجَانَ)[4] سَنَةَ ثَلاثٍ وَخَمْسِينَ وَثَلاثمائَةٍ.

قَالَ بُنْدَارُ بْنُ الحُسَيْنِ[5]: لَا تُخَاصِمْ لِنَفْسِكَ[6]، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ لَكَ، دَعْهَا لِمَالِكِهَا يَفْعَلْ بِهَا مَا يُرِيدُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا فيهِ تعليمٌ لِتَرْكِ الأخلاقِ الذَّميمةِ وتسهيلٌ للإعْرَاضِ عنهَا، فإنَّ الإنسانَ إنَّمَا يقابلُ في الغالبِ ويخاصمُ عن ملكِهِ ومَا لَهُ قدرةٌ علىٰ حفْظِهِ ومُعَاينتِهِ، فإِذَا تحقَّقَ عندَ هذا العبدِ أنَّ نفسَهُ وجميعَ ما يملكُهُ ملكٌ لربِّهِ اعتمدَ فِي ذَلِكَ عَلَيهِ وَاكْتَفَىٰ بِحُسْنِ نَظَرِهِ إِلَيهِ، فَإِنَّهُ القادرُ علىٰ جَلْبِ ما ينفعُهَا ودفعِ ما يَضُرُّهَا عنهَا، وحصلَ لهُ التَّوكُّلُ الأكيدُ والرِّضَا بمَا يُجريهِ الحقُّ ـ سبحانه ـ في

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٤١.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٤٩، ومناقب الأبرار ٢/٨٢٩، والوافي بالوفيات ١٠/١٨٣، وسير أعلام النبلاء ١٦/١٠٨، وتاريخ الإسلام ٢٦/١٤، وطبقات الأولياء ص١٢٠، والنجوم الزاهرة ٣/٣٣٨، والطبقات الكبرىٰ ١/٢١٨، والكواكب الدرية ٢/٦٢.

(٣) وهو خادم الشيخ أبي الحسن الأشعري. انظر: طبقات الشافعية الكبرىٰ ٣/٢٢٤.

(٤) هي مدينة بين فارس وأهواز، بناها قباذ بن فيروز ملك الفرس، وهو أنوشروان، وأسكن فيها سبي همدان. انظر: معجم البلدان ١/١٤٣، والروض المعطار ص٢٥، والأنساب ١/١٠٦.

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٥٠، وحلية الأولياء ١٠/٣٨٥، ومدارج السالكين ٢/٤٤٣، وسير أعلام النبلاء ١٦/١٠٩.

(٦) بل خاصم له عَزَّوَجَلَّ في طلب رضاه.

حالِ السَّعَةِ والتَّسديدِ، كلُّ ذلكَ مِنْ آثارِ إعراضِهِ عن نَظَرِهِ لنفسِهِ، وتَوَكُّلِهِ في جَمِيعِ ذلكَ علىٰ ربِّهِ[١].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقَالَ بُنْدَارٌ[٣]: صُحْبَةُ أَهْلِ البِدَعِ تُورِثُ الإِعْرَاضَ عَنِ الحَقِّ.

وَقَالَ بُنْدَارٌ[٤]: اترُكْ مَا تَهْوَىٰ لِمَا تَأْمُلُ[٥]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُهُ: «صُحْبَةُ أَهْلِ البِدَعِ تُورِثُ الإِعْرَاضَ عَنِ الحَقِّ» فصحيحٌ؛ فإنَّ النُّفوسَ إلىٰ الاقتداءِ بالأفعالِ أسرعُ منهَا إلىٰ الاقتداءِ بالأقوالِ، وإذا كانَ الشَّخصُ لا يرىٰ ويسمعُ إلَّا متصرِّفًا بغيرِ السُّنَّةِ في أقوالِهِ وأفعالِهِ تأنَّسَتْ بِذلكَ نفسُهُ واعتادَتْهُ، وربَّمَا استحسَنَتْهُ[٦] ورأَتْهُ طاعةً وعملَتْ بهِ.

وأمَّا قولُهُ: «اُتْرُكْ مَا تَهْوَىٰ لِمَا تَأْمُلُ» فإنَّ مَنْ لم يكنْ بهذهِ الصِّفةِ لم يعملْ لآخرتِهِ[٧]، ولم ينتقِلْ عن درجتِهِ في دنياهُ وحالتِهِ، فإنَّ الَّذي يهوَاهُ فِي [١/١٠١أ] دنياهُ إنْ لم يُعرضْ عنهُ لم يشتغِلْ بالطَّاعاتِ الَّتي هيَ أسبابُ النَّجاةِ، ولمْ يجِدْ لذَّةَ الأُنْسِ بمولاهُ، والمراقبةِ لهُ في سائرِ تصرُّفاتِهِ في قلبِهِ وجوارحِهِ، فهذهِ حالةٌ شريفةٌ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٣١.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٤١.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٥١، وتبيين كذب المفتري ص١٨١، ومناقب الأبرار ٢/٨٣١، والاعتصام ١/٩٨، وسير أعلام النبلاء ١٦/١٠٩.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٥٠، وتبيين كذب المفتري ص١٨١، ومناقب الأبرار ٢/٨٣١.

(٥) أي: ما تميل إليه من شهوات النفس للذي ترجوه مما وعد به سيد الكائنات، ويكون ذلك بدوام المجاهدة في العبادة مع إخلاصها.

(٦) في (ج): استحسنه، والصواب المثبت.

(٧) في (ج): بآخرته.

لهُ في دنيَاهُ، ولا يصِلُ العبدُ إليهَا ويأملُ الوصولَ إليهَا إلَّا إذَا أعرَضَ عن هَواهُ، وكذلكَ الجزاءُ عليهَا فِي أُخْرَاهُ، والعبدُ يأملُ الوصولَ إلىٰ هذِهِ الخيراتِ وشريفِ المَقَامَاتِ مِن ربِّهِ في دنيَاهُ، والجزاءَ عليهَا من ربِّهِ في أخرَاهُ، فإنْ لم يتركْ هَوَاهُ ويتفرَّغْ لهَا لم ينَلْ شيئًا ممَّا ذكرْنَاهُ، ولهذَا أمرَهُ بأنْ يتركَ مَا يَهْوَىٰ لمَا يأملُ؛ فإنَّ مَا يأملُهُ أفضلُ مِمَّا تركَهُ وأنفعُ لهُ في دنيَاهُ وآخرتِهِ[١].

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٣١ ـ ٢٣٢.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُم:

[٧٨] أَبُو بَكْرٍ الطَّمِسْتَانِيُّ[٢]

صَحِبَ إِبْرَاهِيمَ الدَّبَّاغَ وغيرَهُ[٣]، وَكَانَ أَوْحَدَ وَقْتِهِ عِلْمًا وَحَالًا.

مَاتَ بِـ(نَيْسَابُور) بَعْدَ سَنَةِ أَرْبَعِينَ وَثَلَاثِمَائَةٍ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الطَّمِسْتَانِي[٤]: النِّعْمَةُ العُظْمَىٰ: الخُرُوجُ مِنَ النَّفْسِ، وَالنَّفْسُ أَعْظَمُ حِجَابٍ بَيْنَكَ وَبَينَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قولُهُ: «النِّعْمَةُ العُظْمَىٰ خُرُوجُكَ مِنَ النَّفْسِ»، قد بيَّنَّا فيمَا تقدَّمَ أنَّ النَّفْسَ فِي اصطلاحِ القومِ يُرادُ بهَا الأخلاقُ الذَّميمةُ والشَّهواتُ الرَّديئةُ، والنِّعمةُ العُظْمَىٰ خروجُ العبدِ من هذِهِ الأخلاقِ، أيْ: مفارقتُهَا والبُعْدُ منهَا، فإنَّهُ ما دامَ موقوفًا معَ شهواتِهِ، محجوبًا بمستحسنَاتِهِ؛ فهوَ بعيدٌ منَ الخيراتِ[٥]، محجوبٌ بهذِهِ الآفَاتِ؛ عنِ الرُّتَبِ العَالِيَةِ والدَّرجَاتِ.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الشِّيرَازِي رَحِمَهُٱللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الأَصْبَهَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الطَّمِسْتَانِي يَقُولُ[٦]: إِذَا هَمَّ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٤٢.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٥٢، وحلية الأولياء ١٠/٣٨٢، ومناقب الأبرار ٢/٨٣٥، وتاريخ الإسلام ٢٥/٤٨٣، وطبقات الأولياء ص٣٥٣، والطبقات الكبرىٰ ١/٢١٨، والكواكب الدرية ٢/٤٣.

(٣) أي: من مشايخ الفرس.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٥٢، وحلية الأولياء ١٠/٣٨٢، ومناقب الأبرار ٢/٨٣٦.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٦) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٢٣٣.

القَلْبُ عُوقِبَ فِي الوَقْتِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ويريدُ بذلكَ العزمَ علىٰ الشُّرورِ، فإنَّ الهَمَّ متردِّدٌ بينَ حديثِ النَّفسِ والعزمِ، فإذا عزمَ العبدُ علىٰ مَا لا يرضَىٰ ثمَّ تفطَّنَ لذلكَ وجدَ أثرَ ذلكَ في قلبِهِ؛ منَ الوحشَةِ والغفلةِ، وعدمِ الحضورِ والرِّقَّةِ.

هذهِ عقوباتٌ عاجلةٌ يدركُهَا الموفَّقُونَ منْ أنفسِهِمْ، فيتوبونَ منهَا ويرجعونَ إلىٰ إصلاحِ قلوبِهِمْ، وهذَا إنَّمَا يكونُ لمَنْ جلَّتْ رُتبتُهُ، وألهمَهُ اللهُ لنقْصِهِ ليتدارَكَهُ بسرعةٍ ويرجعَ فيهِ إلىٰ ربِّهِ.

وفيهِ دليلٌ علَىٰ أنَّ العبدَ يُؤَاخَذُ بِعَزمِهِ علىٰ الأفعالِ بِجَوارِحِهِ وإنْ لَمْ يَفْعَلْهَا[1]، رَدًّا علىٰ مَنْ زعمَ أنَّهُ لا يُؤَاخَذُ حتَّىٰ يفعلَ بجوارحِهِ[2]، فنبَّهَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكلامِهِ علىٰ ذلكَ.

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «وَقَالَ: [١/١٠١ب] الطَّرِيقُ وَاضِحٌ، وَالكِتَابُ وَالسُّنَّةُ قَائِمٌ بَيْنَ أَظْهُرِنَا[4]، وَفَضْلُ الصَّحَابَةِ مَعْلُومٌ؛ لِسَبْقِهِمْ إِلَى الهِجْرَةِ وَلِصُحْبَتِهِمْ، فَمَنْ صَحِبَ مِنَّا الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ[5]، وَتَغَرَّبَ عَنْ نَفْسِهِ[6] وَالخَلْقِ، وَهَاجَرَ بِقَلْبِهِ إِلَىٰ

---

(١) في مجموع الفتاوىٰ ١٤/١٢٢ ـ ١٢٣: «... مؤاخذة العبد بالهمة: فمن الناس من قال يؤاخذ بها إذا كانت عزمًا، ومنهم من قال لا يؤاخذ بها، والتحقيق أن الهمة إذا صارت عزمًا فلابد أن يقترن بها قول أو فعل، فإن الإرادة مع القدرة تستلزم وجود المقدور. والذين قالوا يؤاخذ بها احتجوا بقوله: (إذا التقىٰ المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار) الحديث...».

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٣٣.

(٣) الرسالة القشيرية ١/١٤٢.

(٤) أي: بيننا.

(٥) أي: عمل بما فيهما.

(٦) أي: بَعُد عنها.

اللهِ(١) ـ تعالىٰ ـ فَهُوَ الصَّادِقُ المُصِيبُ(٢)».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمَّا قولُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الطَّرِيقُ واضحٌ، والأدلَّةُ عليهِ قائمةٌ؛ وهيَ الكتابُ والسُّنَّةُ» [فـ]ـصحيحٌ.

وقولُهُ: «وَفَضْلُ الصَّحَابَةِ مَعْلُومٌ» فيهِ تنبيهٌ علَىٰ أنَّ الصَّحابةَ ـ رضوَانُ اللهِ عليهِمْ ـ لَا يدركُ أحدٌ منَ النَّاسِ فضلَهُمْ، ولو اجتهدَ كلَّ الجهدِ؛ لِمَا امتازُوا بهِ من صُحْبَةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والجهادِ معَهُ، والهجرةِ إليهِ، فإنَّ هذهِ خواصٌّ لا تُدْرَكُ.

وأمَّا مَنْ سلكَ الطَّريقَ الواضحَ، واقتدَىٰ بالكتابِ والسُّنَّةِ، وعرَفَ فضلَ الصَّحابةِ عليهِ(٣)، وأحبَّهُمْ جميعَهُمْ فقدْ سلكَ الطَّريقَ المستقيمَ، وأصابَ الحقَّ، وفيهِ ذمٌّ لمَنْ تعرَّضَ لبعضِ الصَّحابةِ بنقْصٍ أو غضَّ مِنْ منصبِهِ علىٰ الجُمْلَةِ، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: ١٠]، وذلكَ بعدَ ذِكْرِهِ ـ تعالىٰ ـ المهاجِرِينَ والأنصارَ ومَدْحِهِ لهُمْ، وذَكَرَ الَّذِينَ جاؤُوا(٤) مِنْ بعدِهِم وَبَرَّأَهُم مِنْ أنْ يكونَ في قلوبِهِم غِلٌّ لمَنْ تقدَّمَهُم ومَدَحَهُمْ(٥) بذلكَ.

---

(١) أي: بعد مفارقة جميع مألوفاته.

(٢) أي: الواقف مع مراد ربه المصيب طريق السعادة الأبدية.

(٣) في مفتاح الجنة ص٧٦: «عن أبي سعيد الخدري قال: مثل أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل العيون، ودواء العيون ترك مسها».

(٤) في (ج): خلوا، والصواب المثبت.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ(١):

«وَمِنْهُم:

[٧٩] أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الدِّينَوَرِيُّ(٢)

صَحِبَ يُوسُفَ بْنَ الحُسَيْنِ، وَابْنَ عَطَاءٍ، وَالجُرَيرِيَّ، وَكَانَ عَالِمًا فَاضِلًا.

وَرَدَ (نَيْسَابُورَ(٣)) وَأَقَامَ بِهَا مُدَّةً، وَكَانَ يَعِظُ النَّاسَ، وَيَتَكَلَّمُ عَلَىٰ لِسَانِ [أَهْلِ](٤) المَعْرِفَةِ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ (سَمَرْقَنْد)، وَمَاتَ بِهَا بَعْدَ الأَرْبَعِينَ وَثَلَاثِمَائَةٍ.

قَالَ أَبُو العَبَّاسِ الدِّينَورِيُّ(٥): أَدْنَىٰ الذِّكْرِ: أَنْ تَنْسَىٰ مَا دُونَهُ، وَنِهَايَةُ الذِّكْرِ: أَنْ يَغِيبَ الذَّاكِرُ(٦) فِي الذِّكْرِ عَنِ الذِّكْرِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: وهذَا هوَ المُعبَّرُ عنهُ عندَهُمْ بـ(الفنَاءِ)(٧)، و(فناءِ الفنَاءِ)(٨)؛ فإذَا لم يبقَ في قلبِ العَبْدِ وقتَ ذِكْرِهِ لربِّهِ شَيءٌ منَ المخلوقاتِ وَلَا ذِكْرٌ لهَا فقدْ فَنِيَ عَنْ غَيْرِ اللهِ، وإنْ كانَ مُدْرِكًا لِكَونِهِ فَانيًا عن غيرِ اللهِ ومشغولًا

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٤٣.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٥٥، وحلية الأولياء ١٠/٣٨٣، ومناقب الأبرار ٢/٨٤٠، وتاريخ الإسلام ٢٥/٤٨٤، وطبقات الأولياء ص٧٩، والطبقات الكبرىٰ ١/٢١٩، والكواكب الدرية ٢/٢٩.

(٣) في (أ): بنيسابور.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٥٧، وحلية الأولياء ١٠/٣٨٣، ومناقب الأبرار ٢/٨٤١، وطبقات الأولياء ص٧٩.

(٦) ويعبر عنه بالمحو أيضًا. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٦.

(٧) عند أدنىٰ الذكر. وانظر: إحكام الدلالة ١/٢٣٤.

(٨) عند نهاية الذكر.

باللهِ، فإنْ قوِيَ اشتغالُهُ بِرَبِّهِ وكَمَالِ جَلالِهِ وعَظَمَتِهِ حَتَّىٰ غابَ في ذِكْرِهِ عن شُعُورِهِ بكونِهِ ذاكرًا ـ أعنِي شعورَهُ بنفسِهِ ـ، وإنْ كانَ ذاكرًا لربِّهِ فقدْ فنِيَ عن نفسِهِ، وهذا هو المعبَّرُ عنهُ بـ(فناءِ الفناءِ)؛ أيْ: فنِيَ عن ذكْرِهِ لكونِهِ [١/١٠٢أ] فانيًا عن غيرِ اللهِ، فجعلَ الشَّيخُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أوّلَ المقاماتِ فناءَ العبدِ عنِ المخلوقاتِ، وأعلاهَا فناؤهُ عن نفسِهِ شغلًا بمذكورِهِ(١).

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ**(٣): **لِسَانُ الظَّاهِرِ لَا يُغَيِّرُ حُكْمَ البَاطِنِ**».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ويعنِي بـ«**لِسَانِ الظَّاهِرِ**»: مَا أثبتَتْهُ الأدلَّةُ الشَّرعيَّةُ؛ منَ الحلالِ والحرامِ والمكروهِ والمندوبِ والمُباحِ، وأنَّ هذِهِ الأحكامَ(٤) لا تُنافِي مَا وقعَ في القُلُوبِ من مَواهِبِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ والإلهامِ الصَّحيحِ وخوارقِ العاداتِ، فإنَّ كلَّ ما يقعُ في القلوبِ من هذا القبيلِ الَّذِي يشهدُ بصحَّتِهِ ما دلَّتِ الأدلَّةُ الشَّرعيَّةُ عليهِ، وذلكَ إذا كانَ العبدُ مستقيمًا علىٰ أوامرِ ربِّهِ ـ تعالىٰ ـ وبُعْدِهِ عن مناهيهِ واتِّباعِ سُنَّةِ نبيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا يقعُ في قلبِهِ إلَّا مَا تشهدُ الأدلَّةُ بصحَّتِهِ، فإنَّهُ محفوظٌ، وإلَّا متىٰ وقعَ في قلبِهِ أو خطَرَ لهُ مَا لا تشهدُ الأدلَّةُ بصحَّتِهِ فليسَ بمحفوظٍ، ولسانُ الظَّاهرِ لا يغيِّرُ حُكْمَ الباطنِ إذَا كانَ الباطنُ صَحِيحًا، بَلْ يعضدُهُ ويشهدُ بِصِحَّتِهِ.

وفي هذا ردٌّ علىٰ مَنْ يزعمُ أنَّ العبدَ يصلُ إلىٰ حَالِهِ لا يمكنُهُ مخالفةُ مَا يقعُ لهُ؛ لكونِهِ عن ربِّهِ صحيحًا حقًّا؛ وهذا إنْ قالَ بهِ قائلٌ وزعمَ أنَّهُ يتلقَّاهُ عن ربِّهِ ولا يَزِنُهُ بمَا جاءَ بهِ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صحَّتِهِ وفَسَادِهِ، فقد تَعرَّضَ لأمْرٍ عظيمٍ وخَطأٍ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٣٤.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٤٣.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٥٧، ومناقب الأبرار ٢/٨٤٢، ونصهما: «لباس الظاهر...».

(٤) سقط من (ج) قوله: الشرعية من الحلال والحرام والمكروه والمندوب والمباح، وأنّ هذه الأحكام.

فَاحِشٍ؛ وهوَ أقربُ إلىٰ الكفرِ منهُ إلىٰ الإيمانِ، فإنَّهُ لا يتلقَّىٰ عنِ اللهِ أحكامَهُ إلَّا الأنبياءُ، ومَنِ ادَّعَىٰ النُّبوَّةَ كذَّبتْهُ الأدلَّةُ الشَّرعيَّة، وكتابُ[١] اللهِ وسنَّةُ نبيِّه، فإنَّ اللهَ - تعالىٰ - قالَ في كتابِهِ: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقد قالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٢]: «لَا نَبِيَّ بَعْدِي».

وهذا وإنْ لمْ يُصَرِّحْ بأنَّهُ نبيٌّ فمَا ادَّعَاهُ آيِلٌ[٣] إليهِ، فإنَّهُ زعمَ أنَّهُ يتلقَّىٰ عن ربِّهِ أحكامَهُ بنفسِهِ ولا يَزِنُهَا بالأدلَّةِ الشَّرعيَّةِ، حتَّىٰ قيلَ لبعضِهِمْ لمَّا ذكرَ ذلكَ: وَإِنْ خالَفَ ما عرَفَ بالأدلَّةِ الشَّرعيَّةِ، قالَ: لا يمكنُنِي مخالفَتُهُ؛ لأنَّهُ حقٌّ عنِ اللهِ، نعوذُ باللهِ من هذهِ الشُّرُورِ ونزعَاتِ الغُرُورِ بمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

ولَا نُنْكِرُ أنَّ الأولياءَ يُلْهمُونَ إلىٰ معرفةِ الحقِّ والصَّوابِ مِنَ النَّدْبِ والإيجابِ، وينبِّهُونَ علىٰ الخلاصِ منَ الحرامِ والمكروهِ، ولكنْ إنَّمَا يُعْرَفُ صحَّةُ مَا يقعُ لهُمْ بشهادةِ الأدلَّةِ الشَّرعيَّةِ الثَّابتةِ عن المؤيَّدِ بالمعجزةِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويكونُ ذلكَ دليلًا علىٰ حفْظِ اللهِ لهُمْ، كمَا قالَ - تعالىٰ -[٤]: «كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ»، ويُؤيِّدُهُ[٥] الحديثُ[٦] [١/١٠٢ب].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٧]: «وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ الدِّيْنورِيُّ[٨]: نَقَضُوا أَرْكَانَ

(١) في (ج): من كتاب.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١٢٧٣ ـ حديث رقم (٣٢٦٨)، ومسلم في صحيحه ٣/١٤٧١ ـ حديث رقم (١٨٤٢).

(٣) أي: راجع.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) في (أ): ومؤيده.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٣٤.

(٧) الرسالة القشيرية ١/١٤٣.

(٨) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٨٤٣، وتلبيس إبليس ص٤٢٤.

التَّصوُّفِ، وَهَدَمُوا سُبُلَهَا، وَغَيَّرُوا مَعَانِيَهَا بِأَسَامِيَ أَحْدَثُوهَا؛ سَمَّوا الطَّمَعَ زِيَادَةً، وَسُوءَ الأَدَبِ إِخْلاصًا، وَالْخُرُوجَ عَنِ الحَقِّ شَطْحًا، وَالتَّلَذُّذَ بِالمَذْمُومِ طِيْبَةً، وَاتِّبَاعَ الْهَوَىٰ اِبْتِلاءً، وَالرُّجُوعَ إِلَىٰ الدُّنْيَا وُصُولًا، وَسُوءَ الخُلُقِ صَوْلَةً، وَالْبُخْلَ جَلادَةً، وَالسُّؤَالَ عَمَلًا، وَبَذَاءَةَ اللِّسَانِ مَلامَةً، وَمَا هَذَا كَانَ طَرِيقَ الْقَوْمِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا ذمٌّ للمتشبِّهينَ بأهلِ التَّحقيقِ وليسُوا منهُمْ، فأخذُوا الأسماءَ الدَّالَّةَ علىٰ الأخلاقِ المحمودةِ فوضعُوهَا علىٰ رديءِ الأخلاقِ؛ ليمشِيَ لهُمْ ما هُمْ عليهِ منَ الفسادِ بينَ العبادِ، ويظنُّ الجاهلُ أنَّهُ بمَا سُمِّيَ بهِ المرادَ، والحقُّ خلافُهُ.

فقولُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**سَمَّوا الطَّمعَ زيادةً، أو زيادةً**[1]» فإنْ كانَ زيادةً فهوَ عبارةٌ عمَّا يجدونَهُ في أنفسِهِمْ منَ التَّعلُّقِ بالمحبوباتِ والتَّشوُّفِ لمَا بأيدِي غيرِهِمْ، فيقولُ بعضُهُمْ: وجدْتُ عندِي زيادةً لم تكنْ، والزِّيادةُ المحمودةُ إنَّمَا هيَ التَّعلُّقُ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وذِكْرُهُ وزوالُ الغفلةِ عنهُ، فسمَّوا هذَا النَّوعِ بهذا الاسمِ.

وإنْ كانَ بمعنىٰ (الزِّيادةِ) فهيَ أنَّ أحدَهُمْ يمضِي لأخيهِ الموسَّعِ عليهِ في دنياهُ؛ لينالَ منهُ بعضَ ما يَهْوَاهُ من طعامِهِ وغير ذلكَ، ويتعلَّلُ بالزِّيارةِ للهِ[2].

وأمَّا «**سوءُ الأدبِ إِخْلاصًا**» فإنَّ أحدَهُمْ يتكلَّمُ بينَ يدَي المشايخِ وأهلِ الفَضْلِ بمَا لا يُحْسِنُ النُّطقَ بهِ؛ ممَّا حَوَىٰ عليهِ باطنُهُ، ويتعلَّلُ بكونِهِ مخلصًا لا يُخْفِي خلافَ مَا يُظْهِرُ.

والإخلاصُ: هوَ إفرادُ اللهِ بالقلبِ والإخلاصُ في الطَّاعاتِ لَا ذِكْرُ النَّقائصِ والمكروهاتِ.

---

(١) في النسخ: زيادة، والتصويب من: إحكام الدلالة ١/٢٣٥.

(٢) أي: زيارته له تكون لوجه الله.

وأمَّا «**الخروجُ عنِ الحقِّ**» تجري على ألسنتِهِمْ كلماتٌ لا توافقُ الحقَّ ولا تشهدُ لهَا الشَّريعةُ بالصِّحَّةِ فسمَّوهَا[(١)] شطحًا، **والشَّطحُ**[(٢)] **عندَ القومِ**: ما جرَىٰ علىٰ ألسنتِهِمْ وقتَ غلبةِ الأحوالِ، ويكونُوا مأخوذينَ عن أنفسِهِمْ معذورِينَ، والحفظُ عن ذلكَ أكملُ، فكيفَ يفعلُهُ معَ الاختيارِ.

وأمَّا «**التَّلذُّذُ بالمَذْمُومِ**» إذا تحدَّثَ بمَا جرَىٰ لهُ في صبْوَتِهِ ومخالطتِهِ أيامَ جهالتِهِ، متلذِّذًا بذلكَ معَ أقرانِهِ من أهلِ غفلتِهِ، عبَّرَ بهذهِ الحالةِ عنِ الطِّيبةِ؛ أيْ أطلقَ نفسَهُ علىٰ مقتضَىٰ عادتِهِ وسجيَّتِهِ من غيرِ خوفٍ ولا حَذَرٍ، هذا مذمومٌ.

والطِّيبةُ الحقيقيَّةُ[(٣)]: ذِكْرُ كراماتِ الأولياءِ وألطافِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ للأصفياءِ، وبيانِ خوارقِ العاداتِ وجريانِهَا [١/١٠٣أ] علىٰ الأولياءِ في عمومِ الأوقاتِ، فبهذا الذِّكْرِ تطيبُ النُّفوسُ، وتنشرحُ الصُّدورُ، ويقْوَىٰ اليقينُ، ويَتَرَاقَىٰ فِي دَرجَاتِ المُقرَّبينَ.

وقَدْ سُئِلَ الجُنيدُ: ما فائدةُ هذهِ الحكاياتِ الَّتِي يتداولُهَا المُريدونَ منهُمْ؟ قالَ: يُقَوِّي اللهُ ـ تعالىٰ ـ بها قلوبَهُمْ، فقيلَ لهُ: فمَا مِصْدَاقُ ذلكَ والدَّليلُ عليهِ من كتابِ اللهِ ـ تعالىٰ؟، قالَ: قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

وإذا ابْتُلِيَ الإنسانُ بحبِّ شهْوَةٍ وتعذَّرَ عليه فراقُهَا، أوِ التَّعلُّقِ بامرأةٍ يُقَاسِي البلاءَ في معاشرتِهَا، فإذَا عُوتِبَ في ذلكَ قالَ: أنَا مُبْتَلَىٰ، ويتركُ مجاهدةَ نفسِهِ والنُّزوعَ عن سوءِ عادتِهِ.

وإذا اشتهرَ العبدُ منهُمْ في الخيراتِ، وعُرِفَ بالزُّهدِ ورفيعِ الدَّرجاتِ، فعظَّمَهُ

---

(١) في (ج): فيسموها.

(٢) انظر: عبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص٤٨، ومعجم مصطلحات الصوفية ص١٤٠.

(٣) أي: الطيبة المحمودة.

النَّاسُ وأكرموهُ، وَوَصَلُوهُ بِمَا في أيديهِمْ منَ الأموالِ وبذَلُوهُ، عدَّ ذلكَ وصولًا منهُ، **والوصولُ الحقيقيُّ**: انقطاعُ قلبِهِ عنِ المخلوقينَ، شغلًا بربِّ العالمينَ، فضلًا عمَّا بأيديهِمْ منَ المالِ أوِ الجاهِ، وإنْ صدقَ هذَا القائلُ بأنَّهُ وصلَ فلمقصودِهِ، وما عملَ لهُ أوّلٌ.

وإذَا خُولِفَ أحدٌ في غَرضِهِ أو عُوتِبَ في نقْصِهِ وما هوَ عليهِ من بعضِ زلَلِهِ نفرَ وتنمَّرَ(١)، وتغيَّرَ علىٰ مَنْ أمرَهُ وضجرَ وتأفَّفَ ممَّا ينسبُهُ إليهِ وتأمَّرَ، وسمَّىٰ هذهِ الحالةَ صَوْلةً، والصَّولةُ المحمودةُ إنَّمَا هيَ في الإعراضِ عمَّا لا يُرْضِي اللهَ وتغييرِ المنكرِ للهِ.

وكذلكَ إذا سُئِلَ الإنسانُ منهُمْ بعضَ ما يملكُهُ ولم يُرِدْ إخراجَهُ وشحَّ عليهِ وتكرَّرَ عليهِ السُّؤالُ ممَّنْ ينبغِي أنْ يستحيِيَ منهُ ولا يُرَدُّ سؤالُهُ سمَّوا ردَّهُ بِشُحِّهِ وبخلِهِ جلادَةً؛ أيْ: لا ينخدعُ بسؤالِ سائلٍ ولا يرجعُ عن عرضِهِ لقولِ قائلٍ.

وهذهِ الجلادةُ مذمومةٌ، فإنَّهَا تدلُّ علىٰ قلَّةِ الحياءِ والحرصِ علىٰ الدُّنيَا، والجلادةُ المحمودةُ: الصَّبرُ علىٰ مشقَّاتِ الأعمالِ، وما ينزلُ بالعبدِ من ربِّهِ في اختلافِ الأحوالِ، ولا يشكُو ذلكَ ولا يضجرُ، ويتحمَّلُ مَا ينزلُ بهِ من ربِّهِ ويصبرُ.

وقولُهُ: «**والسُّؤالَ عملًا**» هو مَا حدثَ في هذهِ الأزمنَةِ منَ الدَّرْوزةِ بالزَّنْبيلِ فِي الأسواقِ؛ ليكسرَ بهِ السَّالكُ نفسَهُ، ويتذلَّلَ بسؤالِ الأرزاقِ، وهذهِ بدعةٌ لمْ تُعْرَفْ في أوَّلِ الإسلامِ(٢)، ولا تَليقُ بمَنْ تركَ(٣) الدُّنيَا زُهدًا مِنْ ذَوِي أفهامٍ، وكيفَ يليقُ بمَنْ يريدُ أنْ يرفعَ همَّتَهُ عنِ المخلوقينِ ويكونَ مشغولًا بربِّ العالمينَ أنْ يتعاطَىٰ ما ذمَّتْهُ الشَّريعةُ!؛ وهوَ السُّؤالُ [١٠٣/١ب] وبذلُ ماءِ الوجْهِ من غيرِ دعاءِ

(١) في التاج «نمر»: «قال الأصمعيّ: تنَمَّرَ له: تَنَكَّرَ وتغيَّر».

(٢) أي: بدعة مذمومة.

(٣) في (أ): يترك.

حاجةٍ فادحةٍ[(١)] يتيحُ لهُ ذلكَ، وقد ذمَّ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأَوْصَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جماعةً منَ الصَّحابةِ بوصيَّةٍ وأَسَرَّ في آخرِ وصيَّتِهِ كلمةً حفيَّةً فقالَ لهُمْ[(٢)]: «وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا»، قالَ الرَّاوِي للحديثِ: فلقَدْ كانَ بعضُ أولئِكَ القومِ يَسْقُطُ سَوْطُهُ مِنْ يدِهِ وهوَ علَىٰ دابَّتِهِ فلا يسألُ أحدًا يناولُهُ إيَّاهُ وينزلُ ويأخذُهُ بنفسِهِ، والخبرُ الصَّحيحُ «أنَّ المسألةَ في وجْهِ صاحبِهَا يومَ القيامةِ كُدُوحٌ أو خُمُوشٌ» الحديث[(٣)].

وقولُهُ: «**بَذَاءَةُ اللِّسَانِ**[(٤)] **مَلَامَةٌ**[(٥)]» هوَ أنْ يطلقَ الرَّجلُ لسانَهُ[(٦)] علىٰ أخيهِ بمَا يؤذِيهِ، ويذْكُرَ نقائِصَهُ وما هوَ عليهِ في سوءِ أخلاقِهِ، ويكشفَ ما هوَ مستورٌ منهُ[(٧)] لغيرِهِ، ويتعلَّلَ بكونِهِ يلومُهُ ليرجعَ عن تقصيرِهِ ومَا هوَ عليهِ، وهذا إنْ أمكنَ في خِفيةٍ فحسَنٌ، وإنْ تحدَّثَ بهِ بحضورِ مَنْ يعرفُ ذلكَ منهُ ليقعَ التَّساعدُ علىٰ ردِّهِ، ويخرجَ عن كونِهِ أذيَّةً فإنَّهُ لم يكشفْ منهُ ما هوَ مستورٌ إنْ صحَّ فيهِ اللَّومُ؛ ليرجعَ عمَّا هوَ عليهِ، وليسَ ببذاءٍ فإنَّ البَذاءَ ذِكْرُ النَّقائصِ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ[(٨)].

---

(١) في (ب، ج): قادحة.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه ٧٢١/٢ ـ حديث رقم (١٠٤٣)، ومنه: «... وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً ولا تَسْأَلُوا الناس شيئا، فَلَقَدْ رأيت بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ فما يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ».

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ١١٦/٢، والترمذي في سننه ٤٠/٣ بلفظ: «قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من سَأَلَ الناس وَلَهُ ما يُغْنِيهِ جاء يوم القِيَامَةِ وَمَسْأَلَتُهُ في وَجْهِهِ خُمُوشٌ، أو خُدُوشٌ، أو كُدُوحٌ». وفي مشارق الأنوار ٢٤١/١: «خموش أو خدوش هما بمعنىٰ». والكدوح: جمع كدح؛ وهو: كل أثر من عضٍّ أو خدشٍ.

(٤) أي: فحشه.

(٥) أي: نُصْحًا.

(٦) في النسخ: لسانَه الرجلُ، والصواب المثبت.

(٧) سقط من هنا في (ب) إلىٰ قوله: «يقول: قال النصر اباذي: أصل التصوف ملازمة....».

(٨) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢٣٥/١ ـ ٢٣٦.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُم:

[٨٠] أَبُو عُثْمَانَ سَعِيدُ بْنُ سَلَّامٍ المَغْرِبِيُّ[٢]

واحِدُ عصْرِهِ لَمْ يُوجَدْ[٣] مثلُهُ قبلَهُ.

صَحِبَ ابْنَ الكاتبِ، وحبيبًا المغربيَّ، وأبا عَمْرٍو الزَّجَّاجِيَّ، ولَقِيَ [أبا عُمَر][٤] النَّهْرَجُورِيَّ، وَابْنَ الصَّائغِ، وغيرَهُم.

مَاتَ بِـ(نَيْسَابُورَ) سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثمَائَةٍ[٥]، أَوْصَىٰ بِأَنْ يُصَلِّي عَلَيْهِ الإِمَامُ أَبُو بَكْرِ بْنُ فُورَك رَحِمَهُ اللَّهُ.

سَمِعْتُ الأُسْتاذَ الإِمَامَ أَبَا بَكْرِ بْنَ فُورَك رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٦]: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عُثْمَان المَغْرِبِيِّ حِينَ قَرُبَ أَجلُهُ وَعَلِيٌّ القَوَّالُ الصَّغِيرُ يَقُولُ شَيْئًا[٧]، فَلَمَّا تَغَيَّرَ عَلَيْهِ الحَالُ أَشَرْنَا عَلَىٰ عَلِيٍّ بِالسُّكُوتِ، فَفَتحَ الشَّيْخُ أَبُو عُثْمَان عَيْنَيْهِ، وَقَالَ: لِمَ لَا يَقُولُ عَلِيٌّ شَيْئًا؟! فَقُلْتُ لِبَعْضِ الحَاضِرِينَ: سَلُوهُ وَقُولُوا لَهُ: عَلَامَ يَسْمَعُ المُسْتَمِعُ؟، فَإِنِّي أَحْتَشِمُهُ فِي تِلْكَ الحَالَةِ، فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا يَسْمَعُ مِنْ حَيْثُ يَسْمَعُ».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٤٤.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٥٨، وتاريخ بغداد ٩/١١٢، ومناقب الأبرار ٢/٨٤٤، والوافي بالوفيات ١٥/١٤٠، والبداية والنهاية ١١/٣٠٢، وتاريخ الإسلام ٢٦/٥٣٩، وسير أعلام النبلاء ١٦/٣٢٠، وشذرات الذهب ٣/٨١، والنجوم الزاهرة ٤/١٤٤، والطبقات الكبرىٰ ١/٢٢٠، والكواكب الدرية ٢/٩٩.

(٣) في (ف): يوصف.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) دفن بجانب أبي عثمان الحيري. انظر: إحكام الدلالة ١/٢٣٧.

(٦) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٨٤٩، ومرآة الجنان ٢/٤٠٢.

(٧) أي: ينشد شيئا من كلام القوم.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على كمالِ شُغْلِهِ بحالِهِ، ومُراعاتِهِ لقلبِهِ، وشدَّةِ مراقبتِهِ وعدمِ التفاتِهِ لِمَا فيهِ من ألمِ موتِهِ وصعوبةِ نزْعِ روحِهِ، فإنَّهُ إنَّما غمَّضَ عَيْنَيهِ لِشدَّةِ مَا هوَ فيهِ، حتَّى فهمَ الحاضرُونَ موتَهُ فأمرُوا القوَّالَ بأنْ يسكتَ؛ لئلَّا يَشْغَلَ الشَّيخَ عمَّا هوَ فيهِ، فلمَّا علِمَ سُكوتَهُ سألَ عن سببِهِ، فلمَّا علِمَ حُضورَهُ أرادُوا أنْ يسألوهُ عن فوائدِ السَّماعِ [١٠٤/١أ] وعلى أيِّ وجْهٍ يسمعُ الإنسانُ منَ الوجوهِ الفاضلةِ، فأجابَهُمْ جوابًا كلِّيًّا يعمُّ سائرَ المستمعِينَ؛ وهوَ أنْ يسمعَ مِنْ حيثُ أسمَعَهُ اللهُ؛ لاختلافِ مقاماتِ النَّاسِ ومعرفتِهِمْ باللهِ ومحبَّتِهِمْ لهُ، وقد يسمعُ العبدُ منَ الخوفِ، وقد يسمعُ منَ الرَّجاءِ، وقَدْ يسمعُ منَ المحبَّةِ، وكلُّ واحدٍ من هؤلاءِ الثَّلاثةِ على درجاتٍ(١).

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَكَانَ فِي الرِّيَاضَةِ كَبِيرَ الشَّأْنِ(٣).

وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ(٤): التَّقْوَى هِيَ الوُقُوفُ مَعَ الحُدُودِ، لَا يُقَصِّرُ فِيهَا وَلَا يَتَعَدَّاهَا(٥)».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ التَّقوى الحذَرُ والمُجانَبَةُ، فهوَ حَذِرٌ لتضييعِ الواجبِ وارتكابِ المحظورِ ومُجَانِبٌ لذلكَ، ولا يتأتَّى أنْ يحذرَهُ إلَّا بعدَ معرفتِهِ بهِ، وكمالُ حَذَرِهِ ألَّا يزيدَ فيهِ ولَا ينقصَ، وأنْ يوقعَهُ على وجْهِهِ المطلوبِ، وهذا معنَى ملازمَةِ الحدِّ، وهكذَا إذَا تراقَى في المندوباتِ لابدَّ لهُ منَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢٣٨/١.

(٢) الرسالة القشيرية ١٤٤/١.

(٣) وكمالها يكون بكمال التقوى.

(٤) ورد قوله في: الزهد الكبير ص٣٣٧، وطبقات الصوفية ص٣٦٠، ومناقب الأبرار ٨٤٥/٢، والاعتصام ٩٣/١.

(٥) بل يأتي بها على وجهها.

التَّقوَىٰ، إلَّا أنَّ التَّقوَىٰ الأُولَىٰ واجبةٌ، وهذهِ مندوبٌ إليهِ، وهيَ في أعمالِ القُلُوبِ والجَوارحِ، وعَنْ كَمَالِ التَّقوَىٰ يكونُ كَمَالُ الرِّياضَةِ، فإنَّ المُتَّقِي يُرَوِّضُ نفسَهُ أوَّلًا، حتَّىٰ يتأنَّسَ آخِرًا، وبعدَ أنْ يستقيمَ علىٰ الخيرِ ما يستغنِي عن مُلاحظتِهَا وسياستِهَا، إلَّا أنَّ هذا أسهلُ عليهِ ممَّا تقدَّمَ لحُسْنِ الاعتيَادِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَقَالَ[2]: مَنْ آثَرَ صُحْبَةَ الأَغْنِيَاءِ عَلَىٰ مُجَالَسَةِ الفُقَرَاءِ ابْتَلاهُ اللهُ بِمَوْتِ القَلْبِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ لأنَّهُ لا يُؤْثِرُ صُحْبَةَ الأغنياءِ إلَّا لمحبَّتِهِ للدُّنيَا، وكلُّ محبٍّ للدُّنيَا أَكْثَرُ شُغْلِهِ بهَا وذِكْرِهِ لهَا، والنَّظرِ في فَوائدِهَا وأرباحِهَا ودوامِ حِفْظِهِ لهَا ممَّا يُتْلِفُهَا، وهذَا القَدْرُ هوَ الَّذِي يَشْغَلُ القلبَ عنِ الآخرةِ ويُغْفِلُهُ عنهَا، وإذَا اشتغلَ القلبُ عنِ الآخرةِ وغفلَ عُبِّرَ عنهُ بالموتِ؛ لأنَّ حياةَ القلبِ إنَّمَا هيَ حركتُهُ واشتغالُهُ بما خُلِقَ لهُ مِنْ تحصيلِ العُلُومِ والأعمالِ، وإيقاعُ كلِّ شيءٍ علىٰ مَا أُمِرَ بهِ وإنْ تعالَىٰ في رُتْبَتِهِ.

فهذَا هوَ المعبَّرُ عنهُ بالحياةِ، وقَدْ قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ في حقِّ الغافلِينَ: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢١] وَإِنْ كَانُوا لَمْ تَخْرُجْ أرواحُهُم مِنْ أَجْسَادِهِم، وإنَّمَا لمَّا شَبَّهُوا مَنْ قلَّ انتفاعُهُ بنفسِهِ، ومَا خُلِقَ لهُ بالمَيِّتِ[3] أُطلقَ عليهِ.

❊ ❊ ❊

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٤٤.

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٨٤٦، ومرآة الجنان ٢/٤٠٢، وفيض القدير ١/١١٣.

(٣) بجامع عدم الانتفاع في كلٍّ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

«وَمِنْهُم:

[٨١] أَبُو القَاسِمِ إِبرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّصرَابَاذِيُّ(٢)

شَيخُ (خُرَاسَانَ) فِي وَقْتِهِ، صَحِبَ الشِّبْلِيَّ، وَأَبَا عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِي، وَالْمُرْتَعِشَ.

جَاوَرَ بِمَكَّةَ [١/١٠٤ب] سَنَةَ سِتٍّ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِمَائَةٍ، وَمَاتَ بِهَا سَنَةَ سَبْعٍ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِمَائَةٍ، وَكَانَ عَالِمًا بِالحَدِيثِ، كَثِيرَ الرِّوَايَةِ.

سَمِعْتُ الشَّيخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّصْرَابَاذِي يَقُولُ(٣): إِذَا بَدَا لَكَ شَيْءٌ مِنْ بَوَادِي الحَقِّ(٤) فَلَا تَلْتَفِتْ مَعَهَا إِلَىٰ جَنَّةٍ وَلَا إِلَىٰ نَارٍ، فَإِذَا رَجَعْتَ عَنْ تِلْكَ الحَالِ فَعَظِّمْ مَا عَظَّمَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهكذا ينبغِي أنْ يكونَ العَبْدُ إذا فتحَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عليهِ بابًا لاحظَ فيهِ كمالَ مولَاهُ وجلالَهُ وعظمَتَهُ وتنزُّهَهُ وكمالَ صفاتِهِ ومتعلَّقاتِهَا واشتغلَ بهِ، فلَا يلتفتُ فِي وقتِ شغلِهِ إلىٰ غيرِهِ، فإنَّ التفاتَهُ إلىٰ غيرِهِ يُورِدُ عليهِ ما هوَ فيهِ ولا يُكملُ اجتماعَ همِّهِ فيهِ ويصيِّرُهُمَا واحدًا، إلَّا إذَا أعرَضَ عن [غيرِ](٥)

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٤٥.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٦٣، وتاريخ دمشق ٧/١٠٣، ومناقب الأبرار ١/٨٥١، وطبقات الأولياء ص٢٧، وشذرات الذهب ٣/٥٨، والكواكب الدرية ٢/١٣.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٦٣، ومناقب الأبرار ٢/٨٥١، وسير أعلام النبلاء ١٧/٢٤٩، وفيض القدير ٣/٥٤٤.

(٤) جمع: بادية؛ وهي ما يفجأ قلب العبد من الغيب، فتوجب له قبضا أو بسطًا. انظر: نتائج الأفكار ٢/٢٢.

(٥) زيادة من (ج).

اللهِ شغلًا باللهِ، فإذَا رجعَ إلىٰ نفسِهِ وخفَّ مَا بهِ فليعظِّمْ مَا عظَّمَ اللهُ، فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عظَّمَ الجنَّةَ والنَّارَ وكرَّرَهُمَا في كتابِهِ؛ ليحصلَ الخوفُ والرَّجاءُ منهُ، وكذلكَ جميعُ مَنْ عظَّمَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ مِنْ خلْقِهِ[1]، فإذَا رجعَ إلىٰ إدراكِ نفسِهِ والمخلوقاتِ فَلْيُعَظِّمِ الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والأولياءَ والملائكةَ؛ ليقومَ بمَا يجبُ عليهِ للهِ، ولهذَا قالُوا[2]: العارفُ مَنْ لا يُطفِئُ نورُ معرفتِهِ نورَ ورَعِهِ، فمَنْ عرَفَ أنَّهُ لا يضرُّ ولا ينفعُ ولا يُعْطِي ولا يمنعُ غيرُ اللهِ، فلا يحملْهُ ذلكَ علىٰ الإعراضِ عمَّنْ سِوَاهُ، ممَّنْ أمرَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بتعظيمِهِ وإجلالِهِ، أو مَا خوَّفَ منهُ منَ النَّارِ والشَّيطانِ، وجميعِ مَنْ حذَّرَ منهُ، وبهذا يكونُ وَرِعًا؛ أيْ: مُجانِبًا لمَا أمرَهُ اللهُ بمُجَانَبَتِهِ، وأمَرَهُ اللهُ بمُجَانبَةِ المحرَّماتِ، ونهَاهُ عنِ مُجَانبةِ الواجباتِ وألزَمَهُ القيامَ بهَا.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «وَسَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: قِيلَ لِلنَّصْرَابَاذِي: إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يُجَالِسُ النّسْوَانَ وَيَقُولُ: أَنَا مَعْصُومٌ فِي رُؤْيَتِهِنَّ؟! فَقَالَ[4]: مَا دَامَتِ الأَشْبَاحُ بَاقِيَةً، فَإِنَّ الأَمْرَ وَالنَّهْيَ بَاقٍ، وَالتَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ مُخَاطَبٌ بِهِ، وَلَنْ يَجْتَرِئَ عَلَىٰ الشُّبُهَاتِ إِلَّا مَنْ يَتَعَرَّضُ لِلمُحَرَّمَاتِ[5]».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ العبْدَ لا يَأمَنُ مِنْ نزَعَاتِ الشَّيطانِ في حَالٍ منَ الأَحْوَالِ، ولا سيَّمَا إذَا تعرَّضَ لِرُؤيَةِ الوجنَاتِ المُسْتَحْسَنَاتِ، وسُمُوم اللَّحظَاتِ بالشَّهواتِ، فإنَّ العبدَ وإنْ كانَ محفوظًا في وقتٍ، فقدْ نُهِيَ عنِ التَّعرُّضِ للشُّبُهاتِ، ومَنِ اسْتَبْرَأَهَا سَلِمَ، ومَنْ تعرَّضَ لهَا هلكَ

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٤٠.

(٢) سبق تخريجه ص٢١٧.

(٣) الرسالة القشيرية ١/١٤٥.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٦٤، وتاريخ دمشق ٧/١٠٧، ومناقب الأبرار ٢/٨٥٢، وذم الهوىٰ ص١٥٠، وشذرات الذهب ٣/٥٨.

(٥) في النسخ: بعرض المحرمات، والصواب المثبت، كما في الرسالة القشيرية ومظان تخريجه.

أو كادَ، وفي الخبرِ الصَّحيح(١): «الحَلالُ بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا [١/١٠٥أ] أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، أَوْ مُتَشَابِهَاتٌ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ حَامَ حَوْلَ الحِمَىٰ يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ».. الحديث.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَسَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ**(٣) **يَقُولُ**(٤): **قَالَ النَّصْرَابَاذِي: أَصْلُ التَّصَوُّفِ**(٥)**: مُلَازَمَةُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَرْكُ الأَهْوَاءِ وَالبِدَعِ، وَتَعْظِيمُ حُرُمَاتِ المَشَايِخِ، وَرُؤْيَةُ أَعْذَارِ الخَلْقِ**(٦)**، وَالمُدَاوَمَةُ عَلَى الأَوْرَادِ، وَتَرْكُ ارْتِكَابِ الرُّخَصِ وَالتَّأْوِيلَاتِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صَحِيحٌ؛ فَإِنَّ اتِّبَاعَ الكتابِ والسُّنَّةِ أصلٌ في كلِّ طاعةٍ(٧) فاضلةً كانَتْ أو مَفْضُولةً، وتَرْكُ البدَعِ مُخَلِّصٌ من كلِّ شرٍّ، سواءٌ كانَ كُفْرًا أو معصيةً أو مَكْرُوهًا، وتعظيمُ حُرُمَاتِ المَشَايخِ قيامٌ بحقِّ اللهِ - تعالىٰ - وتعظيمٌ لمَنْ عظَّمَ، فإنَّ المشايخَ عبارةٌ عن قَومٍ كَمُلَ لهُمُ العِلْمُ والعملُ وقامُوا بالواجبَاتِ، وتَرَاقَوا في أعلىٰ الدَّرجاتِ منَ المندوباتِ، وأعرَضُوا عنِ المُشْغِلَاتِ منَ المباحاتِ، فضلًا عن غيرِهَا منَ المكروهاتِ، ودرجةُ هؤلاءِ عندَ اللهِ عظيمةٌ، ولا بدَّ منْ تعظيمِ ما عظَّمَ اللهُ، وإذا كانَ محضُ الإيمانِ لهُ منَ الرُّتبةِ ما فيهِ من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١/٢٨ - حديث رقم (٥٢)، ومسلم في صحيحه ٣/١٢١٩ - حديث رقم (١٥٩٩).

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٤٥.

(٣) نهاية السقط من (ب).

(٤) ورد قوله في: شعب الإيمان ٢/٢٩٧، وطبقات الصوفية ص٣٦٥، ومدارج السالكين ٢/٤٦٧، والاعتصام ١/٩٨، وطبقات الأولياء ص٢٧، ومفتاح الجنة ص٧٢.

(٥) أي: أساسه الذي ينبني عليه أمره.

(٦) في (ج): الخليقة.

(٧) في (ج): قاعدة.

الفضيلةِ عندَ اللهِ، كمَا حُكِيَ أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ أتىٰ يومًا الكعبةَ فقالَ: (مَا أجلَّكِ وأشرَفَكِ وأعظمَ حُرْمَتَكِ!، والمؤمنُ أشدُّ حُرْمَةً مِنْكِ)(١)، فكيفَ بمَنْ وصفْنَاهُ مِنْ كَمَالِ الأحوالِ والأخلاقِ والشُّغْلِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ عن غيرِهِ!.

وأمَّا «رُؤيَةُ أعذارِ الخلْقِ» فدليلٌ علىٰ كمالِ المعرفةِ بانفرادِ الحقِّ بالأفعالِ، وخروجِ غيرِهِ مِنْ خَلْقِهِ عنِ القدرةِ علىٰ إحداثِ ذرَّةٍ مِنْ مِثْقَالٍ، ولَا يجرِي عليهِم في سَائِرِ تصرُّفاتِهِمْ إلَّا ما قدَّرَهُ الكبيرُ المتعالُ، فإذَا عَلِمَ ذلكَ العبدُ وتحقَّقَهُ، عذرَ جميعَ الخلائقِ فيمَا يبدُو منهُمْ منَ التَّقصيرِ في حقِّهِ وغيرِهِ لِعلْمِهِ بعجْزِهِم عَنْ تحصيلِ مَا يصلحُهُم، ودفعِ ما يُؤذِيهم عنهُمْ بأنفسِهِم، ومعَ هذا كلِّهِ يقيمُ الحُدُودَ، ويغيِّرُ المُنْكَرَاتِ، ويوجِبُ عليهِم ما أوجبَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ مِنَ الواجبَاتِ، ويؤدِّيهِمْ فيمَا أمرَهُ اللهُ بتأديتِهِ عليهِ، كلُّ ذلكَ امتثالٌ لأمْرِ ربِّهِ ـ وهذا هوَ الصِّراطُ المستقيمُ، الَّذِي هوَ أدقُّ مِنَ الشَّعْرِ وأحدُّ مِنَ السَّيفِ ـ إثباتَ الكسْبِ للعبيدِ(٢)، وتبرُّئَهُمْ منَ الأفعالِ بدلالةِ العقلِ والشَّرعِ العَتِيدِ(٣).

وأمَّا «المُلازمَةُ عَلَىٰ الأَورَادِ» فأصْلٌ(٤) كبيرٌ في تَوَالِي الأَلطَافِ، وحَيَاةِ القُلُوبِ [١٠٥/١ب] واستقامَتِهَا عنِ الانحِرَافِ، وذلكَ أنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ ﴿جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٢].

---

(١) أخرجه الترمذي عن ابن عمر في سننه ٣٧٨/٤ بلفظ: «... قال: وَنَظَرَ بن عُمَرَ يَوْمًا إلىٰ البَيْتِ أو إلىٰ الكَعْبَةِ فقال؟ ما أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ! وَالمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللهِ مِنْكِ..».

وابن ماجه أيضًا في سننه ١٢٩٧/٢ بلفظ: «.. ثنا عبد اللهِ بن عمرو قال: رأيت رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَطُوفُ بِالكَعْبَةِ وَيَقُولُ: ما أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ ما أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده لَحُرْمَةُ المُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ حُرْمَةً مِنْكِ..».

(٢) أي: عملا بمقتضىٰ التكليف بظاهر الشرع. انظر: نتائج الأفكار ٢٥/٢.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢٤١/١.

(٤) في (ج): فاضل، وهو تصحيف.

فإذا دامَ الإنسانُ علىٰ أورادِهِ الَّتِي رتَّبَهَا في عبادةِ ربِّهِ منَ المندوباتِ، ودامَ علىٰ ذلكَ ولم يخلُ بهِ في شَيءٍ منَ الأوقاتِ تَرَاقَىٰ في الدَّرجَاتِ ونَارَ قلبُهُ، وتعالَىٰ ذِكْرُهُ لِرَبِّهِ، ونَالَ مِن رَبِّهِ أفضلَ درجاتِ الولاياتِ، كما قالَ ـ سبحانه ـ علىٰ لِسَانِ نبيِّهِ: «**وَلَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ**».. الحديث.

وأمَّا «**ارتكابُ الرُّخَصِ والتَّأويلاتِ**[1]» فبعيدٌ من هذِهِ الحَالاتِ المَوصُوفَاتِ، فإنَّهُم لا يَعنونَ بالرُّخصِ الفِطْرَ في السَّفرِ والقَصْرَ وأكلَ الميتَةِ عندَ الضَّرورةِ وما يَجْرِي مَجْرَاهُ مِمَّا رخَّصَ الشَّرعُ فيهِ، وإنَّمَا يعنونَ الميلَ إلىٰ الرَّاحاتِ المُبَاحاتِ، والتَّنعُّمَ بأنواعِ المَلْذُوذَاتِ؛ منَ الأطعمةِ والمَشْرُوبَاتِ، وبتَرْكِ الأفعالِ المَنْدُوبَاتِ الَّتِي لم يُوجِبْهَا الشَّرعُ ولا جعلَ ارتكابَهَا منَ المكروهاتِ، فهذَا النَّوعُ هوَ الَّذِي يُعَبَّرُ عنهُ بالرُّخصِ الَّتِي وسَّعَ الشَّرعُ لعبادِهِ في تعاطِيهَا ولم يمنعْهُمْ منْهَا وهيَ مُبَاحاتٌ.

وأمَّا «**التَّأويلاتُ**» فهوَ أنَّ العبدَ يتأوَّلُ في نفسِهِ أنَّهُ لا إثْمَ عليهِ في فِعْلِهَا ولا فِي تَرْكِهَا، وَيَغْفُلُ عن كَوْنِهَا مَحْثُوثًا عليهَا، مَرْغُوبًا فيهَا لنيلِ الدَّرجَاتِ العَاليَاتِ، وكَمَالِ القُرْبِ من خالِقِ الأرضِ والسَّمَاواتِ[2].

❋ ❋ ❋

(١) التي هي أبواب للضلالات، ولهذا قيل: إذا أراد الله بعبد شرًّا فتح له باب التأويل. انظر: نتائج الأفكار ٢/٢٥.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٤٢.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«وَمِنْهُم:

[٨٢] أَبُو الحَسَنِ[(٢)] عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الحُصْرِيُّ البَصْرِيُّ[(٣)]

سَكَنَ بَغْدَادَ، عَجِيبُ الحَالِ وَاللِّسَانِ، شَيْخُ وَقْتِهِ[(٤)]، يَنْتَمِي إِلَى الشِّبْلِيِّ.

مَاتَ بِبَغْدَادَ سَنَةَ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِمَائَةٍ.

قَالَ الحُصْرِيُّ[(٥)]: النَّاسُ يَقُولُونَ: الحُصْرِيُّ لَا يَقُولُ بِالنَّوَافِلِ! وَعَلَيَّ أَوْرَادٌ مِنْ حَالِ الشَّبَابِ، لَوْ تَرَكْتُ مِنْهَا رَكْعَةً لَعُوتِبْتُ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على كمالِ اجتهادِهِ وتحسُّسِهِ لزيادَتِهِ ونقْصِهِ، فإنَّهُ لا يدركُ العتابَ منَ الحقِّ عندَ تقصيرِهِ إلَّا خواصُّ الخلْقِ، كمَا قالَ بعضُهُمْ: إنِّي لأَعْصِي اللهَ ـ تعالى ـ فأعرفُ ذلكَ في خُلُقِ حِمَارِي وخَادِمِي، والَّذِي انقطعَ شسْعُ نعْلِهِ في مُضِيِّهِ للجمعةِ لمَّا أخلَّ بالغُسْلِ فتحسَّسَ لمَا جرَى عليهِ في طريقِهِ منَ الخللِ في مُضِيِّهِ إلى الجمعةِ فتنبَّهَ إلى[(٦)] أنَّهُ لما أَخلَّ أُخِلَّ بهِ، لمَّا فوَّتَ أدبَ الغسلِ أُخِّرَ عنِ البكورِ بمقدارِ ما أصلحَ نعْلَهُ ثمَّ اغتسلَ ليأتِي بكمَالِ فَضْلِهِ[(٧)].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٨)]: [١/١٠٦أ] «وَقَالَ[(٩)]: مَنِ ادَّعَى فِي شَيْءٍ مِنَ الحَقِيقَةِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٤٦.

(٢) في (ج): أبو الحسين، والصواب المثبت.

(٣) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٦٦، وتاريخ بغداد ١١/٣٤٠، ومناقب الأبرار ٢/٨٥٨، وطبقات الأولياء ص٢١٣، والطبقات الكبرى ١/٢٢٢، والكواكب الدرية ٢/١١٣.

(٤) هو أستاذ العراقيين، به تأدب منهم من تأدب. انظر: مناقب الأبرار ٢/٨٥٨.

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٨٦١.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٤٣.

(٨) الرسالة القشيرية ١/١٤٦.

(٩) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٦٦، ومناقب الأبرار ٢/٨٦٠.

كَذَّبَتْهُ شَوَاهِدُ كَشْفِ البَرَاهِينِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **والحقيقةُ عندَ القومِ**[١]: غلبَةُ حالِ المحقّقِ علىٰ القلبِ، فمَنِ ادَّعَىٰ نَيْلَ شَيءٍ وأنَّهُ وصلَ إلىٰ حقيقتِهِ ولمْ يظهرْ عليهِ دلائلُ صِدْقِهِ في أحوالِهِ، كانَتْ أحوالُهُ مُكَذِّبَةً لهُ فيمَا ادَّعاهُ مِنْ نَيْلِهَا، وذلكَ أنَّ الحقيقةَ عندَ القومِ ما أجابَ حارثةُ بهِ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢]: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ فَقَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟ فَأَجَابَهُ بِأَنَّهُ عَزَفَتْ نَفْسُهُ عَنِ الدُّنْيَا فَاسْتَوَىٰ عِنْدَهُ ذَهَبُهَا وَمَدَرُهَا»، وهذهِ آثارُ حقيقةِ إيمانِهِ بحقارةِ الدُّنيَا، «وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا وَإِلَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ».. الحديث، وهذهِ حقيقةُ الإيمانِ بمَا في الأُخْرَىٰ.

وقولُهُ[٣]: «فَأَظْمَأْتُ لِذَلِكَ نَهَارِي، وَأَسْهَرْتُ لَيْلِي» معناهُ: أنَّهُ أعرضَ عنِ الدُّنيَا وأقبلَ علىٰ أعمالِ الأُخْرَىٰ.

فكلُّ مَنِ ادَّعَىٰ حقيقةَ أمرٍ ولمْ يشهَدْ حالُهُ بصحَّةِ دَعْوَاهُ، كانَ حالُهُ مكذِّبًا لهُ، فمَنِ ادَّعىٰ الزُّهدَ في الدُّنيَا وأنَّهُ تحقَّقَ فيهِ، ثمَّ كانَ ظاهِرُهُ مشغولًا بالتَّنعُّمِ والتَّلذُّذِ بالمَطْعُومَاتِ ودائمَ الكَسَلِ والرَّاحَاتِ، ودائمَ الحِرْصِ علىٰ إقامةِ الجَاهِ والحُرْمَةِ ونُفُوذِ الكلماتِ، كذَّبَتْهُ شواهدُ حالِهِ فيمَا ادَّعاهُ، وكذلِكَ مَنِ ادَّعَىٰ التَّوكُّلَ وغيرَهُ مِنَ المقاماتِ، علىٰ نحوِ ما ذَكَرْنَاهُ من هَذِهِ[٤] التَّنبيهاتِ[٥].

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: عبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص٤٥، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٧٩.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أي: حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٤٣.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنْهُمْ:

[٨٣] أَبُو عَبْدِ اللهِ أَحْمَدُ بْنُ عَطَاءٍ الرُّوذْبَارِيُّ[٢]

ابْنُ أُخْتِ الشَّيْخِ أَبِي عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِي، شَيخُ الشَّامِ فِي وَقْتِهِ.

مَاتَ بِـ(صُورَ)[٣] سَنَةَ تِسْعٍ وَسِتِّينَ[٤] وَثَلاثمائَةٍ.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ سَعِيدٍ المَصِّيصِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَطَاءٍ الرُّوذْبَارِي يَقُولُ[٥]: كُنْتُ رَاكِبًا جَمَلًا، فَغَاصَتْ رِجْلا[٦] الجَمَلِ فِي الرَّمْلِ، فَقُلْتُ: جَلَّ اللهُ، فَقَالَ الجَمَلُ: جَلَّ اللهُ!».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا جائزٌ لا استحالةَ[٧] فيهِ أنْ يُجْرِي اللهُ على لسانِ الجمَلِ لفظًا يُفْهَمُ منهُ هذا، فإنَّ سائرَ الحيواناتِ تُسَبِّحُ اللهَ وتقدِّسُهُ بلغتِهَا، ويكونُ الخارِقُ لِتنبيهِ[٨] هذا أنْ أسمعَهُ اللهُ بلسَانِ هذا الجمَلِ ما يُجريهِ على لسَانِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٤٧.

(٢) انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٧٠، وحلية الأولياء ١٠/٣٥٦، وتاريخ بغداد ٤/٣٣٦، وتاريخ دمشق ٥/١٦، ومناقب الأبرار ٢/٨٦٣، وسير أعلام النبلاء ١٦/٢٣٩، واللباب في تهذيب الأنساب ٣/٢٦٥، والطبقات الكبرى ١/٢٢٢، والكواكب الدرية ٢/٣٨.

(٣) في الروض المعطار ص٣٦٩: «صور: من بلاد الشام بحرية، بها دار الصنعة، ومنها تخرج مراكب السلطان، وهي حصينة جليلة، قريبة من عكا».

(٤) في (ج): تسع وتسعين، والصواب المثبت.

(٥) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥/١٩، ومناقب الأبرار ٢/٨٦٦.

(٦) في (ب): رجلي، والصواب المثبت.

(٧) في (ب): لاستحالة، والصواب المثبت.

(٨) في (ج): لتلبية.

بني آدمَ، وقدْ قَالَ ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقد يكونُ الخارِقَ فهمُهُ [١/١٠٦ب] لتسبيحِ الجمَلِ بِلُغَتِهِ فأخبرَ عمَّا فهِمَ، وإنْ لمْ يكنْ بلسانٍ عربيٍّ، كمَا كانَ سليمانُ ـ صلواتُ اللهِ على نبيِّنا وعليهِ ـ يَفْهَمُ مَنْطِقَ الطَّيرِ والنَّملِ، كمَا قالَ ـ تعالى ـ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، وقالَ ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٨]، ففهمَ كلامَهَا، وسَأَلَ اللهَ أنْ يَرْزُقَهُ شُكْرَ ما أنعمَ بهِ عليهِ[١].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **«وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الرُّوذْبَارِيُّ[٣] إِذَا دُعِيَ أَصْحَابُهُ مَعَهُ إِلَىٰ دَعْوَةٍ فِي دُورِ السُّوقَةِ[٤] وَمَنْ[٥] لَيْسَ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ، لَا يُخْبِرُ الفُقَرَاءَ، وَكَانَ يُطْعِمُهُم شَيْئًا، فَإِذَا فَرَغُوا أَخْبَرَهُم وَمَضَىٰ بِهِمْ، فَكَانُوا قَدْ أَكَلُوا فِي الوَقْتِ فَلَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَمُدُّوا أَيْدِيَهُم إِلَىٰ طَعَامِ الدَّعْوَةِ إِلَّا بِالتَّعَزُّزِ، وَإِنَّمَا كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِئَلَّا تَسُوءَ ظُنُونُ النَّاسِ بِهَذِهِ الطَّائِفَةِ، فَيَأْثَمُونَ بِسَبَبِهِمْ».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا منهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنَّ السُّوقَةَ وعوامَّ النَّاسِ لا يعرفُونَ منَ العبادةِ إلَّا الإعراضَ عنِ الطَّعامِ وقلَّةَ المَنامِ، فخشِيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا رأَوا شَرَهَهُمْ فِي الأكلِ فإنَّهُمُ الغالبُ عليهِمُ الجوعُ في أكثرِ أحوالِهِم، والاكتفاءُ بمَا تيسَّرَ منَ الطَّعامِ كائنًا ما كانَ، يابسًا أوْ رطبًا، أو كيفَ مَا تيسَّرَ، فإذَا تكلَّفَ لهُمْ بعضُ المحبِّينَ أطعمةً طيِّبةً، وأقبلُوا عليهَا في أثرِ ذلكَ الجوعِ ظهَرَتْ رغبتُهُمْ في الأكْلِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٤٤.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٤٧.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥/٢٠، ومناقب الأبرار ٢/٨٦٦.

(٤) خلاف المَلِك، وفي التهذيب «سوق»: «السُّوقة بمنزلة الرَّعيَّة التي يَسُوسُها الملَك، سُمُّوا سوقةً؛ لأنَّ الملوك يسوقونهم فينساقون لهم».

(٥) في (ف): أو من.

وشدَّةُ شَرَهِهِمْ فيهِ فيستنقصُهُمْ مَنْ يُشَاهِدُهُمْ ممَّنْ يعتقدُ أنَّ العبادةَ ما ذكرْنَاهُ ؛ مِنْ مُلازَمةِ الجُوعِ مطلقًا وترْكِ الشَّهواتِ .

فأرادَ هذا الشَّيخُ أنْ يحفظَ قُلُوبَ هؤلاءِ العوامِّ مِنَ السُّوقَةِ من إساءَةِ الظَّنِّ بأهْلِ هذه الطَّائفةِ ، بخلافِ غيرِهِم منْ أهْلِ هذا الشَّأنِ ، إذَا يَسَّرَ لهُمُ الأطعمةَ الطَّيِّبَةَ ورأىٰ انبساطَهُمْ في أكْلِهَا وكثرةَ انشراحِهِمْ في ذلكَ الوقتِ ازدادَ سُرُورُهُ وفَرحُهُ ؛ لِعلْمِهِ بمَا أدخلَهُ عليهِم منَ الرَّاحاتِ ، وبكونِهِم استصلحُوا طعامَهُ وانبسطُوا لهُ بحُسْنِ النِّيَّاتِ ، وذلكَ لمَا يعرفُهُ مِنْ أحوالِهِم في عُمُومِ الأوقاتِ ، وكذلكَ حُكِيَ عن أبِي مَدْيَنَ شعيبٍ[١] الَّذِي كانَ بـ(بجَاية)[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّهُ كانَ إذا دَعَا أصحابَهُ إلىٰ دعوةٍ أمرَ خادمَهُ أنْ ييسِّرَ لهُمْ إسْفِنْجًا وعَسَلًا ـ يعنِي زلابيةَ ـ ، وأطعمَهُمْ قبلَ مُضِيِّهِمْ ، ليذهبُوا وقدِ انكسَرَتْ سَورةُ جوعِهِمْ ، وأكلُوا طيِّبًا قبلَ مُضِيِّهِمْ ، فلا يقدِمُونَ علىٰ الطَّعامِ إلَّا بأدبٍ وعِزَّةِ نَفْسٍ ، كمَا فعلَهُ الرُّوذْبَارِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣] .

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٤] [١/١٠٧أ]: **«وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الرُّوذْبَارِي يَمْشِي عَلَىٰ أَثَرِ الفُقَرَاءِ يَوْمًا ـ وَكَذَا كَانَتْ عَادَتُهُ أَنْ يَمْشِيَ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ ـ ، وَكَانُوا يَمْضُونَ إِلَىٰ دَعْوَةٍ ، فَقَالَ إِنْسَانٌ بَقَّالٌ: هَؤُلَاءِ المُسْتَحِلُّونَ ، وَبَسَطَ لِسَانَهُ فِيهِم .**

وَقَالَ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ[٥]: إِنَّ وَاحِدًا مِنْهُمْ قَدِ اسْتَقْرَضَ مِنِّي مائَةَ دِرْهَمٍ وَلَمْ

---

(١) هو: أبو مَدينِ الغَوْث ، شعيب بن الحسين الأندلسي التلمساني ، أبو مدين: صوفي ، من مشاهيرهم. أصله من الأندلس ، أقام بفاس ، وسكن (بجاية) وكثر أتباعه حتىٰ خافه السلطان يعقوب المنصور. وتوفي بتلمسان سنة (٥٩٤ هـ).
انظر في ترجمته: التكملة لكتاب الصلة ٤/١٣٧ ، والعبر ٤/٢٧٥ ، وطبقات الأولياء ص٤٣٧ ، والأعلام ٣/١٦٦.

(٢) أي: يسكنها ، وفي معجم البلدان ١/٣٣٩: «مدينة علىٰ ساحل البحر بين إفريقية والمغرب».

(٣) انظر: إحكام الدلالة ١/٢٤٤.

(٤) الرسالة القشيرية ١/١٤٧ ـ ١٤٨.

(٥) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥/٢٠ ، ومناقب الأبرار ٢/٨٦٧.

يَرُدَّهَا، وَلَسْتُ أَدْرِي أَيْنَ أَطْلُبُهُ، فَلَمَّا دَخَلُوا دَارَ الدَّعْوَةِ، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الرُّوذْبَارِي لِصَاحِبِ الدَّارِ ـ وَكَانَ مِنْ مُحِبِّي هَذِهِ الطَّائِفَةِ ـ: اِئْتِنِي بِمِائَةِ دِرْهَمٍ إِنْ أَرَدْتَ سُكُونَ قَلْبِي، فَأَتَاهُ بِهَا فِي الوَقْتِ، فَقَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: اِحْمِلْ هَذِهِ المائَةَ إِلَى البَقَّالِ الفُلَانِيِّ وَقُلْ لَهُ: هَذِهِ المائَةُ الَّتِي اسْتَقْرَضَ مِنْكَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا، وَقَدْ وَقَعَ لَهُ فِي التَّأْخِيرِ عُذْرٌ، وَقَدْ بَعَثَهَا الآنَ فَاقْبَلْ عُذْرَهُ، فَمَضَى الرَّجُلُ وَفَعَلَ، فَلَمَّا رَجَعُوا مِنَ الدَّعْوَةِ اِجْتَازُوا بِحَانُوتِ البَقَّالِ، فَأَخَذَ البَقَّالُ فِي مَدْحِهِمْ يَقُولُ: هَؤُلَاءِ السَّادَةُ الثِّقَاتُ الأُمَنَاءُ الصُّلَحَاءُ، وَمَا فِي هَذَا البَابِ [من المَدْحِ][1]».

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وفي[2] هذِهِ الحكايةِ ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ مِنَ الآدابِ وحِفْظِ القلوبِ للعامَّةِ والخاصَّةِ وحِفْظِ أحوالِ المريدِينَ ما نُنَبِّهُ عليهِ، وذلكَ أَنَّ مَشْيَ الشَّيخِ خلفَ أصحابِهِ فيهِ نوعانِ منَ الخيرِ:

أحدُهُمَا: تواضعُهُ وتأخُّرُهُ، ولا يكونُ مُقدَّمًا مَتْبُوعًا.

والثَّانِي: أَنَّهُمْ إذَا كانُوا أمامَهُ لاحظَهُمْ ببصَرِهِ واستشعرُوا ذلكَ، فلزمُوا الأدبَ بينَ يديهِ، بخلافِ ما لَوْ كانُوا خلفَهُ لغلَبَ علىٰ مَنْ ضَعُفَ منهُم المعتادُ[3]، واشتغلَ بمَرحٍ أو غيرِهِ؛ ممَّا يجرِي بينَ العِبادِ، ومقصُودُ الشَّيخِ أنْ يُلازِمُوا[4] الأدبَ فِي كُلِّ الأَحْوالِ.

وأمَّا مَا سمِعَهُ من هذا الفَامِيّ ـ وهوَ البَيَّاعُ[5] ـ مِنْ ذمِّ هذِهِ الطَّائفةِ بسببِ مَنِ اقترضَ منْهُ قرْضًا ممَّنْ تشبَّهَ بهِم أو ينسبُ إليهِم، وغابَ عنْ هذَا الفاميّ غيبةً

(١) زيادة من (ف)؛ أي: من المديح.
(٢) في (ج): وما في.
(٣) أي: المعتاد من الكلام.
(٤) في (ب): يلازم، والأصح المثبت.
(٥) ففي المغرب للمطرزي ٢/١٥٣: «(الفامي ـ بتشديد الياء.. هو الذي يسميه العوام: البياع».

طويلةً حتَّىٰ غلبَ علىٰ ظنِّهِ أنَّهُ أخذَ مالَهُ وأكلَهُ، فانطلَقَ لسانُهُ بمَا انطلقَ، فلمْ يحملْ هذا الشَّيخُ سَمَاعَ سبِّ هذَا الجنسِ علىٰ الجملةِ، ورَآهُ أمرًا عظيمًا في حقِّ القائلِ ومَنْ يسمعُهُ، ولَا سيَّمَا إذَا كانَ ذمُّهُ لمثْلِ هذا الفعْلِ الَّذِي لا يسبقُ للنَّاسِ العذرُ في تأخيرِهِ، فلمَّا سمعَ ذلكَ أرادَ أنْ يحفظَ قلبَ الفاميِّ ويصونَ عِرْضَ هذهِ الطَّائفةِ، فلمَّا وَصَلَ إلىٰ مَنْزِلِ مَنْ هوَ مُحبٌّ لهذِهِ الطَّائفةِ شَديدُ الرَّغبةِ في إكرامِهِم؛ لِمَا يعلمُ مِنْ فَضْلِهِم انبسطَ معَ صاحبِ الدَّارِ في طلبِ المَائةِ دِرْهَمٍ؛ لعلْمِهِ بِسُرُورِهِ بذلكَ ويُسْرِهِ عليهِ، فلمَّا أتَىٰ [١/١٠٧ب] بهَا أرسلَهَا معَ بعضِ الفقراءِ إلىٰ الفامِيِّ، وأوهمَهُ أنَّهَا مِنْ جهةِ ذلكَ المُقْتَرِضِ، وإنَّمَا كانَ لهُ في تأخيرِهَا عنكَ عُذْرٌ فاقْبَلْ عذرَهُ، وهذَا كلُّهُ حُسنُ تَصَرُّفٍ وكمَالُ أدَبٍ، وحفظٌ لقلُوبِ المُسلمينَ عَن إسَاءةِ الظَّنِّ[١].

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الرُّوذْبَارِي[٣]: أَقْبَحُ مِنْ كُلِّ[٤] قَبِيحٍ: صُوفِيٌّ شَحِيحٌ**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ أوَّلَ درجاتِ التَّصوُّفِ الإعراضُ عنِ الدُّنيا[٥] حلالِهَا وحرامِهَا؛ لِيندفعَ عنهُ بإعراضِهِ عنهَا سَائرُ الأخلاقِ المَذْمُومةِ، والشُّحُّ بهَا مِن جُمْلتِهَا، ويتفرَّغَ للتَّخلُّقِ بالأخلاقِ المَحْمُودةِ؛ مِنَ التَّوكُّلِ والرِّضَا والتَّسليمِ والمُرَاقبةِ والمَحبَّةِ والأُنْسِ، وغيرِ ذلكَ من دَرَجَاتِ المُقرَّبِين.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٤٥.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٤٨.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٧١، وتاريخ دمشق ٥/٢٠، ومناقب الأبرار ٢/٨٦٤.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) إنما جعل الإعراض عن الدنيا أول درجات الصوفية؛ لصعوبته علىٰ النفوس البشرية، فبهذا الإعراض ينعدم غالب حظوظ النفس.

فإذَا تخلَّقَ بهذِهِ الصِّفاتِ المَحمُوداتِ، وتخلَّىٰ عنِ الصِّفَاتِ المَذمُومَاتِ، فحينئذٍ يُسمَّىٰ صُوفِيًّا، فإذَا أخلَّ بأوائلِ الدَّرجَاتِ؛ وهوَ إعْرَاضُهُ عنِ الدُّنيَا الحَرامِ كانَ أقبَح القَبيحِ منَ الصِّفاتِ، فإنَّ(١) الشُّحَّ: هوَ أنْ يشحَّ الإنسانُ علىٰ نفسِهِ بالمَالِ؛ لكمَالِ محبَّتِهِ لهُ، فضلًا عن أنْ يعطيَهُ لغيرِهِ، وبهذا كانَ أقبحَ من كلِّ قبيحٍ شُحُّ صُوفيٍّ بمَا في يدَيهِ علىٰ نفسِهِ؛ لِمَحبَّتِهِ لهُ وحِرْصِهِ عليهِ، واللهُ المُستَعَانُ(٢).

(١) في (ج): هو أن.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٤٥، ٢٤٦.

[خِتَامُ بَابِ التَّرَاجِمِ]

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «هَذَا ذِكْرُ جَمَاعَةٍ مِنْ شُيُوخِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، كَانَ الغَرَضُ فِي ذِكْرِهِمْ فِي هَذَا المَوْضِعِ: التَّنْبِيهَ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَىٰ تَعْظِيمِ الشَّرِيعَةِ(٢)، مُتَّصِفُونَ بِسُلُوكِ طُرُقِ الرِّيَاضَةِ(٣)، مُقِيمُونَ عَلَىٰ مُتَابَعَةِ السُّنَّةِ، غَيْرَ مُخِلِّينَ بِشَيْءٍ مِنْ آدَابِ الدِّيَانَةِ، مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ خَلَا مِنَ المُعَامَلَاتِ وَالْمُجَاهَدَاتِ وَلَمْ يَبْنِ أَمْرَهُ عَلَىٰ أَسَاسِ الوَرَعِ وَالتَّقْوَىٰ، كَانَ مُفْتَرِيًا عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِيمَا يَدَّعِيهِ مَفْتُونًا، هَلَكَ فِي نَفْسِهِ، وَأَهْلَكَ مَنِ اغْتَرَّ بِهِ مِمَّنْ رَكَنَ إِلَىٰ أَبَاطِيلِهِ.

وَلَوْ تَقَصَّيْنَا مَا وَرَدَ عَنْهُم مِنْ أَلْفَاظِهِم وَحِكَايَاتِهِم، وَوَصْفِ سِيَرِهِم؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَحْوَالِهِم؛ لَطَالَ بِهِ الكِتَابُ، وَحَصَلَ مِنْهُ المَلَالُ.

وَفِي هَذَا القَدْرِ الَّذِي لَوَّحْنَا بِهِ فِي تَحْصِيلِ المَقْصُودِ غُنْيَةٌ، وَبِاللهِ التَّوفِيقُ.

فَأَمَّا المَشَايِخُ الَّذِينَ أَدْرَكْنَاهُمْ وَالَّذِينَ عَاصَرْنَاهُم، وَإِنْ لَمْ يَتَّفِقْ لَنَا لُقِيَاهُمْ، مِثْلُ الْأُسْتَاذِ الشَّهِيدِ لِسَانِ وَقْتِهِ وَأَوْحَدِ(٤) عَصْرِهِ: أَبِي عَلِيٍّ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الدَّقَّاقِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَالشَّيْخِ نَسِيجِ وَحْدِهِ فِي وَقْتِهِ: أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَأَبِي الحَسَنِ عَلِيِّ [١/١٠٨أ] بْنِ جَهْضَمٍ ـ مُجَاوِرِ الحَرَمِ، وَالشَّيْخِ أَبِي الْعَبَّاسِ القَصَّابِ بِـ(طُبَرْسْتَانَ)، وَأَحْمَدَ الأَسْوَدِ بِـ(الدِّينَورِ)، وَأَبِي القَاسِمِ الصَّيْرَفِيِّ بِـ(نَيْسَابُورَ)،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) وذلك بدوام متابعتهم لها في جميع الحركات والسكنات.

(٣) أي: طرق تهذيب النفس.

(٤) في (ج، ف): وواحد.

وَأَبِي سَهْلٍ الخَشَّابِ الكَبِيرِ بِهَا، وَمَنْصُورِ بْنِ خَلَفٍ المَغْرِبِيِّ، وَأَبِي سَعِيدٍ المَالِينِي، وَأَبِي طَاهِرٍ الخُزَنْدِي ـ قَدَّسَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ، وَغَيْرِهِمْ ـ، فَلَوِ اشْتَغَلْنَا بِذِكْرِهِمْ وَتَفْصِيلِ أَحْوَالِهِم، لَخَرَجْنَا عَنِ المَقْصُودِ فِي الإِيجَازِ، وَغَيْرُ مُلْتَبِسٍ مِنْ أَحْوَالِهِمْ حُسْنُ سِيَرِهِم فِي مُعَامَلَاتِهِم.

وَسَنُورِدُ مِنْ حِكَايَاتِهِمْ طَرَفًا فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **مقصودُ هذا الفَصْلِ**: التَّعريفُ بأنَّ أئمَّةَ هذا الشَّأنِ بالغُوا في السُّلوكِ والمُجاهداتِ في الأعمالِ والمَقَامَاتِ، ومقصودهُ في الفصلِ الأَوَّلِ: موافقتُهُ لأهْلِ السُّنَّةِ فِي اعتقاداتِ القلوبِ، وفي هذا الفصْلِ: أعمالُ القلوبِ وأحوالُهَا، ومجاهدةُ الأبدانِ وانتقالُهَا عن عاداتِهَا أنَّ ذلكَ جميعَهُ جارٍ على مقتضى العلمِ، واتِّباعِ السُّنَّةِ، ولمْ يميلُوا في سُلُوكِهِم وَسَائِرِ أَعْمَالِهِم إلى بِدْعةٍ.

فحصلَ من مَجْمُوعِ الفَصْلَينِ مُوافقتُهُمْ للصَّحابةِ والتَّابعينَ ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسَانٍ فِي اعتقاداتِ القُلُوبِ وعُلُومِهَا، وأعمالِ الجَوارحِ وشَريفِ ما نَالُوهُ من دَرَجَاتِهَا، وقدْ وعدَ بأنْ يُكمِلَ ذلكَ في الأبوابِ الَّتِي يأتِي ذِكْرُهَا ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالى ـ، وبيَّنَ أنَّ مَنْ سَكَتَ عنِ الكَلامِ في أَحْوَالِهِ مِنْ شُيُوخِهِ الَّذِينَ لَقِيَهُم ورَوَى عَنْهُمْ؛ مثلِ: الشَّيخِ أَبِي عَلِيٍّ الدَّقَّاقِ، والشَّيخِ أَبِي عبدِ الرَّحمنِ السُّلَمِيِّ، وَمَنْ سَمَّى مَعَهُمْ ونَقَلَ كرامَاتِهِم، ومَا نَالُوهُ مِنْ شَرِيفِ مَقَامَاتِهِم، إنَّمَا حملَهُ على ذلِكَ خوفًا مِنْ طولِ الكتابِ، وَتَرْكًا للسَّآمةِ والمَلالِ.

❊ ❊ ❊

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

بَابُ تَفْسِيرِ أَلْفَاظٍ تَدُورُ بَيْنَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ وَ[بَيَانِ](٢) مَا يُشْكِلُ مِنْهَا

اعْلَمْ أَنَّ مِنَ المَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ مِنَ العُلَمَاءِ لَهُمْ أَلْفَاظٌ يَسْتَعْمِلُونَهَا، انْفَرَدُوا بِهَا عَمَّنْ سِوَاهُمْ، تَوَاضَعُوا(٣) عَلَيْهَا لِأَغْرَاضٍ لَهُم فِيهَا؛ مِنْ تَقْرِيبِ الفَهْمِ(٤) عَلَى المُخَاطَبِينَ بِهَا، أَوْ تَسْهِيلٍ عَلَى أَهْلِ تِلْكَ الصَّنْعَةِ فِي الوُقُوفِ عَلَى مَعَانِيهِمْ بِإِطْلَاقِهَا.

وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ يَسْتَعْمِلُونَ أَلْفَاظًا فِيمَا بَيْنَهُم، قَصَدُوا بِهَا الكَشْفَ عَنْ مَعَانِيهِمْ لِأَنْفُسِهِم، بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ [١/١٠٨ب]، وَالإِجْمَالَ وَالسَّتْرَ عَلَى مَنْ بَايَنَهُم(٥) فِي طَرِيقَتِهِم(٦)؛ لِتَكُونَ مَعَانِي أَلْفَاظِهِم مُسْتَبْهَمَةً(٧) عَلَى الأَجَانِبِ(٨)؛ غَيْرَةً مِنْهُم عَلَى أَسْرَارِهِمْ أَنْ تَشِيعَ فِي غَيْرِ أَهْلِهَا؛ إِذْ لَيْسَتْ حَقَائِقُهُم مَجْمُوعَةً بِنَوْعِ تَكَلُّفٍ، أَوْ مَجْلُوبَةً بِضَرْبِ تَصَرُّفٍ؛ بَلْ هِيَ مَعَانٍ أَوْدَعَهَا اللهُ ـ تعالى ـ قُلُوبَ قَوْمٍ، وَاسْتَخْلَصَ لِحَقَائِقِهَا أَسْرَارَ قَوْمٍ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٥٠.

(٢) زيادة من (ب، ف).

(٣) في (ب): في نسخة: تواطؤوا.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) أي: خالفهم.

(٦) في (ب): طريقهم.

(٧) في (ف): مشتبهة.

(٨) قال العروسي: «الغرض الستر على غير الأهل ممن لا انتفاع لهم بها» نتائج الأفكار ٢/٣٣.

وَنَحْنُ نُرِيدُ بِشَرْحِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ[١]: تَسْهِيلَ الْفَهْمِ عَلَىٰ مَنْ يُرِيدُ الْوُقُوفَ عَلَىٰ مَعَانِيهِمْ[٢] مِنْ سَالِكِي طُرُقِهِمْ، وَمُتَّبِعِي سَنَنِهِم[٣]».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«مَعْلُومٌ أَنَّ كلَّ طائفةٍ مِنَ العلماءِ تَوَاضَعُوا علىٰ ألفاظٍ بينَهُم»** قَصْدًا للتَّعريفِ للأفهامِ، وجمْعًا لِمَا تشتَّتَ من الكلامِ، وذلكَ أَنَّ أهلَ الأصولِ[٤] اصطلحُوا علىٰ إطلاقِ (العالَمِ، والحيِّزِ، والوقتِ، والجوهرِ، والكونِ، والحالِ)، وما يجري مِن هذهِ الألفاظِ بمعانِي أرادُوهَا فيمَا بينَهُم، وربَّمَا تجوَّزُوا بهَا لِمُشَابَهَةٍ بينَهَا وبينَ الحقيقةِ؛ إمَّا بالزِّيادةِ أوِ النَّقصِ أوِ النَّقلِ.

وكذلكَ الفقهاءُ اصْطَلَحُوا[٥] علىٰ مَعَانِي فِي فَنِّهِم، وكذلكَ أربابُ الأشغالِ والصَّنَائعِ، كلُّ صِنْفٍ منَ النَّاسِ اصطلحُوا علىٰ أسماءٍ وضَعُوهَا لآلاتِهِم وما يحتاجونَ إلىٰ تعريفٍ فيمَا بينَهُمْ، وهذهِ الطَّائفةُ سَلَكُوا ذلكَ المَسلكَ، وربَّمَا أطلقُوا المعانِي الَّتِي أطلقُوهَا تواضُعًا فيمَا بينَهُمْ واصطلاحًا، وربَّمَا استعارُوهَا من وضْعِ اللُّغةِ لنوعِ مشابهةٍ بينَ ما أرادُوهُ والوضعِ الأصليِّ.

فقولُ الإمامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّهُمْ إنَّمَا فعلُوا ذلكَ سَتْرًا لأحوالِهِمْ وما فتحَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عليهِمْ بهِ في سرائِرِهِمْ منَ الدَّرجاتِ وسنِيِّ المقاماتِ في الولاياتِ؛ خوفًا منْ شيوعِ ذلكَ في غيرِهِمْ، فلَا يفهمُهُ مَنْ سَمِعَهُ ولا يَعْرِفُ المُرَادَ بهِ فيقعَ فيهِم

---

(١) أي: نشرح ظواهر هذه الألفاظ عندهم دون التوغل في كشف حقائقها؛ لقصور العبارة عن ذلك. انظر: إحكام الدلالة ١/٢٤٨.

(٢) في (ب): معانيها.

(٣) أي: طريقهم.

(٤) أي: أصول الدين.

(٥) في (ج): اصلحوا، والصواب المثبت.

لِجَهْلِهِ بمَا أرادُوهُ فيهلكَ.

وأيضًا: فإنَّ معانِي القلوبِ المَوهبيَّةِ والتَّعريفَاتِ الإلَهيَّةِ هيَ مختصَّةٌ بواجِدِهَا ومَنْ وهبَ اللهُ لهُ ذلكَ، فأهلُ هذَا الشَّأنِ متقاربونَ في السُّلوكِ وفي المَواهبِ، إلَّا أنَّهُمْ يَتَفاوتُونَ في الفَتْحِ؛ فينالُ بعضُهُمْ بعضَ ما نالَهُ الآخرُ، ويزيدُ بعضُهُمْ على بعضٍ، وكلامُهُمْ إنَّمَا هوَ لتحريكِ مَنْ لم ينَلْ ما نالَهُ صَاحبُهُ، وتعريفُهُ الدَّرجاتِ العَاليةَ بإشارةٍ لفظيَّةٍ يُفْهَمُ منهَا المقصودُ.

فلهذَا المعنَى وغيرِهِ سَتَرُوهُ عن غيرِهِمْ وكَشَفُوهُ فيمَا بينَهُم؛ لزيادةِ انتفاعِ [١٠٩/١أ] بعضِهِم من بعضٍ، والإشارةِ بمَا اختصَّ بهِ بعضُهُم عن بعضٍ، فيعرفُ بمَا نالَهُ ما أشارَ بهِ صَاحِبُهُ، واللهُ أعلمُ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**فَمِنْ ذَلِكَ (الوَقْتُ)**[٢]:

حَقِيقَةُ الوَقْتِ عِنْدَ أَهْلِ التَّحْقِيقِ: حَادِثٌ مُتَوهَّمٌ عُلِّقَ حُصُولُهُ عَلَى حَادِثٍ مُتَحَقَّقٍ[٣]، فَالْحَادِثُ الْمُتَحَقَّقُ وَقْتٌ لِلْحَادِثِ الْمُتَوهَّمِ، تَقُولُ: (آتِيكَ رَأْسَ الشَّهْرِ)، وَالإِتْيَانُ مُتَوهَّمٌ وَرَأْسُ الشَّهْرِ حَادِثٌ مُتَحَقَّقٌ، فَرَأْسُ الشَّهْرِ وَقْتُ الإِتْيَانِ».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا ذكرَهُ الشَّيخُ هاهُنَا في الوقتِ جارٍ على اصطلاحِ أَهْلِ الأصولِ منَ المتكلِّمينَ، فإنَّهُمْ قالُوا: الوقتُ وكذلكَ الزَّمانُ مقارنةُ حادثٍ لحادثٍ، وبهذَا الاعتبارِ كانَ الحقُّ مُنزَّهًا عنِ الزَّمانِ، فإنَّ الكُلَّ حَوادثُ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١٥١/١.

(٢) انظر في هذا المصطلح: عوارف المعارف ٣٢٠/٢، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٧٨، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٢٦٨.

(٣) قال الشيخ زكريا: «صوابه: حادث متحقِّق علق عليه حصول حادث متوهَّم، بدليل قوله: فالحادث المتحقق وقت للحادث المتوهم» إحكام الدلالة ٢٤٩/١. وانظر: نتائج الأفكار ٣٥/٢.
والحادث المتحقق: الزمان المعين المعلق عليه.

وَزَادَهُ الإمامُ بَسْطًا بِأَنْ قالَ: «الوقتُ: عبارةٌ عن حَادثٍ مُتحقَّقٍ لحَادثٍ مُتوهَّمٍ»، وأرادَ بالمتحقَّقِ: ما سَيَحْدُثُ، ولابُدَّ، وبالمُتوهَّم: مَا يصحُّ أنْ يكونَ وألَّا يكونَ، فإذَا قالَ: آتِيكَ الظُّهرَ أوْ زوالَ الشَّمسِ، فزوالُ الشَّمسِ حادثٌ متحقَّقٌ؛ أي: لا بُدَّ منْ كونِهِ، ومجيئُهُ ذلكَ الوقتَ يصحُّ أنْ يكونَ ويصحُّ ألَّا يكونَ، فزوالُ الشَّمسِ وقتٌ للمَجِيءِ.

ثمَّ بيَّنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ أهلَ هذَا الشَّأنِ أطلقُوا الوقتَ بمعانٍ أُخَرَ إلَّا أنَّهَا لَا تخرجُ عن هذَا الاصطلاحِ بالكُلِّيَّةِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[(٢)]: الوَقْتُ مَا أَنْتَ بِهِ؛ إِنْ كُنْتَ بِالدُّنْيَا فَوَقْتُكَ الدُّنْيَا، وَإِنْ كُنْتَ بِالْعُقْبَىٰ فَوَقْتُكَ العُقْبَىٰ، وَإِنْ كُنْتَ بِالسُّرُورِ فَوَقْتُكَ السُّرُورُ، وَإِنْ كُنْتَ بِحُزْنٍ فَوَقْتُكَ الحُزْنُ، يُرِيدُ بِهَذَا: أَنَّ الْوَقْتَ مَا كَانَ الغَالِبَ عَلَىٰ الإِنْسَانِ.

وَقَدْ يَعْنُونَ بِالوَقْتِ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الزَّمَانِ، فَإِنَّ قَوْمًا قَالُوا: الوَقْتُ: مَا بَيْنَ الزَّمَانَيْنِ، يَعْنِي: المَاضِي وَالمُسْتَقْبَلَ.

وَيَقُولُونَ[(٣)]: الصُّوفِيُّ ابْنُ وَقْتِهِ، يُرِيدُونَ بِذَلِكَ: أَنَّهُ مُشْتَغِلٌ بِمَا هُوَ أَوْلَىٰ بِهِ فِي الحَالِ، قَائِمٌ بِمَا هُوَ مُطَالَبٌ بِهِ فِي الحِينِ.

وَقِيلَ: الفَقِيرُ لَا يُهِمُّهُ مَاضِي وَقْتِهِ وَ[لا][(٤)] آتِيهِ، بَلْ يُهِمُّهُ وَقْتُهُ الَّذِي هُوَ فِيهِ.

وَقِيلَ: الاشْتِغَالُ بِفَوَاتِ وَقْتٍ مَاضٍ تَضْيِيعُ وَقْتٍ ثَانٍ».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٥١.

(٢) ورد قوله في: مدارج السالكين ٣/١٢٨.

(٣) سبق تخريجه ص٢٩٥.

(٤) زيادة من (ف).

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: فقولُهُ: «**الوَقتُ مَا غلبَ علىٰ الإنسانِ فِي حَالِهِ الَّذِي هوَ فيهِ**» منَ النَّوازلِ؛ منَ القَبْضِ أوِ البَسْطِ أوِ السُّرُورِ أوِ الحزنِ، فَسَمَّوا الوَقْتَ باسمِ مَا [١٠٩/١ب] يُلازمُهُ، وذلكَ أنَّ الإنسانَ لا يخلُو منْ زمنٍ يكونُ فيهِ؛ إذِ الأزمانُ ثلاثةٌ: ماضٍ ومستقبلٌ وحالٌ، فلمَّا غلبَ عليهِ في وقْتِهِ الَّذِي هوَ فيهِ ما ذكرْنَاهُ من أحدِ هذِهِ المعانِي أطلقَ عليهِ أنَّ المُعَيَّنَ[١] وقتُهُ.

وقَدْ يُطلقُونَ الوقتَ علىٰ ما ذكرْنَاهُ مَنَ الزَّمنِ الَّذِي هوَ فيهِ، ويقولُونَ: إنَّ الوقتَ سيفٌ[٢]، بمعنىٰ: إنْ لمْ تقطَعْهُ بخيرٍ قطعَكَ، يعنِي بِغَفْلَةٍ، أوْ بتلافِ أمرٍ[٣].

فبهذَا الاعتبارِ كانَ مشغولًا بوقتِهِ الَّذِي هوَ فيهِ، يعنِي: بعمَارةِ وقتِهِ، فأطلقُوا هذَا الوقتَ علىٰ ما أرادَهُ أهلُ الأصُولِ، فإنَّ الزَّمنَ الَّذِي هوَ فيهِ حادثٌ مُحقَّقٌ وشُغلَهُ في وقتِهِ حادثٌ مُتوهَّمٌ، فصارَ الوَقتُ ظرْفًا لمَا اشتغلَ بهِ، ولهذَا قالُوا: «**الصُّوفِيُّ ابنُ وَقْتِهِ**» لَا التفاتَ لهُ إلىٰ ماضٍ أو مُستقبلٍ، وكذلكَ قالُوا: «**الفقيرُ لَا يُهمُّهُ**[٤] **مَاضِي وَقتِهِ وآتِيهِ، بَلْ يهمُّهُ وقتُهُ الَّذِي هوَ فيهِ**»، يعنِي: عمارةَ وقتِهِ بمَا هوَ أَوْلَىٰ بهِ.

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٥]: «**وَقَدْ يُرِيدُونَ بِالوَقْتِ: مَا يُصَادِفُهُم مِنْ تَصْرِيفِ الحقِّ لَهُم دُونَ مَا يَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِم، فَيَقُولُ: فُلَانٌ بِحُكْمِ الوَقْتِ، أَيْ: إِنَّهُ مُسْتَسْلِمٌ لِمَا يَبْدُو لَهُ مِنَ الغيبِ مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارٍ.**

---

(١) في (ب): المعنىٰ.

(٢) في مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٢٠٨: «سمعت محمد بن محمد بن إدريس الشافعي يقول: سمعت أبي يقول: صحبت الصوفية عشر سنين ما استفدت منهم إلا هذين الحرفين: الوقت سيفٌ، ومن العصمة ألا تقدرَ».

(٣) انظر: إحكام الدلالة ١/٢٤٩.

(٤) أي: يقلقه، وبفتح الياء: يدينه.

(٥) الرسالة القشيرية ١/١٥١.

وَهَذَا فِيمَا لَيْسَ للَّهِ - تعالىٰ - عَلَيْهِم [فِيه][1] أمرٌ أَوِ اقْتِضَاءٌ بِحَقِّ شَرْعٍ ؛ إِذِ التَّضْيِيعُ لِمَا أُمِرْتَ بِهِ ، وَإِحَالَةُ الْأَمْرِ فِيهِ عَلَىٰ التَّقْدِيرِ ، وَتَرْكُ الْمُبَالَاةِ بِمَا يَحْصُلُ مِنْكَ مِنَ التَّقْصِيرِ خُرُوجٌ عَنِ الدِّينِ» .

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي أطلقُوهُ في الوَقْتِ يرجعُ إلىٰ مَا يصرِّفُهُمُ الحقُّ فيهِ ؛ ممَّا سبقَتْ بهِ المَقَادِيرُ ، فأيَّ حالٍ أقامَهُمُ الحقُّ فيهِ ؛ منْ قَبْضٍ أو بَسْطٍ أوْ خَيْرٍ أو شرٍّ سَمَّوهُ وقْتًا ؛ وذلكَ لمشابهتِهِ لمَا هوَ فيهِ منَ الزَّمنِ الَّذِي صادفَهُ التَّصريفُ ، فيرضَىٰ صَاحبُ هذا الوقتِ بكلِّ مَا أقامَهُ الحقُّ فيهِ ما لَمْ يكنْ للشَّريعةِ عليهِ فيهِ اعتراضٌ بالتَّحريمِ أوِ الكراهةِ ، أوِ الإخلالِ بواجبٍ ، فإنَّ العبدَ مأمورٌ بالتَّألُّمِ لذلكَ والنَّدمِ عليهِ والبُعْدِ منهُ إنْ أمكنَ ، فإنَّ العبدَ إذا قالَ: أنَا رَاضٍ بمَا أقامَنِي الحقُّ فيهِ منَ الوقتِ علىٰ الإطلاقِ لزمَ أنْ يرضَىٰ وقتًا بإخلالِهِ بالواجباتِ ووقتًا بارتكابِهِ المحرَّماتِ ، فإنَّ جميعَ ذلكَ من تصريفِ الحقِّ في الخلقِ ، ومَنِ استرسلَ في ذلكَ خرجَ عنِ الدِّينِ بالكليَّةِ[2] ، وعملَ بِهوَىٰ نَفْسِهِ والضَّلالِ عَنِ الحقِّ[3] .

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: **«وَمِنْ كَلَامِهِم:** [١/١١٠أ] **الوَقْتُ سَيْفٌ ؛ أَيْ: كَمَا أَنَّ السَّيْفَ قَاطِعٌ ، فَالوَقْتُ بِمَا يُمْضِيهِ الحَقُّ وَيُجْرِيهِ غَالِبٌ .**

وَقِيلَ: السَّيْفُ لَيِّنٌ مَسُّهُ ، قَاطِعٌ حَدُّهُ ، فَمَنْ لَايَنَهُ سَلِمَ ، وَمَنْ خَاشَنَهُ اصْطُلِمَ[5] ، وَكَذَا الوَقْتُ ؛ مَنِ اسْتَسْلَمَ لِحُكْمِهِ نَجا ، وَمَنْ عَارَضَهُ [بِتَرْكِ الرِّضَىٰ][6]

---

(١) زيادة من (ف) .

(٢) لأن معناه الانقياد لأحكام الشريعة ، ولا انقياد مع ما ذكر . انظر: نتائج الأفكار ٣٨/٢ .

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢٥٠/١ .

(٤) الرسالة القشيرية ١٥٢/١ .

(٥) أي: استؤصل .

(٦) زيادة من (ب ، ف) .

انْتَكَسَ وَتَرَدَّىٰ[(١)]، وَأَنْشَدُوا[(٢)]:

وَكَالسَّيْفِ إِنْ لَايَنْتَهُ لَانَ مَتْنُهُ ❊ وَحَدَّاهُ إِنْ خَاشَنْتَهُ خَشِنَانِ

وَ[قِيلَ][(٣)]: مَنْ سَاعَدَهُ الوَقْتُ فَالوَقْتُ لَهُ وَقْتٌ، وَمَنْ نَاكَدَهُ الوَقْتُ فَالوَقْتُ عَلَيْهِ مَقْتٌ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومنْ كلامِهِم: «**الوَقْتُ سيفٌ**»، أيْ: شبَّهُوا مَا يُجْرِيهِ الحقُّ علىٰ العبدِ ويُقدِّرُهُ بِمَاضٍ لَا بُدَّ مِن وُقُوعِهِ، وإذا كانَ كذلكَ فوظيفةُ العبدِ الصَّبرُ تحتَ جرَيانِ المَقْدُورِ، حتَّىٰ يَنْجَلِيَ ويتقبلَّ ذلكَ بالرِّضَىٰ، فإنَّ التَّسخُّطَ لا يزيلُ عنهُ شيئًا منَ القضاءِ، وبهذا الاعتبارِ يلاينُ السَّيفَ، وبالتَّسخُّطِ والمعاندةِ يكونُ مخاشنًا لهُ، فجعلُوا الوقتَ كالسَّيفِ تشبيهًا بهِ، وكمَا أنَّ السَّيفَ مَنْ أجرَىٰ يدَهُ علىٰ متْنِهِ ـ وهوَ وسطُهُ ـ واعتدلَ معَهُ نجَا، وكمَا أنَّ مَنْ خَاشَنَهُ ووضعَ يدَيهِ علَىٰ حدَّيهِ خاشنَهُ وقطَعَهُ، وهذا هوَ معنىٰ الشِّعرِ؛ وهوَ قولُهُ:

وَكَالسَّيْفِ إِنْ لَايَنْتَهُ لَانَ مَتْنُهُ ❊ وَحَدَّاهُ إِنْ خَاشَنْتَهُ خَشِنَانِ

وهذَا إنَّمَا يَحْسُنُ ويكونُ وقتًا محمودًا فيمَا يُجْرِيهِ اللهُ ـ تعالىٰ ـ منَ البلاءِ والعَوَافِي وتأخُّرِ الأرزاقِ وتيسيرِهَا، وغيرِ ذلكَ ممَّا يصحُّ الرِّضَا بهِ، وكذلكَ ما طلبَهُ العبدُ منَ المَقَامَاتِ، ويعرضُ لهُ من أعالِي الدَّرجَاتِ، فلَمْ تُجْرِهِ لهُ الأقدار، فحقُّهُ الرِّضَا بهِ بحسنِ القبولِ والاختبار.

وكذلكَ ما يطرقُ القلبَ منَ القبْضِ والحُزْنِ أوِ التَّشويشِ والتَّفريقِ لِلهَمِّ، فحقُّ العبدِ الصَّبرُ ولزومُ الأدبِ والتَّحسُّسُ لمَا يجريهِ اللهُ منَ السَّببِ، ويدَعُ عنهُ القلقَ

---

(١) أي: انقلب علىٰ رأسه، يعني: خرج عن الدين.

(٢) من الطويل، لأبي الشيص الخزاعي في أشعاره ص١٠٤.

(٣) زيادة من (ف).

والضَّجَرَ، فإنَّ ذلكَ يمنعُهُ منَ الرَّاحةِ فِي الحال، وربَّمَا حجبَهُ عن نَيْلِ مُرادِهِ في الاستقبَال(١).

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(٢): «**وَسَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاق** رَحِمَهُٱللَّهُ **يَقُولُ: الوَقْتُ مِبْرَدٌ يَسْحَقُكَ وَلَا يَمْحَقُكَ، يَعْنِي: لَوْ مَحَاكَ وَأَفْنَاكَ لَتخلَّصْتَ حِينَ فَنِيتَ، لَكِنَّهُ يَأْخُذُ مِنْكَ وَلَا يَمْحُوكَ بِالكُلِّيَّةِ، وَكَانَ يُنْشِدُ(٣):**

كُـلَّ يَـوْمٍ يَمُـرُّ يَأْخُـذُ بَعْضِـي ❊ يُـورِثُ القَلْـبَ حَسْـرَةً ثُـمَّ يَمْضِـي

وَكَانَ يُنْشِدُ(٤):

كَأَهْـلِ النَّـارِ إِنْ نَضِـجَتْ جُلُـودٌ ❊ أُعِيدَتْ -لِلشَّقَاءِ- لَهُمْ جُلُودُ [١/١١٠ب]

وَفِي مَعْنَاهُ(٥):

لَـيْسَ مَـنْ مَـاتَ فَاسْـتَرَاحَ بِمَيْـتٍ ❊ إِنَّمَـا المَيْـتُ مَيِّـتُ الأَحْيَـاءِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وَقَوْلُ الدَّقَّاقِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**الوَقْتُ مِبْرَدٌ يَسْحَقُكَ(٦) وَلَا يَمْحَقُكَ(٧)**»، يعنِي: أنَّ أربابَ الأوقاتِ فيهِمْ بقايَا يُدركُونَ بهَا أحوالَهُم الَّتِي أُقِيمُوا

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٥١.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٥٢.

(٣) من الخفيف، وورد بلا نسبة في: عقلاء المجانين لابن حبيب النيسابوري ص٥٩، وعين الأدب والسياسة، أو زين الحسب والرياسة ص٢١٧، ومنهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين ص٥٣٦. وورد صدره في: سمط اللآلي في شرح أمالي القالي ٢/٤٥.

(٤) من الوافر، لمجنون ليلى في ديوانه ص٨٤.

(٥) من الخفيف، لعدي بن الرَّعلاء الغساني في: الأصمعيات ص١٥٢، والصناعتين ص٣١٥، وتاريخ دمشق ٤٠/١٠٣، وخزانة الأدب ٩/٥٨٣.

(٦) أي: يخرجك عن حظوظ النفس.

(٧) المحق: فناء وجود العبد في ذات الحق، كما مرَّ.

فيهَا، فيشغلُهُمْ ذلكَ عنْ إدراكِ غيرِهِم، فباعتبارِ عدمِ إدراكِهِمْ لغيرِهِمْ سُحِقُوا، وباعتبارِ إدراكِهِمْ لأنفُسِهِمْ لمْ يُمحقُوا، ولَوْ قَوِيَتْ عليهِم أحوالُهُم واصطلمُوا عن أنفسِهِم بالكلِّيَّةِ لَمُحِقُوا؛ ولهذَا أنشدَ:

كُـلُّ يَـوْمٍ يَمُـرُّ يَأْخُـذُ بَعْضِـي ❁ يُـورِثُ القَلْـبَ حَسْـرَةً ثُـمَّ يَمْضِـي

وذلكَ أنَّهُ يشتغلُ بمَا هو فيهِ عن أحكامِ نفسِهِ وإدراكِهِ لغيرِهِ منَ الموجوداتِ والحادثاتِ، ويغيبُ عن شَوَاهِدِهِ بمَا بدَا لهُ في وقتِهِ، فإذَا انفصلَ عنهُ أورَثَهُ حَسْرةً، فسمَّىٰ الواردَ وقتًا شَغلَهُ عن لذَّاتِهِ وإحساسِهِ بشاهدِهِ، واستغرقَ فيهِ مُدَّةً ولمْ يستوفِهِ بالكلِّيَّةِ، ثمَّ انفصلَ عنهُ، فحسرتُهُ علىٰ عدَمِ دوامِهِ وكمَالِ استغراقِهِ؛ ولذلكَ شَبَّهَ حالَهُ بمَا أوردَهُ فِي قولِهِ:

كَأَهْـلِ النَّـارِ إِنْ نَضِـجَتْ جُلُـودٌ ❁ أُعِيـدَتْ ـ لِلشَّـقَاءِ ـ لَهُـمْ جُلُـودُ

معنَاهُ: أَنَّ رَاحَتَهُمْ وَعَذَابَهُمْ لَا يدومُ لتغيُّرِ أحوالِهِم، وبهذَا الاعتبارِ قالَ في البيتِ الثَّالثِ:

لَـيْسَ مَـنْ مَـاتَ فَاسْـتَرَاحَ بِمَيْـتٍ

إشارةً إلىٰ كمالِ الاستغراقِ والفَنَاءِ عن نَفسِهِ.

إِنَّمَـا المَيْـتُ مَيِّـتُ الأَحْيَـاءِ

إشارةً إلىٰ تبدُّلِ أحوالِهِ وسحقِهِ بالحالِ دونَ مَحْقِهِ[١].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **«وَالكَيِّسُ مَنْ كَانَ بِحُكْمِ وَقْتِهِ، إِنْ كَانَ وَقْتُهُ الصَّحْوَ فَقِيَامُهُ بِالشَّرِيعَةِ، وَإِنْ كَانَ وَقْتُهُ المَحْوَ فَالغَالِبُ عَلَيْهِ أَحْكَامُ الحَقِيقَةِ»**.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢٥١/١ ـ ٢٥٢.

(٢) الرسالة القشيرية ١٥٢/١.

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: والكيِّسُ[(١)] إنَّمَا هوَ راجعٌ إلىٰ حالِ الصَّحوِ خاصَّةً، فإنَّهُ في أحوالِ الصَّحْوِ مُطالبٌ بمَا يتصرَّفُ فيهِ ويجريهِ الحقُّ عليهِ بملازمةِ أحكامِ الشَّريعةِ.

وأمَّا إذَا كانَ في المَحْوِ فغلبَتْ عليهِ أحكامُ الحقيقةِ وغابَ عن إدراكِ نفسِهِ بالكلِّيَّةِ، فهوَ مشغولٌ بالحقِّ عنِ الخلقِ، وكَمَالُهُ أنَّهُ لا يجرِي عليهِ في حالِ غلبةِ الحالِ مَا يخالفُ الشَّريعةَ، وإنْ كانَ الغالبَ عليهِ الشُّغلُ باللهِ ـ تعالىٰ ـ والإعراضُ عن نفسِهِ فلا إحساسَ لهُ بغيرِ الحقِّ، ولهذَا قالَ: «**فالغَالبُ عليهِ أحكامُ** [١/١١١أ] **الحقيقةِ**»، أيْ: مشغولًا بما هوَ فيهِ، ولا يُجرِي عليهِ الحقُّ في هذِهِ الأحوالِ مَا يخالفُ الشَّريعةَ.

فخرجَ عن مجموعِ ذلكَ أنَّهُمْ يطلقونَ الوقتَ علىٰ ما غلَبَ منَ الحَالِ، وعلىٰ ما كانَ عمارةً للزَّمانِ، وعلىٰ ما يصرفُ اللهُ العبدَ فيهِ منَ الأقدارِ بغيرِ اختيارٍ، ونعتُوا الوقتَ بأنَّهُ سيفٌ باعتبارِ أنَّهُ يقطعُ عُمْرَ العبدِ، فإنْ لم يقطَعْهُ بخيرٍ انقطعَ عمرُهُ بغفلةٍ، ونعتُوا الوقتَ بأنَّهُ مِبْرَدٌ، بمعنَىٰ: أنَّهُ لا يستغرقُ العبدَ حتَّىٰ يغيبَ عن إحساسِهِ، بل لا بدَّ أنْ يدركَ ما هوَ فيهِ من عمارةٍ أو غلبَةِ حَالٍ أو تصريفِ الحقِّ، ولوِ استغرقَ أو اصْطَلَمَ بالكلِّيَّةِ لَمْ يسمَّوهُ وَقْتًا[(٢)].

(١) أي: الحاذق.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٢٥٢ ـ ٢٥٣.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «وَمِنْ ذَلِكَ (المَقَامُ)[٢] - [بِفَتْحِ المِيمِ الأُولَىٰ][٣] -، وَالمَقَامُ[٤]: مَا يَتَحَقَّقُ بِهِ العَبْدُ بِمُنَازَلَتِهِ مِنَ الآدَابِ مِمَّا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِنَوْعِ تَصَرُّفٍ، وَيُتَحَقَّقُ بِهِ بِضَرْبِ تَطَلُّبٍ وَمُقَاسَاةِ تَكَلُّفٍ.

فَمَقَامُ كُلِّ أَحَدٍ: مَوْضِعُ إِقَامَتِهِ عِنْدَ ذَلِكَ، وَمَا هُوَ مُشْتَغِلٌ بِالرِّيَاضَةِ لَهُ.

وَشَرْطُهُ: أَلَّا يَرْتَقِيَ مِنْ مَقَامٍ إِلَىٰ مَقَامٍ آخَرَ مَا لَمْ يَسْتَوْفِ[٥] أَحْكَامَ ذَلِكَ المَقَامِ؛ فَإِنَّ مَنْ لَا قَنَاعَةَ لَهُ لَا يَصِحُّ لَهُ التَّوَكُّلُ، وَمَنْ لَا تَوَكُّلَ لَهُ لَا يَصِحُّ لَهُ التَّسْلِيمُ، وَكَذَلِكَ مَنْ لَا تَوْبَةَ لَهُ لَا تَصِحُّ لَهُ الإِنَابَةُ، وَمَنْ لَا وَرَعَ لَهُ لَا يَصِحُّ لَهُ الزُّهْدُ.

وَالمُقَامُ - بِضَمِّ المِيمِ -: هُوَ الإِقَامَةُ، كَالمُدْخَلِ بِمَعْنَىٰ الإِدْخَالِ، وَالمُخْرَجِ بِمَعْنَىٰ الإِخْرَاجِ.

فَلَا يَصِحُّ لِأَحَدٍ مُنَازَلَةُ مَقَامٍ[٦] إِلَّا بِشُهُودِ إِقَامَةِ اللهِ - تعالىٰ - إِيَّاهُ بِذَلِكَ المَقَامِ؛ لِيَصِحَّ بِنَاءُ أَمْرِهِ عَلَىٰ قَاعِدَةٍ صَحِيحَةٍ[٧]».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٥٣.

(٢) سقط من (ب) قوله: «ومن ذلك المقام».
وانظر في هذا المصطلح: اللمع للطوسي ص٤١١، والإبانة لابن فورك ص٣٤٠، وعبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص٤٥، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص١٠٧، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٢٤٩.

(٣) زيادة من (ف).

(٤) بفتح الميم، أي: موضع القيام، وبضمها: موضع الإقامة. انظر: إحكام الدلالة ١/٢٥٣.
وفي الصحاح ٥/٢٠١٧: «وأما المَقامُ والمُقامُ فقد يكون كلُّ واحدٍ منهما بمعنىٰ الإقامةِ، وقد يكون بمعنىٰ موضع القيام؛ لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم».
وانظر: النوادر لأبي زيد ص٢٠٥، والمغرب للمطرزي ٢/٢٠٠، وشمس العلوم ٨/٥٦٦٨، ونزهة الأعين النواظر ص٥٤٧، والكليات ص٨٢٧.

(٥) في (ب): يستغرق، والمثبت موافق لما في الرسالة القشيرية.

(٦) أي: نزوله فيه؛ بأن يشتغل بما يتوصل به إليه.

(٧) وهي: رؤية فضل الله عليه في إقامته في ذلك المقام.

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: المَقَامُ والمُقَامُ لُغتَانِ(١)؛ أحدُهُمَا: موضِعُ إقامةٍ، كمَا قالَ -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١]، ويُطْلَقُ على نفسِ الإقامةِ وهوَ المقامُ.

وإنْ كانَ المُقامُ - بضمِّ الميمِ - قدْ يُطْلَقُ على الشَّخصِ أيْضًا، يقالُ: أُقِيمَ فِي أَمْرٍ، فَهُوَ مُقَامٌ، وقدْ قالَ -تعالى-: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦]، يعنِي: مَوْضِعًا وَحَالًا، فالمقامُ على الأوَّلِ: الموضعُ الَّذِي أقامَ اللهُ العبدَ فيهِ وشغَلَهُ بالتَّخلُّقِ فيهِ وتعلُّمِهِ، والتَّدريجِ فيهِ إلى(٢) أنْ يكمُلَ، وبهذَا يقعُ الفرقُ بينَ المقاماتِ والأحوالِ؛ لأنَّ المقاماتِ عندَهُمْ: ما يُنالُ بكسْبٍ وتطلُّبٍ إلى أنْ يكملَ العبدُ فيهِ، والحالُ: ما تطرقُ القلبَ من مواهبِ الرَّبِّ.

وشرطُ هذا المشغلِ بمقامِهِ ألَّا يتشوَّفَ(٣) إلى مقام أرفعَ من مَقَامِهِ الَّذِي هوَ فيهِ حتَّى يُحْكِمَهُ، فإنَّ اشتغالَهُ وتعلُّقَ همَّتِهِ بالأعلى يشغلُهُ عن إكمالِ ما هوَ فيهِ، ويُعَمِّي عليهِ [١١١/١ب] آفاتِ مَا هوَ فيهِ؛ وذلكَ أنَّ العبدَ إنَّمَا يطَّلعُ على آفاتِ عَمَلِهِ إذا ارتقَى عنهُ وارتفعَتْ درجتُهُ، فلذلكَ إذَا علَّقَ همَّتَهُ بمَا هوَ أعلى منهُ غَفِلَ عنِ إتقَانِ ما هوَ فيهِ، فإنَّهُ لم يتمكَّنْ فيمَا علَّقَ همَّتَهُ بهِ حتَّى يُصلحَ مَا بقِيَ عليهِ ممَّا انتقلَ عنهُ.

ولذلكَ حَكَى عنِ الجُنَيدِ، نقلَهُ الهَرَوِيُّ الأنصاريُّ(٤)، وذلكَ أنَّهُ........

(١) في (أ): لغتين، وهو تحريف، وفي (ج): لمعنيين، وهو صواب أيضا.
(٢) في (ج): أي.
(٣) أي: لا يتطلع إلى غير ما هو فيه.
(٤) في (أ): فالأنصاري.
وهو: عبد الله بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي الأنصاري، شيخ الإسلام الهروي الحافظ المفسر الصوفي، الناظم المعروف بالهروي، وأيضا بير هراة المتوفي بهراة سنة (٤٨١هـ). انظر في ترجمته: الأعلام للزركلي ٤/ ١٢٢، ومقدمات التحقيق لكتبه المطبوعة.

قالَ[١]: «**يجوزُ أنْ يصحِّحَ العبدُ المقَامَ قبلَ أنْ ينتقلَ عنهُ**».

وقالَ الأنصاريُّ[٢]: «**وعندِي أنَّ العَبْدَ لَا يصحِّحُ المقامَ حتَّىٰ ينتقلَ عنهُ إلىٰ ما هوَ أرفعُ منهُ، فيُشرفَ علىٰ المُنتقلِ عنهُ فيصحِّحَهُ**».

وبيانُ ذلكَ: أنَّ العبدَ إذا كانَ يعملُ في مقامِ القناعةِ وإزالةِ شرَهِ نفسِهِ في المأكولِ وغيرِهِ، فربَّمَا أعماهُ شرَهُهُ عن أنْ يميِّزَ المكروهَ من غيرِهِ، وإذا انتقلَ إلىٰ مقامِ الورعِ وتعوَّدَ التَّركَ للمُشْكِلِ هانَ علىٰ نفسِهِ التَّثبُّتُ، وتعوَّدَتْهُ وضعُفَ شرهُهَا، وقنِعتْ بمَا تيسَّرَ، وكذلكَ إذَا انتقلَ إلىٰ مقامِ الزُّهدِ في الحلالِ وعزفتْ نفسُهُ عنه اطَّلَعَ منهُ علىٰ ما كانَتِ النَّفسُ تزعمُ أنَّهُ لا ورعَ فيهِ ولا كراهةَ، فيتورَّعُ عنهُ، وكذلكَ إذا انتقلَ إلىٰ مقامِ التَّوكُّلِ علىٰ اللهِ ـ سبحانه ـ وأعرضَ عنِ الأسبابِ والأرزاقِ حلالِهَا ومُشْكِلِهَا، تمكَّنَ منَ الاطِّلاعِ علىٰ خفايَا نفسِهِ وتلبيسِهِ في مقامِ الزُّهدِ ممَّا كانَتْ مُتمسِّكةً بهِ تزعمُ أنَّهُ ممَّا لابدَّ لهَا منهُ، وهوَ منَ الفضولِ الَّذِي تزهدُ فيهِ، هذا معنَىٰ قولِ الشَّيخِ الهروِي.

وعندِي: أنَّ العبدَ لا يُصحِّحُ المقامَ حتَّىٰ ينتقلَ منهُ إلىٰ ما هوَ أشرفُ منهُ فيشرفُ عليهِ، فيصحِّحُهُ، وكلامُ الجنيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْلَىٰ[٣]، فإنَّهُ ليسَ منَ المستحيلِ أنْ يصحِّحَ العبدُ المقامَ قبلَ أنْ ينتقلَ عنهُ، وهوَ رأْيُ الإمامِ القُشَيْرِيِّ ألَّا ينتقلَ العبدُ من مَقَامِهِ إلىٰ غيرِهِ حتَّىٰ يصحِّحَهُ[٤].

و«**المُقَامُ**» ـ **بالضَّمِّ** ـ: هوَ الحالُ الَّذِي يُقِيمُ اللهُ العبدَ فيهِ، وييسِّرُهُ لهُ ويُجريهِ عليهِ، كالمُدْخَلِ والمُخْرَجِ، قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ

---

(١) منازل السائرين ص٦.

(٢) منازل السائرين ص٦، وشرحه للخمي ص٢٢ ـ ٢٣.

(٣) في (ب): أول، والصواب المثبت. وصحح نحو ذلك أيضا في: شرحه لمنازل السائرين ص٢٣.

(٤) قرر ذلك اللخمي أيضا في: شرحه منازل السائرين ص٢٣.

وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠]، يعني: اجعلْني صَادقًا في سَائرِ تصرُّفاتي في دُخُولي وخُرُوجي، فكمالُ مَنْ هوَ في مَقام يتطلَّبُهُ بجُهْدِهِ ويكتسبُهُ بسَعْيِهِ رؤيةُ فضْلِ اللهِ عليه في إقامتِهِ فيهِ وعونِهِ عليهِ، فيكونُ مكتسبًا للمَقامِ مُقامًا، فهوَ صاحبُ مقامٍ بالنَّظرِ إلىٰ كسْبِهِ، ومُقامٌ فيهِ بالنَّظرِ إلىٰ عونِ ربِّهِ [١/١١١٢أ] وفضْلِهِ[١].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ**[٣]: **لَمَّا دَخَلَ الوَاسِطِيُّ (نَيسَابُور)، سَأَلَ أَصْحَابَ أَبِي عُثْمَانَ: بِمَاذَا كَانَ يَأْمُرُكُمْ شَيْخُكُمْ؟ فَقَالُوا: كَانَ يَأْمُرُنَا بِالْتِزَامِ الطَّاعَاتِ وَرُؤْيَةِ التَّقْصِيرِ فِيهَا، فَقَالَ: أَمَرَكُمْ بِالمَجُوسِيَّةِ المَحْضَةِ، هَلَّا[٤] أَمَرَكُمْ بِالغَيْبَةِ عَنْهَا بِرُؤْيَةِ مُنْشِئِهَا وَمُجْرِيهَا ـ سبحانه ـ!.**

وَإِنَّمَا أَرَادَ الوَاسِطِيُّ بِهَذَا صِيَانَتَهُمْ عَنْ مَحلِّ الإِعْجَابِ، لَا تَعْرِيجًا فِي أَوْطَانِ التَّقْصِيرِ، أَوْ تَجْوِيزًا لِلإِخْلَالِ بِأَدَبٍ مِنَ الآدَابِ».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والمَجُوسُ ممَّنْ لمْ يَعرِفِ اللهَ ـ تعالىٰ ـ ولا عظَّمَهُ ولا تديَّنَ لهُ، فلمَّا دخلَ هذا الواسِطِيُّ نيسابورَ ووجدَ بقيَّةَ أصحابِ أبي عثمانَ فسألَهُمْ عمَّا كانَ شيخُهُمْ يأمرُهُمْ بهِ، فذكرُوا له الاجتهادَ في العبادةِ ورؤيةَ التَّقصيرِ، فقالَ لهُمْ: «**أمرَكُمْ بالمجوسيَّةِ المَحْضَةِ**»، وذلكَ أنَّ المجوسَ وإنْ لم يَعرِفُوا اللهَ علىٰ الحقيقةِ ويَعْبُدُوهُ، فقد عَبَدُوا النُّورَ والظُّلمَةَ، وجعلُوا الخيرَ منَ النُّورِ والشَّرَّ منَ الظُّلْمَةِ، فذكرُوا فاعلينَ[٥]، فنبَّهَهُمُ الواسطيُّ علىٰ أنَّ شيخَكُمْ جعلَكُمْ فاعلينَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٢٥٤.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٥٣.

(٣) ورد قوله في: مدراج السالكين ٢/٤٤٧.

(٤) في (ب): هل، والصواب المثبت.

(٥) انظر: الانتصار في الرد علىٰ المعتزلة القدرية الأشرار ١/١٨٢، والفرق بين الفرق ص٣١٦.

معَ اللهِ - تعالىٰ - فبهذَا أطلقَ عليهِ المجوسيَّةَ، فهلَّا أرشدَكُمْ إلىٰ أنْ تتبرَّأُوا من أفعالِكُمْ فترَوُا الفعلَ منَ اللهِ - تعالىٰ - فضْلًا ورحمةً عليكُمْ.

ووجْهُ تعلُّقِ هذهِ الحكايةِ بمَا تقدَّمَ تنبيهٌ علىٰ أنَّ الشَّخصَ ينبغِي أنْ يرىٰ نفسَهُ مُقامًا في كلِّ مقامٍ يتطلَّبُهُ مُعَانًا عليهِ، فيتبرّأَ[١] منَ المَجُوسِيَّةِ، ورأيِ القدريَّةِ الَّذين أثبتُوا لأنفسِهِمْ أفعالًا، وبهذَا الاعتبارِ قيلَ: «القدريَّةُ مَجُوسُ هذهِ الأمَّةِ»[٢]، بمعنىٰ أنَّهُم أضافُوا الشَّرَّ لأنفسِهِمْ والخيرَ إلىٰ اللهِ، واللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ منَ الخيرِ والشَّرِّ[٣].

وقَوْلُ الإمامِ: «إنَّمَا[٤] أرادَ صيانَتَهُمْ عنِ الإعجابِ» ومَدْحِ أنفسِهِم علىٰ الأعمالِ والسُّكونِ إليهَا؛ تنزيهًا لهُمْ عن أنْ يُثبتُوا ما أثبتَهُ القدريَّةُ وغيرُهُم، ولمْ يأمرْهُم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بأنْ يتركُوا إتقانَ الأعمالِ، وإيقاعَهَا علىٰ أكمَلِ وجوهِهَا في طاعةِ الكبيرِ المُتَعَالِ.

---

(١) في (ب): فيبرأ.

(٢) جزء من حديث أخرجه أبو داود في سننه ٤/٢٢٢، وابن ماجه في سننه ١/٣٥، والبيهقي في سننه الكبرىٰ ١٠/٢٠٣.

(٣) قال الأشعري: «سماهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجوس هذه الأمة؛ لأنهم دانوا بديانة المجوس وضاهوا أقاويلهم، وزعموا أن للخير والشر خالقين، كما زعمت المجوس ذلك، وأنه يكون من الشرور ما لا يشاء الله كما قالت المجوس...» الإبانة ص١٦. وانظر: التبصير في الدين ص٩١.

(٤) في (ب): إن.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «وَمِنْ ذَلِكَ (الحَالُ)[٢] [وَكَيْفِيَّتُهَا][٣]:

وَالحَالُ عِنْدَ القَوْمِ: مَعْنًى يَرِدُ عَلَى القَلْبِ مِنْ غَيْرِ تَأَمُّلٍ[٤] مِنْهُم وَلَا اجْتِلَابٍ، وَلَا اكْتِسَابٍ لَهُمْ، مِنْ طَرَبٍ أَوْ حُزْنٍ، أَوْ بَسْطٍ أَوْ قَبْضٍ، أَوْ شَوْقٍ أَوِ إِزْعَاجٍ، أَوْ هَيْبَةٍ أَوِ اهْتِيَاجٍ.

فَالأَحْوَالُ مَوَاهِبُ، وَالْمَقَامَاتُ مَكَاسِبُ [١/١١٢ب]، وَالأَحْوَالُ تَأْتِي مِنْ عَيْنِ الجُودِ، وَالمَقَامَاتُ تَحْصُلُ بِبَذْلِ المَجْهُودِ.

وَصَاحِبُ المَقَامِ مُمَكَّنٌ فِي مَقَامِهِ، وَصَاحِبُ الحَالِ مُرَقًّى[٥] عَنْ حَالِهِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: والحالُ عندَ أهلِ الأصولِ: هيَ الأحكامُ الَّتي توجبُهَا المعانِي، وهَلْ هيَ مقدورةٌ أمْ لَا؟ وهوَ رأيُ الإمامِ الغزالِيِّ في الأحوالِ والمقاماتِ، يقولُ في كلِّ مَوضِعٍ[٦]: «هذا مترتِّبٌ على عِلْمٍ وحَالٍ وعَمَلٍ».

ومثالُهُ: أنَّ العلمَ بالمخوفِ يثمرُ حالَ الانزعاجِ ثمَّ يَتبعُهُ الهَرَبُ، والعلمَ بالمَرْجُوِّ يثمرُ حالَ الرَّغبةِ والرَّجاءِ، ثمَّ يَتبعُهُ الطَّلبُ، فإذا كانَتِ الأحوالُ لهَا أسبابٌ، فهلِ المقدورُ أسبابُهَا؟ أعنِي الَّتِي تقارنُهَا القُدرةُ الحادثةُ خاصَّةً، أوْ تقارنُ

(١) الرسالة القشيرية ١/١٥٤.
(٢) انظر في هذا المصطلح: اللمع في التصوف ص٤١١، والإبانة لابن فورك ص٣٤٠، وعبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص٤٥، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٨١، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٧٣. و(الحال) يذكر ويؤنث. انظر: المذكر والمؤنث للفراء ص٨٣.
(٣) زيادة من (ف).
(٤) في (ب): عمل، وفي (ف) والرسالة القشيرية المطبوع: تعمد.
(٥) في الرسالة القشيرية: مترق.
(٦) انظر: إحياء علوم الدين ٤/٨١، ١٥٥، ٢١٦، ٢٤٥، ٢٥٩، وورد قوله أيضًا في: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية للنفزي ص٧١.

الأسبابَ والمُسبَّباتِ.

والصَّحيحُ أنَّ المسبَّباتِ مقدورةٌ للعَبدِ، بدليلِ تعلُّقِ الطَّلبِ بهَا، كمَا قَالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فتعلَّقَ طلبُهُ بنفسِ التَّخوُّفِ وإنْ كانَ يحصلُ بالتَّخويفِ، وكذلكَ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فأمَرَ بعلْمِهِ، وهوَ علْمٌ نظريٌّ يحصلُ بالفِكْرِ في مخلوقاتِهِ.

والَّذِي ذهبَ إليهِ الإمامُ أبو المعالِي إمامُ الحرمَينِ، وإليهِ يشيرُ كلامُ المُحاسبيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّهَا غيرُ مقدورةٍ؛ فقَالَ الإمَامُ(١): «المطلوبُ الَّذِي هوَ مرتبطُ الثَّوابِ، والعقابِ هوَ النَّظرُ عندِي».

وقَالَ الإمَامُ المحاسبيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وإنَّمَا يقالُ: التَّخويفُ في جنبِ الخوفِ مثالُ الوقودِ في جنبِ الغلَيَانِ، كلَّمَا اشتدَّ الوقودُ اشتدَّ الغليانُ، فإذَا قوِيَ الغليَانُ قذفَتِ القِدْرُ ببعضِ ما فيهَا، وكذلكَ التَّخويفُ إذا اشتدَّ التَّخويفُ هاجَ الخوفُ منَ القلبِ لا يملكُهُ».

فبهذَا الاعتبارِ يكونُ الحالُ مُنْقَسمًا إلىٰ(٣) ما يترتَّبُ علىٰ سَببٍ، وإلىٰ ما لا يترتَّبُ، فقولُ الإمامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الطَّرَبُ والحُزنُ والابتهاجُ(٤) هل يكونُ له أسبابٌ أم لَا؟، وكذلكَ القبْضُ والبَسْطُ(٥)، وهذهِ الأحوالُ كلُّهَا قد تَترتَّبُ علىٰ أسبابٍ يعرفُهَا العبدُ، وقدْ يجدُ من نفسِهِ القبضَ أوِ البسطَ ولا يعرفُ سببَهُ.

---

(١) البرهان في أصول الفقه ص٢٥، ونصه: «.. والمقدور الذي هو مرتبط التكليف، والثواب هو النظر عندي».

(٢) الرعاية لحقوق الله ص٧١ ـ بتصرف يسير.

(٣) في النسخ: علىٰ، والأصح المثبت.

(٤) في (أ): والاحتياج، والصواب المثبت.

(٥) سقط من هنا في (ب) إلىٰ قوله: «ولا يعرف سببه».

والصَّحيحُ أنَّهُ كانَ لهُ سببٌ غفلَ العبدُ عنهُ ونَسِيَهُ، فعلىٰ هذا تكونُ الأحوالُ لها أسبابٌ، وهيَ الاشتغالُ بالعباداتِ والذِّكْرِ والفِكْرِ في كمالِ الذَّاتِ والصِّفاتِ، فحينئذٍ تَجرِي علىٰ العبدِ هذهِ الخيراتُ من فضْلِ اللهِ خالقِ الأرضِ والسَّماواتِ، وَقَدْ قَالَ شيخُ السُّنَّةِ عبدُ اللهِ بنُ محمَّدٍ الأنصاريُّ [١/١١١٣] الهرويُّ لمَّا تكلَّمَ علىٰ الأحوالِ وَمَثَّلَهَا فقالَ(١): «كالمحبَّةِ، والغيرةِ، والشَّوقِ، والقلقِ، والعطشِ، والوجْدِ، والدَّهشِ، والهيمَانِ، والبرقِ، والذَّوقِ»، فجعلَهَا كلَّهَا من قسمِ الأحوالِ، والمحبَّةِ والغيرةِ وغيرِهَا منَ المقاماتِ.

وقدْ قالَ بعضُ المشايخِ(٢): «ما أقامَنِي اللهُ في حالٍ فكرِهْتُهُ، ولَا نقلَنِي إلىٰ غَيْرِهِ فَسَخِطْتُهُ».

فسمَّىٰ الحالَ مقامًا، والَّذِي يظهرُ أنَّ هذهِ كلَّهَا تكتسبُ؛ إمَّا [بِـ]ـأنفسِهَا، أو بِأسبَابِهَا، علىٰ ما ذكرْنَاهُ منَ الاختلافِ، فمَا طرقَ منهَا القلبَ ثمَّ ذهبَ عنهُ سُمِّيَ حالًا، وإذا تمكَّنَ العبدُ فيهِ وتَوَالَىٰ عليهِ أمثالُهُ سُمِّيَ مَقَامًا، والأَمْرُ فيه قَرِيْبٌ.

۞ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وَسُئِلَ ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ العَارِفِ؟ فَقَالَ(٤): كَانَ هَاهُنَا(٥) فَذَهَبَ.

وَقَالَ بَعْضُ المَشَايِخِ(٦): الأَحْوَالُ كَالبُرُوقِ(٧)، فَإِنْ بَقِيَتْ فَحَدِيثُ نَفْسٍ.

---

(١) منازل السائرين ص٨٨، وشرحه للخمي ص١٨١.

(٢) قول أبي عثمان الحيري في: حلية الأولياء ١٠/٢٤٤، وتاريخ بغداد ٩/١٠١، وصفة الصفوة ٤/١٠٦.

(٣) الرسالة القشيرية ١/١٥٤.

(٤) ورد قوله في: التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٣٨.

(٥) أي: في ذاته. فذهب: أي فذهب عنه ذلك الحال؛ لاشتغاله عنه بمن خصه وتولاه، وهو الله تعالىٰ. انظر: نتائج الأفكار ٢/٤٨.

(٦) قول أبي الحسن بن الصائغ الدينوري في: طبقات الصوفية ص٢٤٠، وشذرات الذهب ٢/٣٣١، وقد سبق بصدد ترجمته.

(٧) في سرعة زوالها، وإنما كانت كذلك لأجل صيانتها عن أن يدعيها العباد بواسطة وجود الاستعداد=

وَقَالُوا: الأَحْوَالُ كَاسْمِهَا، يَعْنُونَ: أَنَّهَا كَمَا تَحُلُّ بِالقَلْبِ تَزُولُ فِي الوَقْتِ[(١)]، وَأَنْشَدُوا[(٢)]:

لَــوْ لَـمْ تَحُـلْ مَـا سُـمِّيَتْ حَـالًا ❊ وَكُـلُّ مَـا حَـالَ فَقَـدْ زَالَا
انْظُـرْ إِلَـىٰ الفَـيْءِ إِذَا مَـا انْتَهَـىٰ ❊ يَأْخُـذُ فِـي الـنَّقْصِ إِذَا طَـالَا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُ ذِي النُّونِ لمَّا سُئِلَ عنِ العارفِ، فأجابَ بقولِهِ: «كانَ هاهُنَا فذهبَ» لا يدلُّ علىٰ مَا أرادَهُ منَ الأحوالِ، وإنَّمَا العارفُ في مقامٍ شريفٍ مستغرقٌ فيهِ بمولَاهُ، وإنَّمَا ذهبَ عن شاهدِهِ وإدراكِ نفسِهِ شُغلًا بمَنْ خصَّهُ وتولَّاهُ، فإنْ أرادَ أنَّ هذهِ الحالةَ لا تدومُ للعارفينَ كانَ فيهَا بعضُ المقصودِ.

وأمَّا قولُهُم: «الأحوالُ كالبروقِ، فإنْ ثبتَتْ فحديثُ نفسٍ»، يعنِي: أنَّ العبدَ إذا انفصَلَ عنِ الحالِ إنَّمَا يبقىٰ معَهُ حديثُ نفسٍ[(٣)] بمَا كانَ، فإنَّ الحالَ لا تثبتُ، فمعنَىٰ قولِهِ: «حديثُ نفسٍ» أنَّ الَّذِي يبقَىٰ معَهُ حديثُ نفسِهِ بالحالِ لا نفسُ الحالِ، فإنَّ الحالَ يخطفُ البصرَ ويذهبُ بسُرعةٍ كالبرقِ، قالَ: وأنشدُوا:

لَــوْ لَـمْ تَحُـلْ مَـا سُـمِّيَتْ حَـالًا

يَعْنِي: مَا يُسَمَّىٰ حالًا إلَّا لسرعةِ زَوالِهِ.

وقولُهُ:

انْظُـرْ إِلَـىٰ الفَـيْءِ إِذَا مَـا انْتَهَـىٰ ❊ يَأْخُـذُ فِـي الـنَّقْصِ إِذَا طَـالَا

= فتكون مبتذلة، فيبطل سر التخصيص. انظر: نتائج الأفكار ٢/٤٨.

(١) أي: في الحال.

(٢) من السريع، للخليع في: يتيمة الدهر ١/٣٣٤، والدر الفريد وبيت القصيد ٩/٨، وورد الأول منهما بلا نسبة في: بدائع الفوائد ٢/٣٥٥.

(٣) في (ج): نفسه.

يعنِي: أنَّ الحالَ إذا زالَ إنَّمَا يبقَىٰ معَ صاحبِهِ حديثُ نفسِهِ بهِ، فهوَ الَّذِي يطولُ لَا نفسُ الحالِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: **«وَأَشَارَ قَومٌ إِلَىٰ بَقَايَا الأَحْوَالِ وَدَوَامِهَا، وَقَالُوا: إِنَّهَا إِذَا لَمْ تَدُمْ وَلَمْ تَتَوَالَ، فَهِيَ لَوَائِحُ وَبَوَادِهُ، وَلَمْ يَصِلْ** [١/١١٣ب] **صَاحِبُهَا بَعْدُ إِلَىٰ الأَحْوَالِ، فَإِذَا دَامَتْ تِلْكَ الصِّفَةُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تُسَمَّىٰ حَالًا.**

وَهَذَا أَبُو عُثْمَانَ الحِيرِيُّ، يَقُولُ[٢]: **مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَا أَقَامَنِي اللهُ ـ تعالىٰ ـ فِي حَالٍ فكَرِهْتُهُ، أَشَارَ إِلَىٰ دَوَامِ الرِّضَا، وَالرِّضَا مِنْ جُمْلَةِ الأَحْوَالِ».**

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الاختلافُ علىٰ ما ذكرَهُ الإمامُ ما يدلُّ علىٰ أنَّ الأحوالَ تثبتُ؛ إنَّمَا يريدُ أنَّها يتوالَىٰ أمثالُهَا علىٰ صاحبِهَا مُدَّةً منَ الزَّمانِ، فإذا توالَتْ أمثالُهَا سُمِّيَتْ حَالًا، وإنْ لمْ تَتَوالَىٰ سُمِّيَتْ بوادِهَ ولوائِحَ، يعنِي: لاحَ لهُ المعنَىٰ أوْ بدهَهُ ولم يثبُتْ لهُ[٣].

وأمَّا قولُ الحِيريِّ: «**منذُ أربعينَ سنةً مَا أقامَنِي اللهُ ـ تعالىٰ ـ في حالٍ فكرهتُهُ**» فقد سمَّاهُ حالًا، ويحملُ «**أقامَنِي فيهِ**» معناهُ: أجرَاهُ عليَّ، والأربعينَ سنةً الَّتِي ذكرَهَا ظرفُ جريانِ هذهِ الأحوالِ الَّتِي لا تثبتُ، وإنَّمَا هيَ تطرأُ وتزولُ إلَّا أنْ يريدَ بدوامِهَا تَكْرَارَهَا فِي طولِ هذهِ المدَّةِ، وهذَا خارجٌ عنِ الحالِ والمقامِ؛ لأنَّ المقامَ عبارةٌ عمَّا غلبَ علىٰ قلبِ العبدِ بتكسُّبِهِ، لَا ما توالَىٰ عليهِ في أزمنةٍ متفرِّقةٍ، والرِّضَا عندَهُم من جُملةِ الأحوالِ، وهوَ ممَّا يُكْتَسَبُ وَيُتَطَلَّبُ بنظرِ العبدِ في دوامِ تحسُّسِهِ بألطافِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بهِ، ويغلبُ علىٰ قلبِهِ أنَّ ما يُجريهِ عليهِ فيهِ صَلاحُهُ وسعادتُهُ،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٥٤.

(٢) سبق تخريجه ص٣٥٥.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٥٧.

فيصيرُ ذلكَ حالًا لقلبِهِ غالبًا عليهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ(١): «والوَاجِبُ فِي هَذَا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ مَنْ أَشَارَ إِلَى [بَقَاءِ](٢) بَقَايَا الأَحْوَالِ فَصَحِيحٌ مَا قَالَ، فَقَدْ يَصِيرُ المَعْنَى شِرْبًا لِأَحَدٍ فَيُرَبِّي فِيهِ، وَلَكِنْ لِصَاحِبِ هَذِهِ الحَالِ أَحْوَالٌ هِيَ طَوَارِقُ لَا تَدُومُ فَوْقَ أَحْوَالِهِ الَّتِي صَارَتْ شِرْبًا لَهُ، فَإِذَا دَامَتْ هَذِهِ الطَّوَارِقُ لَهُ كَمَا دَامَتِ الأَحْوَالُ المُتَقَدِّمَةُ اِرْتَقَى إِلَى أَحْوَالٍ أُخَرَ فَوْقَ هَذِهِ، وَأَلْطَف مِن هَذِهِ، فَأَبدًا يَكُونُ فِي التَّرَقِّي.

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاق رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ(٣): «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللهَ فِي اليَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً»: إِنَّهُ كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أَبدًا فِي التَّرَقِّي مِنْ أَحْوَالِهِ، فَإِذَا ارْتَقَى مِنْ حَالَةٍ إِلَى حَالَةٍ أَعْلَى مِنْهَا فَرُبَّمَا حَصَلَ لَهُ مُلَاحَظَةٌ إِلَى مَا ارْتَقَى عَنْهَا، فَكَانَ يَعُدُّهَا غَيْنًا بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا حَصَلَ فِيهَا، فَأَبَدًا كَانَتْ أَحْوَالُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فِي التَّزَايُدِ.

وَمَقْدُورَاتُ الحَقِّ - سبحانه - مِنَ الأَلْطَافِ لَا نِهَايَةَ لَهَا [١/١١٤أ] وَإِذَا كَانَ حَقُّ الْحَقِّ العِزَّ، وَالْوُصُولُ إِلَيْهِ فِي التَّحْقِيقِ(٤) مُحَالًا، فَالعَبْدُ أَبَدًا فِي اِرْتِقَاءِ أَحْوَالِهِ، فَلَا مَعْنَى يُوصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا وَفِي مَقْدُورِهِ - سبحانه - مَا هُوَ فَوْقَهُ يَقْدِرُ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَيْهِ، وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ قَولُهُ(٥): حَسَنَاتُ الأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ المُقَرَّبِينَ.

وَسُئِلَ الجُنَيدُ عَنْ هَذَا - أَعْنِي قَوْلَهُم: سَيِّئَاتُ المُقَرَّبِينَ - فَأَنْشَدَ(٦):

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٥٥.

(٢) زيادة من (ب، ف)، وهو في لفظ القشيرية المطبوع، وسقط منها لفظ (بقايا).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٠٧٥ - حديث رقم (٢٧٠٢).

(٤) في الرسالة القشيرية: بالتحقيق.

(٥) نسب لأبي سعيد الخزاز في: تاريخ بغداد ٤/٢٧٦، وتاريخ دمشق ٥/١٣٧، وصفة الصفوة ٢/٤٣٧.

(٦) من الطويل، للجنيد في: مناقب الأبرار ١/٣٧٠، والكواكب الدرية ١/٥٨١، وبلا نسبة في:=

طَـوَارِقُ أَنْـوَارٍ تَلُـوحُ إِذَا بَـدَتْ ❁ فَتُظْهِرُ كِتْمَانًا وَتُخْبِرُ عَنْ جَمْعِ».

❊ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وخلاصةُ ما اختارَهُ الإمامُ يرجعُ إلىٰ ما قلنَاهُ منْ أنَّ الواردَ يكونُ في أوَّلِ أمْرِهِ لا يثبتُ فيُسمَّىٰ حالًا، فإذَا توالَىٰ صَارَ لهُ شِرْبًا[١]، يعنِي: شربًا يعيشُ منهُ ومعَهُ، فقولُهُ: «ولكِنْ لهذَا الشِّربِ طوارقُ» يَعْنِي: أوائلَ مقامٍ آخرَ هوَ أعلَىٰ منهُ، فإذَا لم يثبتْ سُمِّيتْ حالًا، وإذَا ثبتَتْ وَتوَالَتْ كانَتْ مَقَامًا، وهكذا يقدرُ فِي سائرِ المقاماتِ العَلِيَّةِ، وإنْ لمْ تَتنَاهَىٰ، ولذلكَ استدلَّ بالخبرِ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي تأوَّلَهُ بعضُ النَّاسِ علىٰ هذا المعنىٰ، وهوَ أنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في التَّرقِّي فِي الدَّرجاتِ العَلِيَّةِ، فإذَا انتقلَ إلىٰ مَقَامٍ هوَ أعلىٰ ممَّا هوَ فيهِ فربَّمَا لاحظَ المقامَ الَّذِي انتقلَ عنهُ، فيكونُ ملاحظتُهُ لمَا انتقلَ عنهُ غَيْنًا، أيْ: سترًا[٢] رقيقًا بالنِّسبةِ إلىٰ مقامِهِ الأعلَىٰ، ولذلكَ يستغفرُ اللهَ، وقدْ ذُكِرَ في تأويلِ هذَا غيرُ هذَا.

والخبرُ الصَّحيحُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يُسْمَعُ منهُ فِي المجلسِ الواحدِ أكثرُ منْ سبعينَ مرَّةً: (أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيهِ)، وقَدْ يكونُ ذلكَ علىٰ وجْهِ التَّعليمِ والإرشادِ للأُمَّةِ لأنْ يكونُوا هكذَا لغلبَةِ الخطأِ والزَّللِ عليهِم.

وتأوَّلَهُ بعضُهُمْ أنَّهُ كُلَّمَا ذكرَ أمَّتَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وما يكونُ منهُمْ بعدَهُ استغفرَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ لهُمْ، وهذَا أحسنُ التَّأويلاتِ.

وأمَّا شِعْرُ الجُنيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا سُئِلَ عن قَولِهِم: «حَسَنَاتُ الأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ المُقَرَّبِينَ»، أشارَ إلىٰ هذَا، وهوَ أنَّ أوائلَ الدَّرجاتِ الَّتِي نالَهَا الأبرارُ هيَ سيِّئَاتٌ بالنِّسبةِ إلىٰ المُقرَّبينَ إذَا التفتُوا[٣] إليهَا بقلوبِهِم ولاحظُوهَا، فهيَ حسنةٌ بالنَّظرِ إلىٰ

= لطائف الإشارات ٢/١٢٢، والدعاء المأثور وآدابه للطرطوشي ص١٨٢.

(١) الشِّرب: الحظ والنصيب.

(٢) في الزاهر لابن الأنباري ٢/٣٢٧: «غينَتِ السماءُ غَيْنًا؛ إذا ألبسها الغيم وسترها».

(٣) في (ب): التقوا، والصواب المثبت.

البِرِّ، وسيِّئةٌ بالنَّظرِ إلى المقرَّبِ؛ لنزولِهِ عن درجتِهِ.

وأمَّا شِعْرُ الجُنيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهوَ قولُهُ:

طَوَارِقُ أَنْوَارٍ تَلُوحُ إِذَا بَدَتْ ❁ فَتُظْهِرُ كِتْمَانًا وَتُخْبِرُ عَنْ جَمْعِ [١/١١٤ب]

أيْ: أنَّ أوائلَ المَقامِ طَوارقُ، ونِهَايتَهُ جمعٌ وكَمالُ حالٍ وكِتْمَانُ سِرٍّ، واللهُ الموفِّقُ والمُسْتَعَانُ، فطوارقُ أنوارٍ للأبرارِ، وإشارةُ جَمْعٍ وكِتْمَانٍ للمُقرَّبينَ.

قَالَ الإِمَـامُ(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَمِنْ ذَلِكَ (القَبْضُ وَالبَسْطُ)(٢):

وَهُمَا حَالَتَانِ بَعْدَ تَرَقِّي العَبْدِ عَنْ حَالَتَي الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ.

فَالْقَبْضُ لِلْعَارِفِ بِمَنْزِلَةِ الخَوْفِ لِلْمُسْتَأْنِفِ(٣)، وَالبَسْطُ لِلْعَارِفِ بِمَنْزِلَةِ الرَّجَاءِ لِلْمُسْتَأْنِفِ.

وَمِنَ الفَصْلِ بَيْنَ القَبْضِ وَالخَوْفِ، وَالبَسْطِ وَالرَّجَاءِ: أَنَّ الخَوْفَ [إنّما يكونُ](٤) مِنْ شَيْءٍ فِي المُسْتَقْبَلِ؛ إِمَّا يَخَافُ فَوْتَ مَحْبُوبٍ، أَوْ هُجُومَ مَحْذُورٍ، وَكَذَلِكَ الرَّجَاءُ إِنَّمَا يَكُونُ بِتَأْمِيلِ مَحْبُوبٍ فِي المُسْتَقْبَلِ، أَوْ بِتَطَلُّعِ زَوَالِ مَحْذُورٍ وَكِفَايَةِ مَكْرُوهٍ فِي المُسْتَأْنِفِ(٥).

وَأَمَّا القَبْضُ: فَلِمَعْنًى حَاصِلٍ فِي الْوَقْتِ، وَكَذَلِكَ البَسْطُ.

فَصَاحِبُ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ فِي حَالَتَيْهِ بِآجِلِهِ، وَصَاحِبُ القَبْضِ وَالبَسْطِ أَخِيذُ(٦) وَقْتِهِ بِوَارِدٍ غَلَبَ عَلَيْهِ فِي عَاجِلِهِ.

ثُمَّ تَتَفَاوَتُ نُعُوتُهُمْ فِي القَبْضِ وَالبَسْطِ عَلَىٰ حَسَبِ تَفَاوُتِهِم فِي أَحْوَالِهِم.

فَمِنْ وَارِدٍ يُوجِبُ قَبْضًا وَلَكِنْ فِي صَاحِبِهِ مَسَاغٌ لِلأَشْيَاءِ الأُخَرِ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَوْفٍ، وَمِنْ مَقْبُوضٍ لَا مَسَاغَ لِغَيرِ وَارِدٍ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ مَأْخُوذٌ عَنْهُ بِالكُلِّيَّةِ بِوَارِدِهِ،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٥٦.

(٢) انظر في المصطلحين: اللمع في التصوف ص٤١٩، وعبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص٥٥، والتعريفات ص٢٢٠، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص١٦٠، والتوقيف على مهمات التعاريف ص٥٧٢، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٣٤، ٢١٣.

(٣) أي: للمبدئ خوفه، وهو المريد.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) أي: المستقبل.

(٦) أي: أسير ورهين.

كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ(١): أَنَا رَدْمٌ؛ أَيْ: لَا مَسَاغَ فِيَّ.

وَكَذَلِكَ المَبْسُوطُ قَدْ يَكُونُ بَسْطًا يَسَعُ الخَلْقَ، وَلَا يَسْتَوْحِشُ مِنْ أَكْثَرِ الأَشْيَاءِ، وَيَكُونُ مَبْسُوطًا(٢) لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ شَيْءٌ بِحَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والمقصودُ هاهُنَا بيانُ اصطلاحِهِم فِي (القبْضِ، والبسْطِ)؛ لأنَّهُ لفظٌ يستعملُ في غيرِ مَا أرادُوهُ، فبيَّنَ مرادُهُمْ بهِ خلافَ الخوفِ والرَّجاءِ(٣)، فإنَّ اختلافَهُمَا في المتعلّقِ، فاسمُ الخوفِ يطلقُ لمعنًى واحدٍ، وكذلكَ اسمُ الرَّجاءِ، وإنَّمَا اختلفَا في المخوفِ والمرجوِّ لتعدُّدِهِمَا.

وقولُ الإمامِ: «**القبضُ فوقَ الخوفِ، والبَسْطُ فوقَ الرَّجاءِ**»، معنَاهُ: أنَّ العبدَ يتقدَّمُ لهُ الخوفُ من ضررٍ يخشَاهُ، فإذا حلَّ بهِ انقبضَ، وكذلكَ الرَّجاءُ أملٌ لحُصُولِ مَحبُوبٍ فِي المستقبلِ، فإذَا حلَّ بهِ انبسطَ، ولهذَا عبَّرَ عنهُ بأنَّ متعلَّقَ القبضِ والبَسْطِ أمرٌ نازلٌ فِي الوقتِ بخلافِ الخوفِ والرَّجاءِ، فإنَّ متعلَّقَهُمَا أمرٌ فِي الاستقبالِ، والقبْضِ الَّذِي يطرقُ العبدَ في وقتِهِ، وكذلكَ البسطُ قَدْ يعرفُ سببَ كلِّ واحدٍ منهُمَا، وقدْ لا يعرفُ، وقَدْ يكونُ عرفَهُ ونسِيَهُ(٤)، وكلُّ [١/١١٥أ] واحدٍ منهُمَا يقوىٰ ويضعفُ، فإنْ ضعفَ بقيتِ فيهِ بقيَّةٌ يتَّسعُ بهَا للمحادثاتِ والمُكَالمَاتِ وقضاءِ الحاجَاتِ، وإنْ قَوِيَ القَبْضُ لم يَقْدِرْ علىٰ شَيءٍ من ذلكَ، ولذلكَ أجابَ بعضُهُمْ: مَنْ أرادَ كلامَهُ بأنْ قالَ: (أنا رَدْمٌ)(٥)، يعنِي: ما فيهِ متَّسعٌ.

---

(١) ورد في: التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٦١.

(٢) في (ب): مبسوط، والصواب المثبت.

(٣) وذهب الإمام الجنيد إلىٰ أن القبض والبسط بمعنىٰ الخوف والرجاء، فالرجاء يبسط إلىٰ الطاعة، والخوف يقبض عن المعصية. انظر: اللمع للطوسي ص٤٢٠.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٦١.

(٥) في نتائج الأفكار ٢/٥٥: «أي: مردوم، بمعنىٰ مستوفي في حال القبض».

وكذلكَ المُنْبَسِطُ قدْ يتَّسعُ بسطُهُ لبعضِ الأمورِ دونَ بعضٍ، وقَدْ يكونُ مُنْشَرِحَ الصَّدرِ بحيثُ لا يُكدِّرُهُ شَيءٌ.

وهذا معنَىٰ هذهِ المقدِّمةِ في القَبْضِ والبَسْطِ، وَتَمْييزُ حَقِيقَتِهِمَا[1] عنِ الخَوفِ والرَّجاءِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: **«سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: دَخَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ القَحْطَبِيِّ، وَكَانَ لَهُ ابْنٌ يَتَعَاطَىٰ مَا يَتَعَاطَاهُ الشُّبَّانُ**[3]**، وَكَانَ مَمَرُّ هَذَا الدَّاخِلِ عَلَىٰ هَذَا الابْنِ، وَإِذَا هُوَ مَعَ أَقْرَانِهِ فِي اشْتِغَالِهِ بِبَطَالَتِهِ، فَرَقَّ قَلْبُهُ لِلْقَحْطَبِيِّ، وَقَالَ: مِسْكِينٌ هَذَا الشَّيْخُ، كَيْفَ ابْتُلِيَ بِمُقَاسَاةِ هَذَا؟!**

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَىٰ القَحْطَبِيِّ وَجَدَهُ كَأَنَّهُ لَا خَبَرَ لَهُ بِمَا يَجْرِي عَلَيْهِ مِنَ المَلَاهِي[4]**، فَتَعَجَّبَ مِنْهُ وَقَالَ: فَدَيتُ مَنْ لَا تُؤَثِّرُ فِيهِ الجِبَالُ الرَّوَاسِي! فَقَالَ القَحْطَبِيُّ: إِنَّا قَدْ حُرِّرْنَا عَنْ رِقِّ الأَشْيَاءِ فِي الأَزَلِ»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذَا يدلُّ علىٰ أنَّ مَنْ كمُلَ اشتغالُهُ بربِّهِ ذهلَ عن نفسِهِ فضلًا عن ولدِهِ ومَا هوَ فيهِ منْ لهْوِهِ ولعبِهِ، وذلكَ أنَّ ولدَ هذا الشَّيخِ كانَ قريبًا منْ موضعِهِ في لَهْوِهِ معَ أقرانِهِ، فأتَىٰ هذَا الزَّائرُ فاستنكرَ ما رَآهُ من حَالِ الشَّابِّ، فظنَّ أنَّ والدَهُ عَارِفٌ بِحَالِهِ فتألَّمَ علَىٰ ما هوَ فيهِ، فلمَّا دخلَ عندَ الشَّيخِ لمْ يجدْ عندَهُ أثرًا ممَّا ظنَّهُ مِنْ شغلِهِ بولدِهِ، فقالَ: «**فديتُ مَنْ لا تؤثِّرُ فيهِ الجِبَالُ الرَّواسِي**»؛ ففهمَ الشَّيخُ القحطبيُّ أنَّهُ عناهُ، فقالَ لهُ مجيبًا عن ذلكَ: «**إنَّا قَدْ حُرِّرْنَا عَنْ رِقِّ الأشياءِ في الأزَلِ**»، وكلامُ القحطبيِّ هذَا يحتملُ أمرَينِ:

---

(١) في (ب): حقيقتها، والأصح المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٥٦ ـ ١٥٧.

(٣) في (ب): الشباب.

(٤) في (ف): «عما يجري من الملاهي».

أحدُهُمَا: أنَّهُ علِمَ بحالِ ولدِهِ ولكنَّهُ لمْ يشتغلْ به لِمَا خصَّهُ بهِ مَولاهُ من كمالِ اشتغالِه بهِ ومناجاتِهِ واستغراقِهِ في أكثرِ أوقاتِهِ، فلهذَا قالَ: «**حُرِّرْنَا في الأزَلِ عن رِقِّ الأشياءِ**».

و[**ثانيهِمَا**]: يحتملُ أنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ بِحَالِ وَلَدِهِ بالكلِّيَّةِ، وإنَّمَا قالَ ذلكَ جَوَابًا لتعجُّبِ السَّائلِ من حَالِهِ[١]، وكلا الحالَينِ يدلانِ[٢] علىٰ كَمَالِ استغراقِهِ بمَا هُوَ فيهِ، فإنْ علِمَ حَالَ ولَدِهِ لمْ يتأثَّرْ، ولكنَّهُ لابدَّ أنْ يغيَّرَ، والأولىٰ من حالِهِ أنَّهُ لم يعلمْ، كانَ ذلكَ أحْرَىٰ وأجْدَرَ.

وهذا يَدُلُّ علىٰ كمالِ بسطِ الشَّيخِ وكمالِ اتِّسَاعِهِ في الشُّغلِ بمَا هوَ فيهِ من فضْلِ ربِّهِ؛ لأنَّ البَسْطَ علىٰ درجاتٍ [١/١١٥ب]، كمَا أنَّ القبضَ ـ وهوَ ضدُّهُ ـ علىٰ درجاتٍ.

قالَ الشَّيخُ الإمامُ الهَرَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «القبضُ في هذا البابِ: اسمٌ يُشارُ به إلىٰ مقامِ الضَّنائِنِ[٤] الَّذينَ ادَّخَرَهُمُ الحقُّ اصطناعًا لنفسِهِ، وهُمْ ثلاثُ فِرَقٍ:

فِرْقَةٌ قبضَهُمُ الحقُّ إليهِ قبضَ التوَفِّي[٥]، فَضَنَّ بِهِم عَنْ أَعْيُنِ العَالمِينَ، ـ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أي: أخفاهُم ـ.

وفِرْقَةٌ[٦] قَبَضَهُمْ بسَترِهِمْ فِي لباسِ التَّلبيسِ، وأسبلَ عليهِم أكلةَ الرُّسومِ،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٦٢.

(٢) في (أ، ج): يدل.

(٣) منازل السائرين ص١١٨ ـ ١١٩.

(٤) في (ج): الصابرين، والصواب المثبت. والضنائن: الخصائص التي يضن بها لنفاستها. انظر: معجم اصطلاحات الصوفية ص١٨٣.

(٥) قال اللخمي: «أي: قبضا يشبه قبض التَّوفي، فغيب ذواتهم وأجسادهم عن أعين الخلق، كما فعله ببعض أوليائه الذين انقطعوا في البراري» شرح منازل السائرين ص٢٤٣.

(٦) في (ب): وفرقهم، والأصح المثبت.

فأخفَاهُمْ عن عيونِ العالمينَ، ـ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيْ: بتلبيسِ ظواهرِهِم وسترِ بواطِنِهِم ـ.

وفِرْقَةٌ قبضَهُم منهُمْ إليهِ فصافاهُمْ مُصَافاةَ سرٍّ فَضَنَّ بهِم عليهِم ـ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيْ: شغلَهُمْ بمصافاتِهِ لهُمْ وكمالِ شغْلِهِمْ بهِ عن أنفسِهِمْ ـ».

وكذلكَ البسطُ علىٰ ثلاثِ درجاتٍ[1]، وهذَا الشَّيخُ في أَعْلَاهَا، ولذلكَ قالَ مَا قالَ، أيْ: لمْ يبقَ لغيرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ غلبةٌ علىٰ قلوبِنَا ولَا إحساسٌ بهِ[2].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «وَمِنْ أَدْنَىٰ مُوجِبَاتِ القَبْضِ: أَنْ يَرِدَ عَلَىٰ قَلْبِهِ وَارِدٌ مُوجِبُهُ إِشَارَةٌ إِلَىٰ عِتَابٍ أَوْ رَمْزٌ بِاسْتِحْقَاقِ تَأْدِيبٍ، فَيَحْصُلَ فِي القَلْبِ ـ لَا مَحَالَةَ ـ قَبْضٌ.

وَقَدْ يَكُونُ مُوجِبَ بَعْضِ الوَارِدَاتِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ تَقْرِيبٍ أَوْ إِقْبَالٍ بِنَوْعِ لُطْفٍ وَتَرْحِيبٍ، فَيَحْصُلُ لِلْقَلْبِ بَسْطٌ.

وَفِي الجُمْلَةِ: قَبْضُ كُلِّ أَحَدٍ[4] عَلَىٰ قَدْرِ بَسْطِهِ، وَبَسْطُهُ عَلَىٰ حَسبِ قَبْضِهِ.

وَقَدْ يَكُونُ قَبْضٌ يشكِلُ عَلَىٰ صَاحِبِهِ سَبَبُهُ، يَجِدُ فِي قَلْبِهِ قَبْضًا لَا يَدْرِي مَا هُوَ مُوجِبُهُ وَمَا سَبَبُهُ، وَسَبِيلُ صَاحِبِ هَذَا القَبْضِ التَّسْلِيمُ حَتَّىٰ يَمْضِيَ ذَلِكَ الوَقْتُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ تَكَلَّفَ نَفْيَهُ، أَوِ اسْتَقْبَلَ الوَقْتَ قَبْلَ هُجُومِهِ عَلَيْهِ بِاخْتِيَارِهِ زَادَ فِي قَبْضِهِ، وَلَعَلَّهُ يُعتَدُّ ذَلِكَ مِنْهُ سُوءَ أَدَبٍ، وَإِذَا اسْتَسْلَمَ لِحُكْمِ الوَقْتِ فَعَنْ قَرِيبٍ يَزُولُ القَبْضُ، فَإِنَّ الحَقَّ ـ سبحانه ـ قَالَ: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

---

(١) انظر: شرح منازل السائرين للخمي ص٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) الرسالة القشيرية ١/١٥٧.

(٤) في (ب): كل قبض كل أحد، والصواب المثبت.

وَقَدْ يَكُونُ بَسْطٌ يَرِدُ بَغْتَةً، وَيُصَادِفُ صَاحِبَهُ فَلْتَةً، لَا يَعْرِفُ لَهُ سَبَبًا يَهُزُّ صَاحِبَهُ وَيَسْتَفِزُّهُ، فَسَبِيلُ صَاحِبِهِ السُّكُونُ وَمُرَاعَاةُ الأَدَبِ؛ فَإِنَّ فِي هَذَا الوَقْتِ لَهُ خَطَرًا عَظِيمًا، فَلْيَحْذَرْ صَاحِبُهُ مَكْرًا خَفِيًّا، كَذَا قَالَ بَعْضُهُم(١): (فُتِحَ عَلَيَّ بَابٌ مِنَ البَسْطِ، فَزَلَلْتُ زَلَّةً فَحُجِبْتُ عَنْ مَقَامِي)، وَلِهَذَا قَالُوا(٢): (قِفْ عَلَىٰ البِسَاطِ، وَإِيَّاكَ وَالانْبِسَاطَ!).

وَقَدْ عَدَّ أَهْلُ التَّحْقِيقِ حَالَتَيْ القَبْضِ وَالبَسْطِ مِنْ جُمْلَةِ مَا اسْتَعَاذُوا مِنْهُ؛ لِأَنَّهُمَا بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ مَا فَوْقَهُمَا مِنَ اسْتِهْلَاكِ العَبْدِ وَانْدِرَاجِهِ فِي الحَقِيقَةِ فَقْرٌ وَضُرٌّ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقَدْ بَيَّنَ [١/١١٦أ] الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ مَرَاتِبَ القَبْضِ والبَسْطِ واختلافَ أسبَابِهَا(٣)؛ فقالَ: قَدْ يكونُ مُوجِبَ القَبْضِ استحقاقُ عِتَابٍ وتَأدِيبٍ علىٰ تَقْصِيرٍ فَيُدْرِكُ العَبْدُ فينقبضُ، ويقابلُهُ في جانبِ البَسْطِ واردٌ يشيرُ إلىٰ تقريبٍ وكمالِ كشفٍ، فينبسطُ العبدُ وينشرحُ لذلِكَ. فهذَا أدنىٰ مقاماتِ البَسْطِ والقَبْضِ.

وقَدْ يكونُ مِنَ القَبْضِ مَا يُدْرِكُ العَبْدُ سَبَبَهُ(٤)، وقدْ يكونُ مِمَّا يفجؤُهُ وينشؤُهُ اللهُ - تعالىٰ - في قلبِهِ، قالَ: فأدَبُ العبدِ فيهِ أنْ يصبرَ حتَّىٰ يفرَّجَ عنهُ وينجلِي، وكذلكَ في جانبِ البَسْطِ بِلَازمِ الأدبِ؛ لئلَّا يَتعرَّضَ للعَطبِ، كمَا حُكِيَ [عنْ بعضِهِم](٥) أنَّهُ

---

(١) ورد قوله في: مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب لابن الدباغ ص٦٧، ونسب لأبي محمد الجريري في: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية ص١١٨.

(٢) ورد قوله في: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية ص١١٨، والإلمام والإعلام لابن زكري ص٢٩٥.

(٣) في (ج): أسبابهما.

(٤) في (ب): بسببه.

(٥) زيادة من (ب، ج).

قالَ: «**فُتحَ عَلَيَّ بابٌ منَ البسْطِ فزللْتُ زلَّةً فحُجِبْتُ عن مَقَامِي**»، وكمَا قالَ: «**قِفْ علىٰ البِسَاطِ، وإيَّاكَ والانبساطَ**»؛ فالبِسَاطُ: ما جُعِلَ لهُ، والانبِسَاطُ: ما فعلَهُ بنفْسِهِ واختارَهُ، ومِنْ هُنَا[1] كانَ خطرُ القبضِ والبَسْطِ عَظِيْمًا إذا وردَ علىٰ القَلْبِ مِنْ جِهَةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ولَمْ يُدْرِكْ لَهُ سَبَبًا فيحتاجُ إلىٰ كَمَالِ الأدبِ والصَّبرِ حتَّىٰ يَنْجَلِي عنه ما هوَ فيهِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**سَمِعْتُ الشَّيخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ يَحْيَي يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ[3]: الخَوْفُ يَقْبِضُنِي، وَالرَّجَاءُ يَبْسُطُنِي، وَالحَقِيقَةُ تَجْمَعُنِي، وَالحَقُّ يُفَرِّقُنِي، إِذَا قَبَضَنِي بِالخَوفِ أَفْنَانِي عَنِّي، وَإِذَا بَسَطَنِي بِالرَّجَاءِ رَدَّنِي عَلَيَّ، وَإِذَا جَمَعَنِي بِالحَقِيقَةِ أَحْضَرَنِي، وَإِذَا فَرَّقَنِي بِالحَقِّ أَشْهَدَنِي غَيرِي فَغَطَّانِي عَنْهُ[4]، فَهُوَ فِي ذَلِكَ كُلِّهُ مُحَرِّكِي غَيْرُ مُسَكِّنِي، وَمُوحِشِي غَيْرُ مُؤْنِسِي، فَحُضُورِي[5] لِذَوْقِ طَعْمِ وُجُودِي، فَلَيْتَهُ أَفْنَانِي عَنِّي فَمَتَّعَنِي، أَوْ غَيَّبَنِي عَنِّي فَرَوَّحَنِي**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا كلامٌ بالغٌ في تفصيلِ[6] درجاتِ القبْضِ والبسْطِ وأسبابِهِمَا[7]؛ وذلكَ أنَّ العبدَ إذَا كمُلَ خَوفُهُ من ربِّهِ وعظُمَتْ هيبتُهُ لهُ استغرقَ قلبُهُ في ذلكَ فغابَ عن غيرِهِ، وإذَا أرادَ ـ سبحانه ـ ردَّهُ إلىٰ نفسِهِ نقلَهُ إلىٰ

---

(١) في (أ، ب): هذا.، والأصح المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٥٨.

(٣) ورد قوله في: إيقاظ الهمم في شرح الحكم ص١٨١، وشرح الحكم لأبي المواهب الشاذلي ص١٩٩.

(٤) أي: عن الحق.

(٥) في (ف): بحضوري.

(٦) في (ج): تحصيل.

(٧) وأسبابهما: الوارداتُ التي تَرِدُ علىٰ باطنِ العبدِ.

الرَّجاءِ بمَا يؤمِّلُهُ مِنْ فضْلِهِ وأرادَ آثارَ كرمِهِ وبسطِهِ، فردَّهُ علىٰ نفْسِهِ وأشهَدَهُ بفضْلِهِ عليهِ، فبهذَا الاعتبارِ قبضةُ الخوفِ وبسطةُ الرَّجاءِ.

و(**الحقيقةُ**): غلبةُ ذِكْرِ الحقِّ علىٰ القلبِ وكمالُ الشُّغلِ بهِ حتَّىٰ لا يشعرَ العبدُ بغيرِهِ، وإذَا ردَّهُ علىٰ نفسِهِ والنَّظرِ فيمَا عليهَا منَ الحقِّ لربِّهِ فرَّقَهُ، أيْ: زالَ جمعُهُ وبقِيَ [١/١١٦ب] ناظرًا للقيامِ لمَا للهِ عليهِ وهوَ الحقُّ، فتارةً يجمعُهُ فتبقىٰ فيهِ بقيَّةٌ يَتَلذَّذُ بهَا، وتَارةً يصطَلِمُهُ حتَّىٰ لا يبقَىٰ فيهِ ذِكْرٌ لنفْسِهِ وشُعورٌ لتلذُّذِهِ، ولذلكَ قالَ: «**أَحْضَرَنِي**»، ثمَّ فسَّرَهُ بأنَّ حضورَهُ لذوقِ طعمِ وجودِهِ، يعني: تلذُّذَهُ بحالَةِ جَمْعِهِ، فأحوالُهُ متغيِّرةٌ، فلذلكَ قالَ: «**فهوَ فِي جميعِ ذلكَ مُحرِّكِي غيرُ مُسكِّنِي**»؛ أيْ: يَنْقِلُنِي من حَالٍ إلىٰ حَالٍ، فلو أَبْقَانِي في حَالِ الجَمْعِ لغيَّبَنِي عنِّي، وإذَا ردَّنِي إلىٰ إِحْسَاسِي نَعَّمَنِي بِحَالِي.

وقولُهُ: «**فَلَيْتَهُ أَفْنَانِي عَنِّي فَمَتَّعَنِي أَوْ غَيَّبَنِي عَنِّي فَرَوَّحَنِي**»، أيْ: أفناهُ عن شاهدِهِ فمتَّعَهُ بأُنْسِهِ ومُنَاجَاتِهِ، أو غيَّبَهُ عن نفسِهِ بالكلِّيَّةِ فَرَوَّحَهُ، هذَا تَمَنٍّ منهُ لدوَامِ أحدِ الحَالَينِ، واللهُ -تعالىٰ- يُرَبِّيه وينقلُهُ في هذِهِ الأطوارِ فيمَا يَرَاهُ مِن مَصْلَحتِهِ ونَقْلِهِ في درجاتِ قُرْبِهِ منهُ وَكَمالِ مَعْرِفَتِهِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَمِنْ ذَلِكَ (الهَيْبَةُ وَالأُنْسُ)(٢):

وَهُمَا فَوْقَ القَبْضِ وَالبَسْطِ، فَكَمَا أَنَّ القَبْضَ فَوْقَ رُتْبَةِ الخَوْفِ، وَالبَسْطَ فَوْقَ مَنْزِلَةِ الرَّجَاءِ، فَالهَيْبَةُ أَعْلَىٰ مِنَ القَبْضِ، وَالأُنْسُ أَتَمُّ مِنَ البَسْطِ.

وَحَقُّ الهَيْبَةِ الغَيْبَةُ، فَكُلُّ هَائِبٍ غَائِبٌ، ثُمَّ يَتَفَاوَتُونَ فِي الهَيْبَةِ عَلَىٰ حَسَبِ تَفَاوُتِهِمْ فِي الغَيْبَةِ؛ فَمِنْهُمْ وَمِنْهُم.

وَحَقُّ الأُنْسِ صَحْوٌ بِحَقٍّ، فَكُلُّ مُسْتَأْنِسٍ صَاحٍ، ثُمَّ يَتَبَايَنُونَ حَسَبَ تَبَايُنِهِمْ فِي الشُّرْبِ، قَالُوا: أَدْنَىٰ مَحَلِّ الأُنْسِ أَنَّهُ لَوْ طُرِحَ فِي لَظَىٰ لَمْ يَتَكَدَّرْ عَلَيْهِ أُنْسُهُ.

قَالَ الجُنَيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): كُنْتُ أَسْمَعُ السَّرِيَّ يَقُولُ(٤): يَبْلُغُ العَبْدُ إِلَىٰ حَدٍّ لَوْ ضُرِبَ وَجْهُهُ بِالسَّيْفِ لَمْ يَشْعُرْ، وَكَانَ فِي قَلْبِي(٥) مِنْهُ شَيْءٌ، حَتَّىٰ بَانَ لِي أَنَّ الأَمْرَ كَذَلِكَ.

وَحُكِيَ عَنْ أَبِي مُقَاتِلٍ(٦) العَكِّيِّ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ الشِّبْلِيِّ وَهُوَ يَنْتِفُ الشَّعْرَ عَنْ حَاجِبِهِ بِمُنْقَاشٍ، فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي؛ أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا بِنَفْسِكَ وَيَعُودُ أَلَمُهُ إِلَىٰ قَلْبِي!، فَقَالَ: وَيْلَكَ، الحَقِيقَةُ ظَاهِرَةٌ لِي، وَلَسْتُ أُطِيقُهُ(٧)، فَهُوَ ذَا، أُدْخِلُ الأَلَمَ عَلَىٰ نَفْسِي لَعَلِّي أُحِسُّ(٨) بِهِ فَيَسْتَتِرَ عَنِّي، فَلَسْتُ أَجِدُ الأَلَمَ، وَلَيْسَ يَسْتَتِرُ عَنِّي،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٥٩.

(٢) انظر: معجم اصطلاحات الصوفية ص٢٧٦، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٢٦.

(٣) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص ١٩٣.

(٤) ورد قوله في: اللمع للتصوف ص٣٨١.

(٥) في (ج): قلبه، والأصح المثبت.

(٦) في (ف): عن مقاتل، والصواب المثبت.

(٧) أي: الحال الذي ورد عليّ، كما سيذكر.

(٨) في (ج): أحسن، والصواب المثبت.

وَلَيْسَ لِي بِهِ[(١)] طَاقَةٌ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**وكما أنَّ القبضَ فوقَ الخوفِ، فالهيبةُ فوقَ القبضِ**»، قلنَا: وذلكَ أنَّ مَنْ خافَ اللهَ وكمُلَ خوفُهُ منهُ وعرَفَ تقصيرَهُ في حقِّهِ وقِلَّةَ قِيامِهِ بمَا يجبُ لهُ من حَقِّهِ طَرَقَ قلبَهُ القبضُ وبقِيَ مشغولًا بهِ، وعنْ كمالِ هذا الشُّغلِ بربِّهِ [١/١١٧أ] يكونُ هيبتُهُ لهُ.

وقولُهُ: «**فكلُّ هائبٍ غائبٌ**»، يعنِي: عن غيرِ مَنْ هَابَهُ.

وقولُهُ: «**فَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ**»، أيْ: منهُمْ مَنْ تطولُ غيبتُهُ، ومنهُمْ مَنْ تَقْصُرُ، وذلكَ علىٰ حسبِ هيبَتِهِ وإجلالِهِ لمَنِ اشتغلَ بهِ.

وأمَّا في جانبِ الرَّجاءِ فإنَّ مَنْ أمَّلَ وُصُولَهُ إلىٰ خيرٍ مِنْ فضلِ ربِّهِ ومَقَامٍ شَرِيفٍ ينيلُهُ إيَّاهُ، فإذَا فُتِحَ لهُ بهِ انبسطَ قلبُهُ وانشرَحَ صَدرُهُ لفضْلِ ربِّهِ، وإذا كمُلَتْ مَعْرِفتُهُ بربِّهِ وَتَوَالِي نِعَمِهِ عليهِ وكَمُلَ اشتغالُهُ بهِ نالَ مقامَ الأُنْسِ بمولَاه، وشغلَهُ ذلكَ عمَّنْ سِوَاه، ولذلكَ قيلَ: «**أدنىٰ مقامِ الأُنسِ باللهِ لو طُرِحَ في النَّارِ لم يتكدَّرْ عليهِ أُنسُهُ**»، وشاهدُ ذلكَ ما فُعِلَ بأَبِي مسلمٍ الخولانِيِّ لمَّا حرَّقَهُ العَنْسيُّ[(٢)] المتنبِّئ بالنَّارِ لم تؤثِّرْ فيهِ ولم يرجعْ عن دينِهِ وما هوَ فيهِ، ومِنْ كمالِهِ ما فُعِلَ بِالخَلِيلِ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ لمَّا وُقِّدَتْ[(٣)] لهُ مِنَ النَّارِ ما لا يمكنُ أحدٌ أنْ يقربَ منهَا ليُطْرَحَ فيهَا فَجُعِلَ في كفِّهِ منجنيقٌ ورُمِيَ بهِ في الهواءِ حتَّىٰ يقعَ فِي النَّارِ، فحُكِيَ أنَّ جبريلَ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ لقِيَهُ وهوَ في الهَواءِ منصبٌّ

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ج).

(٢) في (ج): العبسي، وهو تصحيف. وانظر قصته في: تاريخ دمشق ٢٧/٢٠٠، وألف باء للبلوي ٢/٢٦٧، والبداية والنهاية ٦/٢٦٧، والعبر ١/٦٧.

(٣) في (ب): وقد.

إلى النَّارِ، فقالَ: أَلَكَ حاجةٌ؟ فأجابَهُ: «أَمَّا إليكَ فلَا»(١)، فلَمْ يتحرَّكْ ما هوَ عليهِ منَ الأُنْسِ بسببِ مَا أُجِّجَ لهُ منَ النِّيرانِ، ولم يركَنْ لجبريلَ المقتدَرِ بإذْنِ ربِّهِ على طفْيِهَا أو إخمادِهَا عنهُ بقدرةِ العزيزِ الجبَّارِ، فتدارَكَهُ ـ سبحانه ـ بقولِهِ: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩](٢)، قالَ أهلُ التَّفسيرِ: لو لمْ يقُلْ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لكزَّ إبراهيمُ فيهَا من شدَّةِ البرْدِ(٣)، فظاهرُ الأمرِ نيرانٌ تتأجَّجُ، وباطنُهُ فضلٌ ونعيمٌ هوَ فيهِ يتفرَّجُ.

وقَولُ الجُنَيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنتُ أسمعُ السَّرِّيَ يقولُ: **يصلُ الإنسانُ في حالِهِ أنْ يُضرَبَ وجهُهُ بالسَّيفِ ولَا يشعرُ**»، فكنتُ أتعجَّبُ من ذلكَ حتَّى بانَ لِي(٤)، وذلكَ أنَّهُ كانَ يسمعُهُ ويتعجَّبُ من مخالفتِهِ للعادةِ، فلمَّا ذاقَهُ وعلِمَ كَمالَ الاستغراقِ أنَّهُ يزيلُ الإحساسَ بالنَّفسِ بالكلِّيَّةِ اعترفَ بهِ ذَوْقًا، ويشهدُ لصحَّةِ ما قالَهُ الخبرُ الصَّحيحُ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٥): «أنَّ الشَّهيدَ إنَّمَا يجدُ منَ الموتِ كمَا يجدُ منَ القَرْصَةِ»؛ لخفَّةِ ذلكَ عليهِ، وكمالِ شغْلِهِ بجهادِهِ واشتغالِهِ بمُرَادِهِ؛ فيأتيهِ الموتُ بالسَّيفِ ولا يحسُّ بهِ إلَّا كمَا يحسُّ بالقَرْصَةِ.

وأمَّا قضيَّةُ الشِّبْلِيِّ الَّذِي كانَ [١١٧/ب] يجذبُ(٦) شعرَ حاجبِهِ بالمنقاشِ، هذَا

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٤٥/١٧، وشعب الإيمان ٢٩/٢، ومعالم التنزيل ٢٥٠/٣، والدر المنثور ٦٤١/٥.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢٦٥/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٤٥/١٧، وحلية الأولياء ٢٠/١.

(٤) في (ج): يأذن لي، والصواب المثبت.

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه ٩٣٧/٢. وأخرجه الترمذي في سننه ١٩٠/٤ بلفظ: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما يَجِدُ الشَّهيدُ من مَسِّ القَتْلِ إلا كما يَجِدُ أحدكم من مَسِّ القَرْصَةِ».
وفي مرقاة المفاتيح ٣٦٦/٧: «القرصة ـ وهي بفتح القاف وسكون الراء ـ هي المرة من القرص؛ وهو عض النملة الإنسان، وقيل: أخذ الجلد بنحو ظفر».

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

يدلُّ على مبادِئِ أوائلِ استغراقِهِ في أمرٍ لا يطيقُ حملَهُ، فكانَ يجذبُ شعرَ حاجبَيهِ ليحسَّ الألمَ، فيتفرَّقَ عنهُ ما أدركَ أوائلَهُ وأحسَّ من نفسِهِ العجزَ عنهُ، ففيه دلالةٌ على عِظَمِ ما يجوزُ أنْ يُدْخِلَ اللهُ العبدَ فيهِ منَ الأحوالِ العاليَةِ الَّتِي لا قدرةَ لهُ على حملِهَا[١]، وقد صرَّحَ بذلكَ الشِّبليُّ لسائِلِهِ؛ فقالَ لهُ: «**الحقيقةُ ظاهرةٌ لِي ولستُ أطيقُهُ**»، يعنِي: الحَالَ الَّذِي وردَ عليهِ فهوَ ذَا، أدخلُ الألمَ على نفسِي لعلِّي أحسُّ بالألمِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَحَالُ الهَيْبَةِ وَالأُنْسِ وَإِنْ جَلَّتَا، فَأَهْلُ الحَقِيقَةِ يَعُدُّونَهُمَا نَقْصًا؛ لِتَضَمُّنِهِمَا تَغَيُّرَ العَبْدِ، فَإِنَّ أَهْلَ التَّمَكُّنِ سَمَتْ أَحْوَالُهُمْ عَنِ التَّغَيُّرِ، وَهُمْ مَحْوٌ فِي وُجُودِ العَيْنِ، فَلَا هَيْبَةَ لَهُمْ وَلَا أُنْس، وَلَا عِلْمَ وَلَا حِسَّ، وَالحِكَايَةُ مَعْرُوفَةٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخَرَّازِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **أَنَّهُ قَالَ: تِهْتُ فِي البَادِيَةِ مَرَّةً، فَكُنْتُ أَقُولُ**[٣]:

أَتِيهُ فَلَا أَدْرِي مِنَ التِّيْهِ مَنْ أَنَا ✿ سِوَى مَا يَقُولُ النَّاسُ فِيَّ وَفِي جِنْسِي
أَتِيهُ عَلَى جِنِّ البِلَادِ وَإِنْسِهَا ✿ فَإِذَا لَمْ أَجِدْ شَخْصًا أَتِيهُ عَلَى نَفْسِي

قَالَ[٤] **فسمِعْتُ هَاتِفًا يَهْتف بي وَيَقُول**[٥]:

أَيَا مَنْ يَرَى الأَسْبَابَ أَعْلَى وُجُودِهِ ✿ وَيَفْرَحُ بِالتِّيهِ الدَّنِيِّ وَبِالأُنْسِ
فَلَوْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الوُجُودِ حَقِيقَةً ✿ لَغِبْتَ عَنِ الأَكْوَانِ وَالعَرْشِ وَالكُرْسِي

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢٦٦/١.
(٢) الرسالة القشيرية ١٥٩/١ ـ ١٦٠.
(٣) من الطويل، ونسب إليه في: تاريخ دمشق ١٤٠/٥، وربيع الأبرار ١٧٥/٤.
(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٥) من الطويل، ونسب إليه في: تاريخ دمشق ١٤٠/٥.

وَكُنْـتَ بِـلَا حَـالٍ مَـعَ اللهِ وَاقِفًـا ❁ تُصَـانُ عَـنِ التِّـذْكَارِ لِلجِـنِّ وَالإِنْـسِ
وَإِنَّمَا يَرْتَقِي العَبْدُ عَنْ هَذِهِ الحَالَةِ بِالوُجُودِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «وحالُ الهيبَةِ والأُنْسِ» وإنْ كانَ رفيعًا في الدَّرجاتِ، فأهلُ الحقائقِ مرتفعونَ عنهُ، فإنَّهُمْ مُتمكِّنُونَ في مقاماتِهِمْ وغيرُ مُتلوِّنينَ، وصاحبُ الهَيبةِ مفرقٌ بكونِهِ هائبًا ومُهَابًا، وآنِسًا ومُستأنَسًا بهِ، فمتىٰ بقِيَ العبدُ مدركًا لكونِهِ مستأنسًا، أو هاربًا فلمْ يكمُلْ استغراقُهُ، وإنَّمَا هوَ في أسبابِ الاستغراقِ، ومعَ الوجْدِ لا معَ الوجودِ، والوجدُ طرَبٌ وأُنسٌ وهيبةٌ وإجلالٌ، وكلُّ ذلكَ يستدعِي مهابًا منهُ ومستأنسًا لهُ، وهذِهِ تفرقةٌ، ولذلكَ ساقَ الحكايةَ عنِ الخرَّازِ، وذلكَ أنَّهُ كانَ مدَّةً سائحًا فتاهَ، وكانَ طيِّبَ العَيْشِ مستأنسًا معَ اللهِ فرِحًا بكمالِ أُنْسِهِ وحُسْنِ حالِهِ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]: [١١٨/١أ]، فأخبَرَ عن[1] حالِهِ بمَا أجراهُ الحقُّ علىٰ لسانِهِ، فقالَ:

أَتِيـهُ فَـلَا أَدْرِي مِـنَ التِّيـهِ مَـنْ أَنَـا

معنَاهُ: لكمالِ شُغلِهِ بحالِهِ فلا يخطرُ لهُ ذِكْرُ نفْسِهِ.

سِوَىٰ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِيَّ وَفِي جِنْسِي

معناهُ: أنِّي مدركٌ لحالِي ومَا مَنَّ اللهُ عليهِ بهِ أو بمِثْلِهِ ممَّا ذكرَهُ النَّاسُ وسطَّرُوهُ.

أَتِيـهُ عَلَـىٰ جِـنِّ الـبِلَادِ وَإِنْسِـهَا

أيْ: ما ألتَفِتُ في حَالِي معَ اللهِ إلىٰ إِنْسٍ ولا جانٍّ، «فَإِنْ لَمْ أَجِدْ شَخْصًا»،

(١) في (أ): من.

يعنِي: مِنَ الإنسِ والجنِّ، (تهْتُ على نفسِي)، أيْ: ذلكَ من فضْلِ اللهِ عليَّ لا منْهَا، فلمَّا أعجبَهُ حالُهُ ومَا هوَ فيهِ من حُسنِ مقامِهِ ووجدِه طَرَقَ سمْعَهُ هاتفٌ؛ إمَّا مِنْ ملكٍ أو وليٍّ أو جنيٍّ دلَّهُ الحقُّ بما سمِعَهُ على أرفعَ من مقامِهِ لئلا يُعجَبُ بنفسِهِ، ولتتعلَّق همَّتُهُ بمَا هوَ أعلى منهُ[1]، وهوَ قولُهُ: (**أَيَا مَنْ يَرَى الأَسْبَابَ أَعْلَى وُجُودِهِ**)؛ يعنِي: الأُنْسَ والهيبَةَ، وهيَ أسبابُ الوصولِ إلى الحقيقةِ، (**وَيَفْرَحُ بِالتِّيهِ الدَّنِيِّ وَبِالأُنْسِ**)، (**فَلَوْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الوُجُودِ حَقِيقَةً**)، أيْ: أنَّ مقامَكَ الوجدُ لا الوجودُ، فلو كنتَ من أهلِ الوجُودِ حقيقةً، يعنِي: وجُودَ الحقِّ وغلبَتَهُ على قلبِكَ، (**لَغِبْتَ عَنِ الأَكْوَانِ وَالعَرْشِ وَالكُرْسِيِّ**)، يعنِي كلَّ مخلوقٍ من مقامٍ أو حالٍ أو وجْدٍ أو غيرِهِ، ولهذا كانَ الوجودُ أرفعَ منَ الوجْدِ، وهوَ ما يأتي ذكرُهُ.

ومنَ الوجْدِ ما حكَاهُ بعضُهُمْ، قالَ[2]: كنتُ مُسافرًا إلى مكَّةَ ـ حرَسَهَا اللهُ تعالى ـ فبينَا أنَا أمشِي إذْ رأيتُ شيخًا بيدِهِ مصحفٌ وهوَ ينظرُ فيهِ ويَرقصُ، فتقدَّمْتُ إليهِ فقلتُ: يا شيخُ، ما هذَا الرَّقصُ؟ فقالَ: دَعْنِي عنكَ، قلتُ في نفسِي: عَبْدُ[3] مَنْ أنَا؟ وكلامَ مَنْ أتلوُ؟ وبيتَ مَنْ أنَا قاصدٌ؟ فاستفزَّنِي الوَجْدُ، فرقَصْتُ.

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٦٧.

(٢) ورد في: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية ص٣٤٠.

(٣) سقط من (ج) قوله: «قلت في نفسي عبد».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَمِنْ ذَلِكَ (التَّوَاجُدُ، وَالوَجْدُ، وَالوُجُودُ)[٢]:

فَالتَّوَاجُدُ: اِسْتِدْعَاءُ الوَجْدِ بِضَرْبِ اخْتِيَارٍ، وَلَيسَ لِصَاحِبِهِ كَمَالُ الوَجْدِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ لَكَانَ وَاجِدًا، وَبَابُ التَّفَاعُلِ أَكْثَرُهُ عَلَى إِظْهَارِ الصِّفَةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ، قَالَ الشَّاعِرُ[٣]:

إِذَا تَخَازَرْتُ وَمَا بِي مِنْ خَزَرْ

فَقَوْمٌ قَالُوا: التَّوَاجُدُ غَيْرُ مُسَلَّمٍ لِصَاحِبِهِ؛ لِمَا يَتَضَمَّنُ مِنَ التَّكَلُّفِ، وَيَبْعُدُ عَنِ التَّحْقِيقِ.

وَقَوْمٌ قَالُوا: إِنَّهُ مُسَلَّمٌ لِلْفُقَرَاءِ المُجَرَّدِينَ الَّذِينَ تَرَصَّدُوا لِوُجْدَانِ هَذِهِ المَعَانِي.

وَأَصْلُهُمْ: خَبَرُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤]: «اِبْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا» [١/١١٨ب].

وَالحِكَايَةُ المَعْرُوفَةُ لِأَبِي مُحَمَّدٍ الجُرَيْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ[٥]: كُنْتُ عِنْدَ الجُنَيْدِ وَهُنَاكَ ابْنُ مَسْرُوقٍ وَغَيْرُهُ، وَثَمَّ قَوَّالٌ، فَقَامَ ابْنُ مَسْرُوقٍ وَغَيْرُهُ وَالجُنَيْدُ سَاكِنٌ،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٦١ ـ ١٦٢.

(٢) انظر في هذه المصطلحات: اللمع في التصوف ص٣٧٥، وعوارف المعارف ٢/٣١٩، والإبانة لابن فورك ص٣٤٣، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٣١٧، والتعريفات ص٩٥، والتوقيف على مهمات التعاريف ص٢١٢، ومعجم مقاليد العلوم ص٢١١، ومعجم مصطلحات التصوف ص٥١، ٢٦٤.

(٣) من الرجز، لأرطاة بن سهيّة في: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ص١٣١، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ٣/٢٨٩، وسمط اللآلي في شرح أمالي القالي ١/٢٩٩، وللطفيل الغنوي في ملحق ديوانه ص١٤٣، وللأغلب في شرح أدب الكاتب للجواليقي ص٢٣٤.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه ١/٤٢٤، والبيهقي في سننه الكبرى ١٠/٢٣١، والحاكم في المستدرك ٤/٦٢٢، والديلمي في الفردوس ١/٩٧.

(٥) وردت هذه القصة مختصرة في: حلية الأولياء ١٠/٢٧١.

فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي، مَا لَكَ فِي السَّمَاعِ شَيْءٌ؟ فَقَالَ الجُنَيْدُ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، ثُمَّ قَالَ: وَأَنْتَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ؛ مَا لَكَ فِي السَّمَاعِ شَيْءٌ؟ فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي، أَنَا إِذَا حَضَرْتُ مَوْضِعًا فِيهِ سَمَاعٌ وَهُنَاكَ مُحْتَشِمٌ أَمْسَكْتُ عَلَىٰ نَفْسِي وَجْدِي، فَإِذَا خَلَوْتُ أَرْسَلْتُ وَجْدِي فَتَوَاجَدْتُ.

فَأَطْلَقَ فِي هَذِهِ الحِكَايَةِ التَّوَاجُدَ، وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ الجُنَيْدُ.

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: لَمَّا رَاعَىٰ أَدَبَ الأَكَابِرِ فِي حَالِ السَّمَاعِ حَفظَ اللهُ عَلَيْهِ وَقْتَهُ بِبَرَكَةِ الأَدَبِ حَتَّىٰ يَقُولَ: أَمْسَكْتُ عَلَىٰ نَفْسِي وَجْدِي، فَإِذَا خَلَوْتُ أَرْسَلْتُ وَجْدِي فَتَوَاجَدْتُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِرْسَالُ الوَجْدِ إِذَا شِئْتَ بَعْدَ ذِهَابِ الوَقْتِ وَغَلَبَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا كَانَ صَادِقًا فِي مُرَاعَاةِ حُرْمَةِ الشُّيُوخِ حَفظَ اللهُ عَلَيْهِ وَقْتَهُ حَتَّىٰ أَرْسَلَ وَجْدَهُ عِنْدَ الخلْوَةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **التَّواجدُ**: تفاعلٌ فِي اكتسابِ الوَجْدِ، وإنْ كانَ بابُ التَّفاعلِ إنَّمَا يصحُّ من اثنينِ، ولكنْ لمَّا استدْعَىٰ وجدَهُ وعَسُرَ عليهِ ثمَّ استدعاهُ أشبهَ المفاعلةَ بينَ اثنينِ.

والوجدُ: غلبةُ ما كانَ يبعثُهُ ويتواجدُ لهُ علىٰ قلبِهِ.

والوجودُ: حُصُولُ ذلكَ من غيرِ تكلُّفٍ، وتَوالِي معناهُ علَىٰ القلبِ من غيرِ كسبٍ.

وتقريبُ ذلكَ بالمثالِ: أنَّ العلومَ النَّظريَّةَ تستدعِي الفِكْرَ والبحثَ في الأدلَّةِ، فإذَا حصلَتْ أشبهَتِ الوَجْدَ لغلبَةِ العلْمِ علَىٰ القلبِ؛ إلَّا أنَّهُ لم يحصلْ إلَّا معَ ذِكْرِ دليلِهِ، فإذَا استقرَّ العِلمُ فِي القلبِ وتوالَىٰ ذِكْرُهُ لهُ واستغنَىٰ[1] عنِ الاستدلالِ أشبَهَ الضَّروريَّ الَّذِي لا يفتقرُ لسبَبٍ.

---

(١) في (ج): لو استغنى.

وقولُ الإمامِ: «**إنَّ بعضَ النَّاسِ لم يُسلِّمِ التَّوَاجُدَ، وبعضَهُمْ سلَّمَهُ للمُتَجَرِّدينَ**»، فيهِ نظرٌ، فإنَّ المتواجدَ لا يخلُو: إمَّا أنْ يكونَ صادقًا فِي تطلُّبِهِ، أمْ لَا، فإنْ لمْ يكنْ صَادقًا؛ فهوَ إمَّا مُرَاءٍ أوْ متشبِّعٌ بمَا لمْ ينَلْ، وكِلَاهُمَا خطأٌ، وأمَّا إنْ كانَ صادقًا فِي تطلُّبِ وجْدِهِ وحصولِهِ، فلَا فرقَ بينَ كونِهِ فقيرًا متجرِّدًا أو غيرِ متجرِّدٍ، أيْ: في صحَّةِ تطلُّبِهِ وأنَّهُ جايزٌ لهُ إمَّا سرعةُ جريَانِ الوجْدِ واكتسابُهُ علَىٰ مَنْ تفرَّغَ قلبُهُ منَ المُشْغِلَاتِ وأقبلَ [١١٩/١أ] بقلبِهِ علىٰ تحصيلِ المقاماتِ في كثيرٍ منَ الأوقاتِ، فحصولُ الوجْدِ لهُ أيسَرُ منهُ علىٰ غيرِهِ، فبهذا يقعُ الفرقُ بينَ الفقيرِ المتجرِّدِ وغيرِهِ في تيسيرِ الحصولِ لا[(١)] في صحَّةِ التَّواجُدِ للهِ[(٢)].

والدَّليلُ علىٰ صحَّةِ التَّواجُدِ: قولُ النَّبيِّ ﷺ: «اِبْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا»، معنَاهُ: إنْ طرقَكُمُ البكاءُ فابكُو واستغنِمُوا هذِهِ الحالةَ إذَا كانَتْ للهِ، وإنْ عسُرَ ذلكَ عليكُمْ فاستجلبُوهُ، وهوَ معنَىٰ قولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «تبَاكُوا»، أيْ: فاستجلبُوهُ بالفكرةِ في أسبابِهِ، وقدْ رُوِيَ أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أتَىٰ النَّبيَّ ﷺ فوجدَ النَّبيَّ وأبَا بكرٍ يبكِيَانِ في قضيَّةِ الفداءِ يومَ بدرٍ فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، مَا يُبْكِيكُمَا؟ أَعْلِمَانِي بذلكَ فإنْ وجدْتُ بكاءً وإلَّا تباكَيْتُ[(٣)]، يعنِي: أتكلَّفُ البكاءَ موافقةً لكُمَا، فإنَّهُمَا لَا يبكيَانِ إلَّا علَىٰ أمرٍ صحيحٍ، فأخبرَهُمُ النَّبيُّ ﷺ بالسَّببِ.

وقولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ [الأنفال: ٦٨].. الآية، وَهُوَ أنَّهُ لا يعذِّبُ إلَّا بعدَ النَّهيِ.

وأمَّا الحكايةُ الَّتِي ذكرَهَا في السَّماعِ معَ حُضُورِ الجُنيدِ وابنِ مسرُوقٍ، وقولُ

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرىٰ ٩/٦٧، ١٠/١٠٩.
(٢) سقط لفظ الجلالة من (ب، ج).
(٣) في (ج): إلا.

الجنيد: «﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ [النمل: ٨٨].. الآية»، فإنَّما يدلُّ ذلكَ على قوَّةِ حفظِهِ لحالِهِ معَ كَمَالِ وَجْدِهِ.

وأمَّا قولُ الجُرَيريِّ: «إذا كانَ ثَمَّ محتشمٌ أمسكتُ عليَّ حالِي» راجعٌ إلى ما قالَهُ الجُنيدُ لكمالِ القوَّةِ ومسْكِ الحالِ عنِ الطُّروءِ على صاحبِهِ، وبقيَّةُ الحكايةِ مِنْ أنَّهُ إذا مضَى إلى موضعٍ آخرَ أرسلَ وجْدَهُ وتواجدَ، معناهُ: أرسلَ ما كانَ أمسَكَهُ فجرَى عليهِ وَجْدُهُ، ولفظُ التَّواجُدِ هاهُنَا فيهِ مسامحةٌ، وإنَّمَا الَّذِي أرسلَهُ هوَ الَّذِي كانَ[1] أمسكَهُ على نفسِهِ، وهوَ غلبةُ حالِهِ ووجْدِهِ.

وقولُهُ: «التَّواجدُ يُشْعِرُ بِتَكَلُّفِ تطَلُّبٍ لوَجْدٍ لمْ يكُنْ»، وهذا ما يدلُّ عليهِ الكلامُ، وإنَّمَا أرادَ الإمامُ أنَّهُ أطلقَ لفظَ التَّواجُدِ ولمْ ينْكِرِ الجنيدُ النَّعتَ إلى ما قدَّمَهُ منِ اختلافِ النَّاسِ في التَّواجُدِ، هلْ يسلمُ أمْ لَا يَسْلمُ؟ والأمرُ في ذلكَ قريبٌ، وإلى ما أشرْنَا إليهِ مالَ الشَّيخُ أبو[2] عليٍّ الدَّقَّاقُ منْ أنَّ إمساكَهُ لحالِهِ في حالِ السَّماعِ كانَ ببركَةِ المشايخِ، فلمَّا بعُدَ عنهُمْ أرسلَهُ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «فَالتَّوَاجُدُ: اِبْتِدَاءُ الوَجْدِ عَلَى الوَصْفِ الَّذِي جَرَى ذِكْرُهُ، وَبَعْدَ هَذَا الْوَجْدِ، وَالوَجْدُ: مَا يُصَادِفُ قَلْبَكَ وَيَرِدُ عَلَيْكَ** [١/١١٩ب] **بِلَا تَعَمُّدٍ وَتَكَلُّفٍ.**

وَلِهَذَا قَالَ المَشَايِخُ[4]: الوَجْدُ: المُصَادَفَةُ، وَالمَوَاجِيدُ: ثَمَرَاتُ الأَوْرَادِ[5]،

---

(١) سقط من (ب) قوله: «أمسكه فجرى عليه وجده، ولفظ التواجد هاهنا فيه مسامحة، وإنما الذي أرسله هو الذي كان».

(٢) في (أ): أبي، والصواب المثبت.

(٣) الرسالة القشيرية ١/١٦٢.

(٤) في (ج): الشيخ. وورد هذا القول في: مدارج السالكين ٣/٦٨.

(٥) أي: نتائجها، والمراد بالأوراد: وظائف الأعمال الموافقة للعلوم الشرعية.

فَكُلُّ مَنِ ازْدَادَتْ وَظَائِفُهُ ازْدَادَتْ مِنَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لَطَائِفُهُ.

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: الوَارِدَاتُ مِنْ حَيْثُ الأَوْرَادِ، مَنْ لَا وِرْدَ لَهُ بِظَاهِرِهِ لَا وَارِدَ لَهُ فِي سَرَائِرِهِ، وَكُلُّ وَجْدٍ فِيهِ مِنْ صَاحِبِهِ شَيْءٌ فَلَيْسَ بِوَجْدٍ.

وَكَمَا أَنَّ مَا يَتَكَلَّفُهُ العَبْدُ مِنْ مُعَامَلَاتٍ ظَاهِرُهُ يُوجِبُ لَهُ حَلَاوَةَ الطَّاعَاتِ، فَمَا يُنَازِلُهُ العَبْدُ مِنْ أَحْكَامِ بَاطِنِهِ يُوجِبُ لَهُ المَوَاجِيدُ، فَالحَلَاوَاتُ ثَمَرَاتُ المُعَامَلَاتِ، وَالمَوَاجِيدُ نَتَائِجُ المُنَازَلَاتِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ القلوبَ أجرىٰ اللهُ العادةَ[(١)] برجوعِ بركاتِ الأعمالِ الصَّالحةِ الَّتي قارنَتْهَا النِّيَّاتُ علىٰ القلوبِ، ويجدُ الرَّاحةَ والانشراحَ بوقوعِ أعمالِ جوارِحِهَا علىٰ وجْهِ الاستقامةِ والطَّلبِ، وكلَّمَا عرَفَ العبدُ جَودةَ أعمالِهِ وحُسنَ إيقاعِهَا لربِّهِ انشرحَ قلبُهُ وفرِحَ، وكلَّمَا فعَلَ ذلكَ حسُنَتْ منهُ النِّيَّاتُ، وأوقعَهَا علىٰ أرفَعِ الدَّرجاتِ، وهذِهِ الأعمالُ الَّتي يكونُ عنهَا الحلاوةُ واللَّذَّةُ في الطَّاعةِ بالقلبِ.

وأمَّا المنازلاتُ فهوَ انتقالُ القلبِ في درجاتِ المقاماتِ؛ منَ الورَعِ والزُّهدِ والتَّوكُّلِ والرِّضَا والتَّسليمِ والمحبَّةِ والأُنْسِ وغيرِ ذلكَ من درجاتِ الولايَاتِ، وكلَّمَا أعمَلَ العبدُ قلبَهُ في تحصيلِ بعضِ المقاماتِ، وتكلَّفَهُ حتَّىٰ نالَ منهُ الغاياتِ، جرَتْ علىٰ قلبِهِ المَواجيدُ المُترَتِّبةُ عليهِ؛ سواءٌ كانَ خوفًا من فَوَاتِهِ أو رَجَاءً لِحُصُولِهِ، أو شُكرًا لإسبَاغِهِ، أو شوقًا لكمالِ حصولِهِ، هذا يكونُ في سائرِ المقاماتِ والانتقالاتِ، وهيَ المعبَّرُ عنهَا بالمنازلاتِ.

وكمَا أنَّ العبدَ تَتَزَايَدُ لهُ الحَلاوةُ في تَرتيبِ الأورادِ، فكذلِكَ تَتَزَايَدُ له

---

(١) في (ج): العادات.

المَواجيدُ في الانتقالِ بقلبِهِ في هذهِ المنازلاتِ، ويكونُ وَجْدُ كلِّ أحَدٍ على حسبِ منزلتِهِ الَّتِي أقامَهُ الحقُّ فيهَا، وقَدْ يكونُ في أوَّلِهَا متواجدًا[(١)] ، ثمَّ يصيرُ ذَا وجْدٍ ووجودٍ كمَا تقدَّمَ في الاصطلاحِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٢)]: «وَأَمَّا الوُجُودُ: فَهُوَ بَعْدَ الارْتِقَاءِ عَنِ الوَجْدِ، وَلَا يَكُونُ وُجُودُ الحَقِّ إِلَّا بَعْدَ خُمُودِ البَشَرِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ لِلْبَشَرِيَّةِ بَقَاءٌ عِنْدَ ظُهُورِ سُلْطَانِ الحَقِيقَةِ.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ أَبِي الحُسَيْنِ النُّورِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: أَنَا مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً بَيْنَ الوَجْدِ وَالفَقْدِ، إِذَا وَجَدْتُ [١/١٢٠أ] رَبِّي فَقَدْتُ قَلْبِي، وَإِذَا وَجَدْتُ قَلْبِي فَقَدْتُ رَبِّي، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الجُنَيْدِ رَحِمَهُ اللهُ: عِلْمُ التَّوْحِيدِ مُبَايِنٌ لِوُجُودِهِ، وَوُجُودُهُ مُبَايِنٌ لِعِلْمِهِ.

وَفِي هَذَا المَعْنَى أَنْشَدُوا[(٣)]:

وُجُودِي أَنْ أَغِيبَ عَنِ الوُجُودِ ❁ بِمَا يَبْدُو عَلَيَّ مِنَ الشُّهُودِ

فَالتَّوَاجُدُ بِدَايَةٌ، وَالوُجُودُ نِهَايَةٌ، وَالوَجْدُ وَاسِطَةٌ بَيْنَ البِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: والوجودُ لا يكونُ إلَّا بعدَ خُمودِ البشريَّةِ؛ يعنِي: ذهابَهَا عن إحساسِهِ بهَا، وتلذُّذِهِ بمَا تبدُو عليهِ، فإنَّهُ ما دامَ مُدركًا لنفسِهِ مُتنعِّمًا بِوَجْدِهِ فبشريَّتُهُ حاصلةٌ، وإذا اشتغلَ باللهِ ـ تعالى ـ كمالَ الشُّغلِ حتَّى نَسِيَ في[(٤)] نفسِ شغلِهِ كونَهُ مشتغلًا، فصارَ الغالبَ عليهِ إدراكُ الحقِّ خاصَّةً عبَّرُوا بهذِهِ الحالةِ عنِ الوجودِ.

---

(١) في (ب): متواجدٌ، والصواب المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٦٢ ـ ١٦٣.

(٣) من الوافر، وورد بلا نسبة في: ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ١٨/١٨٤، ومدارج السالكين ٣/٤١٢.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

ومِنْ هذا مَا حُكِيَ عنِ النُّورِيِّ في قولِهِ: «إنَّ لهُ عشرينَ سنةً بينَ الوَجْدِ والفَقْدِ»، يعنِي: إنْ وجدَ ربَّهُ فَقَدَ قلبَهُ، وإنْ وجدَ قلبَهُ فقدَ ربَّهُ؛ يعنِي: أنَّهُ لا يصحُّ لهُ وجودُ الحقِّ إلَّا بعدَ غَفْلَتِهِ عن نفسِهِ وقَلْبِهِ بالكُلِّيَّةِ.

وأمَّا قَوْلُ الجُنيدِ: «عِلْمُ التَّوحيدِ مباينٌ لوجودِهِ، ووجودُهُ مباينٌ لعلمِهِ»، فمعنَاهُ: أنَّ الشَّخصَ يكونُ عالمًا بالوحدانيَّةِ والاستدلالِ بالآثارِ[١]، ولا يكونُ واجدًا للتَّوحيدِ، فإنَّ وجودَ التَّوحيدِ على هذا الاصطلاحِ لا يبقَى معَهُ إحساسٌ بنفسِهِ؛ فضلًا عن علمِهِ واستدلالِهِ على وحدانيَّتِهِ، فعلمُ التَّوحيدِ شيءٌ، ووجودُ التَّوحيدِ شيءٌ آخرُ على هذَا الاصطلاحِ[٢].

فخرجَ من مجموعِ ما تقدَّمَ أنَّ الوجودَ استغراقٌ في الحقِّ، والتَّواجدَ تطلُّبٌ لهُ، والوجدَ إدراكُ آثارِ الوجودِ، والتَّنعُّمُ بأماراتِ قُرْبِهِ وتيسيرِهِ، وبهذا الاعتبارِ كانَ واسطةً بينَ الطَّلبِ ووجودِ الأدبِ[٣]، وإليهِ يرجعُ الشِّعرُ في قولِهِ:

وُجُــودِي أَنْ أَغِيــبَ عَــنِ الوُجُــودِ

فسَمَّى الوجودَ بالحالةِ الَّتِي تغلبُ على قلبِهِ المُشاهدةُ فِي الحقِّ - سبحانه - حتَّى يغيبَ عنِ العالمِ، وهوَ الوجودُ الحادثُ الثَّانِي فِي البيتِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٤]: «وَسَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: التَّوَاجُدُ يُوجِبُ اسْتِيعَابَ العَبْدِ، وَالوَجْدُ يُوجِبُ اسْتِغْرَاقَ العَبْدِ، وَالوُجُودُ يُوجِبُ اسْتِهْلَاكَ العَبْدِ، فَهُوَ كَمَنْ [١/١٢٠ب] شَهِدَ البَحْرَ، ثُمَّ رَكِبَ البَحْرَ، ثُمَّ غرقَ فِي البَحْرِ.

---

(١) في (ج): والآثار.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٧٢.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٧٢.

(٤) الرسالة القشيرية ١/١٦٣.

وَتَرْتِيبُ هَذَا الأَمْرِ: قُصودٌ، ثُمَّ وُرُودٌ، ثُمَّ شُهُودٌ، ثُمَّ وُجُودٌ، ثُمَّ خُمُودٌ، وَبِمِقْدَارِ الوُجُودِ يَحْصُلُ الخُمُودُ.

وَصَاحِبُ الوُجُودِ لَهُ صَحْوٌ وَمَحْوٌ، فَحَالُ صَحْوِهِ بَقَاؤُهُ بِالْحَقِّ، وَحَالُ مَحْوِهِ فَنَاؤُهُ بِالحَقِّ، وَهَاتَانِ الحَالَتَانِ أَبَدًا مُتَعَاقِبَتَانِ عَلَيْهِ.

فَإِذَا غَلَبَ عَلَيْهِ الصَّحْوُ بِالحَقِّ فَبِهِ يَصُولُ، وَبِهِ يَقُولُ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا أَخْبَرَ عَنِ الحَقِّ ـ سبحانه ـ[١]: «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ)».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «التَّواجدُ يُوجبُ الاستيعابَ، والوجدُ يوجبُ الاستغراقَ، والوجودُ يوجبُ الاستهلاكَ»، إشارةٌ إلى انتقالِ أحوالِ الطَّالبِ بالوجودِ، ففِي استيعابِهِ لهُ أنَّهُ لا يبقى في قلبِهِ متَّسَعٌ لغيرِ مَطْلُوبِهِ، فإذا امتلأَ قلبُهُ بهِ واشتدَّ طلبُهُ لهُ ظهرَتْ آثارُهُ عليهِ، واستغرقَ قَلْبُهُ فيهِ، وهوَ كمالُ اشتغالِهِ بهِ، وظهورُ آثارِهِ عليهِ، وهوَ الوَجْدُ، فإذا قوِيَ وَجْدُهُ في طلبِ مقصودِهِ حتَّى اشتغلَ بهِ عن نفسِهِ، فصارَ هوَ الغالبَ على قلبِهِ حتَّى نسِيَ نفسَهُ ـ فضلًا عن غيرِهِ ـ عبَّرَ عنهُ بالاستهلاكِ؛ فأوَّلُهُ: استيعابٌ بالجهدِ، وثانيه: استغراقٌ في القَصْدِ، وثالثُهُ: كمالُ شُغْلٍ بالفردِ، وشبَّهَهُ بمَنْ رأى البحرَ وأهوالَهُ وَدَعَتْهُ حاجةٌ إلى رُكُوبِهِ، وأنَّ ما يُقدِمُ عليهِ بكمالِ جهدِهِ وامتلأَ قلبُهُ بنيلِ مقصودِهِ، فإذا ركبَهُ واختلفَتْ عليهِ أَمْوَاجُهُ قوِيَ عليهِ حالُهُ واشتدَّ أَمْرُهُ[٢]، فإذَا غرِقَ فيهِ زالَ عنهُ خَوفُهُ وقَلَقُهُ؛ لحصولِ المخوفِ واستغراقِهِ فيهِ، ولذلكَ قيلَ[٣]:

إِنَّمَا أَجْزَعُ مِمَّا أَتَّقِي ❊ فَإِذَا حَلَّ فَمَا لِي وَالجَزَعْ؟!

---

(١) أخرجه الترمذي في: نوادر الأصول ١/٢٦٥.

(٢) أي: قلقة.

(٣) من السريع، وورد بلا نسبة في: سراج الملوك ص١٠٠، والأجوبة العربية في شرح النصائح اليوسفية ص١٧٧.

فلمَّا حصلَ غريقًا في عُبابِهِ، نسيَ جميعَ ما تقدَّمَ من أسبابِهِ.

وصَاحبُ الوجودِ لا يخلو من أمرَينِ: من صَحْوٍ[١] ومَحْوٍ؛ فإذَا كانَ معَ الصَّحْوِ فبالحقِّ يصولُ، وبهِ يقولُ، فإذَا كانَ في مَحْوٍ غابَ عن نفسِهِ واستدلالِهِ بالخبرِ الصَّحيحِ: (كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ) استدلَّ على قولِهِ بهِ، فإنَّهُ باللهِ، وقد جاءَ في الخبرِ[٢]: «بِكَ أَصُولُ، وبكَ أقولُ»[٣]، وفي (الموطَّأ)[٤] من دعائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا قامَ منَ اللَّيلِ يقولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيُّومُ[٥] السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ».. وفي آخرِهِ: «بِكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ»، وَعِنْدَ النَّومِ: «بِكَ أَحْيَا وَبِكَ أَمُوتُ».

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٧]: وَقَفَ رَجُلٌ عَلَى الشِّبْلِيِّ فَسَأَلَهُ: هَلْ تَظْهَرُ آثَارُ صِحَّةِ الوُجُودِ عَلَى الوَاجِدِينَ؟ فَقَالَ: نُورٌ يُزْهِرُ[٨] مُقَارِنًا لِنِيرَانِ اشْتِيَاقٍ، فَتَلُوحُ عَلَى الهَيَاكِلِ آثَارُهَا، كَمَا قَالَ ابْنُ المُعْتَزِّ[٩]:

وَأَمْطَرَ الكَأْسُ مَاءً فِي أَبَارِقِهَا ❁ فَأَنْبَتَ الدُّرَّ فِي أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

---

(١) أي: إفاقة وانمحاق، والصحو هو: رجوع العارف إلى الإحساس بعد غيبته. انظر: عوارف المعارف ٢/٣١٩، ومعجم مصطلحات الصوفية ص١٤٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ١/١٥٠، والطبراني في المعجم الكبير ١١/٣٤٩.

(٣) أي: يكون حاله في الأفعال والأقوال بلسان الحق.

(٤) ١/٢١٥، وأخرجه أيضا الدارمي في سننه ١/٤١٥، وعبد الرزاق في مصنفه ٢/٧٨.

(٥) في (أ): قيم، وفي لفظ الموطأ «قيام»، والصواب المثبت.

(٦) الرسالة القشيرية ١/١٦٣ ـ ١٦٤.

(٧) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص١٩٦، وفيه: «قال: نعم، هو نور يزهر...».

(٨) أي: يشرق في السرائر ويضيء فيها.

(٩) من البسيط، في ديوانه ص٧٥ ـ ٧٦.

وَسَبَّحَ القَوْمُ لَمَّا أَنْ رَأَوْا عَجَبًا ✿ نُورًا مِنَ المَاءِ فِي نَارٍ مِنَ العِنَبِ
سُلَافَةٌ وَرِثَتْهَا عَادُ مِنْ[1] إِرَمٍ ✿ كَانَتْ ذَخِيرَةَ كِسْرَىٰ عَنْ أَبٍ فَأَبِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فأمَّا سؤالُ الشِّبْلِيِّ: «**هَلْ تظهرُ آثارُ الواجدِ علىٰ الحقيقةِ علىٰ ظاهرِهِ؟**» فأجابَ أنَّ الوجودَ نورٌ مُترتِّبٌ علىٰ نارِ شوقٍ، وذلكَ أنَّ العبدَ متىٰ قوِيَ اشتياقُهُ لمطلوبِهِ حتَّىٰ شغلَهُ ذلكَ عن نفسِهِ، إنَّمَا يكونُ ذلكَ لمَا ينيرُهُ اللهُ ويُطْلِعُهُ عليهِ منْ خفِيٍّ لُطْفِهِ بهِ وتقريبِهِ، فيظهرُ ذلكَ علىٰ وَجْهِهِ وبدنِهِ فيُكلَّمُ ولا يسمعُ وَيُمَرُّ بهِ ولا يشعرُ، ويظهرُ نورُ باطنِهِ علىٰ وجهِهِ وبدنِهِ وقتَ انفصالِهِ عنهُ؛ من تَمَلْمُلِهِ وانكسارِهِ، وجميلِ إشارتِهِ وكَمَالِ أَدَبِهِ.

هذهِ آثارُ مَا حصلَ في باطنِهِ ممَّا وجدَهُ من فضْلِ ربِّهِ، وما ذكرَهُ الإمامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من هذا التَّمثيلِ إنَّمَا قصدَ بهِ لطافةَ ما وجدَهُ وكمالَ ضيائِهِ وحسنَ ما شاهدَهُ في كمالِ لطافتِهِ ودقَّتِهِ وحسنِ ضيائِهِ وكمالِ نورِهِ في محلِّهِ، وشبَّهَهُ بمَا لا حاجةَ لهُ فيهِ إلىٰ تشبيهِهِ بهِ؛ من ذكْرِ الخمرِ وكمالِ وصْفِهَا واستحسانِهَا، وأنَّهَا مدَّخرةٌ أبًا عن أبٍ، فلذلكَ لطُفَتْ وحسُنَتْ، وهذا ممَّا لوْ أمكنَ إزالتُهُ أَزَلْتُهُ لاستغنائِهِ عنهُ بغيرِهِ وتطهيرِ كتابِهِ منهُ ومِنْ ذكْرِهِ ومِنْ[2] أَمْثَالِهِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[3]: «**وَقِيلَ لِأَبِي بَكْرٍ الدُّقِّيِّ: إِنَّ جَهْمًا الدُّقِّيَّ أَخَذَ شَجَرَةً بِيَدِهِ فِي حَالِ السَّمَاعِ فِي ثَوَارَنِه، فَقَلَعَهَا مِنْ أَصْلِهَا، فَاجْتَمَعَا فِي دَعْوَةٍ، وَكَانَ الدُّقِّيُّ كُفَّ بَصَرُهُ، فَقَامَ جَهْمُ الدُّقِّيُّ يَدُورُ فِي هَيَجَانِه، فَقَالَ الدُّقِّيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِذَا قَرُبَ مِنِّي أَرُونِيهِ، وَكَانَ الدُّقِّيُّ ضَعِيفًا، فَلَمَّا قَرُبَ مِنْهُ قَالُوا لَهُ:** [١/١٢١ب] **هَذَا**

(١) في (ج): مع.
(٢) سقط هذا اللفظ من (ج).
(٣) الرسالة القشيرية ١/١٦٤.

هُوَ، فَأَخَذَ الدُّقِّيُّ سَاقَ جَهْمٍ فَوَقَفَهُ، فَلَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يَتَحَرَّكَ، فَقَالَ جَهْمٌ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، التَّوْبَةَ التَّوْبَةَ؛ فَخَلَّاهُ.

قَالَ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَكَانَ ثَوَرَانُ جَهْمٍ فِي حَقٍّ، وَإِمْسَاكُ الدُّقِّيِّ لِسَاقِهِ بِحَقٍّ، وَلَمَّا عَلِمَ جَهْمٌ أَنَّ حَالَ الدُّقِّيِّ فَوْقَ حَالِهِ، رَجَعَ إِلَى الإِنْصَافِ وَاسْتَسْلَمَ، وَكَذَا مَنْ كَانَ بِحَقٍّ لَا يَسْتَعْصِي عَلَيْهِ شَيْءٌ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ تدلُّ على أنَّ جَهْمًا لمَّا كانَ حالُهُ قويًّا حتَّى قلعَ الشَّجرةَ بأصلِهَا في وقتِ ثَورانِهِ في بعضِ الأحوالِ وشاعَ ذلكَ عنهُ، فحصلَ لهُ امتيازُهُ[1] بقوَّةِ حالِهِ، فلمَّا حضرَ في هذا السَّماعِ وقامَ لغلبَةِ حَالِهِ يدورُ فربَّمَا وجدَ فِي نفسِهِ استحسانًا لكمالِ حالِهِ وقوَّتِهِ، فأوقعَ اللهُ في نفسِ الدُّقِّيِّ معَ ضعْفِهِ فِي بدَنِهِ أنْ يُعجزَ جهمًا ليرجعَ عنْ زهْوِهِ[2] ويتأدَّبَ فِي نَفْسِهِ، فأمرَهُمْ إذا مرَّ جهمٌ بهِ أنْ يُشيروا إليهِ، فلمَّا مرَّ بهِ في هيجانِهِ أمسكَ الدُّقِّيُّ ـ معَ ضعفِهِ ـ على ساقِ جهْمٍ فوقفَ عن حالِهِ، فلذلكَ قالَ: «**التَّوبةَ التَّوبةَ**»؛ لِمَا وقعَ في نفسِهِ منِ استحسانِ حَالِهِ، فقولُ الإمامِ: «**وكذلكَ كلُّ مَنْ كانَ حالُهُ بحقٍّ لا يستعصِي عليهِ شيءٌ**»، يعنِي: أنَّ الفاعلَ فيهِ هوَ اللهُ، فلَا يقومُ لعظمةِ اللهِ شيءٌ، فخرجَ من ذلكَ أنَّ قيامَ جهمٍ فِي حقٍّ وإمساكَ الدُّقِّيِّ بحقٍّ، وإنَّمَا كانَ إمساكُ الدُّقِّيِّ لجهْمٍ أدبًا في حقِّهِ لِمَا خطرَ لهُ فِي أثناءِ دورانِهِ، ولذلكَ قالَ لهُ: «**التَّوبةَ التَّوبةَ**»، واللهُ أعلمُ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: **«وَأَمَّا إِذَا كَانَ الغَالِبُ عَلَيْهِ المَحْوَ فَلا عِلْمَ وَلَا عَقْلَ، وَلَا فَهْمَ وَلَا حِسَّ.**

---

(١) في (ب): امتياز، والأصح المثبت.

(٢) في (ب): زهره، والصواب المثبت.

(٣) الرسالة القشيرية ١/١٦٤ ـ ١٦٥.

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَذْكُرُ بِإِسْنَادِهِ أَنَّ أَبَا عِقَالٍ المَغْرِبِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١) أَقَامَ بِمَكَّةَ أَرْبَعَ سِنِينَ لَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ إِلَىٰ أَنْ مَاتَ.

وَدَخَلَ بَعْضُ الْفُقَرَاءِ عَلَىٰ أَبِي عِقَالٍ فَقَالَ لَهُ: سَلامٌ عَلَيْكُمْ، فَقَالَ أَبُو عِقَالٍ: وَعَلَيْكُمُ السَّلامُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَنَا فُلانٌ، فَقَالَ أَبُو عِقَالٍ: أَنْتَ فُلانٌ؟ كَيْفَ أَنْتَ؟ وَكَيْفَ حَالُكَ؟ وَغَابَ عَنْ حَالَتِهِ، قَالَ هَذَا الرَّجُلُ: فَقُلْتُ لَهُ: سَلامٌ عَلَيْكُمْ؛ فَقَالَ: عَلَيْكَ السَّلامُ، كَأَنَّهُ لَمْ يَرَنِي قَطُّ، فَقُلْتُ: أَنَا فُلانٌ، فَقَالَ: أَنْتَ فُلانٌ؟ كَيْفَ أَنْتَ؟ وَكَيْفَ أَنْتَ(٢)؟ وَغَابَ كَأَنَّهُ لَمْ يَرَنِي، فَفَعَلْتُ مِثْلَ هَذَا غَيْرَ مَرَّةٍ، فَعَلِمْتُ أَنَّ الرَّجُلَ غَائِبٌ، فَتَرَكْتُهُ وَخَرَجْتُ.

وَسَمِعْتُ مُحَمَّدَ [١/١٢٢أ] بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ امْرَأَةَ أَبِي عَبْدِ اللهِ التُّرُوغَبذِيِّ تَقُولُ: لَمَّا كَانَتْ أَيَّامُ الْمَجَاعَةِ وَالنَّاسُ يَمُوتُونَ مِنَ الْجُوعِ دَخَلَ أَبُو عَبْدِ اللهِ التَّرُوغَنْدِي بَيْتَهُ، فَرَأَىٰ فِي بَيْتِهِ مِقْدَارَ مَنَوَيْنِ حِنْطَةً، فَقَالَ: النَّاسُ يَمُوتُونَ مِنَ الْجُوعِ وَفِي بَيْتِي حِنْطَةٌ! فَخُولِطَ فِي عَقْلِهِ، فَمَا كَانَ يُفِيقُ إِلَّا فِي أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ، يُصَلِّي الفَرِيضَةَ ثُمَّ يَعُودُ إِلَىٰ حَالَتِهِ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ إِلَىٰ أَنْ مَاتَ.

دَلَّتْ هَذِهِ الحِكَايَةُ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَانَ مَحْفُوظًا، عَلَيْهِ آدَابُ الشَّرِيعَةِ عِنْدَ غَلَبَاتِ أَحْكَامِ الحَقِيقَةِ، وَهَذَا هُوَ صِفَةُ أَهْلِ الحَقِيقَةِ، ثُمَّ كَانَ سَبَبَ غَيْبَتِهِ عَنْ تَمْيِيزِهِ شَفَقَتُهُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ، وَهَذِهِ أَقْوَىٰ سِمَةٍ لِتَحَقُّقِهِ فِي حَالِهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَمَّا قضيَّةُ أَبِي عِقَالٍ فإنَّهُ أقامَ أربعَ سنينَ لمْ يأكلْ

---

(١) هو: عقال بن علوان القيرواني الزاهد، من قدماء مشايخ المغرب، صحب أبا هزان الأندلسي، وجاور بمكة اثنتي عشرة سنة، وكان يسمَّىٰ حمامة الحرم؛ لملازمته المقام فيه، وله حكايات عجيبة في الزهد والجوع. انظر في ترجمته: اللباب في تهذيب الأنساب ٣/٦٩.

(٢) في (ف): كنت.

ولمْ يشربْ حتَّىٰ ماتَ وهذَا منْ خرْقِ العاداتِ، ولمْ يكنْ موتُهُ منَ الجوعِ، فإنَّهُ لوْ كانَ منَ الجوعِ لماتَ بدونِ ذلكَ، ولوْ كانَ في معلومِ اللهِ أنَّهُ يعيشُ أكثرَ منْ ذلكَ لبقِيَ بلا أكْلٍ ولخَرَقَ العادةَ لهُ، فقولُهُ: «لمْ يأكُلْ ولمْ يشربْ» قدْ يحتملُ أنَّهُ لم يأكلْ منَ المعتادِ ولا شربَ الماءَ، وكانَ يغتذِي بغيرِ الأطعمَةِ، وهذَا أوانٌ احتملَ فيهِ بُعْدٌ، فإنَّهُمْ إنَّمَا أوردُوا ما أوردُوهُ منِ امتناعِهِ منَ الأكلِ والشُّربِ علىٰ وجْهِ الفضيلةِ، وإلَّا لوِ اغتذَىٰ بغيرِهِ لسَاوىٰ غيرَهُ منَ النَّاسِ.

والدَّليلُ علىٰ كَونِهِ منَ الخوارِقِ: دوامُ استغراقِهِ وتوالِي ذلكَ عليهِ كمَا تضمنَتْهُ الحكايةُ في غيبتِهِ وحضورِهِ، فكانَ غذاؤُهُ كمالَ شغلِهِ وذكْرَهُ لربِّهِ واستغراقَهُ فيهِ، كمَا قالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا قيلَ لهُ: إنَّكَ تُواصِلُ، قالَ[1]: «**لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنَّ لِي طَاعِمًا يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي**».. الحديث.

وهذَا التُّروَغبَذِي[2] إنَّمَا كانَ غضبُهُ علىٰ نفسِهِ حتَّىٰ خُولِطَ في عقلِهِ لشدَّةِ ما دخلَ عليهِ بسببِ حِرْصِهِ علىٰ الطَّعامِ فِي وَقْتِ الاحتياجِ إليهِ، وكانَ حقُّهُ أنْ يخرجَهُ ويدَعَ منهُ قُوتَهُ الأيَّامَ اليسيرةَ ويُخرجَ الفَاضِلَ عن ذلكَ، فإنْ لمْ يفعلْ وجدَ ألمَ ذلكَ وغضبَ علىٰ نفسِهِ واشتدَّ ألمُهُ حتَّىٰ خُولِطَ في عقْلِهِ، وربَّمَا جَاعَ أيَّامًا وحدثَ لهُ بسببِ الجوعِ هذَا الاختلاطُ، وكونُهُ يحفظُ فِي أوقاتِ الصَّلواتِ دليلٌ علىٰ أنَّ ما هوَ فيهِ من جملةِ الكرامةِ[3]، ولمْ يكنْ عقوبةً، وإنَّمَا كانَ اختلاطُهُ غِيْبَةً وشغلًا، وتظافرَتِ [١٢٢/١ب] الحكاياتُ الثَّلاثُ علىٰ أحدِ حالَي صاحبِ الوجودِ؛ وهمَا الصَّحوُ والمَحْوُ، وهذَا هوَ المحوُ؛ أعنِي: الاستغراقَ بالكلِّيَّةِ، ومنْ كَمَالِ الاستغراقِ حفظُ المستغرقِ حتَّىٰ يردَ إلىٰ إقامةِ فَرْضِهِ، ثمَّ يُردُّ إلىٰ ما كانَ فيهِ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في الأنساب ٤٦٢/١: «هذه النسبة إلىٰ تروغبذ؛ وهي قرية من قُرىٰ طوس».

(٣) في (ب): الكرامات.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَمِنْ ذَلِكَ (الجَمْعُ وَالفَرْقُ)(٢):

لَفْظُ (الجَمْعِ وَالتَّفْرِقَةِ) يَجْرِي فِي كَلَامِهِمْ كَثِيرًا.

وَكَانَ الأُسْتَاذُ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَّاقُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: الفَرْقُ: مَا نُسِبَ إِلَيْكَ، وَالجَمْعُ: مَا سُلِبَ عَنْكَ.

وَمَعْنَاهُ: أَنَّ مَا يَكُونُ كَسْبًا لِلْعَبْدِ؛ مِنْ إِقَامَةِ العُبُودِيَّةِ، وَمَا يَلِيقُ بِأَحْوَالِ البَشَرِيَّةِ فَهُوَ فَرْقٌ، وَمَا يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الحَقِّ؛ مِنْ إِبْدَاءِ مَعَانٍ، وَإِسْدَاءِ لُطْفٍ وَإِحْسَانٍ فَهُوَ جَمْعٌ.

هَذَا أَدْنَى أَحْوَالِهِمْ فِي الجَمْعِ وَالفَرْقِ؛ لِأَنَّهُ فِي شُهُودِ الأَفْعَالِ.

فَمَنْ أَشْهَدَهُ الحَقُّ ـ سبحانه ـ أَفْعَالَهُ مِنْ طَاعَاتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ فَهُوَ عَبْدٌ بِوَصْفِ التَّفْرِقَةِ، وَمَنْ أَشْهَدَهُ الحَقُّ ـ سبحانه ـ مَا يُولِيهِ مِنْ أَفْعَالِ نَفْسِهِ ـ سبحانه ـ فَهُوَ عَبْدٌ بِشَاهِدِ الجَمْعِ.

فَإِثْبَاتُ الخَلْقِ مِنْ بَابِ التَّفْرِقَةِ، وَإِثْبَاتُ الحَقِّ مِنْ نَعْتِ الجَمْعِ.

وَلَابُدَّ لِلْعَبْدِ مِنَ الجَمْعِ وَالفَرْقِ، فَإِنَّ مَنْ لَا تَفْرِقَةَ لَهُ لَا عُبُودِيَّةَ لَهُ، وَمَنْ لَا جَمْعَ لَهُ لَا مَعْرِفَةَ لَهُ، فَقَوْلُهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى الفَرْقِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] إِشَارَةٌ إِلَى الجَمْعِ.

وَإِذَا خَاطَبَ العَبْدُ الحَقَّ ـ سبحانه ـ بِلِسَانِ نَجْوَاهُ؛ إِمَّا سَائِلًا، أَوْ دَاعِيًا، أَوْ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٦٦ ـ ١٦٨.

(٢) انظر في هذا المصطلح: تهذيب الأسرار ص٤٣٨، وعبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص٥٦، وعوارف المعارف ٢/٣١٦، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٦٧، ١٥٣، ٣٧٧، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٢٠٥.

مُثْنِيًا، أَوْ شَاكِرًا، أَوْ مُتَنَصِّلًا، أَوْ مُبْتَهِلًا، قَامَ فِي مَحَلِّ التَّفْرِقَةِ.

وَإِذَا أَصْغَىٰ[١] بِسِرِّهِ إِلَىٰ مَا يُنَاجِيهِ مَوْلَاهُ، وَاسْتَمَعَ بِقَلْبِهِ مَا يُخَاطِبُهُ بِهِ فِيمَا نَادَاهُ، أَوْ نَاجَاهُ، أَوْ عَرَّفَهُ مَعْنَاهُ، أَوْ لَوَّحَ لِقَلْبِهِ وَأَرَاهُ، فَهُوَ بِشَاهِدِ الجَمْعِ[٢].

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: أَنْشَدَ قَوَّالٌ بَيْنَ يَدَيِ الأُسْتَاذِ أَبِي سَهْلٍ الصُّعْلُوكِيِّ ـ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ ـ[٣]:

.... جَعَلْتُ تَنَزُّهِي نَظَرِي إِلَيْكَا

وَكَانَ أَبُو القَاسِمِ النَّصْرَابَاذِي رَحِمَهُ اللَّهُ حَاضِرًا، فَقَالَ الأُسْتَاذُ أَبُو سَهْلٍ: جَعَلْتَ ـ بِنَصْبِ التَّاءِ ـ، فَقَالَ النَّصْرَابَاذِي: بَلْ جَعَلْتُ ـ بِضَمِّ التَّاءِ ـ، فَقَالَ الأُسْتَاذُ أَبُو سَهْلٍ: أَلَيْسَ عَيْنُ[٤] الجَمْعِ أَتَمَّ[٥]؟! فَسَكَتَ النَّصْرَابَاذِي.

وَسَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَحْكِي هَذِهِ الحِكَايَةَ عَلَىٰ هَذَا الوَجْهِ.

وَمَعْنَىٰ هَذَا: أَنَّ مَنْ قَالَ: (جَعَلْتُ) بِضَمِّ التَّاءِ يَكُونُ إِخْبَارًا عَنْ حَالِ نَفْسِهِ، فَكَأَنَّ العَبْدَ يَقُولُ هَذَا، وَإِذَا قَالَ: (جَعَلْتَ) بِالفَتْحِ فَكَأَنَّهُ يَتَبَرَّأُ مِنْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِتَكَلُّفِهِ، بَلْ يُخَاطِبُ مَوْلَاهُ فَيَقُولُ: أَنْتَ الَّذِي [١/١٢٣أ] خَصَصْتَنِي بِهَذَا، لَا[٦] أَنَا بِتَكَلُّفِي.

فَالأَوَّلُ عَلَىٰ خَطَرِ الدَّعْوَىٰ، وَالثَّانِي بِوَصْفِ التَّبَرِّي مِنَ الحَوْلِ، وَالإِقْرَارِ

---

(١) في (ب): صفىٰ.

(٢) لما غلب علىٰ قلبه من فعل ربه به.

(٣) من الوافر، ونسب إليه في: سير أعلام النبلاء ١٦/٢٣٨، وتاريخ الإسلام ٢٦/٤٢٥، وإحكام الدلالة ١/٢٧٨.

(٤) في تاريخ الإسلام: يمين الجمع.

(٥) أي: أكمل من الحمل علىٰ عين الفرق.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

بِالفَضْلِ وَالطَّوْلِ، وَفَرْقٌ بَيْنَ مَنْ يَقُولُ: بِجُهْدِي أَعْبُدُكَ، وَبَيْنَ مَنْ يَقُولُ: بِفَضْلِكَ وَلُطْفِكَ أُشْهِدُكَ.

وَجَمْعُ الجَمْعِ فَوْقَ هَذَا».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **الجمعُ**: مأخوذٌ من جمعِ الهمَّةِ على الحقِّ ـ سبحانه ـ.

والتَّفرقةُ: مأخوذةٌ من مشاهدةِ الأغيارِ معَ الحقِّ، فمتَى كانَ العبدُ ناظرًا لأفعالِهِ، موقعًا لهَا علىٰ حسبِ ما طُلِبَ منهُ، متقرِّبًا بها إلىٰ ربِّهِ كانَ منعوتًا بوصفِ الفرقِ، أيْ: نظرُهُ مفرَّقٌ بينَ العابدِ والمعبودِ، والمُطِيعِ والمُطَاعِ، ومتَىٰ اجتمعَتْ همَّتُهُ ونظرُهُ علىٰ انفرادِ الحقِّ ـ سبحانه ـ بسائرِ الأفعالِ الجاريةِ عليهِ وعلىٰ غيرِهِ في عمومِ الأحوالِ كانَ بوصفِ الجمعِ، أيْ: مجموعِ الهمَّةِ علىٰ الفاعلِ، ومتىٰ كانَ العبدُ ناظرًا لفضلِ مَولاهُ، وهوَ محلٌّ لجريانِ إحسانِهِ عليهِ فيمَا أسبَغَهُ عليهِ ووالَاهُ، متبرِّئًا من إضافةِ ذلكَ إلىٰ كسْبِهِ وتقوَاهُ، كانَ بوصْفِ الجمعِ.

ومتىٰ كانَ مجتهدًا في تحصيلِ ما أمرَهُ بهِ، ومتَّقيًا لمَا عنهُ نهاهُ، متحمِّلًا في ذلكَ شديدَ الجهدِ خائفًا منْ إخلالِهِ بشيءٍ ممَّا نوَاهُ، كانَ بوصفِ التَّفرقةِ، ولذلكَ أشارَ القرآنُ ـ واللهُ أعلمُ ـ بقولِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إشارةً إلىٰ العابدِ والمعبودِ، وهذا وصفُ التَّفرقةِ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تبريءٌ منَ الحَوْلِ والقوَّةِ إلَّا بهِ، وهذا وصفُ الجمعِ، وعلىٰ هذا المثالِ تجرِي سائرُ أقوالِهِمْ، في إطلاقِ (الجمعِ والتَّفرقةِ) في الأحوالِ[١].

وقولُهُ: «**وَلَا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنَ الجَمْعِ وَالفَرقِ**»، يعنِي: في سُلُوكِهِ لِمَولَاهُ، فإنَّهُ إنْ تَوَالَىٰ عليهِ وصفُ التَّفرقةِ واستحسنَ[٢] أعمالَهُ خُشِيَ عليهِ العُجبُ والإدلالُ، وإنْ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٧٧.

(٢) في (ب): فاستحسن.

فعلَ ذلكَ بوصْفِ الجمعِ تبرَّأَ من حَوْلِهِ وقوَّتِهِ وأضافَ ذلكَ إلى الكبيرِ المتعالِ، فعلى هذا لا تسلمُ لهُ طاعاتُهُ، ويتعالَى فِي درجاتِهِ إلَّا بالجمعِ والتَّفرقةِ معًا، وإنْ كانَ وقتًا بوصفِ التَّفرقةِ وسلمَ منَ الآفاتِ في الأعمالِ، أو كانَ وقتًا بوصفِ الجمعِ وسلمَ من إهمالِ نفسِهِ واعتمدَ بزعْمِهِ على الكرمِ والإفضالِ خُشِيَ عليهِ الإهمالُ.

ونوعٌ آخرُ منَ الجمعِ أرفعُ ممَّا ذكرْناهُ؛ وهوَ أنَّ العبدَ إذا كانَ داعيًا أو سائلًا أو شاكرًا، أو متضرِّعًا، وإنْ كانَ يراهُ فضْلًا عليهِ منْ [١/١٢٣ب] مولَاهُ، فهوَ بواسطةِ التَّفرقةِ لكونِهِ يرى نفسَهُ داعيًا وشاكرًا وسائلًا، وإنْ كانَ في مناجاتِهِ لمولَاهُ مُصْغِيًا لمَا يوردُهُ عليهِ من نجوَاهُ، أو يخاطبُهُ(١) بهِ في سرِّهِ ويلهمُهُ منْ أدبِهِ معَهُ في تقوَاهُ، وينبِّهُهُ عمَّا يطرقُ من غَفلاتِهِ، ويُرَقِّيهِ فيهِ من سيِّئِ حالاتِهِ، فهوَ بوصفِ الجمعِ بما غلبَ على قلبِهِ من فعلِ مولَاهُ، وكونِهِ محلًا لجريانِ لطفِهِ بهِ وبرِّهِ.

وعلى هذا النَّوعِ منَ الجمعِ والفَرقِ أوردَ الإمامُ الحكايةَ عن أبِي سهلٍ الصُّعلُوكيِّ والنَّصراباذِيِّ لمَّا أنشدَ القوَّالُ بينَ أيديهِمَا:

جَعلْـتُ تَنَزُّهِـي نَظَـرِي إِلَيْكَـا ... ...

أوردَهُ بتاءِ المتكلِّمِ، فقالَ أبو سهلٍ الصُّعلوكيُّ: (جعلتَ) ـ بتاءِ المخاطبِ، فقالَ أبو القاسمِ النَّصراباذِي: بلْ (جعلتُ) موافقةً لما أنشدَهُ المنشدُ، فقالَ الأستاذُ أبو سهلٍ: أليسَ عينُ الجمعِ أتمَّ؟ أيْ: نسبةُ الأفعالِ إلى اللهِ أتمُّ منْ نسبتِهَا إلى العبدِ، فسلَّمُوا لهُ ذلكَ واعترفُوا بفضيلةِ ما قالَ، وذلكَ أنَّ (جعلتُ) إشارةٌ إلى الكسبِ، و(جعلتَ) إشارةٌ إلى الفضْلِ، وشتَّانَ بينَ ما حصلَ بالجدِّ المكتسبِ، وما حصلَ بالفضلِ من غيرِ طلبٍ.

وسَيأْتِي الكلامُ على (جمعِ الجمعِ) الَّذِي هوَ أعلَى من هذَا.

---

(١) في (ب، ج): ويخاطبه.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَيخْتَلِفُ النَّاسُ فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ عَلَىٰ حَسبِ تَبايُنِ أَحْوَالِهِمْ وَتَفَاوُتِ دَرَجَاتِهِمْ:

فَمَنْ أَثْبَتَ نَفْسَهُ، وَأَثْبَتَ الخلقَ، وَلَكِنْ شَاهَدَ الكُلَّ قَائِمًا بِالحَقِّ، فَهَذا هُوَ جَمْعٌ.

وَإِذَا كَانَ مُخْتَطَفًا عَنْ شُهُودِ الخَلْقِ، مُصْطَلَمًا عَنْ نَفْسِهِ، مَأْخُوذًا بِالكُلِّيَّةِ عَنِ الإِحْسَاسِ بِكُلِّ [عَيْنِ اعتبارٍ][٢] بِمَا ظَهَرَ وَاسْتَوْلَىٰ مِنْ سُلْطَانِ الحَقِيقَةِ، فَذاكَ جَمْعُ الجَمْعِ.

وَالتَّفْرِقَةُ: شُهُودُ الأَغْيَارِ للَّهِ ـ تعالىٰ ـ، وَالجَمْعُ: شُهُودُ الأَغْيَارِ بِاللهِ، وَجَمْعُ الجَمْعِ: الاِسْتِهْلَاكُ بِالكُلِّيَّةِ؛ وَفَنَاءُ الإِحْسَاسِ بِمَا سِوَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ عِنْدَ غَلَبَاتِ الحَقِيقَةِ.

وَبَعْدَ هَذَا حَالٌ[٣] عَزِيزَةٌ يُسَمِّيهَا القَوْمُ: الفَرقَ الثَّانِي؛ وَهُوَ أَنْ يُرَدَّ إِلَىٰ الصَّحْوِ عِنْدَ أَوْقَاتِ أَدَاءِ الفَرَائِضِ، لِيَجْرِيَ عَلَيْهِ القِيَامُ بِالفَرَائِضِ فِي أَوْقَاتِهَا، فَيَكُونَ رُجُوعًا للَّهِ بِاللهِ، لَا لِلْعَبْدِ بِالعَبْدِ، [فَالعَبْدُ][٤] يُطَالِعُ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الحَالَةِ فِي تَصْرِيفِ الحَقِّ، يَشْهَدُ مُبْدِئَ ذَاتِهِ وَعَيْنِهِ بِقُدْرَتِهِ، وَمُجْرِي أَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ عَلَيْهِ بِعِلْمِهِ وَمَشِيئَتِهِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومعنىٰ جَمْعِ الجَمْعِ ـ الَّذِي هوَ فوقَ الجَمْعِ ـ: أنَّ العبدَ متىٰ شَاهدَ نفسَهُ وغيرَهُ منَ المخلوقينَ [١٢٤/١أ] في تصرُّفاتِهِمْ، فهوَ بعينِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٦٨.
(٢) زيادة من (ف).
(٣) في (ف): حالة.
(٤) زيادة من (ف).

التَّفرقةِ، وإنْ شاهدَ نفسَهُ محلًا لمَا يجريهِ الحقُّ عليه فهوَ بعينِ الجمعِ، وإنْ كمُلَ استغراقُهُ بالحقِّ حتَّىٰ غفلَ عن نفسِهِ وغيرِهِ شغلًا باللهِ، فهو جمعُ الجمعِ، فمَنْ كانَتْ أفعالُهُ للهِ وشاهَدَ إيقاعَهُ لهَا طاعةً للهِ، فهوَ بعينِ التَّفرقةِ، ومَنْ شاهدَهَا جاريةً عليهِ فضلًا منَ اللهِ فقد رآهَا باللهِ فهوَ عينُ الجمعِ، ومَنْ غفلَ عن نفسِهِ وعن عملِهِ شغلًا باللهِ واستهلاكًا في حبِّ اللهِ فهوَ فِي جمعِ الجمعِ.

وعلىٰ هذا التَّرتيبِ يَتَفَاوتُ النَّاسُ في مَقَامَاتِهِم في التَّفرقةِ والجمعِ، وجمعِ الجمعِ، ثمَّ بعدَ جمعِ الجمعِ حالةٌ شريفةٌ سمَّوهَا الفرقَ الثَّانِي، وإنَّمَا كانَ فرقًا ثانيًا بالنِّسبةِ للتَّفرقةِ الأولىٰ، فإنَّ التَّفرقةَ الأولىٰ وقوفٌ[١] معَ أحوالِهِ وأعمالِهِ، وإيقاعُهَا طاعةٌ لوجهِ ربِّهِ، والفرقَ الثَّانِي أنَّ العبدَ إذا اصطلمتْهُ شواهدُ العزَّةِ واصطُلِمَ وذهبَ عن إحساسِهِ بنفسِهِ بالكلِّيَّةِ شغلًا بربِّهِ ـ تعالىٰ ـ عن غيرِهِ، فإذا حضرَ وقتُ صلاةٍ واجبةٍ أو فرضٌ لربِّهِ عليهِ، فمِنْ كمالِ حالِهِ أنْ يردَّهُ الحقُّ إلىٰ نفسِهِ ليوقعَ فرضَ ربِّهِ عليهِ فِي وقتِهِ، ثمَّ يرجعُ إلىٰ ما كانَ فيهِ من حالِهِ، فسمَّوا هذا فرقًا ثانيًا؛ لرجوعِهِ إلىٰ إحساسِهِ وإيقاعِهِ طاعةَ ربِّهِ قربةً لهُ، وإنَّمَا كانَتْ هذهِ حالةً عزيزةً شريفةً لكمالِ حفظِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لمَنْ أوصلَهُ ـ تعالىٰ ـ إليهِ وحفظَ وقتَهُ عليهِ، ولو دامَ استغراقُهُ في حالاتِهِ ولمْ يُردَّ إلىٰ نفسِهِ لكانَ معذُورًا عندَ ربِّهِ، ولمْ يكنْ آثمًا فيمَا[٢] هوَ مغلوبٌ عليهِ فيهِ، ولكنَّ رجوعَهُ إلىٰ القيامِ بهِ زيادةُ فضيلةٍ لهُ عندَ ربِّهِ وفضْلٌ وحفظٌ لهُ في درجتِهِ[٣].

وقولُهُ: «**يكونُ رجوعُهُ للهِ باللهِ لَا لِلعَبْدِ بالعبدِ**» أيْ: يكونُ رجوعُهُ لطاعةِ اللهِ راءٍ فضلَ اللهِ؛ لأنَّ العبدَ يُردُّ إلىٰ نفسِهِ حتَّىٰ يفارقَ ما كانَ فيهِ منَ الجمعِ ويُوقعَ

---

(١) في (ج): وقوع.

(٢) في (ب): بما.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٨٠.

طاعتَهُ للهِ فيكونَ قدْ رجعَ إلىٰ الفرقِ الأوَّلِ، وفرقٌ بينَ أنْ يدركَ عبادَتَهُ بنفسِهِ وهوَ مدركٌ لهَا وبينَ أنْ يدركَ نفسَهُ في عبادتِهِ مصرِّفًا فيها مفعولًا بهَا، وهوَ في الفرقِ الثَّانِي لمْ يخرجْ من جمعِ الجمعِ إلىٰ التَّفرقةِ، بلْ رُدَّ إلىٰ الجمعِ، بخلافِ التَّفرقةِ الأولَىٰ، وهوَ رجوعُهُ إلىٰ نفسِهِ وإدراكُهُ عملَهُ بنفسِهِ خُرُوجًا عنِ الجَمْعِ بالكلِّيَّةِ.

❁ قالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: «وَأَشَارَ بَعْضُهُمْ [١/١٢٤ب] بِلَفْظِ (الجَمْعِ وَالفرقِ) إِلَىٰ تَصْرِيفِ الحَقِّ جَمِيعَ الخَلْقِ، فَجَمَعَ الكُلَّ فِي التَّقْلِيبِ وَالتَّصْرِيفِ مِن حَيْثُ إِنَّهُ مُنْشِئُ ذَوَاتِهِم وَمُجْرِي صِفَاتِهِمْ، ثُمَّ فَرَّقَهُمْ فِي التَّنْوِيعِ، فَفَرِيقًا أَسْعَدَهُمْ، وَفرِيقًا أَبْعَدَهُمْ وَأَشْقَاهُمْ، وَفَرِيقًا هَدَاهُمْ، وَفَرِيقًا أَضَلَّهُمْ [وَأَعْمَاهُمْ][2]، وَفرِيقًا حَجَبَهُمْ، وَفَرِيقًا جَذَبَهُمْ، وَفَرِيقًا آنَسَهُمْ بِوَصْلَتِهِ، وَفَرِيقًا آيَسَهُمْ[3] مِنْ رَحْمَتِهِ، وَفَرِيقًا أَكْرَمَهُم بِتَوْفِيقِهِ، وَفَرِيقًا اِصْطَلَمَهُمْ[4] عِنْدَ رُؤْيَتِهِم لِتَحْقِيقِهِ، وَفَرِيقًا أَصْحَاهُمْ، وَفَرِيقًا مَحَاهُمْ، وَفَرِيقًا [هَدَاهُمْ، وَفَرِيقًا][5] قَرَّبَهُمْ، وَفَرِيقًا غَيَّبَهُمْ، وَفَرِيقًا أَدْنَاهُمْ وَأَحْضَرَهُمْ، ثُمَّ سَقَاهُمْ فَأَسْكَرَهُمْ، وَفَرِيقًا أَشْقَاهُمْ وَأَخَّرَهُمْ، ثُمَّ أَقْصَاهُمْ وَهَجَرَهُمْ.

وَأَنْوَاعُ أَفْعَالِهِ لَا يُحِيطُ بِهَا حَصْرٌ، وَلَا يَأْتِي عَلَىٰ تَفْصِيلِهَا شَرْحٌ وَذِكْر.

وَأَنْشَدُوا لِلجُنَيْدِ[6] رَحِمَهُ اللهُ فِي مَعْنَىٰ (الجَمْعِ وَالتَّفْرِقَةِ)[7]:

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٦٨ ـ ١٦٩.
(٢) زيادة من (ف).
(٣) في (ب): آياسهم.
(٤) في (ب): اصطلم.
(٥) زيادة من (ف).
(٦) في (ب): وأنشد الجنيد.
(٧) من الرمل، ونسبت للحلاج في: تاريخ بغداد ٨/١١٥، ومرآة الزمان في تواريخ الأعيان ١٦/٤٨٢، ووردت بلا نسبة في: اللمع في التصوف ص٨٤، وتفسير السلمي ٢/٣٠٢.

وَتَحَقَّقْتُكَ فِي سِرِّي فَنَاجَاكَ لِسَانِي ❊
فَاجْتَمَعْنَا لِمَعَانٍ[١] وَافْتَرَقْنَا لِمَعَانِي[٢] ❊
إِنْ يَكُنْ غَيَّبَكَ التَّعْظِيمُ عَنْ لَحْظِ عِيَانِي ❊
فَلَقَدْ صَيَّرَكَ الوَجْدُ مِنَ الأَحْشَاءِ دَانِي ❊

وَأَنْشَدُوا[٣]:

إِذَا مَا بَدَا لِي تَعَاظَمْتُهُ ❊ فَأَصْدُرُ فِي حَالِ مَنْ لَمْ يُرِدْ
جُمِعْتُ وَفُرِّقْتُ عَنِّي بِهِ ❊ فَفَرْدُ التَّوَاصُلِ مَثْنَى العَدَدْ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأشارَ قومٌ للتَّفرقةِ والجمعِ إلىٰ معنىً آخرَ غير مَا تقدَّمَ الكلامُ فيهِ منَ الجمعِ وجمعِ الجمعِ، فإنَّ ذلكَ منقسمٌ إلىٰ أحوالِ العبدِ في تفرقتِهِ وجَمْعِهِ معَ الحقِّ وذِكْرِهِ لنفسِهِ وغفلَتِهِ عنهَا، والَّذِي أشارَ إليهِ هؤلاءِ بالنَّظرِ إلىٰ ما سبقَ للخلْقِ كلِّهِمْ في الإرادةِ الأزليَّةِ والقدرِ السَّابقِ، فكلُّهُمْ مجموعونَ لدخولِهِمْ فيمَا سبقَ [لهُمْ][٤] عندَ الحَقِّ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ وَقدرِهِ، فهذَا جمعٌ، أيْ: قدِ اجتمعُوا فيهِ وفرَّقَهُمْ فيمَا خُصَّ كلُّ واحدٍ منهُمْ بهِ من قَدرِهِ، وأجرَاهُ عليهِ في أَبَدِهِ، فقومٌ أسعدَهُمْ، وقومٌ أبعدَهُمْ، وقومٌ أقصَاهُمْ، وقومٌ والاهُمْ إلىٰ سائرِ كلامِهِ منَ التَّصريفِ للخلقِ فيمَا هُمْ فيهِ، فصارَتِ التَّفرقةُ علىٰ هذا بمَا صرَّفَهُمْ فيهِ وفرَّقَهُمْ، وصارَ الجمعُ باعتبارِ أنَّ كلَّ ما هُمْ فيهِ مرادٌ لهُ سَابقٌ لا يَتَغيَّرُ ولا يَتَبَدَّلُ.

ويحتملُ أنْ يرجعَ التَّفرقةُ والجمعُ في هذا إلىٰ نظَرِ العبدِ أيضًا، فإنَّ مَنْ غلبَ

---

(١) وهي حالة الحقيقة.

(٢) وهي حالة العبادة.

(٣) من المتقارب، ووردا بلا نسبة في: لطائف الإشارات للقشيري ٢/١٨٩ ـ ١٩٠، وزهر الكمام في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ص١٧٠.

(٤) زيادة من (ب).

علىٰ قلبِهِ النَّظرُ للسَّوابقِ ـ وهيَ اللَّواحقُ ـ فهذَا جمعٌ، ومَنْ نظرَ إلىٰ اختلافِ أحوالِ الخليقةِ فيمَا صُرِّفُوا فيهِ فهوَ في تفرقةٍ لعدمِ جمعِ هَمِّهِ علىٰ أمرٍ واحدٍ، وأنشدَ لِلْجُنَيدِ[١] [١/١٢٥أ] في معنىٰ التَّفرقةِ والجمعِ ما ذكرَهُ، وهوَ قولُهُ:

وَتَحَقَّقْتُــكَ فِــي سِــرِّ ي فَنَاجَــاكَ لِسَــانِي

والتَّحقيقُ في السِّرِّ إفرادُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لا غيرُ، فهوَ جمعٌ، ومناجاتُهُ باللِّسانِ وإضافتُهُ إلىٰ العبدِ تفرقةٌ، ولهذَا قالَ: «فَاجْتَمَعْنَا لِمَعَانٍ»، وهوَ حالةُ الحقيقةِ، «وَافْتَرَقْنَا لِمَعَانٍ»، وهوَ حالُ العبادةِ، وقولُهُ:

إِنْ يَكُــنْ غَيَّبَــكَ التَّعــ ظِــيمُ عَــنْ لَحْــظِ عِيَــانِي
فَلَقَــدْ صَــيَّرَكَ الوَجْــ ــدُ مِــنَ الأَحْشَــاءِ دَانِــي

معناهُ: إنْ كنتُ لا أراكَ في الدُّنيَا ببصرِي لجلالِكَ وضعْفِي، فقد تفضَّلْتَ عليَّ بدوامِ نظرِي إليكَ في الدُّنيَا بِبَصِيرَتِي ووصْفِي، والشِّعرُ الثَّاني ألطفُ منَ الأوَّلِ، قولُهُ:

إِذَا مَــا بَــدَا لِــي تَعَاظَمْتُــهُ فَأَصْدُرُ فِــي حَــالِ مَــنْ لَــمْ يُــرِدْ

أيْ: لمَّا تعاظمتُهُ غِبْتُ فِي عظمتِهِ بهِ وردَّنِي إليهِ بفضْلِهِ وهوَ الصَّدرُ، فاستغرقتُ بهِ وصدرتُ بهِ، جُمعتُ وفُرِّقتُ عنِّي بهِ، أيْ: جُمعتُ فيهِ وفُرِّقتُ عنهُ كلُّ ذلكَ بهِ، فالجمعُ والتَّفريقُ منهُ وهوَ واحدٌ، وأنا المُفَرَّقُ المَجْمُوعُ في حَالَتَينِ، ففردُ التَّواصلِ مثنَّىٰ العددِ ففرقتُهُ ووصلَهُ بهِ، وهوَ تارةً مفرَّقٌ وتارةً مجموعٌ، فَحَالَتَاهِ[٢] مَثْنَىٰ، والمعنىٰ الَّذِي جمعَ بهِ وفرَّقَ واحدٌ، فهذَا الكلامُ علىٰ معنىٰ الجمعِ والفرقِ عندَهُمْ باختلافِ مَقَاصِدِهِم وَمَرَاتِبِهِم فيهِ، وهوَ الفتَّاحُ العليمُ.

---

(١) في (ب): وأنشد الجنيد.

(٢) في (أ، ب): فحالتيه، والأصح المثبت.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَمِنْ ذَلِكَ (الفَنَاءُ وَالبَقَاءُ)[(٢)]:

أَشَارَ القَوْمُ بِالفَنَاءِ إِلَىٰ سُقُوطِ الأَوْصَافِ المَذْمُومَةِ، وَأَشَارُوا بِالبَقَاءِ إِلَىٰ قِيَامِ الأَوْصَافِ المَحْمُودَةِ.

وَإِذَا كَانَ العَبْدُ لَا يَخْلُو عَنْ أَحَدِ هَذَيْنِ القِسْمَيْنِ، فَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَحَدُ القِسْمَيْنِ كَانَ القِسْمُ الآخَرُ لَا مَحَالَةَ، فَمَنْ فَنِيَ عَنْ أَوْصَافِهِ المَذْمُومَةِ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ الخِصَالُ المَحْمُودَةُ، وَمَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الخِصَالُ المَذْمُومَةُ اسْتَتَرَتْ عَنْهُ الصِّفَاتُ المَحْمُودَةُ.

وَاعْلَمْ: أَنَّ الَّذِي يَتَّصِفُ بِهِ العَبْدُ أَفْعَالٌ وَأَخْلَاقٌ وَأَحْوَالٌ؛ فَالأَفْعَالُ: تَصَرُّفَاتُهُ بِاخْتِيَارِهِ، وَالأَخْلَاقُ جِبِلَّةٌ فِيهِ، وَلَكِنْ تَتَغَيَّرُ بِمُعَالَجَتِهِ عَلَىٰ مُسْتَمِرِّ العَادَةِ، وَالأَحْوَالُ تَرِدُ عَلَى العَبْدِ عَلَىٰ وَجْهِ الابْتِدَاءِ، لَكِنْ صَفَاؤُهَا بَعْدَ زَكَاءِ الأَعْمَالِ فِيهِ[(٣)] كَالأَخْلَاقِ مِنْ هَذَا الوَجْهِ؛ لِأَنَّ العَبْدَ إِذَا نَازَلَ الأَخْلَاقَ بِقَلْبِهِ، فَيَنْفِي[(٤)] بِجُهْدِهِ سَفَاسِفَهَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِتَحْسِينِ أَخْلَاقِهِ، فَكَذَلِكَ إِذَا وَاظَبَ عَلَىٰ تَزْكِيَةِ أَعْمَالِهِ بِبَذْلِ وُسْعِهِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِتَصْفِيَةِ أَحْوَالِهِ [١/١٢٥ب]، بَلْ بِتَوْفِيَةِ أَحْوَالِهِ.

فَمَنْ تَرَكَ مَذْمُومَ أَفْعَالِهِ بِلِسَانِ الشَّرِيعَةِ يُقَالُ: إِنَّهُ فَنِيَ عَنْ شَهَوَاتِهِ، فَإِذَا فَنِيَ عَنْ شَهَوَتِهِ بَقِيَ بِنِيَّتِهِ وَإِخْلَاصِهِ فِي عُبُودِيَّتِهِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٧٠ ـ ١٧٢.

(٢) انظر في هذا المصطلح: اللمع في التصوف ص٤١٧، والإبانة لابن فورك ص٣٤٣، وعبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص٥٦، ومعجم اصطلاحات لصوفية ص٣٦٥، ٣٦٧، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٣٥، ٢٠٧.

(٣) في (ف): فهي.

(٤) في (ب): فيتقي.

وَمَنْ زَهِدَ فِي دُنْيَاهُ بِقَلْبِهِ يُقَالُ: فَنِيَ عَنْ رَغْبَتِهِ، فَإِذَا فَنِيَ عَنْ رَغْبَتِهِ بَقِيَ بِصِدْقِ إِنَابَتِهِ.

وَمَنْ عَالَجَ أَخْلَاقَهُ فَنَفَى عَنْ قَلْبِهِ الحَسَدَ وَالحِقْدَ، وَالبُخْلَ وَالشُّحَّ وَالغَضَبَ وَالكِبْرَ وَأَمْثَالَ هَذَا مِنْ رُعُونَاتِ النَّفْسِ، يُقَالُ: فَنِيَ عَنْ سُوءِ الخُلُقِ، فَإِذَا فَنِيَ عَنْ سُوءِ الخُلُقِ بَقِيَ بِالفُتُوَّةِ وَالصِّدْقِ.

وَمَنْ شَاهَدَ جَرَيَانَ القُدْرَةِ فِي تَصَارِيفِ الأَحْكَامِ، يُقَالُ: فَنِيَ عَنْ حُسْبَانِ الحَدَثَانِ مِنَ الخَلْقِ[1]، فَإِذَا فَنِيَ عَنْ تَوَهُّمِ الآثَارِ مِنَ الأَغْيَارِ بَقِيَ بِصِفَاتِ الحَقِّ.

وَمَنِ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ سُلْطَانُ الحَقِيقَةِ حَتَّى لَمْ يَشْهَدْ مِنَ الأَغْيَارِ لَا عَيْنًا وَلَا أَثَرًا، وَلَا رَسْمًا وَلَا طَلَلًا يُقَالُ: إِنَّهُ فَنِيَ عَنِ الخَلْقِ وَبَقِيَ بِالحَقِّ.

فَفَنَاءُ العَبْدِ عَنْ أَفْعَالِهِ الذَّمِيمَةِ وَأَحْوَالِهِ الخَسِيسَةِ بِعَدَمِ هَذِهِ الأَفْعَالِ، وَفَنَاؤُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنِ الخَلْقِ بِزَوَالِ إِحْسَاسِهِ بِنَفْسِهِ وَبِهِمْ.

فَإِذَا فَنِيَ عَنِ الأَفْعَالِ وَالأَخْلَاقِ وَالأَحْوَالِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا فَنِيَ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ مَوْجُودًا.

وَإِذَا قِيلَ: فَنِيَ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنِ الخَلْقِ فَنَفْسُهُ مَوْجُودَةٌ وَالخَلْقُ مَوْجُودُونَ، وَلَكِنَّهُ لَا عِلْمَ لَهُ بِهِمْ وَلَا بِهِ وَلَا إِحْسَاسَ وَلَا خَبَرَ، فَتَكُونُ نَفْسُهُ مَوْجُودَةً وَالخَلْقُ مَوْجُودِينَ[2]، وَلَكِنَّهُ غَافِلٌ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنِ الخَلْقِ، غَيْرُ مُحِسٍّ بِنَفْسِهِ وَبِالخَلْقِ.

وَقَدْ تَرَى الرَّجُلَ يَدْخُلُ عَلَى ذِي سُلْطَانٍ أَوْ مُحْتَشِمٍ فَيَذْهَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ أَهْلِ مَجْلِسِهِ، وَرُبَّمَا يَذْهَلُ عَنْ ذَلِكَ المُحْتَشِمِ حَتَّى إِذَا سُئِلَ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنْ عِنْدِهِ

---

(١) أي: فني عن عدِّ الحدوث من الخلق.

(٢) في (ب): موجودون.

عَنْ أَهْلِ مَجْلِسِهِ وَهَيْئَاتِ ذَلِكَ الصَّدْرِ وَهَيْئَةِ نَفْسِهِ لَمْ يُمْكِنْهُ الإِخْبَارُ عَنْ شَيْءٍ ، قَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١] ، لَمْ يَجِدْنَ عِنْدَ لِقَاءِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ الوَهْلَةِ أَلَمَ قَطْعِ الأَيْدِي وَهُنَّ أَضْعَفُ النَّاسِ ، وَقُلْنَ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ وَلَقَدْ كَانَ بَشَرًا ، وَقُلْنَ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وَلَمْ يَكُنْ مَلَكًا.

فَهَذَا تَغَافُلُ مَخْلُوقٍ عَنْ أَحْوَالِهِ عِنْدَ لِقَاءِ مَخْلُوقٍ ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ تَكَاشَفَ بِشُهُودِ الحَقِّ ـ سبحانه ـ؟! ، وَلَوْ تَغَافَلَ عَنْ إِحْسَاسِهِ بِنَفْسِهِ وَأَبْنَاءِ جِنْسِهِ فَأَيُّ أُعْجُوبَةٍ فِيهِ؟!

فَمَنْ فَنِيَ عَنْ جَهْلِهِ بَقِيَ بِعِلْمِهِ ، وَمَنْ فَنِيَ عَنْ شَهْوَتِهِ بَقِيَ بِإِنَابَتِهِ ، وَمَنْ فَنِيَ عَنْ رَغْبَتِهِ بَقِيَ بِزَهَادَتِهِ ، وَمَنْ فَنِيَ عَنْ مُنْيَتِهِ بَقِيَ بِإِرَادَتِهِ.

وَكَذَلِكَ القَوْلُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ [١/١٢٦أ] ، وَإِذَا فَنِيَ العَبْدُ عَنْ صِفَتِهِ بِمَا جَرَىٰ ذِكْرُهُ يَرْتَقِي عَنْ ذَلِكَ بِفَنَائِهِ عَنْ رُؤْيَةِ فَنَائِهِ ، وَإِلَىٰ هَذَا أَشَارَ قَائِلُهُم[١]:

وَقَوْمٌ تَاهَ فِي أَرْضٍ بِقَفْرٍ ❊ وَقَوْمٌ تَاهَ فِي مَيْدَانِ حُبِّهْ
فَأُفْنُوا ثُمَّ أُفْنُوا ثُمَّ أُفْنُوا ❊ وَأُبْقُوا بِالبَقَاءِ بِقُرْبِ رَبِّهْ

فَالأَوَّلُ فَنَاءٌ عَنْ نَفْسِهِ وَصِفَاتِهِ بِبَقَائِهِ بِصِفَاتِ الحَقِّ ، ثُمَّ فَنَاؤُهُ عَنْ صِفَاتِ الحَقِّ بِشُهُودِ الحَقِّ ، ثُمَّ فَنَاؤُهُ عَنْ شُهُودِ فَنَائِهِ بِاسْتِهْلَاكِهِ فِي وُجُودِ الحَقِّ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] ، فالفناءُ: هوَ الذَّهابُ عنِ الشَّخصِ ، فتارةً يذهبُ عنهُ الأشخاصُ ، وتارةً يذهبُ عنهُ العلومُ بالمعلوماتِ ، وتارةً يذهبُ عنهُ الأخلاقُ المذموماتُ ،

---

(١) من الوافر ، لذي النون المصري في: تهذيب الأسرار ص٣٨٦ ، وورد بلا نسبة في: منارات السائرين إلىٰ حضرة الله ومقامات الطائرين ص١٦٦.

وتارةً تذهبُ عنهُ الأحوالُ شغلًا بمحوِّلِهَا ومُجرِيهَا، فهذهِ قاعدةُ الفناءِ على وجْهِ الاصطلاحِ.

وأوَّلُ ذلكَ فناءُ الشَّخصِ عن عَوَائدِهِ المَذمُومَةِ، أيْ: يفارقُهَا ويتخلَّصُ منهَا ويقلُّ التفاتُ قلبِهِ إليها زُهدًا فيهَا وإعراضًا عنهَا، فإنْ كانَتْ هذهِ الأخلاقُ لا تنتفِي إلَّا بإحضارِ ضدِّهَا لزمَ تخلُّقُهُ بالضِّدِّ عندَ فناءِ ضدِّهِ، وذلكَ إذَا كانَ ضدَّ الزُّهدِ الرَّغبةُ في الدُّنيَا، فمَنْ لَمْ يزهَدْ بقيَتْ رغبتُهُ، ومَنْ قوِيَ زهدُهُ فنِيَتْ رغبتُهُ، وكذلكَ جميعُ الأخلاقِ المذمومةِ الَّتِي لا تنتفِي[(١)] إلَّا بحصولِ أضدادِهَا، وقدْ يكونُ منَ الأخلاقِ أخلاقٌ مذمومةٌ فيفنَى الإنسانُ عنهَا ويتخلَّقُ بغيرِهَا منَ الصِّفاتِ المحمودةِ باكتسابٍ لهَا وتكلُّفٍ في تحصيلِهَا.

وعلى الجملةِ فالفناءُ والبقاءُ اسمانِ لمَا يخلصُ العبدُ منهُ ممَّا يتعلَّقُ بقلبِهِ؛ والبقاءُ اسمٌ لمَا هوَ متَّصفٌ بهِ وقائمٌ معَهُ، وقدْ قالَ سيفُ السُّنَّةِ أبو محمَّدٍ عبدُ اللهِ الأنصاريُّ الهرويُّ[(٢)]: «الفناءُ: اضمحلالُ ما دونَ الحقِّ، عِلْمًا، ثمَّ جَحْدًا، ثمَّ حقًّا».

فإذا ذهبَ عنِ القَلْبِ العلمُ بالشَّيءِ شغلًا بغيرِهِ قيلَ: فنِيَ عنهُ؛ أيْ: عن محبَّتِهِ وتعلَّقَ قلبُهُ بهِ، فإذَا زادَتْ كراهتُهُ لهُ وإعراضُهُ عنهُ فنِيَ عنهُ جحدًا، أي: إنكارًا، فإذا ذهبَ عن قلبِهِ بالكلِّيَّةِ سُمِّيَ فَنَاؤُهُ عنهُ حقًّا، والفناءُ بمعنى الاضمحلالِ جارٍ في الأقسامِ الثَّلاثةِ، وهيَ أرفعُ ممَّا تقدَّمَ كلامُ الإمامِ فيهِ، فإنَّ الإمامَ تكلَّمَ في أوَّلِ مقاماتِ الفناءِ؛ وهوَ الفناءُ عنِ الأخلاقِ الذَّميمةِ [١٢٦/١ب] والبقاءُ معَ الأخلاقِ الحميدةِ، والهرويُّ تكلَّمَ في الفناءِ عن غيرِ اللهِ، والبقاءِ معَ اللهِ خاصَّةً.

وقولُ الإمامِ: «**واعلَمْ أنَّ الَّذِي يتَّصفُ بهِ العبدُ أعمالٌ وأخلاقٌ وأحوالٌ**»،

(١) في (ج): ينبعي، والصواب المثبت.

(٢) منازل السائرين ص١٢٨.

فالأعمالُ مكتسبةٌ والأخلاقُ طبيعيَّةٌ، إلَّا أنَّهُ يجوزُ تغييرُهَا، والأحوالُ موهبةٌ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ إلَّا أنَّ صفاءَهَا مترتِّبٌ علىٰ صفاءِ الأعمالِ؛ لأنَّ صفاءَ الحَالِ تبعٌ لإخلاصِ العملِ للهِ ـ تعالىٰ ـ والمُواظبةِ عليهِ، فلذلكَ شبَّهَهَا بالأخلاقِ، وكونُهَا طبيعةً يتمكَّنُ العبدُ من تغييرِهَا بالرِّياضةِ كمَا يتمكَّنُ من تَصْفيةِ الأحوالِ بإخلاصِ الأعمالِ والدَّوامِ عليهَا.

فإذا تقرَّرَ ذلكَ صَحَّ الفناءُ عنِ الأعمالِ المذمومةِ بالأعمالِ المحمودةِ، وصحَّ الفناءُ عنِ الأخلاقِ المَذْمُومةِ بالمحمودةِ، وكذلكَ الأحوالُ، فيكونُ العَبْدُ بَاقيًا بمَا قامَ بهِ منَ الأعمالِ والأخلاقِ والأحوالِ المَحْمُودةِ، فهوَ بالإضافةِ إلىٰ ما اشتُغلَ عنهُ فَانيًا، وإلىٰ ما اشتغلَ بهِ بَاقيًا.

وقولُهُ: «**مَنْ شَاهدَ جَرَيانَ القُدرةِ في تصاريفِ الأحكامِ منَ السَّعادةِ والإضلالِ والطَّاعةِ والعصيَانِ**»، يقالُ: فنِي عنَ الخلقِ بحسبانِ الحَدَثَانِ منهُمْ بقولِهِ: «**وإذا فنِيَ عن توهُّمِ الآثارِ منَ الأغيارِ**»، يعنِي: كسبَ العبيدِ ومقارنةَ قدرِهِمْ لأفعالِهِمْ لمَا غلبَ علىٰ قلبِهِ منِ انفرادِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بالفعْلِ، يقالُ: «**بقِيَ بصفاتِ الحقِّ**»، يعنِي: نظرَ العبدُ إلىٰ قُدْرةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وإرادتِهِ وعلْمِهِ.

وقولُهُ: «**ومَنِ استولىٰ عليهِ سلطانُ الحقيقةِ حتَّىٰ لمْ يشهدْ منَ الأغيارِ لا عَينًا ولا أَثرًا، ولا رسْمًا، ولا طللًا، يقالُ: فنِيَ عنِ الخلْقِ وبقِيَ بالحقِّ**»، وهذا القسمُ هوَ الَّذي قسَّمَهُ الهَرَويُّ[١] رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ ثلاثةِ أقسامٍ؛ فجعلَ فناءَهُ عنِ الخلقِ تارةً عِلْمًا، وتارةً جَحْدًا، وتارةً حقًّا، وذلكَ لاختلافِ أحوالِهِ في البقاءِ والشُّغلِ بالحقِّ ـ عزَّ اسمُهُ وجلَّ جلالُهُ ـ، وبمقدارِ كمالِ شُغلِهِ بهِ يكونُ فناؤُهُ عن غَيرِهِ.

وقولُهُ: «**وفناءُ العبدِ عن أفعالِهِ الذَّميمةِ وأحوالِهِ الخسيسةِ يكونُ بخلاصِهِ عن**

(١) في منازل السائرين ص١٢٨، كما مرَّ.

هذِهِ الأفعالِ، وعدمِ اتِّصافِهِ بهَا حسًّا وذِكْرًا»، وفناؤُهُ عن نفسِهِ وعنِ الخلقِ يكونُ بكمَالِ شُغلِهِ بربِّهِ حتَّىٰ يزولَ إحساسُهُ لنفسِهِ ولغيرِهِ، معَ بقاءِ نفسِهِ والأغيارِ إلَّا أنَّهُ يكونُ مشغولًا عنهَا بغيرِهَا، بخلافِ ما تقدَّمَ منَ الأحوالِ والأخلاقِ الذَّميمةِ، فإنَّهُ يفارقُهَا بالكلِّيَّةِ وينسلخُ عنهَا ببقائِهِ معَ الأخلاقِ المحمودةِ، وهذا المعنَىٰ الَّذِي عبَّرَ الفناءُ بهِ عنِ الغفلةِ عنِ الشَّيءِ [١٢٧/١أ] شغلًا بمَا هوَ أولَىٰ منهُ، وإنْ كانَ ذلكَ الشَّيءُ موجودًا، وإنَّمَا غابَ عن ذكْرِ المشتغلِ لكمالِ اشتغالِهِ بمَا هوَ أرفعُ منهُ هوَ الَّذِي قرَّبَهُ الإمامُ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ بالمِثَالِ للدَّاخلِ علىٰ ذي سلطانٍ، فتختلفُ أحوالُهُ باختلافِ تعظيمِهِ لهُ والإجلالِ، فقد ثبتَ جَأشُهُ ويعرفُ ما جرىٰ علىٰ لسانِهِ ويدركُ جلساءَ السُّلطانِ وما هوَ عليهِ منَ الهيئةِ والأفعالِ.

وقد يقوَىٰ تعظيمُهُ لهُ حتَّىٰ لا يَدْري بما جرَىٰ علىٰ لِسَانِهِ منَ الجَوابِ للسُّؤالِ ولا يحسُّ بشيءٍ من صِفَاتِ الملكِ والأحوالِ، حتَّىٰ لو سُئِلَ عن ذلكَ بعدَ الانفصالِ لم يدرِ ما قالَهُ بلسانِهِ، ولا ما جرىٰ عليهِ منَ الحالِ، وإذا كانَ هذا جارٍعلىٰ ملاحظةِ مخلوقٍ لمخلوقٍ امتازَ عنهُ بيسيرٍ منَ الكمالِ والجمالِ فكيفَ بمشاهدةِ المُنزَّهِ عنِ الأشباهِ والأمثالِ المنفردِ بصفاتِ الكمالِ والجلالِ؟!، فحقيقٌ لمَنْ صحَّتْ معرفتُهُ بهِ واجتمعَ همُّهُ في ذِكْرِهِ ألَّا يخطرَ غيرهُ لهُ ببالٍ، وقد وقعَ ذلك نصًّا في القرآنِ، وكفىٰ بهِ وضوحًا في الاستدلالِ ما جرىٰ للنِّسوةِ لمَّا خرجَ عليهنَّ الصِّدِّيقُ دُهشَتْ عقولُهُنَّ لمَّا شاهدْنَ بهِ منَ الجمالِ حتَّىٰ لم يشعرْنَ بقطعِ الأيدِي وقُلْنَ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١]، وهوَ بشرٌ بلا إشْكَالٍ.

وإذا فنيَ العبدُ عنِ الأغيارِ فتختلفُ أحوالُهُ، تارةً يكونُ ذاكرًا لكونِهِ فانيًا عنِ الأغيارِ، وتارةً يقوِّي شُهودَهُ وشغلَهُ بمَنِ استغرقَ فيهِ حتَّىٰ لا يحسُّ بكونِهِ فانيًا عن غيرِهِ لعدمِ ذكْرِهِ لأحوالِ نفسِهِ، وهذا يعبَّرُ عنهُ بفناءِ الفناءِ، فإنَّهُ فنيَ عن كونِهِ فانيًا.

وَقَــوْمٌ تَــاهَ فِــي أَرْضٍ بِقَفْـرٍ ❁ وَقَــوْمٌ تَــاهَ فِــي مَيْـدَانِ حُبِّـهْ

فَـأُفْنُوا، ثُـمَّ أُفْنُـوا، ثُـمَّ أُفْنُـوا ❁ وَأُبْقُـوا بِالبَقَـاءِ بِقُـرْبِ رَبِّـهْ

فجعلَ الفناءَ والبقاءَ على ثلاثِ درجاتٍ: إحدَاهَا: فناءُ العبدِ عن صفاتِ نفسِهِ منْ أعمالِهِ وأخلاقِهِ وأحوالِهِ ببقائِهِ مشاهدًا لصفاتِ ربِّهِ المتعلِّقةِ بأفعالِهِ، وإذا ارتفعَتْ درجتُهُ واشتغلَ بكمالِ الذَّاتِ المُنزَّهةِ عنِ الأقطارِ والجهاتِ فنيَ عن ذكْرِ الصِّفاتِ وقدْ يبقى ذاكرًا لفنائِهِ عنِ الصِّفاتِ، وكمالُهُ أنْ يفنَى عن ذكْرِهِ؛ لكونِهِ فانيًا، وهوَ فناءُ الفناءِ[1]؛ ولذلكَ قالَ:

فَـأُفْنُوا، ثُـمَّ أُفْنُـوا، ثُـمَّ أُفْنُـوا ❁ وَأُبْقُـوا بِالبَقَـاءِ بِقُـرْبِ رَبِّـهْ

وقولُهُ: «**وَقَوْمٌ تَاهَ فِي أَرْضٍ بِقَفْرٍ**» يعنِي: تاهُوا ـ لمَّا أحبُّوهُ ـ في الفَلَواتِ والصَّحاري [١/١٢٧ب]، وقومٌ تاهُوا في درجاتِ الحبِّ واتِّساعِ مقاماتِهِ حتَّى شغلَهُمْ ذلكَ عن أنفسِهِمْ، ولمَّا انقسَمَ الفناءُ على هذِهِ الرُّتَبِ والمقاماتِ، فعلى حسبِهِ يكونُ انقسامُ البقاءِ في الدَّرجاتِ، واللهُ الموفِّقُ للصَّالِحَاتِ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٨٦.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَمِنْ ذَلِكَ (الغَيْبَةُ وَالحُضُورُ)[(٢)]:

وَالغَيْبَةُ: غَيْبَةُ القَلْبِ عَنْ عِلْمِ مَا يَجْرِي مِنْ أَحْوَالِ الخَلْقِ ؛ لِاشْتِغَالِ الحِسِّ بِمَا وَرَدَ عَلَيْهِ.

ثُمَّ قَدْ يَغِيبُ عَنْ إِحْسَاسِهِ بِنَفْسِهِ وَغَيْرِهِ بِوَارِدٍ ؛ مِنْ تَذَكُّرِ ثَوَابٍ ، أَوْ تَفَكُّرِ عِقَابٍ ، كَمَا رُوِيَ أَنَّ الرَّبِيعَ بْنَ خَيْثَمٍ[(٣)] رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ يَذْهَبُ إِلَىٰ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَمَرَّ بِحَانُوتِ حَدَّادٍ ، فَرَأَىٰ الحَدِيدَةَ المُحَمَّاةَ فِي الكِيرِ ، فَغُشِيَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُفِقْ إِلَىٰ الغَدِ ، فَلَمَّا أَفَاقَ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ: تَذَكَّرْتُ كَوْنَ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ[(٤)].

فَهَذِهِ غَيْبَةٌ زَادَتْ عَلَىٰ حَدِّهَا حَتَّىٰ صَارَتْ غَشْيَةً.

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بنِ الحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ كَانَ فِي سُجُودِهِ ، فَوَقَعَ حَرِيقٌ فِي دَارِهِ ، فَلَمْ يَنْصَرِفْ عَنْ صَلاتِهِ ، فَسُئِلَ عَنْ حَالِهِ ، فَقَالَ: أَلْهَتْنِي النَّارُ الكُبْرَىٰ عَنْ هَذِهِ النَّارِ[(٥)]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الغيبةُ والحضورُ يُرادُ بِهِمَا: غيبةَ العَقْلِ عمَّا يجرِي

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٧٣.

(٢) انظر في هذا المصطلح: الإبانة لابن فورك ص٣٤٣، والتعرف لمذهب أهل التصوف ص١١٨، واللمع في التصوف ص٤١٦، وعبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص٥٧، وعوارف المعارف ٣٢١/٢، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٣٤١، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٧٨، ١٩٨. ويعبر بالشهود عن الحضور أيضًا.

(٣) هو: الربيع بن خيثم الثوري، أبو يزيد الكوفي، مخضرم روىٰ عن ابن مسعود وأبي أيوب وعمرو بن ميمون، وعنه الشعبي وإبراهيم النخعي وأبو بردة، توفي سنة أربع وستين.
انظر في ترجمته: حلية الأولياء ١٠٥/٢، والبداية والنهاية ٢١٧/٨، وخلاصة تهذيب الكمال ١١٥/١.

(٤) بمعناه في: الزهد لابن حنبل ص٢٦٩، وورد أيضا في: حل الرموز وكشف الكنوز للبسطامي ص٢١٤.

(٥) ورد في: المنتظم ٣٢٨/٦.

وحضورَهُ لذلكَ، وإنَّمَا يقعُ التَّفاوتُ في المقاماتِ في الغيبةِ والحضورِ من وجهَينِ:

أحدهُمَا: طولُ الغيبةِ وقِصَرُهَا، وعلىٰ حسبِهَا الحضورُ.

والثَّاني: بالنِّسبةِ(١) إلىٰ ما يُغَابُ عنهُ ويُحْضَرُ معَهُ، فأوَّلُ الغيبةِ غيبةُ الإنسانِ عن إحساسِهِ بأمورِ بَشَرِيَّتِهِ ومَا يدركُهُ بِحَواسِّهِ، وذلكَ لِكَمَالِ شُغْلِهِ بمَا وردَ علىٰ قلبِهِ ممَّا هواهُمُ عندَهُ ممَّا هوَ فيهِ، وقدْ يكونُ الواردُ واردَ خوفٍ من مخوفٍ فيستغرقُ قلبهُ فيهِ حتَّىٰ لا يحسُّ بمَنْ حضرَهُ فيُكَلَّمُ فلَا يَسْمَعُ ويُمَرُّ بهِ فلا يَشْعُرُ، وكذلكَ قَدْ يَكُونُ الواردُ واردَ مَرْجُوٍّ ومَأْمُولٍ فُتِحَ عليهِ بهِ فاشتغلَ قلبُهُ برؤيةِ الفضلِ عليهِ، واستفراغِ(٢) الجهدِ في شكرِ مَنْ أسدَاهُ إليه.

وقَدْ يكونُ الواردُ واردَ شوقٍ لمَحْبُوبٍ تعلَّقَتِ النَّفسُ بِنَيلِهِ وحُصُولِهِ ودامَ سَعْيُهَا في تطلُّبِهِ وبُلُوغِهِ، فيشغلُهَا ذلكَ عنِ الالتفاتِ إلىٰ سِوَاهُ، وتغيبُ فيهِ وبهِ عن كلِّ مخلوقٍ تَرَاهُ، وعلىٰ حسبِ طُولِ غَيْبَةِ العَبْدِ يكونُ حُضُورُهُ في الطُّولِ والقِصَرِ، وسُرْعَةِ الإفاقةِ منَ الغَيْبَةِ، ودوامِ الحضورِ فيمَا هوَ فيهِ، ومِنْ ذلكَ ما حَكَىٰ [الشَّيخُ](٣) عنِ الرَّبيعِ بنِ خيثمٍ أنَّهُ كانَ يذهبُ إلىٰ ابنِ مسعودٍ، فمرَّ بحدَّادٍ وقدْ أخرجَ حديدةً منَ الكيرِ وهوَ يطرقُهَا، فلمَّا [١٢٨/١أ] رآها الرَّبيعُ في حالِ خروجِهَا منَ الكيرِ تذكَّرَ خروجَ المُذْنبينَ منَ النَّارِ، أو حالَهُمْ فيهَا فغُشِيَ عليهِ، فلم يزَلْ في غشيَتِهِ من عشيةِ نهارِهِ إلىٰ بردِ السَّحَرِ منْ ليلتِهِ الآتيةِ، وهوَ ينادَىٰ عندَ كلِّ صلاةٍ: يا ربيعُ، يا ربيعُ، فلا يسمعُ ولا يعقلُ، وذلكَ لغلبةِ حالِهِ واستغراقِهِ في خَوْفِهِ(٤).

فهوَ بهذَا الاعتبارِ حاضرٌ بقلبِهِ معَ المخوفِ، غائبٌ عن كلِّ معروفٍ ومألوفٍ،

---

(١) في (ب): بالحسبة، والصواب المثبت.

(٢) في (ب): واستغراق، والصواب المثبت.

(٣) زيادة من (ج).

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٨٧.

وصارَ حضورُهُ على حسبِ غيبتِهِ في طُولِهِ وقِصَرِهِ.

وكذلكَ ما حُكِيَ عنِ عليٍّ بنِ الحسينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّهُ لمَّا وقعَ حريقٌ بدارِهِ ووقعَتْ ضجَّةٌ وحركةٌ عظيمةٌ للحريقِ على حسبِ المعتادِ، فلم يقطعْ صلاتَهُ ولم يلتفِتْ، فلمَّا أُخْبِرَ بذلكَ قالَ: «ألهَتْنِي النَّارُ الكبرى عنِ النَّارِ الصُّغرى»، فأخبرَ أنَّهُ وردَ عليهِ واردٌ من آيةٍ فيهَا ذِكْرُ النَّارِ، فاستغرقَ قلبُهُ ما هوَ فيهِ حتَّى غابَ عمَّا جرَى منَ الحَرِيقِ في دَارِهِ ولمْ يَشْعُرْ بهِ.

قالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَرُبَّمَا تكُونُ الغَيْبَةُ عَنْ إِحْسَاسِهِ بِمَعْنًى يُكَاشَفُ بِهِ مِنَ الحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.**

ثُمَّ إِنَّهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ عَلَىٰ حَسبِ أَحْوَالِهِم.

وَمِنَ المَشْهُورِ أَنَّ ابْتِدَاءَ حَالِ أَبِي حَفْصٍ النَّيْسَابُورِيِّ الحَدَّادِ[(٢)] رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَرْكِهِ الحِرْفَةَ أَنَّهُ كَانَ عَلَىٰ حَانُوتِهِ، فَقَرَأَ قَارِئٌ آيَةً مِنَ القُرْآنِ، فَوَرَدَ عَلَىٰ قَلْبِ أَبِي حَفْصٍ وَارِدٌ تَغافَلَ عَنْ إِحْسَاسِهِ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي النَّارِ وَأَخْرَجَ الحَدِيدَةَ المُحْمَاةَ بِيَدِهِ! ، فَرَأَىٰ تِلْمِيذٌ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا أُسْتَاذُ: مَا هَذَا؟! فَنَظَرَ أَبُو حَفْصٍ إِلَىٰ مَا ظَهَرَ عَلَيْهِ فَتَرَكَ الحِرْفَةَ وَقَامَ مِنْ حَانُوتِهِ[(٣)].

وَكَانَ الجُنَيْدُ قَاعِدًا وَعِنْدَهُ امْرَأَتُهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الشِّبْلِيُّ، فَأَرَادَتْ امْرَأَتُهُ أَنْ تَسْتَتِرَ، فَقَالَ لَهَا الجُنَيْدُ: لَا خَبَرَ لِلشِّبْلِيِّ مِنْكَ[(٤)] فَاقْعُدِي، فَلَمْ يَزَلْ يُكَلِّمُهُ الجُنَيْدُ حَتَّىٰ بَكَى الشِّبْلِيُّ، فَلَمَّا أَخَذَ الشِّبْلِيُّ فِي البُكَاءِ قَالَ الجُنَيْدُ لِامْرَأَتِهِ: اِسْتَتِرِي، فَقَدْ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٧٣ ـ ١٧٤.

(٢) خشية الفتنة.

(٣) ورد خبره في: حلية الأولياء ١٠/٢٣٠، وتاريخ الإسلام ٢٠/١٤٣، وسير أعلام النبلاء ١٢/٥١٠.

(٤) في (ف): عنك.

أَفَاقَ الشِّبْلِيُّ مِنْ غَيْبَتِهِ[(١)]».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا النَّوعُ منَ الواردات هوَ الَّذِي ذكرَ الإمامُ أنَّ اللهَ - تعالى - يوردُهَا على قُلُوبِ أوليائِهِ حتَّى يشتغلُوا بهَا عن إحساسِهِمْ، وقدْ يكونُ ذلكَ واردَ تعظيمٍ وإجلالٍ، وقدْ يكونُ واردَ عطاءٍ وإفضالٍ، وقدْ يكونُ واردَ استصغارِ نفسٍ وعملٍ واستقلالٍ، وقد يكونُ واردَ بسْطٍ وإدلالٍ، وقدْ يكونُ واردَ عِزَّةٍ فيورثُ ذُبُولًا واضمحلالًا[(٢)].

وما حُكِيَ عن أبِي حفصٍ الحدَّادِ مِنْ هذا [١٢٨/١ب] القبيلِ، فإنَّهُ كانَ في حانوتِهِ يعملُ الحديدَ، فقرأَ قارئٌ آيةً وجدَ فيهَا وجْدًا على حسبِ ما فُتِحَ لهُ بهِ، واستغرقَ فيهِ حتَّى مدَّ يدَهُ إلى الكيرِ من غيرِ آلةٍ واستخرجَ الحديدَ المحمِيَّ وجعلَ يطرقُهُ فنبَّهَهُ تلميذُهُ، فرجعَ إلى نفسِهِ وأدركَ الخارقَ وخشِيَ الشُّهرةَ فتركَ الحِرفَةَ.

فالرَّبيعُ ابنُ خيثمٍ كانَ خوفُهُ بسببِ النَّارِ، وهذا كانَ واردُهُ شغلَهُ عن خوفِ النَّارِ، وكذلكَ حالُ الشِّبْلِيِّ معَ الجُنَيدِ وتعظيمُهُمَا للشَّريعةِ، وأنَّ الشِّبْلِيَّ لا يستجيزُ دخولَ دارِهِ من غيرِ استئذانٍ، فلمَّا دخلَ محمولًا مغلوبًا في حالِهِ وأدركَ الجُنَيدُ منهُ ذلكَ فذهبَتْ زوجتُهُ لتستَتِرَ، علِمَ أنَّهُ لا يدركُهَا ولا يحسُّ بهَا لكمالِ [شغلِهِ ومَا هوَ فيهِ من][(٣)] حالِهِ، فلمَّا كلَّمَهُ الجُنَيدُ بالعلمِ وتحدَّثَ معَهُ في حالِهِ حتَّى سُرِّيَ عنهُ فبكَى قالَ لزوجتِهِ: استَتِرِي.

وهذا منَ الوارداتِ المُشْغِلَةِ عنِ الوقوعِ في المحذُوراتِ، فيكونُ العبدُ في

---

(١) بمعناه في: حلية الأولياء ٣٦٧/١٠.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢٨٨/١.

(٣) زيادة من (ب، ج).

هذهِ الحالةِ غيرَ مُؤاخذٍ بمَا يَجْرِي عليهِ ويحفظُهُ الحقُّ فيهَا عنِ الوقُوعِ فِي شَيءٍ منَ المُحَرَّمَاتِ(١).

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٢): «سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ المُؤَدِّبَ بِـ(نَيْسَابُورَ)(٣) وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا قَالَ: كُنْتُ أَقْرَأُ القُرْآنَ فِي مَجْلِسِ الأُسْتَاذِ أَبِي عَلِيٍّ الدَّقَّاقِ رَحِمَهُ اللهُ بِـ(نَيْسَابُورَ) وَقْتَ كَوْنِهِ هُنَاكَ، وَكَانَ يَتَكَلَّمُ فِي الْحَجِّ كَثِيرًا، فَأَثَّرَ فِي قَلْبِي كَلَامُهُ، وَخَرَجْتُ إِلَى الْحَجِّ تِلْكَ السَّنَةَ، وَتَرَكْتُ الحَانُوتَ وَالحِرْفَةَ، وَكَانَ الأُسْتَاذُ أَبُو عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللهُ خَرَجَ إِلَى الْحَجِّ أَيْضًا فِي تِلْكَ السَّنَةِ.

وَكُنْتُ فِي مُدَّةِ كَوْنِهِ بِـ(نَيْسَابُورَ) أَخْدُمُهُ وَأُوَاظِبُ عَلَى القِرَاءَةِ فِي مَجْلِسِهِ، فَرَأَيْتُهُ يَوْمًا فِي البَادِيَةِ تَطَهَّرَ وَنَسِيَ قُمْقُمَةً كَانَتْ بِيَدِهِ فَحَمَلْتُهَا، فَلَمَّا عَادَ إِلَى رَحْلِهِ وَضَعْتُهَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا حَيْثُ حَمَلْتَ هَذَا، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ طَوِيلًا كَأَنَّهُ لَمْ يَرَنِي قَطُّ، وَقَالَ: رَأَيْتُكَ مَرَّةً، مَنْ أَنْتَ؟! فَقُلْتُ: المُسْتَغَاثُ بِاللهِ، صَحِبْتُكَ مُدَّةً، وَخَرَجْتُ عَنْ مَسْكَنِي وَمَالِي بِسَبَبِكَ، وَتَقَطَّعْتُ فِي المَفَازَةِ بِكَ، السَّاعَةَ تَقُولُ: رَأَيْتُكَ مَرَّةً!!».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وأمَّا ما ذكرَ مِنْ حكايةِ المُؤدِّبِ الَّذِي كانَ يقرأُ القُرْآنَ في مجلسِ الشَّيخِ أبي عليٍّ الدَّقَّاقِ بِـ(نَيْسَابُورَ) وتركَ شغلَهُ وتقطَّعَ معَهُ في الأسفارِ قاصدًا إلى مكَّةَ ـ حرسَهَا اللهُ تعالى ـ فمضَى الشَّيخُ أبو عليٍّ ذاتَ يومٍ إلى البرازِ لقضاءِ حاجتِهِ ومعَهُ قمقمةٌ(٤) فيهَا ماءٌ، فقضَى حاجتَهُ، ووردَ عليهِ حالٌ وشُغْلٌ باللهِ

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢٨٨/١.

(٢) الرسالة القشيرية ١٧٤/١.

(٣) في (ف): بنسأ، وكذا الألفاظ التي تليها.

(٤) أي: آنية، ففي فتح الباري ٤٣١/١١: «القمقم معروف من آنية العطار، ويقال: هو إناء ضيق الرأس يسخن فيه الماء يكون من نحاس وغيره فارسي، ويقال رومي، وهو معرب، وقد يؤنث فيقال: قمقمة».

أنساهُ القمقمةَ، فتركَهَا ومضَىٰ إلىٰ رَحْلِهِ، فحملَهَا هذَا التِّلميذُ وأَتَىٰ بهَا إلىٰ الموضعِ، فنظرَ إليهِ الشَّيخُ وقتَ إتيانِهِ فَشَكَرَهُ علىٰ فعْلِهِ وجزَاهُ خيرًا، فقالَ لهُ: كنتُ رأيتُكَ مرَّةً [١٢٩/١أ]، مَنْ أَنْتَ؟! فتألَّمَ التِّلميذُ لذلكَ وقالَ: واغوثَاهُ باللهِ، أيْ: إنِّي صحِبْتُكَ وتقطَّعْتُ في الأسفارِ بسببِكَ، وقلَّ مَا أفارقُكَ، وأنتَ تقولُ لِي: رأيتُكَ مرَّةً؛ مَنْ أنتَ؟!

وهذا يدلُّ علىٰ أحدِ أمرَينِ: إمَّا كثرَةُ ورودِ الأحوالِ علىٰ قلبِ الشَّيخِ أبِي عليٍّ فِي كثرةِ أوقاتِهِ حتَّىٰ لا يتفرَّغَ لملاحظةِ مَنْ يصحبُهُ، أو لحالٍ عظيمٍ وردَ عليهِ في هذا الوقتِ المخصوصِ شغلَهُ عن إحساسِهِ والنَّظرِ لمَا يعهدُهُ ويعرفُهُ من أصحابِهِ وجلسائِهِ ومَنْ يَخْدمُهُ[(١)]، فيكونُ فِي وقتِ سُؤالِهِ: مَنْ أنتَ؟! سُرِّيَ عنهُ بعضُ حالِهِ ثمَّ اختُطفَ فِي أثرِهِ، وكلُّ ذلكَ سائغٌ، وكلُّ ما ذكرنَاهُ أقسامُ الغيبةِ، بالإضافةِ إلىٰ طُولِهَا وقِصَرِهَا وما يُغَابُ بهِ أو عنهُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَأَمَّا الحُضُورُ: فَقَدْ يَكُونُ حَاضِرًا بِالحَقِّ؛ لِأَنَّهُ إِذَا غَابَ عَنِ الخَلْقِ حَضَرَ بِالحَقِّ؛ عَلَىٰ مَعْنَىٰ: أَنْ يَكُونَ كَأَنَّهُ حَاضِرٌ، وَذَلِكَ لِاسْتِيلَاءِ ذِكْرِ الحَقِّ عَلَىٰ قَلْبِهِ، فَهُوَ حَاضِرٌ بِقَلْبِهِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، فَعَلَىٰ حَسبِ غَيْبَتِهِ عَنِ الخَلْقِ يَكُونُ حُضُورُهُ بِالحَقِّ، فَإِنْ غَابَ بِالكُلِّيَّةِ كَانَ الحُضُورُ عَلَىٰ حَسبِ الغَيْبَةِ.**

فَإِذَا قِيلَ: فُلَانٌ حَاضِرٌ، فَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ حَاضِرٌ بِقَلْبِهِ لِرَبِّهِ، غَيْرُ غَافِلٍ عَنْهُ وَلَا سَاهٍ، مُسْتَدِيمٌ لِلذِّكْرِ، ثُمَّ يَكُونُ مُكَاشِفًا فِي حُضُورِهِ عَلَىٰ حَسبِ رُتْبَتِهِ بِمَعَانٍ يَخُصُّهُ الحَقُّ ـ سبحانه ـ **بِهَا.**

وَقَدْ يُقَالُ لِرُجُوعِ العَبْدِ إِلَىٰ إِحْسَاسِهِ بِأَحْوَالِ نَفْسِهِ وَأَحْوَالِ الخَلْقِ: إِنَّهُ حَضَرَ؛

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٨٩.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٧٤ ـ ١٧٥.

أَيْ: رَجَعَ عَنْ غَيْبَتِهِ، فَهَذَا يَكُونُ حُضُورًا بِخَلْقٍ، وَالأَوَّلُ حُضُورٌ بِحَقٍّ.

وَقَدْ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهُمْ فِي الغَيْبَةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ لَا تَمْتَدُّ غَيْبَتُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَدُومُ غَيْبَتُهُ.

وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ ذَا النُّونِ المِصْرِيَّ بَعَثَ إِنْسَانًا مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَىٰ أَبِي يَزِيدَ [البِسْطَامِيِّ][(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ لِيَنْقُلَ إِلَيْهِ صِفَةَ أَبِي يَزِيدَ، فَلَمَّا جَاءَ الرَّجُلُ إِلَىٰ (بِسْطَامٍ)[(٢)] سَأَلَ عَنْ دَارِ أَبِي يَزِيدَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ أَبُو يَزِيدَ: مَا تُرِيدُ؟ فَقَالَ: أَبَا يَزِيدَ؟ فَقَالَ: مَنْ أَبُو يَزِيدَ؟ وَأَيْنَ أَبُو يَزِيدَ؟ وَأَنَا فِي طَلَبِ أَبِي يَزِيدَ! ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ وَقَالَ: هَذَا مَجْنُونٌ، فَرَجَعَ إِلَىٰ ذِي النُّونِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَأَخْبَرَهُ بِمَا شَهِدَ، فَبَكَىٰ ذُو النُّونِ وَقَالَ: أَخِي أَبُو يَزِيدَ ذَهَبَ فِي الذَّاهِبِينَ إِلَىٰ اللهِ ـ سبحانه ـ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: و(الحضورُ) كمَا قدَّمْناهُ وبسطْناهُ علىٰ حسبِ الغيبةِ فِي الطُّولِ والقِصَرِ، وقدْ يكونُ حاضرًا معَ ما غابَ بِهِ وفيهِ، وإنِ اختلفَتْ معانيهِ، فيكونُ غائبًا عمَّا اشتغلَ عنهُ فيكونُ غائبًا [١/١٢٩ب] حاضرًا بالنِّسبةِ إلىٰ شيئَينِ، فإذَا كانَ غائبًا عن دُنياهُ، مُشْتَغِلًا بِنَيلِ تَقْوَاهُ، فهوَ حاضرٌ معَ تقواهُ غائبٌ عن دنياهُ.

وقد يطلَقُ الحُضُورُ بمعنىٰ رجوعِهِ إلىٰ ما كانَ فيهِ، فيكونُ غائبًا حَاضِرًا بالنِّسبةِ إلىٰ شيءٍ واحدٍ في حالَينِ، ومثالُهُ: أنْ يمُنَّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عليهِ بالاشتغالِ بطرقٍ محمودةٍ؛ وهيَ الحلمُ والعفوُ والصَّفحُ عمَّنْ يُؤذِيهِ، فيكونُ غَافلًا عن أخلاقِهِ المَذْمُومَةِ؛ مِنَ المقابلةِ، والانتصارِ للنَّفسِ، والحقْدِ علىٰ مَنْ يؤذيهِ، فهوَ بهذا الاعتبارِ غائبٌ عن أخلاقِهِ المذمومةِ حاضرٌ معَ أخلاقِهِ المحمودةِ.

---

(١) زيادة من (ف).

(٢) في معجم البلدان ١/٤٢١: «بسطام ـ بالكسر ثم السكون ـ: بلدة كبيرة بقومس علىٰ جادة الطريق إلىٰ نيسابور بعد دامغان بمرحلتين».

وقَدْ يشتغلُ بأخلاقِهِ المحمودةِ حتَّىٰ يغيبَ عن أخلاقِهِ المذمومةِ، ثمَّ يرجعُ إلىٰ أخلاقِهِ المذمومةِ فيكونُ غائبًا عن أخلاقِهِ المذمومةِ وحاضرًا فيها إذَا رجعَ إليها، ولكنْ في وقتَينِ فقدْ صحَّ كونُهُ غائبًا حاضرًا بالنِّسبةِ إلىٰ شيءٍ واحدٍ في وقتَينِ، وحاضرًا غائبًا بالنِّسبةِ إلىٰ شيئَينِ، فكلُّ هذِهِ الأحوالِ قد يَكونُ غيبتُهُ في الطُّولِ والقِصَرِ علىٰ حسبِ حضورِهِ، وقدْ يتفاوتُ الأمرُ في ذلكَ فيكونُ حضورُهُ في الخيراتِ أطولَ من رجوعِهِ إلىٰ الغَفلَاتِ والمُشغلَاتِ، وقد يكونُ بعكسِ ذلكَ، واللهُ الموفِّقُ للخيراتِ والصَّالحاتِ [بمَنِّهِ وكَرَمِهِ][1].

وَحَالَةُ أَبِي يَزِيدَ لمَّا أرسلَ لهُ ذو النُّونِ مَنْ يتعرَّفُ أحوالَهُ ولم يكنِ الرَّسولُ يعرفُ أبا يزيدَ، فلمَّا رأىٰ الرَّسولُ أبَا يزيدَ سألَهُ عن أبِي يزيدَ، فأجابَهُ أبو يزيدَ: «**مَنْ أبو يزيدَ**[2]**؟ أينَ أبو يزيدَ؟ وأنا في طلَبِ أبي يزيدَ**»، وهذا يدلُّ علىٰ كمالِ استغراقِ أبي يزيدَ، وتَوالِي ذلكَ علىٰ قلبِهِ في أكثرِ أوقاتِهِ، وهوَ يحبُّ أنْ لو خُفِّفَ عنهُ ما هوَ فيهِ فيرجعُ إلىٰ إحساسِهِ، وينتفعُ بمَا لا بدَّ لهُ من مُعتادِهِ؛ لقيامِ ضَرُورَتِهِ برجوعِهِ إلىٰ إحسَاسِهِ، فلمَّا أخبرَ الرَّسولُ ذا النُّونِ بمَا قالَ أبو يزيدَ عرفَ ذو النُّونِ مقامَ أبي يزيدَ، وأنَّهُ مشغولٌ عن نفسِهِ بالكلِّيَّةِ، فقالَ: «**ذَهَبَ أَخِي أَبُو يَزِيدَ فِي الذَّاهبينَ إلىٰ اللهِ**»، يعنِي: المَشْغُولِينَ عن أنفسِهِمْ بهِ[3].

❋ ❋ ❋

(١) زيادة من (ج).
(٢) فيه دليل علىٰ قوة سكره بخمر وصال قربه. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٠٤.
(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٩٠.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَمِنْ ذَلِكَ (الصَّحْوُ وَالسُّكْرُ)(٢):

فَالصَّحْوُ: رُجُوعٌ إِلَىٰ الإِحْسَاسِ بَعْدَ الغَيْبَةِ.

وَالسُّكْرُ: غَيْبَةٌ بِوَارِدٍ قَوِيٍّ.

وَالسُّكْرُ زِيَادَةٌ عَلَىٰ الْغَيْبَةِ مِنْ وَجْهٍ، وَذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَ السُّكْرِ قَدْ يَكُونُ مَبْسُوطًا إِذَا لَمْ يَكُنْ مُسْتَوْفِيًا فِي سُكْرِهِ، وَقَدْ يَسْقُطُ إِخْطَارُ الأَشْيَاءِ عَنْ قَلْبِهِ فِي حَالِ سُكْرِهِ، وَتِلْكَ حَالُ التَّسَاكُرِ الَّذِي لَمْ يَسْتَوْفِهِ [١/١٣٠أ] الوَارِدُ، فَيَكُونُ لِلْإِحْسَاسِ فِيهِ مَسَاغٌ.

وَقَدْ يَقْوَىٰ سُكْرُهُ حَتَّىٰ يَزِيدَ عَلَىٰ الغَيْبَةِ، فَرُبَّمَا يَكُونُ صَاحِبُ السُّكْرِ أَشَدَّ غَيْبَةً مِنْ صَاحِبِ الغَيْبَةِ إِذَا قَوِيَ سُكْرُهُ، وَرُبَّمَا يَكُونُ صَاحِبُ الغَيْبَةِ أَتَمَّ فِي الغَيْبَةِ مِنْ صَاحِبِ السُّكْرِ إِذَا كَانَ مُتَسَاكِرًا غَيْرَ مُسْتَوْفٍ.

وَالغَيْبَةُ قَدْ تَكُونُ لِلْعُبَّادِ بِمَا يَغْلِبُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مِنْ مُوجِبِ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَمُقْتَضَيَاتِ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَالسُّكْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِأَصْحَابِ المَوَاجِيدِ.

فَإِذَا كُوشِفَ العَبْدُ بِنَعْتِ الْجَمَالِ حَصَلَ السُّكْرُ، وَطَرِبَ الرُّوحُ، وَهَامَ القَلْبُ، وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا(٣):

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) انظر في هذا المصطلح: اللمع في التصوف ص٤١٦، والتعرف لمذهب أهل التصوف ص١١٧، وتهذيب الأسرار ص٤٣٨، وعبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص ٥٦، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٣٥٥، ٣٥٧، والتوقيف على مهمات التعاريف ص٤٠٩، ومعجم مصطلحات الصوفية ص١٤٩، ١٢١.

(٣) من الطويل، لأبي علي الروذباري في: طبقات الصوفية ص٣٧٢، وروض الرياحين ص٢٤٠، وطبقات الأولياء ص٥٤.

فَصَحْوُكَ مِنْ لَفْظِي[(١)] هُوَ الوَصْلُ كُلُّهُ ❁ وَسُكْرُكَ[(٢)] مِنْ لَحْظِي يُبِيحُ لَكَ الشُّرْبَا
فَمَا مَلَّ سَاقِيهَا وَمَا مَلَّ شَارِبٌ ❁ عُقَارَ لِحَاظٍ كَأْسُهُ يُسْكِرُ اللُّبَّا

وَأَنْشَدُوا[(٣)]:

فَأَسْكَرَ القَوْمَ دَوْرُ كَاسٍ ❁ وَكَانَ سُكْرِي مِنَ المُدِيرِ[(٤)]

وَأَنْشَدُوا[(٥)]:

لِي سَكْرَتَانِ وَلِلنُّدْمَانِ وَاحِدَةٌ ❁ شَيْءٌ خُصِصْتُ بِهِ[(٦)] مِنْ بَيْنِهِم وَحْدِي

وَأَنْشَدُوا[(٧)]:

سُكْرَانِ: سُكْرُ هَوًى، وَسُكْرُ مُدَامَةٍ ❁ فَمَتَى يُفِيقُ فَتًى بِهِ سُكْرَانِ؟».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جعلَ الشَّيخُ الإمامُ هاهُنَا السُّكْرَ فوقَ الغيبةِ من وجهٍ، وجعلَ الغيبةَ فوقَهُ من وجْهٍ، ثمَّ قسَّمَ الغيبةَ إلىٰ: أعلىٰ وأدنَىٰ في المقاماتِ، فقالَ: قدْ يكونُ الغيبةُ لأربابِ الخوفِ والرَّجاءِ وأصحابِ الرَّغبةِ والرَّهبةِ، وعلىٰ هذا يكونُ السُّكْرُ أتمَّ منهَا علىٰ كلِّ حالٍ، فإنَّهُ مختصٌ بأهلِ المحبَّةِ وأربابِ المواجيدِ، وما تقدَّمَ ينالُهُ المريدُونَ الَّذينَ لم يبلغُوا هذا المبلغَ.

---

(١) أي: من سماع خطابي والعمل بمقتضاه هو الوصل كله. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٠٧.

(٢) في (أ): وسكري، والأصح المثبت.

(٣) من البسيط، وورد بلا نسبة في: شرح الأسماء الحسنىٰ للقشيري ص١١٢، والمحب والمحبوب ٤/٢٦٢.

(٤) أي: الذي هو الفاعل، وهذا هو الأكمل؛ لعدم توسط الأثر. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٠٨.

(٥) من البسيط، لأبي نواس في ديوانه ص١٨٠، والعقد الفريد ٥/٣٣٨، وللشبلي في: المنتخب من كتاب السياق ص٦٣، وتاريخ دمشق ٣٣/٢٩٩، ومدارج السالكين ٣/٣٠٨.

(٦) في (أ): بهم، والأصح المثبت.

(٧) من الكامل، لديك الجن في ديوانه ص١٩٤، وتاريخ دمشق ٣٦/٢٠٨، ومدارج السالكين ٣/٣٠٨.

وقسَّمَ السُّكْرَ في كلامِهِ إلىٰ قسمَينِ: سُكْرٌ مُسْتَوفٍ للعبدِ، وقَدْ يكونُ فيهِ بقايا لإدراكِ الأشياءِ وإحساسِهَا من نفسِهِ إذَا كانَ متساكرًا، وقدْ يقوَىٰ سُكْرُهُ فيغيبُ عن إحساسِهِ، فقدْ تقوَىٰ حالتُهُ في السُّكْرِ علىٰ ما تقدَّمَ منَ الغيبةِ، وقد تقوَىٰ غيبتُهُ علىٰ ذلكَ.

وقد قالَ سيفُ السُّنَّةِ عبدُ اللهِ بنُ محمَّدٍ الأنصارِيُّ الهروِيُّ[(١)]: «الغيبةُ علىٰ ثلاثِ درجاتٍ:

الدَّرجةُ الأُولَىٰ: غيبةُ المُريدِ في تخليصِ القصْدِ عن أيدِي العلائِقِ ودركِ العوائقِ لالتماسِ الحقائقِ.

والثَّانيةُ: غيبةُ السَّالكِ عن رسومِ العلمِ وعللِ السَّعي ورخصِ الفُتُورِ.

والثَّالثةُ: غيبةُ العارفِ عن عيونِ الأحوالِ والشَّواهدِ والدَّرجاتِ فِي عَيْنِ الجمعِ».

وقالَ في [١/١٣٠ب] السُّكْرِ[(٢)]: «السُّكْرُ: اسمٌ يشارُ بهِ إلىٰ سقوطِ التَّمالُكِ في الطَّرَبِ، وهذا من مقاماتِ المحبِّينَ خاصَّةً، فإنَّ عيونَ الفناءِ لا تقبلُهُ، ومنازلَ العلمِ لا تبلُغُهُ».

فبيَّنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ السُّكْرَ فيهِ طربٌ وتلذُّذٌ بالحالِ، وأنَّ صاحبَهُ لم يبلغْ إلىٰ مقاماتِ الفناءِ، وأنَّ صاحبَ العلمِ لم يصِلْ إلىٰ حالِ السُّكْرِ للمَحْبُوبِ، فعلىٰ هذا التَّقريرِ يكونُ علىٰ درجاتِ المحبَّةِ، وهوَ الاستغراقُ كما ذكرَهُ؛ وهيَ غيبةُ العارفِ عن عيونِ الأحوالِ والشَّواهدِ والدَّرجاتِ، فهوَ علىٰ هذا أتمُّ منَ السُّكْرِ، والسُّكْرُ أتمُّ منْ غيبةِ المريدِ، كما ذكرَهُ شيخُ الإسلامِ فِي تلخيصِ قصْدِهِ، قالَ: «**وإذا**

(١) منازل السائرين ص١١٠ ـ ١١١، وشرحه للخمي ص٢٤٧.

(٢) أي الأنصاري في منازل السائرين ص١٢٠.

كوشِفَ العبدُ بنعتِ الجمالِ والجلالِ[١] وما توالىٰ عليهِ منَ الأفضالِ حصلَ السُّكرُ وطربَ الرُّوحُ وهامَ القلبُ».

فبيَّنَ في شعْرِهِ أنَّ سكرَهُ من ملاحظةِ الكمالِ والجلالِ، وأنَّ صحْوَهُ بما يَفهمُهُ من صريحِ المَقَالِ، و«**سَاقيهَا**» إشارةٌ إلىٰ المتفضِّلِ بالإلهامِ والكَشْفِ، والشَّاربُ إشارةٌ إلىٰ المتنعِّمِ بالإسعافِ واللُّطفِ. وقولُهُ: «**عقارُ لحاظٍ**» إشارةٌ إلىٰ أنَّ ما أسكَرَهُ وغيَّبَ لُبَّهُ إلَّا مَا شاهدَهُ من صفاتِ الكمالِ والجلالِ، وشبَّهَهُ بالعقارِ لكونِهِ مُسْكِرًا.

وفي الشِّعْرِ الثَّاني أنَّ سُكْرَهُ منَ الفاعلِ لا منَ الفعلِ.

وفي الثَّالثِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ منَ النَّاسِ مَنْ يكونُ شغلُهُ ومحبَّتُهُ واستغراقُهُ بما شاهدَهُ منَ الإنعامِ عليهِ والإفضالِ، وهذا كثيرٌ وجودُهُ في المحبِّينَ؛ لأنَّ النُّفوسَ مَجْبُولَةٌ علىٰ حُبِّ مَنْ أحسنَ إليهَا[٢].

وأمَّا السُّكْرُ والغيبةُ في الجلالِ والكمالِ فإنَّ ذلكَ من صفاتِ العارفينَ، فأخبرَ هذا[٣] المنشدُ أنَّ لهُ سكرتَينِ، فأكثرُ سُكْرِ النَّاسِ بالنِّعَمِ ومحبَّتِهِمْ لهَا، والنَّادرُ أنْ يسكَرُوا بالجلالِ والكمالِ منَ المتفضِّلِ بالإنعامِ والإفضالِ، فللنَّاسِ سكرةٌ، ولهُ سكرتَانِ، والَّذِي اختصَ بهِ - أي امتازَ -: سكرُهُ بالجلالِ والكمالِ. وقولُهُ: «**سُكرَانِ**»؛ سُكْرُ هوَىٰ، وسُكْرُ مُدَامَةٍ يحتملُ أمرَينِ:

أحدهُمَا: أنْ تكونَ المُدَامَةُ حالتَهُ الَّتِي نالَهَا، وتمكَّنَ فيهَا، وطربَ من أجلِهَا.

---

(١) أي: فإذا تجلىٰ عليه الحق عَزَّوَجَلَّ تجليا من تجليات جماله وكماله، بعد إماطة حجاب البشرية عنه حصل له السكر بالغيبة عن غير مشهود، وحصل الطرب لروحه فرحًا. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٠٧.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٩٣.

(٣) في (ب): بهذا.

والحالةُ الثَّانيةُ: الَّتِي يعرفُهَا ويتعرَّضُ لنَيْلِهَا، وهوَ متعلَّقُ القلبِ بهَا، وذلكَ لمعرفتِهِ بكمالِ درجتِهَا ورفعةِ منزلتِهَا، ويحتملُ أنْ يريدَ بالأولى محبَّةَ النِّعمِ الَّتِي نالَهَا، وبالثَّانيةِ محبَّةَ الجلالِ والكَمَالِ الَّتِي هوَ متشوِّفٌ إليهَا، واللهُ أعلمُ بالحَالِ، وبمرادِهِ بمَا قالَ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: «وَاعْلَمْ أَنَّ الصَّحْوَ عَلَى حَسَبِ السُّكْرِ؛ فَكُلُّ مَنْ كَانَ سُكْرُهُ بِحَقٍّ كَانَ صَحْوُهُ بِحَقٍّ، وَمَنْ كَانَ سُكْرُهُ بِحَظٍّ مَشُوبًا كَانَ صَحْوُهُ [١/١٣١أ] بِحَظٍّ مَصْحُوبًا، وَمَنْ كَانَ مُحِقًّا فِي حَالِهِ كَانَ مَحْفُوظًا فِي سُكْرِهِ.

وَالسُّكْرُ وَالصَّحْوُ يُشِيرَانِ إِلَى طَرَفٍ مِنَ التَّفْرِقَةِ، فَإِذَا ظَهَرَ مِنْ سُلْطَانِ الحَقِيقَةِ عَلِمَ أَنَّ صِفَةَ العَبْدِ الثُّبُورُ وَالْقَهْرُ، وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا[2]:

إِذَا طَلَعَ الصَّبَاحُ لِنَجْمِ رَاحٍ ❁ تَسَاوَى فِيهِ: سَكْرَانٌ وَصَاحِ

قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]. هَذَا مَعَ رِسَالَتِهِ خَرَّ صَعِقًا، وَهَذَا مَعَ صَلَابَتِهِ وَقُوَّتِهِ صَارَ دكًّا مُتَكَسِّرًا!.

وَالعَبْدُ فِي حَالِ سُكْرِهِ بِشَاهِدِ الحَالِ، وَفِي حَالِ صَحْوِهِ بِشَرْطِ العِلْمِ، إِلَّا أَنَّهُ فِي حَالِهِ مَحْفُوظٌ لا بِتَكَلُّفِهِ، وَفِي صَحْوِهِ مُتَحَفِّظٌ بِتَصَرُّفِهِ، وَالصَّحْوُ وَالسُّكْرُ بَعْدَ الذَّوْقِ وَالشُّرْبِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: والصَّحوُ على حسبِ السُّكْرِ، فمَنْ كانَ سكرُهُ في حقٍّ كانَ صَحْوهُ في حَقٍّ، وهذا أوَّلُ رُتْبَةٍ، ومَنْ كانَ سُكْرُهُ بحقٍّ كانَ صَحْوُهُ بحقٍّ، ومَنْ كانَ سُكْرُهُ لحقٍّ كانَ صَحْوُهُ لحقٍّ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٧٧.

(٢) من الوافر، وورد بلا نسبة في: حقائق الحقائق لشمس الدين الرازي ص٢٠١، وعرائس البيان في حقائق القرآن ٢/٥٨.

والفرقُ بينَ في «حقٍّ، وبحقٍّ، ولحقٍّ»؛ أنَّ الأوَّلَ في طَلَب[١]، والثَّاني بعونٍ لا بِسَبب[٢]، والثَّالثَ استغراقٌ في الأدَب.

وقالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخرِ كلامِهِ: «**إذا ظهرَ سلطانُ الحقيقةِ لم يثبُتْ لهُ شَيءٌ، فحالُ العبدِ فيهِ الثُّبورُ والقَهْرُ، قالَ اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾**» فالجبلُ معَ قوَّتِهِ وصلابتِهِ صارَ دَكًّا، وموسىٰ معَ جلالِ قَدْرِهِ ونُبوَّتِهِ صَارَ صَعِقًا، والعبدُ في حالِ سُكْرِهِ معَ غلبةِ الحقيقةِ، وفي حالِ صَحْوِهِ بشاهدِ العلمِ، فإذا كانَ بشاهدِ العِلْمِ لزمَهُ حسنُ العملِ والأدبِ، وإذا كانَ بشاهدِ الحقيقةِ لزمَهُ السُّكونُ تحتَ ما فُتحَ عليهِ ووُهِبَ، والسُّكْرُ والصَّحوُ إنَّما يكونُ بعدَ الذَّوقِ والشُّربِ[٣].

---

(١) أي: في استدعاء مطلوب بشاهد المتابعة، فهو من عمل التكليف والأخذ بالأسباب.

(٢) أي: حاصل بإعانة الله عَزَّوَجَلَّ من غير سبب يظهر لأحد.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٩٤.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَمِنْ ذَلِكَ (الذَّوْقُ وَالشِّرْبُ)[(٢)]:

وَمِنْ جُمْلَةِ مَا يَجْرِي فِي كَلَامِهِمْ: الذَّوْقُ وَالشِّرْبُ، وَيُعَبِّرُونَ بِذَلِكَ عَمَّا يَجِدُونَهُ مِنْ ثَمَرَاتِ التَّجَلِّي وَنَتَائِجِ الكُشُوفَاتِ وَبَوادِهِ الوَارِدَاتِ، وَأَوَّلُ ذَلِكَ: الذَّوْقُ ثُمَّ الشِّرْبُ ثُمَّ الرِّيُّ.

فَصَفَاءُ مُعَامَلَاتِهِمْ يُوجِبُ لَهُمْ ذَوْقَ المَعَانِي، وَوَفَاءُ مُنَازَلَاتِهِمْ يُوجِبُ لَهُمُ الشُّرْبَ، وَدَوَامُ مُوَاصَلَاتِهِمْ يَقْتَضِي لَهُمُ الرِّيَّ.

فَصَاحِبُ الذَّوْقِ مُتَسَاكِرٌ، وَصَاحِبُ الشِّرْبِ سَكْرَانُ، وَصَاحِبُ الرِّيِّ صَاحٍ.

وَمَنْ قَوِيَ حُبُّهُ تَسَرْمَدَ شِرْبُهُ، فَإِذَا دَامَتْ بِهِ تِلْكَ الصِّفَةُ لَمْ يُورِثْهُ [١/١٣١ب] الشِّرْبُ سُكْرًا، فَكَانَ صَاحِيًا بِالْحَقِّ، فَانِيًا عَنْ كُلِّ حَظٍّ، لَمْ يَتَأَثَّرْ بِمَا يَرِدُ عَلَيْهِ، وَلَا يَتَغَيَّرُ عَمَّا هُوَ بِهِ.

وَمَنْ صَفَا سِرُّهُ لَمْ يَتَكَدَّرْ عَلَيْهِ المَشْرَبُ، وَمَنْ صَارَ الشَّرَابُ لَهُ غِذَاءً لَمْ يَصْبِرْ عَنْهُ، وَلَمْ يَبْقَ دُونَهُ، وَأَنْشَدُوا[(٣)]:

إِنَّمَا الكَأْسُ رَضَاعٌ بَيْنَنَا ❊ فَإِذَا لَمْ نَذُقْهَا لَمْ نَعِشْ

وأنشدوا[(٤)]:

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٧٨ ـ ١٧٩.

(٢) انظر في تفسير هذا المصطلح: اللمع في التصوف ص٤٤٩، والإبانة لابن فورك ص٣٥١، وعوارف المعارف ٢/٣٢١، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٣٢٣، ومعجم مصطلحات الصوفية ص١٠٤، ١٤٠.

(٣) من الرمل، وورد بلا نسبة في: مشرب الأرواح للبلقي الشيرازي ص١٢٩.

(٤) من الوافر، لعلي بن عبد الرحيم في تفسير السلمي ٢/١٤٩، وللشبلي في: الدر الفريد وبيت القصيد ٧/١٧، وورد بلا نسبة في: المختار من مناقب الأخيار ٢/٢١٩، والدر الفريد ٧/١٧٦،=

شَـرِبْتُ الحُـبَّ كَأْسًـا بَعْـدَ كَـأْسٍ ۞ فَمَـا نَفِـدَ الشَّـرَابُ وَلَا رَوِيْـتُ

وَيُقَالُ: كَتَبَ يَحْيَي بْنُ مُعَاذٍ إِلَىٰ أَبِي يَزِيدَ البِسْطَامِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هَهُنَا مَنْ شَرِبَ كَأْسًا لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو يَزِيدَ: عَجِبْتُ مِنْ ضَعْفِ حَالِكَ! هَهُنَا مَنْ تَحَسَّىٰ بِحَارَ الكَوْنِ وَهُوَ فَاغِرٌ فَاهُ يَسْتَزِيدُ.

وَاعْلَمْ: أَنَّ كَاسَاتِ الْقُرْبِ تَبْدُو مِنَ الغَيْبِ، وَلَا تُدَارُ إِلَّا عَلَىٰ أَسْرَارٍ مُعَتَّقَةٍ، وَأَرْوَاحٍ عَنْ رِقِّ الأَشْيَاءِ مُحَرَّرَةٍ».

۞ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وأمَّا الذَّوقُ فهوَ أوائلُ إدراكِ المعانِي[(١)]، فإذا تمكَّنَ صاحبُهَا في بلوغِهَا سُمِّيَ شِرْبًا، فإذَا تحقَّقَ فيهَا سُمِّيَ سُكْرًا، فإذا تمكَّنَ فيها وتَوَالَتْ عليهِ ولم يؤثِّرْ في شاهدِهِ سُمِّيَتْ صَحْوًا، وقدْ قالَ شيخُ الإسلامِ عبدُ اللهِ بنُ محمَّدٍ الأنصاريُّ الهرويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الذَّوقُ: أبقىٰ منَ الوجْدِ، وأجلىٰ منَ البَرْقِ، وهوَ علىٰ ثلاثِ درجاتٍ:

الدَّرجةُ الأولَىٰ: ذوقُ التَّصديقِ طعمَ العِدَّةِ، فلَا يغفلُهُ ظنٌّ، ولا يقطعُهُ أملٌ، ولا يعوقُهُ أمنيةٌ. وذلكَ أنَّ مَنْ قوِيَ يقينُهُ بتصديقِ وعْدِ اللهِ، ثم أجرَىٰ الحقُّ عليهِ في دنياهُ ما أوعدَ بهِ مَنْ تولَّاهُ، فإذا ذاقَ طعمَ العدَّةِ لمْ يغفلْهُ ظنٌّ عن موعودِهِ، ولم يقطعْهُ أملٌ يحولُ بينَهُ وبينَ مشهودِهِ، ولا يعوقُهُ عن طلبِ موعودِهِ أمنيةٌ.

الدَّرجةُ الثَّانيةُ: ذوقُ الإرادةِ طعمَ الأُنسِ، فلا يعلقُ بهِ شاغلٌ ولا يفتنُهُ عارضٌ، ولا يكدرُهُ تفرقةٌ. وذلكَ أنَّ الإرادةَ كمالُ الجدِّ في نيلِ المقصودِ، ومَنْ ذاقَ منَ المريدِينَ طعمَ الأُنسِ باللهِ لم يشغلْهُ عنهُ شاغلٌ، ولم يقطعْهُ عارضُ فتنةٍ، ولمْ يكدرْ

= وشرح فصول الحكم لابن عربي لبالي زاده ص١٠١.

(١) لذا عرفه السراج الطوسي بقوله: «الذوق: ابتداء الشِّرب» اللمع ص٤٤٩.

(٢) منازل السائرين ص٩٩.

عليهِ أنسَهُ تفرقةٌ.

والدَّرجةُ الثَّالثةُ: ذوقُ الانقطاعِ طعمَ الاتِّصالِ، وذوقُ الهمَّةِ طعمَ الجمعِ، وذوقُ المسامرةِ طعمَ العيانِ».

❊ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقدْ جمعَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذهِ الدَّرجةِ ثلاثةَ أحوالٍ منَ الذَّوقِ: أحدُهَا: ذوقُ الانقطاعِ عنِ الكونِ طعمَ الاتِّصالِ بمكونِهِ، وذوقُ كمالِ الهمَّةِ طعمَ الجمعِ معَ الحقِّ، فقد تبيَّنَ من [١٣٢/١أ] كلامِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ الذَّوقَ من أوَّلِ كلِّ حالٍ وإنْ تعالَتْ درجتُهُ، فإذا وصلَ العبدُ إلىٰ التمكُّنِ في حالِهِ توالىٰ عليهِ أمثالُهُ سكنَ قلقُهُ وَصَفَا شِرْبُهُ، ولم يتغيَّرْ ظاهرُهُ؛ ولذلكَ قالَ الإمَامُ: «ومَنْ تسربدَ شربُهُ لم يورثْهُ الشِّربُ سُكْرًا»، ولذلكَ قالَ الجُنيدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، ولذلكَ قالَ: ومَنْ صارَ الشُّربُ لهُ عادةً لم يصبرْ عنهُ، وأنشدُوا:

إنَّمَــا الكَــأْسُ رَضَــاعٌ بَيْنَنــا ❊ فَــإذَا لَــمْ نَــذُقْهَا لَــمْ نَعِــشْ

يعنِي: كؤوسَ المحبَّةِ الدَّائرةَ بينَ المحبِّ والمحبوبِ، فالحقُّ ـ سبحانه ـ يُوالِي عليهِمْ أحوالَ المحبَّةِ، كُلَّمَا تَوالَتْ عليهِمْ طَاشُوا في طَلَبِهَا وعَاشُوا بشربِهَا، وأنشدُوا:

شَــرِبْتُ الحُــبَّ كَأْسًــا بَعْــدَ كَــأْسٍ ❊ فَمَــا نَفِــدَ[٢] الشَّــرَابُ وَلَا رَوِيْــتُ

ومِنْ ذلكَ ما كتبَ بهِ يحيىٰ بنُ معاذٍ إلىٰ أبي يزيدَ البسطاميِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّهُ شربَ كأسًا من محبَّتِهِ فلم يظمأْ بعدَهُ.

وهذا يشيرُ إلىٰ دوامِ تعلُّقِ قلبِهِ بمحبوبِهِ وشغلِهِ بهِ لمَا وهبَ لهُ من مقامِ

---

(١) انظر: إحكام الدلالة ١/٢٩٥.

(٢) أي: فني.

المحبَّةِ، قالَ: فكتبَ لهُ أبو يزيدَ: «**عجبتُ من ضعفِ حالِكَ، هنا مَنْ تحسَّىٰ بحارَ الكونِ وهوَ فاغرٌ**[١] **فاهُ يستزيدُ**»، فأشارَ أبو يزيدَ إلىٰ كمالِ المحبَّةِ؛ وهوَ أنَّ مَنْ تمكَّنَ فيهَا قلَّ سُكْرُهُ، وقوِيَ لحملِ ما يَرِدُ عليهِ من أعبائِهَا؛ لكمالِ تمكُّنِهِ وثبوتِهِ في مَقَامِهِ.

وقولُ الإمامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**واعلَمْ أنَّ كاساتِ القُربِ**» يعنِي: مَواهبَ الحقِّ لمَنْ قرَّبَهُ إنَّمَا تردُ علىٰ أربابِ القلوبِ الزَّاهدةِ في الدُّنيَا المعتقَةِ عن رقِّ الشَّهواتِ المحرَّرةِ من التَّعلُّقِ بالعَادَاتِ المُؤثرةِ في طلبِهَا قربَ الحقِّ علىٰ سائرِ الحاجاتِ الدَّائمةِ الشغلَ بهِ، وذكرهُ في عُمُومِ الأوقاتِ[٢].

---

(١) أي: فاتح.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٢٩٦.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَمِنْ ذَلِكَ (المَحْوُ وَالإِثْبَاتُ)[(٢)]:

المَحْوُ: رَفْعُ أَوْصَافِ العَادَةِ، وَالإِثْبَاتُ: إِقَامَةُ أَحْكَامِ العِبَادَةِ.

فَمَنْ نَفَىٰ عَنْ أَحْوَالِهِ الخِصَالَ الذَّمِيمَةَ وَأَتَىٰ بَدَلَهَا بِالأَفْعَالِ وَالأَحْوَالِ الحَمِيدَةِ، فَهُوَ صَاحِبُ مَحْوٍ وَإِثْبَاتٍ.

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: قَالَ بَعْضُ المَشَايِخِ لِوَاحِدٍ: أَيْشٍ تَمْحُو وَأَيشٍ تُثْبِتُ؟ فَسَكَتَ الرَّجُلُ فَقَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الوَقْتَ مَحْوٌ وَإِثْبَاتٌ؟! ؛ مَنْ لَا مَحْوَ لَهُ وَلَا إِثْبَات فَهُوَ مُعَطَّلٌ مُهْمَلٌ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: المحوُ والإثباتُ علىٰ درجاتٍ؛ فمحوُ الجهلِ بإثباتِ العلمِ، ومحوُ الكسلِ بملازمةِ [١/١٣٢ب] العملِ، ومحوُ العاداتِ في البطالاتِ بملازمةِ الأعمالِ الصَّالحاتِ، وكذلكَ القولُ فِي سائرِ ما يُمْحَىٰ ويثبتُ في القلوبِ والجَوَارحِ منَ الصِّفاتِ المحموداتِ والمذموماتِ، هذا هوَ المحوُ والإثباتُ بالإضافةِ إلىٰ العبدِ وما هوَ مصروفٌ إليهِ في التَّكليفاتِ.

وأمَّا المحوُ والإثباتُ بالإضافةِ إلىٰ الحقِّ ـ جلَّ اسمُهُ ـ كما قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩]، فعلىٰ درجاتٍ متفاوتاتٍ في سائرِ ما يطرقُ القلبَ ويمحوهُ عنهُ بمثْلِهِ وأفضلَ منهُ منَ المقاماتِ العاليةِ في الدَّرجاتِ، وكلامُ الشَّيخِ الَّذِي سألَ تلميذَهُ فقالَ لهُ: ما الَّذِي يمحُو أو يثبتُ؟ سؤالٌ عن حالِهِ في وقتِهِ؛ ليعرفَ مقامَهُ الَّذِي هوَ فيهِ، فلمَّا سكتَ ولم يجِبْهُ عرَّفَهُ أنَّ العبدَ متىٰ لم يكنْ مشتغلًا في نفسِهِ بإزالةِ الصِّفاتِ المَذمُومَةِ عن قَلْبِهِ، والعَادَاتِ الرَّدِيئَةِ فِي

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٨٠.

(٢) انظر في تفسير هذا المصطلح: اللمع للطوسي ص٤٣١، وعبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص٥١، وعوارف المعارف ٢/٣٢٠، ومعجم مصطلحات الصوفية ص١٠، ٢٣٩.

أَعْمَالِهِ بِإِثْبَاتِ أَضدادِهَا مِنَ الأخلاقِ المَحْمُودةِ والأعمالِ الصَّالحةِ، فهوَ معطَّلٌ مهملٌ نبَّهَهُ علىٰ ما يَنْبَغِي لهُ الاشتغالُ بهِ في وقتِهِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «وَيَنْقَسِمُ المَحْو إِلَى: مَحْوِ الزَّلَّةِ عَنِ الظَّوَاهِرِ، وَمَحْوِ الغَفْلَةِ عَنِ الضَّمَائِرِ، وَمَحْوِ الْعِلَّةِ عَنِ السَّرَائِرِ؛ فَفِي مَحْوِ الزَّلَّةِ إِثْبَاتُ المُعَامَلَاتِ، وَفِي مَحْوِ الغَفْلَةِ إِثْبَاتُ المُنَازَلَاتِ، وَفِي مَحْوِ العِلَّةِ إِثْبَاتُ المُوَاصَلَاتِ.

هَذَا مَحْوٌ وَإِثْبَاتٌ بِشَرْطِ العُبُودِيَّةِ.

فَأَمَّا حَقِيقَةُ المَحْوِ وَالإِثْبَاتِ فَصَادِرَةٌ عَنِ القُدْرَةِ؛ وَالمَحْوُ: مَا سَتَرَهُ الحَقُّ وَنَفَاهُ، وَالإِثْبَاتُ: مَا أَظْهَرَهُ الْحَقُّ وَأَبْدَاهُ.

وَالمَحْوُ وَالإِثْبَاتُ مَقْصُورَانِ عَلَى المَشِيئَةِ، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩]، قِيلَ: يَمْحُو عَنْ قُلُوبِ الْعَارِفِينَ ذِكْرَ غَيْرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وَيُثْبِتُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ المُرِيدِينَ ذِكْرَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ.

وَمَحْوُ الحَقِّ لِكُلِّ أَحَدٍ وَإِثْبَاتُهُ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِحَالِهِ.

وَمَنْ مَحَاهُ الْحَقُّ ـ سبحانه ـ عَنْ شَاهِدِهِ أَثْبَتَهُ بِحَقِّ حَقِّهِ، وَمَنْ مَحَاهُ الحَقُّ عَنْ إِثْبَاتِهِ بِهِ رَدَّهُ إِلَىٰ شُهُودِ الأَغْيَارِ، وَأَثْبَتَهُ فِي أَوْدِيَةِ التَّفْرِقَةِ.

وَقَالَ رَجُلٌ لِلشِّبْلِيِّ رَحِمَهُ اللهُ[٢]: مَالِي أَرَاكَ قَلِقًا؟ أَلَيْسَ هُوَ مَعَكَ وَأَنْتَ مَعَهُ؟! فَقَالَ الشِّبْلِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: لَوْ كُنْتُ أَنَا مَعَهُ كُنْتُ أَنَا، وَلَكِنِّي مَحْوٌ فِيمَا هُوَ.

وَالمَحْقُ فَوْقَ المَحْوِ؛ لِأَنَّ المَحْوَ يُبْقِي أَثَرًا، وَالمَحْقُ لَا يُبْقِي أَثَرًا.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٨٠ ـ ١٨١.

(٢) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٤٣٢.

وَغَايَةُ هِمَّةِ القَوْمِ: أَنْ يَمْحَقَهُمُ الحَقُّ عَنْ شَاهِدِهِمْ(١)، ثُمَّ لَا يَرُدُّهُمْ إِلَيْهِم(٢) بَعْد مَا مَحَقَهُمْ عَنْهُمْ».

※ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**وينقسمُ المحوُ**» انقسامًا آخرَ [١/١٣٣أ]، يعنِي: هوَ أعلىٰ ممَّا قدَّمَ ذِكْرَهُ من محوِ العاداتِ، وذلكَ محوُ الزَّلَّاتِ عنِ الأبدانِ، ومحوُ الغفلاتِ عنِ القلوبِ، ومحوُ العِلَلِ عنِ السَّرائرِ، وإذا امتحتِ الزَّلَّاتُ عنِ الأبدانِ ثَبَتَت عوضهَا الطَّاعاتُ، وإذا امتحتِ الغفلاتُ عنِ القلوبِ ثبتَ بدلهَا الذِّكْرُ ومنازلةُ المقاماتِ، وإذا انتفَتِ العللُ ـ وهيَ المشغلاتُ عنِ السَّرائرِ ـ ثبتتْ بدلَهَا المُوصِّلاتُ(٣).

وأمَّا ما ذكرَهُ من محوِ الحقِّ ما يشاءُ ويثبتُ ما يشاءُ فلَا يدخلُ تحتَ ضبطٍ ولا نهاياتٍ، فإنَّ الإمكانَ فيما يثبتُهُ الحقُّ في القلوبِ منَ الخيراتِ، ويمحُو عنهَا منَ الآفاتِ والمشغلاتِ، وغيرِ ذلكَ من أصنافِ الولاياتِ، وأضدادِهَا منَ القواطعِ والمشغلاتِ؛ لأنَّهَا لهَا.

وقولُهُ: «**وأعلىٰ درجاتِ المحوِ**» أنْ يمحوَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ العبدَ عن ذِكْرِهِ لنفسِهِ وإحساسِهِ بِهِ شغلًا بالحقِّ ـ سبحانه ـ حتَّىٰ لا يُبْقِي لذِكْرِ غيرِهِ أثرًا في قلبِهِ.

والمحقُ أعلىٰ منَ المحْوِ؛ لأنَّ المحوَ في العادةِ قد يُبْقِي أثرًا، والمحقُ: زوالُ الشَّيءِ بالكلِّيَّةِ وعدمُ أَثَرِهِ، وغايةُ طلبِ المحقِّقِينَ أنْ يمحقَهُمُ الحقُّ عن أنفسِهِمْ، ثمَّ لا يردَّهُمْ إليهِمْ، وهذا إذا ردَّهُمْ إليهِ بهِمْ، ومتىٰ ردَّهُمْ إليهِم بهِ لقيامِ حقِّهِ ورجاءِ فضْلِهِ، فلَا يكونُ ذلكَ نَقْصًا، بلْ هُمْ في ذلكَ محلٌّ لجريانِ فِعْلِهِ لا

(١) أي: عن مشاهدتهم لأنفسهم.

(٢) أي: لا يردهم إلىٰ الإحساس، لقوة اللذة التي يجدونها حال سكرهم.

(٣) أي: لله عَزَّوَجَلَّ.

شغلَ لهُمْ بغيرِهِ، واللهُ الموفِّقُ.

وأمَّا حكايةُ الشِّبْلِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا قالَ له رجلٌ: «**مَا لِي أراكَ قلِقًا؟**»، وذلكَ لِمَا رأَىٰ بهِ من تغيُّرِ الحالِ، «**أليسَ الحقُّ معَكَ وأنتَ معَهُ؟**» معناهُ: أنَّ القلقَ إنَّمَا يكونُ لطلبِ غائبٍ، فأجابَهُ الشِّبْلِيُّ: «**لوْ كنتُ معَهُ لكنتُ أنَا**»، أيْ: لوْ كنتُ معَهُ بنفسِي لكنتُ ثابتًا مختارًا لمَا أنَا فيهِ، وإنَّمَا أنَا محوٌ تجرِي عليَّ أحكامُ القدرةِ بالتَّصرُّفِ كيفَ شاءَ، فكلَّمَهُ السَّائلُ من طريقِ العبوديَّةِ، وأجابَهُ الشِّبليُّ بأحكامِ الرُّبوبيَّةِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَمِنْ ذَلِكَ (السَّتْرُ وَالتَّجَلِّي)(٢):

العَوَامُّ فِي غِطَاءِ السَّتْرِ، وَالخَوَاصُّ فِي دَوَامِ التَّجَلِّي.

وَفِي الخَبَرِ(٣): [إِنَّ اللهَ](٤) إِذَا تَجَلَّى لِشَيْءٍ خَشَعَ لَهُ.

[فَصَاحِبُ السّترِ بوصفِ شُهُودِهِ](٥)، وَصَاحِبُ التَّجَلِّي أَبَدًا بِنَعْتِ خُشُوعِهِ.

وَالسَّتْرُ لِلْعَوَامِّ عُقُوبَةٌ، وَلِلْخَوَاصِّ رَحْمَةٌ؛ إِذْ لَوْلَا أَنَّهُ يَسْتُرُ عَلَيْهِمْ مَا يُكَاشِفُهُمْ بِهِ لَتَلَاشَوا عِنْدَ سُلْطَانِ الحَقِيقَةِ، وَلَكِنَّهُ كَمَا يُظْهِرُ ذُلَّهُمْ يَسْتُرُ عَلَيْهِم.

سَمِعْتُ مَنْصُورَ المَغْرِبِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: وَافَى بَعْضُ الفُقَرَاءِ حَيًّا مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ، فَأَضَافَهُ شَابٌّ؛ فَبَيْنَا الشَّابُّ فِي خِدْمَةِ هَذَا الفَقِيرِ [١/١٣٣ب] إِذْ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَسَأَلَ الفَقِيرُ عَنْ حَالِهِ، فَقِيلَ: لَهُ بِنْتُ عَمٍّ وَقَدْ عَلِقَهَا(٦)، فَمَشَتْ فِي خَيْمَتِهَا، فَرَأَى الشَّابُّ غُبَارَ ذَيْلِهَا فَغُشِيَ عَلَيْهِ!

فَمَضَى الفَقِيرُ إِلَى بَابِ الخَيْمَةِ وَقَالَ: إِنَّ لِلْغَرِيبِ فِيكُمْ حُرْمَةً وَذِمَامًا، وَقَدْ جِئْتُ مُسْتَشْفِعًا إِلَيْكِ فِي أَمْرِ هَذَا الشَّابِّ، فَتَعَطَّفِي عَلَيْهِ فِيمَا هُوَ بِهِ مِنْ هَوَاكِ، فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللهِ! أَنْتَ سَلِيمُ القَلْبِ، إِنَّهُ لَا يُطِيقُ شُهُودَ غُبَارِ ذَيْلِي فَكَيْفَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٨٢ ـ ١٨٣.

(٢) انظر في هذا المصطلح: تهذيب الأسرار ص٤٣٧، واللمع في التصوف ص٤٣٩، وعبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص٥٣، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص١١٩، ١٧٣، ومعجم مصطلحات الصوفية ص١٢٨.

(٣) أخرجه النسائي في سننه الكبرى ١/٥٧٦، وابن ماجه في سننه ١/٤٠١، والبيهقي في سننه الكبرى ٣/٣٣٢.

(٤) تتمة من الرسالة القشيرية.

(٥) زيادة من (ف)، ومن الرسالة القشيرية المطبوع.

(٦) أي: تعلق قلبه بها.

يُطِيقُ صُحْبَتِي ؟!

وَعَوَامُّ هَذِهِ الطَّائِفَةِ عَيْشُهُم فِي التَّجَلِّي ، وَبَلَاؤُهُم فِي السَّتْرِ ، وَأَمَّا الخَوَاصُّ فَهُمْ بَيْنَ طَيْشٍ وَعَيْشٍ ، إِذَا تَجَلَّىٰ لَهُمْ طَاشُوا[١] ، وَإِذَا سَتَرَ عَلَيْهِمْ رُدُّوا إِلَىٰ الحَظِّ فَعَاشُوا .

وَقِيلَ : إِنَّمَا قَالَ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ١٧] ؛ لِيَسْتُرَ عَلَيْهِ بِبَعْضِ مَا يُعَلِّلُهُ بَعْضَ مَا أَثَّرَ فِيهِ مِنَ الْمُكَاشَفَةِ بِفَجْأَةِ السَّمَاعِ .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢] : « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي حَتَّىٰ أَسْتَغْفِرَ اللهَ فِي اليَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » ، وَالاستِغْفَارُ : طَلَبُ السَّترِ ؛ لِأَنَّ الغَفْرَ هُوَ السَّتْرُ ، وَمِنْهُ : غَفَرَ الثَّوْبُ ، وَالمِغْفَرُ وَغَيْرُهُ ، فَكَأَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَطْلُبُ السَّتْرَ عَلَىٰ قَلْبِهِ عِنْدَ سَطَوَاتِ الحَقِيقَةِ ؛ إِذْ الخَلْقُ لَا بَقَاءَ لَهُمْ مَعَ وُجُودِ الحَقِّ ، وَفِي الخَبَرِ[٣] : « لَوْ كَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَدْرَكَ بَصَرُهُ » .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : السَّترُ يكونُ علىٰ وجهَينِ : سترُ اللهِ لعبدِهِ بإخفاءِ حالِهِ عن غيرِهِ ، وسترُهُ علىٰ العبدِ ممَّا يجوزُ أنْ يبدِيَهُ ويظهرَهُ لهُ ، فإنْ سترَ عنهُ عيوبَهُ وزلَّاتِهُ كانَ سترُهُ بلاءً ، وإنْ سترَ عنهُ نظرَهُ إلىٰ أعمالِهِ واستحسانَ أحوالِهِ وأقامَهُ في ذلَّةِ عبوديَّتِهِ كانَ سترُهُ رحمةً ، وكذلكَ إنْ سترَ عنهُ جَهْلَهُ ومَا هوَ محتاجٌ إلىٰ عِلْمِهِ كانَ سترُهُ بلاءً ، وإنْ سترَ عنهُ منَ العلومِ ما لا حاجةَ لهُ إليهِ ولا قدرةَ له علىٰ الإحاطةِ بهِ لضعْفِ عقلِهِ عن إدراكِهِ كانَ سترُهُ عنهُ رحمةً ، هذَا نوعٌ منَ السَّترِ بالإضافةِ إلىٰ عوامِّ هذهِ الطَّريقةِ .

---

(١) أي : سكروا وغابوا في لذة .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) سبق تخريجه .

وأمَّا السَّترُ والتَّجلِّي بالإضافةِ إلىٰ الأولياءِ فسترُهُمْ عنِ الحقِّ الَّذي يُوجِبُ السَّهوَ والغفلةَ نقصٌ، وتَجَلِّيهِ لهُمُ الَّذي يُوجِبُ لهُمُ الأدبَ والمراقبةَ رحمةٌ، وقدْ يكونُ السَّترُ لبعضِ الأولياءِ رحمةً لعلمِ الحقِّ ـ سبحانه ـ بأنَّهُم لا قدرةَ لهُمْ علىٰ حمْلِ ما يبدُو لهُمْ، وكذلكَ دوامُ التَّجلِّي لقلوبِ الأولياءِ حتَّىٰ يعبدُوا اللهَ ـ تعالىٰ ـ كأنَّهُمْ يَرَونَهُ رحمةٌ، وكشفُهُ لهُمْ من جلالِهِ وكَمَالِهِ ما يحمِلُهُمْ علىٰ كَمَالِ المَعْرِفَةِ والمَحبَّةِ لهُ [١/١٣٤أ]، ودوامُ شُغلِهِمْ بهِ رحمةٌ، وسترُ هذا عنهُمْ عُقُوبةٌ.

وقدْ يكونُ السَّترُ رحمةً إذا أوجبَ شدَّةَ قلقٍ وكمالَ طلبٍ ودوامَ رغبةٍ، فالسَّترُ والتَّجلِّي يختلفُ باختلافِ الأحوالِ.

وأمَّا سترُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لبعضِ العبيدِ عن نظرِ الخلقِ وإسبالُهُ أَكِلَّةَ الرَّحمةِ عليهِمْ حتَّىٰ لا يُعرفونَ بينَ الخلقِ، فيختلفُ ذلكَ أيضًا، فقدْ يسترُهُمْ عنِ الخلقِ وهمْ بينَهُمْ فلا يعرفونَهُمْ، وقدْ يسترُهُمْ عنهُمْ بانقطاعِهِمْ وغَيبَتِهِمْ عنْ أبصارِهِمْ كمَا يفعلُهُ ببعضِ أوليائِهِ، وقدْ سترَ بعضَ الأولياءِ عن أنفسِهِم، فيكونُوا في كمالِ الدَّرجاتِ ولا يعرفونَ كمالَ أحوالِهِمْ، فيكونُ سترُهُ لهُمْ رحمةً عليهِمْ ودوامَ عافيةٍ لهُمْ وسلامةً من رؤيةِ أنفسِهِمْ ومقاماتِهِمْ.

وقدْ قالَ شيخُ الإسلامِ عبدُ اللهِ بنُ محمَّدٍ الأنصاريُّ[١]: «المُسَتَّرُونَ همُ الأخفياءُ الَّذينَ وردَ فيهمُ الخبرُ، وهمْ علىٰ ثلاثِ طبقاتٍ:

الطَّبقةُ الأُولَىٰ: طائفةٌ عَلَتْ هِمَمُهُمْ، وصَفَتْ قصودُهُمْ، وصحَّ سلوكُهُمْ، ولمْ يوقفْ لهُمْ علىٰ رسمٍ، وَلَمْ يُنسبُوا إلىٰ اسمٍ، ولمْ تُشِرْ إليهُمُ الأصابعُ، أولئكَ ذخائرُ اللهِ حيثُ كانُوا.

والطَّبقةُ الثَّانيةُ: طائفةٌ أشارُوا عن منزلٍ وهمْ في غيرِهِ، وورُّوا بأمرٍ وهُمْ

---

(١) منازل السائرين ص١٠٥ ـ ١٠٦.

لغيرِهِ، ونادَوا علىٰ شأنٍ وهمْ علىٰ غيرِهِ، بينَ غيرةٍ عليهِمْ تسترهُمْ، وأدبٍ فيهمْ يصونُهُمْ، وطرفٍ يهذِّبُهُمْ.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: فهُمْ بينَ غيرةٍ منَ الحقِّ عليهِمْ تسترُهُمْ، وأدبٍ منهُمْ لهُ يصونُهُمْ، وطرفٍ ـ يعنِي كمالَ أحوالٍ ولطافةَ مذهبٍ ـ يهذِّبُهُمْ.

والثَّالثةُ: طائفةٌ أسرّهُمُ الحقُّ عن أنفسِهِمْ، فألاحَ لهُمْ لائِحًا أذهلَهُمْ عنْ إدراكِ ما همْ فيهِ، وهيَّمَهُمْ عنْ شهودِ ما همْ لهُ، وضنَّ بحالِهِمْ عنْ علمِهِمْ بمَا هُمْ فيهِ، فاستسرُّوا عنهُمْ معَ شواهدَ تشهدُ لهُمْ بصحَّةِ مقامِهِمْ؛ من قصدٍ صادقٍ يهيجُهُ عينُهُ، وحبٍ صادقٍ يخفَىٰ عليهِمْ حُكمُهُ، ووجدٍ مخرِّبٍ لا ينكشفُ لهُ موقدُهُ، وهذا من أدقِّ مقاماتِ أهلِ الولايةِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: فهذِهِ أقسامُ التَّسترِ بالنَّظرِ إلىٰ عوامِّ هذِهِ الطَّائفةِ وخواصِّهِمْ، وبحسبِ سترِ كلِّ واحدٍ منهُمْ يكونُ التَّجلِّي لهُ.

وأمَّا ما تضمَّنَتْهُ الحكايةُ عنِ الضَّيفِ معَ الشَّابِّ الَّذِي استضافَهُ وغُشِيَ عليهِ، فهيَ تشيرُ إلىٰ السَّترِ الَّذِي هوَ رحمةٌ منَ الحقِّ ـ سبحانه ـ فيمَنْ لمْ يُطِقِ التَّجلِّي، وذلكَ أنَّ مَنْ لمْ يُطِقِ بوادِهَ الأمورِ وأوائِلَهَا فلَا قدرةَ لهُ علىٰ حملِ ما ينكشفُ لهُ منهَا [١/١٣٤ب]، ولذلكَ لمَّا قالَ الضَّيفُ لمَنْ كانَتِ الغَشْيةُ بسببِهَا: «**أنَا غريبٌ، وللغريبِ حقٌّ**» وسألَهَا أنْ ترحمَ ذلكَ الشَّابَّ الَّذِي غُشِيَ عليهِ لتعلُّقِ قلبِهِ بمحبَّتِهَا فأجابَتْهُ: «**سبحانَ اللهِ!، أنتَ سليمُ القلبِ، مَنْ غُشِيَ عليهِ لرؤيتِهِ**(١) **غبارَ ذَيلِي، فكيفَ يمكنُهُ أنْ يصحبَنِي؟!**».

وأمَّا قضيَّةُ(٢) موسىٰ في قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]،

---

(١) في (ج): لرؤية.

(٢) في (ج): قصة.

وقولِهِ: ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فأشارَ بهِ الإمامُ إلىٰ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يُلاطفُ بعضَ الأولياءِ، ويؤنِسُهُمْ قبلَ أنْ يُفَاجِئَهُمُ الحقُّ فجأةً، فلا يطيقونَ حملَهُ، فالأوَّلُ سَتْرٌ للحالِ عنهُمْ، وهوَ رحمةٌ في حقِّهِمْ، وإليهِ ترجعُ الإشارةُ بمَا تضمَّنَهُ الخبرُ الصَّحيحُ(١): «أنَّهُ لو كشفَ عن وجهِهِ لأحرَقَتْ سُبُحَاتُ وجهِهِ ما أدركَهُ بصرُهُ»، والضَّميرُ في (بصرِهِ) يرجعُ إلىٰ العبدِ، معنَاهُ: أنَّ العبدَ لا يطيقُ رؤيةَ الحقِّ ـ سبحانه ـ ولا كمالَ جلالِهِ، وإنَّمَا يكشفُ لكلِّ عبدٍ من رؤيتِهِ في الدُّنيَا ما تقوَىٰ عليهِ بصيرتُهُ، وفي الآخرةِ ما يدركُهُ بَصَرُهُ، فإنَّهَا كلَّهَا أفعالُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ في عبيدِهِ، فإنَّهُمُ المحجوبونَ المكشوفُ لهُمْ، والحقُّ ـ سبحانه ـ يستحيلُ أنْ يُحْجَبَ؛ لأنَّهُ ليسَ بجسمٍ، تعالىٰ وتقدَّسَ عن ذلكَ علوًّا كبيرًا.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١٦١/١، حديث رقم (١٧٩).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «وَمِنْ ذَلِكَ (المُحَاضَرَةُ، وَالمُكَاشَفَةُ، وَالمُشَاهَدَةُ)[٢]:

المُحَاضَرَةُ ابْتِدَاءٌ، وَالمُكَاشَفَةُ بَعْدَهُ، ثُمَّ المُشَاهَدَةُ.

فَالمُحَاضَرَةُ: حُضُورُ القَلْبِ، وَقَدْ يَكُونُ بِتَوَاتُرِ البُرْهَانِ، وَهُوَ بَعْدُ وَرَاءَ السِّتْرِ، وَإِنْ كَانَ حَاضِرًا بِاسْتِيلَاءِ سُلْطَانِ الذِّكْرِ.

ثُمَّ بَعْدَهُ المُكَاشَفَةُ؛ وَهُوَ حُضُورُهُ بِنَعْتِ البَيَانِ[٣]، غَيْرَ مُفْتَقِرٍ فِي هَذِهِ الحَالَةِ إِلَىٰ تَأَمُّلِ الدَّلِيلِ وَتَطَلُّبِ السَّبِيلِ، وَلَا مُسْتَجِيرٍ مِنْ دَوَاعِي الرَّيْبِ، وَلَا مَحْجُوبٍ عَنْ نَعْتِ الغَيْبِ.

ثُمَّ المُشَاهَدَةُ؛ وَهِيَ وُجُودُ الحَقِّ مِنْ غَيْرِ بَقَاءِ تُهْمَةٍ.

فَإِذَا أَصْحَتْ سَمَاءُ السِّرِّ عَنْ غُيُومِ السِّتْرِ، فَشَمْسُ الشُّهُودِ مُشْرِقَةٌ عَنْ بُرْجِ الشَّرَفِ.

وَحَقُّ المُشَاهَدَةِ مَا قَالَهُ الجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللهُ[٤]: وُجُودُ الحَقِّ مَعَ فِقْدَانِكَ[٥].

فَصَاحِبُ المُحَاضَرَةِ مَرْبُوطٌ بِآيَاتِهِ[٦]، وَصَاحِبُ المُكَاشَفَةِ مَبْسُوطٌ بِصِفَاتِهِ،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٨٤ ـ ١٨٥.

(٢) انظر في تفسير هذه المصطلحات: تهذيب الأسرار ص٤٣٧، واللمع في التصوف ص٤١٢، والإبانة لابن فورك ص٣٤٠، وعبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص ٥٤، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٣٤٦ ـ ٣٤٧، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٢٣٧، ٢٤٤، ٢٤٩.

(٣) في (ج): الشأن، والصواب المثبت.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٨٥.

(٥) أي: مع فنائك عمَّا سواه حتىٰ عن نفسك.

(٦) لوقوفه معها وسكونه إليها.

وَصَاحِبُ الْمُشَاهَدَةِ مُلْقًى بِذَاتِهِ[(١)]، وَصَاحِبُ الْمُحَاضَرَةِ يَهْدِيهِ عَقْلُهُ، وَصَاحِبُ الْمُكَاشَفَةِ يُدْنِيهِ عِلْمُهُ[(٢)]، وَصَاحِبُ الْمُشَاهَدَةِ تَمْحُوهُ مَعْرِفَتُهُ.

وَلَمْ يَزِدْ فِي بَيَانِ تَحْقِيقِ الْمُشَاهَدَةِ أَحَدٌ عَلَىٰ مَا قَالَهُ عَمْرو بنُ عُثْمَانَ الْمَكِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)] [١/١٣٥أ]، وَمَعْنَىٰ مَا قَالَهُ: أَنَّهُ تَتَوَالَىٰ أَنْوَارُ التَّجَلِّي عَلَىٰ قَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَخَلَّلَهَا سَتْرٌ[(٤)] وَانْقِطَاعٌ، كَمَا لَوْ قُدِّرَ اتِّصَالُ الْبُرُوقِ، فَكَمَا أَنَّ اللَّيْلَةَ الظَّلْمَاءَ بِتَوَالِي الْبُرُوقِ فِيهَا وَاتِّصَالِهَا إِذَا قُدِّرَتْ تَصِيرُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ؛ فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ إِذَا دَامَ بِهِ دَوَامُ التَّجَلِّي مَتَعَ نَهَارُهُ[(٥)] فَلَا لَيْلَ، وَأَنْشَدُوا[(٦)]:

لَيْلِـــي بِوَجْهِـــكَ مُشْـــرِقٌ ❊ وَظَلَامُـــهُ فِـــي النَّـــاسِ سَـــارِي
وَالنَّـــاسُ فِـــي سُـــدَفِ الظَّـــلَا ❊ مِ، وَنَحْـــنُ فِـــي ضَـــوْءِ النَّهَـــارِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وتقريبُ هذِهِ المقاماتِ الثَّلاثِ بالمثالِ؛ وهيَ (المحاضرةُ، والمكاشفةُ، والمشاهدةُ): أنَّ النَّاظرَ فِي طلبِ الحقِّ بالأدلَّةِ إذا استقامَ نظرُهُ فعرفَهُ بالأدلَّةِ الدَّالَّةِ عليهِ، فقدْ حضرَهُ ويتأتَّىٰ أنْ يغفلَ عنهُ بعدَ حُضُورِهِ، فإذا توالىٰ ذِكْرُهُ وتوالَىٰ ذلكَ علىٰ قلبِهِ حتَّىٰ قلَّتْ غفلاتُهُ عنهُ وأشبهَ العلمَ الضَّروريَّ الَّذِي لا يستطيعُ دفعَهُ عن نفسِهِ عبَّرَ عنهُ بـ(المكاشفةِ)، وإنِ ارتقَتْ درجتُهُ حتَّىٰ استغرقَ فيهِ وفي كمالِ جلالِهِ وجمالِهِ حتَّىٰ شغلَهُ ذلكَ عن ذِكْرِ نفسِهِ فضلًا عن غيرِهِ عبَّرَ عنهُ بـ(المشاهدةِ)؛ لِمَا شاهدَ منَ الكمالِ والجمالِ، فالأوَّلُ إنْ

---

(١) أي: غريق في بحار أحدية الحق عَزَّوَجَلَّ. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٢٢.

(٢) أي: يقربه علمه بالحق وصفاته.

(٣) انظر: اللمع للطوسي ص١٠١، وتهذيب الأسرار ص٨٦.

(٤) أي: حجاب.

(٥) إذا ارتفع وطال نهاره.

(٦) من الكامل المجزوء، وورد بلا نسبة في: إغاثة اللهفان ١/٢١. والسدف: الظلمة، والظلام: أول الليل.

غابَ عن ذِكْرِهِ الدَّليلُ غَفَلَ، والثَّاني إنْ أخذَتْهُ المشغلاتُ والمعارضاتُ اشتغلَ، والثَّالثُ قدْ غفَلَ عنْ نفسِهِ وإدراكِ ما يرِدُ عليهَا فلا يؤثِّرُ فيهِ كسَلٌ ولا مَلَلٌ.

وأمَّا قولُهُ في الثَّالثِ وتمثيلُهُ القلبَ بتوالِي الأنوارِ في اللَّيلةِ المظلمةِ فصحيحٌ، فإنَّ علومَ الخلْقِ كلَّهَا أعراضٌ يواليهَا عليهِمُ الحقُّ، وكذلِكَ إدراكاتُهُم الَّتِي بهَا يشاهدُونَ، فكلَّمَا توالَتْ أنوارُ المعارفِ علىٰ القلبِ ولمْ يتخلَّلْهَا غفلةٌ توالىٰ النُّورُ علىٰ النُّورِ، فصارَ القلبُ نورًا علىٰ نورٍ يهدِي اللهُ لنورِهِ مَنْ يشاءُ، وَيَصْدُقُ فيهِ قولُ الشَّاعرِ:

لَيْلِـــي بِوَجْهِـــكَ مُشْـــرِقٌ ❊ وَظَلَامُـــهُ فِـــي النَّـــاسِ سَـــارِي

وقالَ شيخُ الإسلامِ في حدِّ المكاشفةِ(١): «إنَّهَا مُهَادَاةُ السِّرِّ بينَ مُتَبَاطِنَينِ»(٢).

وهذا تمثيلٌ بالخلقِ وللهِ المثلُ الأعلىٰ، فمَنْ أطلعَهُ مولَاهُ علىٰ أسرارِ ملكوتِهِ وخصَّهُ بغرائبِ حكمتِهِ وآياتِهِ، فهوَ مكاشَفٌ، وتارةً تثبتُ هذهِ الحالةُ وتارةً تزولُ.

وأمَّا المشاهدةُ فقدْ عبَّرَ عنهَا بسقوطِ الحجابِ بَتًّا؛ أيْ: قَطْعًا، فلَمْ يبقَ للعبدِ شيءٌ يحجبُهُ ولا يشتغلُ قلبُهُ ولا تلفتُهُ عن مطلوبِهِ ولَا مَنْ شاهدَهُ [١/١٣٥ب].

ثمَّ قالَ(٣): «المكاشفةُ ولايةُ النَّعتِ، والمشاهدةُ ولايةُ الذَّاتِ»(٤)، وذلكَ أنَّ

---

(١) أي: الهروي في منازل السائرين ص١١٣.

(٢) قال ابن القيم: «يريد: أن المكاشفة إطلاع أحد المتحابين المتصافيين صاحبه علىٰ باطن أمره وسره، قوله (مهاداة السر) أي: تردد السر علىٰ وجه الألطاف والمودة، قوله (بين متباطنين) يعني بالمتباطنين: باطن المكاشِف والمكاشَف، فيحمل سر كل منهما إلىٰ الآخر، كما يحمل إليه هديته فيسري سر كل واحد منها إلىٰ الآخر» مدارج السالكين ٢٢١/٣. وانظر: شرح منازل السائرين للخمي ص٢٣٣.

(٣) أي: الهروي في منازل السائرين ص١١٤.

(٤) قال المؤلف: «الفرق بين ولاية النعت وولاية العين والذات: أن النعت صفة، ومن شاهد الصفة فلا بد أن يشاهد متعلقها، فإن النظر في متعلقها يفيده التعظيم للمتصف بها...» شرح منازل السائرين ص٢٣٦.

مَنْ كانَ نظرُهُ في الآياتِ وأنواعِ الحكمةِ وخوارقِ العاداتِ، وهوَ موقوفٌ معَ آثارِ الصِّفاتِ، فلهذا سمَّاها ولايةَ النَّعتِ؛ يعنِي: ولايةَ الصِّفةِ، وأمَّا المشاهدةُ بولايةِ الذَّاتِ، أيْ: مَنْ كانَ نظرُهُ إلىٰ الذَّاتِ المنزَّهَةِ مِنَ الأماكنِ والأوقاتِ والمشابهةِ لشيءٍ منَ المخلوقاتِ والقريبةِ البعيدةِ لا بالأماكنِ والجهاتِ، واستغرقَ قلبهُ في ذلكَ وحارَ فيهِ، لا حيرةَ الغفلةِ والسُّبَاتِ، حتَّىٰ غفَلَ عن نفسِهِ؛ فضلًا عن غيرِهِ منَ المخلوقاتِ، فهوَ في ولايةِ الذَّاتِ.

❁ قالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقَالَ النُّورِيُّ: لَا تَصِحُّ لِلْعَبْدِ الْمُشَاهَدَةُ وَقَدْ بَقِيَ لَهُ عِرْقٌ قَائِمٌ**[(٢)].

وَقَالَ[(٣)]: **إِذَا طَلَعَ الصَّبَاحُ اسْتُغْنِيَ عَنِ الْمِصْبَاحِ**.

وَتَوَهَّمَ قَوْمٌ أَنَّ الْمُشَاهَدَةَ تُشِيرُ إِلَىٰ طَرَفٍ مِنَ التَّفْرِقَةِ؛ لِأَنَّ بَابَ الْمُفَاعَلَةِ فِي الْعَرَبِيَّةِ بَيْنَ اثْنَيْنِ، وَهَذَا وَهْمٌ مِنْ صَاحِبِهِ، فَإِنَّ فِي ظُهُورِ الْحَقِّ - سبحانه - **ثُبُورَ الْخَلْقِ، وَبَابُ الْمُفَاعَلَةِ جُمْلَتُهَا لَا تَقْتَضِي مُشَارَكَةَ الِاثْنَيْنِ، نَحْوَ: سَافَرَ، وَطَارَقَ النَّعْلَ وَأَمْثَالِهِ، وَأَنْشَدُوا**[(٤)]:

فَلَمَّا اسْتَبَانَ الصُّبْحُ أَدْرَجَ ضَوْؤُهُ ❁ بِأَنْوَارِهِ أَنْوَارَ ضَوْءِ الكَوَاكِبِ
يُجَرِّعُهُمْ كَأْسًا لَوِ ابْتُلِيَتْ لَظَىٰ[(٥)] **❁ بِتَجْرِيعِهِ طَارَتْ**[(٦)] **كَأَسْرَعِ ذَاهِبِ**

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٨٥.
(٢) أي: معرفة ثابتة بشيء من الأشياء غير الحقة. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٢٤.
(٣) ورد نحوه في: ربيع الأبرار ٢/٢٥٠.
(٤) من الطويل، ووردا بلا نسبة في: الكاشف عن حقائق السنن للطيبي ١١/٣٥٧٧، وورد الأول منهما بلا نسبة في: شرح القشيري لأسماء الله الحسنىٰ ص٤٢، ولطائف الإشارات ١/٤٥٤، وتفسير عرائس البيان ٣/٢١٠.
(٥) في (أ): ابتلىٰ اللظىٰ. وأشار الشيخ زكريا إلىٰ هذا الفرق في: إحكام الدلالة ١/٣٠٤.
(٦) أي: ذهبت وفنيت.

كَأْسٌ وَأَيُّ كَأْسٍ؟! تَصْطَلِمُهُمْ عَنْهُمْ[(١)]، وَتُفْنِيهِمْ وَتَخْتَطِفُهُمْ مِنْهُمْ وَلَا تُبْقِيهِمْ، [لَهُم][(٢)] كَأْسٌ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ، تَمْحُو بِالكُلِّيَّةِ وَلَا تُبْقِي شَظِيَّةً مِنْ آثَارِ البَشَرِيَّةِ، كَمَا قَالَ قَائِلُهُمْ[(٣)]:

سَارُوا فَلَمْ يَبْقَ لَا رَسْمٌ وَلَا طَلَلُ ... ...».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على ما فسَّرْنَاهُ وتضمَّنَهُ كلامُ الهرويِّ مِنْ أنَّ الشُّغلَ بالذَّاتِ إذا استغرقَ العبدَ حتَّى لا يبقَى لهُ إحساسٌ بنفسِهِ بالكليَّةِ عبَّرَ عنْ هذهِ الحالةِ بالمشاهدةِ.

وقولُهُ: «**إذا طلعَ الصَّباحُ استُغْنِيَ عنِ المصباحِ**»؛ أيْ: إذا وصلَ العبدُ إلى هذِهِ الحالةِ استغنَى عنِ الأسبابِ بحصولِهَا العبدُ وغيرُهُ.

وقولُ الإمامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَقَدْ زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ المشاهَدةَ تشيرُ إلى تفرقةٍ في حالةِ العَبْدِ**»، وأنَّهُ ليسَ مستوفِي أخذًا منْ مقتضَى اللُّغةِ، وأنَّ ذلكَ من بابِ المُفَاعَلَةِ بينَ شيئَينِ، فلا بُدَّ من هذا للعبدِ[(٤)] أنْ يدركَ نفسَهُ وربَّهُ، وهذا باطلٌ منْ وجهَينِ:

أحدُهُمَا: أنَّ اللُّغةَ لمْ يطَّرِدْ جريانُهَا في إطلاقِ هذا اللَّفظِ ـ أعنِي المفاعلةَ ـ منْ [١/١٣٦أ] شخصَينِ كمَا نقلَهُ مِنْ: سَافَرَ، وطارَقَ.

والوجهُ الثَّانِي: أنَّ الاستغراقَ في الشَّيءِ لا يُخرجُ المستغرِقَ عن كونِهِ مستغرِقًا، فهوَ مستغرِقٌ في مستغرَقٍ فيهِ حقيقةً، وإنَّمَا معنَى فنائِهِ عن نفسِهِ: عدمُ

---

(١) أي: تستأصلهم عن أنفسهم.

(٢) زيادة من (ف).

(٣) من البسيط، وورد بلا نسبة في: بغية السالك في أشرف المسالك للساحلي ص٢٣٦، وقريب منه قول محمد بن خازم: لَمْ يَبْقَ مِنْكَ لَهُ رَسْمٌ وَلَا طَلَلُ
انظر: الدر الفريد ١١/١٨١.

(٤) في (ب): «فلا بد للعبد على هذا أن يدرك».

ذِكْرِهِ لهَا وشعورِهُ بهَا فِي حالِ استغراقِهِ، ولا يلزمُ من ذلكَ تفرقةٌ في حالِهِ، فقدْ صَحَّ علىٰ هذا التَّقريرِ أنَّهُ لابدَّ منْ مشاهِدٍ ومشاهَدٍ، ولمْ يلزمْ من ذلكَ ذِكْرُ المشابهةِ لكونِهِ مشاهدًا، فحقيقةُ الاستغراقِ والفناءِ عنِ النَّفسِ بالكلِّيَّةِ عدمُ ذِكْرِ العبدِ لنفسِهِ ولا لكونِهِ مستغرقًا؛ لكمالِ شُغْلِ قلبِهُ بمَا استغرقَ فيهِ، وهذا واضحٌ لا مِراءَ فيهِ؛ ولذلكَ أنشدُوا:

فَلَمَّـا اسْـتَبَانَ الصُّـبْحُ أَدْرَجَ[١] ضَـوْؤُهُ ❁ بِـأَنْوَارِهِ أَنْـوَارَ ضَـوْءِ الكَوَاكِـبِ

فالكواكبُ موجودةٌ، ولكنَّ ضوءَ الصُّبحِ أغفلَ عن نورِهَا بالكلِّيَّةِ، واستُغْنِيَ بهِ عنهَا.

وقولُهُ: «**تجرُّعهُمُ كأسًا...**» إلىٰ آخرِ البيتِ إشارةٌ إلىٰ كمالِ الواردِ عليهِمْ أنَّهُ لا يُبْقِي لهُمْ متَّسعًا لغيرِهِ، وشبَّهَ ذلكَ بالنَّارِ معَ شدَّةِ لَهبِهَا لوْ ابتُلِيَتْ بمَا ابتلُوا بهِ منَ الحَالِ لاضمحلَّتْ في الحالِ، ولذلكَ قالَ: «**كَأَسْرَعِ ذَاهِبِ**».

وَبقيَّةُ كلامِهِ يشيرُ إلىٰ عظمةِ الحالِ وقوَّةِ الواردِ عليهِمُ الَّذِي بهِ يفنُوا، ولذلكَ قالَ: «**سارُوا**»، يعنِي: عن إحساسِهِمْ بأنفسِهِم، فلم يبقَ لا رَسْمٌ ولا أثرٌ.

❁ ❁ ❁

(١) أي: غيَّب.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَمِنْ ذَلِكَ (اللَّوَائِحُ، وَالطَّوَالِعُ، وَاللَّوَامِعُ)[٢]:

هَذِهِ الأَلْفَاظُ مُتَقَارِبَةُ المَعْنَى، لَا يَكَادُ يَحْصُلُ بَيْنَهَا كَثِيرُ[٣] فَرْقٍ، وَهِيَ مِنْ صِفَاتِ أَصْحَابِ البِدَايَاتِ فِي التَّرَقِّي بِالقَلْبِ، فَلَمْ يَدُمْ لَهُمْ بَعْدُ ضِيَاءُ شُمُوسِ المَعَارِفِ، لَكِنَّ الحَقَّ ـ سبحانه ـ يُؤْتِي رِزْقَ قُلُوبِهِم فِي كُلِّ حِينٍ؛ كَمَا قَالَ ـ تعالى ـ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

فَكُلَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْهِم سَمَاءُ القُلُوبِ بِسَحَابِ الحُظُوظِ سَنَحَ لَهُمْ فِيهَا لَوَائِحُ الكَشْفِ، وَتَلَأْلَأَ لَوَامِعُ القُرْبِ، وَهُمْ فِي زَمَانِ سَتْرِهِم يَرْقُبُونَ فَجْأَةَ اللَّوَائِحِ، فَهُمْ كَمَا قَالَ القَائِلُ[٤]:

يَا أَيُّهَا البَرْقُ الَّذِي يَلْمَعُ ❊ مِنْ أَيِّ أَكْنَافِ السَّمَا تَسْطَعُ؟!

فَتَكُونُ أَوَّلًا لَوَائِحَ، ثُمَّ لَوَامِعَ، ثُمَّ طَوَالِعَ.

فَاللَّوَائِحُ كَالبُرُوقِ، مَا ظَهَرَتْ حَتَّى اسْتَتَرَتْ، كَمَا قَالَ القَائِلُ[٥]:

افْتَرَقْنَا حَوْلًا فَلَمَّا الْتَقَيْنَا ❊ كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعَا [١/١٣٦ب]

وَأَنْشَدُوا[٦]:

يَا ذَا الَّذِي زَارَ وَمَا زَارَا ❊ كَأَنَّهُ مُقْتَبِسٌ نَارَا

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) انظر في تفسير هذه المصطلحات: تهذيب الأسرار ص٤٣٥، ٤٣٧، واللمع في التصوف ص٤١٢، وعوارف المعارف ٢/٣٢١، والإبانة لابن فورك ص٣٤٠، ٣٤٥، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٩٢، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٢٣٠.

(٣) في (ب): كبير.

(٤) من السريع، ولم أقف عليه.

(٥) من الخفيف، للمتنبي في: ملحق ديوانه ص٥٢٦، والذخيرة في محاسن أهل الذخيرة ١/١٦٠، ٦/٨٢٤، والدر الفريد ٥/١٥٣.

(٦) من السريع، لأبي الشيص الخزاعي في أشعاره ص٥٣، وبلا نسبة في: ربيع الأبرار ٢/٤٢٤.

مَـرَّ بِبَـابِ الـدَّارِ مُسْـتَعْجِلاً ✽ مَـا ضَـرَّهُ لَـوْ دَخَـلَ الـدَّارَا

وَاللَّوَامِعُ أَظْهَرُ مِنَ اللَّوَائِحِ، وَلَيْسَ زَوَالُهَا بِتِلْكَ السُّرْعَةِ، وَقَدْ تَبْقَىٰ وَقْتَيْنِ وَثَلَاثَةً، وَلَكِنْ كَمَا قَالُوا(١):

... ... ✽ وَالعَـيْنُ بَاكِيَـةٌ لَـمْ تُشْـبَعِ النَّظَـرَا

وَكَمَا قَالُوا(٢):

لَـمْ تَـرِدْ مَـاءَ وَجْهِـهِ العَـيْنُ إِلَّا ✽ شَـرِقَتْ قَبْـلَ رَيِّهَـا بِرَقِيـبِ

فَإِذَا لَمَعَ قَطَعَكَ عَنْكَ، وَجَمَعَكَ بِهِ، لَكِنْ لَمْ يُسْفِرْ نُورُ نَهَارِهِ حَتَّىٰ كَرَّ عَلَيْهِ عَسَاكِرُ اللَّيْلِ، فَهَؤُلَاءِ بَيْنَ رَوْحٍ وَنَوْحٍ؛ لِأَنَّهُمْ بَيْنَ كَشْفٍ وَسَتْرٍ، كَمَا قَالُوا(٣):

فَاللَّيْـلُ يَشْـمَلُنَا بِفَاضِـلِ بُـرْدِهِ ✽ وَالصُّـبْحُ يُلْحِفُنَـا رِدَاءً مُـذْهَبَا

الطَّوَالِعُ أَبْقَىٰ وَقْتًا، وَأَقْوَىٰ سُلْطَانًا، وَأَدْوَمُ مُكْثًا، وَأَذْهَبُ لِلظُّلْمَةِ، وَأَنْفَىٰ لِلتُّهْمَةِ، لَكِنَّهَا مَوْقُوفَةٌ عَلَىٰ خَطَرِ الأُفُولِ، لَيْسَتْ بِرَفِيعَةِ الأَوْجِ، وَلَا بِدَائِمَةِ المُكْثِ، ثُمَّ أَوْقَاتُ حُصُولِهَا وَشِيكَةُ الارْتِحَالِ، وَأَحْوَالُ أُفُولِهَا طَوِيلَةُ الأَذْيَالِ.

وَهَذِهِ المَعَانِي ـ الَّتِي هِيَ اللَّوَائِحُ وَاللَّوَامِعُ وَالطَّوَالِعُ ـ تَخْتَلِفُ فِي القَضَايَا(٤)؛ فَمِنْهَا مَا إِذَا فَاتَ لَمْ يَبْقَ عَنْهَا أَثَرٌ؛ كَالشَّوَارِقِ إِذَا أَفَلَتْ، فَكَأَنَّ اللَّيْلَ كَانَ دَائِمًا، وَمِنْهَا مَا يَبْقَىٰ عَنْهُ أَثَرٌ، فَإِنْ زَالَ رَقْمُهُ بَقِيَ أَلَمُهُ، وَإِنْ غَرَبَتْ أَنْوَارُهُ بَقِيَ آثَارُهُ، فَصَاحِبُهُ بَعْدَ سُكُونِ غَلَبَاتِهِ(٥) يَعِيشُ فِي ضِيَاءِ بَرَكَاتِهِ، فَإِلَىٰ أَنْ يَلُوحَ ثَانِيًا يُزَجِّي

(١) من البسيط، وورد بلا نسبة في: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١/٨١.
(٢) من الخفيف، لابن المعتز في ديوانه ص٥٢.
(٣) من الكامل، ولم أقف عليه.
(٤) أي: في الأحكام.
(٥) في (ب): غلبانه.

وَقْتَهُ عَلَىٰ انْتِظَارِ عَوْدِهِ، وَيَعِيشُ بِمَا وَجَدَ فِي حِينِ كَوْنِهِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذهِ الأسماءُ وهيَ: (اللَّوائحُ واللَّوامعُ والطَّوالعُ) كنايةٌ عنِ اختلافِ أحوالِ أربابِ السُّلوكِ وما يفتحِ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهِ عليهِم في سائرِ المقاماتِ الَّتي يرومُونَ بلوغَ كَمَالِهَا؛ كالزُّهدِ والتَّوكُّلِ والرِّضَا والتَّسليمِ والمحبَّةِ وغيرِ ذلكَ، فقدْ يحصلُ للعبدِ علمُ هذِهِ المقاماتِ، ولا يكونُ متخلِّقًا بهَا، وقدْ يفتحُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عليهِ بالتَّخلُّقِ بمَا يدومُ حصولُ كَمَالِهِ لحظةً ثمَّ يرجعُ إلىٰ عَادتِهِ فيُسمَّىٰ لائحًا، بمعنَىٰ: لاحَ لهُ، أيْ: ظهرَ لهُ ما يرومُهُ حالًا، ولكنَّهُ سريعُ الذِّهابِ تشبيهًا بالبرقِ، أو ما يجرِي مجرَاهُ ممَّا يراهُ الإنسانُ علىٰ بُعدٍ ثمَّ يخفَىٰ عنهُ، وقدْ يمكِّنُ اللهُ العبدَ منهُ أكثرَ من ذلكَ ويتنعَّمُ بوجودِهِ ولكنَّهُ لا يتمكَّنُ فيهِ تمكُّنًا بالغًا، وإنَّمَا يصحبُهُ وقتًا أو وقتَينِ [١٣٧/١أ] ثمَّ ينفصلُ عنهُ، فيسمُّونَهُ لامعًا، بمعنَىٰ: أنَّهُ أبيَنُ وأكشَفُ وأبقَىٰ زمانًا منَ اللَّائحِ، ثمَّ ينتقلُ بعضُهُمْ إلىٰ أعلىٰ من هذَينِ الحالَينِ، ويدوِّنُ معَهُ ما يطلبُهُ، ويتخلَّقُ بهِ مدَّةً، ولكنَّهُ لا يتكرَّرُ عليهِ ولا يتوالَىٰ أمثالهُ فيسمَّىٰ طالعًا، وهذهِ الثَّلاثةُ إنَّمَا هيَ أسماءٌ لأحوالِ السَّالكينَ.

وأمَّا منَ تمكَّنَ في حَالِهِ وتَوالىٰ عليهِ أمثالُهُ في أكثرِ أوقاتِهِ لا يسمُّونَهُ بهذهِ الأسماءِ، ويطلقُونَ عليهِ الوجْدَ والوجودَ وغيرَ ذلكَ ممَّا تقدَّمَ.

وقولُ الشَّيخِ: **«وكلُّ واحدٍ منْ هؤلاءِ إذا انفصَلَ عن صاحبِهِ منهُمْ مَا يُبْقِي أثرًا ومنهُ مَا لا يُبقِي»**، ومَا لا يبقِي أثرًا يدلُّ علىٰ ضعفِهِ وقلَّةِ تأثيرِهِ فيمَنْ قامَ بهِ وشبَّهَ ذلكَ بالبرقِ إذا أعقبَتْهُ الظُّلمةُ، فلمْ يُبْقِ أثرًا، ومَا يبقِي أثرًا فشبَّهَهُمَا بالنُّجومِ والشَّمسِ والقمرِ، فمِنْهَا مَا إذا أفلَ بقِيَ أثرُهُ يسيرًا، ومنها ما يبقَىٰ أزيدَ من ذلكِ كالنُّجومِ، ومنهَا ما يبقَىٰ طويلًا كالشَّمسِ.

وكذلِكَ آثارُ هذهِ الأحوالِ علىٰ أبدانِ أربابِهَا، فمنهُمْ ما يطرأُ عليهِ دفْعُهُ، فإذَا

انفصلَ عنهُ فكأنَّهُ لمْ يكنْ، ورجعَ العبدُ إلىٰ حالِهِ الأوَّلِ، ومنهُمْ ما يتنعَّمُ صاحبُهُ بقلبِهِ وتنعُمُّهُ بذِكْرِهِ، ومنهُمْ مَنْ يظهرُ آثارُهُ علىٰ جسدِهِ بانكسارِهِ وتملْمُلِهِ، ومنهُمْ مَنْ يقوىٰ ذلكَ عليهِ حتَّىٰ يسقطَ ويضعفَ ويبقىٰ تعلُّقُ قلبِهِ بورودِ أمثالِهِ فيمَا يستقبلُ من أوقاتِهِ.

والأشعارُ الَّتِي ذكرَهَا تُنبِّهُ علىٰ كلِّ قسمٍ من هذِهِ الأقسامِ؛ فأمَّا الشِّعرُ الأوَّلُ فشبَّهَ اللَّائحَ فيهِ بالبرقِ؛ وذلكَ لسرعةِ هجومِهِ وذهابِهِ وقلَّةِ مُكْثِهِ.

وقولُهُ: «**مِنْ أيِّ أكنافِ السَّماءِ تسطَعُ**» لا يدرِي لهُ سببًا، بلْ هوَ من فضلِ ربِّهِ وإلهامِهِ، كذلكَ قولُهُ:

يَـا ذَا الَّـذِي زَارَ وَمَـا زَارَا[1] ❊ كَأَنَّـهُ مُقْتَـبِسٌ نَـارَا

وذلكَ لسرعةِ مجيئِهِ وذهابِهِ، واللَّوامعُ أشارَ بدوامِهَا يسيرًا ثمَّ تَذْهَبُ بقولِهِ:

لَـمْ تَـرِدْ مَـاءَ وَجْهِـهِ العَـيْنُ إِلَّا ❊ شَـرِقَتْ قَبْـلَ رَيِّهَـا بِرَقِيـبِ

يعني: تشبيهَهُ زوالَ الحالِ بالرَّقيبِ؛ وهوَ الرُّجوعُ إلىٰ النَّفسِ بعدَ ساعةٍ والإحساسُ بهَا، وأمَّا الطَّالعُ الَّذِي شبَّهَهَا بوشيكةِ الارتحالِ وفي أفولِهَا طويلةُ الأذيالِ، يعنِي أنَّهَا تثبتُ مدَّةً طويلةً، ثمَّ يطولُ غيبتُهَا ولم يردْ أمثالهَا سَرِيعًا، وذلكَ لقلَّةِ تمكُّنِ صاحبِهَا وتَوالِي أمثالِهَا علىٰ قلبِهِ، وَهِيَ كمَا قيلَ [١/١٣٧ب]:

فَاللَّيْـلُ يَشْـمَلُنَا بِفَاضِـلِ بُـرْدِهِ ❊ وَالصُّـبْحُ يُلْحِفُنَـا رِدَاءً مُـذْهَبَا

فهيَ تثبتُ زمانًا وتبطئُ أحيانًا، وفي زمنِ ثبوتِهَا يكسبُ جمالَ الحالِ، وفي وقتِ أُفولِهَا يكسِي[2] القلبَ الهمُّ بسببِ الزَّوالِ، ولذلكَ قالَ في الطَّالعِ: «**وصاحبُهُ**

(١) أي: زار في الصورة وما زار في الحقيقة، فكأنه في سرعة الرجوع مقتبسٌ نارا لا زائر. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٢٧.
(٢) في (ج): يكسب.

بعدَ سُكُونِ غلباتِهِ يعيشُ في ضياءِ بركاتِهِ، فإلى أنْ يلوحَ ثانيًا يُزْجَى وقتُهُ على انتظارِ عَوْدِهِ»، معنَاهُ: يمشِي حَالهُ بآثارِ ما سبقَ إلى أنْ يعيدَهُ الحقُّ فيزيلَ عنهُ ما هوَ فيهِ منَ القَلَقِ[1].

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٠٧.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَمِنْ ذَلِكَ (البَوَادِهُ، وَالهُجُومُ)[(٢)]:

والبَوَادِهُ: مَا يَفْجَأُ قَلْبَكَ مِنَ الغيبِ عَلَىٰ سَبِيلِ الوَهْلَةِ[(٣)]؛ إِمَّا مُوجِبُ فَرَحٍ، أَوْ مُوجِبُ تَرَحٍ.

وَالهُجُومُ: مَا يَرِدُ عَلَىٰ القَلْبِ بِقُوَّةِ الوَقْتِ مِنْ غَيْرِ تَصَنُّعٍ مِنكَ[(٤)].

وَيَخْتَلِفُ فِي الأَنْوَاعِ عَلَىٰ حَسَبِ قُوَّةِ الوَارِدِ وَضَعْفِهِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ تُغَيِّرُهُ البَوَادِهُ، وَتَصرِفُهُ الهَوَاجِمُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فَوْقَ مَا يَفْجَأُهُ[(٥)] حَالًا وَقُوَّةً، أُولَئِكَ سَادَتِ الوَقْتَ، كَمَا قِيلَ[(٦)]:

لَا تَهْتَـدِي نُـوبُ الزَّمَـانِ إِلَـيْهِمُ ❊ وَلَهُمْ عَلَىٰ الخَطْبِ الجَلِيلِ لِجَامُ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **والبَوادِهُ**: مشتقَّةٌ ممَّا يُبْدِيهِ[(٧)] القلبُ، أيْ: يُلْهِمُهُ العبدُ، ولكنْ قد يكونُ لهُ سببٌ يوجِبُ فَرَحًا أو تَرَحًا، أو ما يجرِي مَجراهُ.

والهَواجِمُ: مشتقَّةٌ منَ الهجومِ؛ وهوَ ما يهجمُ على القلبِ منْ غيرِ نظرٍ في سببٍ ولا تكلُّفٍ بنظرٍ[(٨)]، وكلاهُمَا يقعُ ابتداءً إلَّا أنَّ أحدَهُمَا متوقِّفٌ على سببٍ، والثَّانِي لا سببَ لهُ، وكلٌّ منهُمَا قد يكونُ قويًّا حتَّى يغلبَ على عقلِ العبدِ وقوَّتِهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٨٨.

(٢) انظر في هذا المصطلح: اللمع في التصوف ص٤١٧، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٦٤، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٣٧.

(٣) أي: البغته.

(٤) أي: تكلّف.

(٥) في (أ): «مَا يَهْجُمُهُ يَفْجَأُهُ»، والمثبت موافق لما في القشيرية.

(٦) من الكامل، وورد بلا نسبة في: التنوير في إسقاط التدبير ص١٢ ـ ط/المكتبة الأزهرية.

(٧) الرسالة القشيرية ١/١٨٨.

(٨) في (ج): نظر.

فيظهرَ على شاهدِهِ، وعنهُ تكونُ الحركةُ أوِ الصِّياحُ أوِ الغشيةُ أوِ الذُّهُولُ أوِ الذُّبُولُ، ومنهُ ما يكونُ ضعيفًا لا تؤثِّرُ فيهِ كلُّ هذهِ الآثارِ، ومنهُ ما يكونُ قويًّا وتكونُ قوَّةُ صاحبِهِ أثبتَ منَ الحالِ وأمكنَ في الحملِ، فلا يظهرُ غلبةُ آثارِهِ، كمَا قيلَ للجُنيدِ[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا كانَ في السَّماعِ فتحرَّكَ[2] النَّاسُ ولم يتحرَّكْ: «يا سيِّدِي، ما لكَ في هذا شيءٌ؟، فأجابَ السَّائلَ بقولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]»، أيْ: أنَّهُ يجدُ كمَا يجدُونَ، وهوَ أقوىٰ علىٰ حفظِهِ حتَّىٰ لا يظهرَ علىٰ شاهدِهِ منكُمْ، ولهذَا قالَ الإمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أولئِكَ سَادَاتُ الوقتِ**[3]، كمَا قيلَ:

لَا تَهْتَـدِي[4] نُـوَبُ الزَّمَـانِ إِلَـيْهِمُ ❊ وَلَهُم عَلَىٰ الخَطْبِ الجَلِيلِ لِجَامُ» [١/١٣٨أ]

يَعْنِي: أنَّهُ لا تتغيَّرُ أحوالُهُمْ باختلافِ ما يطرأُ في العالمِ منَ السَّعةِ والضِّيقِ والعوافِي والبلايَا وغيرِ ذلكَ ممَّا يحدثُ في الزَّمانِ وتتغيَّرُ لهُ الألبابُ والأحوالُ، فلذلكَ قالَ:

وَلَهُـم عَلَـىٰ الخَطْـبِ الجَلِيـلِ لِجَـامُ

يعنِي: ما يطرقُهُمْ منَ الأمورِ العظيمةِ فِي أنفسِهِمْ قوَّةَ ثباتٍ وحفْظٍ، وعبَّرَ عنهُ باللِّجامِ[5].

---

(١) سبق تخريج قوله.

(٢) في (ج): تحرك.

(٣) أي: أشرافه.

(٤) أي: لا تصل.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٠٨.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَمِنْ ذَلِكَ (التَّلْوِينُ، وَالتَّمْكِينُ)[(٢)]:

التَّلْوِينُ: صِفَةُ أَرْبَابِ الأَحْوَالِ.

وَالتَّمْكِينُ: صِفَةُ أَهْلِ الحَقَائِقِ.

فَمَا دَامَ العَبْدُ فِي الطَّرِيقِ فَهُوَ صَاحِبُ تَلْوِينٍ؛ لِأَنَّهُ يَرْتَقِي مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ، وَيَنْتَقِلُ مِنْ وَصْفٍ إِلَىٰ وَصْفٍ، وَيَخْرُجُ مِنْ مَرْحَلٍ[(٣)] وَيَحْصُلُ فِي مَرْبَعٍ[(٤)]، فَإِذَا وَصَلَ تَمَكَّنَ، وَأَنْشَدُوا[(٥)]:

مَـا زِلْـتُ أَنْـزِلُ فِـي وِدَادِكَ مَنْـزِلاً ❊ تَتَحَيَّـرُ الأَلْبَـابُ دُونَ نُزُولِـهِ

وَصَاحِبُ التَّلْوِينِ أَبَدًا فِي الزِّيَادَةِ، وَصَاحِبُ التَّمْكِينِ وَصَلَ ثُمَّ اتَّصَلَ[(٦)]، وَأَمَارَةُ [ذَلِكَ][(٧)] أَنَّهُ اتَّصَلَ: [ثُمَّ][(٨)] أَنَّهُ بِالْكُلِّيَّةِ عَنْ كُلِّيَّتِهِ بَطَلَ.

وَقَالَ المَشَايِخُ: اِنْتَهَىٰ سَفَرُ الطَّالِبِينَ إِلَىٰ الظَّفَرِ بِنُفُوسِهِمْ[(٩)]، فَإِذَا ظَفَرُوا بِنُفُوسِهِمْ فَقَدْ وَصَلُوا.

[قَالَ الأُسْتَاذُ][(١٠)]: يُرِيدُ بِهِ: اِنْخِنَاسَ أَحْكَامِ البَشَرِيَّةِ، وَاسْتِيلَاءَ سُلْطَانِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٨٩ ـ ١٩٠.

(٢) انظر في هذا المصطلح في: عوارف المعارف ٢/٣٢٢، والإبانة لابن فورك ص٣٤٩، والتعريفات ص٩١ ـ ٩٢، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص١٧٥، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٤٨.

(٣) أي: محل الرحيل.

(٤) محل الربيع.

(٥) من الكامل، وورد بلا نسبة في: اللمع للطوسي ص٢٨١، وتاريخ بغداد ٥/١٣٥، وإحياء علوم الدين ٤/٣٠٧.

(٦) أي: اتصل بحال الحق.

(٧) زيادة من (ف).

(٨) زيادة من (ف).

(٩) أي: بملكها ومعرفة قدرها وحقها. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٣١.

(١٠) زيادة من (ف).

الحَقِيقَةِ، فَإِذَا دَامَتْ لِعَبْدٍ هَذِهِ الحَالَةُ فَهُوَ صَاحِبُ تَمْكِينٍ.

كَانَ الشَّيْخُ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَّاقُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صَاحِبَ تَلْوِينٍ، فَرَجَعَ مِنْ سَمَاعِ الكَلَامِ وَاحْتَاجَ إِلَى سَتْرِ وَجْهِهِ؛ لِأَنَّهُ أَثَّرَ فِيهِ الحَالُ، وَنَبِيُّنَا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ صَاحِبَ تَمْكِينٍ، فَرَجَعَ كَمَا ذَهَبَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِ مَا شَاهَدَهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ.

وَكَانَ يَسْتَشْهِدُ عَلَى هَذَا بِقِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَنَّ النِّسْوَةَ اللَّاتِي رَأَيْنَ يُوسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قَطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ لِمَا وَرَدَ عَلَيْهِنَّ مِنْ شُهُودِ يُوسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عَلَى وَجْهِ الفَجْأَةِ، وَامْرَأَةُ الْعَزِيزِ كَانَتْ أَتَمَّ فِي بَلَاءِ يُوسُفَ مِنْهُنَّ، وَمِنْ ثَمَّ لَمْ تَتَغَيَّرْ عَلَيْهَا شَعْرَةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ صَاحِبَةَ تَمْكِينٍ فِي حَدِيثِ يُوسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: التَّلوينُ ينطلقُ على وجهَينِ:

أَحَدُهُمَا: نيلُ الحالِ والرُّجوعُ عنهُ، فيعبَّرُ بهذِهِ الحالةِ عنِ التَّلوينِ، فإنَّهُ يكونُ تارةً معَ الخلقِ، وتارةً معَ نفسِهِ، فهوَ متلوِّنٌ، وهوَ حالُ بعضِ السَّالكينَ.

والحالُ الثَّانِي: الانتقالُ من منزلٍ إلى منزلٍ إلى أنْ يصلَ إلى مطلوبِهِ الأقصَى، فيصيرَ مُتمكِّنًا(١).

ويحتملُ أنْ يكونَ في كلِّ مقامٍ متلوِّنًا [١/١٣٨ب] متمكِّنًا، فهوَ بالنِّسبةِ إلى ما ارتقَى عنهُ متمكِّنًا فيهِ، وبالنِّسبةِ إلى ما كانَ فيهِ متلوِّنًا، فإذَا تمكَّنَ في المقامِ كانَ فيهِ متمكِّنًا، فإذَا انتقلَ إلى غيرِهِ ممَّا هوَ أعلى منهُ ولم تَثبُتْ قدمُهُ فيهِ ورجعَ إلى الأوَّلِ كانَ مُتلوِّنًا، وعلى هذا لا يزالُ متلوِّنًا متمكِّنًا بالنِّسبةِ والإضافةِ، إلى أنْ يصلَ إلى مقامِ التَّوحيدِ، ويغلبَ على قلبِهِ حالُ الحقِّ حتَّى لا يلتفتَ لغيرِهِ، وحينئذٍ يحبسُ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٠٨.

نفسَهُ، أيْ: تقلُّ مطالبَتُهَا لشيءٍ آخرَ؛ لجمودِهَا وذبولِهَا تحتَ سلطانِ الحقيقةِ.

فإذا وصلَ إلىٰ هذَا الحالِ كانَ متمكِّنًا مطلقًا، وما دامَ في مدارجِ السُّلوكِ إلىٰ هذا الحالِ يصحُّ أنْ يُسمَّىٰ متلوِّنًا متمكِّنًا باعتبارَينِ، كمَا ذكرْنَاهُ، ولذلكَ قالَ المشايخُ: «**غايةُ مطلوبِ السَّالكينَ الظَّفرُ بنفوسِهِمْ، وإليهِ انتهاءُ سفرِهِمْ**».

وفسَّرَهُ الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بخنوسِ نفوسِهِمْ وذهابِ الإحساسِ بهَا بسلطانِ الحقيقةِ، وإلَّا فالإطلاقُ الأوَّلُ قدْ يصحُّ علىٰ غيرِ هذا المعنىٰ، ولا يكونُ منتهَىٰ طلبِ السَّالكينَ، وذلكَ أنَّ النَّفسَ قدْ تُملَكُ وتُقْهَرُ بسياطِ[(١)] الخوفِ والرَّجاءِ وغيرِ ذلكَ من أنواعِ المجاهداتِ، وإذَا ملكَ الإنسانُ نفسَهُ فهوَ مشغولٌ بملكِهَا وحفظِهَا عن سوءِ عوائدِهَا، وهذَا منْ مقاماتِ المريدِينَ، وليسَ من أعلىٰ مطالِبِ السَّالكينَ، والَّذِي فسَّرَهُ الإمامُ جيِّدٌ جَارٍ علَىٰ التَّحقيقِ.

وأمَّا ما مثَّلَ بهِ في قصَّةِ نبيِّنَا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموسَىٰ الكليم - صلواتُ اللهِ عليهِمَا - مِنْ أنَّ موسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمَّا كلَّمَ ربَّهُ رجعَ إلىٰ النَّاسِ متبرقِعًا، والنَّبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا رجعَ من مناجاةِ ربِّهِ ليلةَ المعراجِ رجعَ كمَا كانَ؛ إشارةً إلىٰ تغيُّرِ حالِ الكليمِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فرجوعُهُ بخلافِ ما كانَ، وعدمُ[(٢)] ذلكَ في حقِّ[(٣)] النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جعلَ أحدَهُمَا صاحبَ تمكينٍ والآخرَ صاحبَ تلوينٍ لتغيُّرِهِ.

وهذا التَّمثيلُ ينبغِي التَّثبُّتُ فيهِ؛ لئلَّا يسبقَ لقلبِ العبدِ شيءٌ منَ الاستنقاصِ والهضمِ في جهةِ أحدٍ منَ الأنبياءِ ـ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ـ فيهلَكَ، وقدْ قالَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٤)]: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَىٰ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ، وَلَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ»،

---

(١) في (ج): بصياط.

(٢) في (أ): وعدمن.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) روي في: تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص١١٦، وتخريج الأحاديث والآثار للزيلعي ١/٢٦٤.

وقال[(١)]: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرٌ».

وأَمَّا ما مثَّلَ بهِ من حالِ النِّسوةِ معَ يوسفَ فهوَ كافٍ في المقصودِ الَّذِي أرادَهُ، وذلكَ أنَّ امرأةَ العزيزِ لمَّا توالَىٰ عليها النَّظرُ ليوسفَ وتوالَىٰ جمالُهُ [١/١٣٩ا] علىٰ قلبِهَا لم تلتفِتْ إليهِ وقتَ خروجِهِ علىٰ النِّسوةِ الَّتي لم يُطِقْن ما طاقَتْ وقطَّعْنَ أيديَهُنَّ[(٢)]؛ لغلبَةِ شغلهِنَّ بهِ علىٰ إحساسِهِنَّ، فامرأةُ العزيزِ صاحبةُ تمكينٍ، والنِّسوةُ صاحباتُ تلوينٍ لتغيُّرِ أحوالِهِنَّ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «وَاعلَمْ أَنَّ التَّغَيُّرَ بِمَا يَرِدُ عَلَىٰ العَبْدِ إِنَّمَا يَكُونُ لِأَحَدِ أَمْرَينِ: إِمَّا لِقُوَّةِ الوَارِدِ، أَوْ لِضَعْفِ صَاحِبِهِ، وَالسُّكُونُ مِنْ صَاحِبِهِ لِأَحَدِ أَمْرَينِ: إِمَّا لِقُوَّتِهِ، أَوْ لِضَعْفِ الوَارِدِ عَلَيْهِ.

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: أُصُولُ القَوْمِ فِي جَوَازِ دَوَامِ التَّمْكِينِ تَتَخَرَّجُ عَلَىٰ وَجْهَينِ:

أَحَدُهُمَا: مَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٤)]: «لَوْ بَقِيتُمْ عَلَىٰ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ»، وَلِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ[(٥)]: «لِي وَقْتٌ لَا يَسَعُنِي فِيهِ غَيْرُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ»، أَخْبَرَ عَنْ وَقْتٍ مَخْصُوصٍ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ يَصِحُّ دَوَامُ الأَحْوَالِ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الحَقَائِقِ ارْتَقَوا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/١٧٨٢ ـ حديث رقم (٢٢٧٨)، والترمذي في سننه ٥/٣٠٨.

(٢) كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١].

(٣) الرسالة القشيرية ١/١٩٠ ـ ١٩١.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه ٢/١٤١٦ بلفظ: «لو كُنتم كما تكونُونَ عِندِي لَصافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ علىٰ فُرُشِكُم أو علىٰ طُرُقِكُم».

(٥) ورد في: المصنوع ص ١٥١، وأردفه بقوله: «من كلام بعض الصوفية وليس بحديث»، والأسرار المرفوعة ص٢٩٩، والمقاصد الحسنة ص٥٦٥.

عَنْ وَصْفِ التَّأَثُّرِ[١] بِالطَّوَارِقِ، وَالَّذِي فِي الخَبَرِ السَّابِقِ أَنَّهُ قَالَ: «لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ»، فَلَمْ يُعَلِّقِ الأَمْرَ فِيهِ عَلَىٰ وَجْهٍ مُسْتَحِيلٍ، وَمُصَافَحَةُ المَلَائِكَةِ دُونَ مَا أَثْبَتَ لِأَهْلِ البِدَايَةِ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ[٢]: «إِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ»، وَمَا قَالَ: «لِي وَقْتٌ،» فَإِنَّمَا[٣] قَالَهُ عَلَىٰ حَسَبِ فَهْمِ السَّامِعِ، وَفِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ كَانَ قَائِمًا بِالحَقِيقَةِ.

وَالأَوْلَىٰ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ العَبْدَ مَا دَامَ فِي التَّرَقِّي، فَصَاحِبُ تَلْوِينٍ يَصِحُّ فِي نَعْتِهِ الزِّيَادَةُ فِي الأَحْوَالِ وَالنُّقْصَانُ مِنْهَا، فَإِذَا وَصَلَ إِلَى الحَقِّ بِانْخِنَاسِ أَحْكَامِ الْبَشَرِيَّةِ، مَكَّنَهُ الحَقُّ ـ سبحانه ـ بِأَلَّا يَرُدَّهُ إِلَىٰ معلولاتِ النفسِ، فهو ممكَّنٌ في حالِهِ علىٰ حسبِ محلِّهِ واستحقاقِهِ، ثُمَّ ما يتحفُهُ الحقُّ ـ سبحانه ـ فِي كُلِّ نَفَسٍ، فَلَا حَدَّ لِمَقْدُورَاتِهِ، فَهُوَ فِي الزِّيَادَاتِ مُتَلَوِّنٌ، بَلْ مُلَوَّنٌ، وَفِي أَصْلِ حَالِهِ مُمَكَّنٌ، فَأَبَدًا يَتَمَكَّنُ فِي حَالَةٍ أَعْلَىٰ مِمَّا كَانَ فِيهَا قَبْلَهُ، ثُمَّ تَرَقَّىٰ عَنْهَا إِلَىٰ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؛ إِذْ لَا غَايَةَ لِمَقْدُورَاتِ الحَقِّ ـ سبحانه ـ فِي كُلِّ جِنْسٍ.

فَأَمَّا المُصْطَلَمُ[٤] عَنْ شَاهِدِهِ، المُسْتَوْفِي إِحْسَاسَهُ بِالكُلِّيَّةِ، فَلِلْبَشَرِيَّةِ ـ لَا مَحَالَةَ ـ حَدٌّ[٥]، وَإِذَا بَطَلَ عَنْ جُمْلَتِهِ وَنَفْسِهِ وَحِسِّهِ، وَكَذَلِكَ عَنِ الْمُكَوَّنَاتِ بِأَسْرِهَا، ثُمَّ دَامَتْ بِهِ هَذِهِ الغَيْبَةُ فَهُوَ مَحْوٌ، فَلَا تَمْكِينَ إِذًا وَلَا تَلْوِينَ، وَلَا مَقَامَ وَلَا حَالَ، وَمَا دَامَ بِهَذَا الوَصْفِ فَلَا تَشْرِيفَ وَلَا تَكْلِيفَ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُرَدَّ لِمَا يَجْرِي عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ مِنْهُ، فَذَلِكَ مُتَصَرِّفٌ فِي ظُنُونِ [١/١٣٩ب] الخَلْقِ، مُصرَّفٌ فِي

(١) في (ب): الناس، وهو تحريف.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٣/٣١٧، وابن ماجه في سننه ١/٨١، والترمذي في سننه ٥/٤٨.
(٣) في (ب): وما.
(٤) أي: الغائب.
(٥) وعليه مدار التكليف، وبتحققه تكون زيادة التشريف. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٣٥.

التَّحْقِيقِ، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨]، وبالله التوفيقُ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «واعلَمْ أنَّ التَّغيُّرَ منَ العبدِ يكونُ لأحدِ وجهَينِ: إمَّا لقوَّةِ الواردِ أو لضَعْفِهِ، فإنْ كانَ الواردُ قويًّا والعبدُ ضعيفًا لمْ يحملْهُ، وإنْ كانَ الواردُ ضعيفًا والعبدُ قويًّا لمْ يتغيَّرْ»، وحملَ ما يردُ عليهِ.

وقولُ الشَّيخِ أبي عليٍّ: «إنَّ أصولَ القومِ في جوازِ دوامِ التَّمكينِ يتخرَّجُ علىٰ وجهَينِ:

أحدُهُمَا: ما لا سبيلَ إليهِ»، يعنِي: لا سبيلَ إلىٰ دوامِ التَّمكينِ، واستدلَّ عليهِ بما جرىٰ لحنظلةَ، فلمَّا رآهُ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبكِي، قالَ: ما لكَ يا حنظلةُ؟ قالَ: «نافقَ حنظلةُ»، وأخذَ في البكاءِ، فأتىٰ بهِ إلَىٰ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهوَ يقولُ: نافقَ حنظلةُ، نافقَ حنظلةُ، وهوَ يبكِي، فسألَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حالِهِ، قالَ: يا رسولَ اللهِ، نكونُ عندكَ تذكِّرُنا الآخرةَ والجنَّةَ والنَّارَ كأنَّا رأيُ العينِ، فإذا فارقناكَ عافسنا[(١)] الأهلَ فزالَ عنَّا ذلكَ، فقالَ لهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَوْ دُمْتُمْ كَمَا تَكُونُونَ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ فِي طُرُقِكُمْ وَعَلَىٰ فُرُشِكُمْ، وَلَكِنْ ـ يَا حَنْظَلَةُ ـ سَاعَةً وَسَاعَةً»[(٢)]، وهذا لا يدلُّ علىٰ أنَّهُ لا سبيلَ إليهِ، بلْ هوَ منَ الجائزِ الوصولُ إليهِ، وقدْ أرشدَهُمُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ تعلُّمِ ذلكَ والتَّردُّدِ إليهِ ساعةً وساعةً، وأنَّ العبدَ إذا توَالَىٰ ذلكَ عليهِ وعَوَّدَهُ نفسَهُ صارَ الغالبَ عليهِ، ويدلُّ عليهِ قولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لحارثةَ: كيفَ أصبحتَ؟ قالَ لهُ: مؤمنًا حقًّا، قالَ لهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٣)]: «إنَّ لكلِّ حقٍّ حقيقةً»، فأخبرَهُ بالحقيقةِ؛ وهيَ غلبةُ هذا الحالِ علىٰ قلبِ العبدِ كأنَّهُ يشاهدُ الجنَّةَ والنَّارَ، فلوْ لمْ يكنْ نيلُ

---

(١) المعافسة: ملاعبة النساء. انظر: غريب الحديث للخطابي ١/٢٤٦.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه ٤/٢١٠٦ ـ حديث رقم (٢٧٥٠).

(٣) سبق تخريجه.

هذِهِ الحقيقةِ ودوامُهَا ممكنًا لمَا نالَهُ حارثةُ، وإنَّمَا خافَ حنظلةُ أنْ يكونَ تغيُّرُهُ عنْ ذلكَ نفاقًا، فأعلَمَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّهُ ليسَ بنفاقٍ وأنَّهُ ضعفٌ، فعلَّمَهُ كيفَ يقوَىٰ.

وقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِي وَقْتٌ لَا يَسَعُنِي فِيهِ غَيْرُ رَبِّي» صحيحٌ، وقدْ قالتْ[(١)] عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[(٢)]: «كانَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منْ أفكَهِ النَّاسِ معَ نسائِهِ، فإذا حضرَتِ الصَّلاةُ فكأنَّهُ لا يعرفُنا ولا نعرفُهُ»، ولا يلزمُ منْ هذا أنْ يكونَ معَ نسائِهِ في غفلةٍ وميلٍ إلىٰ الدُّنيا، بلْ كلُّ ذلكَ طاعةٌ لربِّهِ، وكذلكَ كلُّ ما هوَ فيهِ من رعايتِهِ لأمَّتِهِ وبسطِهِ معَهُمْ [١/١٤٠أ]، وقولُهُ لصغيرٍ[(٣)]: «**يَا عُمَيرُ، مَا فعلَ النُّغَيرُ**»، وقولُهُ للمرأةِ[(٤)]: «**في عينِ زَوجِكِ بيَاضٌ**»، وقوله[(٥)]: «**إنِّي لأمزَحُ ولَا أقولُ إلَّا حَقًّا**»، فكلُّ ما هوَ فيهِ حقٌّ وطاعةٌ لربِّهِ.

ولا يلزمُ من ذلكَ أنْ يكونَ حالُهُ متساويًا في سائرِ أوقاتِهِ، بل علىٰ حسبِ ما يرِدُ علىٰ قلبِهِ من فتحِ ربِّهِ وقُرْبِهِ ورؤيةِ جلالِهِ وجمالِهِ، فيستغرقُ فيهِ حتَّىٰ لا يلتفتَ لغيرِهِ، كمَا نُقلَ عنهُ في أوقاتِ نزولِ الوحْيِ عليهِ، ومكالمةِ جبريلَ لهُ، وتفصُّدِ جَبِينهِ بالعَرَقِ[(٦)]؛ لشدَّةِ ما هوَ فيهِ واستغراقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٧)]، وإذا كانَ تمكُّنُ العبدِ

---

(١) في (ب): قال.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٢٧٠ ـ حديث رقم (٥٧٧٨)، ومسلم في صحيحه ٣/١٦٩٢ ـ حديث رقم (٢١٥٠). وفي المغرب للمطرزي ٢/٨٢: «يرىٰ أنه كان يمازحه بهذا؛ وذلك أنه رآه يومًا حزينًا فقال: ماله؟ فقيل: مات نغيره؛ وهو تصغير نغر وهو فرخ العصفور، وقيل: طائر شبه العصفور، وجمعه: نغران كصرد وصردان».

(٤) أخرجه العراقي في: المغني عن حمل الأسفار ٢/٨١٤.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٣٥٧، والبيهقي في سننه الكبرىٰ ١٠/٢٤٨، والطبراني في المعجم الأوسط ٧/٢١٩.

(٦) أي: سال. وفي المعجم الكبير ٥/١١٥: «إذا أُنْزِلَ الْوَحْيُ علىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَقُلَ لِذَلِكَ ويَحْدُرُ جَبِينُهُ عَرَقًا».

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣١١.

إنَّمَا هوَ راجعٌ إلىٰ قُوَّتِهِ وحملِهِ لمَا يرِدُ عليهِ من ربِّهِ كيفَ مَا كانَ الواردُ، فهوَ متمكِّنٌ وإنِ اختلفَ الواردُ عليهِ فهوَ حاملٌ لقويِّهِ وضعيفِهِ، وذلكَ لكمالِ قوَّتِهِ وعونِ ربِّهِ وأُنْسِهِ بأصنافِ الوارداتِ، واختلافهَا في التَّوالِي عليهِ قويَّةً تارةً وضعيفةً تارةً[١]، فهوَ متمكِّنٌ بالنِّسبةِ لقبولِ جميعِ ذلكَ، فخرَجَ من ذلكَ أنَّ التَّمكُّنَ عدمُ التَّغيُّرِ بالوارداتِ وإنِ اختلفَتْ أنواعُهَا، وما دامَ العبدُ متغيِّرًا فهوَ صاحبُ تلوينٍ، ومتَىٰ كانَ حاملًا لجميعِ أصنافِ ما يرِدُ عليهِ وإنِ اختلفَتْ في القوَّةِ والضَّعفِ فهوَ صاحبُ تمكينٍ، واللهُ الموفِّقُ والمُعِينُ.

وقولُهُ: «**إلَّا أنْ يصطَلِمَ العبدُ حتَّىٰ يغيبَ عن نفسِهِ وعنِ الكونِ بأسْرِهِ فلَا يوصَفَ بتمكينٍ ولا تلوينٍ ولا تكليفٍ ولا تشريفٍ**[٢]» إلىٰ آخرِ كلامِهِ، فهذا محمولٌ علىٰ مَنْ ورَدَ عليهِ أمرٌ غيَّبَهُ عن نفسِهِ بالكلِّيَّةِ، وأشبهَ المغمَىٰ عليهِ الَّذِي لمْ يوصَفْ بسرفِ حالٍ ولا نقْصِهِ ولا تعترضُ عليهِ التَّكاليفُ، وهذا ليسَ محمودًا، وإنَّمَا المحمودُ البالغُ مَنْ كمُلَ اشتغالُهُ بمولَاهُ حتَّىٰ غفلَ عن نفسِهِ؛ فضلًا عمَّنْ سِوَاهُ، فلمْ يغِبْ عن شُعُورِهِ بنفسِهِ إلَّا لكمالِ شُغْلِهِ بربِّهِ، فهذَا هوَ المشرفُ الكاملُ في وصفِهِ، لا مَنْ قهَرَهُ أمرٌ غيَّبَهُ عن كلِّ شيءٍ، فغفلَ عن نفسِهِ وربِّهِ بالكلِّيَّةِ، فإنْ أرادَ بالمصطلمِ هذَا الشَّخصَ فصحيحٌ، وقدْ بيَّنَّا أنَّ الكمالَ غيرُهُ[٣]، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ: «**اللَّهُمَّ إلَّا أنْ يُرَدَّ إلىٰ نفسِهِ وإحساسِهِ بمَا يجرِي عليهِ، فيدركَ ما يجريهِ الحقُّ عليهِ وتصرُّفَهُ فيهِ، فهوَ في الشَّاهدِ متصرِّفٌ، وهوَ في التَّحقيقِ مصرَّفٌ**»، فهوَ يرَىٰ تصريفَ الحقِّ لهُ وجريانَ القَدرِ فيهِ، وهذا إذا كانَ الحالُ

---

(١) في (ج): أخرىٰ.

(٢) لانتفاء مدار ذلك منه بانتفاء شعوره.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣١٣.

مستمرًّا عليهِ كمَا حُكِيَ عن بعضِهِمْ: «أنَّهُ يُرَدُّ في حالِ سُكْرِهِ إلىٰ صحْوِهِ، لإقامةِ فرضِ ربِّهِ».

فبهذا الاعتبارِ يكونُ متصرِّفًا مصرَّفًا، فهوَ من حيثُ إتيانُهُ [١/١٤٠ب] بمَا يلزمُهُ في إقامةِ حقِّ ربِّهِ متصرِّفٌ، ومِنْ حيثُ توفيقُهِ وتسديدُهِ وحملُ الحقِّ لهُ في حالِ غيبتِهِ علىٰ القيامِ بحقِّهِ مصرَّفٌ فيهِ، واللهُ المُعينُ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَمِنْ ذَلِكَ (القُرْبُ، وَالبُعْدُ)[٢]:

أَوَّلُ رُتْبَةٍ فِي القُرْبِ: القُرْبُ مِنْ طَاعَتِهِ، وَالاتِّصَافُ فِي دَوَامِ الأَوْقَاتِ لِعِبَادَتِهِ - سبحانه -.

وَأَمَّا البُعْدُ: فَهُوَ التَّدَنُّسُ بِمُخَالَفَتِهِ، وَالتَّجَافِي[٣] عَنْ طَاعَتِهِ.

فَأَوَّلُ البُعْدِ: بُعْدٌ عَنِ التَّوْفِيقِ، ثُمَّ بُعْدٌ عَنِ التَّحْقِيقِ، بَلِ البُعْدُ عَنِ التَّوْفِيقِ هُوَ البُعْدُ عَنِ التَّحْقِيقِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُخْبِرًا عَنِ الحَقِّ - سبحانه -[٤]: (مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِم، وَلَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى يُحِبَّنِي وَأُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا، فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ).. الخَبَرُ.

فَقُرْبُ العَبْدِ أَوَّلًا قُرْبٌ بِإِيمَانِهِ وَتَصْدِيقِهِ، ثُمَّ قُرْبٌ بِإِحْسَانِهِ وَتَحْقِيقِهِ، وَقُرْبُ الحَقِّ - سبحانه - مِنَ العَبْدِ مَا يَخُصُّهُ اليَوْم بِهِ مِنَ العِرْفَانِ، وَفِي الآخِرَةِ مَا يُكْرِمُهُ بِهِ مِنَ الشُّهُودِ وَالعِيَانِ، وَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ اللُّطْفِ وَالامْتِنَانِ[٥].

وَلَا يَكُونُ قُرْبُ العَبْدِ مِنَ الحَقِّ إِلَّا بِبُعْدِهِ مِنَ الخَلْقِ، وَهَذِهِ مِنْ صِفَاتِ القُلُوبِ، دُونَ أَحْكَامِ الظَّوَاهِرِ وَالكَوْنِ.

فَقُرْبُ الحَقِّ - سبحانه - بِالعِلْمِ وَالقُدْرَةِ عَامٌّ لِلْكَافَّةِ، وَبِاللُّطْفِ وَالنُّصْرَةِ خَاصٌّ بِالمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ بِخَصَائِصِ التَّأْنِيسِ مُخْتَصٌّ بِالأَوْلِيَاءِ، قَالَ اللهُ - سبحانه -: ﴿وَنَحْنُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٩٢ - ١٩٣.

(٢) انظر في هذا المصطلح: معجم اصطلاحات الصوفية ص١٦١، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٣٥، ٢١٦.

(٣) أي: البعد.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) في (ب): والامتنا، والصواب المثبت.

﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥]، وقال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

وَمَنْ تَحقَّقَ بِقُرْبِ الحقِّ فَأَدْوَنُهُ دوامُ مُراقَبتِه إيَّاهُ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ رَقِيبُ التَّقْوَىٰ، ثُمَّ عَلَيْهِ رَقِيبُ الحِفْظِ وَالوَفَاءِ، ثُمَّ رَقِيبُ الحَيَاءِ، وَأَنْشَدُوا[١]:

كَأَنَّ رَقِيبًا مِنكَ يَرْعَىٰ خَوَاطِرِي ❁ وَآخَرَ يَرْعَىٰ نَاظِرِي وَلِسَانِي
فَمَا رَمَقَتْ عَيْنَايَ بَعْدَكَ مَنْظَرًا ❁ يَسُوؤُكَ إِلَّا قُلْتُ قَدْ رَمَقَانِي
وَلَا بَدَرَتْ مِنْ فِيَّ دُونَكَ لَفْظَةٌ ❁ لِغَيْرِكَ إِلَّا قُلْتُ قَدْ سَمِعَانِي
وَلَا خَطَرَتْ فِي السِّرِّ بَعْدَكَ خَطْرَةٌ ❁ لِغَيْرِكَ إِلَّا عَرَّجَا بِعِنَانِي
وَإِخْوَانُ صِدْقٍ قَدْ سَئِمْتُ حَدِيثَهُم ❁ وَأَمْسَكْتُ عَنْهُم نَاظِرِي وَلِسَانِي [١/١٤١أ]
وَمَا الزُّهْدُ أَسْلَىٰ عَنْهُمُ غَيْرَ أَنَّنِي ❁ وَجَدْتُكَ مَشْهُودِي بِكُلِّ مَكَانِ

وَكَانَ بَعْضُ المَشَايِخِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَخُصُّ وَاحِدًا مِنْ تَلَامِذَتِهِ بِإِقْبَالِهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَدَفَعَ إِلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ طَيْرًا وَقَالَ: اذْبَحْهُ بِحَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ.

فَمَضَىٰ كُلُّ وَاحِدٍ وَذَبَحَ الطَّيْرَ بِمَكَانٍ خَالٍ، وَجَاءَ هَذَا الإِنْسَانُ وَالطَّيْرُ مَعَهُ غَيْرَ مَذْبُوحٍ، فَسَأَلَهُ الشَّيْخُ؛ فَقَالَ: أَمَرْتَنِي أَنْ أَذْبَحَهُ بِحَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ[٢]، وَلَمْ يَكُنْ مَوْضِعٌ إِلَّا وَالْحَقُّ ـ سبحانه ـ يَرَاهُ!، فَقَالَ الشَّيْخُ: لِهَذَا أُقَدِّمُ هَذَا عَلَيْكُم،

---

(١) من الطويل، ونسبت للبحتري في: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ١٤٥/٦، ومصارع العشاق ٢١٣/٢، ووردت بلا نسبة في: الزهرة للأصبهاني ٢١٣/١، ونسب الأول منها لمحمد بن داود في: الوساطة بين المتنبي وخصومه ص٢١٨، وورد بعضها بلا نسبة في: الدر الفريد ٤١٦/٨.

(٢) سقط من (ب) إلىٰ قوله: هذا عليكم.

الغَالِبُ عَلَيْكُمْ حَدِيثُ الخَلْقِ، وَهَذَا غَيْرُ غَافِلٍ عَنِ الحَقِّ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لمَّا كانَ الحقُّ ـ سبحانه ـ مُنَزَّهًا عنِ المكانِ والزَّمانِ، استحالَ نسبةُ القُربِ إليهِ بالأبدانِ، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ فيمَا حكَىٰ عنهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخبرِ الصَّحيحِ: «مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِم، وَلَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ».. الحديث، فدلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ التَّقرُّبَ منَ العبدِ إلىٰ ربِّهِ إنَّمَا يكونُ بطاعاتِهِ، وأوَّلُ ذلكَ القيامُ بالواجباتِ والبعدُ عنِ المحرَّماتِ، وتقواهُ في هذَينِ القسمَينِ هوَ حذرُهُ منَ الإخلالِ بالواجباتِ ووقوعُهُ في شيءٍ منَ المحرَّماتِ.

فأوَّلُ القُرْبِ هوَ قُرْبُ العبدِ بتقوىٰ ربِّهِ الوَاجِبَةِ عليهِ في أمْرِهِ ونَهْيِهِ، ولذلكَ ينتقلُ إلىٰ القيامِ بالمندوباتِ، والكفِّ عنِ المكروهاتِ والشُّبُهَاتِ، وهيَ زيادةٌ في القُرْبِ كمَا ينتقلُ إلىٰ أفضلِ المندُوباتِ[١] ويتَّقِي الرُّجوعَ إلىٰ أدونِهِمَا وإنْ كانَ فيهِ فضْلٌ؛ حذرًا من فَوَاتِ أرفعِ الدَّرجاتِ، وكذلكَ في جانبِ التَّرْكِ يحذرُ علىٰ نفسِهِ منَ الوقوعِ في المُنْقِصَاتِ، فيدعُ ما لا بأسَ بهِ حذرًا مِنْ يسيرِ الشُّبهاتِ أوِ المكروهاتِ، فإذَا تعالَتْ درجتُهُ ودامَتْ مُرَاقبتُهُ لأحكامِ ربِّهِ في هذِهِ الجهاتِ انتقلَتْ همَّتُهُ إلىٰ مقامِ الإحسانِ وهوَ مقامُ المقرَّبينَ؛ وهوَ رؤيةُ ربِّهِ في سائرِ الحركاتِ والسَّكَنَاتِ، فيتَّقِي حينئذٍ الغَفَلاتِ، ويحذرُ علىٰ فَواتِ أوقاتِهِ في شيءٍ منَ الهَفَواتِ والبَطالاتِ، ويكونُ حياؤُهُ من ربِّهِ أنْ يفقدَهُ حيثُ أمرَهُ أو يرَاهُ غافلًا عنهُ في وقتٍ منَ الأوقاتِ[٢].

وإذَا تراقَىٰ فِي دوامِ نظرِهِ إليهِ، وتحسَّسَ لتوالِي نِعَمِهِ عليهِ في سائرِ الحركاتِ

(١) في (ب، ج): المندوبين، والأصح المثبت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ١/٣١٤.

[١٤١/١ب] والسَّكناتِ وجريانِ ذلكَ عليهِ، من بابِ الحفظِ واللُّطفِ والبركاتِ أحبَّ مولَاهُ؛ لمَا رأَىٰ من توالِي إحسانِهِ عليهِ في دنياهُ، فإذا أحبَّ مولَاهُ تزايدَ أدبُهُ معَهُ وتوالَىٰ عليهِ حضورُهُ وحسنُ نجوَاهُ، فإذا كانَ كذلكَ كانَ فِي أعلَىٰ مراتبِ القُرْبِ المنسوبِ إليهِ، فيحبُّهُ مولاهُ ويسبغُ عليهِ نِعَمَهُ وألطافَهُ، ويُجْرِي عليهِ منَ الكراماتِ ما يدلُّهُ بهِ علىٰ غيرِ(١) منزلتِهِ عندَهُ وحفظِهِ لهُ في سائرِ الحالاتِ، وهذا هوَ المرادُ بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: «كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ وَرِجْلَهُ» تعالَىٰ عن ذلكَ علوًّا كبيرًا، وإنَّمَا مرادُهُ: أنِّي أحفظُهُ في سائرِ حركاتِهِ بقلبِهِ وسائرِ جوارحِهِ.

فهذا معنَىٰ القُربِ منَ العَبْدِ وقُرْبِ الحقِّ منهُ بواضِحِ الدَّلالاتِ، فمِنَ العبيدِ مَنْ يكونُ قربُهُ في القيامِ بالواجباتِ وترْكِ المحرَّماتِ، وهيَ درجةٌ في القربِ تلِي الإيمانَ؛ لأنَّ الإيمانَ ـ أيضًا ـ قربٌ، والكفرَ بُعْدٌ، والإخلالَ بالواجباتِ وارتكابَ المحرَّماتِ بُعْدٌ، والشُّغلَ بالمندوباتِ وأفضلِ الطَّاعاتِ قربٌ، ومراعاةَ القلبِ في دوامِ نظرِهِ إلىٰ الحقِّ أفضلُ القُرْبِ، والغفلةَ بُعدٌ، وارتكابَ المكروهاتِ والشُّبُهاتِ بُعْدٌ، فالبُعدُ والقربُ علىٰ هذهِ الأنحاءِ، وكذلكَ قُربُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ منَ العبيدِ، تارةً يكونُ بمعنَىٰ العِلْمِ والإحاطةِ والحفظِ عَنْ أوائِلِ الشُّرورِ، وكذلكَ يتعالَىٰ قربُهُ منَ العبيدِ بمَا يوالِي عليهِمْ مِنَ الفضْلِ وتيسيرِ الخيراتِ علىٰ ما تقدَّمَ منَ الدَّرجاتِ، وقد تحقَّقَ أنَّ القربَ والبُعدَ منَ العبيدِ تتفاوتُ في الدَّرجاتِ، وكذلكَ ألطافُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بهِمْ وحفظُهُ لهُمْ متفاوتٌ علىٰ حسبِ ما يُجْرِيهِ عليهِم منَ الخيراتِ والصَّالحاتِ والحضورِ معَهُ والغفلاتِ.

وإذا وصلَ العبدُ إلىٰ هذا المقامِ الشَّريفِ ودامَتْ مُراقبتُهُ لهُ في كلِّ عَمَلٍ ثَقِيلٍ أو خَفِيفٍ، واشتدَّ حياؤُهُ منهُ حتَّىٰ لا يحيدَ عنِ الحقِّ ولَا يحيفَ حَسُنَ منهُ أنْ يقولَ:

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ يَرْعَىٰ خَوَاطِرِي ❖ وَآخَرَ يَرْعَىٰ نَاظِرِي وَلِسَانِي

إلىٰ آخرِ الأبياتِ.

وقولُهُ:

وَإِخْوَانُ صِدْقٍ قَدْ سَئِمْتُ حَدِيثَهُم ❖ وَأَمْسَكْتُ عَنْهُم نَاظِرِي وَلِسَانِي

وَمَا الزُّهْدَ أَسْلَىٰ عَنْهُمُ غَيْرَ أَنَّنِي ❖ وَجَدْتُكَ مَشْهُودِي بِكُلِّ مَكَانِ [١/١٤٢أ]

فيهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّهُ اشتغلَ بربِّهِ عن إخوانِهِ منَ الصَّالحينَ السَّالكينَ مسلكَهُ، الرَّاغبينَ فيمَا رغبَ فيهِ، فلم يُعرضْ عنهُمْ زهدًا فيهِم، كمَا يُعرضُ عن غيرِهِمْ من أربابِ الدُّنيَا، ولكِنْ لكمالِ شغلِهِ بمحبوبِهِ وما والَىٰ عليهِ من خلعِ إحسانِهِ وتَقْرِيبِهِ، والمكانُ المذكورُ في الأبياتِ للشَّاهدِ لا المشهودِ، وللعابدِ لا المعبودِ، ولهذا أشارَتِ الحكايةُ في التِّلميذِ الَّذِي كانَ يقدِّمُهُ الشَّيخُ علىٰ بقيَّةِ أصحابِهِ ولم يكنْ عندَهُمْ أكثرَ عملًا ولا عِلمًا، فتكلَّمَ بقيَّةُ الطَّلَبَةِ فِي تقريبِ الشَّيخِ لهُ، فأرادَ الشَّيخُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنْ يُعرِّفَهُمْ بخصوصيَّتِهِ الَّتِي اقتَضَتْ اختصاصَهُ وتَقْرِيبَهُ، فدفعَ إلىٰ كلِّ واحدٍ منهُمْ طيرًا، وقالَ: «**لِيَذْبَحْ كلُّ واحدٍ طيرَهُ؛ حيثُ لا يراهُ أحَدٌ**» وخرجُوا من بينِ يدَيهِ، فمضَىٰ كلُّ واحدٍ إلىٰ زاويةٍ وذبحَ طيرَهُ وأتىٰ بهِ مذبوحًا، وأتىٰ ذلكَ الشَّابُّ بطيرِهِ حيًّا، فقالَ لهُ الشَّيخُ: «**ولِمَ لَمْ تذبحْهُ؟ فقالَ: يا سيِّدِي، أمرتَنِي أنْ أذبحَهُ بحيثُ لا يرانِي أحدٌ ولا وجدْتُ مكانًا إلَّا واللهُ يرانِي فيهِ**»، فلمْ يُمْكنني ذبحُهُ، فقالَ لهُمُ الشَّيخُ: «**لهذَا أقدِّمُهُ عليكُمْ**»؛ لأنَّكُمْ موقوفونَ معَ الخلقِ[1]، وهوَ موقوفٌ معَ الحقِّ.

---

(١) فيغلب عليكم الغفلة عن الحق.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «وَرُؤْيَةُ القُرْبِ حِجَابٌ عَنِ القُرْبِ، وَمَنْ شَاهَدَ لِنَفْسِهِ مَحَلًا أَوْ نَفَسًا فَهُوَ مَمْكُورٌ بِهِ، وَلِهَذَا قَالُوا: (أَوْحَشَكَ اللهُ - تعالىٰ - مِنْ قُرْبِهِ)؛ أَيْ: مِنْ شُهُودِكَ لِقُرْبِهِ، فَإِنَّ الاسْتِئْنَاسَ بِقُرْبِهِ مِنْ سِمَاتِ الغِرَّةِ بِهِ؛ إِذِ الحَقُّ - سبحانه - وَرَاءَ[(٢)] كُلِّ أُنْسٍ، وَإِنَّ مَوَاضِعَ الحَقِيقَةِ تُوجِبُ الدَّهشَ[(٣)] وَالمَحْوَ، وَفِي قَرِيبٍ مِنْ هَذَا قَالُوا:

مِحْنَتِي فِيكَ أَنَّنِي ❊ مَا أُبَالِي بِمِحْنَتِي
قُرْبُكُم[(٤)] مِثْلُ بُعْدِكُمْ ❊ فَمَتَىٰ وَقْتُ رَاحَتِي

وَكَانَ الأُسْتَاذُ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَّاقُ رَحِمَهُ اللهُ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ:

وِدَادُكُمُ هَجْرٌ وَحُبُّكُم قِلًىٰ ❊ وَقُرْبُكُمْ بُعْدٌ وَسِلْمُكُم حَرْبُ

وَرَأَىٰ أَبُو الحُسَيْنِ النُّورِيُّ رَحِمَهُ اللهُ بَعْضَ أَصْحَابِ أَبِي حَمْزَةَ رَحِمَهُ اللهُ فَقَالَ: أَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَمْزَةَ الَّذِي يُشِيرُ إِلَىٰ القُرْبِ!؟ إِذَا لَقِيتَهُ فَقُلْ لَهُ: إِنَّ أَبَا الحُسَيْنِ النُّورِيَّ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ: قُرْبُ القُرْبِ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ بُعْدُ البُعْدِ[(٥)].

فَأَمَّا القُرْبُ بِالذَّاتِ[(٦)] فَتَعَالَىٰ اللهُ المَلِكُ الحَقُّ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ مُتَقَدِّسٌ عَنِ الحُدُودِ وَالأَقْطَارِ، وَالنِّهَايَةِ وَالمِقْدَارِ، مَا اتَّصَلَ بِهِ مَخْلُوقٌ، وَلَا انْفَصَلَ عَنْهُ حَادِثٌ مَسْبُوقٌ، جَلَّتِ الصَّمَدِيَّةُ عَنْ قَبُولِ الوَصْلِ وَالفَصْلِ. [١/١٤٢ب]

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٩٣ ـ ١٩٤.

(٢) في (ب): من وراء. والقصد: أمام، وهذا اللفظ من الأضداد.

(٣) أي: التحير.

(٤) في (ب): فقربكم، والأصح المثبت.

(٥) ورد في: اللمع للطوسي ص٨٥. والمراد بالقرب هنا: القرب المعنوي.

(٦) أي: بالبدن من المكان.

فَقُرْبٌ هُوَ فِي نَعْتِهِ مُحَالٌ ؛ وَهُوَ تَدَانِي الذَّوَاتِ ، وَقُرْبٌ هُوَ وَاجِبٌ فِي نَعْتِهِ ؛ وَهُوَ قُرْبٌ بِالعِلْمِ وَالرُّؤْيَةِ ، وَقُرْبٌ هُوَ جَائِزٌ فِي وَصْفِهِ يَخُصُّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ قُرْبُ الفَضْلِ بِاللُّطْفِ» .

※ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**رؤيةُ القُرْبِ حِجَابٌ عنِ القُرْبِ**» ، يعنِي: أنَّ كمالَ قُرْبِهِ أنْ يشتغلَ بالحقِّ عن رُؤيةِ قربِهِ منهُ ولا تقريبِهِ إيَّاهُ ، فإنَّهُ متَىٰ رأىٰ قربَهُ فقدْ رأىٰ الغيرَ ، وإذا رأىٰ تقريبَهُ فكذلِكَ ، وكمالُ شغلِهِ أنْ يصطلمَ عن إحساسِهِ شغلًا بهِ بالكلِّيَّةِ ، وهذا معنىٰ قولِهِمْ: «**أَوْحَشَكَ اللهُ مِنْ قُرْبِهِ**» .

وهذا اللَّفظُ ظاهرُهُ فيهِ تشويشٌ ، فإنَّ العبدَ مَا يستوحشُ من قربِهِ إلَّا إذا أبعدَهُ فوجدَ الوحشَةَ لكونِهِ بعيدًا ، ومرادُهُمْ: أوحشكَ اللهُ من رؤيتِكَ لقربِكَ ، أيْ: شغلكَ بهِ شغلًا حتَّىٰ لا تجدَ لقربِكَ منهُ أثرًا ؛ فإنَّ استئناسَكَ بقربِهِ علامةٌ علىٰ بعدِكِ منهُ ، وهوَ معنىٰ الغرَّةِ ، فإنَّ كمالَ الحقيقةِ تُوجِبُ دَهَشَكَ بهِ ، ومَحْقَكَ عن غيرِهِ ، وإليهِ كانَ الأستاذُ أبو عليٍّ ينشدُ: «**وِدَادُكُمْ هَجْرُ**» ، أيْ: رؤيَتِي لودادِكُمْ .

«**وحبُّكُمْ قِلًى**» ، أيْ: برؤيتِي لمحبَّتِي لكُمْ إعراضٌ عنكُمْ .

«**وقربُكُمْ بُعدٌ**» هوَ موضعُ الاستشهادِ ؛ أيْ: وقوفِي معَ قربِكُمْ يدلُّ علىٰ بُعْدِي عنكُمْ .

«**وَسِلْمُكُمْ حَرْبُ**» ، أيْ: متىٰ رددتمُونِي إلىٰ نفسِي وحسنِ حالِي أبعدتمُونِي عنكُمْ[1] .

وبهذَا الاعتبارِ قالَ أبُو الحُسَينِ[2] النُّورِيُّ لبعضِ أصحابِ أبي حمزةَ: «**أنتَ**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣١٧ .

(٢) في (أ): الحسن ، والصواب المثبت .

مِنْ أصحابِ أبي حمزةَ الَّذِي يشيرُ إلىٰ القُرْبِ فإذَا رجعتَ إليهِ فقُلْ لهُ: إنَّ أبَا الحُسينِ النُّوريَّ يقولُ لكَ: قُرْبُكُمْ عَيْنُ البُعْدِ» ؛ أيْ: وقوفُكُمْ ورؤيتُكُمْ لقربِكُمْ دليلٌ علىٰ شغلِكُمْ عنهُ بغيرِهِ، فحصلَ منْ مجموعِ ما قرَّرناهُ وذكرْنَاهُ أنَّ القربَ بالذَّواتِ والمكانِ محالٌ عليهِ ـ تعالىٰ ـ، وإنَّمَا قُرْبُهُ مِن خَلْقِهِ يختلفُ باختلافِ إكرامِهِ لهُمْ، وتخصيصِهِ إيَّاهُمْ بلطائفِ معرفتِهِ، ومحبَّتِهِ وتوحيدِهِ وشُغلِهِمْ بهِ عن غيرِهِمْ وعنْ أنفسِهِمْ، ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَمِنْ ذَلِكَ (الشَّرِيعَةُ، وَالحَقِيقَةُ)[٢]:

الشَّرِيعَةُ: أَمْرٌ بِالْتِزَامِ العُبُودِيَّةِ.

وَالحَقِيقَةُ: مُشَاهَدَةُ الرُّبُوبِيَّةِ.

فكُلُّ شَرِيعَةٍ غَيْرُ مُؤَيَّدَةٍ بِالْحَقِيقَةِ فَغَيْرُ مَقْبُولٍ، وَكُلُّ حَقِيقَةٍ غَيْرُ مُقَيَّدَةٍ بِالشَّرِيعَةِ فَغَيْرُ مَحْصُولٍ.

فَالشَّرِيعَةُ جَاءَتْ بِتَكْلِيفِ الخَلْقِ، وَالحَقِيقَةُ إِنْبَاءٌ[٣] عَنْ تَصْرِيفِ الحَقِّ[٤].

فَالشَّرِيعَةُ أَنْ تَعْبُدَهُ [١٤٣/أ]، وَالحَقِيقَةُ أَنْ تَشْهَدَهُ.

وَالشَّرِيعَةُ قِيَامٌ بِمَا أَمَرَ، وَالحَقِيقَةُ شُهُودٌ لِمَا قَضَى وَقَدَّرَ وَأَخْفَى وَأَظْهَرَ.

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: قَوْلُهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] حِفْظٌ لِلشَّرِيعَةِ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] إِقْرَارٌ بِالحَقِيقَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّرِيعَةَ حَقِيقَةٌ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا وَجَبَتْ بِأَمْرِهِ، وَالحَقِيقَةُ أَيْضًا شَرِيعَةٌ مِنْ حَيْثُ إِنَّ المَعَارِفَ بِهِ ـ سبحانه ـ إِنَّمَا وَجَبَتْ بِأَمْرِهِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَالشَّرِيعَةُ: عِبَارَةٌ عَنْ معرفةِ السُّلوكِ إليهِ.

والحقيقةُ: دوامُ النَّظرِ إليهِ وإضافةُ كلِّ جارٍ منهُ على خلقِهِ إليهِ، ولذلكَ قالَ: «الشَّريعةُ أنْ تعبدَهُ[٥]، والحقيقةُ أنْ تشهدَهُ[٦]»، وكُلُّ مَنْ لا حقيقةَ لهُ فلا تتمُّ لهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٩٥.

(٢) انظر في تفسير هذا المصطلح: التعريفات ص١٢١، ١٦٧، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٧٩.

(٣) أي: إخبار.

(٤) أي: بأن يشاهده ثم يخبر عنه.

(٥) أي: امتثالا وقيامًا بوظيفة التكليف.

(٦) أي: بإخلاص القصد لتنال القرب.

شَرِيعَةٌ؛ لأنَّ الحقيقةَ أصلُ الإيمانِ[(١)]، والشَّريعةَ القيامُ بالأركانِ، فمَنْ عرَفَ الحقَّ ولم يعبدْهُ تعرَّضَ للخسرانِ، ومَنْ لم يعرفْهُ استحالَ منهُ القربانُ[(٢)].

هذا في أصولِ الإيمانِ، وأمَّا اصطلاحُهُمْ في الحقيقةِ: فغلبةُ حالِ الإيمانِ على القلبِ حتَّىٰ يصيرَ مشاهدًا بقلبِهِ، فكلَّمَا وجبَ الإيمانُ بهِ نقلَ غفلتَهُ عنهُ كمَا قالَ حارثةُ لمَّا قالَ لهُ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٣)]: «**إنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟**»، فأشارَ إلىٰ غلبةِ أحوالِ الدُّنيَا والآخرةِ علىٰ قلبِهِ، وصارَ الغائبُ عندَهُ كالحاضرِ، فقالَ لهُ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَرَفْتَ فَالْزَمْ»، فلا يُسمُّونَ عارفًا ولا ذا حقيقةٍ إلَّا مَنْ وصلَ إلىٰ هذهِ الأحوالِ، ومَنْ رتَّبَ أورادَهُ وأوقَعَ أعمالَهُ علىٰ حسبِ العلمِ، وراعىٰ آفاتِهَا وكمَّلَ إخلاصَهَا في سائرِ درجاتِهَا، فهوَ صاحبُ شريعةٍ؛ أيْ: سالكُ الطَّريقِ الموصلَةِ إلىٰ الخيراتِ المبلِّغةِ إلىٰ حلولِ الجنَّاتِ، ورؤيةِ خالقِ الأرضِ والسَّماواتِ.

ولمَّا كانَتْ هذهِ الأعمالُ لا تصحُّ إلَّا بصحَّةِ التَّوحيدِ والإيمانِ باللهِ وبرسولِهِ كانَتْ كلُّ شريعةٍ حقيقةً؛ أيْ: هي ثمرتُهَا وشرطٌ في صحَّتِهَا، ولمَّا كانَتِ الحقيقةُ: هيَ غلبةَ حالِ الإيمانِ والمعرفةِ علىٰ القلبِ، وكانَ الإيمانُ والمعرفةُ مطلوبَينِ شرعًا، كانَتْ كلُّ حقيقةٍ شريعةً، وإنَّمَا وقعَتِ التَّفرقةُ بالنَّظرِ لحالِ العابدِ والعارفِ، فلمَّا كانَ العابدُ هوَ الموقوفَ معَ الأعمالِ وإتقانِهَا وتخليصِهَا من آفاتِهَا للجزاءِ عليهَا، قيلَ: صاحبُ شريعةٍ؛ أيْ: هيَ الغالبَةُ علىٰ حالِهِ، ولمَّا كانَتِ الحقيقةُ هيَ غلبةَ الحقِّ علىٰ قلبِ العارفِ ورؤيةَ جميعِ مَا [١٤٣/١ب] هوَ فيهِ منْ فضلِهِ ـ عملًا

---

(١) فالحقيقة من خواص الجوارح الباطنة، والشريعة خاصة بالأعمال الظاهرة، فلا بد من كل منهما. انظر: نتائج الأفكار ١٤٣/٢.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٣١٩/١.

(٣) سبق تخريجه.

كانَ ، أوْ حالًا ، أو مقامًا ـ سُمِّيَ: صاحبَ حقيقةٍ.

فقدْ تبيَّنَ أنَّهُمَا افترقا من وجْهٍ واجتمعا من وجهٍ، وبهذا الاعتبارِ أطلقوا الشَّريعةَ والحقيقةَ، وبهذا الاعتبارِ قالَ بعضُهُمْ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ إشارةٌ إلىٰ الشَّريعةِ؛ وهيَ إضافةُ العملِ إلىٰ النَّفسِ ورؤيةُ كونِهِ عاملًا، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ إشارةٌ إلىٰ الحقيقةِ، وهو تَبَرُّؤُهُ منَ القيامِ بشيءٍ من عبادتِهِ بنفسِهِ، وافتقارُهُ في جميعِ ذلكَ لِعَونِهِ[١].

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣١٩.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَمِنْ ذَلِكَ (النَّفَسُ)[٢]:

النَّفَسُ: تَرْوِيحُ القُلُوبِ بِلَطَائِفِ الغُيُوبِ.

وَصَاحِبُ الأَنْفَاسِ أَرَقُّ وَصْفًا مِنْ صَاحِبِ الأَحْوَالِ، فَكَأَنَّ صَاحِبَ الوَقْتِ مُبْتَدِئٌ، وَصَاحِبُ الأَنْفَاسِ مُنْتَهٍ، وَصَاحِبُ الأَحْوَالِ بَيْنَهُمَا.

فَالأَحْوَالُ وَسَائِطُ، وَالأَنْفَاسُ نِهَايَةُ التَّرَقِّي.

وَالأَوْقَاتُ لِأَصْحَابِ القُلُوبِ[٣]، وَالأَحْوَالُ لِأَرْبَابِ الأَرْوَاحِ، وَالأَنْفَاسُ لِأَهْلِ السَّرَائِرِ.

وَقَالُوا: أَفْضَلُ العِبَادَاتِ عَدُّ الأَنْفَاسِ مَعَ اللهِ ـ سبحانه ـ.

وَقَالُوا: خَلَقَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ القُلُوبَ وَجَعَلَهَا مَعَادِنَ لِلمَعْرِفَةِ، وَخَلَقَ الأَسْرَارَ وَرَاءَهَا وَجَعَلَهَا مَحَلًّا لِلتَّوْحِيدِ، فَكُلُّ نَفَسٍ حَصَلَ مِنْ غَيْرِ دَلَالَةِ المَعْرِفَةِ وَإِشَارَةِ التَّوْحِيدِ عَلَىٰ بِسَاطِ الاضْطِرَارِ فَهُوَ مَيِّتٌ، وَصَاحِبُهُ مَسْئُولٌ عَنْهُ.

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: العَارِفُ لَا يَسْلَمُ لَهُ النَّفَسُ؛ لِأَنَّهُ لَا مُسَامَحَةَ تَجْرِي مَعَهُ، وَالمُحِبُّ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ نَفَسٍ؛ إِذْ لَوْلَا أَنْ يَكُونَ لَهُ نَفَسٌ لَتَلَاشَىٰ؛ لِعَدَمِ طَاقَتِهِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «النَّفَسُ: تَرْوِيحُ القلوبِ بلطائفِ الغُيُوبِ»،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٩٦.

(٢) انظر في تفسير هذا المصطلح: عوارف المعارف ٢/٣٢٢، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٣٣٥، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٢٥٦.

(٣) لأنهم قد ابتدؤوا قصد التوجه والسير إلىٰ الحق تعالىٰ مع بقائهم علىٰ الرسوم الخلقية؛ لعدم فناء أنفسهم. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٤٦.

يعنِي: بمَا نالَتْهُ من لطائفِ الغيوبِ، وذلكَ أنَّ النَّفَسَ إنَّمَا هوَ ترويحٌ منَ الحصرِ، كمَا أنَّ المُتَنَفِّسَ يجدُ راحةً بنفَسِهِ، ولوْ أمسَكَ عن تنفُّسِهِ لهلكَ، فاستعارُوا اسمَ التَّرويحِ من ضيقِ الأحوالِ وشدَّتِهَا على أربابِهَا اسمَ النَّفَسِ.

وأربابُ الأوقاتِ همُ الحافظونَ لأحوالِهِم في أوقاتِهِم؛ لئلَّا تروحَ أوقاتُهُم سائبةً أوْ ضائعةً، فمَنْ غلبَ على همِّهِ شُغْلُهُ بالأَوْلَى بهِ في وقتِهِ سُمِّيَ صاحبَ وقتٍ، ومَنْ توالَتْ عليهِ أحوالُهُ المتواليةُ على قلبِهِ وهوَ حاملٌ لهَا متأدِّبٌ معَ الحقِّ فيمَا يردُ عليهِ منهَا فهوَ صاحبُ حالٍ، ومَنْ تنفَّسَ وروَّحَ نفسَهُ بمَا وهبَهُ الحقُّ له منْ لطائِفِ غيبِهِ وإكرامِهِ، وأشارَ بذلكَ إلى ما وجدَهُ سُمِّيَ صاحبَ نفَسٍ.

وبهَذَا الاعتبارِ كانَ صاحبُ الوقتِ صاحبَ بدايةٍ، وصاحبُ النَّفَسِ صاحبَ نهايةٍ، وصاحبُ الحالِ متوسِّطًا بينَهُمَا، وقدْ قالَ شيخُ الإسلام [١٤٤/١أ] أبُو محمَّدِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمَّدٍ الأنصاريُّ لمَّا تكلَّمَ عنِ الأنفاسِ قالَ[(١)]: «سُمِّيَ النَّفَسُ نفسًا؛ لتروُّحِ المُتنفِّسِ بهِ، وهوَ على ثلاثِ درجاتٍ:

نفَسٌ في حينِ ضيقِ استتارٍ، مملوءٌ منَ الكظمِ، متعلِّقٌ بالعِلْمِ[(٢)]، إنْ تَنفَّسَ تَنفُّسَ المُتأسِّفِ، أوْ إنْ نطقَ نطقَ بالحُزنِ[(٣)]، وعندِي هوَ متولِّدٌ من وحشَةِ الاستتارِ؛ وهيَ الظُّلمةُ الَّتِي قالُوا: إنَّهُ مقامٌ.

والنَّفَسُ الثَّانِي: نفَسٌ في حين التَّجلِّي[(٤)]، وهوَ نفَسٌ شاخصٌ[(٥)] عن مقامِ

(١) منازل السائرين ص١٠٦ ـ ١٠٧.

(٢) قال المؤلف: «وإنما كان من درجات الولاية من حيث إنه لا يكون استتارا إلا بعد كشف وصول...» شرح منازل السائرين ص ٢٢١.

(٣) في منازل السائرين، وشرحه: بالحرب. ولعل الأصح: الحزم.

(٤) قال المؤلف: «وهذا النفس ما قبله، فإن الأول في حال استتار وظلمة، وهاهنا نفس في حال تجلٍ ونور» شرح منازل السائرين ص ٢٢١.

(٥) أي: ظاهر.

السُّرورِ إلىٰ روحِ المُعَاينة، مَمْلُوءٌ من نُورِ الوجودِ[(١)]، شاخصٌ إلىٰ منقطعِ الإشارةِ[(٢)].

والنَّفَسُ الثَّالثُ: نفَسٌ مطهَّرٌ بماءِ القدسِ، قائمٌ بإشاراتِ الأزَلِ، وهوَ النَّفسُ الَّذِي يُسمّىٰ صدفَ النُّورِ[(٣)].

فالنَّفَسُ الأوَّلُ للعَثُورِ[(٤)] سِرَاجٌ، والثَّانِي للقَاصدِ معراجٌ، والنَّفَسُ الثالثُ للمحقِّ تاجٌ».

قَالَ الشَّارحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وإنَّمَا كانَ الأوَّلُ للعَثُورِ سِرَاجًا[(٥)]، فإنَّ مَنْ بُلِيَ بظلمةِ الوقفةِ عنِ السُّلوكِ فالَّذِي يُخَلِّصُهُ ممَّا فيهِ، وينيرُ لهُ سببَ إصلاحِ حالِهِ وتلافيهِ؛ هوَ تنفُّسُهُ بالافتقارِ إلىٰ القادرِ علىٰ خَلاصِهِ من مَرَضِهِ ومُعافيهِ، وبهذا كانَ سراجًا يُخَلِّصُهُ من عَثْرةِ وقفتِهِ.

وأمَّا الثَّانِي فهوَ للقاصدِ السَّالكِ معراجٌ، أيْ: بهِ يتوصَّلُ إلىٰ مطلوبِهِ مِنِ استغراقِهِ في توحيدِهِ.

وأمَّا الثَّالثُ؛ وهوَ المحقُّ الَّذِي قدْ وصلَ إلىٰ مطلوبِهِ، فتنفُّسُهُ بمَا وجدَهُ من محبوبِهِ تاجٌ يتشرَّفُ بهِ[(٦)]، ولذلكَ قالُوا[(٧)]: «إنَّ العارفَ لا يسلَمُ لهُ النَّفَسُ[(٨)]،

---

(١) وهو المعاينة.

(٢) فضلا عن العبارة؛ لاستيلاء الحق عن القلب.

(٣) أي: متعلق به ملازم له.

(٤) في منازل السائرين: للغيور، وكذا اللفظ الذي يليه، والصواب المثبت. وفي التوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص٥٠٣: «العثور: الاطلاع والعرفان، قال الفوري: عثر علىٰ الشيء: اطلع علىٰ ما كان خفيًّا عنه».

(٥) في (أ، ج): سراجٌ، والصواب المثبت؛ لأنه خبر (كان).

(٦) قرر ذلك المؤلف في شرح منازل السائرين ص٢٢٢.

(٧) ورد هذا القول في: السر في أنفاس الصوفية للجنيد ص١١٧.

(٨) أي: لا يسلم له ضياعه في غير الطاعة.

وإنَّمَا يكونُ النَّفَسُ للمحبِّ».

وأمَّا العَارِفُ فإنَّهُ كَمُلَ شغلُهُ بربِّهِ حتَّىٰ غفلَ عن جميعِ أحوالِهِ وأنفاسِهِ؛ لِعَدَمِ التَّفرقةِ عندَهُ، ولذلكَ قالَ الشَّيخُ أبو عليٍّ الدَّقَّاقُ[1]: «العَارِفُ لا مُسَامَحةَ لهُ في النَّفَسِ، وإنَّمَا النَّفَسُ للمُحبِّ، فإنَّهُ لَوْ لَمْ يَتَنفَّسْ لَتلاشَىٰ وهَلَكَ؛ لِعَدمِ طَاقتِهِ[2]».

---

(١) ورد هذا القول للجنيد في: السر في أنفاس الصوفية ص١١٧.

(٢) أي: علىٰ تركه.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «وَمِنْ ذَلِكَ (الخَوَاطِرُ[(٢)] [الوَارِدَةُ عَلَى الضَّمَائِرِ][(٣)]):

وَالخَوَاطِرُ: خِطَابٌ يَرِدُ عَلَى الضَّمَائِرِ[(٤)]، وَيَكُونُ بِإِلقَاءِ مَلَكٍ، وَيَكُونُ بِإِلقَاءِ شَيْطَانٍ، وَيَكُونُ أَحَادِيثَ النَّفْسِ، وَيَكُونُ مِنْ قِبَلِ الحَقِّ ـ سبحانه ـ.

فَإِذَا كَانَ مِنَ المَلَكِ فَهُوَ الإِلْهَامُ، وَإِذَا كَانَ مِنْ قِبَلِ النَّفْسِ قِيلَ لَهُ: الهَوَاجِسُ[(٥)]، وَإِذَا كَانَ مِنْ [١/١٤٤ب] قِبَلِ الشَّيْطَانِ فَهُوَ الوَسَاوِسُ، فَإِذَا كَانَ مِنْ قِبَلِ اللهِ ـ سبحانه ـ وَإِلقَائِهِ فِي القَلْبِ فَهُوَ خَاطِرُ حَقٍّ، وَجُمْلَةُ ذَلِكَ مِنْ قَبِيلِ الكَلَامِ[(٦)].

فَإِذَا كَانَ مِنْ قِبَلِ المَلَكِ، فَإِنَّمَا يُعْلَمُ صِدْقُهُ بِمُوَافَقَةِ العِلْمِ، وَلِهَذَا قَالُوا: (كُلُّ خَاطِرٍ لَا يَشْهَدُ لَهُ ظَاهِرٌ [مِنَ الشَّرْعِ][(٧)] فَهُوَ بَاطِلٌ).

وَإِذَا كَانَ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ فَأَكْثَرُهُ مَا يَدْعُوهُ إِلَى المَعَاصِي، وَإِذَا كَانَ مِنْ قِبَلِ النَّفْسِ فَأَكْثَرُهُ مَا يَدْعُو إِلَى اتِّبَاعِ الشَّهْوَةِ، أَوِ اسْتِشْعَارِ كِبْرٍ[(٨)]، أَوْ مَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ أَوْصَافِ النَّفْسِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٩٧ ـ ١٩٨.

(٢) انظر في تفسير هذا المصطلح: تهذيب الأسرار ص٤٣٥، والإبانة لابن فورك ص٣٤٣، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص١٧٧، والتوقيف على مهمات التعاريف ص٣٠٥، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٨٧. وتحرَّ مزيداً من القول عنها في: عوارف المعارف ٢/٢٥٦.

(٣) زيادة من (ف).

(٤) أي: القلوب.

(٥) جمع: هاجس، وهو الخاطر. وانظر: معجم اصطلاحات الصوفية ص٧٢.

(٦) في نتائج الأفكار ٢/١٤٩: «أي: جميع ما تقدم في معنى الخاطر هو من قبيل الكلام النفسي الكائن في الضمائر».

(٧) زيادة من (ف).

(٨) أي: طلب كبر.

وَاتَّفَقَ المَشَايِخُ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ كَانَ أَكْلُهُ مِنَ الحَرَامِ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ الإِلْهَامِ وَالوَسْوَاسِ.

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: مَنْ كَانَ قُوتُهُ مَعْلُومًا لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ الإِلْهَامِ وَالوَسْوَسَةِ، وَإِنَّ مَنْ سَكَنَتْ عَنْهُ هَوَاجِسُ نَفْسِهِ لِصِدْقِ مُجَاهَدَتِهِ، نَطَقَ لِسَانُ قَلْبِهِ بِحُكْمِ مُكَابَدَتِهِ.

وَأَجْمَعَ الشُّيُوخُ عَلَىٰ أَنَّ النَّفْسَ لَا تَصْدُقُ، وَأَنَّ القَلْبَ لَا يَكْذِبُ.

وَقَالَ بَعْضُ المَشَايِخِ: إِنَّ نَفْسَكَ لَا تَصْدُقُ، وَقَلْبَكَ لَا يَكْذِبُ، وَلَوِ اجْتَهَدْتَ كُلَّ الجُهْدِ أَنْ تُخَاطِبَكَ رُوحُكَ لَمْ تُخَاطِبْكَ.

وَفَرَّقَ الجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللَّهُ بَيْنَ هَوَاجِسِ النَّفْسِ وَوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ: بِأَنَّ النَّفْسَ إِذَا طَالَبَتْكَ بِشَيْءٍ أَلَحَّتْ [عليك][1]، فَلَا تَزَالُ تُعَاوِدُ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ حَتَّىٰ تَصِلَ إِلَىٰ مُرَادِهَا وَيَحْصُلَ مَقْصُودُهَا، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَدُومَ صِدْقُ المُجَاهَدَةِ، ثُمَّ إِنَّهَا تُعَاوِدُ وَتُعَاوِدُ.

وَأَمَّا الشَّيْطَانُ إِذَا دَعَا إِلَىٰ زَلَّةٍ فَخَالَفْتَهُ يَتْرُكُ ذَلِكَ وَيُوَسْوِسُ بِزَلَّةٍ أُخْرَىٰ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ المُخَالَفَاتِ لَهُ سَوَاءٌ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ دَاعِيًا أَبَدًا إِلَىٰ زَلَّةٍ مَّا، وَلَا غَرَضَ لَهُ فِي تَخْصِيصِ وَاحِدٍ دُونَ وَاحِدٍ.

وَقِيلَ: كُلُّ خَاطِرٍ يَكُونُ مِنَ المَلَكِ فَرُبَّمَا يُوَافِقُهُ صَاحِبُهُ وَرُبَّمَا يُخَالِفُهُ، فَأَمَّا خَاطِرٌ يَكُونُ مِنَ الحَقِّ ـ سبحانه ـ فَلَا يَحْصُلُ خِلَافٌ مِنَ العَبْدِ لَهُ.

وَتَكَلَّمَ الشُّيُوخُ فِي الخَاطِرِ الثَّانِي إِذَا كَانَ الخَاطِرَانِ مِنَ الحَقِّ ـ سبحانه ـ: هَلْ هُوَ أَقْوَىٰ مِنَ الأَوَّلِ؟

---

(١) زيادة من (ف).

فَقَالَ الجُنَيْدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخَاطِرُ الأَوَّلُ أَقْوَىٰ؛ لِأَنَّهُ إِذَا بَقِيَ رَجَعَ صَاحِبُهُ إِلَىٰ التَّأَمُّلِ، وَهَذَا شَرْطُ العِلْمِ، فَتُرِكَ[١].

وَقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الثَّانِي أَقْوَىٰ؛ لِأَنَّهُ ازْدَادَ قُوَّةً بِالأَوَّلِ[٢].

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ خَفِيفٍ ـ مِنَ المُتَأَخِّرِينَ ـ: هُمَا سَوَاءٌ؛ لِأَنَّ كِلَيْهِمَا مِنَ الحَقِّ ـ سبحانه ـ، فَلَا مَزِيَّةَ لِأَحَدِهِمَا عَلَىٰ الآخَرِ، وَالأَوَّلُ لَا يَبْقَىٰ فِي حَالِ الثَّانِي؛ لِأَنَّ الآثَارَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهَا البَقَاءُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **الخواطرُ**: أقوالٌ يُنْشِئُهَا الحقُّ ـ سبحانه ـ في قلوبِ [١/١٤٥أ] الخلقِ، وقدْ ينشِئُهَا بواسطةِ مخلوقٍ مقارنةً لقدرتِهِ الحادثةِ، وقدْ لا ينشئُهَا مقارنةً، فإنْ أنشأَهَا غيرَ مقارنةٍ فهوَ خاطرُ حقٍّ؛ أيْ بغيرِ واسطةٍ، وإنْ كانَ بواسطةٍ فلَا يخلُو، إمَّا أنْ يكونَ بواسطةِ النَّفسِ أوْ بزائدٍ عليهَا، والزَّائدُ لا يخلُو إمَّا أنْ يدعُو إلَىٰ خيرٍ، أمْ لَا، فإنْ دعَا إلىٰ خيرٍ فهوَ المعبَّرُ عنهُ بالإلهامِ، وهوَ بواسطةِ الملَكِ، وإنْ دعَا إلىٰ شرٍّ فهوَ الوسواسُ بواسطةِ الشَّيطانِ، ومَا كانَ بواسطةِ النَّفسِ فهوَ التَّسويلُ والهواجسُ والتَّطويعُ، قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣٠]، وقالَ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، وقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٠]، ﴿وَزَيَّنَ﴾ [الأنعام: ٤٣] في موضعٍ آخرَ، وقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رواهُ ابنُ مسعودٍ[٣]: «لَمَّةٌ مِنَ الْمَلَكِ»؛ وَهُوَ المَلَكُ مِنَ الملائكةِ[٤]، وفي روايةٍ: «منَ الملِكِ» وهوَ الرَّبُّ ـ تعالىٰ ـ.

---

(١) أي: فتركُ الأول يُضعفُ الثاني.

(٢) في نتائج الأفكار ١٥٢/٢: «علىٰ معنىٰ أنه من قبيل: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، وهو وجيهٌ».

(٣) أخرجه الحاكم في: المستدرك ٥٤٣/٣، وابن المبارك في الزهد ص٥٠٣.

(٤) أي: قُربٌ ودنوو. فلمة الملك: إيعاد بالخير وتصديق بالحق. وانظر: تهذيب الأسرار ص٣٩١.

فثبتَ بهذِهِ الأدلَّةِ أنَّ الخواطرَ في القلبِ تردُ منْ هذهِ الجهاتِ الأربعِ[(١)] ، ولا نعلمُ حكمَ خاطرٍ من هذِهِ الخواطرِ منْ نفسِهِ في الخيرِ والشَّرِّ ، وإنَّمَا يُعلَمُ حكمُهُ ممَّا دعَا إليهِ ، فإنْ دعَا إلىٰ خيرٍ في الشَّريعةِ كانَ خاطرَ خيرٍ ، سواءٌ كانَ منَ الملَكِ أو منَ الحقِّ ـ سبحانه ـ ، وإنْ دعَا إلىٰ خاطرِ شرٍّ أضيفَ إلىٰ النَّفسِ أوْ إلىٰ الشَّيطانِ ، فإنْ عرَفَ العبدُ كونَهُ خيرًا قَبِلَهُ ، وإنْ لم يعرفْ كونَهُ منَ الحقِّ ـ سبحانه ـ أوْ منَ الملَكِ فإنَّهُ قدْ عرَفَ حكمَهُ وأنَّهُ دعَا إلىٰ خيرٍ ، وكذلكَ إذا علمَ أنَّهُ دعَا إلىٰ شرٍّ ردَّهُ ونفَاهُ ، ولَا يُبَالِي كانَ منَ النَّفسِ أوْ منَ الشَّيطانِ .

وإنَّمَا فرَّقَ النَّاسُ بينَ خاطرِ النَّفسِ وخاطرِ الشَّيطانِ ؛ ليداوِي العبدُ نفسَهُ في كلِّ خَاطرٍ وردَ عليهِ بمَا يكفُّ عنهُ شرَّ ذلكَ الخاطرِ ، فإنَّ الشَّيطانَ يكفِي في ردِّهِ المخالفةُ والحقريَّةُ لهُ ، والنَّفسَ تحتاجُ معَ ذلكَ الأدبَ ومخالفةَ شهواتِهَا وأنْ تُقطعَ عنهَا ملذوذاتُهَا عقوبةً لهَا ؛ لكيلَا تعودَ لِمِثْلِ ما دعَتْ إليهِ .

وأمَّا الفرقُ بينَ خاطرِ الملَكِ وخاطرِ الشَّيطانِ: فإنَّ الحقَّ ﷻ لمَّا قالَ لعدوِّ اللهِ: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤] . . الآية ، تفضَّلَ ـ سبحانه ـ بأنْ جعلَ قبالةَ الشَّيطانِ مَلَكًا ، إذا ذكرَ الشَّيطانُ شرًّا نبَّهَ الملَكُ العقلَ لجهاتِ الشَّرِّ ، وأمَرَهُ بالخيرِ ، وكذلكَ إذا أمرَ الملَكُ بخيرٍ زيَّنَ العدوُّ للنَّفسِ الكسلَ والرَّاحةَ والفتورَ ، فلذلكَ كانَ [١/١٤٥ب] خاطرُ الملَكِ يتردَّدُ لمَا يقابلُهُ من تَزْيينِ الشَّيطانِ ، وأمَّا ما ينشئُهُ الحقُّ لصَلاحِ العبدِ ويَخْلُقُهُ في قلبِهِ فلَا مَطْمَعَ لأحدٍ لمُنازَعَتِهِ ، ولكنْ إنَّمَا [لا] يُعرفُ كونُهُ منَ الحقِّ إلَّا إذَا دعَا إلىٰ خيرٍ واضحٍ عُلِمَ منَ الدِّينِ لا إشكالَ في صحَّتِهِ ، فتنبعثُ النَّفسُ لتحصيلِ ما لا إشكالَ فيهِ ؛ إذا مدَّهَا ربُّهَا بمعونَتِهِ وتَوفيقِهِ ، وهذَا الكلامُ علىٰ الخَواطِرِ وجِهَاتِهَا وأَقْسَامِهَا .

---

(١) وفي نتائج الأفكار ٢/١٤٧: «الخواطر أقسام خمسة: رباني، وملكي، وعقلي، ونفساني، وشيطاني».

وقولُ المشايخِ[(١)] في إجماعِهِم: «**إنَّ النَّفسَ لا تصدقُ**»، وذلكَ في مواعيدِهَا؛ لسرعةِ خُلْفِهَا ونفورِهَا عنِ المشقَّاتِ، فيهونُ عليهَا الوعدُ بالعملِ، فإذا حانَ وقتُهُ نفرَتْ عنهُ وعادَتْ إلىٰ الكَسَلِ، «**وأنَّ القلبَ لا يكذبُ**»؛ وذلكَ أنَّ القلبَ إذا أُطلقَ فالمرادُ بهِ العقلُ، فمتىٰ عرَفَ الإنسانُ الحقَّ بعقلِهِ وميَّزَهُ بلُبِّهِ نطقَ لسانُهُ بمَا يحقِّقُهُ في قلبِهِ، واللِّسانُ ترجُمانُ القلبِ، فإذَا صدقَ القلبُ صدقَ اللِّسانُ[(٢)].

وقولُهُ: «**ولوِ اجتهدْتَ كلَّ الجهدِ أنْ تُخاطبَكَ روحُكَ لمْ تُخاطبْكَ**»؛ وذلكَ أنَّ الرُّوحَ لا تخلُو: إمَّا أنْ تكونَ جوهرًا أوْ عَرَضًا، فعلىٰ كلِّ حالٍ الرُّوحُ معنًىٰ بهِ حياةُ هذَا الجسمِ لَا غيرُ، ولهُ تعلُّقٌ بالمقاماتِ العاليةِ إذا دلَّ عليهَا القلبُ واتَّضحَ كونُهَا محمودةً، كانَ للرُّوحِ تعلُّقٌ بنَيْلِ ما عرفتَهُ، ولذلكَ قالُوا في كلامِهِم: التَّخلُّقُ والتَّعلُّقُ.

والتَّخلُّقُ: اكتسابُ الأخلاقِ المحمودةِ والتَّنزُّهُ عنِ الأخلاقِ المذمومةِ.

والتَّعلُّقُ: هوَ تعلُّقُ الهِمَّةِ بالقُرْبِ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، ودوامُ النَّظرِ إليهِ بالقلبِ والإعراضُ عمَّنْ سواهُ. فعبَّرَ بهذِهِ الحالةِ عنِ الرُّوحِ؛ لأنَّهَا دليلُ حياةِ القلبِ، كمَا أنَّ الرُّوحَ الَّتِي تفارقُ بالموتِ دليلُ حياةِ الجسمِ، وإذا فُقِدَ هذَا المعنىٰ منَ القلبِ ماتَ، وإنْ ضعُفَ مرضَ.

وتفريقُ الجُنيدِ بينَ هواجسِ النَّفسِ ووساوسِ الشَّيطانِ؛ بأنَّ النَّفسَ مائلةٌ لكلِّ لذيذٍ، فإذَا التذَّتْ[(٣)] شيئًا تعلَّقَتْ بهِ، فإنْ رددْتَهَا عنهُ بشغلٍ بغيرِهِ أو أدبٍ فترَتْ وقتًا ثمَّ عادَتْ إليهِ؛ لأنَّهُ من قبيلِ الشَّهواتِ، والشَّيطانُ ـ لعنهُ اللهُ ـ إنَّمَا مقصودُهُ

---

(١) في (ب): الشارح، والصواب المثبت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٢٤.

(٣) في (ج): ألذت، والصواب المثبت، والأصح: التذت بشئ، كما في: إحكام الدلالة ١/٣٢٥.

أنْ يُوقِعَ العبدَ في شَرٍّ على الجملةِ، فإنْ قدرَ على كفرٍ لمْ يقصِّرْ واجتزأَ بكبيرةٍ، وإنْ عجزَ عنِ الكبيرةِ اجتزأَ بالصَّغيرةِ، وإنْ عجزَ عنِ الصَّغيرةِ اكتفى بتشويشٍ في العبادةِ حتى لا تقعَ على أكملِ وجوهِهَا، فإنْ عجزَ عن إفسادِهَا بمَا يُدخلُهُ فيهَا [١/١٤٦أ]، فحصلَ من ذلكَ أنَّ الخاطرَ إذا تكرَّرَ وكانَ من قبيلِ الشَّهواتِ أنَّهُ من جهةِ النَّفسِ فحقُّهَا الأدبُ، وإذَا كانَ شرًّا ولمْ يتكرَّرْ من نوعٍ واحدٍ علمَ أنَّهُ من قبيلِ الشَّيطانِ، فحقُّ العبدِ دوامُ الذِّكرِ للهِ والالتجاءُ إليهِ فِي السَّلامةِ من شرِّهِ، فإنَّهُ قريبٌ مجيبٌ، كمَا قالَ - تعالى -: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، وإذَا كانَ من قبيلِ الخيرِ وتردَّدَ كانَ منَ الملكِ كمَا تقدَّمَ.

وأجمعَ المشايخُ أنَّ مَنْ كانَ قُوتُهُ من حرامٍ لا يفرِّقُ بينَ الإلهامِ والوسوسةِ، وهذَا صحيحٌ، فإنَّهُ لا يسترسلُ على أكلِ الحرامِ من أيِّ جهةٍ اتَّفقَ إلَّا مَنْ قلَّتْ همَّتُهُ وتحسُّسُهُ لأفعالِ جوارحِهِ، فضلًا عن أفعالِ قلبِهِ، والخواطرِ الَّتِي تردُ فيهِ، ومَنْ عمِيَ قلبُهُ حتَّى قلَّ تثبُّتُهُ في مطعمِهِ ومَشْرَبِهِ فلَأنْ لا يتثبَّتَ عندَ خواطرِ قلبِهِ أولى، وأبعدُ مِن ذلكَ تمييزُهُ بينَ الإلهامِ والوَسْوَسَةِ، فإنَّهُ لا يميِّزُ إلَّا بدقيقِ النَّظرِ في الأحكامِ وكمالِ العلمِ بالحَلالِ والحَرَامِ.

وأمَّا «**قَولُ الدَّقَّاقِ: مَنْ كانَ قوتُهُ معلومًا**[١]**، لمْ يفرِّقْ بينَ الإلهامِ والوسوسةِ**» فلَا يصحُّ قولُهُ: «مَعْلُومًا» أنْ يرجعَ إلى معلومِ الحلِّ، فإنَّهُ ليسَ بصحيحٍ؛ فإنَّهُ ضدُّ الأوَّلِ وإنْ كانَ معلومَ الجهةِ، فقدْ يكونُ سكونُهُ للجهةِ الَّتِي يكونُ قوتُهُ منهَا يمنعُهُ منَ التَّفتيشِ في غيرِهَا، فإذا لمْ يتحسَّسْ لقلبِهِ لمَا يقعُ فيهِ حتَّى يفرِّقَ بينَ ما يدعوهُ إليهِ الحقُّ منِ انتقالِهِ إلى أشرفَ ممَّا هوَ فيهِ فلهُ وجهٌ، فإنَّ بسكونِهِ لجهةٍ معلومةٍ يمنعُهُ منَ النَّظرِ في كمالِ حالِهِ، وهوَ تحسُّسُهُ لمَا يردُ في قلبِهِ، وإنْ أرادَ أنَّ مَنْ لمْ

---

(١) أي: معينًا من جهة.

يبلغْ إلىٰ درجةِ التَّوكُّلِ علىٰ اللهِ والإعراضِ عنِ السُّكونِ إلىٰ الأسبابِ المعتادةِ المعلومةِ لا[١] ينالُ كمالَ فراغِ القلبِ للتَّفتيشِ والتَّفريقِ بينَ الإلهامِ والوسوسةِ في خواطرِ قلبِهِ؛ لسكونِهِ إلىٰ الأسبابِ علىٰ الجملةِ، فيكونُ المعلومُ هاهُنَا عبارةً عنِ المُعْتادِ[٢].

وقولُهُ: «**اختلفَ المشايخُ فِي الخاطرَينِ إذَا كانَا عنِ الحقِّ ﷻ أيُّهُمَا أقوىٰ، فقالَ بعضُهُمُ: الأوَّلُ أقوىٰ**»، ووجهُهُ أنَّ خاطرَ الحقِّ لا يردُ فيهِ منَ القوَّةِ ما يستغنِي عنِ الثَّانِي.

ووجْهُ مَنْ قالَ: «**إنَّ الثَّانِي أقوىٰ**»؛ أنَّ الأوَّلَ صارَ مقدمةً للثَّانِي، فإذا وردَ عليهِ كانَ حالُ من ورد عليه أقوىٰ؛ لتظافرهما، ومن قال: هما مستويان نظر إلىٰ أن كلَّ واحدٍ منهُمَا شرطُهُ كمالُ القوَّةِ [١/١٤٦ب]، وأنَّهُ لا يُردُّ لوِ انفردَ، فكلاهُمَا قويٌّ، وكلُّ واحدٍ منهُمَا مُساوٍ للآخرِ، فليسَ أحدُهُمَا بأقوىٰ من صَاحِبِهِ، وإنَّمَا يقوىٰ حالُ العبدِ في نفسِهِ بتواردِهِمَا عليهِ، لا لأنَّ أحدَهُمَا أقوىٰ منَ الثَّانِي، وهذا هوَ الصَّحيحُ[٣]، واللهُ المُوفِّقُ.

❊ ❊ ❊

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) علق الناسخ علىٰ هذا بقوله: «تحقيق شريف من الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ»، وهو حقًّا كما نعت. وقد أفاد ذلك الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٢٤.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٢٦.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَمِنْ ذَلِكَ: (عِلْمُ اليَقِينِ، وَعَيْنُ اليَقِينِ، وَحَقُّ اليَقِينِ)[٢]:

وَهَذِهِ عِبَارَاتٌ عَنْ عُلُومٍ جَلِيَّةٍ.

فَالْيَقِينُ: هُوَ العِلْمُ الَّذِي لَا يَتَدَاخَلُ صَاحِبَهُ رَيْبٌ عَلَى مُطْلَقِ العُرْفِ، وَلَا يُطْلَقُ فِي وَصْفِ الحَقِّ ـ سبحانه ـ؛ لِعَدَمِ التَّوقِيفِ.

فَعِلْمُ اليَقِينِ هُوَ اليَقِينُ، وَكَذَلِكَ عَيْنُ اليَقِينِ نَفْسُ اليَقِينِ، وَحَقُّ اليَقِينِ نَفْسُ اليَقِينِ.

فَعِلْمُ اليَقِينِ عَلَى مُوجَبِ اصْطِلَاحَاتِهِم[٣]: مَا كَانَ بِشَرْطِ البُرْهَانِ.

وَعَيْنُ اليَقِينِ: مَا كَانَ بِحُكْمِ البَيَانِ.

وَحَقُّ اليَقِينِ: مَا كَانَ بِنَعْتِ العَذيَانِ.

فَعِلْمُ اليَقِينِ لِأَرْبَابِ العُقُولِ، وَعَيْنُ اليَقِينِ لِأَصْحَابِ العُلُومِ، وَحَقُّ اليَقِينِ لِأَصْحَابِ المَعَارِفِ.

وَلِلْكَلَامِ فِي الإِفْصَاحِ عَنْ هَذَا مَحَالٌّ[٤]، وَتَحْقِيقُهُ[٥] يَعُودُ إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ، فَاقْتَصَرْنَا عَلَى هَذَا القَدْرِ عَلَى جِهَةِ التَّنْبِيهِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اليقينُ عندَ أهلِ اللُّغةِ: توالِي العِلْمِ بالمَعْلُومِ حتَّى

---

(١) الرسالة القشيرية ١/١٩٩.

(٢) انظر في هذه المصطلحات: عوارف المعارف ٢/٣٢٠، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٨٣، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٧٩، ١٨٨، ١٩١.

(٣) في (ب، ف): اصطلاحهم.

(٤) أشار الناسخ في حاشية (أ): «في نسخة: مجال».

(٥) يعني: ملخصه.

لا يكادُ يغفلُ عنهُ، يقالُ: أيقنَ الماءُ؛ إذا صَفَا من كُدورَتِهِ ومَا يُخالطُهُ ممَّا ينجرُّ معَ الماءِ، فإذَا استقرَّ في مقبضِهِ واستقرَّ قَرارهُ وصفَا، يقالُ: أيقنَ الماءُ، فتبيَّنَ مِنْ هذا أنَّ العلمَ في الاصطلاحِ يباينُ اليقينَ؛ وذلكَ أنَّ الشَّخصَ قدْ يعلمُ المعلومَ مرَّةً واحدةً لم يغفلْ عنهُ، فيُسَمَّىٰ عالمًا لقيامِ العلمِ بهِ مرَّةً واحدةً، ولَا يسمُّونَهُ مُوقنًا إلَّا إذا توالَىٰ ولمْ يتخلَّلْهُ عقلُهُ.

فإذَا تقرَّرَ ذلكَ قلنَا: فعِلْمُ اليقينِ: مَا كانَ العلمُ فيه ثابتًا عنِ البُرْهانِ، فسُمِّيَ[(١)] علمَ يقينٍ؛ لتحقيقِ كونِهِ عِلْمًا؛ لأنَّهُ قد يسمَّىٰ الظَّنُّ علمًا للسُّكونِ إلىٰ أحدِ المحتملَينِ، فإذَا قالُوا: عِلْمَ اليقينِ، أرادُوا العلمَ المُتيَقَّنَ الَّذِي لا يقبلُ الاحتمالَ، ولذلكَ كانَ بشرطِ البرهانِ.

وعينُ اليقينِ: حُصُولُ العلمِ وتَوالِي أمثالِهِ من غيرِ نظرٍ في دليلٍ، بل صارَ العِلمُ مذكورًا وقلَّتِ الغفلاتُ في تَوالِيهِ علىٰ القلبِ، فلمْ يحتجْ صاحبُهُ إلىٰ تأمُّلِ برهانٍ.

وحقُّ اليقينِ: هوَ حُصُولُ اليقينِ بالمعلومِ الَّذِي صارَ غالبًا علىٰ القلبِ حتَّىٰ لا يبقَىٰ لغيرِهِ ذِكْرٌ فيهِ، وبهذا الاعتبارِ سمَّوهُ حقَّ اليقينِ؛ لثبوتِ الحقيقةِ لمَنْ تحقَّقَ بهِ، ومَا تقدَّمَ في قضيَّةٍ[(٢)] حارثةَ.

فحصلَ مِنْ مجموعِ ما قرَّرْنَاهُ [١/١٤٧أ]: أنَّ عِلْمَ اليقينِ إشارةٌ للعِلْمِ الحقِّ الَّذِي لَا يقبلُ الاحتمالَ، وإنْ لمْ يتوالَ علىٰ القلبِ.

وعينُ اليقينِ: هوَ العِلمُ المتوالِي علىٰ القلبِ ذِكْرُهُ حتَّىٰ قلَّتْ غفلاتُ المتَّصفِ بهِ عنهُ، وإنْ كانَ قدْ يذكرُ غيرَهُ.

---

(١) في (ج): فيسمىٰ.

(٢) في (ب): من حديث، وفي (ج): قصة.

وحقُّ اليقينِ: هوَ الَّذِي غلبَ ذِكْرُ معلومِهِ علىٰ القلبِ حتَّىٰ شغلَ(١) به عنْ غيرِهِ، وثبتَتْ حقيقتُهُ فيمَنْ تحقَّقَ بهِ.

وهذِهِ الاصطلاحاتُ الثَّلاثةُ في مراتبِ العِلْمِ الحقِّ، وإنَّمَا اختلفَتْ(٢) فِي دوامِهَا وعدمِ دوامِهَا، وفِي غلبتِهَا علىٰ القلبِ حتَّىٰ شغلَتْهُ عنْ ذِكْرِ غيرِهِ.

قولُهُ: «**ولا يطلقُ في وصْفِ الحقِّ** ـ سبحانه ـ **لعدمِ التَّوقيفِ**» وإنْ سَمَّىٰ نفسَهُ عالمًا فلمْ يُسَمِّ نفسَهُ مُوقِنًا، ولذلكَ قالَ: «**فعِلْمُ اليقينِ لأربابِ العقولِ**» الَّذينَ علمُوا بطريقِ الاستدلالِ، «**وعينُ اليقينِ لأربابِ العلومِ**»، أيْ: ثَبَتَتْ عُلُومُهُمْ وتَوَالَتْ علىٰ قلوبِهِمْ حتَّىٰ استغنَوا عنْ ذِكْرِ الدَّليلِ، «**وحقُّ اليقينِ لأربابِ المَعَارفِ**»، وقدْ تقرَّرَ أنَّهُمْ لَا يُسمُّونَ عَارفًا ولا ذَا حقيقةٍ إلَّا مَنْ غلبَ علىٰ قلبِهِ ذِكْرُ معروفِهِ حتَّىٰ شغلَهُ عن ذِكْرِ غيرِهِ، وهوَ حالُ الحقيقةِ كمَا قالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لحارثةَ: «**إنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟**»، فأجابَهُ بغلبَةِ حالِ الإيمانِ علىٰ قلبِهِ، فَرَضِيَ منهُ بذلكَ.

---

(١) في (ب): المختلف.

(٢) في (ب): من حديث، وفي (ج): قصة.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَمِنْ ذَلِكَ (الوَارِدُ[٢]، [والوارِدَات][٣]):

وَيَجْرِي فِي كَلَامِهِمْ ذِكْرُ الوَارِدَاتِ كَثِيرًا.

وَالوَارِدُ: مَا يَرِدُ عَلَى القُلُوبِ مِنَ الخَوَاطِرِ المَحْمُودَةِ مِمَّا لَا يَكُونُ بِتَعَمُّلِ العَبْدِ[٤]، وَكَذَلِكَ مَا لَا يَكُونُ مِنْ قَبِيلِ الخَوَاطِرِ، فَهُوَ أَيْضًا وَارِدٌ.

ثُمَّ قَدْ يَكُونُ وَارِدٌ مِنَ الحَقِّ وَوَارِدٌ مِنَ العِلْمِ.

فَالوَارِدَاتُ أَعَمُّ مِنَ الخَوَاطِرِ؛ لِأَنَّ الخَوَاطِرَ تَخْتَصُّ بِنَوْعِ الخِطَابِ، أَوْ مَا يَتَضَمَّنُ مَعْنَاهُ، وَالوَارِدَاتُ تَكُونُ وَارِدَ سُرُورٍ، وَوَارِدَ حُزْنٍ، وَوَارِدَ قَبْضٍ، وَوَارِدَ بَسْطٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المَعَانِي».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **الوَارِدَاتُ**: جمعُ واردٍ؛ وهوَ ما يطرقُ القلبَ من غيرِ كسْبِ العبدِ[٥]، وقدْ يكونُ مترتِّبًا على سببٍ ثمَّ ينشِئُهُ العبدُ، وقدْ لا يترتَّبُ على سببٍ وينشئُهُ الحقُّ في قلبِ العبدِ؛ تنبيهًا على مَا يكونُ أو كانَ؛ مِنَ القبضِ والبَسْطِ والسُّرورِ، والفرَحِ والقلقِ والطَّربِ وغيرِ ذلكَ[٦].

ففرقٌ بينَهَا وبينَ الخواطِرِ: أنَّ الخواطرَ كمَا تقدَّمَ[٧] كلامٌ يفهمُهُ العبدُ من

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٠٠.

(٢) انظر في هذا المصطلح: اللمع للطوسي ص٤١٨، والتعريفات ص٣٢٢، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٧٣، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٢٦٣.

(٣) زيادة من (ف).

(٤) أي: بتكسبه، بل هو كلام يفهمه العبد من غير صوت.

(٥) في نتائج الأفكار ٢/١٥٥: «والحذر من وارد سرور عند العطاء، وقبض عند المنع، لأن ذلك من بقايا رعونات النفس».

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٢٨.

(٧) ص٦٩٦.

غيرِ صوتٍ، وقدْ تقدَّمَ [١٤٧/١ب] أنَّهُ يكونُ من جهةِ النَّفسِ ومن جهةِ العَدُوِّ ومِنْ جهةِ الملكِ إِذَا أنشأَهُ الحقُّ بواسطةٍ، وقدْ يُنشِئُهُ بغيرِ واسطةٍ ويكونُ تنبيهًا مِنَ الحقِّ، كمَا جاءَ في الحديثِ[١]: «وَاعظُ اللهِ في قلبِ كلِّ امرئٍ مسلمٍ»، وقالَ[٢]: «عُفِيَ عن أمَّتِي ما حدَّثَتْ بهِ أنفسَهَا».

وممَّا يوضِّحُ الواردَ مَا جرىٰ للجُنَيدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّهُ قالَ[٣]: قمتُ ليلةً إلىٰ وِرْدِي فوجدتُ قبضًا ولمْ أقدرْ علىٰ الصَّلاةِ، فأردتُ أنْ أقرأَ القرآنَ فلم أستطِعْ، ففتحتُ بابَ الدَّارِ وخرجتُ لأنصرفَ ليزولَ ما أجدُهُ، فإذَا برجُلٍ ملفوفٍ في عباءةٍ، مطروحٍ في الطَّريقِ، فلمَّا أحسَّ بِي قالَ لي: إليَّ السَّاعةَ يَا أبَا القاسِمِ؟! فقلتُ: يا سيِّدِي، مِنْ غيرِ مَوْعِدٍ، فقالَ: بلَىٰ، ولكِنْ سَأَلْتُ مُحَرِّكَ الْقُلُوبِ أَنْ يُحَرِّكَ لِي قَلْبَكَ، فقلتُ: قدْ فعلَ؛ فَمَا حاجتُكَ؟ فقالَ: متَىٰ يكونُ داءُ النَّفسِ دواءَهَا؟، فقلْتُ: إِذَا خالفَتِ النَّفسُ هواهَا صارَ داؤُهَا دواءَهَا، فقالَ لنفسِهِ: قدْ سَمِعْتِ، وقدْ أجبتُكِ بهذَا سبعَ مرَّاتٍ فأبَيْتِ أنْ تسمَعِيهِ إلَّا منَ الجُنيدِ، ثمَّ ذهبَ ولمْ أعرفْهُ!!

فهذَا واردٌ علىٰ قلبِ الجُنيدِ لمْ يعرفْ لهُ سببًا إلَّا بعدَ ذلكَ، وقدْ يفكِّرُ العبدُ في أمرٍ منْ أمورِ الآخرةِ فيُوجِبُ لهُ فكرُهُ قَبْضًا، ثمَّ يُنَسَّىٰ ذلكَ ويحسُّ القبضَ وينسِىٰ سببَهُ، وكذلكَ الفرحُ والبسطُ وغيرُ ذلكَ منَ الوارداتِ الَّتِي ليسَتْ من قبيلِ الكلامِ.

فهذَا هوَ الفرقُ بينَ الخاطرِ والواردِ، وإنِ اشتركَا في ورودِهِمَا علىٰ القلبِ، واللهُ المستعانُ.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤/١٨٢، ولفظه: «والداعي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ في قَلْبِ كل مُسْلِمٍ»، والطبراني في مسند الشاميين ٣/١٧٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٠٢٠ ـ حديث رقم (٤٩٦٨) بلفظ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عن أُمَّتِي ما حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا ما لم تَعْمَلْ أو تَتَكَلَّمْ».

(٣) ورد قوله في: الزهد الكبير ص١٥٢، وإحياء علوم الدين ٣/٦٦، ومناقب الأبرار ١/٣٤٨، وفتيا وجوابها للعطار ص٦٥، والمختار من مناقب الأخيار ١/٣٣٤، وصفة الصفوة ٢/٥٠٤، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٢، وفيض القدير ٣/١٢٧.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَمِنْ ذَلِكَ لَفْظُ (الشَّاهِدِ)(٢):

كَثِيرًا مَا يَجْرِي فِي كَلَامِهِم: فُلَانٌ بِشَاهِدِ العِلْمِ(٣)، وَفُلَانٌ بِشَاهِدِ الوَجْدِ، وَفُلَانٌ بِشَاهِدِ الحَالِ.

وَيُرِيدُونَ بِلَفْظِ (الشَّاهِدِ): مَا يَكُونُ حَاضِرَ قَلْبِ الإِنْسَانِ؛ وَهُوَ مَا كَانَ الغَالِبَ عَلَيْهِ ذِكْرُهُ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ يَرَاهُ وَيُبْصِرُهُ وَإِنْ كَانَ غَائِبًا عَنْهُ، فَكُلُّ مَا يَسْتَوْلِي عَلَىٰ قَلْبِ صَاحِبِهِ ذِكْرُهُ فَهُوَ شَاهِدُهُ، فَإِنْ كَانَ الغَالِبَ عَلَيْهِ العِلْمُ فَهُوَ بِشَاهِدِ العِلْمِ، وَإِنْ كَانَ الغَالِبَ عَلَيْهِ الوَجْدُ يُقَالُ: إِنَّهُ بِشَاهِدِ الوَجْدِ.

وَمَعْنَى الشَّاهِدِ: الحَاضِرُ، فَكُلُّ مَا هُوَ حَاضِرُ قَلْبِكَ فَهُوَ شَاهِدُكَ.

وَسُئِلَ الشِّبْلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ المُشَاهَدَةِ فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ لَنَا مُشَاهَدَةُ الحَقِّ؟! لَنَا شَاهِدُ الحَقِّ.

أَشَارَ بِشَاهِدِ الحَقِّ: إِلَىٰ المُسْتَوْلِي عَلَىٰ قَلْبِهِ، وَالغَالِبِ عَلَيْهِ مِنْ ذِكْرِ الحَقِّ، وَالحَاضِرِ فِي قَلْبِهِ دَائِمًا مِنْ ذِكْرِ الحَقِّ.

وَمَنْ [١/١٤٨أ] حَصَلَ لَهُ مَعَ مَخْلُوقٍ تَعَلُّقٌ بِالقَلْبِ يُقَالُ: إِنَّهُ شَاهِدُهُ، يَعْنِي: حَاضِرَ قَلْبِهِ، فَإِنَّ المَحَبَّةَ تُوجِبُ دَوَامَ ذِكْرِهِ المَحْبُوبَ وَاسْتِيلَائِهِ عَلَيْهِ.

وَبَعْضُهُمْ تَكَلَّفَ فِي مُرَاعَاةِ هَذَا الاشْتِقَاقِ فَقَالَ: إِنَّمَا سُمِّيَ الشَّاهِدَ مِنَ المُشَاهَدَةِ، فَكَأَنَّهُ إِذَا طَالَعَ شَخْصًا بِوَصْفِ الجَمَالِ؛ فَإِنْ كَانَتْ بَشَرِيَّتُهُ سَاقِطَةً عَنْهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٢) انظر في هذا المصطلح: اللمع للطوسي ص٤١٥، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص١٧٠، ومعجم مصطلحات الصوفية ص١٣٩.

(٣) أي: متلبسٌ به.

وَلَمْ يَشْغَلْهُ بِشُهُودِ ذَلِكَ الشَّخْصِ عَمَّا هُوَ بِهِ مِنَ الحَالِ، وَلَا أَثَّرتْ فِيهِ صُحْبَتُهُ[١] شَاهَدَ بِهِ بِوَجْهٍ فَهُوَ شَاهِدٌ لَهُ عَلَىٰ فَنَاءِ نَفْسِهِ، وَمَنْ أَثَّرَ فِيهِ ذَلِكَ فَهُوَ شَاهِدٌ عَلَيْهِ فِي بَقَاءِ نَفْسِهِ وَقِيَامِهِ بِأَحْكَامِ بَشَرِيَّتِهِ، فَهُوَ إِمَّا شَاهِدٌ لَهُ وَإِمَّا شَاهِدٌ عَلَيْهِ.

وَعَلَىٰ هَذَا حُمِلَ قَوْلُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢]: «رَأَيْتُ رَبِّي لَيْلَةَ المِعْرَاجِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ»؛ أَيْ: أَحْسَن صُورَةٍ رَأَيْتُهَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ لَمْ تَشْغَلْنِي عَنْ رُؤْيَتِهِ تَعَالَىٰ، بَلْ رَأَيْتُ المُصَوِّرَ فِي الصُّورَةِ، وَالمُنْشِئَ فِي الإِنْشَاءِ، وَيُرِيدُ بِهِ: رُؤْيَةَ العِلْمِ لَا إِدْرَاكَ البَصَرِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لفظُ **(الشَّاهِدِ)** يُطْلَقُ حقيقةً علىٰ مَنْ لهُ شهادةٌ، ومجازًا علىٰ المُشَاهِدِ لغيرِهِ، فإذَا أُطْلِقَ بمعنَىٰ المشاهِدِ كانَ بالاعتبارِ الَّذِي ذكرَهُ الإمامُ أوَّلًا، وهوَ قولُهُمْ: **«فلانٌ بشاهدِ العِلْمِ»**؛ أيْ: بمَا غَلَبَ[٣] علىٰ قلبِهِ رؤيتُهُ ومشاهدَتُهُ، وكذلِكَ بشاهدِ الوقتِ وبشاهدِ الحالِ.

وأمَّا إطلاقُهُ بمعنَىٰ الشَّهادةِ فهوَ أنْ يكونَ ظاهرُ الشَّخصِ يشهدُ عليهِ بصحَّةِ حالِهِ القائِمِ بقلبِهِ، فإنْ كانَ مُحِبًّا فشاهدُ المحبَّةِ ينطلقُ[٤] علىٰ ظاهرِهِ، وكذلكَ المُراقبُ والعارفُ وكلُّ صاحبِ مقامٍ يشهدُ ظاهرُهُ بصحَّةِ حالِهِ.

وهذَانِ الوجهانِ سائِغَانِ شرعيَّانِ، وعليه يُحمَلُ، ولذلكَ لمَّا سُئِلَ الشِّبْلِيُّ عنِ المشاهدةِ فقالَ: **«مِنْ أينَ لنَا مشاهدةُ الحقِّ؟! يعنِي: رؤيتَهُ، وإنَّما لنَا شاهدُهُ»**، أيْ: أحوالُنَا تشهدُ لنَا بمعرفتِهِ ودوامِ ذِكْرِهِ.

---

(١) أشار الناسخ في حاشية (أ): في نسخة (محبته).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٥/٣٦٦، ٣٦٧، والطبراني في المعجم الكبير ١/٣١٧.

(٣) في (ب): غائب، والصواب المثبت.

(٤) في (أ): ينطق.

وأمَّا ما ذكرَهُ الإمامُ من أنَّ طائفةً أرادُوا تحقيقَ الاسمِ ـ وهيَ الشَّهادةُ ـ؛ فهوَ أنَّهُمْ صارُوا يأخذُونَ أجملَ شابٍّ يكونُ معَهُمْ ويجمِّلُونَهُ بأجملِ الثِّيابِ والهيئاتِ، ويوقدُونَ بيدِهِ شمعةً في حالِ السَّماعِ، ويمتحنُ كلُّ واحدٍ منهُمْ حالَهُ، هلْ هوَ مشغولٌ بِجَمَالِهِ؟ وهلْ بَشَرِيَّتُهُ ملتفتةٌ إليهِ، أوْ هوَ مشغولٌ عنهُ بمَا هوَ فيهِ من حالةِ السَّماعِ؟ وسمَّوا ذلكَ الشَّخصَ الشَّاهدَ إمَّا لهُمْ وإمَّا عليهِمْ، فمَنْ أحسَّ مِنْ نفسِهِ التفاتَهَا إليهِ وشُغْلَهَا بجمالِهِ فلمْ[1] تسقطْ [١٤٨/ب] عنهُ بشريَّتُهُ فهوَ شاهدٌ عليهِ ببقاءِ البشريَّةِ، ومَنْ لَمْ يلتفِتْ إليهِ بالكلِّيَّةِ وكانَ مشغولًا بحالِهِ عنهُ كانَ شاهدًا لهُ بسقوطِ بشريَّتِهِ.

وهذَا المَذْهَبُ الرَّذيلُ لمْ يعهَدْ فِي الصَّدرِ الأوَّلِ، ولَا عندَ أحدٍ منَ المحقِّقِينَ، ومَا الَّذِي يُحوجُ الإنسانَ إلىٰ أنْ يزنَ نفسَهُ، هلْ سقطَتْ بشريَّتُهُ في هذَا الموضعِ الغَريرِ المؤدِّي إلىٰ الهلاكِ وبئسَ المصيرُ؟!، الَّذِي لمْ يزَلِ المشايخُ يحذِّرونَ منْ صحبَةِ هذا القبيلِ، وإنْ لمْ يكنْ فيمَا وصفْنَاهُ منَ الزِّيِّ ولَا من كمالِ الحالِ.

وقَدْ تقدَّمَتِ الحكايةُ[2] في أنَّ بعضَهُمْ رأىٰ إبليسَ ـ لعنَهُ اللهُ ـ وهوَ يمرُّ عنهُ ناحيةً؛ أيْ يبعدُ عنهُ، فسألَهُ عن بُعْدِهِ منهُ، فقالَ إبليسُ: ما الَّذِي أعملُ بكُمْ؟ أنتُمْ تركتُمْ عنْ أنفسِكُمْ ما أخادعُ بهِ النَّاسَ؛ وهيَ الدُّنيَا، ثمَّ التفَتَ إليهِ إبليسُ وقالَ: إلَّا أنَّ لِي فيكُمْ لطيفةً، فقالَ لهُ: وما هيَ؟ فقالَ: صُحْبَةُ الأَحْدَاثِ.

ويلزمُ علىٰ هذا المذهبِ الرّذلِ أنْ يفعلَ ذلكَ بالنِّساءِ الجميلاتِ، فينظرَ هل تتحرَّكُ نفسُهُ، أو خَمَدَتْ بشريَّتُهُ لكمالِ مجاهدَتِهِ؟ ولقدْ يجدُ ذلكَ في أفضلِ عباداتِهِ وهيَ الصَّلاةُ إذا دخلَ فيهَا هلْ هوَ مشغولٌ فيهَا برؤيةِ ربِّهِ وكمالِ مناجاتِهِ

---

(١) في (ج): ولم.

(٢) ص٤٠٣.

والحضورِ بينَ يدَيهِ، وكمالِ إجلالِهِ وعظمتِهِ، أوْ وقفَ بينَ يدَيهِ صورةً متفكرًا في سوءِ عاداتِهِ وشهواتِهِ، ويستغنِي بهذَا الميزانُ القويمُ، ويبعدُ بهِ عنِ الغَررِ والوقوعِ في الجحيمِ.

وأمَّا مَا تأوَّلُوهُ في الخبرِ إنْ صحَّ عن قولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ في ليلةِ المعراجِ: «**رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ**»(١)؛ أيْ: أنَّهُ رأىٰ صورَ الملائكةِ علىٰ ما هُمْ عليهِ، وصورَ الأنبياءِ ويوسفَ الصِّدِّيقَ وسائرَ ما رآهُ منَ الصُّورِ الجميلةِ في تلكَ اللَّيلةِ، وأنَّهُ رأىٰ اللهَ في تلكَ الصُّورةِ الجميلةِ؛ أيْ رَأَىٰ المصوِّرَ في وقتِ نظرِهِ إليهَا، ولمْ يشتغلْ بالصُّورةِ عنِ المُصَوِّرِ، فهذَا بعيدٌ جدًّا في التَّأويلِ، ولا خصوصيَّةَ لهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في تلكَ اللَّيلةِ زائدةٌ علىٰ أحوالِهِ في الأرضِ، فإنَّهُ في سائرِ أحوالِهِ ناظرٌ إلىٰ ربِّهِ ولا يشغلُهُ شيءٌ منَ الصُّورِ المُسْتَحْسَنَةِ عنهُ.

وهذا تأويلٌ ضعيفٌ، وإنْ صحَّ الخبرُ فمحلُّهُ ـ واللهُ أعلمُ ـ أنَّ رؤيةَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحسنِ صورةٍ هوَ عليهَا وأجملِ هيئةٍ، وذلكَ أنَّهُ خلقَ لهُ منَ الإدراكِ الَّذي رأىٰ بهِ ربَّهُ المُنَزَّهَ عنِ الأجسامِ والجهاتِ والصُّورِ والهيئاتِ ما لمْ يَخْلُقْهُ ـ تعالىٰ ـ لهُ قبلَ ذلكَ، وتكونُ الصُّورةُ راجعةً [١٤٩/أ] إلىٰ حالتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وما خصَّهُ بهِ منَ الإدراكِ الشَّريفِ الَّذي يخلقُهُ لأوليائِهِ في الدَّارِ الآخرةِ، ويخصُّهُمْ بهِ، وتكونُ الصُّورةُ هاهُنَا معنويَّةً لا محسوسةً، واللهُ المُوفِّقُ لمَا يرضيهِ عنَّا، ويبعدُنَا عن شُرورِ أنفسِنَا بمنِّهِ وكَرَمِهِ(٢).

---

(١) انظر في ذلك: مشكل الحديث وبيانه لابن فورك ص٤٨.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٣٣١/١.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «وَمِنْ ذَلِكَ (النَّفْسُ)[(٢)]:

نَفْسُ الشَّيْءِ فِي اللُّغَةِ: وُجُودُهُ، وَعِنْدَ القَوْمِ: لَيْسَ المُرَادُ مِنْ إِطْلَاقِ لَفْظِ النَّفْسِ الوُجُودَ وَلَا القَالِبَ المَوْضُوعَ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا بِالنَّفْسِ: مَا كَانَ مَعْلُولًا مِنْ أَوْصَافِ العَبْدِ، وَمَذْمُومًا مِنْ أَفْعَالِهِ وَأَخْلَاقِهِ.

ثُمَّ إِنَّ المَعْلُولَاتِ مِنْ أَوْصَافِ العَبْدِ عَلَىٰ ضَرْبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: يَكُونُ كَسْبًا لَهُ؛ كَمَعَاصِيهِ وَمُخَالَفَاتِهِ.

وَالثَّانِي: أَخْلَاقُهُ الدَّنِيئَةُ، فَهِيَ فِي أَنْفُسِهَا مَذْمُومَةٌ، فَإِذَا عَالَجَ العَبْدُ وَنَازَلَهَا تَنْتَفِي عَنْهُ بِالمُجَاهَدَةِ تِلْكَ الأَخْلَاقُ عَلَىٰ مُسْتَمَرِّ العَادَةِ.

فَالقِسْمُ الأَوَّلُ مِنْ أَحْكَامِ النَّفْسِ مَا نُهِيَ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيمٍ أَوْ نَهْيَ تَنْزِيهٍ.

وَأَمَّا القِسْمُ الثَّانِي مِنْ قِسْمَيِ النَّفْسِ: فَسَفْسَافُ الأَخْلَاقِ، وَالدَّنِيءُ مِنْهَا[(٣)].

هَذَا حَدُّهُ عَلَىٰ الجُمْلَةِ، ثُمَّ تَفْصِيلُهَا: فَكَالكِبْرِ، وَالحَسَدِ، وَالحِقْدِ، وَسُوءِ الخُلُقِ، وَقِلَّةِ الاحْتِمَالِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَخْلَاقِ المَذْمُومَةِ.

وَأَشَدُّ أَحْكَامِ النَّفْسِ وَأَصْعَبُهَا: تَوَهُّمُهَا أَنَّ شَيْئًا مِنْهَا حَسَنٌ، أَوْ أَنَّ لَهَا اسْتِحْقَاقَ قَدْرٍ، وَلِهَذَا عُدَّ ذَلِكَ مِنَ الشِّرْكِ الخَفِيِّ.

وَمُعَالَجَةُ الأَخْلَاقِ فِي تَرْكِ النَّفْسِ وَكَسْرِهَا أَشَدُّ مِنْ مُقَاسَاةِ الجُوعِ وَالعَطَشِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٢) انظر في هذا المصطلح: اللمع للطوسي ص٤٢٤، وعبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص٤٩، والتعريفات ص٣١٢، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص١١٤، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٣) العطف فيه للتفسير.

وَالسَّهَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المُجَاهَدَاتِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ سُقُوطَ القُوَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ أَيْضًا مِنْ جُمْلَةِ تَرْكِ النَّفْسِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ النَّفْسُ: لَطِيفَةً مُودَعَةً فِي هَذَا القَالَبِ هِيَ مَحَلُّ الأَخْلَاقِ المَعْلُولَةِ، كَمَا أَنَّ الرُّوحَ: لَطِيفَةٌ فِي هَذَا القَالَبِ هِيَ مَحَلُّ الأَخْلَاقِ المَحْمُودَةِ، وَتَكُونُ الجُمْلَةُ مُسَخَّرًا بَعْضُهَا لِبَعْضٍ، وَالجَمِيعُ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ.

وَكَوْنُ النَّفْسِ وَالرُّوحِ مِنَ الأَجْسَامِ اللَّطِيفَةِ فِي الصُّورَةِ؛ كَكَوْنِ المَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ بِصِفَةِ اللَّطَافَةِ، وَكَمَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ البَصَرُ مَحَلَّ الرُّؤْيَةِ، وَالأُذُنُ مَحَلَّ السَّمْعِ، وَالأَنْفُ مَحَلَّ الشَّمِّ، وَالفَمُ مَحَلَّ الذَّوْقِ، وَالسَّمِيعُ وَالبَصِيرُ وَالشَّامُّ وَالذَّائِقُ إِنَّمَا هِيَ الجُمْلَةُ الَّتِي هِيَ الإِنْسَانُ، وَكَذَلِكَ مَحَلُّ الأَوْصَافِ الحَمِيدَةِ: القَلْبُ أَوِ الرُّوحُ، وَمَحَلُّ الأَوْصَافِ المَذْمُومَةِ: النَّفْسُ، وَالنَّفْسُ جُزْءٌ مِنْ هَذِهِ الجُمْلَةِ، وَالقَلْبُ جُزْءٌ مِنْ هَذِهِ الجُمْلَةِ [١٤٩/ب]، وَالحُكْمُ وَالاسْمُ رَاجِعٌ إِلَى الجُمْلَةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لفظُ (النَّفسِ)[١] يطلَقُ على الحقيقةِ، يقالُ: نفسُ الجوهرِ، ونفسُ العَرَضِ، ونفسُ العِلمِ، ونفسُ الجملةِ، والمرادُ: حقيقةُ ذلكَ الشَّيءِ.

وبهذا الاعتبارِ أُطلِقَ لفظُ النَّفسِ على الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقدْ يُطلَقُ على الدَّمِ، يقولُ الفقهاءُ[٢]: ما لهُ نفسٌ سَائلةٌ؛ إذَا وقعَ في ماءٍ أو مائعٍ نجَّسَهُ[٣].

وقد يُطلقُ على الأخلاقِ المَذْمُومةِ إذا ظهَرَ منْ شَخْصٍ خُلُقٌ مَذْمُومٌ؛ مِنْ

(١) تأمل معاني (النفس) في: تصحيح الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري ص٤٧٣، ورسالة شريفة لمعاني النفس النفيسة لمستجي زاده.
(٢) انظر: الأم ١/٥، وروضة الطالبين ١/١٦.
(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٣٢.

أَنَفٍ أَوْ كِبْرٍ أو عُجْبٍ ، قيلَ : هذَا نفسٌ .

وإذَا تقرَّرَ ذلكَ كانَتِ الأخلاقُ المذمومةُ منقسمةً إلىٰ : ما يُكْتَسَبُ ، وإلَىٰ ما يُطْبَعُ المَرْءُ عليهِ ؛ فالَّذِي يُطْبَعُ المَرْءُ عليهِ ، كمَا قالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[١] : «الجُبْنُ وَالجُرْأَةُ ، غَرَائِزُ يَضَعُهُمَا اللهُ حَيْثُ يَشَاءُ» ، وكذلكَ الميلُ لكلِّ لذيذٍ ، والنَّفرةُ عن كلِّ كَرِيهٍ .

وأمَّا المُكتسبةُ : فكلُّ شهوةٍ يتوصَّلُ الإنسانُ إليهَا بتطلُّبِهِ ؛ كالزِّنَا وشربِ الخمرِ والسَّرقةِ والغِيبةِ والنَّميمةِ وما يجرِي مجرَاهُ .

فهذِهِ الأخلاقُ وإنْ سمِّيَتْ نَفْسًا فاعتبارُ ذمِّ الشَّرعِ لهَا ، وإلَّا فإطلاقُ النَّفسِ علىٰ هذِهِ المُشْتهياتِ من حيثُ تعلُّقُ النَّفسِ بهَا وتَحْصِيلُهَا لأَغْرَاضِهَا .

وأمَّا القِسمُ الثَّانِي الَّذِي طُبِعَ العبدُ عليهِ ؛ وهوَ في نظَرِ الشَّرعِ مذمومٌ ، فيتأتَّىٰ تغييرُهُ والانتقالُ عنهُ بالمجاهدةِ ، كمَا يتأتَّىٰ التَّخلُّقُ بالأخلاقِ المحمودةِ ؛ منَ الصَّبرِ والزُّهدِ والتَّوكُّلِ والتَّكلُّفِ والمجاهدةِ فِي التَّحصيلِ .

وزعمَ بعضُ النَّاسِ أنَّ هذِهِ الأخلاقَ المذمومةَ لا تتغيَّرُ ، فإنَّهَا منذُ طُبِعَ العبدُ عليهَا فغايتُهَا أنْ تسكنَ بالمجاهدةِ والتَّخويفِ ، وإنْ غفلَ العبدُ عنهَا عادَتْ .

وهذا فيهِ نظرٌ ؛ فإنَّ الدَّليلَ علىٰ صحَّةِ تغييرِهَا طلبُ الشَّرعِ لأضدادِهَا ، ونهيُهُ عنِ التَّلبُّسِ بهَا ، وقدْ يقعُ الغلطُ فيمَا يميلُ العبدُ إليهِ وينفرُ عنهُ ، ويعتقدُ أنَّ الميلَ لهُ علىٰ الخصوصِ طبعٌ ، وكذلِكَ النَّفرةُ عنهُ ، وليسَ بصحيحٍ ، وإنَّمَا الطَّبعُ الَّذِي لا يتغيَّرُ الميلُ لكلِّ لذيذٍ ، والنَّفرةُ عن كلِّ كريهٍ مطلقًا ، وقدْ يتوهَّمُ الشَّخصُ أنَّ شيئًا لذيذًا فيَميلُ إليهِ ، وإذَا نبَّهَهُ اللهُ إلىٰ جهةِ قُبْحِهِ نفرَ عنهُ ، ومِنْ هذا القبيلِ مَيلُ النُّفوسِ

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٢/٤٦٣ ، والقضاعي في مسنده ١/١٩٧ ، والديلمي في الفردوس ٢/١٢٤ . وفي النهاية لابن الأثير ٣/٣٥٩ : «غرائز : أي أخلاق وطبائع صالحة أو رديئة ، واحدتها : غريزة» .

إلىٰ الدُّنيَا العاجلةِ، وإنَّمَا كانَ ميلُهُمْ إليهَا؛ لكونِهِمْ لا يعرفونَ حسنًا غيرَهَا، فإذَا منَّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ العبدِ وعرَّفَ عوارَ الدُّنيَا ونقْصَهَا [١/١٥٠] ومَا تُوقِعُ فيهِ منَ البلاءِ وتحجُبُ عنهُ منَ الخيراتِ نفرَ عنهَا وكرهَهَا، فالَّذِي كانَ لذيذًا لهُ صارَ كَرِيهًا، وطبعُهُ لمْ يتغيَّرْ، وإنَّمَا تغيَّرَ ظنُّهُ باللَّذيذِ والكَرِيهِ.

وكذلكَ مَنْ نظرَ إلىٰ الأعمالِ الصَّالحةِ ومشقَّةِ القيامِ بهَا؛ منَ الصَّلاةِ والصَّومِ والحجِّ والجهادِ، وما يترتَّبُ علىٰ تحصيلِ ذلكَ من إتعابِ النَّفسِ والمالِ، والتَّغريرِ بالنَّفسِ في الجهادِ، والنَّفسُ نافرةٌ عن هذِهِ المشاقِّ، فإذا مَنَّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ العبدِ بمَا يترتَّبُ عليهَا منَ الفوائدِ في الدُّنيَا والآخرةِ، ورُزِقَ اللَّذَّةَ فيهَا مالَ إليهَا، وثَقُلَ عليهِ ترْكُهَا، فالَّذِي كانَ منهُ نافرًا صارَ إليهِ مائلًا والطَّبعُ لمْ يتغيَّرْ، فدلَّ جميعُ ذلكَ علىٰ تغييرِ الأخلاقِ، وهيَ العوائدُ، وإنَّمَا الطَّبعُ الَّذِي لا يتغيَّرُ هوَ ما ذكرْنَاهُ منَ المَيْلِ لكلِّ لذيذٍ، والنَّفْرَةِ عن كلِّ كَرِيهٍ.

وقَدْ تطلَقُ النَّفسُ علىٰ المعنىٰ الَّذِي يفارقُ الإنسانَ بالموتِ والرُّوحِ أيضًا، يقالُ[١]: زهقَتْ نفسُهُ، وخرجَتْ روحُهُ، وقدْ قالَ ابنُ عبَّاسٍ[٢] لمَّا تكلَّمَ علىٰ النَّومِ في قولِهِ ـ تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] قالَ: فِي الجسدِ نفسٌ وروحٌ بينَهُمَا مثلُ شعاعِ الشَّمسِ، فإذا خرجَتِ النَّفسُ بالنَّوم فإنْ أرادَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ وفاةَ العبدِ أمسَكَ النَّفسَ فتبعَتْهَا الرُّوحُ، قالَهُ مجاهدٌ، وقالَهُ ابنُ عبَّاسٍ إلَّا أنَّهُ جعلَ النَّفسَ العقلَ؛ وهوَ الَّذِي يزولُ بالنَّومِ، فقدْ أُطْلِقَتِ النَّفسُ أيضًا علىٰ ما يفارقُ الإنسانَ بالموتِ، وقدْ سمَّىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ النَّفسَ في كتابِهِ بأسماءٍ مختلفةٍ، فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقالَ: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، وقالَ:

---

(١) انظر: الزاهر للأزهري ص٤٠٥، والمغرب للمطرزي ١/٣٧٥.

(٢) انظرقوله في: الكشف والبيان للثعلبي ٨/٢٣٨، وتفسير القرطبي ١٥/٢٦١، وتفسير أبي السعود ٧/٢٥٧، وتنوير المقباس ص٣٨٩.

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]، فلمَّا كانَتْ مائلةً للشَّهواتِ ومخلةً بالطَّاعاتِ، سُمِّيَتْ أمَّارةً بالسُّوءِ.

ولمَّا عرفَتْ سوءَ حالِهَا، ومَا هيَ عليهِ من نُزُولِ قدرِهَا، ومَنَّ عليهَا بالتَّوبةِ ربُّهَا، صارَتْ تلومُ نفسَهَا علىٰ التَّقصيرِ والتَّفريطِ، وتلافِي ما ذهبَ من أيَّامِهَا في البطالةِ والتَّخليطِ، فسُمِّيَتْ لوَّامةً.

ولمَّا استقامَتْ علىٰ الخيراتِ، ولذَّتْ لهَا الطَّاعاتُ، وحسُنَ بينَهَا وبينَ سيِّدِهَا المُناجَات وجميلُ الحَالاتِ، اطمأنَّتْ لمَا أجرَاهُ عليهَا منَ التَّوفِيقِ في سَائِرِ الحَالاتِ سُمِّيَتْ مطمئنةً[1]. فقدِ اختلفَتْ أسماؤُهَا باختلافِ أحوالِهَا.

قالَ: ويحتملُ أنْ تكونَ النَّفسُ لطيفةً هيَ محلُّ الأخلاقِ المذمومةِ، والرُّوحُ لطيفةً هيَ محلُّ الأخلاقِ المحمودةِ[2] [١٥٠/١ب]، وكونُ النَّفسِ والرُّوحِ في الجسدِ لا يبعدُ إذا كانُوا أجسامًا لطيفةً، فإنَّهُ لا يُقبَضُ ويُرفعُ إلَّا الأجزاءُ، قالَ: «**وكمَا أنَّ العينَ محلُّ الإدراكِ للمبصراتِ، والأنفَ محلُّ إدراكِ الرَّوائحِ، واللِّسانَ محلُّ إدراكِ الذَّوقِ، وكذلكَ النَّفسُ والرُّوحُ والذَّائقُ والشَّامُّ والبصيرُ والمتَّصفُ بالأخلاقِ المحمودةِ والمذمومةِ، يسمَّىٰ جملةَ الإنسانِ**»، فيوصفُ بكونِهِ ذائقًا شامًّا بصيرًا متخلقًا بِأَخْلَاقٍ محمودةٍ ومذمومةٍ، هذَا باعتبارِ إطلاقِ الاسمِ خاصَّةً؛ وإلَّا فالتَّحقيقُ أنَّ المعنَىٰ إذا قامَ بجزءٍ استحالَ أنْ يوجبَ حكمَهُ لغيرِ مَنْ قامَ بهِ، وإنَّمَا مرادُ الإمامِ: أنَّ جملتَهُ تسمَّىٰ بهِ.

---

(١) انظر: معارج القدس في مدارج معرفة النفس ص١٥ ـ ١٦.

(٢) قال الشيخ زكريا: «ويعبر عن هذا بأن الروح جوهر نوراني عُلْوي رباني، والنفس ظُلمانية سُفلية شيطانية» إحكام الدلالة ١/٣٣٤.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَمِنْ ذَلِكَ (الرُّوحُ)[٢]:

الأَرْوَاحُ مُخْتَلَفٌ فِيهَا عِنْدَ أَهْلِ التَّحْقِيقِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ:

فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهَا الحَيَاةُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهَا أَعْيَانٌ مُودَعَةٌ فِي هَذِهِ القَوَالِبِ لَطِيفَةٌ أَجْرَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ العَادَةَ بِخَلْقِ الحَيَاةِ فِي القَوَالِبِ مَا دَامَتِ الأَرْوَاحُ فِي الأَبْدَانِ، فَالإِنْسَانُ حَيٌّ بِالحَيَاةِ، وَلَكِنَّ الأَرْوَاحَ مُودَعَةٌ فِي القَوَالِبِ، وَلَهَا تَرَقٍّ فِي حَالِ النَّوْمِ، وَمُفَارَقَةٌ لِلْبَدَنِ ثُمَّ رُجُوعٌ إِلَيْهَا[٣].

وَإِنَّ الإِنْسَانَ هُوَ الرُّوحُ وَالجَسَدُ؛ لِأَنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ سَخَّرَ هَذِهِ الجُمْلَةَ بَعْضَهَا لِبَعْضٍ، وَالحَشْرُ يَكُونُ لِلْجُمْلَةِ، وَالمُثَابُ وَالمُعَاقَبُ الجُمْلَةُ.

وَالأَرْوَاحُ مَخْلُوقَةٌ[٤]، وَمَنْ قَالَ بِقِدَمِهَا فَهُوَ مُخْطِئٌ خَطأً عَظِيمًا، وَالأَخْبَارُ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا أَعْيَانٌ لَطِيفَةٌ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **الرُّوحُ**: هوَ الَّذِي يفارقُ الإنسانَ بالموتِ ويقبضُهُ الملَكُ، ويكونُ في علِّيِّينَ للسُّعداءِ، وفِي سجِّينٍ للأشقياءِ، وفي حواصلِ طيرٍ خضْرٍ للشُّهداءِ، كمَا جاءَتْ بهِ الأخبارُ[٥]، ....

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٠٥.

(٢) انظر في هذا المصطلح: اللمع للطوسي ص٤٢٧، ٥٥٤، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص١٦٨، ومعجم مصطلحات الصوفية ص١١٤.

(٣) الضمير راجع للقوالب.

(٤) لثبوت ذلك بالشرع والعقل، وهو الذي عليه أهل الحق والإصابة، نص علىٰ ذلك الطوسي في اللمع ص٥٥. وفي مجموع الفتاوىٰ ٤/٢١٦: «روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة، وقد حكي إجماع العلماء علىٰ أنها مخلوقة».

(٥) كما في صحيح مسلم ٣/١٥٠٢: «... أَرْوَاحُهُمْ في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لها قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ من الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ....».

وقولُهُ[(١)]: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»، فهذا كلُّهُ يدلُّ علىٰ أنَّهَا أجرامٌ وأجزاءٌ.

ومَنْ قالَ: «**إنَّها الحياةُ**» وهيَ عرضٌ يستحيلُ حملُهَا وانتقالُهَا إلَّا أنْ يقولَ: يقومُ هذَا المعنىٰ بجزءٍ فينتقلُ الجزءُ والمعنَىٰ معَهُ.

وهذا فيهِ إشكالٌ، فإنَّ المعنىٰ لا يبقَىٰ زمنَينِ علىٰ الصَّحيحِ، وإذا فارقَ الرُّوحُ الجسدَ وكانَ معنًىٰ فهوَ يتوالَىٰ علىٰ الجزءِ الَّذِي قامَ بهِ، وإنْ لمْ يكنْ في الجسدِ فلزمَ منْ ذلكَ أنْ تكونَ الحياةُ لَا للجسدِ، وإنَّمَا تكونُ للجزءِ الَّذِي توالَتْ عليهِ. والظَّاهرُ هوَ الأوَّلُ.

وقدْ سلكَ الإمامُ الغزالِي[(٢)] مسلكًا آخرَ، وجعلَ [١/١٥١أ] النَّفسَ والقلبَ والرُّوحَ والعقلَ شيئًا واحدًا؛ وهوَ المعنىٰ الَّذِي يفارقُ الإنسانَ بالمَوتِ، وهيَ الحقيقةُ الرَّبَّانيَّةُ كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، فقالَ[(٣)]: لفظُ النَّفسِ يطلقُ علىٰ الدَّمِ، وعلىٰ الحقيقةِ الرَّبَّانيَّةِ، ولفظُ العقلِ يطلقُ علىٰ العلمِ وعلىٰ الحقيقةِ الرَّبَّانيَّةِ، ولفظُ القلبِ يُطلَقُ علىٰ اللَّحمِ الصَّنوبريِّ الشَّكلِ، وعلَىٰ الحقيقةِ الرَّبَّانيَّةِ، ولفظُ الرُّوحِ يطلَقُ علىٰ البُخَارِ الَّذِي في جوفِ هذَا الشَّكلِ، وعلىٰ الحقيقةِ الرَّبَّانيَّةِ، فجعلَ الحقيقةَ الرَّبَّانيَّةَ تسمَّىٰ نفسًا وروحًا وقلبًا وعقلًا.

وعلىٰ الجُمْلَةِ: فمقصودُ أهلِ هذِهِ الطَّائفةِ بلفظِ الرُّوحِ معنًىٰ لهُ تعلُّقٌ بالمُشَاهَدَاتِ، والاطِّلاعِ علىٰ المغيَّباتِ، وحصولِ الأُنْسِ والقُربِ منَ اللهِ ـ سبحانه ـ،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: معارج القدس في مدارج معرفة النفس ص١٥، وإحياء علوم الدين ٣/٣.

(٣) انظر: معارج القدس ص١٦، وإحياء علوم الدين ٣/٣.

فإذا كانَ العبدُ بهذِهِ الحالةِ جعلُوا هذَا أثَرَ الرُّوحِ كمَا تقدَّمَ من أنَّ آثارَ النَّفسِ هيَ الشَّهواتُ المذمومةُ ، هذَا كلُّهُ اختلافٌ فِي[1] أسماءٍ لا يتعلَّقُ بهِ مقصودٌ كبيرٌ.

وأحسنُ ما أُريدَ لهُ الكلامُ وصرَّحَ بهِ الإمامُ «**أنَّ الرُّوحَ مَخْلُوقةٌ**» ، ردًّا علىٰ مَنْ زعمَ أنَّهَا قديمةٌ منَ القائلِينَ بالحُلُولِ[2] ، وقَدْ قالَ المُحَاسِبِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ لمَّا تكلَّمَ علىٰ الرُّوحِ وكفَىٰ بالبدنِ حَدًّا ، وإذا كانَ البدنُ بجملتِهِ مخلوقًا حادثًا ، وهيَ منهُ ، فهِيَ مَخْلُوقَةٌ ؛ سَوَاء كانَتْ جَوْهرًا أو عَرَضًا.

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) وهو قول فريق من الفلاسفة وغيرهم. وتحرَّ تفصيل ذلك في: الروح لابن القيم ص١٤٤ ، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٤٤١ ، وفتح الباري ٨/٤٠٣.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَمِنْ ذَلِكَ (السِّرُّ)[(٢)]:

يُحْتَمَلُ أَنَّهَا لَطِيفَةٌ مُودَعَةٌ فِي القَالَبِ كَالأَرْوَاحِ.

وَأُصُولُهُمْ تَقْتَضِي أَنَّ الأَسْرَارَ مَحَلُّ المُشَاهَدَةِ[(٣)]، كَمَا أَنَّ الأَرْوَاحَ مَحَلٌّ لِلْمَحَبَّةِ، والقُلُوبَ مَحَلٌّ لِلْمَعَارِفِ.

وَقَالُوا: السِّرُّ: مَا لَكَ عَلَيْهِ إِشْرَافٌ، وَسِرُّ السِّرِّ: مَا لَا اطِّلَاعَ عَلَيْهِ لِغَيْرِ الحَقِّ ـ سبحانه ـ.

وَعِنْدَ القَوْمِ عَلَىٰ مُوجِبِ مُوَاضَعَاتِهِمْ، وَمُقْتَضَىٰ أُصُولِهِمْ: السِّرُّ أَلْطَفُ مِنَ الرُّوحِ، وَالرُّوحُ أَشْرَفُ مِنَ القَلْبِ.

وَيَقُولُونَ: الأَسْرَارُ مُعْتَقَةٌ عَن رِقِّ الأَغْيَارِ مِنَ الآثَارِ وَالأَطْلَالِ.

وَيُطْلَقُ لَفْظُ (السِّرِّ) عَلَىٰ مَا يَكُونُ مَصُونًا مَكْتُومًا بَيْنَ العَبْدِ وَالحَقِّ ـ سبحانه ـ فِي الأَحْوَالِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ مَنْ قَالَ[(٤)]: (أَسْرَارُنَا بِكْرٌ[(٥)] لَمْ يَفْتَضَّهَا[(٦)] وَهْمُ وَاهِمٍ).

وَيَقُولُونَ[(٧)]: (صُدُورُ الأَحْرَارِ[(٨)] قُبُورُ الأَسْرَارِ[(٩)]).

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٠٦.

(٢) انظر في هذا المصطلح: اللمع للطوسي ص٤٣٠، وتهذيب الأسرار ص٤٣٦، والإبانة لابن فورك ص٣٤٧، وعبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص٥٠، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص١٢٠.

(٣) أي: حق اليقين. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٦٦.

(٤) ورد بلا نسبة في: مدارج السالكين ٢/٤٧٣.

(٥) أي: بسبب عدم ولوج الأوهام فيها علىٰ حسب القسمة والتقدير.

(٦) أي: لم يطرقها نوع من أنواع الأوهام الجائزة. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٦٨.

(٧) قول (ذي النون المصري) في: حلية الأولياء ٩/٣٧٧، وورد بلا نسبة في: آداب الصحبة ص٧٠، وإحياء علوم الدين ٢/١٧٩، والمستطرف ١/٤٤٦، وبدائع السلك ١/٤٩٢.

(٨) أي: المطهرون من رجس الحظوظات. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٦٨.

(٩) أي: هي مثل القبور في مطلق الإخفاء وستر ما تشتمل عليه.

وَقَالُوا[١]: (لَوْ عَرَفَ زِرِّي سِرِّي لَطَرَحْتُهُ).

فَهَذَا طَرَفٌ مِنْ تَفْسِيرِ أَلفَاظِهِم، وَبَيَانِ عِبَارَاتِهِمْ فِيمَا انْفَرَدُوا بِهِ مِنْ أَلْفَاظٍ، ذَكَرْنَاهَا عَلَىٰ شَرْطِ الإِيجَازِ.

وَلْنَذْكُرِ الآنَ أَبْوَابًا فِي شَرْحِ المَقَامَاتِ الَّتِي هِيَ مَدَارِجُ أَرْبَابِ السُّلُوكِ، ثُمَّ بَعْدَهَا أَبْوَابًا فِي تَفْصِيلِ الأَحْوَالِ عَلَىٰ الحَدِّ الَّذِي يُسَهِّلُ اللهُ - تعالىٰ - [١/١٥١ب] بِفَضْلِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ - تعالىٰ -».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وما ذكرَهُ الإمامُ في السِّرِّ قالَ[٢]: السِّرُّ يُطْلَقُ علىٰ وجهَينِ:

إمَّا باعتبارِ مَا أطلقَ علىٰ الرُّوحِ؛ وهوَ أنَّهُ لطيفةٌ مُودَعَةٌ تكونُ أشرفَ منَ الرُّوحِ، كمَا أنَّ الرُّوحَ أشرفُ منَ القلبِ، فَرَّقوا بينَ ذلكَ بالآثارِ، فأثرُ القلبِ تحصيلُ العِلْمِ، وأَثَرُ الرُّوحِ المَحبَّةُ، وأثرُ السِّرِّ المشاهدةُ، كمَا أنَّ العلمَ أوَّلُ كلِّ محبوبٍ، فلا يُحِبُّ إلَّا مَا عُلِمَ حقيقتُهُ وجمالُهُ، فالمحبَّةُ ثمرةُ العلمِ بالمحبوبِ، وإذا أحبَّ الشَّيءَ تعلَّقَتِ الهِمَّةُ بهِ، ودامَ النَّظرُ إلىٰ مشاهدَتِهِ، فكانَتِ المشاهدةُ فوقَ المحبَّةِ، وهيَ أثرُ السِّرِّ.

والوجْهُ الثَّانِي في الاصطلاحِ: أنَّ السِّرَّ مَا كانَ خفيًّا بينَ العبدِ وبينَ ربِّهِ، فهوَ خفِيٌّ عنِ الآدميِّينَ، وعنِ الملائكةِ، وعن صاحبِ السِّرِّ القائمِ بهِ، وكذلكَ قالُوا: «**ما السِّرُّ؟ مَا لَكَ عليهِ إشرافٌ، وسرُّ السِّرِّ: مَا لا يطَّلعُ عليهِ إلَّا اللهُ**»؛ وذلكَ أنَّ العبدَ قَدْ يشتغلُ بكمالِ مَا يُطْلِعُهُ الحقُّ عليهِ ويُسِرُّهُ لهُ؛ حتَّىٰ يغفلَ عنِ السِّرِّ بكمالِ

---

(١) ورد بلا نسبة في: مدارج السالكين ٢/٤٧٣.

(٢) في (ب): فإن.

شُغْلِهِ بِمَنْ أسرَّهُ لهُ وزيَّنَهُ بهِ، وهذَا ـ واللهُ أعلمُ ـ سِرُّ السِّرِّ.

وأمَّا السِّرُّ عنِ الملائكةِ فإنَّهُ جاءَ في الخبرِ أنَّهُمْ يصعدُونَ بعملٍ لهُ ابتهاجٌ وشرفٌ، فيقالُ لهُمْ: «رُدُّوهُ، فإنَّهُ لم يُرِدْنِي بهِ»[١]، فقد غابَ هذا السِّرُّ عنِ الملائكةِ الحفَظَةِ الَّذينَ لهُم اطِّلاعٌ على القلوبِ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١١، ١٢]، وهذا عامٌّ في أعمالِ القُلُوبِ والجَوارحِ.

وقالُوا[٢]: «مَنْ لَمْ يَكُنْ بينَهُ وبينَ اللهِ سِرٌّ فهوَ مُصِرٌّ[٣]»، هذَا يدلُّ علىٰ أنَّ الأسرارَ إنَّمَا يُخَصُّ بهَا مَنْ طهُرَ قلبُهُ مِنْ كلِّ نقيصَةٍ وبراءةٍ من كلِّ مُشغلٍ، واللهُ المُوفِّقُ.

(١) أخرج الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٧١/٧ بلفظ: «إن الملك ليصعد بعمل العبد معجبًا به حتىٰ يقف بين يدي الله فيقول الله له: اجعلوه في سجين، فإنه لم يردني به»، وابن أبي الشيخ في العظمة ١٠٠١/٣.

(٢) ورد في: إتحاف السادة المتقين ١٠٤/١٣.

(٣) أي: مصر علىٰ الجفاء، بعيدٌ عن الوفاء.

قَالَ الإِمَـامُ ـ رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ ـ(١):

«بَابُ التَّوْبَةِ

قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

حَدَّثَنَا الإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ بْنِ فُورَكٍ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَحْمُودِ بْنِ خَرَّزَاذ، قَالَ: [حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الفَضْلِ بنِ جَابِرٍ، قَالَ:](٢) حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ زَكَرِيَّا، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ(٣): (التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ، وَإِذَا أَحَبَّ ـ تعالى ـ عَبْداً لَمْ يَضُرَّهُ ذَنْبٌ، ثُمَّ تَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا عَلَامَةُ التَّوْبَةِ؟ قَالَ: النَّدَامَةُ [١/١٥٢أ]).

أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدَانَ الأَهْوَازِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ [البَصْرِيُّ](٤) الصَّفَّارُ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الفَضْلِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا الحَكَمُ بْنُ مُوسَىٰ قَالَ: حَدَّثَنَا غَسَّانُ بْنُ عُبَيْدٍ عَنْ أَبِي عَاتِكَةَ: طَرِيفِ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ(٥): مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَى اللهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٠٧. وانظر: منثور الخطاب في مشهور الأبواب للقشيري ص٦٠.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من (ب، ف).

(٣) أخرجه ابن النجار في: ذيل تاريخ بغداد ١٨/٧٨، والديلمي في الفردوس ٢/٧٧، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ٢/١١٥١. وبلفظ قريب أبو نعيم في: حلية الأولياء ٤/٣١٨.

(٤) زيادة من (ب).

(٥) أخرجه الديلمي في الفردوس ٤/٤٨، وابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال ٤/١١٨، ٦/٨، والذهبي في ميزان الاعتدال ٥/٤٠٤، وابن حجر في لسان الميزان ٤/٤١٨.

ـ تعالىٰ ـ مِنْ شَابٍّ تَائِبٍ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: التَّوبةُ في اللغةِ: الرُّجوعُ مطلقًا من شيءٍ إلىٰ شيءٍ، وفي الشَّريعةِ التَّوبةُ الواجبةُ: الرُّجوعُ عنِ الذَّنبِ، قالَهُ الجوهرِيُّ في (**الصِّحاحِ**)(١).

ولا بُدَّ فِي الشَّرْعِ أَنْ يَكُونَ رُجوعُهُ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وذلكَ شرطُ كونِهِ تائبًا عنهُ بعدَ الوقوعِ فيهِ، بخلافِ السَّلامةِ من شرِّ الذَّنبِ، فإنَّ العبدَ كيفَ ما انفكَّ عنهُ بقصْدِ الطَّاعةِ أو بغيرِ قصدِ الطَّاعةِ منَ الأشغالِ سلِمَ من شرِّهِ، ولكنَّهُ لا يُثابُ إلَّا إذا تركَهُ بقصْدِ الطَّاعةِ، ومَنْ رجعَ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ عن ذنبِهِ لمعرفتِهِ بسوءِ عاقبتِهِ وقُبْحِ ما كانَ عليهِ من حالتِهِ فيمَا سلَفَ من أوقاتِهِ قامَ بقلبِهِ ألمٌ وندمٌ علىٰ ما كانَ فيهِ، وعزمَ علىٰ أنْ لَا يعودَ إلىٰ ما تابَ عنهُ، وهذِهِ أركانُ التَّوبةِ النَّصوحِ(٢)، الَّتِي تخلِّصُهُ ممَّا بينَهُ وبينَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ممَّا خالَفَهُ فيهِ مِنْ ترْكِ الواجباتِ وارتكابِ المحرَّماتِ، وإذا قامَ بذلكَ كانَ تائبًا تحقيقًا ممَّا ذكرْنَاهُ.

فإنْ كانَتْ عليهِ حقوقٌ أُخَرُ ممَّا يجبُ تداركُهُ من تضييعٍ في صومٍ أو صلاةٍ أو كفاراتِ أيمَانٍ، أو حقوقٍ للمسلمينَ ممَّا يجبُ استحلالُهُمْ فيهِ أو ردُّهُ إليهِمْ إنْ أمكَنَ أو لورثتِهِمْ إنْ كانَ مِمَّا(٣) يُورَثُ، فهذِهِ أمورٌ أخرُ تلازمُ التَّائبِينَ يحتاجونَ إلىٰ الخلاصِ منهَا، وهيَ واجباتٌ أخرُ يجبُ عليهِمُ القيامُ بهَا بعدَ أنْ تابوا إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ممَّا خالَفُوهُ فيهَا، فإنَّ كلَّ حقٍّ أمرَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بقضائِهِ أو أدائِهِ إلىٰ أهلِهِ إذا لمْ يقمِ العبدُ بهِ كانَ عاصيًا لربِّهِ، ولكنَّهُ إذا تابَ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ منَ العَودِ في مثلِهِ واجتهدَ فِي قضاءِ ما لَزِمَهُ ولم يُقَصِّرْ تخلَّصَ مِنْ حقِّ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، ولا يسقطُ

(١) الصحاح ١/٩١ ـ «ت وب» ـ بتصرف.
(٢) انظر: الأذكار للنووي ١/٢٩٣.
(٣) في (أ): ما، والصواب المثبت.

حقُّ الخَلْقِ إلَّا بالأداءِ إليهِم أوِ استحلالِهِم.

فهذِهِ هيَ حقيقةُ التَّوبةِ الواجبةِ؛ وهيَ الرُّجوعُ عمَّن فرَّطَ العبدُ فيهِ منَ الواجباتِ أو ارتكَبَهُ منَ المحرَّماتِ.

والتَّوبةُ أيضًا تكونُ مندوبًا إليهَا؛ وهيَ الرُّجوعُ من الواجباتِ[1] إلىٰ الطَّاعات؛ إمَّا مِنَ البطالاتِ والرَّاحات، أو مِنْ أدنىٰ المندوباتِ إلىٰ أرفعِهَا [١٥٢/١ب] فِي الدَّرجات، قالَهُ أهلُ التَّفسيرِ في قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، أيْ: رجَّاعٌ إلىٰ طاعةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ[2]، ولمْ يذكرُوا ذنبًا، فالتَّوبةُ والأَوْبَةُ والإنابةُ كلُّ ذلكَ الرُّجوعُ إلىٰ اللهِ[3]، فإنْ كانَ عنِ ارتكابِ شيءٍ ممَّا قدَّمْنَا ذِكْرَهُ فهيَ الواجِبَةُ، وإنْ كانَ رُجُوعًا إلىٰ طاعةٍ وإنْ تعالَتْ فِي الدَّرجاتِ حتَّىٰ الرجُوعِ إلىٰ الذِّكرِ عنِ الغَفَلاتِ وإلىٰ رُؤيةِ فَضْلِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ علىٰ العبدِ عن رُؤيةِ الأعمالِ الصَّالحاتِ، كلُّ ذلكَ داخلٌ في قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، فعمَّ المُؤمنينَ في طلبِ التَّوبةِ، وقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، والفَلاحُ: هوَ الفوزُ بالمَقْصُودِ والغَنِيمَةِ.

هذَا هو الكلامُ في حقيقةِ التَّوبةِ ودَلِيلِهَا، ولا خلافَ في وجُوبِ التَّوبةِ عنِ المَعَاصِي وإنْ وردَ أنَّ بعضَهَا يكفِّرُهُ اجتنابُ الكبائِرِ ويكفِّرُهَا الطَّاعاتُ، فكلُّهَا مَعَاصٍ للهِ ـ تعالىٰ ـ، قالَ أبُو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «إنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ يغفرُ الكبيرَ فلَا تقنطُوا، ويعذِّبُ علىٰ الصَّغيرِ فلا تغترُّوا».

---

(١) سقط لفظ من (ب، ج): من الواجبات.

(٢) انظر: تفسير السمعاني ٤/٤٤٧، وتفسير القرطبي ١٥/٢١٥. وقد أفاد ذلك الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ١/٣٤٠.

(٣) انظر: الصحاح ١/٨٩ ـ (توب).

(٤) ورد قوله في: الهداية إلىٰ بلوغ النهاية ٢/١٣٠٤.

وقيلَ[١]: «لَا كَبيرَةَ مَعَ اِسْتِغْفَارٍ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ إِصْرَارٍ».

وقَدْ زَعَمَ قَومٌ أَنَّ التَّوبةَ: هيَ الرُّجوعُ عنْ فِعْلِ مثلِ ما فعلَهُ العبدُ فيمَا مضىٰ منَ الزَّمانِ في المنزلَةِ لَا في الصُّورةِ، ومقصودُهُ في المنزلةِ لا يخلُو إمَّا أنْ يزيدَ في درجةِ الذَّنبِ في الكِبَرِ والصِّغَرِ، فهذَا فيهِ بحثٌ، وإمَّا أنْ يريدَ الرجوعَ عنِ الذَّنبِ مطلقًا، وهذا مُبايِنٌ لحدِّ التَّوبةِ الَّذِي هوَ الرُّجوعُ عنِ الذَّنبِ الماضِي والاشتغالُ[٢] بمَا يمحوهُ منَ النَّدمِ، ولهذَا كانَ النَّدمُ توبةً، يعنِي مِنْ معظمِ أركانِ التَّوبةِ، فإنَّ التَّوبةَ الرُّجوعُ عنِ الذَّنبِ في الحالِ؛ أعنِي: مفارقتَهُ والنَّدَمَ عليهِ والعزمَ علىٰ أنْ لَا يعودَ، ومفارقتُهُ خلاصٌ من ضررِهِ في الحالِ، والنَّدمُ عليهِ يمحُو ما فرَطَ منهُ في سالِفِ الزَّمانِ، والعزمُ علىٰ أنْ لَا يعودَ إليهِ بحفظِهِ في الاستقبالِ، ومَا صارَ إليهِ هذا القائلُ أقربُ إلىٰ التَّقوىٰ منهُ إلىٰ التَّوبةِ، فإنَّ التَّقوىٰ هي: اتِّقاءُ الزَّللِ في الاستقبالِ، وإنْ لمْ يلابسِ العبدُ شيئًا منهُ.

وإذَا حُمِلَ قولُهُ: «**في المنزلَةِ**[٣] **لا في الصُّورةِ**» علىٰ مطلقِ الإثمِ لمْ يكنِ العبدُ تائبًا عندَهُ حتَّىٰ يتَّقِي سائرَ الذُّنوبِ، ومتَىٰ وقعَ في شيءٍ منهَا لم يكنْ تائبًا.

وهذا قدْ ذهبَ إليهِ قومٌ وزلُّوا في ذلكَ، فقالُوا: لوْ كانَ خوفُهُ [١/١٥٣أ] مِنَ اللهِ صحيحًا لمْ يخالِفْهُ في شيءٍ منَ الواجباتِ ولا ارتكابِ المحرَّماتِ، وهذا فرعُ بابِ العِصمةِ، بلِ الصَّحيحُ أنَّ العبدَ يتوبُ من بعضِ ذنوبِهِ دونَ بعضٍ، فمَنْ تابَ منهُ سلِمَ من ضررِهِ دُنْيَا وأُخْرَىٰ، ومَا لم يتُبْ منهُ فهوَ مُصِرٌّ عليهِ، وكذلكَ لوْ عادَ فيمَا تابَ منهُ وتكرَّرَ ذلكَ منهُ وتابَ في كلِّ كرَّةٍ لمْ يكنْ عودُهُ مفسِدًا لتوبتِهِ الأولىٰ؛ لأنَّ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة ص١٣٢، والقضاعي في مسند الشهاب ٢/٤٤، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ٢/٩٩٠.

(٢) في (ج): والاستقبال، والصواب المثبت.

(٣) سقط من (ج) قوله: «وإن لم يلابس العبد شيئًا منه، وإذا حمل قوله في المنزلة».

كلَّ ذنبٍ تمحوهُ توبتُهُ، فإنْ عادَ وقعَ في ذنبٍ جديدٍ، وإنْ تابَ منهُ تابَ اللهُ عليهِ، وهذَا كلُّهُ يَجْرِي في التَّوبةِ الوَاجِبَةِ والمَنْدُوبَةِ.

وأمَّا أداءُ المَظَالِمِ والحُقُوقِ الَّتِي يجبُ تَداركُهَا ففيهَا تفصيلٌ فِقْهِيٌّ، يَأْتِي فِي غَيْرِ هذا المَوضِعِ إنْ شَاءَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «التَّوْبَةُ: أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ السَّالِكِينَ، وَأَوَّلُ مَقَامٍ مِنْ مَقَامَاتِ الطَّالِبِينَ.

وَحَقِيقَةُ التَّوْبَةِ فِي لُغَةِ العَرَبِ: الرُّجُوعُ، يُقَالُ: تَاب، أَيْ: رَجَعَ.

وَالتَّوْبَةُ: الرُّجُوعُ عَمَّا كَانَ مَذْمُومًا فِي الشَّرْعِ إِلَىٰ مَا هُوَ مَحْمُودٌ فِي الشَّرْعِ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2]: (النَّدَمُ تَوْبَةٌ).

فَأَرْبَابُ الْأُصُولِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ قَالُوا: لَا يَتِمُّ شَرْطُ التَّوْبَةِ حَتَّىٰ تَصِحَّ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: النَّدَمُ عَلَىٰ مَا عَمِلَ مِنَ المُخَالَفَاتِ، وَتَرْكُ الزَّلَّةِ فِي الحَالِ، وَالعَزْمُ عَلَىٰ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَىٰ مِثْلِ مَا عَمِلَ مِنَ المَعَاصِي.

فَهَذِهِ الأَرْكَانُ لَابُدَّ مِنْهَا حَتَّىٰ تَصِحَّ تَوْبَتُهُ.

قَالَ هؤُلَاءِ: وَمَا فِي الخَبَرِ أَنَّ النَّدَمَ تَوبَةٌ إِنَّمَا نَصَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ مُعْظَمِهِ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3]: (الحجُّ عَرَفَةٌ)؛ أَيْ: مُعْظَمُ أَرْكَانِهِ عَرَفَةٌ؛ أَيِ: الوُقُوفُ بِهَا، لَا أَنَّهُ لَا رُكْنَ فِي الحجِّ سِوَىٰ الوُقُوفِ بِعرَفَاتٍ، وَلَكِنْ مُعْظَمُ أَرْكَانِهِ الوُقُوفُ، وَكَذَلِكَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه ٢/١٤٢٠، والبيهقي في سننه الكبرىٰ ١٠/١٥٤، والطبراني في الأوسط ٧/٤٤.

(٣) أخرجه النسائي في سننه الكبرىٰ ٢/٤٢٤، وابن ماجه في سننه ٢/١٠٠٣، والترمذي في سننه ٣/٢٣٧.

قَوْلُهُ: (النَّدَمُ تَوْبَةٌ) ؛ أَيْ: مُعْظَمُ أَرْكَانِهَا النَّدَمُ.

وَمِنْ أَهْلِ التَّحْقِيقِ مَنْ قَالَ: يَكْفِي النَّدَمُ فِي تَحْقِيقِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ النَّدَمَ يَسْتَتْبِعُ الرُّكْنَينِ الآخَرَينِ، فَإِنَّهُ يَسْتَحِيلُ تَقْدِيرًا أَنْ يَكُونَ نَادِمًا عَلَىٰ مَا هُوَ مُصِرٌّ عَلَىٰ مِثْلِهِ، أَوْ عَازِمٌ عَلَى الإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ.

هَذَا مَعْنَى التَّوْبَةِ عَلَىٰ جِهَةِ التَّحْدِيدِ وَالإِجْمَالِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: التَّوبةُ أوَّلُ منزلٍ من منازلِ السَّالكِينَ[1]؛ يعني: التَّوبةَ الواجبةَ عنِ المُحرَّماتِ، وإلَّا قدْ بيَّنَّا أنَّ التَّوبةَ في كلِّ مقامٍ تَجْري وإنْ لم يكنْ ذنبٌ إذا كانَ معناهَا الرُّجوعَ إلى اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وكلُّ راجعٍ إلىٰ أفضَلَ مِنْ فاضلٍ فهوَ تائبٌ، كذلكَ سائرُ المقاماتِ، فيهَا الواجبُ والمندوبُ وإنْ تعالَىٰ في الدَّرجاتِ.

وأمَّا قولُهُ: [١/١٥٣ب] «**ومِنْ أهلِ التَّحقيقِ مَنْ زعمَ أنَّ النَّدمَ يكفِي؛ لأنَّهُ يستتبعُ الرُّكنَينِ[2] الآخرَينِ**»، فليسَ بصحيحٍ، فإنَّ الَّذِي يستتبعُ الرُّكنَينِ هوَ العلمُ بقُبْحِ الذَّنبِ وسوءِ حالِ العبدِ في ملابستِهِ ما يمقتُهُ ربُّهُ عليهِ، وإذا علِمَ ذلكَ وقوِيَ خوفُهُ من عذابِ ربِّهِ دنيَا وأُخرَىٰ فارقَهُ في الحالِ، وإذا فارقَهُ في الحالِ لقُبْحِهِ عندَ ربِّهِ ندمَ علىٰ ما كانَ منهُ في ماضِي الزَّمانِ، وعزمَ علىٰ ألَّا يعودَ إلىٰ مثْلِهِ في الاستقبالِ، والَّذِي يستتبعُ الرُّكنَينِ هوَ المفارقةُ في الحالِ؛ لقُبْحِ ما هوَ عليهِ عندَ الكبيرِ المتعَالِ.

وقولُهُ: «**النَّدمُ توبةٌ**»؛ أيْ: معظمُ أركانِ التَّوبةِ صحيحٌ؛ لأنَّ المفارقةَ إنَّمَا تخلِّصُهُ منَ الذَّنبِ الَّذِي هوَ عليهِ في الحَالِ، والعزمُ علىٰ ألَّا يعودَ يحفظُهُ عن ضررٍ لم يتعلَّقْ بهِ بَعْدُ، والَّذِي يمحُو الآثارَ القديمةَ والزَّلَّاتِ المتقدِّمةَ فيمَا بينَهُ وبينَ ربِّهِ

---

(١) انظر: تهذيب الأسرار ص٩٤.

(٢) أي: يستلزمهما، وتحصل به فائدتهما.

هوَ النَّدمُ، وبهذا الاعتبارِ كانَ معظمَ أركانِهَا؛ أيْ: منفعةً ومحوًا لمَا تقدَّمَ منَ الزَّلَّاتِ.

وبهذا الاعتبارِ كانَ الحجُّ عرفةً، وإنْ كانَتْ أركانُهُ أربعةً؛ وهيَ: الإحرامُ، والوقوفُ، والسَّعيُ، والطَّوافُ، وإنَّمَا كانَ الوقوفُ بعرفةَ أعظمَ أركانِهِ؛ لمَا يمحُو اللهُ ـ تعالىٰ ـ فيهِ منَ الزَّلَّاتِ، ويضاعفُ فيهِ منَ الحسناتِ، ويضمَّنُ التَّبعاتِ، فبهذا كانَ معظمَ أركانِ الحجِّ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «فَأَمَّا عَلَىٰ جِهَةِ الشَّرْحِ وَالإِبَانَةِ: فَإِنَّ لِلتَّوْبَةِ أَسْبَابًا وَتَرْتِيبًا وَأَقْسَامًا:

فَأَوَّلُ ذَلِكَ: انْتِبَاهُ القَلْبِ عَنْ رَقْدَةِ الغَفْلَةِ، وَرُؤْيَةُ العَبْدِ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الحَالَةِ.

وَيَصِلُ إِلَىٰ هَذِهِ الخُلَّةِ بِالتَّوْفِيقِ لِلإِصْغَاءِ إِلَىٰ مَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ مِنْ زَوَاجِرِ الحَقِّ ـ سبحانه ـ بِسَمْعِ قَلْبِهِ؛ فَإِنَّ فِي الخَبَرِ[٢]: (وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ)، وَفِي الخَبَرِ[٣]: (إِنَّ فِي بَدَنِ المَرْءِ بَضْعَةً[٤] إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ جَمِيعُ البَدَنِ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ جَمِيعُ البَدَنِ؛ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ).

فَإِذَا تَفَكَّرَ بِقَلْبِهِ فِي سُوءِ مَا يَصْنَعُهُ، وَأَبْصَرَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ قَبِيحِ الأَفْعَالِ، سَنَحَ فِي قَلْبِهِ إِرَادَةُ التَّوْبَةِ وَالإِقْلَاعُ عَنْ قَبِيحِ المُعَامَلَةِ، فَيُمُدُّهُ الحَقُّ ـ سبحانه ـ بِتَصْحِيحِ العَزِيمَةِ، وَالأَخْذِ فِي جَمِيلِ الرُّجْعَىٰ، وَالتَّأَهُّبِ لِأَسْبَابِ التَّوْبَةِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه أيضًا.

(٤) في (ف): لمضغة.

فَأَوَّلُ ذَلِكَ هِجْرَانُ إِخْوَانِ السُّوءِ؛ فَإِنَّهُمْ هُم الَّذِينَ يَحْمِلُونَهُ عَلَىٰ رَدِّ هَذَا القَصْدِ، وَيُشَوِّشُونَ عَلَيْهِ صِحَّةَ هَذَا العَزْمِ.

وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ [١/١٥٤أ] إِلَّا بِالمُوَاظَبَةِ عَلَى المُشَاهَدَةِ الَّتِي تَزِيدُ رَغْبَتَهُ فِي التَّوْبَةِ، وَتُوَفِّرُ دَوَاعِيهِ عَلَىٰ إِتْمَامِ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ، مِمَّا يُقَوِّي خَوْفَهُ وَرَجَاءَهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَنْحَلُّ مِنْ قَلْبِهِ عُقْدَةُ الإِصْرَارِ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ قَبِيحِ الأَفْعَالِ، فَيَقِفُ عَنْ تَعَاطِي المَحْظُورَاتِ، وَيَكْبَحُ[١] لِجَامَ نَفْسِهِ عَنْ مُتَابَعَةِ الشَّهَوَاتِ، فَيُفَارِقُ الزَّلَّةَ فِي الحَالِ، وَيُبْرِمُ العَزِيمَةَ عَلَىٰ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَىٰ مِثْلِهَا فِي الاِسْتِقْبَالِ.

فَإِنْ مَضَىٰ عَلَىٰ مُوجِبِ قَصْدِهِ، وَنَفَذَ بِمُقْتَضَىٰ عَزْمِهِ، فَهُوَ المُوَافَقُ صِدْقًا، وَإِنْ نَقَضَ التَّوْبَةَ مَرَّةً أَوْ مَرَّاتٍ، وَتَحْمِلُهُ إِرَادَتُهُ عَلَىٰ تَجْدِيدِهَا فَقَدْ يَكُونُ مِثْلُ هَذَا أَيْضًا كَثِيرًا، فَلَا يَنْبَغِي قَطْعُ الرَّجَاءِ عَنْ تَوْبَةِ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ، فَإِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا.

حُكِيَ[٢] عَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيِّ أَنَّهُ قَالَ: اِخْتَلَفْتُ إِلَىٰ مَجْلِسِ قَاصٍّ، فَأَثَّرَ كَلَامُهُ فِي قَلْبِي، فَلَمَّا قُمْتُ لَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِي مِنْهُ شَيْءٌ، فَعُدْتُ ثَانِيًا فَسَمِعْتُ كَلَامَهُ، فَبَقِيَ [أَثَرُ][٣] كَلَامِهِ فِي قَلْبِي فِي الطَّرِيقِ، ثُمَّ زَالَ عَنْ قَلْبِي، فَعُدْتُ ثَالِثًا، فَبَقِيَ أَثَرُ كَلَامِهِ فِي قَلْبِي حَتَّىٰ رَجَعْتُ إِلَىٰ مَنْزِلِي، وَكَسَرْتُ آلَاتِ المُخَالَفَاتِ وَلَزِمْتُ الطَّرِيقَ.

فَحَكَىٰ هَذِهِ الحِكَايَةَ لِيَحْيَىٰ بْنِ مُعَاذٍ فَقَالَ: عُصْفُورٌ اِصْطَادَ كُرْكِيًّا؛ أَرَادَ بِالعُصْفُورِ ذَلِكَ: القَاصَّ، وَبِالكُرْكِيِّ[٤]: أَبَا سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيَّ.

---

(١) أي: يجذبُ.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب). ووردت هذه الحكاية في: تاريخ دمشق ١٢٥/٣٤، والبداية والنهاية ٢٥٥/١٠، وإتحاف السادة المتقين ٨٠٨/١٠.

(٣) زيادة من (ف).

(٤) في حياة الحيوان ٣٧١/٢: «الكركي: طائر كبير معروف، والجمع: الكراكي، وكنيته: أبو عريان،=

وَيُحْكَىٰ عَنْ أَبِي حَفصٍ الحَدَّادِ أَنَّهُ قَالَ(١): تَرَكْتُ الْعَمَلَ كَذَا وَكَذَا مَرَّةً، فَعُدْتُ إِلَيْهِ، ثُمَّ تَرَكَنِي العَمَلُ فَلَمْ أَعُدْ بَعْدُ إِلَيْهِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا ذكرَهُ الشَّيخُ في هذا الفصلِ إشارةٌ إلىٰ أسبابِ التَّوْبَةِ وَالدَّوَامِ عليهَا، والسَّلامةُ منَ العودِ إلىٰ نقضِهَا، وذلكَ أنَّ أوَّلَ التَّوبةِ هوَ إلهامُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ للعبدِ، وتَنْبيهُهُ لهُ حتَّىٰ يتفكَّرَ في حالِه، ويعرفَ نقصَهُ من كَمالِه، فإنَّ كثيرًا منَ المَعَاصِي لاشتهارِهَا في الدِّينِ لا تَخْفَىٰ عن أحدٍ منَ النَّاسِ؛ كَتَرْكِ الصَّلواتِ المَفْرُوضَاتِ، وصومِ شَهْرِ رمضانَ، وغيرِ ذلكَ منَ المفعولاتِ، وكذلكَ قتلُ النَّفسِ والزِّنَا وشربُ الخمرِ وسماعُ المنكرَاتِ، وغيرُ ذلكَ منَ المحرَّماتِ، فإذا كانَ العبدُ مُلابسًا لشيءٍ ممَّا ذكرْنَاهُ، وأرادَ الحقُّ بهِ خيرًا أخطرَ ببالِهِ التَّفكُّرَ فيمَا هوَ فيهِ، ووعظَهُ في قَلْبِهِ لتداركِ إصلاحِ شأنِهِ وتَلافِيهِ، كمَا قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ**».

فإذَا انتبهَ قلبُهُ وتفكَّرَ فيمَا ذكرْنَاهُ منَ الجهاتِ، وعلِمَ قبحَ حالِهِ ومخالفتِهِ لخالقِ الأرضِ والسَّماواتِ، حييَ قلبُهُ من مَوْتِ [١/١٥٤ب] الغَفَلاتِ، وعزمَ علىٰ التَّوبةِ ممَّا هوَ فيهِ والرُّجوعِ إلىٰ مَنْ إليهِ الحاجات، هذَا هوَ المعبَّرُ عنهُ بصلاحِ القلبِ، كمَا قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ فِي البَدَنِ بِضْعَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ سَائِرُ الجَسَدِ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ الجَسَدِ**»، وصلاحُ هذهِ البضعةِ ـ وهيَ القلبُ ـ بمَا يخلقُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ فيهِ منَ التَّنبيهَاتِ، والعُزُومِ علىٰ الخيراتِ، والنَّدمِ علىٰ ما مَضَىٰ مِن سَيِّئِ الحالاتِ، فإذا انصلحَ القلبُ بهذِهِ البركاتِ سعَتِ الجوارحُ في جهاتِ البرِّ والطَّاعاتِ، وبَعُدَتْ عن أسبابِ المحرَّماتِ؛ وهيَ خلطةُ أقرانِ السُّوءِ من ذوِي العاهاتِ، والدَّاعينَ لهُ إلىٰ الرُّجوعِ إلىٰ ما كانَ فيهِ منَ البليَّاتِ، فعلَىٰ العبدِ الفِرَارُ

= وأبو عينا، وأبو العيزار».

(١) ورد في: طبقات الصوفية ص١٠٦، وإتحاف السادة المتقين ١٠/٨٠٨.

منهُمْ أشدَّ مِن فِرارِه مِنَ الأسدِ والحيَّاتِ الضَّاريَاتِ، فإنَّ ضَرَرَ الأسدِ والحيَّاتِ مختصٌّ بهذِهِ الدَّارِ، وضَرَرَ قُرناءِ السُّوءِ في الدُّنيَا والآخرةِ، ونعوذُ باللهِ مِنَ النَّارِ.

فإذَا منَّ اللهُ عليهِ بالبُعْدِ منهُمْ، فعليهِ بِخُلْطَةِ الصَّالحينَ إنْ وجدَهُمْ، أوْ سَمَاعِ أقوالِهِمْ وجميلِ أحوالِهِمُ المرسومةِ في الكتُبِ عنهُمْ، فإنَّ ذلكَ يثمرُ لهُ[1] المحبَّةَ في أحوالِهِمْ ويبسطُ قلبَهُ وبدنَهُ فِي الاشتغالِ بأعمالِهِمْ، فإذَا مَنَّ اللهُ - تعالىٰ - عليهِ بذلكَ فإيَّاهُ أنْ يقنعَ بحالتِهِ الَّتِي هوَ عليهَا، ويَبْنِي عليهِ أنَّهُ تابَ من سَائرِ ذُنُوبِهِ، فيكونَ مَغْرُورًا، فإنَّ ميلَهُ في جهالَتِهِ وكمالِ محبَّتِهِ لصَبْوتِهِ وتَوالِي غفلتِهِ يقعُ في أمورٍ كثيرةٍ لا يعرفُ كونَهَا مِنَ المحرَّماتِ، ولا سِيَّمَا الغِيْبَةُ والنَّميمَةُ والحَسَدُ والغشُّ في المُعَامَلاتِ، ولذلكَ شُروطُ صحَّةِ الصَّلوَاتِ من إكمالِ الطَّهارةِ والنِّيَّاتِ، وكذلكَ الصَّومُ وما يفسدُهُ من سَائرِ المُفْسِدَاتِ، فليتفكَّرْ وليتحسَّسْ لمَا كانَ فيهِ، فمَا وجدَ نفسَهُ سَالمةً مِمَّا ذكرْنَاهُ فليشكرِ اللهَ، وإنْ وجدَ نفسَهُ مُخِلَّةً بواجِبٍ، أوْ مُرْتَكِبَةً لِمُحَرَّمٍ فليكرِّرِ التَّوبةَ لمَا ذكرَهُ، وعلِمَ أنَّهُ محرَّمٌ عليهِ.

فإذَا استقامَ علىٰ ما ذكرْنَاهُ بِسُرْعَةٍ فهوَ التَّائبُ المُعَانُ فيمَا هوَ فيهِ، وإنْ زَلَّ زَلَّةً لا تمنعُهُ زلَّتُهُ منَ التَّوبةِ كَرَّةً أُخرَىٰ، ولا ييأسُ مِنْ روحِ اللهِ ولا يقنطُ مِن فضلِ اللهِ فيقعَ فِي محرَّمٍ آخرَ زائدٍ علىٰ ما هوَ عليهِ، وليَعُدْ إلىٰ التَّوبةِ بِقَريحَةٍ، فربَّمَا كانَ ذنبُهُ المتقدِّمُ إذا تابَ منهُ ثمَّ عادَ فيهِ سببَ سعادَتِهِ، كمَا جاءَ في الخبرِ الصَّحيحِ[2]: «إِنَّ العَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُدْخِلُهُ ذَنْبُهُ الجَنَّةَ[3]» [١/١٥٥أ]، قِيلَ: كَيْفَ يُدْخِلُهُ ذَنْبُهُ الجَنَّةَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لَا يَزَالُ نُصْبَ عَيْنِهِ تَائِبًا مِنْهُ هَارِبًا»، وذلكَ لِعظَمِ ما وقعَ فيهِ منَ الزَّللِ بعدَ توبتِهِ وصعوبةِ ذلكَ علىٰ قلبِهِ، فيجدُّ في الأعمالِ، ولا يراهَا كافيةً

---

(١) في (أ): لهم.
(٢) أخرجه أحمد في: الزهد ص٣٩٧، وابن المبارك في: الزهد ص٥٢.
(٣) أي: يكون سببًا في ذلك.

ولا مُغْنِيةً عنهُ فيمَا وقعَ فيهِ منَ الخذلانِ، ولذلكَ قالَ بعضُهُم[(١)]: «زلَّةٌ واحدةٌ بعدَ التَّوبةِ أعظمُ مِنْ سبعينَ زلَّةً قبلهَا»[(٢)]، فيحملهُ ذلكَ على الجدِّ في الأعمالِ، وكلَّمَا زلَّ عادَ؛ لأنَّ لكلِّ أجلٍ كتابًا[(٣)].

ومنهُ حكايةُ أبِي سُلَيمَانَ الدَّارَانِيِّ أنَّهُ حضرَ مجلسَ قاصٍّ؛ أيْ مذكِّرٍ للنَّاسِ، فسَمِعَ كلامَهُ فاستحسنَهُ، فلمَّا خرجَ من مجلسِهِ سلخَ الشَّيطانُ ذلكَ من قلبِهِ فنَسِيَهُ، ثمَّ عادَ إلى المجلسِ مرَّةً أخرى، فانتفعَ بكلامِهِ ثمَّ نقصَ حالُهُ، ثمَّ عادَ مرَّةً أُخرَى فنفذَ في حالِهِ واستقامَ، وكانَ منهُ أبو سليمانَ الدَّارانِيُّ، ولذلكَ قالَ مَنْ سمعَ هذهِ الحكايةَ: «**عصفورٌ اصطادَ كُرْكِيًّا**»، أرادَ: أنَّ الحالةَ الَّتِي وصلَ إليهَا أبو سليمانَ الدَّارانيُّ مِنْ درجاتِ الولايةِ أفضلُ منْ تذكيرِ ذلكَ القَاصِّ.

ومِنْ ذلكَ قولُ أبي حَفْصٍ الحدَّادِ: «**تَرَكْتُ العَمَلَ كذا كذَا**[(٤)] **مرَّةً، ثمَّ عُدْتُ حتَّى تَرَكَنِي فَلَمْ أعُدْ**»، يعنِي: أنَّهُ كانَ يتركُ العملَ والكسبَ في الدُّنيَا ليتفرَّغَ للعبادةِ، ثمَّ تغلبُهُ محبَّتُهُ وعادتُهُ إلى العَودِ ثمَّ يعزمُ على التَّرْكِ لشدَّةِ محبَّتِهِ في الخَيْرِ، ثمَّ يغلبُ فيعودُ إلى التَّسبُّبِ والكَسْبِ، حتَّى قوِيَ حالُهُ فتركَهُ العَمَلُ، أيْ: نَفَرَتْ نفسُهُ عنهُ ورغبَ فيمَا هوَ أفضلُ منهُ، وربَّمَا كانَ تركُ العملِ لهُ مَا حُكِيَ أنَّهُ كانَ يعملُ الحَدِيدَ في دُكَّانِهِ، فغلبَ عليهِ حَالٌ، فأدخلَ يدَهُ في الكِيرِ وأخذَ الحديدةَ بيدِهِ، وجعلَ يطرقُهَا وهوَ لا يشعرُ، فلمَّا كلَّمَهُ تلميذُهُ في ذلِكَ رجعَ إلى حالِهِ وهربَ منَ الشُّهرةِ، وعلِمَ أنَّ المُرادَ منهُ تَرْكُ ما هوَ فيهِ[(٥)]، واللهُ الموفِّقُ.

---

(١) نسب ليحيى بن معاذ في: الرسالة القشيرية ١/٢١٤، وتنبيه المغترين للشعراني ص١٩٨.

(٢) لأن الجفاء بعد ذوق لذة الصفاء من أقبح الجفاء. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٧٧.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٤٤.

(٤) في نتائج الأفكار ٢/١٧٧: «الترك الأول بالنفس، والثاني بالقلب والروح، فلذا دام الثاني ولم يدم الأول».

(٥) مرت تخريج هذه الحكاية. وأفاد ذلك الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٤٤.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقِيلَ: إِنَّ أَبَا عَمْرِو بْنَ نُجَيدٍ فِي اِبْتِدَاءِ أَمْرِهِ اِخْتَلَفَ إِلَىٰ مَجْلِسِ أَبِي عُثْمَانَ، فَأَثَّرَ فِي قَلْبِهِ كَلَامُهُ، فَتَابَ[(٢)]، ثُمَّ إِنَّهُ وَقَعَتْ لَهُ فَتْرَةٌ، فَكَانَ يَهْرَبُ مِنْ أَبِي عُثْمَانَ إِذَا رَآهُ، وَيَتَأَخَّرُ عَنْ مَجْلِسِهِ، فَاسْتَقْبَلَهُ أَبُو عُثْمَانَ يَوْمًا، فَحَادَ أَبُو عَمْرٍو عَنِ الطَّرِيقِ وَسَلَكَ طَرِيقًا آخَرَ، فَتَبِعَهُ أَبُو عُثْمَانَ، فَمَا زَالَ [بِهِ][(٣)] يَقْفُو[(٤)] أَثَرَهُ حَتَّىٰ لَحِقَهُ، فَقَالَ لَهُ[(٥)]: يَا بُنَيَّ؛ لَا تَصْحَبْ مَنْ لَا يُحِبُّكَ إِلَّا مَعْصُومًا، إِنَّمَا يَنْفَعُكَ أَبُو عُثْمَانَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الحَالَةِ.

قَالَ: فَتَابَ أَبُو عَمْرِو بْنُ نُجَيْدٍ، وَعَادَ إِلَىٰ الإِرَادَةِ[(٦)] [١/١٥٥ب] وَنَفَذَ[(٧)]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ المشايخَ تحملُ منَ التَّلامذةِ بعضَ ما يبدُو منهُمْ منَ الزَّلَلِ؛ لضَعْفِ عقولِهِمْ، وقلَّةِ أُنْسِهِمْ بأسبابِ الدِّينِ؛ وذلكَ أنَّ هذا الشَّابَّ تكرَّرَ إلىٰ الشَّيخِ مدَّةً حتَّىٰ ظهَرَتْ عليهِ أماراتُ الصَّلاحِ، ورجَىٰ الشَّيخُ منهُ الكمالَ والفلاحَ، ثمَّ طرأَتْ لهُ غفلةٌ وعودةٌ إلىٰ ما كانَ فيهِ، وانقطعَ عنِ الشَّيخِ، فلقِيَهُ الشَّيخُ في بعضِ الأيَّامِ في بعضِ الطُّرُقِ، فهرَبَ الشَّابُّ منَ الشَّيخِ حياءً من رؤيتِهِ لهُ بعدَ زلَّتِهِ ومفارقتِهِ، فتَبِعَهُ الشَّيخُ وجدَّ في سَيْرِهِ حتَّىٰ أدركَهُ، وقالَ لهُ: «**يا بُنيَّ؛ لا تصحَبْ مَنْ لا يحبُّكَ إلَّا معْصُومًا**»، ومعنىٰ هذَا: أنَّ العصمةَ إنَّما تكونُ للأنبياءِ، ولا بُدَّ منَ الزَّللِ لغيرِهِم، فمتىٰ كانَ أحدٌ لا يصحبُكَ إلَّا إذا كنتَ معصومًا فلا تصحَبْهُ، فإنَّ مآلَ صُحبَتِكُما إلىٰ الانقطاعِ؛ لعدَمِ الوفاءِ بما يُرِيدُهُ،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٠٩ - ٢١٠.

(٢) أي: علىٰ يده.

(٣) زيادة من (ف).

(٤) أي: يتبع.

(٥) ورد قوله في: وفيات الأعيان ٢/٣٦٩، وتاريخ الإسلام ٢٢/١٥١، وسير أعلام النبلاء ١٤/٦٣.

(٦) أي: الحالة التي فتر عنها.

(٧) أي: مضىٰ في أمره وداوم.

فسكَّنَ الشَّيخُ بهذا الكلامِ قلبَ التِّلميذِ وقالَ لهُ: «إنَّمَا ينفعُكَ أبو عثمانَ في مِثْلِ هذا الحالِ»، يعنِي: نفسَهُ[1]، وذلكَ أنَّ فائدةَ المَشَايخِ أنْ يجترُّوا التَّلامذَةَ ويُعِينُوهُمْ، وإلَّا لوِ استغنَىٰ بعضُهُم عن بعضٍ لكانُوا سَوَاءً في القوَّةِ والصَّلاحِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: تَابَ بَعْضُ المُرِيدِينَ، ثُمَّ وَقَعتْ لَهُ فَتْرَةٌ، فَكَانَ يُفَكِّرُ وَقْتًا: لَوْ عَادَ إِلَى التَّوْبَةِ كَيْفَ حُكْمُهُ؟ فَهَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ: يَا فُلَانُ؛ أَطَعْتَنَا فَشَكَرْنَاكَ، ثُمَّ تَرَكْتَنَا فَأَمْهَلْنَاكَ، فَإِنْ عُدْتَ إِلَيْنَا قَبِلْنَاكَ، فَعَادَ الفَتَىٰ إِلَى الإِرَادَةِ وَنَفَذَ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ تَنْبِيهِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لهُ في قَلْبِهِ، وتَعْرِيفِهِ لهُ أنَّ بَابَ التَّوبةِ مفتوحٌ بعدَ الزَّللِ، وأنَّ العبدَ إذا كانَ في حَالِ زَلَلِهِ لمْ يعاجَلْ بالانتِقَامِ[3]، فكيفَ لا يُرْحَمُ إذا أتىٰ تائبًا معتذِرًا ممَّا سَلَفَ منهُ منَ الآثامِ؟!

ويحتملُ أنْ يكونَ سَمِعَهُ بأُذُنَي رَأْسِهِ من كَلامِ ملَكٍ أو وليٍّ أو جِنِّيٍّ أَجْرَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ لسانِهِ هذا الكَلامَ؛ لينتفعَ بهِ هذا التَّائبُ، ويكونَ من بابِ الكراماتِ وخَرْقِ العَادَاتِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «فَإِذَا تَرَكَ المَعَاصِي، وَحَلَّ عَنْ قَلْبِهِ عُقْدَةَ الإِصْرَارِ، وَعَزَمَ عَلَىٰ أَلَّا يَعُودَ إِلَى مِثْلِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْلُصُ إِلَىٰ قَلْبِهِ صَادِقُ النَّدَمِ، فَيَتَأَسَّفُ عَلَىٰ مَا عَمِلَه، وَيَأْخُذُ فِي التَّحَسُّرِ عَلَىٰ مَا ضَيَّعَهُ مِنْ أَحْوَالِهِ، وَارْتَكَبَهُ مِنْ قَبِيحِ أَفْعَالِهِ، فَتَتِمُّ تَوْبَتُهُ، وَتَصْدُقُ مُجَاهَدَتُهُ، وَاسْتَبْدَلَ بِمُخَالَطَتِهِ العُزْلَةَ [١/١٥٦أ]،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٤٥.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢١٠.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٤٥.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢١٠.

وَبِصُحْبَتِهِ مَعَ أَخْدَانِ السُّوءِ التَّوَحُّشَ عَنْهُمُ بِالخُلْوَةِ [دُونهم][١]، وَيَصِلُ لَيْلَهُ بِنَهَارِهِ فِي التَّلَهُّفِ، وَيَعْتَنِقُ فِي عُمُومِ أَحْوَالِهِ صِدْقَ التَّأَسُّفِ، وَيَمْحُو بِصَوْبِ عَبْرَتِهِ آثَارَ عَثْرَتِهِ، وَيَأْسُو بِحُسْنِ تَوْبَتِهِ كُلُومَ حَوْبَتِهِ[٢]، يُعْرَفُ مِنْ بَيْنِ أَمْثَالِهِ بِذُبُولِهِ، وَيُسْتَدَلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ حَالِهِ بِنُحُولِهِ.

وَلَمْ يَتِمَّ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِهِ مِنْ إِرْضَاءِ خُصُومِهِ، وَالخُرُوجِ عَمَّا لَزِمَهُ مِنْ مَظَالِمِهِ، فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْزِلَةٍ فِي التَّوْبَةِ إِرْضَاءُ الخُصُومِ بِمَا أَمْكَنَهُ، فَإِنِ اتَّسَعَ ذَاتُ يَدِهِ لِإِيصَالِ حُقُوقِهِم إِلَيْهِم، أَوْ سَمَحَتْ نُفُوسُهُم بِإِحْلَالِهِ وَالبَرَاءَةِ عَنْهُ[٣]، وَإِلَّا فَالعَزْمُ بِقَلْبِهِ عَلَىٰ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ حُقُوقِهِم عِنْدَ الإِمْكَانِ، وَالرُّجُوعِ إِلَىٰ اللهِ ـ سبحانه ـ بِصِدْقِ الابْتِهَالِ وَالدُّعَاءِ لَهُمْ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: زادَ الإمامُ في هذا الفصلِ أحوالَ التَّائبينَ، وإنَّ من جُمْلَةِ توبتِهِمْ ردَّ المظالمِ وقضاءَ الصَّلواتِ والكفَّاراتِ، وقدْ بيَّنَّا فيمَا[٤] تقدَّمَ[٥] أنَّ مفارقتَهُ للذَّنبِ للهِ، وندَمَهُ عليهِ وعزمَهُ علىٰ ألَّا يعودَ هوَ حقيقةُ التَّوبةِ وأركانُهَا، وأمَّا قضاءُ ما عليهِ من حقوقِ ربِّهِ فهوَ أمرٌ آخرُ يحتاجُ إلىٰ القيامِ بهِ، فإنْ كانَ متمكِّنًا في وقتِهِ منَ القيامِ بهِ، فلا يجوزُ لهُ تركُهُ، وليبادِرْ إلىٰ القيامِ بهِ إنْ كانَ يسيرًا في قضاءِ صلاةِ يومٍ وليلةٍ فيقدِّمُهُ علىٰ الصَّلاةِ الحاضرةِ.

وإنْ ضاقَ وقتُهَا علىٰ خلافٍ فيهِ بينَ العلماءِ؛ ومذهبُ مالكٍ تقديمُ هذهِ

---

(١) زيادة من (ف).

(٢) أي: جراحات إثمه.

(٣) قال الشيخ زكريا: «الأولىٰ: عنها؛ بأن يحلِّلوه أو يبرؤوه منها فذاك» إحكام الدلالة ١/٣٤٦.

(٤) في (ج): «بينا منا فيهما»، والصواب المثبت.

(٥) ص٧٢٣.

المنسيَّاتِ علىٰ الحاضرةِ وإنْ خرجَ وقتُهَا[(١)] ، وأمَّا إذا كانَتِ المَنسيَّاتُ كثيرةً فقيامُهُ بهَا وقَضَاؤُهَا واجبٌ عليهِ علىٰ حَسَبِ إمكانِهِ، ولا يؤخِّرُهَا إلَّا لِعُذرٍ، وكذلكَ الصَّومُ الَّذي فرَّطَ فيهِ فيأتي بمَا عليهِ مِنْهُ علىٰ حسبِ إمكانِهِ وقُدْرَتِه.

فَعَلَىٰ هذَا التَّقديرِ صَارَ من جُملةِ ما يقومُ بهِ للهِ ـ تعالىٰ ـ وهوَ من جُملةِ تَوبتِهِ، إلَّا أنَّ الأوَّلَ رجوعٌ عنِ ارتكابِ محرَّماتٍ، وهذا رجوعٌ عنْ ترْكِ واجباتٍ، فلابدَّ لهُ إنْ كانَ تَركَ ذلكَ مُتَهاونًا في زمنِ جهالتِهِ منَ النَّدمِ علىٰ ما مضَىٰ منهُ، ويعزمُ علىٰ ألَّا يَعُودَ إلىٰ مِثْلِهِ.

وأمَّا حقوقُ العبادِ فهيَ منقسمةٌ إلىٰ: مالٍ، وغيرِ مالٍ:

فأمَّا المالُ فلا تُغْنِيهِ فيهِ التَّوبةُ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ في خليقَتِهِ خاصَّةً، بل لا بدَّ منَ استحلالِ ربِّهِ[(٢)] فِي تعويقِهِ[(٣)] عليهِ ومنْعِهِ منَ الانتفاعِ بهِ، وإنْ أتاهُ بهِ وردَّهُ عليهِ، فإنْ لم يجدْ ربَّهُ ووجدَ ورثتَهُ دفعَ إليهِمُ المالَ، خاصَّةً إنْ لم يعوِّقْهُ عنهُمْ [١/١٥٦ب] أيضًا ولَا يلزمُهُ استحلالُهُمْ، فإنَّ ذلكَ حقٌّ لمورِّثِهِمْ لا لهُمْ، وعليهِ الاستغفارُ للمورِّثِ والدُّعاءُ لهُ، وتكثيرُ الحسناتِ للمُقاصَّةِ.

وأمَّا إنْ كانَ الحقُّ في العِرْضِ، فلا بُدَّ أنْ يستحلَّ صَاحبَهُ، وهلْ إذا لم يجدْهُ ووجدَ ورثتَهُ هل يفيدُهُ استحلالُهُمْ فيمَا نالَهُ مِنْ عِرْضِ أبيهِمْ؟ هذَا فيهِ نظرٌ وانقسامٌ، ولا يخلو مَا نالَهُ مِنْ عِرْضِ أبيهِمْ إمَّا أنْ ترجعَ منهُ معرَّةٌ إلىٰ الوارثِ، أمْ لَا، كالقَذْفِ، فالحقُّ للوارثِ فينفعُهُ استحلالُهُ، ويجبُ عليهِ ذلكَ، وإذا لمْ يكنْ من

---

(١) انظر: بداية المجتهد ١/١٣٣، والذخيرة ٢/٣٩٠، ومواهب الجليل ٢/٧، والمختصر الفقهي لابن عرفة ١/٢٧٥.

(٢) أي: مالكه.

(٣) في (ب): تعريفه.

هذا القبيلِ مِنْ سبِّهِ وغيبَتِهِ، والكذبِ عليهِ وما يجرِي مجرَاهُ ممَّا فيهِ الاستحلالُ ولا ينتقلُ الحقُّ فيهِ إلىٰ ورثتِهِ، فيرجعُ إلىٰ ما قلنَاهُ منَ الدُّعاءِ لهُ وتكثيرِ الحسناتِ للمُقَاصَّةِ في الآخرةِ، فإنَّ الخبرَ الصَّحيحَ(١): أنَّ العبدَ يوقَفُ يومَ القيامةِ للمقاصَّةِ فيؤخذُ ما لَهُ من حسناتٍ وتُدْفَعُ لأربابِ المظالمِ والحقوقِ، فإنْ فنِيَتْ حسناتُهُ أُخِذَ منْ سيِّئَاتِهِمْ ووُضِعَتْ عليهِ وأُلْقِيَ في النَّارِ، فربَّمَا وجدَ العبدُ في آثامِهِ إثمَ الزِّنَا وشربِ الخمرِ وكبائرِ الذُّنوبِ ولمْ يكُنْ هوَ عملَهَا ولكنْ نُقِلَتْ إليهِ من غيرِهِ ممَّنْ كانَ اغتابَهُ أو أذَاهُ ولمْ يُؤْخَذْ لهُ حسناتٌ فحملَ عليهِ من سيِّئَاتِهِ.

فَعلَىٰ العَبْدِ الاجتهادُ في الخلاصِ في الدُّنيَا من حقوقِ الخالقِ والخلْقِ قبلَ يومِ القصاصِ، ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤، ٣٥]؛ خوفًا منَ المُطَالَبَةِ بالحُقُوقِ، وقيلَ: خوفًا من رؤيةِ الافتِضَاحِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَلِلتَّائِبِينَ صِفَاتٌ وَأَحْوَالٌ هِيَ مِنْ خِصَالِهِمْ يُعَدُّ ذَلِكَ مِنْ جُمْلَةِ التَّوْبَةِ؛ لِكَوْنِهَا مِنْ صِفَاتِهِمْ، لَا لِأَنَّهَا مِنْ شَرْطِ صِحَّتِهَا، وَإِلَىٰ ذَلِكَ تُشِيرُ أَقَاوِيلُ الشُّيُوخِ فِي مَعْنَىٰ التَّوبَةِ.

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ(٣): (التَّوبَةُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١/١٩٩٧ ـ حديث رقم (٢٥٨١) بلفظ: «عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أَتَدْرُونَ ما الْمُفْلِسُ؟ قالوا: المُفْلِسُ فِينَا من لَا دِرْهَمَ له ولا مَتَاعَ، فقال: إِنَّ المُفْلِسَ من أُمَّتِي يَأْتِي يوم القِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قد شَتَمَ هذا وَقَذَفَ هذا وَأَكَلَ مَالَ هذا وَسَفَكَ دَمَ هذا وَضَرَبَ هذا فَيُعْطَىٰ هذا من حَسَنَاتِهِ وَهَذَا من حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أَنْ يُقْضَىٰ ما عليه أُخِذَ من خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ».

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢١٠ ـ ٢١١.

(٣) ورد قوله في: الغنية لطالبي طريق الحق للجيلاني ص٢٦٨، ونشر المحاسن الغالية ص١٢٥، وشرح منازل السائرين للمناوي ص٧٠.

أَوَّلُهَا التَّوبَةُ، وَأَوْسَطُهَا الإِنَابَةُ، وَآخِرُهَا الأَوْبَةُ).

فَجعَلَ التَّوبَةَ بِدَايَةً، وَالأَوْبَةَ نِهَايَةً، وَالإِنَابَة وَاسِطَتَهُمَا.

فَكُلُّ مَنْ تَابَ لِخَوْفِ العُقُوبَةِ فَهُوَ صَاحِبُ تَوْبَةٍ، وَمَنْ تَابَ طَمَعًا فِي الثَّوَابِ فَهُوَ صَاحِبُ إِنَابَةٍ، وَمَنْ تَابَ مُرَاعَاةً لِلأَمْرِ[1] لَا لِرَغْبَةٍ فِي الثَّوَابِ أَوْ رَهْبَةٍ مِن العِقَابِ فَهُوَ صَاحِبُ أَوْبَةٍ.

وَيُقَالُ أَيْضًا[2]: التَّوْبَةُ صِفَةُ المُؤْمِنِينَ، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وَالإِنَابَةُ صِفَةُ الأَوْلِيَاءِ وَالمُقَرَّبِين [١٥٧/١أ]، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، وَالأَوْبَةُ صِفَةُ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِين، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما ذكرَهُ في التَّوبةِ والإنابةِ[3] حَسَنٌ، إلَّا أنَّهُ جارٍ فِي حقيقةِ التَّوبةِ ومَعْقُولِهَا في كلِّ قسمٍ، سواءٌ كانَ توبةً واجبةً أو مندوبةً أو فاضلةً[4] في الفَضْلِ، وذلكَ أنَّ كلَّ تائبٍ لا بُدَّ أنْ يُفارِقَ مَا هوَ عليهِ ممَّا تابَ عنهُ، ويقومَ بقلبِهِ ألمٌ علىٰ ما تقدَّمَ من نقْصِهِ أو إثمِهِ أو نُزُولِ درجتِهِ، ويعزمَ علَىٰ ألَّا يعودَ إلىٰ مِثْلِ تَفْرِيطِهِ في واجبِهِ أو مَكْرُوهِهِ أو غَفْلَتِهِ، فدلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ شُرُوطَ التَّوبةِ مَوجُودَةٌ في كلِّ قِسمٍ منَ الأقسامِ الَّتِي ذكرَهَا، إلَّا أنَّ أركانَ التَّوبةِ الواجبَةِ واجبةٌ، وأركانَ التَّوبةِ المَنْدُوبَةِ مندوبٌ إليهَا، وكذلكَ التَّوبةُ الكاملةُ في الفضْلِ.

فقولُهُ: «التَّوبةُ مِنْ صِفَاتِ المُؤمنينَ»، يَعْنِي: التَّوبةَ الواجبةَ، واستدلُّوا بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]،

---

(١) أي: لامتثاله.

(٢) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص١٢٥.

(٣) انظر: الإبانة لابن فورك ص٤٠.

(٤) أي: كاملة.

وتَوْبَةُ الإِنَابَةِ للأولياءِ والصَّالحينَ، مُسْتَدِلًّا بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، ويعضدُهُ قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١]، والأوبةُ صفةُ الأنبياءِ والمرسلينَ، قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، ولذلكَ قالَ أبو عليٍّ الدَّقَّاقُ: «مَنْ تابَ[(١)] خوفَ العقوبةِ فهوَ صاحبُ توبةٍ، ومَنْ تابَ طمعًا في الإثابةِ فهوَ صاحبُ إنابةٍ، ومَنْ تابَ طمعًا في القُربةِ لا لخوفِ [عُقُوبَةْ] و[لا لـ]ـرَغْبَةٍ فِي إِنَابَةٍ فهوَ صاحبُ أَوْبَةٍ»، وهذا كلُّهُ قريبٌ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٢)]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ نُصَيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ[(٣)]: التَّوْبَةُ عَلَىٰ ثَلاثَةِ مَعَانٍ؛ أَوَّلُهَا: النَّدَمُ، وَالثَّانِي: العَزْمُ عَلَىٰ تَرْكِ المُعَاوَدَةِ إِلَىٰ مَا نَهَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عَنْهُ، وَالثَّالِثُ: السَّعْيُ[(٤)] فِي أَدَاءِ المَظَالِمِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ ما قدَّمْنا مِنْ أنَّ أداءَ المظالمِ من أقسامِ التَّوبةِ الواجبةِ معَ الإمكانِ[(٥)] منَ الأداءِ والخلاصِ، فَمَنِ ارتكبَ محرَّمًا، أو أخلَّ بواجبٍ، أو قصَّرَ في فرْضٍ وجبَ عليهِ أداؤُهُ؛ من صومٍ أو صلاةٍ، أو ظَلَمَ مسلمًا في مالٍ أو عِرْضٍ، فيجبُ عليهِ مفارقةُ ما هوَ عليهِ منَ الإثمِ، فمنهُ ما يَكفِي فيهِ عملُ القلبِ خاصَّةً، ومنهُ ما لا بدَّ فيهِ من عملِ [١/١٥٧ب] الجَوارحِ، فإذا فارقَهُ الإنسانُ وقامَ بمَا عليهِ ونَدمَ علىٰ ما تقدَّمَ منهُ، وعزمَ علىٰ ألَّا يعودَ إلىٰ مثلِهِ منَ

---

(١) إشارة إلىٰ أن التوبة تختلف باختلاف الباعث عليها.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢١١.

(٣) ورد قوله في: شعب الإيمان ٥/٤٣٦، وبلا نسبة في: التعريفات ص٩٦.

(٤) في (ب، ج): يسعىٰ، وأشار الشيخ زكريا أنه في نسخة هكذا. انظر: إحكام الدلالة ١/٣٤٨.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

المعاصِي فقدْ صحَّتْ توبتُهُ، ولذلكَ أدخلَ الجُنَيدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أداءَ المَظَالمِ في أَقْسَامِ التَّوبةِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ[(١)]: «وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[(٢)]: التَّوْبَةُ: تَرْكُ التَّسْوِيفِ».

❋ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا مِنْ أسبابِ التَّوبةِ والمُبادرةِ إليهَا، ويكونُ خرجَ مخرَجَ الوعظِ لِمَنْ يضربُ الآجالَ لتوبتِهِ، ويكتفِي بعزْمِهِ علىٰ ذلكَ، فهوَ مُسَوِّفٌ ليسَ بتائبٍ، ولمْ يتعرَّضْ لحدِّ[(٣)] التَّوبةِ علىٰ حالٍ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ القُرَشِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ[(٥)]: سَمِعْتُ الحَارِثَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: مَا قُلْتُ قَطُّ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ التَّوْبَةَ)، وَلَكِنِّي أَقُولُ: (أَسْأَلُكَ شَهْوَةَ التَّوْبَةِ[(٦)])».

❋ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا يحتملُ أمرَينِ:

أَحَدُهُمَا: أنَّ التَّوبةَ منزلةٌ رفيعةٌ لم يرَ نفسَهُ أهلًا لسؤالِهَا، وإنَّمَا سألَ حُصُولَ أسبابِهَا؛ وهوَ أنْ يحرِّكَ اللهُ هِمَّتَهُ لهَا.

وَالثَّانِي: وهوَ الأحسنُ، أنَّهُ سألَ ما هوَ أكملُ[(٧)]؛ وهوَ أنَّهُ إذا رُزِقَ شهوةَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢١١.

(٢) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٣٦٠، والغنية للجيلاني ص٢٦٨.

(٣) في (ج): لحل، والصواب المثبت.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢١١.

(٥) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٢٦٨.

(٦) في كشف الحجاب للشعراني ص٥٢: «لأن شهوة التوبة يتقدمها الخوف من الله تعالىٰ، فلا يقع صاحبها في ذنب، بخلاف التوبة فربما أعقبها إذلال أو شغوف نفس...».

(٧) في (ب): الأكمل.

التَّوبةِ حملَهُ ذلكَ على سائرِ مقاماتِ التَّوبةِ ؛ منَ التَّوبةِ[١] منَ المَكْرُوهَاتِ ، وَتَرْكِ المَنْدُوبَاتِ ، وَتَرْكِ الأولَى منَ الطَّاعاتِ ، وشهوةِ التَّوبةِ منَ الغفلَاتِ ، وشهوةِ التَّوبةِ من رؤيةِ الأعمالِ الصَّالحاتِ ، كأنَّهُ طلبَ الحاملَ القَويَّ[٢] ؛ وهوَ شَهْوَةُ التَّوبةِ ، ألَّا يزالَ مُتخلِّقًا بهَا ، فلا يَزَالُ مُترقِّيًا في دَرَجَاتِ التَّوبةِ وكَمَالِ تَعلُّقِ قلبِهِ بِهَا .

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الشِّيرَازِي قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ بْنَ مُصْلِحٍ[٤] بِالأَهْوَازِ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ زِيزَى[٥] يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ[٦]: دَخَلْتُ عَلَى السَّرِّيِّ يَوْمًا ، فَرَأَيْتُهُ مُتغَيِّرًا ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا لَكَ ؟ فَقَالَ: دَخَلَ عَلَيَّ شَابٌّ فَسَأَلَنِي عَنِ التَّوْبَةِ ، فَقُلْتُ لَهُ: أَلَّا تَنْسَى ذَنْبَكَ ، فَعَارَضَنِي وَقَالَ: بَلِ التَّوْبَةُ أَنْ تَنْسَى ذَنْبَكَ!

فَقُلْتُ: إِنَّ الأَمْرَ عِنْدِي مَا قَالَ الشَّابُّ ، فَقَالَ: لِمَ[٧] ؟! قُلْتُ: لِأَنِّي إِذَا كُنْتُ فِي حَالِ الجَفَاءِ فَنَقَلَنِي إِلَى حَالِ الوَفَاءِ ، فَذِكْرُ الجَفَاءِ[٨] فِي حَالِ الصَّفَاءِ[٩] جَفَاءٌ ، فَسَكَتَ» .

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ ، فإنَّ المطلوبَ من ذِكْرِ الذَّنبِ الحملُ على الأعمالِ ، والجدُّ في صَلاحِ الحَالِ فِي الاستقبالِ ، كمَا قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [١٥٨/١أ][١٠]: «إِنَّ العَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُدْخِلُهُ ذَنْبُهُ الجَنَّةَ ، قِيلَ: كَيْفَ يُدْخِلُهُ ذَنْبُهُ

---

(١) أي: كالتوبة من .

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٣٤٨/١ .

(٣) الرسالة القشيرية ٢١١/١ - ٢١٢ .

(٤) في (ب ، ف): مفلح .

(٥) في (أ ، ب) إلى: رزين ، والمثبت موافق لما في الرسالة القشيرية .

(٦) ورد قوله في: لطائف المنن ص١٤٦ ، وشرح منازل السائرين للمناوي ص٦٣ .

(٧) أي: لم كان كذلك .

(٨) أي: الذنب .

(٩) أي: التوبة .

(١٠) سبق تخريجه .

الجَنَّةَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لَا يَزَالُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ تَائِبًا مِنْهُ هَارِبًا».

فإذَا حصلَتْ للعبدِ أحوالٌ شريفةٌ وأوقاتٌ مرتَّبةٌ في الطَّاعاتِ، ودامَ على حسنِ الإقبالِ على اللهِ وجميلِ المناجاةِ في عمومِ الأوقاتِ، فاشتغالُهُ بذِكْرِ ذنبِهِ في هذا الوقتِ يُفسدُ عليهِ ما هوَ فيهِ، ويُفَرِّقُ هَمَّهُ الَّذِي اعتنىٰ بإصلاحِ وقتِهِ فيهِ وتَلافيهِ، والسَّريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلَّمَ ذلكَ الشَّابَّ بالأَوْلَىٰ في حقِّ التَّائبينَ[1]، فإنَّ ذِكْرَ ذُنُوبِهِمْ يُهَيِّجُ خَوْفَهُم، ويحملُهُم علىٰ إصلاحِ أحوالِهِم، وكانَ الشَّابُّ ممَّنِ ارتفعَتْ درجتُهُ عن ذلكَ، فكلَّمَ السّريَّ من حالِهِ، وأشارَ إلىٰ أعلىٰ درجاتِ التَّوبةِ، وهوَ حصولُ الاستقامةِ، فإذَا استقامَ العبدُ في حالِهِ نسِيَ ذَنبَهُ، ولذلكَ قالَهُ لهُ الجُنيدُ: «**الحقُّ مَا قالَ الشَّابُّ**»، فإنَّ العبدَ إذا كانَ «**في حَالِ الجَفَاءِ فنقلَهُ الحقُّ** ـ سبحانه ـ **إلىٰ حالِ الصَّفاءِ والوفاءِ، فذِكْرُهُ للجفاءِ في حَالِ الصَّفاءِ جَفَاءٌ**»، معناهُ: تَوْدِيرٌ[2] لمَا هوَ فيهِ من صفائِهِ وحسنِ حالِهِ، وكأنَّ هذا الشَّابَّ أتىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهِ للسَّريِّ لِيُنَبِّهَهُ علىٰ مقامِ شريفٍ في درجاتِ التَّوبةِ ومقاماتِهَا، ولذلكَ اغتمَّ لإشكالِ الأمرِ عليهِ، وهذا شأنُهُ ـ تعالىٰ ـ أنْ يؤدِّبَ الكبارَ بالصِّغارِ في السِّنِّ؛ ليفتقرُوا إليهِ في كلِّ حالٍ، والرِّجالُ بالنِّساءِ كالمرأةِ الَّتِي سألَتْ عنِ السَّخاءِ في الدِّينِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[3]: «**سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمٍ السَّجِسْتَانِيَّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ السَّرَّاجَ الصُّوفِيَّ يَقُولُ**[4]: **سُئِلَ سَهْلُ بْنُ عَبدِ اللهِ عَنِ التَّوبَةِ، فَقَالَ: أَنْ لَا تَنْسَىٰ ذَنْبَكَ.**

وَسُئِلَ الجُنَيْدُ عَنِ التَّوبَةِ فَقَالَ: أَنْ تَنْسَىٰ ذَنْبَكَ».

---

(١) أي: عامله معاملة المبتدئين. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٨٥.

(٢) أي: تضييع، وقد سبق التعليق علىٰ ذلك.

(٣) اللمع ص٦٨.

(٤) ورد قوله في: لطائف المنن ص١٤٦، وشرح منازل السائرين للمناوي ص٦٣.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا على حَسَبِ حَالِ مَنْ سَألَهُم، ورِفْعَةِ درجتِهِ وبدايتِهِ في تَوْبَتِهِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «قَالَ أَبُو نَصْرٍ السَّرَّاجُ(٢): أَشَارَ سَهْلٌ إِلَىٰ أَحْوَالِ المُرِيدِينَ وَالمُتعرِّضِينَ، تَارَةً لَهُمْ وَتَارَةً عَلَيْهِم، فَأَمَّا الجُنَيْدُ فَإِنَّهُ أَشَارَ إِلَىٰ تَوْبَةِ المُحقِّقِينَ(٣)؛ [لأَنَّهُم] لَا يَذْكُرُونَ ذُنُوبَهُمْ مِمَّا غَلَبَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مِنْ عَظَمَةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وَدَوَامِ ذِكْرِهِ.

قَالَ: وَهُوَ مِثْلُ مَا سُئِلَ رُوَيْمٌ عَنِ التَّوبَةِ، فَقَالَ: التَّوْبَةُ مِنَ التَّوبَةِ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُ أَبِي نَصْرٍ: «أشارَ سهْلٌ إلىٰ أحوالِ المبتدِئِينَ، تارةً لهُمْ، وتارةً عليهِم»، يعنِي: أَنَّهُمْ يتوبُونَ وينكثُونَ، فإذَا دَامُوا [١/١٥٨ب] علىٰ ذِكْرِ ذُنُوبِهِمْ وسُوءِ مَنْزِلَتِهِمْ عندَ ربِّهِمْ ثَارَ مِنْ قُلُوبِهِمُ الخَوفُ المَانِعُ لَهُمْ مِنَ العَودَةِ(٤).

وأمَّا الجُنيدُ أشارَ إلىٰ كمالِ أحوالِ النَّاسِ وشغلِهِمْ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وإعراضِهِمْ عن غيرِهِ، بلْ عن أنفسِهِمْ وأحوالِهِم؛ لكمَالِ شُغْلِهِمْ بعظمتِهِ وجلالِهِ، لَا إلهَ غيرُهُ.

وإليهِ أشارَ رُوَيمٌ لمَّا سُئِلَ عنِ التَّوبةِ، فقالَ: «التَّوبةُ منَ التَّوبةِ»؛ أيْ: يتوبُ من رُؤْيةِ كونِهِ تَائبًا، فإنَّهُ لا يرَىٰ كَونَهُ تائبًا إلَّا إذا كان مُفرَّقَ القَلْبِ، ناظرًا لنفسِهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢١٢.

(٢) اللمع ص٦٨.

(٣) في نتائج الأفكار ٢/١٨٥: «توضيحه أن للتوبة سببين: الخوف والإجلال، والأول للمريدين، والثاني للواصلين، وحينئذ فلا حاجة لذكر الذنب الجالب للخوف؛ لقيام الإجلال مقامه بالنسبة للواصلين».

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٣٤٩.

وتَوبتِهِ، فكَمَالُ تَوبتِهِ دَوَامُ شُغْلِهِ بِرَبِّهِ حتَّىٰ يَنْسَىٰ توبتَهُ ويرجعَ، هذَا كمَا قالَ الجُنيدُ(١).

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَسُئِلَ ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ(٣) عَنِ التَّوبَةِ، فَقَالَ: تَوبَةُ العَوامِّ مِنَ الذُّنُوبِ، وَتَوْبَةُ الخَواصِّ مِنَ الغَفْلَةِ.

وَقَالَ أَبُو الحَسَنِ النُّورِيُّ(٤): التَّوبَةُ أَنْ تَتُوبَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ التَّمِيمِيَّ يَقُولُ(٥): شَتَّانَ بَيْنَ تَائِبٍ يَتُوبُ مِنَ الزَّلَّاتِ، وَتَائِبٍ يَتُوبُ مِنَ الْغَفَلَاتِ، وَتَائِبٍ يَتُوبُ مِنْ رُؤْيَةِ الْحَسَنَاتِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وكلامُهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كلُّهُ متقارِبٌ من أنَّ التَّوبةَ منقسمةٌ إلىٰ: وَاجِبٍ، ومَنْدوبٍ، وفاضلٍ، وأفضلَ منهُ، وأفضلُ مِنْ ذلكَ أنْ تتوبَ ممَّا سِوَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ؛ أيْ: يرجعُ عنهُ ولا يسكنُ إليهِ بقلبِهِ توبةً كانَ أو غيرَهَا.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٦): «وَقَالَ الوَاسِطِيُّ(٧): التَّوْبَةُ النَّصُوحُ لَا تُبْقِي عَلِي

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٣٤٩.
(٢) الرسالة القشيرية ١/٢١٢.
(٣) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٦٨، وتهذيب الأسرار ص٩٤، وتاريخ دمشق ١٧/٤٣١، ومرآة الجنان ٢/١٥١، والآداب الشرعية ١/١٣٦، ونسب لبُنان الحمَّال في: تفسير السلمي ٢/٦٩، والتعرف لمذهب التصوف ص٩٣.
(٤) ورد قوله في: تفسير السلمي ١/١٨٣، واللمع للطوسي ص٦٨، ونسب لطاهر المقدسي في: التعرف لمذهب التصوف ص٩٣.
(٥) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٢٦٩، واللمع للطوسي ص٦٩، ونسب لبُنان الحمَّال في: تفسير السلمي ٢/٦٩، وتهذيب الأسرار ص٩٧، وسنن المهتدين في مقامات الدين ص٣٥.
(٦) الرسالة القشيرية ١/٢١٢.
(٧) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٢٦٩، وتفسير الملا علي القاري ٥/١٨٢، وعرائس البيان ٣/٤٣٧.

صَاحِبِهَا أثرًا مِنَ المَعْصِيَةِ، سِرًّا وَلَا جَهْرًا، وَمَنْ كَانَتْ تَوْبَتُهُ نَصُوحًا لَا يُبَالِي كَيْفَ أَمْسَىٰ وَأَصْبَحَ».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا بالنِّسبةِ إلىٰ معصيةٍ[1] واحدةٍ، وهيَ الَّتِي تابَ عنهَا، سواءٌ كانَتْ[2] معصيةَ قلبٍ أو معصيةَ جوارحَ؛ لأنَّا لا نشترطُ فِي صِحَّةِ التَّوبةِ التَّوبةَ من سائرِ المعاصِي، بلْ تصحُّ التَّوبةُ من بعضِ الذُّنوبِ دونَ بعضٍ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: **«سَمِعْتُ الشَّيخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الفَضْلِ الهَاشِمِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الرُّومِيِّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ يَحْيَي بْنَ مُعَاذٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ[4]: إِلَهِي؛ لَا أَقُولُ: تُبْتُ[5]، وَلَا أَعُودُ؛ لِمَا أَعْرِفُ مِنْ خُلُقِي، وَلَا أَضْمَنُ تَرْكَ الذُّنُوبِ؛ لِمَا أَعْرِفُ مِنْ ضَعْفِي، ثُمَّ إِنِّي أَقُولُ: لَا أَعُودُ؛ لَعَلِّي أَنْ أَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَعُودَ».**

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفقَّكَ اللهُ ـ حذَّرَ[6] منَ التَّحكُّمِ علىٰ اللهِ ممَّا تابَ منهُ فيمَا تتَّقيهِ، فإنَّ قولَهُ: «**إلَهِي لا أقولُ: تُبْتُ ولا أعودُ**»، هذَا تحكُّمٌ لكونِهِ لا [١٥٩/١أ] يعودُ، ومَنْ لهُ بذلِكَ، ولذلكَ قالَ: «**لِمَا أعرفُ مِنْ خلُقِي ولا أضمنُ تركَ الذُّنوبِ**»، يعنِي: في الاستقبالِ إذا عرضَتْ لمَا أعرفُ مِنْ ضعْفِي، ومعَ ذلكَ أقولُ: «**تُبْتُ ولا أعودُ لعلِّي أموتُ قبلَ أنْ أعودَ**»، وهذا القولُ الآخرُ مَقْرُونٌ برجاءِ الحِفْظِ والعَوْنِ منَ اللهِ ـ سبحانه ـ.

---

(١) في (ب): معصيته، والصواب المثبت.

(٢) في (ب): سواء إن كانت.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢١٢ ـ ٢١٣.

(٤) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٥٦، والغنية للجيلاني ص٢٦٩.

(٥) قصدا للتبرئ من الحول والقوة واتهام النفس بعدم الوفاء. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٨٦.

(٦) في (ب): حذرا، وفي (ج): جُلّ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ ذُو النُّونِ[٢]: الاسْتِغْفَارُ مِنْ غَيْرِ إِقْلَاعٍ تَوْبَةُ الكَذَّابِينَ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا تأديبٌ لمَنْ علِمَ أنَّهُ يكتفِي بِسُؤالِ[٣] المَغْفِرةِ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وهوَ مُقِيمٌ علىٰ الذَّنبِ، فأرادَ أنْ يعرِّفَهُ أنَّ هذا لا يكفِي وإنْ كانَ فيهِ أجرٌ[٤]، ولا بُدَّ منَ الإقلاعِ، وإلَّا[٥] كانَ كذبًا إنْ أرادَ بهِ التَّوبةَ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّصْرَابَاذِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ يَزْدَانْيَارَ[٧] يَقُولُ ـ وَقَدْ[٨] سُئِلَ عَنِ العَبْدِ إِذَا خَرَجَ إِلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ: عَلَىٰ أَيِّ أَصْلٍ يَخْرُجُ؟ فَقَالَ: عَلَىٰ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَىٰ مَا مِنْهُ خَرَجَ، وَلَا يُرَاعِي غَيْرَ مَنْ إِلَيْهِ خَرَجَ، وَيَحْفَظُ سِرَّهُ عَنْ مُلَاحَظَةِ مَا تَبَرَّأَ مِنْهُ.

فَقِيلَ لَهُ: هَذَا حُكْمُ مَنْ خَرَجَ عَنْ وُجُودٍ، فَكَيْفَ حُكْمُ مَنْ خَرَجَ عَنْ عَدَمٍ؟ فَقَالَ: وُجُودُ الحَلَاوَةِ فِي المُسْتَأْنَفِ عِوَضًا عَنِ المَرَارَةِ فِي السَّالِفِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا إنَّمَا يكملُ فِي حَقِّ مَنْ تَرَكَ الدُّنْيَا زُهْدًا وخرجَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢١٣/١.

(٢) نسب إليه في: شعب الإيمان ٤٣٥/٥، والآداب الشرعية ١١٥/١، ونسب للفضيل بن عياض في: إحياء علوم الدين ٣١٣/١، والأذكار للنووي ص٣٢٣، وورد بلا نسبة في: تفسير السلمي ٣١٢/١.

(٣) في (ب): سؤال.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٣٥١/٢.

(٥) في (ب): وإن، والصواب المثبت.

(٦) الرسالة القشيرية ٢١٣/١.

(٧) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٧٥٩/٢، وعيوب النفس ص١٠.
وابن يَزْدَانْيَار هو: أبو بكر الحسين بن علي بن يَزْدَانْيَارَ، من أهل أرمية، له طريقة في التصوف يختص بها.
انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٣٠٦، ومناقب الأبرار ٧٥٧/٢، والكواكب الدرية ٨٠/٢.

(٨) سقط هذا اللفظ من (ب).

عنهَا، فلَمْ يردِ المَعَاصِي، وإنَّمَا أرادَ الاشتغالَ بالدُّنيَا، فسألَهُ عن حكمِ مَنْ خرجَ منَ الدُّنيَا علىٰ أيِّ نيَّةٍ يخرجُ؟ فأخبرَهُ أنَّهُ علىٰ نيَّةِ أنْ لا يرجعَ إلىٰ ما خرجَ عنهُ أبدًا، ولا يُرَاعِي في خروجِهِ غيرَ مَنْ خرجَ لهُ ـ وهوَ اللهُ ـ؛ أيْ: لا يلتفتُ لحمدِ النَّاسِ ولا ذمِّهِمْ، ومِنْ كَمَالِ صِدْقِهِ أنْ يحفظَ سِرَّهُ عنِ الالتفاتِ إلىٰ ما خرجَ عنهُ، فيكونَ قد خرجَ عنهُ ظاهرًا وباطنًا، فقيلَ لهُ: «**هذَا حكمُ مَنْ خرجَ عن وجودٍ**»، يعنِي عن مالٍ، فمَا حكمُ مَنْ خرجَ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ولمْ يكنْ ذا مَالٍ؟! فقالَ: دليلُ صدقِهِ في خروجِهِ وجودُ الحلاوةِ فيمَا يستقبلُ منَ الزَّمانِ بفقرِهِ، كمَا كانَ يجدُ المَرارةَ قبلَ ذلكَ؛ لضيقِهِ كمَا قيلَ(١):

إذَا افْتَقَرُوا عَضُّوا علَىٰ الفَقْرِ ضِنَّةً ❁ وَإِنْ أَيْسَرُوا عَادُوا سِرَاعًا إِلَىٰ الفَقْرِ(٢)

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٣): «**وَسُئِلَ البَوْشَنْجِيُّ** رَحِمَهُ اللهُ **عَنِ التَّوْبَةِ فَقَالَ**(٤): **إذَا ذَكَرْتَ الذَّنْبَ ثُمَّ لَا تَجِدُ حَلَاوَتَهُ عِنْدَ ذِكْرِهِ فَهُوَ التَّوْبَةُ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ كمالِ صِدْقِهِ في كراهتِهِ لمخالفةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ [١/١٥٩ب]، وكمالِ ندمِهِ علىٰ ما كانَ منهُ، فإذَا خطرَ ببالِهِ ما كانَ فيهِ منَ المخالفاتِ وجدَ الألمَ بقلبِهِ علىٰ مَا كانَ فيهِ بدلَ ما كانَ يجدُهُ وقتَ تعاطيهِ، بل زادَ بعضُهُمْ: وأثَّر ذلكَ فِي ظاهرِهِ فمرَّ بموضعٍ فغُشِيَ عليهِ فيهِ وسقطَ إلىٰ الأرضِ، فلمَّا أفاقَ سُئِلَ عن ذلكَ، فقالَ(٥): هذا الموضعُ كنتُ عصيتُ اللهَ فيهِ، وهذَا إنَّمَا

---

(١) من الطويل، وورد بلا نسبة في: عيون الأخبار ١/٣٥٤، والمجالسة وجواهر العلم ص٢٧٤، والدر الفريد وبيت القصيد ٢/٢٩٥.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٥١.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢١٣.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٨١٨.

(٥) انظر: المجالسة وجواهر العلم ص٢٨١.

يكملُ بكمالِ المعرفةِ بجلالِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ودوامِ مُرَاقَبَتِهِ والاستحياءِ منهُ، فإذا وصلَ العبدُ إلىٰ هذهِ المنزلةِ جرتْ[1] عليهِ آثارُهَا[2].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «**وَقَالَ ذُو النُّونِ**[4]: **حَقِيقَةُ التَّوبَةِ: أَنْ تَضِيقَ عَلَيْكَ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ**[5] **حَتَّىٰ لَا يَكُونَ لَكَ قَرَارٌ، ثُمَّ تَضِيقَ عَلَيْكَ نَفْسُكَ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ فِي كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ:** ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨]».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تكرَّرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّهُم يُرِيدُونَ بالحَقِيقَةِ: غَلَبَةَ الأَحْوَالِ، كمَا قَالَ حَارِثَةُ لمَّا سألَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[6]: «كَيْفَ أَصْبَحتَ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، قَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً فَمَا حَقِيقَةُ إِيْمَانِكَ؟ فَقَالَ: عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا فَاسْتَوَىٰ عِنْدِي ذَهَبُهَا وَمَدَرُهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا وَإِلَىٰ أَهْلِ الجَنَّةِ فِي الجَنَّةِ يَتَنَعَّمُونَ وَإِلَىٰ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ يَتَعَاوُونَ، فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: عَرَفْتَ فَالْزَمْ»، فلمَّا كانَ الإيمانُ هوَ التَّصديقَ بمَا جاءَتْ بهِ الأنبياءُ، وحقارةِ الدُّنيا، وذِكْرِ الجنَّةِ والنَّارِ وبُروزِ العرشِ يومَ القيامةِ، والفصْلِ بينَ الخلائقِ، وكانَتْ حقيقةُ هذَا الإيمانِ غلبةً متعلِّقةً علىٰ القلبِ حتَّىٰ كأنَّهُ يشاهدُهُ[7] ببصرِهِ[8].

---

(١) في (ب): حزن، والصواب المثبت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٥١.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢١٣.

(٤) ورد قوله في: طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب ص١٠٥.

(٥) أي: تضيق عليك أرض الطبيعة البشرية الشهوانية مع رحبها وسعتها، حتىٰ لا يكون لك قرار تسكن إليه، ثم تضيق عليك نفسك الحيوانية بغلبة اللطيفة الإنسانية عليها. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٨٨.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) في (ج): يشاهد.

(٨) في (ب): حتىٰ شاهده ببصره.

وكذلِكَ[١] مَنْ عرَفَ عظمةَ ربِّهِ وأنَّهُ عصاهُ بركوبِ نهْيهِ ومخالفةِ أمْرِهِ، ولا يَدْرِي أَغُفِرَ لهُ ذلكَ أمْ لَا؟ فلذلِكَ تضيقُ عليهِ الأرضُ بمَا رحُبَتْ، ولا يبقَىٰ لهُ قَرَارٌ، ويتسبَّبُ في خَلاصِهِ من جُرْمِهِ، يتوسَّطُ كلَّ مَنْ يعرفُهُ منَ الأخيارِ، وتضيقُ نفسُهُ لمَا صحَّ عنِ[٢] الثَّلاثةِ في الأخبارِ[٣]، هذا معنَىٰ حقيقةِ التَّوبةِ لمَّا سُئِلَ عنهَا أخبرَ بغلبةِ أحوالِهَا علىٰ قَلْبِ التَّائبِ ولمْ يُرِدْ حقَّ التَّوبةِ، بل أرادَ حقيقتَهَا.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ[٥]: التَّوبَةُ[٦] تَوْبَتَانِ: تَوْبَةُ الإِنَابَةِ[٧]، وَتَوْبَةُ الاسْتِجَابَةِ[٨]؛ فَتوبَةُ الإِنَابَةِ أَنْ يَتُوبَ العَبْدُ خَوْفًا مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَتَوْبَةُ الاسْتِجَابَةِ أَنْ يَتُوبَ حَيَاءً مِنْ كَرَمِهِ [١/١٦٠أ]».

۞ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا قريبٌ؛ فإنَّ التَّوبةَ والإنابةَ والأوبَةَ هيَ الرُّجُوعُ إلىٰ اللهِ - تعالىٰ - إنْ كانَ الحاملَ عليهَا خوفُ العِقَابِ كانَتْ واجبةً، وإنْ كانَ الغَالبَ عليهَا الحياءُ مِنَ العِتابِ أوْ خوفُ طولِ الحِسَابِ كانَتْ دونَ ذلكَ، وكانَ صاحبُهَا أعلَىٰ درجةً، وإنْ كانَ الحاملَ عليهَا الحياءُ مِنْ ربِّ الأربابِ كانَتْ مَنْدُوبةً، وقد تقدَّمَ[٩] أنَّ الأوبةَ توبةُ الأنبياءِ، والإنابةَ توبةُ الأولياءِ، والتَّوبةَ لأهلِ المَعَاصِي، واستدلَّ علىٰ ذلكَ قائلُهُ بقولِهِ - تعالىٰ -: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا

---

(١) في (ج): ولذلك.

(٢) في (ب): من.

(٣) أي: الذين خلِّفوا. انظر: تفسير الطبري ١١/٢١، ومعاني النحاس ٣/٢٦٤، وتفسير الثعلبي ٥/١٠٥.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢١٣.

(٥) ورد قوله: تهذيب الأسرار ص٩٥، والغنية للجيلاني ص٢٦٩، والمختار من مناقب الأخيار ١/٢٠٨، ونشر المحاسن الغالية ص١٢٥، وسنن المهتدين ص٣٣.

(٦) سقط من (ب) قوله عبارة: «بل أراد حقيقتها، قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَقَالَ ابْن عَطَاء: التوبة».

(٧) سميت بذلك؛ لافتقارها إلىٰ الإنابة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

(٨) سُمِّيت بذلك؛ لاقترانها بالقُرْبِ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

(٩) ص٧٣٧.

أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، وفي الدَّرجةِ الثَّانيةِ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ [الروم: ٣١]، وفي الثَّالثةِ: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وهذا كلُّهُ قريبٌ على حسبِ الاصطلاحِ، وقد قالَ النَّبيُّ ﷺ[(١)]: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»، وفي الخبرِ الصَّحيحِ: أَنَّهُ كانَ يُسْمَعُ من النَّبيِّ ﷺ في المجلسِ الواحدِ[(٢)]: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»، وهذا لا يصحُّ أنْ يكونَ عنِ الذُّنوبِ، فإنَّهُ مُنَزَّهٌ عن كبيرِهَا إجماعًا، وعن صغيرِهَا على الصَّحيحِ، وإنَّمَا ذكرَهُ على وجهِ العبادةِ[(٣)]، وقدْ أطلقَ لفظَ التَّوبةِ، وقيلَ[(٤)]: إنَّمَا كانَ يستغفرُ، وسألَ التَّوبةَ لأُمَّتِهِ لكمالِ اهتمامِهِ بهِ ﷺ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٥)]: «وَقِيلَ لِأَبِي حَفْصٍ[(٦)]: لِمَ يَبْغَضُ التَّائِبُ الدُّنْيَا؟ قَالَ: لِأَنَّهَا دَارٌ بَاشَرَ فِيهَا الذُّنُوبَ.

فَقِيلَ لَهُ: فَهِيَ أَيضًا دَارٌ [كَرَامَةٍ][(٧)] أَكْرَمَهُ اللهُ ـ سبحانه ـ فِيهَا بِالتَّوبَةِ! ، فَقَالَ: إِنَّهُ مِنَ الذَّنْبِ عَلَى يَقِينٍ، وَمِنْ قُبُولِ التَّوْبَةِ عَلَى خَطَرٍ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وبُغضُ الدُّنيَا قدْ يكونُ لأوجُهٍ:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٣٢٤/٥ ـ حديث رقم (٥٩٤٨) بلفظ: «والله إني لَأَسْتَغْفِرُ الله وَأَتُوبُ إليه في الْيَوْمِ أَكْثَر من سَبْعِينَ مَرَّةً».

(٣) انظر: فتح الباري ١٠١/١١.

(٤) انظر: عمدة القاري ٢٧٩/٢٢.

(٥) الرسالة القشيرية ٢١٣/١.

(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٩٩، وسنن المهتدين ص٣٧.

(٧) زيادة من (ف).

أَحَدُهَا: ما ذكرَهُ مِنْ أنَّ جمالَهَا ومَا احتوَتْ عليهِ منَ المُشْتَهياتِ[(١)] هوَ الَّذِي أوقعَهُ في المعاصِي والبليَّاتِ، فقدْ يبغضُهَا لذلكَ.

و[**الثَّانِي**]: قَدْ يَبْغضُهَا لاستنقاصِ اللهِ - تعالىٰ - لهَا، وبغضِهِ إيَّاهَا وذمِّهَا علىٰ لسانِ رسولِهِ بقولِهِ ﷺ[(٢)]: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةً»، وأَخْذِهِ ﷺ بإذنِ الجَدْيِ الأسكِّ[(٣)] الميِّتِ وقولِهِ للصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ[(٤)]: «مَنْ يَأْخُذُ هَذَا بِدِرْهَمٍ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ فِيهِ عَيْبُ كَوْنِهِ أَسَكَّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلدُّنْيَا عَلَىٰ اللهِ [١/١٦٠ب] أَهْوَنُ مِنْ هَذَا عَلَيْكُم»، فَمَنْ عَرَفَ حقريَّةَ[(٥)] الدُّنْيَا وَنَقْصَهَا وَقِلَّةَ وَزْنِهَا عِنْدَ اللهِ كَرِهَهَا وَوَافَقَ اللهَ - تعالىٰ - فِي الإعراضِ عنهَا.

وَالوَجْهُ الثَّالِثُ: أنَّ خيرَهَا مَمْزُوجٌ بشرٍّ، وفرحَهَا ممزوجٌ بترَحٍ، وسُرُورَهَا ممزوجٌ بحزنٍ، وأكثرُ النَّاسِ ملكًا لهَا أشدُّ عذابًا فيهَا، فالخليفةُ إذا كانَ عادلًا احتاجَ إلىٰ النَّظرِ في جميعِ بلادِ الإسلامِ ومَنْ يُولي عليهِمْ حفظَ أموالِهِمْ وأبدانِهِمْ، ودَفْعَ الشُّرورِ عنهُمْ ومحاربةَ أعدائِهِمْ، وكفَىٰ بهذا شغلًا حتَّىٰ لا يتفرَّغَ لنفسِهِ وأعمالِهِ

---

(١) في (ج): المشهيات، والصواب المثبت.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الأسك: صغير الأذن، أو عديمها، أو مقطوعها. انظر: مرقاة المفاتيح ٩/٣٥١.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٢٧٢ ـ حديث رقم (٢٩٥٧)، بلفظ: «عن جَابِرِ بن عبد اللهِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلًا من بَعْضِ العَالِيَةِ وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ، فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قال: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هذا له بِدِرْهَمٍ؟ فَقَالُوا: ما نُحِبُّ أَنَّهُ لنا بِشَيْءٍ وما نَصْنَعُ بِهِ، قال: أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ، قالوا: والله لو كان حَيًّا كان عَيْبًا فيه؛ لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وهو مَيِّتٌ؟! فقال: فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ علىٰ اللهِ من هذا عَلَيْكُم».

(٥) في (أ): حقرة، والأصح المثبت، ففي اللسان «حقر»: «الحقر في كل المعاني: الذلة، حقر يحقر حقرًا وحقرية».

الخصِّيصةِ بهِ، وأكثرُ النَّاسِ فيهَا راحةً أزهدُهُمْ فيهَا، وأقلُّهُمْ رغبةً.

وقولُهُ: «لِمَ يَكْرَهُ التَّائِبُ الدُّنيا؟ قالَ: لأنَّهُ باشرَ فيهَا المَعَاصِي»، فذكرَ بعضَ أسبابِ الكَرَاهَةِ، فقالَ لهُ: «فإنَّهُ باشرَ فيهَا التَّوبةَ»، يَعْنِي[1]: تِيبَ عليهِ فيهَا فَلِمَ لا يحبُّهَا؟ قالَ: «لأنَّهُ مِنْ مَعْصِيتِهِ علىٰ يَقِينٍ، ومِنْ قَبُولِ توبتِهِ علىٰ خَطَرٍ»، فإنْ أرادَ بالقبولِ: العفوَ عنِ الزَّلَّاتِ الَّتِي تابَ منهَا توبةً صحيحةً، فهوَ صحيحٌ، وإنْ كانَ عندَهُ شكٌّ هلْ أوقَعَ توبتَهُ علىٰ شروطِهَا الواجبةِ لهَا فهوَ علىٰ خطرٍ[2]؟، وإنْ أرادَ بالقبولِ العَفْوَ عمَّا مضَىٰ والثَّوابَ علىٰ توبتِهِ فهوَ تابعٌ لصحَّتِهَا، فإذَا صحَّتْ غفرَ اللهُ ذنوبَهُ من حيثُ الوَعْدُ وأثابَهُ علىٰ توبتِهِ، وهذَا ثابتٌ شَرْعًا.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «**وَقَالَ الوَاسِطِيُّ: طَرَبُ دَاوُدَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ[4] **وَمَا هُوَ فِيهِ مِنْ حَلَاوَةِ الطَّاعَةِ أَوْقَعَهُ فِي أَنْفَاسٍ مُتَصَاعِدَةٍ**[5]**، وَهُوَ فِي حَالَتِهِ الثَّانِيَةِ أَتَمُّ مِنْهُ فِي وَقْتِ مَا سُتِرَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ ما حُكِيَ أنَّ داودَ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ كانَ رتَّبَ لأهلِهِ ونفسِهِ الأورادَ اللَّيلَ والنَّهارَ، فصارَ جميعُ اللَّيلِ والنَّهارِ معمورًا بالطَّاعةِ، فقالَ في مناجاتِهِ[6]: «يَا ربِّ، ما تمرُّ[7] ساعةٌ من ليلٍ أو نهارٍ إلَّا وعابدٌ من آلِ داودَ يعبدُكَ؛ إمَّا يصلِّي، وإمَّا يصومُ، وإمَّا يذكرُكَ».

---

(١) في (أ، ج): معنىٰ، والأصح المثبت.

(٢) لاحتمال عدم قبولها.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢١٤.

(٤) أي: سروره وفرحه من الله. وفي أدب الكاتب ص٢٣: «الطرب: خفّة تصيب الرجل لشدّة السرور، أو لشدّة الجزع»، وكذا في: الصحاح ١/١٧١.

(٥) أي: في حزن طويل.

(٦) ورد في: شعب الإيمان ٥/٤٥٣، وإحياء علوم الدين ٣/٣٧٣.

(٧) في (ب): تم، والصواب المثبت.

وفي روايةٍ أخرَىٰ: عنِ الأحنفِ يرفعُهُ إلىٰ النَّبيِّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ داودَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قالَ[(١)]: «أيْ ربِّ، إنَّ بنِي إسرائيلَ يسألونَكَ بإبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ».

وقالَ محمَّدُ بنُ كعبٍ والمَقْبُرِيُّ في هذا الحديثِ: إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قالَ: إنِّي ابتليتُهُمْ فصبَرُوا، قالَ: أيْ ربِّ، فأنتَ إنِ ابتليتَنِي صبرْتُ، قالَ: أمَا إنِّي ابتليتُهُمْ ولمْ أخبرْهُمْ بأيِّ شيءٍ ابتليتُهُمْ [بهِ][(٢)]، ولا في أيِّ شَهْرٍ ولا في أيِّ يومٍ، وأنَا مُخْبِرُكَ أنِّي ابتليتُكَ [١/١٦١أ] في شهرِكَ هذَا، ثمَّ غدًا بامرأةٍ، فاحذَرْ نفسَكَ[(٣)].

فهذا معنَىٰ طربِ داودَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، فأورثَهُ ذلكَ حزنًا طويلًا، وحالتُهُ في حزنِهِ أتمُّ من حالتِهِ في عبادتِهِ؛ وذلكَ لكمالِ الاجتهادِ ورؤيةِ التَّقصيرِ فيهِ[(٤)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(٥)]: «**وَقَالَ بَعْضُهُم[(٦)]: (تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ عَلَىٰ أَطْرَافِ أَلْسِنَتِهِمْ)، يَعْنِي قَوْلَهُمْ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ[(٧)].**

وَسُئِلَ أَبُو حَفْصٍ عَنِ التَّوْبَةِ فَقَالَ: لَيْسَ لِلْعَبْدِ فِي التَّوْبَةِ شَيْءٌ[(٨)]؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ إِلَيْهِ لَا مِنْهُ[(٩)]».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا[(١٠)] لا اختصاصَ لهُ بالتَّوبةِ، وكذلكَ سائرُ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/٣٤٢.

(٢) زيادة من (ب).

(٣) ورد في: إحياء علوم الدين ٣/٣٧٣، وتفسير السمعاني ٤/٤٣٣.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٥٣.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢١٤.

(٦) نسب لرابعة العدوية في: تهذيب الأسرار ص٩٥.

(٧) أي: من ذنبي من غير إقلاع عنه.

(٨) أي: تأثير.

(٩) أي: لا ناشئة منه كسائر الطاعات، فإن الله هو المُوفق لها.

(١٠) سقط هذا اللفظ من (ب).

الطَّاعاتِ، فاللهُ ـ تعالىٰ ـ هوَ المُوفِّقُ لهَا والمُعِينُ عليهَا، وإنَّمَا جرَىٰ هذا منهُ مجرَىٰ التَّأديبِ لمَنْ رآهُ يتمسَّكُ بأعمالِهِ، ويرىٰ نفسَهُ فيهَا وينسَىٰ مِنَّةَ ربِّهِ، فأرادَ أنْ ينقلَهُ إلىٰ أنَّ الخيرَ كلَّهُ بيدِ اللهِ، فتضرَّعْ لهُ وَسَلْهُ[١] التَّوبةَ يمنُّ عليكَ بهَا، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ [التوبة: ١١٨]، أيْ: عادَ عليهِمْ برحمتِهِ وتَوفيقِهِ للتَّوبةِ فتَابُوا[٢].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقِيلَ**[٤]: **أَوْحَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ إِلَىٰ آدمَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **يَا آدمُ، وَرَّثْتَ ذُرِّيَّتَكَ التَّعَبَ وَالنَّصَبَ وَوَرَّثْتُهُمُ التَّوْبَةَ**[٥]**، مَنْ دَعَانِي مِنْهُم بِدَعْوَتِكَ لَبَّيْتُهُ كَتَلْبِيَتِكَ**[٦]**، يَا آدمُ، أَحْشُرُ التَّائِبِينَ مِنَ القُبُورِ مُسْتَبْشِرِينَ ضَاحِكِينَ وَدُعَاؤُهُمْ مُسْتَجَابٌ**».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ تحريضٌ علىٰ الحملِ علىٰ التَّوبةِ، وأنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ تفضَّلَ علىٰ ذريَّةِ آدمَ كما تفضَّلَ عليهِ، فمَنْ دعاهُ بالتَّوبةِ وسألَهُ إيَّاهَا تابَ عليهِ، ويعضِّدُ ذلكَ ما في آخرِ الكلامِ مِنْ قولِهِ: «**وَأَحْشُرُ التَّائِبِينَ مُسْتَبْشِرِينَ ضَاحِكِينَ**» لِمَا مَنَّ عَلَيْهِم بِهِ مِنْ فَضْلِهِ وإِحْسَانِهِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٧]: «**وَقَالَ رَجُلٌ لِرَابِعَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[٨]: **إِنِّي قَدْ أَكْثَرْتُ مِنَ**

---

(١) في (ج): واسأله.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٥٣.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢١٤.

(٤) ورد في: قناطر الخيرات ٢/١٨٣، ونزهة المجالس ومنتخب النفائس ٢/٤٠.

(٥) في نتائج الأفكار ٢/١٩٠: «في ذلك بشرىٰ لذريته بثبوت مثل حظه لهم».

(٦) أي: أجبته إليها كما أجبتك.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٢١٤.

(٨) ورد قولها في: تهذيب الأسرار ص٩٧.

الذُّنوبِ وَالمَعَاصِي فَلَوْ تُبتُ هَلْ يَتوبُ عَلِيَّ ؟! فَقالَتْ: لا ، بَلْ لَوْ تابَ عَلَيكَ[(١)] لَتُبْتَ[(٢)]».

❊ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: فقولُها: «لا» ليسَ نفيًا للتَّوبةِ إذا صحَّتْ من التَّائبينَ ، فإنَّ اللهَ - تعالى - وعدَ قبولَ التَّوبةِ ممَّنْ تابَ ، فقالَ - تعالى -: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] ، ومرادُها: ألَّا تقفَ معَ كَسْبِكَ ، وانظُرْ إلى عَوْنِ ربِّكَ في سائرِ تَصرُّفاتِكَ يُثْمِرُ لكَ ما تُرِيدُ.

❊ قالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ[(٣)]: «واعْلَمْ أَنَّ اللهَ - سبحانه - قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ، وَمَنْ قَارَفَ الزَّلَّةَ فَهُوَ مِنْ خَطئِهِ[(٤)] عَلَى يَقِينٍ ، فَإِذَا تَابَ فَإِنَّهُ مِنَ القُبُولِ عَلَى شَكٍّ ؛ لا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مِنْ شَرْطِهِ وَحَقِّهِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَحِقًّا لِمَحبَّةِ الحَقِّ [١/١٦١ب] ، وَإِلَى أَنْ يَبْلُغَ العَاصِي مَحلًّا يَجِدُ فِي أَوْصَافِهِ أَمارَةَ مَحبَّةِ اللهِ - تعالى - إِيَّاهُ مَسافَةٌ بَعِيدَةٌ.

فَالوَاجِبُ إِذًا عَلَى العَبْدِ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ ارْتَكَبَ مَا تَجِبُ عَنْهُ التَّوْبَةُ دَوامُ[(٥)] الانْكِسَارِ ، وَمُلازَمَةُ التَّنَصُّلِ وَالاسْتِغْفَارِ ؛ كَمَا قَالُوا: اسْتِشْعَارُ الوَجَلِ إِلَى الأَجَلِ ، وَقَالَ - عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ، وَكَانَ مِنْ سُنَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَوامُ الاسْتِغْفَارِ ، وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللهَ فِي اليَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً».

❊ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: قولُهُ - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾

---

(١) أي: وفقك للتوبة.

(٢) مصداقًا لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨].

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢١٤.

(٤) في (ب): خطابه ، والصواب المثبت.

(٥) في (ب): ودوام.

ينطلقُ علىٰ التَّوبةِ منَ الكفرِ ومن كبائرِ الذُّنوبِ، وكذلكَ التَّوبةُ المَنْدُوبَةُ الَّتِي ذكرْنَاهَا؛ لأنَّ المحبَّةَ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ للعبدِ هوَ أنْ يفعلَ بهِ أفعالَ المَحْبُوبِينَ، ومَنْ خلقَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لهُ الإيمانَ بدلًا منَ الكفرِ فقدْ أحبَّهُ، وكذلكَ الطَّاعاتُ بدلًا منَ المَعَاصِي، وكذلِكَ الحفظُ بدلًا مِنَ الغَفلاتِ والاشتغالِ بالبطالاتِ.

وإنَّمَا أرادَ الإمامُ أنْ يحرِّضَ العبدَ بعدَ تحصيلِ التَّوبةِ عنِ المحرَّماتِ علىٰ الاشتغالِ بكمالِ الطَّاعاتِ ورفيعِ الدَّرجاتِ؛ لينالَ المحبَّةَ الخاصَّةَ للأولياءِ والمقرَّبينَ، كمَا قالَهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ لسانِ نبيِّهِ ﷺ(١): «مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيهِم، وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَيَدًا وَمُؤَيِّدًا»... الحديث، فأرادَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفعَ همَّتَهُ وتحريضَهُ علىٰ نقلِ أرفعِ المقاماتِ من ربِّهِ، وكذلكَ قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فهوَ تحريضُ علىٰ اتِّباعِ النَّبيِّ ﷺ فيمَا كانَ فيهِ منَ الزُّهدِ في الدُّنيَا وكمالِ الاشتغالِ بطاعةِ اللهِ، ويكونُ العبدُ معَ كمالِ اجتهادِهِ مستقلًا لأعمالِهِ وَجِلًا مِنْ عدمِ صلاحيَّتِهَا في القُربَةِ إلىٰ ربِّهِ، ويكونُ ذلكَ حالهُ إلىٰ حينِ مَوتِهِ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وقالَ بعضُهُم: «**استشعارُ الوَجَلِ**(٢) **إلىٰ الأجَلِ**».

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «**سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَهْلٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ يَحْيَي بْنَ مُعَاذٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ**(٤): **زَلَّةٌ وَاحِدَةٌ بَعْدَ التَّوْبَةِ**(٥) **أَقْبَحُ مِنْ**

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) أي: الخوف مستمر.
(٣) الرسالة القشيرية ١/٢١٤.
(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٢٧٧.
(٥) لأن المنع بعد ذوق لذة العطاء أضر من المنع ابتداءً وأقبح.

سَبْعِينَ قَبْلَهَا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [١٦٢/١أ]: وهذَا إنَّمَا كانَ لورودِ الفِعْلِ القبيحِ منَ العَالِمِ بكمالِ قُبْحِهِ عندَ ربِّهِ ومعرفتِهِ بجلالِ النَّاهِي عنهُ، ومِنْ هذا القبيلِ كانَ عذابُ العالِمِ أشدَّ مِنْ عذابِ الجاهِلِ[(١)]، وإلَّا مَنِ استوَتْ أحوالُهُ في معرفتِهِ بربِّهِ وقدَّرَ وعيدَهُ ووعدَهُ فلَا يَتَفاوتُ الذَّنبُ بالنِّسبةِ إلىٰ مَا قَبْلَ التَّوبةِ وبَعْدَهَا، والغَالِبُ هوَ الحَالُ الأوَّلُ.

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الرَّازِي يَقُولُ[(٣)]: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥]، قَالَ: رُجُوعُهُمْ وَإِنْ تَمَادَىٰ بِهِمُ [الخذلانُ و][(٤)] الجَوَلَانُ فِي المُخَالَفَاتِ[(٥)].

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَمْرٍو الأَنْمَاطِيَّ يَقُولُ[(٦)]: رَكِبَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَي الوَزِيرُ فِي مَوْكِبٍ عَظِيمٍ، فَجَعَلَ الغُرَبَاءُ يَقُولُونَ: مَنْ هَذَا؟ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَتِ امْرَأَةٌ قَائِمَةٌ عَلَىٰ الطَّرِيقِ: إِلَىٰ مَتَىٰ تَقُولُونَ: مَنْ هَذَا؟ مَنْ هَذَا؟ هَذَا عَبْدٌ سَقَطَ مِنْ عَيْنِ اللهِ - تعالىٰ - فَابْتَلَاهُ اللهُ بِمَا تَرَوْنَ!.

فَسَمِعَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَىٰ ذَلِكَ فَرَجَعَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ، وَاسْتَعْفَىٰ مِنَ الوِزَارَةِ، وَذَهَبَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٣٥٥/١.

(٢) الرسالة القشيرية ٢١٥/١.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٣٨١/١، ومرآة الزمان في تواريخ الأعيان ٣٨٥/١٦.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) أي: الطواف في المخالفات للأوامر.

(٦) ورد قوله في: تاريخ دمشق ١٢٤/٤٣، وروض الرياحين ص٢٦١، ومرآة الجنان ٤٤٨/١، ٣١٧/٢.

إِلَىٰ مَكَّةَ وَجَاوَرَ بِهَا».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: **فَفِي الحكايةِ الأُولَىٰ** حَضٌّ علىٰ التَّوبةِ اختيارًا؛ وهيَ الرُّجوعُ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فإنَّهُمْ إنْ لمْ يرجعُوا إليهِ اختيارًا رجعُوا إليهِ اضطرارًا يومَ القيامةِ، وهوَ معنَىٰ قولِهِ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

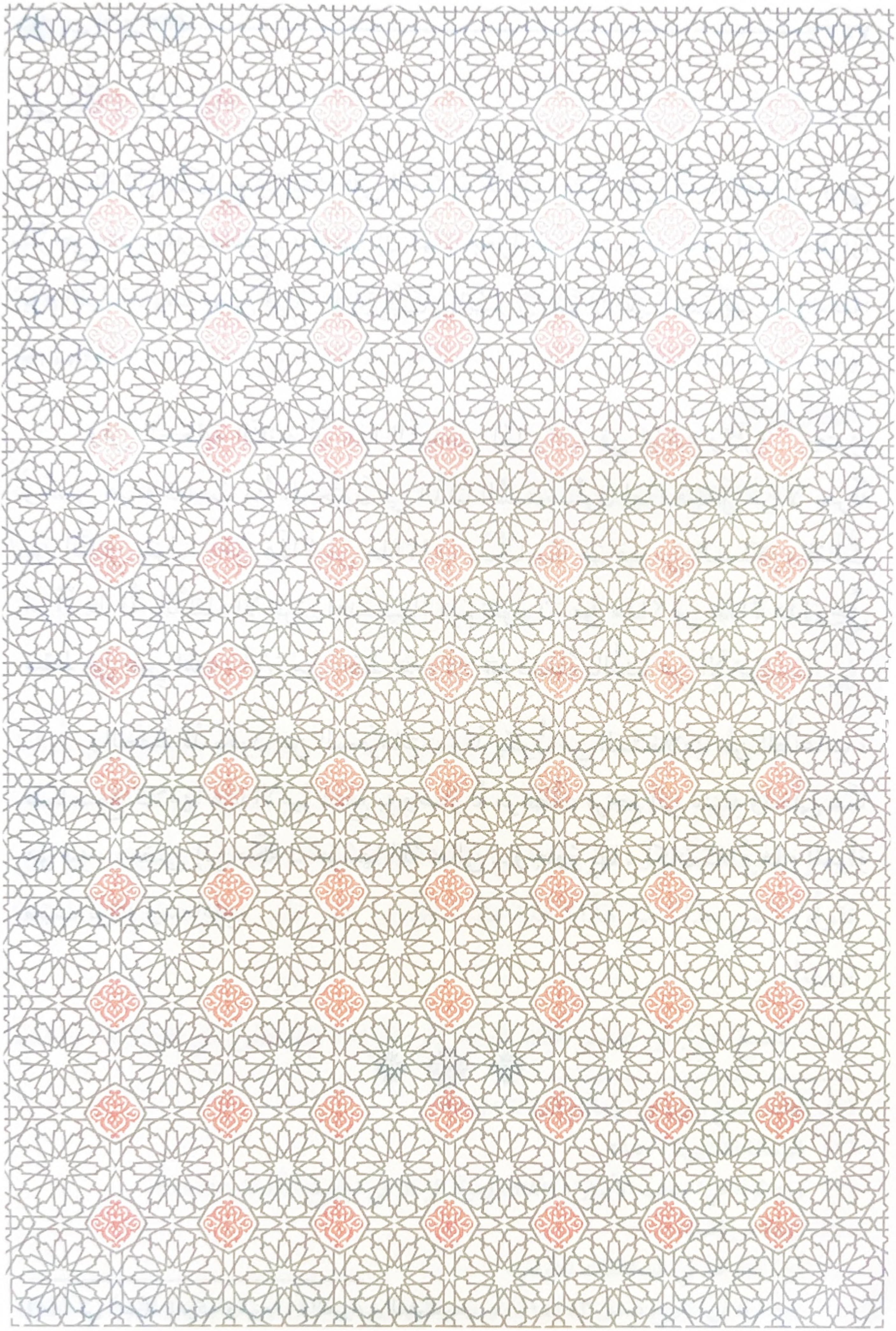
وفِي الحكايةِ الثَّانيةِ أنَّ هذَا الشَّخصَ لمَّا ركبَ في مَوْكِبِهِ وكثرةِ[١] جنودِهِ وحُسنِ هيئتِهِ فعجبَ منهُ المحبُّونَ في الدُّنيَا المُستحسنُونَ لهَا، فجعلَ مَنْ لَا يعرفُهُ مِنَ النَّاسِ يقولُ: «**مَنْ هذا؟ مَنْ هَذَا؟!**»؛ تعجُّبًا ممَّا هوَ فيهِ منَ المملكةِ، فقالَتِ امرأةٌ عارفةٌ بالدُّنيَا والآخرةِ زاهدةٌ فيهَا: «**لِمَ تقولُونَ: مَنْ هذا؟ مَنْ هَذَا؟ هذا رجلٌ سقطَ مِنْ عينِ اللهِ**»؛ أيْ: مِنْ حفظِ اللهِ وكَلَاءَتِهِ فشغَلَهُ بالدُّنيَا عنِ الآخرةِ.

والحفظُ قَدْ يكونُ عنِ المحرَّماتِ، وقدْ يكونُ عنِ المشغلاتِ عنِ الطَّاعاتِ، فلمَّا سمعَ كلامَهَا هذَا الأميرُ انتفعَ بهِ وصارَ لهُ موعظةً، فرجعَ إلىٰ منزلِهِ وتخلَّىٰ عمَّا هوَ فيهِ، ومضىٰ إلىٰ مكَّةَ ـ حرَسَهَا اللهُ تعالَىٰ ـ وجاورَ بِهَا، فكانَ كلامُ هذِهِ المرأةِ سببَ تَوبتِهِ وسَعَادتِهِ.

❊ ❊ ❊

---

(١) في (ب): «مركبه وكنزه»، والصواب المثبت.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة